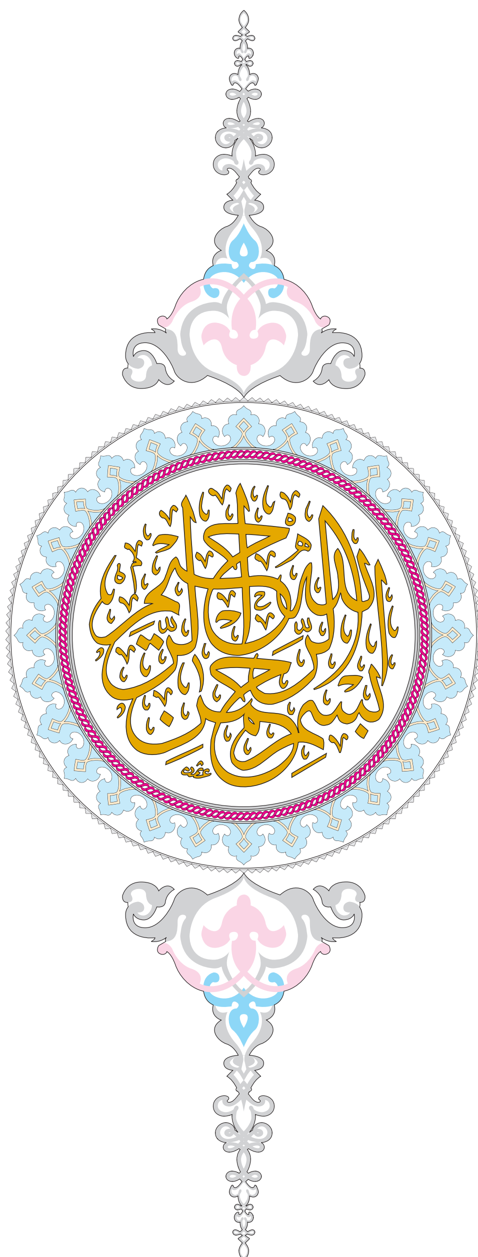
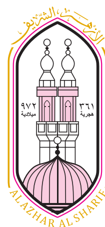




٩


بسم الله الرحمن الرحیم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

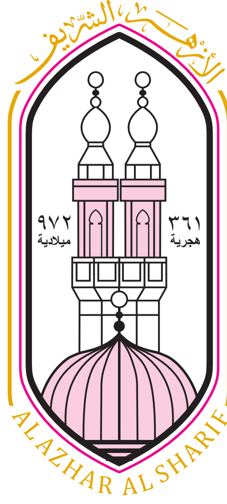
٩

المجلد التاسع

السنة ١٣٥٧هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

بسم الله الرحمن الرحيم

العام الهجرى الجديد

فى هـذا اليوم المبارك الذى تبتدىء فيه سنة هجرية جديدة ، تتقدم مجلة الأزهر الى العالم الاسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها بالتهنئة ، راجية أن يجعلها الله سنة حافلة باليمن والاقبال ، آهلة بالخـير والجلال ، يسترد فيها المسلمون بجهودهم المتضافرة ، وأعمالهم المتـكافلة ، نصيبا كبيرا من مجد آبائهم الأولين ، ويبنون على آساسهم صرح وجودهم الـكريم .

وإنا لنختص بالذكر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر الفاروق ، فانه بما فطر عليه من السجايا الملـكية الفاضلة ، والمحامد الشريفة الـكاملة ، والسيرة القويمة العادلة ، أصبح مثلا أعلى للمسلمين فى بقاع الأرض كافة ، يترسمون طريقته المثلى فى إعزاز الدين ورفع لوائه ، ويتتبعون خطواته المتزنة فى إحياء الشرع وتأييد رجاله ، فلا مبالغة إن قلنا إن من فضل الله على المسلمين فى هذا العصر ، أن يقيم فى مثابة الاسلام ، ومرجع علومه ، ملـكا من طراز جلالته ، يعيد للدين رونقه الباهر ، ومظهره الزاهر ، فان فى هذا إيقاظا لعاطفة الدين الشريفة فى نفوس الناس ، وتحبيبا لفضائله العالية الى قلوبهم ، وناهيك بهذا من أثر عظيم ، يوليه ملك لشعبه فى مثل هذا العصر الذى اشتد كَلَب الالحاد فيه ، وجرف بالناس الى تياره المردى طوعا وكرها .

إن فى يقظة العاطفة الاسلامية فى نفوس المسلمين خيرا وبركة ، لا عليهم وحدهم ، ولـكن على الناس جميعا ، فان هذا الدين أرسل رحمة للعالمين كافة ، ولم يرسل رحمة للآخذين به خاصة ، فان الجماعات التى تعمل به تقوم على أسمى ما يتصور من أصول الفضائل ، وأكمل ما يعرف من مبادىء المحامد ، فهو دستور خلقى ، وناموس أدبى ، لايتصور أن يوجد له مثيل فى كل ماعرف من الآداب الاجتماعية المتفق عليها بين البشر .

فكما يُطلب من المسلم أن يكون قويا ، يطلب الاسلام اليه أن يكون عادلا رحيما . وكما يراد منه أن يكون سيدا مستقلا ، يريد منه أن يكون إزاء ذلك كريما أريحيا . وكما يُكلف أن يكون ورعا تقيا ، يكلفه أن يـكون رفيقا بمخالفيه فى العقيدة ، مراعيا لحقوق الوطنية إزاءهم ، وكما يُرجى منه أن يـكون عالما حكيما ، يتقاضاه كذلك أن ينشر العلم والحـكمة بين الناس كافة بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم . وهكذا لا يكلف الاسلام أهله بخصلة شريفة ، أو بعزيمة نبيلة ، إلا كلفه أن يـكون أثر ذلك على غيره من أهل ملته وسواهم خيرا وبركة ، لا غشمرة ولا سوء مِلْـكة .

فلا يتوهمن الذين يؤانسون يقظة العاطفة الاسلامية فى نفوس أهلها أن ذلك سيؤديهم الى عدم التسامح ، أو الى التعصب المذموم ضد من لا يؤمن بدينهم ، فإن هذا مما ينافى طبيعة الاسلام ، ويتناقض وتعاليم رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرته الشريفة .

كان النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أول المسلمين ، والقدوة الصالحة لهم ، يكرم من يزوره من أهل الأديان المخالفة لدينه ، ويحسن وفادتهم ، ويخصهم بأحسن الأماكن من مجلسه ، حتى روى أنه بسط عباءته لنصارى نجران وأجلسهم عليها ، وثبت بالتواتر أنه كان يزورهم فى مواسمهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنائزهم ، ويحضر ولائمهم ، وليس وراء هذا مذهب لتسامح مؤسس دين فى العالم . وقد سار على طريقته أصحابه ، والدين فى جدته الأولى ، والنفوس شغوفة به ، ومتحمسة له ، فكان أصحاب الأديان المختلفة آمنين على أموالهم وأنفسهم وأسرهم ومعابدهم وكنائسهم ورجال دينهم ، وهذا ما لم يحدث له مثيل فى أمة من أمم الأرض . فقد شرع الاسلام وجزيرة العرب ، وهى من أقحل بلاد العالم ، فيها من جالية المتدينين يهودا ونصارى عدد ليس بالقليل ، هربوا بدينهم الى تلك البقاع ليأمنوا شر اضطهاد الأمم المتمدنة لهم !

ولكنهم تحت ظلال الاسلام وجدوا من حمايته لهم ، ما جعلهم يتحدثون بفضله عليهم ، وعُرف لهم ما عليه بعضهم من العلم ، فلم يانف المسلمون أن يتلقوه عنهم ، ويتخذوا منهم أطباء لخلفائهم . وقد أثروا وكثروا فلم يرو عنهم ما روى عن إخوانهم فى غير البلاد الاسلامية من مكابدة الارهاق والاعنات والتقتيل والتشريد .

فكيف لا يكون عود المسلمين الى دينهم خيرا وبركة على الناس جميعا ، وكيف لا يكون كل عامل على هذا العود عاملا من عمال البر والسلام للأمم كافة ؟

ولا يجوز أن ننسى ، ونحن نذكر الإسلام والعاملين على إعادة سلطانه ، نصيب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر من هذا العمل العالمى الكريم ، فانه من هذا الأمر روحه المدبر ، ورأسه المفكر ، لما يقوم به من تنظيم معاهد الدين ، وبث حبه فى طلابه ، وما يلقيه من الدروس العامة ، وما يدبجه من الخطب التعليمية المغلغلة ، وما يمثله بأخلاقه وسيرته من فضائل النفس ، كل هذا كان وسيكون له أثر بعيد المدى فى إيجاد العهد الذهبى للإسلام إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

الهجـــرة

سببها – أثرها

الهجرة : اسم للخروج من أرض الى أخرى ، وهى من الهجر بمعنى الترك ، ومنـه قوله صلى الله عليه وسلم : « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . ثم غلب استعمالها على هذا الحادث التاريخى العظيم ، الذى غـيّر وجه البسيطة ، وحوّل اتجاه العالم عن مجارى الشر والشقاء الى سبيل الخير والسعادة ، وأخرجهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد.

ذلك الحادث ، هو انتقال النبى محمد صلى الله عليه وسـلم وصحبه الذين آمنوا به من مكة مهبط الوحى لأول مرة ، الى المدينة مأوى رجال الحلف والمناصرة .

وقد عنى المؤرخون كثيرا وهم يتكلمون على هذا الحادث بتصوير الأذى الذى لحق الرسول عليه السلام وهو فى مكة تصويرا مكّـن لأرباب الهوى الخاص فى الكتابة على (النبى العربى) أن يلبسوا هجرته عليه السلام ثوب الفرار وعدم الصبر والاحتمال فى القيام برسالته ، ولم يتورعوا إمعانا فيما يشتهون أن يطلقوا عليه (النبى الفارّ) . وقد ظنوا أن هـذا الثوب المهلهل الذى خلعوه على هذا الحادث العظيم يستطيع أن يستر الحقيقة التى يحملها ذلك الحادث بين جنبيه ، والتى لم تلبث بعد الوصول الى المدينة أن سطع نورها وانتشر أريجها . فبددت الغشاوة التى وضعها الجهل على العقل البشرى حينا من الزمن .

والواقع أن هذه الهجرة البدنية لم تكن إلا أثرا من آثار هجرة سبقتها ، هى هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة ، وشرائع باطلة ، وعادات لها فى هدم الانسانية ما ليس للمعاول القوية فى تقويض البناء الشامخ العتيد .

نعم : هاجر النبى عليـه السلام وصحبه الذين بادروا بتصـديقه من يوم أن بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا . هاجروا الى التوحيد البرى ، والاخلاص النقى ، والإنابة الحقة ، والتوكل الصحيح ، ومحبة الخـير للخير ، والرجوع بالحول والقـوة الى الله الواحد القهار . هاجروا الى هذه التعاليم السامية التى نهضت بالانسانية من كبوتها ، ورفعتها من حضيض هوت اليه فى جاهليتها ، وذكرتها بانها ما خلقت عبثا ولا باطلا ، ولا لتفسد فى الأرض أو تسفك الدماء ، أو يأكل قويها ضعيفها . ذكرتها بأنها ما خلقت إلا لتكون خليفة عن الله رب العالمين تسبح بحمده وتقدس له ، وتعمل صالحا حتى تسمو بالعالم الى ما يمكن أن يصل اليه من درجات الرشد ومراتب الكمال .

هذا ما هاجر اليه النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه القليل الذى لبى دعوته وهى فى مهدها ،

لا لشيء سوى أنها الحق الذى شرح الصدور ، واستولى على الحواس والأفئدة ، وامتزج بالدماء والأرواح ، فامتلأت النفوس غيرة عليه فى حفظه ونشره ، والعمل بمقتضاه وإسعاد الانسانية به .

رأى هذا النفر القليل الذى أدرك اللذة الروحية من دعوة النبى ، وأدرك أن سعادة العالم متوقفة عليها ، أن مكة وقد تألب أهلها عليهم ، وقلبوا لهم ظهر المجن ، وقعدوا لهم فى كل مرصد ، وتجسسوا عليهم من كل نافذة ، وأذاقوهم من التنكيل صنوفاً وألواناً — لم تعد دار أمن وطمأنينة ، يفسح لهم فيها مجال العمل ، ويتمكنون فيها من تلبية الإيمان والقيام بحقه .

رأوا أن غايتهم التى لها يعملون تنحصر فى توحيد الله والدعوة اليه ، وأن الله الذى وجهوا اليه وجهتهم فاطر السموات والأرض يعبد فى كل مكان : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولُّوا فَثَمَّ وجهُ الله ، إن الله واسع عليم » .

رأوا أن الأرض : منها خبيث مجدب لا يقبل البذر الطيب ولا ينبت النبات الحسن ، ومنها طيب خصب يتشرب ماءه ويمد بذره بقوى الانبات ، ثم لا يزال به حتى ينمو ويثمر : « والبلد الطيب يَخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يَخرج إلا نَكِداً » .

رأوا أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لابد أن يُظهره على الدين كله ، وأنه غالب على أمره : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون » .

رأوا أن استمرارهم على الاقامة بهذا البلد مع هذا الاضطهاد وعدم تهيؤ أهلها للقبول سيقضى لامحالة عليهم وعلى الدعوة التى امتلأت نفوسهم غيرة عليها وحبًّا لها .

رأوا أن جبال مكة وهضابها لم تستطع أن تمنع أريج الدعوة التى آمنوا بها واستعذبوا العذاب والموت فى سبيلها ، من أن يسرى وينتشر خارج مكة ، ويحمله الجلال والجمال ، حتى يقع من المدينة وهم بمكة قائمون « فى بيوت أذِن اللهُ أن ترفع ويذكَر فيها اسمهُ يسبِّح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسنَ ماعملوا ويزيدَهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

رأوا أن هؤلاء الرجال يقتحمون العقبة عن إيمان قوى وحب عميق ، ويمدون اليهم يد البيعة « نريد الوفاء والصدق وبذل المهج دون الرسول ، نخذ لنفسك ولربك ما أحببت ! » فيتم العهد على عبادة الله وحده ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه الأبناء والأعزاء .

رأوا أن سبب النصر بهذا قد تهيأ ، وسبيل العزة والعمل قد تمهد ، فلم يجدوا بداً من ولوج هذا السبيل والتمسك بذلك السبب ، فاتجهوا الى مدينة الحلف ، وتم لهم بفضل الله ماأرادوا .

***

وصل النبي عليه السلام وصحبه الى المدينة . وكان هـذا من أشد ما يتخوفه المشركون ، فقد اجتمع رؤساؤهم وقادة أمرهم فى دار الندوة للتشاور فيما يتخذونه من وسائل القضاء على محمد وصحبه ، حينما سمعوا بنبأ (الحلف) المدنى الذى زعزع ثقتهم بأنفسهم . فقال أحدهم : أخرجوه من أرضكم تستريحوا منه . فرفضوا هـذا الرأى وقالوا : إنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه . وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت . فرفضوا هـذا أيضا وقالوا : إنا إن حبسناه لا يلبث الخبر أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخلوا فى دينه ، يفضلونه على الآباء والأبناء ، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه ، وربما جر هـذا علينا من الحرب ما نحن فى غنى عنه . فقال ثالث : الرأى ، أن نقتله ، ونقتله قتلة لايستطيع بنوأبيه أن يأخذوا بثأره ، خذوا من كل قبيلة شابا ويرقبه الجميع أمام داره ، حتى إذا خرج منها ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها ، ويذهب محمد بالدية . فوقع هذا الرأى عندهم موقع القبول ، وهو آخر ما فى الكنانة من سهام ، وأعدوا له وسائل التنفيذ الممكنة ، ولكن الله الذى تكفل بحفظ محمد ورعايته ، وأنزل عليه فى محكم كتابه : « والله يعصمك من الناس ، إن الله لايهدى القوم الكافرين » أفسد عليهم تدبيرهم وأحبط أعمالهم ، فأصمهم وأعمى أبصارهم ، وأخرج رسوله محوطا بالعزة والكرامة .

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أويقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

وبهذه الهجرة : ترك النبى صلى الله عليه وسلم قلوب قريش تغلى كالمراجل فوق النار المتقدة ، تتبخر منها أفانين الحنق على سهام طاشت ، ومكر ردت نصاله فى نحورهم ، ومكايد ذهبت أدراج الرياح .

وبهذه الهجرة ، أعز الله أولياءه وقوّى شوكتهم ونفخ فيهم من روحه ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا .

بهذه الهجرة آواهم الله الى قوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . آواهم الى قوم هم : أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . آواهم الى قوم : يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

أىّ نصر هذا الذى أيد الله به أولياءه ؟ ذلكم نصر الله الذى وعد ، نصر الله الذى يمنحه

المخلصين من عباده ، نصر الله الذى يهدد به من يخذل دينه ويسلم شرعه لأرباب الهوى والفجور : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفر ثانىَ اثنين ، إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ! فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا »

وأى خذلان هذا الذى حل بالأعداء فأفقدهم رشدهم ؟ ذلك خذلان الله يقرع به قلوب « الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يرَوا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون»

إذاً لم تكن الهجرة فرارا من الأذى ، ولا هربا من التنكيل ، ولا التماسا للرزق ، ولا خورا فى العزيمة ، ولا خوفا من الموت فى سبيل الله ، فقد كانوا يستعذبون الموت فى سبيل الخلود ، ومن استعذب الموت فقد استعذب كل شىء دونه .

إنما هو الايمان بالله يملأ نفس صاحبه عزة وكرامة ، هو الايمان يأبى على صاحبه الخلود الى السكون ، والرضاء بالخنوع تحت سلطان القهر الذى يمنع المرء من الحرية فى تصرفه وإقامة دينه ، والاتصال باخوانه الذين يجب أن يتساند معهم ويكونّ وإياهم وحدة قوية تحمى البيضة ، وتبث الدعوة ، وتنشر العدل ، وتحقق المساواة ، وتدعو الى الخير والسعادة .

الهجرة بهذا أثر من آثار الايمان الكامل ، ولازم من لوازمه البينة ، وليس بمؤمن من يرضى لنفسه الذل والهوان ويقبع فى بلده حرصا على ماله وخوفا على ولده وأهله « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » !

« إن الذين تَوَفّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟ ! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُراغماً كثيرا وسَعة ، ومن يخرجْ من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

لم تكن الهجرة إلا تلبية لواجب الايمان ، والتماسا لوسائل العزة التى يجب أن يكون عليها المؤمنون :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متحول

لم تكن الهجرة إلا نضالا واستعدادا للنضال ، وتحيزا الى فئة أخذت على نفسها العهد والميثاق أن تجاهد مع المهاجرين فى سبيل الله وسبيل دعوته حتى يكون الدين كله لله :

وكل امرئ يُولى الجميلَ محبّب وكل مكان يُنبت العزَّ طيّب

لم يتجه الرسول وصحبه فى هذه الهجرة إلا الى المدينة : طريق أعدائه فى رحلتهم الى الشام . فهلا — إن كانوا فارين — شرّقوا أو غربوا ؟ ! لم يشرّقوا ولم يغربوا ، وإنما قصدوا المدينة ممر القوم ، وقعدوا لهم بالمرصاد ينشرون دعوتهم ويبلغون رسالتهم ، ولم يكد يستقر بهم المقام هناك ويتم بينهم التآخى حتى تهيأوا لمنابذة خصومهم — خصوم الدعوة والدين — وأخذوا يتحرشون بهم فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا .

تضامت الوحدات ، وأخلصت القلوب ، وصفت الأرواح والنفوس ، وعز عليهم ألا ينعم العالم بدين الله الحق . عز عليهم أن يتركوا بمكة نفوسا أقعدها العجز أن تخرج معهم ، فظلوا بين الأعداء يشربون من أيديهم كؤوسا من يَحْموم ، ولا ذنب لهم ولا جريمة إلا أن قالوا : ربنا الله . عز عليهم هذا وذاك ، فأخذوا يتحرشون بالأعداء مرة بعد أخرى حتى تهيأت النفوس للقتال ، وحصلت بين الفريقين مواقع عدة كللت فيها رءوس المؤمنين بتيجان الفتح والنصر المبين .

هذه هى الهجرة فى أسبابها والعوامل التى دفعت بالمؤمنين اليها .

أما الهجرة فى أثرها ، فهى ذلك السلطان الذى استقر ، وهذه الشريعة التى أخذ الوحى ينزل بها من السماء لينظم بها الانسان حياته ، والتى صار بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم مشرعا وحاكما وقائدا ، بعد أن كان بمكة مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله .

هذه الشريعة التى ساد بها المسلمون حينا من الدهر ، وساد بها من غيرهم من التزم أصولها واتبع إرشادها .

هذه هى الهجرة فى أسبابها وآثارها ، فهل لهؤلاء الذين أعمى الله عن الحق بصائرهم أن يراجعوا عقولهم فى هذه الصفحة الخالدة فى تاريخ العزة الانسانية والكرامة البشرية عسى أن يوفقهم الله للحق فيعترفوا به ، ويبسط على قلوبهم من نوره فلا يلبسوه ثوب الباطل المهلهل ؟

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

المجلد التاسع	المحرم سنة ١٣٥٧	الجزء الاول

مدير ادارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الادارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قروش
داخل القطر المصري	٣٠
خارج القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وائمة المساجد والماذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب ومصالح الحكومة ومجالس المديريات ... ... داخل القطر	٢٠
الطلاب وائمة المساجد ... ... خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة الأزهر

١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة السنة التاسعة

الحمد لله الذى وفقنا لحمده ، على مامنحنا من أيده ، وما أمدنا بروح من عنده . والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وصفوة الخلق أجمعين ، محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فاننا نفتتح بهذا الجزء المجلد التاسع لمجلة الأزهر ، راجين أن يحبونا الله عز وجل بمثل ما حبانا به فى السنين الماضية : من القدرة على العمل ، والتوفيق الى الاضطلاع بالمهمة الموكولة الى عهدتنا . فان كنا قد أحسنا فيما سلف فالى الله يرجع الفضل فيه . ولقد عاهدنا الله أن لا ندخر وسعا فى تحرى أكمل الاساليب فى البيان ، وأقوى الاسانيد فى النقل ، وأبعد الخطط عن التجنى فى الحوار ، فلم يحملنا الدفاع عن حقيقتنا الى اللدد فى الخصومة ، ولا الذيادُ عن حياضها الى تجاوز الحد فى الجدل . وها نحن ، وقد استقبلنا عاما جديدا ، نجدد العهد الذى قطعناه على أنفسنا : أن نظل أمناء لهذه الطريقة الاسلامية لا نحيد عنها ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

وقد قام أصحاب الفضيلة العلماء وحضرات الكاتبين الكرام الذين شاطرونا تحمل هذه التبعة بما عهد إليهم ، كل فى الناحية التى اختص بالكتابة فيها ، فاستحقوا تقدير القارئين فى جميع الأقطار التى تصل اليها هذه المجلة .

لقد أثمرغراس هذه المجلة وآتى أكله فى جميع البيئات الاسلامية ، فأصبحت تعتمد عليها فى تعرف حقيقة الدين ، وتبين أدلته وأعلامه ، فقد أخبرنا مندوب مسلمى الصين الذى أشخص الى مصر لتقديم هديتهم لحضرة صاحب الجلالة الملك فى مناسبة زواجه الميمون ، أن علماءهم هنالك يجمعون الناس ويترجمون لهم ما فى مجلة الأزهر من مقالات الدفاع عن الاسلام والتفسير ، وما يرد فيهامن السنة ، وتاريخ أسلافنا الأولين ، فيقبلون هنالك على هذه الدروس ، وينقل ملخصها من شهدها لمن لم يشهدها ، وإنه لنجاح عظيم لمجلة لم تنشأ إلا لهذه الغاية .

لقد دأبنا كما رأى القراء على نشر أصول الاسلام وبيان مبادئه مقرونة بأدلة سلامتها من العوج ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، أدلة منتزعة من الأمور المحسوسة ، ومؤيدة بالبحوث الاجتماعية الحديثة ، وعرضنا للشبهات التى يثيرها على المسلمين بعض دعاة الأديان

فدحضناها دحضا لا قيام لها بعده . ولم نهمل الى جانب هذا نشر فصول من التفسير والسنة النبوية ، ومقالات فى الفلسفة والتاريخ والأدب ، وكل ما لا بد منه لمجلة إسلامية ينشرها الأزهر. وإننا لنعد قراءنا أن نجرى على هذه السنة مع تطلب الأكمل من الأساليب ، والأقوم من السبل ، جريا على سنة الترقى ، إن شاء الله تعالى .

وإننا فى هذا المقام نرى من الواجب علينا التنويه بما يسديه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر لهذه المجلة من الحماية والرعاية ، رغبة منه فى أن تبلغ الغاية فيما أعدت له من الخدمة الاسلامية العامة .

ولقد حظينا فى السنة الماضية بنقل كثير من خطب فضيلته المغلغلة ، وكلماته النابغة ، التى يعنى بها الناس أيما عناية . ونرجو فى هذه السنة أن لا يفوتنا شىء منها ، راجين لفضيلته الصحة والقوة .

وإذا ذكرنا الاسلام والأزهر ، وجب علينا أن لا ننسى ما لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من العمل العظيم فى رفع شأنهما وتأييدهما ، فلقد فاق فى هذا المجال كل ملك تقدمه ، حتى لم يبق مسلم فى الأرض إلا ويحفظ له فى قلبه أخلص الحب ، وأصدق الولاء .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

خطبة الاستاذ الأكبر

فى الاحتفال بعيد الأضحى وعيد الميلاد الملكى

فى الجامع الأزهر الشريف

من التجديدات البعيدة الأثر فى تنبيه العاطفة الدينية الشريفة فى نفوس المسلمين ، ماقام به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، من إلقاء خطبة جامعة يوم عيد الأضحى المبارك ، وقد اتفق أنه كان يوم عيد ميلادحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فهنأ الناس بالعيدين ، وأشاد بذكر حجاج بيت الله الحرام ، وألم بتلك المواقف الكريمة فى تلك الأمكنة المقدسة ، ثم وجه الخطاب لمسلمى الأرض كافة ، وحضهم على التمسك بالدين ، والحذر من المشككين ، وبين من حكم الإسلام وأغراضه الشريفة ما تطمئن به القلوب ، وتنشرح له الصدور ، فى بيان يأخذ بالألباب ، وإلقاء يستهوى الأسماع ، معيدا بذلك عهد الأئمة الأولين ، مما يرجى أن يكون له تأثير عظيم فى جمع كلمة المؤمنين وتقويم شئونهم .

وهذا هو نص تلك الخطبة الممتعة ، قال حفظه الله :

أيها السادة الأعزاء :

كان من المصادفات السعيدة فى هذا اليوم اجتماع عيدين فيه : العيد الإسلامى الأكبر ، عيد الأضحى المبارك ، وعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المحبوب فاروق الأول ، أدام الله له عز الإسلام ، وأعز به الإسلام .

وفى اتحاد العيدين بعد تولية جلالته سلطة الحكم ، رمز الى أن عيد الفاروق عيد إسلامى ، كما أنه عيد وطنى للمصريين جميعهم على اختلاف مللهم ومذاهبهم .

وإن الأزهر الشريف : علماءه وطلابه ، يرفعون فروض الولاء والإخلاص ، وصادق التهنئة بالعيدين ، الى مقام حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، باسطين أكف الضراعة الى الله العلى القدير أن يديم حياته ، وأن يجعلها خيرا وسعادة للإنسانية عامة ، ولدين الإسلام خاصة .

كذلك يبعث الأزهر بتحياته وتهنئته الى إخواننا المسلمين فى مشرق الأرض ومغربها ، لايخص طائفة ولامذهبا ، بل يتوجه الى أهل القبلة عامة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع الدعاء الخالص بأن ينصرهم الله بدينهم ودنياهم ، وأن يدلهم على طريق الحق ، ويقودهم الى طريق الخير ، وأن يؤلف بين قلوبهم ، ويوحد وجهتهم ، ليكونوا تلك الأمة التى وصفها القرآن حيث قال :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسول عليكم شهيدا » « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وأخص بالتهنئة إخوانا كراما هجروا بلادهم وأهليهم فى سبيل الله ، وأجابوا دعوة ابراهيم عليه السلام جد الأنبياء ، وأقبلوا الى البيت فى مكة رجالا وركبانا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، امتثالا لأمر الله ، وطلبا لثوابه ، وابتغاء رضوانه ، أولئك هم حجاج بيت الله ، طهرهم الله من الذنوب والآثام ، وظهروا بمظهر الإخاء الإسلامى والمساواة أمام عزة الله وسلطانه، وتجردوا من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، شعثاً غبرا ، تحييهم الملائكة ، وتبلغهم رسالة الله بالقبول والغفران .

أيها الحجاج ضيوف الله : ما أشد روعتكم وأنتم فى صعيد واحد ، تجأرون بالتلبية ، وتعِجّون بالدعاء ، ثم تفيضون من حيث أمركم الله ، تترطب ألسنتكم بذكر الله كما هداكم ، تشعرون العالم بأن بلاد الإسلام كلها بلد واحد ، وأمم الاسلام كلها أمة واحدة ، تجتمع فى صعيد واحد ، تظللها راية القرآن ، ويقودها أكبر جند الله محمد بن عبد الله الى مواطن الفخر وأماكن العز والمجد ، رضى الله عنكم ، وقبل حجكم ، وأجزل أجركم !

نحن اليوم فى يوم من أيام النحر ، جعله الله عيداً للمسلمين عامة ، ومن حقه فى بادئ الرأى أن يكون عيد الحجاج خاصة ، ابتهاجا بأداء ركن من أركان الاسلام فى أدائه اغتراب ومشقة ، وفرحا بما منحهم الله وأسبغه عليهم من النعم بتطهرهم من المعاصى والآثام . لكن حجاج بيت الله وفود المسلمين الى الله ، وضيوف الله فى بيته ، يمثلون المسلمين كافة ، فبهجتهم بهجة المسلمين ، وفرحهم فرح المسلمين ، فكان لزاما أن يكون العيد عيد المسلمين ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويقدموا لله القربان والضحايا ، ويقيموا ولائم الأفراح للفقراء عيال الله ، مخلصين فى ذلك كله النية لله ، تصحبه التقوى ، وتزينه الطاعة « لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لتكبّروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين »

أيها المسلمون : اذكروا أولئك الاخوان فى الوادى المبارك ، واعتبروا بحالهم ، واثبتوا على دينكم وإن أصابكم المكروه فى سبيله ، واصبروا وصابروا ، وعظموا حرمات الله وشعائره ، واستعينوا بالله وحده لا تشركوا به شيئا . وقد قال الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لَمن ضرُّه أقربُ من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير » . « ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » . « ولينصرنّ اللهُ من ينصره ، إن الله لقوى عزيز »

إخواني : للمبشرين طريقة ماكرة خادعة ، يشككون أولا في صلاحية الدين الاسلامي لعصور المدنية ، ويقولون إن للمدنية والرقي الاجتماعي ضرورات وأحكاما يجب مراعاتها والنزول على مقتضياتها ، ثم ينتقلون من ذلك الى طلب محو آثار العقيدة ومظاهرها وهي الشعائر الاسلامية ، ثم ينتقلون من ذلك الى دعوة المسلمين الى دينهم ، وفي كل خطوة من هذه الخطوات إذا تمت نجاح هو إضعاف العقيدة وسلطان الدين على القلوب ، والتفريق بين قواعد الدين وهو لا يقبل التجزئة ، ومتى جاز اعتراف المسلم بأن بعضه غير صالح جاز اعترافه بأن الكل غير صالح .

والمسلم الذي لا يعترف بأن الدين حق كله وخير كله ، ويقول إن بعض قواعده ضارة بالمجتمع أوضارة بالمدنية أوالسياسة ، مسلم مرتد عن دين الله ، لايقبل الله منه صلاة ولاصوما . هذا حكم الله أجاهر به من هذا المعهد ، ليكون المسلمون على ذكر منه «ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» .

إضعاف سلطان الدين على النفوس والتفريق بين قواعده وانتزاع سلطانه على الحياة الاجتماعية يضعف نفس المسلم ويبعده عن دينه ، ويضعف خلقه ويجعله أهلا للذلة والاستكانة . والمؤمن محكوم له بالعزة من الله «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» . أولئك الذين يحاولون إبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية ، ويحاولون إخفاء شعائره ومظاهره ، هم في الواقع أعداء الاسلام ، لكن هؤلاء الأعداء مهرة في الدعوة الى دينهم ، كما أنهم مهرة في السياسة ، ظلوا خلف الستر وقدموا تلاميذهم من المسلمين ، وفتلوا لهم في الذروة والغارب ، واستعانوا بابليس وجنده . وسوسوا لهم ونفخوا في خياشيمهم ، قالوا لهم : هل ندلكم على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ كونوا أبطال المدنية وقادة الاصلاح في الأمم ، لكن ذلك لا يكون إلا إذا جاهرتم بأن الدين غير صالح للمدنية ؟ وأن نظمه بعيدة عن الاصلاح الاجتماعي ، وأن الأمم المتمدينة لا تحترم من يستمسك بالدين ، فجاهروا بهذا دون استحياء ، وما أولئك المساكين إلا مطايا ذللت وسخرت وروضت ، وما أصواتهم إلا صدى لمعلميهم ومروضيهم وفاتنيهم .

هؤلاء : إما غير مسلم يدعو الى دينه عن طريق الخديعة والمكر ، وإما مسلم مرتد أوملحد ، والله لايرضى عن هؤلاء جميعهم . فإما أن ترضوهم وتغضبوا الله ، وإما أن تغضبوهم وترضوا الله .

أيها المسلمون : لقد تحققت فيكم نبوة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة في قصعتها» فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في صدوركم الوهن» فقال قائل : وما الوهن ؟ قال : «حب الدنيا وكراهية الموت» .

تحققت هذه النبوة ، وتداعت عليكم الأمم ،بل تداعت عليكم الثعالب تريد السيطرة على ما بقى من تراثكم ، وتريد الاستعلاء عليكم ومحو ما بقى من آثار العزة الاسلامية وشعائر الاسلام ، وركنتم الى مودتهم مخالفين كتاب الله ، فضربوا ببعضكم رقاب بعض ، وأذلوا بعضكم ببعض ، وأنتم لاهون عن الخديعة والمكر، ساهون عن روغان أولئك الثعالب ،وهم فرحون ضاحكون.

لا تثقوا بعد أن جربتم ، ولا تأتمنوا بعد أن بلوتم ،فهبوا من نومكم ، واعملوا والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم .

تعلّموا واعملوا .تعلموا فروع العلم جميعها لتنالوا الفخار والمجد ، ولتكونوا أعزة ، وأقيموا أساس الحضارة على العلم والدين والأخلاق . قوموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «فلولا كان من القرون مِن قبلكم أولو بقية ينهَون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتّبع الذين ظلموا ما أترِفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

أيها المسلمون : غضوا الطرف عن الفروق الطائفية والمذهبية ، ولا تجعلوا تلك الفروق سببا فى الفرقة وسلاحا بيد عدوكم يخرب به بيوتكم ، وكونوا كما قال الله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ». ولا تخشوا أحداً فى إظهار شعائر الاسلام والانتصار للاسلام ، والله هو الاحق بالخشية وحده ، والمسلم المتعصب لدينه مفيد للجماعة الانسانية بخلقه وقوة إيمانه ، وهو سلم لاخوانه فى الوطن ولكل من له معهم عهد ، فهو محرم عليه أن يعتدى على هؤلاء فى أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم ، لكنه مع هذا رجل شديد الاحتفاظ بقوميته وعزته وحقوقه ، يأبى الضيم ولا يطيق الذل .

وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا اليوم فقال : «أيها الناس: أى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : فأى بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال : فاى شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال: فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا».

أكرر تحياتى للسامعين . والسلام عليكم ورحمة الله .



ذكرى الهجرة النبوية

كلما أتمت الأرض دورتها وهلّ شهر المحرم ، ذكرنا الهجرة النبوية من مكة الى يثرب ، وما ذكرنا هذه الهجرة إلا ذكرنا ذلك الانقلاب العالمى الضخم الذى طرأ على الانسانية فكان فاتحة لتطورات اجتماعية ليست من نوع كل ما حدث من أمثالها من قبل ولا من بعد .

نعم : لأن كل الانقلابات التى حدثت كانت انقلابات حربية دعا اليها التزاحم على موارد الحياة ، أو التوسع فى السلطان ، ولكن الانقلاب الذى أحدثه الاسلام كان الباعث عليه أدبيا محضا هو جعل كلمة الله هى العليا فى الأرض .

غرض سام كل السمو لم تتطاول الى بلوغه همة ، ومطلب عظيم الشأن كل العظم لم تتطلع الى تحقيقه نفس . فلو أضفت الى هذا أن موطن نشوئه بلاد العرب حيث كان لا يتوقع من ناحيتها أى انقلاب عالمى ، كان العجب منه لا يمكن تقديره ، ولو زدت على ذلك أنه قد تحقق وأصبح أمرا واقعا فى سنين معدودة ، انقلب العجب الى حيرة ، وهى ما فيه أكثر الباحثين فى الاسلام منذ وجوده الى اليوم .

الناظر فى تاريخ الاسلام يرى أنه قد أقام دولة ، فان حجبته ظواهرها ونظر اليها نظره لكل دولة ، فاته من صفاتها المميزة وعناصرها ما يجب عليه أن يلم به ليعرف الروح المعنوية التى تحرك هذه الدولة ، وكان جديرا به أن يقع فى العجز عن تعليل سرعة نشوئها ، ومفاجاتها العالم كله بانقلابات ذريعة لم يكن يحلم بها ، وبلوغها أقصى غاية من الزعامة العالمية لم تنلها قبلها ولا بعدها دولة غيرها .

جرت السنة البشرية أن الدول تتالف محفوزة بالحاجات الحيوية ، فقد توجد قبائل متفرقة من جنس واحد تجد نفسها مهددة بعدو قوى مجاور لها ، فتدفعها الضرورة للتقدم والتضافر التماسا لمزايا الوحدة . وقد تصادف من صعوبات البيئة ما يدفعها لتطلب زيادة الأيدى العاملة فتضطر للترابط الوثيق للتغلب على ما يصادفها من عقبات المعيشة ، وقد تبلغ درجة حسنة من التهذب فتتطلب زيادة الاستمتاع بنعم الحياة ، فيندمج بعضها فى بعض فتصبح أمة على شىء من التفكك ، ثم لا تزال تدفعها الحوادث لإحكام عرى ترابطها فى أجيال متعاقبة ، حتى تصير وثيقة الرّبط ، قوية التماسك . ولكن الأمة الاسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية ، فقد تألفت على أصول ومبادىء هى مثل عليا للحياة الشخصية والاجتماعية ، تصلح أن تقوم عليها الأمم عامة لا أمة منها خاصة ، فهى أمة عالمية بأخص معانى هذه الكلمة ، محقت فيها القوميات

والفوارق الجنسية واللغوية ، وجعلت مثالا لما تكون عليه البشرية حين تبلغ درجة النضج فى الأخلاق وأصول الاجتماع

يقول الذين لا يتعدى علمهم بالشئون العالمية حدود ما ألفوه من رؤية التناحر بين الأمم، والتناهب بين الطوائف ، والتزاحم على ينابيع الثروات الطبيعية ، يقولون : ماذا حمل الاسلام الى الناس غير مازاده فى عدد أديانهم دينا جديدا ، يستدعى وجوده تولد خلافات جديدة ، ومنازعات من ضروب شتى ؟

والحقيقة أن الاسلام ليس بدين جديد ، ولكنه، بنص كتابه، دين الله الأول الذى أوحاه الى أول رسله ، وحرفته الأمم حتى أخرجته عن أصله ، أرسل الله به خاتم أنبيائه محمداً ليؤوب اليه الغالى والمقصر ، ويرجع اليه المفرط والمفرط ، فهو بهذا الاعتبار لم يجىء ليزيد فى عدد الأديان دينا آخر ، ولكنه جاء ليحيلها جميعا الى وحدتها الأولى ، فمهمته ضرورة قاهرة ، فما كان الله ليذر الناس على ماهم عليه من الفوضى الدينية ، والخلافات المذهبية ، حول أديان محرفة يدعى كل قبيل من الناس أنه على دين الله ، دون أن ينزل اليهم صورة صحيحة من ذلك الدين نفسه : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فان حاجوك فقل أسلمت وجهىَ لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

وقد شرع الاسلام لرفع الخلاف بين الناس لا للتفريق بينهم . قال تعالى : «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم فى شىء » . بل ذهب الاسلام الى ما لا مذهب بعده فى العمل على رفع الخلاف من بين البشر ، بحذف جميع عوامل الشقاق من بينهم ، فاعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزؤ ، قوامها الايمان برسل الله كافة من غير تفرقة بينهم ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

فى هذه الآية الكريمة من القوة فى رفع الخلاف ما ليس لشىء ما يعمل فى هذا السبيل ، فان النـاس متى آمنوا بجميع المرسلين سهل تفاهمهم على ماعسى أن يبقى بينهم من الخلاف ، إلا ما يكون بعضهم قد جنوه على أنفسهم من تأليه رسولهم ، أو اعتباره خاتما للرسل والانسانية لم تزل فى دور الطفولة لم تستكمل أطوار نشوئها بعد .

هذه الآية فوق ما تدل عليه من عمل الاسلام على حسم الخلافات بين الناس ، تشير الى المهمة السامية التى شرعه الله لأدائها ، وهى أن يكون دينا عاما للبشرية كلها . ومجرد التأمل فى مدلول

هذه الآية يرى أن أفعل وسيلة للوصول الى هذه الغاية البعيدة، هى ما اشترطه على من يقبله دينا له أن يؤمن برسل الله كافة، فان الأمم الآخذة بالأديان المختلفة متى آنست أن فى الأرض دينا يعترف بأنبيائها، ولا يبخسها حقا من حقوقها، لا تجد فى نفسها غضاضة من الدخول فيه، إذ لا يستتبع ذلك تسفيه أحلام آبائها، ولا الحط من كرامة أسلافها. وليس فى دين من أديان الأرض هذه الميزة.

نعم: إن الاسلام لم يراع مع الأمم الوثنية هذه الطريقة، لأن الوثنية لا تستند الى نبوة، ولا تقوم على أصل من العقل أو النظر، فما هى إلا عصارة من الأهواء والأوهام، دفع اليها التقليد الأعمى للآباء، وطامات الجاهلية الجهلاء. فهى لا تقبل ما فطر البشر على الاتفاق عليه من قوانين المنطق، والدلائل العلمية. يتضح ذلك من قولهم عندما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم للتوحيد كما حكاه عنهم فى سورة ص: « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق». فكان من شأنهم أنهم اعتبروا قيام منذر منهم يدعوهم الى إله واحد من العجب العجاب، وكان قصارى أمرهم أنهم تآمروا على الثبات على ما هم عليه، غير متطلبين دليلا على ما دعوا اليه، ولا إعادة نظر فيما هم عليه، فأمثال هؤلاء ممن جمدوا على أوهام الأقدمين ينحصر حالهم فى أنهم كما ذكره الله تعالى عنهم « ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يُهرَعون». وجدير بمن كانوا مثلهم أن يؤخذوا بالزواجر، ويزعجوا بالقوارع، ويتلتلوا بالمَثلات. وقد جرى الاسلام فى معاملتهم على هذه الشاكلة، فكانت ثمرة ذلك أنه لم تمض أكثر من ثلاث عشرة سنة حتى دانوا للاسلام. ولا يمنع هذا أن عقلاءهم بادروا اليه محفوزين بقوة الدليل، ونصوع الحجة، وكانوا هم النواة الصالحة التى تألفت حولها الامة الاسلامية العالمية.

أما بقية الأمم فقد أثر فيهم أسلوب الاسلام فى الدعوة الى الايمان بالمرسلين كافة بغير استثناء، فدخل من صميمها فى الاسلام عدد لا يروى تاريخ العالم أنه دخل مثله فى دين من الأديان، فى مثل المدة القصيرة التى تم فيها هذا الانقلاب الخطير.

أليس من آيات الله الكبرى أن تدخل فى الاسلام أمم كالفرس والديلم والتتار وغيرهم، أجانب عن العرب والعربية، ويكون لها القِدح المعلَّى فى رفع علم الاسلام الى أعلى ما يصل اليه، وفى خدمة لغة القرآن وآدابها الى حد أن كان منه أكابر أئمته وأئمتها، مما لم يصادف مثله فى تاريخ جماعة من الجماعات الانسانية ؟

قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للقرافى: إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى إمام الحديث يوما: « من يسود أهل مكة ؟ قال الزهرى: يسودهم عطاء.

قال هشام : بم سادهم ؟ قال الزهـري : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأل الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، (ولايات الدولة الاسلامية إذ ذاك) ، فاخذ الزهرى يعدّ له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يساله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى (أى أصله رقيق والأرقاء غير عرب) ، الى أن أتى على ذكر النخعى ، فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ، ويخطب لهم على المنابر » .

إن هذه الديموقراطية التى أتى بها الاسلام فى عهد لم يكن لهذه الكلمة غير الاسم، يعتبر مثالا حيا لما نبهنا اليه مرارا من أن هذه الأصول هى المثل العليا التى ليس بعدها مذهب ، ويدل دلالة قاطعة على أن مصدر الاسلام إلهى محض لم تختلط أصوله بكدور البشرية ، ولم تؤثر فيها الفروق الوهمية ، التى تواضع عليها البشر ، وأراقوا دماءهم فى سبيلها .

إن لتاريخ المسلمين فى هذا الباب من الأنباء مايعد من الطرائف التى تحلى بها بطون الكتب ، فقد ولى النبى صلى الله عليه وسلم بلالا الحبشى المدينة ، وفيها من سادات قريش والأوس والخزرج من فيها، ولم يثر ذلك ثائرتهم . وبلال أصله مملوك حبشى أسلم وأخذ سيده فى تعذيبه بالنار ليرتد فأبى ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى أسامة بن زيد ، وهو ابن رقيق ، على جيش كان فيه أبو بكر وعمر، ونفر من كبار الصحابة ، ولم يعد أحد هذا العمل شاذا ، مع أن العرب فى جاهليتهم كانوا من أشد الناس احتقارا للارقاء والأجانب .

وهذا عطاء بن أبى رباح وأصله رقيق أسود فابلغه علمه الى درجة الإمامة ، فرفعه الناس الى المكانة الجديرة به ، غير معتدين بالفروق التى محقها الاسلام . وكان خليفة زمانه يرسل مناديا ينادى فى الحج بأن لا يفتى الناس أحد غير عطاء . قال ابراهيم بن عمرو بن كيسان : « أذكرهم فى زمان بنى أمية يأمرون فى الحج صائحا يصيح : لايفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح» .

كان عطاء هذا أسود اللون ، أفطس الأنف ، أشل، مفلفل الشعر، فاقدا إحدى عينيه . قال سليمان بن وكيع : دخلت المسجد الحرام والناس مجتمعون على رجل ، فاطلعت فاذا عطاء بن أبى رباح جالس كانه غراب أسود .

الى هذا الحد أوصل الاسلام أهله من المثل العليا ، التى يحاول الفلاسفة أن يوصلوا اليها أرقى الأمم فى الثقافة العلمية فلم ينجحوا ، وباتت الديموقراطية غير مطبقة التطبيق المناسب لا سيما ، فهل يريد أحد أدلة على سماوية هذا الدين أكبر من هذا ، وحججا على رسالة الذى أتى به أنصع من هذه الحجج ؟

ليعرف المسلمون مكانة دينهم من هذه النواحى العلمية ، فلا يوجد فى جميع الأسلحة الجدلية ما يعدلها فى إخضاع النفوس له ، وجمع القلوب عليه . وليعلموا أن لكل درجة من الثقافة يصل اليها الانسان، أعلاما منصوبة تدل دلالات محسوسة على ما هو إلهى وما هو بشرى ، فلا يبلغ المضللون، وهى ماثلة أمام الناس، أربهم من إطفاء نور الله فى الأرض : «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

محمد فريد وجدى

معرض من البلاغات

كُتب للنبى صلى الله عليه وسلم من كتاب : أما بعد فكا ننا فى الثقة بك منك ، وكا نك فى الرقة علينا منا ، لأنا لم نرجك فى أمر إلا نلناه ، ولا خفناك عليه إلا أمناه .

وكتب يزيد بن الوليد الى مراون بن محمد وقد بلغه تلكؤه فى بيعته : أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت . والسلام .

وكتب عبد الحميد إمام الكتابة لرجل بالوصاية على إنسان : حق موصل هذا الكتاب اليك كحقه على ، إذ رآك موضعا لأمله ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فحقق أمله .

وروى أن المأمون قال لعمرو بن مسعدة : اكتب الى عاملنا فلان كتاب وصاية بانسان فى سطر واحد ، فكتب : هذا كتاب واثق بمن كتب اليه ، معتن بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب أبو بكر الخوارزمى جوابا على هدية وصلت اليه : وصلت التحفة ولم يكن لها عيب إلا أن باذلها مسرف فى البر ، وقابلها مقتصد فى الشكر ، والسرف مذموم إلا فى المجد ، والاقتصاد محمود إلا فى الشكر والحمد .

وكتب ابن العميد الى محمد بن يحيى يستعطفه من رسالة : وما أحسبنا اشتركنا إلا فى الاسم وشتان بين محمد ومحمد ، فلو كنا السماكين لكنتَ الرامح وكنت الأعزل ، ولو كنا النسرين لكنت الطائر وكنت الواقع ، ولو كنا السعدين لكنت السعود ، وكنتُ الذابح .

التفسير (١)

سورة الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا وقد أسند الينا تحرير فصل التفسير لهذه المجلة أن نبدأ بتفسير سورة الأعلى لما فيها من الأسرار التى تأخذ بمجامع القلوب . فان فيها أمورا أربعة هى مجامع السعادات كلها :

(أولها) الإلهيات . وقد أشير الى ذلك بقوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدّر فهدى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى » .

(ثانيها) ما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . وقد أشير الى ذلك بقوله : « سنُقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسّرك لليسرى » . وفى ذلك من التوحيد ورجع الأمر كله اليه تعالى ما لا يخفى .

(ثالثها) انقسام المستمعين الى من ينتفع بإرشاد الأنبياء والى من لا ينتفع به ، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين . وقد أشير الى ذلك بقوله : « فذكّر إن نفعت الذكرى سيذّكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصْلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا » .

(رابعها) التنبيه على أن خيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الدنيا ، والأفضل الأبقى أوْلى بالتحصيل له والحرص عليه ، مع بيان ما يوصل الى ذلك من تزكية النفوس وعبادة القدوس عز وجل بقوله : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

وبذلك يتم كل ما يحتاج الإنسان اليه من معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يتعلق بالنبى

---

(١) ترد إلينا مسائل كثيرة من الجهات المختلفة . وقد كنا نجيب عن بعضها بطريق البريد وعن بعضها بطريق مجلة الازهر . وحيث طلب منا أن نقوم بتحرير التفسير بهذه المجلة ، فنرجو من حضرات القراء ألا يكثروا من إرسال الاسئلة إلينا . أما ما بقى عندنا من تلك المسائل فسنجيب عنه تباعا إن شاء الله .

صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أحوال الناس واختلافهم فى الاستعداد ، ومعرفة الآخرة وما فيها من نعم جسيمة ونار أليمة .

ثم ختم السورة بقوله : « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » تنبيها على أن كل ما جاء من الأنبياء ممن أنزل الله عليه كتابا أو صحيفة ليس المقصود منه إلا هـذه الأشياء الأربعة ، فإنها لم تدع شيئا من مسائل السعادة والفوز فى الدنيا والآخرة إلا بينته .

ومن وقف على أسرار هذه السورة الشريفة امتلأ إيمانا وإيقانا بأن القرءان تنزيل من حكيم حميـد : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » ، وعلم حقا أنه لا هداية إلا باتباع نهجه القويم وصراطه المستقيم . فسبحان من خلق الخلق وعلم استعدادهم ومراتبهم ، وما جبلوا عليه من الأحوال المتباينة والنزعات المتضادة « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

البيان التفصيلى لمعنى السورة الشريفة :

« سبح اسم ربك الأعلى » : التسبيح : التنزيه . وتنزيه الاسم الـكريم هو ألا تبقيه على ظاهره إذا كان ما وضع له فيما تعورف بين الناس مما لا يليق به تعالى ، وألا تطلقه على غيره إذا كان مختصا به تعالى كالاسم الجليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى هو وغيره فيه سواء إن لم يـكن مختصا . ومن تنزيه الاسم أن تصونه عن الابتذال ، فلا تتلفظ به فى محل لا يليق به كبيت الخلاء ، ولا تذكره إلا مع الخشوع والتعظيم .

ومن تعظيمه ما حكى عن إمامنا مالك رضى الله عنه : أنه كان إذا لم يجد ما يعطى السائل يقول : ماعنـدى ما أعطيك ، أو ائتنى فى وقت آخر ، ونحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول النـاس : يرزقك الله أو يعطيك الله . فسئل عن ذلك فقال : إن السائل أثقل شىء على سمعـه وأبغضه إليه قول المسئول له ما يفيد رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه أن أذكره لمن يكره سماعه ولو فى ضمن جملة ! وهذا منه رضى الله عنه غاية فى الورع والدقة .

ولك أن تعتبر لفظ الاسم مقحما ، فـكأنه قال : سبح ربك . والإقحام فى لغة العرب قد يـكون لضرب من التعظيم . فإن المذكور إذا كان فى غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ويمجد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالى والأعتاب السنية ، ونحو ذلك . فالمعنى : نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف .

واستدل لهذا بما أخرجه الامام أحمـد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لمـا نزلت « فسبح باسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت «سبح اسم ربك الأعلى» قال : اجعلوها فى سجودكم . ومن المعلوم أن المجعول فيهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى .

وبما أخرج الامام احمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ « سبح اسم ربك الأعلى » قال : سبحان ربى الأعلى . وهو استدلال قوى من السنة .

وفى الكشاف أن المراد بتسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هى إلحاد فى أسمائه سبحانه كالتشبيه مثلا ، وأن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم .

والخلاصة : أنه يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص ، ويجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لذلك عن سوء الأدب والذهاب بها مذهب المجسمة والمشبهة .

وإجمال القول أنه إن كان « سبح » بمعنى نزه ، فكلا الأمرين من كون « اسم » مقحما وكونه غير مقحم ، وتعلق التسبيح به على الوجه الذى سمعت ــ محتمل غير بعيد . وإذا كان معناه قل سبحان ، فكونه مقحما متعين . وقد علمت ما يدل له .

و« الأعلى » صفة الرب . والمراد بالعلو العلو بالقهر والاقتدار ، لا بالمكان والجهة ، لتنزهه عن ذلك . وهذا العلو واجب لله فى ذاته وصفاته وأفعاله . فأما فى ذاته فبأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض . وأما فى صفاته فبأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية . وأما فى أفعاله فبأن تعتقد أنه مالك مطلق عليم حكيم ، فلا اعتراض لا حد عليه فى أمر من الأمور ، سواء علمت الحكمة أو جهلتها . ولا معنى لذلك بعد إيمانك بأنه حكيم عليم :

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم فى دوران الفلك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

وقد كتبنا بتوسع فى هذا الموضوع برسالتنا : تفسير قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل» .

وبالجملة فهو أعلى من كل ما يصفه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون . فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

ويحسن بنا أن نلفت نظرك الى أن السياق يدل دلالة واضحة على أن المراد بالعلو علو الاقتدار والعظمة والملك ، لا علو المكان والجهة ، لا ن العلو الحسى عبارة عن كونه تعالى فى غاية البعد عنا . وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم . أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والابداع فيناسب ذلك . والسورة ها هنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لاجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم .

ثم تراه بعد ذلك أردف قوله « سبح اسم ربك الأعلى » بقوله : « الذى خلق فسوى » . والخالقية والتسوية المبنية على الحكمة تناسبان العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكانى عليه تعالى ، خلافا لبعض الجهلة الذين يخبطون خبط عشواء فى هذا المقام ، فان السلف والخلف متفقان على التنزيه .

والفرق بين مذهبيهما أن الخلف يعينون المعنى التنزيهى المراد ، والسلف ينزهون ولا يعينون ، فيقتصرون على صرف اللفظ عن ظاهره ، ويكلون المعنى المراد لله تعالى . وكل ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات من المتشابهات فهو مصروف عن ظاهره عند السلف والخلف (فاياك والغلط) . فان الله تعالى لم يشارك الخلق فى شىء من الأشياء ، وإن وقعت المشاركة فى الأسماء . فانظر الى العلم مثلا ، وهو مما وصف به الخالق والمخلوق ، تجده فى القديم مباينا له فى الحادث كل المباينة ، فان علمنا مستفاد من الحواس أو من التفكير والنظر ، وهو انتقاش وانفعال . وعلم الله تعالى منزه عن ذلك كله .

وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء . فاذا كان هذا التباين واقعا بين الحوادث فما بالك به بين الخالق والمخلوق ؟ وقد نص المحققون على أن كل عالم من العوالم له أحكام تخصه . ومن الغلط البين قياس عالم على عالم آخر فى أحكامه وما ينسب اليه . وأين عالم الأجسام من عالم النفوس ، وعالم النفوس من عالم العقول على ما بينته الفلسفة وأطال فيه القدماء؟ ولكن الشارع قد يتنزل فى التعبير الى مستوى العقول المحجوبة بالحس رحمة بالجمهور ، ثم لا يدع ذلك حتى يزيل ما عسى أن يعلق بالأوهام من ظاهره ، فيقول : « ليس كمثله شىء » . « وما قدروا الله حق قدره » . « ولم يكن له كفوا أحد » الى غير ذلك من التنزيه ، فيشعر قلوبنا أن المقصود مما جاء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات مما يوهم التشبيه أو نسبة الحوادث اليه تعالى بمقتضى تلك التعبيرات التنزلية إنما هو أرواحها لاظواهرها ، بشهادة النصوص الأخرى الدالة على التنزيه الذى قامت عليه البراهين العقلية . وهذا إجماع من السلف والخلف كما عرفت . ولكن كثر الجاهلون وتفيهق الثرثارون (١)

وقد نرى من المفيد للجمهور أن نطيل فى هذه المقامات ، ونكرر تلك البيانات . فهذا هو مقتضى الحال الذى عرفناه من الاستفتاءات الكثيرة ، وبلغناه عن دروس بعض الحمقى الذين قرءوا فى الكتب ما لا يستطيعون هضمه ولايعرفون مغزاه .

ولابأس ، والمقام مقام إطناب ، وتصحيح العقيدة بتخليصها من شوائب الأوهام يحتاج الى كثرة تذكير ومزيد تكرير — أن نلفت نظرك الى ما جرى بيننا وبين بعض المتعلمين العصريين ، فما أجدره بالذكر فى هذا المقام لكثرة فوائده ومزيد عوائده ، قال حضرته :

(١) الذين يزعمون أنهم أهل سنة وحديث :

فرقة، تدعى الحديث ولكن   لا يكادون يفقهون حديثا

ما تقول فى مشكلة التوحـيد ؟ فقلت له : وما مشكلة التوحـيد ؟ فقال : قول العلماء : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات ، مع أن الذى لا يـكون فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات يكون معدوما . فقلت له : ما أهونها مشكلة ! فقال : مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات ، وقد رأيتها فى كتاب لبعض العلماء ولم يجب عنهاوسماها مشكلة التوحيد!

فقلت له : إنى أجيب عنها وأنا نائم ، فان ماذكرتموه إنما هو أحكام الماديات والله منزه عن المادة وعـلائقها ، ولو كان ماديا ماصح أن يـكون إلها . وما تخيلتموه من أنه لا بد من أحد المتقابلين ولايصح ارتفاعهما جميعا فهومشروط بالقابلية ، وإلا ارتفع المتقابلان معا ، بل يكونان محالين عند عدم القابلية . ألا ترى أن الانسان لا بد له من أن يكون عالما أو جاهلا ولا يصح ارتفاعها عنه ، ولـكن الحجر لا يقال له عالم أو جاهل لعـدم القابلية ؟ فـكذلك الحق عز وجل لـكونه غير مادى لا يجوز أن يتصف بشىء من هذه المتقابلات ، فإن القابل إنما هو المادة . بل الفلاسفة يحيلون تلك المتقابلات على جميع المجردات كالأرواح والملائـكة . وبهذا يرتفع الاشكال الذى تصور أولئك الحمقى أنه لا يرتفع وسمّـوه مشكلة التوحيد .

فعند ما وصلنا الى ذلك الحـد قال ذلك السائل : فـكيف هـو ذلك الاله وكيف تصل العقول إليه ؟

فقلت له : إن هنا مقامين : مقام الاستدلال على وجـود الله تعالى ، ومقام معرفته بالـكنه والحقيقة .

أما وجـوده والاستـدلال عليه فأظهر من الشمس وأوضح من الحس . فان كل شىء من الأشياء وكل ذرة فى الأرض والسماء تدل عليه وتشير اليه : « أم خُلقوا من غـير شىء أم هم الخالقون » . فوجودها ناطق بوجوده ، وإمكانها ناطق بوجوبه ، وما فيها من سر عجيب وترتيب غريب ناطق بعظيم قدرته وبديع حكمته وسعة علمه وإتقان تدبيره وعدم نهاية كمالاته وعلو أسمائه وصفاته : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والـترائب » . « أوَ لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئا » . « ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منـه الزوجين الذكرَ والأنثى » . « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » الخ الخ . وقد قالوا قديما : « نظرك فيك يكـفيك » .

ولعمرى لقد أودع فى الانسان من الأسرار والعجائب ما يدهش الناظر ويبهر المفـكر . وقد دهش الناظرون فى الانسان من علماء الفزيولوجيا . بل كل علم من العلوم إذا تعمق فيه صاحبه رأى من الآيات البينات والدلائل الواضحات والبراهين القاهرات ما يجعله يقول بلسان

حاله أو مقاله : سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . وقد قيل قديما :

وفى كل شىء لـــــه آية تدل على أنه الواحـد

« وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحهم » .

أما المقام الثانى وهو الوصول الى كنهه تعالى فأمره أيضا فى غاية الجلاء والوضوح . فان إله العالمـين الذى ليس كمثله شىء يجب أن يـكون متعاليا عن العقول ، ويستحيل أن يخضع لمحدثات الأفـكار ومبتدعات الأنظار ، بما له من قواهر الأنوار ومدهشات الأسرار . ولو لم يكن كذلك ما صح أن يكون رب العالمين . ومن أين لذى الألواث البشرية والأدناس الطبعية أن يدرك القدوس الأعلى الذى تقدست ذاته عن أن تراها العيون أو تدنو منها الظنون ؟ !

وقد قلت فى بعض ما كتبته : أنا لا أومن باله محدد يصل إليه عقلى ، أو يمكننى أن ألمسه بيدى ، أوأصل إليه برجلى ، فانه إذاً يكون ماديا تسرى عليه نواميس المادة لا محالة . أما إلهى الذى أومن به فهو فوق الحـدود والقيود ، ليس كمثله شىء وهـو السميع البصير . فيكف تطبق عليه النواميس وهو قاهرها ؟ أم كيف يقاس بالماديات وهو مصورها ؟ !

وقد شط بنا القلم ، ولـكن الى ما دعت اليه الحاجة ، وأوجبته الضرورة ، واقتضاه جهل كثير من الناس فى هذا العهد الذى تراكمت ظلماته وتعاظمت آفاته ، وتكاثر مدّعوه وقل منصفوه . فالى الله المشتكى وبه المستعان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله .

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

من أخبار الاجواد

كان عبد الله بن جعفر الطيار يدعى بحر الجود لـكرمه . فجاء إليه يوما نـصَيْب الشاعر وكان أسود اللون ، فلما خرج تقدم إليه وقبل يده ثم أنشده :

ألفت «نعم» حتى كأنك لم تكن عرفت من الأشياء شيئا سوى نعم
وعاديت «لا» حتى كأنك لم تكن سمعت بلا فى سالف الدهر والأمم

فقال له عبد الله: ما حاجتك ؟ قال هذه رواحلى تميرنى عليها . قال أنخ انخ، ثم أوسقها له برا وتمرا وأعطاه عشرة آلاف درهم وثيابا . فقيل له أتعطى هذا كله لهـذا العبد الأسود ! فقال لهم : إن كان هو أسود فان شعره لأبيض .

الدروس الدينية

التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى شهر رمضان

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأصدر أمره بأن يلقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر دروسا دينية أسبوعية فى شهر رمضان المعظم ، وتكرم جلالته بحضور هذه الدروس فى حشد من رجال دولته ، وأركان حكومته ، فأحيا جلالته بذلك سنة الخلفاء العظام ، وأحل الدين محله من الاجلال والاحترام ، وقام فضيلة الأستاذ الامام من جهته بما ينتظر منه من تجلية روح الاسلام ، وتبيين مكانته من هداية النفوس ، وتصفية القلوب ، والدلالة على أثره فى بناء العمران ، ونشر العرفان ، وحملت الجرائد هذه الدروس الى الآفاق فتقبلها مسلمو الأرض بالاكبار والاعجاب . وتمنى الناس لو جمعت هذه الدروس القيمة فى رسالة خاصة ليمكن حفظها والانتفاع بها على طول الزمان . فتفضل فضيلته بطبع بضعة ألوف منها ، وتوزيعها . وعزمت وزارة الأوقاف على طبع عشرين ألف نسخة منها لتوزيعها بالمجان . ورأينا نحن من جهتنا أن ننشر منها فى كل عدد درسا تعميما لها ، وبهذه الوسيلة تصل هذه الدروس الى أكثر راغبيها فى جميع البلدان .

وقد تشرف فضيلة الأستاذ الامام بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك فى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ١٥ ذى الحجة ورفع الى جلالته نسخة من هذه الدروس الدينية مجلدة تجليدا فاخرا . وفى هذه الفرصة قام فضيلته بتقديم هدية الأزهر لمناسبة الزفاف الملكى ، وهى نسخة من المصحف الشريف مكتوبة بخط أشهر الخطاطين وهو الحافظ عثمان . وقد جلد هذا المصحف تجليدا ثمينا . فتفضل جلالة الملك بقبول الهديتين معربا عن عطفه الكريم على فضيلة الأستاذ الامام ، وتقديره لخدماته الدينية العظيمة للاسلام والمسلمين .

نبدأ الآن بنشر الدرس الأول الذى ألقاه فضيلة الأستاذ الامام فى مساء الخميس الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فى مسجد الأستاذ البوصيرى بمدينة الاسكندرية :

الدرس الأول

ألقاه فضيلته بمسجد البوصيرى بمدينة الاسكندرية

مساء يوم الخميس الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٥٦

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : (ليسَ البرَّ أن توَلوا وجوهكم قِبلَ المشرق والمغربِ ، ولكنَّ البرَّ منْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حبهِ ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرقابِ وأقامَ الصلاة وآتى الزكاةَ ، والمُوفُونَ بعهدهمْ إذا عاهدُوا ، والصابرينَ فى البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ ، أولئكَ الذينَ صدقوا وأولئكَ همُ المتقونَ) (الآية : ١٧٧ من سورة البقرة)

المفردات . فضل هذه الآية . سبب نزولها . الايمان وأثره فى الانسان . تعليق وتطبيق . الايمان الناقص . الاحسان الى الجماعة . الرقيق وعناية الاسلام به . طريق التهذيب النفسى . الصلاة . الوفاء بالعهد . الصبر .

المفردات :

البر : التوسع فى فعل الخير ، مأخوذ من البَر مقابل البحر . وقد تصوروا فى البر السعة فأخذوا منه البِر بمعنى التوسع فى فعل الخير . ويضاف الى الله تعالى نحو « إنه هو البَر الرحيم » ويكون معناه كثير العطاء فياض الجود . ويضاف الى العبد ويكون معناه التوسع فى الطاعة ، فهو اسم جامع للطاعات وفعل الخيرات . وقد جعل مقابلا للفجور فى قوله سبحانه : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » . وجعل مقابلا للاثم فى قوله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ويجىء بمعنى التوسع فى الاحسان ، ومنه بر الوالدين ، وقوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

آمن : الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذوا منه آمن بمعنى صدّق

وأذعن ، وانتفى عنه الريب والشك ، واطمأنت نفسه الى ما علمه وانشرح صدره له ، وزال عنه القلق ، فصار آمنا .

اليوم الآخر : هو يوم القيامة ، وهو الدار الآخرة ، مقابل اليوم الأول وهو أيام الدنيا .

الملائكة : خلق مغيّب عنا لا يمكن أن ينفذ إليه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير . ونحن غير مكلفين إدراك حقيقتهم ، وإن كنا مطالبين باعتقاد وجودهم .

النبيين : النبوة : سفارة بين الله جل شأنه وبين ذوى العقول من عباده لإبلاغهم وحيه بما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة . والنبى : منبئ عن الله سبحانه وتعالى ومنبئ للعباد . والنبأ : خبر له فائدة عظيمة يحصل به العلم . فليس كل خبر نبأ . ومن حق النبا أن يكون عاريا عن الكذب .

ذوى القربى : أقارب الشخص ، بولادة الأبوين أو الجدين .

اليتامى : اليتيم : الصبى الذى انقطع عنه أبوه قبل البلوغ .

المساكين : المسكين : هو المحتاج الدائم السكون الى الناس لحاجته اليهم . فاذا سألهم سمى سائلا .

ابن السبيل : هو المسافر المنقطع عن ماله وبه حاجة تحمله على عدم الايواء فى مكان وعلى ملازمة الطريق . ويقال للطير الذى يلازم الماء : ابن الماء .

إقامة الصلاة : تعديل أركانها ، ومراعاة سننها وآدابها ، وجعلها مشتملة على الاخلاص لله ومراقبته ، مأخوذة من قولهم : أقام العود قوّمه وأصلحه .

العهد : الموثق الذى تجب مراعاته .

الصبر : الإمساك عن الشىء فى ضيق . يقال : صبرتُ الدابة حبستها بلا علف . وهو فى الشرع : حبس النفس عما هو محرم شرعا أو محظور عقلا . والصبر : اسم عام تحته أفراد تخص بأسماء : فحبس النفس فى الحرب يسمى شجاعة ؛ وحبس النفس فى نائبة مُضجرة يسمى سعة الصدر ؛ وحبس النفس عن الكلام يسمى كتمانا ؛ وحبسها عن فضل العيش يسمى زهدا ؛ وحبسها عن الغيظ يسمى حلما . الى غير ذلك .

المتقون : المتقى : مأخوذ من وقاه أى جعل له وقاية فاتقى . والوقاية فرط الصيانة . والمتقى فى الشريعة : هو الذى يمنع نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك .

فضل هذه الآية :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » . ذلك أنها مشتملة على جميع أفعال الخير وصفات الكمال البشرى تصريحا وتلويحا كما يعلم مما يأتى . وهى على تكثر فنونها وتنوع ضروبها منحصرة فى خلال ثلاث : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس . وقد أشير الى الأولى بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؛ والى الثانية بايتاء المال والوفاء بالعهد ؛ والى الثالثة باقامة الصلاة والصبر . ولذلك وصف الله سبحانه الحائزين لهذه الصفات بالصدق والتقوى .

سبب نزول الآية :

كان المسلمون أول الأمر يتوجهون فى الصلاة الى بيت المقدس ، ثم حولت القبلة وأمروا بالتوجه الى البيت الحرام . قال الله تعالى : «قد نرى تَقَلُّبَ وجهك فى السماء فلَنُوَلِّيَنَّك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . وبهذا التحويل اغتبط المسلمون وفرحوا لأن الكعبة بيت ابراهيم واسماعيل جدى العرب ؛ وتألم اليهود والنصارى لأن بيت المقدس قبلتهم ، وكانوا يحبون بقاء المسلمين معهم . وخاض الجميع فى الأمر واشتد كل فريق ينصر رأيه . فنبه الله تعالى الى خطئهم ، وبيّن أن الجدل فى مثل هذا ليس من شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير ، إذ لا تفاضل للجهات ، ولا للأمكنة ، ولا للا زمنة فى ذاتها ، وإنما الفضل لما يحصل فيها من الخير ، فيجب أن يبحث عن الخير : أين هو ، وبم يتحقق ؟ وأن يحرص على تحصيله والاتصاف به .

أصول الخير :

أنزل الله هذه الآية حسما لهذا الجدل الذى لا خير فيه ، وبين لهم فيها أن الخير الجامع هو صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس واتصافها بمكارم الأخلاق . وأن صحة العقيدة تحصل بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . والاحسان الى الجماعة يكون بانفاق المال وبذله ، وإيفاء العهد . وتهذيب النفس يحصل بالصلاة والصبر .

الايمان وأثره فى الانسان :

الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين : مبدأ كل خير ؛ وأساس كل فضيلة ، لأنه يستتبع صدور الأعمال الصالحة ، واتقاء الشرور ، ويصير الانسان خيّرا فاضلا ، يفعل الخير لذاته وابتغاء رضوان الله ، ويترك الشر لذاته ، وامتثالا لأمر الله .

والايمان بالله يشمل الايمان بأنه قادر عالم حكيم ، بر رحيم، متصف بجميع صفات الـكمال لا يأمر إلا بما هو حسن نافع ، ولا ينهى إلا عما هو ضار قبيح . هذا الايمان يستتبع تقـبُّل الوحى جميعه مع الاذعان والتسليم والرضا والطمأنينة الى أنه حق كله . فقد عرف عن الانسان الرضا بنصيحة الرجل المجرب الحـكيم ، فكيف به مع نصيحة الإله العليم الحـكيم ، المحيط بما فى السموات والأرض ، المطلع على السرائر وخفايا النفوس ، الذى يضع الامور مواضعها ويقدرها تقديرا ، عالم الغيب والشهادة الـكبير المتعال ؟

والايمان باليـوم الآخر يهوّن أمر الحياة الدنيا ، ويحقر شأنها ، ويجعلها عنـد المؤمن طريق الآخرة ووسيلة لها ، لايحب منها إلا ما كان مقربا الى الله ، وسبيلا الى سعادة الآخرة ، ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءها ، بل سيان عنده أن يبقى فيها عاملا للصالحات ، وأن يفارقها فرارا من شرها ، وتعجلا لنعيم مقيم عند رب العالمين .

هـذا المؤمن بالله وباليوم الآخر تهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله ، ويهون عليه كل شىء فى الحياة فى سبيل الحق ، وفى سبيل رضا الله وإعلاء كلمته . ذلك أنه يعلم أن رضوان الله أكبر من كل شىء ، وأن نعيم الآخرة نعيم دائم ، وأن الدنيا ظل زائل .

والإيمان بالملائـكة وسيلة الى الإيمان بالـكتب والانبياء . والايمان بالـكتب يستلزم الوقوف عند حدودها ، وتقبلَ ما فيها ، واعتقادَ أنه الخير والسعادة .

والايمان بالانبياء يستتبع التخلق بأخلاقهم ، والاهتداء بهديهم ، والتأدب بادبهم .

تعليق وتطبيق :

هذا ، وقد قلنا : إن الاطمئنان والاستسلام من لوازم الايمان . وعلى ذلك فالمسلم الذى يفرّق بين أحكام الاسلام فيقبل بعضا ويترك بعضا ويرى بعضها حسنا وبعضها غير ملائم ، لا يمكن أن يـكون مصدقا بالـكتاب كله ، بل هـو يؤمن ببعض ويكفر ببعض . وكيف لا يقبل الـكتاب كله إذا كان يعتقد أنه حق ، ويصدق قوله تعالى جل شأنه : « ذلك بأن الله نزل الـكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد » ؟

هذا الذى يكفر بالبعض يدخل فى قوله تعالى : «أفتؤمنون ببعض الـكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

***

وقد أصيب الاسلام قديما وحديثا بطائفتين نسبتا اليه بغير حق : طائفة سحرت ببعض الآراء والمذاهب ، وفتنت ببعض الشرائع . وطائفة شغلت نفسها بما هو بعيد عن مقاصد

الاسلام ، وما يرمى اليه من نصر الحق والفضيلة ، وسعادة الجماعة البشرية ، وتطهير النفوس وتهذيبها ،والاستهانة بالحياة جميعها ، إذ لم تعاضد الحق وتناصره ، الحق الذى به قامت السموات والأرض ، والذى به نزل القرءان . وهؤلاء مثلهم كمثل أولئك الذين خاضوا فى القبلة وبين الله لهم أن ذلك ليس من البر .

وها نحن أولاء نرى ضعف حال المسلمين بالبعد عن الهدى الالهى ؛ ونرى العالم يتخبط فيما ابتدعه من مذاهب وآراء ، وفيما صار اليه من مادية يتلظى فى نارها المتأججة .

وأصحاب المدنيــة هم الذين يحطبون لهذه النار ، وسوف تأكلهم وتذروهم الرياح إن لم يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا الى روحية التدين ، والى طلب الحق عند الله جل شأنه .

الايمان بالله ورسله لا يكون براً حتى تتحقق آثاره ، ويكون الله ورسوله أحب الى العبد من كل شيء ســواهما ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين » .

ولا يكون براً حتى تتحقق فى المؤمن الصفات التى وصف الله بها المؤمنين . فقد وصفهم بأنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وبأنهم إذا دُعوا الى الله ورســوله ليحكم بينهم أقبـلوا وقالوا سمعنا وأطعنا ، وقال فيهم : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » . هذا هو الايمـان .

الايمـان الناقص :

أما التصديق الذى لا يستتبع الآثار أو تكون له آثار ناقصة ، فهو إيمـان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجيه من عذاب النار وسوء المصير . وقد قال الغزالى : مثل المؤمن الذى لا يعمل والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع إذا قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلا حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلعك ، ويطير بك الهواء ، أما أنا فأبقى راســخة تزيل العواصف ماجف من أوراقى وتبقى الأوراق الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقيا سليم العرض ، سليم العقيدة ، كالذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقيا لامعا . أما ضعيف الايمـان فان النوائب تذهب بمـا عنده منه ، ويخرج منها مرذولا ، مثلوم العرض ، كسير النفس ، ذليلا عند الله وعند العباد .

الاحسـان الى الجماعة :

بعــد أن بين الله سبحانه ما يرجع الى العقيدة ، بين ما يتم به الاحسان الى الجماعة .

والانسان كان يختلف عن غيره أشد الاختلاف ، فهو كثير الحاجات ، متنوع الرغبات ، بعيد الأمل ، كثير الطمع ، يحتاج لغيره فيما يقوّم البدن ويستره ويرفه عيشه ، وفيما يصلح نفسه من العلم والتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج الى غيره فى حماية نفسه من العاديات . فلا يمكن أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءا من وحدة ومتمما لها ، فلا بد أن يتبادل مع أجزاء الوحدة ما يحفظ هذه الوحدة سليمة ويعود عليها بالخير والبركة . بهذا الاعتبار كان مطالبا بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب . غير أن الانسان أنانى أيضاً : يحب نفسه ، ويحب ماله ، لأنه يرى فى المال حفظ النفس والتمتع بالملذات فيحرص عليه لذلك ويشتد حرصه . فأرشد الله تعالى العباد الى ما يجب أن يكونوا عليه من التعاون ، وحثهم على إنفاق المال كما حثهم على تقديم النفس عند الحاجة . ولم يقبل الله الانفاق ولم يجعله برا إلا حيث يكون المال المبذول محبوبا ، وحيث يكون البذل نفسه محبوبا بعد رياضة النفس عليه واعتياده . وهذا هو قوله تعالى : « وآتى المال على حبه » .

ولا يكون البذل برا إلا حيث يكون فى موضع البذل . ولذلك بين الله من يبذل اليهم المال ، وأنهم : أهل القرابة ، واليتامى والمساكين . من سال منهم ومن لم يسأل ، والغرباء المحتاجون المنقطعون عن بلادهم وأموالهم ، والعبيد الأرقاء . والانفاق اليهم إما بشرائهم وعتقهم ، وإما باعطائهم المال ليخلصوا به أنفسهم من مواليهم عند الكتابة .

وقدم الله ذوى القربى لا ن الانفاق عليهم صدقةوصلة للرحم ، وثنى باليتامى لا نه إذا فقد عائلهم فقد وجب على الجماعة البشرية صيانتهم وحفظهم .

عناية الاسلام بالرقيق ومشروعية الرق :

وجعل الله للرقاب سهما من الصدقة ، وسهما من الزكاة أيضا ؛ لأن الاسلام يعتبر الانسان حرا بطبعه ، ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج الانسان عن طبع الانسان فيقف فى سبيل حرية الرأى ، وفى سبيل نشر الفضيلة والدين الحق . إذ ذاك يصح أن تهدر آدميته ويعامل معاملة البهيمة . غير أنه مع ذلك قد شرع الاسلام للتحرير طرقا كثيرة : فى الكفارات ، وفى أموال الزكاة المفروضة ، وفى الصدقات غير المحدودة .

وإيتاء المال فى هذه الآية غير الزكاة . فالزكاة محدودة بالنوع والمقدار ، بينها النبى صلى الله عليه وسلم . ولها فى المذاهب فروع وتفاصيل .

أما إيتاء المال هنا فليس محدودا بقدر معين ، ولا بزمن معين ، وإنما هو واجب دائما عند الحاجة وبمقدار الحاجة .

طريق التهذيب النفسى :

بعد هذا بين الله تعالى ما يهذب النفس وهو الصلاة ، فنى الصلاة توجه الى الحق المعبود ، وانقطاع عن الخلق ، وتفريغ للسر ، وانصراف الى ذى العزة والجبروت ، المحاسب على الأعمال جميعها ، والمجازى على الذرة من الخير والشر . وفى الصلاة اعتراف بأن الله هو المعبود وحده والمستعان وحـده . ومن شأن ذلك كله أن يديم مراقبة الله فى الأعمال جميعها ، وأن يصفى النفس ويهذبها ، فتصدر الأعمال فى السر والعلانية وفق أوامر الله ، نافعة لعباده . ومن شان هذا أيضا أن ينتهى الشخص عن الفحشاء والمنكر .

هذه هى الصلاة التى جعلها الله نوعا من البر ، وفيها قال : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقال : « إن الانسان خلق هـلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين » الآية .

الوفاء بالعهد :

بقى بعد هـذا مما عده الله برا : الوفاء بالعهـد والصبر . والوفاء بالعهـد قسم منه يرجع الى معاملة الله جل شانه ، وقسم منه يرجع الى معاملة العباد . ذلك أن العهد ميثاق وتعاقد ، منه ماهو صريح ، ومنه ماهو ضمنى . فالذى آمن بالله ورسوله قد اعطى عهدا لله ورسوله ، والتزم الوفاء به واتباع ماقضى به الله ورسوله ، والتزم أن يهتدى بهدى الرسل ويقتدى بهم . والانسان فى الجماعـة البشرية ملتزم ضمنا أن يتبادل معها المنافع ، وأن يـكون عضوا صالحا حسب استعداده وطاقته ، وأن يشركها فيما وهبه الله إياه من علم ومال وقوة .

والمتولى لعمل من أعمال الدولة ، سواء أكان ذلك العمل صغيرا أم كبيرا ، ملتزم أن يوفى ذلك العمل ، وأن يجد فيه ويحسن ، وألا يضار أحـدا من الأمة ، وألا يأكل أموال الناس بالباطل ، وألا يحيف على أحد ، وألا يظلم أحدا . فهو ملتزم حدود الله ، وملتزم أيضا قانون البلد فى غير معصية الله . وهناك التزامات فردية بين شخص وشخص آخر ، وهى العقود . والانسان مطالب أمام الله جل شأنه بايفاء العهود جميعها . وهذا الوفاء نوع من البر .

هذا ، وإذا تدبرنا ماحل بالأمم من هوان ، وما أصابها من ذل ، وجدنا أعظم أسبابه فى ترك إنفاق المـال وبذله ، وفى الغدر وعدم الوفاء بالعهد . والغدر والبخل مبيدان للامم معجلان لعقوبة الله فى الدنيا .

الصبر :

أما الصبر فقد جعـله الله من أنواع البر : فى الفقر ، والمرض ، والقتال . وهو فى غيرها

من أنواع البر أيضا . ولكن الاقتصار عليها لأن الصبر فيها أشد من الصبر فى غيرها . وقد ذكر الله سبحانه الصبر فى كتابه الكريم أكثر من سبعين مرة ؛ وأضاف اليه أكثر الخيرات وأرفع الدرجات . من ذلك : « إنما يوفىَّ الصابرون أجرَهم بغير حساب » . « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . وفى رسالة لعمر الفاروق رضى الله عنه « عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله » .

ثم ختم الله هذه الآية الجامعة لصفات الكمال البشرى وأفعال الخير بقوله : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » تنويها بشأن الذين تحلوا بهذه الصفات ؛ وتنبيها الى أنهم بها كانوا هم الصادقين المتقين .

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين المتقين ! والله أعلم ؟

فى ذكر بدائه الاذكياء

قال حكيم : بالاحسان فى البديهة تفاضلت العقول

وقال غيره : ميسور الرأى عند البديهة ، خير من الاطناب بعد الفكرة .

وخطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان عندما قدمها واليا ، فسقطت العصا من يده ، فتطير من ذلك . فقام بعض الأعراب فمسحها وناوله إياها وقال : أيها الأمير : ليس كما ظن العدو وساء الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقربها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

فسر الأمير مما قاله الأعرابى ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

وصف سهل بن هرون رجلا فقال : ما رأيت أكثر فهما لجليل ، ولا أحسن تفهما لدقيق منه .

ووصف اليوسفى غلاما بالذكاء فقال : كان يعرف المراد باللحظ ، كما يعرفه باللفظ ، ويعاين فى الناظر ، ما يجرى فى الخاطر ، حديد الذهن ، ثاقب الفهم ، يغنيك عن الملامة ، ولا يحوجك الى الاستزادة .

الشريعة الاسلامية والتشريعات الحديثة

بعثت جريدة البورص اجبسيان الفرنسية مندوبا من قبلها يسأل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى عن رأيه فى بعض الأمور التشريعية ، فأفضى اليه فضيلته بأجوبة غاية فى السداد والاصابة نضمها الى ما ندخره من كلماته الحكيمة ، قال فضيلته :

يجب أن تسيطر تعاليم الاسلام على الحياة الاجتماعية فى مصر ، لأن غالبية الشعب تدين بالاسلام ، كما أن الدين الرسمى هو الاسلام . هذا الى أن القرآن الكريم يفى بكل حاجات الفرد والجماعة . وقد احتاط لكل شيء وتوفر على كل الاحكام .

وهنا قال مندوب الجريدة : إن مصر تعهدت أن تكون قوانينها مقتبسة من أحدث التشريعات العصرية .

فأجاب فضيلة الأستاذ الامام : وأنا أصرح بأن أحدث نظريات القانون الحديث موجودة فى القرآن . ومن السهل أن تسن قوانين تتفق مع نظريات الكتاب الكريم .

فسأله المندوب عما جاء فى القرآن عن قطع يد السارق :

فأجاب فضيلته : عند ما نصل الى هذه النقطة سنجد أنفسنا أمام خمس حالات فقط .

وأمامنا واحدة من اثنين : إما أن أقنعك على ضوء تشريعى ، وإما أن لا أستطيع وحينئذ أنتظر حتى تقتنع ، فان ميدان التشريع الاسلامى واسع جدا ، وسنجد وسيلة للتفاهم ، ويجب أن نفهم أننا لا نريد العودة بتشريعنا الى الوراء ، كما كان فى عصور الهمجية .

قال المندوب : ولكن الآجانب قلقون .

فأجاب الأستاذ الامام : لهم العذر لأنهم يجهلون التشريع الاسلامى ، وليسوا وحدهم فى ذلك فان بين المسلمين كثيرين يجهلونه . والدليل على ذلك نظرية الاخلال بالقانون التى اعترف بها المشرعون المعاصرون أخيرا مع أنها تدرس فى الأزهر منذ ألف عام .

وإنى لأقص عليك شيئا من التاريخ: فقد طلب من الامام مالك يوما رأيه فى رجل من النصارى مات واعتنق أحد ورثته الديانة الاسلامية قبل تقسيم تركته ، فذهب هذا الذى أسلم الى القاضى ليطلب منه توزيع التركة حسب الشريعة الاسلامية . فأجاب مالك أن هذه التركة يجب أن توزع حسب قوانين المالك ، وهى القوانين التى كان يتبعها يوم موته .

وهذا يعنى أن الامام مالكا كان يحترم التشريعات والعادات غير الاسلامية .

وعند ما أتكلم عن التشريع الاسلامى ، فانى لا أعنى مذهبا خاصا . ولكننى أعنى مجموع آراء أصحاب المذاهب . فان عمل هؤلاء الأئمة كنز فريد لا يوجد مثله عند أية أمة أخرى ، ومن المستطاع الانتفاع به على أحسن السبل .

السنة

الحدود الشرعية

عن عائشة رضى الله عنها « أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم قالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ! ثم قام فاختطب فقال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لوأن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور: (١) بيان معناه (٢) بيان الحدود الشرعية وما فى معناها وحكمة مشروعيتها (٣) إذا لم يوجد فى الشريعة نص على حكم من الأحكام فماذا يكون العمل ؟

(١) معنى هذا الحديث ظاهر ، وهو أن امرأة من عِلية القوم اسمها فاطمة غلبت عليها رذيلة خلقية مرة واحدة فى حياتها ، وهى سرقة شىء يستوجب إقامة الحد عليها بقطع يدها ، فعز على قريش أمرها لما لها من علو المنزلة ، ولكنهم كانوا يعلمون شدة استمساك الرسول صلوات الله عليه بإقامة حدود الله وتنفيذها على العظيم والضعيف ، والغنى والفقير ، بنسبة واحدة ، فوقفوا بازاء ذلك حائرين ، ولكنهم ظنوا أن أسامة بن زيد يستطيع أن يشفع لها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان محبوبا عند الرسول كما كان أبوه زيد من قبل ، ولذا كان يلقب بالحِب ابن الحب . فأجابهم أسامة الى طلبهم ، ومضى الى رسول الله وسأله العفو عن السارقة فأنكر عليه الرسول هذه الشفاعة ، وقال له : أتشفع فى حد من حدود الله ! أى ما كان يليق بك أن تجرؤ على هذا .

ويظهر من هذا أن أسامة كان يعلم أنه لا تصح الشفاعة فى حدود الله بعد أن يصل أمر الجريمة الى ولى الأمر ، ولهذا أنكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو كان يجهل الحكم لعلّمه إياه . ولعل اعتقاد أسامة فى فاطمة المخزومية من كون هذه الخلة ليست عادة لها وأنها زلة قد لا تعود إليها ، هو الذى دفعه الى الشفاعة فيها .

والواقع أن فاطمة هذه قد أصبحت بعد تنفيذ الحد عليها من الصالحات ؛ فلم تؤثر عنها أية رذيلة خلقية بعد .

على أن الرسول صلوات الله عليه لم يقتصر على الانكار على أسامة ، بل جمع الناس وخطب فيهم مبينا لهم أن الاستهانة بمعاقبة الجناة إذا كانوا من العظماء ، والتشدد فى معاقبة الضعفاء ، لا نتيجة له إلا هلاك الأمة وفناؤها ، وقد هلك بسببه بعض الأمم الذين خلوا من قبل . وأقسم لهم أنه لايتأخر عن تنفيذ حدود الله على بنته نفسها . وذلك حق لا ريب فيه ، إذ لا معنى لهذا إلا إبطال القانون ، والقضاء على العدل والنظام ، فلو لم ينفذ القانون على القوى والضعيف بنسبة واحدة كان ذلك تحريضا للقوى على انتهاك حرمات الضعيف ، والعدوان عليه وهو آمن من العقاب ، فاذا فرض وقوى الضعيف كان من حقه أن ينتقم لنفسه وهو آمن من العقاب ، ويعتدى على غيره وهو آمن أيضا ، وهلم جرًّا ، وهذا هو عين الفوضى المقوضة لدعائم العمران ، الموجبة لهلاك الأمم وفنائها .

ويؤخذ من هذا الحديث أنه لا يحل لحاكم أن يقبل الشفاعة فى حد من حدود الله الآتى بيانها ، كما لا يحل لأحد أن يشفع عن مجرم فى حد وصل الى الحاكم . وهذا مما لاخلاف فيه . أما قبل وصول الأمر الى الحاكم فان الشفاعة تصح كما يصح العفو ، بشرط أن يكون مستحق العقوبة غير معروف بالجرائم ، أما إذا كان من المعتادين على إيذاء الناس ، أوكان من الأشرار الذين لا يصلحهم العفو ، فانه يجب أن يرفع أمره الى الحاكم ليوقع عليه الحد الذى يزجره عن ارتكاب الجريمة . فاذا سرق شخص من آخر ولم تكن هذه عادة له من قبل ، وظن الشفيع أن العفو عنه لايغريه ، فان له أن يشفع فيه ، وللمعتدى عليه أن يعفو عنه ، وإلا فلا يحل له العفو . وقد وردت أحاديث بهذا المعنى . منها مارواه الدار قطنى « اشفعوا مالم يصل الى الوالى فاذا وصل الى الوالى فعفا فلا عفا الله عنه » . هذا فى الحدود .

أما فى القصاص فان الشفاعة فيه تجوز ، لأنه حق العبد ، وله أن يعفو على أى حال .

وأما فى التعزير ، فقد قال الفقهاء إن الشفاعة تحل فيه . ولكن الظاهر المعقول أن عقوبة التعزير إن توقف عليها تأديب الجناة والمحافظة على النظام العام ، فان الشفاعة لا تحل فيه ، كما لا يحل للحاكم أن يعفو ، وإلا فان العفو يصح والشفاعة تجوز . وذلك لأن الشريعة الاسلامية مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة ، فعلى الحاكم أن ينظر فى هذا الى ما فيه المصلحة ودفع المفسدة .

(٢) أما الجواب عن الثانى فهو أن أصل معنى الحد فى اللغة : المنع . ويطلق على العقوبة التى وضعها الشارع لمرتكب الجريمة . وذلك لأنها سبب فى منع مرتكب الجريمة من العودة اليها ، وسبب فى منع من له ميل الى الجريمة عن ارتكابها . وكذلك يطلق على المعاصى ، ومنه قوله تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » . أى تلك المعاصى التى نهى الله عنها فلا يحل لكم قربانها . ويطلق أيضا على ما حده الله وقدره من أحكام ، ومنه قوله تعالى : « ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه » .

ونحن الآن بصدد بيان الحدود الشرعية بمعنى العقوبات وما فى معنى الحدود من قصاص وتعزير . فاليك البيان :

إن الشريعة الاسلامية قد قسمت العقوبات الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحدود . وقد عرف الفقهاء الحد بأنه عقوبة مقدرة حقا لله تعالى ، فمتى علم الحاكم بجرم استحق عقوبة الحد فانه يجب عليه التنفيذ ولا يملك العفو . والجرائم التى تستوجب الحد هى : الزنا . ومثله اللواط على خلاف ستعرفه — السرقة ، القذف ، شرب الخمر ، على خلاف ستعرفه . أما حد الذين يسعون فى الأرض فسادا فلا يخرج عن حد السرقة أو القصاص أو التعزير .

القسم الثانى : القصاص . وهو معاملة الجانى بمثل اعتدائه ، فإن القصاص معناه المماثلة ، ومنه قص الحديث إذا أتى به على وجهه . ولا يسمى القصاص حدا لأنه حق للعبد له أن يعفو عنه كما يأتى .

القسم الثالث : التعزير . وهو تأديب على ذنب لا حد فيه ولا كفارة له كما ستعرفه بعد .

ثم إن المتفق عليه من الحدود ثلاثة : حد الزنا وإن قال بعضهم إنه لا رجم ، حد القذف ، حد السرقة . أما حد شرب الخمر فجمهور الأئمة والعلماء على أنه حد . وبعضهم قال إنه من باب التعزير . ومع ذلك فقد اختلفوا فى مقداره :

فالمالكية والحنفية والحنابلة يقولون إنه ثمانون جلدة ، لأن عمر قدره بثمانين جلدة ، ووافقه عليه الصحابة .

والشافعية يقولون إنه أربعون جلدة ، لأنه هو الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد روى مسلم عن أنس رضى الله عنه « كان النبى يضرب فى الخمر بالجريد والنعال أربعين » . ويكفى هذا الحد ولو تكرر منه الشرب ، أما ما فعله عمر فقد كان من باب التعزير حيث رأى أن الخمرة قد فشت فى بعض الجهات فشدد العقوبة لزجر الشاربين ، فالزيادة ليست من الحد ، وإنما هى تعزير للامام أن يفعله .

وقد اختلف العلماء فى آلة الضرب : فبعضهم قال إنهم كانوا يضربون فى عهد النبى بالجريد والنعل وأطراف الثياب والأيدى ، وعلى هذا فلا يصح الخروج عن هذه الآلات . والجمهور على أنه يصح بهذه الآلات كما يصح بالصوت . وبعضهم يرى أنه لا يصح بالصوت إلا إذا كان الشارب متمرداً فاجراً لا يؤثر فيه ضرب اليد أو الجريدة . هذا هو حد الشرب المختلف فيه .

فلنرجع الى الكلام فى الحدود المتفق عليها :

فأما حد الزنا فقد فرقت الشريعة فيه بين الذى تزوج والذى لم يتزوج ، فشددت العقوبة على الأول ، لأنه عرف معنى الزوجية ، وقدر قيمة العدوان على العرض حق قدره ، فكان جزاؤه الاعدام . ولا ريب فى أنه جزاء يناسب هذه الجريمة مناسبة تامة ، لأن العدوان

على العرض بهـذه الصورة الشنعة كالعدوان على النفس ، بل ربما فضل الغيور قتـله على الزنا بحليلته أو محرمه . وكثيرا ما نرى الناس يقتل بعضهم بعضا من جراء ذلك . ولذا نجد القوانين فى كل الشرائع قد رفعت القصاص عن قاتل الزانى بامرأته ، لأنها ترى أن هذه الجناية تستوجب قتل مرتـكبها .

أما غـير المتزوج فقد قدرت له مائة جلدة ، لما عرفت من أنه لم يعرف معنى الغيرة على الزوجة ، فـكان له حق فى التخفيف .

ولم يخالف فى هذا الحد إلا بعض المعتزلة والخوارج ، فإنهم قالوا إن عقوبة الرجم كانت موجودة فى صدر الاسلام ثم نسخت بقوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . فالزانيان يستحقان الجـلد مطلقا سواء كانا محصنين أولا . ولـكن دليلهم هذا لا يتم إلا إذا ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرجم أحدا بعد نزول هذه الآية .

ولـكن الجمهور قالوا : إن رسول الله قد رجم بعد نزول هذه الآية ، بدليل أن أبا هريرة حضر الرجم وهو لم يسلم إلا سنة سبع ، وسورة النور نزلت سنة ست أو خمس . وقد رجم الخلفاء بعد النبى صلى الله عليه وسلم وصرحوا بأن الرجم حد .

وقـد نازع هؤلاء بأن الـكتاب لا يصح نسخه بالسنة ، وأجيب بأن السنة المشهورة تخصص بلا خلاف ، وهنا خصصت السنة الزانى بغير المحصن . وهـذا الخلاف لا يترتب عليه كبير فائدة عملية ، لأن حد الزنا منوط فى الواقع باقرار الزانى ، فاذا لم يقر فانه لا يمكن إثباته عليه بالبينة ، لأنه لا يثبت إلا بأربعة شهود يرون الإيلاج بالفعل ، وذلك إن لم يكن محالا فهو متعذر . ومن يتتبع أحاديث الرجم الذى وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسـلم وزمن الخلفاء فانه يجد أن مرتـكب الجريمة هـو الذى كان يذهب بنفسه ويعترف بأنه زنى ، وكان مع هـذا يناقش مناقشة تدل على عدم الرغبة فى توقيع هذه العقوبة . فـكأن هـذه العقوبة لا تنفذ إلا على من أراد أن يطهر نفسه من هذه الفاحشة ، ومن إثم الاعتداء على عرض غيره . على أنه إذا وُجـد مع امرأة لا زوج لها فان له أن يدّعى أنه تزوجها ، وذلك شبهة تدرأ الحد فى بعض المذاهب .

ولعل قائلا يقول : إن هـذا لا يجعل للحد كبير فائدة ، لأن إثباته منوط بأربعة شهداء والشهود الذين يعلمون أن من ورائهم حد القذف وهو ثمـانون جلدة إذا قصر واحد فى آداء الشهادة ، لا يقدمون على الشهادة . وهل ترى أنه إذا وجد الزوج أجنبيا مع امرأته يتركهما على هذه الحالة ويخرج يتلمس الشهود حتى إذا جاءوا وجـدوا الرجل قضى وطره ، وضاع حق الزوج !

والجواب : أن هـذه الجريمة الشنعة والفاحشة المنـكرة ، لم يقتصر ضررها على الزانية والزانى وحدها ، بل يتعداها الى الأسرة بتمامها ، فتهدم شرف قوم غافلين لا ذنب لهم ، وتعرضهم للمهانة والعار ، وتسقطهم عن مرتبتهم المحترمة بين الناس . فحرصا على كرامـة الأسر وصيانة

لأعراض الناس شددت الشريعة الاسلامية فى إثبات هذه الجريمة كى لايجرؤ الناس على اتهام بعضهم بعضا بدون مبالاة . وفى الوقت نفسه جعل لها أقصى عقوبة (إذا كان فاعلها محصنا) تقديرا لفظاعتها وإشعارا للناس بأنها تساوى جريمة القتل . وبذلك يزدجر المؤمنون الذين يخافون الله ويخشون غضبه وبطشه ، ويحسبون لغيرته على عباده حسابا . فالمؤمن الذى يقرأ قول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » ويعلم أن حد الزنا يساوى حد القتل ، فإنه يدرك عظم المسئولية إذا أفلت من عقوبة الزنا . ولهذا ذهب بعض المؤمنين حقا الى الرسول واعترف بجريمة الزنا الموجبة للقتل لينجو من عذاب الآخرة بالحد الدنيوى .

أما حق الزوج فإن الشارع لم يهمله فى هذه الحالة ، بل جعل له حدا معقولا يدفع عنه أذى الغضب والغيظ من جهة ، ويشكك الناس فى أمر الزوجة فلاتتأذى أسرتها بشرها من جهة أخرى .

بيان ذلك : أن الأجنبى إذا رمى امرأة عفيفة أو رجلا عفيفا بالزنا ولم يات بأربعة شهداء كان جزاؤه أن يحد حد القذف (ثمانين جلدة) . أما الزوج فإنه إذا ادعى أن امرأته قد زنت فإن الشارع لم يكلفه الاثبات كالأجنبى ، إذ لا مصلحة للزوج العاقل فى قذف زوجته واتهامها بالزنا جزافا . فإن عار ذلك وإن لم يلحقه هو دائما لإمكانه أن يتخلص منها ، ولكنه يلحق أبناءه وبناته ، فإن لم يكن له منها أبناء وبنات فإنه يضن بكرامته عن الامتهان بين الناس مؤقتا ، ولهذا لم يسو الله عز وجل بين الزوج وبين الاجنبى إذا اتهم زوجه ، فشرع لهما فى هذه الحالة اللعان ، وهو أن يقول الزوج أمام القاضى : أشهد بالله أننى صادق فيما رميتها به من الزنا ، ويكرر ذلك أربع مرات ، ثم يقول بعد ذلك : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتقول الزوجة : أشهد بالله إنه لكاذب فيما يرميها به من الزنا ، وتكرر ذلك أربع مرات ، ثم تقول : إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . وبذلك تبين منه مؤبدا . وهذ المعنى يسجل غضب الله ولعنته على الكاذب حقا .

ثم إذا ثبت أن الأجنبى كان معها فى خلوة فان الشارع جعل لها عقوبة على الخلوة بالأجنبى ، فأوجب على الحاكم تعزيرها بالسجن والضرب .

وبهذا تعلم أن حد الزنا فى الشريعة الاسلامية قد اشتمل على ثلاثة أمور :

(أحدها) شدة الحيطة فى إثباته ، لأنه ليس جريمة شخصية بل يتعير بها الأبرياء .

(ثانيها) أنه عقوبة تناسب العدوان على العرض ، وهو وإن كان شديدا فى بعض النواحى ، ولكن هذه الشدة تنبئ بعظم الجريمة عند الله فقط ، ومن أفلت منها فى الدنيا لصعوبة الاثبات فله فى الآخرة سوء الجزاء .

(ثالثها) إذا تعذر الاثبات على الزوج فله فى تأديبها طريقان : التعزير على خلوتها بالأجنبى بالسجن ونحوه ، وهى المستعملة فى القوانين الوضعية الآن ، ومسألة اللعان التى ذكرناها .

وفى ذلك من الزجر عن هذه الفاحشة والاحتياط فى درئها وتذكير المؤمنين بخطورة أمرها عند الله وتخويفهم من عقابه الدنيوى والأخروى مالا مزيد عليه فى الحسن والابداع . لأن الشريعة الاسلامية حريصة على محو الرذائل الخلقية ، والضرب على أيدى العابثين بالأخلاق التى عليها قوام حياة الأمم وسعادتها . حريصة على كرامة الناس وأنسابهم . فلم يبق أمام الأمة إلا أن تستمسك بالصيانة والحياء ، ولا تجاهر بالفواحش ، وإلا أوشك الله أن يسلط عليها من لا يرحمها.

أما اللواط فانه من الجرائم الخلقية التى لا تليق بالنوع الانسانى وفطرته التى فطره الله عليها . فاللواط فيه عدوان ظاهر على الانسانية ، وخروج عن سنن الله الطبيعية ، ولذا سماه الله فاحشة كالزنا . قال تعالى : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » ! فمن ارتكب هذا الفعل الشائن فقد اختلفت فيه آراء الأئمة : فمنهم من قال : إنه يعاقب عقوبة الزانى وهى الاعدام إن كان محصنا ، أما الموطوء فعقوبته الجلد كالبكر ، لأنه لا يتصور فيه إحصان . ومنهم من يقول إن عقاب اللائط من باب التعزير لا من باب الحد ، فعلى القاضى أن يحبسه ، أو يجلده بما يراه رادعا له عن الجريمة ، فاذا تكررت منه ولم يزدجر عزر بالاعدام .

أما حد السرقة فقد بينه الله تعالى بقوله : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » أى اقطعوا اليد اليمنى من كل واحد سرق سواء كان رجلا أو امرأة .

واعلم أن الشريعة الاسلامية قد وضعت قوانين المعاملات وفصلتها أحسن تفصيل ، فوضعت نظما للبيع والشراء ، والرهن والإجارة ، والشركة والشفعة . ووضعت قوانين للاقتصاد والتجارة والزراعة والصناعة . ولم تترك شيئا إلا وضعت له نظاما مبنيا على مصلحة النوع الانسانى ، وترقية حاله ، ورفع الخصومات من بين الناس ، وتوطيد علائق الثقة فيما بينهم ، ونزع العداوة والبغضاء من قلوبهم ، وحفظ حقوق الضعفاء ورفع الحيف عنهم . وقد أخذ المجتهدون من النصوص التى جاء بها الكتاب الكريم أو السنة الصحيحة ما فيه مصالح الناس التى اقتضتها حادثات الأزمنة المختلفة . فكان للمسلمين أعظم ثروة فقهية يمكنهم أن يجعلوها أصلا لكل قانون صالح ينتفع به المجتمع ، وتقوم عليه دعائم العمران ، وتسعد به الشعوب والأمم سعادة حقيقية . ومع هذا فإنها لم تضع عقوبات خاصة لمن خالف قوانين المعاملات المالية ، بل تركت أمر هذه العقوبات للحاكم ليضع لها ما يناسب كل زمان ومكان . وهذا هو باب التعزير . فقد جعلت الشريعة للحاكم سلطة يضع بها العقوبات التى تليق بمن يخالف أمر الشريعة أو نهيها ، بحسب البيئات والأزمنة ، وبحسب ما يترتب على مخالفتها من الشر والفساد ، ما عدا السرقة فانها قد وضعت لها الحد الذى سمعته .

ولقائل أن يقول : لماذا عنيت الشريعة الاسلامية بالسرقة دون غيرها من الأنواع المؤذية للمجتمع ، فتركت الغاصب والمختلس والخائن ، كما تركت الذى ينفق أمواله فى الشهوات الضارة ، أو فى إيذاء المجتمع أو نحو ذلك ؟

والجواب : أن الذى جاءت به الشريعة الاسلامية من ذلك هو تقدير العزيز الحكيم ، وهو عين الحكمة والصواب .

بيان ذلك : أن السرقة هى أخذ مال الغير خفية من حرز (أى محل محفوظ فيه) . ولا ريب أن الذى يقدم على هذا الفعل خطره يطرد فى كل زمان ومكان ، لأنه لا يبالى فى سبيل الوصول الى غرضه بارتكاب أية جريمة يتوقف عليها الحصول على ما يريد ، فهو ينقب الدار ، ويكسر القفل ، ولا يتأخر عن قتل من يقف فى سبيله أو التمثيل به ، فهو مهدد للناس فى حياتهم وأموالهم وأعراضهم . فاذا لم يضرب على يد السارق من أول الأمر ، وإذا لم تشدد عليه العقوبة ، كان شره عظيما ، وخطره شديدا . وقد عرفتنا الحوادث أن السارقين قد قتلوا أنفسا كثيرة فى سبيل وصولهم الى سرقة المال ، واعتدوا على أعراض كثيرة .

أما غير السارق كالخائن والغاصب وغيرهما فإنه يقابل رب المال وجها لوجه ، غايته أنه خدعه أو غشه ، أو أخذ منه المال بقوته على مرأى من الناس ، وكل هؤلاء يمكن اتقاء شرهم والضرب على أيديهم قبل أن يستفحل أمرهم . فلهذا ترك الشارع أمر تأديبهم للحاكم كى يعزرهم بما يراه زاجرا لهم بحسب ما يناسب البيئة ويتفق مع نظام الأمن العام . على أن الحوادث التى من هذا القبيل قد يتفاوت سببها ، وقد تكون عظيمة وحقيرة ، فيجب أن يترك تقدير عقوبتها للحاكم ليقدر لها ما يناسبها ، بخلاف السرقة فانها جناية ترتكب فى الخفاء ، وآثارها المترتبة عليها لا تختلف غالبا ، فهى تهدد الناس فى كل زمان ومكان .

ومثل الخيانة والغصب سائر المخالفات المالية ، فإنه لا يمكن ضبط عقوبة مطردة لها ، لأن آثارها تختلف اختلافا كبيرا . مثلا شخص بذر ماله فى المباحات والزخارف حتى نفد ماله فإن عمله هذا فى نظر الشريعة الاسلامية لا يجوز ، ولكن ضرره يختلف ، فإذا كان فى بيئة صالحة مستقيمة بحيث لا يتأثر به أحد كان الضرر مقصورا عليه وحده ، أما إذا كان فى بيئة سريعة التقليد فإن ضرر عمله يتعداه للغير فيكون قدوة سيئة ، ولذا يجب أن يترك تقدير تأديبه للحاكم . ولذا قال بعض الأئمة : إذا بذر ماله فى مباح فإن ذلك التبذير لا يوجب الحجر عليه . ولكن الجمهور يقولون : إن التبذير فى ذاته يوجب الحجر ، والحجر نوع من أنواع التعزير ، فإن فيه إعلانا بأن الرجل لا يحسن التصرف ، ولا يوثق به فى باب الأموال ، وذلك توبيخ مستمر لا يرضاه عاقل . أما التبذير فى الشهوات المحرمة فإنه يوجب الحجر باتفاق .

وهاهنا سؤال معروف ، وهو أن قطع اليد فيه إتلاف لعضو من أعضاء الانسان ، وذلك لا يتناسب مع الجريمة إذا كانت يسيرة ، فان أقل ما تقطع فيه اليد عشرة دراهم ، فالعقوبة شديدة .

وهذا الكلام منشؤه الغفلة عن معنى الجريمة وعن الآثار الضارة المترتبة عليها ، فانك قد عرفت أن هذه الجريمة من أشد الجرائم خطورة ، فاذا فشت السرقة بين الناس فقد هددوا فى أموالهم وأعراضهم وأنفسهم كما ذكرنا ، وأصبحت حياتهم مريرة لا فائدة منها ، فان السارق

كالحيوان المفترس الذى يفتك بكل ما يلاقيه ، فجريمته يجب أن تقابل بالقسوة المتناهية كى ينقطع دابرها من بين الناس بتاتا . فاذا تخيل شخص أن العقوبة شديدة فانه يجب أن يعلم أن فظاعة الجريمة وآثارها فى المجتمع أشد وأنكى . ثم إن العقوبات لم توضع إلا لزجر فاسدى الأخلاق ، وهؤلاء لا ينزجرون بالرفق واللين بدون نزاع . فاذا لم تتمثل أمامهم شدة العقوبة فانهم لا يزجرون أبدا . ولنا على ذلك أمثلة ملموسة عملية : مثلا : الكوكايين والحشيش قد وضعت لهما الحكومة فى أول الأمر عقوبة خفيفة ، فكانت مغرية لضعاف النفوس والأشرار على ارتكاب الفعل لا زاجرة لهم ، فلما سنت قوانين صارمة ، وأدرك هؤلاء الأشرار خطورتها ، كفوا عن تعاطى هذه السموم . وهذه القوانين تقرها الشريعة الاسلامية وتحبذها ، لأن للحاكم أن يعزر بما يراه قاطعا للجرائم ، سواء كانت مقصورة على الشخص أو تتعداه الى المجتمع .

وأيضا فقد رأينا فى زمن من الأزمنة اضطراب حبل الأمن فى البلاد المقدسة اضطرابا شديدا ، فلما نفذ فيهم حكم الله تعالى وقطعت أيدى بعض السارقين ، لم تلبث الجريمة أن اختفت وحل محلها الأمن والطمأنينة .

على أن الذى يتأمل فى المثالين المذكورين يدرك أن شدة العقوبة إنما هى فى ظاهر الأمر ، أما فى الواقع فهى رحمة بالسارقين فاسدى الأخلاق ، فانها قدزجرتهم فعلا ، وأوقفتهم عند حدهم فتركوا هذه الجريمة المؤذية للمجتمع شر إيذاء .

ولعل قائلا يقول : إن النظر الى الجريمة على هذا الوجه يقتضى أن يد السارق تقطع ولو سرق درهما واحدا ، فما فائدة تخصيص القطع بعشرة دراهم !

والجواب : أن الشارع أراد أن يجعل سبب القطع ما لا له قيمة فى الجملة ، وهو ما يتضرر به صاحبه ، فالعشرة دراهم قد تكون قوت أسرة فقيرة يومين ، فإذا سرقت منها تضررت ، أما مادون ذلك فانه لا يوجب القطع لهوانه غالبا ، فاذا أفلت من القطع فى هذه الحالة فانه لا يفلت من التعزير بالسجن أو الضرب حتى لا يتعود .

ومثل ذلك ما إذا أراد أن يسرق فنقب الدار أو تسور الجدار ثم منعه من السرقة مانع ، فانه يستحق فى هذه الحالة عقوبة التعزير الرادعة له عن العودة . وكذا من أقدم على السرقة ولم تتوفر فيه الشروط التى ذكرها الفقهاء ، فان الشارع يوجب تعزيره كى لايعود .

ولعل فيما ذكرناه ما يقنع هؤلاء الذين يتخيلون شدة هذه العقوبة ، فيدركوا أنها هى عين الرحمة للسارقين وللمجتمع .

هذا وقد ضاق المقام عن تكملة الكلام ، فانتظره فى العدد القادم ، إن شاء الله ؟

عبد الرحمن الجزيرى

معاكسة المسلمين فى توحيدهم

لسنا ممن يرى الحجر على مطلق الدعوة للمذاهب المختلفة ، فانه لما كانت الحقيقة بنت البحث ، وكان ترقى الإنسان معلقا على إدراكه للحقائق ، كان مما يعطل ترقيه منع الناس التناقش فيها ، والتفاهم عليها ، ولكن الأمر الذى يتنافى وهذه الحاجة أن يسلك المتباحثون طريق المغالطات والمماحكات والمماحلات ، فإن هذا الأسلوب يؤدى الى المنابذات والمهاترات ، فتضيع الحقائق فى هذه الحالات النفسية ، وتبقى آثار هذه الخصومات بين المتعايشين فى بلد مثارا للفرقة والقطيعة بينهم .

أمر المسلمون بالدعوة الى دينهم ، ولكن كتابهم حد لهم فيها حدودا ، وطالبهم بعدم تعديها ، فقال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وفى هذا أمر صريح باستخدام الحكمة فى الدعوة . والحكمة غاية ما يتصف به أصحاب القلوب الكبيرة من العدل والانصاف ، والحلم والأناة ، والأدب والاتزان فى الادلاء بالحجة ، والتبسط فى البحث ، فإن بدر من الخصم ما يدل على أنه لا يعتد بالأدلة ، ولا يأبه بالأعلام ، وجهت إليه موعظة ترده عن هذا الغى ، على شريطة أن تكون حسنة خالية مما يثير فى نفسه نزعة المشارّة والمحادّة . فإن أكدت الموعظة ، جودل ولكن برفق ولطف ، وهذا أبعد مدى عينه الشارع لمن يتصدى للدعوة الاسلامية .

كذلك أمر النصارى أن يدعوا الى دينهم ، وصرح لهم الانجيل بأن يتلطفوا فيها جهد الطاقة ، حتى قرر لهم أنهم لو آنسوا من قوم كراهة لأقوالهم فلا يقيموا بين أظهرهم ، وليرحلوا الى حيث تطلب دعوتهم .

هذه حدود الدينين اللذين يتنازعان السلطان فى العالم اليوم ، فما بال بعض الدعاة يرتكب ما تنكره الفطرة السليمة ، ويحرمه الذوق والأدب ، من استخدام الأساليب التى لا ثمرة لها غير إحفاظ النفوس ، وإثارة الريب ؟ هل غاب عنهم أن هذه الخطة تزيد فى بعد الناس عنهم ، وهربهم منهم ، وإساءة الظن بهم وبما يدعون إليه ، فهل الى هذه النهاية يريدون أن يصلوا من دؤوبهم فى الدعوة ، وبذلهم القناطير المقنطرة فى سبيلها من الذهب والفضة ؟

نكتب هذا وبين أيدينا كتب ورسائل محشوة بكثير من الشتائم والمطاعن ضد الاسلام وكتابه ، وكنا لا نأبه لها لاعتقادنا أن عارها يعود عليهم دوننا ، وأنها من عوامل فشلهم ، وخيبة أملهم ، فضررها حائق بهم لابنا ، ولكننا رأينا بعضها نهج نهجا جديداً فى المغالطة ،

فزعم أن القرآن يقرر بنوة عيسى عليه السلام لله جل وعز ، وأن المسلمين لم يفهموا دينهم على الوجه الذى يجب عليهم أن يفهموه عليه من هذه الناحية .

هنا لا نقول إنهم يجهلون مذهب القرآن فى هذه المسألة إلى هذا الحد ، ولكنهم يأملون خدع العوام ، والتأثير فى عقولهم ، وهى طريقة تعود عليهم بالوبال ، فان هؤلاء العوام متى لجأوا إلى علمائهم ، وقرأ لهم هؤلاء ما ورد فى دينهم ، من نفى هذه العقيدة تصريحا بغير تلويح ، وبآيات محكمة لا تقبل التأويل ، أدركوا أن هؤلاء الدعاة يتقولون على الاسلام ولا يتحرجون ، فقاسوا عليه كل ما يقولون ، وفى هذا ربح لنا عظيم أيضا .

وبما أنه قد طلب الينا أن نكتب ما يزيل اللبس من هذه المسألة ، فلم نجد بدا من كتابة عجالة فيها :

أما أن القرآن يعلن على رءوس الأشهاد بأن الله يتنزه عن الوالد والولد ، وأن عيسى رسول من رسله وعبد من عبيده ، فمنه كثير فى الكتاب الكريم ، قال الله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » وقال : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولدَ اللهُ وإنهم لكاذبون » وقال : « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » وقال : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » وقال : « وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هَدا ، أن دَعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتِى الرحمنِ عبدا » وقال : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . وفى الكتاب الشريف غير هذا كثير ، وكلها نصوص صريحة فى نفى دعاويهم .

ومما لجأوا إليه من مغالطاتهم الاحتجاج بما أطلقه الله على عيسى عليه السلام من أنه روح الله ، وغاب عنهم أن كل إنسان نفخ فيه من روح الله ، وأنه إن صرح الكتاب بأن عيسى خلق بغير أب فقد صرح بان الله خلق آدم بغير أب ولا أم ، وقد دحض الله كل هذه الشبهات بقوله تعالى : « يأهل الكتاب لا تَغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها الى مريم وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا » وقال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

هذا ما يقال من ناحية النقل ، أما ما يقال من ناحية العلم ، فهو لا يقل إلزاما لهم فى هذه المسألة ، جاء فى دائرة معارف لاروس الفرنسية تحت كلمة تثليث ما ترجمته حرفيا :

« إن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة فى كتب العهد الجديد (الانجيل) ولا فى كتاب الآباء الرسوليين ، ولا تلاميذهم الأقربين ، فان الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتى الواقف عند التقليد يزعمان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمن رغما عن الأدلة التاريخية التى تبين لنا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف نمت ، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك .

« نعم إن العادة فى التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب والابن والروح القدس ، ولكنا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها نصارى اليوم ، وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين رأوا شخصه وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المكونة لذات الخالق كما يدعون . وما كان بطرس حواريه يعتبره إلا رجلا يوحى إليه من عند الله . أما بولس فانه خالف عقيدة التلاميذ الاقربين لعيسى وادعى أن المسيح أرقى من إنسان ، وأنه نموذج إنسان جديد ، أى عقل سام مقوله من الله مباشرة ، وأنه كان موجودا قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد تجسد فيه لتخليص الناس من الخطيئة ولكنه مع ذلك متعلق بالله الآب .

الى أن قالت دائرة المعارف الفرنسية : « كان الشأن فى تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت هى السائدة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين . فان الناصريين (سكان مدينة الناصرة التى تسمى بها النصارى) والايبيوتيين وجميع الفرق النصرانية التى تكونت من اليهود ، اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون أو ملحدون . قال جوستن مارشير ، (وهو مؤرخ لاتينى من أهل القرن الثانى) : إنه كان فى زمنه فى الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح (أى الموعود به فى التوراة) ، ويعتبرونه إنسانا محضا وإن كان أرقى من سواه ، ولكن حدث بعد ذلك أنه كلما زاد عدد المتنصرين من الوثنيين ، ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل » انتهى ما كتبته دائرة المعارف الفرنسية .

هذا ما قرره العلم ولدينا منه مزيد ، فعلى الدعاة الذين يخوضون فى أمثال هذه المسائل الجدلية أن يلموا بجميع أطراف الموضوع الذى يدعون إليه ، ذلك أولى لهم من هذه المغالطات والمماحكات التى يسرفون فيها ، ويقفون أقلامهم وأموالهم على إذاعتها ، فقد ذكر الكتاب الشريف أسلافهم ممن حاولوا التشكيك فى الاسلام والصد عن سبيله ، وبشرهم بالفشل والخيبة وسوء المنقلب ، فقال تعالى فيهم : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلَبون »

محمد فريد وجدى

قصيدة الفيلسوف ابن سينا

فى النفس الانسانية

الفيلسوف ابن سينا هو أبو على الحسين بن عبد الله الطبيب الاسلامى المشهور والفيلسوف الكبير. كان نادرة عصره علما وذكاء، له كتب غاية فى الافادة منها: الشفاء والقانون والنجاة والاشارات وغيرها مما يقرب عدده من مائة مؤلف.

ولسنا هنا بصدد إيراد ترجمته ولكننا نريد نشر قصيدته فى النفس، فقد أبدع فيها كل الابداع، وفيها إشارات فلسفية وصوفية غاية فى السمو، قال رحمه الله:

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات توجع
ألفت وما سكنت فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكى وقد ذكرت عهودا بالحمى ... بمدامع تهمى ولما تقلع
وتظل ساجعة على الدمن التى ... درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرب المسير من الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
وغدت مخالفة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأى شىء أهبطت من شاهق ... عال الى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الاله لحكمة ... طويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين فخرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

اللغة العربية بين القوة والضعف

فى برامج الدراسة

دعائم الاصلاح :

من خصائص الانسان أنه دائم التجدد فى أفكاره وأخلاقه ، سريع التطور فى عاداته ومواضعاته ، فهو لا يرضى بالواقع ، ولا يطمئن اليه طويلا ، لأنه يرى فى التسليم المطلق بهذا الواقع دليل الجمود ، وعدم الرضا به والثورة عليه من علائم الحيوية اليقظة تنساب فى مشاعر الأمة فتدفعها الى تجديد حياتها كلما أحست عوامل الهرم تمشى اليها فى خطوات الزمن ، وهذا التجديد فى حيوية الأمة وتكوينها الاجتماعى ، وكيانها الفكرى ضرورة اجتماعية ، أو هو ـ على الأصح ـ طبيعة الحياة النامية الشاعرة ، لامحيص عنه لأية أمة من أمم الأرض التى تربطها شرايين البشرية العامة ، وتوحد بينها الأفكار الانسانية الفاضلة ، وتلائم بين عناصرها الفطر النقية الصافية .

بيد أن تلك الثورات التى تندفع فى تيارها الأمم لتجديد مقوماتها تمكينا لبقائها قد تكون عصية جامحة ، أو هى ـ فى الحق ـ تولد عصية جامحة ، لأنها تبدأ بالهدم ، أوقل : إن عملها فى الواقع هو الهدم ، تاركة البناء الى وسائل وأسباب لم تدخل فى حيز الوجود ، ولكنها كامنة فى ضمير الغيب ترتقب جوا صالحا لظهورها ، ومن ثم كانت تلك الثورات الجامحة فى حاجة شديدة الى حكمات تكفكف من غربها ، وتفل من حدها ، وتسيطر على أزمة اتجاهها ليمكن توجيه القوى الاصلاحية الى الجرى فى سبيل معبدة يؤمن فيها على الأمة العثار .

والتاريخ شهد من هذه الثورات الفكرية والاجتماعية فى شرق الارض وغربها قديما وحديثا الشيء الكثير ، وكان دائما النصر فيها حليف الحق . وتاريخ الاسلام ولغته العربية أغنى وأخصب فى هذا المعنى من أى تاريخ آخر ، وحاضرنا اليوم يشهد أعنف الثورات الفكرية العاصفة ، يشهدها فى الغرب المضطرب بأحداثه ، وفى الشرق المضطرم بأعاصيره ، ولسنا فى خاصتنا بنجوة من هذه الثورات ، فقدبدأت بها نهضتنا الفكرية والادبية ، وهى التى أيقظت فينا روح الشعور بالحياة ، ونبهت فى مشاعرنا الاحساس بقيمة وجودنا الفكرى ، نعم إنها فى مبدئها كانت ثورة تقليدية منقولة عن الغرب ، ولكنها سرعان ما استشرقت وأصبحت عاملا مهما من عوامل الحياة فى الشرق الاسلامى العربى ، إيمانا بما فيها من خير عظيم .

لهذه الثورات الاصلاحية عرامة فى هدم الماضى والإزراء بالحاضر، لأنها تتطلع الى مثل عليا لم تدخل فى حساب الغابرين ، ولكن أى ماض ذلك الذى يتأثر بها ويذوى عوده

من لفحها ، وتعمل فى بنائه معاولها لتنقضه وتقيم على أنقاضه جديدا لا يتشح بقديم ؟! ذلك ماض لم ترس الحياة قواعده على وشيجة منها ، ولم تقم أصوله على إيثار الخصائص الانسانية العامة الخالدة التى لا تعرف قيود الزمن . أما ماض قويت حيويته ، وترسخت أسسه على قواعد إنسانية ، وارتبطت عناصره بوشائج فكرية ، فذلك أصلب عودا ، وأخلد وجودا من جديد تبنيه نزوات النفوس ، وشهوات الأفراد . وليس التجديد حينئذ إلا بعث ذلك الماضى ونقله فى حساب الفلك من دورة الأجيال الغابرة الى هذا الحاضر المشهود .

قد يتشاءم بعض الناس فرقا من عواقب تلك الثورات ، بل قد يذهب الفزع ببعض المخلصين لماضينا المجيد الى حد الجزع خشية أن تمس ذلك الماضى مسا يغير معالمه الى أوضاع تنكرنا وننكرها ، لأنها ليست منا فى طبيعتها ، ولسنا منها فى طبيعتنا كالذى ترى فيما أخذ الشرق عن الغرب من تقاليد ومظاهر فى مراسم الحياة وشئونها ، وليس لذلك التشاؤم موضع ولا لهذا التخوف مكان ، لأن لماضى الاسلام ولغته المبينة من القوة الذاتية والحصانة التاريخية ما يحميه ويقيه شر تلك الأعاصير الثورية التجديدية ، بل لقد أفاد ذلك الماضى من هذه الثورات ، فكان لها فضل كبير فى تنبيه قادة الفكر وزعماء الاصلاح الى كشف ما طوته أحداث الزمن من مجد تليد ، وتاريخ حى مجيد .

كانت اللغة العربية منذ بدأت النهضة العلمية فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة ، هدفا لثورة عاصفة قامت فى صورة إصلاح أدبى ، يعتمد على وسائل لا تتفق مع طبيعة الشرق وبيئاته ، ولا مع نشأة هذه اللغة وأطوارها ، فقام دعاة الاصلاح فى صيحات منكرة ، بعضها ينادى باحلال العامية محل الفصحى فى المعاهد والمدارس تلقينا وتدريسا وتاليفا ، وهذه الناحية كانت آخر ما بقى للغة العربية من مظاهر الحياة فى قومها . وكأنما أضمر هؤلاء النفر وأد البقية الباقية من لغة القرآن ، ودفع الشعوب العربية الى بلبلة بربرية لا أصول لها ولا قاعدة ، وهم مع ذلك مختلفون فى الدوافع التى دفعتهم الى اختيار هذا الطريق الشائك المعوّق لنهضة الأمة ، بل الذى يدفعها الى الوراء دفعا لا تؤمن مغبته ، فنهم من تدفعه الى ذلك نزعة عنصرية لا تقدر للعلم حرمة ، ولا تعرف غير مذهبها فى الحياة مذهبا . ومنهم من يدفعه اليه شعور بالعجز عن القيام بأعباء اللغة العربية وقواعدها الفنية نحوا وصرفا وبلاغة وعروضا وأدبا ، وبعضها ينادى بحذف كثير من أبواب القواعد محتجا بصعوبتها وتعدد ضوابطها وكثرة صورها وشتيت مذاهبها . وقريب من هذا ، أو هو صورة صحيحة لتمثيل هذا المذهب ، ذلك الذى أعلنه أحد أساتيذ الجامعة المصرية فى كتاب نشره على الناس ذهب فيه مذهبا غريبا فى خلط قواعد النحو ومزجه بالبلاغة ، وقد نقده كثير من الأدباء ورجال اللغة . وبعضها ينادى بانكار مأثور الأدب العربى شعرا ونثرا ، وينكر على البلاغة العربية شخصيتها ،

ويزعم أنها مأخوذة عن البلاغة الأجنبية . وهكذا صور تتعدد فى مظاهرها وتتحد فى أغراضها ، ولكنها فى الواقع أبانت عن الضرورة فى إصلاح طرائق تعليم اللغة العربية وبرامج دراستها فى معاهد العلم ومدارسه ، وأبانت عن الحاجة الشديدة الى إصلاح أسلوب الحديث فى مجتمعات الثقافة العامة والخاصة ، وأبانت عن الحاجة الى رقابة فنية لغوية لأسلوب الكتابة فى الصحائف اليومية والمجلات العلمية ، وأبانت عن وجوب خضوع الرسميات الحكومية فى المصالح والدواوين لقوانين اللغة العربية ، وأن يكون ذلك فى شىء من الالزام . وفى تحقيق هذه الأمور ضمان قوى لتجديد ديباجة اللغة وعودة مجدها . وإذا أضفنا الى ذلك من الناحية الأدبية دراسة تاريخ الأدب العربى دراسة تحليلية تقوم على عرض البيئات عرضا يكشف عن أطوارها وما اعتراها من خمود أو نهوض ، وتقوم على تعرف البواعث الدافعة الى إنشاء ذلك الأدب ، وكذلك يضاف اليه دراسة النصوص الادبية على منهج القدامى فى الجمع بين النقد الأدبى والموازنات ، وبحث القواعد اللغوية فى مناسباتها ، والاستطراد الى ذكر الشواهد المماثلة . نعم إذا أضفنا ذلك الى تلك الأمور التى نبهتنا الى الحاجة اليها ثورة الاصلاحيين ، أمكننا أن نهتدى الى طريقة علاج الضعف اللغوى ، وأمكننا أن نضع أسسا لدعائم الاصلاح الادبى المرتكز على العلم والبحث ، وأمكننا أن نشرب الشباب المتعلم حب العربية ونجعلها ميسرة لقلمه ولسانه ، وأمكننا أن نجعل منها بقدر الامكان لغة شعبية تحل محل اللهجات العامية المتكاثرة .

وفى الحق إن حالة اللغة العربية فيما بيننا تدعو الى المسارعة فى اتخاذ الطرق الفعالة لجعلها لغة حية محبوبة ، نحرص عليها فى أحاديثنا ودراساتنا ، وكتاباتنا ، وتسود مجتمعاتنا ، وقد أحس القائمون على تعليمها فى معاهد العلم باستفحال الداء ، فنادوا وكتبوا وعرض كل ذى رأى رأيه فيما يراه من وسائل الاصلاح ، وتقدم مفتشو المعارف الى الوزارة بآرائهم ، ويكاد الاجماع ينعقد على استضعاف الطلبة فى اللغة العربية ، وتوجيه وجوه الاصلاح الى هذه الناحية ، ولكننا فى الواقع محتاجون الى نهضة إصلاحية فى اللغة العربية عامة تتضافر عليها الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية ، ووزارة المعارف فى مدارسها ، والمجمع اللغوى ، والحكومة من وراء أولئك ، والصحائف والمجلات الأدبية والعلمية .

وقد أجملنا فى هذا المقال بعض الدعائم التى يقوم عليها الاصلاح اللغوى فى نظرنا ، وسنفصلها بعض التفصيل فى مقال تال ، راجين من الله تعالى أن يوفق المصلحين الى العمل بها ، لتتبوأ اللغة العربية مكانها من حياة الأمة فى نهضتها الشاملة الموفقة ؟

صادق ابراهيم عرجون

سيرة أسامة بن زيد

تمهيد :

إذا تكلم الكتاب عن حياة من سادوا الناس وبلغوا درجة الامارة فيهم من الموالى : أمثال بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأسامة بن زيد ، فانما يتكلمون حول قاعدة المساواة ، وعلى مبدأ الإخاء الذى جعله الحق سبحانه وتعالى أول لبنة بنى عليها صرح ذلك المجتمع العالمى الاسلامى ، وحث الآخذين بدينه على الجرى عليها فى هدم مابنته الجاهلية من الفروق التى كانت موجودة بين طبقات الناس والقبائل ، فأجابه الكل بالسمع والطاعة ، حتى قال عمر بن الخطاب : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يريد بلالا . وقال سلمان الفارسى لمن سأله عن أبيه : « الاسلام أبى » !

وأما ما يؤثر عن سيد التابعين سعيد بن المسيب من رفضه مصاهرة عبد الملك بن مروان ، فليس ذلك لأن ولده هجين ، بل لأنه قد اتخذ من الجبارين عمالا أمعنوا فى الظلم وأسرفوا فى القتل بغير الحق على علم ورضا منه ، وبذلك خلع لباس التقوى التى جعلها الله شعارا لأوليائه ، فلم يره أهلا لمصاهرته .

ولعمرى إنه لمن واجب الكتّاب أن يمهدوا فى مثل هذه الترجمة بكلمة عامة تحفز القراء الى المطالعة ، وتقفهم على المقاصد المتشابهة بين الأئمة الدينيين والنفر العظاميين : أمثال سعيد ابن المسيب ، وعقيل بن علفة . فمن ذلك ما حدثنا به ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد قال : « كان عقيل بن علفة المزنى أشد الناس حمية ، وكان يسكن البادية ، وكان تصهر اليه الخلفاء ، فلما طلب عبد الملك بن مروان مصاهرته رفض بقوله «جنبنى هُجَناء ولدك» ! قال المصباح : إنه جمع هجين وهو الذى أبوه عربى وأمه أمة .

فانظر رعاك الله كيف بنى سعيد رفضه على المبدأ الاسلامى ، وبنى عقيل رفضه على المبدأ الجاهلى ، بدليل أن عقيلا أقر البيعة ورفض المصاهرة ، أما سعيد فرفضهما معا ، ولذلك عذب فى الله وصبر .

وعلى ذلك المبدأ الاسلامى أتكلم على حياة أسامة فأقول :

نسبه رضى الله عنه :

هو أبو محمد أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن زيد بن امرئ

القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذره ابن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبره الكلبي .

وأمه أم أيمن بركة الحبشية ، كنيت بولدها أيمن أخى أسامة لأمه . وكانت فى الجاهلية مملوكة لعبد الله بن عبد المطلب ، فلما ولد سيد البشر بعد موت أبيه كانت هى رابة له وحاضنة حتى كبر ، ولم تزل فى شرف خدمته حتى تزوج بخديجة فأعتقها وأنكحها مولاه زيدا ، فولدت له أسامة صاحب الترجمة .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة ، ونشأ بها النشأة الدينية العالية التى تعجز اليراعة عن تقديرها ، وتقصر العبارة عن تصويرها ، لأن أدبه وثقافته حصلا له من أعظم معلم وأكبر مرب هو سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، وقد كان عطفه عليه فوق عطف الآباء على الأبناء ، حتى إنه كان لا يكاد يفارقه ، وقد يردفه خلفه إذا ركب لزيارة قريب أو عيادة مريض . روى عن عائشة رضى الله عنها قالت « عثر أسامة بأسكفّة الباب (أى عتبته) فشج وجهه حتى سال الدم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمصه بفمه ثم يمجه ويقول : لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى ينفقه » . وكان رضى الله عنه أسود اللون وأبوه أبيض ، فطعن أهل مكة فى نسبه حتى مر عليهما قائف ، وقد بدت أقدامهما من تحت الغطاء ، فأقر النسب . حدثنا البخارى فى صحيحه قال : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال : ألم تسمعى ما قاله المدلجى لزيد وأسامة ورأى أقدامهما : إن بعض هذه الأقدام من بعض» ! أقول لا يخفى على فطنة القارئ أن سرور النبى إنما كان لأن القوم إذ ذاك كانوا يعتمدون القافة ويثبتون بهم النسب ، لا لأن المدلجى علّمه مالم يكن يعلم .

شرفه ومنزلته فى قومه :

تعلّم رعاك الله أن سيد البشر صلى الله عليه وسلم قد نسخ بقانون الاسلام مبادىء الجاهلية ، وجعل ميدان التنافس بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، فكان أسامة رضى الله عنه ممن حازوا قصب السبق فى تلك الحلبة الدينية المباركة ، التى جعلت من السادة عبيدا ومن العبيد سادة ، حتى إن عمر بن الخطاب كان يقول فى رجل من الموالى كان محل إعجابه وثقته : «لو كان سالم مولى أبى حذافة حيا ما جعلتها شورى ! » أى لا سندت الخلافة اليه كما أسندت الىّ بغير شورى . وقد رفع الاسلام أسامة كما رفع أباه زيدا حتى قال فيه سيد البشر : « إن أسامة لا حب الناس الى » أو « لمن أحب الناس الى » وقد سمته الصحابة « حِب رسول الله » وجعلوا ذلك اسما خاصا به ، وكانوا يستشفعون به عند الرسول فى المطالب الهامة التى لا يتقدم فيها سواه . حدثنا

البخارى فى صحيحه قال : « عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من بنى مخزوم سرقت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه ، فكلمه أسامة بن زيد . فقال : إن بنى إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، لو كانت فاطمة لقطعت يدها » !

وإنى وعزة ربى لا نظر بعين التقدير والاعجاب الى عدالة الاسلام وقد رفعت بالكفاية الدينية رجلا من الموالى هو أسامة بن زيد فوق رجل من صميم قريش ومن كتاب الوحى كان أبوه رئيس العرب فى الكفر ثم كان هو رئيسا عليهم فى الاسلام : هو معاوية بن أبى سفيان . حدثنا بدر الدين العينى فى شرحه على البخارى قال : جاءت فاطمة بنت قيس القرشية الفهرية الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت له : «يارسول الله إن معاوية بن أبى سفيان وأباجهم خطبانى». فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أبوجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، انكحى أسامة بن زيد » فكرهته ، ثم قال « انكحى أسامة » فنكحته ، فجعل الله فيه خيرا كثيرا .

ومن المثل العليا فى هذا الباب ما روى أن عمر بن الخطاب فرض لأسامة فى شرف العطاء خمسة آلاف ، وفرض لولده عبد الله ألفين ، فقال له « يا أبت أراك قد فضلت علىّ أسامة ابن زيد وقد شهدت ما لم يشهد » . فأجابه عمر بقوله « إن أسامة وأباه كانا أحب الى رسول الله منك ومن أبيك » !

إمارته :

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم خبيرا بأحوال الذين يقلدهم الأعمال ، فكان يسند إليهم مايتفق وكفاية كل منهم، وقد نشأ أسامة بن زيد مدربا على الفروسية مبرزا فى الشئون الحربية ، فلما بلغ عمره ثمانى عشرة سنة قلده الرسول إمارة الجيش فى السنة الحادية عشرة لأربع بقين من صفر ، وأمره أن يسير الى الشام حيث قتل والده زيد ، وكان معه من كبار المهاجرين والانصار أبو بكر وعمر وسعد . حدثنا البخارى فى صحيحه قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم بعثا وأمّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس فى إمارته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وايم الله إن كان لخليقا للامارة ، وإن كان لمن أحب الناس الى ، وإن هذا لمن أحب الناس الى بعده » !

وأنا أقول : إن هذا الانتقاد لم يصادف محلا من القبول :

(١) لأنهم إن قالوا إنه من الموالى ، قلنا تلك مقالة رجعية جاهلية قد اجتث الاسلام أصولها وهدم قواعدها .

(٢) وإن قالوا بتامير الافضل ، قلنا : الأفضل فى هذا الباب هو الأكثر ثقافة ومعرفة بالحرب ، ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص فى السنة الثامنة أميرا على جيش كان فيه من كبار المهاجرين أبو بكر وعمر وأبوعبيدة ، فلما حلوا بأرض العدومنعهم عمرو من إيقاد النار ونهاهم عن اتباع المنهزمين ، وقد عارضه فى ذلك عمر بن الخطاب ، فلما عادوا وسأله النبى فى ذلك أجابه عمرو بقوله : «منعتهم من إيقادالنار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدولئلا يكون له كمين» . فتبين للقوم بعد المراجعة أن عمروبن العاص الذى اختاره النبى لهم أميرا كان أرجح من عمر بن الخطاب رأيا وإن كان دونه فضلا .

(٣) وإن قالوا بتأميرالاكبر ، قلنا إن النبى لم يعتبرالكفاية بالسن ، ولذلك قال « إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » .

ومما يناسب هذا الباب من الملح التاريخية ما روى أن عمر بن عبد العزيز لما قام بالامر بعد سليمان بن عبد الملك ، أقبلت عليه الوفود من كل البلاد ، فتقدم وفدَ الحجازغلام ليتكلم عنهم ، وكان حديث السن ، فقال له عمر: ليتكلم من هوأسن منك . فأجابه الغلام بقوله «أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، ولوأن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان فى الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك» ! فقال له عمر: «صدقت قل ما بدا لك يا غلام» !

على أن هذا الجيش قد تخلف عن مهمته ولم يسافر به أسامة ، لأن الرسول قد اشتد عليه المرض ، ولكنه أوصى أن يقوم تحت إمرة أسامة ، فلما توفى الرسول وتمت البيعة لأبى بكر كان أول ما بدأ به هو إنفاذ ذلك الجيش تبعا للامر العالى الذى أصدره النبى صلى الله عليه وسلم قبل موته . فعارض بعض الجيش وعادت الشبهة جذعة . فلما علم أبو بكر بذلك وأدرك ما فى نفوسهم من الأنانية والكبرياء الباقيين من تراث الجاهلية ، قام إليهم حتى شيعهم ماشيا على قدميه وأسامة راكب ، فقال أسامة «ياخليفة رسول الله لتركبن أولأنزلن» ! فقال أبوبكر : «والله لاركبتُ ولا نزلتَ ، وما علىّ أن أغبرقدمى ساعة فى سبيل الله !» ثم قال له : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » فلما رأى القوم أبا بكر ماشيا تحت ركاب أسامة وسمعوه يستأذن فى تخلف عمر، لم يجدوا بدا من الخضوع للأمر ، فساروا مع قائدهم أسامة بن زيد حتى نزلوا بأرض العدو ، وهناك أيدهم الله وآزرهم حتى فازوا بالغنيمة ، وعادوا بالنصر بعد أربعين يوما .

موقفه من قومه زمن الفتنة :

لقد أنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفتنة التى حملت بها حوادث الغيب يوم قتل عمر بن الخطاب ، ثم تمخضت عنها يوم تألب الناس على عثمان بن عفان ، وانتهى الأمر بقتله وهى فى طورها الأول ، فلمابويع لعلى بن أبى طالب بالخلافة طفرت طفرة فجائية كاد معها أن يخسف

القمران ويظلم الجديدان ، نخدت بالناس الى منابت الشركما يحدو الراعى بالابل الى منابت العشب ، وبثت فيهم من الإحن والمحن ما فرق كلمتهم وأذهل عقولهم ، حتى أنكر بعضهم بعضا ، وقاتل بعضهم بعضا ، وانقسموا الى فريقين عظيمين : أحدهما مع على والآخر مع معاوية ، وكل منهما يرى باجتهاده أن الحق فى جانبه ، وتفطن قوم للأمر قبل وقوعه فاعتزلوا الفريقين بعد عجزهم عن إصلاح ذات البين ، فكان منهم صاحب الترجمة أسامة بن زيد ، ولذلك لم يبايع عليا ، ولم يشهد معه حربا ، واعتذر اليه بقوله « لو أدخلت يدك يا على فى فم تنين لأدخلت يدى معها ، ولكنك قد سمعت ما قاله لى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذى شهد أن لا إله إلا الله » . حدثنا البخارى فى صحيحه عن أسامة قال « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتلته . قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى : يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ! قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذا . قال : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ! فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » .

أقول : إن أسامة قد اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفا من السيف ، فلما عتب عليه النبى قال له « يا رسول الله أعطى الله عهدا أن لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله » . ولا شك أن الطائفتين اللتين تحاربتا إذ ذاك كانتا جميعا من أهل لا إله إلا الله .

روى أن أسامة رضى الله عنه مات خارج المدينة المنورة ، ثم حمل إليها فدفن بها ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز خمسين عاما . والله أعلم ؟

سيد احمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر برشيد

صيانة ماء الوجه

قال ابراهيم بن حفصة لا بنه : يابنى صن شكرك عمن لا يستحقه ، واطلب المعروف ممن يحسن طلبك اليه ، واستر ماء وجهك بقناع قناعتك ، وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام .

وأنشده :

هى القناعة فالزمها تكن ملكا ... لولم يكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيّ آدم حين يسأل يغضب

الاخلاق الفلسفية

— ٨ —

(ج) الغـرائز

أبنا فى الفصول الماضية ما للعاملين العظيمين : الدين والضمير ، على النفوس من سلطان وما لهما فيها من أثر . والآن نريد أن نستعرض بقية المؤثرات الأخرى التى تقود كل سلوك الانسان وأعماله الارادية . وهـذه البقية الباقية بعد المؤثرين اللـذين أسلفنا الحديث عنهما فى العام المنصرم هى : الغرائز ، والعادات ، والوراثة ، والبيئة . وسنبدأ اليوم بالحديث عن الغرائز ، لأنها أقوى وأشمل مما بعدها ، ولـكن ينبغى لنا قبل الخوض فى الغرائز وتفصيلها أن نطوف طوفة عاجلة بتعريف السلوك الانسانى ، وتقسيمه الى فطرى واكتسابى ، وإبانة الحركات والأعمال التى تصدر عن كل من هذين القسمين . وإليك هذا الايضاح :

تعريف السلوك وتقسيمه :

السلوك هو تلبية الـكائن الحى لما يحيط به من عوامل ومؤثرات ، وينقسم الى قسمين : فطرى ، واكتسابى . فأما السلوك الفطرى ، فهو مجموعة الأعمال والحركات التى تصدر من الـكائن الحى بدون تدرب ولا تعـلم وتوصل الى غاية معينة . وأما السلوك الاكتسابى ، فهو مجموعة ما يتعلمه الانسان أو يتعوده من بيئته . وينقسم السلوك الفطرى من حيث أسسه والمؤثرات فيه الى قسمين : الأول الآلى أو « المـاكينيكى » وهو مجموعة الحـركات والأعمال اللاإرادية واللاشعورية : كحركات القلب والمعدة والرئتين ، وعمليات الهضم وتنقية الدم والافراز . وتسمى هـذه المجموعة باللاإرادية لأنها ليست خاضعة لارادة هذا الـكائن وباللاشعورية ، لأنها ليست مسبوقة بشعور ولا متأثرة به .

وأما القسم الثانى فهو مجموعة الأعمال والحركات الارادية والشعورية ، وسميت كذلك ، لأنها لا بد أن تكون خاضعة لارادة من نوع ما ، ومسبوقة بشعور من نوع ما كذلك . ولا بد أن تكون هذه الإرادة وذلك الشعور ناشئين من إدراك أو متأثرين به على أقل تقدير . فأما الأساس المؤثر فى المجموعة الأولى ، وهى الأعمال والحركات الآلية ، فهو لا يعنينا هنا إلا من حيث التقسيم وإيضاح الأنواع بقدر الامكان ، لأنه من خصائص علم الطب والتشريح . وأما المجموعة التى تعنينا ، فهى الارادية ، وأسسها المؤثرة فيها هى الغرائز والوراثة . هـذا كله فى السلوك الفطرى ، وأما السـلوك الاكتسابى فهو مجموعة الأعمال والحركات التى يستفيدها الانسان

من البيئة التى تحوطه كما أسلفنا، سواء أكانت هذه البيئة فى المدرسة أم فى المنزل، أم فى المصنع أم فى الحقل، وسواء أكانت ناطقة أم صامتة. وأما العامل المؤثر فى هذا الصنف من السلوك فهو العادات المكتسبة من البيئة أو من الغريزة حينا بطريقة التدرج والتكرار، وهو التأمل والتفكير الناشئان من العوامل الاخرى حينا آخر. فلنبحث كل مؤثر من هذه المؤثرات على حدة بعد أن نعرفه تعريفا يلائم المقدار الذى وصل اليه العلماء الباحثون من الإيضاح فى هذه الامور. ولنبدأ بالغرائز :

تعريف الغرائز وتفصيلها :

اتفق كل العلماء على أن تعريف الغرائز وتحديد موضوعها بالضبط شىء فى غاية الصعوبة والعسر. وفى مقدمة هؤلاء العلماء المتضايقين المتذمرين علماء النفس الذين هم أولى الباحثين بتحديد الغرائز والوقوف على أسرارها وكرامتها، ولكننا مع ذلك سنورد لك بعض هذه التعاريف التى يعلن أصحابها فى صراحة ووضوح أنها غير ثابتة ولا شاملة. ومن هذه التعاريف ما يأتى :

الغريزة هى أساس سلوك فطرى، وهى تشمل تلك الأفعال المعقدة التى تحدث لأول مرة من غير خبرة سابقة بها، والتى ترمى الى مصلحة الفرد والاحتفاظ بذاته أو نوعه، والتى هى ناشئة من تفاعل مؤثرات خارجية وباطنية، والتى هى مشتركة بين أفراد الجنس جميعهم، وقابلة للتغيير والتعديل بارشاد الخبرة والتجارب.

من هذا التعريف نستخلص معنى الغريزة محددا ولو تحديدا نسبيا، ولكنه يكفينا فى بحثنا الحاضر للوصول الى غايتنا وهى : اكتشاف الغرائز التى هى أساس هام من أسس السلوك، والتى لا يصلح السلوك إلا بتربيتها وصلاحها. والآن وقد عرفناها وأبنا أنها شديدة الأثر فى أعمال الانسان الخارجية، فقد وجب علينا أن نعدها ونبين ما يوجد بينها من فروق، لتكون معالجتها بعد الاستنارة أمرا ميسورا، ولكن ينبغى لنا قبل تقسيم الغرائز أن نلم بآراء بعض الفلاسفة منذ عصر الفلسفة اليونانية الى الآن، لنرى كيف كان القدماء يتصورون الغريزة، وكيف يفهمها المحدثون. وإليك شيئا من هذه الآراء :

إن « سقراط » يعتبر المميز الأول الذى فرق بين الغريزة والذكاء، والذى أعلن أن الغريزة قوة فطرية يصدر عنها كثير من حركات الانسان والحيوان المدفوعة بميل مؤسس على شعور طبيعى خال من التفكير. والغريزة عنده هى وسيلة لإبراز أفعال الإله واضحة صريحة لا تصنع فيها ولا غموض.

وأما « أفلاطون » فانه كان يرى أن الغريزة تظهر النفس البشرية على مسرح الحياة فى صور مدنسة مخجلة

وأما « أرسطو » فقد حلل مجموعة قوى التفكير البشرى ، وفصل كل واحدة منها عن القوى الأخر ، فميز الغريزة عن كل ماعداها وفصلها من العادات المكتسبة التى يتعارض بعضها مع بعض ، والتى لا تشمل أفراد النوع كلهم .

وأما « ديكارت » فقد صرح بأن الغريزة شىء خاص بالانسان ، لان الحيوان عنده « ماكينة » آلية لا تشعر ولا تريد ولا تفكر ، ولا تحس ألما ولا خوفا ولا رغبة ، الى آخر ما قاله فى الحيوان ، مما أحنق عليه كثيرا من معاصريه ، ودفعهم الى التشنيع عليه من أجل هذه النظرية .

ولما جاء « كونديلاك » (١) قرر أنه لا يوجد شىء يسمى بالغرائز الفطرية ، وأن هذه الغرائز ليست إلا ثمرات لتجارب طويلة ، وخبرات عديدة ، وأنها كانت فى أول الأمر أفعالا تفكيرية ثم صارت عادة . ولما تأصلت فى النفوس سماها السطحيون غريزة وجرءوا على الحكم بأنها فطرية قديمة .

وأما « هيجل » (٢) و « شوبينهاوير » (٣) فيريان أن الغريزة هى عبارة عن النشاط الفطرى الذى خلقته الطبيعة فى الكائنات الحية قبل أن تمنحها التفكير الذى هو فى رأيها متأخر عن مبدأ وجود هذه الكائنات ، وعن خضوعها لهذا النشاط الذى يسميه غيرهما بالغريزة . وينبغى أن نلاحظ أن نسبة الخلق هنا الى الطبيعة نسبة مجازية اصطلح عليها العلماء ، وهم يقصدون النسبة الى مبدع الطبيعة ، كما لا يخفى .

تداخل الغرائز :

أرجع بعض علماء النفس كل الغرائز الموجودة فى الكائنات الحية الى الغريزتين الجوهريتين المتأصلتين لدى كل كائن مستمتع بالحياة ، وهما غريزتا حفظ الذات وحفظ النوع . وقد زعم صاحب هذا الرأى أن الأولى تدفع الكائن الحى إلى ما يحفظ حياته وينمى جسمه ، فهو مدفوع بعوامل خفية الى السعى المتواصل فى سبيل الحصول على قوته ، وهو لا يمل من جلب كل العناصر التى تلزم لبقائه وتحفظ ذاته ، ومن دفع كل العوامل التى من شأنها أن تؤذيه أو تؤلمه ولو نجم عن هذا إهلاك غيره وإبادته . وما كان جلب النبات للعناصر اللازمة لغذائه من الهواء ، ولا

(١) فيلسوف فرنسى ولد فى سنة ١٧١٦ وتوفى فى سنة ١٧٨٠ بعد المسيح . (٢) فيلسوف ألمانى ولد فى سنة ١٧٧٠ وتوفى فى سنة ١٨٣٠ (٣) فيلسوف ألمانى ولد فى سنة ١٧٨٨ وتوفى فى سنة ١٨٦٠ بعد المسيح .

إبادة النبتة القوية للضعيفة ، ولا إهلاك الانسان لما حوله من الكائنات الحية كقتل الحيوان وحصد النبات ، إلا إجابة لداعى الغريزة القوية المسيطرة على هذه الكائنات ، والتى لا تزال تلح حتى يقدم اليها صاحبها ما تشتهيه . ومن ظواهر هذه الغريزة ما يقوم به الكائن الحى نفسه ضد بيئته ، ليرضى حاجة الغريزة كالأمثال التى قدمناها . ومنها ما تقوم به نواميس الكون العادلة المنتظمة ، أو بعبارة أدق : ما تهيئ النواميس الكائن الحى للقيام به حتى يتمكن من أداء وظيفته التى خلق من أجلها . ويقول صاحب هذا الرأى : إن غريزة الخوف عائدة الى غريزة حفظ الذات ، لأن الخوف هروب من الفناء أو من أسباب الألم الذى هو جزء من أجزاء الفناء . وكذلك غريزة حب الملك ، لأنها تعمل على الوقاية من الجوع أمدا طويلا ، وغرضها الاول هو إنماء الجسم وإزالة ما عساه أن يعترضه فى طريق الحياة من الآلام والمتاعب بسبب عدم الامتلاك . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ومثيلاتها من الغرائز التى تتعلق بالذات الحية . وأما الباقى من الغرائز ، فقد أرجعها صاحب هذا المذهب الى غريزة حفظ النوع ، وجعلها كلها ناشئة عنها ، متأثرة بها . ولكنى أرى أن هذا الرأى غير صحيح ، لأن تلك الغرائز التى نسبها الى غريزة حفظ النوع وزعم أنها متفرعة عنها لا ترجع — فى رأيى — الى هذه الغريزة ، وإنما هى غرائز قائمة بذاتها نشأت من انفعالات مستقلة لا علاقة بينها وبين غريزة حفظ النوع . على أنه إذا كان لا بد من إرجاع هذه الغرائز الى غريزة عظمى تتفرع عنها ، فيجب أن تكون هى غريزة حفظ الذات لا غريزة حفظ النوع ؟

(يتبع)

دكتور محمد غلاب

ما قيل فى السرف

قال الله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « آفة الجود السرف » والسرف اسم لما جاوز حد الجود ، وكل شىء بلغ حده انعكس الى ضده .

وقال معاوية بن أبى سفيان : مارأيت سرفا قط إلا والى جانبه حق مضيع .

وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك تعطى الكثير إذا سئلت وتضيق فى القليل إذا عوملت . فقال : أجود بمالى وأضن بعقلى .

قال العلماء : السرف هو أن يكون الرجل لايبالى فيما يشترى أو يبيع أو يَغبن أو يُغبن فيبيع بوكس ويشترى بفضل .

٤ — أعلام القرآن

إسرائيل [١] : يعقوب

أصل اللفظ ومعناه — مَن هو إسرائيل ؟ — مولده — هجرته وزواجه وعودته — أولاده — الأسباط — أهم ما حدث له — نبوته ورسالته — عمره ووفاته وقبره

١ — أصل اللفظ ومعناه :

إسرائيل : كلمة عبرانية مركبة ، وهو اسم أعجمى بزنة إبراهيم وإسماعيل ، ممنوع من الصرف لوجود العلمية والعجمة .

والعرب إذا وقع إليهم ما ليس من لغتهم ، تكلموا فيه بألفاظ مختلفة ، ولذلك تصرفوا فى كلمة « إسرائيل » عدة تصرفات ، أوردها بعضهم فى ثمان لغات ، وهى :

(١) إسرائيل — بمدة مهموزة .

(٢) إسرائيل — بمدة مهموزة مختلسة .

(٣) إسراييل — بمدة بعد الياء من غير همز .

(٤) إسرايل — بغير همز ، ولا مد .

(٥) إسرائل — بهمزة مكسورة ، بغير ياء .

(٦) إسراءَل — بهمزة مفتوحة .

(٧) إسرايين — بياءين ، وبالنون بدل اللام .

(٨) إسرائين — بالهمز .

وهم إذا جمعوه لا يحذفون الهمزة من أوله ، وإنما يقال أساريل ، وحكى الكوفيون أسارلة وأسارل .

وقد ذكروا أن « إسرائيل » مركب من « إسرا » وهو عبد ، أو صفوة ، أو إنسان ، أو مهاجر ، ومن « إيل » وهو الله ، فيكون معناه عبدالله ، أو صفوة الله ، وقيل معناه : محارب أو جندى الله ، وقيل معناه : الأمير المجاهد مع الله .

---

(١) أول آية ذكر فيها قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون » سورة البقرة — آية ٤٠

وقال القرطبي فى تفسيره نقلا عن السهيلي : سمى إسرائيل ، لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى ، فسمى إسرائيل ، أى أسرى الى الله ، ونحو هذا ، فيكون بعض الاسم عبرانيا ، وبعضه موافقا للعرب ، والله أعلم . اهـ

٢ — من هو إسرائيل ؟

هو يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، ولد له من « رفقة » بنت « بتوئيل » أخى ابراهيم . قال بعض العلماء : وليس فى الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فان له أسماء كثيرة . وتعقبه بعضهم بما ذكره البيهقى فى دلائل النبوة عن الخليل ابن أحمد من قوله : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، صلى الله عليهم وسلم .

٣ — مولده :

ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقة ، وكانت عاقرا ، دعا الله لها ، فحملت فولدت غلامين توأمين ، أولهما سموه « عيصو » وهو الذى تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم ، والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه ، فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل . قال بعضهم : وفى ذلك نظر ، لأن هذا اشتقاق عربى ، ويعقوب اسم أعجمى ، وإن كان قد وافق العربية فى التسمية به ، كذكر الحجل (١) فانه يسمى يعقوب .

ويعقوب لا ينصرف فى المعرفة للعجمة والتعريف ، لأنه غير عن جهته ، فوقع فى كلام العرب غير معروف المزيد ، وقد جمعوه على يعاقيب ويعاقبة ويعاقب .

٤ — هجرته وزواجه وعودته :

ذكروا أن إسحاق كان يحب العيص أكثر من يعقوب ، لأنه بكره ، وأن أمهما رفقة كانت تحب يعقوب أكثر ، لأنه الأصغر ، وحدث أن اشتهى إسحاق طعاما وطلبه من العيص ، فأتى له به يعقوب بالاتفاق مع أمه قبل العيص ، فأكله إسحاق ودعا له ، وعرف ذلك العيص ، فوجد على أخيه ، وتوعده ، فلما علمت بذلك أمهما أشارت على يعقوب أن يذهب الى أخيها « لابان » بأرض « حران » وأن يكون عنده الى حين يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته ، وطلبت الى زوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ، ويدعو له ، فخرج يعقوب ، وقدم على خاله لابان ، وأقام عنده يخدمه نظير تزويجه بابنته « راحيل » ولكن خاله زف إليه ابنته

(١) الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر .

الكبرى « ليئة » فلما أصبح كلمه فى ذلك ، وقال له : إنما خطبت إليك « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما ، فقال له خاله : ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فان أحببت أختها ، فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها ، فعمل سبع سنين ، وأدخلها عليه مع أختها ، وكان ذلك سائغا فى ملتهم ، ثم نسخ فى شريعة التوراة .

وقدوهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية ؛ فوهب لليئة جارية اسمها «زلفا» ووهب لراحيل جارية اسمها «بلها» ، ثم وهبت كل واحدة منهما بعد ذلك جاريتها ليعقوب .

وبعد مضى عشرين سنة على إقامة يعقوب عند خاله لابان ، طلب منه أن يعود الى أهله ، فاذن له ، فلما اقترب يعقوب من أرض «ساعير» أخذ يبعث البُرُد الى أخيه العيص ، يترفّق له ، فرجعت البرد بأن العيص قد ركب فى أربعمائة ، فتخوف يعقوب ، ودعا الله تعالى ، وأعد لأخيه هدية عظيمة ، وأرسلها مع رجاله ، وتأخر هو بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر ، وجعل يسير ليلا ، ويكمن نهارا ، فلما رأى أخاه العيص مقبلا ، تقدم أمام أهله ، وحياه بالسجود ، وهى تحية زمانهم ، فاحتضنه العيص وقبّله ، وكذلك حياه زوجتاه وأمتاه وبنوه ، ورجع العيص ، ولحقه يعقوب باهله وما معه ، وجاء الى أبيه إسحاق ، فأقام عنده بقرية « حبرون » فى أرض كنعان (فلسطين) .

٥ — أولاده :

كان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر ولدا ، وذلك أنه أعقب من « ليئة » ستة أولاد : « رأوبين » و « شمعون » و « لاوى » و « يهوذا » و « يساكر » و « زبولون » .

وأعقب من « راحيل » اثنين : «يوسف» و « بنيامين » .

وأعقب من « بلها » جارية راحيل اثنين : « دان » و « نفتالى » .

وأعقب من « زلفا » جارية ليئة اثنين : « جاد » و « أشير » .

وقد ولد له أولاده جميعا وهو فى « حران » عند خاله لابان ، إلا بنيامين فقد ولد فى كنعان

٦ — الأسباط :

الأسباط ولد يعقوب عليه السلام ، أو حفدته ذرارى أبنائه الاثنى عشر ، والواحد سبط ، من السبط ، وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون ، أو من السبط بالتحريك ، وهو ضرب من الشجر ترعاه الابل ، كأنه جعل إسحاق بمنزلة شجرة ، وجعل اسماعيل بمنزلة شجرة أخرى ، وكذلك يفعل النسابون فى النسب : يجعلون الوالد بمنزلة الشجرة ، والأولاد بمنزلة أغصانها .

والسبط والسبطان والأسباط خاصة الأولاد ، وقيل السبط ولد الولد ، وقيل ولد الابن

والابنة ، وفى الحديث : الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهما ، أى طائفتان وقطعتان منه ، وقيل الأسباط أولاد البنات ، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب ، وهم الذين يرجعون الى أب واحد .

قالوا : والصحيح أن الأسباط فى ولد إسحاق بن ابراهيم بمنزلة القبائل فى ولد اسماعيل عليهم السلام ، فولد كل ولد من ولد اسماعيل قبيلة ، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط ، وإنما سمى هؤلاء بالأسباط ، وهؤلاء بالقبائل ، ليفصل بين ولد اسماعيل ، وولد إسحاق عليهم السلام .

قال صاحب روح المعانى : واختلف الناس فى الأسباط أولاد يعقوب : هل كانوا كلهم أنبياء أم لا ؟ والذى صح عندى الثانى ، وهو المروى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ، واليه ذهب الامام السيوطى وألف فيه ، لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه الصلاة والسلام ينافى النبوة قطعا ، وكونه قبل البلوغ غير مسلم ، لأن فيه أفعالا لا يقدر عليها إلا البالغون ، وعلى تقدير التسليم لا يجدى نفعا على ما هو القول الصحيح فى شأن الأنبياء ، وكم كبيرة تضمّن ذلك الفعل ، وليس فى القرآن ما يدل على نبوتهم اهـ

٧ — أهم ما حدث له :

أهم حادث وقع فى حياة اسرائيل هو فراق ابنه يوسف له عليهما السلام ، ولما كان ما يدخل فى هذا الحادث من قصص إسرائيل ، يتصل بقصة يوسف اتصالا كبيراً ، ويرتبط بوقائعها ارتباطاً قويا ، أرجأنا الكلام عليه إلى حين التحدث عن قصة يوسف ، إن شاء الله تعالى .

٨ — نبوته ورسالته :

قال الله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفينَ الأخيار » .

وقال : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » .

وقال : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وقال : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

فمن مجموع هذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت لنا نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا شبهة فيه .

٩ — عمره ووفاته وقبره :

اتفقت المصادر الكثيرة المعتمدة على أن عمر يعقوب يوم دخل مصر ، كان مائة وثلاثين سنة ، وعلى أنه أقام بها عند ابنه يوسف سبع عشرة سنة ، فيكون جميع عمره مائة وسبعا وأربعين سنة .

ولما حضرته الوفاة ، جمع بنيه ، وقال : ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ثم قال : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

وكان قد أوصى أن يحمل جسده من مصر إلى فلسطين حتى يدفن عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم ، فلما مات أمر يوسف الأطباء فحنطوه وطيبوه ، ثم استأذن ملك مصر فى الخروج مع أبيه ، فأذن له ، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها ، فلما وصلوا إلى « حبرون » دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى .

وظاهر الروايات التاريخية فى سرد قصة وفاة يعقوب أنها كانت بأرض «جاسان» أوجاشان وهى التى طلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم إياها عند ما نزل يعقوب بأولاده مصر فى عهد يوسف ، وهى فى شمالى بلبيس ، من بلادها « سفط الحنة » الآن ، ويقولون إنها نواحى « الصالحية » .

وذكر بعضهم أن وفاة يعقوب وافقت وفاة أخيه العيص ، فدفنا فى يوم واحد ، وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعا وأربعين سنة ، لأنهما ولدا فى بطن واحد ، كما أسلفنا ذكره فيما تقدم ؟

فكرى يس

الفقر والكفاف

الفقر مذموم وكفاف العيش محمود ، فمن أصيب بالفقر فعليه أن يطلب السعة باجمال ، وأن يتحرى طرقها بعلم ، فان لكل حالة طريقا توصل اليها ، فان طلبت بالتمنى أخطأته ولا كرامة .

اعتاد الناس أن يصموا بالفقر كل من لا مال له ، حتى من يعمل ويحصل قوته ، وليس الأمر كذلك ، فالفقير هو الذى سدت فى وجهه طرق الكسب ، وأعيت حيله عن وجدان القوت . هذا هو حد الفقير ، وهذه الحال هى التى تذم ويطلب الى الانسان أن يعمل للخروج منها .

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

لعل قراء مجلة الازهر على ذكر من تلك البحوث التى كنا نطالعهم بها متعلقة بالوقف وأحكامه وشروطه وحدوده الموضحة له، وكيف أنه نظام اجتماعى قبل أن يكون نظاما شرعيا. وكنا قد عرضنا لبحوث أخرى طال بنا العهد فى معالجتها والكشف عنها، حتى سلخنا جزءا غير قليل من الوقت فى الافضاء بها، مسايرة للترفيه عن القراء، والانتقال بهم من موضوع الى موضوع حتى لا يملوا موضوعا واحدا يتعاقب فيه التحليل، وتتلاحق فيه البحوث.

وقد قامت فى خلال ذلك الانتقال صيحة مفتعلة من جانب فريق يعمل جاهدا على طمس معالم الوقف والتعفية على آثاره الاجتماعية، استجابة لمنفعة زائلة وشهوات قاتلة، مما استتبع أن يقوم العلماء والقضاة وأهل الرأى بدحض تلك الشبهات، والدلالة على موطن الداء ووصف الدواء.

وقد اتفق أن لجنة أنشئت فى وزارة الحقانية تتألف من أثبات فى الفقه الاسلامى وأثبات فى القانون، وعلى رأسها فضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، لتضع قانونا موضوعيا يكفل سد حاجة الناس، وقطع أسباب شكاياتهم قدر المستطاع بعد أن استفاضت الشكوى من تصرفات نظار الأوقاف، وحفلت المحاكم الشرعية الكلية بمواد التصرفات الخاصة بعزل النظار. وقد أسفرت تلك الشكوى عن بقاء ذلك الداء العياء يقف عقبة كأداء فى طريق الاصلاح، ويحيل نوايا الواقفين ضربا من العبث المطلق، ويجعل توزيع الأنصباء فى الوقف وتنفيذ شروطهم مستعصيا إن لم يكن مستحيلا.

والآن نحاول أن نبسط فى شىء غير يسير مشروعية الوقف وآثاره الاجتماعية المترتبة عليه بعد أن صحت عزيمة لجنة وزارة الحقانية على أن تستأنف عملها مبتدئة بالقسم الثانى من القانون الموضوعى المتعلق بالوقف وتنظيمه تنظيما يحكم حلقاته، ويقطع أسباب الشكوى من عدم إيصال الحقوق الى ذويها. وقد قطعت اللجنة مرحلتها الأولى متعلقة بأحكام الإرث، متوخية فى مراجعها وبحوثها كثيرا من مذاهب الأئمة الأحرار.

فمما لامراء فيه أن لا خلاف إطلاقا بين الأئمة رضوان الله عليهم فى أن الوقف بنوعيه مشروع، ضرورة أنه عمل من أعمال البر بالانسانية ومن أظهر مظاهر وجوه الخير، ووسيلة من وسائل القربى الى الله سبحانه ونوال مثوبته، فهو يندرج فى كثير من الآيات التى حثت على عمل الخير والتزود به لحياة الجزاء، كقوله تعالى: « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ». وقوله: « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ».

وقد دلت على مشروعيته أيضا الأحاديث الكثيرة والآثار المتضافرة ، واستمرار عمل الأمة عليه من لدن الرسول الأعظم الى يومنا هذا من غير أن يعترض ذلك معترض أو ينكره جاحد . ولاشك أنه إجماع عملى على مشروعيته . والاجماع حجة كما لا يخفى .

ولا أدل على مشروعيته من أنه نظام اجتماعى صالح يسيغه العقل ، وتبرره مصلحة البشر ، ويقضى به قانون التعاون فى هـذه الحياة حتى بقطع النظر عن وروده بلسان الشريعة ، نظرا لما ينشأ عن هـذا التصرف من منفعتين متلازمتين : منفعة الواقف بنيله المثوبة من الله على تصرفه ، ومنفعة الموقوف عليه بما يصل الى يديه من غـلة تلك الحبوس من بقاء العين مؤبدة الوجود قائمة الغلة لا تقبل تلفا ولاضياعا .

وبدهى أن منفعة الموقوف عليه كالفقراء وطلبة العلم وذوى الخصاصة من أظهر الظواهر على أن نظام الوقف نظام اجتماعى يحمل فى أطوائه البر بالانسانية والحدب عليها ، والامساك بها أن يتخاذل بنيانها وتتوهن أسبابها ، قال زيد بن ثابت رضى الله عنه فيما حكاه صاحب كتاب أنفع الوسائل : « لم أر خـيرا للميت ولا للحى من تلـكم الحبوس الموقوفة » . فأما الميت فيجرى أجرها عليه . وأما الحى فتحبس عليه ينتفع بغلتها ، ويدفع بها عاديات الفقر ، فلا توهب ولا تورث ، ولا يمكن له فى استهلاكها .

وغنى عن البيان ان الأمم غير الاسلامية أدركت ما فى نظام الوقف من مزايا قيمة وأسرار سامية ، فعنى كثير منها بوضع نصوص فى قـوانين بلادها تنشىء نظاما يجـرى عليه توزيع الصدقات على الفقراء منهم وذوى الخصاصة ، وهو وإن لم يكن بذاته نظام وقف ولـكنه يشبه نظام الوقف عندنا فى معناه وأغراضـه وآثاره الاجتماعية : من صرف الريع فى وجـوه البر والخير ، وتحرى أفضل وجوه المصلحة فى ذلك الصرف ، والإبقاء على العين ، بما يكفل لها الخلود وعدم التلاشى . وهذا من غير شك يشمل الوقف الأهلى فى حقيقته وإن لم يبد كذلك لأول نظرة ، ضرورة أن الشأن فى الوقف الأهلى جهة بر لا تنقطع ، لما تواضـع عليه فقهاء الوقف أن هذا التصرف إذا لم ينته الى جهة بر دائم وقع غير صحيح .

فنظام الوقف فى الشريعة الاسلامية الغراء أوفى بحاجة البشر ، وأبلغ الى مصالحهم وسد كفايتهم من كل نظام آخر يماثله فى الأمم غير الاسلامية ، نظرا الى سماوية أحكامه ، وتناول شرائطه المحققة له لأغراضه المترتبة عليه .

يبقى بعد ذلك أن الفقهاء فرقوا بين الوقف والوصية ، وإن كانوا من ناحية اخرى أبانوا ما ينعقد به الوقف وما لا ينعقد ، وما يصح أن يوقف عليه وما لا يصح . فذهب غير واحد منهم الى أن الوقف فى المرض والوصية فى درجة واحدة ، على معنى أنه لوقال الواقف فى إشهاد وقفه: وقفت أرضى بجهة كذا على قوم وكانت قيمتها مثلا أربعة آلاف جنيه ونصف ، وأوصى بوصايا

لآخرين قدرها أربعة آلاف ونصف جنيه ، وثلث التركة ألف وخمسمائة ، ثم مات الموصى ولم تجز الورثة تلك الوصية ، قسم الثلث بين قيمة الأرض الموقوفة وبين الوصايا قسمة تناسبية ، فما أصاب الوصية منه أعطيت اليه وما أصاب قيمة الأرض جعل مقابله من الموقوف وهو نصف الأرض هنا وقفا والباقى للورثة . وهذا غير العتق فى المرض كما هو ظاهر فان العتق أقوى من الوصية ، فاذا اجتمعا قدم عليها ، فان بقى شيء زائد صرف فى الوصية وإلا سقطت .

ثم إنهم بعد ذلك عرضوا لما يدخل فى الوقف تبعا لوقف العقار ، وفصلوا فى ذلك تفصيلا له مميزاته وفوارقه ، فقالوا : العقار : هو كل أرض سواء كانت تلك الأرض عليها بناء أم لا فيشمل ذلك الأراضى الفضاء سواء أكانت معدة للزراعة أم لا ، ويشمل الدور والحوانيت ، وفى هذه الحالة يقع الوقف صحيحا ، لما تضافرت عليه الأدلة من مشروعية الوقف . ويدخل فى وقف العقار تابعاً له بدون التنصيص عليه كل ما يدخل فى بيعه وإجارته . فمثلا إذا وقف الواقف أرضا دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه فى مدلول ذلك التصرف ، على شريطة أن تلك الأشجار تكون من نوع الأشجار التى تمكث فى الأرض الموقوفة لأكثر من عام . وكذا المسقاة والطريق المؤدية لبعض الجيران إلى مساكنهم ، لأن الأرض لا توقف إلا للاستغلال ، وذلك مستحيل بغير الماء والطريق . فكان من الضرورى دخولها تبعا للأرض الموقوفة بدون نص كما فى الاجارة مثلا . وكذا يدخل الماء والدواليب فى وقف الضيعة تبعاً لها وغيرها كالات الرى المتصلة بها اتصال قرار .

ولا يدخل فى الأرض ما بها من زرع حين وقفها ، على شريطة أنه لا يبقى فى الأرض أكثر من سنة ، قطناً كان الزرع أو قمحا أو شعيراً أو غير ذلك . وكذا الثمر الموجود على الأشجار وقت الوقف سواء أكل كالسفرجل أم لم يؤكل كالورد والياسمين ، بل على الأصح يكون ذلك كله ملكا للواقف غير تابع للأرض الموقوفة .

والحاصل أن الواقف إذا وقف عقارا وعليه أشجار فأكثر المحققين من علماء الوقف على أنها تابعة له إذا زاد أجل غرسها عن سنة . أما إذا نقص فالمسألة خلافية . والصحيح أنه يبقى فى حيازة الواقف . قال هلال « تكون الثمرة للواقف ، ولا تدخل فى الوقف قياسا ، ويلزمه التصدق بها على وجه النذر لا على وجه الوقف استحسانا ، ضرورة أنه إذا قال أرضى موقوفة فقد تكلم بما يوجب التصدق ، فيلزمه التصدق بالثمرة الموجودة . وهذا خلاف الظاهر كما لا يخفى » . وقصارى القول أن الفقهاء فرقوا بين ما يصح وقفه تبعا وبين ما يصح وقفه استقلالا بطريقة مستفيضة .

ولما كان استقصاء هذا البحث لا يتسع له مقال واحد فقد أرجأنا تفصيل ذلك الى أعداد مقبلة ، فإلى العدد التالى إن شاء الله ؟

عباس طه
المحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

— ٨ —

رأى « أنجمان إسلام » بأمبالا :

تقدم الينا الأستاذ نيرانج بتقرير واف على أحوال المنبوذين ، اقتبسنا منه كثيراً من المعلومات التى أوردناها ، ثم ختم تقريره بالرأى الآتى :

« لقد قابلت الدكتور أمبدكار فى يناير الماضى ، وتحدثت إليه ، كما تحدثت الى غيره من متزعمى المنبوذين . وقد ظن بعض أصدقائى أن الدكتور أمبدكار ومن معه لا يمكن الاعتماد عليهم ، وأن أعمالهم تدعو الى الشك ، وأنهم قد يطرحون نشاطهم جانباً بمجرد الحصول على بعض الامتيازات من الهندوس . وقال آخرون : إنه رجل جاد يصح الاعتماد عليه ، ولا يمكن أن يتحول عن نيته ، ثم ظنوا أنه قد يعتنق الإسلام فيكون قدوة لغيره .

« أما أنا فقد وصلت الى نتيجة : هى أنه سواء أكان أمبدكار وغيره من الزعماء مخلصين للحركة أم غير مخلصين ، فإن تصريحاتهم وتصرفاتهم قد خلقت بين المنبوذين حالا نفسية جديدة ، وأنه يجب علينا أن ننتفع بهذا الجو الجديد ، على نحو ما يفعل السيخ والمسيحيون ؛ لذلك عرضت الأمر على اللجنة التنفيذية لجمعيتنا ، فاصدرت قراراً ببدء العمل بين المنبوذين . ونحن جادون منذ أن صدر هذا القرار فى تنفيذه .

« أنشأنا مركزاً فى ناجبور عاصمة الولايات الوسطى ، وهيأنا له مطبعة ، وأصدرنا جريدة أسبوعية ، ووزعنا كثيراً من المذكرات والرسائل ، واستخدمنا عدداً من المنبوذين لنشر الدعاوة للإسلام ، وافتتحنا مدارس لأبناء المنبوذين ، يتعلمون فيها لغة الاردو ، ويدرسون مبادئ الإسلام وحياة الرسول عليه السلام ، كما أننا نعين ناديا لشباب المنبوذين على تمثيل رواية يقصد بها الى بيان عظمة الإسلام » .

وقد وردت فى تقرير الأستاذ نيرانج النبذة الآتية :

سلوك المسلمين فى الهند :

« مما يجب الاعتراف به أن جمهور المسلمين فى الهند لم يقدر مسئوليته إزاء المنبوذين حق قدرها ، فإن الزعماء المسلمين لم يعيروا الأمر عناية تذكر ، فى حين أن الأمراء المسلمين يرون الأمر خطراً على مكانتهم ، ويخشون الدعاوة الهندوسية ضدهم خشية كبيرة ؛ أما العلماء الذين يرون رأى

المؤتمر الوطنى ، فقد انغمسوا فى السياسة انغماساً ألهاهم عن واجباتهم الدينية ، فكان من نتائج ذلك أن جمعيتنا — على الرغم مما بذلت من جهود — لم تستطع أن تجمع المال الكافى لهذا العمل العظيم الذى ينتظر الإنجاز ؛ ولكننا دائبون على بذل الجهد عسى أن يدركنا الله بمعونته » .

وتعليقاً على سلوك الهندوس نحو المنبوذين ذكر الأستاذ نيرانج ما يأتى :

قوى المقاومة :

« غير خاف أن الدكتور أمبدكار — وهو الذى حمل علم الجهاد فى حركة تغيير الدين — قد فقد مكانته فى أعين قومه ، وبذا تحولت حركته الى سكون ؛ ويجدر بنا الآن أن نلقى نظرة شاملة على تلك القوى التى كانت ولا تزال تعمل لمقاومة حركة تغيير الدين ؛ وذلك أن الهندوس قد اتخذوا الخطوات الآتية :

١ — قد استطاعوا اجتذاب بعض الزعماء من المنبوذين لمقاومة الدكتور أمبدكار ، وبذلك خلقوا حزباً قوياً ، من مبادئه عدم تغيير الدين ؛ وأصبحنا بذلك نرى — حتى بين منبوذى المهار ، وهم البيئة التى ينتمى إليها أمبدكار — حزبين : أحدهما يقول بالخروج من الديانة الهندوسية ، وثانيهما ينادى بضرورة البقاء فيها .

٢ — قد دفعهم السيخ الى الاتصال بأولئك الذين يفكرون فى تغيير دينهم ، إذ أن السيخ ما هم إلا هندوس ، ولكنهم موحدون ، حتى إذا ما صمم المنبوذون على ترك دينهم فربما اختاروا السيخ ؛ وبذلك يكون التغيير اسمياً فقط ، أما بالفعل فانهم لا يزالون هندوساً .

٣ — ينفق الهندوس المال بسخاء فى كل مكان ، للمحافظة على المنبوذين والحيلولة بينهم وبين اعتناق دين جديد .

٤ — يعتبر قرار حكومة ترافنكور بإباحة دخول المعابد للمنبوذين خطوة أخرى .

٥ — تعتبر « جمعية خدام المنبوذين » التى أنشاها المستر غاندى وحدة من الوحدات الهامة فى هذه المقاومة » .

واستطرد الأستاذ نيرانج بعد ذلك الى ذكر الأزهر فقال :

ما يجب على الأزهر أن يقوم به :

« عندما علمت باعتزام الأزهر أن يقوم بالتبليغ بين المنبوذين فى الهند ، كنت أشك فى إمكان تحقيق الفكرة عمليا ، متأثراً فى ذلك بالصعوبة الناشئة من اختلاف اللغة ؛ فان الهند بلاد شاسعة الأطراف ، متعددة اللغات ؛ وإن المنبوذين أنفسهم يختلفون فى لغاتهم اختلافا جوهريا تبعاً لاختلاف أمكنة إقامتهم ؛ وفضلا عن ذلك فان معظم لغاتهم لا يعرفها المسلمون ،

حتى إننا ونحن فى الهند نعانى الصعوبات فى عملنا لمجرد جهلنا بلغات المنبوذين ، وكان يخيل إلينا أن إخواننا الأزهريين سيعانون فى ذلك صعوبات شتى .

«أما الآن ، فبعد البحث المستفيض ، أدركت أن صعوبة اللغة لن تكون عائقا للأزهر أكثر مما تعوقنا فعلا ؛ والفارق الوحيد بيننا : هو أنهم سيكونون طارئين على هذه البلاد ، ولن تكون لهم بذلك خبرة بالبلاد وأهلها ، ومع ذلك فمن السهل التغلب على هذه الصعوبة أيضاً ، إذ أنهم يستطيعون فى البداية أن يركنوا الى مساعدة بعض الهنديين المسلمين ممن يمكن الاعتماد عليهم ، فاذا استمرت هذه الحال عاما أو بعض عام ، تمكن مندوبو الأزهر من المعلومات والتجاريب التى تؤهلهم للاستقلال بالعمل .

« وما دامت البعثات التبشيرية المسيحية ـ من أوربا وأمريكا ـ قد استطاعت أن تشق لنفسها طريقا فى الهند ، فلم لا تستطيع بعثة إسلامية مصرية أن تشق لنفسها طريقا مماثلة ؟

« لذلك أتوجه بالرجاء الى الرجال المسئولين فى الأزهر : أن يرسلوا الى الهند بعثة لتبليغ الدين الاسلامى الحنيف . وليسمح لى الأزهر أن أتجاوز معه حدود اللياقة ، فأذهب الى القول بأن إرسال هذه البعثة واجب من واجباته ، فاننا نواجه — نحن المسلمين فى الهند — صعوبات لا تحصى فى المحافظة على كياننا ، مع تأدية واجباتنا نحو الاسلام فى هذه البلاد ؛ ونحن لذلك فى مسيس الحاجة الى ما يستطيع إخواننا المسلمون — من خارج الهند — أن يقوموا به من أجلنا .

« وإن الأزهر بارساله بعثة الى الهند ليقوم بواجب مقدس نص عليه فى الكتاب الكريم فى قول الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

كما أن إرسال هذه البعثة سيشد أزر المسلمين الهنديين الذين يقومون بالتبليغ اليوم ، أو يحتمل أن يقوموا به فى المستقبل ، وفى ذلك تحقيق لقوله تعالى فى مكان آخر: « وتعاونوا على البر والتقوى » .

« أما جهودنا ، أما مساعداتنا ، فانا نضعها تحت تصرف الأزهر وقتما يشاء » .

هذه هى وجهة النظر التى تقدمت بها جمعية «أنجمان تبليغ الاسلام » بأمبالا ، على لسان الأستاذ بهيج نيرانج . وقد استفسرنا منه عن المراكز التى يصح أن يبدأ الأزهر العمل فيها إذا أسفر تقريرنا عن اعتزامه القيام بالتبليغ فى الهند ، فكان من رأيه أن العمل يجب أن يتركز أولا فى الجنوب فى إقليم مالابار ، وهو الاقليم الذى بدأت جمعيته فعلا بالعمل فيه .

ولما أن تذاكرنا معه فى نفس الشأن ، بحضور السير محمد إقبال ، ذهب السير إقبال الى القول بان المراكز التى يجوز أن يبدأ العمل فيها هى (سورات) ، و(دكا) ، و(رانجون) ، ولكن الأستاذ

نيرانج عاد فأكد ما ذهب اليه أولا ، من أن الجنوب أولى بالعناية ، وأن إقليم (كيرال) إقليم ينجح فيه العمل برأس مال قليل قدره بمبلغ عشرة آلاف روبيه (٧٥٠ جنيها تقريبا) لانشاء صناعة « Choir » وفى ذلك ما يزكى حركة الاسلام القائمة هناك .

وقد رأينا كذلك أن ننتفع بالأستاذ نيرانج ، بان نطلب اليه أن يدلى برأيه فى تقرير أرسله الى الأزهر الأستاذ فضل رحيم المحامى بناجبور ، فكتب الينا ما يأتى :

ملاحظات على تقرير الأستاذ فضل رحيم :

« لست أرى أنه بعد عن الصواب فى قوله بوجوب وضع نظام يكفل للمنبوذين التعليم والعمل ، وكذا رفع مستواهم الاجتماعى والاقتصادى ، إذا ما اعتنقوا دين الاسلام .

« قد يكون الأستاذ فضل رحيم عنى فى كلامه بيئة المنبوذين فى إقليمه ، وتسمى (المهار) ، ولكن مع ذلك ، فان نظريته تنطبق على بعض المنبوذين فى أماكن أخر ، وإنها فى الواقع لمعضلة . فاذا صمم جمهور من المنبوذين على أن يعتنقوا الاسلام أو أى دين آخر (بالجملة) ، فقد لا تستطيع دولة أو حكومة ذات موارد ، أن تواجه مستلزمات هذا الموقف إلا بالتدريج ، وعلى نظام (القطاعى) .

«حتى أولئك السيخ الذين جمعوا فعلا ٧ لاك (٥٢٫٥٠٠ جنيه) ،ويستطيعون أن يضاعفوها فى غير إبطاء — إذ أن مال التبشير ميسور لديهم ، وحاكم بتيالا يعنى بتحويل المنبوذين الى ديانته — لا يستطيعون مواجهة هذه الحال ، وكذلك جمعيات التبشير المسيحية ، بمصادرها المالية المعروفة .

« وليس معنى ذلك أنه يجب علينا أن نصرف النظر عن المسئوليات المالية التى تنجم عن إسلام المنبوذين ؛ فمن المحتمل أن من يسلم من أصحاب الحرف اليدوية يكون جزاؤه المقاطعة من أصحاب الأعمال الهندوس ، ومن يسلم من الزراع الذين يعملون فى مزارع الهندوس يكون جزاؤه الطرد من المزرعة ، ومن يسلم ممن يسكنون مساكن الهندوس يطرد من مسكنه ، ومن يسلم ممن يرعى الغنم فى أرض الهندوس يحرم من الرعى فيها ، الى غير ذلك من وسائل العنف التى يبتكرها الهندوس ليلجئوا هذه المخلوقات الضعيفة الى العودة الى الحظيرة الهندوسية ؛ وقد وقعت تحت أنظارنا بالفعل أمثلة من هذه المآسى .

« لذلك يجب أن تكون بين أيدينا أموال للانفاق منها فى الأوجه الآتية :

١ — إنشاء صناعات يعيش عليها بعض الذين يعتنقون الاسلام .

٢ — إعداد العدة لتثقيف أبنائهم بالتعليم الأولى على الأقل .

٣ — تزويد المسلمين الجدد بالتعاليم الأولية فى الاسلام وأصوله ، وتعليمهم الصلاة وما اليها .

٤ — مساعدة المدينين منهم وغيرهم ممن يحتاجون الى المساعدة » .

احتمالات النجاح :

ثم قال : « علمت أن الجرائد المصرية والسورية وغيرها من جرائد العالم الاسلامى خارج الهند ، قد نشرت مقالات مبالغا فيها على حركة المنبوذين ، وأنها ذهبت الى القول بأنهم لم يقصروا تصميمهم على ترك الديانة الهندوسية ، بل تعدوه الى التصميم على اعتناق الاسلام « وقد علمت أن بعض الجرائد ذهب الى حد القول بأن عددا هائلا منهم ، قد اعتنق الاسلام فعلا ، حتى فى بلاد الهند نفسها . جرت بعض الجرائد الاسلامية التى تصدر فى أمكنة بعيدة عن مواطن الحركة ، على أن تنشر أنباء وردت عليها من مراسلين مهملين ، فكان لتلك الأنباء فى أذهان مسلمى الهند مثلما كان لأنباء الصحف الخارجية فى أذهان المسلمين الآخرين ، لذلك لا نرى موضعا للوم الصحافة المصرية وغيرها ، على نشر الأنباء غير الصحيحة .

«على أن الأمر من الدقة بحيث يجب علينا أن نلتمس الحيطة فى تلقى مثل هذه الأنباء ، وأن نميز بين الغث والسمين ، وذلك تجنبا لبعض الأنباء المضللة لمن لا حذر عندهم . مثال ذلك :

١ — يتخذ بعض الهندوس أسماء إسلامية مستعارة ، ويكتبون لبعض الصحف الاسلامية قائلين : إن عددا كذا من المنبوذين فى إقليم كذا قد اعتنقوا الاسلام يوم كذا . وتنشر الصحف ، على براءتها وعدم شكها فى المراسل ، هذه الأنباء بعناوين ضخمة ؛ ثم تتناقلها الصحف بعضها عن بعض ، وبعد أن تهلل الصحف وتكبر لهذه الأنباء ، تنبرى لها الصحف الهندوسية فتنشر تكذيبا قاطعا لكل ما نشرته الصحف الاسلامية ، ثم تعلق عليها فى فخار « انظروا الى هؤلاء المسلمين والمفتريات التى ينشرونها ، أيظنون أنهم يستطيعون إغراء المنبوذين على اعتناق دين يستسيغ هذه الأكاذيب ؟ » . وتكون نتيجة ذلك : أن يفقد المسلمون مكانتهم فى أعين النابهين من المنبوذين ، فى حين يابى القراء من المسلمين تصديق مثل هذه الأخبار ، وقد تزعزع ثقتهم فى أعمال رجال التبليغ ، فيصيب الاسلام بذلك ما يصيبه من أضرار .

٢ — يظن بعض الأغبياء من المسلمين أنهم يخدمون التبليغ ، ويخلقون التحمس بين المسلمين بنشر أخبار من أمثال هذه المبالغات ؛ فينعمون بمبالغاتهم . ولكن هؤلاء ممن ينطبق عليهم المثل القائل « عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

٣ — يوجد بين الطبقات الإسلامية من يعيشون على التبشير والدعاوة ، ولكن بغير

ضميرحى؛ فهم ينشرون وقائع قد تكون حقيقية ، كما قد تكون موهومة ، وقد تكون مجرد فكرة عندهم لمَّا تخرج الى حيز التنفيذ ، ولا هَمّ لهم فى ذلك إلا أن يضللوا الجماهير ليصلوا الى ما يريدون من مال .

٤ — كما يوجد بيننا قوم ، وإن كانوا متصفين بالشرف والجد فى عملهم ، إلا أنهم لا يعنون بالنظر الى الحوادث نظرة الناقد الخبير ، ولذلك تكون استنتاجاتهم فى غير محلها .

٥ — على أن الحركة واسعة النطاق كثيرة التعقيد ، وقد ظهر على المسرح عدد عظيم من الممثلين يختلفون اختلافاً كبيراً فيما يحفزهم للعمل ، ويتصرفون بين آن وآخر تصرفات متنافرة ؛ وأكثر من ذلك أن المنبوذين يعيشون فى مناطق شاسعة الأطراف ، وتختلف ظروفهم باختلاف تلك الأقاليم ، بحيث يتعذر — حتى على الرجل الحصيف النابه ، والناقد المسئول — أن يمحص الحقائق ، ويصل الى الاستنتاجات الصحيحة .

فإذا عرضنا كل ذلك تلخص الموقف فيما يلى :

١ — لقد وصل كثير من المنبوذين الى عقد مؤتمرات قرروا فيها ترك الديانة الهندوسية ؛ ولكن ليس معنى هذا أنه قد حصل فى كل مكان ، ولا بين المنبوذين جميعاً فى مكان واحد .

٢ — تردد صدى هذه القرارات فى كل مكان تقريباً ، ولكن بين الطبقات النابهة من المنبوذين ، وبقيت جماهير لا تعرف من هذه الحركة شيئاً . على أن الدوافع التى حدت بأصحاب هذه القرارات للقيام بما أقدموا عليه ، وكذا أولئك الذين رددوا صداها ، لم تكن دينية ولا روحية ، بل كانت مدنية بحتاً .

٣ — صدر مثل هذه القرارات فى بعض الأمكنة فى الولايات المتوسطة .

٤ — كان بعض الزعماء ، وخاصة الدكتور أمبدكار ، يقولون بضرورة الاحتفاظ برأيهم فى الدين الذى يقع عليه اختيارهم وقتا ما ، ويتلخص رأيهم فى أنه يجب عليهم أولا أن يقنعوا الجماهير بترك الديانة الهندوسية ، فاذا تم لهم ذلك — ولن يتم إلا بعد وقت طويل — عقدوا مؤتمرا من جميع الزعماء ، نائبين عن جميع المنبوذين ، لاختيار دين من أربعة أديان : الاسلام ، المسيحية ، البوذية ، السيخ ، بكثرة الأصوات . ولكن الدكتور أمبدكار كان يفاوض السيخ سرا ، كما ذكرنا ، ولذلك قد تكون فكرة عقد المؤتمر خدعة فحسب .

٥ — كان هؤلاء الزعماء يقولون : إنهم يرغبون فى دين يكفل لهم الحرية والإخاء والمساواة ، فظن قومنا أنهم يريدون بذلك الدين الاسلامى ، ولو لم يذكروه صراحة ؛ هذا استنتاج من جانبى قد أكون مخطئا ، وقد أكون مصيبا فيه .

« يستنتج من كل ذلك أن نجاحنا لايتوقف على إخلاص الزعماء وحسن عقائدهم — وكلهم

من رجال السياسة — ولكنه يتوقف على نفسية الجماهير التى ألهب الزعماء أذهانهم بفكرة تغيير الدين ، وذلك بعد أن دللوا لهؤلاء على سوء حالهم فى ظل الديانة الهندوسية .

«ومثل الزعماء فيما صنعوا ، مثل المشعوذ الذى استطاع بتعاويذه أن يستحضر الشياطين ، ولكنه جهل التعويذة التى يصرفهم بها ؛ فقد واجهوا هذه الجماهير بضرورة تغيير الدين ، وهم لا يستطيعون بعد ذلك أن يطالبوهم بالبقاء فيه ؛ لأنهم إن فعلوا ذلك ، فقدوا ثقة الجماهير بهم . لقد وضع الزعماء الحديد فى النار فاحمر ، ولم يبق علينا إلا أن نطرقه وهو فى حال الاحمرار ، فاذا تقاعسنا عن العمل الآن ، برد الحديد ثم ضاعت الفرصة ، وتحتم علينا أن نعانى وضعه فى النار مرة جديدة .

« هذا ما طفقت أنادى به المسلمين فى الهند عاما كاملا ، ولكن قليلا منهم من استمع الى هذا النداء » . اه

رأى البعثة فى المنبوذين :

هذا ملخص وجيز لحال المنبوذين اليوم نخرج منه بالنتائج الآتية :

يختلف المنبوذون فى طباعهم ، وعاداتهم ، ولغاتهم ، ودرجة انتشار التعليم الأولى بينهم ، باختلاف الاقليم الذى يعيشون فيه ، كما تختلف الطرق الواجب اتباعها لتنويرهم فى مبادئ الدين الاسلامى ، وكذلك تختلف درجات استعدادهم لاعتناق الاسلام .

وخير طريق لمعالجة هذه الحال : هى أن تعتبر كل فئة من المنبوذين قائمة بذاتها ، وأن تبحث حالها الخاصة ، فى ضوء المعلومات والمشاهدات التى دوناها عنها ؛ وهى وإن كانت معلومات أولية بحتاً ، إلا أن البعثة لديها من المستندات والمصادر ماتستطيع به أن تتوسع فى المعلومات ؛ ولكنها لاترى ضرورة لذلك ، إلا إذا استقر رأى الأزهر على العمل فى إقليم خاص ، وذلك توفيراً لجهود قد لا تدعو الحاجة إليها .

والبعثة تشارك الأستاذ نيرانج رأيه فى ضرورة الابتداء بالجنوب للأسباب الآتية :

فى ترافانكور :

١ — لقد بدأ العمل فعلا فى هذا الاقليم تحت رعاية جمعية « أنجومان تبليغ الاسلام » بامبالا .

٢ — ارتفاع نسبة التعليم الأولى بين طبقات المنبوذين فيها ، إذ تبلغ النسبة ١٤٩ فى الألف ، وهى أكبر نسبة عرفت بين المنبوذين فى كافة أنحاء الهند .

٣ — قلة المال المطلوب لهذا العمل ؛ إذ ذكر الأستاذ نيرانج فى تقريره أن الصناعة التى يمكن إنشاؤها فى هذا الاقليم ، لاتتطلب أكثر من ٧٥٠ جنيهاً مصريا تقريبا .

٤ — ولا يضرنا قرار « راجا ترافنكور » بفتح المعابد للمنبوذين ، لأن هذا القرار أصبح عديم الأثر ، لما لاقاه من تعنت من طبقات الهندوس العليا .

كما تشارك البعثة السير محمد إقبال رأيه فى ضرورة إنشاء مراكز أخر للتبليغ فى سورات ، ودكا ، ورانجون ، للاعتبارات الآتية :

فى سورات :

١ — تقع سورات فى إقليم بومباى ، الذى بدأت فيه حركة تغيير الدين ، على يدى الدكتور أمبدكار ؛ وقد نبهت هذه الحركة شعور الجماهير نخلقت فيهم الاستعداد .

٢ — يعتبر إسلام المنبوذين فى سورات من الأمور الهينة نسبياً ، نظراً الى أن محور الحياة العامة فيها ، أقرب الى الصناعة منه الى الزراعة ؛ مما يسهل معه على من يسلم من المنبوذين ألا يستهدف الى الأخطار التى يستهدف لها الزراع منهم ؛ إذ أن معظم أصحاب المصانع من (البارسى) لا من (الهندوس) .

فى دكا ، ودانجون :

يصلح هذان الإقليمان للدعاوة الإسلامية ، بصرف النظر عن شئون المنبوذين ، نظراً لانتشار الديانات القَبَلية فيهما ؛ فلكل قبيلة دينها ، وهما بذلك تربة خصبة لتبليغ الدين الإسلامى الذى لا يلبث أن ينتصر على العقائد التى لا يدعمها يقين ، ولا تتركز تعاليمها فى كتب معترف بها ، فضلا عن أن الديانات القبلية — على وجه العموم — عديمة العصبية ، لا تربط أتباعها رابطة كالتى تربط الهندوس مثلا ؛ يزاد عن ذلك أن الظروف السياسية لا تلعب بينهم دوراً ذا شأن ، كما هى الحال فى غير هذين الإقليمين .

فى ناجبور :

وتعتبر منطقة الولايات الوسطى كذلك صالحة للعمل للاعتبارات الآتية :

يوجد فى ناجبور (عاصمة الولايات الوسطى) حركات ثلاث لتبليغ الإسلام بين المنبوذين :

١ — حركة الأستاذ « فضل رحيم » وهى حركة يمكن أن تؤتى ثمرة طيبة ، إذا تعهدتها يد أقدر على ظروف العمل .

٢ — حركة الطبيب « أسرار أحمد » ؛ وهو شاب يتوقد غيرة وقد استطاع أن يقنع ندوة العلماء بضرورة المساهمة فى العمل ؛ وقد ساهمت فيه فعلا .

٣ — حركة السيد « فضل الحق » ، وله مدرسة لأبناء المنبوذين .

وجميع هؤلاء على صلة بزعماء المنبوذين ، سواء من نجح منهم فى الانتخابات ، ومن لم ينجح .

فى حيدر آباد :

وتعتبر إمارة حيدر آباد كذلك صالحة للعمل . وفيها عاملان عظيمان :

١ — « نواب محمد يارجنج » من كبار الأعيان ، وقد أسلم على يده كثيرون ؛ وعمله منظم وله مستقبل .

٢ — الأستاذ « محمود فاندرمان » ، وهو يلاقى نجاحا فى كل مكان .

فى بومباى :

أما منطقة مدينة بومباى فتقوم فيها « جمعية أنجومان تبليغ الاسلام » ببومباى ؛ وهى جمعية يرعاها الحاج « قاسم على شيراز بهاى » ، ولكن أمورها الادارية والعملية فى يد الأستاذ « محمد زكريا منيار » ؛ وهو رجل نشيط كثير الحركة ، إلا أن له خصوما فى التبليغ والسياسة مما لا يحسن معه أن يكون واسطة الاتصال فى هذا الاقليم ؛ وحبذا لو صرف النظر عن بومباى الآن .

هذه هى حال التبليغ كما هى عليه اليوم ، وقد ذكرنا أهم الشخصيات القائمة بالعمل ، تاركين فى هذا المقام جماعة الأحمدية اللاهورية الذين يعنون بالدعاوة فى خارج الهند ، وجماعة الشيعة (مدرسة الواعظين) الذين يركزون نشاطهم فى إفريقيا الجنوبية .

وفى رأينا أن الحركة ـ لو تركت على ما هى عليه الآن ـ مكفولة السير الى الأمام ، لكن ببطء محزن ، فاذا ماحفزها حافز خارجى ، كانت عظيمة النتاج ، ولا سيما إذا اتجهت النية الى توحيد النظم ، وتركيز العمل ؛ بانشاء إدارة مركزية تكون حلقة الاتصال بين هذه الهيئات .

ملخص مقترحات البعثة :

على ضوء المعلومات التى اوردناها فى هذا التقرير ، تستطيع البعثة ان تقترح ما يأتى :

أولا : لنشر الثقافة الاسلامية بالهند :

(أ) الاتصال بالهيئات الآتية :

١ — حكومة حيدر آباد : بشأن إنشاء كرسى للغة الأردية بالأزهر . والمساهمة فى مشروع ترجمة معانى القرءان .

٢ — حكومة بهو بال : بشأن إيفاد مبعوثين مصريين أزهريين الى بهو بال ، وموافاة السير روس مسعود وزير المعارف بأول جزء يفسر من القرءان الكريم .

٣ — حكومة رامبور : بشأن إيفاد أحد خريجى الأزهر الى المدرسة الدينية هناك .

٤ — حكومة بهاولبور : بشأن استعداد الأزهر للمساهمة فى النهضة العربية الاسلامية بالجامعة العباسية .

٥ — جمعية أنجمان حماية الإسلام بلاهور : لوضع مناهج دينية لكلية البنات .

٦ — جامعة عليكرة : بشأن إيفاد مدرسين أزهريين للجامعة ، ووضع مناهج لشعبة العلوم الدينية بها .

٧ — الجامعة الملية بدلهى : بشأن إيفاد مبعوث أو أكثر الى الجامعة فى حدود ما عرضته .

٨ — الدكتور محمد حسين بدهرادون : للاتفاق على وضع منهاج يحقق فكرته التى يرمى بها الى إعداد طائفة من طلابه للالتحاق بكلية أصول الدين رأساً .

٩ — السيد سليمان الندوى : بشأن استطلاع رأيه فيما أشار إليه فى حديثه عن مجلة الأزهر ودعوته للتحرير بها .

(ب) تنظيم بعثات الهند الى الجامعة الأزهرية .

(ج) تنظيم استقبال القادمين الى مصر والمارين بها ، من عظماء المسلمين فى الهند ، ودعوة بعضهم لإلقاء المحاضرات ، مع العمل على منحهم درجة العالمية الفخرية .

(د) دعوة بعض عظماء الهند لحضور العيد الألفى للازهر .

(هـ) الارشاد الى أحسن الكتب لتعليم اللغة العربية .

(و) إرسال مناهج الأزهر للجامعات والمؤسسات العلمية الاسلامية .

(ز) إرسال « مجلة الأزهر » الى المدارس والجمعيات والشخصيات البارزة .

ثانيا : عن شئون المنبوذين :

(ا) فى حالة ما إذا رأى الأزهر أن يقوم بعمل مباشر ، فانا نقترح إنشاء مراكز للثقافة والتبليغ (وفق المشروع المرافق) فى الجهات الآتية :

١ — مركز فى إقليم كيرال فى الجنوب الغربى للدكن .

٢ — مركز فى إقليم سورات بمقاطعة بومباى .

٣ — مركز فى إقليم دكا فى البنغال الشرقية .

٤ — مركز فى إقليم رانجوان فى برما .

٥ — مركز فى إقليم ناجبور فى الولايات الوسطى .

ويستحسن فى هذه الحال الاتصال بالأستاذ « غلام بهيج نيرانج » للاتفاق معه على إنشاء هـذه المراكز ، كما يستحسن ، فى حال التوسع فى العمل ، أن تنشأ إدارة مركزية فى لاهور تـكون حلقة الاتصال بين هذه المراكز بعضها وبعض ، ثم بينها وبين الأزهر .

(ب) فى حالة ما إذا رأى الأزهر أن يتفادى ما يحتمل أن يقوم من الصعوبات ، إذا اعتزم إرسال البعثات باسم التبليغ ؛ فالبعثة ترى عندئذ أن يوفـد الأزهر الى الهند عددا من رجاله لنشر الثقافة الاسلامية ، مع تـكليفهم الاتصال بجمعيات التبليغ الحالية للتعاون معها .

على أن يقوم الأزهر بما يأتى :

١ — قبول خمسة من أبناء المنبوذين — الحاصلين على شهادة الماتريك — بالأزهر لاتمام علومهم والتخصص فى الوعظ والارشاد .

٢ — الاتفاق مع ندوة العلماء بلـكنو ، على قبول عشرين من أبناء المنبوذين باسم الأزهر لاتمام تعليمهم الدينى بها .

٣ — إعانة الجمعية الاسلامية بناجبور ، مقابل افتتاحها فصولا جديدة لأبناء المنبوذين .

٤ — إعانة « جمعية أنجمان تبليغ الاسلام » بامبالا ، على شريطة أن يخصص المال لتبليغ الاسلام بين المنبوذين فى إقليم كيرال .

والله ولى التوفيق

الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة :

هذا سفر يقع فى نحو ٢٥٠ صفحة غير الفهرستات والمعاجم الملحقة به المبينة لمواضيعه وتراجم الأعلام الواردة به ، وأماكن البقاع المذكورة فيه والقبائل والصور ونوادر الكتب الخطية . ألفه الأديب النابغة صاحب السمو السيد عبد الرحمن بن زيدان نقيب الأسرة المالكة بالمغرب الأقصى ، وطبع على نفقة جلالة سلطانه .

موضوع هذا الكتاب ذكر مآثر الملوك العلويين بفاس كما يدل عليه اسمه . بدأه بتاريخ السلطان الرشيد المولود سنة ١٠٤٠ بسلجماسة والمتوفى سنة ١٠٨٢ وينتهى بتاريخ جلالة السلطان سيدى محمد بن يوسف القائم بالأمر بمراكش الآن . وقد أفاض فى تواريخ هؤلاء السلاطين وأتى على خطوطهم وعلى صور كثير منهم . فجاء أوفى كتاب لتاريخهم . فنشكر لسمو مؤلفه ونثنى على همته ، أكثر الله فى الأمراء الشرقيين من أمثاله .

تقويم الهلال :

تصدر مجلة الهلال فى كل سنة تقويما حافلا بحوادث العام المنصرم وصوره ، حتى ليصادف القارىء فى الصفحة الواحدة منه صورا متعددة فى غاية الاتقان . فمن يقرأ هذا التقويم ير كل ماحدث فى العام من الحوادث وما يقتضى الكلام عنها من الصور فيكون كأنه يشاهد شريطا سنمائيا يعرض عليه كل ما يهمه أن يذكره وأن يراه بعينه . ولقد تصفحناه قبل أن نكتب عنه هذه الكلمة فوقع نظرنا على صفحة عنوانها ضيوف مصر ، فتاملناها فاذا بها قد آتت على كبار من زاروا بلادنا فى السنة الماضية وهم سلطان زنجبار وسلطان البهرة وسلطان كانوا والامير سعود والزعيمة الهندية شريفه حامد على والسيد عبد الرحيم ماسونتين ، وتحت كل منهم نبذة تتعلق به ، وهكذا لا تلقى ببصرك الى صفحة من صفحاته حتى تجد فيه منظرا حيا تحب أن تحتفظ به لتعود اليه وقت فراغك .

فنشكر لدار الهلال هذه الخدمة الادبية ، ونرجو لها دوام الترقى .

كلية الشريعة الاسلامية :

أهدانا حضرات طلبة كلية الشريعة الاسلامية بكراسة حليت باسم حضرة صاحب الجلالة الملك ، ضمنوها مطالب لهم رفعوها لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام ليرى رأيه العالى فيها .

فمن مطالبهم : أن تعالج مشكلة المدة الدراسية حتى يبرح الازهرى معهده وما تزال لديه فتوة الشباب ونشاط الصبا . ويكون هذا العلاج ناجعا بالوسائل الآتية :

١ — أن تجعل مدة الدراسة فى الـكلية ثلاث سنوات .

٢ — ومدة تخصص المهنة سنة واحدة .

٣ — ومدة تخصص القضاء الشرعى سنة واحدة .

٤ — ومدة تخصص المادة أربع سنوات بدل ست .

٥ — وأن تقسم شعبة التخصص فى مادتى الفقه والاصول الى شعبتين :

الشعبة الاولى — يدرس فيها الفقه مع مقارنة المذاهب وتحديد موضع المقارنة :

الشعبة الثانية — تدرس فيها الاصول مع تاريخ التشريع الاسلامى .

٦ — إنشاء شعبة للتخصص فى مادتى التفسير والحديث .

٧ — تخفيض عدد الحصص فى أقسام تخصص المادة .

٨ — عدد طلاب تخصص المادة يكون نسبيا مع تعميم المكافأة وزيادتها .

٩ — صرف المصادر العلمية التى لاغنى عنها .

١٠ — إنشاء مجلة فقهية للـكلية .

١١ — تحقيق فـكرة الاتصال العلمى بين كليتى الشريعة والحقوق .

١٢ — جواز الحصول على معادلة الحقوق المصرية لخريجى تخصص القضاء الشرعى .

١٣ — تخفيض درجات الامتحان بجعل الخمسين فى المائة ٤٠ لـكل عـلم و٦٠ بالنسبة للمجموع و ٥٠ بالنسبة لـكل علم لقسم تخصص المادة ، والسماح للراسبين بحق دخول الدور الثانى .

وقد توسعوا فى بيان حقية مطالبهم وانطباقها على الأصول التعليمية الجامعية .

ولسنا نشك فى أن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام سينظر فى طلباتهم بما جبل عليه من العطف على أبنائه ، وحبه لهم كل ما يرقى من شئونهم وينمى من مواهبهم .

مفـكرة الأمير :

اعتاد حضرة العامل النشط عباس افنـدى عبد الرحمن أن يصدر فى كل عام مفكرة تحت هـذا العنوان يبدع فى صنعها بقدر ما تسمح له به وسائل الطباعة والتجليد ، وقـد تدرج فى ترقيتها الى حد أن ضاهأت أمثالها مما يعمل فى أوربا . فنشكر له اهتمامه بترقية فن الطباعة ونرجو له المزيد من التقدم والنجاح .

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١١ —

مقومات التكافل العالمى

كانت الحالة الاجتماعية فى العالم قبل الاسلام ، أن كل أمة تعيش على حساب نفسها ، منقطعة الصلات بكل أمم الأرض ، إلا ما تجمعها بها محالفة دفاعية أو دفاعية هجومية لمصلحة الطرفين المادية ، ولم ينشأ الشعور بوجوب وجود تكافل عام بين جميع الأمم إلا فى القرن التاسع عشر ، حيث كتبت فيه بحوث قيمة ، ونشرت له دعوة مؤثرة .

كانت الأمم قبل هـذا التاريخ أشبه بالمعسكرات المعباة ، لا تأمن الغارات المفاجئة ليلا ولا نهارا ، وكان كل فرد منها مهدر الدم إن حـدثته نفسه بتجاوز حدود بلده . فلما ازداد العمران ، ونشأت الحاجة الى تبادل المحصولات الأرضية ، والمنتجات الصناعية ، نشأ بجانبها شعور بضرورة احتمال الأجانب فى حدود هذا التبادل . ومع هذا فـكان المتغربون للمبادلات لا يستطيعون تجاوز مناطق معينة من التخوم المتجاورة أو الشواطىء البحرية ، فاذا آبوا فلا يأمنون على أنفسهم من الغارات البرية والبحرية ، فـكانوا يتخذون لذلك أهبتهم الحربية .

كان العالم كله الى ذلك الحين متأثرا بالعوامل المادية ، ولم تـكن قد ولدت بعدُ عاطفة الجامعة الانسانية ، إلا فى رءوس بعض أفذاذ الفلاسفة على نقص فى مدلولها . ألم يقل أفلاطون نفسه : إنى أحمد الله على ثلاث : على أن خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا ، وعلى أن جعلنى يونانيا ولم يجعلنى من جنس آخـر ، وعلى أن أوجدنى فى عصر سقراط ولم يوجدنى فى عصر غيره ؟ ألا يدل هذا على أن توهم الأجناس السمو على غيرها كان قويا حتى فى عقول الفلاسفة المبرزين ؟ ودعوى السمو تقتضى التميز فى الحقوق ، وليس هذا من العدل المطلق فى شىء . ومثل هذه الأوهام لا تدع محلا فى الأذهان لفكرة الجامعة الانسانية .

ولـكن الاسلام قد أتى بما يزيل هذا الوهم ، فذكَّر الناس جميعا بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ، ومن كان أبوهم واحداً وأمهم واحـدة فلا محل لأن يدعى بعضهم السمو على بعض من ناحية الجنسية . وترك الطريق مفتوحا لمبدأ سام جديد وهو أن التميز الصحيح يكون بما

يكتسبه الانسان من صفات روحيـة ، ومزايا عقلية ، وهـذا التميز لا يحتاج فى تقرره لغير تحققه فى شخص معين، أو أشخاص معينين، فيصبح حقا لا مرية فيه ، ويسارع الناس الى الاعتراف به للاستمداد منه ، والأخذ عنه ، وهـذا كله مؤدى قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ولدت مع هذا المبدأ الذى أعلنه الاسلام فـكرة الجامعة الانسانية لأول مرة فى تاريخ العالم البشرى ، ولم يدعها محصورة فى دائرة نظرية بحتة ، كأكثر النظريات الفلسفية التى نقرؤها فى أسفارها الضخمة ولا نجد لها أثرا فى الخارج ، ولـكنه طبقها على العمل كـكل مبدأ جديد أتى به لترقية المجموعة الآدمية .

فأول مظهر يراه الباحث من آثار تطبيق الاسلام لهـذا المبدأ ، محوه للفروق الجنسية واللغوية واللونية ، ومحقه للنعرات القومية المتوسطة فى جميـع المسافة التى بين آدم ومحمد وما بعده الى يوم القيامة ، فاصبح لم يعد يستطيع قائل أن يقول فى بلاد العرب ، وهى بؤرة الفروق القومية : هذا عدنانى وهذا قحطانى ،أو هذا عربى وهذا تركمانى ، ولا هذا أبيض وهذا أسود ، فصار جميع البشر يعتزون الى أب وأم ، إخوانا لا يتميز بعضهم على بعض إلا بالمميزات الأدبية والروحية . وكان أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبرون الاعتزاز بالقبائل إثماً يجب الاستغفار منه . جاء فى أخبار عمرو بن العاص أنه حدث بينه يوما وبين المغيرة بن شعبة حوار ، فسبه المغيرة ، فغضب عمرو وقال : يال هصيص يسبنى المغيرة ! فقال له ابنه عبد الله : إنا لله وإنا اليه راجعون ، أدعوة القبائل يا أبت وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ؟ ! فندم عمرو على ما بدر منه ، وكفّـر عنه بأن أعتق ثلاثين عبدا .

وناقش أبوذر فى حضرة النبى يوما رجلا أسود فاحتد عليه وصاح به قائلا فى عرض الـكلام : يا بن السوداء ! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقال : طف الصاع طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . فندم أبو ذر على مافرط منه وكـفّـر عن فعلته بأن وضع خده على الأرض وقال للرجل الأسود : قم فطأ على خدى .

هذه حوادث قد يقرؤها الناس كما يقرءون الفكاهات ، وهى فى الحقيقة أمور جلل ، يصغر بجانبها كل إكبار ، لأنها تريك ميلاد أضخم مبدأ عالمى فى العالم الانسانى على يد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وقد تمشى أسلوب تطبيق هذا المبدأ على كل ما وضعه الاسلام من أصول روحية وخلقية ، وما قرره من مبادىء أدبية وقانونية ، وما أسسه من معاملات سياسية واجتماعية ، وذهب فى تطبيقه حتى فى مجال الحرب ، فسمح بها إذا حتمتها الضرورات ، ولـكنه أمر بالقصد فيها ،

وحاطها بكل ضروب التخفيف، مراعاة لمبدأ الجامعة الانسانية، فقال تعالى: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين » وقال: « ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآن قوم (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ».

وأمر النبى مع هذا أن لا يجهز على جرحى الأعداء، وأن لا يتعقب مهزوموهم، وأن لا يقتل خدم المحاربين، وأن يحسن الى أسراهم، وأن لا يتعدى على غير المحاربين من نسائهم وأولادهم وشيوخهم وقسوسهم.

أين هذا كله مما يجتهد فيه المتمدنون اليوم من إعداد الآلات الجهنمية لهدم المدن الآمنة ونسف دورها على من فيها من النساء والولدان والهرمى والمرضى، وإحراق مزارعهم وتحطيم بناياتهم، وهذا كله مما نهى عنه الاسلام عملا بالمبدأ الذى قرره من الاعتداد بالجامعة الانسانية العامة؟

فهذا السمو الذى تحلى به الاسلام، يزداد ظهورا إذا قورن بما يجرى بين أرقى المتمدنين اليوم من المعاملات التى تنافى كل مبدأ عال من هذا الطراز. فاذا أراد الانسان أن يستدل على نبوة نبى، فلا إخاله يستطيع أن يصادف أظهر ولا أجلى من هذه الأدلة الدامغة. فاذا كان العلم الطبيعى وما حمله الى الانسان من كشف المساتير، وهتك الحجب عن وجوه الحقائق، وما تحلت به الفلسفة العصرية من الكلمات الضخمة، والعبارات المفوفة، إذا كان كل هذا لم يوصل الانسانية الى كلية من هذه الكليات العلوية التى قررها الاسلام، وحمل أهله على العمل بها، فى بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها، أفلا يكون هذا أدل دليل على ما للوحى الالهى من السلطان على قلوب الناس وعقولهم، أكثر مما للعلم منه بما لا يقدر؟

وإذا قورنت سيرة قوم كانوا بالأمس أهل جاهلية يأكل بعضهم بعضا، بسيرة المتمدنين اليوم وهم أهل علم وفلسفة، وعراقة بعيدة الغور فى الفكر والنظر، وتحليل الشئون الانسانية وتركيبها، فهل تجد بدا من الحكم بأن الأصول الاسلامية ترفع من نفوس الآخذين بها ما لا ترفعه أصول جميع العلوم والفلسفات مجتمعة؟

فالاسلام الذى أوجد فكرة الجامعة الانسانية وأخذ يرسخها فى نفسية أهله، لم يغفل جزئية من جزئيات الأمور إلا وقرن بها ما يوجهها هذه الوجهة العالمية الكريمة، حتى فيما يبذله الانسان من الصدقة، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « تصدقوا على أهل الأديان كلها »، وحتى فى الهدية. وقد أثبتنا هنا فى بعض بحوثنا أن ابن عباس أمر خادمه بذبح شاة فقال له وهو يسلخها: لا تنس جارنا اليهودى. وما لبث غير قليل حتى عاوده بهذا القول، ثم ما لبث أن كررها الثالثة: فقال له خادمه: كم تقول ذلك؟ فقال له: إن النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا بمراعاة الجار حتى خشينا أنه سيورثه. فابن عباس لم يفرق بين المسلم وغيره فى حقوق المجاورة،

وما ذلك إلا لأن اعتباره وصايا تعاليمه وجميع الاسـلام لم يخل من الجامعة الانسانية . وهل بعد قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » مرمى لمستزيد؟ أليس البر لا يكون إلا بين المتصافين المتحابين ، ومعناه كمال الخـير ، ولا يستعمل إلا لزيادة العناية بمن يراد به ، ولذلك استعمل فى الوصاية بالوالدين ؟

وقد امتد سلطان المسلمين الى أمم لم تكن بينهم وبينها آصرة من جنس أو لغـة أو دين ، بل لم يكونوا فى جاهليتهم يسمعون بوجودها ، فعايشوهم على قدم المساواة ، وبروهم على ماوصاهم به الـكتاب ، فرضوا بهم حكاما ، وبدينهم دينا ، وبلغتهم لغة . ألم تركيف انتشر الاسلام فى أمم برمتها بدون إجبار ، فلم تمض على الفرس بعد احتكاكهم بالمسلمين سنون معدودة حتى دخلوا فى الاسلام ، وصار منهم كبار أشياخه ، وثقات أعمته ، وقلدهم فى الدخول فيه كل الأمم التى تليهم حتى فريق من أهل الهند والصين ، ولا يزالون مسلمين مخلصين الى اليوم . ولقد دهش جميع من عنى بهذا الشأن من العلماء الغربيين وغفلوا عن السبب الطبيعى لحدوثه ، وهو سمو تعاليم هذا الدين ، وانطباقها على الفطرة الانسانية والعقل ، وتحليه بفكرة الجامعة الانسانية الـكريمة ، مع تجرده من كل الخصوصيات القومية ، والتعصبات الجنسية ، والمميزات البيئية ، فهو دين عالمى عام باصـوله وفروعه ، لا يفرض صبغة قوم على قوم آخـرين ، ولـكنه يطلق وصاياه وتعاليمـه إطلاقا ، مسميا الحال التى تحدث من الأخذ بها بصبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟

ومن أعظم مظاهر تأثر المسلمين بفكرة الجامعة الانسانية ، نشرهم علومهم ومعارفهم فى كل بلد حلوا بها ، وعملهم المتواصل على تحسين حالة الشعوب التى تقع تحت سلطانهم ، وعدم ضنهم بتعدية علومهم للأجانب عنهم . على هذا أجمع المؤرخون من أبناء الفرنجة ، وذكروا ما شيده المسلمون من الجامعات فى بلاد غيرهم ، وما أقاموه من المراصد ، وما سهلوه لأهل الأديان عامة من الالتحاق بها . فـكان كثير من أهل أوربا يقدمون فى طلب العـلم الى بلادهم ، فيرحب المسلمون بهم ، ويوسعون لهم صدورهم ، ويخاصون لهم فى تلقينهم أسرار معارفهم . ولشعور الأوربيين بكرم نفوس المسلمين ، ورحابة ذرعهم ، كان ملوك أوروبا وأمراؤها إذا أرادوا الاستشفاء قصدوا بلاد المسلمين لشهرة أطبائها فى صناعة الطب ، وتبحرهم فى فن العـلاج . ومن يأتمنك على حياته ، وليس بينك وبينه آصرة من دين ولا قرابة ولا وطنية ، فقد اعتقد فيك الاخلاص المطلق للانسانية .

ومما يوجب الدهش أن فكرة الجامعة الانسانية ظهرت بكل سلطانها فى المسلمين ، حتى فى عهد حماستهم الدينية . فان هذه الحماسة لم توجد فيهم كراهة المتدينين بغير دينهم ، كما حدث ذلك فى كل شعوب الأرض أيام حماستها الدينية ، لـكنها على العكس أوجـدت لدى أبناء الاسلام رحمة بمن يخالفهم فى الدين . وهل يوجد أشد صلابة من عمر فى دينه وهو الذى حمله التحمس

له أن يعلن إسلامه فى وقت كان المؤمنون يعقدون اجتماعاتهم سرا ، ولا يجرؤ أحدهم أن يصرح بأنه انضم الى شيعة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فعمرهذا لم يَحُلْ تحمسه لدينه بينه وبين واجبه نحو المعايشين لقومه من أهل الأديان المختلفة ، جريا على المبدأ الاسلامى من مراعاة حقوق الجامعة الانسانية . فقد روى فى تاريخه أنه كان يسأل رجال دولته عن غير المسلمين ، فيجيبونه بأنهم على أحسن حال لايشكون من شىء ، وأنهم يعاملون بالعدل والانصاف ، ولايضيق عليهم فى أى عمل دينى أو دنيوى . فكان رضى الله عنه لا يكتفى بهذا فيذهب بنفسه اليهم ويسألهم عن أحوالهم ، تفاديا عن أن يكون بهم ما يشكون منه ويخافون أن يجهروا به .

هذه مدنية لم تولد فى العالم بعد ، وأظنها لا تولد إلا بعد مضى أجيال كثيرة ، ويخيل الى أنها لا تولد إلا بعد أن لا يكون غير الاسلام دين فى الأرض ؟

محمد فريد وجدى

الرفق والاناة فى الامور

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة » .

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله عنها : « عليك بالرفق فان الرفق لايخالط شيئا إلا زانه ، ولا يفارق شيئا إلا شانه » .

وقال شاعر :

الرفق يمن والأناة سعادة ليس النجاح لمن يطيش ويخرق

وقال آخر :

وفى الأناة إذا ماجد صاحبها حزم ويعقبها التفريط والخرق

وقال بعض الحكماء : الأناة حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة .

وقال غيره : إذا لم يدرك الظفر بالاناة فبما ذا يدرك ؟

وقال القائد الكبير المهلب بن أبى صفرة ساحق الخوارج : أناة فى عواقبها درك ، خير من عجلة فى عواقبها فوت .

التفسير

سورة الاعلى

- ٢ -

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى » :

عرفت مما كتبناه قبلا أن المراد من تسبيح الاسم تنزيهه عن الإلحاد فيه بالتاويلات الزائفة ، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه ، وعن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال . أو أن المراد سبح ربك الأعلى ، وكلمة الاسم مقحمة كما يدل عليه ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم لما نزلت : « اجعلوها فى سجودكم » ، والذى يقال فى السجود هو سبحان ربى الأعلى . الى آخر ماذكرناه .

أما قوله تعالى : « الذى خلق فسوى » فهو صفة أخرى للرب ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أو منصوب على التعظيم . وقد قصد بذلك الثناء على الله وبيانُ صفاته الجليلة وآياته البديعة التى هى برهان على أنه الرب الأعلى ، الذى تجلت قدرته فى مخلوقاته ، وبهرت حكمته فى بديع مصنوعاته . والمراد أنه سبحانه وتعالى خلق كل شىء فسوى خلقه بإعطائه ما به يكون كماله ويتيسر معاشه ويتم بقاؤه .

أما قوله : «والذى قدر فهدى » فالمراد به أنه تعالى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها : « إنا كلَّ شىء خلقناه بقدَر » .ثم وجّه سبحانه وتعالى كل واحد منها الى ما يصدر عنه وينبغى له طبعا أو اختيارا ، ويسّره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ، وإيداعه من القوى ما يعينه على ما أريد منه . ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت فى كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول .

ومن التسوية أن جعل قامة الانسان مستوية معتدلة ، وخلقته حسنة ، على ما قال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . وقد أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، على حسب معيشته وحياته التى قدرت له . وانظر الى حال الحيوانات الدنيا والعليا

والبرية والبحرية والهوائية وما بينها من الاختلاف ، حتى إن بعضها يعيش فى التراب ويقتله الأكسوجين ؛ وبعضها بالعكس من ذلك . ولكل طريق مرسوم وخطة ينتهجها يكون بها صلاحه وبقاؤه : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . الى آخر ما دهش له علماء الحيوان . ولا تزال الاكتشافات تظهر من أسرار الله ما تحار فيه الأفكار ولا تحيط بدقائقه ساميات الأنظار . ولعلك سمعت ما اكتشفوه الآن من الغدد وما نيط بها من الغايات وبديع الآيات .

وبالجملة : فقد جعل الله تعالى جميع الأشياء مستوية فى الإحكام والإتقان (لا أنه سبحانه أتقن بعضا دون بعض) . وفى ذلك من الاستدلال على وجوده تعالى وحكمته ما لا يخفى . فإن الانسان إذا نظر الى شىء محسوس فرآه قد وضع بشكل ّما وقدر ّما ووضع ّما ، وكان موافقا فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة ــ علم على القطع أن لذلك الشىء صانعا صنعه ، ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة . قال ابن رشد : لا شىء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصنعة فى الإحكام . وقد تبين من هذا أن من أجل الطرق التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هى ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيه على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وبخاصة الانسان ، وهى طريقة نسبتها فى الظهور الى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس .

وحيث انجر بنا القول الى هذا فلنذكر لك شيئا مما فى خلقة الانسان الذى أودعه الله من الخصائص والأسرار فى صورته ومعناه ما يعجز عنه لسان البيان . وطالما كان يدور بنفسى أن أعمل رسالة فى تفسير قوله تعالى : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » وقوله : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » على نحو رسالتنا فى تفسير قوله تعالى : « لايسأل عما يفعل » .

وقد قالوا قديما : نظرك فيك يكفيك . وقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »

فلننتهز هذه الفرصة ونذكر شيئا قليلا من بدائع خلقة الانسان ، فنقول :

انظر كيف دوّر سبحانه الرأس ، وشق فيه السمع والبصر ، والأنف والفم ، وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر . قال الغزالى :

ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره أعلم العلماء وأكبر الأطباء . وانظر كيف ركب هذه العين من سبع طبقات : القرنية ، العنبية ، العنكبوتية ، الشبكية ، المشيمية ، الصلبة ، الملتحمة . ولكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة ، ولو فقدت طبقة منها لتعطلت عن الإبصار . وانظر الى هيئة الأشفار التى تحيط بها وما خلق فيها من

سرعة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره . فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق فى غير وقتها .

وقد أذكرنى ذلك قول بعض الفلاسفة من الأوربيين : يكفينى هـدب العين فى الدلالة على الله .

ولا بأس أن نذكر لك قول الآخر : يكفينى فى الدلالة على الله خلق الأنثى بجانب الذكر ، فمن أعلم الطبيعة العمياء الصماء أن بقاء النوع لا يكون إلا بخلق الذكر والأنثى !

ولا غرو : فهى آية تسترعى الأنظار ، وتستهوى العقول والأفكار ، حيث خلق لك أنثى من نوعك تماثلك صورة وشكلا ، وتخالفك ترتيبا ومعنى ؛ وهيأ كلا منكما لما يراد منه وإن خلقتما جميعا من ماء مهين ، ولا فرق بينكما فى عناصر التكوين ، ولكن يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وقد امتن علينا سبحانه وتعالى بذلك مبينا أنها من الآيات البينات والدلائل الواضحات ، فقال عز من قائل : « ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ومما يحسن ذكره ها هنا قول فكتور هوجو :

« إن القول بأن العين لم تخلق للإبصار وإنما وجدت هكذا فكان بها الإبصار ، لمن أفظع أنواع الجنون التى تلم بالعقل الانسانى» . ثم قال الغزالى :

ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه ، جعل شعرها على قدر لايزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصا يضر بها .

وأستلفت نظرك بعد هذا كيف خلق فى مائها ملوحة لتقطيع مايقطع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع فى العين لأحد الجانبين .

ثم انظر الى الفم واللسان وما فى ذلك من الحكم ، وكيف جعل الشفتين سترا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلقة ، ومع ذلك هما معينان على الكلام ، وبعض الحروف يتوقف عليهما ولا يكون إلا بهما ! وكيف جعل اللسان للنطق والتعبير عما فى ضمير الانسان ، فضلا عن تقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه ! الى غير ذلك من الفوائد والمنافع .

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا ، فان أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقى . وقد جمع فيها بين النفع والجمال ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لمزيد الحاجة إليها . واقتضت الحكمة أن جعل الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام مع كونهما جمالا للفم ، فأحكم أصولها ،

وحدد رءوسها ، وبيض لونها مع حمرة ما حولها ، وجعلها متساوية الرأس ، متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق فى الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا فى وقت الحاجة إليها ، وهى « الريق » ولو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للانسان . وحكمتها أن يبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم . فاذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التى خلقت للترطيب وبقى منها ما يبل اللهوات والحلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا يجف ، فان جفافه يجلب للانسان أعظم الضرر .

ثم انظر الى رحمة الله ولطفه إذ جعل للآكل لذة الأكل ، فجعل الذوق فى اللسان وجميع أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ ، فيجد فى ذلك راحة فى الطعام والشراب إذا دعت حاجة الى تناوله ، وليجتنب الشىء الذى لا يوافقه ، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه فى الحرارة والبرودة .

ثم انظر الى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا البارى سبحانه . وقد جعل فى الأنف حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، ليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث ، وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه .

ثم انظر الى الأذن كيف جعل فيها انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلا فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها ، ولكى يعرقل سير ما عسى أن يدخل اليها من الدبيب والحشرات ، فاذا دخل الى المعوج من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدى الانسان . وأيضا كان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الانسان وأمامه وعن يمينه وعن يساره سواء ، فتأتى المسموعات اليهما على نسبة واحدة ، وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة ، إذلو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرض لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين فإنه أجسام وأعراض لا تزول أثناء كشف الغطاء .

ثم انظر الى بقية الأعضاء الظاهرة كاليدين والرجلين ، ثم الباطنة كالمعدة والقلب والكبد والرئتين والأمعاء والكليتين (ولا تنس السبيلين) وما فيك من القوى المختلفة من الغاذية والنامية والجاذبة والدافعة والمصورة وما نيط بكل من الوظائف والأعمال . حتى إنك تجد

فى الحلق منفذين : منفذا للنفس ، ومجرى آخر بجانبه للطعام والشراب . وقد اقتضت الحكمة أن تجعل هناك غطاء يغطى مجرى النفس عند بلع الطعام ، وهو المسمى بلسان المزمار، لئلا تدخل فيه اللقمة التى قد تسبب الموت . وما أسرع ما ينفتح ويعود حال الأكل . الى آخر ما لا يمكن تفصيله فى عجالة كهذه .

فلنقل كما قال على رضى الله عنه : سبحان من بصّر بشحم ، وأنطق بلحم ، وأسمع بعظم ! « فلينظر الانسان مم خلق » . « ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » . « خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركّبك » « أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »

وبعد هذا كله إذا نظرت الى الانسان من حيث روحه وتفكره وإدراكه وتخيله وما أعطى من القدرة على التفنن فيما يريد ، والوصول الى أسرار الملك والملكوت ، وجدت باطنه أعجب من ظاهره ، وروحه أسمى من جسمه .

وبالجملة : فالانسان إذا تفكر فى نفسه استنارت عنده آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة إليه .

ولنقف هنا اليوم إشفاقا على القارىء أن يمل . ولندع مجالا لحضرات الكتاب الفضلاء ، سائلين الله أن ينور بصائرنا ، ويصلح سرائرنا ، ويعرفنا نفوسنا ، فان من عرف نفسه عرف ربه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

المن بالمعروف يبطل أجره

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إيا كم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر .

وقال بليغ : المنة تهدم الصنيعة .

وقال غيره : خير المعروف من لم يتقدمه مطل ، ولم يتبعه من .

السنة

الحدود الشرعية (١)

ذكرنا فى مقالنا السابق نص حديث عائشة رضى الله عنها المتعلق بفاطمة المخزومية التى أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حد السرقة . وبينا بعض ما يتعلق بهذا الحديث من أحكام . وقد بقى الكلام فى أمور :

(١) حد القذف (٢) القصاص (٣) التعزير (٤) حكم ما لا نص عليه فى الشريعة سواء كان عقوبة أو غيرها . فإليك البيان :

فأما حد القذف فقد بينه الله سبحانه بقوله : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » الآية . والقذف هو عبارة عن أن يتهم شخص آخر بالزنا صريحا كأن يقول له : أنت زان ، أو دلالة كأن ينسب شخص آخر الى غير أبيه . فمن صدر منه ذلك كان جزاؤه أن يجلد ثمانين جلدة ، ما لم يات بأربعة شهداء يشهدون بأنهم رأوا بأعينهم المتهم يزنى فى امرأة لا تحل له ، لا فرق بين أن يكون القاذف والمقذوف رجلا أو امرأة . وإنما خص الله المقذوف من النساء بالذكر حيث عبر بالمحصنات ، لأن ضرر الزنا يتعدى المرأة الى أسرتها ، فقذفها يصيبهم به معرة شديدة ، بخلاف الرجل . وكذلك خص الله القاذف من الرجال بالذكر حيث قال : « والذين يرمون » لأن النساء يغلب عليهن الحياء عادة فلا تقذفن الرجال بالزنا . وقد بينت السنة أنه لا فرق بين الرجال والنساء فى القذف ، كما بينت الشروط اللازمة لاقامة حد القذف من عقل وحرية ، الى آخر ما هو مبين فى كتب الفقه .

على أن الآية الكريمة قد أشارت الى أهم شرط من هذه الشروط ، وهو أن يكون المقذوف محصنا ذكرا كان أو أنثى . ومعنى إحصانه هنا أن لا يكون قد ارتكب جريمة الزنا قبل قذفه ، أو بعده قبل إقامة الحد ، فإن ثبت عليه ذلك فإنه لا يكون محصنا ويسقط الحد عن القاذف . ومن أتى امرأة بعقد فاسد كأن تزوجها بغير شهود ، أو أتى امرأة وهى نائمة ظنا منه أنها زوجته وهى ليست كذلك ، فان حد الزنا يسقط عنه بهذه الشبهة ، ولكن هل يرفع عنه فعله الاحصان بحيث لو قذفه شخص بالزنا لا يجلد ثمانين جلدة ، أو هو لا يزال محصنا يحد قاذفه ؟

---

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

خلاف . فبعضهم يرى أن الاقدام على هذا الفعل بدون حيطة يرفع الاحصان . وبعضهم يقول لا يرفع عنه الاحصان إلا الزنا الموجب للحد . فهذا هو حد القذف

وقد أجمعت الشرائع والعقول على أن القذف بهذا المعنى اعتداء على الأعراض التى يقتضى النظام العام صيانتها ، خصوصا إذا لوحظ مايترتب عليه من شر وفساد ، لأن قذف المحصنات بالزنا يوجب لا محالة العداوة والبغضاء بين الأسر ، ويولد الضغائن والأحقاد فى نفوس الناس ، وربما أفضى الى الانتقام بقتل الأنفس ، وذلك شر وبيل يجب أن توضع له عقوبة تزجر الناس عنه ، فلا يطلقون لألسنتهم العنان فيه حذرا مما يترتب عليه من شر وفساد .

ولكن بعض الناس يتخيل أن عقوبة الجلد شديدة لا تناسب المدنية الحاضرة .

والجواب عن مثل هذا هو أن يقال : ينبغى لمن يتكلم بهذا أن يدرك أولاً معنى الجريمة ، ومعنى ما يترتب عليها من الآثار التى تؤذى المجتمع الانسانى ، ثم يقارن بينها وبين العقوبة ليعلم أن الغرض من العقوبة إنما هو زجر الناس عن كل فعل أو قول يضر بالمجتمع ويؤذى أفراده وجماعته . فاذا فشت الجرائم بين الناس وأصبح كل واحد غير آمن على عرضه أو نفسه أو ماله فانه لا يكون لهذا معنى إلا أن الانسان الذى ميزه الله بالعقل مساو للحيوان المفترس الذى يعتدى قويه على ضعيفه ، وذلك هو الهلاك والفناء للأفراد والجماعات . فلا بد من زاجر يزجر المجرمين فاسدى الأخلاق ، ويوقفهم عند الحد الذى يصلح للبقاء . ولا بد أن يكون ذلك الزاجر قاطعا لدابر الجريمة كى لا يكون لها أثر بين الناس . فمن مصلحة المجتمع ومصلحة المجرمين أنفسهم أن تكون العقوبة زاجرة بصرف النظر عن تفاوت حال المجرمين فى الرقة والخشونة أو الذكورة والأنوثة ، فان ذات الجريمة واحدة وآثارها الضارة واحدة .

ولا يليق بعاقل مشرع أن يقول إن المجرم الذى يهاجم أعراض الناس فيثلمها بلسانه كذبا وافتراء لا يستحق عقوبة الضرب الموجعة ، بل الواجب أن يقول إن هذه الجريمة لها أسوأ الأثر بين الأفراد والجماعات ، فيجب أن توضع لها عقوبة تقلعها من أساسها . فالعقوبة التى وضعها الله تعالى لازمة ضرورية .

فعلى المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن ينزهوا ألسنتهم عن قذف الناس بهذه الفاحشة ، إن لم يكن خوفا من العقوبة الدنيوية فخوفا من الله الذى وصفهم بأنهم فاسقون . أما المستهترون الذين لا يبالون بأمر الله عز وجل ولا يخشونه فان هؤلاء أحط من الأنعام ، فلا زاجر لهم إلا بما يؤذيهم ، وإلا تمادوا فى نهش أعراض الناس بدون حساب .

على أن الشافعية والحنابلة قالوا إن للمقذوف الحق فى أن يعفو عن قاذفه ، ويسقط بذلك العفو حد القذف . وفى ذلك سعة . فاذا سبق لسان أحد الى قذف شخص بهذه الفاحشة فانه يصح له أن يسترضيه ويزيل ذلك الأثر من نفسه ، فاذا عفا عنه فان عفوه يصح ، سواء كان قبل رفع

الأمر للحاكم أو بعده . والمالكية يوافقون على هذا الرأى إذا كان العفو قبل أن يرفع الأمر للحاكم ، أما بعد رفع الأمر للحاكم فان العفو يصح إذا كان المقذوف يخاف على نفسه سوء السمعة . أما إذا كان مشهورا بالعفة ولا يؤذيه إذاعة التهمة فان العفو لا يصح . وعلى أى حال فان القول بصحة عفو المقذوف معقول ، لأنه هو الذى وقع عليه ضرر القذف ، ومتى عفا ذهب أثر الجريمة الضار . فاذا قذفه ثانيا بعد العفو فانه لا يحد ولكن يعزر كى لا يعود الى شتمه . ويمكنك أن تقول إن العفو يسقط حد القذف عند الأئمة الثلاثة خلافا للحنفية . ومع ذلك فان الحنفية يقولون إنه لا يقام إلا إذا رفع المقذوف الأمر للحاكم

ومما ينبغى ملاحظته أن إقامة الحد بالجلد يجب أن يراعى فيها حال المجرم واحتماله للعقوبة ، فاذا كان جسمه ضعيفا لا يحتمل أو كان مريضا فانه يؤخر الى أن يقوى على احتمال العقوبة ، فاذا كان ضعفه طبيعيا بحيث لا يرجى له قوة فانه يجمع له أعواد بقدر عدد العقوبة ويضرب بها مرة واحدة . وهذا هو رأى جماهير العلماء . ومن هذا كله يتضح لك أن الشدة فى العقوبة إنما هى بالنسبة للفجار الأقوياء الذين يؤذون الناس بما يوجب حقدهم عليهم وعدم الصفح عنهم ، وهؤلاء شرهم على أنفسهم وعلى المجتمع شديد ، فلا ينبغى لأحد أن يرحمهم فى أى زمان ومكان .

(٢) وأما القصاص فهو أن يعاقَب الجانى بمثل جنايته على أرواح الناس أو عضو من أعضائهم ، فاذا قتل شخص آخر ، استحق القصاص وهو قتله كما قتل غيره . وقد عنيت الشريعة الاسلامية بالمحافظة على دماء الناس عناية تامة ، فهددت الجناة الذين يعتدون على دماء الناس تهديدا شديدا . ويكفى فى زجر المسلم الذى يؤمن بالله واليوم الآخر قوله تعالى : « ومَن يقتلْ مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغَضِبَ الله عليه ولَعنه وأعد له عذابا عظيما » . فإن فى هذه الآية من الشدة ما تقشعر له جلود القساة إن كانوا مسلمين . وقد قال بعض أئمة المجتهدين : إن قاتل النفس خالد فى النار كالكافر بدون فرق كما هو ظاهر هذه الآية ، وسواء صح هذا القول أولم يصح فإنه يكفى أن يمكث القاتل معذبا فى نار جهنم زمنا طويلا ، ويكفيه غضب الله عليه ولعنته إياه ، ويكفيه أن الله أعد له عذابا عظيما ، يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم . لا شك أن من كان عنده مثقال ذرة من إيمان وسمع هذه الآية فإنه يفر من العدوان على دماء الناس كما تفر الشاة من الذئب . فلو فرض وقتل شخص آخر فى جنح الظلام ، وأفلت من القصاص فى هذه الحياة الدنيا ، فإن ذلك شر له لا خير له ، لأن العقوبة الأخروية الشديدة تنتظره ، وغضب الله عليه فى هذه الحياة الدنيا ينتظره . أما من اقتص منه فى حياته الدنيا فانه يكون كفارة له فى الآخرة على التحقيق ، لأن الله أكرم من أن يعذب مرتين ، وقد فعل به ما فعله بغيره جزاء وفاقا .

وقد عرفت أن القصاص يسقط بالعفو أو الصلح ، بخلاف الحد فانه لا يسقط بالعفو لأنه حق الله ، ولـكن هذا هو رأى الحنفية . أما غيرهم فانهم يقولون : إن الذى لا يسقط بالعفو هو حـد الزنا وحد السرقة بعـد رفع الأمر الى الحاكم ، وأما حد القذف فانه يسقط بالعفو مطلقا . وإذا كنت على ذكر مما بيناه لك فى مقالنا الأول من أن حد الزنا لا يقع إلا إذا شهد بالجريمة أربعة شهود رأوا بأعينهم الفـعل نفسه ، وذلك متعذر لا يمـكن تحققه عمليا ، فان تنفيذه يكون منوطا باقرار الجانى وحده . أما حد الشرب فبعضهم يرى أنه من باب التعزير . وعلى هذا يمكن أن يقال : إن الحد الذى يتصور وقوعه ولا يسقط بالعفو هو حد السرقة بعد رفعه الى الحاكم على الوجه الذى بيناه فى مقالنا الأول .

وها هنا سـؤال معروف ، وهو أن الشريعة الاسـلامية جعلت عقوبة القتل من باب القصاص الذى يصح سقوطه بالعفو مع كونه من أفظع الجرائم وأشدها ضررا بالمجتمع الانسانى ، ومقتضى ذلك أن تجعله من باب الحدود التى لا تقبل السقوط بحال من الأحوال كى يعلم الجانى أنه مقتول لا محالة فلا يقدم على الجريمة .

والجواب : أن ذلك من محاسن التشريع الاسلامى ودقته . وذلك لأن الغرض من العقوبة قد بينه الله تعالى بقوله : « ولـكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . وإذا كان الغـرض من القصاص هو حقن الدماء والـكف عن العـدوان على الأرواح ليعيش الناس آمنين ، فان من الضرورى أن ينظر الشرع فى كل النواحى التى يترتب عليها حفظ الأرواح وصيانتها . فاذا كانت العقوبة تزجر فاسد الأخلاق الذى تميل نفسه الى الجريمة فتمنعه عن قتل نفسه وقتل غيره ، ولـكن يجب النظر أيضا الى ما يرفع الأحقاد والضغائن من نفوس الأسرة حقنا للدماء ومحافظة على الأرواح . ولما كان من البدهى الذى لا ريب فيه أن القتل يحدث عند أولياء الدم حقدا شديدا ويترك فى أنفسهم لوعة لا تنطفئ إلا بالتشفى من القاتل وتحكمهم فيه ، فقد جعل الشارع لأولياء الدم سلطانا على القاتل الذى يثبت عليه القتل ، فإن شاءوا عفوا عنه فى نظير مال أو غيره ، وإن شاءوا اقتصوا منه بالقتل بدون تمثيل أو تعذيب . وفى ذلك سـلوى تذهب بها أحقادهم ، فلا يمعنون فى العدوان ولا يسرفون فى الانتقام بقتل الأبرياء من أسرة القاتل فتثور ضغائن خصومهم فيقابلونهم بالمثل ، ويترتب على ذلك إراقة الدماء البريئة بأقبح معانيها.

إن الحوادث قد دلت على أن كثيرا من جنايات القتـل نشأت من إهمال رأى ولاة الدم وحرصهم على أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل ، فهم يعمدون الى اتهام غيره من أقاربه الأبرياء ويكتمون أمره كى يقتلوه عنـد سنوح الفرصة بأيديهم تشفيا ، وبذلك تسود الفوضى بين الأسر ، وتكثر فيهم حوادث القتل بدون أن يكون للقانون أدنى تأثير على أنفسهم . أما لو كان لولى الدم رأى فى القصاص من أول الأمر فإنه يرى فى تسلطه على القاتل ما يطفىء لوعته

ويرفع عنه المهانة ، فتهدأ نفسه ، فان عفا عنه فذاك وإلا اقتص منه وحده ووقفت الفتنة عند هذا الحد . ولا يقال إذا عفا أولياء الدم عن القاتل كان إطلاقه خطرا على الأمن ، لأنا نقول : إن ولى الدم فى الغالب يصر على القصاص . وإذا فرض وعفا عنه ولكن رأى الحاكم أن إطلاقه يهدد الأمن العام فله أن يعزره بما شاء ، وله أن يجعله تحت المراقبة التى تحول بينه وبين العدوان حتى يتحقق من حسن سلوكه .

فمن محاسن الشريعة الاسلامية ودقتها أنها جعلت عقوبة القتل قصاصا يقبل فيه الحاكم الصلح أو العفو من أولياء الدم بشروط وتفاصيل تطلب من كتب الفقه ولا يسعها المقام .

أما الجناية على الأطراف من يد أوعين أو سن ، فقد جعلت الشريعة الاسلامية عقوبتها القصاص أيضا ، بمعنى أنه يفعل بالجانى مثل ما فعل جزاء وفاقا ، ولكن يشترط المماثلة بين العضوين ، فلا تفقأ عين عوراء فى نظير عين سليمة ، ولا يقطع لسان أخرس فى لسان متكلم ، ولا تقطع يد عاطلة بيد عاملة ، ونحو ذلك مما هو مبين فى محله . وهذا هو العدل المطلق ، فإن الذى يعتدى على إتلاف عضو إنسان لا جزاء له إلا أن يتلف منه ذلك العضو ، كما قال تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

وربما يقال : إن فى ذلك الجزاء تكثيرا لأرباب العاهات بين أفراد الأمة ، فبعد أن كان الناقص هو المعتدى عليه أصبح المعتدى ناقصا مثله ، وذلك ضار بقوة الأمة وهيبتها .

والجواب : أن فى القصاص تقليلا لأرباب العاهات لا تكثيرا ، بل فى القصاص قضاء على الجريمة من أصلها . كما قال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » لأن الذى يوقن بالجزاء المماثل ، ويعلم أنه إذا اعتدى على عضو من أعضاء بدن غيره قطع مثله منه ، فانه يحجم عن ارتكاب الجريمة بتاتا ، وبذلك يرتفع العدوان ، فلا يوجد ذو عاهة أصلا لا معتد ولا معتدى عليه . أما الذى يعلم أن نتيجة عدوانه عقوبة بالسجن القليل فانه لا يبالى بتكرار فعله مع كثيرين ، فتزيد أرباب العاهات والمجرمون معا . على أن السجن إذا طال أمده فانه يكون من شر الآفات التى تقضى على حياة المجرم ، فانه يصبح عاطلا مستهترا بالجرائم كما هو مشاهد فى كثير من متعودى الاجرام والسجون . فمتى أمكن القصاص بالتساوى بين العضوين كان من العدل أن يقتص من الجانى بمثل جنايته ، وإن لم يمكن كان للحاكم أن يعزره بما يراه زاجرا له عن العودة ، ورادعا للأشرار عن ارتكاب الجرائم . على أنك قد عرفت أن القصاص فى نظر الشريعة الاسلامية حق المعتدى عليه ، فله أن يصطلح مع خصمه على مال وغيره أو يعفو عنه ، فاذا رأى الحاكم أن العفو يترتب عليه ضرر بالأمن فله أن يتخذ الوسائل التى يراها لصيانة الأمن .

(٣) أما التعزيز فهو « التأديب بما يراه الحاكم زاجرا لمن يفعل فعلا محرما عن العودة الى هذا الفعل » . فكل من أتى فعلا محرما لاحد فيه ولا قصاص ولا كفارة فان على الحاكم أن يعزره بما يراه زاجرا له عن العودة : من ضرب ، أو سجن ، أو توبيخ .

وقد اشترط بعض الأئمة أن لا يزيد التعزير بالضرب على ثلاثين سوطا . وقال بعضهم وهم المالكية : إن للامام أن يضربه بما يراه زاجرا ولو زاد عن مائة ، بشرط أن لا يفضى ضربه الى الموت . وبعضهم وهم الحنابلة قال : إنه لا يزيد فى الضرب على عشرة أسواط .

ولكن ابن القيم الحنبلى لم يوافق على هذا ، فقد ذكر فى إعلام الموقعين أن التعزير بالضرب قد وصل الى مائة سوط عند الحنابلة : كما إذا وطىء شخص جارية امرأته باذنها فانه يعزر بضرب مائة . وقال إن عمر بن الخطاب زاد فى حد شرب الخمر أربعين فأوصله الى ثمانين ، ولا يعقل أن تكون هذه الزيادة من أصل الحد الذى ورد عن رسول الله وهو أربعون .

على أنك قد عرفت أن بعض العلماء يقول إن عقوبة الشرب كلها من باب التعزير لا من باب الحد .

وظاهر عبارة ابن القيم فى إعلام الموقعين تفيد أن للحاكم أن يعزر بما يشاء من سجن أو ضرب كما هو رأى المالكية . فكل عقوبة تناسب حال البيئة وتخيف المجرمين يجب أن تنفذ .

على أن الحنفية الذين قالوا إنه لا يجوز للحاكم أن يزيد فى التعزير بالضرب على ثلاثين سوطا قالوا إن للحاكم أن يعزر بالقتل ، فان عقوبة اللواطة عندهم من باب التعزير ، ومع ذلك فانهم يقولون إذا تكررت هذه الفاحشة من شخص فانه يعزر بالاعدام ، إذ لا يليق أن يوجد بين النوع الانسانى من تنقلب طبيعته الى هذا الحد . ولا يخفى ما فى هذا من سلطة واسعة يتصرف فيها الحاكم بما يرى فيه المصلحة .

فان قلت : كيف يصل التعزير الى هذا القدر من العقوبة مع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله » فان ظاهر هذا الحديث يدل على أن عقوبة غير الحد لا يجوز أن تزيد على عشرة أسواط كما يقول الحنابلة ؟

وقد أجاب ابن القيم نفسه عن هذا بأن الحدود كما تطلق على العقوبات تطلق أيضا على نفس الجناية والمعصية كما ذكرنا فى مقالنا السابق . والمراد بها فى الحديث المعصية لا العقوبة . فمعنى الحديث : لا تجوز العقوبة بالضرب زيادة على عشرة أسواط إلا فى الجنايات التى حرمها الله تعالى ، فان للحاكم أن يضرب عليها ما يشاء ، ومن هذه الجنايات أن يختلى بامرأة محرمة ، أو يشهد زورا ، أو يغش شخصا أو يخدعه ، أو يحتال عليه ، أو يقامر ، أو يبذر ماله فيما يؤذى الناس ، أو يسعى بالنمائم بين الناس ، أو يطفف الكيل والميزان ، أو يصرف وقته فى الملاهى ،

أو غير ذلك مما لا يمكن حصره هنا . فكل جناية لم يضع لها الشارع حدا ولا كفارة فان للحاكم أن يعاقب عليها بالسجن أو الضرب بحسب ما يراه زاجرا للمجرم . أما غير الجنايات من المخالفات كمخالفة الابن لأبيه ونحو ذلك مما يقع من الصبيان فانه يصح التأديب عليها بالضرب ، بشرط أن لا يزيد عن عشرة أسواط . فهذا هو معنى الحديث ، وهو حسن .

وبالجملة فان التعزير باب واسع يمكن للحاكم أن يقضى به على كل الجرائم التى لم يضع الشارع لها حدا أو كفارة ، على أن يضع العقوبة المناسبة لكل بيئة ولكل جريمة : من سجن أو ضرب أو نفى أو توبيخ ، أو غير ذلك .

وأجاز بعض الحنفية التعزير بالمال على أنه إذا تاب يرد له . فإذا استثنينا من العقوبات حد السرقة ، وحد القذف ، واستثنينا القصاص وبعض الأشياء التى جعل الشارع لها كفارة كالحلف بأقسامه وإتيان الزوجة وهى حائض — فان عقوبات الجرائم الخلقية والمالية وسائر المعاصى منوطة بتقدير الحاكم واجتهاده ، فعليه أن يضع جميع العقوبات التى تقضى على الرذائل وتزجر المجرمين .

وفى هذا من دقة التشريع الاسلامى وجماله مايدل على أنه من لدن عليم خبير ، فان مما لا ريب فيه أن أحوال الناس تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فالعقوبة التى تناسب جماعة لهم حالة خاصة ، لا تناسب جماعة أخرى تخالفها فى عاداتها وأطوارها ، فلا يمكن وضع عقوبة منضبطة يمكن تطبيقها على سائر الناس . فالله العليم بأحوال عباده الخبير بما تقتضيه طبائعهم ناط أمر تقدير العقوبات باولى الأمر ، ثم كلفهم السهر على مصالح رعاياهم والاستمساك بكل الوسائل المفضية الى تربيتهم تربية صالحة ، والقيام بتأديب المجرمين بالعقوبات المناسبة ، كى يعيش الناس فى أمن ودعة وراحة واطمئنان .

وهاهنا سؤال ظاهر ، وهو أن عقوبة التعزير لم ينص عليها فى الشريعة الاسلامية بخصوصها فهل عمل الحاكم فى هذا الباب يقال له حكم شرعى أو وضعى ؟ وهذا هو السؤال الأخير . فإليك الجواب :

(٤) والجواب أنه لا يخرج حكم من الأحكام عن نصوص الشريعة الاسلامية ما دامت السموات والأرض ، وليس معنى هذا أن كل حادثة منصوص عليها بخصوصها ، فان هذا مما لا معنى له ، لأن الحوادث تتجدد بتجدد الزمان والمكان . ولكن الغرض أن كل حادثة من الحوادث المتجددة المتكثرة لا بد أن تدخل تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة الاسلامية ، فالتعزير قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويكفى فى ذلك الحديث الذى ذكرناه آنفا ، وهو « لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله » متفق عليه ، فانه نص على أن للحاكم أن يعزر بالضرب فى الأمور التأديبية ، وفى الأمور الجنائية حسبما يراه

زاجرا ، إلا أنه لا يزيد فى غير الجنايات على عشرة أسواط كما بينّا .

وقد عزر كبار أصحابه من بعده بالضرب والسجن والقتل .

فقد ثبت أن عمر جمع كبار علماء الصحابة واستشارهم فى عقوبة لا أط فأفتوا باعدامه حرقا ، وهذا من أشد ما يتصور فى باب التعزير .

وثبت أن عليا وجد رجلا مع امرأة يستمتع بها بغير جماع فجلده مائة سوط .

ولا خلاف أن للامام أن يسجن الجانى بما يراه زاجرا له . ولا معنى لهذا كله إلا أن لإمام المسلمين أو من ينوب عنه الحق فى التعزير بحسب ما يراه زاجرا للمجرمين ، بل يجب عليه أن يضع العقوبات المناسبة التى يترتب عليها تأديب رعيته وإصلاح حالهم ، لأن كل راع مسئول عن رعيته بنص حديث رسول الله ، فكل عقوبة من العقوبات التى يراها الحاكم زاجرة ، توصف بما توصف به الأحكام الشرعية بلا نزاع .

وبعد : فان الذى يطلع على الشريعة الاسلامية ويمعن النظر فيها ، ويقف على حكمها وأسرارها ويتامل فى نظمها وقواعدها ، لا يسعه إلا أن ينحنى أمام عظمتها ، ويجزم بأنها من لدن حكيم عليم ، فقد جاءت بكل قانون فيه مصلحة المجتمع وسعادته ، وبنت كل أحكامها على ما فيه مصلحة النوع الانسانى ودفع المفاسد عنه فى كل شأن من شئونه ، فلم تترك مصلحة حقيقية من مصالح الأمم والشعوب إلا حثت عليها وأمرت بها ، ولم تترك مفسدة من المفاسد الخلقية أو المادية إلا نهت عنها وحذرت الناس من شرها ، فوضعت نظام الأسرة التى هى أساس بناء العمران على قواعد ثابتة لا يعتريها وهن مدى الدهور والأعوام ، فقد جعلت لكل فرد من أفرادها حقا يناسبه ويليق به : من تعظيم ، ونفقة ، وميراث ، ووصية ، وغير ذلك . فأمرت الأبناء أن يطيعوا آباءهم فى غير معصية أو إثم ، وأمرت الآباء أن يربوا أبناءهم تربية حسنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « الزموا أبناءكم وعلموهم الأدب » ثم جعلت لكل من الآباء والأبناء حقوقا فى الميراث تناسب حالهم ، وكذلك جعلت للازواج حقوقا تناسب كل واحد من الزوجين بحسب العرف والعادة ، قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . وجعلت للاخوة والأخوات حقوقا على بعضهم بعضا ، وحثت بعد ذلك على صلة الأرحام وبرهم ، وجعلت لهم حقوقا تليق بهم ، ثم من بعدهم الجيران ، ثم أهل البلدة ، ثم بينت حقوق الحاكم والمحكوم خير بيان . وسيأتيك به مقال خاص قريبا إن شاء الله . وقد ذكرنا فى مقالنا السابق أنها قضت الوطر من قوانين المعاملات والأخلاق .

وبالجملة فالشريعة الاسلامية لم تترك شيئا إلا وضعت له قانونا أساسه المصلحة المادية والأدبية ، وقوامه الفضائل الانسانية ، حتى العادات ، فقد علمت الناس كيف يأكلون ويشربون ، وكيف يعامل بعضهم بعضا فى الحديث والمجلس والزيارة والصحبة ، وكل ما يتعلق بشئون

الفرد وحده أو مع غيره قريبا كان أو بعيدا ، ولم تقف قضية من قضاياها فى وجه الاصلاح الذى يتجدد بتجدد الزمان والمكان .

ومن هذا تعلم أن كل شىء يحدث لا بد أن يرجع الى أصل عام فى الشريعة الاسلامية . وقد ألهم الله رسوله أن يأتى بقواعد عامة جامعة يمكن إدخال كل جزئية من جزئيات الحوادث تحتها . وقد ذكر ابن القيم فى إعلام الموقعين كثيرا منها يضيق المقام عن ذكره جميعه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام » . و « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . و « كل قرض جر نفعا فهو ربا » . و « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » . و « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » . و « كل أحد أحق بماله من ولده ووالده والناس أجمعين » . و « كل معروف صدقة » الخ . فهذه وأمثالها كليات تدخل تحتها كل جزئية تتجدد من نوعها . فاذا فرض ووجدت جزئية ولم يتيسر لعالم أن يرجعها الى أصل من أمثال هذه الأصول فانه يمكنه أن يرجعها الى قوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » . والضرار هو الضرر . ومعناه أنه ينبغى لكل مسلم أن يرفع ضرره عن غيره . ويجب على كل رئيس قادر سواء كان حاكما أو غيره أن يرفع الضرر عن مرءوسيه ، فلا يؤذيهم هو ، ولا يسمح لأحد أن يؤذيهم . ومما لا شك فيه أن ترك الناس بدون قانون يرفع عنهم الأذى والضرر يخالف هذا الحديث ، فكل حكم صالح فيه منفعة ورفع ضرر يقره الشرع ويرتضيه .

عبد الرحمن الجزيرى

اصلاح الاموال حفظ للكرامة

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله فان إقلالا فى رفق خير من إكثار فى خرق .

وقال أيضا : لا يقل مع الاصلاح شىء ، كما لا يكثر مع الافساد شىء .

ويروى هذا المعنى عن المتلمس إذ قال :

لحفظ المال خير من فناه ... وسير فى البلاد بغير زاد
قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال حكيم : إن فى صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض .

وقال أحيحة بن الجلاح : أصلحوا أموالكم فانكم لا تزالون ذوى مروءات ما استغنيتم عن عشيرتكم .

وقال عبد الله بن عباس : اطلبوا الغنى باصلاح ما فى أيديكم ، فان الفقر مجمع العيوب .

الدرس الثانى

ألقاه فضيلة الاستاذ الاكبر بالمسجد الحسينى بمدينة القاهرة

فى مساء يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٦

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : « وسارِعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عَرضها السمواتُ والأرض أعدّت للمتقين . الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفَرُوا لذنوبهم ، ومن يغفرِ الذنوب إلا الله ، ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين . قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين » الآية : ١٣٣ — ١٣٨ من سورة آل عمران

المفردات . أسباب المغفرة . سعة الجنة ومكانها ووجودها الآن . الانفاق فى السراء والضراء . تعدد أوصاف المتقين . إرشاد القرآن الى طريقة البذل . فائدة البذل فى الأمة والفرد . المسلمون والبذل . كظم الغيظ والعفو . الاحسان وأثره . الاستغفار والإصرار على الذنب . سنن الله وارتباط السعادة بمراقبتها .

المفردات :

الغفر : إلباس ما يصون عن الدنس . ومنه : اصبغ ثوبك فانه أغفر للدنس . والغفران والمغفرة من الله : أن يصون العبدَ من أن تمسه النار . والاستغفار : طلب المغفرة بالقول والفعل . أما طلب المغفرة بالقول مع الاستمرار على الذنب فهو من الألاعيب التى لا يقام لها وزن .

التقوى : جعل النفس فى وقاية مما يخاف . وهى فى عرف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظورات ، وفعل المامورات .

السراء : حالة المسرة . والضراء : حالة المضرة .

الكَظَم : مخرج النفَس . وكظم فلان : حبس نفسه . وكظم الغيظ : أمسك على ما فى نفسه منه بالصبر حتى لا يظهر له أثر . وكظم القربة إذا ملأها وسدّها .

والغيظ : أشد الغضب . وهو الحرارة التى يجدها الانسان عند فوران الدم .

العفو :أن تترك مؤاخذة من يجنى عليك مع القدرة على المؤاخذة . أما ترك المؤاخذة مع العجز فلا يسمى عفوا .

الاحسان : الاتيان بالفعل على الوجه اللائق به .

الفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال .

الظلم : وضع الشيء فى غير موضعه المختص به : إما بزيادة أو نقصان ، أو بعدول عن وقته أو مكانه . ويقال الظلم لمجاوزة الحد الذى هو بمنزلة نقطة الدائرة قلّ التجاوز أو كثر . ولهذا استعمل فى الذنب الصغير والذنب الكبير . والظلم ثلاثة أنواع : ظلم بين الانسان وربه ، وأعظمه الكفر ، والشرك ، والنفاق ؛ وظلم بينه وبين الناس ؛ وظلم بينه وبين نفسه .

الصر : أصله الشد . والصرة ما تعقد فيه الدراهم . وقد أخذ منه أصر على الذنب بمعنى شد عليه وامتنع عن الإقلاع عنه . والإصرار :كل عزم شددت عليه .

السنن : سن الحديد إسالته وتمديده . وقد قيل من الاسالة سننت الماء أى أسلته وسكبته . والسنة : الطريقة . وسنة الله تعالى تقال لطريقة حكمه وطريقة طاعته .

البيان : الكشف عن الشيء وتوضيحه . ويسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره ، نحو « هذا بيان للناس » .

الهداية : الدلالة بلطف . وهداية الله ضروب : منها ماعم به كل مكلف : من العقل ، والفطنة ، والمعارف الضرورية . ومنها ماجاء على لسان الأنبياء . ومنها التوفيق الذى خص به من هدى من عباده ، وهو المراد بقوله : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

أسباب المغفرة :

المعنى ـ « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » : بادروا الى تحصيل الأسباب الموصلة الى المغفرة والى الجنة .

وهذه الأسباب على تنوعها واختلاف ضروبها ترجع الى طاعة الله ورسوله ، والى الايمان والعمل الصالح « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » . « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

سعة الجنة :

وقد جاء فى هذه الآية : « وجنة عرضها السموات والأرض » ، وفى آية أخرى « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » . ومعنى الآية على ظاهرها أنه لووضعت السموات واحدة بجوار الأخرى ، ووضعت الأرضون كذلك ، لكان مجموع هذا كله هو عرض الجنة . وقد يصح أن يكون الغرض الإخبار عن السعة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلق الله ، وخص العرض بالذكر للمبالغة لأنه يكون عادة أقل من الطول . والعرب تصف الشىء بالعرض إذا أرادت وصفه بالسعة . ولذلك يقولون : أعرض فلان فى المكارم إذا توسع فيها .

مكانها :

وعلى المعنى الأول لا يمكن أن تكون الجنة فى السموات والأرض ، بل يجب أن تكون خارجة عنهما ، وليس هناك ما يمنع من هذا ، فان خلق الله أوسع من السموات والأرض . والعلماء الآن يقولون إن هناك كواكب لمّا يصل نورها إلينا حتى الآن . ولا شبهة فى خروج هذه الكواكب عن السموات المعروفة .

وعلى المعنى الثانى يصح أن تكون فى السموات ، وأن تكون خارجة عنها . ونحن لا يعنينا أن نعرف موضع الجنة ومكانها : فى العالم أم خارجه ؟ ولا أن نعلم أجزاءها وكيفية تركيبها ، وإنما الذى يعنينا ويفيدنا أن نعرف الطرق الموصلة اليها . وقد تكفل الله سبحانه ببيانها ، كما بين بعض أوصافها المرغبة فيها .

وجودها :

« أعدت للمتقين » : هيئت لمن أطاع الله سبحانه وجعل بينه وبين المعاصى حجابا .

والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن ، لأن الفعل الماضى يُفهم هذا . غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصَعِق من فى السموات ومن فى الأرض » فلا يدل على خلقها الآن . والبحث فى هذا لافائدة له ، ولا طائل تحته .

الإنفاق :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء » :

هذا وصف من أوصاف المتقين الممدوحة . وستأتى لهم فى الآية أوصاف أخرى ، هى : كظم الغيظ ، والعفو ، والاحسان . وقد وصف الله المتقين أول سورة البقرة بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما أنزله على الأنبياء

جميعهم . وبين فى آية « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أنهم المؤمنون الذين ينفقون المال على حبه ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصبرون فى البأساء والضراء ، ويوفون بالعهد . ووصفهم فى آيات غير هذه بأوصاف أخرى .

السر فى تعدد أوصاف المتقين :

والسر فى تعدد أوصافهم وكثرتها : أن التقوى جامعة لصفات الخير ، فهى تستتبع صفات كثيرةً من صفاته فرقت فى مواضع من الكتاب الكريم لمناسبات خاصة .

والسراء : الحالة التى تسر : من يسر ، ورخاء ، وصحة ، وجاه ، وكثرة أولاد وعشيرة .

والضراء : الحالة التى تضر : فى النفس أو فى البدن أو فى خارج عنهما .

والمعنى : أنهم ينفقون المال فى جميع أحوالهم ، لا تمنعهم حالة فرح وسرور ، ولا حالة محنة وبلاء ، وسواء عليهم أ كان الواحد منهم فى عرس أم فى حبس ، فان البذل طبيعة لهم ، وحبه مستقر فى نفوسهم . وغير خاف أن هذه الصفة أنفع للبشر من سائر الصفات ، لأن أثرها متعد الى الجماعة الانسانية ، تنتفع به ، كما ينتفع المتصف بها باللذة النفسية العاجلة والجزاء الآجل . وهى من الصفات التى يقل المتصفون بها ، لأن الانفاق شاق على النفس ، والمال عدل الروح كما يقولون ، لأنه وسيلة من وسائل حفظ الحياة والترفيه عنها عند الشدة . لذلك قدم الله هذه الصفة على غيرها من صفات المتقين .

القرآن والبذل :

عنى الاسلام أشد العناية بالصدقة والبذل . وقد حث عليها الكتاب الكريم فى سور كثيرة جدا ، ويكاد نظام الصدقات الغير المفروضة يكون كاملا فى سورة البقرة من قول الله سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » الى قوله « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين » . ففى هذه الآيات حث على الصدقة ، وبيان أنه يجب أن تكون خالية من المن والأذى ، وأن تكون من طيبات الكسب لا من المال الخبيث . وفيها بيان أن إخفاءها أفضل من إظهارها .

وفى الحديث الشريف « على كل مسلم صدقة . قيل : فان لم يجد ؟ قال : يعمل ويتصدق » . وفى الحديث أيضا : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . فهذه العناية فى الكتاب والسنة ترمى الى غرض واحد هو أن يكون البذل خُلقا من أخلاق المسلمين وعادة لهم .

فائدة البذل :

ولا شك أن البذل على هذه الطريقة يقوى روابط الأفراد بعضهم ببعض ، ويصلح شأن

الجماعات ، ويحقق سعادتها ، وينفى ضغينة الفقراء على الأغنياء ، ويزيل آلام أهـل الزمانة والعجز ، ويوجد التراحم ، وينمى العاطفة ، ويحقق معنى الأخوة .

المسلمون والبذل :

حرَص الاسلام على هذا أشد الحرص . ولـكن المسلمين ابتعدوا عن هـذا الهدى الالهى ، وسلك طريقَـه غيرهم ، وأصبحوا يرمون المسلمين بجمود العاطفة ، وينسبون ذلك الى الاسلام ، ويباهون بما أوجدوه من معاهد ومصحات ، ودور للعلم ، وأمكنة للفقراء والعجزة .

كظم الغيظ والعفو :

« والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » :

أى الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء نفوسهم منه ، وصبروا على الأذى والمـكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم النفسى وتهـيُّج الدم الذى يصاحب هذا الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاظهم ؛ والذين تجاوزوا عن عقوبة من استحق العقوبة ابتغاء رضوان الله ومحبته . وهذان وصفان من أوصاف المتقين .

ولا يخفى أن العفو على هذه الصفة محمود فى حقوق الأشخاص . أما حقوق الله تعالى فلا يجوز العفو عنها إلا ما كان منها للامام عند المصلحة واقتضاء السياسة الشرعية . وأما العفو عن حقوق الأشخاص إذا ترتب عليه طغيان المعفو عنه وضراوته على الشر فلا يصح . وهذا موضع دقيق من أبواب السياسة الشرعية . وللعلماء فيه حديث طويل .

الاحسان :

« والله يحب المحسنين » :

ومن الممكن أن يكون هـذا وصفا رابعا للمتقين معطوفا على الأوصاف السابقة ، كأنه قال : والمحسنين والله يحب المحسنين . ويكون ذكره على هـذا النحو لا على المثال السابق ، للإشارة الى علو قدر الإحسان . ومن الممكن أن يكون المعنى : إن الذى سبق من الأوصاف يعد إحسانا والله يحب المحسنين .

والإحسان : الإتيان بالعمل على الوجه اللائق . وقد عرّفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والعبادة على هذا النحو لا بد أن تكون عامرة بالإخلاص والمراقبة ، لا يشوبها الرياء ، ولا يقصد منها الـكيد .

ومن لطيف ما يروى : أن جارية لعلى بن الحسن كانت تسكب الماء عليه فسقط الإبريق من يدها فشج رأسه ، فرفع رأسه إليها فقالت : والـكاظمين الغيظ . فقال : كظمت غيظى . فقالت : والعافين عن الناس . فقال : عفا الله عنك . فقالت : والله يحب المحسنين . قال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله !

والوجه الأول فى فهم الآية هو المتبادر فيها .

الاستغفار والإصرار على الذنب :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » :

اسم الموصول يصح أن يكون معطوفا على المتقين ، ويكون قـوله « أولئك جزاؤهم » إشارة الى الفريقين : فريق المتقين ، وفـريق الذين إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله . ويصح أن يكون مبتدأ خبره أولئك جزاؤهم .

والمعنى على الأول : أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا ذنبا فاحش القبح أو أى ذنب آخر ذكروا مقام الله جل شأنه ، وما يجب أن يكون العبد عليه أمام ذلك الجلال : من فعل الطاعات ، وترك اجتراح السيئات . أوذكروا نهيه ووعيده فطلبوا المغفرة منه ، وأقلعوا عن الذنب ، وتركوا الاصرار عليه فى حالة علمهم بأنه ذنب . وفى هـذا دلالة على أن الذى يفعل الذنب ولا يعلم أنه ذنب ولا يعلم وعيد الله عليه يكون معذورا غير مؤاخذ ؛ وعلى أن المؤمن لا يرتكب فعل الموبقة عالما بأنها موبقة . ونظير هـذا قول الله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما » . وأما حديث : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ، فحديث ضعيف لا يتفق معناه وما جاء فى الـكتاب العزيز .

والمعنى على الثانى : الذين فعـلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الخ جـزاؤهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وللمؤمنين درجتان : عليا وهى ترك الشر لأنه خروج على النظام الالهى ، ودنيا وهى ترك الشر خوف العقاب . وقد قيل : إن الله أوحى الى موسى : ما أقـل حياء من يطمع فى رحمتى بغير عمل ! كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى ! وعن بعضهم : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغـرور ، ورجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة . وعن الحسن رضى الله تعالى عنه : يقول الله تعـالى يوم القيامة : جـوزوا الصراط بعفوى ، وادخلوا الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالـكم .

وقـوله تعالى : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » جمـلة جىء بها بين المعطوف والمعطوف عليه للحث على المبادرة الى الاستغفار ، والتوجه بطلبها الى الواحد القهار ، لأنه وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعا ، فان رحمته وسعت كل شىء وقـد كتبها للمتقين . وللإشعار بأن المذنب لا يصح أن ييأس من رحمة الله ، فإن باب الرحمة مفتوح أمامه متى تاب وأناب وأقلع عن المعصية . وقد قال الله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » . والجملة استفهامية فى معنى النفى ، ومعناها أنه لا يغفر الذنوب أحد إلا الله سبحانه وتعالى .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » :

هذا إما أن يكون جزاء للفريقين : المتقين ، والذاكرين الله إذا فعلوا الخ . وإما أن يكون جزاء للفريق الثانى خاصة ، وذلك بناء على ما تقدم من الوجهين . وقد ورد فى القرآن الكريم لفظ الجنة والجنات كثيرا فى مقابلة النار . والجنة فى اللغة : البستان ، وليس المراد هنا بلا شبهة ذلك المفهوم اللغوى ، بل المراد دار الخـلود والنعيم فى الدار الآخرة . ويجب الايمان بها كما يجب الايمان بالنار . ولا نتجاوز فى البحث ما ورد بشأنهما من النصوص . وقد ذكرت الجنة مقترنة بالأنهار وأنواع من الشجر المثمر وغيرهما ، وهذا يدل على أن دار النعيم سميت جنة لا شتمالها على الجنات .

« ونعم أجر العاملين » :

معناه : ونعم هـذا الجزاء أجرا للعاملين . والناس متفاوتون فى هـذا الجزاء بتفاوتهم فى الأعمال .

سنة الله فى الاجتماع :

« قد خلت من قبلـكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المـكذبين » :

يقول الله جل شأنه : إن نظام الاجتماع البشرى جرى على سنن ثابتة وقواعد لا تتغير ، كما جرى النظام الـكونى على هذه السنن . والأمة التى تسير على هـذه السنن وتراقبها وتعمل عليها ، هى الأمة الفائزة التى تنال الحظ الأوفر والنصيب الأعظم فى هذه الحياة . والأمة التى لا تراقب هذه السنن بأن تجهلها أو تعلمها ولا تعمل عليها بل تعمل على مقتضى الشهوات العاجلة ، أمة يعاجلها الله بالفناء والذل ، ويعاقبها بالخزى والهوان .

ومن السنن الالهية التى تسعد بها الأمم : العلم والخلق القويم ، والايمان بالله والدار الآخرة والنبيين والـكتب ، وطاعة الله ورسوله .

ومن السنن التى تسعد بها الأمم : القـوة والمنعة ، والسعى للحصول على أسباب القوة مادية ومعنوية .

ومن السنن : العـدل ، وفناء الفرد فى الجماعة ، واعتبار نفسه فردا منها يعمل لمصلحتها لا لمصلحته الذاتية .

والأمم التى تفرط فى هذه السنن تبتلى بالنكال والوبال . جرت الأمور على هذا فى القديم والحديث . وقد طلب الله الينا الاعتبار والعظة ، وأمر بالسير فى الأرض لتعرّف أحوال الأمم وأسباب سعادتها وشقائها .

ومن قبيل السير فى الأرض قراءة السير وتاريخ الأمم ونظم الاجتماع والسياسة . وقـد تـكرر فى القرآن الـكريم ذكر السنن : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

« هـذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » :

ما ذكره الله تعالى من أن لله سننا هـو بيان لـكافة الناس يفهمه كل من له عقل مستعد للفهم ، أما أنه هدى وموعظة ، فذلك لمن اتقى الله خاصة لأنه هو الذى يعمل بما يعلم ، ويتعظ بمـا يمر أمامه من العظات والعبر .

نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية واللطف !

المكثار لا يأمن العثار

روى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال لجرير بن عبد الله : « إذا قلت فاوجز ، فاذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » .

وقيل لعدى بن حاتم : أى شىء أوضع للانسان ؟ قال : كثرة الـكلام .

وقال جعفر بن يحيى : إذا كثر الـكلام اختل ، وإذا اختل اعتل .

وقال هو أيضا : خير الـكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل .

وقال معـاوية لعمرو بن العاص : من أبلغ النـاس ؟ قال : من ترك الفضول ، واقتصر على الايجاز .

وقال خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا كثرة الهذيان ، ولـكنها إصابة المعنى والقصد الى الحجة .

وقال هو نفسه : عى يذرى بك ، خير من هذر يأتى عليك.

الأخلاق الفلسفية

- ٩ -

(ج) الغـرائز

أهمية غريزة حفظ النوع :

أما غريزة حفظ النوع فهى كغريزة حفظ الذات متأصلة تأصلا وثيقا بكل أفراد الكائنات الحية من الانسان الى « الأميبة » ذات الخلية الواحدة ، وهذه الغريزة هى التى ملأت كوكب الأرض وما يتصل به من فراغ بهذه الملايين التى لا تندرج تحت حصر من الكائنات الحية . وأهم مظاهرها — فيما يرى هذا البعض من العلماء — هو الاتصال الجنسى بين ذكران الكائنات وإناثها لإنتاج أفراد الجنس والاحتفاظ ببقائه ضد الفناء الذى سوف لا يتمكن من القضاء عليه إذا هو أباد الكثير من أفراده . وقد أرجع هـذا الفريق من العلماء رغبة الصلة الجنسية الى هذه الغريزة ، كما أرجع إليها الغريزة الوالدية ، فقرر أن محبة الوالدين أبناءهم ليست إلا أحد آثار غريزة حفظ النوع ، ثم استنتج بعد هذا التقرير أن غريزة حفظ النوع أقوى تأثيرا وأبعد مدى من غريزة حفظ الذات ، لأن الوالدين يؤثرون أبناءهم وبناتهم على راحتهم وصحتهم ، بل وعلى حياتهم نفسها . وعند ذلك تولى غريزة حفظ الذات مهزومة أمام غريزة حفظ النوع القوية الجبارة . وقال هذا الفريق أيضا : إن غريزة حفظ النوع هى أكثر الغرائز تأثيرا على الأخلاق ، لأن محبة الغير والعطف عليه ، وإيثاره أحيانا والتضحية فى سبيله ، كل هذه الأخلاق مستمدة من عطف الوالدين على أبنائهم ، إذ كان الانسان فى بداوته الأولى لا يحب ولا يؤثر إلا ابنه ، ثم ترقت هذه العاطفة عنده حتى تعدت الأبناء الى أفراد القبيلة ، ثم الى أبناء الجلدة ، ثم الى الجمعية البشرية عامة . وقال : إنها هى التى شذبت أنانية غريزة حفظ الذات التى جعلت كل كائن لا يهتم إلا بنفسه ، وكسرت من حدة أنانية الكائنات الحية حتى جعلتها صالحة للوجود . ولولاها لما تحول الفتى والفتاة الممراحان الطروبان ، بل النزقان الطائشان ، الى والدين ساكنين يحملان الهموم ويفكران فى مستقبل الأسرة التى غرسا نبتتها ، متأثرين بدافع غريزة حب النوع القوى الشديد البطش .

ولقد غالى بعض أفراد هـذا الفريق فأرجع غريزة حب التفوق الى غريزة حفظ النوع ، فزعم أنه ما رغب أحد فى النجاح ولا طمع فى المجد ولا أغرم بالعظمة إلا لكى يحقق مطالب هذه الغريزة . وقـد أرجعوا اليها كذلك غريزة حب الملك والاستحواذ ، لأنهم توهموا أن

الانسان لا يرغب فى الامتلاك إرضاء لشهوة فى نفسه ، ولا إطفاء لرغبة فى فطرته ، وإنما أغرم بالثروة ليطمئن على أبنائه ، وليضمن مستقبلهم . أما أنا فأرى أن كل هذه الغرائز مستقلة قائمة بذاتها ، وأن كل مظهر من هــذه المظاهر ما هو إلا تلبية لمناد داخلى فطرت عليه الطبيعة الانسانية بشكل مستقل هيأها له مبدع الخلائق تهيئات لا يربط واحـدة منها بالأخرى أى رباط ، وإلا فمن ذا الذى يستطيع أن ينبئنا بالفرق بين شهوتى الطعام والوقاع ، ويدعى أن الأولى غريزة مستقلة ، وأن الثانية مظهر من مظاهر غريزة أخرى إلا إذا كان متحكما ؟ على أن هذا المتحكم قد يقول لنا : إن كليهما مظهر لغريزة جوهرية . فأما شهوة الطعام فهى أحد مظاهر غريزة حفظ الذات ، لأن القوت لازم للحياة . وأما شهوة الوقاع فهى أحـد مظاهر غريزة حفظ النوع . وعند ذلك نوجه اليه هذا السؤال : لماذا لا تعتبر هذا الميل الأخير مظهرا من مظاهر غريزة حفظ الذات كذلك ما دمت توافقنا على أنه لازم من لوازم حفظ الجسم كامل الصحة ، مستمتعا بالعافية ؟

هذا هو ملخص رأى الفريق الأول من علماء النفس فى الغريزة . أما الفريق الثانى فيعتبر كل واحدة منها جوهرية قائمة بذاتها ، ناشئة من انفعال داخلى قد هيأله الخالق جل وعلامكانه فى الجسم الانسانى ، ونظم له طريقه الخاص به بين مسالك الأعصاب وتعاريج الغدد . وهنا نستطيع أن نقف وقفة دهشة واستغراب عند رأى الذين يقولون : إن الغـرائز نتيجة مران طويل قام به كل نوع من أنواع الكائنات الحية ، فنقول لهم : لو كانت الغرائز نتيجة مران للنوع لما ارتقت عدة أنواع فى غريزة واحدة ، لأن مران كل نوع يختلف عن مران الأنواع الأخرى. ولو كان الأمر كذلك ، للزم أن يأخذ الجسم بعد المران شكلا جديدا فى الأعصاب والغــدد والعضلات ، ليوجد فيه استعداد للغريزة الجديدة . وفوق ذلك فكأن أصحاب هـذا الرأى يزعمون أن غريزة حفظ الذات مثلا لم توجد فى الانسان إلا بعد أن رأى الخطر محدقا به ، وأنه يجب عليــه أن يحفظ ذاته ، وأن يشغف بكل ما ينميها ويقويها . وهنا تولدت عنده غريزة حفظ الذات ، وهـلم جرا . ولا ريب أن هذا قول أقرب الى اللغط والهراء منه الى المنطق المستقيم والبحث المنظم والتفكير الدقيق .

أما الفريق الثانى الذى يقول باستقلال الانتفاعات ، فقد أوصل الغرائز المستقلة الى أربع عشرة غريزة ، وعددوا لأكثرها انفعالات داخلية نشأت عنها . وإليك مثلا موجزا من هذه الغرائز : (١) غريزة النوع ، والعامل المؤثر فيها : الشهوة الجنسية . (٢) غريزة البحث عن القوت ، وعاملها شهوة الطعام والشعور بالجوع . (٣) الغريزة الوالدية ، وعاملها المحبة الأبوية والأموية . (٤) الهرب ، وانفعاله الخـوف . (٥) الاقتناء والادخار ، وعامله شهوة الملك . (٦) القتال والتنازع ، وعاملها الغضب . (٧) النبذ ، وعامــله التقزز . (٨) الاجتماع ، وعامـله الحنين .

(٩) غريزة السيطرة ، وعاملها الوجدان الإيجابى . (١٠) غريزة الخضوع ، وعاملها الوجدان السلبى . (١١) غريزة حب الاستطلاع ، وانفعالها النفسانى هو التعجب . وهلم جرا .

تقسيم الغرائز :

قسم بعض علماء النفس الغرائز الى فصائل مختلفة ، تجتمع أفراد كل فصيلة منها تحت راية واحدة ، فسمى الفصيلة الأولى بالغرائز الشخصية ، وقد جمع تحت رايتها كل ما يتعلق بحفظ الذات : كالبحث عن القوت ، والهرب من الفناء ، والسيطرة على الغير ، والخضوع له .

ودعا الثانية بالفصيلة الوالدية ، وقد ضمنها غريزة محبة الوالدين للأبناء ، ودفاعهم عنهم ، وكل مايتعلق بذلك .

وعنون الثالثة بفصيلة الغرائز الاجتماعية ، وهى شاملة لكل مايجذب الانسان نحو مجتمعه الذى يعيش فيه .

وسمى الرابعة بفصيلة المطابقه البيئية ، وهى جامعة لكل مايربط الشخص ببيئته من الغرائز : كمشاركة هذه البيئة فى الاستهواء وحب الاستطلاع ، وكغريزة التقليد البيئى .

وسائل تعديل الغرائز :

أجمع علماء النفس على أن الغرائز يمكن تعديلها وتربيتها ، وقد ذكروا لهذا التعديل وسائل كثيرة ، من أهمها : (١) تغيير البيئة الصالحة لنمو هذه الغريزة واستبدالها ببيئة تصطدم معها ، لكى تتعطل وتضعف شيئا فشيئا حتى تخبو جذوتها . (٢) استعمال غريزة ضد أخرى ، لكبح جماح الأولى : كمقاومة غريزة السيطرة على الغير بغريزة الخضوع والاستسلام ، وكمقاومة غريزة الهجوم بغريزة الخوف . (٣) الثواب والعقاب فانهما وسيلتان من وسائل تعديل الغرائز وتربيتها . (٤) إعلاء الغرائز وتوجيهها الى سبل أسمى من سبلها الأولى : كاستعمال غريزة الخوف من المظاهر المادية فى الخوف من جرح العاطفة والتعدى على الكرامة ، وكتوجيه غريزة الهجوم لافتراس الضعفاء الى الهجوم ضد الظالمين ولنصرة الضعفاء . (٥) التثقيف وتنوير الذهن ، فانهما من خير أنواع العلاج الذى يستعمل فى كبح جماح الغرائز ، وتسييرها بطريقة معتدلة ، واستخدامها للوصول الى غايات الخير والسعادة .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

اللغة العربية بين القوة والضعف

فى برامج الدراسة — دعائم الاصلاح

— ٢ —

لما هممت بالكتابة فى موضوع اللغة العربية ، ومهدت له بمقالى السابق واصفا فيه بعض مظاهر العواصف الثورية التى ولدتها النهضة الأدبية فى مصر ، عوّلت على أن أتتبع آراء العلماء والباحثين من رجال الاصلاح تسجيلا لتلك الآراء ، وجمعا لأطراف الموضوع ، وتصويرا له فى صورته العملية حتى يمكن أن نجعل من هذا البحث وحدة شاملة لتشخيص الداء الذى قعد باللغة عن النهوض الى المستوى اللائق بمكانتها من الحياة ، ووصف العلاج الذى إذا اعتمد عليه دعاة الاصلاح نهض باللغة وأعادها الى مجدها العتيد ، نفعل ذلك قصدا الى إسعاد من بيدهم أمر التنفيذ ، وهذا فى نظرنا واجب على كل من يتصل بخدمة هذه اللغة الشريفة .

أظلّنا ، أوكاد ، موسم الامتحانات العامة ، وفيه تتكشف سوءات البرامج التعليمية للّغة العربية ومناهجها المدرسية التى تجعل من دروس اللغة صورا تلقينية لا تتصل بتفكير الطالب وتكوينه الثقافى ، وخير الطلبة حينئذ من يثقل حافظته بمجموعة من الألفاظ يضعها على ورقة الامتحان كما يصفّ عامل المطبعة حروف موضوع من الموضوعات دون أن يعلق بنفسه وذهنه أثر فكرى أو عملى من آثار ذلك الموضوع ، وهؤلاء هم الأقلون الذين يثبون وثبا الى الصف الأول فى ترتيب النجاح ، أما الكثرة العظمى فهم أولئك الذين ينظرون الى اللغة العربية نظرة الكراهية والثقل ، ولا يعرفون عنها كثيرا ولا قليلا ، وهم الذين يبدو فى أجوبتهم ذلك الضعف الزرى ، وتتمثل فى طرائق إجابتهم هلهلة الأسلوب وعجمة الأداء ، مما يشعر الناظر إليها لأول وهلة أنهم أباعد عن فهم هذه اللغة وقواعدها ، فهم يتعثرون فيها تعثر التائه فى مجاهل الصحراء .

يلمس الاساتيذ ضعف الطلبة فى اللغة أثناء عملية التصحيح ، أوهم بالحرى يشعرون به فى أوقات الدراسة ، لأنهم إذ ذاك ألصق بالتلاميذ ، وأعرف بهم ، وأقدر على كشف خبيئة حياتهم العلمية ، وليس الامتحان إلا مظهرا من مظاهر التعرية وكشف المستور ، وهو مع ذلك صاحب الفضل الأول فى تنبيه الغيورين على لغتنا الى هذه الصيحة الداوية فى طلب الاصلاح وتدارك الأمر قبل الفوات . وقد كان الإحساس بضرورة الإصلاح شاملا الجمهرة من الأدباء وعلماء اللغة والرسميين من رجال المعارف الذين أفزعهم ماشاهدوه من الجهالة الفاشية فى جميع فرق الطلبة على اختلاف أعمارهم التعليمية ، وتعدد المراحل التى قطعوها فى حجرات الدرس ، فعبروا عن ذلك فى تقاريرهم الرسمية التى رفعوها الى الوزارة فسجلته ، فى بلاغ رسمى نشرته

الصحف : أنها « لاحظت فى تقرير حضرات المفتشين أن كثيرين من طلبة المدارس الأميرية ولاسيما طلبة بعض كليات الجامعة ضعاف فى اللغة العربية ، وقد عنيت الوزارة بهـذا الأمر وكلفت مفتشيها البحث عن معرفة أسباب هذا الضعف » . وقد بحث المفتشون عن الأسباب ومثلوها فى تقريرهم فى ثلاثة أسباب : (١) المناهج (٢) قلة الحصص (٣) ضيق مكتبة التلميذ . وقد انتظرنا وانتظرت اللغة معنا أثر هذه العناية من جانب الوزارة ، فمرت الأيام تتلوها الأيام ولم تبد الوزارة حراكا ، حتى وسد أمر المعارف الى العالم الضليع صاحب المعالى بهى الدين بركات باشا ، فأبدى اهتماما حمـده له المرتقبون لنهضة الثقافة عامة واللغة والأدب خاصة فى عهده الميمون .

كان جميلا من معالى وزير المعـارف — وهو المشرف الأعلى على مرافق الثقافة فى الأمة المصرية التى تدين لها الشعوب العربية بالزعامة الأدبية — أن يتحدث فى قضية اللغة العربية حديثا نشرته الصحف ، وتناوله العلماء والباحثون بالشرح والتعليق ، فبعث الى قلوب المتوجسين خيفة على مستقبل العربية اليقين والطمأنينة . ومن حق مصر — ومركزها فى الشرق مركز القـدوة والزعامة — أن تعمل جهدها للحرص على زعامتها العظيمة التى ستكون لها نتائجها الخطيرة فى مستقبلها ، وأول مظاهر هـذا الحرص العناية بلغة القـرآن الـكريم ، وإنهاضها من كبوتها حتى يعود لها سؤددها الذى كان لها فى عصور الاسلام الذهبية . ومن حق وزير معارفها أن يعنى أشد العناية بابراز ذلك المظهر فيما يفضى به من حديث ، وفيما يتخذه من وسائل لتوطيد الإصلاح الأدبى فى أسلوب اللغة ومناهجها الدراسية . ومن واجب المصلحين من رجال اللغة والأدب أن يكونوا ردأ صالحـا للوزير الجليل على تنفيذ خططه الإصلاحية حتى يكون من تضافر القوى أثر صالح ، وعمل مثمر يحقق للعربية ما تصبو اليه من قوة وارتقاء .

عرض الوزير فى حديثه عن قضية اللغة العربية الى أمور مهمة تقع مما نحن بسبيل البحث فيه موقعا عظيما ، هو الذى دفعنا الى تلخيص نقاطه التى تتصل بصميم الموضوع ، وبسط ما فيها من إجمال ، ثم نقفى بذكر ما نرتئيه معتمدين على تقريب الأمر الى حيز العمل والتنفيذ .

أبدى معالى الوزير ما لاحظه منذ ولى وزارة المعارف فى المرة الأولى « أن اللغة العربية لاتزال غريبة على الطلاب ، وأننا لم نستطع أن نجعلها سهلة التداول ، ولا أن نبلغ بطلبتنا المستوى الذى يصل إليه نظراؤهم من الطلاب فى البلاد الأجنبية بالنسبة للغتهم »

هذا قول صادق ، لأنه يصف الواقع الذى أحس به جميع المشتغلين بخدمة الثقافة والأدب ، ولـكن المغزى البليغ فيه أنه جاء على لسان الوزير بعد أن سجله رجال المعارف فى تقاريرهم التى أصابتها منذ وصلت الى أضابير الوزارة سكرة الراحة والهدوء من عناء السفر الطويل ، فنامت الى أن يدق لها جرس المنبه الأعظم ، فـكان هذا الحديث هو ذلك المنبه الذى أيقظها من رقدتها .

لم يقف معالى الوزير فى حديثه عند حد تشخيص داء اللغة فى طلابها ، بل ذكر ما يراه من وسائل العلاج والإصلاح فى ثلاث نواح مختلفة ، وهذا فى نظرنا هو موطن الأهمية من حديث الوزير :

(الأولى) جعل الكتابة العربية مفهومة ، مع المحافظة التامة على خصائص الخط العربى .

(الثانية) تسهيل قواعد اللغة والبيان بحيث يستطيع الأشخاص العاديون إدراكها من غير عناء .

(الثالثة) تغيير نظم التدريس تغييرا يجعل الطلبة يعتادون التحصيل والدرس بأنفسهم دون أن يكونوا على الدوام مجرد آلات لحفظ ما يلقى عليهم .

ثم شرح هذه المسائل شرحا وإن يكن مجملا لكنه وضع به أيدى المصلحين على موطن الداء فى كل واحدة منها ، فقال فى الأولى : « إن الولد المصرى لا يستطيع فى سن التاسعة أو العاشرة أن يقرأ غير كتب الأطفال المشكولة ، ولا يستطيع أن يقرأ جريدة أو إعلانا ، إذ أن القراءة عندنا ليست وسيلة الفهم ، ولكن الفهم وسيلة القراءة » . ووكل معاليه أمر علاج هذا الموضوع الى المجمع اللغوى ، لأنه الهيئة الفنية التى تضطلع بهذا النحو من الإصلاح .

وقال فى المسألة الثانية : « إن قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال تدرس الآن بنفس الطريقة القديمة التى مضت عليها قرون وقرون من غير أن تتطور فى أسسها ولا فى شكلها » . وأهاب معاليه بالعلماء « أن يسهلوا تلك القواعد ويبسطوها » .

وقال فى المسألة الثالثة : إنه « لاحظ أن البرامج فى التعليم الثانوى تخصص أكثر من نصف الحصص لتعليم اللغات ، ومع ذلك فان الطلبة الذين يتخرجون فى المدارس لا يبلغون المستوى الذى تتطلبه الحياة العملية » . ووضع لعلاج ذلك الاقتراح الآتى : « وهو تكليف الطلبة فى المدارس الثانوية ، وفى الفرق الأخيرة من المدارس الابتدائية ، بدراسة كتاب أو كتابين يختارهما الطالب من بين قائمة كتب توصى بها المدرسة عند بدء الأجازات ، على أن يمتحن الطلاب فى أول العام الدراسى التالى فيما يكونون قد درسوه من تلك الكتب ، ويمنحون درجات تحتسب لهم فى نجاحهم آخر العام » .

هذا رأى معالى وزير المعارف العالم الجليل ، لخصناه بأوسع الجهد لنضعه تحت أنظار قرائنا حتى يحيطوا علما بما يتصل بموضوع بحثنا ، وهو جد خطير . وليس ريب فى أن هذا الرأى سيكون له أكبر الأثر فى الاصلاح المنشود لسببين : (أولا) لما اشتمل عليه من حقائق عملية ارتفعت بالبحث عن خيال النظريات المجردة . و (ثانيا) لأنه رأى رجل عظيم يقبض بيده على أزمة التنفيذ فى كل ما يتصل بالثقافة ، وهو حريص أشد الحرص على أن ينفذ كل ما يثبت البحث فائدته ونفعه للغة العربية .

يظهر للمتامل فيما ظهر من أحاديث أو كتابات فى الصحف أو فى تقارير المفتشين أن الباحثين نظروا للموضوع من جهته المدرسية ، وهذا وإن يكن من دعائم الاصلاح لـكنه ليس هو كل الاصلاح المطلوب ، فأنت أيها القارئ قد رأيت فيما سقناه لك من رأى جماعة المفتشين أنهم قصروا الـكلام على المناهج والحصص ومكتبة التلميذ ، وفيما لخصناه من حديث الوزير أنه أدار بحثه على ثلاث نواح ، هى إصلاح الخط العربى ، وتسهيل تدريس قواعد اللغة والبيان وتغيير نظم التدريس .

والواقع أن قضية اللغة العربية فى حاجة الى بحث شامل يتناول براجها الدراسية من قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ومناهج تلك البرامج ، وطريقة تنفيذها ، ويتناول أدب اللغة تاريخا ونصوصا وأسلوبا ، ويتناول فقه اللغة تمحيصا وتنظيما ، ويتناول تحبيب الفصحى الى الناس حتى تكون لغة أحاديثهم وكتاباتهم . ولهذا أجملنا دعائم الاصلاح التى استقر عليها رأينا فى :

١ — النظر فى برامج دراسة اللغة العربية ومناهجها من جهة الـكتب المقررة ، وصلة فنون العربيــة ببعضها ، وترتيب أبواب كل فن وتوزيعها على الفرق المختلفة ، وهـذا يشمل النظر فى برامج الجامعة الأزهرية ، ومدرسة دار العلوم ، وكلية الآداب والمدارس الأميرية ، والعمل على توحيد تلك البرامج بنسبة الأعمار التعليمية للطلاب .

٢ — إصلاح أسلوب الحديث العام فى مجتمعات الثقافة : مثل الجمعيات العلمية ، والأدبية ، والأندية التى يؤمها المتعلمون .

٣ — وضع رقابة فنية تعنى بأسلوب الصحافة من الناحية اللغوية والأدبية ، ويجب حينئذ تحريم الاسلوب العامى الذى تصدر به بعض المجلات .

٤ — خضوع جميع المصالح الحـكومية فى كتاباتها الرسمـية لقوانين اللغة والأسلوب الأدبى بقدر المستطاع .

٥ — العمل على نشر الأسلوب الصحيح فى عبارات سهلة عن طريق الخطابة والمحاضرات والمحادثات والنشرات الدورية فى موضـوعات تناسب حالة كل طائفة من الوجهة الفـكرية ، كالمواعظ الدينية ، والنصائح الخلقية ، والارشادات الاجتماعية ، وأحاديث الزراعة والصناعة والتجارة وما اليها ، مما يدخل فى برنامج محاربة الأمية والجهالة ، ونشر العلم والثقافة بين طوائف الشعب .

هذا — فى رأينا — هو أهم ما يجب أن يوليه المصلحون عنايتهم فى وقت أجمعت الآراء على أن الفرصة مواتية ، والإحساس بضرورة الإصلاح عام ، وأن رءوسا عالية قديرة تناولته فيجب ألا يذهب هذا الاحساس بددا ، وأن يقوم الاصلاح على جعل اللغة العربية لغة قومية للتفاهم بين طوائف الأمة ، ولغة أدبية فى جميع وسائل الثقافة .

وسنبين أن ذلك قريب الحصول لو وجد العناية الكافية والرعاية الرفيقة . ولا نقصد الى أن يعلم الشعب قواعد النحو والصرف والبلاغة التى عجز عنها المتعلمون ، وإنما نقصد الى الإلحاح فى التلقين عن طريق الوسائل التى نشرحها حتى تتشرب النفوس الأساليب الصحيحة ، وتعتاد الألسن العربيةَ من طريق السذاجة الفطرية التى أمكن بها كل شعب أن يقيم لغة لتفاهمه .

وأما تدريس القواعد للمتعلمين فسنبين أنه يجب أن يكون تدريجيا متمشيا مع الفطرة الأولى ، فتدرس القواعد العامة التى يكثر تداولها فى الاحاديث العامة أولا ، ثم يتبعها ما يتصل بها مع توسع قليل ، وهكذا حتى يكمل الفن مرغوبا فيه محبوبا ؟

صادق ابراهيم عرجون

حسن البديهة

عزل عثمان رضى الله عنه عمرو بن العاص عن ولاية مصر وأسندها الى عبد الله بن أبى سرح ، فكثر خراجها عما كان عليه على عهد سلفه ، فلما لقيه عثمان يوما قال له : لقد درت اللِقْحة بعدك ياعمرو !

فأجابه عمرو على الفور : ولكنكم أعجفتم صغارها يا أمير المؤمنين ! كنى عثمان عن مصر باللقحة وهى الناقة الحلوب ، وأخبره بأنها أتت بلبن غزير بعده . فأجابه عمرو بقوله : ولكنكم أهزلتم صغارها بعدم ترككم لها ما يكفيها من اللبن استئثارا به .

ورُئى يوما كثير راكبا ومحمد بن على الباقر رضى الله عنه يمشى معه . فقال له قائل : أتركب ومحمد يمشى ؟ ! فقال : هو أمرنى بذلك ، فطاعتى له فى الركوب أفضل من عصيانى له فى المشى .

وركب الرشيد ومعه جعفر فرأيا أحمالا مقبلة ، فسأل الرشيد عنها فقيل له : هدايا خراسان . فقال الرشيد لجعفر : أين كانت هذه أيام أخيك ؟ (وكان واليا عليها) . قال فى دور أصحابها يا أمير المؤمنين !

معترك الفلسفتين

الروحانية تجهز على المادية فى أوربا

لما انتشرت المادية فى أوربا وطمحت الى هدم جميع العقائد المبنية على وجود الروح والعالم الروحانى ، وكادت تبلغ هذه الغاية بنشاط قادتها وأشياعهم ، تدارك الله الناس بانتداب جم غفير من علية العلماء للبحث فى النفس البشرية على أسلوب علمى تجريبى ذى مناح شتى ، فثبت لهم من طريق الحس وجود الروح والعالم الروحانى ، وتوالت البحوث فى جميع عواصم العالم المتمدن وعقدت لها المؤتمرات ، وألفت فيها الاقاذيميات ، فسقط المذهب المادى سقوطا لا انتعاش له منه ، وأصبح اليوم وقفا على أهل الجمود من الذين يزعجهم كل جديد .

وممن تولوا كُبْر هذه الحركة المباركة من أعلام العلم الممتازين العلامة (كاميل فلامريون) الفلكى الفرنسى الكبير ، فقد صحب جميع أدوارها فى نحو ستين سنة من حياته الطويلة الخصبة ، وكتب فيها كتبا قيمة منها كتاب دعاه (الموت وغامضته) يقع فى أربعة مجلدات (La mort et son mystère) ، كافح فيه الماديين بالأدلة المحسوسة فكان انتصاره عليهم باهرا . وهو ليس الوحيد فى هذا الباب ، فهناك من أمثاله مئات ، وإنما بدأنا به لقدم عهده بهذه البحوث ، حتى إذا لخصنا آراءه ، رحلنا الى غيره تباعا لنسد ثلمة فى صرح الثقافة العصرية لا بد من سدها ، لتصبح ثقافتنا كاملة من كل وجه ، والله المستعان :

كتب هذا العالم الجليل فى المجلد الأول من كتابه المتقدم ذكره تحت عنوان (المادية مذهب ضال وناقص) صدره بكلمة حكيمة للعلامة الألمى (كوبرنيك) وهى قوله : « لنحذر خدع الظواهر » قال فلامريون :

« ليس فى الناس من يجهل (الفلسفة التجريبية) لأوجست كومت ، وأصالة ترتيبه للعلوم ، متنزلا تدريجيا من الكون الى الانسان ، ومن علم الفلك الى علم الحياة (البيولوجيا) .

« وليس فى الناس من يجهل أيضا (ليتريه) خليفة أجوست كومت المذكور ، فان معجمه ماثل فى جميع المكتبات ، ومؤلفاته منتشرة فى كل مكان ، وقد عرفت شخصه ، وأقول إنه كان عالما عالى القدر ، من مؤلفى دائرة معارف القرن الثامن عشر ، ومفكرا بعيد الغور ، ولكنه كان ماديا ملحدا عن اقتناع ، ومخلصا لمذهبه للدرجة القصوى . وكانت دمامة وجهه لا تتفق وجمال روحه . فقد كان واحدا من الذين إذا نظر إليهم ناظر صعب عليه أن لا يتذكر مذهب الأصل القردى للانسان .

الى أن قال :

« وقد اشتغل ليتريه بالمسائل النفسية التي عولنا على بحثها هنا ، فنستطيع أن نعتمد على براهينه اعتمادنا على براهين نديده (تين) (Taine) ، باعتبار أنها أصول للحجج المادية الراهنة . فلا نخشين أن نكافحهم وجها لوجه ، وأن نقبض على الثور من قرنيه .

« عقد ليتريه فصلا فى كتابه (العلم من الناحية الفلسفية) على الفيزيولوجية النفسية صرح فيه بما يأتي :

« اليوم لا يمكن الشك فى أن الظواهر العقلية والخلقية هى من الحوادث الخاصة بالنسيج العصبى ، وأن الانسانية ليست إلا حلقة ، بل أعظم حلقة فى الواقع ، من سلسلة ممتدة ليس لها حد مقطوع الى آخر درجة من الحيوانية . كذلك لا يمكن الشك تحت أى عنوان يضع الباحث الانسان ، على شرط أن يستخدم الأسلوب الحسى المؤسس على المشاهدة والتجربة ، فى أنه يكون عاملا فى مجال الفيزيولوجيا لم يخرج عنه . أما أنا فلا أتصور وجود فيزيولوجيا لا تشغل منها النظريات والعواطف بكل ما هى عليه من السمو محلا عظيما .

مناقشة كاميل فلامريون للاستاذ ليتريه :

قال الأستاذ كاميل فلامريون بعد نقل هذه القطعة عن ليتريه :

« هذه هى قاعدة المذهب المادى فى الروح . وأنا أدعو القارئ أن يزن بدقة هذا النوع من الفهم .

« قالوا : لا يجوز لنا أن نسلم بوجود الروح (لأننا لم نر قيام أية خاصية بدون مادة ، ولأننا لم نصادف قوة الجاذبة العامة بدون جسم ثقيل ، ولا الحرارة بدون جسم كهربائى ، ولا الألفة الكيماوية بدون مواد قابلة للاتحاد ، ولا الحياة والحس بدون كائن حى حساس مفكر » .

« والحقيقة أن هذا التدليل معيب فلسفيا ، لابتنائه على التسليم بأمر يحتاج هو نفسه الى دليل يثبته ، وذلك الأمر هو (الخاصية) .

« ثم إن تشبيه الفكر بالجاذبة وبالحرارة وبالآثار الآلية ، الطبيعية والكيماوية للأجسام المادية ، فيه تسوية بين شيئين مختلفين جدا لا تزال مسألتهما معلقة ، وهما الروح والمادة .

« فان إرادة الكائن الانسانى ولتكن إرادة طفل ، هى ميزة لشخصية واعية ، ولكن الجاذبة والحرارة والضوء والكهرباء فهى حالات غير شخصية ولا واعية ، ثم هى قد تكون فى بعض الحالات المادية ضرورة عمياء ، فضلا عن أنها أمور مادية بحتة . فالخلاف شاسع بين ركنى هذا التشبيه كما بين الليل والنهار .

« فهذا التدليل العلمى نفسه فاسد من أساسه ، فالحرارة مثلا لا تأتى دائما من جسم حار ، فان الحركة التى ليس فيها أدنى حرارة يمكن أن تنتج منها حرارة ، بل الحرارة نفسها شكل من أشكال الحركة . أما الكهرباء فماهيتها لا تزال مجهولة .

« وإنى لأصرح بأنى لا أفهم أن رجلا فى مثل ألمعية (ليتريه) زعيم المذهب المادى يكتفى بمثل هذا التدليل ولا يتنبه الى أنه دائر حول التسليم بأصل هو نفسه يحتاج لدليل ، أو حول لعب بالألفاظ . ذلك لأن هذا التدليل معتمد على كلمة (الخاصية) والذى كان يجب إثباته بالحس أولا هو أن (الفكر خاصية من خواص المادة العصبية ، وأن الشىء غير الواعى يمكنه أن ينتج الكائن الواعى ، مما هو فى الأصل متناقض) .

« إن الانسان قد يجرؤ بصعوبة على تشبيه قطعة من الخشب بقطعة من المرمر ، أو بقطعة من المعدن ، ولكن أصحابنا الماديين لا يجدون بأسا من تشبيه الروح المدبر ، والعقل المفكر ، وعواطف الحرية والعدالة والرحمة والارادة ، بوظيفة من وظائف المادة العضوية . فهذا الأستاذ (تين) يؤكد بأن المخ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء ! ألا يتبين القارىء من هذا أن موطن التعقل لدى هؤلاء الناس قد غَشى بعماية لا تقل عن عماية اللاهوتيين ؟ أليس فيه دلالة على أن هؤلاء العلماء انقادوا لرأى ليس عليه دليل ، وخضعوا لمذهب تقليدى محض ؟

« يهمنا ونحن فى بداءة هذه المناقشة أن لا نعتمد على الكلمات الجوفاء ، فما هى المادة ؟ هى فى العرف العام ما ندركه بحواسنا ، أى هى ما يرى وما يلمس وما يوزن . نسلم لهم ذلك الآن ، مع التصريح بأن الصحف الآتية ستثبت أن فى الانسان عنصرا مستقلا عن الحواس المادية ، أى أصلا عقليا شخصيا يفكر ويريد ويعمل ويظهر بعيدا عن جسده ، ويَرَى بغير العينين الجثمانيتين ، ويَسمع بغير الأذنين ، ويكشف المستقبل الذى لم يوجد بعد ، ويبين أشياء مجهولة . فافتراض أن هذا العنصر الانسانى الذى لا يُرى ولا يُلمس ولا يوزن خاصية من خواص المخ ، قول بلا دليل وتعقل متناقض ، كما لو قيل أن ملحا يستطيع أن ينتج سكرا ، وأن السمك يمكنه أن يكون من سكان الأرض القارة .

« إن الذى نريد أن نبينه هنا هو أن المشاهدة الحسية نفسها (وليس لنا أسلوب فى البحث غير أسلوب ليتريه وتين ولودانتك من أئمة المادية ، إذ أننا نرفض المذاهب البيزانتية فى الاعتماد على الألفاظ باعتبار أنها هذيانات) . قلنا الذى نريد أن نبينه هنا أن المشاهدة العلمية والتجربة تثبت أن الكائن الانسانى ليس بجسد مادى بحت له خصائص منوعة ، ولكنه كائن نفسانى أيضا متمتع بخصائص تخالف خصائص الجسم المادى .

« عجبا ! كيف استطاعت عقول من أمثال كومت وليتريه وبرتلو أن تتصور أن كل موجود

لا يمكن أن يخرج عن دائرة مشاعرنا ، وهى الآلات البعيدة المدى فى القصور والنقص ؟ وعلى هذه القاعدة تستطيع السمكة أن تعتقد إن كان لها عقل بانه لا يوجد شىء خارج الماء ، والكلب إن افترض أنه يتصدى لترتيب المعارف الكلبية لا يرتبها اعتمادا على حاسة النظر كما يفعل الانسان ، ولكن اعتمادا على حاسة الشم ، والحمائم السياحة لا تعول فى ذلك إلا على الحاسة التى تهديها فى سيرها ، والنملة لا تركن إلا على حاسة عصبها المقدم الخ .

« الروح متسلطة على الجسد ، فذراته ليست بقائدة له ولكنها منقادة اليه ، وهذا الظن العقلى نفسه ينطبق على الكون برمته ، وعلى العوالم الدائرة فى الفضاء ، وعلى النباتات والحيوانات . فالورقة من الشجرة ممتعة بأعضاء ذات وظائف ، والبيضة التى تفقس ممتعة بأعضاء كذلك ، وهذا التمتيع يعتبر من الأمور الصادرة عن عقل .

« فالعقل العام ظاهر فى كل شىء ومالئ للوجود ، وهو لا مخ له . ومن المحال أن يحلل الانسان آلات العين والابصار والأذن والسمع بدون أن يستنتج أن عضو البصر وعضو السمع مصنوعان بعقل . وهذا الاستنتاج يكون أكثر وضوحا إذا حللت مسألة تلقيح زهرة وحيوان وإنسان ، وتطور البيضة النسوية الملقحة ووظيفة المشيمة (الخلاص) وحياة الجرثومة والجنين ، وتكوّن هذا الكائن الصغير فى بطن أمه ، والاستحالة العضوية للمرأة ، وحدوث اللبن فى ثديها ، وميلاد الطفل ، والارضاع ، وتطور الطفل جسديا ونفسيا ، كل هذه الأمور مظاهر لا تنقض لقوة مدبرة عاقلة ترتب كل شىء ، وتقود أصغر الجواهر المادية بمثل النظام الذى تقود به الكرات الكوكبية أو النجمية فى هذه اللانهاية السماوية . وهذا العقل لم يتولد من مخ .

الى أن قال :

« إننا لم نفهم ما هو الله ، هذا أمر من الوضوح بمكان ، وماذا يثبت هذا العجز منا ؟ يثبت انحطاطنا الروحانى .

« أما من جهة وجود العقل المدبر ، والفهم ، والنظام العقلى فى كل شىء ، فهذا أمر لا يمكن نكرانه . والعلم التجريبى يقف فى الطريق إذا قرر أن جميع الحوادث الكونية تستحيل فى نهاية تحليها الى المذهب الثنوى أى المادة والحركة ، أو الى التوحيد الطبيعى المادة وخواصها . فالتاريخ الطبيعى وعلم النباتات والفيزيولوجيا الحيوانية والانتروبولوجيا (علم التاريخ الطبيعى للانسان) تكشف جميعا للمشاهد عن عنصر متميز عن المادة والحركة ، هو الحياة . ألم يبين لنا (كلود برنار) الفزيولوجى أن الحياة ليست نتيجة الذرات المادية ؟

« وزيادة على هذا فان الوجود يتكشف لنا عن حالة حركة مستمرة ، لأن الحركة ملازمة للذرات المادية أنفسها ، وهذه الحركة ليست من العالم المادى لوجود النظام شاملا للكائنات والأشياء كافة .

« المذهب الذى يعتبر الفكر الانسانى وظيفة من وظائف المخ ، أو الذى يحاول أن يرينا توازيا وتوازنا بين عمل المخ وعمل الفكر ، نستطيع أن نعده كما عده البسيكولوجى (بيرغسون) Bergson مذهباً ناقصاً كل النقص .

« يقولون بأن الأشياء التى يتذكرها الانسان مختزنة فى المخ على حالة تحولات مطبوعة فى طوائف من العناصر التشريحية ، فاذا زالت من الذاكرة فما ذلك إلا لأن تلك العناصر التشريحية التى هى مستقرها تكون قد فسدت أو دثرت . والتأثيرات التى تأتى من الأشياء الخارجية تبقى فى المخ كما تبقى على الزجاجة الفوتوغرافية الحساسة أو على صفيحة الفونوغراف

« لامشاحة فى أن هذه التشبيهات سطحية ، فانه إذا كان التذكر النظرى لشىء من الأشياء مثلا ناشئا من تأثير هذا الشىء على المخ : فلا يكون لهذا الشىء ذكرى واحدة بل ألوف من الذكريات أو ملايين ، لأن أبسط الأشياء وأثبتها يتغير فى صورته وحجمه ولونه على حسب النقطة التى ينظر إليه منها ، اللهم إلا إذا قصرت نفسك على حد معين كلما نظرت إليه ، وكانت عينك تجمد فى حجاجها فترتسم على شبكتها الصورة بعد الصورة ثم تنتقل الى المخ صور لا يحصى لها عدد وغير قابلة لأن يرتسم بعضها على بعض .

« فماذا تكون الحال إذا كان التأثير البصرى واقعا من شخص تتغير صورته ، وجسمه يتحرك ، ويختلف لباسا وصحبا فى كل مرة تنظر إليه فيها ؟ مما لا نزاع فيه أن ضميرك لايحفظ عنه إلا صورة واحدة ، وتكاد تكون لك ذكرى غير قابلة للتغير عن كل شىء أو كل شخص تقع عليه عينك . وهذا دليل واضح على أن فى هذا الأمر شيئا غير الاختزان الميكانيكى الذى يعللون به قوة الذكر فى الانسان .

« ويمكننا أن نسرى ما قلناه أيضا على الذكرى السمعية . فإن الكلمة قد يلفظها أفراد مختلفون ، أو فرد واحد فى أوقات مختلفة وفى حالات متباينة ، فتعطى نغمات لا يشبه بعضها بعضا ، فكيف يصح بعد هذا تشبيه الذكرى السمعية بنظرية الفونوغراف ؟

« هذا الاعتبار وحده يكفى لأن يشككنا فى النظرية التى تعزو مرض نسيان الكلمات الى فساد أو الى دثور الذكريات المطبوعة تشريحيا فى القشرة المخية .

« ولكن لننظر ما يحدث فى هذه الأمراض على رأى هذا المؤلف نفسه (يريد بالمؤلف الأستاذ ليتريه المتقدم ذكره) فقد قال :

« إذا كانت إصابة المخ خطيرة ، وذكرى الكلمات متأثرة بشدة ، فقد يحدث أن تهييجا ما أو انفعالا ما يعيد فجأة الذكرى التى كان يظن أنها ضاعت نهائيا » .

« أفيمكن هذا إذا كانت الذكرى مطبوعة فى المادة المخية وقد فسدت هنا أو دثرت ؟

فالأمر يجرى كما لو كان المخ أداة للذكر لا أنه خازن له . فالمريض بفقده الكلام يعجز عن وجدان الكلمة متى احتاج اليها . ويظهر كأنه يدور حولها وليس له من القوة ما يجعله يضع يده على مبتغاه منها ، والعلامة الخارجية للقوة فى المجال الفيزيولوجى هى الضبط دائما . ويظهر أن الذكر تسرى عليه هذه القاعدة أيضا . وأحيانا بابدال المريض الكلمة الضائعة بجمل متعددة يدخل تلك الكلمة فى واحدة منها وهو لا يدرى .

« فلنعمل الفكرة الآن فيما يحصل من مرض فقد الكلمات الآخذ فى التفاقم ، أعنى لما يكون نسيان الكلمات متدرجا فى درجات الخطورة ، فنجد دائما أن الكلمات تزول من الذاكرة بترتيب محدد كما لو كان المرض ملما بقواعد الاجرومية . فتزول أولا أسماء الأعلام ثم تليها الكلمات العامة ، ثم النعوت، ثم الافعال طبقة بعد طبقة فيصيب المرض كل طبقة منها الواحدة بعد الاخرى .

« نعم ولكن المرض يمكن أن يحدث من أسباب كثيرة الاختلاف ، وأن يأخذ أشكالا شديدة التباين ، وأن يبدأ فى جهة من المخ ثم يمتد فى أى اتجاه كان ، ولكن نظام ضياع الذكر يبقى على ماوصفناه ، فهل هذا يكون ممكنا إذا كان المرض فى المحفوظات نفسها ؟

« وإذا كانت المحفوظات ليست مختزنة فى المخ ففى أى محل تختزن ؟ وهل يكون لقولنا معنى إذا كان كلامنا عن شيء آخر غير الجسم ؟ إننا نعلم أن القوالب المطبوعة يمكن حفظها فى علبة ، وأن الاسطوانات الفونوغرافية يمكن إيداعها فى بيوتها ، ولكن كيف تحتاج المحفوظات التى ليست بأشياء مرئية ولا محسوسة لمكان يشملها ؟ وكيف يعقل أن يكون لها مكان ؟ هل هذه المحفوظات فى شيء غير العقل ؟ وإذا كان العقل هو الوجدان نفسه ، فالوجدان قبل كل شيء ذاكرة » انتهى .

نرى أن ندع ترجمة بقية هذا الحوار العلمى النافع للأعداد التالية لكى لا يسأم المطالع من التطويل ؟

محمد فريد وجدى

تواضع المنصور

خطب أمير المؤمنين المنصور الخليفة العباسى يوما فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله : أيها الناس اتقوا الله . . .

فقام إليه رجل وقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور : مرحبا مرحبا ، لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، والموعظة منا بدت ، ومن عندنا خرجت . ثم مضى فى كلامه .

يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه

معجزة الخلق الكريم ، جلادة فى الحياة لا تبالى بالمحن ، ولا تحفل بلذاذات العيش ، وقوة فى شكر الخالق ، وأداء الواجب فى أشد ما تكون الأيام تجهما . أنظر لأصحاب هذه المزايا ، وقليل ماهم ، فأرى الحكمة عالية فى قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الأمور » ، إذ كان اصطفاء هذا الصنف لحمل لواء الاصلاح ، والقيام بحجة الله تعالى على عباده بعد عجم عودهم ، فتبين للناس أنهم لم يكونوا ليلينوا لمغامز الشهوات ، أو تقف بهم العوادى دون أداء الواجب .

أذكر بمناسبة هذا ، والحديث ذو شجون ، أنى استيقظت فى إحدى الليالى على صوت مؤذن الفجر وهو يمضى فى أذانه كموسيقى روحية تفيض على المؤمن آيات الحب والوفاء والاجلال للرب الكريم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ينيم الخلق ويتوفاهم بالليل، ويبعثهم ويعلم ما جرحوا بالنهار ، جديدان يعاقبهما عليهم بانتظام ، جعل أبيضهما معاشا ، وأسودهما لباسا « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »

وأيضا جعل للانسان فى غدوه ورواحه ، وليله ونهاره ، ملائكة لحراسته من بين يديه ومن خلفه ، بامره تعالى ، وكذلك سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه .

تأملات جاشت بنفسى فى ذلك الحين ، تحبب هى وأمثالها لدى المفكر ترك الراحة لتلبية دعوة الله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ونهضت من مرقدى أسعى الى المسجد ، لأداء الصلاة مع الجماعة المنتظرة ، وكان أكبر الظن عندى ، أنه سيحضر الى المسجد فى هذا الوقت ، مع ظلامه الحالك ، وبرده القارس ، شباب وكهول ممن توفر فيهم الدفء والقوة ، ولكنى ما سرت حتى رأيت رواده وطلاب جماعته ممن فطمتهم الدنيا عن نعيمها ، وأرضعتهم بلاياها .

فهذا كفيف بائس يسعى بعكازه ، وذاك فقير عليه أسمال من الثياب لا تغنى عنه فتيلا أمام شدة الجو ، وهنا شيخ يمشى بخطا المتجلد ينم حاله عن ضعفه ومرضه . تعددت الأفراد ، وتقاربت الصفات ، كانوا عقدا ينتظم كثرة ممن قيل فيهم بحق : نحن قوم إن امتحنا شكرنا ، وإن أعطينا آثرنا .

كانوا ذوى ضعف وفاقة مادية فى الأشباح ، وقوة وثراء فى العزم واليقين وسمو الروح . كانوا مظهرا من مظاهر الإيمان الصحيح ، يقود صاحبه الى الخير ، ويفتت صخور العقبات أمامه حيث يقف الكسالى أصحاب التعلات باهتين . واحتقرت همتى بالقياس اليهم ، فقد سعيت

والعوامل تشجع ، وهم حضروا والظروف تثبط . تأهبنا للصلاة وانتظمت صفوفنا لها ، وأحرم الامام ، وأحرمنا بتلك الكلمة الخالدة « الله أكبر » التى يتجاوب صداها فى قلوب الموحدين ، والتى يجب أن تكون شعار المؤمن فى أمره كله ، فلا يعبد ولا يخشى ولا يريد بعمله إلا الله الذى أوجده ورباه على موائد فضله وخيره ، فلا ينبغى أن يعبد غيره .

وما سعد سلفنا إلا بهذا المبدأ النبيل من التوحيد الخالص فى القول والعمل . وما شقينا إلا بالاقتصار فيه على النطق وإضاعته عملا ، فضعنا بالاندماج فى غيره تعالى من أصحاب الجاه والمال أملا فى النفع منهم ، وباضاعة استقلال الضمير وعزة المؤمن وأداء الواجب بلا تهيب ، وكانت العاقبة الخزى والحرمان والهوان ، ونزول الشقاء والبلاء ، وكنا كمن قيل فيهم « فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب » .

وأدينا الصلاة مع الإمام ، وكانت مدرسة لتنمية العواطف الطيبة ، وإفاضة المعارف والتجليات ، وكانت ساعة مباركة تمنينا لو طالت ، فما أبعد نظر الشارع فى فرض الصلاة والدعوة الى الجماعة فيها والخشوع !

إن ذلك كله لتنبيه الانسان ليداوى نفسه بالرجوع لخالقه حتى لا يهلك بالانقطاع الى عالم المادة الصاخب المضنى ، وللفت نظره الى الاتحاد والاجتماع للخير عسى أن يتعرف حال إخوانه فى الانسانية والدين ، فيتبادل معهم التعاون على البر والتقوى وتسهيل سبل الحياة ، فقد يعرف منهم حالة تتطلب واجبا إنسانيا فيؤديه ، من السؤال عن غائب وعيادة مريض وقضاء حاجة وتفريج ضائقة وإصلاح بين متخاصمين وما الى ذلك مما يهيىء وسائل التعارف والتعاون ، ويجعل المؤمنين كمثل الجسد إن اشتكى منه عضو تداعت له باقى الاعضاء بالسهر والحمى ، وكالبنيان يشد بعضه بعضا فيسعدون فى أولاهم وآخرتهم . وفى خشوع الصلاة حياة القلب وإمداده بتيار روحى من الملأ الأعلى يغذيه بدوائه وما يصلحه .

نعم لقد كانت لحظات غنم وانتهاب للخير ، وساعة عبرة وعظة خرجت منها الى أنه إذا كان أداء الواجب وفعل الخير فى الظروف المواتية حسنا ، فأحسن منه وأجمل وأدل على صدق الإيمان أن تؤديه والأعاصير هائجة والأوقات غير مسعفة .

وفى القرآن الكريم كبير الثناء على أصحاب هذا الخلق « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » . « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وفى الحديث الشريف « خير الصدقة ما كانت من مقل » أى من فقير الى أفقر منه .

وقد أدى سلفنا رسالة الايمان والإصلاح فى أوقات عصيبة ، قطعوا الفيافى واجتازوا

البحار ، وجاهدوا فى سبيلها ، وللعدو يومئذ دولة قوية ، فلم يعبأوا بتعب يصيبهم « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » . كانت همتهم فى الحياة أن يكونوا فى موقف النافع لا المنتفع ، وأن يقيموا مجد ربهم ودينهم لا مجد أنفسهم ، فتمت لهم كلمة ربك الحسنى من الفوز والنصر المبين ، إذ حققوا الحكمة الخالدة «احرص على الموت توهب لك الحياة . وفر من الشرف — أى حب الجاه والظهور — يتبعك الشرف » .

خرجوا من المحن والبلاء الحسن فى جهادهم كما يخرج الذهب بعد العرض على النار لتصفية جوهره نقيا مشرقا ، ويصاغ لنفاسته حليا وعملة لقضاء الحوائج ، ففتحوا الممالك ، وأداروا الشئون بهمة وحزم ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه فصدقهم وعده ، وأورثهم أرض عدوهم فى الدنيا ، وسوف يورثهم جنات النعيم فى يوم الجزاء ، تحقيقا لقول الله «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ولنا فيهم الأسوة الحسنة ، وإمام الجميع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين وكبير المصلحين .

فلنجعل وجهتنا دائما الدين ، أى الحق والفضيلة والواجب ونصرتها فينصرنا الله ، وهو تعالى يقول «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» .

تعاليت ربى ما أكرمك ، لأنت الغنى عن خلقك ، القادر على نصرة دينك وحدك ، إذ لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، ولكن كرما منك دعوتنا للمساهمة فى نصرة الدين اختبارا لنا ولتقودنا الى عز الدنيا والآخرة ، فتكتب لنا إن صدقنا ثواب المجاهدين وأجر العاملين ، وليميز الله الخبيث من الطيب . ألا لا عذر للمتخلفين ، ففى ميدان الجهاد متسع للعاملين . « ولو شاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

عبد الواحد ابراهيم
الواعظ العام لمركز الصف

تدهور الاخلاق

يروى أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ذكرت يوما قول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وقالت : لله أبوه ما كان أشعره ، لقد صدق ! قالوا وكيف يا أم المؤمنين ؟

قالت : كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث لا يعلم . ثم ذهب أولئك وجاء قوم كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث يعلم . ثم من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فاذا سأله أعطاه (أى أحب أن صاحب الخلة يسأله المعونة ليعطيه ولكنه لا يعطيه قبل السؤال) . ثم جاء من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فاذا سأله منعه ، ثم بعد ذلك يفضحه فيقول : جاءنى فلان يسألنى فلم أعطه .

طائفة العيسوية فى أوربا

تعمل الخوارق فيعللها الباحثون تعليلا روحانيا

اشتهر بعض الطوائف الاسلامية بعمل الخوارق ، وقد شاهدهم ناس كثيرون فى كل زمان ومكان وكتبوا عنهم ما يحير العقول ، ولكن العلماء المعاصرين كانوا يعزون هذه التأكيدات الى سرعة تصديق أولئك المشاهدين ، ويقررون بأنها مما يمكن تعليله بالشعوذة لا أكثر ولا أقل .

ولاتزال هذه الطوائف موجودة الى اليوم فى بلاد الشرق وفى مصر ، وروى من لا نشك فى صدقهم أنهم رأوا رجالا منهم يجلسون على المواقد المملوءة بالنيران المتأججة ، وأن لهبها كان يتخلل جلابيبهم دون أن تحدث فيها تأثيرا ما .

وكنا قرأنا عن الأستاذ الكبير السير وليم كروكس أحد رؤساء المجمع العلمى البريطانى ، ومن أقطاب علم الكيمياء فى العالم ، أنه أنام فتاة نوما مغناطيسيا وأمرها أن تقبض على جمرة متقدة بعد ما أوعز اليها بأنها لا تحرقها ، فقبضت عليها دقائق ولم تحدث بها أقل أذى . وعقب على تجربته هذه بقوله : إنه لا يعرف مادة كيماوية خاصتها منع الحس بالنار على الإطلاق .

ولما التأم مؤتمر عام المباحث الروحية فى باريز سنة ١٩٠٠ تحت رئاسة الأستاذ الطبيعى الكبير (الفرد روسل ولاس) رأت لجنة من لجانه أن تحدث تجارب جديدة مع الطائفة الاسلامية التى تدعى بالعيسوية . فاستدعوا أفرادا منها الى بعض قاعات المؤتمر اجتمع فيه حشد من أعضائه يبلغ عددهم ستمائة رجل ، وطلبوا اليهم أن يعملوا بعض الخوارق التى اشتهرت عنهم ، وأن يخضعوا فى عملها لكل ضروب التمحيص التى تفرض عليهم ، فقبلوا .

ورأى أولئك الباحثون أن يستعينوا بواحدمن الذين فيهم خاصة رؤية السيالات الروحانية بأبصارهم وهم أيقاظ ، ليروا ما يحدث من شأنها فى أثناء ظهور هذه الخوارق . وهذه خاصة معروفة توجد لدى بعض الناس بدون كسب يرون بواسطتها الاشعاعات الجسدية ، والسيالات الحيوية بدون أقل تكلف .

فحضر من رجال طائفة العيسوية ثلاثة رجال ، فأحاط بهم المجربون من كل ناحية ، وراقبوهم مراقبة شديدة ، وأخضعوهم لأسلوب التمحيص العلمى الدقيق ، فكان ما عملوه محيرا لعقولهم لعدم إمكانهم تعليله بعلل طبيعية .

وضعوا أمامهم أتونا مملوء نارا ، فأخذ هؤلاء العيسوية يحرقون فيه راتيخ البنجوان ، وشرع أحدهم فى استنشاق أبخرته بشدة ، وطفق يميل رأسه يمينا وشمالا حتى حدث له خدر جعله فى حالة عصبية فقد معها وعيه . وعند ذاك تناول ثعابين حية وقطع أعناقها بأسنانه ،

ووضع ثعابين أخرى حول عنقه . ثم كسر قدحا من الزجاج وشرع يمضغ قطعه تحت أسنانه مضغا عنيفا ، ثم يزدردها بحالة مزعجة ، حتى أن أحد إخوانه استخلص من يده قاع القدح رحمة به وكان آخذا فى مضغه ليبتلعه كما ابتلع ما فوقه .

ثم وقف هذا العربى بقدميه عاريتين على حد سيف جراز ، وأخذ يثقل نفسه عليه . ولما نزل حل حزامه من وسطه وأنزل سراويله الى نحو عشرين سنتيمترا ونزع قميصه وأسند بطنه الى ذلك السيف الذى كان يمسكه له اثنان من إخوانه ، وتعلق فى الهواء بحيث صار جسده كله مرتكزا على ذلك السيف ، ومكث على هـذه الحالة دقائق . وكان علو السيف عن الأرض نحو ثمانين سنتيمترا .

فتمكن أشخاص من الحاضرين من رؤية جرح عريض فى أعلى بطن ذلك العربى ، ولكنهم لم يروا دما سائلا منه . وماكان أكبر دهشهم حين رأوا أن ذلك الجرح اندمل فى الوقت ، بعد أن مُسح باللعاب فصار كأنه لم يكن .

ثم أقبل عربى ثان فأدخل إبرة كبيرة فى خديه مخترقة لسانه .

وجاء الثالث فأدخل مسمارا حادا فى وسط جمجمته ، ودقه بواسطة قطعة من الخشب . وكان قطر ذلك المسمار أربعة ملليمترات ، فنفذ فى عظم الجمجمة على عمق اثنى عشر ملليمترا .

ثم إن هذا العربى نفسه أدخل إبرة طويلة تحت جفنه الأيمن ، فأحدثت هذه الابرة جرحا يبلغ عرضه من أربعة الى خمسة ملليمترات ، ولكن لم تمض دقيقتان حتى اندمل ذلك الجرح كما شاهده الحاضرون .

هذه الخوارق عملها هؤلاء العيسوية الثلاثة الواحد بعد الآخر وهم يرقصون تارة على الرجل اليمنى ، وطورا على اليسرى مترنمين بنشيدهم ، وضاربين على بنادير يبلغ قطر الواحد منها من ٥٠ الى ٥٥ سنتيمترات .

تعليل الباحثين لهذه الخوارق :

إن هذه الأعمال مما سمع به الناس فى الشرق ، ورآه الجماهير رأى العين ، لايهمنا أمرها بقدر ما يهمنا تعليل باحثى أوروبا لها تعليلا مقبولا . وهم لأجل أن يستطيعوا ذلك عمدوا الى سؤال ذلك الرجل الذى يرى السيالات بعينيه عما شاهده فى أثناء هذه التجربة . فاخبرهم بانه رأى عند جلوس العرب القرفصاء ناقوسا كبيرا من قوى روحانية شملهم فى جوفه ، وفصلهم عن الجماعة المحيطين بهم . قال: وكان ذلك الناقوس من قمته يشبه البلور الناصع الشفافية ، وكان يأخذ فى العتامة شيئا فشيئا كلما قرب من الأرض .

قال الشاهـد : وقد دام هذا الناقوس شاملا لهم مدة ما كانوا فى حالة سكون وخشوع ، ولكن لما سطع دخان البخور تحول هـذا الناقوس الى قفص يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ،

وعرضه مترا ونصف متر ، وطوله أربعة أمتار ، وكان ذلك القفص يفصل هؤلاء العرب عن المجربين .

ولما أخذ العيسوية فى أعمالهم ، رأى ذلك الرجل حولهم كأن شرائط لونها كلون اللبن المسحوق تتحرك بجانبهم ، وكان طول كل شريط من ٧٥ الى ٨٠ سنتيمترا وعرضه سنتيمترين .

ماذا كانت تلك الأشرطة ؟ قال ذلك الرائى الروحانى : لعلها أرواح طبيعية وأنيات كوكبية .

لما أتم العيسوية أعمالهم أخذوا يدعون لأعضاء المؤتمر . وفى أثناء تلك الدعوات كان ذلك الروحانى متصلا بهم قلبا وعقلا ، فرأى على بعد متر وستين سنتيمترا من الأرض وجها ذهبيا على مثال وجوه بعض المومياءات المصرية ، يقبله بالاشارة من بعد نحو ١٥ سنتيمترا ، وكان ينظر إليه نظر الدهش للغاية . قال ذلك الروحانى : ولعل هذه الصورة هى صورة أو انعكاس صورة شيخ العيسوية المسمى بابن عيسى . انتهى .

نقول : إننا نقلنا هذه الحادثة باعتبار أنها حادثة محققة وقعت فى مؤتمر عام حضره مئات من الناس فى أشهر عواصم الأرض . ولسنا نقطع بما ذكره ذلك الروحانى من رؤية الناقوس والقفص والأشرطة والرأس ، فقد يكون رأى شيئا وغابت عنه أشياء ، وكان يجب استحضار ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الروحانيين ، ويكلفون كتابة ما يرونه كل على حدة وينظر فى تطابق أقوالهم . وعليه فهذه تجربة ينقصها أهم أركانها . على أن البحوث والتجارب متواصلة فى هذه الناحية ، وفى الاطلاع عليها ثلج للصدور ، ومناعة من الشكوك .

ولا يسبقن الى ذهن القراء أن هؤلاء الباحثين من هواة العجائب يحبون أن يطلعوا عليها إشباعا لعاطفة فيهم ، ولكنهم يستكثرون من الاطلاع على ما يشتهر منها ويوسعونه تمحيصا ليدونوه فى مجموعات لهم ، ثم يعمدون الى ترتيبها بقرن كل شىء منها الى نظيره ليسهل بحثها للوقوف على أسبابها الحقيقية ، فما يمكن تعليله منها بالأسباب الطبيعية أهملوه ، وما لا يمكن تعليله بها نظروا فيه ليعرفوا مستقر علته ، هل هو فى روح العامل نفسه ، أم فى عالم آخر أعم منه ، مستهدين فى ذلك كله بالحوادث التى شاهدوها ومحصوها تمحيصا علميا بأنفسهم وبواسطة من سبقهم من العلماء فى هذا السبيل

وقد تأسست فى لوندرة جمعية من العلماء تدعى جمعية المباحث النفسية منذ سنة ١٨٨٢ لا تزال قائمة الى اليوم ودائبة على استجماع هذه المشاهدات العلمية ، وقد بلغ مجموع ما جربه أعضاؤها بأنفسهم وما حققوه مما جربه غيرهم حدا بعيدا بلغ عدد المجلدات التى تشتمل عليه أربعة وخمسين ، ولا يزالون يزيدون مادته .

وقد بذلت هذه الجمعية التى يتولاها أكبر العلماء الانجليز جهودا جبارة فى سبيل الحصول على الحوادث الحقيقية ، وأموالا طائلة . ناهيك أن هذه الجمعية إذا ترامى اليها أن واحدا من الناس فيه خاصة من الخواص الروحية الفذة استقدمته ، فاذا حضر أوسعته بحثا

واستطلاعا ، فاذا لم يمكنه الحضور ، عينت الجمعية لجنة من رجالها وأشخصتهم الى حيث هو ليبحثوه بأنفسهم ويرفعوا عنه تقريرا ، فان رأت الجمعية أن ما شوهد عنده يستحق التدوين دونته فى مجموعتها مبينة الوسائل التى استعملت معه والوسائط التى اتخذت لاتقاء كل غش وتدليس يمكن أن يتذرع به لتضليل الباحثين فى حالته .

وقد أفادت هذه الجمعية فائدة لاتقدر، فان الخوارق وجدت فى العالم منذ وجوده فكان الناس يصدقونها بدون بحث ، ولكن لما تولدت الشكوك العلمية ارتاب الناس فيها ثم قذفوا بها جملة الى عالم الخرافات العامية ، ولم يستثنوا من ذلك معجزات الأنبياء ولا كرامات أهل الرياضات .

ولكن حوادث طرأت منذ نحو تسعين سنة لفتت الأنظار بشدة الى هذه الناحية من الأمور ، فانتدب كثير منهم لبحث ما اشتهر بين الناس منها فثبتت لهم صحة الكثير منها ، فأغرى ذلك غيرهم للبحث فيها ، وتشعبت طرق النظر ، وكثرت نتائج التجارب الى حد أن أصبح مجموع ذلك مادة علم جديد سموه ميتابسيشيك Métapsychique أى ما بعد علم النفس الرسمى ، صار له فى كبريات العواصم أقاذيميات معدودة من معاهد الدراسات الرسمية .

ولولا أن قيض الله هؤلاء العلماء لتمحيص هذه الخوارق لازداد المذهب المادى سلطانا على العقول ، ولأصبح مقرر العقائد الدينية فى مركز لايستطيع الدفاع عنه . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

محمد فريد وجدى

حول سن أسامة بن زيد

نشرت مجلة الأزهر الغراء بالجزء الأول من المجلد التاسع مقالا قيما يتضمن سيرة أسامة ابن زيد ، للأستاذ الشيخ سيد احمد متولى الشيخ ، وفى المقال قال حفظه الله :

« فلما بلغ عمره ثمانى عشرة سنة قلده الرسول إمارة الجيش فى السنة الحادية عشرة لأربع بقين من صفر ، وأمره أن يسير الى الشام حيث قتل والده زيد . » ثم ختم مقاله بقوله : روى أن أسامة رضى الله عنه مات خارج المدينة المنورة ثم حمل إليها فدفن بها ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز خمسين عاما » .

فاذا نظرنا الى هاتين الفقرتين نجد أن فضيلة الأستاذ أثبت أن أسامة مات وعمره لم يتجاوز خمسين عاما ، ولا نعرف على أى دليل بنى هذا الرأى . فوفاة الرسول كانت سنة ١١ أى فى السنة التى قلد الرسول أسامة إمارة الجيش وكانت سن أسامة ١٨ عاما أو ١٧ كبعض الروايات ، وأن وفاته كانت سنة ٥٨ ، فيكون عمره ٦٤ عاما أو ٦٥ ، فما رأى فضيلة الأستاذ فى ذلك ؟

احمد محمد الفقى
من بابل وناظر مدرسة إبشادى

من عمل صالحا فلنفسه

لا أجد فى كل ما قرأت من عبارات الحث على الفضائل، والزجر عن الرذائل، عبارة أبلغ فى إثارة جميع دواعى الخير فى النفس، وأفعل فى ردع جميع دوافع الشر فيها، من هذه الآية الكريمة: « من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد ».

فان الانسان إذا هم بتوفية شهوة، أو تحقيق رغبة، تيقظت فيه حوافز الطلب، وغرائز الرَغب، غير معتدة بقانون يَحُد من طماحها، أو يرد من جماحها، فتركب رأسها تعتسف كل طريق يبدو لها لتحقيق مرامها. فاذا أذكرها صاحبها بالقانون تمحلت الأعذار لعصيانه، وتخيلت الحيل للافلات من سلطانه؛ وإن لوح لها العقل بالعقاب الأخروى، قابلته باللجأ الى المتاب، قبل موعد الحساب. وهكذا لا تتراءى لها عقبة مادية أو أدبية إلا وجدت وجها لتذليلها، وحيلة لتسهيلها، اللهم إلا حيال هذه الآية، فانها تذعن صاغرة، وتخشع حائرة، مضطرة الى هذه الحال بقاهر طبيعى مستقر فى طبيعتها، ومعتبر أنه أكبر غرائزها، ألا وهو حفظ الذات من العطب، فاذا بدر للنفس أن شيئا له أثر فى هدم بنيانها، أو إفساد كيانها، أحست بدافع نفسانى يصدها عنه، فان ضعف عن ردعها، وهو يضعف عن ذلك غالبا، فانه يترك أثرا من التثبيط فى اندفاعها وراءه، وليس فيما يعرف الناس عاملا يرجى منه تعديل الاندفاعات الانسانية وراء المبيدات له إلا هذه الغريزة. فهى مُعَول الخلقيين والمربين والمعلمين، ومتكأة الفلاسفة والمتكلمين فى كل زمان ومكان. فان ظهر أنه غير منتج للأثر المرجو منه فى الردع الى عهدنا هذا، فسيكون له التأثير كله يوم يستقر العقل فى سلطانه، باتساع دائرة العلم، وتدفق ينابيع الحكمة، وبلوغ الانسانية سن النضج.

فهذه الآية الكريمة التى قامت على أقوى غرائز النفس قد استكملت جميع عوامل التاثير فيها، فهى باثارتها جميع قوى هذه الغريزة تتقوى بغريزة أخرى وهى غريزة جلب المنفعة، فان الانسان كما هو مفطور على الهرب من المبيدات، مفطور أيضا على استجلاب المنافع. والى جانب هاتين الغريزتين قد اقترنت بما ينبه الى مبدأ المسؤلية الشخصية، وهو مبدأ شديد الفعل فى تقويم الخلق الانسانى. إذ يوجد بون بعيد بين من يعتقد أن الحوادث تجرى على طريقة الخبط، وبين من يعتقد أن لكل أثر سببا يحدثه، فقوله تعالى: « وما كان ربك بظلام للعبيد » يضطر الانسان للتريث قبل الاقدام على الأعمال، ويُعِده لتحمل تبعاتها، غير متهم عاملا غيره فيما يحيق به مما لا يسره أن يكون هدفا له فى الحياة.

فما أجدر المعلمين والمربين، والناس أجمعين أن يحلوا هذه الآية الكريمة محلها من دروسهم وتأملاتهم، فانها من أكمل الزواجر عن الغى، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

النحو والنحاة

أشرنا فى باب النقد والتقريظ الى كتاب بهـذا العنوان ، ألفه ونشره صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل محمد احمد عرفة المـدرس بكلية الشريعـة فى الرد على كتاب (إحياء النحو) للأستاذ الفـاضل ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب ، الذى اقترح فيه إصلاح النحو على قواعد غير التى وضعها أئمته الأولون . وقد رأينا أن ننشر مقدمة هـذا الرد لزيادة بيان الموضوع المتنازع فيه ، وحرصا على نصيحة ثمينة فى وجوب تنزه المتناظرين عن هجر القول نقلها عن حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر .

قال المؤلف :

وبعـد : فبينى وبين الأستاذ إبراهيم مصطفى مؤلف كتاب «إحيـاء النحو » معـرفة لاأذمها ولا أشكو منها . وهى وإن لم تبلغ الصداقة لم يشبها دخل ولا انحراف . كنا نتقابل لماما فكنت أقوم بما يجب له ، وكان يقوم بما يجب لى . اشتركنا مع آخرين فى وضع مناهج «كلية اللغة العربية » بالأزهر الشريف فاحببته وملت إليه ، إذ رأيتنا نتفـق فى كثير من الآراء الاصلاحية ، ورأيته صادق النية فيما كنا نعالج من شئون .

ما كنت أقدّر أنه سيأتى يوم أضطر فيه إلى مناقضة آرائه ، والوقوف معه موقف الخصومة ولـكن هكذا شاء القدر ، وهكذا كان .

قرأت له كتاب « إحياء النحو » فعرفت منه وأنـكرت ، وما أنـكرت أكثرُ مما عرفت . فقد أنـكرت منه أنه نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ، ونقدها ، وأبان خطلها . فصور النحاة لقارئ كتابه قوما بلها أو ممرورين ، يقولون ما لا يُعقل ويفهمون ما لا يُفهم . وأنكرت منه أنه انتحل مذاهبهم وهجنهم إذ لم يصلوا إلى ماوصل إليه ـ اى الى مذاهبهم. وأنكرت منه أنه قعد قواعد فى العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ، ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما .

وأنـكرت منه أنه عمم فى الطعن ولم يخصص ، حتى أدخل سيبويه وكتابه . وهذا يصرف المتعلمين عن هذه المناهل العذبة ، ويصدهم عن هذا الخير الذى ينمى عقولهم، ويصقل ألسنتهم، ويفضى بهم إلى سر العربية .

أنـكرت ذلك كله ، ورأيت حتما على أن أكتب كتابا أصحح به تاريخ العربية الذى أفسده هذا الـكتاب ، وأردّ به الأمور إلى نصابها . ولـكن تذكرت أننى نقدت قوما من قبل فافسد

النقد ما بيني وبينهم ، ولقيت من خصوماتهم عنتا ، وأن هذا النقد حرى أن يفسد مابيني وبين الأستاذ .

تذكرت ذلك فأحجمت عن النقد ، وعولت على أن أترك الأمور تجرى مجاريها ، ولكن تمثلت هؤلاء النحاة وهم فى أجداثهم يهضمون هذا الهضم بعد أن ملأوا الدنيا علما ، ويحاف عليهم هذا الحيف وقد خرست ألسنتهم الناطقة التى كانت تجلجل فى الدنيا . عدا عليهم البلى فاعجزهم عن إقامة الحجة ودفع التهمة . ويارب يوم لو رماهم أحد بباطل لدفعوا الشبهة بالحجة والباطل بالحق الواضح المبين .

واذ قد آلوا إلى ما آلوا إليه فقد صار حتما على أبنائهم الذين تخرجوا عليهم ، واغتذوا من علمهم أن يقوموا عنهم برد التهم ودفع العاديات .

هـذا واجب إنسانى ، إذ نصرة المظلوم والأخذ بيد العاجز حق إنسانى ، ولو اختلفت الدار وشط المزار .

وهو واجب الأساتذة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم واشتركوا فى تثقيفهم . وعار على الأبناء أن يظلم الآباء ويعتدى عليهم ولا يدفعوا عنهم هذا الظلم وهذا الاعتداء .

ثم هو واجب اللغة العربية ، إذ يجب على أبنائها أن ينفوا عنها تحريف الغالين ، وتاويل المقصرين . ثم هو واجب للعلم فى نفسه ، إذ يجب على العلماء أن يقروا الأمور فى نصابها ، ويضعوا الأشياء مواضعها .

وأخيرا هو واجب علينا لتلاميذنا ، إذ حتم علينا أن نعرفهم الحق من الضلال ، وأن نسدد خطاهم ، وأن نحكم لهم فيما اختلف الناس فيه .

قامت هـذه العوامل كلها فى نفسى ، فآثرتها على عامل المعرفة ، وقلت ما قاله أرسطو : إن أفلاطون صديقى والحق صديقى ، ولكن اذا تعارضت صداقة أفلاطون وصداقة العلم آثرت صداقة العلم على صداقة أفلاطون .

لا أكتم القارئ أننى كتبت هذا النقد مرتين . فقد كتبته أولا بعد أن قرأت الكتاب بامعان وموازنة ، فرأيت المؤلف يبصر النائى البعيد ، ويتجاهل الدانى القريب ؛ ويدرك الخفى المستور ، ولا يدرك الظاهر المكشوف ؛ وينقل أعجاز نصوص ليستشهد بها على ما رآه ، ولو نقلها كلها صدورها وأعجازها لدلت على نقيض ما راه ، فآمنت أنه لم يؤت من جهل ، وأنه مدرك مذاهب النحاة على ما هى عليه من حق وسمو ، وإنما شوهها ومسخها عن علم ، ونسب للنحاة التقصير عن علم ، وانتحل مذاهبهم عن علم ، وحاربهم بها عن علم بانها أسلحتهم ، وأفسد ما أفسد من قواعد اللغة عن علم وعن قصد . وآمنت أن الدكتور طه حسين حينما اثنى على الكتاب كان متآمرا مع المؤلف على إخفاء الحق وستر الواقع ، للطعن فى ميراث السلف ، والاعلاء من شأن تفكيرهم الحديث .

آمنت بهذا وذاك ، فكتبت الكتاب بهذه العقيدة ، فقسوت عليهما كل القسوة ، واشتددت عليهما كل الشدة ، ووقفت مواقف عدة أبين هذا ومبلغ صاحبه من الأمانة فى العلم ، وخطر هذه الطريقة على التفكير وعلى المتعلمين . وطالما وقفت حائرا لا أدرى من أى حاليهما أعجب : أمن جرأتهما على ستر مذاهب النحاة وهى لا خفية ولا مستورة ، أم من جرأتهما على انتحال هذه المذاهب والتزين بها ، وخدعة الناس عن هذه الرواية التمثيلية ، وإيهامهم أنها الواقع لا ريب فيه .

كتبت النقد وأنا منطو على هذه العقيدة فجاء لاذعا شديدا قارسا ، ثم أطلعت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى على شىء من التدبير فى هذا الكتاب ، فغيّر رأيى فى هذا التدبير وقال : انقد الفكرة ودع صاحب الفكرة ، وليكن نقدك عفيف اللفظ ، تقى الأسلوب . وإذا كان الناس قد اعتادوا سماع الهجر والفحش فى المساجلات العلمية فما أحراك أن تسمع الناس نوعا آخر من النقد تتجلى فيه نزاهة العلماء عن ساقط القول ، ويتجلى فيه صدق اللهجة وقوة الحجة وعفة الأسلوب ، والعدل فى الحكم ، والانصاف فى الموازنة . وبدل أن تتصور مخالفيك كما تصورتهم ، يحسن أن تتصورهم رفقة فى سفر انقطع بهم الطريق واعتسفوا طرقا مهلكة ، فرأيتهم وأنت على الجادة يتخبطون فى ليل دامس وصحراء مهلكة ، فيجب أن يأخذك من الشفقة والرحمة عليهم ما يأخذ هذا المسافرَ الذى على الطريق من الرحمة والشفقة على هؤلاء المعتسفين .

أدب كريم ، وخلق عظيم ، وهدى نبوى ، وسجايا حسان ، لا تكون إلا لمن كان مثل الأستاذ الأكبر ، راض نفسه على أن يرى الناس جميعا أبناء وأخوة ، يسره إصابة المصيب ، ويشفق على المخطىء ، ويدعو له بالهداية والتوفيق ، ويعم الجميع بالمحبة والاحسان !

وما سمعت هذه النصائح الغالية حتى شرح الله صدرى لما قال ، فرجعت الى الكتاب فكتبته مرة ثانية ، وأسقطت منه هذه المواقف التى كنت أقفها من صاحب الفكرة ، وجعلت هدفى الفكرة . فما كان فى الكتاب من حلم وأدب فى المناظرة فالى الأستاذ الأكبر مرجعه ، والى هذه النصيحة مرده . وما كان فيه من نبو واعتساف فمن نزوات النفس وجماح الطبع ، وللطبع جموح وللنفس نزوات .

محمد عرفه

تاريخ الادب العربى (١)

قبل الاسلام

الأغانى الشعبية

كان فن الأغانى منتشرا انتشارا واسعا فى بلاد العرب ، ولم يكن مقصورا على الممتازين من الأدباء ، بل إنه كان بضاعة شعبية تناولته جميع القبائل ، فأحييت به ذكريات بعض حوادثها التاريخية فى أشعار عديدة لبيان تطوراتها وشرحها ، وكانت أغلب هذه الأشعار تنشأ بوحى الساعة والمناسبة ، فلم تكتمل فيها الصناعة الفنية بقدر ما ظهر فيها من قوة فى اللفظ والتعبير مما يشهد لمنشئيها بالسيطرة على اللغة ، ولقد اهتم الرواة بجمع هذه الأشعار الذائعة بين القبائل المختلفة اهتماما يتناسب مع مالها من قيمة تاريخية ، وللأسف لم يبق لنا منها حتى الوقت الحاضر سوى مجموعة واحدة غير كاملة ، وهى أغانى قبيلة « هذيل » التى كانت ترعى المعز على التلال فى جنوب مكة ، والقليل من هذه الأغانى فقط هو ما يرجع الى العصور الوثنية ، وأغلبها نشأ فى عصور الاسلام الأولى ، ولكنها على الرغم من ذلك تعطينا صورة صادقة عن هذا الفن الشعبى القديم ، خصوصا إذا علمنا أن الاسلام لم يكن له الأثر المنتظر على تفكير العرب وشعرهم . ولم يجهد هؤلاء الشعراء أنفسهم فى محاكاة القصائد فى بنائها الفنى ، بل إنهم كانوا يرمون مباشرة الى غرضهم الأصلى الذى كان دائما ينحصر فى مديح أنفسهم ومذمة القبائل المعادية لهم ، وقليلا ما نسمع فى أشعارهم النغمات العذبة أو العبارات الرقيقة التى لا يدعو إليها عادة إلا الشعور بالحزن فى المرثيات ، وكذلك لم تكن للمرأة فى حياة هؤلاء الرعاة قيمة كبيرة ، فندر فى أشعارهم النسيب ، ولم يظهر له أثر إلا فى بعض التعبيرات القارصة .

شعراء البادية :

وعلى نقيض هذه الأغانى التى احتضنتها القبائل وتعهدت فنونها فى دائرتها الضيقة ، نشأت تلك الأشعار الجامحة التى نظمها مَن لفظتهم قبيلتهم وشردوا فى الصحراء فاعتمدوا على أنفسهم وقوتهم لا يخشون النقمة أو الثأر بعد أن هجرتهم قبائلهم ، فصار الكل عدوا لهم وهم عدو للجميع ، وكأن هذه الروح التى هزأت بالأحداث ولم تبال بهذا الاستقلال العنيد أخذت تتنفس فى أشعارهم وأغانيهم .

(١) تكملة المقال المنشور فى الجزء التاسع من المجلد الثامن (رمضان سنة ١٣٥٦) مترجما من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

وأشهر من عرف من هذه الفئة من شعراء البيداء هو ثابت بن جابر الفهمى ، ولم تحفظ لنا الرواية أنباء أكيدة عن حياته ، ولكننا نعلم أنه كان سببا فى متاعب جمة جرها على قبيلة هذيل ، وأما بقية حياته فيخيم عليها الغموض ، ولم يبق من أشعاره إلا النزر اليسير أهمها مرثية نظمها فى خاله الذى قتل فى حملة على قبيلة هذيل .

وعرف كذلك من زملائه الشنفرى الذى فاقه فى الشهرة وتوفى قبله ، وإليه تنسب «لامية العرب» ، وهى مقطوعة شعرية طويلة بالغة أعلى درجات القوة اللفظية ، يصور فيها آلام رحالة الصحراء ، ولو كانت هذه الأشعار من نظم أحد الشعراء المتأخرين كما يزعم بعض مؤرخى الأدب وعزيت خطأ الى الشنفرى ، فان هذا الشاعر فضلا عن معرفته التامة للحياة العربية القديمة كان يملك خيالا حيا منقطع النظير مما يكفل له مكانا ممتازا فى مقدمة فحول الشعراء القدماء .

ولم يقل كذلك عن هذين الشاعرين الجامحين شهرة عنترة بن شداد من قبيلة عبس ، وهو ابن جارية سوداء ، تمكن بشجاعته من أن يرغم أباه على الاعتراف بكامل حقوق بنوته ، واشتركت قبيلته فى حروب داخلية طويلة ، قضت على قوة أغلب القبائل العربية قبل الاسلام ، وسقط عنترة قتيلا فى إحدى هذه الحروب ضد قبيلة طى . ولقد بقى عنترة ماثلا فى خيال الشعب أكثر من غيره من الأبطال ، وصار بعد ذلك محورا ترتكز عليه أغلب الأساطير والحكايات ، التى أخذت تتسع دائرتها بعد الاسلام بقرون عديدة .

واشتهر كذلك من قبيلته عمر بن الورد – وكان عنترة يتغنى بشجاعة أبيه – وتمثل أشعاره البدوى الذى يرى أعظم الفضائل فى مساعدة قبيلته والأخذ بناصر الضعيف منها ، فكان لا يعبأ بالسطو والقتل فى سبيل أهله وعشيرته ، ولم تأت الرواية بكثير مما امتازت به حياته ، ويغلب على الظن أنه توفى قبل الاسلام بقليل .

ويشبهه فى الروح الفكرية هاشم بن عبد الله من قبيلة طى ، وكان يقيم بصحراء الشام ، وترجع شهرته التى عمت بلاد العرب والفرس حتى الآن إلى كرمه الذى لا حد له بالرغم من أسباب الحياة القاسية فى الصحراء ، مما أعلى قدره ورفع منزلته وجعله مضربا للأمثال ، وكانت هذه الفضيلة موضوع اغلب أشعاره . ونحن إذا كنا فى بعض الأحوال لانثق بأكثر ما نسبته الرواة إلى أغلب الشعراء من بضاعة غريبة ، فإننا أكثر ريبة حيال ماروى عن حاتم من الأشعار فى الكرم وهو أظهر الفضائل العربية القديمة .

وإلى جانب هؤلاء الشعراء الذين يتغنون بفضائل العرب النبيلة ، ظهر أكبر شعراء الجاهلية فى الحكم وفلسفة الحياة ، وهو زهير بن أبى سلمى المزنى ، وكان على أبواب عصر جديد ، فأدرك فى كهولته النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكان الشعر فى بيته وراثيا ، فظهر من أهله

أخته وابنه بين الشعراء المعروفين ، وحضر من الحروب الطاحنة التى أهلكت قبيلتى عبس وذبيان آخرها ، حيث اتفق الفريقان على حسم الخلاف ورضيا بالعوض عن المطالبة بالدم ، فمجد عملهما ، وخلده فى قصيدته المعروفة فى المعلقات . ولا نشعر بين أشعاره بالروح البدوية العنيدة ، وإنما نرى فيها حكمة الحياة الدنيا ، وبطلان التسابق والتغالب فى طلب السعادة الدنيوية دون أن يجد لذلك حلا ، اللهم إلا فى دين جديد يعطى الحياة قيمتها .

بقيت هذه الروح الجامحة والنفس الأبية سائدة بين شعراء هذه الطبقة من البدو ، ومميزة لهم عن سواهم من شعراء القبائل والحضر ، الى أن ظهر فى أفقهم امرؤ القيس ، فامتاز بشخصية فذة وقريحة خصبة ، فبزهم جميعا بشاعريته الناضجة ، وفاقهم بمواهبه المتعددة ، فاستطاع التعبير بأشعاره عن جميع نواحى الحياة البدوية وتصوير مآسيها بأجلى بيان . وامرؤ القيس بن حجر ينتمى الى أصل ملكى ، ويرجع نسبه الى آل كندة من جنوب بلاد العرب . قتل أبوه فى الدفاع عن إمارة أسلافه فى هضاب داخلية بلاد العرب ضد بنى أسد . ولم يكن امرؤ القيس بما جبل عليه من ولع بالحياة الحرة الطليقة ، وتعلق بالشعر والخيال ، ليقبل قيود الامارة وواجباتها ، أو يرضى بجلال الحكم وأبهته ، فهام على وجهه فى البيداء ملتمسا متاع الحياة مع أترابه من شعراء البدو ، ولكنه لما بلغه خبر قتل أبيه سارع فى الأخذ بثاره ، ومن ثم أخذت حياته لونا جديدا ، وامتلأت بالمغامرات الخطيرة ، ولو أنه لم ينس حظه من متاع الدنيا فى أوقات فراغه ، وكلما سنحت له فرصة لذلك . فلما انهارت مشاريعه فى الأخذ بثأر أبيه التجأ الى أحد أقاربه عمرو بن المنذر وكان حاكما على ولاية صغيرة بالعراق ، ولكنه مالبث أن طرد منها فولى هاربا الى الحميريين فى جنوب بلاد العرب ، واستطاع هناك جمع فريق من أمثاله المغامرين ، ولكنه لم يتمكن بهم من مغالبة جيوش المنذر التى فرقت جمعهم ، وتعقبه المنذر برجاله من قبيلة الى أخرى حتى هبط على السموءل اليهودى فآواه ، واتجهت إليه منذ ذلك الحين أنظار قياصرة الدولة الرومانية الشرقية ، فاستدعاه جوستنيان الى بيزنطة عام ٥٣٠ ميلادية لاستخدامه فى أغراضه السياسية لتهديد تخوم مملكة الفرس التى لا تفصلها عنها سوى صحراء البدو الرحل ، وعهد إليه بعض الأعمال بفلسطين ، ولكنه توفى فى طريقه إليها بأنقرة . ولما كانت أغلب القصص قد جعلت منه بطلا فى المغامرات النسائية ، فان وفاته أثارت بعض الروايات الخيالية ، فقيل إنه مات مسموما بأمر القيصر الذى غضب لشرفه المثلوم بسبب ماجره امرؤ القيس من فضائح على إحدى أميرات بيته .

وتعتبر أشعار امرئ القيس من أروع ما أنتجته شعراء العرب قبل الاسلام ، وللأسف لم يحفظ لنا منها التاريخ إلا قليلا ، وأقوى ما ظهر فيها من مميزات خاصة ، العبارة الصريحة التى استعملها فى التعبير عن شهواته الجنسية ، بل والتى لا تعرف التستر أو الخجل فى وصف المواقف الجريئة .

شعراء الملوك :

ولقد ساعدت نفس هذه السياسة التى استدعت امرأ القيس الى بيزنطة على قيام دويلتين على حدود صحراء الشام من الشرق والغرب تحت سيادة العرب : الحيرة بنفوذ الفرس ، ودمشق بنفوذ الدولة الرومانية الشرقية ، لصد تيار البدو الجارف عن بلاد المدنية ، فنشأ فى كل من هاتين المنطقتين حضارة حملت الطابع العربى مع تأثرها بمميزات الدولة صاحبة النفوذ ، وهكذا كان الحال فى تعهد التقاليد الوطنية بهما وأخصها فنون الشعر التى وجدت فى الحيرة ، دون دمشق ، أرضاً خصبة ، حيث كان سادتها وحكامها من البدو ، فلم يكن أخصاؤهم من الشعراء فى حاجة الى تغيير تعبيراتهم البدوية الأصلية ، ولذلك لم تختلف أشعارهم فى مدح سادة الحيرة عما تعودوه من قول فى الاحتفاء بأمرائهم فى البادية .

وأشهر هؤلاء الشعراء من أنصاف الحضريين هو النابغة من قبيلة ذبيان ، وازدهرت آثاره الشعرية وذاعت فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى إبان حكم المنذر الثالث والرابع ، والنعمان بن أبى قابوس ، الى أن أثار عليه حنق النعمان وغضبه لما بلغه من اجترائه على الاتصال المريب بالملكة ، وما كان من أمر وصفه الدقيق لمحاسنها مما كشف عن معرفة أكيدة بها ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء فى الحيرة ، ولجأ إلى بلاط الغسانيين بدمشق ، وبها نظم قصيدته الكبيرة التى يرجو بها كسب عطف مليكه وولى نعمته ، ولقد تم له ذلك أخيراً فعاد الى الحيرة ، وتوفى بها قبل الاسلام بقليل .

وظهر بعده من فحول شعراء الجاهلية عمرو بن العبدة الملقب بطرفة ، وكان يخدم عمرو ابن هند وأخاه قابوس من ملوك الجيل الثانى فى بلاط الحيرة . اشتهر طرفة بشعره فى النسيب بشعور رقيق ، ولكنه كثيرا ما جمحت ألفاظه والتهبت عباراته فى هذا الميدان ، فكان يذكرنا إذن بأشعار امرىء القيس ، ولم يصل الى أيدينا من أشعاره إلا ما قاله فى أول شبابه ، وهو ملىء بعبارات المرح والسرور ، طافح بنزوات الحياة ، وكان أكثر ميلا الى وصف الخمر ومتاع النساء ، ولم يغفل - كبدوى أصيل - أمر الإبل ، فتناول وصفها بكل دقة وخبرة تامة ، ولم يترك عضوا من أعضائها إلا وأسهب فى وصفه ، وكان كثيرا مايخرج بشعره عن هذه الموضوعات البريئة ، فيطرق بها باب التهكم والازدراء ، ودفعته نزوة الشباب فى هذا المضمار الى حتفه ، فلم يرع لجلال الملك حرمة ، ودفع بحياته ثمنا لطيشه ونزواته ، ولو أن الملك لم يجرؤ على التخلص منه علنا بالبلاط لما بينه وبين أخيه قابوس من ولاء ومحبة ، فأرسله بكتاب الى حاكم البحرين لمكافأته ، فلما وصل إليه علم حقيقة أمر الرسالة التى يحملها ، وكانت أمرا بأعدامه ، فدفن هناك حيا .

واشتهر كذلك من معاصريه أوس بن حجر ، ولو أنه لم يكن من شعراء الملوك المقيمين ، إلا أنه كان ضيفا كثير التردد على بلاطهم ، ويرجع أوس بموطنه الى البحرين حيث بدأ حياته الشعرية محترفا لكسب عيشه ، ولكنه مالبث أن ترك موطنه لضيقه ، وجاب بلاد شمال العرب ونهر الفرات مترنما بأشعاره بين خيام البدو ، ولم يحفظ لنا التاريخ من أغانيه إلا مقاطع قصيرة لم ترتفع الى متوسط الشعر الجاهلى ، ولكنها امتازت بالوصف الصادق .

شعراء الحضر :

لم تسمح أحوال الحياة وظروفها بقيام حياة مدنية مشتركة بين العرب إلا فى الأراضى الساحلية الغربية من شبه جزيرة العرب ، وبدهى أن هذه الجماعات كانت لا تزال تحمل طابع الحياة البدوية وأنظمتها ، فاختصت القبائل المختلفة ببعض الأماكن والجهات ، فتبعت مكة لقبيلة قريش ، والطائف للثاقف . وفى يثرب أقامت قبيلتا الأوس والخزرج والى جوارهما بعض قبائل اليهود .

لم يكن قيام الحياة المدنية المشتركة فى يثرب من الأمور المستطاعة ، لما كان بين هاتين القبيلتين العربيتين من حروب طاحنة قبل الاسلام . وكانت هذه المنافرات أساساً لأشعار قيس ابن الحاتم شاعر أوس ، الذى قتل أبوه وجده فى قتالهما ضد الخزرج ، فأثار بين القبيلتين حربا دامية للأخذ بثأرهما ، فلما هدأ القتال اغتاله أعداؤه ، وقتل بعد ظهور الاسلام وقبل الهجرة إلى المدينة .

كان قيس بن حاتم كثير الشبه بشعراء البادية ، ولم ينحرف عن طريقهم أو يشذ عن لونهم كما نرى فى معاصره أمية بن أبى السلط شاعر الثاقف بالطائف ، وكان قد غلبت عليه الأفكار الدينية المسيحية وأخذ منها بعضها ، وحضر الاسلام ولكنه لم يدخله ، ولعل أسبابا سياسية هى التى منعته من الدخول فى الاسلام اتحاداً مع عظماء موطنه فى تضامنهم مع أهل مكة الذين كانوا يرون فى النبى صلى الله عليه وسلم عدوا لحقوقهم وامتيازاتهم ؛ ولقد رثى قتلى المكيين بعد موقعة بدر بمرثية عاق انتشارها أسباب دينية ، وتوفى ولم يدخل فى الاسلام عام ٩ هجرية . ولم يحفظ لنا التاريخ من أشعاره إلا قطعاً ناقصة اهتم بجمعها وتفسيرها علماء القرن الثالث من الهجرة ، ولقد قال فيه الأصمعى ، وهو حجة الشعر القديم : إنه شاعر الآخرة ، كما سمى عنترة شاعر الوغى ، القتال .

ولما كانت الروح الغالبة فى أهل مكة هى الروح التجارية العملية ، فاننا نجد أن المواهب الشعرية لم تنم بها نموا كافيا ، ولم يظهر منها فى هذا العصر القديم إلا الشاعر المكى مسافر ابن أبى عمرو بن أمية ، وترجع شهرته الشعرية الى حادثة غرامية أكثر من مقدرته الفنية ،

فيحكى أنه خطب إحدى بنات قبيلته واسمها هند وهى ابنة عتبة بن ربيعة ، وأولع فى غرامها ولكنها رفضته لرقة حاله ، فرحل الى عمرو بن هند ملك الحيرة طمعاً فى المال والثروة ، فلما بلغه هناك خبر زواجها من غيره مات حزنا عليها .

شعراء اليهود والمسيحيين :

كان غرب شبه جزيرة العرب موطنا لبعض قبائل اليهود التى أقامت فى تيمة ويثرب ، بعد هجرتهم اليها على أثر تخريب بلادهم على يد « تيتوس » و « أدريان » . ولقد ظهرت مميزات اليهود الخاصة واضحة كذلك فى بلاد المغرب حيث أخذوا عن العرب كل مظاهر الحياة الخارجية ، واستعربوا الى أبعد حد مع تمسكهم الشديد بدين آبائهم ، وتمكنوا أيضا من التقدم والتطور به بنفس الخطوات التى سار عليها أبناء دينهم فى فلسطين وبابل ، وأهم المظاهر الخارجية التى أخذوها عن العرب هى اللغة وفنون الكلام ، ولو أن ما حفظت لنا الرواية من بقايا مؤلفاتهم الشعرية لا تعدل المأثور عن البدو الأصليين فى اللفظ أو الأسلوب اللغوى .

وأشهر من ظهر بين شعراء اليهود هو السموءل بن عاديا ، وكان حاكما على الأبلق بجوار تيمة ، ولم يكسب شهرته بطريق الشعر بقدر ما كسبها بنبل خصاله وشرف أفكاره ، فروى أن أمرأ القيس — وكان السموءل يؤويه فى حصنه — ترك لديه دروعه الخمسة وهى البقية الباقية له من ثروة عند ما أراد الرحيل الى بيزنطة ، فلما علم خبر وفاته أرسل اليه ملك الحيرة أحد رعاياه على رأس جنود مسلحين لاسترجاع هذه الدروع الثمينة ، فابى السموءل تسليمها بالرغم من وقوع ابنه فى أسرهم وقتله على مرأى منه بصورة قاسية ، فكانت هذه التضحية الغالية سببا فى تخليد اسمه ، وجعلته مضربا للأمثال فى النبل والشرف . ولم يبق لنا من آثاره الشعرية إلا بعض القطع الشعرية القصيرة يذكر فى إحداها عمله هذا . ولقد عرف من بعده أحد أبنائه وأحد أحفاده فى ميادين الشعر .

بقيت الديانة اليهودية محصورة فى بقاع ضيقة من بلاد العرب ، ولم ينظر لها البدو أبدا نظر الاعتبار ، بل أحلوها مكان الضيف الأجنبى الغريب الذى لا أثر له فى حياتهم الفكرية . وأما المسيحية فكانت منذ ظهورها على جانب عظيم من الاهمية : ففى الدولتين المتاخمتين لصحراء العرب بدأ ظهورها للبدو كقوة مهيبة الجانب : غربا دينا للدولة الرومانية الشرقية التى انتمى إليها أمراء العرب الغسانيين فى دمشق ، وشرقا كدين للشعوب الآرامية التى استطاعت بحضارتها العالية أن تترك أثرا ظاهرا فى البدو ، كما يتضح ذلك من الألفاظ الأجنبية العديدة التى تسربت الى لغتهم ، هذا فضلا عن اعتناق أمراء الحيرة من اللخميين المتأخرين الديانة المسيحية بعد أن دخلها أكثر رعاياهم من أصحاب السلطة والنفوذ ، وكان هؤلاء يسمون أنفسهم « عباد » . ولقد اهتموا اهتماما كبيرا بالأدب العربى . وهم أول من دون لغة الشعراء تحريرا ، إلا أن التاريخ

لم يحفظ لنا من أعمالهم الشعرية إلا بقايا قليلة ، وقد يرجع ذلك الى اختلافهم الفكرى الظاهر من الروح الوثنية القديمة .

وأعظم هؤلاء الشعراء العباديين قيمة وأكثرهم أهمية فى الأدب العربى ، هو عدى بن زيد سليل بيت كريم من أهل الحيرة ، وكان أبوه مديرا للشئون المدنية فى حكومة المنذر ، واختص ابنه بتربية عالية وثقافة فارسية ممتازة أهلته لتولى بعض شئون بلاط الفرس بالمدائن ؛ وبعث برسالة سياسية الى بيزنطة ، فدرس فى طريقه اليها بحضارة العرب فى وسطها الآخر بدمشق ، وبها نظم أول أشعاره ، فلما عاد إلى موطنه وكان أبوه قد توفى ، عافت نفسه الحياة السياسية وفضل الاقامة بضيعة أبيه مشتغلا بالزراعة ، ولم يشترك فى الأعمال المدنية إلا والمنذر على فراش الموت ، وكان قد أوصى بابنه النعمان عنده ، فساعده على الاستيلاء على عرش أبيه ، وكان بنو مزينة ، وهم جماعة من الأشراف ، يعملون على رفع ابن غيره من أبناء الملك المتوفى على أريكة الملك ، فأثار غضبهم عليه وأرادوا لأنفسهم الانتقام منه ، ونجحوا فى الوشاية به عند النعمان الذى دعاه الى الحيرة ، فلما قدمها أمر بقتله .

ولعدى أشعار فى الخمر ترجع الى سنى شبابه الأولى ، وكانت ذات أثر بعيد المدى فى تطور هذا الضرب من الأشعار فى تاريخ الأدب العربى ؛ ولكن الناحية الجدية من الحياة سرعان ما تغلبت على شعوره ووجدانه ، فأنذر بالموت والفناء فى هذه الحياة الدنيا .

ما هى حقيقة الزهد

قال حكيم : ليس الزاهد فى الدنيا من زهد فيها وقد أعرضت عنه ، ونفرت منه ، ولم تمكنه من متاعها ، وضاقت عليه مع اتساعها ، وهو مضطر الى ذلك لظهور عسرته ، ونفود يسرته ، وإنما الزاهد فى الدنيا من أقبلت عليه ، وحشدت فوائدها اليه ، وحسنت له فى ذاتها ، وأمكنته من لذاتها ، فاعرض عنها وزهد فيها .

وقد نظم هذا المعنى شاعر فقال :

اذا المرء لم يزهد وقد جمعت له ضروب من الدنيا فليس بزاهد

فالزهد على هذا المعنى لايقتضى أن يهمل الانسان وجوه المكاسب ، وأن يقتصر على الدون من المطالب ، ولكن الزاهد هو من يعيش كما يعيش الناس ويعمل عملهم ، ويسلك فى محاولاته كل السبل المؤدية للنجح فيها ، فاذا حصلت له ثروة وكان يحب الزهد أمكنه ان يكون بأزائها على ما يحب .

فى هذه الحالة يتبين له إن كان زاهداً من قصور فيه أم من سمو نفسه عن الفانيات .

العمل الصالح طريق الحياة الطيبة

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » :

إذا نظر الانسان فى الحياة نظرة فاحص ، وأمعن فيها الفكرة ، واستقصى أحوالها استقصاء الناقد البصير ، وتتبع ما ينشأ عنها من النتائج والمسببات ، خرج من ذلك بالنتيجة التى تحدث عنها القرآن وذكرها بارىء الكون الخبير ، وهى أن العمل الصالح ، أو سلوك السبيل القصد ، هو عامل الحياة الطيبة ، وركن العيش الرغيد ، بصرف النظر عن الثروة والغنى ؛ فليس كل ثرى سعيدا ، كما أنه ليس كل فقير شقيا . وإن المال وإن كان طريق السعادة حينا فقد يباين هذا الطريق ويكون سبب الحتف أحيانا ، وذلك فيما إذا انحرف صاحبه عن الجادة واتبع الهوى . وأحسب أنى لست فى حاجة لأن أعدد الأمثلة وأستطرد فى ذكر الوقائع ، إذ الحوادث جمة والشواهد كثيرة :

هذا شاب أعرفه تلميذا بالمدرسة وحيدا مدللا ، ترك له أبوه ثروة قيمة ، فاستحوذ عليه جند الشيطان وعدلوا به عن طريق الهداية الى المأثمة ، وانحازوا به الى الغواية والفساد ، ففقد ثروته غب قليل ، وأصبح من بعدها فقيرا معدما لا يملك شروى نقير .

وذاك كهل خلف له والده ثروة طائلة من مال وعقار ، استغلها استغلالا حسنا ، واستثمرها استثمارا منتجا ، فعنى بالزراعة عناية فائقة ، فواتته بمحاصيل وافرة ، وكان حرصه على الغلة حرصا شديدا مدهشا ، وإذا به فى يوم من الأيام والمصرف يضع يده على كل ما يملك ، فدهش الناس وأخذوا يتساءلون ما هذا ؟ فلان أفلس ! كيف ذلك ؟ ! إنه كان زارعا مجتهدا ، ولم يكن تاجرا حتى يقال إنه ضارب فى السوق ، أو انهار السعر فاستفحلت الخسارة .

وهنا هتفت الجواء بصوت جهورى رددته الغابات والحرجات ، فدوى فى الآذان كهزيم الرعد تستصغى به الأفئدة وتستنصت القلوب ، قائلة : على رسلكم أيها القوم ، عم تتساءلون ؟ أنسيتم عاقبة البغى وغاب عنكم مصير الحيف والجور ؟ أجهلتم نهاية الدعر ومآل العهر والفحشاء ؟ أذهلتم عن غاية الانحراف عن الصراط السوى ، والحيد عن الطريقة المثلى ؟

ياسبحان الله ! كأن الناس غفلوا عن القصاص السماوى والعدالة الالهية ، يظلمون ويحسبون أن الله غافل ، ويفحشون ويظنون أن الجبار تارك ؛ ألا تبًّا للعصاة ، وسحقاً للغواة ، ورمى

الله الفجرة بفاقرة ! ما الذى حدث يا جواء ؟ خبريهم أيتها الأمكنة عما جرى وكان ؛ ألم يمس المنكوب فى جوف الليل يطلب القنص، ويتربص لاستغواء ضحية ،وينصب من أمواله الشراك والأحابيل لا يقاع العفيفات فى الرذيلة ؟ ! يالله ! تعجبون من النتائج وقد رأيتم المقدمات ، وتتجاهلون المسببات وقد شاهدتهم بعينى رءوسكم الأسباب ؟ ! أتريدون صراحة فوق هذى ؟

فجوزى فجيعة بفجيعة ، واستلابا باستلاب ...

هذا ماكان من ثروته . وأما ما انخدش من عرضه فبحسبكم أن تعلموا أنه قد أصيب فى ابنته بمثل ما أصاب به بنات قومه ، والجزاء من جنس العمل .

ياسادة : لولا التعرض للشخصيات لذكرت الأسماء . فاتخذوا العبرة ثم أسدلوا على مابقى ستراً من النسيان ، واسحبوا عليه ذيلا من التغاضى .

هيه : أرأيتم المال وأبصرتم عواقبه ؟ أشاهدتم الثروة وأحسستم أضرارها إذا كان صاحبها لايقيم للأخلاق الفاضلة وزنا ؟

إن الله عز وجل وعد من يدأب على الخير ، ويقيم على البر وصالح العمل ، إذا قرن ذلك بالايمان بالله واليوم الآخر – أن يمتعه بالحياة الطيبة ، ويرزقه القناعة والرضا فى حياته الدنيوية .

فليست السعادة جمع المال ، والتوفر على الاكثار من هـذا الحطام ، ولـكن السعادة فى هدوء النفس وطمأنينة القلب وراحة البال ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولـكن الغنى غنى النفس » . رواه البخارى ومسلم .

من لى بـكروان صـداح أو بلبل غرّيد ينشدنا من رائـع النظم ، وجزل القريض ، ويظهر لنا الحـكمة فى ثوب مفوف ورداء قشيب ، ويطربنا بصوته الرخيم وجرسه الموسيقى ، ويشنف أسماعنا ويغذى عقولنا بذلك البيت الرائع :

يعز غنىّ النفس إن قل ماله ويغنى غنىّ المال وهـو ذليل

ويثنّى بقول الشاعر :

ما كل ما فـوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فـكل شىء كاف

ويثلث بهذا التصوير :

ملك القناعة لا يخشى عليـه ولا يحتاج فيه الى الأنصار والخول

قل بربك ما هى الحياة وما هو العيش الذى نتزاحم على أبوابه ونتطاحن فى سبيله ونقتتل فى الوصول إليه ؟ أليست الحياة نفخ الروح فى الجسد ، واشتمالها عليه تلك الحقبة من الزمن الذى قـدّر الله أن يلبث وإياها فى هـذه الدنيا الصاخبة ؟ أليست هى انفراط عقد الليالى ، وتصرم الأيام ، وكر الشهور والأعـوام ؟ أليس العيش سدّ الخلة وستر العورة ، فمتى وجد الانسان ما يسد هذه ويستر تلك ، ويقى شر الخصاصة والعوز ، حمد الله وعاش عيشة الصالحين

الطيبين ، وإن تفضل الله عليه بمال قام بحقه ، ووضعه فى محابه فكسب بذلك جزاء المجاهدين ، وأجر العاملين ؟

هذا حسن ولكن النفس طبعت على تطلب المال ، وأمانيها من هذه الناحية لا تقف عند حد . وقديما قال الشاعر :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

كلام طيب وجميل ، ولكن يجب ألا تجرى وراء الخيال ، فالأمانى بضائع الموتى وصفقات الأخسرين أعمالا ، فلا تؤذى الروح بالترهات الباطلة ، فليس كل أمل يتحقق ، فلا تتخيل ثراء كاذبا يزدهيك سرابه ، ولاتتوهم زخرفا باطلا يخدعك حبابه ، لاتبن قصورا فى الهواء ، وتشيد آمالا فى الجواء ، ولكن اعمل لتحصيل المال إن اشتهيته من الطرق المشروعة وبإجمال ، فان حصلته فكن واحدا ممن استفاد وأفاد ، وجعل المال ثمنا للثواب ، لا أداة للتردى فى الأقذار ، فان سلكت فى طلبه مسلك الأنانيين فلا مناص من الشحناء ، ولامعدى عن النزاع والبغضاء ، وعشت منغص الضمير ، كدر النفس ، قلق الفكر والبال . فاقنع بما قسم الله ، وارض بالكفاف ، وعش معيشة القانعين الراضين .

إن الله عز وجل بصدد أن يقسم توكيدا لكم ، وتثبيتا ليقينكم ، وتقوية لعقيدتكم ، وربطا للايمان على قلوبكم ، بأن من يصدق بالقرآن والرسالة ، ويعتقد بالبعث والجزاء فى الآخرة ، ثم يصدر عن هذا وقد ركن الى الاحسان والبر ، وعكف على المعروف والخير ، واتخذ نفع الناس ديدنا ، والسعى فى قضاء حوائج الخلق هجيرا وعادة ، يبغى بذلك وجه الله ويريد مرضاته ، بأن يحييه الحياة الطيبة فى هذه العاجلة ، ويجزيه الجزاء الأوفى ، ويثيبه المثوبة الحسنى فى الآخرة . فهل فطن المسلمون لهذه المكرمة ؟ هل فاء السراة لتلك الآية البينة فواسوا الناس بما لهم وجاههم ، وآزروهم فى شدتهم ، وشاركوهم فى السراء والضراء ؟ إن الحياة ممر يعبر ، وسفر قاصد ، وسوق قام ونحن تجار فيه ، فهل خففنا الرحل لنجتاز فى الموعد ؟ هل اكتفينا بقليل المؤنة فى السفر القريب ، وتصرفنا بلباقة لنربح قبل أن ينفض السوق ؟ إننا غرباء أو عابرو سبيل فى هذا الدار ، فهل استوحشنا منها وأخذنا الأهبة لدار القرار ؟

إن الحياة لعب ولهاة ، والدنيا سلم ومرقاة ، فرحم الله امرأ جانب اللهو واللعب ، وابتدر الصعود قبل أن ينكسر السلم وينفصم الدرج . رحم الله امرأ ابتلاه الله بالاقلال فقنع من الدنيا باليسير ورضى بالبلاغ ، وصبر على البلوى وراقب الله فى السر والنجوى ، ووضع نصب عينيه قول الملك القدوس السلام : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » فأصاب النجح فى الدنيا ، وظفر بجزيل الأجر فى العقبى ، وكان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأولئك هم المفلحون ؟

عبد الرحيم الوريدى
واعظ مركز فوه

الحرية الديمقراطية
للمرأة الأوربية

تحت هذا العنوان قرأت اليوم (٢١ فبراير سنة ١٩٣٨) فى جريدة ألمانية Hamburger Zeitung am Mittag هذا الخبر :

« نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية للقوانين فى يوم الأحد ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ قانونا بإلغاء القانون الخاص بمنع المرأة المتزوجة :

(ا) من توقيع أذونات الصرف المالية (الشيكات) .

(ب) من فتحها حسابا جاريا فى أى بنك من البنوك .

(ج) من توقيع أى عقد مالى .

(د) من استيلائها على الإرث مباشرة بدون إذن القاضى فى ذلك كله » .

لم يدهشنى هذا الخبر دهشتى لو بقيت بمصر ولم تسنح لى الفرصة لتعرف أحوال البلاد الغربية ودراسة الحالة الاجتماعية للمرأة الأوربية على الخصوص ، لأن الصورة التى فى ذهن الشرقى عن أوربا صورة مبالغ فيها نحو ناحية الكمال والرقى الانسانى ، بفضل الدعاية الثقافية والأدبية التى تقوم بها الأفلام السينمائية ، ومدارس الإرساليات الأجنبية ، والنشرات والكتب التى تحمل طابع البحث العلمى .

عن هذا التصوير المبالغ فيه يود كل شرقى أن يكون أوربياً ، أوعلى الأقل يحاول أن يظهر بمظهر أوربى . كما ترغب المرأة الشرقية وخصوصاً المصرية فى أن تحمل طابع المرأة الغربية مهما كلفها ذلك من مجافاة لعادات وطنها ، وإسراف فى تقليد « مثالها » (Ideal)

عن هذا التصوير يتجلى الخضوع الأعمى فى الشرق لسيادة الأوربى ، ويتبين بوضوح تكالف العناء والتضحية بالقومية فى اتباع مشورة الوصى الغربى .

إن مدنية أوربا مرتكزة على المادة وثقافتها ، للوصول الى المادة . فمدنيتها تتمثل فى المخترعات الهندسية والكيماوية ، وثقافتها فى تعليم بسطة السلطان وسياسة الاستعمار . مدنيتها القوة الحربية ، وثقافتها التبشير الروحى ، وأبحاثها العلمية تصوير الأمم الضعيفة بصورة مشوهة كى يكون هناك محل للنداء « بوجوب تمدين الشعوب غير الناضجة فى السياسة والادارة » .

وهذه المدنية المادية من أكبر عوامل انتشار المذهب الخلق النفعي ، وتربية الشعور الأنانى (Egoism) ليس فقط تجاه الشعوب غير الأوربية ، وإنما فيما بين أمم الغرب أنفسها ، بل فيما بين أفراد الأمة الواحدة منها . وكلما تمكنت المادية من هذه المدنية وقوى هذا الشعور الأنانى ، ضعفت القضايا الخلقية الروحية ، وقلت قيمتها العلمية ، وأصبحت ، فقط ، أداة للدعاية بين الشعوب الضعيفة أو الفطرية ، باسم « الانسانية » وحملها على الاستسلام باسم « الأخوة فى الانسانية » . ولذلك كان أضعف الشعوب وأزهدها فى السلطان ، كالشعوب الهندية ، هو المعتنق لهذه المذاهب الروحية بأمانة وإخلاص .

عن هذا الشعور الأنانى تأسست علاقة الرجل بالمرأة فى أوربا ، وهى أقرب الى علاقة مادية منها الى علاقة نفسية روحية . ففى انكلترا الى الآن ، وفى فرنسا لغاية تاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ تمنع المرأة المتزوجة من التصرف فى شئونها المالية الخاصة بها ، ويمتد سلطان الرجل وقوامته عليها الى ناحيتها الاقتصادية المادية ، بينما لا يحرم القانون ، بل قد تمنعه العادة (١) حسبما يكون منشأ المرأة فى الحياة الاجتماعية ، أن تتخذ الزوجة صديقاً لها ، كما يتخذ الزوج صديقة له .

لا تمنع المرأة فقط من التصرف فى أمورها الاقتصادية ، بل عليها بحكم العرف ، والعرف قانون ، أن تؤسس لخطيبها بيت الأسرة المقبلة التى ستتكون منها مبدئياً . ولهذا لا يفهم الأوربى المادى ما فرضه الاسلام على الرجل من صداق لزوجته ، ويحاول أن يصور المرأة المسلمة بالسلعة القابلة للبيع والشراء ، ولا يستحيي حتى فيما يسميه أبحاثاً علمية ، أو فيما تطلع به الجرائد اليومية على الرأى العام ، من تسمية المهر فى الاسلام « ثمن شراء » (Kaufpreis)

لا يود أن يفهم الأوربى أن المهر هو نصيب الرجل فى بناء الحياة البيتية ، وأن هذا الالتزام من جانبه وحده ، لما فرض له من قوامته على المرأة ، ولما فرض فيه بحكم الطبيعة من أنه المكافح فى الحياة . فكون المرأة فى أوربا هى التى تتحمل تأسيس الأسرة وحدها ، قلب للوضع الطبيعى ، وأشبه شىء بوسيلة مغرية للرجل على زواجها ، كأن طبيعة الأنوثة فيها غير كافية للإغراء ، وكأن الرجل لا يشعر فى طبيعته بالحاجة الملحة الى المرأة لسد هذا النقص فيه حتى تستمر سنة الكون فى البناء والتجديد فى حياة البشر الاجتماعية ! ولكنه المذهب المادى الذى قارب أن يحوّل ما بقى فى نفوسهم من شعور إلى غرائز لا يكون للارادة عليها سبيل .

الاسلام حجر على المرأة ولكن فى التصرف فى عفافها وخلقها ، وأباح لها فى جانب ذلك

(١) فى الطبقات المتوسطة لا تقل المرأة الغربية فى المحافظة على الطهر والعفاف الخلق والتعلق بالقديم عن نظيرتها فى البيئات الشرقية .

التصرف فى مالها . هو لم يحجر عليها فى الواقع وإنما ألزمها برعاية حقوق قرينها فيما كان سبب الزواج ، وفيما المحافظة عليه سبب سعادة الحياة الزوجية . لم يبح لها وإنما اعتد باستقلالها ، وأكد لها هذا الاستقلال فيما بعد اقترانها ، فى الوقت الذى هو مظنة التبعية ، والذى هو فى الواقع مبدأ التبعية فى حياة المرأة الزوجية فى الأمم التى تدعى أنها منبع الديمقراطية ، وأنها رسل الحرية فى الشعوب التى تبيح الاتجار بالرقيق ، أوتبيح الأسر والرق باعتبار أنه تدبير من تدبير الحرب المشروعة .

إذا كان إطلاق التصرف المالى للمرأة هو الحرية الديمقراطية النسوية فى القرن العشرين ، فللمرأة المسلمة أن تعتز بتمتعها بهذه الديمقراطية منذ القرن السابع الميلادى . وإذا كانت قوامة الرجل الأوربى على المرأة ، فى شئونها المالية ، فليفخر الرجل المسلم بأن قوامته على زوجته فيما يصون عليها شرفها وكرامتها . وإذا عدت أوربا مبدأ التبعية والحجر على المرأة فى تصرفها المالى ظاهرة من ظواهر المدنية ، فليعتز الشرق الاسلامى بجعل مبدأ الأسر فى الحرب من أسباب ضمان الظفر والنصر الذى لا يلبث أن يتبعه الترغيب فى العتق ثانية ، وجعله غاية أنواع الكفارة عن ارتكاب أشد أنواع الإجرام مقتا عند الله وعند الناس .

المادية والروحية مذهبان متقابلان ، وكلما غلت أوربا فى المادية تراءى لها الحق فى القوة وتمثل لها الظلم عدلا . كذلك كلما غلا الشرق فى الروحية تراءت له الحياة الحقة فى الزهد والتواكل والاستسلام . أما المذهب الخيار فهو مذهب الاعتداد بالنفس ، والمحافظة على السلطان واتباع العدل فيه ، هو المذهب القائل :

(ا) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . . » والقائل أيضا :

(ب) « ولا يظلم ربك أحدا . . . » ؟

محمد البهى

دكتور فى الفلسفة وعلم النفس

وعضو بعثة تخليد ذكرى الأستاذ الامام محمد عبده



نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفنا بالقارئ فى البحث السابق عند الكلام عن مشروعية الوقف فى الشريعة الاسلامية ، وكيف أنه نظام صالح قصد به الى ترفيه نوع من العيش عن فئة فقيرة كفاها ذلّ السؤال ورقة الحال ، وكيف أن هذا النظام قد أخذ به كثير من الأمم المسيحية ، فحبس نوعا من العقار على فئات من ذوى الخصاصة ، واشترط بقاء تلك الحبوس بقاء مؤبدا لتظل غلته متلاحقة الأثر على من حبست عليهم أعيانها .

والآن نحاول فى شىء من البسط أن نعرض للعقار الموقوف وما لحقه من الأشجار والزروع المتنوعة ومدى الفرق بينها وبين المنقول ، وهل هى تابعة للعقار فى حكم الوقف أو غير تابعة ؟ وهل المنقول يدخل فى ذلك الحكم أو لا يدخل ؟ والكلام مستفيض فى هذا البحث الطريف بين الأئمة المشترعين والاعلام المحققين .

فما تواضع عليه علماء الفروع أن العقار هو الأرض سواء أكان عليها بناء أم لا ، وذلك شامل للأرض الفضاء المعدة للزراعة أو للبناء ، كما يشمل الدور والحوانيت والمصانع ، وهذا من غير خلاف صحيح الوقف متى كان مستوفيا لشرائطه التى أفضنا عنها الكلام فى بحوثنا السابقة . فيدخل فى وقف العقار بطريق التبع من غير تنصيص عليه كل ما يدخل فى بيعه وإجارته ، وهذا هو الضابط الشامل ، الذى وضعه الفقهاء لالحاق ما لا ينص عليه بما نص عليه فى حكم الوقف .

نقل صاحب الفتاوى الهندية : « أن الواقف إذا وقف أرضا مملوكة له دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه إذا كان الشجر من نوع يمكث فى الارض لأكثر من عام ، بحيث إنه يصبح موقوفا تبعاً لوقف ذلك العقار وإن لم ينص عليه الواقف فى إشهاده . ويدخل فى ذلك أيضا الطريق العام الموصل الى تلك الأرض والماء الموجود بها ، لأن غلة تلك العين لا يمكن استثمارها إلا بواسطة ذلك الماء المستقر فى الأرض الموقوفة وقت وقفها ، ولأن الطريق الموصل اليها ضرورى الاتصال بها فلا يمكن إلا أن يكون تابعاً لها فى وقفها ، وذلك ظاهر فى الاجارة بدون نص على المياه وعلى المساقى الموجودة فى الأرض المؤجرة » اه

وعلى هذا النظام جرت المحاكم الشرعية ، فصدرت منها عدة أحكام تحدد ذلك الاتجاه ، وتبين مدى تبعية مالم ينص عليه مما هو ضرورى للأعيان الموقوفة .

وعلى الجملة فان الواقف إذا وقف ضيعته لحق بها فى الوقف ما كان متصلا ببقائها واستثمارها ، وسبباً من أسباب نمائها وتأبدها : كرحى الماء والدواليب والآلات البخارية

التى توصـل اليها المـاء . ويتفرع على ذلك الاتجاه تفريع اخر وهـو أنه لا يلحق بالأرض الموقوفة ما بها من زرع وقت وقفها ، وهو ما لايمكث فى الأرض لأكثر من سنة : كالقمح والشعير والقطن سواء كان ذلك الموجود قيميا أم غير قيمى . ويدخل فى ذلك الثمر الموجود على الشجر وقت الوقف ، سواء أكان مما يؤكل كالعنب والبرقـوق ، أم لا كالورد والياسمين ، بل يبقى كل ذلك ملـكا للواقف دون إلحاق بالأرض الموقوفة . فلو قال الواقف : وقفت هـذه الأرض بجميع ما فيها من المرافق وما يخرج منها ، وكان بالأرض زرع أو على الشجر الموقوف ثمر وقت الوقف ، فهـذا النوع من الوقف على رأيين عند العلماء : فذهب بعضهم الى أن الثمرة تـكون للواقف ولا تلحق بالأرض الموقوفة قياسا ، ويلزم الواقف التصدق بها على الفقراء على وجه النذر لا على وجه الوقف استحسانا . وذهب البعض الآخر : الى أن الثمرة الموجـودة على الشجر يوم الوقف داخـلة فى الارض الموقوفة ، ليسير قصـد الواقف على نسق واحد ، وليكون عمله فى هذا الخير أوفى غاية وأبلغ قصدا . وحجة الأولين أن الواقف لمـا قال أرضى صدقة موقوفة فقـد أوجب على نفسه الصدقة المستفادة من غاية الوقف ومدلوله ، فيلزمه التصدق بالثمرة الموجودة على الشجر يوم الوقف .

ونقل صاحب الاسعاف عن العلامة الناطفى أن ثمرة الشجر ملحقة بالأرض الموقوفة فيكون حكمها حكم الثمرة التى تنبت بعد الوقف ، وعليه تصرف فى الوجـوه التى سماها الواقف لأنها من غلة الوقف . وأنت خبير بأن الخلاف بين العلماء على إلحاق ثمر الأشجار بالأعيان الموقوفة وقت الوقف أوعدم إلحاقه ، خلاف شكلى ؛ ضرورة أن الوقف صدقة وأن الواقف يوم وقف ضيعته وبها أشجار عليها ثمار لم يكن غرضه إلا أن يخرج منها لله ولرسوله ولفقراء المؤمنين ، فتوجيهها الى الصدقة أو الى الوقف توجيه يقصد به منفعة الفقراء سواء أكانت داخلة فى الوقف أم غير داخلة .

وحكم الثمار على أحـد الرأيين حكم المواشى والمحاريث والنوارج وما اليها من المنقولات المستعملة فى الزراعة وليست متصلة بالأرض اتصال ثبات وقرار . لـكن نقل العلامة صاحب البدائع وصاحب الاسعاف أن الواقف إذا ذكر هذه الأشياء فى إشهاد وقفه وقع وقفها عند الصاحبين صحيحا ، فعند أبى يوسف لأن المواشى والمحاريث والنوارج وما اليها تابعة للأرض فى إنماء ثروتها واستنبات غلتها وإعدادها للتداول بين الناس واستثمارها والانتفاع بها . وقد يصح من الأحكام تبعا ما لا يصح قصدا وهذا أولى وجوه التبعية لمـا تقدم . وعند محمد رضى الله عنه لأن مذهبه يجـيز وقف المنقول استقلالا ، فأولى أن يجـيزه تبعا للعقار إذا كان من مقوماته وسببا أوليا فى إصلاحه وإعداده للاستغلال والانتفاع اهـ .

فاذا تقادم العهد بها وأصبحت غـير صالحة لتداولها فيما أعدت له بيعت واشترى بثمنها

ما يسد كفاية العين الموقوفة على نمط سابقتها ، فان لم يكن ثمنها كافيا للوفاء بإعدادها كملت من غلة الوقف بحيث تصبح قادرة على أداء مهمتها حتى ولو لم يشترط الواقف ذلك لتحقق ضرورة وجودها كجزء غير منفصل عنها . وقضاء المحاكم الشرعية يفسر ذلك الاتجاه ، وهو ما نشاهده فى كل مناسبة من هذا النوع . واستثنى العلماء من ذلك نوعا آخر وهو ما إذا جعلت الأرض مقبرة فلا يدخل فيها الشجر والبناء ولا موضعهما ، بل يكون ذلك ملكا للواقف ولورثته من بعده . ذلك لأن موضع الشجر والبناء يوم الوقف كان مشغولا بهما فلا يمكن وقف تلك الأرض المشغولة ضرورة أنها غير صالحة لوقفها ، والوقف إنما يقع صحيحا إذا تحققت شرائط صحته ، وليس هذا منها .

غير أن العلماء بعد ذلك حكوا عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه منع الوقف فى المنقول سواء كان الوقف له استقلالا أو تابعا للعقار فى بعض صوره السابقة ، وسواء جرى العرف بوقفه أم لا . وحجة أبى حنيفة فى المنع أن الشرط فى الوقف أن يكون الموقوف متأبد البقاء ، والمنقول لا تأبد فيه ، وذلك يجرى منه مجرى القياس . فبالقياس أخذ أبوحنيفة ، ونحا الصاحبان نحو وقوع الوقف وجوازه وصحته فى المنقول تبعا واستقلالا ، فأما تبعا فقد مر عن أبى يوسف ومحمد رضى الله عنهما تجويزه تبعا للأرض الموقوفة فى المواشى والمحاريث والنوارج وما إليها ، لأن غلة الأرض لا تتأدى كاملة بدونها . وأما استقلالا فلورود النص بوقوعه فى السلاح والكراع ، فقد وقف خالد بن الوليد رضى الله عنه دروعا له فى سبيل الله . وحبس طلحة رضى الله عنه سلاحه وكراعه فى سبيل الله ، وحين علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أجازه إجازة مطلقة . فسند الصاحبين فى ذلك التجويز النص ، والنص مما يترك به القياس كما لا يخفى على المطلعين .

ثم اختلف الأئمة بعد فيما وراء ذلك ، فمنع أبو يوسف وقف المنقول استقلالا منعا مطردا إذا استثنينا واقعتى طلحة وخالد بن الوليد استنادا الى رأيه المعروف وحجته المشهورة . وفصل محمد بين ما جرى العرف فيه بوقف المنقول وبين ما لم يجر ، فما جرى به العرف فى وقفه استقلالا من المنقولات كالقدوم والفأس والمنشار ، والثياب التى يغطى بها الميت والجنازة والقدور والأوانى التى يحتاج اليها فى غسل الموتى ، صح وقفه . وما لم يجر العرف بوقفه كالمهيء للاطعام وكالثياب والأمتعة من الفراش والبسط والحصر لغير المساجد والاوانى المستعملة لانتفاع الاحياء بها لايصح وقفه ، لان التعامل مما يترك به القياس فمنزلته والحالة هذه فى منزلة النص على عدم جوازها .

يبقى بعد ذلك أن العلامة صاحب الفتاوى الهندية والعلامة صاحب الاسعاف نقلا أن المعتبر من العرف عرف إقليم الواقف فى عصر وقفه ، ويتفرع على ذلك الاتجاه أنه لو تعارف قوم

وقف الدنانير والدراهم والمكيلات والموزونات والأكيسة للفقراء والمعوزين ، أو تعارفوا وقف بقرة أو أبقار أو نحوها على أن ما خرج منها من سمن ولبن وغيرها فهو للفقراء صح وقفه فى رأى محمد رضى الله عنه ، فتدفع الدراهم والدنانير فى الصورة السابقة بضاعة أومضاربة وحينئذ يصرف ربحها على الجهة التى سماها الواقف فى كتاب وقفه ، أو يشترى بها عقار إن أمكن ثم يجعل وقفا على تلك الجهة ، وتباع المكيلات والموزونات فى بعض الصور السابقة ثم يفعل بها ما فعل بالدراهم والدنانير بحيث يكون مصير الكل واحدا يؤدى الى نوع من أنواع البر والمعونة .

وعلى هذه الطريقة يجوز دفع الحب الى من ليس عنده حب من الفقراء ليزرعه ، ثم بعد الحصد يؤتى بمثله الى جهة العين الموقوفة ثم يعطى الى غيره على النحو السابق .

ويدخل فى ذلك الترخيص ما إذا تعورف بين قوم فى عصر من العصور إقراض الدراهم والدنانير إقراضا حسنا الى المحتاجين على أن يردوها الى جهة الوقف لتبقى متداولة بين الجميع .

وحكى محمد رضى الله عنه جواز وقف المصاحف والكتب على المساجد والمدارس لطلبة العلم لجريان العرف بذلك . فلو وقف الواقف مصاحف للقراءة فى مسجد معين جاز للمترددين على ذلك المسجد أن يتلوا فيها القرآن أغنياء كانوا أو فقراء ، وهكذا يظلون مترددين عليه حتى يدركه العفاء ويصبح منهار البناء وإذ ذاك تنقل تلك المصاحف الى مسجد يكون قريبا من تلك الجهة . أما إذا وقف الواقف كتبه على مدرسة بعينها وأعد لها خزانة كان الانتفاع بها قاصرا على طلاب تلك المدرسة وعلمائها ومن اليهم ، وليس لهم فى هذه الحالة نقلها من محلها إلا إذا أمر من له الولاية العامة كالقاضى فى ذلك العصر أو من فى حكمه بنقلها إذا عرضت ضرورة ملحة تبرر ذلك النقل ، وليس لهم أن يحتجنوا هذه الكتب لأنفسهم يتداولونها كل على قدر ما وصلت اليه يده ، ومعلوم أن الولاية العامة القضائية من حقها تفسير شروط الواقفين ، وتخصيصها إذا كانت عامة وتقييدها إذا كانت مطلقة ، وتفصيلها إذا كانت مجملة . وعلى الجملة لها الحق فى تحديد أغراض الواقفين وردها الى المصلحة من هذا الانشاء وتأبده وبقائه قائما يؤدى الى جماعة من جماعات الانسان نوعا من أنواع البر والفضيلة ، فرجوع الامام محمد الى العرف رجوع الى ما يساوى النص فى مدلوله .

وإذا وقف الواقف كتبا على طلبة العلم وعين لها مكانا خاصا وضعها فيه فلكل طالب علم أن ينتفع بها فقيرا كان أو غنيا لاستوائهما فى الحاجة الى الانتفاع بالكتب وتنوع أغراضهم ومقاصدهم تبعا للعلوم التى تصبو إليها نفوسهم ، وليس من الضرورى أن كل غنى يجد كل كتاب يحتاجه ، لكن إذا شرط الواقف ألا تخرج كتبه من ذلك المكان صح شرطه واتبع . أما إذا سكت ولم يشترط عدم نقل الكتب الى خارج المكان الذى وجدت فيه فقد تردد بعضهم

فى جواز النقل . فنقل العلامة صاحب كتاب أنفع الوسائل عدم جواز النقل . ونقل الزيلعى جوازها ، وفصل صاحب ملتقى الأبحر فقال : إذا أمن النقل جاز وإلا منع فيجوز فى رأيه أن ينقلها الطالب أو من له إليها حاجة ، على شريطة أن يحتفظ بها ليردها الى جهة الوقف حتى تبقى متداولة النفع بين روادها ، ويد مستعير الكتب يد أمانة لا يضمن ما أتلفه إلا بالتعدى أو بالتفريط والاهمال ، فان شرط واقف الكتب ألا تعار كتبه إلا بالتذكرة المعروفة فى عصرنا الراهن (بالاستمارة) صح شرطه واتبع ، لأنه يتضمن منفعة للواقف ، ولأن فيه دفعا لمظنة هلاك الموقوف أو تأكله .

وحكى صاحب الدر المختار : لو شرط الواقف ألا تخرج كتبه إلا برهن وقع شرطه باطلا إذا أريد بالرهن مدلوله الشرعى فى باب الرهن لأنها فى يد المستعير أمانة والرهن بالأمانات باطل . ويتفرع على ذلك أن لو أخذ خازن الكتب من المستعير رهنا فتلف فى يده أو هلك لاضمان عليه لأنه رهن باطل والرهن الباطل أمانة فى يد المرتهن .

أما إذا قدم المستعير رهنا على قصد أن يكون ضامناً للكتب المستعارة كان تكون معدومة النظير أوثمينة القيمة أو مشرفة على العفاء فلا خطر فيه ، لأنه يكون رهنا لغويا لاشرعيا ، فإذا جهل قصد الواقف فى اشتراط الرهن حمل على الرهن اللغوى لا على الرهن الفقهى تيسيراً للناس وضمانا لتأبد الموقوف ودوامه وسعة انتشاره .

وجملة القول أن شروط الواقفين قد تكون فى بعض الأحايين منافية لمصلحة الوقف أو لمصلحة المستحقين وقد لا تكون منافية . ومن هذه الناحية جعل الاشراف للولاية القضائية .

فللقاضى تحديد مرامى الواقف وتبيين أغراضه ، بل له بحكم ولايته القضائية أن يلغى بعض الشروط التى قد يشرطها الواقف فى كتاب وقفه منافية لما بدا فى عصر من العصور أن إلغاءه أجدى على الوقف من إبقائه ، ولهذا مثل بارز فى عصرنا الراهن ، فقد طرحت على محكمة طنطا الكلية الشرعية مادة من مواد التصرفات تتعلق بهذا البحث المستفيض مما سنوفيه حقه فى عدد تال إن شاء الله .

عباس طه
المحامى الشرعى

ملخص الأحكام الشرعية :

على المعتمد من مذهب المالكية :

هذا كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ محمد محمد عامر المحامى الشرعى أمام محكمة بنغازى من طرابلس الغرب ، أتى فيه على الأقوال المعتمدة من مذهب الامام مالك رحمه الله . استمده من حواشى وشراح مختصر الامام خليل بن اسحق ومجموع الأمير وشراحه وتحفة الامام أبى بكر ابن عاصم وشراحها ورسالة ابن أبى زيد القيروانى وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد وقوانين ابن جزى وتبصرة ابن فرحون مع وثائق ابن سلمون وفتاوى أخرى للمالكية . وقد بوبه أحسن تبويب ، ورتب مسائله أكمل ترتيب ، وطبعه طبعة متقنة على ورق جيد .

وقد قرظه حضرات المشايخ الاجلاء الاستاذ ابراهيم باكير عضو المحكمة الشرعية ببنغازى سابقا ، ومفتى طرابلس وشيخ المدرسة الاسلامية العليا الأستاذ محمد أبو الاسعاد ، وقاضى طرابلس الاستاذ محمود أبو رخيص . فنرجو لهذا الكتاب القيم أن يحل محله من كل مكتبة يعنى صاحبها بدراسة مذهب الامام مالك رحمه الله .

النحو والنحاة :

بين الأزهر والجامعة .

انتدب حضرة الاستاذ الفاضل ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب لاصلاح النحو ، وباب الاصلاح مفتوح على مصراعيه فى كل زمان لدى كل أمة حية ، فوضع فيه كتابا أسماه (إحياء النحو) نقد فيه أساليب أئمته السابقين ، وخطأهم فى بعض مذاهبهم ، فرأى فضيلة الاستاذ النابه الشيخ محمد احمد عرفة المدرس بكلية الشريعة رأيا مخالفا لأكثر ما ذكره ، فوضع فيه كتابا قال فيه :

« قرأت كتاب — إحياء النحو — فعرفت منه وأنكرت ، وما أنكرت أكثر مما عرفت ، فقد أنكرت منه أن نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ، ونقدها ، وأبان خطلها ، فصور النحاة لقارئى كتابه قوما بلها أو ممرورين يقولون مالا يعقل ، ويفهمون مالا يفهم ، وأنكرت منه أنه انتحل مذاهبهم ، وهجنهم إذ لم يصلوا الى ما وصل إليه ، أى الى مذاهبهم ، وأنكرت منه أنه قعد قواعد فى العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ، ولأفضى ذلك الى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما » .

كتب الأستاذ هذا ثم مضى يتمم ما تصدى له من نقد ذلك الكتاب فى ترتيب غاية فى البراعة ، فبين أولا مقاصد كتاب إحياء النحو ، ثم عقد فصلا فى تحديد معنى النحو

عند النحويين . ثم أتى بخلاصة تتضمن ما عابه المؤلف على النحاة من ذلك . ثم شرع فى نقل أقوال المؤلف ونقدها واحداً واحدا فى نحو ٢٣٠ صفحة مستدلا على صدق مذهبه بالشواهد .

ونحن لم يتسع وقتنا بعد لقراءة الكتابين ، ونرجو أن نوفق الى ذلك ، ولكنا نقول أى فائدة أجل لمريد التوسع فى هذه المطالب الجليلة من الاطلاع على حوار بين رجلين أحدهما يمثل مذهب الأحرار العلميين ، وآخر يمثل مذهب المحافظين ؟

لاجرم أن مطالعة موضوع فى تحقيق مسائل النحو من أشق الأمور على محترفيها ، ولكن قراءته على صورة هذا الحوار يجعله أشبه بقصة مسلية ، وبخاصة لوكان كل من المؤلفين مبدع فى بيانه ، متين فى أسلوبه .

نرى من الحسن وقد وصفنا أحد المؤلفين بالحرية والآخر بالمحافظة أن نبين أن الحرية والمحافظة فى المسائل العلمية لابد منهما كما هو الشأن فى المسائل السياسية ، ولكل منهما طرفان ووسط . فلو ترك الأمر للمحافظين لوقفوا مع كل شأن عند القديم فلا يترقى عما كان عليه ، ولو ترك الأحرار حبلهم على غاربهم لتغيرت أوضاع المسائل تغير الأزياء واختل نظامها التدريجى فخرجت عن حقائقها وبعدت الشقة بينها وبين أصولها الأولية ، وليس هذا ولا ذاك من مصلحة التطور العقلى والعلمى للأمم .

وبعد فان مسالة بقاء القديم على قدمه من علوم العربية أصبح متعذراً فلا بد من إعادة النظر بما يوفق بين منازع الأحرار والمحافظين ويصون جوهر العربية من الجمود ومن الضياع معا . وهذا لا يكون إلا بطرح هذه المسألة على المجمع اللغوى بعد تعديله بتمثيل حزب المحافظين والأحرار فيه تمثيلا كاملا .

تحقيق مبادئ العلوم الأحد عشر :

للعلامة الشيخ على رجب الصالحى .

هذه رسالة ممتعة وضعها الأستاذ العلامة الشيخ على رجب الصالحى رحمه الله تعالى فى تحقيق مبادئ العلوم الأحد عشر ، وهى المنطق وعلم الكلام والأصول والفقه والمعانى والبيان والبديع والنحو والتصريف والتفسير والحديث . وقد أجمل رحمه الله كل هذه المعلومات القيمة فى نحو تسعين صفحة ، وقد أجاد فيها إجادة العالم المحقق ، فمن أراد معرفة مبادئ هذه العلوم فى بيان شاف خال من التعقيد وجد من هذه الرسالة خير هاد له فيما هو بسبيله وقلما يحصل على مثل هذه الثمرة من كتبها المطولة . فنثنى على همة نجله فضيلة الأستاذ الشيخ محمود الصالحى أمين دار الكتب فى كلية الشريعة فى طبع هذه الذخيرة للمرة الثانية .

احتفال الأزهر بعيد الجلوس

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يرتجل خطبة بليغة

يسرد فيها بعض مآثر حضرة صاحب الجلالة الملك

يحق للأمة المصرية أن تتخذ يوم جلوس حضرة صاحب الجلالة الفاروق عيدا من أجل أعيادها ، فلقد نالت على عهده أعز أمنية لها وهى الاستقلال التام ، وآنست من يمن نقيبته ، وسمو نفسيته ، ورجاحة عقله ، وجمال خلاله ، أكمل ما يُرَجَّى من ملك تتخذه أمة مثلا أعلى لها فى سيرتها ووطنيتها . فلا غرو إن جعلت من يوم جلوسه عيدا عاما لها ، تظهر فيه من آيات الولاء لذاته المحبوبة ، وعرشه المفدى ، أجل ما تستطيع أمة إظهاره فى أى عيد من أعيادها الوطنية . ولولا أنه حفظه الله رأى رحمة برعيته أن لا يتكلف الناس إقامة معالم الزينات ، للبست عواصم هذه البلاد أجمل حلة من الأنوار فى تلك الليلة السعيدة . على أن ما تكنه القلوب لجلالته من الحب الخالص ، والولاء الصادق ، قد أشرق فى تلك الليلة على الوجوه فاستنارت بنور معنوى ، نعمت به القلوب والبصائر ، فكان ذلك أهنأ لها من أنوار تلهى الأبصار وتصرفها عن شهود هذا الروح المتدفق .

وإن هذه المجلة التى تنطق بلسان الأزهر ، وتعبر عن صميم وجدانه ، تزف الى الحضرة الملكية العلية واجبات التهنئة ، راجية الله عز وجل أن يعيد هذا العيد الكريم على صاحبه وعلى الأمة المصرية حافلا بما حفل به هذا العام من الدعوات الصادقة بحفظ حضرة صاحب الجلالة مؤيدا فى ملكه ، موفقا فى حكمه ، محبوبا من شعبه بمنه وكرمه !

محمد فريد وجدى

احتفال الأزهر :

احتفالا بهذا العيد الملكى الميمون وجه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، دعوة عامة الى الناس كافة ، فما وافت الساعة الثامنة حتى كان المسجد الجامع يموج بألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والموظفين والطلاب ، يتدافعون بالمناكب لشهود الاحتفال ، وما مضت دقائق حتى شعر الحاضرون بقدوم الأستاذ الامام ، فخف لاستقبال فضيلته جماهير غفيرة من الناس، فدخل المسجد تحف به القلوب والأبصار، وما مضت خمس عشرة دقيقة بعد الساعة الثامنة حتى بدأت الحفلة بتلاوة آيات من الكتاب

الكريم . ولما أتمها القارئ شخصت العيون الى فضيلة الأستاذ الأكبر تشوفا منهم لسماع ماتعودوا سماعه منه فى أمثال هذه الأعيادالكريمة من الكلم النوابغ ، وماهى إلا هنيةحتى نهض فضيلته وارتجل خطبة بليغة ، حلاها بصوته المتزن ، وعباراته البليغة ، وبيانه الأخاذ ، ساردا من محامد جلالة الملك العظيم ما وعته القلوب قبل العقول ، مشيدا بذكر مآثره العظيمة على الأزهر والأزهريين مما خلد له أبقى أثر فى تاريخه . ثم قال فضيلته :

« مضى حول كامل كله خير وبركة منذ تبوؤ حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول — أعزه الله — عرش ملكه السعيد .

« ولقد علمتم فى هذا العام آثارا كثيرة أظهركم عليها حضرة صاحب الجلالة ، وعرفتم منها ما يكنه قلبه الكبير ، وما تنطوى عليه نفسه الكريمة ، من الخلال الحميدة المجيدة .

« وأظهر هذه المآثر التى أحدثكم عنها الليلة — ومآثر جلالته كلها على سياق واحد من الجلال والروعة والكمال — هى حبه للعلم والدين ، وحبه لوطنه وبلاده ، وحبه لرعيته ، وإحسانه ، وبره بالفقراء ، والضعفاء

« أما حبه للعلم والدين ، فقد دلت عليه أشياء كثيرة تعرفونها ، أيسرها عطف جلالته على بعثات الصين والبلقان التى وفدت على الأزهر لتتزود من معارف الاسلام فيه ، فقد شملها جلالته برعايته وإحسانه ، الى جانب ما تعلمون من كريم حدبه على الأزهر ، وبره به ، حين تفضل جلالته فأمر بفرشه بفاخر السجاد ، وحين أمر أن يكون أديمه من نادر الرخام .

« ولقد سمعت من جلالته أثناء تشرفى بلقائه ، حديثا طويلا جليلا عن تعلقه بالعلم والعلماء ، وعن حدبه عليهم ، وإرادته الخير لهم ، فقد قال جلالته حفظه الله : إنه يرغب أن يكون أهل العلم فى مصر ، وفى مقدمتهم طلبة الأزهر الشريف ، حريصين على دروسهم وعلى تفهم دينهم ، مقدرين المسئولية الملقاة على عواتقهم ، متحلين بأخلاق نبيهم الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

« وأما حبه لرعيته فانكم ترون مقدار تعلق البلاد جميعها بجلالته ، ومقدار الحب الذى توليه الرعية له . هذا الحب يقابله أيها الاخوان حب من جلالته لرعيته ، وإنه لحب لو تعلمون عظيم . وأما إعزازه لبلاده ، وحبه لرفعة شأنها ، وعلو مكانتها ، فهو حب يملك على جلالته كل قلبه ، فجلالته حفظه الله يرى أن أهم شىء يريد أن يحققه هو أن تكون البلاد عزيزة الجانب ، قوية بطائفة من النبغاء . نعم ، وجلالته يريد أن يرى بين المصريين نوابغهم فى الدين ، وفى الهندسة ، وفى الطب ، وفى القانون ، وفى الآداب ، وفى كل مايتصل بميادين النشاط العسكرى والعملى فى هذا العصر . يريد جلالته أن يرى النوابغ بين رعاياه لأنهم عنوان البلاد ؛ ومجد البلاد هو الأمل الواحد لجلالته ، والعمل الواحد الذى ينفق فيه جهوداً لا قدرة لغيره على بذلها راضيا مغتبطا ولو رأيتم أنه حضر بنفسه حفلات كثيرة للجيش ، وأنه يولى هذا الجيش كبير عنايته ، لأخذتم من ذلك أقطع الأدلة على عميق حبه لوطنه ، وجليل عمله فى سبيل إعزازه .

« وأما بره وإحسانه، فقد سمعتم كما قرأتم من أنبائه الشيء الكثير، ولكن الذى لم تسمعوه أو تقرءوه أجزل وأكثر، فعاطفة الخير مستولية على جلالته، وإرضاء هذه العاطفة لا يكون إلا بالبذل، وهذه العاطفة هى الحلية التى يجب أن يتحلى بها كل ملك. ولكن بعض الملوك نفروا منها، وجلالته لم ينفر منها، فهى عنده من أحسن الحلية، وأحسن الزينة.

« ولقد رأيتم من تواضعه، ومن احترامه للدين، كيف كان يحضر الدروس الدينية فى رمضان، ويجلس لسماعها كما يجلس أى أحد من رعاياه. وهذه سنة جديدة سيكون لجلالته أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة.

« ولعلكم سمعتم أن مواظبة جلالته على صلاة الجمعة، وتأدية شعائر الدين، كان لهما أبلغ الأثر فى توجيه الشباب الى العناية بالدين وشعائره. فاسمحوا لى أن أقول لكم بأن هذا الأثر النافع لم يتناول الشبان وحدهم، وإنما تناول الفتيات والسيدات اللواتى اقتدين بجلالته فى حق الدين، والانصراف الى طاعة الله ورسوله.

« وبعد: فنى مقدورى أن أطيل معكم الحديث عن جلالته فيما أعرف وتعرفون من كريم خصاله، وسديد أعماله، ولكنى أكتفى الآن بهذا سائلا الله العلى القادر أن يديم على جلالته نعمة الايمان والاسلام، ونعمة المحافظة على محبته لشعبه، وإعزازه لوطنه، وبره بالضعفاء والمساكين، وأن يجعل من عيد الأمة بيوم اعتلائه عرشها، صفحة جديدة فى يسرها ورخائها وسعادتها » !

قصيدة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان المدرس بكلية اللغة العربية

أخملتْ أنعمُ المليك خيالى ... ليت شعرى، ماذا يكون مقالى؟
ياحماة الاسلام فى أى شرع ... أن تجيزوا تكليفنا بالمحال؟
أى شيء فى مصر لم يك شعرا ... قومتْ نظمَه سموطُ اللآلى؟
يتراءى الجلال فيه، الى الفن الى كل ساحر من جمال
صور أبدعت يد الله فيها ... فوق ما أبدعت يد المثّال

***

زعموا مطلع الكواكب فى الأفـ ... ـق فما هذه الشموس العوالى؟
تخذتْ من مهابط النيل آفا ... قا، وجالت فى القطر كل مجال
علها أقبلت تساهم فى العيـ ... ـد، وقامت بحفلة استقبال
لا تقولوا: أثارة من خيال ... ليس هذا العيان طيف خيال
لجلوس « الفاروق » أسعد عيد ... صار فى الدهر مضرب الأمثال

***

ملك طابت الحياة بدنيـ　ـاه ، ودانت شواهق الآمال
وجرى طيره سُعودا على الديـ　ـن ، وعاد الزمان فى إقبال
صالحاتٌ تسمو الى صالحات　ونوال يفيض إثر نوال
حين أعيت بلاغة القول عنـه　صـوّرته بلاغة الأفعـال

***

ياشبيه الفاروق فى الاسم والعقـ　ـل ، وفى الحزم والهدى والجلال
ذكّـرتْنا خلالك الغر عهـدا　كان للدين عهـد الاسـتقلال
فقرأنا فى الفعـل خـير مثـال　واجتلينا فى الاسم أصدق فال
وارتقبنا يوما أطل سعيدا　يشغل الـكونَ مجدُه والليـالى

***

هتف الأزهر الشريف ، وماالأز　هر إلا إرادة المتعـالى :
« عش لمجد الاسلام يابن فؤاد　يمـلأُ الشرق نورك المتـلالى »

احتفال الازهر بالمولد النبوى :

احتفل الأزهر المعمور بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسـلم ، فأضيء لذلك وجها الجامع والادارة العامة بالأنوار الـكهربائية الساطعة ، وأم المسجد ألوف من الطلبة والعلماء الأعلام . يتقدمهم معالى وزير الأوقاف وأصحاب الفضيلة شـيوخ الـكليات ومدرسوها ، وكان الناس يتشوفون لسماع كلة من الـكلمات الجامعة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فاتفق أن فضيلته كان متعبا فلم يستطع تولى رئاسة الاحتفال ، فقام مقامه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ ابراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية فألقى كلة بديعةفى مناقب النبى صلى الله عليه وسـلم وختمها بالدعاء لحضرة صاحب الجـلالة الملك فاروق الأول قوبلت من الحاضرين باستحسان عظيم وتقدير كبير .

وألقى بعده صاحبا الفضيلة الأستاذان الشيخ عبد الجواد رمضان والشيخ ابراهيم بديوى قصيدتين عصماوين قوبلتا بالإعجاب العظيم ، ختماها بالدعاء أيضا لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق صاحب المـآثر الجلى على الأزهر والأزهريين .

ومجلة الأزهر ترجو الله أن يعيد هذه الذكرى الـكريمة على الشعوب الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها وهى مرفوعة الأعلام ، عزيزة لا ترام ، بفضل الله وكرمه .

ذكرى المولد النبوى الكريم

عوامل الخلود فى الديانة الاسلامية :

كلما حال الحول ، وأهل هلال ربيع الأول ، دعانا من صميم القلب داع للقيام بما يجب علينا للروح المحمـدية الشريفة ، من الاشادة بذكرها ، والتنويه بها ، وفاء ببعض حقها علينا وعلى الانسانية كلها . أما علينا فيما أفدناه من عقائد صحيحة ، وآداب سامية ، وأغراض كريمة ، وزعامة فى الأرض لم تَـنْـبَـغِ لأمة قبلنا . فان كان قد أصابنـا فى العهد الأخير قَـرْح فقد أصاب جميع الأمم قرح مثله ، وسيندمل إن شاء الله ونصبح أكثر مما كنا صحة وقوة ، وأبقى ضلاعةوفتوة . وأما حقها على الناس فيما نشرته من العلم والحرية فى آفاق المعمور ، رفعت به حجبا عن قلوب غُـلـف ، وأعين عمى ، وعقول غُـفـل ، وما ألقته من النور على العقائد والتقاليد ، وعلى الحق والباطل ، وعلى الخير والشر ، وعلى العدل والظلم ، استنارت به نفوس كادت تصير أشباحا من كثرة ما أحيطت به من سُـدف الأوهام ، وكِسَـف الأهواء ، فاستطاعت أن تلقى عن عواتقها أنيارا ، وعن كواهلها آصارا ، وتخلع من أعناقها أغـلالا ، وعن أرجلها أصفادا ، فخلصت بذلك الانسانية من غياهب متراكبة طال عليها الأمد فيهـا حتى كادت ترتكس الى البهيمية الباحتة .

ليس فى تاريخ الملل والنحل والمذاهب ما يدل على أن رجلامهما سمت عبقريته ، وارتقت ألمعيته ، أتى بدستور عام للحياة البشرية فى جميع نواحيها الدينية والأدبية والاجتماعية ، اعتبر صالحا لـكل زمان ومكان ، لا يعتريه تبدل ، ولايتحيفه تنقص ، غير محمد خاتم المرسلين صلى الله عليـه وسـلم .

هنا قد يقول قائل : أما أنه أتى بدستور عام للحياة فصحيح لايمكن المراء فيه ، وقد أتى كل مصلح قبله وبعده بدستور عام كذلك ، ولـكن القطع بأن ذلك الدستور يصلح لـكل زمان ومكان ، لا يعتريه تبدل ، فما لا يمكن التسليم به ، لأن كل تجديد يأتى مناسبا للزمان الذى حدث فيه ، ويبقى مابقى التناسب بينه وبين الأحوال المحيطة به ، ومتى بطل هـذا التناسب أصبح عتيقا لا يكفى حاجة أصحابه ، فتضطرهم الحياة لتلمس دستور أوسع منه دائرة ، وأكثر مناسبة ، ثم لا يلبث هو أيضا أن يدركه القصور عن شمول الطوارىء الجديدة ، فيُـوَسَّـع أويُـؤخذ بغيره ، فإصراركم على هذه الدعوى ، وخاصةفى هذا العصر ، عصر التطورات السريعة ، أمر لا يمكن التسليم به مهما موهتموه بالزخارف الـكلامية ، وضروب الخِـلابات الخطابية .

فنقول لهؤلاء : الأمر أهون مما تظنون ، فان الدستور الاسلامى لم يكن خالدا وصالحا لكل أمة فى كل زمان ومكان لأنه أنزل الينا ، وجاء مناسبا لأحوالنا فى عهد من عهود حياتنا الاجتماعية ، لا ! ولكننا نعتقده خالدا لأنه قائم على الأصول العالمية الخالدة التى لا يعتريها تبدل . بهذا استحالت القضية التى نحن بصددها الى مسألة فلسفية بحتة ، وهى : هل وضع الله للنفس الانسانية أصولا أدبية خالدة خلود النواميس الطبيعية ، تتولى تطور الجماعات ، وتتراءى لها مثلا عليا ، فتندفع بغرائزها الطبيعية للوصول اليها ، فى محاولاتها بلوغ الشأو المقدر لها من الكمال الصورى والمعنوى ؟ وهل الاسلام هو تلك الأصول الخالدة ؟

ليس فى الناس من ينكر أن فى العالم نواميس أدبية لا تتغير ، حتى ولا من طائفة الماديين أنفسهم . وكيف يمكن إنكار أن للحق والعدل والخير والفضيلة والجمال أصولا حقيقية مطلقة ، ولها أعلاما منصوبة فى الكون الخارجى والروح الانسانى ، وأنها معايير دقيقة توزن بها جميع الأعمال الانسانية ، وتُعرف آثارها فى الأحوال المختلفة ، وتدل على مقادير انحراف تلك الأعمال عن الجادة القويمة ؟

إذا لم يكن لهذه الأصول الأدبية أصول خالدة فى العالم المعنوى ، على مثال الأصول المادية الموجودة فى العالم الحسى ، لاختلت موازين الأمور ، فلم يعد يمكن التفرقة بين حق وباطل ، وعدل وظلم ، وخير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وجمال وقبح ، ولأصبحت قوى الانسان المعنوية فوضى لا ترتكز على أصل ثابت ، ولا تقوم على قاعدة قارّة .

أما وقد تقرر هذا علميا فقد بقى أن نثبت أن الاسلام يقوم بناؤه على الأصول الخالدة التى يتألف من مجموعها الناموس الأدبى العام ، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت أنه خالد مثلها ، وأنه يصلح كذلك لكل زمان ومكان .

نشرع الآن فى تفصيل هذا الاجمال ، بسرد مقومات الاسلام وأصوله الأولية ، وبيان مبلغ انطباقها على الدستور الأدبى العام :

١ — الاسلام دين الفطرة :

قال الله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرةَ الله التى فطَر الناسَ عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، أى أقم وجهك للدين الحق الذى فطرت عليه النفس البشرية ، بحيث لو تركت وشأنها لاهتدت اليه من تلقاء نفسها . حنيفا أى مائلا عن العقائد الزائغة التى ليست من الفطرة ، ولكنها من توليدات الخيال ، وتصويرات الأوهام .

يقول الله تعالى : إن ما فطرت النفس عليه هو الدين القيم ، لأن الناس كلهم يشتركون فيه ، ويتفقون عليه ، ولا ينشأ الخلاف إلا بسبب ما يزيده قادة الدين على هذه الأوليات الفطرية من الآراء والشروح ، وهى التى جعلت الدين أديانا ، وأنشأت من الاخوان فى الانسانية أعداء .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حالة الفطرة فقال : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه » أى أن كل إنسان يولد خالصا من جميع الشوائب الاعتقادية ، مفطورا على الدين الحق ، وهو ما يؤديه اليه النظر فى الوجود بدون تلقين ملقن ، ولكن الذى يفسد عليه هذا الصفاء والنقاء أن أبويه يتوليانه بالتلقين فيشوبان صفاء جوهره بما لُقِّناه هما أيضا من صور الخيالات التى لم ينزل الله بها من سلطان .

لاشك فى أن هذا الأصل من أوليات الدستور الالهى العام ، الذى لايعقل زواله فى عهد من عهود البشرية ، بل هو الغاية التى يرمى اليها كل علم ، وتتطالُّ اليها كل فلسفة فى الأرض ، وقد رأيت أنه هو معنى الاسلام ، فأقسم لو لم يكن لدين من الأديان غير هذا الأصل لحُكم له بالخلود والصلاحية لكل زمان ومكان ، فما ظنك وقد جمع الاسلام كل الأصول الخالدة للدستور الالهى العام ؟

٢ — إقامة العقل والبرهان حَكَمَين بين الحق والباطل :

الجماعات فى حاجة الى تقرير العقائد ، وسن النظم ، وبناء المذاهب ، وتحرير الحقوق والواجبات ، وفى العالم عدد لا يحصى مما وضعته الأمم منها ، وقامت أجيالا عليها ، وكل منها يدعى أن ماهى عليه هو الحق الذى لا تشوبه شائبة ، وما عداه فباطل لايصح التعويل عليه .

والمسلمون تألفت جماعتهم بعد هؤلاء جميعا ، وقد جرت العادة أن اللاحق يقتبس ممن سبقه فى الوجود ، ويقتاس به فى شئونه الأدبية والمادية .

ولكن الاسلام كما أمر أهله بأن يستعرضوا كل رأى ، ويستمعوا كل قول ، ويقتبسوا كل حكم (١) ، أمرهم أن يزنوها بميزان العقل ، وأن يحاكموها الى الدليل ، فان قبلتهما أخذوا بها ، وإن جافتهما رفضوها غير آسفين . قال الله تعالى « لعلكم تعقلون » وقال : « افلا تعقلون » ، وذكر الهالكين يوم الدين فقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسُحْقا لأصحاب السعير » .

وهذا الأصل كما هو بدهى هو من أخص أصول الدستور الالهى المقرر ، الذى لا يعقل تخلفه فى عهد من عهود الانسانية ، وهو صالح لكل زمان ومكان أيضا .

فعلى الفطرة والعقل والدليل بنى الاسلام ، فبحكم الفطرة يتخلى الآخذ به عن كل صورة ذهنية ، وكل عقيدة تقليدية ، وكل وراثة بشرية ، لتصير نفسيته كنفسية الطفل نقية من جميع

(١) قال الله تعالى : « فبشر عبادالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (أى ما ينطبق على حكم العقل منه) اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الألباب » وقال : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خذ الحكمة ولو من مشرك » .

الشوائب ، مستعدة لقبول المعارف الحقيقية . وبحكم الخضوع لسلطان العقل وسطوة الدليل لايستخذى لأية عقيدة يولدها الخيال ، ويوحى بها الوهم ، ويدلى بها كل من يريد إفساد ضميره بالخزعبلات والوساوس ، لإسلاس مقادته والتسلط عليه .

وما دام للاسلام هذه الأصول الثلاثة الخالدة فهو باق ببقاء السموات والأرض ، وصالح لكل زمان ومكان ، لا يُعقل أن يزول مهما دارت به الأدوار ، وتقلبت عليه الأعصار .

بقى أن نقول : إن كل ماجاء فى كتاب الاسلام غير هذا فأصول أولية ، يتألف منها دستور علمى يحفظ الآخذ به عن مَزَالِّ النظر ، ومزالق التفكير ، ويوجهه الى ينابيع الحكمة ، ومصادر الهداية ، ويؤديه الى غايات المعرفة ، ونهايات العلم ، وهو ينحصر فى هذه الكليات التى أجمعت عليها كل فلسفات العالم ، واعتبرتها أصولا أولية للحكمة ، وهى :

دوام النظر والتفكير فى الوجود إجمالا ، وفى الكائنات التى فيه تفصيلا . ودرس أحوال الأمم والاعتبار بها ، وتَنَوُّر نواميس الاجتماع من خلالها ، والاستهداء بالأعلام الالهية المنصوبة فى الوجود لهداية السالكين الى الحقائق الخالصة من الشوائب ، والتجرد من جميع الصبغ الوضعية ، ومن الهوى فى الحكم على الأشياء ، والاجتهاد فى تحصيل العلم حيث كان وعند أية أمة وجد . والأخذ بالأحسن من كل شىء ، والعمل بمبدأ حرية البحث وعدم الاستخذاء للتقليد ، وعدم الجمود على شىء ، والجرى على سنة التجديد ، استبقاء للتناسب بين أهله وكل جديد ، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال الذى قدره الخالق للانسان فى هذا العالم ، واعتبار وحدة الانسانية ، وأن الناس ما انقسموا الى أمم وشعوب وقبائل ليتخالفوا ويتناكروا ، ولكن ليتعارفوا ويتحابوا ، وأن باب الاجتهاد فى الدين وفى الأحكام مفتوح الى يوم القيامة ، لا تختص به طائفة ولا تستأثر به أسرة .

هذه هى الأصول الأساسية للاسلام ، وكلها كما ترى أصول حاصلة على إجماع أهل العلم والفلسفة فى العصر الحديث ، وهى مع هذا أصول خالدة قابلة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وفى كل أمة من أمم الأرض ، كُتب لها السمو وطول البقاء . فهل تعجب بعد هذا البيان من قولنا إن تعاليم الاسلام خالدة خلود النواميس الطبيعية ، وإنها تصلح لكل زمان ومكان ؟

***

وبعد فلعلك تعجب أن يكون مشرق هذا النور كله رجل أمى ، نبت فى بيئة كل ما فيها يغرس فى نفسيته خلاف هذه الأصول ، أمن تعديد وتشبيه ، الى توحيد وتنزيه ، ومن إباحة بهيمية ، الى أخلاق ملكية ، ومن فوضى حيوانية ، الى حكومة ديموقراطية ، ومن جاهلية وحشية ، الى مدنية مثالية ، ومن فُرقة متطرفة ، حتى بين أولاد العمومة والخؤولة ، بَلْه الرابطة الجنسية والوطنية ، الى عاطفة عالمية تنزع الى تأسيس زمالة عامة بين الناس كافة ،

على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، ومن مطامع قاصرة لا تتعدى محيط الأسرة والدار ، الى مطامح لنيل زعامة العالم وإقامة دولة الحق فى الارض ، ومن أحكام مستمدة من عادات الجاهلية وأهوائها ، الى شريعة قائمة على الحقوق الطبيعية المطلقة ، وعلى المثل العليا للعدل والمساواة والحرية ، ومن الانغماس فى الطينيات ، الى سمو روحانى ليس فوقه مرقى لمترفع .

فكيف يعقل أن تنشئ هذه البيئة ، وعواملها ماسردت عليك ، نفسية كنفسية محمد صلى الله عليه وسلم يبز بها نفسيات عباقرة الأرض مجتمعين ، فيأتى بما أتوا به متفرقين ، ويبتنى من العدم مجتمعا نموذجيا لما يجب أن يكون عليه العالم كله حين يبلغ الكتاب أجله ، ويريد أن يعم نوره العالمين ؟

إن من يعز عليه أن يعد محمدا من المرسلين ، وجب عليه أن ينسب كل ما أتى به من هذه الأعمال المحيرة للعقل الى مواهبه الشخصية ، ونفسيته القوية ، فكأن الخصم لأجل أن لا يعتبره واحدا من عشرات الألوف من الرجال الذين شرفهم الله بوحيه ، يسهل عليه أن يرفعه الى درجة من السمو لم يصل اليها بشر فى الأرض . وفى الوقت نفسه يزعم أنه كان كاذبا فيما ادعاه من النبوة ! وفى هذا تناقض خطير لا يرضاه عاقل لنفسه . فهل عهد فى سنن الله أن المتصف برذيلة الكذب يستطيع أن يكون مصدر أصول تبلغ من السمو الى هذا الأفق الأعلى ، ثم يؤيده الله حتى يحقق كل ما وعد بتحقيقه من الأعمال الكبرى ؟ إنه قال عن ربه وهو ضعيف لاحول له ولا طول : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . وقال وأشياعه يسامون سوء العذاب من اضطهاد المشركين إياهم : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وقال وهو فى تلك الحالة أيضا : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » . وقال وقد بلغ الهلع بأصحابه مبلغه ، وشد المشركون عليهم ليفتنوهم وهم شر ذمة قليلون : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يُذهبنَّ كيدهُ ما يَغيظ » . وقال وأصحابه من الضعف بحيث لا يستطيعون الصلاة آمنين : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

من أين كان لكاذب أن يتألى على الله الى هذا الحد فيؤيد الله كل ما قاله حرفا بحرف ؟ فهل من خصائص الكذبة أن الله يخضع لهم النواميس فيتحكموا فى الحوادث الاجتماعية بما لم يستطعه أى ملك كريم ولا رسول عظيم . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى . « والذى قدّر فهَدَى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحْوَى ، سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفَى ونيسّرك لليُسرى » :

ذكرنا لك طرفا من تقدير الله تعالى المبنى على العلم والحكمة فى خلق الانسان ، ونذكر لك اليوم نماذج صغيرة فى خلق بعض العوالم ، فنقول :

من تقديره تعالى المنطوى على الأسرار العجيبة والحكم الغريبة التى لا يحيط بها إلا رب العالمين ، أنْ فاوت بين أشكال الكواكب ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها ومداراتها ، فجعل منها الكبير والصغير والمتوسط ، والأبيض والأحمر ، إلى غير ذلك . ثم جعلها مختلفة المنازل ، فمنها ما يتوسط قبة الفلك وما يكون فى جوانبها ، ثم خالف بينها فى الحركة التى تقطع بها البروج ، فمنها ما يقطع الفلك فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثين عاما ، ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك .

ثم إنها دائبة الحركة لا تفتر ولا تنى على مر الدهور وكر العصور :

شموس فى البرية مشرقات نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوما سابحات إلى ما لست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك

فسبحان من قدرها أحكم تقدير ، ودبرها أحسن تدبير !

ثم انظر بعد ذلك إلى كثرتها التى تفوق الحصر ، والى اختلاف طلوعها وغروبها ، فبينما ترى كوكبا يأخذ فى الغروب إذا كوكب آخر قد طلع وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى ، وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته ، الى آخر مالا يأتى عليه البيان . وقد ذكرنا منه جملة فى بعض ما كتبناه عن اللورد أوفبرى وغيره .

ويحسن بناهنا أن ننشد قول القائل :

عجبا للطبيب يلحد فى الخا   لق من بعد درسه التشريحا
ويرينا علم النجوم الذى يو   جب للدين أن يكون صريحا

ثم لننتقل إلى ما فى الأرض من التقدير البديع ، فترى الحق سبحانه وتعالى جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومسكن الانسان ، وجعلها ذلولا تطؤها الأقدام ، وتنبت فيها الزروع ويعمل منها اللبِن ، وتبنى فيها الأبنية ، ولوجعلها من حجر أو حديد لم تمكن المعيشة عليها لا إنسان ولاحيوان ، فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وهى له كفات فى حياته ومماته .

وبالجملة فقد هيأها لكل ما يراد منها ، فاخرج منها ماءها ومرعاها ، وجعل فيها كل ما يحتاج اليه من على ظهرها من النبات والأقوات ، والفواكه والثمار ، والورود والأزهار ، فلك فيها كل ما تميل اليه نفسك ويصبو اليه حسك ، من منظور ومسموع ، ومشموم وملموس ، وما تحتاج اليه من الغذاء والدواء ، بل أوجد منها الرجال والنساء : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشَر تنتشرون » . فليت شعرى ما هذه الأرض التى أخرجت لنا جميع الأشياء حتى الرجال والنساء ، وماذا أودع فيها حتى آتتنا كل ما نحتاج اليه مما يكون وجودنا متوقفا عليه !

ومن آيات الأرض التى اقتضتها عناية الحكيم تعالى أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وهذه حزنة ، وهذه تنبت وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه خصبة وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ويليها رخوة ، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء ، وهذه تصلح لنبات كذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره (ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وليكون ذلك سببا فى التآلف والتعارف) الى غير ذلك من الأسرار . ويكفيك فى هذا قوله تعالى : « وفى الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرع ونخيل صِنوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يسقى بماء واحد ، ونفضِّل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فاشكر إلهك الذى نوعها هذا التنوع ، وفرق أجزاءها هذا التفريق ، وخص كل قطعة منها بما خصها به ، وألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج الماء والمرعى ، وأمسكها عن الزوال ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها ، وأنشا منها حيوانها ونباتها ، ووضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ، وهيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، وجعلها ذلولا غير مستصعبَة ولا ممتنعة ، ووطأ مناكبها وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ، وصدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ، وبسطها

وفرشها ، ومهدها وطحاها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها . وهو الذى يمسكها أن تتحرك الحركات المهلكة فيسقط ما عليها من بناء ، ويموت ما عليها من حيوان وإنسان . وهو الذى أنشأ منها النوع الانسانى الذى هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، وجعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والمعادن والأرزاق والحيوان ، والذى جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لا شتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وهو الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون، وجعل باطنها بيوتا للاموات ، وظاهرها بيوتا للأحياء . وهو الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتاخذ فى الحمل بما يتخلق فى بطنها ، فاذا كان وقت الولادة وجاءها المخاض اهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج . فحرارة الربيع للإخراج ، وحرارة الصيف للإنضاج . وبالجملة لولم يكن هذا التدبير العجيب لاختلت مصالح العالم وفسد نظام الكون .

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه ، ولعلك حريص عليه ، أن الأرض فيما أثبتته الاكتشافات الجديدة ، وهو مذهب قديم أيضا كما فى كتب الفلسفة القديمة ، أن لها حركتين : حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، وأنها تسير بغاية السرعة ونحن عليها لا نحس بشىء من ذلك . فأى تدبير أحكم هذا الصنع ، وأى علم أتقن هذا الإبداع ، وأى قدرة نفذته وأحكمت تلك العلاقات التى بين الأرض والشمس ، بل بين عالم الأرض وعالم السماء ؟ وأمرُ الشمس فى جريانها وتدبيرها مع توابعها من السيارات أعجب من ذلك كله .

ولنتل هنا قوله تعالى : « والشمسُ تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمرَ قدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

والخلاصة الوجيزة : أن المراد بالتقدير والتسوية أنه تعالى خلق ما أراد على وفق ما أراد ، موصوفا بوصف الإحكام والإتقان ، مبرأ عن الاضطراب والتشويش .

والهداية قد تكون هداية فكر وتعقل كما فى هداية الانسان الى كثير من مصالحه ، وقد تكون هداية جبلية بالإلهام كما فى الحيوان . (وإيداع تلك القوى الطبعية فى الأشياء هو نوع من الهداية والتسخير) . وقولهم إن كذا طبيعى معناه أنه إلهى لا تعمّل فيه . وكل

ما كان جبليا لا دخل لصاحبه فيه قيل له طبيعى ، إشارة إلى أنه على غاية ما يكون من الإتقان ، لأنه إلهى محض لا دخل لعمل الفكر فيه . فاذاً قولنا: طبيعى، مرادف لقولنا: إلهى .

أما قوله تعالى: « والذى أخرج المرعى » فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أو هو ظاهر فيهم ، أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم ، فقال: «والذى أخرج المرعى» أى هو الذى أنبت العشب ، فلا ينبغى أن يعبد غيره من الأصنام التى يعبدها المشركون . والمرعى : ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش . وروى عن ابن عباس أنه الكلأ الأخضر .

أما الغثاء : فهو ما يبس من النبات فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح .

وأما الأحوى : فهو الأسود . وقال بعضهم : الأحوى هو الذى يضرب الى السواد . وقال الفراء وأبو عبيدة : الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل مُدهامَّتانِ ، أى سوداوان لشدة خضرتهما .

وهذه الأوصاف يتضمن كل منها التدريج ، ففى الوصف بها تحقيق لمعنى التربية ، وهى تبليغ الشىء كماله شيئا فشيئا ، وفى نقل الأشياء من طور الى طور ومن حال الى حال دليل على تصرف القادر العظيم والاله الحكيم ، كما قال بعد أن بين أطوار الانسان من النطفة والعلقة والمضغة ثم نفخ الروح فيه « فتبارك الله أحسنُ الخالقين » وكما قال « مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » . وقد أفاض علماء التوحيد فى تغير العالم ودلالته على الحدوث ، والبرهنة بذلك على وجوده تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته .

أما قوله : « سنقرئك فلا تنسى » فهو بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين . ويستبين منه التسبيح الذى ينزه به ربه المأمور به فى أول السورة . فان تنزيهه تعالى وما يليق به من جلال وكمال يجب أن يؤخذ من الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا من كلام أرباب العقول الذين يصيبون ويخطئون . والسين للتنفيس أو التأكيد .

أما قوله : « إلا ما شاء الله » ففيه احتمالان : أحدهما أن يقال : هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئا . قال الكلبى : إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئا . وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : « إلا ماشاء الله » أحد أمور :

(١) التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى : « ولا تقولنّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله » . وكأنه تعالى يقول : أنا مع أنى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور

على التفصيل لا أخبر عن وقوع شيء فى المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، تبيينا لكون الأشياء كلها مرتبطة بمشيئتنا ، وتعليما لكم أن ترجعوا كل شيء إلينا ، فعليكم أن تقولوها فى كل شيء، وأن تلاحظوها عند كل عمل .

(٢) قال الفراء : إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئا ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسيا لذلك لقدر عليه كما قال : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليك » ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك. وقال لمحمد عليه السلام: « لئن أشركت ليَحبَطن عملُك » مع أنه عليه السلام ما أشرك ألبتة ، فهى من هذا القبيل .

وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته . فكأن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاؤه عليه السلام على التيقظ فى جميع الأحوال .

(٣) يصح أن يكون الغرض من قوله إلا ماشاء الله ، نفى النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمى فيما أملك إلا ماشاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء .

(٤) قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء هاهنا نسخه كما قال : « ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها » فيكون المعنى : إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها فيأمرك ألا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سببا لنسيانه وزواله عن الصدور .

أما قوله تعالى : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » ففيه وجهان :

أحدهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عند الوحى مخافة النسيان ، فقيل له : إن الله عالم بجهرك فى القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه . ويكون مثل قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه ، فاذا قرأناه فاتّبع قرءانه » .

والثانى : أن يكون المعنى فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ فانه أعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة فى النسخ .

أما قوله تعالى : « ونيسرك لليسرى » فاليسرى هى أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه :

أحدها أن المعنى سنقرئك فلا تنسى ونوفقك للطريقة التى هى أسهل وأيسر يعنى فى حفظ القرءان .

وثانيها : قال ابن مسعود : اليسرى الجنة . والمعنى نيسرك للعمل المؤدى اليها .

وثالثها : نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به .

ورابعها : نوفقك للشريعة وهى الحنيفية السمحة السهلة .

واللفظ محتمل لذلك كله ، فالأولى أن يراد ذلك كله ، فهو تعالى ييسره لكل ما هو خير وسعادة . وقد قال « ونيسرك لليسرى » بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء . وقد دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل مالم يفتحه على أحد غيره . وكيف لا وقد كان صبيا لا أب له ولا أم ، نشأ فى قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله فى أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق أجمعين ، حتى استحق أن يقال له : « وإنك لَعلى خلق عظيم » بل أن يقسم الحق بحياته حيث يقول : « لَعَمْرُكَ إنهم لفى سكرتهم يَعْمَهُون » ، ثم يقول له : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . فسبحان من حباه وأعطاه ، وجعله أشرف خلق الله ! نسال الله أن يجعلنا من محبيه ومحبوبيه بمنه وكرمه .

وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام ، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى « ويسِّرْ لى أمرى » ، للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها . وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له » .

وبالجملة فالمعنى : نوفقك توفيقا مطردا لا صعوبة فيه ، ولا مشقة تعتريه ، فى كل باب من أبواب الدين ، علما وتعليما ، واهتداء وهداية ، فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والاحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الالهية ، مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره ، كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى : « فذكرْ إن نفعت الذكرى » .

هذا واعلم أن عادة القرءان أن يرجع الأمور كلها الى الله تعالى ، مبينا أنه لا شىء يخرج عن مشيئته وإحاطته ، فيقول : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » ويقول : « من يهد الله فهو المهتد » . ويقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . ويقول : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » . ويقول : « ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم » ويقول : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » ويقول : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء » ويقول : « اليه يرجع الأمر كله » . ويقول صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له » . ويقول فى تفسير الايمان « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » . الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة مما يثبت إحاطة الربوبية ، ويبين أن الله هو مسبب الأسباب وفاتح كل باب .

وهكذا يجب أن يكون رب العالمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، ولكن ينبغى أن تعلم أنك من الأسباب أيضا ، وقد خلقت خلقة عجيبة ، فجعل فيك من العلم والاختيار والاستعداد لقبول ما جاءت به الرسل ، ومن العقل والفكر ما يعرفك النّجْدَين ، ويهديك الى سعادة

الدارين ، ما لم يجعله لغيرك ، وإن كان ذلك كله على حد محدود وقدر معلوم لا يخرجك عن إحاطته أو يجعلك مستطيعا لمخالفة مشيئته أو منازعة ربوبيته ، مع ملاحظة أن النظام العام للعالم قد يقضى بوجود الشر القليل لما يترتب عليه من الخير الكثير . وقد قالت الفلاسفة : إن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير .

ولتلاحظ مع هذا أن للإمكان حدودا ، وللممكن استعدادا خاصا يقتضى أحكاما خاصة . والإمداد إنما يكون على قدر الاستعداد ، وما وراء هذا لا يكون ، وبعد ذلك كله سر القدر والحكمة التى اختص بها تعالى ، والعلم الذى كان به نظام المكونات وتدبير المخلوقات ، ذلك النظام الذى روعى فيه حال الممكنات كلها لا شخصك الضئيل . وقد قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « وفوق كل ذى علم عليم » .

فاعرف قدرك ، وقف عندما جاء به الشرع ، وإياك أن تتعداه ، واتهم عقلك وقدس رسولك ، واعرف سعة العلم وعظمة الربوبية .

وقد دللتك على ما يسعدك فى الدنيا والآخرة ، وما يجب لضعيف مثلك مع من لا يعلم عظمته إلا هو . والله يتولى هداك ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

الادب فى عرف الحكماء

قال بعض الحكماء : عقل بلا أدب فقر ، وأدب بلا عقل حتف .

وقالوا : عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

وقالوا : لا عقل إلا بأدب ، ولا أدب إلا بعقل .

وقال بزرجمهر : العقل يحتاج الى مادة الأدب ، كما تحتاج الأبدان الى قوتها من الأطعمة .

وقال أيضا : الأدب صورة العقل ، فحسن صورة عقلك كيف شئت .

وقال ابن المقفع : كما أن الأدب لا يكمل إلا بالعقل ، فكذلك لا يكمل العقل إلا بالأدب .

وقال حكيم : احرص على أن لا يكون أدبك أغزر من عقلك ، فان من زاد أدبه على عقله كان كالراعى الضعيف فى الغنم الكثيرة .

وقال عبد الملك بن مروان : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، واستصحبه سبعا ، فان أفلح فألق حبله على غاربه .

السنة

الجرائم الخلقية والايمان بالله ورسوله

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) آثار الجرائم الخلقية الضارة بالمجتمع . (٣) عناية الشريعة الاسلامية بمحاربة هذه الجرائم . (٤) علاقة ذلك بالحدود الشرعية التى ذكرناها .

(١) أما معنى هذا الحديث وأمثاله فقد اختلفت فيه آراء كبار المفكرين ، وأهم ماورد فيه رأيان : الرأى الأول : أن من ارتكب كبيرة من الكبائر التى نهى الله عنها نهيا جازما كالزنا واللواط والسرقة وشرب الخمر وترك الصلاة ونحوها من الفرائض الدينية ، فانه لايوصف بالايمان حال ارتكاب الجريمة قطعا ، فاذا ماقضى الوطر من جريمته فلا يخلو : إما أن يندم على ما فرط منه من رذيلة خلقية ويتوب الى الله تعالى توبة نصوحا ، وفى هذه الحالة يعود اليه إيمانه مرة أخرى ؛ وإما أن يستعذب الجريمة فيقسو قلبه وينسى دينه وربه ، وتستولى على نفسه الرذيلةُ الخلقية والشهوة الفاسدة ، فيستمر على ارتكابها ، وإن فاتته يجزع من أجلها ويعمل على الحصول عليها بدون خوف من الله الذى حرمها عليه ونهاه عنها ، وفى هذه الحالة لايعود اليه إيمانه ، وإذا مات مصرا على ذلك يخلد فى النار .

وقد وردت أحاديث صريحة فى هذا المعنى ، منها مارواه أبوداود من قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة ، فاذا أقلع رجع اليه الإيمان » . ومعنى أقلع : تاب من تلك الجريمة . ومنها ما رواه البيهقى « إن الايمان سربال يسربله الله من يشاء ، فاذا زنى العبد نزع منه سربال الايمان ، فان تاب رد عليه » . ذكرهما الحافظ المنذرى . والسربال : الثوب من الصوف والقطن والكتان . ويطلق أيضا على درع الحديد ، كما قال تعالى : « سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم » .

فهذان الحديثان صريحان فى أن الايمان ينزع حال ارتكاب الجريمة ولا يعود إلا بعد التوبة منها . أما التوبة فانها تختلف باختلاف حال الجريمة ، فاذا كانت الجريمة انتهاكا لحق الله عز وجل وحده كشرب الخمر وترك الفرائض ، فان التوبة منها تكون بالانصراف عنها انصرافا جازما بحيث يصر على أن لا يعود مرة أخرى . وإذا كانت متعلقة بحقوق العباد فان التوبة منها تكون برد تلك الحقوق الى أصحابها أو استسماحهم فيها .

وقد يقال : إن هذا المعنى لا يمكن تحققه فى التعدى على الأعراض ، فاذا زنى شخص بامرأة آخر فانه لا يعقل أن يرد اليه مثل هذا الفعل . وكذلك لا يعقل أن يطلب منه العفو عن هذه الجريمة .

والجواب : أن مثل هذه الجريمة لا يلزم ذكرها ، بل تكفى نيتها عند طلب العفو ، إلا إذا أراد الاعتراف بها ليطهر نفسه بالحد المقرر للعقوبة ، وفى هذه الحالة لا يلزم أن يطلب من الزوج العفو ، بل لا ينبغى له ذلك مطلقا ، وعليه أن يعترف أمام من يقيم عليه الحد بالكيفية التى ذكرناها قبل .

أما الرأى الثانى : فهو أن الجرائم لا تخرج المرء عن الايمان على أى حال ، فاذا مات وهو متلبس بالجريمة ولكنه مؤمن بالله ورسوله ، فانه لا يخرج بهذه الجريمة عن الايمان ، ولكنه يموت عاصيا ينطبق عليه قول الله عز وجل : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » . وقد وردت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى ، منها ماورد فى الصحيح من أن المكلف إذا مات مؤمنا دخل الجنة وإن سرق وإن زنى .

ولا معارضة بين هذا وبين الأحاديث التى وردت فى تعذيب العصاة أو فى سلب الايمان عنهم .

أما الأول فلان الكبائر يعذب عليها عذابا مؤقتا فلا يخلد صاحبها فى النار كالكافر ، وقد يعفو الله عنها فلا يعذب عليها أصلا كرما وإحسانا .

وأما الثانى فلان الايمان هو الاعتقاد بأن الله إله واحد وأن محمداً رسول الله . وهذا الاعتقاد لا يتنافى مع ارتكاب الجريمة حتما . وقولهم : إن الذى يؤمن بأن فى هذا الجحر ثعبانا لا يمكنه أن يدخل يده فيه ، فانه صحيح لكنه لا ينطبق على مانحن فيه . وذلك لأن الله سبحانه قد أجل العقوبة على ارتكاب الجريمة وقال : إن من تاب عن جريمته محيت عنه وبدلت سيئاته حسنات . فالايمان بالله تعالى وبالعقوبة لا ينافى ارتكاب الجريمة التى تمحى بالتوبة لأنه يرتكب وهو مؤمن بالله الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فاذا أصر على جريمته زمنا طويلا على أن يتوب منها بعد ثم مات قبل أن يتوب ، كان تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء سامحه .

وما ورد من أن الجرائم تنافى الايمان كما فى هذين الحديثين وأمثالهما، فان المراد به نفى الايمان الكامل. وإن شئت قلت نفى العمل الصالح، والعمل الصالح ليس جزءا من حقيقة الايمان، ولكنه شرط فى تحققه. نعم إذا قال لا إله إلا الله مصدقا بها ولم يعمل صالحا أبدا فان إيمانه لم يتحقق بفقدان شرطه وهو العمل فى الجملة ولو كان قليلا. وهذا المعنى ظاهر من الأحاديث التى ذكرت، لأن قوله صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » معناه أن الايمان الكامل الذى شرطه العمل غير متحقق فيه، لأن الزنا جريمة نهى الشارع عنها، فالتلبس بها وإن كان لا ينافى الاعتقاد، ولكنه ينافى العمل. وعلى هذا القياس. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « إذا زنى الرجل خرج منه الايمان فكان عليه كالظلة فاذا أقلع رجع اليه الايمان» فان المراد بالايمان الايمان الكامل الذى شرطه العمل الصالح على الوجه الذى بينا. والتأويل هاهنا لابد منه للتوفيق بين هذه الأحاديث الصحيحة، وبين قوله تعالى: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» فإن هذه الآية الكريمة صريحة فى أن الله تعالى لايغفر الشرك، أما غيره من الموبقات فانه ترك الفصل فيها لمشيئته، فان شاء غفرها وإن شاء عذب عليها.

ولا يخفى أن هذا صريح فى أن مرتكب الجريمة إذا مات ولم يتب منها لا يكون كافرا، لأن الله سبحانه قد نص على أن الكفر لا يغفره جزما، وترك مادونه لمشيئته. على أن القائلين بهذا لا يفرقون فى هذا بين حقوق الله وحقوق العباد، لأن الآية عامة تشمل جميع الجرائم والموبقات ماعدا الشرك بالله عز وجل.

وقد يقال: إن حقوق العباد خاصة بهم، وقواعد الدين الاسلامى تقتضى أن يكون أمرها منوطا باصحابها وحدهم.

والجواب: أن الله سبحانه قادر على أن يرضى أصحاب الحقوق بمنحهم نعما أكبر مما يتصورون فيسامحوا فيما وقع عليهم من عدوان وحيف. وهذا الرأى هو المشهور بين كثير من العلماء.

ولكن الذى ينبغى أن يقال فى هذا الموضوع: أن الله سبحانه قد أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وخص المسلمين بالقرآن الكريم المشتمل على كل ما فيه صلاح المجتمع الانسانى من أوامر ونواه وعظات وأمثال. وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يلزم النوع الانسانى فى حياته الدنيا، فلم يترك وسيلة من وسائل السعادة إلا حث عليها وأمر بالتمسك بها، ولم يدع شيئاً من الرذائل الخلقية الضارة بالفرد أو المجتمع إلا نهى عنها وحذر منها تحذيراً شديدا. فالدين الاسلامى قد جاء بكل فضيلة، ونهى عن كل رذيلة، وشرع للناس مافيه سعادتهم الدنيوية والأخروية. وقد وعد الله المؤمنين العاملين بالفوز الخالد والسعادة الدائمة، وأوعد العاصين عذابا أليما وشقاء لا طاقة للانسان على احتماله، والقرآن الكريم ناطق بذلك فى غير موضع منه، فانه قد حذر من الجرائم وأوعد عليها

سوء المصير ، بل صرح فى بعض آياته بخلود بعض المجرمين فقال : « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه » ، وكذلك لعن الظالمين فى غير موضع منه كما لعن العصاة الذين حُبب اليهم الفسوق وانتهاك الحرمات .

ولا ريب فى أن قول الله صدق لا يتخلف أبدا ، وإن كان هو سبحانه صاحب السلطان المطلق والارادة الكاملة ، فان شاء أن يعفو عمن يشاء من عباده فعل بدون أن تمنعه قوة أو يقف دون إرادته مانع ، فانه هو القاهر فوق عباده ، ولكنه هو الذى رسم لعباده طريق السعادة واضحة جلية ، وجعل لها وسائل عادلة معقولة ، وأبان للناس ما يضرهم وما ينفعهم فى حياتهم الفانية والباقية ، وأقام لهم الأدلة المحسة على ذلك ، وقال لنا : من سلك سبيل السعادة وصل الى ما يحب ، ومن سلك سبيل الشقاء وإيثار اللذة العاجلة كان جزاؤه العذاب الخالد ، ولم يبين لنا وسيلة لعفوه فى هذه الحياة الدنيا سوى التوبة من الذنوب والاقلاع عنها ، والرجوع اليه بعد التمرد والعصيان . فمن ذا الذى يخاطر بنفسه بعد ذلك ويقذف بها فى الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة ، فيغضب عليه ربه ويعرض نفسه لعذاب جهنم طمعا فى عفو لم يعرف له سببا سوى التوبة ؟

نعم قد قال الله تعالى « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . وقال « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شىء قدير » . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يجزم بأنه هو الذى يشاء الله له الغفران ويستحق عفوه . ومن ذا الذى يستطيع أن يجزم بأن غفرانه يحصل بدون توبة مع أن صريح الآيات الأخرى يدل دلالة واضحة على أن الله لا يعفو إلا عن التائبين ، ولم يستثن من العقوبات إلا التائبين ، ولم يغفر إلا للتائبين ؟

قال الله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاما ، يضاعَفْ له العذاب يوم القيامة ويخلُدْ فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات » . وقال : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . وقال : « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . وقال « ثم توفىَّ كلُّ نفس ما كسبت » الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الانسان لابد أن يلاقى جزاء عمله من خير أو شر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر » . وقال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

من هذا كله يظهر جليا أن الله تعالى قد فرض على عباده أن يؤمنوا به وبرسله ، وأن يعملوا صالحا ، وإن لم يفعلوا كان جزاؤهم العذاب الأليم يوم القيامة . ومن عمل عملا صالحا

وآخر سيئا فإن حسناته لا تذهب عند الله تعالى ولكنه سيلقى جزاء سيئاته . على أن هذا يكون قريبا من عفو الله تعالى كما قال سبحانه : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » . فهذه الآية الكريمة نزلت فى جماعة تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قادرون عليه ثم ندموا على ما فرط منهم واعترفوا بأنهم قد أجرموا ، وبذلوا أموالهم ليكفروا بها عن ذنبهم هذا ، فقبل الله سبحانه توبتهم وقال لنبيه : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية .

روى أن سبعة من المتخلفين عن القتال مع رسول الله ندموا فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين على عادته كلما قدم من سفر ، ورآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لايحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزل قول الله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» الآية ، فحلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا شك أن فعلهم هذا توبة ظاهرة ، وأن سيئاتهم الكبيرة قد محيت بهذه التوبة ، لأن التوبة الخالصة تمحو الذنوب والآثام .

ومما ينبغى الالتفات اليه فى هذا المقام أن الجرائم الخلقية التى تسقط المروءة والكرامة كالزنا والسرقة ونحوهما ، لا يصح لمرتكبها المجاهرة بها إلا إذا كان يريد أن يقام عليه الحد لتطهير نفسه ، فلا يلزم من رد المال المسروق مثلا أن يقول لصاحبه : إننى سرقته ، بل يكفى أن يقول له : هذا مالك ظفرت به نخذه . وهكذا كل الجرائم التى ارتكبت فى الخفاء فان على مرتكبها أن يخفيها إن كانت من حقوق الله عز وجل ثم يتوب منها توبة نصوحا ولا يعود ، وأن يردها لأصحابها إن كانت مما يرد ، أو يستسمحهم فيها على الوجه الذى ذكرناه .

هذا ما ينبغى أن يقال فى هذا المقام . ومحصله : أن الذنوب الكبائر لا يمحوها إلا التوبة والعمل الصالح ، وكل ما ورد فى كتاب الله أوسنة رسوله من أن الذنوب الكبائر قد يغفرها الله تعالى فانه محمول على ما إذا تاب الانسان من جريمته . ولكن القول بأن مرتكب الكبيرة كافر يخلد فى النار قول هراء لا يقام له وزن بعد قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . و ليس من المعقول على أى وجه أن يستوى المؤمن الذى يؤمن بالله ورسله وكتبه بالكافر الذى يجحد خالقه و يكفر به ، فيخلدا فى النار .

نعم إن عصاة المؤمنين يعذبون بنسبة أعمالهم ثم يخرجون بعد ذلك من النار الى الجنة كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة فى غير موضع .

(٢) أما الآثار الضارة المترتبة على العدوان على الأعراض والأموال فانها لا تقف عند

حد . فمن مضار الزنا وآثاره السيئة فى المجتمع الانسانى ، ضياع النسل ، والجناية على الذرية . وهذه قضية بدهية لا ريب فيها . فلو أدرك الزناة ما قد يترتب على لذة مؤقتة تنقضى على الفور من الشرور والمفاسد ، لهان عليهما أن يفنيا من هذا الوجود ولا يرتكبا تلك الجريمة المشينة ، إذ قد يترتب على عملهما القبيح وجود ولد قد تخنقه تلك العاهرة فى مهده ، وقد تسقطه جنينا ، وقد تلده إنسانا كاملا ثم تنبذه بالعراء معرضا لمحن الحياة ومصائب الأيام ، لا يعرف له أما تحنو عليه ولا أبا يرحم طفولته ، وقد تقذف به الأقدار فى حضانة من يربيه على غير دين أبويه ، أو على أخلاق فاسدة ، فينشأ عضوا ضارا بالمجتمع الانسانى ، وذلك بلاء عظيم وشر مستطير .

وإذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنايتها أعظم ، فإنها تدخل عنصرا غريبا بين أولادها تغش به زوجها ، وقد يكون فى آخر أمره نكبة على الأسرة بتمامها ، فانه قد ينزع الى أبيه الحقيقى ويتبعه فى أخلاقه الفاسدة ، وذلك شر مستطير .

لعل بعض الفساق يقول : إنه يمكن اتقاء هذا الخطر باستعمال الوسائل التى تمنع الحمل والولادة ! وتلك لعمر الله أشد ضررا على المجتمع الانسانى وأكبر جناية على العمران . فان هذه الجريمة إذا فشت فى أمة انقرضت فى وقت قريب ، لأنها بذلك تكون قد قضت بيدها على ذريتها ونسلها ، وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدراكا من الحيوانات التى تتناسل لبقاء العمران الى الأمد الذى أراده الله ، فضلا عما يلحقها من الهوان بنقص أفرادها شيئا فشيئا . وأى خيانة أكبر من أن يصبح الانسان لاهم له فى هذه الحياة إلا قضاء شهوة بهيمية لا يعرف لها غاية ولا يدرك لها نتيجة مع أنها لم تخلق إلا للتناسل وبقاء النوع الانسانى ؟ ! فاذا وجد بين الناس بهيم فى صورة الانسان لا يقدر ذلك ولا يحفل به فماذا يصنع فى الاعتداء على أعراض الناس وإفساد أخلاق نسائهم وبناتهم وأهليهم ، بل إفساد أخلاق نسائه وبناته وأهله فى آخر الأمر ، لأنهم يتبعونه فى خلقه ويقلدونه فى فساده ! وأى وسيلة يتقى بها ذلك الحيوان هذا الخطر الداهم ؟ ! فليتصور الزانى والزانية قبل الإقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف ، وأن الزوج أو الأخ أو الأب دهمهما وهما على تلك الحال فماذا يكون موقفهما حينئذ : هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان به ، أو تخور عزيمتهما وينخلع قلباهما ولا يبقى للشهوة فى تلك اللحظة أثر كانها لم تخلق فيهما من قبل ! ثم ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين أو الأب أو الأخ : أفلا يهون عليه فى هذه الحالة أن يضحى بكل ماله ؟ وكثير من الناس يطيش لبه من هول ذلك المنظر فيقتلهما ثم يقتل نفسه وهو لا يدرى . وليس ذلك من باب الفرض والتقدير وإنما هو أمر كثير الوقوع بين الناس .

وعلى فرض نجاة الزناة من الفضيحة الدنيوية أفلا يعلمون أنهم سيفتضحون فى الآخرة ، وأنهم سيؤدون ثمن ذلك لأصحاب الحقوق غاليا ، يوم يسأل الظالمون عن أعمالهم ولا يجدون

لهم وليا ولا نصيرا ؟ ألا يعلمون أنهم إن ستروا أنفسهم عن الأعين فان الله مطلع عليهم ، وأنه خبير بأعمالهم ، وأنه لن يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها كاملة من هؤلاء المجرمين إن كانت لهم حسنات ، فان لم تكن لهم حسنات حملوا سيئات أصحاب الحقوق فى يوم لا يضيع فيه مثقال ذرة من الحقوق ؟

فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعميت بصائرهم ، وأصبحوا لا يبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ، ولا يحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا ، أفلا ينبغى لهم أن يحسبوا حساب نسائهم وذريتهم ، فان الزانى قدوة سيئة لأهله وبناته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عفوا تعف نساؤكم » . فاذا وجد فريق من الناس لا يبالى بنسل ولا يحفل بعرض ولا يعنيه فساد نسائه وذريته ، ولا فساد نساء الناس وذرياتهم ، فذلك أحط مرتبة عن درجة حمار الوحش والقردة وغيرها من الحيوانات التى تغار على أنثاها .

فاذا فشت هذه الروح فى أمة من الأمم (وهى روح الإباحة والفوضى) فانها تزول سريعا وتنقرض عاجلا ، ولا يبقى لها ظل فى الوجود . ومن وراء ذلك كله غضب الله وسخطه وعقابه الدائم .

لا ريب فى أن ذلك وحده كاف فى زجر النفس عن الزنا ، فلا حاجة الى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التى تترتب على اختلاط الزناة بعضهم ببعض ذلك الاختلاط الممقوت مهما اتخذوا من أساليب الحيطة والحذر ، ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات ، فانا نرى كثيرا من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة وأصبحوا لا قيمة لهم فى الوجود ، ونرى كثيرا منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء فاسدة فى جسم المجتمع لسبب هيامهم بزانية ، وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى .

فمضار الزنا واضحة ملموسة ، ولكن الزناة لا يبالون بدين ، ولا يشعرون بفضيلة ، ولا يعرفون لأحد حرمة ، ولا يقدرون عظمة الله الذى يعلم خائنة الأعين ، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

(٣) لهذا كله عنيت الشريعة الاسلامية بأمر الزنا ، فقد وصفه الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه فاحشة لها أسوأ الآثار ، قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . وقال : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب » . فهذه الآية صريحة فى أن قتل النفس والزنا من الجرائم التى يخلد صاحبها فى النار إذا لم يتب من ذنبه . وكفى بذلك زجرا عن الزنا . فمن تخيل أن حد الزنا سهل لعدم إمكان إثبات الزنا

الموجب للحد ، فليتصور ماذا يكون حاله إذا أفلت من عقوبة الدنيا ووجد أمامه عذابا خالدا مضاعفا .

من أجل ذلك كان المؤمنون حقا فى عهد الرسول صلوات الله عليه يؤثرون إقامة الحد عليهم فى الدنيا فرارا من عذاب الله يوم القيامة ، وهؤلاء هم القدوة الصالحة الذين يقولون للناس : احذروا شهوة فاسدة تنقضى على الفور ولكن أسهل عقوبة عليها هو الإعدام .

أما اللواط فهو من أسوأ الرذائل الخلقية التى لا تليق بالنوع الانسانى ، فإن الله تعالى قد خلق الانسان من ذكر وأنثى ، وجعل الأنثى محلا لذلك العمل الخاص ، فاللواطة خروج غريب عن النظام الفطرى ، واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الانسان ونظام الكون ، لأنه يقلب الذكر أنثى ، ويجعل الرجل كالأنثى فى أخص أوصافها التى خلقت لها ، وذلك شر وبيل وفساد كبير . ومن أجل ذلك قال تعالى توبيخا لقوم لوط : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » . ويؤخذ من هذه الآية أن قوم لوط أول من خرج عن طبيعة الانسان فسنوا تلك العادة الشائنة ، وجعلوا الرجال محلا لتلك الشهوة التى اختص بها النساء .

وعجيب أن نرى عدوى تلك العادة تنتقل من هؤلاء الأشرار الذين خسف الله بهم وأبادهم من الوجود ، الى غيرهم من النوع الانسانى مع أنها لم تكد توجد فى الحيوانات الأخرى ! والى ذلك تشير الآية التى ذكرناها ، فان الله سبحانه وتعالى يقول لهم : إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين . والعالم : اسم لكل ما سوى الله ، فيشمل الانسان والحيوان .

ومما لاريب فيه أن اللواطة من أرذل الجرائم الخلقية التى يترتب عليها انتهاك حرمات الانسان ، وقلب الرجل امرأة ، وتمرينه على العهر وفساد الأخلاق ، فضلا عما فى اللواطة من الانصراف عن النساء ، فيترتب على ذلك ضياع النسل ، وإهمال المرأة وإغراؤها على الفساد ، وغير ذلك من الشرور والمفاسد التى لاتخفى .

٤ — لهذا كله عنيت الشريعة بمحاربة هذه الأخلاق ، ووضعت لها الزواجر الشديدة من حد وتعزير على الوجه الذى بيناه .

عبد الرحمن الجزيرى

« يتبع »

الدرس الثالث

ألقاه فضيلة الاستاذ الاكبر مساء يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ بمسجد أبى العلا بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (شرَعَ لكمْ منَ الدينِ ما وَصّى بهِ نوحاً والذِي اوحينَا اليك ومَا وصّينَا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسَى: أنْ أقيمُوا الدينَ ولا تتفرّقُوا فيهِ،كَبُرَ علَى المشركينَ ما تدعوهمْ اليهِ ، اللهُ يجتبِي اليهِ منْ يشاءُ ويهدِي اليهِ منْ يُنيبُ . وما تفرقُوا إلا منْ بعد ما جاءهمُ العلمُ بغياً بينهمْ ، ولولاَ كلمةٌ سبقتْ منْ ربكَ إلى أجلٍ مسمًّى لَقُضىَ بينهمْ ، وإنَّ الذينَ أُورثوا الكتابَ منْ بعدهمْ لفِي شكٍّ منهُ مريب) .

(الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الشورى)

المفردات . سبب الاقتصار فى الآية على الأنبياء المذكورين . الشريعة المتحدة عند جميع الأنبياء . الشريعة المختلفة بحسب الاستعداد . حكمة تقرير أن شريعة الله واحدة . الإيمان بالله مودع فى الفطرة . حاجة الناس الى الهدى الإلهى . التدين والحرية . المدنية والعقل . الاسلام والوحدة . موقف المشركين من الدعوة . اختلاف أتباع الأنبياء . أسباب الاختلاف . التعصب للرأى . قاعدة القرءان عند الاختلاف . اختلاف المسلمين . ضرر غرورهم بالفلسفة . انحصار دائرة العقل . ليس كل خلاف مذموما . عاقبة التعصب للرأى .

المفردات :

الشرع فى الأصل : اسم للطريق الواضح ، واستعير للطريقة الالهية التى بيّنها الله على لسان أنبيائه .

الدين : يقال للطاعة ، ومنه قوله تعالى : « ومَن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » . ويقال للملة ، ومنه قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » .

الوصية : التقدم الى الغير بشىء يعمله مقترنا بالوعظ .

الإقامة : إقامة الشىء توفيته حقه من علم وعمل .

التفرق : صيرورة الشىء فرقا ، ويطلق على تشتت الشمل وتفرق الكلمة . والتفريق جعله فرقا . وهو يدل على التكثير . والفريق : الجماعة المتفرقة من جماعة أخرى .

كبر : شق وعظم .

يجتبى : يصطفى .

المعنى :

الخطاب فى الآية موجه الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والمعنى أن ما أمرتم به وما كلفتموه من الشريعة هو الذى طُلب من أمة نوح وأمم ابراهيم وموسى وعيسى ، ووُصوا باقامته وعدم التفرق فيه .

سبب الاقتصار على الأنبياء المذكورين :

وقد اقتصر سبحانه على هؤلاء الأنبياء مع أن هذه الشريعة طلبت من أمم الأنبياء جميعهم ، لأن هؤلاء الأنبياء هم مشاهيرهم : فنوح عليه السلام يقترن اسمه باكبر حادثة فى التاريخ هى حادثة الطوفان ، وهو مبدأ للطور الثانى من أطوار التاريخ . وابراهيم عليه السلام جد الأنبياء جميعهم . وكلاهما بعد ذلك معروف بالحجاج وقوة الدليل .

أما ابراهيم ، فترى حجاجه فى قوله تعالى : « فلما جَنّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أَفَل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَنّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أَفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرضَ حنيفا وما أنا من المشركين » .

وأما نوح ، فترى حجاجه فيما يحكيه الله عنه من قوله لقومه : « ما لكم لا ترجون لله وَقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فِجَاجا » .

ولكل منهما بعد ذلك طريق يغاير طريق الآخر فى معاملة قومه : أما ابراهيم فيتمثل طريقه فى قوله تعالى : « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنِىّ أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، فنوّه برحمة الله للعصاة ، وخاطب الله مستمطرا عليهم رحمته . وأما نوح فيتمثل طريقه مع العصاة من قومه فى قوله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفّارا » ، فطلب من الله إفناء العصاة قطعا لدابرهم ومحوا لآثارهم .

وأما موسى عليه السلام ، فرجل من رجال الحرب والجلاد ، وقائد من كبار القواد ، وكبير من كبار الساسة ، ونبى عظيم جاء بالتوراة فيها هدى ونور ، وهو مبدأ للطور الثالث من أطوار التاريخ .

وعيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . والأول يذهب مذهب نوح فى الشدة ، والثانى يطلب ممن يُلطم على خده الأيمن أن يدير خده الأيسر .

الشريعة المتحدة :

والمراد بالشريعة التى أوصى بها الى هؤلاء ولم تختلف ، هى الأمور التى لابد منها لكمال النوع الانسانى ، وهى العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر والكتب والأنبياء ، والفضائل التى تعود على المجتمع الانسانى بالخير والفلاح : كالصدقات ، والاحسان ، والوفاء بالعهد ، والعبادات المهذبة للنفوس والمرققة للوجدان ، والتى يتبعها الخير ، وتوثق الصلات بالجماعة الانسانية .

الشريعة المختلفة :

أما صور العبادات ورسومها وما فى الشرائع من قوانين منظمة للتعامل ومحققة للعدل ، فقد اختلفت فى الشرائع حسب اختلاف استعداد الأمم ، كما هو معروف الآن فى اختلاف الشرائع الوضعية ، ولذلك قال الله تعالى فى هذا النوع الذى يختلف باختلاف العصور والاستعدادات : « لكل جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا » . ولم يقتصر الأمر فى اختلاف هذا النوع على الشرائع المتعددة ، بل حصل فيه الاختلاف فى الشريعة الواحدة تبعا لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها ، وتبعا لاختلاف البيئات والظروف .

حكمة تقرير أن شريعة الله واحدة :

والغرض من تقرير هذه الحقيقة ، وهى أن الشريعة واحدة عند الجميع ، تثبيت المسلمين وشرح صدورهم ، لأن الشىء إذا كان معروفا تتابعت عليه الأمم فى العصور المختلفة ولم يكن

بدعا ، كانت النفوس أكثر تقبلا له مما كان بدعة : «قل ما كنتُ بِدْعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى الىّ » . كما أنه يقصد منه لفت نظر غير المسلمين الى الاسلام ، لأنه إذا كان ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم مماثلا لما جاء به الأنبياء فى الجوهر ، لم يكن هناك مبرر لتركه والاعراض عنه .

وقد كرر القرءان الكريم هذه الحقيقة فى مواضع متفرقة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده» « قل ياهل الكتاب تعالوا الى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكم : ألاّ نعبد إلا الله ، ولا نشركَ به شيئا ، ولا يتخذَ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولم يكتف القرءان بتقرير هذه الحقيقة ، بل أمرنا بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا إليه . ولا شبهة فى أن الأديان جميعها مشتملة على الايمان بالله واليوم الآخر ، وترك الشرور والإثم والعدوان ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة « إن الذين آمنوا والذين هادُوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الإيمان بالله مودع فى الفطرة :

بل إن أكثر البشر يؤمنون بخالق مدبر صاحب سلطان غيبىّ . وهذا المقدار مودع فى الفطرة ، ولا يعقل فهم هذا النظام فى العالم دونه ، ولذلك قال القرءان : « فطرةَ الله التى فَطَر الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون » . غير أنهم مع هذا يختلفون فى فهم صفاته وتدبيره وتقديره . وأكثر الذين يؤمنون بالله يؤمنون بالرسل الذين خصهم الله بنوع من الهدى والعرفان الفطرى ، وأيدهم بالآيات البينات ، وصارت حالة الناس بعدهم خيرا مما كانت قبلهم ، وكانت حالة من اتبعهم خيرا من حالة من فارقهم وشذ عن هديهم .

حاجة الناس الى الهدى الالهى :

والحكمة فى هذه الشرائع الإلهية أن الانسان إذا ترك الى مداركه الحسية ونظرياته العقلية ، ضل وكره الحياة ، وكان أشقى من أنواع الحيوان . وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه . فقد دلت التجارب على أن العقل غيرَ مؤيد بالشرع الالهى ، يذهب مذاهب شتى ، منها الصواب ، ومنها الضلال . وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه . وهذه آراء العلماء فى الفلسفة والأخلاق يشبه بعضها هذيان المحموم ، وبعضها لا يدرك له محصل

على كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين . وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها لم تسعد الأمم بها . فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلى الحكيم .

وقد دلت التجارب أيضا على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به .

وأما أنه لولا الدين لما احتمل الانسان هذه الحياة ، فانها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات : فمن فقر مدقع الى مرض مزمن ، ومن فقد الأهل والعشيرة الى فقد العزة والجاه ، ومن شرف رفيع الى ذلة ومهانة . واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الانسان أمل ينتظره ، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ، ليس فى طاقة الانسان .

فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش ، ويجعل المؤمن فى سعادة نفسية ، ويقويه على احتمال الصعاب ، وعلى الصبر على معاشرة الناس ، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطا ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما ، فان دائرة العقل محدودة ، وهو قاصر عن إدراك خفايا المستقبل .

التدين منظم للحرية وليس مقيداً لها :

وإذا قيل إن التدين مقيد للحرية ومانع من التمتع باللذات فكيف تكون فيه السلوى والعزاء ؟ فالجواب : أن الاسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث ، ولم يحظر من اللذائذ إلا ما يضر الانسان ، وليست السعادة فى حرية البهائم بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته ، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه .

بناء المدنية على الدين لا على العقل :

وقوام آداب الأمم وفضائلها التى قامت عليها صروح المدنية الحقة ، مستند الى الدين . وبعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العقل والعلم . غير أنه لا شبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهما . وليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق ، أو أية قاعدة علمية أخرى ، ولكن من الميسور دائما أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين . فالذى يحاوله العلماء وهم وخيال .

ولما بيّن الله تعالى أن أساس الدين واحد ، طلب منهم بقوله : «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » إقامته وعدم التفرق فيه . طلب المحافظة على الدين جميعه ، وذلك يكون بفهمه والعمل به ، بحيث لا يخل العبد بشىء منه ، وبحيث يكون العمل موجها الى الله العليم الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه الإصلاح ، ولا ينهى إلا عن الشرور والآثام . وطلب سبحانه أن يكون الناس متوحدين فى الدين وفى إقامته ، غير متفرقين فى العلم به والعمل عليه .

الاسلام والوحدة :

وقد مدح الله الوحدة وذم التفرق ، وأنذر من يحيد عن الوحدة فى مواضع من كتابه العزيز: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شَفَا حُفْرةٍ من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» .«ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم ،واصبروا إن الله مع الصابرين» . وفى الحديث الشريف : « لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» .

وفى الحق أنه ما استقامت أمة على سنن الرشاد ولا تم لها نظام ولا بلغت ما تريد من المجد والعز إلا بالوحدة . وما عزت أمة وهابها الأعداء ولا قام فيها عدل وجرت أمورها على الطريق السوى إلا بالوحدة . وأعظم الأمم قوة وأكثرها منعة هى الأمم التى نسيت الجنسيات التى تسللت منها ،ونسيت العصبيات ،واستحالت كلها الى أفراد متجانسة فى اللغة والدين والعقيدة والغاية . والأمة التى تشعر الطوائف فيها بأصولها التى اشتقت منها ، وتشعر بأن هناك فارقا بين طائفة وأخرى ، لا تزال تعانى الشدائد .

التفرق يوزع القوى ، فشخص يبنى وشخص يهدم ، وشخص يهاجم وآخر يدافع . أما الوحدة فتجمع القوى ، وتوجد التعاون بين الأفراد لبلوغ الغايات وتسنم أرفع الدرجات . والتفرق أمارة من أمارات عدم النضوج ، فان العقل الناضج يلازمه عادة حب الإنصاف ، حتى إذا طرح شىء للبحث وكانت هناك عقول ناضجة واتجاه للحق لا تصده الأهواء ، لايلبث الحق أن يظهر مشرقا أبيض الوجه ، ولا يلبث الخلاف أن يزول .

وقد عمل الاسلام على الوحدة فى كثير من المظاهر ، فخليفة واحد تتجه اليه الأنظار ويكون قبلة الجميع ، أفضل من خلفاء متعددين . وصلاة الجماعة خلف إمام واحد يضمهم ويوحدهم ، أفضل درجات من الصلاة مع التفرق . وقد أمر المسلمين بالاجتماع فى الجمعة والعيدين والحج . كل ذلك تنمية للوحدة وتقوية لها . وقد هدم نظام الجنسيات والعصبيات ، وساوى بين الجميع فى الأخوّة ، وجعل الفضل للتقوى . وهكذا عند التأمل نجده يرمى الى الوحدة فى جميع التكاليف . ذلك لأن الوحدة أساس الاصلاح فى الحياة الدنيا ، وأساس العزة والسلطان .

موقف المشركين من الدعوة المحمدية :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى إليه من يُنيب » :

شق على المشركين دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وترك ما كانوا يعبدون . نعم : شق عليهم هذا وظهرت آثاره فى أقوالهم وأعمالهم ، فقد جالدوه وأعنتوه ، وآذوه بأنواع من الأذى

صبر عليها بتثبيت الله إياه « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا » . وكتب السير مملوءة بأنواع الأذى وما لاقاه صلى الله عليه وسلم من شر المشركين . وقد آذوه بالقول فقالوا : « أجَعَل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أنِ امشو واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشي ءيراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا » .

ورموه بالسحر وبالجنون ، وبأنه يحكى أساطير الأولين ، وطالبوه بأشياء لا يصدر طلبها إلا عن حمق وجهالة . كل هذا فعلوه لأنهم دُعوا الى الحق فعز عليهم ترك ما كان عليه الآباء وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهم مقتدون .

وقد عزّى الله نبيه الأكرم بقوله : « الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » فلا تجزع واصبر : إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ومعنى ذلك أنهم تركوا دعوتك لأن الله لم يخترهم ولم يصطفهم للهداية ، ولم يخصهم بالفيض الالهى الذى به تقبُّل نعمة الدين ، ولم يوفقهم للإقبال عليه والإنابة اليه .

وقد يكون المعنى أنهم تركوا الانقياد كبرا وأنفة ، لأنهم قالوا : أألقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشِر . وقالوا : لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . فقال الله لهم : إن الله يصطفى من عباده للرسالة من يشاء ، للحكمة التى يعلمها : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» : « أهم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم » . فالاصطفاء شأن من شئون الله يضعه حيث شاء ، ولا يتقيد بما تقدرون من أحساب وأنساب .

تفرق أتباع الأنبياء :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » :

هذا خاص بأتباع الأنبياء ، وما قبله كان خاصا بالمشركين . فان الذين لم يقيموا الدين فريقان: فريق المشركين وقد بين الله تعالى أنهم تركوا الدعوة أنفة وكبرا ، وفريق أهل الكتاب وقد بين الله فى هذه الآية أنهم تركوا الدعوة بغيا وظلما . والاختلاف كما حصل بين أتباع نبى وأتباع نبى آخر ، حصل فى أتباع النبى الواحد ، وكان الخلاف بعد وجود الحجة ، وبعد وجود الدليل الذى هو سبب من أسباب العلم . والخلاف بعد وجود الدليل لايكون إلاظلما وبغيا .

قد يكون المعنى : وما تفرقوا ولم يؤمنوا بالاسلام إلا بعد أن قامت الحجة عندهم من كتبهم ومن حال النبى صلى الله عليه وسلم على صدقه فى دعواه .

وقد يكون المعنى: إن أتباع كل نبى تفرقوا فى دينهم ، وذهب كل فريق الى رأى يخالف رأى

الآخرين ظلما وبغيا ، طلبا للرياسة وحبا فى التنافس ، فدعا كل فريق الى رأيه وقبح رأى الآخرين ، ونشأ عن ذلك العداوة والبغضاء ، ووجد الظلم والبغى .

أسباب الاختلاف :

وقد يكون من الحق أن نعرض هنا لبيان شىء من أسباب الخلاف الذى يقع بين أتباع النبى الواحد فى فهم دينهم ، فنقول :

إن الخلاف يحدث أولا من تعدد الآراء بسبب تعدد الأفهام . وقد يكون ذلك عن حسن نية وإخلاص طوية فى حب الوصول الى الحق . وبعد أن توجد الآراء المتعددة يعتقد كل فريق أنه على الحق ، ثم قد يلوح الحق فى جانب فيكبر على بعض المتخالفين فى الرأى أن يرجع عن رأيه الى رأى غيره مع قيام الدليل على خلاف رأيه ، وقد تكثر هذه الحال وتشتد بعد أن يوجد للرأى أتباع وأنصار . ويكون التمسك بالرأى أشد لدى الأنصار بعد أن يموت صاحب الرأى ويبقى المقلدون .

التعصب للرأى :

فى هذه الأحوال يصعب جدا الرجوع عن الآراء إلا على من وهبه الله حب الإنصاف وكان الحق عنده أغلى مما يظنه شرفا وكرامة عند الأتباع وعند الناس . ومن عادة الأتباع أن يكونوا مقلدين لا يفهمون الدليل إذا عرض عليهم ، أو تغلبهم حمية الجاهلية فيتعسفون فى التأويل ، فاذا عرض الكتاب عليهم أوّلوه حتى يردوه الى رأيهم ويكون دليلا لهم أو لاينافى رأيهم ، وكذلك يفعل الآخرون . إذ ذاك يصير الكتاب تابعا للآراء لامتبوعا ، ويصير محكوما بعد أن كان حاكما .

هذه الحالة لا يمكن أن تزول إلا إذا أخلص الناس فى حب الحق ، وراعوا حرمة الكتاب ، وآمنوا بأن الحق أغلى من الآراء والأفهام . وإذا لم توجد هذه الخشية من الله ساءت حال المختلفين ، وأصبح أهل الدين الواحد شيعا وأحزابا يضرب بعضهم رقاب بعض .

قاعدة القرءان عند الاختلاف :

ولا منجى من هذه الأحوال إلا باتباع قاعدة القرءان الكريم . فقد قرر وجوب الرجوع اليه عند الاختلاف : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . وقضى أن عدم الرد اليه مناف للايمان . وقال فى آية أخرى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . وفى آية أخرى : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل

من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » . فهــذه الزواجر البالغة تحتم على المسلمين أن يعتبروا ويتنبهوا ، ويفتحوا أعينهم لـكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يردوا الخلاف اليهما .

اختــلاف المسلمين :

وقع المسلمون فيما وقع فيه أهــل الـكتاب من قبلهم : تفرقوا فى العقائد ، وتفرقوا فى الفروع . ولو أنهم حكموا قاعدة القرءان وردوا الى الـكتاب والسنة من غير تعسف فى التأويل ، لضاقت دائرة الخلاف ، ولما بقيت متسعة — كما نراها اليوم — أكـثر من ألف سنة . وقد ضلت الأمة الطريق ، ولعبت بهـا الأهواء ، واختلت الأعمال ، وحل بها الشقاء ، وسلط الله عليها من استبدبها . وقد منّ القرءان عليها بأنها كانت متفرقة فألّف بينها ، وكانت مستضعفة فمـكّن لها فى الأرض وأورثها ديار الأقوياء . لـكنها كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ونسأل الله لها التوفيق الى هدى القرءان .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر ما نقله الامام الرازى عن شيخه فى موقف المقلدين من النصوص التى تكون مخالفة لآراء أئمتهم ، عند تفسيره لقوله تعالى : « اتخَـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله فى بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف ذلك ، فـلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا اليهـا ، وبقوا ينظرون الى كالمتعجبين — يعنى كيف يمـكن العمل بظواهر هـذه الآيات مع أن الرواية وردت عن سلفنا على خلافها ! وقد شكا الغزالى وغيره أيضا من هذه الأحوال . نعوذ بالله من الخذلان .

غرور المسلمين بالعقل والفلسفة :

وجد الخــلاف بين المسلمين فى العقائد والأحـكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرءان ليرجع إليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الـكتاب . فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هـذيان المصاب بالحمى . والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله .

انحصار دائرة العقــل :

وهناك مناطق فى الخلق لا يصل إليها العقــل . والى الآن لم يعرف الانسان كل أجـزاء

جسمه على صغر ذلك الجسم ، فكيف يرقى الى دائرة ليس بينه وبينها صلة ؟ فعلى العقل أن يقف عند حده ، ويعرف اختصاصه . وعلى العقلاء أن يسعوا فى تقريب هوة الخلاف ، فقد اتسع الخلاف واشتد حتى مس عقيدة التوحيد نفسها عند من يقرّبها . فقد أشركوا مع الله فى الدعاء وهو أساس العبادة وركنها الأعظم ، وأشركوا مع الله فى الاستعانة ، والتقرب بالنذور ، والقربان ، والطواف ، والتمسح !

ليس كل خلاف مذموما :

ويجب أن يعلم فى هذا المقام أنه ليس كل خلاف مذموما ، فان الخلاف الذى لم يبن على الهوى يعذر صاحبه ، ولكن مثل هذا الاختلاف لايحدث شرا ، كما كان الاختلاف بين الصحابة والسلف الصالح رضى الله عنهم . انظر الى خلافهم فى البسملة مثلا : فبعضهم يقول إنها آية من الفاتحة تفرض قراءتها فى الصلاة . وبعضهم يقول بخلاف ذلك . ومع أنها مسألة خطيرة فانه لم يحدث بينهم سوء من ذلك الخلاف ، لأن الإنصاف كان موجودا ، والرمى بالكفر لم يكن معروفا إلا عند تكذيب الله ورسله .

والخلاصة : أن حقيقة الدين هى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن التفرق يجىء من الجهل ، ومن التقليد ، ومن حب الرياسة . والاسلام يطالب الناس جميعهم بالتوحيد وعدم التفرق . ولا يصلح حال المسلمين إلا بالرجوع الى الكتاب . ولا تقوم لهم قائمة إلا بوحدة تضم شملهم حتى يكونوا كما ورد فى الحديث الشريف « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . لذلك فرض الاسلام الدعوة الى الدين الحق ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفرض الرد الى الله ورسوله عند الاختلاف .

ومتى عزت الأمة بالوحدة ، وشعر كل فرد أن الفرد الآخر من المسلمين جزء من الوحدة يكمله ، ظهرت النتائج مشرقة لامعة : من سلطان ، ورهبة ، وارتفاع كلمة ، بحيث إذا أهين فرد من أفراد الأمة ألم له الباقون ، وإذا أهين فى قطر بعيد هبت الأمة تطالب بنصره والانتقام له . أما الأمة التى لم تكتمل فيها الوحدة فلا يظهر فيها أثر التعاون والتعاضد .

« ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » :

الكلمة هى أن الله وعد بعدم معاجلتهم بالعذاب ، ولولا هذه الكلمة لاستأصلهم وقضى بينهم بهلاكهم .

عاقبة التعصب للرأى :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » :

بيّنا من قبل أسباب الاختلاف بين أتباع الأنبياء ، وأن هـذا الاختلاف متى استقر أصبحت المذاهب دينا مع أن بعضها يخالف ما فى الكتاب . عند حدوث هذه الحالة يعرض الشك فى الكتاب نفسه عند من يجىء بعد استقرار هذه المذاهب ، لأن أصحاب كل مذهب يدّعون أنه يوافق الكتاب ، وبعض هذه المذاهب لا يتفق والكتاب ، ولا ينطبق على العقل والمصلحة . إذ ذاك يتعرض الكتاب نفسه للشك فيه عنـد مرضى القلوب وضعفاء الايمان .

والله ولى الهداية ، وبه العون والتوفيق .

حسن التخلص

يقال إن عمر بن الخطاب ولى رجلا من قريش عملا فبلغه أنه قال :

اسـقنى شربة ألذ لديها واسـق بالله مثلها ابن هشام

فأمر بعزله عن عمله ، فلما قدم عليه قال له : ألست القائل وأنشده البيت . فقال الرجل : نعم يا أمير المؤمنين وقد قلت بعده :

عسـلا باردا بمـا سحـاب إننى لا أحب شرب المـدام

فقال أمير المؤمنين : أكذا قلت ؟ ورده الى عمله .

وأتى عبد الملك بن مروان بصلفة بن هبيرة وكان ممن أسر من جيش الخوارج تحت قيادة مدعى الخلافة شبيب . فأمر بقتله وقال له ألست القائل :

ومنا سـويد والبطين وقعنب ومنا أمـير المـؤمنين شبيب ؟

فقال يا أمير المؤمنين : إنما قلت أميرَ المؤمنين (بالفتح) فاستحسن ذلك منه وأطلقه .

الاخلاق الفلسفية

العـــادات

عرّف بعض علماء النفس العادة بأنها انعطاف مكتسب بالخبرة والتعلم يدفع الانسان الى تكرير عمل معين ، أو انفعال خاص على نظام معين . وقد اتفق العلماء على أن للعادات آثاراً قوية على سلوك الانسان الذى تتكون منه أخلاقه ، وهـذا هو الذى يحدونا الى دراستها كما درسنا الغرائز آنفا .

آراء الفلاسفة فيها :

كما أن « سقراط » هو الكاشف الأول لأهمية الغريزة ، وهو الذى أوضحها وأشار الى أثرها على السلوك ، كذلك « أفلاطون » هو أول من اهتم بدراسة العادة ومنحها مكانا فسيحا بين صفحات كتبه ، وإن كانت لم تنل من لدنه إلا ذما وقدحا ، لأنه يرى أنها سيئة كلها ، ولا تنتج خيرا ألبتة ، وهو لهذا يقول : بئست الفضائل الرجعية المؤسسة على عادات قديمة !

وأما « أرسطوطاليس » فهو أول من حلل العادة تحليلا نفسيا دقيقا لا يزال العلماء المحدثون يعجبون به الى اليوم ، ويرون أنه محـدد متقن ، لأنه يقول : العادة تتكون شيئا فشيئا من حركات غير طبيعية إلا أنها مكررة . فاصل العادة إذاً ومنشؤها الأول هو التكرار الذى ينتهى بجعلها أشبه شىء بالطبيعة وباعطائها قـوة تشبه قوتها . وأثر العادة على الانسان عنده قوى جداً ، لأن المرء لا يسمى عادلا إلا بتكرار مواقف العدالة ، ولا يعد شجاعا إلا بتمرين أعمال الشجاعة ، ولا يصل الى مرتبة الحكيم إلا بدوام مزاولة الحكمة . وليس الفضل فى كل هذا إلا للعادة التى إذا ثبتت وقويت أصبحت طبيعة ثانية .

وأما « إيبيكور » فهو — مع أنه ليس له فى العـادة نظرية فلسفية خاصة — يرى أنها إحدى الوسائل التى تسطع الفضيلة العملية بوساطتها فى سماء هذا الوجود .

وأما « ديكارت » فهو يطبق على العادة نظريته المعروفة فى اجتماع الجسم والروح ، وهى التى ترى أن اجتماع الجسم والروح اللذين هما من جوهرين مختلفين يولد حركات خاصة ليست العادة إلا بعضها .

وأما « كونديلاك » فقد رأينا أنه يرجع أصل الغرائز الى العادات ، ويحكم بسابقيتها حتى على غريزتى حفظ الذات والنوع اللتين كانتا لدى الانسان منذ الدقيقة الأولى التى نبض فيها قلبه بالحياة .

ولقد غالى بعض الفلاسفة الآخرين فى قيمة العادة مغالاة شديدة ، فعزا إليها كل القوانين الروحية التى تعرفها البشرية . ونسب إليها بعض آخر تسعة وتسعين وتسعمائة فى الألف من أعمال الانسان .

فلما سئل هذا البعض عن مصير الغرائز الفطرية ، أجاب بأن مظاهر الغرائز هى العادات ، وبان العادة كثيرا ما تكون أداة صالحة لإرضاء الغريزة ، ولكن مهما يكن من أمر مغالاة هذا البعض ، فان الذى لا شك فيه هو أن للعادات سلطانا كبيرا وأثرا بارزا على سلوك الانسان . وهذا السبب هو الذى روّع « جان جاك روسّو » وأرعب « كانْت » من العادات ، وأخافهما على مصير السلوك الانسانى من نتائجها التى قد تكون سيئة فى بعض الأوقات ، فقال « روسو » فى كتابه « إميل » : « خير عادة أن لا يكون للمرء عادة » . وقال « كانت » فى كتابه « معالجة التربية » : « إنه كلما زادت عادات الانسان ضاقت حريته ، وقل استقلاله ، فيجب أن يمنع الأطفال من أن يعتادوا عادة ما » .

على أن « جان جاك رسو » لم يحتفظ بهذا النفور من العادة ، ولم يستطع أن يحول تيار آرائه بعيدا عنها ، حتى إن كتاب « إميل » نفسه لم يتبرأ من العادة كما كان يبدو للوهلة الأولى ، إذ نرى « روسو » يصرح فى نفس هذا الكتاب بأن التربية ليست إلا تعويدا على عادة مخصوصة ، ولكن القارئ الذى ألف قراءة آراء « روسو » لا يدهش من مشاهدة التناقض فى كتبه ، وليس لهذا من سبب — فيما أرى — سوى اضطراب حياة الرجل العقلية . أما « كانت » فيخيل الىّ أنه تأثر فى هذا الرأى بعاملين : الأول هو مغالاته فى مناصرة الحرية الانسانية التى قد يعدو عليها سلطان العادة فيقيدها . أما العامل الثانى : فقد يكون هو « روسو » نفسه ، لأن مؤرخى الفلسفة الأوربية الحديثة ينبئوننا بأن كتاب « إميل » قد نال من نفس « كانت » منالا لم يحزه أى كتاب آخر من كتب المعاصرين .

وإذا كان الفزع من نتيجة العادات هو الذى اوحى الى « روسو » و« كانت » المناداة بالبعد عن العادات ، فإن التأكد من حسن نتيجة العادات الطيبة هو الذى حمل « ريبو » و « جوستاف ليبون » على الدعوة الى وجوب تحويل كل الصفات الحسنة الى عادات لاشعورية فى الانسان .

ولا ريب أن جميع هؤلاء العلماء الأربعة لا يقصدون إلا الوصول بالانسان الى الكمال لمطلق ، ولكنهم اختلفوا فى الطرق والوسائل الموصلة الى هذا الكمال لا أكثر ولا أقل .

تأصل العادات فى النفس :

إن الأعمال إذا تكررت التكرر الكافى لصيرورتها عادة ، وإذا استكملت الشروط

الأساسية التى يجب أن تتوفر فى العادة ، وهى القابلية النفسية وإبراز العمل الى حيز الوجود بناء على هذه القابلية و بطريقة منظمة ، أقول : إذا توفر لها كل ذلك سميت عادة وخلق لها تيار خاص يسير فى الأجهزة العصبية سيرا مستقلا حافظا شخصية ذلك التيار حفظا تاما . ولهذا السبب كان من الصعب جـدا تغيير العادات ، لأنه يترتب عليه تغيير المجرى العصبى الذى يسير فيه تيار العادة القديمة ، وهـذه الصعوبة هى التى حـدت بعض العلماء الى أن يقول : إن العادة طبيعة ثانية .

على أن صعوبة تغيير العادة لا تحول بيننا و بين الاعتقاد بأن مرونة الأعصاب ولو الى حد تبعدنا عن اليأس من إمكان تغيير العادة تغييرا تاما ، وتقذف فى نفوسنا الأمل القوى فى التغلب على العادات السيئة وإخماد جذوتها ، وإن كان ذلك يتحقق فى الأطفال والشبان أكثر من تحققه فى الـكهول والشيب .

نتائج العادة :

للعادة نتائج حسنة وأخرى سيئة ، نذكر من أهمها ما يأتى : (١) إن من نتا ئجها الحسنة توفير التعب فى الأعمال اليـومية التى أصبحت بالعـادة آلية ، ولولاها لاحتاجت من الانسان الى تفكير طويل ، ولـكلفته عناء شـديداً فى تنظيمها وفى إجادة القيام بها ، لأن الانسان تعود على غسل الوجه واللبس والافطار والخروج الى عمله والجلوس إلى مكتبه ، وأمثال هذه الأعمال التى يقوم بها فى كل يوم بطريقة آلية ، فهى لا تـكلفه من عناء التفـكير عشر ما يجب لعمل شىء لم يكن قد تعوده من قبل . (٢) العمل على تقدم الانسانية ، لأن المجهود الذى كان ينبغى أن يصرف فى هذه الأعمال فى كل يوم قد تحول الى نواحى أخرى ينجم عنها رقى الفرد والهيئة الاجتماعية بأسرها . (٣) تنظيم أعمال الانسان وجعل كل فصيلة منها تنضوى تحت راية خاصة . (٤) تسهيل القيام بأغراض الغرائز وبتيسير إرضاء رغباتها .

أما نتائجها السيئة فقد ذكر منها العلماء : (١) الركود والجمود ، لأن الشخص إذا تعود على عمل شىء بعينه لم يفكر فى الاقلاع عنه ، بل يصبح هذا الاقلاع شاقا على نفسه ، مبغضا إليها . (٢) سيطرة العادة على الارادة الانسانية ، وضغطها على حرية الفرد والجماعة .

وسائل تغيير العادة :

إذا كان العلماء قد أجمعوا على إمكان تعديل الغرائز وهى فطرية خلقت مع ذات صاحبها فى لحظة واحدة ، فليس من المعقول أن يختلفوا فى إمكان تغير العادة ، وهى المحدثة المـكتسبة من المران والتعلم . وقد حددوا لذلك التغيير وسائل ، من أشهرها ما يأتى : (١) عدم السماح

للذهن بالتفكير فى العادة المراد تركها مطلقا . (٢) شغل العقل بعادة أخرى جديدة سواء أكانت ضد الأولى أم من فصيلة أخرى . (٣) تغيير البيئة التى تتكرر فيها هذه العادة . (٤) حمل صاحب العادة السيئة على التصريح برداءة هذه العادة أمام أشخاص يهمه احترامهم واحتقارهم إياه ، لكى لا يستطيع العودة إليها بعد هذا الاحراج ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

بلاغة استنجاز الحاجات

قدم الأحنف بن قيس سيد بنى حنيفة على معاوية بن أبى سفيان فأقام أشهرا لا يساله فيما جاء .

فقال له يوما : يا أمير المؤمنين إنك ترعينى مرعى وبيلا ، وتوردنى ظمأ طويلا ، أفيأس وراوح ، أم حبس ونجاح ؟ فقضى حاجته .

ووقف أعرابى على رجل يستميحه فقال : إنى امتطيت اليك الرجاء ، وسرت على الأمل ، ووفدت بالشكر ، وتوسلت بحسن الظن ، فحقق الأمل وأحسن المثوبة ، وأقم الأود ، وعجل السراح .

وقال بعض الشعراء مستنجزا :

جعلت فداك قد وجب الزمام　　وقد طال التلبث والمقام
وقد أزف الرحيل الى بلادى　　فرأيك لا عدمتك والسلام

وقال أبو الطيب فى مثل هذا :

لقد نظرتك حتى حان مرتحلى　　وذا الوداع فكن أهلا لما شيتا

وكتب بليغ لصاحب حاجته : بنا الى معروفك حاجة ، ولك على صلتنا قوة ، فانظر فى ذلك بما أنت له أهل ونحن له أهل .

وكتب بعضهم يستنجز : حقيق على من أزهر بقول أن يثمر بفعل ، والسلام .

ووفد بشار بن برد على يحيى بن خالد فامتدحه فوعده خالد ومطله ، فتصدى له فى طريقه وهو يريد الجامع وأخذ بعنان بغلته وأنشد :

أظلت علينا منك يوما سحابة　　أضاء لها برق وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع　　ولا غيثها يهمى فتروى عطاشها

فقال له لن تنصرف السحابة حتى تبلك يا أبا معاذ ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

المذاهب الاسلامية

إن ما يقرؤه القارئ بين حين وآخر عن أعمال الاستاذ الامام ليثلج الصدر ، وتتقبله الأمة بجزيل الشكر . ومن هـذه الأعمال العظيمة ما كتبته مجلة الأزهر الغراء عن دروسه الدينية والتحدث عن المذاهب الاسلامية ، وجهده لازالة التعصبات المذهبية . وهذه منقبة جليلة لها أثرها العظيم فى حياة المسلمين الاجتماعية .

العمل لازالة التعصب إذ لا بد من الخلاف :

وقد أشار الأستاذ الامام أن الخلاف لا تمكن إزالته ، وعلينا أن نسعى لازالة التعصب وتضييق دائرة الخلاف .

الطريق الموصل لذلك :

وقد أشار أيضا أن الطريق المؤدية لذلك أن نعرض كلام الأئمة على الكتاب والسنة ، وأنه إذا فعلنا ذلك وجدنا بعد حين أن المختلفين قد التقوا فى ساحة الوحدة . وهـذا حق لامرية فيه ، إذ تذهب أقوال كثيرة لا دليل عليها من السنة . وهناك أقوال أخر تستند على الحديث الضعيف ، فيذهب هذا وهذا ويبقى الخلاف منحصرا فى فهم المراد ، واختلاف أنظار المجتهدين فى طرق الاستنباط . وبهذا نستحصل على تضييق دائرة الخلاف . وبما أن الخلاف سيبقى فيجب علينا إذاً أن نسعى لإزالة التعصب والتقليد الأعمى .

وأنا أشير الى طرق إذا وجدت لا بد وأن نصل الى الغاية التى نرمى اليها :

١ — ما أشار اليه حضرة مدير المجلة من تأليف هيئة كبار العلماء لهذا الأمر الخطير .

٢ — ما أشار اليه الأستاذ الامام من عرض أقوال الأئمة المجتهدين على الكتاب والسنة .

٣ — أن يكون الأزهر كعبة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ويدرس فيه المذاهب العلوية : كمذهب الزيدية ، والإمامية ، والاسماعيلية إن كان له بقية ، فهو الأحق من سواه .

٤ — يجدر بالمؤلفين من العلماء أن يتعرضوا لخلاف مذهب العلوية أيضا ، فيذكروا زيد بن على ، وجعفراً الصادق ، والهادى ، والباقر ، الى غير ذلك .

٥ — أن يتحاشى المؤلفون عما يثير الروح العصبية بين المذاهب الاسلامية ليس بالقول بل بالفعل ، فعليهم أن ينظروا الى المذهب المخالف بنظر العدل والمساواة ، وإن قالوا قديما تكره صلاة الشافعى خلف الحنفى فعلينا أن نقول : الاقتداء بالمخالف والموافق سواء .

وأما مسألة تقليد العوام ، فقد رأى الاستاذ الامام أن العامى يجب عليه أن يلتزم مذهبه حتى لا يكون متتبعا للرخص .

وأنا أرى أن هذه المسألة مما يثير روح التعصب ، ولا يمكن إقناع العامة وهم سواد الأمة إذا لزمناهم على تقليد مذهبهم وحظرنا عليهم تقليد سواه . وأرى أن هذا التقليد لا بأس به . يؤيد هذا أنه لو فرضنا شافعيا توضأ على مذهبه ولم يثبت عنده النقض من لمس المرأة وصح عنده مذهب الامام مالك فى التكلم لمصلحة الصلاة واعتقد بجميع ذلك ، ألا تكون صلاته صحيحة ؟

ولو أفتى على هذا وقلد أفلا تكون صلاة المقلد أيضا كذلك ؟ هذا إذا قلنا إن المجتهد المصيب واحد ، وإذا قلنا بمذهب المصوبة فالأمر أوضح .

وعلى هذا فلا مانع من التوضؤ على مذهب والصلاة على مذهب آخر ، ولا بأس بتتبع الرخص وهو الأرفق بالعامة وفيه مصلحة الأمة ، وعليه تدل الأصول الشرعية ، فقد قال الله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر » . والى هذا ذهب المحقق الكمال بن الهمام واختاره الخضرى بك فى أصول الفقه . لكن قال : على المسلم أن يكون هواه تبعاً لدينه ، ولا يكون دينه تبعاً لهواه . وهو كلام حسن .

ونسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين ويتعظوا بقول الله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ، إنما أمرهم الى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون» . ولمثل هذا فليعمل العاملون ؟

بدر الدين علاء الدين

من لطائف الكرماء

وقف أعرابى على معن بن زائدة فى طريقه فأنشده :

ياواحد العرب الذى أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك فى الورى ما كان فى الدنيا فقير

فأمر له بألفى درهم .

وقابله رجل فقال : إنى جعلت فضلك سببى اليك ، وكرمك وسيلتى عندك .

قال معن : سل حاجتك .

قال الرجل : ألف درهم .

قال معن : قد أربحتنى أربعة آلاف درهم فانى حدثت نفسى أن أعطيك خمسة آلاف .

فقال الرجل : أنت أكبر من أن تربح على مؤملك . فأعطاه معن خمسة آلاف .

موازين الحكم الادبى

الذوق :

قال العلامة ابن خلدون فى المقدمة : إن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه ، يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب ، حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب ، وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة . قال : وقد استعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ، لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجدانى للسان كما أن الطعوم محسوسة له ، ومن ثم قيل له : ذوق (١) .

ثم يمضى ابن خلدون فى بحثه عن الذوق فيعتبره ميزاناً من موازين الحكم الأدبى ، بل يعتبره الحاكم المستبد بذلك فيقول : وملكة البلاغة ــ التى هى الذوق ــ تهدى البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة ، والتراكيب المخصوصة ، لما قدر عليه ولا وافقه لسانه ، لأنه لم يعتده ولا تهديه إليه الملكة الراسخة عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن لسان العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم ، أعرض عنه ومجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . . . ثم يقول : ولا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبى والمعرى بعدم النسج على الأساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلا عن طبقة الشعر . والحاكم بذلك هو الذوق . . . ويقول أيضا : فمن كان محفوظه شعر حبيب أوالعتابى أوابن المعتز أوابن هانئ أو الشريف أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابى ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة فى البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيانى أو العماد الأصفهانى لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك كما يظهر ذلك للناقد البصير ، صاحب الذوق (٢) .

---

(١) ص ٤٦٦ طبع بمطبعة التقدم (٢) المقدمة ص ٤٧٧ ، ٤٧٩

وكل ما قاله ابن خلدون إنما هو ترديد وتلقف لأقوال النقاد الذين سبقوه كابن سلّام والآمدى والجرجانى وابن رشيق وغيرهم ؛ فقد تكلموا جميعهم عن الذوق ، وأشاروا الى أهميته فى الحكم الأدبى وتقدير الكلام ، فقال ابن سلام فى كتابه « الطبقات » : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم به كسائر أصناف العلم والصناعات ، إذ منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان ؛ ومن ذلك اللؤلؤ : لا يعرف بصفة ولاوزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم : لاتعرف جودتهما بلون ولا مس ، ولا طراز ولا حس ، ويعرفها الناقد عند المعاينة ، فيعرف بهرجها وزائفها ، وستوقها ومفرغها . وكذلك البصر بالرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقيّة الثغر ، حسنة العين والأنف ، ظريفة اللسان ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار أو بمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف أو بألفين ، ولكن لايجد واصفها مزيداً على هذه الصفة . وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، ليّن الظهر ، جيّد الحافر ، فتى السن ، نقى العيون ، فيكون بخمسين ديناراً أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتى دينار أو أكثر . ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء : إنه حسن الخلق ، ندى الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، وتوصف الأخرى والآخرى بهذا الوصف وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة ، والاستماع بلا صفة ينتهى إليها ولا علم يوقف عليه . وإن كثرة المدارسة للشىء لتعين على العلم به . وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به . وقد نقل ابن رشيق هذا الكلام وقرظه ثم قال وهو يعقب عليه : وقد سمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة فى الشعر صفة ، إنما هو شىء يقع فى النفس عند المميز ، كالفرند فى السيف ، والملاحة فى الوجه . وهذا راجع الى قول ابن سلاّم ، بل هو بعينه ، وإنما فيه فضل اختصار (١) .

أما الآمدى فقد توسع للموضوع غايته ، وجرى فيه شوطاً لم يلحقه فيه غيره من المتقدمين ، فأدار الكلام على معنى ماقال ابن سلام ، بل هو قد اعترف لابن سلام بالفضل والسبق ، وقال أيضا بأن دعبل بن على الخزاعى قد تناول هذا المعنى فى كتاب ألفه عن الشعر . ثم مضى يمحص ويناقش الرأى مناقشة يحاول فيها أن يقنع القارئ قبل أن يقنع نفسه ، ومن رأيه أنه لايكفى فى العلم بالشعر والحكم عليه «أن يكون عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء ، وأنت ربما قلبت ذلك ، أوحفظت القصيدة أوالخمسين منه» ، وإنما هو شىء «لايعرف إلا بالدربة ودائم التجربة ، وطول الملابسة ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج ، فلن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ، ومن إذا علم أنصف ، ثم إن العلم بالشعر إن جاز أن يدعيه كل أحد ، وأن يتعاطاه من ليس من أهله ، فلم لايدعى

(١) العمدة سطر ١ ص ٧٧ ط أولى .

أحد المعرفة بالعين والورق ، والخيل والسلاح ، والرقيق والبز ، والطيب وأنواعه ، ولعله قد لابس من أمر الخيل وركوبها ، والرقيق واقتنائه ، والثياب ولبسها ، والطيب واستعماله ، أكثر مما عاناه من أمر الشعر وروايته ، فلا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها بالمعرفة ببعض هذه الأشياء مما عاناه وتناوله . وما باله وقد ركب الخيل كثيراً لما راقه من الفرس ملاحة سيبه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وحسن إشراقه وعنقه ، وموضع نتاجه ، وصحة قوائمه وسلامة أعضائه ، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة . وكذلك السيف لما بهره جلاؤه وصقاله وصفاء حديده ، لم يمض فيه اختياره حتى شاور من يعرف حسنه ، وجوهره وفرنده ومضاءه ، وكذلك لما أعجبه من ثوب الوشى حسن طرزه ، وكثرة صوره وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، لم يبادر الى إعطاء ثمنه ، حتى رجع الى أهل العلم بجوهره وكثرة مائه ، وجودة رقعته ، وصحة نساجته ، وخلاص إبريسمه ، فكيف لم يفعل ذلك بالشعر لما راقه حسن وزنه وقوافيه ودقيق معانيه ؟ ولم لم يتوقف عن الحكم له على ماسواه حتى يرجع الى من هو أعلم منه بألفاظه ، واستواء نظمه ، وصحة سبكه ، ووضع الكلام منه فى مواضعه وكثرة مائه ورونقه إذ كان الشعر لايحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع فيه هذه الخلال ؟

ثم أخذ الآمدى يناقش هذا الكلام ويراجعه على نفسه فيقول : فان قلت : وما العلم بالخيل والبز والرقيق والذهب والفضة التى لم يطبع الانسان على المعرفة بها والعلم بجيدها ورديئها كما طبع على الكلام ، فكان كل أحد متكلما وليس كل أحد صيرفيا ولا بزازاً ولا نخاسا ؟ قيل : ولا كل أحد يكون شاعراً ولاخطيباً ولامنطيقاً بليغا ولابارعا ، ولوكان ذلك كذلك لما رأيت أحداً يتكلم فيضحك منه ، فالانسان المتكلم يعلم معانى ألفاظ لغته ولايعلم جيدها من رديئها ومتخيرها من مرذولها ، كما أنه يعلم أيضا أنواع الثياب والجواهر والخيل والرقيق ويميز بين أجناسها ، ولا يعلم جيد كل جنس من رديئه ، ورفيعه من دونه ، فكما أن المعرفة بكل جنس من هذا صناعة ، فكذلك المعرفة بكل جنس من أجناس الكلام صناعة ، فاذا رجعت فى المعرفة بتلك الى أهلها فارجع أيضاً بهذه الى أهلها . وقد قيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشىء من الشعر وتقول : هو ردىء والناس يستحسنونه ! فقال : إذا قال لك الصيرفى إن هذا الدرهم زائف فاجهد جهدك أن تنفقه فلا ينفعك قول غيره إنه جيد ، فمن سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له ، أن يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه ، وأن يسلم له الحكم فيه ، ويقبل منه ما يقوله (١)

ولقد أشار الجرجانى الى عمل الذوق وأهميته فى الحكم الأدبى غير مرة فى كتابه « الوساطة » ، فقال وهو يتحدث عن السرقات الأدبية : وهذا باب يحتاج الى إنعام الفكر

---

(١) الموازنة صفحة ١٧٧ وما بعدها .

وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الاقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة ، فقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضا بالصناعة متدربا بالنقد (١) . ثم قال وهو يتحدث عن مواقع الكلام : فأما المختل المعيب ، والفاسد المضطرب ، فله وجهان : أحدهما ظاهر يشترك فى معرفته ، ويقل التعاظل فى علمه ، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ من ناحية الاعراب واللغة ، وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبل الوزن ، فان العامى قد يميز بذوقه الأعاريض والأضرب ، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر ، ويظهر له الانكسار البين ، والزحاف السائغ ؛ والآخر غامض يوصل الى بعضه بالرواية ، ويوقف على بعض بالدراية ، ويحتاج فى كثير منه الى دقة الفطنة وصفاء القريحة ، ولطف الفكر ، وبعد الغوص ، وملاك ذلك كله ، وتمامه الجامع له والزمام عليه ، صحة الطبع وإدمان الفكر ، فانهما أمران ما اجتمعا فى شخص فقصرا فى إيصاله عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته (٢) .

وكذلك أشار الشيخ عبد القاهر الجرجانى الى صلة الذوق بصيرفة الكلام والحكم عليه فى مواضع متفرقة فى كتابه « دلائل الاعجاز » فقال وهو يتحدث عن اللفظ والنظم : « واعلم أنه لايصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولايجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة » ، وقد ختم دلائل الاعجاز بكلام طويل انتهى فيه الى أن العمدة فى إدراك البلاغة إنما هو الذوق والاحساس الروحانى ، فلا يصح للانسان أن يرى الرأى فى الأدب ، ويقضى فى الشعر « إلا إذا صحت قريحته ، وصح ذوقه ، وتمت أداته » ، ثم أتى لهذا الكلام بكثير من الشواهد والأمثال ، وحث القارئ على التدبر فيها والتأمل .

فنقدة الأدب العربى ، كلهم أو جلهم ، على أن الذوق ضرورى للحكم الأدبى ، فهو يؤدى عملا كبيراً فى تمييز الكلام ، وتقدير ما يعرض له من حسن التعبير أو خلله ، وجمال التصوير أو قبحه ، وقوة المعنى أو تهافته ، وتناسق الخيال أو شذوذه .

قد تقول : ولكن كيف هذا فتعتبر الذوق ميزانا من موازين الحكم الأدبى ، ينتهى الى رأى قاطع ، ويؤدى الى نتيجة ثابتة ، ويسمو عن التناقض والتخلية ، مع أن الذوق — على ما هو معروف — كمية مبهمة ، حظ الناس منها يختلف ويتباين نظرا لاختلاف استعدادهم وتباين مواهبهم ، فنجد الشىء الواحد يستحسنه بعض الناس ويستقبحه آخرون ، ولا شك أن هذا الاختلاف إنما أتى من اختلاف الأذواق ، وإلا فللشىء فى إدراكه حقيقة واحدة كما يقول المناطقة ، فلا يصح أن نقول إنه حسن قبيح فى آن واحد . ثم إن الذوق — على ما يبدو — يختلف باختلاف الزمان والمكان ، ويتباعد بتباعد العصور والأمصار ، فلكل

---

(١) ، (٢) الوساطة ص ١٦٦ ، ٣١٢

جيل ذوقه ومشربه ، ولكل شعب هواه ومنزعه ، بل إن الذوق الواحد قد يختلف فى جيل بعينه باختلاف الظروف الوقتية الطارئة التى تعرض له . وقديما قال عبد الكريم بن ابراهيم : قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، وتجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا يخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره (١) .

وأنا أقول لك بأن هذه المسألة بعينها قد كانت مثار نقاش طويل ، وجدل قوى بين النقاد الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، إذ تصدى الناقد المشهور « بوالو » للبحث فى الجمال الفنى والشعرى ، فاقتضاه سير البحث أن يورد على نفسه هذا السؤال : هل الجمال بوجه عام — وهو محور الفنون الجميلة — من الأشياء الأكيدة الثابتة التى لا تتغير فى الذوق والادراك ؟ وقد أجاب « بوالو » على ذلك بالايجاب الجازم ، وعلل الجواب بأن الفنون الجميلة مثلَ الشعر والتصوير التى يتجلى فيها روح الجمال ، ليست مختصة بأمة من الأمم أو زمان من الأزمنة ، وقد حملت هذه النظرية « بوالو » على أن يسلم لمعارضيه بأن الذوق السليم الذى يميز الغث من السمين ، لا يمكن أن يتغير بتغير الأقاليم والعصور ، فيصدر حكمين مختلفين على شىء واحد ، بل إن ما كان جميلا البارحة هو كذلك اليوم وغدا ، ودليل ذلك أن رواية مثل أوديب الملك التى حازت رضى اليونان فى العصور الأولى لا تزال الى الآن تستفز إعجاب الناس أجمعين ، على الرغم من تفاوت المشارب والآراء ، والحضارة بين العهدين القديم والحديث (٢) .

وهذا الذى قاله « بوالو » كلام مجمل لا يشبع الباحث ولا يقنع السائل ، وأحب أن أنتهى بك الى الإقناع والإشباع فى ذلك بما قاله العلماء من تقسيم الذوق الى قسمين : ذوق ذاتى شخصى وهو الناشئ عن شخصية الفرد نفسه ، والذى يتجلى عن كل شخص فيما يلذ وما يكره ، وما يحب وما يبغض ، والذى عنه يصدر فيما يقرأ وما يكتب ، فتكتسب كتاباته ذلك الروح الخاص الذى يلازم كتابة كل أديب له ذات أدبية مستقلة . وذوق مكتسب وهو مزاج من العقل والشعور ينقدح فى ذهن الشخص ، ويتمكن بالارتياض وإدمان النظر فى آثار الكتاب وروائع الشعراء حتى يصير جزءاً من طبعه ، وملكة راسخة فى نفسه . وهم على أن الذوق الشخصى لا عمل له فى النقد والحكم على الآثار الأدبية . فعلى الناقد أن يتحلل منه ما استطاع حتى لا يحكم بهواه ، ويخضع النقد لميوله ونزعاته ، وقد تكون هذه الميول بمناى عن الوضع الأدبى الصحيح ، والحقيقة الفنية النابتة .

أما الذوق المكتسب فهو عنصر أصيل فى باب النقد الأدبى ، وهو الذى نعتبره ميزانا

(١) العمدة ص ٥٩ ج ١ (٢) بحث فى النقد بمجلة الهلال سنة ١٩١٤

من موازين الحكم الأدبى ، ويمكن أن ينتهى فى ذلك الى حكم قاطع ، ويؤدى الى نتيجة ثابتة ، ويسمو بصاحبه عن التناقض والتخلية ، لأن الذوق المكتسب ليس كالذوق الشخصى يخضع للميول والأهواء ، ولكنه يخضع لقوانين علمية ، ويرجع الى أصول أدبية ، ويستعين بثقافة شاملة ، وكل هذه تحمله على الضبط والتحرير ، وتعينه على صواب الحكم والتقدير ، وهذا الذوق المكتسب هو الذى يعتبره النقاد العرب فى الحكم الادبى . وقد نقلنا لك فيما سبق كلاما عن الآمدى يقول فيه : « فمن سبيلُ من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له ، أن يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه ، وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله » ، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون : « إن الذوق ملكة تحصل بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب ، فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسى والزمخشرى ، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً فى نسبهم فقط ، وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم ، واستولوا بذلك من الكلام على غاية لاوراءها ، وكأنهم فى أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا فى أجيالهم (١)

ومما لا شك فيه أن هذا الذوق المكتسب كان له أثر كبير فى الأدب العربى وتاريخه ، فعليه كان يعتمد النقاد فى أحكامهم الأدبية ، وبه استعان الرواة على إدراك الدخيل والمنحول فى شعر شاعر بعينه أو كتابة كاتب بعينه ، وقد ذكر ابن سلام فيما ذكر من ذلك أن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقوم له من الجلب والميرة ، فأتاه أبو عبيدة وابن نوح ، فسألاه عن شعر أبيه متمم وقاما له بحاجته ، وكفياه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه متمم جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، وإذا هو يسلك طريقته ، ويحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، ويشير الى الوقائع التى شهدها ، فأدركا أنه كلام دون كلام متمم ، فرداه عليه . وروى عن يونس النحوى أنه كان عند بشار وقد أنشد فى شعر الأعشى :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأنكره بشار وقال إنه لا يشبه كلام الأعشى فى شىء . قال يونس : فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت عند خلف الأحمر ، فأخبرنى أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى . ولا شك أن بشارا وأبا عبيدة وابن نوح ، إنما ردوا ما ردوا من الشعر ، وميزوا ما ميزوا من الأبيات اعتماداً على ذوق أدبى مكتسب ، وملكة فنية راسخة تمت لهم بمزاولة الشعر والنظر فيه .

فالذوق المكتسب ذو خطر كبير فى النقد الأدبى « لكنه كطل ملكة أخرى لا ينفع نفعه ، ويعمل عمله إلا إذا حسنت تربيته ، والتربية هنا كطل تربية صالحة ، يجب أن يكون

(١) المقدمة ص ٤٦٨

أساسها الارشاد والتحذير وقوامها التنشيء على الصواب ، والتعويد على الاحسان منذ البداية ، ولا بد أن تكون هناك نماذج كثيرة معروفة من الأدب الحسن ، والكلام الجيد الفصيح ، حتى يصح وينشأ نشأة قوية ، وحتى يعرف من نفسه إذا ترك وشأنه : أى الكلام جدير بالاقبال عليه ، وأيه حقيق بالاعراض عنه ، فاذا ميزت له مراتب تلك النماذج ، أمكنه بعد أن يميزمن نفسه مراتب الكلام »

« ومهما يكن من شيء ، فان المقياس العملي للفصاحة فى أى أدب يجب أن يلتمس فى كلام فحوله ، وأعيان البيان فيه . على كلامهم يجب أن يربى الذوق ، وبمقياسهم يجب أن يقيس. وفى الحق أن علوم البلاغة فى أى لغة لم تستنبط إلا من مثل ذلك الكلام ، وليس يعوز الأدب العربى شيء من هذا كله ، ففيه من كل نوع من أنواع البلاغة المثل بعد المثل ، فيه القرآن هو المثل الأعلى الذى لا يفتأ يرقى بمن يهتدى به فى مراقى البلاغة ، وفيه تحققت غاية البلاغة البشرية فى كلام الرسول وكلام خلفائه وأصحابه ، وفيه قبل ذلك ومن بعد ذلك مثل للبلاغة بعضها فوق بعض ، وبعضها يدنى من بعض ، لا يستطيع الأديب ولا الناقد أن يهملها وهو يطمع أن يكون له فى العربية مكان بين المجيدين (١) » ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) راجع النقد التحليلى للغمراوى .

من الشعر ما يزيل الطيرة

خرج طاهر بن الحسين قائد المأمون لقتال على بن عيسى قائد الأمين وقد جعل فى كمه دراهم يفرقها على من يصادفه من المتسولين فى طريقه ، وذهل أنها فى كمه فأسبله ، فسقطت وتبددت الى كل وجه ، فتغير لذلك وجهه وتطير منه ، وكان معه شاعر فقال له : لا بأس من هذا أيها الأمير ثم أنشده :

هذا تفرق جمعهم لاغيره وذهابها منه ذهاب الهم
شيء يكون الهم نصف حروفه لاخير فى إمساكه فى الكم

الاشتراكية فى الاسلام

اهديت الينا نسخة من كتاب اصول الاقتصاد السياسى فى التوزيع فرأينا فى بحوثه فصلا ممتعا تحت عنوان (الاشتراكية فى الاسلام) فآثرنا نشره هنا تعميما لفائدته ، فان فيه دلائل على ان الاسلام سبق جميع النظم الاقتصادية الى تقرير حقوق الفقراء على الاغنياء .



إن الباحث فى الدين الاسلامى ، المتأمل فيما جاء به من الأحكام والمبادئ ، يجد فى ثناياها نوعا معقولا من الاشتراكية جديرا بأن يسمى (بالاشتراكية المنظمة) ، لأن القلوب تطمئن إليه ، ولأن النفوس تخلص به من شوائب الأثرة ، وتتمحض فيه لحب الخير ، وتتهيأ لإنكار الذات .

أجل : إن فى الدين الاسلامى نوعا ساميا من الاشتراكية التى تجافى الفوضى وتدعم قواعد العمران ، لا يتبرم بها الغنى ، ولا تغرى الفقير على العطل والكسل .

نجد هذا النوع ماثلا فى نواحى كثيرة من أبواب التشريع الاسلامى : فى زكاة المال بأنواعه ، وفى زكاة الفطر ، وغيرها .

ولكى تتبين كنه هذه الاشتراكية ومبلغ دقتها ، نسوق إليك طرفا من أحكام الشريعة الاسلامية التى لها صلة بموضوعنا :

زكاة المال :

فرض الله الزكاة فى أنواع ثلاثة من المال ، هى :

الأنعام (١) والحرث (٢) والعين (٣) ، كما فرض الزكاة على التاجر فى عروض تجارته .

زكاة الأنعام :

أما زكاة الأنعام فقد فرض شاة على من يملك خمسا من الابل الى خمس وعشرين ، وفى خمس وعشرين الى ست وثلاثين (بنت مخاض (٤)) ، وفى ست وثلاثين الى ست وأربعين (بنت لبون (٥)) ،وفى ست وأربعين الى إحدى وستين (حقة (٦)) ، وفى إحدى وستين الى إحدى وتسعين (جذعة (٧)) ، وفى ست وسبعين (بنتى لبون) ، وفى إحدى وتسعين (حقتين)

وأما البقر ففى كل ثلاثين (تبيع (٨)) ، وفى كل أربعين (مُسِنّة (٩)) ، وفى الستين (تبيعان) .

---

(١) الابل والبقر والغنم . (٢) الحبوب بأنواعها . (٣) الذهب والفضة . (٤) وهى ما أوفت سنة ودخلت فى الثانية . (٥) وهى ما أوفت سنتين ودخلت فى الثالثة . (٦) وهى ما أوفت ثلاثا . (٧) وهى ما أوفت أربعا . (٨) وهو ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة . (٩) وهى ما أكملت ثلاثا ودخلت فى الرابعة .

وأما الغنم ففى أربعين منها (جذعة) أوجذع ذوسنة ودخل فى الثانية ، وفى مائة وإحدى وعشرين (شاتان) ، وفى إحدى وما ئتين (ثلاث شياه) الى أربعمائة ، وفى أربعمائة (أربع شياه) . ثم لكل مائة شاة بعد ذلك .

زكاة الحرث :

فى كل خمسة أوسق (١) نصف عشر الحب إن كان الزرع يسقى بآلة ، أو العشر إن كان يسقى بالسيح أو المطر .

زكاة العين :

فى كل ما ئتى درهم أو عشرين دينارا شرعية (٢) فأكثر أو المجتمع منهما ربع العشر . هذا بملاحظة أن فرض الزكاة فى الأنعام والعين لا يجب إخراجه إلا إذا حال عليها الحول . أما زكاة الحرث فتجب على المالك إذا طاب الزرع .

هذه مقادير الزكاة الواجب على من يملك هذه الأنصبة إخراجها .

زكاة الفطر :

وكما فرض الله علينا زكاة المال فقد فرض علينا زكاة الفطر فى كل سنة لتمام شهر رمضان ، حيث جعل على كل مسلم ومسلمة أن يخرج من ماله صاعا (٣) من غالب قوت بلده برا أو ذرة أو شعيرا أو تمرا ... الى آخره .

وإذ عرفت ذلك فانا نسوق إليك الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية زكاة المال وزكاة الفطر :

فمن الكتاب : قول الله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » . «وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ومن السنة : قوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » . وقول النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه واليا على اليمن : «فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » .

أما زكاة الفطر : فقد وجبت بالسنة ، إذ ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث مناديا ينادى فى فجاج مكة « ألا إن صدقة الفطر واجبة » .

---

(١) أربعة أرادب وويبة (٢) تساوى $\frac{7}{8}$ ١١ جنيه مصرى (٣) أربعة أمداد .

الاسلام دين الفطرة ، دين الاخاء والمساواة . والمسلمون — منذ انبثق نوره فيهم — سباقون الى التعاون والاشتراك . يدلك على هذا ما كان من الأنصار حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة (بلدتهم) ، فقد ثبت أنهم تنافسوا فى نزول المهاجرين بديارهم تنافسا شديدا ، لم يحسمه إلا أنهم حكّموا القرعة بينهم ، فما نزل مهاجر على أنصارى إلا بقرعة . وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) . رضوا أن أن يقسموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين . وكانوا يرون ذلك قليلا بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم . وكان رسول الله يمكّن الإخاء بين المهاجرين والأنصار . وكان هذا الإخاء على المساواة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام . وكان عليه السلام يقول لكل اثنين : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » . ودام هذا الميراث الى أن نسخه الله بقوله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

كان الأنصار يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من أسباب المعاش ، بل فيما هو أكثر من ذلك ، فقد ثبت أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل له عن إحدى زوجتيه .

من هذا نعلم مبلغ ما كان عليه المسلمون فى صدر الاسلام من الجنوح الى الإيثار (٢) وترك الأثرة ، والنزوع للاشتراك الى الحد الذى فصلناه لك فى معاملة الأنصار للمهاجرين ، وذلك بمحض إرادتهم وصادق رغبتهم . وظلت الحال على ذلك الى أن فصلت المواريث وشرعت الزكاة وغيرها من مقومات الرابطة بين الأغنياء والفقراء .

هذه هى الاشتراكية الحقة المنظمة التى لا إفراط فيها ولا تفريط ، بل السياج المنزل من السماء ليحاط به حق كل من الفريقين قبل الآخر ، كى لا تتزعزع قواعد العمران ، ولاينهار صرح المجتمع (٣) .

---

(١) حاجة . (٢) الايثار : تفضيل الغير على النفس ، والأثرة على عكس ذلك .

(٣) والى هذا المعنى يشير الشاعر وهو يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله :

الإشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة ... لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله ... حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان إنسان تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء

هذه هى حدود الاشتراكية فى الاسـلام ، أجملنا لك القول فيها ، وألمعنا الى شىء من تاريخ نشأتها وتطورها منذ ظهر الاسلام الى أن توطدت هذه القواعد ، وسنت هذه الحدود ، فلا تتجاوزها ولا تتعداها .

أما الاشـتراكيات الموضوعة ، فانها غير مأمونة العواقب ، لا يوجد فيها ما يمنع دعاتها من التطرف والغلو . ولهـذا كانت دائمـا مثار المخاوف ، ومبعث القلق للعقلاء ورجال الحـكم وعلماء الاجتماع .

وإذ عرضنا للـكلام عن الاشتراكية الاسلامية فى ناحية المـال ، فيجدر بنا أن نلمع الى ما فى الدين الاسـلامى من الاشتراكية المعنوية التى نراهـا ماثلة أمام أعيننا فى مواضع كثيرة مما تعبّـدنا به الدين الحنيف من أنواع العبادة المختلفة :

هذه صلاة الجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين : تحمل فى أضابيرها (١) ـ علاوة على ما فى الاجتماع من تضامن وتآزر ـ معنى آخر ساميا لا يقل أهمية عن هذا ، وهو الإشعار بالمساواة وزوال الفوارق الدنيوية مهما جل خطرهـا ، حيث يشترك الجميع فى السجود والركوع والخشوع ، ويقف الغنى الى جانب الفقير ، والسوقة بإزاء الأمير ، لا تابع ثمة ولا متبوع ، ولا سلطان إذ ذاك إلا لمن له الـكل يضرعون ، وباسمه يكبرون ويهللون : (الله) .

وفى الصوم والحج والعمرة وغيرها من العبادات : يلتقى المسلمون فى غاية مشتركة ، ويتجهون الى غرض واحـد ، يجوع الغنى فى صومه كما يجوع الفقير ليشعر بشعوره ويحس باحساسه فيرق له ويحنو عليه ، ويعرى الغنى إذا أحرم كما يعرى الفقير حين يتجرد الجميـع من لباسهم تحت وهج الشمس وقر البرد ليجد الغنى فى نفسه ما يحفزها الى العطف على الفقير . ذلك فضـلا عما فى اجتماع المسلمين فى صعيد واحـد مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وتباين أجناسهم ، وتباعد بلادهم ، من مزية التعارف والتواد والتحاب .

هذه مظاهر الديمقراطية الحقة التى عجزت الاشتراكية الوضعية عن تحقيق بعض منها ، وعيى دعاتها قديما وحديثا دون الوصول الى شىء منها ، ذلك لأن هذه من وضع البشر ، وتلك من وضع خالق القوى والقُـدر ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحـكم وإليه ترجعون ؟

عبد العزيز مصطفى

(١) طياتها.

من عالم ما بعد الطبيعة

كان الناس فى الأجيال الماضية يعتقدون بعالم ما بعد الطبيعة ، كما يعتقدون بعالم الطبيعة سواء بسواء ، وكانوا كلما رأوا أمرا لم تجر به العادة ، ويشذ عن النظام المقرر للماديات ارتاحوا له ، وعدوه مظهرا من مظاهر عالم الروح ، ولكن لما حرر العلامة (بيكون) الانجليزى الدستور العلمى فى القرن السابع عشر ، وشدد فى وجوب عزل الظنيات عن المقررات العلمية تجريداً لها عن كل ما دُس اليها من الآراء والظنون والأوهام ، نشأ فى الناس ميل عام الى نفى كل مالم يجئ من الروايات حاصلا على شرائط التمحيص العلمى ، فقذف بكل ما يروى من أمور ما بعد الطبيعة الى عالم الخرافات بحجة أنها لم تمحص على موجب الدستور الرسمى ، ولم تتوافر فى مشاهديها ورواتها الصفات العلمية التى يؤمن معها وقوع الخطا منهم ، وجواز الانخداع عليهم .

من هذا الحين وقع التشكك فى حوادث مابعد الطبيعة ، ودرج المتعلمون على التكذيب بها .

ولما كان الدين مبنيا على أمور من صميم ما بعد الطبيعة ، فقد أصابه نصيب كبير من هذا الشك ، وألحد أكثرهم فيه ، واعتبر وجوده موقوفا على تمسك العامة به . هذه نتيجة طبيعية لاشية فيها . فما دام عالم ما بعد الطبيعة غير موجود ، وليس فى الحوادث اليومية أثر يدل عليه ، وكل ما يظن أنه أثر من آثاره ومظهر من مظاهره ، قذف به الى عالم الأوهام لعدم تسرية الدستور العلمى عليه ، فالنهاية معروفة لا تخفى على أقل الناس تقديرا للامور .

ولكن موجد الكون ومدبره لم يشأ أن تطغى المادة على الروح طغيانا يرمى بالانسان الى أحضان البهيمية الباحتة ، وهو الذى خلقه ليبلغ الى درجة من الكمال يستاهل معها أن يكون خليفته على الأرض ، فحبب الى كثير من العلماء الحريصين على تطبيق الدستور العلمى أن يدرسوا أمور ما بعد الطبيعة عقب حادثة حدثت فى مدينة هيد سفيل بالولايات المتحدة قامت لها هنالك الصحافة وقعدت ، واهتم بها العالم الغربى كله ، فانفتح أمام العلماء باب ما بعد الطبيعة على مصراعيه ، وشاهدوا من ظواهره ما كانوا يعدون من يلهج به مخرفا أو معتوها . فلم يكتف هؤلاء العلماء بما شاهدوه ، ولكنهم دونوه فى مؤلفات لهم ، وألفوا لدراسته الجمعيات ، وجمعوا له المؤتمرات ، فحدثت بذلك فى العالم حركة روحية لم يوجد لها مثيل فى عهد من عهود الانسانية ، وقد بينا ذلك كله فى بحث نشرناه فى أحد أعداد المجلد الثامن تحت عنوان (استحضار الأرواح فى أوربا) نوجه نظر القارئ اليه .

ولما كانت هذه الحركة مما تثبت إيمان المؤمنين ، وتؤتيهم بادلة لا تنقض على وجود عالم

الروح ، مما يساعد دعاة الدين على رفع علمه بين الجماهير ، كان حقا على كل عامل على خدمته أن لا يغفل هذه الناحية من المباحث الجديدة التى فتح الله بها على العالمين .

لذلك رأينا أن نتتبع هذه الحركة فى جميع تطوراتها نقلا عن أوثق مصادرها العلمية ، فان فى ذلك مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ »

أول ما نبدأ به من ذلك كتاب كتبه الاستاذ الايطالى الكبير (إيركولى كيايا) الى الأستاذ الطائر الصيت سيزار لومبروزو المدرس بجامعة تورينا بايطاليا ومؤسس علم الجرائم يدعوه به الى بحث الخوارق النفسية التى كان يهزأ بالباحثين فيها ، ثم نتبعه بما كان من أمر الأستاذ الأخير واضطراره لبحث هذه الظواهر ، وتسريته عليها الدستور العلمى الصارم ، واعترافه بخطئه الأول ، وصيرورته من أكبر العوامل على إذاعتها فى الخافقين .

كتاب الأستاذ كيايا الى لومبروزو :

سيدى :

فى الفصل الذى كتبته تحت عنوان : (تأثير المدنية على العبقرية) المنشور بالعدد ٢٩ من مجلة (فانفولا ديلا دومينيكا) قرأت فيما قرأته من العبارات البالغة حدود الابداع الكتابى والمنطقى ، عبارة قيمة ظهرت لى أنها فذلكة الحركة العلمية من أول ما اكتشف الانسان حروف الأبجدية الى عهدنا هذا . تلك العبارة هى قولك : « كل قرن يعتبر غير ناضج بالنسبة للاكتشافات التى لم تحدث بعد ، وهو لا يدرك حقيقة قصوره ولا الوسائل التى تعوزه لإحداث تلك المكتشفات . وتكرُّر مظهر من مظاهر الكائنات وانطباعه على تلك الصورة فى المخاخ البشرية ، يجعل العقول أقل قابلية لاكتشاف النواميس التى يخضع لها . ومُضى خمس عشرة أوعشرين سنة تكفى لأن تجعل الناس أجمع يعجبون باكتشاف جديد كانوا يعتبرون الكلام فيه جنونا فى الوقت الذى حدث فيه . والى اليوم لا تزال المجامع العلمية تهزأ بالتنويم المغناطيسى وبالعلاج بالمتشابهات ، ومن يدرى إذا كنت أنا وأصحابى الذين نهزأ بعلم استحضار الأرواح لم نكن فى ذلك على ضلال مبين ، كما هو حال المنوّمين سواء بسواء ؟ فان كنا لانشعر بأننا مخدوعون فذلك يرجع الى الغرور المحيط بنا من كل مكان . وعند ذاك يكون مثلنا كمثل المصابين فى قواهم العقلية ، نعارض الحقيقة الواقعية ونهزأ بالذين لا يشاركوننا فى هذا الاستهزاء » انتهى .

« لقد أعجبت بهذه العبارة الحكيمة كل الاعجاب ، ورأيتها اتفاقا تنطبق على أمر أشتغل به منذ زمان ، فاقتبستها بلا إبطاء مغتبطا بها ، ولم أحاول شرحها تحاميا من تغيير معناها ، ثم رأيت أن أعمل بسنة من سنن الفروسية الكاملة فأستخدمتها دعوة للمناضلة .

« على أن نتائج هـذا التحدى لن تـكون خطرة ، ولا دموية ، فاننا سنتصاول مخلصـين شرفاء ، ومهما تـكن نتيجة هـذه المنازلة كأن أسقط أنا فى الميدان أو أصرع خصمى ، فان ذلك سيكون لقصـد حسن وغرض شريف . وسيكون أثر هـذه المصارعة إصلاح أحـد الخصمين وتقويمه ، وفى ذلك خدمة عظيمة لقضية الحقيقة .

« يتحدث الناس اليوم كثيرا عن مرض خاص اكتشف فى الجثمان الإنسانى ، فيشاهدونه كل يوم ويجهلون سببه ، ولا يدرون بأى الأسماء يدعونه . هذا المرض واضح كل الوضوح ، وأعراضه المحسوسة قد ثبتت بالتجربة ، وقامت لهـا الحجة بحاسـة اللمس بوجه خاص ، أى بالحاسة التى هى المحك العام لجميع المعارف الصحيحة .

« وإن الناس ليطلبون الى العالم العصرى أن يبدى رأيه فى هذا المرض بالحاح ، ولـكنه يجيبهم بابتسامة (بيرون) (١) الاستهزائية ، ذلك كما يقولون لأن العصر لم يستعد بعد لهذا البحث .

« ولـكن منشئ العبارة التى أتيت بهـا آنفا لم يكتبها لمجرد التلهى بكـتابتها ، ويظهر أن الأمر على نقيض هذا ، وأنه لا يبتسم بسمة الاحتقار إذا دعى ليشاهد حالة خاصة جديرة بأن تستدعى انتباه رجل كلومبروزو ، وتشغل باله جديا .

« أريد بهذا أن أتكلم عن مريضة من أحط طبقات الهيئة الاجتماعية ، تبلغ الثلاثين من عمرها أو تـكاد ، وهى من الجهل بمكان . ونظرتها ليست بفاتنة ولا هى متمتعة بتلك القوة التى ينعتها علماء الجرائم المعاصرون ، بالقاهرة ، ولـكنها تستطيع متى أرادت ذلك نهارا أو ليلا ، أن تخلب بظواهر مدهشة تابعة لمرضها ساعة من الزمان عقول طائفة من محبى الاستطلاع يتفاوتون فى درجات الالحاد وفى قبول الاقتناع .

« فقد تجلس على كرسى وتُربط عليه ، أو يُقبض على يديهـا قبضا قويا ، فتجتذب بقواها الخفية الأثاث الذى يحيط بها ، وترفعه فى الهواء ، وتدعه معلقا فى الفراغ ، ثم تنزله بحركات تموجية كأن ذلك الأثاث تحت تأثير ارادة غير ارادتها ، وتزيد وزن تلك المنقولات ، وتقل منه كما تشاء ، وتقرع جـدران الحجرة وسقفها وأرضها بتوقيع منتظم على حسب ما يقترحه عليها الحاضرون . ويتفجر من جسمها أنوار تشبه ضـوء الـكهرباء فتحيط بها أو بالحـاضرين فى مظـاهر غاية فى الغرابة . وهى ترسم ما يريده المجربون على أوراق يقدمونها لهـا ، فتكتب عليهـا أحرفا أو توقيعات أو أعـدادا أو عبارات ، بمجرد مد يدها نحو المحل المـراد إحـداث الـكتابة فيه . وإذا وضع فى زاوية من زوايا الحجرة إناء فيه طبقة من الجبس الرخو ، تنطبع

(١) بيرون Pyrrhon فيلسوف يونانى قديم واضع مذهب اللاادرية من اهل القرن الرابع قبل المسيح.

فيه بعد برهة صورة يد صغيرة أو كبيرة ، أو صورة وجه فى أقصى درجات الدقة ، مطبوع مواجهة أو من الجنب ، يمكن أخذ شكله على الجبس . وقد حفظت وجوه اخذت بهذا الأسلوب تمثل جميع الأوضاع ، ويستطيع من يريد أن يدرس هذا الأمر دراسة جدية أن يعمد إليه .

« ثم إن هذه المرأة ترتفع فى الهواء مهما كانت الأربطة التى تمسكها بالأرض ، فتصير مضطجعة فى الفراغ على الرغم من نواميس توازن القوى ، وتبدو كأنها قد تحللت من قوانين الجاذبية العامة . وهى ترن الآلات الموسيقية : كالأرغول والناقوس والطنبور ، كما لو كانت لُمست بالأيدى ، أو حُركت بنفخ أعضاء من عالم ما بعد الطبيعة .

« إنك لتفسر هذه الأمور بأنها حالة خاصة من النوم المغناطيسى ، وستقول بأن هذه المريضة مشعوذ فى ثوب امرأة تستحق أن يزج بها فى مستشفى ، فارجوك أيها الأستاذ العظيم أن لا تغير وضع المسألة . فكلنا يعلم أن النوم المغناطيسى لا يحدث غير الوهم هنيهة . ومتى ارفضت الجلسة ياخذ كل شيء صورته الأولى . ولكن الأمر يجرى على خلاف هذه السنة ، فى الحالة التى نحن بصددها ، فإنه تبقى بعد رفع جلستها آثار كل ما حدث فيها من الخوارق ، وتبقى أدلة محسوسة لها جديرة بالاعتبار .

« فماذا تقول فى ذلك ؟

« ولكن اسمح لى أن أستمر فى سرد ما أنا بسبيله : إن هذه المرأة فى بعض الأحوال تستطيع أن تطيل قامتها أكثر من عشرة سنتيمترات ، فهى من هذه الناحية كالدُّمية المصنوعة من مادة الجوتابركا المرنة ، أو كأداة آلية من نوع جديد ، فانها تأخذ صورا غريبة . فكم لها من سيقان ومن أيد ؟ لا ندرى من ذلك شيئا .

« فانه بينما تكون أعضاؤها مقبوضا عليها من الحاضرين المفرطين فى بعد التصديق ، نرى أنه قد نشأت لها أعضاء أخرى لا ندرى من أين خرجت . ونجد أن الأحذية تضيق عن اشتمال تلك الأرجل السحرية ، وهذه الحالة الخاصة تضطرنا للقول باحتمال تدخل قوة خفية فى الأمر .

« لا تضحك حين أقول « تضطرنا للقول بتدخل قوة خفية » ، فانى لا أثبت شيئا ، وسيكون لديك وقت للضحك بعد قليل .

« بينما تكون هذه المرأة موثقة بالأربطة ، تظهر ذراع ثالثة فى المكان لا يعلم أحد من أين أتت ، وتبدأ باحداث مداعبات مسلية للمجربين ، كأن ترفع القبعات من رءوس أصحابها ، وتجردهم من ساعاتهم ودراهمهم وخواتمهم ودبابيسهم بمهارة تفوق الوصف ، وبتلطف ممزوج بالمرح . وتزيد فتخلع ملابس الحاضرين وصدرياتهم وأحذيتهم ، وتنظف البرانيط ثم تردها الى أصحابها ، تعبث بشوارب الرجال ثم تصلحها ، وأحيانا تضرب بعض الحاضرين بجمع يدها (بالبونية) إذا اغتاظت من شيء .

«اليد التى تاتى بهذه الأمور غليظة ودبرة (وقد لوحظ أن يد الوسيطة صغيرة) ، وتلك اليد لها أظافر كبيرة ، وهى رطبة ، وتنتقل فجأة من درجة الحرارة العادية الى البرودة الجليدية للجثث ، بحيث تحدث عندملامستها القشعريرة . وإذا أراد أحدأن يلمسها ، قبلتأن يقبض عليها وأن يفحصها بعناية ، متى سمح بهذا الفحص النور الموجود بالحجرة ، ثم ترتفع وتبقى معلقة فى الفضاء كأنها مقطوعة المعصم ، وتظهر إذ ذاك كالأيدى الخشبية التى تستعمل للدلالة على الحوانيت التى تبيع القفازات .

« إنى أقسم لك بأنى خرجت من غار (سيرسيه) (١) هادئ البال . وبعد أن تخلصت من هذه السحريات استعرضت كل ما أثر فى نفسى منها ، وانتهيت الى أنى كذبت نفسى وإن كانت شهادة حواسى تؤكد لى أنى لم أكن واقعا تحت تأثير غرور أو وهم . والى جانب هذا توجد أكداس من مؤلفات أشهر المجربين من القدامى والمعاصرين ، لا فائدة فى تسميتها ، تشهد بصحة هذه الخوارق وتؤيد الناحية الواقعية منها .

« فى أثناء هذه الجلسات تحدث دائما أشياء جديدة وغير منتظرة ، وتنتهى بتبادل السلام وبالمصافحة بالأيدى ، (وهذا نادر) ، مع أشخاص كاسين بالأقمشة ، يظهرون للمجربين ثم يختفون كالظلال فى مدى هنيهة قصيرة .

«لا يمكن أن تنسب هذه الأمور الخارقة للعادة الى الشعوذة ، ولعلك تقول بوجوب الاحتراس من التدليس ، وبتفتيش الشخص الذى أنا بصدده تفتيشا دقيقا ، لمنع وقوع أى ختل أو تزوير ، فاعلم أن الحوادث التى تحدث لا تتفق دائما ونوع الاحتياطات التى يتخذها الحاضرون . وفى هذا سر يجب البحث فى كشفه ، فانه يجب أن يعتبر بان الشخص الذى تحصل على يديه هذه الخوارق ليس هو المتصرف فيها . إذ مما لا مشاحة فيه أن هذا الشخص فيه خاصة إحداثها ، ولكنها لاتحدث إلا بتدخل عامل مجهول .

« ينتج من كل هذا صعوبة عظيمة فى دراسة أساس هذه الشعوذة المحيرة للعقل ، وضرورة عمل سلسلة من تجارب لجمع عدد منها يصلح لتنوير عقول المخدوعين ، وكسر شرة الخصوم الذين ، كما هو معروف ، ينكرون فضل العقول التى جربتها من قبل . هؤلاء الخصوم الذين يدعون اكتشاف القوى الطبيعية الخفية استنادا الى قرينة بسيطة . فتراهم من مجرد سقوط تفاحة على الأرض ومن حركة البندول (الرقاص) يستنتجون النواميس الكبرى التى تعمل فى الكون .

«إذا تقرر هذا فاليك دعوتى للنزال ، فاذا لم تكن قد كتبت العبارة التى اقتبستها منك لمجرد اللذة الكتابية ، وإذا كنت تحب العلم حقا لذاته ، وإذا كنت منزها عن الآراء الموروثة ،

(١) سيرسيه ساحرة مشهورة كانت موجودة قبل الميلاد بنحو ألف سنة ، يضرب بها المثل فى قلب الاعيان .

أنت أيها العلامة الأول للأمراض العقلية فى إيطاليا كلها ، تفضل فابرز لى فى الميدان وكن مقتنعا بأنك ستنازل رجلا قويم المذهب كريم الشيمة .

«فاذا استطعت أن تنقطع عن أعمالك أسبوعا ، وأن تترك البحوث العزيزة عليك ، فبدل أن تمضى ذلك الأسبوع فى الخلاء ، عين لى مكانا نجتمع فيه ، وتخير الوقت الذى تستحسنه لأقدم لك فيه ساحرتى المذكورة .

« واتخذ حجرة لا يدخلها غيرك قبل التجربة ، وضع فيها ما تريده من المناضد والآلات الموسيقية ، وأوصد الباب بالأقفال . ولست فى حاجة أن أقدم لك تلك السيدة فى حلة الفردوس الأرضى ، لأن هذه الحواء الجديدة لا تصلح لأن تنتقم من الثعبان الذى خدعها بايقاعها فى الفتنة .

« وسيحضرنا أربعة رجال كما هو المألوف فى كل منازلة منطبقة على قواعد الفروسية ، تختار أنت منهم اثنين لا أراهما إلا ساعة الصدام ، وأنا أختار الاثنين الآخرين .

«لم تُشترط قط شروط أفضل من هذه بين فرسان الخوان المستدير (١) . ومن الواضح أن التجربة لو أخفقت فلن أعزوها إلا الى حكم القدر . أما أنت فستحكم علىّ بأنى مصاب بالهذيان المرضى ، وإنى أرجو أن أشفى من أوهامى . ولكن إذا تكللت جهودنا بالنجاح ، فان استقامة أخلاقك ستفرض عليك كتابة فصل تشهد فيه بدون لف ولا كتمان ولاسوء فهم ، بصحة هذه الظواهر الخارقة للعادة ، وتَعِد بأنك تحاول البحث عن علل حدوثها .

«فاذا رفضت هذا النزال ، ففسر لى هذه العبارة وهى قولك : « هذا القرن غير مستعد » . لا مشاحة فى أن هذه العبارة يمكن أن تنطبق على العقول العامية ، ولكنها لا تنطبق على رجل كلومبروزو تتوجه إليه نصيحة (دانته) وهى : « الشرف يجب عليه بسلاح الحقيقة أن يطبق شفتى الكذب »

هذا ما كتبه الاستاذ أركول كيابا الى الاستاذ سيزار لومبروزو ، وكلاهما من أقطاب العلم فى ايطاليا ، فلم يرفع لومبروزو بهذا الكتاب رأسا ، ثقة منه بأن هذه الخوارق لم تخرج عن كونها مخارق ، ولكن حدث أن رجال العلم الايطاليين والفرنسيين والانجليز والالمان والبولونيين ، اهتموا بفحص الوسيطة التى ذكرها الاستاذ كيابا ، ونشروا نتائج بحوثهم على رءوس الأشهاد ، فأغرى هذا الصوت العلمى الاجماعى الأستاذ لومبروزو على الشروع فى بحث هذه الخوارق ، ففعل ، وبذل كل محاولاته العلمية فى إثبات تدليسها فلم يفلح ، فكتب معترفا بخطئه الأول . وسننشر اعترافه فى الجزء التالى لهذا .

وبعد فقد أنقذ الله العقيدة فى العالم الروحانى بهذه المكتشفات الجديدة ، وهى ليست

(١) الخوان : هو الترابيزة وقد جرت عادة المجربين للشئون النفسية الاجتماع حول خوان ووضع ايديهم عليه .

بجديدة ، فقد لازمت الانسانية من أول نشوئها ، ولكن العلم الطبيعى هو الذى شكك فيها منذ ألفى سنة ، وكان تشكيكه محصورا فى بعض الغلاة من قادته ، فلما استبحر وزادت مادته ، وظن أهله أنهم قد نفذوا الى جميع مساتيره ، عم الالحاد جمهورهم ، ونشروا آراءهم بين الدهماء ، فذاع بين أكثر المتعلمين . ولولا أن الله تدارك الناس بهذه الآيات البالغة ، لبلغت الكبرياء برجال العلم حدا لا يطاق ، ولعم الالحاد جميع الطبقات .

وقد أحسن العلامة الفرنسى الكبير الكونت دوجا سباران حيث قال فى كتابه (الأخونة المتحركة) بعد دراسة علمية مدققة لهذه الخوارق . قال :

« فى الوقت الذى بلغت فيه كبرياء العلوم الممحصة الى حد لم تبلغ اليه من قبل ، وفى العهد الذى أكثرت فيه من مكتشفاتها ، وخيل لها أنها قد أدركت جميع مساتير الخليقة ، نشأت مشاهدة صغيرة منغصة للعلماء لم تكن منتظرة ، ولم تقبل الالتئام مع أى نوع من أنواع المعارف الرسمية . فهل يعمد الى تغيير نظام هذه الأنواع العلمية لأجل هذه المشاهدة الصغيرة ؟ وهل يقبل العلماء أن يتنازلوا عن عصمتهم المزعومة ؟ وهل يعترفون بجهلهم وبأن معلوماتهم قاصرة محدودة ؟ لا لا ! فأهون من كل ذلك أن ينازعوا هذه المشاهدات الجديدة حقها فى الوجود . فلا ينبغى لها أن توجد . وعليه فهى ليست بموجودة ، وليس لها محل من هذا العالم . فان المجامع العلمية التى تعرف كل شىء ، وتفهم كل شىء ، لم تعرف ماذا تفعل بها . فتصور بعد ذلك هل من الصعب أن يثور ممثلوها على هذه المشاهدات ، ويؤلبون الجماعات الجاهلة عليها ، مع الاستمرار فى الاعلان عن أنفسهم أنهم وحدهم الرجال العقلاء للدرجة القصوى ! »

نقول : يعبر الكونت دوجاسباران عن هذه الحوادث (بالمشاهدة الصغيرة) ، وعذره أنه يتكلم عنها على عهده فى سنة (١٨٥٤) أى قبل نحو خمس وثمانين سنة ، أيام كانت قاصرة على حركات الأخونة والتخاطب مع عمار العالم الروحانى بواسطة القرع عليها . ولكن فى مدى هذه البرهة الطويلة من الزمن (١) قد تطورت هذه المشاهدات الخارقة ، وبلغت الى حد لفت اليه نظر أقطاب العلم فى كل أمة ، كما يتضح ذلك من الفصل الذى كتبناه فى المجلد الثامن من هذه المجلة تحت عنوان (استحضار الأرواح فى أوربا) . وسيرى القراء مما ننشره هنا أن هذه الخوارق قد أثبتت بالأدلة المحسوسة أن وراء عالمنا هذا عالما محجوبا عنا ، وأن فيه كائنات مجردة عن المادة لها عقل وإرادة ، ولا يهمنا نحن أن تكون تلك الكائنات أرواح الموتى أم جنة ، أم عالماً آخر . فالمدار على إثبات وجود العالم الروحانى الذى ينكره الماديون ويتشددون فى إنكاره ، وهو أساس الدين ، وبالله التوفيق .

محمد فريد وجدى

(١) البرهة هى القطعة الطويلة من الزمن ، خلافا لظن العامة من انها تعنى القطعة القصيرة منها .

شمس الهداية

سارت قافلة الزمن بالانسانية فى صحراء الوجود حتى طال عليها الأمد ، بين ليل دامس ونهار هجير ، تتيامن مرة فى استواء على مهيع من الهدى يكشف عنه بصيص من نور الحق ، ينبعث من خلال سحاب متكاثف ، فلا يكاد ينير حتى يظلم ، فتتراجع لتستكنّ حتى تُصبح ، وما كان إصباحها بأمثل من إمسائها ؛ وتستجمّ حتى يذهب عنها الروع ، وما كان استجمامها بأهدأ لها بالاً من روعها ؛ و تركس أحايين فاذا رأسها فى رجليها فتمشى الى الخلف مسرعة وهى تزعم أنها الى الأمام تسير ؛ فاذا أشرقت عليها شمس الهداية لتضىء لقـفّالها سبيلهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا على العمى إمعانا فى الضلال ، واستكبروا استكبارا حجب عن بصائرهم ضياء الحق بغيم من العناد مركوم ، فلم يبق لهم من الشمس إلا لفحها وسعيرها وهم فيها كالحون ، يلهثون فى اضطراب متدافع ، وبين أيديهم ظل ظليل ، وماء نمير ، ودوحة من الايمان وارفة الأفانين ، تترى اليهم دعوات المرسلين ليفيئوا الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فلم تثمر دعواتهم إلا إعراضا ، ولم يزدهم إنذارهم إلا فرارا ، وهم إذ ذاك فى بُداءة أطوار الحياة بعد أن حبوا قليلا من مهد النشأة الأولى ، وغرارة الطفولة ، فى حضن الأبوة المعلمة والآدمية المعلَّمة ، وكأنهم نسوا أوجهلوا ففتنوا ، وهم لا يزالون فى دور الحضانة ، وأمعنوا فى الحيدان عن الجادة ، فبعث الله اليهم نوحا أبا ثانيا ورسولا وهاديا ليرشدهم الى سواء السبيل ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يردد صيحة الحق ، ويدعوهم الى الله حتى استيأس من استفتاح قلوبهم ، فصرح عن ضمير الغيب فيهم « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

فلما بلغ كتابهم أجله ، وعاد آخر الطبيعة على أول الفطرة فمسخها إلحادا لايفيىء الى الايمان ، وسرى دم الأجداد فى شرايين الأحفاد ، تبيينا للحكمة الالهية فى اعتقاب داء الأرواح لمظاهرها فى الأفراد حتى يصبح داءَ الجماعة العصىّ ، وتحقيقا للوراثة الفكرية المنحدرة من الأصول الى الفروع — لم يبق لدائهم دواء إلا الإفناء لتتجدد البذرة ، وتستقبل الانسانية من عمرها جيلا جديدا لم تلحق به أوضار التقليد الأبله ، فكانت النهاية « وقال نوح ربِّ لاتذَرْ على الأرض من الكافرين ديّارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفّارا »

فى هـذا الافناء العام لتلك الأمة من الناس حكمة التطهير والوقاية ، حتى يكون اللقاح فى منابت أنمى للخير ، وأخصب للهداية ، وأحيا للحق ، كالتربة الطامية إذا انصب عليها وهج الشمس يبست وتضامت فى أحشائها حيويتها ، وهمدت قوتها الدافعة ، فإذا جادها المزن بصيب من السماء انساب إليها الشباب فى نضرة الحياة « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج » .

أطغى الله طوفان نوح عليه السلام على الأرض ليطهرها من كدورات الانسانية ، ولم يبق إلا بذورا صالحة للإنبات صلاحية تتمشى مع ملاءماتها الزمنية ، فاخضوضر هذا النبت الانسانى وأزهر ، ونمى وأثمر ، ونظر الى السماء بعد أن كان دائم النظر الى الأرض ، وأعبد نفسه لنجومها ، وتمثلها فى أحجار ينحتها ، وتماثيل من صنع يده يعكف لها ، فكان ذلك على ما فيه من حماية إيذانا بولادة العقل الانسانى الذى أنف أن يتعبـد للتراب لذاته ، وإن جعله مظهر عباداته ، وما يغنى هذا العقل وهو فى طفولته ، والطفولة غريرة إذا رضيت ، عنيدة إذا أبت ، خير ما فيها عاطفة التقليد الساذج فى إسرار الكهولة المتعالمة على جهل ! فلا بد من رعاية مسددة بنبأ السماء ، تقوده فى سبيل معبدة ، لتكشف له عن بعض مظاهر الوجود ليرى ويسمع ، فبعث الله خليله ابراهيم هاديا ورسولا ، يخاطب العقل فى مهده ، وقد أعانه الله بالحس الصادق ليشهد على صدقه « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزَرَ أتتخذ أصناما آلهـة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ليصرف أنظارهم عن الطين والتراب ، ويلفت نفوسهم الى آيات الله فى الآفاق « وكذلك نُرِى ابراهيم ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وليكون من الموقنين » .

هذه عظمة السماء بكواكبها وأقمارها وشموسها أحرى وأجـدر أن تكون منازل لرحال العقل فى أسفاره ، ومسارح له فى تجواله ، فهى منار الداجى ، وهـداية السارى ، ولكنها مسخرة لقوة قاهرة ، قد وسمها الفناء بميسمه « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفَل قال لاأحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون » إنما الألوهية مجمع الكمالات ، سلطانها على الخليقة مبسوط ، ومظاهر جودها على الكون سابقة ، تمنح كل موجود عناصر وجوده ، فاليها وحدها يكون التطامن والخضوع ، والتوجه بالعبادة والخشوع « إنى وجّهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرضَ حنيفا وما أنا من المشركين » .

هكذا كان ابراهيم الخليل عليه السلام يأخذ بقومه صُعُدا الى السماء ليحرر عقولهم من ربقة التقليد الأرضى ، فتأبى عليهم طبيعتهم إلا الركون الى تراث الآباء « أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتـدون » ! وللعقل الانسانى مهما كثف ومضات من النور خاطفة كانت تعاودهم

إذا صدمتهم صخرات الضلالة فيقرون بالحق فى خطرات ، ولكنهم سرعان ما ينكرون «فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » . والطبيعة غلابة قاهرة ، وهى فيهم كثيفة قائمة ، استولت على مشاعرهم ، وتحكمت فى مداركهم ، فلم توقظهم قارعات الحجج ، ولم تنبههم داويات النذر ، ولم يبق إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الوليد « أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » ! فكان جوابهم حماقة الضعفاء ، وجهالة الحمقى «قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » ، فرد عليهم كيدهم ، وكاد لهم فى أمرهم ، وقلب عليهم شرهم ، و جعل منه آية الكرامة والرعاية الالهية لخليله « قلنا يانار كونى برداً وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »

من بدايع سنن الله تعالى مع رسله الكرام أن جعل شرائعهم فى أصدق صور الملاءمة لطبيعة أممهم التى بعثوا لهدايتها ، وجعل آياتهم متمشية مع الاستعداد الفكرى لأولئك الذين خصهم الله بدعوتهم ، فقد رأينا مما قصه القرآن الحكيم أن أمة نوح عليه السلام لم تكن لضعف تكوينها الفكرى مستعدة لقبول الهداية الإلهية ، فكان جزاؤها فى آية رسولها ، وحق عليها الفناء ، وكانت أمة ابراهيم عليه السلام قد استقبلت من أمر العقل عقلا ناشئا لم ينضج ، وجادلت عن عقيدتها التقليدية حتى كشف لها الغطاء ، فأبصرت إبصار الأرمد فى لحظات خاطفة ، ثم عادت الى مكانها من الحياة خاسرة ، وتركت الى الزمن يصهرها ، والى شموس الهداية توالى عليها إشراقها لتقتل بأشعة الحق جراثيم الباطل ، حتى يبقى الجسم فى حصانة من الأمراض الطارئة ، ويستعد لقبول نوع من الدواء جديد .

ومن لطائف الحكمة الالهية أن أبقى الله آية الهدى وأصول الحنيفية بين تلك الأمة ، وجعل أفنانها العديدة تتفرع من دوحة ابراهيم عليه السلام ، ليسرى من نفحها بين الفينة والفينة نسمات توقظ إحساس الأمة ، وتنبه شعورها الى التسمع لصوت السماء من جديد .

يلحظ المتأمل فى تاريخ النبوات أن الفترة التى كانت بين زمنى ابراهيم وموسى عليهما السلام هى أحظى نقطة فى أفق الوحى الالهى بمطالع شموس الهداية ، فلم يعرف فيما قصه الله علينا فى كتبه السماوية ، وفيما ذكره التاريخ القديم عدد من أنبياء الله ورسله الكرام أكثر مما كان فى هذه الحقبة من الزمان . وهذا أيضا من حكمة الله تعالى فى الخلق ، تمكينا للأسباب والدوافع من إنضاج الفطرة فى دور مراهقة العقل الانسانى وخضوعه للنزوات المادية فى أشكالها المختلفة .

فلما بعث الله موسى عليه السلام فى هذا الدور من أطوار الحياة الى بنى إسرائيل ، كانت الانسانية قد اتخذت سمتا من التفكير العاقل الذى اتجه الى تعرف بعض ظواهر الوجود فى صور شتى تعتمد فى أصلها على التدين ، وظهرت بعض النظريات الفلسفية فى الجنس الاغريقى

مستقاة من الدراسات المصرية التى كانت احتكارا لرجال الدين لا ينالها سواهم من بقية طوائف الشعب ، وكان من أظهر تلك الدراسات مباحث القوى الخفية كالسحر والطلاسم وما إليها مما استخدم فى تنويم العامة واستعبادهم تحت ستار الدين وسلطان الغيب ، فظلت الشعوب على جهالتها ، واستخدم العلم فى إذلالها ، وقد كان بنو اسرائيل الشعب المفضل من شعوب الانسانية حينئذ لما كان فيه من تتابع النبوات ، ودلائل الهداية « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتيَ التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » . فلما أعماهم الهوى ، وأضلهم الطمع فى الحياة الدنيا ، واستعبدهم الحرص على الدوانق ، صرف الله عنهم نعمته ، وأحل بهم نقمته ، وسلبهم عزهم ، وسلط عليهم فرعون يسومهم الخسف والعذاب الأليم ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فبعث الله فيهم موسى عليه السلام ليستنقذهم من جبروت فرعون ، وينتشلهم من وهدة العبودية التى فرضها عليهم كما فرضها على قومه ، فاستخفهم فأطاعوه ، وتأله لهم فعبدوه « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » .

أيد الله تعالى موسى بآيات من جنس أبرز معارفهم وما مهروا فيه ، ففلج بمعجزته على سحرة فرعون وعلماء قومه وفلاسفتهم ، والعلم كشاف للحقائق ، يسوق صاحبه الى مراتع البر ، ومشارع الحق ، ويقوده الى منازه الهداية والايمان ، فآمن السحرة لموسى إيمان العلماء الذين قدروا الحجة حق قدرها ، وسموا بفطرهم على سخافات فرعون ، ولم يأبهوا لوعيده وتهديده ، وأشرفوا على الحياة الدنيا فعبروها ، فتصاغرت أمامهم ذليلة ، فكان حسبها ذما وتنقيصا فى نظرهم أنها بين فكى الفناء تدور « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا » .

أنجى الله بنى إسرائيل من عبودية فرعون ، وخرجوا من مصر عائدين الى الأرض المقدسة ، وفى تفكيرهم التواء وجهالة ، فانهم ما كادوا يخلصون من تأليه فرعون حتى انحدروا الى الشرك الوثنى فى أحط صوره ، يطلبونه دينا لهم « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون » . وقد عكفوا على عجل السامرى ، وشبهوا الله تعالى وتقدس بخلقه « فقالوا أرنا الله جهرة » . فقضى الله عليهم بالفناء الجزئى فى التيه أربعين عاما حتى تتآكل بفعل الزمن تلك الشجرات الخبيثة التى نبتت فى أرض الشرك الوضيع ، ويبيد ذلك الجيل الناشئ فى أحضان الوثنية ، ويخرج جيل جديد يستطيع أن يفهم جلال الألوهية وقداسة التوحيد .

فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم أرسل الله إليهم عيسى بن مريم عليه السلام بشريعة روحية تقوم على التسامح المطلق ، وتحقير الدنيا والتزهيد الكلى فيها ، والدعوة الى التقشف والاستكانة لتتطامن تلك النفوس الجامحة ، ولكنهم أبوا وعاندوا ، وحرفوا كلمات الله عن مواضعها ، وهموا بقتل المسيح ، فلم ينالوه ، ورفعه الله إليه طاهرا مطهراً .

استقرت المسيحية الى جانب شريعة التوراة ، فاصطدم اليهود من جهة النظام الاجتماعى بدولة الرومان ، ومن جهة الشريعة والدين بالمسيحية الزاهدة ، ولكن المسيحية لم تلبث أن انتحل الآخذون بها عقائد وتقاليد ليست منها ، فأخذ ملوكهم يستغلون اسمها فى بسط رواق العبودية القاسية على الشعوب المستضعفة ، كما استحالت من قبلها اليهودية الى رسوم اقتصادية مرابية ، ودب الى دولة الرومان التاريخية داء الشيخوخة والهرم ، كنتيجة لتلك الهزات العاصفة الداخلية ، والحروب الناشبة مع الفرس ، وفشو الترف واللهو بين خاصة الشعب وعامته ، فأخذت تزوى وتذبل ، حتى أدركها الاسلام على ربوة من الرماد المهيل .

كان هذا الجانب من العالم أرقى جوانبه من الوجهة الفكرية والاجتماعية ، وقد صار الى ما صار اليه من التردى والانحدار فى هاوية الجهالة الفكرية ، والفوضى الاجتماعية ، والبلادة الدينية ، خضوعا لسنة الافناء والتجديد . أما الجانب الآخر فقد كانت فيه دولة الفرس جاثمة على صدر الشرق بكسرويتها الطاغية ، تحت عوامل خطيرة تسوقها حثيثا الى الفناء . ومن أهم تلك العوامل حالتها الدينية الغريبة العتيدة ، فديانة الفرس مجوسية بكماء ، تؤله النيران ، وقد طال عليها الزمن تحت نير تلك الديانة ، ففعلت فى تكوين نفسية الأمة فعلها السيء ، مما كان له أثر ظاهر فى حياة الأمة الفكرية ، فاذا كان الجانب الآخر من العالم شهد نظريات فلسفية لها قيمتها العلمية ، فان الفرس لم تتكون لهم فلسفة خاصة عظيمة الأثر كفلسفة اليونان والرومان ، اللهم إلا نوع من التفكير تمثل فى خطرات الحكم والأمثال التى هى نتيجة صقل الذهن وإجالته فى حنايا الوجود . وأظهر ما كان لهم من النهضات الفكرية نهضة مصلحهم (زرادشت) ، لا يجد فيها الباحث نظريات محددة الغرض ، قائمة الأصول والقواعد ، ومع ذلك فانها أيضا فلسفة موضعية لا مجال مطلقا لموازنتها بفلسفة أرسطو وأفلاطن وسقراط وسواهم من فلاسفة الجانب الغربى للعالم ، وكانت الفرس دائما إذا نهضت للتحلل من عقيدتها الموروثة اضطربت اضطرابا عنيفا يدفع بها الى الوراء ، فهى حينما استقبلت مذهب (مانى) ومثنويته التى فلسفها بعض أتباعه الى نظرية (النور والظلمة ، أو الخير والشر) لم تستطع بناءه على قواعد علمية تقربه من الحياة العلمية ، فظل أشل كسيحا حتى هاجمته إباحية (مزدك) التى هدمت نظم الحياة ، وجعلت المال والنساء شركة شائعة بين الناس ، لا يقيدها قانون ولا نظام ، ولا خلق ولا شعور ، فاضطربت الأمة الفارسية بهذا المذهب اضطرابا زلزل أركانها ، وأشعل فيها

نيران الفتن الجامحة التى خاض غمارها بعض ملوكهم الذين كانوا يحكمون الأمة حكما استبداديا قتل فيها النخوة والرجولة والكرامة الذاتية والاعتداد الشخصى ، مما أضعف شوكتها وفرق كلمتها ، فلم تستطع أن تدفع عنها عدوا خارجيا كان لها بالمرصاد ، وطمعت فيها الأمم ، وتداعب عليها جيرانها ، وتصدى لها العرب قبيل الاسلام فى واقعة كانت أول تعبير عن القومية العربية الظافرة .

أظل القرن السادس الميلادى الوجود وقد أسدل ليل الضلالة على الحياة ثوبا من الجهالة قاتما ، وتراءت ذؤبان الاستبداد فى صور الملوك المتألهين والحكام المتجبرين ، تفتك بأشباح الانسانية المبعثرة هنا وهناك ، فاضطربت الأفكار ، وتبلبلت الخواطر ، وضعفت العزائم ، وفنيت القوى الفردية من مقومات المجتمع ، وطمست معالم الديانات ، وفشت الضلالات ، وتمثلت حيوية الأمم فى أشخاص الملوك الذين أوهموا شعوبهم أنهم من طينة لا تجرى فى أخاديدها خصائص البشرية ، وتألهوا لهم فعبدوهم ، وتحاموا عن مخالطتهم فقدسوهم ، وانطبعت فى مخيلة الأمم للملوك صور لا يرتفع إليها الخيال ، ولكن العقل الانسانى فى هذا الطور كان قد بلغ رشده ، وتكاملت خصائصه ، فتطلع الى منفذ من منافذ الهداية ، وأنى له والظلام كثيف ، والفطر فاسدة !

لقد عهد الناس من سنن الله معهم إذا اشتدت بهم الكربات ، وضاقت عليهم المسالك وعم الظلام أرجاء الأرض ، أن يكشف عنهم كربهم ، وينير لهم سبلهم ، ويطلع عليهم شمس الهداية فتبدد بأشعة الحق ظلام الضلالة ، فتنفرج الكربات ، وتنكشف الغمات ، وكانت بشائر الكتب السماوية تتوالى مبشرة بالمنقذ الأعظم ، والمخلص الأكرم ، فاشرأب العالم شرقه وغربه ينظر الى الآفاق ويترقب الآيات ، ويترصد الأنباء ، فهل عجزت روما وأثينا بمالهما من قوة فكرية وفلسفة علمية ونظم مدنية عن إرسال أحد المفكرين والفلاسفة لينقذ الانسانية من وهدتها ؟ وهل عجز الشرق وهو مهد الديانات السماوية ، ومهبط الوحى ، ومطلع النبوة ، ومشرق الهداية وفيه فارس صاحبة القهر والسلطان ، وفيه اليهود أصحاب شريعة التوحيد ، عن تجديد عهده فى الاصلاح الدينى الكريم ؟ ! ويل للعقول من فلسفة روما وأثينا ، فانهما فى الوقت التى كانت تقرر مدارسهما أعظم النظريات فى الفلسفة الالهية والخلقية ، كانتا تريان أن الناس لم يخلقوا من طينة واحدة ، وأن بعضهم متاع يتصرف فيه مالكه بما يشاء من أنواع التصرفات ، حتى بالقتل والاحراق ! فأين المخرج ؟ ومن أين يكون الخلاص ؟

هناك فى زاوية من الدنيا حيث لم تتدنس الفطر الانسانية ، فى الجزيرة الحبيسة بجبالها حيث الأمة العربية قابعة فى عزلة عن العالم ، سليمة التكوين ، قوية الشكيمة ، فتية الحياة ، شر ما فيها جهالة ضالة ، وضلالة جاهلة ، كالصدأ على وجه المرآة ، ليست تحتاج فى قبول الصور وانطباعها على أديمها إلا الى صقل وتنظيف . وهناك فى أم القرى حيث البيت العتيق ، بين

وديان مكة ووهادها ، وفى سفوح جبالها ، تقطن قريش سادنة البيت ، وعامرة البلد الحرام ، يجأر إليها العرب فى حكوماتهم ، ويفدون عليها فى تجاراتهم ، ويتحاكمون الى فصحائها فى بلاغاتهم .

هذا سيدها عبد المطلب يجلس على وسادته فى ظل الكعبة المشرفة فتفد عليه البشرى أن قد أقبل إليك وليد جديد ، اهتز قلب عبد المطلب فرحا ، وسمى الوليد « محمدا » ، فتهامست قريش : ما هذا الاسم وليس فى أسماء آبائه وأجداده ؟ فقال عبد المطلب : رجوت أن يحمد فى السماء . عناية من الله هى التى ألقت على لسان عبد المطلب هذا الاسم الكريم ، ليتحقق ما أضمره الغيب لهذا الوليد من شأن عظيم .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كما يولد الناس ، وشب كما يشبون ، ليس فى أمره ما ينافر طبيعة الحياة المادية ، أو يخالف قوانين النشأة الإنسانية . وإذا كانت قد احتفت بميلاده إرهاصات ترويها كتب السيرة فهى من قبيل إشعار الحياة وإعدادها للبعث من جديد ، بعد نوم عميق فى حوالك الضلال ، كأنما تقول الطبيعة بإرهاصاتها : ها هى ذى شمس الهداية الخالدة قد آذنت بإشراق ، فاستيقظوا لتسيروا فى ضوئها الوهاج الى ذروات السعادة ، وأسنمة المجد والسيادة ، فلا استعباد بعد اليوم ولا عبودية لمن أبصر الضوء فحرر نفسه من ربقة الجهالة والضلالة ، ولا استبداد ولا فوارق بين أبناء الانسانية ، ولكن ستكون محبة وسلام ، وعدل وإخاء ، وعطف ورحمة .

أربعون سنة قضاها محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بين ظهرانى قومه ، يعرفون مدخله ومخرجه ، ومراحه ومغداه ، ونشأته ومرباه ، وعشراءه وأصدقاءه ، لا يخفى عليهم من أمره شيء ، لأنه لم يحاول أن يخفى على الناس شيئا من أمر حياته ، ولا كان ذلك فى طبعه ، ولا حدثته به نفسه . أربعون عاما كان فيها طفلا ، وفتى ، وشابا ، ورجلا ، مات أبوه فلم يترك له مالاً يذكر ، وماتت أمه ولما يشب عن دور الصبا ، فعاش فى كفالة جده شيخ قريش وسيدها عبد المطلب كأعز ولده ، يرعاه ويحنو عليه حنو أب فقده قبل أن يراه ، ولما مات جده كان فى كفالة عمه وصنو أبيه أبى طالب ، وهو من تجار قريش الضاربين فى الأقطار ، فتعلق به مرة وسافر معه الى الشام ، ولقيه راهب بصرى ، وكان عليما ببشائر الكتب السالفة ، وعليما بحقد اليهود على من ينتزع منهم راية التوحيد التى مزقوها ليعيد اليها عزها ويعلى كلمتها ، فحذر عمه عليه اليهود ، ورجع به عمه بعد رحلة قصيرة وأبقاه بمكة مع أبناء عمومته ، فلم يرض بحياة البطالة والكسل كغيره من شباب مكة وفتيانها ، ولكنه عمل وجاهد ليأكل من كسب يده ، وآجر نفسه لرعى الغنم على قراريط يأخذها ، وله برعيها من قبل ذلك عهد ، لأنه اشترك مع إخوته من الرضاع فى رعيها وهو فى طفولته الطاهرة .

ثم اشتغل بالتجارة ، فكان ميمون النقيبة ، وافر الأرباح على قلة ماله ، فتسامع بأمانته وصدقه وسمو أخلاقه أثرياء قريش وذوو تجاراتها ، وأرادوه على العمل لهم فى تجاراتهم ،

ولـكن الغيب كان قد أضمر لخديجة بنت خويلد الأسـدية مجداً لايدانيه فى الحياة مجـد ، فسبقت اليه وعاقدته على أن يعمل فى مالها ، وسافر الى الشام ومعه غلامها ميسرة ، فرأى منه كمالا خلقيا ورعاية ربانية حدث بهما سيدته ، فرغبت فيه زوجا ، وخطبته الى نفسها ، وسنها أربعون سنة ، وسنه خمس وعشرون ، فاستشار عمه ، فأجابه وخطبها له ، وأصدقها من كريم ماله ، فـكان لها عليه الصلاة والسلام خير زوج لخير النساء ، وكان هذا الزواج المبارك عونا له على هدوء نفسه والتعبد لربه فى عزلة ومجانبة لما كان عليه قومه من وثنية وجهالة ، فقد صرفه الله بحكمته عن لهو الشباب وأسمارهم ، وبغض اليـه التفاصح والتشادق والتعـاظم بالأشعار فى الأسواق . روى صاحب الشفاء أنه صلى الله عليه وسلم تحدث عن نشأته بعد مبعثه فقال : « لما نشأت بغضت الىّ الأوثان ، وبغض الى الشعر ، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحـول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعـرس بعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ولم أقض شيئا . ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك » . ولم تكن هذه المجانبة عن جفوة منه لقومه ، ولـكنها إنـكار لقبيح عاداتهم وكراهية لعقائدهم . ولقد كان له بالخيّرين منهم صلات اجتماعية وروابط إصـلاحية تدل على ما كانت تنطوى عليه جوانحه من قلب مفعم بالرحمة والاحسان وحب الخير ، والدفاع عن الحق ، ورد المظالم انتصافا للمظلومين ، فاشترك فى (حلف الفضول) وتحدث عنه بعـد البعثة فقال : « لقـد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » .

أما أخلاقه الـكريمة فى هذا الطور فحسب الحياة أن تسمع الى قول الله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ! وأى عظمة أجل وأعظم من عظمة نفس تعيش فى بيئات وثنية موبوءة برذائل جاهلية ، ثم لا يعلق منها بشسع نعـله شىء ، ويعترف له قومه أجمعون بهذه العظمة الخلقية حتى ارتضوه حكما بينهم فى أخطر حادث فى تاريخهم . ذكر رواة السيرة : أن قريشا اختلفوا عند بناء الـكعبة فى الحجر الأسود ، أيهم يرسيه فى مكانه ، حتى كادوا أن يقتتلوا ، ثم اتفقوا على أن يحكمّـوا أول داخل عليهم ، فـكان محمد الأمين أول داخل ، فقالوا : هذا الأمين ، رضيناه ، فحسم نزاعهم بحكمته ، وأرسى الحجر بكريم يده ، وأرضى كل قبيلة صنيعه .

الله أكبر ! حياة كالشمس الضاحية ، متصلة الحلقات ، معروفة العناصر ، يقف صاحبها وحيدا يدعو الى دين جديد يقلب وجـه التاريخ ويغاير معالم الحياة ، ويسوى بين السادة والعبيد ، ويمحو الفوارق الجنسية ، وينشر راية العدل ، ويقيل الانسانية من عثرتها ، فما هذه القوة التى أمام العالم أجمع تنادى به أن اخلع ثوب جهالتك ، وتعال الى أغسل عنك أوضار ضلالة

القرون الخوالى؟ إنها قوة الايمان بسمو العقيدة ، وجلال المبدأ، سيطرت تلك القوة على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم فصغرت الدنيا بحقيرها وخطيرها فى نفسه الى جانب دعوة الحق التى أرسله بها ، وتحمل فى سبيلها مايدك الجبال الراسيات ، وما زاد على أن قال : « اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون » . فلما تجمعت لدى قومه عوامل الذعر من سلطان الايمان أجمعوا أمرهم واستعانوا بقواهم المادية ، فقال كلمة الجلال السماوى ليشعرهم أن العالم بإنسه وجنه وسمائه وأرضه لو اجتمع على أن يلفت قلبه عن دعوته لحظة مااستطاع الى ذلك سبيلا : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته .

وكيف وهو لم يدع الى ملك أورياسة أوثراء ، وإنما يدعو الى الله الواحد الأحد ، وطرح الدنيا تحت قدميه ، وكان دعاؤه : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين .

أكرمه الله بمعجزات باهرة خرقت قوانين الطبيعة ومزقتها ، فما تحدى الناس بها ، لأنه جاء ليخاطب العقول ، فكانت معجزته الكبرى الخالدة التى تحدى بها العالم أجمع كتابا من الله هاديا يخرج به الناس من الظلمات الى النور ، ويفتح به أعينا عميا وقلوبا غلفا ، ويرد على الانسانية روحها النقى الطاهر ، ويعيد اليها إحساسها وشعورها وينبه مداركها ، ويبلغ للناس قوانين العدالة فى غير مصانعة لنفس ، ولا محاباة لقرابة .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، وفى غير ضغينة على عدو أوخصم « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هوأقرب للتقوى » ، وفى غير استطالة أوحيف : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . ويعلم الناس قوانين المساواة الحقيقية ، ومعاقد التفاضل بينهم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « الناس سواسية كأسنان المشط — كلكم لآدم وآدم من تراب — لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح» . ويبين لهم قيمة الاخاء والتعاطف ، ويوثق بينهم رابطته « إنما المؤمنون إخوة » « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

تعاليم سامية ، وآداب حكيمة ، وشريعة مهيمنة جامعة لخيرى الدنيا والآخرة .

هذا ما طلعت به شمس هداية محمد صلى الله عليه وسلم على الحياة ، فما أهنأ الحياة بها ، وما أسمى وأحلى ذكراها الخالدة ! فمرحبا بربيع الهدى ، وموسم النبوة ، ومهبط الكمال الانسانى ومرتع الوحى الالهى ، ومشرق شمس الهداية الأبدية ، ومطلع الحق الى يوم الدين ! اللهم إنا نسألك بما تحب أن تسأل به أن تصلى وتسلم على شمس الهداية محمد النبى الأمى ، وأن تبلغه منا أزكى التحية وأكرم التسليم ؟

صادق ابراهيم عرجون

أحاديث الوفود فى الاسلام

— ١ —

كثيرا ما يذكر التاريخ وفودا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على بعض خلفائه ، فيوجز المؤرخون فيما دار بينها وبين من وفدوا عليه من الأحاديث ، وقد يكون فيها الطريف المعجب ، أو الحكيم المهذّب ، فرأى حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ حسن خطاب الوكيل أن يتحرى ما دار من هذه الأحاديث بين الوفود والموفد إليهم من مصادرها الصحيحة ويطرف بها مجلة الأزهر . وهذه أولى كلماته :

لما كانت سنة تسع ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، تتابعت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم ، فوفد عليه عروة بن مسعود الثقفى « منفردا » ليسلم ، وهو السفير الثانى الذى كانت قريش أرسلته سنة ست يوم الحديبية الى النبى صلى الله عليه وسلم ليثنيه عن عزمه ، ويخوفه من بطش قريش ، ويحوّل وجهته عن دخول مكة ، فكان من خبره أنه لما وصل الى معسكر رسول الله ورآه المغيرة بن شعبة قادما ، قام من فوره ولبس أداة الحرب وسل سيفه ووقف وراء كتف النبى يرقب الحال ويسمع المقال . فلما انتهى المجلس بعروة قال : يامحمد إن قريشا لبسوا جلود النمر ، وعاهدوا الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : جئنا معتمرين لا محاربين .

فقال عروة : يامحمد كأنى بك وقد لاقيت قريشا وأسلمك قومك فتؤخذ أسيرا ، فأى شىء أشد عليك من هذا ؟ ومد عروة يده وأمسك بها لحية رسول الله كعادة العرب فى المناظرة مع النظير .

عند ذلك صاح المغيرة بعروة : أخر يدك عن لحية رسول الله ! فلم يحفل عروة بقول المغيرة ومضى فى حديثه وأمسك بلحية النبى صلى الله عليه وسلم . فضربه المغيرة بمؤخر السيف على يده وقال له : أخر يدك عن لحية رسول الله قبل أن لا ترد إليك ، فانه لا ينبغى لمشرك أن يمسه !

عند ذلك رفع عروة رأسه وقال للمغيرة : ما أفظك وما أغلظك ! ثم التفت الى النبى وقال : يامحمد من هذا الذى قد آذانى من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا شر منزلة ! فتبسم رسول الله . فقال عروة : من هذا يامحمد ؟ فأجابه النبى : هذا ابن أخيك شعبة .

فقال عروة للمغيرة : ألست أسعى فى غدرتك ؟ فوالله ما غسلت يدى من غدرتك إلا أمس ، لقد أورثتنا العداوة فى ثقيف (١)

لما لم يفلح فى مهمته رجع الى قريش وقال يامعشر قريش : إن محمدا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا . فروا رأيكم ، ياقوم رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد وما هو بملك ، ولقد رأيت الهدى معكوفا وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ! فلم تعبأ قريش بما فاه به عروة ، فانصرف الى الطائف ، الى أن كانت سنة تسع فوفد على رسول الله وأسلم . فسأل رسول الله أن يعود الى قومه ويدعوهم الى الاسلام ويبين لهم أنه دين قيم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوك .

فقال عروة : يارسول الله إنى أحب اليهم من أبكارهم . ولما جاء الطائف أشرف على علية له ودعا قومه الى الاسلام ، فلما سمعوا مقالته قاموا الى أقواسهم وسهامهم ورموه من كل ناحية ، فأصابه سهم فأرداه قتيلا ، فجاءه أحدهم وهو يتخبط فى دمه وقال له متشفيا فيه : ما ترى فى دمك؟ فأجابه عروة وهو يجود بنفسه :كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها إلىّ ، وليس فىّ إلا مافى هؤلاء الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ترتحل عنكم ، فادفنونى معهم ! ثم مات شهيد النصح والاحسان ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

ولما دفنه قومه حسبما طلب ، قال قائل منهم :لا طاقة لنا بحرب محمد وأصحابه ، فأرسلوا اليه من يفاوضه فى إسلامنا على شروط نبلغها اليه . فاتفقوا على أن يرسلوا الى النبي خمسة من أشرافهم ، فلما دنوا من المدينة نزلوا قناة بها فوجدوا المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب رسول الله وسرحه ،وكانت رعايتها نوبا بين أصحابه ، فلما رآهم المغيرة وسألهم عما جاءوا من أجله ،ترك الركاب ونشط فى السير ليخبر رسول الله بمقدمهم عليه ، فلقيه أبو بكر رضى الله عنه فقال له : ما الخبر؟ فقال المغيرة : هذا وفد ثقيف جاء ليسلم . فقال له أبو بكر : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى الى رسول الله حتى أكون أنا الذى أحدثه ! فقال المغيرة : لك ذلك ، ورجع . فلما دخل أبو بكر وأخبر النبي بمقدم وفد ثقيف ، أمر النبي بأن يكونوا فى خيمة فى المسجد ، وأن يكون السفير بينه وبينهم خالد بن سعيد بن العاص مدة إقامتهم حتى تتم مهمتهم ، وأمر بأن تولم الولائم لهم ضيافة منه وكرما . فكانوا إذا دعوا الى الطعام لا يأكلون إلا إذا أكل خالد بن سعيد أولا ، ثم أبلغوا السفير شروطهم ، وهى :

(١) أن يدع لهم النبي اللات ثلاث سنين .

(٢) وفى حين هدمها يكون بأيديهم .

(١) والغدرة هى ان المغيرة كان قتل ثلاثة عشر رجلا من ثقيف فى جاهليته قبل ان يسلم ، وكانوا قدموا معه على ملك فاعطاهم عطاء وافرا فراى القوم حرمان المغيرة من نصيبه ، فصبر حتى ثملوا من الخمر وعدا عليهم فقتلهم .

(٣) وأن يعفيهم من الصلاة .

فلما أبلغ خالد بن سعيد الى النبي ما اشترطوه ، أمره بان يبلغهم ما يأتى :

(١) أما الإبقاء على اللات فلا يكون أبدا .

(٢) وأما كسرها بأيديكم فسنعفيكم منه .

(٣) وأما إعفاؤكم من الصلاة ، فلا خير فى دين لا صلاة فيه .

فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ، فقالوا : نقبل وندخل فى دين الله مخلصين بلا قيد ولا شرط . وتم إسلامهم وطلبوا من النبي أن يبعث معهم من يؤمهم ، فأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكانوا قد تركوه فى حراسة ركابهم لأنه كان أصغرهم سنا . وكان من خبره أنه لما قدم معهم كان يذهب خفية الى رسول الله ، وأسلم وتعلم منه فرائض الدين وأحكامه ، وبلغ من حرصه أنه إذا لم يتيسر له مقابلة الرسول كان يتوجه الى أبي بكر ويتعلم منه . فلما أذعن أصحابه للاسلام أظهر إسلامه وحاله ، فكان نصيبه أن أُمّر عليهم لعلمه بدينه وأحكامه ، ولما رجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وراءهم أبا سفيان والمغيرة ليتوليا هدم اللات ، فقال المغيرة لأبى سفيان : تقدم أنت واهدمها . فأجابه أبو سفيان: بل تقدم أنت فهم قومك . ولما علاها المغيرة بالمعول قام فريق من قومه (وهم بنو معتب) يحرسونه خشية أن يصيبه ما أصاب عروة من قبل ، فلما هدمت نظر إليها أبو سفيان وقال : واهاً لك ، واهاً لك !

ثم قدما على رسول الله بعد أن أخذ المغيرة مالها وحليها ، وقضى من ذلك المال دين عروة والأسود ابنى مسعود بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ؟

حسن خطاب الوكيل

البيان زين للرجال

قيل لبزرجمهر : أى شيء أستر للعى ؟ قال : عقل . قالوا : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فمال . قالوا فان لم يكن له مال ؟ قال : فاخوان يعبرون عنه . قالوا : فان لم يكن له إخوان ؟ قال يجلس صامتا .

وقال شاعر :

وما حسن الرجال لهم بزين ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجه وليس له لسان

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفنا بالقراء فى البحث السابق عند الكلام عن وقف المنقول بعد الافاضة فى وقف العقار وما تلاحق فيه من أوجه الخلاف حول شروطه المصححة له .

والآن نحاول فى شىء من البسط أن نعرض لوقف المنقول استقلالا . وقد تضاربت فيه أقوال علماء الفروع ، فلزم عن ذلك تضارب أحكام المحاكم الشرعية ، واختلاف وجهة النظر بين الباحثين تبعا لاختلاف المحققين من العلماء .

فمن المنقول الذى جرى العرف بوقفه الشجر والبناء ، فقد رجح الامام محمد جواز وقفهما ، وشرط لذلك الجواز أن تكون الأرض القائم عليها البناء والشجر موقوفة، تحقيقا لمعنى التأبيد المقصود ، سواء أكان الواقف لتلك الأرض هو الواقف لهما أم غيره هو الواقف لها ، على شريطة أن تكون الأرض الموقوفة فى يد واقف الشجر والبناء من طريق الاستحكار ، وهو عقد إجارة يقصد به استبقاء الأرض مقررة للغرس والبناء أو لأحدهما فى يد المستأجر ما دام يؤدى الى المؤجر أجر المثل . ويبتنى على ذلك الفرع عند محمد رضى الله عنه أنه لو كانت الأرض التى أقيم عليها البناء والشجر مملوكة للواقف يومئذ على سبيل العارية أو الاستئجار ، وقع الوقف باطلا لانتفاء التأبيد المطوى فى نوايا الواقفين ، ضرورة خروج الأرض عن ملكية الواقف بعد موته ، واحتمال طلب ورثة الميت نقض البناء واقتلاع الأشجار المغروسة ، أو احتمال طلب المالك للأرض هدم البناء واقتلاع الشجر بعد استرداد العارية وانتهاء مدة الاجارة أو فسخها فى خلال المدة .

وجلى مما سبق بيانه أن الأرض المملوكة إذا قررت للاحتكار فى يد واقف البناء والشجر صح وقف ما يغرس فيها من شجر ، أو مايقام عليها من بناء ، لتحقق معنى التأبيد المقصود حينئذ فيهما . ويظهر أن العلماء استثنوا تلك الحالة لأن الأرض وإن لم تكن موقوفة بالمعنى الفقهى ولكنها محكرة بالقدر الذى يكفل استمرارها وأبديتها ، فصح أن تغرس فيها أشجار ويقوم عليها بناء بطريق الوقف تبعا لهذا التحكير .

لكنهم بعد ذلك اختلفوا فى جواز وقف البناء والشجر على الجهة التى وقفت عليها الأرض ، فشرط قوم منهم أن تتوحد الجهة الموقوف عليها فى الأرض والبناء والشجر ، ورجح آخرون القول بعدم التعين للجهة التى وقفت عليها الأرض ، وبالتالى بعدم التزام أن توقف الأشجار والبناء على الجهة التى وقفت عليها الأرض ، فيجوز للمحتكر أن يقف البناء والغرس على نفسه ثم للفقراء

من بعده ، كما يجوز له توحيد جهة الوقف ، وعند اختلاف الجهة يجب على جهة وقف البناء والغرس دفع أجر الحكر الى جهة وقف الأرض ، وهو أجر المثل للأرض خالية من البناء .

ويتفرع على ما سبق أنه لو بنى المحتكر فى الأرض الموقوفة المستأجرة مسجدا ، وقع البناء صحيحا ، وفى هذه الحالة يكون أجر الحكر فى خلال مدة الاجارة على المستأجر ، فاذا انقضت تلك المدة كان أجر الحكر مستحقا فى بيت المال .

ثم إن العلماء بهذه المناسبة عرضوا فى شىء غير قليل للكلام عن حكم الغرس والبناء فى الأرض الموقوفة ، وافترضوا حالات ثلاثا تلزم هذا الحكم ، فقالوا : الغارس للشجر والمقيم للبناء فى الأرض الموقوفة إما أن يكون هو الواقف أو الناظر على العين الموقوفة أو غيرهما ، فان كان هو الواقف وكانت نفقتهما من مال الوقف أو كانت نفقتهما من مال الواقف وصرح بذلك فى إشهاد وقفه ، انحاز الغرس والبناء الى جهة الوقف ، وجرى عليهما مايجرى على الأرض الموقوفة من الأحكام . أما إذا كانت نفقتهما من ماله ولم يصرح فى إشهاد وقفه بانحيازهما الى جهة الوقف فهما داخلان قطعا فى ملكيته سواء صرح بملكيته لهما فى إشهاد وقفه أم أطلق ، وذلك مطرد الحكم فى تلك الحالات المتماثلة .

غير أن علماء الوقف استثنوا حالة أخرى فيما إذا غرس الواقف شجرة فى مسجد ، فانها تكون فى تلك الحالة منحازة الى جهة المسجد ، ضرورة إجماع علماء الفروع على أن ما استحدث فى المساجد من أشجار وزروع لا يكون ملكا لأحد . وعليه فان كانت تلك الشجرة المغروسة ذات ثمار مأكولة فلا يباح الأكل منها إلا إذا عُلم من طريق صحيح أن الواقف غرسها للسبيل وهو الوقف على العامة . أما إذا غرست لتظليل المسجد ، أو جهل قصد الواقف من غرسها فلا يباح الأكل منها ، بل تباع ثمرتها ويصرف ثمنها فى مصالح المسجد .

ونقل صاحب تنقيح الحامدية وتابعه العلامة ابن عابدين : إن كان صاحب الغرس والبناء هو الناظر على الوقف فالغرس والبناء تابعان لجهة الوقف طبعا فى جميع الأحوال ، ويستثنى من ذلك ما إذا غرس أو بنى من ماله وأشهد على ذلك وقت البناء والغرس أنه يبنى ويغرس لنفسه لا لجهة الوقف فانه يكون حينئذ ملكا خالصا له .

لكن العلماء رتبوا على تلك النظرية حالة أخرى ذات شقين فقالوا : إن كانت إقامته للبناء أو غرسه للشجر ضارا بمصلحة العين الموقوفة فلا يمكّن منهما أو من أحدهما ، كما لا يُمكن من الانتفاع من بنائه أو غرسه ، لأنه يعتبر متعديا فى تلك الحالة ، ومضيعا لماله ، لأنه وضع الغرس أو البناء فى غير ملكه الصالح للملكية على حالة تدعو الى الإضرار بمصلحة الوقف التى اعتبرها الشارع مصدراً لجهة بر لا ينقطع ، ويؤمر من القاضى بالتربص حتى ينهار البناء وتموت جذور الشجر ، وإذ ذاك يرد اليه نقضه وحطبه ، ويبقى عليه بعد ذلك لوثة الخيانة ،

لأنه أخل بتطبيق شروط الواقفين ، وبما يجب أن يراعى فى الوقف من التأبيد ، ويعتبر فى هذه الحالة فاسقا يجب عزله . وعلى تلك النظرية درجت المحاكم الشرعية .

أما إذا لم يضر الغرس أو البناء بطبيعة الأرض الموقوفة منع من التمكن من الغرس او البناء ، ضرورة أنه حين يقيم بناء أو يغرس أشجارا يكون هذا التصرف منه واقعا فى غير ملكه فلا يمكن منه بادئ ذى بدء .

وإن كان البانى أو الغارس غير الواقف وغير الناظر وهى الحالة الثالثة ، كان البناء والغرس منحازين الى جهة الوقف على شريطة أن تكون نفقتهما من الوقف ، سواء بنى أو غرس لنفسه أو أطلق ، لأنه لا يملك فى هذه الحالة أن يبنى أو يغرس من مال الوقف ، أو كانت نفقتهما من ماله وقد أذنه الناظر بذلك ليرجع على الواقف بما أنفقه ، أو لم يأذن لكنه بنى أو غرس لجهة الوقف . فان غرس أو بنى لنفسه بدون إذن ناظر الوقف فالغرس والبناء له ، وأمر فى هذه الحالة بنزعهما إن لم يضر بالأرض . وللناظر أن يشتريهما على حساب الوقف إن رأى المصلحة فى ذلك بثمن أقل من قيمتهما منزوعة ملكيتهما .

أما فى حالة ما إذا أضر الغرس والبناء بتربة الأرض أمر البانى أو الغارس من القاضى بالتربص حتى ينهار البناء أو تموت أصول الشجر ، وفى هذه الحالة ترد اليه الأحطاب والأنقاض لأنه هو الذى ضيع باختياره ماله بالتعدى على أرض لا يملكها .

وفى جميع الحالات التى يكون الغرس والبناء ملكا لمن أحدثهما وأمر بالتربص حتى ينهار البناء أو تموت أصول الشجر ، لا يكون شغل الأرض بهما حائلا دون تأجيرها ، ضرورة أنهما وضعا فى الأرض الموقوفة بغير حق شرعى ، فلا يد لصاحبهما عليهما . وفى هذه الحالة الأخيرة يقسم الأجر قسمة تناسبية بين الأرض خالية من البناء بحسب قيمتها ، وبين البناء والغرس بحسب قيمتهما ، فما أصاب أرض الوقف من ذلك التقسيم فهو منحاز الى جهة الوقف ، وما أصاب الغرس والبناء فهو ملك للغارس أو البانى .

بقى أن علماء الوقف فصلوا ما يجوز بيعه وما لا يجوز من الأعيان الموقوفة ، واحتفظوا فى مجموع نصوصهم وفروعهم بأحكام للوقف لا تتعداه ، ونوعوا فى فروع الأعيان الموقوفة تنويعا يشهد لهم بطول الباع وسعة الاطلاع ، مما سنوفيه حقه من البحث فى أعداد تالية ، إن شاء الله .

عباس طه
المحامى الشرعى

الجامع الكبير : للامام أبى عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى :

الامام محمد بن الحسن أحد صاحبى أبى حنيفة كان من أفذاذ الفقهاء ، قال الامام محمد بن شجاع الثلجى فى جامعه الكبير الذى نحن بسبيل تقريظه « ما وضع فى الاسلام كتاب فى الفقه مثل جامع محمد بن الحسن الكبير » . وقال العلامة الكوثرى : « والحق أن هذا الكتاب آية فى الإبداع ، ينطوى على دقة بالغة فى التفريع على قواعد اللغة وأصول الحساب ، خلا ما يحتوى عليه من المضى على دقائق أصول الشرع الأغر ، فلعله ألفه ليكون محكا لتعرّف نباهة الفقهاء ، وتيقظهم فى وجوه التفريع ، الخ الخ » .

وليس بعد هذه الشهادات فيه قول لقائل . وقد سرنا أن لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر اباد الدكن بالهند قد عنيت بطبعه فى مصر طبعا أنيقا معجبا بهمة وكيلهم فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان . فنشكر لهذه اللجنة جهدها . أكثر الله من أمثالها .

ويطلب الكتاب من وكيل اللجنة بعطفة الأمير رقم ١ بالأزهر ومن مكتبتى الحلبى والمكتبة التجارية .

تحفة الأحباب وبغية الطلاب : فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات :

هو كتاب تاريخى يقع فى أكثر من أربعمائة صفحة يذكر تاريخ الخطط والمزارات والبقاع المعروفة مما يشوق الباحث أن يعرفه ، وهو من وضع العلامة المؤرخ أبى الحسن نور الدين على بن احمد السخاوى الحنفى . وقد عنى بتصحيحه والتعليق عليه كل من صاحب الفضيلة الشيخ محمود ربيع المدرس بالأزهر ، والأستاذ حسن قاسم مدير مجلة هدى الاسلام . وفى الكتاب طرائف يحسن الاطلاع عليها ، وفيه تراجم كثيرة ربما عز وجودها فى كتاب آخر .

منار الرشد :

وضع حضرة الأستاذ ابراهيم السيد اسماعيل ابن القاش المدرس بمدارس الحكومة المصرية كتابا بهذا الاسم ضمنه مباحث جمة فى العلوم الآلية والدين والطبيعة والفلك والروح وما يتصل بها من الرؤيا والالهام والعرافة والنبوة ، والمراد من ذلك أن يضع كتابا فى الترشيد يخدم النابتة فيما يفيدهم فى أمر دينهم ودنياهم .

وقد عنى المؤلف بطبعه طبعا متقنا ، وحلى بعض فصوله بالصور العلمية ، وهو يقع فى عشر صحف ومائتى صفحة ، فنشكر له هديته .

جمهرة رسائل العرب : فى عصور العربية الزاهرة :

هذا كتاب جليل القدر كانت سلسلة المطبوعات العربية فى حاجة ماسة إليه ، ناهيك

أنه يشتمل على رسائل للعرب فى زمن الجاهلية وصدر الاسلام . ففيه كتاب المنذر الأكبر ملك الحيرة لكسرى أنوشروان ، والملك عمر بن هند الى عامله بالبحرين ، وعبد العزى ابن امرئ القيس الكلبي الى قومه ، وعدى بن زيد العبادى الى أخيه ، وكتاب النعمان بن المنذر الى كسرى ، وكتاب عبد المطلب الى أخواله بيثرب ، وكتاب التحالف بين عبد المطلب وبين بنى خزاعة ، وكتاب أكثم بن صيفى الى بنى طىء . هذا فى عصر الجاهلية .

أما فى عصر الإسلام ففيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة ، وكتبه الى هرقل وكسرى والنجاشى والمقوقس والحرث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، يدعوهم بها هم وقومهم الى الاسلام . وهذه وثائق تاريخية يهم أن يجدها كل من يعنى بالبحث فى الشئون الاسلامية مجموعة فى كتاب .

هذا غير كتبه صلى الله عليه وسلم الى القبائل والى بعض أصحابه ، يليها كتب أبى بكر الى المرتدين والى عماله وقواده فى ساحات الحرب ، وكتب عمر بن الخطاب ، وكتب عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وبعض الردود عليها .

هذا الكتاب على هذا الوجه يعتبر عملا جليلا كانت المكتبات العربية فى أشد الحاجة اليه ، فنشكر لحضرة مؤلفه الأستاذ المفضال أحمد زكى صفوت المدرس بدار العلوم ما بذله من جهد ، وما أنفقه من وقت ، وعاناه من بحث . ونشكر كذلك لمكتبة السيد مصطفى البابى الحلبى إبداعها فى طبعه ، وإحسانها فى ضبطه .

يقع هذا المجلد فى ٦٠٨ صحائف ، وسيليه ثان وثالث ورابع . فحيا الله هذه الهمم وألهم أهلها الثبات والمثابرة .

نوابغ الشباب: ملحق لمجلة الهلال :

هو آخر ما وصلنا من الملاحق القيمة لمجلة الهلال ، وموضوعه من أجل المواضيع ، وهو دراسة نفسية تحليلية لنوابغ الشباب من جميع البيئات العالمية ، فنجد فيه بجانب الاسكندر المقدونى وموزار ووليم بت ، مصطفى كامل وجان دارك وغيرهم . وضعه حضرة الأستاذ أحمد قاسم جوده بكالوريوس فى الآداب .

هذا الكتاب من أفضل الكتب التى ألفت حديثا وأكثرها نفعا للشباب ، فانهم بالاطلاع على حياة النابغين من الشباب العالميين تتيقظ فيهم روح النشاط والمثابرة للوصول الى مثل الغايات البعيدة التى وصل اليها أسلافهم من أفذاذ الناشئين . فنشكر لمجلة الهلال عنايتها بهذه الموضوعات الحية ، ونرجو لها المزيد من التوفيق .

قالتْ وحدثتْنى أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقبّلها وَهوَ صائمٌ ، وكنت أغتسِلُ أنا والنبيُّ صلى الله عليه وسلم من إناءٍ واحدٍ مِنَ الجنابةِ ».

Zainab added that Umm Salamah also related to her that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to kiss her when he was fasting, and that she used to perform the ghusal together with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) from the same vessel, when in a state of ritual impurity through sexual intercourse.

— ٢٢ —

باب مَنْ اتخذَ ثيابَ الحيضِ سِوَى ثيابِ الطُّهرِ :

Chapter 22.

On a woman who assumeth for her menstruation a gown other than that worn when in a state of purity.

حدثنا معاذ بن فَضالة قال حدثنا هشام عن يحي عن أبى سلمة عن زينب ابنة أبى سلمة عن أم سلمة قالت :

We are informed by Mu ᶜâdh b. Fadâlah, who had it from Hishâm, through Yahyâ, through Abu Salamah, through Zainab, the daughter of Abu Salamah, through Umm Salamah, who said:

« بينا أنا معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم مُضْطَجِعَةٌ فى خَميلةٍ حضتُ فانسللتُ فأخذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِى فقالَ: أنُفِسْتِ ؟ فقلت نعـــمْ ، فدَعانى فاضْطجعَت معه فى الخميلةِ ».

"While I was once lying with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) under one bed-cover, my courses came upon me. I then stole out of bed and put on my menstruating-gown. 'Have thy courses come upon thee?' asked he. I replied that it was so. He then called me and I lay with him under the bed-cover."

received it from Qatâdah, who was told it by Mucâdhah that:

A certain woman[1] once asked cAsishah: "Should any of us make up the prayers she hath missed *during her courses*, after her purification?" "Art thou a Harûrite?"[2] asked cAs ishah. "When we had our courses in the time of the Prophet (Allâh bless him and give him peace), he never ordered us to do so." Or—added Mu câdhah— cAs ishah said: "we used not to do so."

همام قال حدثنا قتادة قال حدثتني مُعاذة :

«أنَّ امرَأةً قالتْ لِعائشةَ : أتَجزي إحدَانا صلاتَها إذا طَهُرَتْ ؟ فقالتْ : أحَرُورِيَّةٌ أنتِ ؟ كنَّا نَحيضُ مَعَ النبي صلى الله عليه وسلم فلا يَأمُرُنا بهِ، أوْ قالتْ فلا نَفعَلهُ » .

Chapter 21.

— ٢١ —

On sleeping with one's wife when she is in her courses and wearing her menstruating-gown.

بابُ النَّوْمِ معَ الحائِضِ وهيَ في ثِيَابِها :

We are informed by Sa cdb. Hafs, who had it from Shaibân, through Yahyâ, through Abu Salamah[3], through Zainab the daughter of Abu Salamah[4], who related to him that her mother Umm Salamah said:

"Once while I was *lying* with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) under one bed-cover, my courses came upon me. I stole out of bed and put on my menstruating-gown, when the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said to me: 'Have thy courses come upon thee.?' I replied that it was so. He then asked me to join him under the bed-cover."

حدثنا سعد بن حفص قال حدثنا شَيبانُ عن يحيى عن أبي سلمة عن زينب ابنة أبي سلمة حَدَّثَتْهُ أنَّ أمَّ سلمة قالت :

« حِضْتُ وأنا مَعَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الْخَمِيلَةِ ، فانْسَلَلْتُ فخرجتُ منها فأخذت ثيابَ حِيضَتي فلبِستُها ، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنُفِسْتِ ؟ قلتُ نعمْ ، فدعاني فأدخلني معه في الخميلة ،

---

1. Mucâdhah the narrator herself, who was considered one of the most learned faqîhs among the Tâbicis.

2. Harûrâs is a village near Kûfah, where the Kharigites first made their pact against cAli. They were an extremely strict sect, who maintained that women should perform prayers in place of those missed during menstruation.

3. The son of cAbd-ur-Rahmân b. cAuf.

4. cAbdullâh b. cAbd-ul-Asad, the first husband of Umm Salamah the Prophet's wife.

whom she replied: "Do not hurry until you see the cotton come out white". By this she meant that they were then clear of their courses;

and on the daughter of Zaid b. Thâbit having heard that certain women called for lamps in the middle of the night to see if they were clear of their courses and saying that the womenflok of *the Companions* used not to do so, and blaming them for doing so.[1]

We are informed by ^{c}Abdullâh b. Muhammad, who had it from Sufyân, through Hishâm, through his father, through ^{c}A^{s}ishah that:

Fâtimah bint Abu Hubaish was subject to constant menstrual discharge and when she questioned the Prophet (Allâh bless him and give him peace) about it, he said: "It is only blood oozing from a vein, and not menstruation; so when thy period cometh give up prayer, and when it passeth perform thy ghusl and then make thy prayer."

فتقولُ: لا تعجلْنَ حتى ترَيْنَ القَصَّةَ البيْضَاءَ ، تُرِيدُ بذَلِكَ الطُّهْرَ مِنَ الحَيْضَةِ ،

وَبَلَغَ ابنَةَ زيدِ بنِ ثابتٍ أنَّ نِسَاءً يدْعُونَ بالمَصَابِيحِ مِنْ جَوْفِ الليْلِ ينْظُرْنَ إلى الطُّهرِ ، فقالتْ: ما كانَ النِّساءُ يَصْنَعْنَ هذا ، وعابَتْ عَلَيهِنَّ ؛

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا سفيان عن هشام عن أبيه عن عائشة :

أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ أبي حُبَيْشٍ كانتْ تُسْتَحَاضُ فسَألتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : « ذَلِكِ عِرْقٌ ولَيْسَتْ بالحَيْضَةِ ، فإذا أقْبَلَتِ الحَيْضَةُ فدَعِي الصَّلاةَ ، وإذا أدْبَرَتْ فاغْتَسِلِي وَصَلِّي » .

Chapter 20.

A woman is not obliged to make up the prayers she hath missed during her courses;

and, Jâbir and Abu Sa^{c}îd related the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace):"She is remitted her prayer during her courses."

We are informed by Mûsa b. ^{s}Ismâ^{c}îl, who had it from Hammâm, who

— ٢٠ —

بابٌ : لا تقضي الحائضُ الصَّلاةَ ،

وقال جابرٌ وأبو سعيدٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « تَدَعُ الصَّلاةَ » :

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا

1. Her blame was on the ground that lamp-light was not strong enough to enable them to apply this test with certainty, and accordingly they could not be sure that they were in a fit state to begin their fast. It appears that the question arose during the month of fasting. Zaid b. Thâbit had several daughters, and the commentators consider it probable that Umm Kulthûm is the one meant here.

We are informed by Yahyâ b. Bukair, who had it from Al-Laith, through cUqail, through Ibn Shihâb, through cUrwah, through cA ishah, who said :

"We set out with the Prophet (Allâh bless him had give him peace) on the Farewell Pilgrimage. Amongst us were some who assumed the ihrâm for the cUmrah, and some who did so for the Hajj. When we arrived ât Makkah, the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said : 'Let him that hath assumed the ihrâm for the cumrah and hath not an animal for sacrifice, leave it, and let him that hath assumed the ihrâm for the cumrah, having brought an animal for sacrifice, not leave it until he have done so through the sacrifice of his victim; and let him that hath assumed the ihrâm for the Hajj, complete his hajj.' "

"Then," added cA'ishah, "my courses came upon me, and I continued in that state until the Day of cArafah arrived, so that I had only assumed the ihrâm for the cumrah. Accordingly the Prophet (Allâh bless him and give him peace) commanded me to loose and comb my hair, and assume the ihrâm for the Hajj, abandoning the cumrah. I did so until I had completed my hajj, after which he sent with me Ab d-ur-Rahmân b. Abu Bakr, commanding me to perform a cumrah instead of the one I had abandoned, starting from At-Tancîm."

حدثنا يحيى بن بُكير قال حدثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت :

« خَرَجْنَا مَعَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فى حَجَّةِ الوَدَاعِ فمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بعُمْرَةٍ ومِنَّا مَنْ أَهَلَّ بحَجٍّ ، فَقَدِمْنَا مَكَّةَ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَحْرَمَ بعُمْرَةٍ ولَمْ يُهْدِ فَلْيُحْلِلْ ، ومَنْ أَحْرَمَ بعُمْرَةٍ وأَهْدَى فلاَ يَحِلُّ حَتَّى يَحِلَّ بِنَحْرِ هَدْيِهِ ، ومَنْ أَهَلَّ بِحَجٍّ فَلْيُتِمَّ حَجَّهُ .

قالت : فَحِضْتُ ، فلَمْ أَزَلْ حائضاً حتى كانَ يَوْمُ عَرَفَةَ ولَمْ أُهْلِلْ إلاَّ بعُمْرَةٍ ، فأمَرَنى النبى صلى الله عليه وسلم أنْ أَنْقُضَ رَأْسى وأَمْتَشِطَ وأُهِلَّ بحَجٍّ وأَتْرُكَ العُمْرَةَ ، ففَعلْتُ ذلك حتى قَضَيْتُ حَجِّى ، فبَعَثَ مَعِى عبد الرحمٰنِ بْنَ أبى بَكْرٍ وأَمَرَنى أَنْ أَعْتَمِرَ مكانَ عُمْرَتى مِنَ التَّنْعِيمِ » .

Chapter 19.

— ١٩ —

On the appearance of the courses and their disappearance;

And on certain women having sent to cAs ishah sachets containing cotton wads stained with yellow, to

بابُ إقبالِ المَحيضِ وإدبارِهِ ،

وكُنَّ نِسَاءٌ يَبْعَثْنَ إلى عائشةَ بالدُّرْجَةِ فيها الكُرْسُفُ فيهِ الصُّفْرَةُ

Hishâm added: In all that there was no animal for sacrifice,[1] nor fasting, nor almsgiving."[2]

قال هشام : ولم يكن فى شىء من ذلك هدى ولا صوم ولا صدقة .

Chapter 17.

— ١٧ —

"Formed or unformed?"[3]

باب مخلقة وغير مخلقة :

We are informed by Musaddad, who had it from Hammâd, through 'Ubaidullah b. Abu baker, through Anas b. Mâlik, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said:

"Allàh (be He magnified and exalted) placed in charge of the womb an angel who saith: 'Lord, this is a drop of sperm; Lord, this is a clot of blood; Lord, this is a piece of flesh.[4]' Then when Allâh willeth that this should be completely formed, the angel saith: 'Is it to be male or female? Wretched or blessed? What shall be its portion? And what its life-span?' It is then written thereon in its mother's womb."

حدثنا مسدد قال حدثنا حماد عن عبيد الله بن أبى بكر عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا يقول : يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقه قال : أذكر أم أنثى؟ شقى أم سعيد؟ فما الرزق وما الأجل؟ فيكتب فى بطن أمه».

Chapter 18.

— ١٨ —

On how a woman in her courses is allowed to assume the ihrâm for the Hajj and the ᶜumrah.

باب كيف تهل الحائض بالحج والعمرة :

---

1. It does not necessarily follow from Hishâm's words that there was no sacrifice of victims, but the fact of the Prophet's sacrifice on behalf of ᶜAʾishah did not reach him, for the Prophet had intended the sacrifice without mentioning it. (Al- ᶜAini **in loco**).

2. It is clear from the two preceding hadîths that menstruation is no impediment to the performance of the various rites of the pilgrimage to Makkah apart from the circumambulation, which can be performed, however, after the ghusl. The loosing and combing of the hair was ordered here to set a commendable practice for women in their courses or after childbirth who should perform a ghusl in preparation for the ihrâm of the hajj.

3. This title is quoted from another hadîth related by ᶜAlqamah, explaining the purpose of this hadîth, namely to show that blood emittted during pregnancy is not menstrual, but appears only in the event of miscarriage, as implied by the word "unformed". Some commentators hold that Al-Bukhâri wished to give an exposition of the words of the title quoted from the Qurᶜân (Surah 22 : 5).

4. According to the stages of the development of the embryo.

Chapter 16.

On a woman loosing her hair when performing her menstrual ghusl.

We are informed by ᶜUbaid b. Ismâ ᶜîl, who had it from Abu Usâmah, through Hishâm, through his father, ᶜAˢ ishah, who said:

"We set off shortly before[1] the new moon of Dhul-Hijjah. Then the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said: 'Let him that desireth to put himself in a state of ihrâm for the ᶜumrah, do so. For my part, but that I had brought animals for sacrifice, I should put myself in a state of ihrâm for the ᶜumrah. Thereupon some assumed the ihrâm for the ᶜumrah and others for the Hajj. I was among those who assumed it for the ᶜumrah, and when the Day of ᶜArafah arrived I was in my courses. So I complained to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and he said: 'Give up thy ᶜumrah, loose and comb thy hair, and assume the ihrâm for the Hajj.' I did so, untill, when the night of Al-Hasbah arrived, he sent with me my brother 'Abd-ur-Rahmân b. Abu Baker, and I proceeded to At-Tan ᶜîm, where I assumed the ihrâm for a ᶜumrah instead of the ᶜumrah I had *abandoned.*"

— ١٦ —

بابُ نَقْضِ المَرْأةِ شَعَرَهَا عِندَ غُسْلِ المَحِيضِ :

حدثنا عبيد بن اسماعيل قال حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت :

« خَرَجْنَا مُوَافِينَ لِهِلاَلِ ذِي الحِجَّةِ فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أحَبَّ أنْ يُهِلَّ بِعُمْرَةٍ فَلْيُهْلِلْ ، فإنِّي لوْلا أنِّي أهْدَيْتُ لأهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ ، فأهَلَّ بَعْضُهُمْ بِعمْرَةٍ وَأهَلَّ بَعْضُهُمْ بِحَجٍّ ، وَكُنْتُ أنَا مِمَّنْ أهَلَّ بِعُمْرَةٍ ، فَأدْرَكَنِي يَوْمُ عَرَفَةَ وَأنَا حائِضٌ فَشَكَوْتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : دَعِي عُمْرَتَكِ وانْقُضِي رَأْسَكِ وامْتَشِطِي وَأهِلِّي بِحَجٍّ ، فَفَعَلْتُ ، حتى إذا كانَ لَيْلَةُ الحَصْبَةِ أرْسَلَ مَعِي أخي عبدَالرحمن بْنَ أبي بَكْرٍ فَخَرَجْتُ إلى التَّنْعِيمِ فأهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ مكانَ عُمْرَتِي » .

---

complete owing to her condition, so the Prophet ordered her to abandon it for the Haj She accordingly performed the waqfah on the day of ᶜArafah, while in her courses, an purified herself the next day, completing the Hajj. She then recommenced and complete the interrupted ᶜumrah in order to do as the others had done, and obtain the double blessing She was enabled to perform the Hajj by the Prophet sacrificing a cow on her behalf.

1. They started out five days before the new moon and arrived in Makkah five day after it.

We are informed by Mûsa b. Ismâ'îl, who had it from Ibrâhîm, who received it from Ibn Shihâb, through cUrwah that cAs ishah said :

"I was in a state of ihrâm and called the ihlâl with the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) on the occasion of the Farewell Pilgrimage. I was among those performing the cUmrah,[1] who did not bring victims for sacrifice."

cAs ishah implied that her courses came upon her then, and she did not purify herself until the Eve of cArafah,[2] when she said:"O Messenger of Allâh, here is the eve of cArafah and I have only been fit to perform the cUmrah *on account of my courses.*" "Loose thy hair and omb it, and suspend thy cUmrah", I said the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace). I did so, and when I had accomplished the pilgrimage, he commanded cAbd-ur-Rahmân[3] on the night of Hasbah[4] to set me on the cumrah starting from At-Tanc îm,[5] instead of the cumrah which I had abandoned *for the Pilgrimage.*[6]

حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا ابراهيم حدثنا ابن شهاب عن عروة أن عائشة قالت :

« أهللتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فكنتُ ممن تمتع ولم يسق الهدى ، فزعمت أنها حاضت ولم تطهر حتى دخلت ليلة عرفة فقالت : يا رسول الله هذه ليلة عرفة وإنما كنتُ تمتعتُ بعمرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : انقضي رأسك وامتشطي وأمسكي عن عمرتك ، ففعلتُ ، فلما قضيتُ الحج أمر عبد الرحمن ليلة الحصبة فأعمرني من التنعيم مكان عمرتي التي نسكتُ ».

---

1. The cumrah is a simple visit to the sacred Mosque at Makkah, which can be made at any time except the three days of the Hajj (the obligatory Pilgrimage), omitting the sacrifices. It is a meritorious act but has not the merit of the Hajj.

2. cArafah is a mountain 12 miles from Makkah, where the pilgrims assemble on the great day of the Pilgrimage, the ninth of Dhul-Hijjah, and perform the midday and afternoon prayer and hear the sermon.

3. cAs ishah's brother.

4. A station between Makkah and Minâ. The night of Al-Hasbah is the eve of the day of the dispersal of the pilgrims, and it was so called because the pilgrims spent the night at that place.

5. A place about a parasang from Makkah on the way to Al-Madînah, where there is a mosque known as cAs ishah's Mosque.

6.—reading سكت for نسكت as in another version. When cAs ishah set off she had put herself in a state of ihrâm for the Hajj, but not having the necessary animals for sacrifice, she, among others like her, had to abandon it for the cumrah. This she was unable to

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للأستاذ ابراهيم حسن الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(CONTINUED)

Chapter 14.

On the menstrual ghusl.

We are informed by Muslim, who had it from wuhaib, who received it form Mansûr, through his mother, through ^{c}A^{s} ishah that :

A woman of the Ansâr once said to the prophent (Allâh bless him and give him peace) : "How shall I perform the ghusal after my courses?" "Take a perfumed rag and purify thyself." This he said three times. Then the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was overcome by shame and turned away his face ; or he said (^{c}A ishah-added) : "Purify thyself with *the rag*." I then drew the woman aside and explained to her what the Prophet (Allâh bless him and give him peace) meant.

Chapter 15.

On a woman combing her hair when performing her menstrual ghusl.

كتاب الحيض (تابع ماقبله)

— ١٤ —

بابُ : غُسْلِ المَحيضِ :

حدثنا مسلم قال حدثنا وُهيب حدثنا منصور عن أمه عن عائشة :

« أنَّ امرَأةً منَ الأنصارِ قالتْ للنبي صلى الله عليه وسلم : كيفَ أغتسِلُ منَ المَحيضِ ؟ قالَ : خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتوَضَّئي ثلاثاً ، ثمَّ إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استَحْيَا فَأعرَضَ بوَجهِه أوْ قال تَوَضَّئِي بِهَا ، فأخَذْتُها فجَذَبْتُها فأخبَرْتُها بِمَا يُريدُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم».

— ١٥ —

بابُ امْتِشَاطِ المرأةِ عند غَسْلِها منَ المَحيضِ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٢ —

مقومات السياسة الدولية فى الاسلام

كل أمة تتألف فى أية بيئة من بيئات العالم لا تخلو من أن تتصل بعلاقات سياسية مع الأمم المجاورة لها والبعيدة عنها ، لأن المجاورة والمبادلات التجارية سواء أكانت بين جماعات دانية أو قاصية تولد أزمات سياسية ، قد تتطور الى مشاكل دولية ، على حسب ما تعالج به من الأصول المرعية لدى تلك الأمم . فلكم جر سوء معاملة المجاورين وأصحاب الرحلات التجارية الى حروب طاحنة كان من نتائجها إزالة بعض الدول من خريطة العالم ، وما حدا تلك الجماعات الى هذه الاساءات إلا عدم وجود أساس ركين فيها للسياسة الدولية تسير على مقتضاه ، أو لها شىء من ذلك ولكنه مشبع بروح الأثرة التى لا تستقيم معها علاقات حسنة ، وتقضى دائما الى التناحر بين الجماعات المتنازعة .

فوجود سياسة دولية مشبعة بروح العدل والمسالمة ، أمر لا مفر منه لكل أمة تريد أن تتقى الأخطار الخارجية ، أو تقلل من دواعيها جهد الاستطاعة .

فهل للاسلام سياسة من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق العامة المتفق عليها بين الأمم المتمدنة اليوم ؟

نقول : نعم ، للاسلام سياسة دولية تقوم على أصول الحقوق الطبيعية ، وهى أرقى بما لا يقدر من الحقوق المتفق عليها اليوم ، لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثل العليا ، وتلك الهية هى المُثُل العليا نفسها . ولبيان هذا الاجمال نقول :

أول أساس للسياسة الدولية فى الاسلام هو قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . فهذه الآية تسقط أمهات المزاعم القومية التى تسول للناس الأثرة ، وتكرِّه اليهم الأمم الأجنبية . ولكن الاسلام يعلن بأن الناس جميعا أبناء أبوين معروفين ، وهم سواء فى الحقوق ،

وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت فى البيئات ، قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تذليل عقبات الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر فى سبيل البقاء ، ولا يجوز أن تكون الفروق فى الأديان واللغات والعادات والألوان ، بصادة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى فى مجال المعاملات ، ويكون أقربها الى الله أخشاها له ، وأوقفها عند حدوده ، وهو الذى يتولى وحده السرائر . هذا مؤدى هذه الآية الكريمة التى هى الأصل الأول للسياسة الدولية لدى المسلمين ، ومنه تفرعت جميع المعاملات التى تحقق معنى هذه الزمالة العالمية ، التى يريدها الاسلام فى هذه الحياة بين جميع الأنام .

فرمى الاسلام والحالة هذه ربط جميع شعوب الأرض برباط ألفة عامة ، تبتنى على أعم أواصر الانسانية ، ولا تقوم الفوارق الجنسية واللغوية والدينية عقبات كأداء فى سبيل تحقيقها . وأول من باشر العمل على تأسيس هذه الألفة بين أفراد النوع البشرى هو نبى هذه الأمة صلى الله عليه وسلم ، وجاءت آيات الكتاب كلها باعثة ومعينة على وضع هذه السياسة العالمية .

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعبادات ومعاملات ، فقد جاءت كلها فى الاسلام إما رامزة الى هذه الغاية الكريمة أو مهيئة لها ، ومطابقة لقواعدها العامة كل المطابقة .

أكثر ما تظهر هذه الروح الاسلامية السامية هو فيما فرضه الكتاب على أهله فى المواطن الخطيرة من الدفاع لحماية أنفسهم ، أو الهجوم لكسر شرة عدوهم . فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء والعطف ، لا بروح الاصطلام والعسف ، كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لا متنازعة ، وإنما دفعتها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايرة لسنن الاجتماع ، قال الله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » .

ولما كان قد يتوهم أن الاسلام يقضى بمقاطعة كل من لا يدين به من الأمم بَيَّن الله هذا الأمر على وجه يرفع كل لبس فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فاذا أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات الى تحكيم السيف ، أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم ، وأن يستبسلوا فى القتال ، ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستبسال على العدوان والتجنى ، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى . فكان الاسلام أول من كاشف العالم بأن فى كل شىء عدلا يناسبه حتى فى التناحر المحض ، فقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال تعالى : « فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أنْ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا (أى ولا يحملنكم بغضكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

فمن العدل فى الحرب فى شرعة الاسلام أن لا تسرف فى القتل ، وأن لا تتجنى على المحارب لك ، وأن لا تتعقب المهزومين ، وأن لا تجهز على الجرحى ، وأن لا تهين الأسرى ، وأن لا تقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم فى الخطوط الخلفية ، فاذا دخلت بلدا معاديا فلا تحرق أشجارها ، ولا تهدم دورها ، ولا تزهق روحا من شيوخها ونسائها وولدانها ورجال دينها . وقد تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن ارتكب شيئا من ذلك حتى إنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم ، فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين : « لاتسبوا هؤلاء فانه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم » . وهذا نهاية ما يؤثر من السمو الخلقى لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله فى الأرض ، وأن يعمل على إقامة دولة الحق فى العالم كله . وإذا كانت هذه أصوله فى المواقف التى تغلى فيها الرءوس تحت تأثير سورة الغضب ، والأسنة المُذَرَّبة تزهق الأرواح وتخمد الأنفاس ، فما ظنك به فى مواطن العافية ، والسلام ناشر ألويته ، والهمم تتبارى فى التكيف بعقائل المحامد ، لنيل الدرجات العلى ، والزلفى من الحق المطلق ؟

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات ، وإبرام الاتفاقات ، وتقرير المهادنات ، فإزاء هذه الحاجات قرر الاسلام أن يكون شعار أمته الوفاء المطلق بها ، من غير نظر الى فائدة تبدو فى نقضها ، أو مصلحة تدعو الى تأويلها ، فقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . وذكر صفات المؤمنين الصادقين فقال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وزاد ذلك تأكيدا فذكر وجوب الوفاء بالعهد ووجوب الصبر فى أشد المحن ، وأحرج المواقف ، فقال: « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وأوصى سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد حتى بالنسبة لمشركى العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم فى كل فرصة يظنونها مواتية لهم فى إيذاء المسلمين ، فقال تعالى : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » . يوصى الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتحرجون من نقض عهدهم ، لأول بادرة من فائدة

تبدو لهم ، فقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » . ولكى لا يؤثر غدر المشركين فى قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم فى رذيلة نقض العهد ، مقابلة المثل بالمثل ، عاد فذكر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالاحسان ، وهو فوق العدل ، وبالبر بذوى القربى ، وأنه يحرم كل عمل خسيس ، وكل منكر وظلم ، باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الايمان ، لا يجوز الهوادة فيها لأى اعتبار كان ، فقال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » وقال : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» . أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على ما يرتكبونه ضدكم من التعديات المنكرة ، على أن تتخطوا طريقة العدل فى معاملتهم .

هذه غايات قصية من السمو السياسى لا يزال العالم بعيدا عنها ، وقد عمل بها المسلمون فى عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام المعاهد ، لأن غرض الاسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله فحسب ، ولكن تطهير قلوبهم من أقذاء الصفات الحيوانية ، وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المُثُل الخلقية العليا فى الأرض . وقد ثبت من استقراء حوادث التاريخ أن الاستقامة الخلقية فى السياسة ، كانت دائما أعود على أهلها بالفوز فى مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والنزول على حكم القوة .

ومن الأخلاق السياسية التى بثها الاسلام فى أهله قبول السفراء واحترامهم ، والتفاوض معهم على قدم المساواة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفل بالوافدين عليه ، ويحبوهم بألطافه ، حتى روى أنه فرش عباءته لوفد نصارى نجران وأجلسهم عليها .

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه ، وتنشر بين الناس ، ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة ، أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتمر ، أى يطوف بالبيت الحرام فى غير أوان الحج ، فاستنفر الناس لذلك فاجتمع اليه ألف وخمسمائة ، فخرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف . فلما بلغ قريشا ذلك هاج هائجها فأرسلت بديل بن ورقاء ليتعرف مقصدهم ، فعاد اليهم وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين ، فقالت: أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمرا فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تطرف ! وأرسلوا اليه حليس بن علقمة . فلما عاد اليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوه وما أراد . فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا اليه

عروة بن مسعود الثقفى ، فقال له : « يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت الى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدا » وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله بيده ، وكان المغيرة بن شعبة ، وهو أحد الصحابة ، يقرع يد عروة كلما هم بذلك . ولما عاد الى قريش أيد رأى صاحبيه . فقالوا لا بأس من أن يجىء فى العام المقبل ، أما هذا العام فلا . وأرسلوا سهيل بن عمرو ليتفق مع النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك . فقبل رسول الله هذا العرض وأخذ يملى على علىّ بن أبى طالب نص العقد ، فأملاه : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سفير الجاهليين : لا نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب : باسمك اللهم . فقبل رسول الله ذلك منه . ثم مضى فى إملائه فقال : يا على اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة ، وقال : لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم كاتبه أن يمحو ما كتب ، فكره على محوه ، فمحاه رسول الله بيده .

يتحكم الجاهلىّ فى وجوب حذف كلمتى الرحمن الرحيم وهما عربيتان والقصد منهما تمجيد الخالق ، ويأبى إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أن قريشا لا تعتقد بصحة نبوته ، ويغبى عن أن إثبات هذه العبارة فى العقد لا يقتضى إيمانهم به ، ولكن الجاهليين لا منطق لهم . فاعجب من سمو منطق النبى صلى الله عليه وسلم فى حذفها ، لأن ذلك الحذف لا يقتضى سلبها منه .

هذه ، لا أقول مرونة سياسية ، ولكنى أقول إنها حكمة نبوية ، ورسول الله قدوة لأمته ، وقد جرى خلفاؤه فى أحفل عصور الاسلام بالعظائم على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاينة ، وتحدِى المثل العليا فى المعاملة والمجاملة ، واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى فى المخاصمة والمقاتلة ، فوضعوا بذلك أصول سياسة دولية هى أحكم قواعد ، وأرسخ وطائد ، وأجمع لمبادئ الانسانية ، من أية سياسة فى الأرض من يوم أن خلق الله الخلق الى اليوم .

فمن يتأمل فى أقوال أقطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير ، وأنها يجب أن تبنى على أصول تنازع البقاء ، ومحاباة الأقوياء ، ويقارنها بأصول السياسة الاسلامية ، يجد البون شاسعا بين المذهبين ، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحن والأحقاد بين الأمم والشعوب ، وإثارة الحروب بينها مع ما تجره من خراب على العمران ، وهذه السياسة أساسها العدل المطلق ، وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية ، والقضاء على المنازعات المصلحية ، وردها جميعا الى دستور من التعاون والائتلاف جدير بكرامة الانسانية ، وملىء بايجاد زمالة عامة بين البشر كافة ، مصداقا لقوله تعالى : « إن هذا القرءان يهدى للتى هى أقوم » .

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « فذكّر إن نفعت الذكرى » :

اعلم أن كمال حال الانسان فى أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه ، وقد ورد « تخلقوا بأخلاق الله » .

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا فى نفسه بمقتضى قوله تعالى : « ونيسرك لليسرى » أمر بأن يكمل غيره ليكون تاما وفوق التمام فقيل له : « فذكر » لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين . ومن كان كذلك كان فياضا للكمال ، فكان تاما وفوق التمام .

والمراد بتعليق الأمر بالتذكير على الانتفاع به ، الحث على التامل والنظر حتى ينتفعوا بالتذكير ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق . قد أوضحت لك السبيل إن كنت تعقل . فيكون مراده الحث على القبول والانتفاع به . أو نقول : إن هذا التعليق يجرى مجرى تنبيه الرسول أنه لا تنفعهم الذكرى ، كما يقال للرجل : ادع فلانا إن أجابك ، وكأنك قلت : ما أراه يجيبك . ولك أن تقول : إن التذكير واجب فى أول الأمر ، فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود .

على أن المالكية صرحوا بأنه لا يجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا إذا ظنت الافادة . وقد أنكر عليهم بعض الشافعية ، ولكن هذا هو المعقول ، فان الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها ولو على سبيل الظن لم تشرع ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث .

وللمالكية أن يتمسكوا بظاهر هذه الآية ، وبمثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وعلى كل حال فعلى المؤمن أن يكون حكيما فى كل ما يأتى ويذر . والشريعة لا تعرف إلا الحكمة . ولكن لابد أن ننبه مع هذا على أن الناس الآن قد تهاونوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى وصلنا الى ما نحن فيه من شيوع المنكرات واقتراف جميع المحظورات . وفى رأيى أن العلماء لو تضافروا على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وعرّفوا الناس أن ذلك واجب عليهم لافرق بين صغير وكبير، لخف الأمر ودب الحياء فى النفوس من الناس إن لم يكن من الله . ولكنا على ما قال الأولون : « افتضحنا فاصطلحنا » !

ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى فقال : « سيذكّر من يخشى » . والخشية إما حاصلة بالفعل ، وإما حاصلة بالقوة محتاجة لمن يثيرها من القلوب ، وإما غير حاصلة بالفعل ولا بالقوة فلا مطمع فيها . فالأول حال الخاصة ، كما يشير إليه قوله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » . والثانى حال العامة . والثالث حال المتكبرين والمعاندين ، فانهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، « وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا »

وقد سمى الله ذلك تذكيرا لقوة الدلائل وظهورها ، فكان العلم بالحق كان حاصلا ثم زال . أو نقول : إن كل مولود يولد على الفطرة ، ففيه أصول الخير والاحساس بالحق والدين ، ولكن تفسد فطرته باتباع الشهوات واقتراف المنكرات ، وصحبة الفاسقين والجاهلين والمعاندين ، كما تفسد العين الصحيحة لعدم حفظها من الآفات وقلة تعهدها بما ينفع النظر ويجلو البصر . والأرواح محتاجة الى الرياضة بعلوم الدين ، ومذاكرة الكتاب والسنة ، وكتب المواعظ كإحياء علوم الدين وغيره . كما أن الأجسام محتاجة للرياضة البدنية .

أما قوله : « ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى » فنحيلك فيه على ما بيناه قبلا من أن أصناف الخلق ثلاثة : العارفون ، والمتوقفون ، والمعاندون . فالقسمان الأولان لا بد أن يكون لهما خوف وخشية بالفعل أو القوة . وصاحب تلك الخشية لابد وأن يستمع الى الدعوة وينتفع بها ، فيكون الأشقى هو المعاند الذى لايستمع الى الدعوة ولا ينتفع بها . فلهذا قال تعالى « ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى » . وقد تفسد نفس الانسان بالكبر والعناد حتى لا ينفع عنده برهان ولا يؤثر فيه بيان . وقد قال الله تعالى فى حق قوم هذا شأنهم : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرُجون لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

فانظر الى أى حد وصلوا من التصلب فى العناد ومجافاة الحق حتى أنكروا المحسوس . ونظير ذلك قوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » . ويقول فى الآية الأخرى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا » . ويقول : «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » الى غير ذلك مما بين لنا أن الفطرة قد تصل الى حد من الفساد لا مطمع فيه .

وعلى كل حال فالانسان مجمع العجائب والغرائب ، فقد يلطف حتى يكون ألطف من الهواء وأسلس من الماء ، وقد يكثف حتى يكون كالحجارة أو أشد قسوة .

ومما يحسن التنبيه عليه فى هذا المقام أن هذه الخصال الممقوتة : من الكبر والحرص والحسد ونحوها ، إنما خلقت فى الانسان لحكم بليغة ، وقد جعل لها الحق سبحانه وتعالى مصارف لو صرفت فيها لكانت فضائل لا رذائل ، وكان هذا موضع الابتلاء والامتحان .

ولنقص عليك شيئا من ذلك فنقول : مثلا خلق فيك الحسد لتصرفه فى المنافسة فى فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة اليه ، وخلقت فيك غريزة الكبر لتستعملها فى التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب : « هذه مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » . وقال فيمن فرط فى بعض آداب الصلاة حرصا عليها : « زادك الله حرصا ولا تعد » . وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه فقال : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وقال : « وليجدوا فيكم غلظة » .

وخلق فيك غريزة الحرص لتصرفها فيما ينفع ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « احرص على ما ينفعك ولا تعجز » . وخلق فيك الشهوة القوية لتقوم بما جعله لك من التزوج بأربعة ، والتسرى بما شئت ليحفظ بذلك بقاء النوع ، ويكثر من أفراده ، وهو أحب مخلوقاته إليه (ولذلك علمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته) .

وجعل فيك غريزة حب المال لتنفقه فى مرضاته ، وتتزود منه لمعادك . وجعل فيك غريزة حب الجاه لتصرفه فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله .

وهكذا جميع القوى التى ركبت فيك جعل لها مصرفا ، وقد أودعها الله فيك لمصالح اقتضتها حكمته ، فليس المطلوب تعطيلها ، وإنما المطلوب صرفها فى مجاريها ، واستعمالها فى موضع دون موضع ، ومحل دون محل على حسب ما يقتضيه الشرع والعقل والحكمة ، وهو موضع الابتلاء ، وسلم الارتقاء ، وميدان العقل والذكاء . الى آخر ما يرشدك إليه قلبك الطاهر ونفسك الزكية .

واعلم أن الكبر من أعظم الآفات بل هو أسها وجماعها . وهو الداء العضال الذى لا تنفع معه موعظة ولا يفيد فيه دواء . وإذا عجز الرسل وهم أعظم أطباء النفوس عن هداية المتكبرين فغيرهم بالأولى . وقد قال تعالى : « سأصرف عن آياتىَ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » .

وماذا ترجو ممن انتحل لنفسه خاصة الالهية والالهية تأبى المشاركة ، فكيف تسمح نفسه الجاهلة المتألهة أن تكون سامعة لغيرها أو تابعة لمن سواها ؟ فإذا ترسخ ذلك الخلق الذميم فى النفس اعتقد صاحبه أنه أسمى من غيره ، وأن كل من عداه دونه .

وقد قال الامام الغزالى : إن فى النفس غريزة الترفع على الغير ، وهى تريد أن تقول : أنا ربكم الأعلى كما قال فرعون ، إلا أن فرعون وجد من يقبل منه ذلك ولا يعارضه ، فكيف مع هذا يقبل المتكبر النصح من غيره ، أو يصغى للحق من نبى أو رسول ؟ وكيف لا يحقد على غيره إذا رأى فيه فضيلة ترفعه عليه وهو لا يرى إنسانا أحق بالتبجيل والتعظيم منه ؟ فلا غرو إذاً أن يدفعه كبره الى كل رذيلة ، ويحول بينه وبين كل فضيلة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » لأن الكبر كما عرفت يورط صاحبه فى رذائل الأخلاق التى تورثه المقت فى الدنيا والآخرة .

وبالجملة فالمتكبر لا يرجى له فلاح ولا ينتظر منه صلاح « كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبر جبار » .

وانظر إن شئت الى ماحكاه الله عن أولئك المتكبرين فى قوله « أنؤمن لبشرين مثلنا » . « إن أنتم إلا بشر مثلنا » . « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون » .

فانظر الى ذلك المنطق الغريب ، بل الضلال البعيد الذى خيل لهم أن من كان مثلهم فى البشرية يجب أن يكون مثلهم فى كل شىء (وهكذا تكون فلسفة المتكبرين وعلوم الجاهلين) . والخلاصة أن هؤلاء ما منعهم عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا جهلهم وتكبرهم وأنفتهم من أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وإلا فبراهين صدقه صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس وأجلى من الحس . ومن نظر فى هذا القرآن وما فيه من العلوم والمعارف وأصول السعادات ومجامع الخيرات ، لم يشك فى أنه تنزيل من حكيم حميد .

فأكابر الفلاسفة الأولين والمحدثين لم يصلوا من الاصلاح العلمى والعملى ، ولا من الآثار التى ظهرت فى الوجود وبقيت على ممر العصور ، الى عشر معشار ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الاصلاح الروحى والجسدى والاجتماعى والفردى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وقد قال برناردشو المعاصر لنا :

« إن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم ، لتم النجاح فى حكمه ، ولقاده الى الخير وحل مشاكله بوجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

ولو نظرت فى حال الأمة العربية فى همجيتها أيام الجاهلية ، ثم نظرت فى حالها بعد الاسلام ماديا وأدبيا ، لعرفت تلك المعجزة الكبرى التى أتى بها ذلك الرسول الأمى الذى ما قرأ كتابا ولا خطه بيمينه .

ولعمرى إنها لأكبر الآيات وأبهر المعجزات . وهذه المعجزات المعنوية فى نظر المتبصرين أكبر من المعجزات الحسية التى أفاضت فيها كتب السير وامتلأت بها أسفار المؤرخين .

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

فاذا نظرت مع هـذا الى أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وأصول الدين قد شهدت به العقول السليمة والفطر الطاهرة ، ووافقه عايه أربعة وعشرون ألفا ومائة ألف نبى كلهم جاءوا بالتوحيد وإثبات الصانع عز وجل ، وادعوا الوحى وأقاموا على ذلك البراهين ، وهو عدد يحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، ثم نظرت فى حالهم فوجدتهم على خلاف أهل الدنيا فلا يتنافسون ولا يتحاسدون ولا يتكاذبون ، ولو كانوا فى عصر واحد وصقع واحد كإبراهيم ولوط مثلا . ثم انظر الى من تعرف من المتزاحمين على الدنيا فى الصغير والكبير حتى العلماء .

ثم ألفت نظرك بعد ذلك كله الى زهده صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ونعيمها ، وعدم طلبه أجرا على أعماله الشاقة ، وما كان عليه من الشمائل الشريفة والأخلاق الكريمة ، واستواء الشريف والوضيع عنده فى الحق ، واعتراف السحرة والكهان فيما مضى ، والفلاسفة اليوم بقصور ما عندهم عما عنده ، فضلا عن كونه كان مجاب الدعوة وكان يخبر بالمغيبات الكثيرة فتقع كما أخبر . وفى القرآن من ذلك شىء كثير . وكذلك فيه تنويه ببعض معجزاته الحسية خلافا لمن جهل ذلك . وذلك مثل قوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله : «اقتربت الساعة وانشق القمر» . الى غير ذلك ، ثم بقاء دينه وقرآنه وآثاره وأنصاره حتى اليوم . ونحن نعلم ذلك كله إما بالمشاهدة وإما بالتواتر ، وهما يوجبان العلم الضرورى كما بين فى محله .

أقول : من نظر فى ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه كان صدق الرسول عنده من أوضح الواضحات وأول الضروريات بشهادة العقل والنقل والوجدان والبرهان والحدس والحس : إلا عند من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان الفسيح ، ولندع تفصيله الى لسان حاله الفصيح : ولنرجع الى التفسير فنقول :

أما النار الكبرى فإما أن يراد بها نار جهنم فتكون الصغرى نار الدنيا . وإما أن تكون الصغرى والكبرى فى الآخرة فان فيها نيرانا مختلفة ودركات متفاوتة ، كما أن فى الدنيا ذنوبا ومعاصى متفاوتة ، فكما أن الكافر الذى كذب بالحق وتولى عن قبوله هو أعظم المجرمين ، كذلك هو أعظم المعذبين فى الآخرة ويصلى أعظم النيران .

هـذا والآية نزلت على ما قيل فى الوليد المخزومى وعتبة بن ربيعة وأبى بن خلف ، وهى منطبقة على كل من شا كلهم فى كبره وتعنته فى كفره . وقد أفادت الآية أن هناك من يصلى أقل من النار الكبرى ، فانها بينت أن الذى يصلاها هو الأشقى ، فيكون للشقى نار أخف منها فتكون الأقسام ثلاثة :

المتقى الذى يخشى ربه ، والأشقى الذى كذب وتولى ، وبينهما أرباب المعاصى والذنوب التى لم تصل الى ذلك الحد .

أما قوله : « ثم لا يموت فيها ولا يحيي » فالمراد أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال : « لا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يخفَّف عنهم من عذابها » . وهذا على مذهب العرب : تقول للمبتلى بالبلاء الشديد : لا هو حى ولا هو ميت .

وقد قالت سليمى زوجة صخر أخى الخنساء لمن سالها عنه :

لا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيبكى . فسمعها صخر فأنشا قصيدته المشهورة التى أولها :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
لعمرى لقد نبهت من كان نائما ... وأسمعت من كانت له أذنان
فأى امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا فى شقى وهوان

وإنما قيل « ثم » للاشارة الى أن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة . وفيه إشارة الى أن العذاب الروحانى أشد من العذاب الجسمانى . وقد يصل الى حالة يهون عندها كل شيء . وليس أوضح فى بيان هذا من قوله تعالى فى حق الكافر : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » .

وكذلك النعيم الروحانى أعظم وألذ من النعيم الجسمانى ، بل هو النعيم على الحقيقة « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

أسأل الله أن يديم علينا نعمة الايمان ، وأن يميتنا على الايقان والاحسان بمنه وكرمه !

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

ذم البخل

قال حكيم : لو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضير بخلهم ، وصدمة الناس لهم ، وإطباق القلوب على بغضهم ، إلا سوء الظن بربهم فى الخلف ، لكان عظيما ، فان الله تعالى يقول : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » . وكفى البخيل معرة أن يمنع نفسه اكتساب الحسنات مع افتقاره إليها ، ويحرمها مباح الشهوات مع اقتداره عليها .

السُّنَّة

الحكم فى نظر الاسلام

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ! قال : فضرب بيده على مَنكِبى ثمّ قال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذ بحقها ، وأدّى الذى عليه فيها » . رواه مسلم .

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان الصفات التى يجب أن يكون عليها الحاكم . (٣) واجب الرئيس الأعلى بإزاء ذلك . (٤) خطورة الحكم وعاقبة أمره . (٥) حقوق المنصب .

١ — معنى الحديث ظاهر ، وهو أن أبا ذر رضى الله عنه (من مشاهير الصحابة الذين لهم سبق فى الاسلام) طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند اليه رئاسة عمل من الأعمال فأبى رسول الله عليه ذلك لأنه لم يرفيه الصفات التى يجب أن يكون عليها الرئيس ، ثم أبان له خطورة الحكم وعظم مسئوليته فقال له : إن رئاسة الأعمال أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة الخ . ومعنى كونها أمانة أنها تستلزم القيام بحقوق الناس على الوجه الكامل ، وهذه الحقوق فى عنق الرئيس ، فلا بد له من أدائها لهم كاملة فى هذه الحياة الدنيا ، وإلا كانت عاقبة أمرها خُسرا ووبالا عليه يوم القيامة ، فليس الحكم مجرد لذة من اللذات العظيمة التى تستعذبها النفس ولا يسأل المرء عنها ، كلا بل هى تكليف شاق وحمل ثقيل ، فلا ينبغى لأحد من المسلمين أن يلى أمرا من أمورهم وهو ضعيف فى أية ناحية من نواحيه .

ومن أحسن العظات التى تؤخذ من هذا الحديث أن أبا ذر لم يعارض فى وصفه بالضعف ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه ، ذلك لأن الرسول صلوات الله عليه لفته الى حقيقة أغفله عنها ما هو كامن فى طبيعة الانسان من حب المنصب والجاه ، فلما أدرك ذلك أذعن للحق خاضعا . وأروع من هذا وأجمل أن هذا الرجل العظيم يحدث بذلك عن نفسه وهو قرير العين منشرح الصدر ، فلم يبال أن يقال عنه إنه ضعيف غير صالح لولاية الأعمال . وليس هذا بغريب لأن

هؤلاء السادة البررة لا يرون وجودهم لأنفسهم فحسب ، بل يرون وجودهم لخدمة المجتمع الانسانى ، فكل همه منحصر فى خدمة المجتمع الاسلامى بنقل شريعة رسول الله عليه الصلاة والسلام اليه بالدقة والأمانة كى ينتفع بها ، سواء عليه بعد ذلك أن يعظّم أو يصغر، أو يساء أو يسر . على أن فى ذلك أيضا تبصرة وذكرى لهؤلاء الذين يتهافتون على المناصب تهافت النسور على الجيف وهم ليسوا بأكفاء لها ، وإذا تخطتهم رئاسة ملؤا الدنيا ضجيجا وجاءوا بالشفعاء من كل صوب لاغتصابها من يد مستحقيها ، فان هؤلاء الأشرار من أشد الجناة على العدل والنظام .

٢ — أما الصفات التى يتصف بها الحاكم فقد أجملها الحديث بقوله : يا أبا ذر إنك ضعيف ، والاضطلاع بمسئولية الرياسة يستلزم القوة بكل معانيها . فالحاكم يجب أن يكون قادرا على إقامة العدل بين الناس ، فلا يظلمهم ولا يتركهم يتظالمون ، قادرا على حفظ أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، كما قال عمر بن الخطاب لرؤساء القبائل : إنى لم أرسل عمالى إليكم ليضربوا وجوهكم ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلتهم إليكم ليصونوا دماءكم وأعراضكم وأموالكم ، ويقسموا بينكم ما رزقكم الله من فىء الخ .

وأن يكون قادرا على معرفة أحوال رعيته والنظر فى كل شئونها المادية والأدبية ، عاملا على ترقيتها والنهوض بها الى المستوى اللائق بها . ومن أحسن ماروى فى هذا أن عمر قال : والله لوعثرت دابة فى العراق لرأيتنى مسئولا عنها . فقيل له وما ذنب أمير المؤمنين فى ذلك ؟ فقال :أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها ليمشى عليها الناس والدواب بدون عثار واضطراب .

وأن يكون قادرا على الدفاع عن رعيته بالقول والفعل ، فلا يسمح لأحد أن يعتدى عليها أويهين كرامتها ، أو يطمع فى استخدامها بكل ما يمكنه من حول وطول .

وأن يكون حازما لا ينثنى عن الحق بشفاعة الشافعين ، ولا يميل مع العاطفة فيغدق على من يحب ويحرم من يبغض .

وأن يكون رحيما فلا يقسو فى مواطن الرحمة .

وأن يكون قادرا على تأديب العصاة والمجرمين الذين يسعون فى الأرض فسادا .

وأن يكون قادرا على ضبط نفسه عند الغضب ، فلا يحمله نزق السلطان وكبرياؤه على المظالم والاستبداد بالناس انتقاما لشهوته وإرضاء لغضبه .

وبالجملة فشرط الحاكم أن يكون قويا فى عقله وتفكيره ، قويا فى إرادته ونفوذه ، قويا فى عدله وحلمه وضبط شهوته ، قويا فى جلده وصبره على سياسة رعيته بما يناسب حالها مهما ترتب على ذلك من مشقة وتضحية ، قويا فى معرفة أحوال رعيته بنفسه ، فلا يصغى لوشاية واش

ولا يعبأ برأى جاسوس كاذب ، وإلا كان ضعيفا لا يحل للرئيس الأعلى أن يسند إليه أمرا من أمور المسلمين . وهذه الأوصاف كلها مصرح بها فى كثير من الأحاديث الصحيحة ووصايا الخلفاء الراشدين وكتبهم الى عمالهم . فكل من ولى أمرا من أمور المسلمين فإنه يكون مسئولا عن حياطته والقيام عليه بكل ما يصلحه ، فإن عجز وجب عليه أن يتخلى عنه لغيره ، وإن قصر أو أهمل كان جزاؤه الخزى فى الدنيا والآخرة .

ومن هذا تعلم أن كل شىء يرهق المحكومين ويضيرهم ، ويفسد أخلاقهم ويضيق عليهم وسائل معاشهم ، ويسلب منهم حقوقهم ويقعد بهم عن الرقى العلمى والمادى ، يكون الحاكم مسئولا عنه ولا ينجيه عند الله عجزه ، لأنه إن عجز وجب عليه أن يترك المنصب للقادر عليه . وكل شىء ينهض بالأمة الى ذروة المجد ويحفظ أخلاقها ، ويبث الأمن بين ربوعها ويجعلها عزيزة الجانب فانه واجب مقدس على الرئيس أن يقوم به .

٣ — أما واجب الرئيس الأعلى وهو الامام الأعظم أو خليفة المسلمين ومن يقوم مقامه بإزاء ذلك ، فهو أنه لا يحل له أن يسند أمرا من الأمور الى غير أهله . لا يحل له أن ينيب عنه فى مصالح المسلمين ضعيفا فى إرادته أو فى شهوته ، أو فى عقله ، أو فى دينه ، أو فى سياسته العامة أو الخاصة على الوجه الذى بيناه . بذلك أمر الله الخلفاء صريحا فى قوله تعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» . ومعنى الآية الذى يدل عليه السياق بوضوح : أنه سبحانه يقول : إننى آمركم أيها الخلفاء والرؤساء الأعلون أن تسندوا المناصب الى أهلها اللائقين بها القادرين عليها وعلى أدائها على الوجه الأكمل . فالمراد بالأمانات المناصب كما هو صريح الحديث الذى معنا ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : إن المنصب أمانة ، أى حق من الحقوق المتعلقة بذمة الرئيس ، فلا يصح أن يحتمله ضعيف ليس أهلا له . وقوله سبحانه : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » خطاب لكل من ولى من أمر المسلمين شيئا سواء أكان إماما أم أميرا أم قاضيا أم رئيس قبيلة أم رئيس أسرة أم رئيس جماعة . فكل واحد من هؤلاء يفترض عليه أن يقضى بين الناس بالعدل ، والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها الخ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

ومما لا خفاء فيه أن الأمة التى بيدها انتخاب الحاكم أو انتخاب من ينتخبه ، مسئولة عمن تختاره للحكم كمسئولية الامام الأعظم سواء بسواء ، فاذا لم تنتخب الكفء القادر اللائق للحكم كان وزرها عند الله عظيما وعقوبتها شديدة .

٤ — وأما خطورة الحكم وعاقبة أمره ، فان الحكم تارة يكون أداة صالحة ينفع الحاكين والمحكومين ، وتكون عاقبته سعادة فى الدنيا والآخرة ؛ وتارة يكون من شر الوسائل المردية لصاحبه فى الدنيا والآخرة . وقد رغبت الشريعة الاسلامية فى الحكم الصالح ، وحثت عليه ، وحذرت من الحكم الظالم الفاسد ونهت عنه نهيا شديدا ، فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلاظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله » الخ . فأنت ترى أنه قدبدأ السبعة بإمام المسلمين وخليفتهم العادل . وقوله : «أهل الجنة ثلاثة :ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم . ومعنى قوله : ذو سلطان مقسط ، ذو ملك عادل . وقوله صلى الله عليه وسلم «يوم من أيام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على فضل الرئيس العادل والحاكم الموفق القادر .

ومن الثانى قوله عليه الصلاة والسلام « من ولى شيئا من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فان كان محسنا نجا ، وإن كان مسيئا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفا ». وقوله : « إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة » من حديث رواه البخارى . وقوله : «الإمارة أولها ملامة ، وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل ، وكيف يعدل مع قريبه » ؟ من حديث صحيح رواه الطبرانى وغيره .

وقوله صلى الله عليه وسلم : «ما من أمتى أحد ولى من أمر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلالم يجد رائحة الجنة». وقوله: «من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » وقوله : « لا تقدس أمة لايقضى فيها بغير الحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع » الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على خطورة الحكم فى نظر الدين الاسلامى ، وكلها أحاديث صحيحة .

لقد نظر المسلمون الأولون الى أوامر الدين نظرا صادقا مقدسا ، فكانوا يستمعون القول فيعضون عليه بالنواجذ ولا يحيدون عنه قيد شعرة ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين عرفوا قدر الدنيا وقيمتها ، وأيقنوا أن شهواتها لاثبات لها ولا استقرار ، فلم تخدعهم شهوة الجاه والسلطان ، ولم تغرهم لذة الرئاسة وشهوة النفوذ ، ولم يفتنهم ملق الناس وطاعتهم إياهم وتفانيهم فى الزلفى منهم والتهافت على إرضائهم بحق وبغير حق ، فكل ذلك لم تكن له أية قيمة فى نظر أسلافنا الصالحين ، فكانوا يفرون من المناصب فرار السليم من الأجرب والشاة من الذئب ، ومنهم من آثر السجن والتعذيب على تولى منصب لأنه كان يخشى أن لا يؤديه كاملا فيعرض نفسه لظلم الخلق وسخط الخالق . ولو أن هذه الروح الطيبة قد استمرت حية بين المسلمين لما كانت المناصب مصدر فرقة وبلاء على الأمم والشعوب مما نرى بعضه الآن ، فقد منى

الناس بعشاق المناصب الذين لا يرون لأنفسهم حياة إلا إذا غمرتهم أبهة المنصب واستمتعوا بثمراته الطيبة ونعيمه اللذيذ ، فطفقوا يتهافتون عليها تهافت الفراش على النار من غير شعور بواجب أو دين أو خلق كريم . فها نحن أولاء نرى المناصب قد جذبت الى حبها الناس شبابا وشيوخا وكهولا كما تجذب قوة (المغناطيس) قطع الحديد بدون إرادة واختيار ، وكل يدعى أنه أهل وغيره ضعيف ، وكل يقذف صاحبه فى عرضه وكرامته وخلقه ودينه ، ويرمى به من حالق فى سبيل شهوة الجاه والسلطان والمال ، حتى لقد يخيل الى من ينظر الى تهافت الناس على المناصب وتنازعهم فى سبيل الحصول عليها أنه إذا أمكن أحدهم القضاء على منافسه لم يتأخر . وذلك واضح ، فقد رأينا بعض الناس لا يبالى باتهام الصالحين الذين لا تحوم حولهم الريب بأقبح التهم كذبا من أجل المنصب ، رأيناهم يسلطون أذنابهم وسفهاءهم على الخوض فى المصلحين العاملين على تهذيب الأخلاق وخدمة الدين لتوهم أنهم يحولون بينهم وبين المناصب ، رأيناهم يتهمون الأئمة الذين لا هم لهم إلا الإصلاح الخلقى والدينى بما هم براء منه لتوهم أنهم من العوامل التى تحول بينهم وبين لذاتهم الفاسدة . ورأينا غير الأكفاء يبذلون الأموال والشفعاء ليظفروا بالمنصب ولا يبالون باتهام الأكفاء الأبرياء الغافلين بما لو ثبت عليهم لقضى على حياتهم قضاء مبرما . ورأينا الناس يصلون الى المناصب فيضعون أصابعهم فى آذانهم كى لا يستمعوا صيحات المظلومين ، ولا يكون لهم هم إلا ملء بطونهم وبطون أهليهم وأقربائهم ومحسوبيهم . رأينا كل ذلك بأعيننا وسمعناه بآذاننا ، فهل الذى يفعل ذلك مسلم يدين بالاسلام بعد ما قدمناه من هذه الأحاديث ؟ اللهم كلا ! فهذا هو الاسلام شاهد عليهم ، وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرهم وبشرهم فقال : لا يحل لأحد أن يأخذ منصبا وهو غير أهل له ، ومن وصل الى منصب وهو له أهل فإنه يجب عليه أن يجرد نفسه من كل شهوة ، وأن يعدل بين الناس بكل معنى العدل ، بصرف النظر عن قريب وأجنبى وعدو وصديق ، ومن حكم فعدل كان له عند الله أحسن المثوبة ، ومن حكم وجار وفجر كان له عند الله أسوأ الجزاء ، ومن عجز عن إقامة العدل وجب عليه أن يترك المنصب للقادر على العدل ، وإلا غضب الله عليه ، ولم يشفع له عجزه .

هذا هو الاسلام وهذه نصوصه الحكيمة تبين لنا قيمة المناصب ، وتوضح لنا الغرض منها أوضح بيان . فهى تحرم على غير الكفء القادر أن يلى أمرا من الأمور وهو عاجز عن أدائه على الوجه الأكمل ، وتوجب على القادرين أن يعدلوا فيما يسند اليهم من الأمور كما أمرهم الله ورسوله . وهذا المعنى كان له أعظم الأثر فى نفوس أسلافنا من أئمة الاسلام وعلمائه العاملين ، فقد كانوا ينساقون الى السجون من أجل أن يتقلدوا منصبا عاليا ، فلا يرضون ويفضلون السجن والتعذيب على المنصب الذى يظنون أنهم لا يستطيعون القيام بحقه على الوجه الأكمل . والحق أنهم كانوا فى ذلك مثلا أعلى لمن كان له قلب .

٥ — أما حقوق الإمارة فتؤخذ مما بيناه آنفا . وأهم حقوق الرياسة إقامة العدل بين المرءوسين . فأما عدل الامام الأعظم أو خليفة المسلمين فأهمه إسناد المناصب الى مستحقيها ، ورد المظالم الى المظلومين من رعاياه ، وتأديب الخارجين على القوانين الشرعية التى تنتظم صلاح المعاش والمعاد ، ومراقبة رعيته بكل ما يستطيع من قوة ، فلا يهمل أمرا يرقى عقولهم وأخلاقهم ، ولا يدخر وسعا فى الوسائل التى تحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ، ويكون لهم مثلا كاملا فى معاملة بعضهم بعضا بالعدل والانصاف . فالامام الأعظم العادل هو مصدر سعادة أمته وهنائها .

وأما عدل الولاة والحكام ومن يليهم من الرؤساء فإنه من أقوى الأركان التى تقوم عليها سعادة المرءوسين ، ويستقر عليه الأمن والنظام . فاذا جار الحاكم وفشت المظالم بين الناس كان ذلك شرا ووبالا عليه وعلى مرءوسيه ، فان المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من حاباه فى سبيله ، فتنقطع بينهم روابط المودة ، ويمعن كل منهما فى الاضرار بصاحبه ، فضلا عما يسرى لهم من خلق الظلم ، فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم ، وبذلك تسود الفوضى وتحبب المظالم الى الأقوياء ، ويحل بالناس الشقاء وتنهار دعائم العمران . ويتبع ذلك عدل القضاة وعدل الشهود ، فاذا جار القاضى ولم تقسط الشهود كان فى ذلك البلاء كل البلاء ، فان النظام العام يختل بعد ذلك كل الخلل ، وتهدر الدماء والأموال والأعراض بدون أن يجد المظلوم ملجا ينصفه . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة ، واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » رواه أبو داود وغيره . فالقاضى الممدوح فى نظر الدين هو الذى يعرف الحق ويقضى به . وذلك يحتاج الى جهاد عظيم حتى يتنزه القاضى عن التحيز والميل مع أقربائه وأصدقائه أو من تربطه بهم رابطة أو تجمعه معهم جامعة ، أو يكون له فى الميل معهم غرض يناله من مال أو رقى ، أو شهوة ، فالقاضى لا ينجو إلا إذا كان بالنسبة للخصوم كالميزان المنضبط ، فلا يميل مثقال ذرة الى أحد منهم الا بالحق . ومما لاريب فيه أن عمدة القاضى فى معرفة الحق إنما هم الشهود ، فاذا تحيز الشاهد أو شهد زورا وضلل القاضى أو امتنع عن أداء الشهادة فقد احتمل كل هذه المسئولية ، وكان من أشقى خلق الله وأتعسهم عند الله وعند الناس . ويكفى فى الحث على ذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » الآية

ومعنى « قوامين » مواظبين على أداء العدل . ومعنى « شهداء لله » تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله . وقوله « ولو على أنفسكم » مبالغة فى الحث على أداء الشهادة ، فكأنه يقول : ينبغى أن يقول الانسان الحق ولو على نفسه التى بين جنبيه أو ولده الذى هو ألصق الناس به ، لأن مايقوله الانسان على نفسه إقرار لا شهادة ، إلا إذا أريد من الشهادة بيان الحق مطلقا ، ولكن الأول أوضح بدليل قوله :

«أو الوالدين» الخ ،فإن شهادة الوالد لا تصح ، وكذا شهادة الولد . فالغرض من الآية المبالغة فى قول الحق بحيث لو فرض وشهد الانسان على نفسه أو على ولده أو والده فإنه يجب عليه أن يقول الحق . وكان بعض السلف يرى جواز شهادة الوالد لولده وبالعكس عند صلاح الدين والأخلاق ، عملا بهذه الآية الكريمة . ومعنى قوله : « إن يكن غنيا أوفقيرا فالله أولى بهما » أن الشاهد ينبغى له أن يغض النظر عن كل اعتبار ، فلا يتحيز لخصم أيا كان حاله ، فلا تحمله العاطفة أو الرحمة أن يشهد لمصلحة أحد بغير حق ، ولا تحمله القرابة أن يتحيز لأقربائه ، فلا يراعى فى هذا المقام إلا الله عز وجل الذى أمره أن لا ينثنى عن ذكر الحق قيد شعرة ، والله أولى بالفقير منه . ومعنى قوله تعالى : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » إن تلووا ألسنتكم عن قول الحق فلا تنطقوا به ، أو تعرضوا عن أداء الشهادة رأسا ، فإن الله خبير بكم لا تخفى عليه خافية من أمركم فيجزيكم على ما فعلتم شر الجزاء فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذه صورة مصغرة لآداب الحكم فى الاسلام ، فالله المسئول أن يوفق المسلمين الى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

تشاؤم الادباء والرد عليهم

غرى الأدباء فى كل زمان ومكان بذم الزمان ، والشكوى من الاخوان ، حتى زعموا أن الاقتار من نصيبهم ، والحرمان مغرى بهم ، فقال أبو النصر بن أبى الفتح كشاجم :

غبط الناس بالكتابة قوما   حرموا حظهم بحسن الكتابه
وإذا أخطأ الكتابة حظ   سقطت تاؤه فصارت كآبه

وقال ابن صادة الأندلسى :

أما الوراقة فهى أنكد حرفة   أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بابرة خائط   تكسو العراة وجسمها عريان

وقد رد الحسن البصرى عليهم ردا حكيما ، فقد سأله سائل فقال : لم صارت الحرفة (أى الحرمان) مقرونة بمن جعل العلم والأدب شعارا ، والثروة بمن كساه الجهل والحمق عارا ؟ فأجابه بقوله : ليس الأمر كما زعمتم ، ولكنكم طلبتم قليلا فى قليل فأعجزكم : طلبتم المال وهو قليل ، عند أهل العلم والأدب وهم قليل ، ولو نظرتم الى من تحارف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر إقتارا ، والمال عنهم أشد نفارا .

الدرس الرابع

ألقاه فضيلة الاستاذ الاكبر مساء يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان

سنة ١٣٥٦ بمسجد السلطان الحنفى بالقاهرة

قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام)

أثر هـذه الآيات فى نفس العربى . المأثور فى فضل هذه الآيات . ماقصه الله عن المشركين قبل هذه الآيات . ما حرمه الله من الحيوان . موقف الفقهاء من آية تحريم الحيوان . الاحتجاج بالمشيئة . طريقة القرآن فى الرد عليه . الحجة البالغة . الوصايا العشر . سبيل الحق وسبل الباطل .

أثر هذه الآيات فى نفس العربى :

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أُمر بعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج الى منى ومعه أبو بكر وعلى ، فوقف على مضارب القوم ، وكان فيهم مفروق بن عمرو ، وقد غلب على القوم لسانا وبيانا ، فالتفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال : أدعو الى توحيد الله وأنى رسوله . فقال : وإلام ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات . فقال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . فقال مفروق ما هذا : من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، دعوتَ والله يا قرشى الى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك — وأفك قوم : صرف عقلهم .

المأثور فى فضلها :

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من سره أن ينظر الى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات « قل تعالوا — الى : لعلكم تتقون »

وعن ابن عباس : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من الكتب ، وهن محرمات على بنى آدم كلهم ، وهن أم الكتاب ، من عمل بها دخل الجنة ، ومن تركها دخل النار .

ما قصه الله عن المشركين فى التحليل والتحريم :

وقبل شرح هذه الآيات نقول : إن الله سبحانه وتعالى قص علينا فى الآيات السابقة من أول قوله « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » الى قوله : « وهم بربهم يعدلون » بعضَ النظم التى كان عليها أهل الشرك فى الحرث والأنعام ، وقتل الأولاد ، وفى التحليل والتحريم من غير إذن الله . وقص علينا من ذلك ما يأتى :

أولا — أنهم جعلوا لله نصيبا مما خلق من ثمار الزروع وغلاتها ونتاج الأنعام ، وجعلوا لشركائه من الأصنام والأوثان نصيبا ، وفرقوا بين النصيبين فقالوا هذا لله وذلك للشركاء . وكانوا يحوّلون أحيانا ما جعلوه لله الى الشركاء بذبح النسائك عندها والانفاق على سدنتها . أما ما كان للشركاء فلم يكن يحول الى الله . وفى ذلك يقول الله تعالى : « ساء ما يحكمون » لأنهم لم يكفهم أن أشركوا بل شركوا معه فى القسمة وفضلوا عليه الشركاء .

ثانيا — أن شركاءهم زينوا لهم قتل أولادهم اتقاء للعار فى البنات ، وخوف الفقر فى البنين

والبنات ، ففسدت فطرهم ، وفقدوا عاطفة الرحمة من قلوبهم ، وحلت محلها وحشية قاسية ترضى بنحر الولد ودفن البنت .

ثالثا — أنهم كانوا يقطعون بعض أنعامهم وأقواتهم ، ويحجرون التصرف فيها إلا على آلهتهم التى خصوها بذلك .

رابعا — أنهم كانوا يحرمون ظهور بعض الأنعام فلا تركب ولا يحمل شىء عليها . من ذلك : البَحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فالبحيرة الناقة التى نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، فتشق أذنها ولا تركب ولا تطرد عن ماء ولا مرعى . وكان الرجل يقول : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، فتسيب وتترك ولا ينتفع بها . فهذه السائبة . وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، فإن ولدت ذكرا فهو للإله ، فإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت الأنثى أخاها فلم يذبحوه للإله . فهذه هى الوصيلة . وكان الفحل إذا ولد له عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ، فذلك هو الحامى . ولم تذكر هذه فى هــذه الآيات ، وإنما ذكرت فى آية المائدة « ما جعل الله من بَحيرة ولاسائبة ولا وَصِيلة ولا حَامٍ » .

خامسا — أنه كان لهم أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى شأن من شئونها ، لا فى الركوب ، ولا فى الحلب ، ولا فى الحمل والسحب ، ولا يحجون عليها .

سادسا — أنهم كانوا يخصون لبن البحيرة وما أشبهها بالذكور ، فإذا ماتت أكلها الذكور والإناث . وإن ولدت ذكرا حيا جعلوه للذكور ولا تأكل منه الإناث ، وإن ولدت أنثى تترك للنتاج .

وقد سفه الله أحلامهم فى ذلك كله فقال : « قد خَسِر الذين قتلوا أولادهم سَفَها بغير علم وحرّموا مارزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

وبين أنه هو الذى خلق الزرع والبساتين لفائدة الناس ، فهى حلال لهم ، ولم يجعل لأحد فيها حقا إلا حق الله وهو حق الصدقة ؛ وأنه خلق الأنعام للركوب والذبح ، وأحل ذلك كله ، وأنه هــو الرزاق ، وهو الذى يمنح الرزق ، فلا يجوز أن يعتدى على الأولاد بالقتل خوف الفقر والحاجة .

بعد أن بين الله هــذه الأحوال ، ذكر محرمات الطعام فى آية ، وذكر المحرمات الأخرى فى هــذه الآيات التى نفسرها . أما محرمات الطعام فقد ذكرها فى آية « قل لا أجد فيما أوحِى الىّ محرّما على طاعم يَطعمه ، إلا أن يــكون ميتةً ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقا أهِــلّ لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » .

ما حرمه الله من الحيوان :

حرم الله فى هـذه الآية الميتة ، وتشمل المتردية ، والنطيحة ، وأكيلة السبع إذا لم تدرك تذكيتها قبـل الموت ، وحرم الدم المسفوح ، وحرم لحم الخنزير ، وحرم ماذبح لغـير الله ، ورخص للجائع الذى لايجد قوتا حلالا يأكل منه أن يتناول من هذه المحرمات قدرالضرورة بدون تعد ، على أن لا يكون باغيا قاصدا الأكل لذاته ، بل قاصدا دفع الضرورة وبقاء الحياة .

موقف الفقهاء من آية التحريم :

وفى حصر محرمات الحيوان فى هـذه الأربعة خلاف كثير بين الفقهاء . فقد رأى البعض الحصر فى هذه الأربعة ، ورأى بعض إضافة الحمر الأهلية ، وأضاف آخرون سباع الطير والوحش . وموضع القول فى ذلك فروع الفقه .

الاحتجاج على الشرك والمعاصى بالمشيئة :

قص الله علينا ماسبق ، وقص شبهة يشترك فيها مع المشركين غيرهم ، ذكرها فى قوله : «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرّمنا من شىء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتّبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرُصون ! قل فلله الحجة البالغة ، فلوشاء لهداكم أجمعين » .

ومحصل هذه الشبهة أن الله شاء هذا الشرك ، وشاء أن نحرم هذه المحرمات من الزروع والحيوان ، بل شاء أيضا كل ماعصى به ، ومتى كان ذلك بمشيئته كان راضيا عنه لأنه لا يقع فى الـكون شىء يكرهه . وأيضا فان الشىء الذى يشاؤه الله لابد أن يقع ، فالعبد مضطر فيه ومجبور . وعلى ذلك فلا يوجه لوم على الشرك والمعاصى ، لأن الانسان مضطرفيهما ، ومع أنه مضطر ، فهما برضا الله سبحانه وبمشيئته .

طريقة القرآن فى إبطال تلك الشبهة :

هذه شبهة من شبه إبليس وجنده، قصها الله فى كتابه العزيز ، وبين بطلانها بطرق : منها أنه بين لهم أن الذين كانوا قبلهم كذبوا مثلهم فسلط عليهم عذابه ، وأذاقهم بأسه ونـكاله ؛ ولولا أنه غير راض عن هذه المعاصى وأنهم مختارون فيها لما فعل معهم ذلك لأن هـذا يعد ظلما ، والمخاطبون لا يرضون بنسبة الظلم إليه . ثم بين لهم أنهم بهذه الشبه يخرصون ويظنون وليس بيدهم حجة ، لأن الحجة قائمة على خلاف مزاعمهم (وستأتى) . ثم تحداهم فقال لهم : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . وقال : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

الحجة البالغة :

والحجة البالغة هى أن لله تعالى سننا فى الـكون والخلق ، وقد كانت سنته فى خلق الانسان أن جعله عاقلا مستدلا مناظرا ، وأعطاه وسائل الاستدلال والنظر ، وهداه النجدين : طريق الخـير ، وطريق الشر ، وبعث اليه الرسل يرشدونه ويبينون له الحلال والحرام ، فقطع عذره ولم يبق له تعـلّة إذا أشرك أو عصى ، فذلك بمحض اختياره ، واختياره أمر ضرورى مقطوع به ، عليه قامت الشرائع ، وعليه وضعت القوانين ، ورتبت الأجزية ، ووضعت قواعد الأخلاق للهداية . نعم : إن الله تعالى علم ذلك ، علم أنه سيختار هذه المعصية ، والعلم فى مرتبة الانكشاف لا تأثير له ، فلا يكون سببا للجبر ، ولا يمكن أن يكون علم الله على خلاف ذلك لأنه يكون جهلا مستحيلا على الله . فهذا العلم الانكشافى التابع لاختيار الانسان تجىء الارادة والمشيئة على وفقه ، ولا يمكن أن تكون على خلافه . فعلم الله ومشيئته ليستا من أسباب الجبر ، ووجودهما لا يدل على الرضا ، لأنه لا يرضى لعباده الـكفر ، ووقوع ما يريده ولا يرضاه لا شىء فيه . ولو شاء الله هداية الناس جميعا لهداهم ، على معنى أنه يخلقهم خلقا آخر على طبيعة أخرى مثل طبيعة الملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولـكن الانسان إذ ذاك لا يكون هـذا المخلوقَ الذى أريد أن يكون صاحب اختيار ، وأريد أن يكون خليفة فى الأرض تكون سعادته بارادته وشقاؤه بارادته ، فهذه طريقة فيها منتهى الكمال للنوع ، وإن لزمها نقصان فى بعض الأفراد .

نعود بعد هذا الى شرح الآيات فنقول : بعد أن بـيّن الله سبحانه ما كان عليه المشركون ، ودحض حججهم ، وزيف شبههم ، وبعد أن بـيّن المحرمات من أنواع الحيوان ، بـيّن فى هذه الآيات أصول الفضائل والبر ، وببيانها تعرف أصول المحرمات . بين ذلك فى عشر وصايا جاء بعضها بطريق النهى ، فتكون الفضيلة فى الضد ، وجاء بعضها على طريق الأمر فيكون المحرم ضد ما أمر به . هـذه الوصايا العشر : منهـا الفضيلة فى العقيدة ، والفضيلة فى القول ، والفضيلة فى الفعل ، والفضيلة فى الأموال . وسيتضح ذلك من بيانها :

الوصايا العشر :

« قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » :

أصل الفعل تعال وتعالوا : الأمر ممن كان فى مكان عال لمن دونه أن يصعد إليه ، ثم استعمل بعد ذلك فى الأمر مطلقا . والتلاوة : القراءة .

ومعنى ذلك : قل أيها النبي لهؤلاء الذين وصفت لك أحـوالهم وما كانوا عليه من اتباع للظن ، وتحريم وتحليل بالهـوى وشرك : أقبلوا أبلغكم عن الله سبحانه ، وهو صاحب الحق المكلف فى العبادة وفى التشريع ، يحلل ويحرم طبقا للحكمة ، ومراعاة لمصلحة العباد .

والسر فى تكليفه تلاوة ما حرم الله ، الإرشاد الى أن وظيفته ليست إلا التلاوة والبلاغ ، لأن التحليل أو التحريم ليس إلا لله « ولا تقولوا لِمَا تصف ألسنتكم الكذبَ هـذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

وقد بين الله سبحانه هذه المحرمات ، وهى :

أولا ـ « ألا تشركوا به شيئا » :

يعنى لا يجعلوا شيئا من الأشياء شريكا له مستحقا للعبادة ، له حق التحليل والتحريم ، وحق تقديم القربات ، وحق الدعاء والاستعانة به ، سواء أكان ذلك الشىء عظيم القدر كالشمس والقمر والكواكب ، أوعظيم القـدر فى المعنى كالأنبياء والصالحين . فدعوا الأصنام والأوثان وكل شىء مخلوق فان كل من فى الوجود سواه وإن كان عظيما بالنسبة الى موجود آخر ، فهو صغير بالنسبة الى ذاته : « إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتِى الرحمن عبدا » وعن ابن عباس : إن وَدًّا وسُواعاً ويَغوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وهى الأوثان التى كانت فى قوم نوح أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا نصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا بأسمائهم ، وعند تقادم الزمان عبدت بذبائح تذبح منذورة وغير منذورة . واستشفع بها ودعيت .

ثانيا — « وبالوالدين إحسانا » :

يعنى وأحسنوا الى الوالدين إحسانا كاملا لا شائبة فيه لإساءة وإن كانت صغيرة ، سواء أكانت الاساءة فى القول أم فى الفعل . وقد جاءت هـذه الوصية بجوار النهى عن الشرك ، فدل ذلك على مكانتها وعظم شأنها . وقد قرر الله سبحانه طلب الاحسان بالوالدين وقرنه بالتوحيد فى مواضع كثيرة . ففى سورة النساء « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » . وفى سورة الاسراء «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » وفى سورة العنكبوت « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . وفى سورة لقمان « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكرلى ولوالديك الىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبْهما فى الدنيا معروفا » .

وفى السنة أحاديث كثيرة فى فضل البر بالوالدين ، والتحذير من إساءتهما . من ذلك ماروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » . فقدم بر الوالدين على الجهاد الذى هو أكبر الحقوق العامة على الانسان .

وسبب ذلك أن حق الوالدين يتلو فى الدرجة حق الله ، لأن الله جل شأنه هو الخالق والوالد سبب ظاهرى من أسباب الخلق والوجود . ثم إنه احتمل عناء التربية والانفاق ، وتولى إسعاد الولد جهد الطاقة كما يعلم وكما يقدر ، وذلك بالغريزة الفطرية . فالوالد مستحق للبر ، ومستحق للشكر . ولذلك قال الله : « أن اشكرلى ولوالديك الى المصير » .

ثالثا — « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » :

نهى الله عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن ذلك حمق وسفاهة وجهل ، لأنه خروج على الفطرة ، فلا يوجد شخص لم تفسد فطرته يرضى بقتل ولده ، لأنه إن رضى بذلك كان أحط درجات عن الوحوش والأنعام والسوائم . وأيضا فإن الذى يؤمن بإله رزاق يمنح الرزق إن أراد ويمنعه إن أراد « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه » « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » إن الذى يؤمن بإله هكذا لا يقدم على ذبح ولده خشية الفقر والإملاق .

رابعا — « ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن » :

الفاحشة فى الأصل : ما اشتد قبحه من الذنوب . والمراد منها هنا مثل المراد من قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » وهو كل ما حرمه الله سبحانه مما كان ضارا بالأفراد فى أنفسهم أو أموالهم أوعقولهم أو دينهم أو عرضهم ، أو ضارا بالجماعات فى مصالحهم السياسية والاجتماعية ، فيشمل المحرمات من أعمال الجوارح : كالسرقة ، والزنا ، وقتل النفس ، وشرب الخمر . ويشمل أعمال القلوب كالنيات ، والحسد والحقد ، والضغينة ، وتدبير المكايد لخلق الله . نهى الله عن ذلك كله سرا وعلنا ، ظاهرا وباطنا .

خامسا — « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » :

حرم الله قتل النفس مطلقا لا فرق بين مسلم وذمى ، ومعاهد ومستأمن ، لأن لهؤلاء مع المسلمين عهدا يجب الوفاء به ، ولأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما عليهم متى كان لهم عقد الذمة . وفى الحديث الشريف : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » . وفى رواية : « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله ، قد أخفر

بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين عاما » . واستثنى الله القتل بالحق ، وهو معروف عند الفقهاء : مثل قتل النفس ، والردة ، ومحاربة الله ورسوله .

بعد أن بين الله تعالى هذه الوصايا قال :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » :

والوصية ما يعهد الى الإنسان عمله من فعل خير أو ترك شر ، مقترنا ذلك بما يرجى تاثيره من موعظة .

والمعنى : أن الله وصاكم بهذه الأشياء لينبه عقولكم حتى تستعملوها فتدركوا أن الله اللطيف الخبير لا ينهى إلا عن شر ضار ، وأنه خلق الخلق وكلف الإنسان فى الأرض وسلطه عليها يتمتع بما شاء منها ماعدا الخبائث وما كان ضارا ، وأن هذه الأشياء ظاهرة القبح يدرك قبحها بالعقل بعدالتأمل ، وحكم الله فيها مطابق لمقتضى العقل الصحيح .

سادسا — «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»:

نهى الله عن أكل مال اليتيم ، وقد أبرز العبارة عن ذلك فى طريق أبلغ فى الدلالة على الغرض ، فنهى عن الاقتراب منه فضلا عن أكله ، إلا فى الحالة التى تكون أحسن لليتيم ، بحيث يكون التعامل معه محققا للمصلحة له . فولىّ اليتيم مطالب أن يستثمر ماله على أحسن الوجوه وأفضلها ، والذى يتعامل مع ولى اليتيم بالبيع والشراء لليتيم مطالب بأن يكف نفسه عن تصرف يعود على اليتيم بالضرر . وفى هذا المعنى قول الله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح » . نهى الله عن قربان مالهم الى أن يبلغوا الأشد ويستحكم عقلهم وجسمهم ، ويستطيعوا معرفة الضار والنافع ، وذلك ببلوغهم سن الرشد مع تحقق الرشد . قال الله تبارك وتعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » .

سابعا — « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » :

أمر الله تعالى بأن يكون التعامل فى المكيلات والموزونات بالعدل ، وهو يكون بين طرفين ، فلا يأخذ واحد أكثر من حقه ، ولا ينقصه الآخر حقه .

وقد جاء فى هذا المعنى قول الله تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون » .

فى هذه الوصية والتى قبلها النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، سواء أكانوا راشدين أم غير راشدين . وإذا كان الله تعالى نهى عن حفنة من البر تزيد أو تنقص وأوعد عليها

بالويل ، فكيف يكون حال من يحتال لأكل مال اليتامى ؟ وكيف يكون حال من يأخذ الرشوة ليعدل عن الحق ؟ وكيف يكون حال من يستغل عقل الناس من الضعفاء والبلهاء للاستيلاء على أموالهم ؟ أولئك لهم نار جهنم وبئس القرار !

بعد هاتين الوصيتين قال الله تعالى :

« لا نكلف نفسا إلا وسعها » :

ومعنى هذا أنه لما كان التحرز التام قد يكون خارجا عن الطوق فى معاملة اليتامى ، وفى الكيل والوزن ، نبه الله الى أن المطلوب هو ما فى الوسع . فمتى كانت النفس بعد التحرى مطمئنة الى أن مصلحة اليتيم تحققت ، والى أن العدل وجد فى الكيل والوزن ، كان فى ذلك الخروج عن العهدة ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وطاقتها .

ثامناً — « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » :

طلب الله العدل فى القول ، وهو يكون فى الشهادة والحكم ، والنصيحة والمشورة ، وفى التعليم والفتيا ، وفى كل شىء طريقه القول ، ولو كان العدل فى القول ضارا بذوى القربى والصداقة ، بل ولو ترتب عليه ضرر الشخص نفسه « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

تاسعاً — « وبعهد الله أوفوا » :

طلب الله الوفاء بالعهد ، وهو أنواع : منها العهد بين العبد وربه ، بالتزام أحكامه من أوامر ونواه . وذلك يكون بقبول الدين كله ، والاعتراف به ، والعمل على مقتضاه . فالوفاء بعهد الله هو الطاعة لله ولرسوله . ومنها العهود التى بين الأفراد والجماعات ، سواء أكانت بالقول أم بالكتابة . ومنها العهود التى بين دولة ودولة أخرى . وهناك عهود ضمنية يحددها العرف والعادة بين الناس ، وتقتضيها حياة الجماعة .

وعلى الجملة فالعهد التزام يجب على المسلم وفاؤه ما لم يكن محرما مناقضا لكتاب الله وسنة رسوله . فاذا كان العهد مناقضا لأحكام الله وجب نقضه . وكل شرط بين المسلمين جائز إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا . ومثل هذا العهد مناقض للنظام العام ، فلا يكون له احترام .

وقد حث القرآن فى مواضع كثيرة على الوفاء بالعهد . من ذلك قوله : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . وقوله « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان

بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون » . وقوله « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرا عظيما » .

بعد أن بين الله سبحانه هذه الوصايا الا ربع قال :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » :

أى أنه وصانا بهذا لنتذكر نعمه وما حاطنا به من الأصول النافعة فى الحياة ونظام المجتمع ، ولنتعظ بهذا التذكير فنوجه همتنا الى المحافظة على كل ما فيه خير ومصلحة .

وبعد هذا كله بين الله سبحانه أن ما دعا الخلق اليه من الدين الحنيف والقرآن المطهر الذى اشتمل على قواعد العدل وعلى النظام المصلح للجماعة الانسانية ، هو الصراط المستقيم الذى يجب على الناس اتباعه وسلوكه ، وعدم الخروج عنه الى الطرق المضللة المبعدة عن السعادة ، فقال :

سبيل الحق وسبل الباطل :

«وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»:

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خط خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه .

وقد أفرد سبيل الله وجمعت السبل الأخرى لأن سبيل الله سبيل الحق ، والحق واحد لا تعدد فيه ، وعلى الناس طلبه . أما الباطل فمتعدد وطرقه متعددة ، لذلك يجب على المسلم دائما أن يتحرى سبيل الله ، وأن يجدّ للوصول الى معرفته وسلوكه ، لا يعفى أحد من ذلك ، وكل مكلف على قدر وسعه وطاقته . والذى يخالف الطريق بعد الجد وبذل ما فى الوسع معذور . وللمخطئ أجر وللمصيب أجران . أما المسلم الذى يخالف الحق وفى إمكانه البحث عنه فهذا غير معذور ، وقد اتبع الطرق المتفرقة وكان فى إمكانه اتباع الطريق المستقيم .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » :

معناه أن العمل بهذه الوصايا موصل الى تقوى الله التى هى البعد عن الشرور والمعاصى التى تغضب الله ولا يرضى بها لعباده . ومن الواضح أن هذه الوصية الأخيرة جماع الخيرات والبركات ، والذى يتبعها يتبع النهج القويم والصراط المستقيم . وفقنا الله الى معرفته ، وأعاننا على سلوكه .

والحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين !

اللغة العربية بين القوة والضعف

فى برامج الدراسة — دعائم الاصلاح

— ٣ —

دوافع نفسية عدلت بى فى العدد الماضى عن متابعة الحديث فى موضوع اللغة العربية وقضية إصلاحها ، الى ظلال النبوة أتنسم أريجها ، والى شمس الهداية أستضىء بنورها ، والى ذكرى الميلاد المحمدى أستوحى من سمائه آيات الايمان غضة مشرقة ، وعظمة الاسلام قاهرة باهرة ، ومبعث الحياة الفاضلة فى شرايين الانسانية من قلب البيت العتيق فى البلد الأمين ، حيث بلغ الكتاب أجله ، وابتدأ منتهى أطوار التجديد على روابط الاخاء والاصلاح فى أعم مظاهره ، وأخص دواعيه ، فى وقت نحن فيه أحوج ما نكون الى ذكرى ذلك التجديد المخصب الفياض بالحيوية والانتاج ، لنقبس من شعلته ، ونترسم سبل هدايته ، ونتأثر آثاره فيما تدفعنا إليه دوافع العصر من مناحى الانشاء والتجديد . والآن نعود الى حديث اللغة ، وهو أمس ما تحس به حياتنا فيما تتطلب من تجديد لا زيف فيه ، وإنما يعتمد على الحقائق الثابتة التى تستمد عناصرها من ذخائر الماضى المجيد ، ومطالب الحاضر الوليد .

فى مقالنا الثانى عن « اللغة العربية » قلنا إنها فى حاجة الى بحث شامل يتناول برامجها الدراسية من قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ومناهج تلك البرامج ، ويتناول أدب اللغة تاريخا ونصوصا وأسلوبا ، ويتناول فقه اللغة تمحيصا وتنظيما ، وتحبيب الفصحى الى الناس حتى تكون لغة أحاديثهم وكتاباتهم ، وذكرت لذلك خمس دعائم يقوم عليها الاصلاح المنشود .

وأولى تلك الدعائم هى النظر فى برامج اللغة الدراسية فى الجامعة الأزهرية ، ومدرسة دارالعلوم ، وقسم اللغة العربية من كلية الآداب فى الجامعة المصرية ، والمدارس الأميرية ، والعمل على توحيد تلك البرامج فى جميع هذه المعاهد بنسبة الأعمار التعليمية للطلاب ، والنظر فى الكتب المقررة وتمحيصها ، وتركيز صلة الفنون العربية ببعضها ، وترتيب أبواب كل فن وتوزيعها على الفرق المختلفة توزيعا يكفل وحدة الثقافة الأدبية العربية ، ويعيد للفصحى نضارتها وبهاءها .

(١) الجامعة الأزهرية : لا يتخالج أحداً شك فى أن الأزهر هو جامعة الشرق الوطنية الفذة التى ظلت — وستظل — قرابة ألف سنة تؤدى رسالتها فى نشر علوم الشرق ومعارفه وفنونه ، وهو الحارس القوى الأمين للملة الاسلامية ، والشريعة المطهرة الحنيفية ، ولا يمترى أحد فى أن اللغة العربية وعلومها تنزل من علوم الاسلام ومعارف الشرق منزلة اللسان من

جوارح الانسان ، ولا نبعد كثيرا إذا قلنا بل منزلة القلب من الجسد ، لأنها لسان الاسلام الرسمى ، بها نزل القرءان الكريم ، وهو الدستور المهيمن على جميع شئون الحياة ، فاذا اعتور اللغة وهن ، أو أصابها جمود باعد بينها وبين ألسنة المسلمين وعقولهم ، استعجم عليهم فهم كتاب الله تعالى ، وأغلقت دونهم أبوابه ، وارتدوا عن أسراره التشريعية حاسرين ، فيضرب الجهل رواقه فى ساحتهم ، وينشر عليهم رايته ، وتستحوذ عليهم الضلالة ، وتقتل فيهم روح الفضائل التى تنبع من معين القرءان الحكيم ، ويعيشون لأجسامهم كما يعيش الماديون فى عصرنا آلات تحركها النزوات والشهوات . ولو أن باحثا رمى بنظره الى ماضى المسلمين لرأى فى يسر ووضوح ان عهود التقدم والقوة ، وأزمان المجد والسيادة فى تاريخ الأمة الاسلامية كانت مرتبطة أشد الارتباط بفهم القرآن وأساليبه فهما ينطبق على شريعة الفصحى ، وأن عصور التاخر والضعف وأيام الركود والانحطاط فى ذلك التاريخ كانت مظهرا من مظاهر تبربر الألسنة وتبابل الأفكار والجهل بأحكام الاسلام ، وعدم فهم أسلوب القرآن فى آوامره ونواهيه ، وآدابه وتعاليمه فهما يستقى من منابع الفصحى ، ويستمد من مشارعها . ولم تكن العناية باللغة فى عصور الاسلام الذهبية بأقل من العناية بأى شأن من شئون الدين ، بل لقد كان الدين دافعا قويا على العناية بها ، وحسبنا أن نعلم أنها لم تدون قواعدها إلا صونا للقرآن أن يدلف إليه اللحن على ألسنة حمراء العجم كما ذكره مؤرخو النحو ، وقد روى ابن الأنبارى فى الطبقات أن السبب فى طلب سيبويه النحو وتبريزه فيه وإمامته لأهله أنه كان يستملى على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من اصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء ، فقال له حماد : لحنت ، ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علما لا تلحننى فيه أبدا ، وطلب النحو .

وقد دأب العلماء منذ القديم على أن يصلوا بين علم العربية والدين بأوثق الصلات ، حتى أن بعضهم يغلبه على جميع العلوم من أجل أن فهم الأحكام وأخذها من الأصول متوقف على التفقه فى فنون الإعراب . قال العلامة جار الله الزمخشرى فى فاتحة كتابه (المفصل) : والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء — يقصد من يغضون من العربية — فى قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لايجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره الى العربية بين لايدفع ، ومكشوف لايتقنع ، ويرون الكلام فى معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب ، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائى والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين ، والاستظهار فى مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب فسرهم وتأويلهم ، الى أن قال : ومن لم يتق الله فى تنزيله فاجترأ على تعاطى تأويله وهو غير معرب ركب عمياء وخبط خبط عشواء ، وقال ماهو تقول وافتراء وهراء ، وكلام الله منه براء ، وهو المرقاة المنصوبة الى علم البيان ، المطلع

على نكت نظم القرآن ، الكافل بابراز محاسنه ، الموكل بإثارة معادنه ، فالصاد عنه كالساد لطرق الخير كى لا تسلك ، والمريد بموارده أن تعاف وتترك .

فانظر كيف تراه جعل العلوم الاسلامية مفتقرة الى العربية ، وجعل الصاد عنها كالساد لطرق الخير . وهذا أيضا الامام عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة وواضع نهجها يقول فى كتابه دلائل الإعجاز : « ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا وأبسق فرعا ، وأحلى جنى وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا وأنور سراجا من علم البيان الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذى لولا تحفّيه بالعلوم وعنايته بها وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة » . ثم قال زاريا على من لم يقدر هذه العلوم حق قدرها : « وأما النحو فظنته ضربا من التكلف وبابا من التعسف وشيئا لا يستند الى أصل ، ولا يعتمد فيه على عقل .... الى أشباه لهذه الظنون وآراء لو علموا مغبتها وما تقود اليه لتعوذوا بالله منها ، ولأنفوا لأنفسهم من الرضا بها ، ذاك لأنهم بايثارهم الجهل على العلم فى معنى الصاد عن سبيل الله ، والمبتغى إطفاء نور الله تعالى ، وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التى منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وبانت وبهرت ، هى أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها بالفكر ، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب .... ثم بحث عن العلل التى بها كان التباين فى الفضل وزاد بعض الشعر على بعض ، كان الصاد عن ذلك صادا عن أن نعرف حجة الله تعالى ، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى . . . الخ » ثم قال فى موضع آخر : « وأما زهدهم فى النحو واحتقارهم له ، وإصغارهم أمره وتهاونهم به ، فصنيعهم فى ذلك أشنع من صنيعهم فى الذى تقدم ، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه » .

فهو قد أبلغ الحجة فى بيان مقام علوم اللغة العربية وآدابها ، من علوم الشريعة وحفظ القرآن الكريم ، والكشف عن أسرار إعجازه ومعانيه . وهذا إمام من أئمة اللغة والأدب وهو أحمد بن فارس يقول فى كتابه المرسوم بالصاحبى : « إن لعلم العرب أصلا وفرعا ، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات ، كقولنا رجل وفرس ، وطويل وقصير ، هذا هو الذى يبدأ به عند التعلم . وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ، ثم على رسوم العرب فى مخاطبتها ، وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا ، والناس فى ذلك رجلان : رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معا ، وهى هذه الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة ، وعليها يعول أهل النظر والفتيا » .

هؤلاء ثلاثة أعلام من علماء اللغة وواضعى فنونها ، سقنا بعض كلامهم هنا لنتبين على

ضوئه الفكرة التى قامت عليها دراسة اللغة العربية منذ نشأتها نشاة فنية ذات أصول وقواعد معروفة فى المدارس الاسلامية القديمة ، حتى يتسنى لنا أن نحكم حكما صحيحا على الطريقة التى اتبعها الأزهر ، باعتباره أكبر مدرسة نظامية للعلوم الاسلامية ، فى دراسة علوم اللغة وقواعدها ، فهو منذ عهده بالحياة العلمية المنظمة نظر الى اللغة العربية نظر زعمائها إليها ، ودرس كتب أئمتها ، وأخذ عنهم مذاهبهم وطرائق تعليمهم ، وتاثر أثرهم فيها ، وأعطى كما أعطوا للغة من القداسة ما هو من خصائص أمور الدين ، ودرسها على أنها وسيلة من وسائل فهم الدين ، وهو قد درس فيما درس من علوم اللغة النحو والبلاغة ، والعروض والقافية ، والأدب نصوصا وتاريخا ، فكانت دراسة النحو فى نظره وسيلة لفهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة ، وتوجيه عبارتها توجيها تصدقه السليقة وتؤيده القواعد ، وكانت دراسة البلاغة لأجل تبيين وجوه إعجاز القرآن والكشف عن أسرار أسلوبه الذى تفرد به فأعجز الفحول اللسن ، وأفحم الأبيناء المقاويل ، وكانت دراسة العروض لمعرفة أوزان الشعر وأقرائه التى توخاها العرب فى أشعارهم وجعلوها سنتهم فى قريضهم حتى يستطيع تبيين مباينة أسلوب القرآن لأعاريض الشعر وتقاسيمه تبيينا علميا يتضح به الرد على من زعم أن القرآن قول شاعر ، تحقيقا لمعنى قول الله تعالى فى تنزيهه عن هذه الغميزة « وما هو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون » . ويتضح به دحض مزعمهم على النبى صلى الله عليه وسلم فيما حكاه القرآن عنهم بقوله : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » تقريرا لتأويل قوله تعالى فى تشريف نبيه الأعظم صلوات الله عليه : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له »

وفن العروض قد يبدو فى بداءة النظر أنه أبعد فنون العربية عن دوافع الدين ، ولكن الأزهر ، كغيره من مدارس الاسلام ، درس العروض وأمعن فى بحثه إجابة لداعية دينية ، لا تقل أهمية عن أية داعية من داعيات الدين .

ودراسة الأدب والنظر فى روائعه شعرا ونثرا كانت فى نظر الأزهر أيضا عملا يدعو إليه الدين ، لأننا لو لم نتفهم الجمال الفنى فى الأدب المأثور عن أشعر شعراء العربية ، وأكتبهم وأخطبهم ، وندرك موطن السمو فى ذلك الأدب ، ونكشف عن أسباب ذلك الجمال ، لما أمكننا أن نقرر حجية القرآن من جهة إعجازه البلاغى عن طريق الموازنات العلمية ، وهذا المذهب هو الذى سلكه الامام الجليل أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن ، فقال فى أحد فصوله : « فنرجع الآن الى ما ضمناه من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها فى صناعتهم ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع البلاغة ، وتستدل على مواضع البراعة » . ثم عرض الى امرئ القيس ووصف شعره وعلو طبقته ، وتكلم على بدائع المحدثين من الشعراء ، مبينا أن معانيهم وأغراضهم مهما عظمت فى شرعة الأدب فهى فى متناول البشر

إلا أنها تتفاوت تارة ، وتتقارب أخرى ، الى أن قال : « ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص ، وقبيل عن النظير متخلص ، فاذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتامل ما نقوله فى هذا الفصل لامرئ القيس فى أجود أشعاره » وأخذ بعد ذلك ينقد معلقته ليبين « أن طريقة الشعر شريعة موروده ومنزلة مشهودة ، ياخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ... فاما نهج القرآن ونظمه وتاليفه ورصفه ، فإن العقول تتيه فى جهته ، وتحار فى بحره ، وتضل دون وصفه » . وصنع مع البحترى فى أجود شعره صنيعه مع امرئ القيس فى معلقته ، وأكد المعنى الذى من أجله عقد هذه الموازنات ، والذى على غراره كانت دراسة الأدب فى مدارس الاسلام فقال « والشعر قبيل ملتمس مستدرك ، وأمر ممكن منطبع ، ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم أو يسمو إليه الفكر ، أو يطمع فيه طامع ، أو يطلبه طالب « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »

هذه سبيل من دراسة الأدب هى أدق سبله وأخصبها وأنفعها ، هى سبيل النقد الأدبى القائم على قواعد العربية وموازين البلاغة ، لم يعرفها أولو البجاحة من المتأدبة ، وقد عرفها علماء الاسلام ، وعلى هديها درسوا الأدب ، وهذه الدقة فى البحث والسمو فى الفن يصورهما الباقلانى بقوله : « واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان ، قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر » .

وقد أخذ الأزهر عن هؤلاء الأجلاء هذا النهج فى دراسة الأدب دراسة نقد فاحص ، وتدقيق وبحث ، ليتوصل بهذه الدراسة الى كشف الغطاء عن الجمال الفنى فى أسلوب القرآن ، ويظهر بالبحث العلمى فوقه وهيمنته على ما عداه من الكلام .

على هذا السَّنن سار الأزهر عهودا طويلة يدرس فى حرية مطلقة : فى الكتب ، والفنون ، والزمن ، دون أن تقيده براج موضوعة ، إلا الحدود العامة التى توجبها مهمته ورسالته فى الحياة ، فأنتج ثروة علمية فى البحث والتأليف ، ولا سيما ذلك النوع الذى يدور على النقد الممثل فى الحواشى والتقارير بصورة واضحة ، لم يحفظ التاريخ لجامعة من الجامعات العلمية مثلها ، وقد كان لعلوم اللغة منها أوفر حظ وأكبر نصيب ، لأنها أرزت الى مأمنه ، ولاذت بحرمه بعد أن تقوض مجدها فى بغداد ، وتشتت شمل حماتها ، فلجؤا الى الأزهر ، وفتح لهم ذراعيه ، وضمهم بين عطفيه ، وعادت لهم الطمأنينة بعد القلق ، والهدوء بعد الاضطراب ، وقبعوا على العلوم والفنون شرحا وبحثا ، ولكنهم فى شبه عزلة عن المجتمع الذى استولى عليه الجهل واستحوذت عليه العجمة ، وغرقت اللغة العربية فى محيط من البربريات المتكاثرة بتكاثر العناصر التى ذكرت قوميتها القديمة فأحيت لغاتها ، ولم يبق للعربية ذكر إلا فى ساحة الأزهر وحلقات

دروسه وأقلام مؤلفيه ، وفى هـذه الحقبة كانت تدرس فيـه أمهات كتب اللغة والأدب على طريقة القدامى فى العرض الممزوج بالبحث والاستطراد على ما هو ماثل فى كتاب الكامل للمبرد وكتاب الأمالى لأبى على القالى ، وفيها ألف السيوطى وشيوخه كتبهم ، وألف الشيخ جمال الدين بن هشام صاحب المغنى بعض كتبه ، ثم تعاقب شراح الألفية وأصحاب الحواشى والتقارير ، وفيها جاءت كتب السعد التفتازانى وأقرانه فى البلاغة ، ولم يحق درسها غير الأزهر ، حتى جاء دور النهضة بعـد الركود واليقظة بعد الجمود ، وبدأت الشعوب الاسلاميـة تبعث من جديد ، والتفتت الى اللغـة العربية كأداة للتفاهم العام بين شعوب الاسلام والعرب ، ورابطة قوية قومية بينهم ، وخرج بعض علماء الأزهر الى المجتمع قليلا قليلا فعرفوه وعرفهم ، ومن هنا تبدأ للدراسة فى الأزهر ، ودراسة اللغة وعلومها على الأخص ، مرحلة جديدة وجهته وجهة فيها شيء من النظام وتحديد الأغراض فى كل فن ، فبدأت دراسة اللغة وفنونها تأخذ سمتا جديدا يتصل كثيرا بحاضرنا الذى نعول عليه فى الأخذ بناصر اللغة العربية وقضية إصلاحها ، وسنبين ذلك فى المقال التالى إن شاء الله تعالى ؟

صادق ابراهيم عرجون

العطف على الاخوان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك ، تبوأت من الجنة منزلا » .

وقال حكيم : « المودة جسم روحها الزيارة » .

وقال شاعر :

رأيت أخا الدنيا وإن بات آمنا   على سفر يسعى به وهو لا يدرى
تثاقلت إلا عن يد أستفيدهـا   وزورة ذى ود أشد به أزرى

وأحسن ماقيل فى استدعاء الزيارة قول حميد بن مهران لأبى أيوب الهاشمى يستدعيه لزيارته :

أقيك الردى يا بديع الورى   ومن حل من هاشم فى الذرى
ويفديك من وده فى المغيب   إذا امتحن الود واهى العـرى
وصالك يعـدل صدق الرجا   وصفو المـدام وطيب الكرى
وقـد تاقت النفس من وامق   الى أن تراك فماذا ترى ؟

موازين الحكم الأدبى

٢ — الذوق

في المقال السابق اعتبرنا الذوق من الضرورى للحكم الأدبى ، وقد بسطنا هذا الاعتبار بما فيه الكفاية ، فاستعرضنا آراء النقاد السابقين ، وناقشنا هذه الآراء بما قد ينقدح فى ذهن القارىء من السؤال والاعتراض ، وما زلنا حتى انتهينا الى القول بثقافة الذوق ثقافة رشيدة حتى يصح له « الحكم الأدبى » على الوضع الصحيح ؛ وقد بيّنا الطريق الى هذه الثقافة ، وهو طريق التربية على تذوق النماذج الأدبية من روائع الشعر والنثر ... وفى هذا المقال نتناول ناحية من نواحى الموضوع لابدّ منها ، إشباعاً للبحث ، واستيفاء للكلام ، وإفادة للقارىء ، وإنما تدور هذه الناحية حول التعليل لحكم الذوق ، والاحتجاج لما يقضى به فى مسائل الأدب والفن ، خصوصاً وقد اختلف النقاد فى ذلك وتباينت أقوالهم ، وذهب بعضهم فيها مذهبا يتصل بالهوى أكثر مما يتصل بالحق ، فابن سنان الخفاجى يرى أن حكم الذوق يعلل فى جميع الأحيان ، وأن هذا التعليل يمكن أن يلتمس من كتب البلاغة والقواعد التى قرّرها الباحثون فى النقد ، فيقول وهو يقدم كتابه « سر الفصاحة » الى القارىء : « فأما من يفرق بين الكلام المختار وغيره ، فانه وإن كان غير مفتقر الى كتابى هذا كافتقار القارىء من هذه الصناعة ، الراغب فى اقتباسها ، فهو محتاج اليه من وجه آخر ، لأن العالم بالفصاحة إذا قطع على فصاحة بيت من قصيدة ، أو فصل من رسالة ، أو كلمة أو ما أشبه ذلك ، وفضّله على غيره ، لم يمكنه أن يبين من أين حكم ، ولا لأى وجه فضّل ، بل إنما يفزع الى مجرد دعواه ، ومحض قوله ، فاذا عرف ما بينته وفصلته فى هذا الكتاب ، علل واستدل ، وذكر الوجوه والأسباب ، كما أن العارف بالشعر صحيح النظم بذوقه ، والمعرب يعرب بطبعه وعادته ، فاذا وقف على علم العروض والنحو ، علل فى البيت الموزون ، والكلمة المعربة ، وقال : إنما كان هذا صحيح الوزن لأنه من الدائرة الفلانية ... وذكر ما يحسن فيه من الزحاف ويقبح ، وفصل ما يفصله العروضيون ، وقال فى الكلمة المعربة : إنما كانت مثلا مرفوعة لأنها فاعلة ، والفاعل فى كلام العرب مرفوع ، وما يجرى هذا المجرى ، وعلى مثل هذا النحو يقول فى الفاسد الذى ينفر منه ذوقه ، أو يكرهه طبعه ، ويعلله على حد هذا التعليل الذى ذكرته (١) »

وقد عرض الأستاذ عباس العقاد من الأدباء المعاصرين الى هذه المسألة بأوضح وأجلى مما قاله ابن سنان فقال وهو يناظر صاحباً له : « إن الناقد الذى لا يحسن تعليل آرائه فى الشعر

(١) سر الفصاحة ص ٨٨

ليس بناقد ، وإنما هو قارئ محدود يدارى عجزه عن الفهم والتعبير بالوقوع فى جوار الذوق الذى يحميه من المطاردة ! أما أنا فرأيى فى هـذه المسألة أن الذوق يعلل ، وأن النقد هو تعليل الاستحسان والاستهجان ، أى تعليل الذوق . ومن الصلاح والخير للأدب أن تقرر هذه القاعدة فى النقـد ، لأنها من جهة صحيحة معقولة ، إذ نحن لا نستحسن المعنى أوالتعبير إلا لسبب يختلف فى الوضوح والغموض ، ولـكنه موجود لاشك فى وجوده ، ومن عمـل النقد ـ بل عمله الوحيد ـ أن يظهر هذه الأسباب ، ويرد كل طائفة منها الى قسطاس مستقيم ، فليس تعليل الذوق بالممتنع ، ولا هو بالباب المغلق ، ولـكنه شىء قـد يسهل وقد يتعذر كما يسهل ويتعذر كل إدراك وكل تمحيص . ومن الصلاح والخير للادب أن يقرر تعليل الذوق فى استحسان الـكلام واستهجانه ، لأن هذه القاعدة فضلا عن صحتها خليقة أن تقطع السبيل على من يبدون الآراء وهم غير أهل لابدائها ، وتوجيه الأذهان إليها ؛ فان مطالبة المستحسن بالسبب الذى يبنى عليه حـكمه ، تعوّده أن يلقى الحكم بحساب ، وتعصم النـاس من تبلبل الأفـكار ، واختلاق الدعاوى بغير برهان ! »

وهذا الذى قاله ابن سنان وقاله العقاد ، كلام مردود فى إطلاقه ، فان تعليل الذوق أمر يتعذر على الناقد فى جميع الأحوال ، ولو استقام له ذلك مرة فانه يصعب عليـه مرات ، وابن سنان والعقاد من الرجال الذين زاولوا مسائل النقد ، ومارسوا الأحكام الأدبية ، فـكان الظن أن يكون ذلك واضحاً لهما كل الوضوح ، خصوصا وكثيرا ما نراهما يلقيان بالحـكم الأدبى ولا حجة لهما إلا الذوق والذوق فحسب ! ولا شك أن ابن سنان مخطئ كل الخطا إذ يزعم أن الحـكم فى الأدب والتعليل له ، كالحـكم فى مسائل العروض والنحو والاعراب . وكا نى بابن خـلدون كان يقصد الى تفنيد هـذا الزعم إذ يقول : « فملـكة البـلاغة تهدى البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب . وإذا عرض عليه الـكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم ، أعرض عنه ومجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك ، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم (١) »

ثم لاشك أيضا أن العقاد مخطئ أو بتعبير أدق محدود التقدير ، ينظر الى موضوع النقد نظرة قاصرة فيرى أن تعليل الذوق معقول وليس بالممتنع لأننا « لا نستحسن المعنى أو التعبير إلا لسبب يختلف فى الوضوح والغموض » ، ثم يرى أن عمل النقد الوحيـد أن يظهر السبب فى هذا الاستحسان . وقد نسى العقاد أن هناك ماهو فوق المعنى والتعبير ، وفوق الوضوح والغموض ، مما يتميز به الـكلام ويدركه الناقد المطبوع بذوقه ، حتى ليتجلى فى إحساسه

(١) المقدمة ص ٤٦٧

مشرقا واضحا ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنه فضلا عن الاحتجاج له ، فشأنه شأن الشافعى وقد سئل فى مسألة فقال : إنى لأجد بيانها فى قلبى ولكن ليس ينطلق بها لسانى . والناقد فى هذا العجز ليس بعاجز ولا مقصر ، ولا يصح أن نتهمه بالعى والفهاهة ، لأن ما يحسه فى الكلام فى هذه الحال شىء لا يرجع الى الألفاظ والمعانى ، وإنما يرجع الى مافيه من المعانى الروحية ، تومض فى ثنايا الكلام كوميض البرق فى ثنايا الظلام فتخلب اللب كما يخطف البصر ، وإن هذه المعانى أكثر ماتتجلى فى كلام الله «حين يتحدث ذوالجلال عن ذاته وصفاته ، وقدرته وقوته ، وجلاله وعزته . . . ولقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى فى رياضة العرب ، واجتذاب نفوسها نحو الاسلام ، وهى التى كانوا يشعرون بوقعها من غير أن يعلموا كنهها (١) »

تلك حقيقة ظاهرة قد أدركها كثير من النقاد من قبل ، وقد يكون الآمدى أول من أدركها ونبه عليها فى القرن الرابع الهجرى ، فتجده يقول وهو يوازن بين الطائيين : « وسترى محاسنهما وبدائعهما وعجيب اختراعهما ، فانى أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما فى الأشعار التى أرتبها فى أبواب الكتاب ، وأنبه على الجيد وأفضله على الردىء ، كما أبين الردىء وأرذله ، وأذكر من علل الجميع ما ينتهى إليه التخليص ، وتحيط به العناية ، ويبقى ما لم يمكن إخراجه الى البيان ، ولا إظهاره الى الاحتجاج ، وهى علة ما لا يعرف إلا بالدربة ، ودائم التجربة ، وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج . . . ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمان من كل عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة الطويلة ، وكذلك الجاريتان البارعتان فى الجمال المتقاربتان فى الوصف ، السليمتان من كل عيب ، قد يفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيرا ، فاذا قيل له وللنخاس : من أين فضلت أنت هذا الفرس على صاحبه ، لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما ، وإنما يعرف كل واحد منهما بطبعه وكثر دربته وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما مختلفا .

وقد حكى اسحاق الموصلى قال : قال لى المعتصم : أخبرنى عن معرفة النغم وبيّنها لى . فقلت: إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصفة . قال : وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ؛ ولكنهما تقاربا ، وفضله هذا بشىء تشهد به الطبيعة ، ولا يعبر عنه اللسان (٢) .

---

(١) الزهرات للشيخ عبد الله عفيفى . (٢) الموازنة بين أبى تمام والبحترى .

ولقد جاء ابن شهيد الأندلسى من بعد الآمدى فى القرن الخامس للهجرة فتناول هذا المعنى بالتوضيح من الناحية الفلسفية والنفسية ، واسمع له وهو يقول فى قصة « التوابع والزوابع » : « وقد تكون هناك صور من الكلام تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه . . ثم يقول : وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ! وذلك كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصيلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس ، والاستيلاء على القلب كما ترى . . » وهذا كلام حمله ابن شهيد على ما اشترطه فى شخصية الأديب من قوة الطبع ، وصفاء الروح كما بينا ذلك فى بحث نشرناه منذ سنوات عن مذهب ابن شهيد فى النقد (١) .

ومعنى هذا الكلام الذى يقرره ابن شهيد أنك إذا تأملت بعض الصور الكلامية الرائعة ، لا تجد لروعتها أصلا من جزالة اللفظ ، أو طرافة المعنى ، بل قد تكون سهلة التناول ، قريبة الغور ، ولكن روعتها ترجع الى ما يكمن فى ثناياها من القوة الروحية للكاتب أو الشاعر ، وهذا معنى قد توسع فى شرحه أبو الحسن الجرجانى وهو ينافح عن المتنبى إذ يقول مخاطبا الصاحب بن عباد : « وربما توسعتَ فى الدعاوى فضل توسع ، وملت مع الحيف بعض الميل ، حتى تناولت طائفة من المختار فجعلته فى المنفى ، وأخذت صدراً من الجيد فجعلته مع الردىء ، ولسنا ننازعك فى هذا الباب ، فهو باب يضيق مجال النقد فيه ، ويصعب وصول البرهان إليه ، وإنما مداره على استشهاد القرائح الصافية ، والطبائع السليمة التى طالت ممارستها للشعر ، فحذقت نقده ، وأثبتت عياره ، وقويت على تمييزه ، وعرفت خلاصه . . . فأما وأنت تقول : هذا غث مستبرد ، وهذا متكلف متعسف ، فانما تخبر عن نبو النفس عنه ، وقلة ارتياح القلب إليه ، والشعر لا يحبب الى النفوس بالنظر والمحاجّة ، ولا يجلى فى الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشىء متقناً محكما ، ولا يكون حلواً مقبولا ؛ ويكون جيّداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد تجد الصورة الحسنة ، والخلقة التامة مقلية ممقوته ، وأخرى دونها مستحلاة مومومقه (٢)

وهذا الذى قاله الجرجانى كلام واضح فى معناه ، سليم فى حقيقته ، يدركه من له أدنى دربة بصيرفة الكلام ، والنظر فى مظاهر الفن . وقد كنا نود أن نستشهد له بكثير من الأمثلة لولا خوف الاطالة . على أننا نحسبه من الوضوح بحيث لا يحتاج الى استشهاد ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) راجع السنة الثانية من مجلة الرسالة (٢) الوساطة ج ١ ص ٨٩

دفاع عن القرآن الكريم

مقدمة :

حديثى فى هذه المقالات حديث بحث ودرس ونقاش وجدل ، وإن شئت فقل حديث منازعة ومخاصمة .

وكان الأمر سهلا هينا لوأن موضوع البحث والدرس والنقاش والجدل والنزاع والخصومة مسألة فرعية من مسائل الدين الفرعية ، أوقاعدة أصولية من قواعده الأصولية . فهذه المسائل الفرعية ، وتلك القواعد الأصولية من شأنها عادة أن تكون فى بعض الأحيان موضوع نزاع بين العلماء .

أما موضوع النزاع فى حديثى هذا ، فهو أصل أصول الدين بأسره وهو القرآن الكريم ، لا من حيث لفظه وما فيه من فصاحة ، ولا نظمه وما فيه من بلاغة ، ولا من حيث معانيه وأحكامه ، ولا من حيث ما تضمنه من مواعظ وعبر ، وقصص حكيمة وأمثال رشيدة ، ولا من حيث ما اشتمل عليه من قوانين تنظم المجتمع ، وتضمن للبشر سعادة الدنيا والآخرة ، بل من حيثية هى أولى تلك الحيثيات جميعها ، وناحية أخرى أخطر من هذه النواحى بأسرها ، ناحية تخص جوهره وذاته وماهيته وكنهه ، وهى (قرآنية القرآن) أى أنه هو القرآن أو ليس القرآن . فأظنك أيها القارىء الكريم تشاركنى الرأى فى أن موضوع هذا النزاع والجدل من أعظم الموضوعات خطورة ، وألصقها مساسا بالعقيدة . وكان الأمر يكون حتى مع هذا أيضا — سهلا نوعا ما ، لو أن الخصومة مع رجلين عاديين ، وعالمين معاصرين مرنين .

لكن ، والخصومة مع رجلين خطيرين ، أحدهما من أخطر علماء أواخر القرن الثالث وأول القرن الرابع الهجرى ، أى بين عصرنا وعصره أكثر من عشرة قرون هجرية ، ولعلماء الطبقات فيه آراء متناقضة ، والثانى من أخطر علماء الغرب المستشرقين فى عصرنا هذا . فأظنك أيضا تشعر شعورى ، وتحس إحساسى ، بأن هذا النزاع ، وذلك الجدل والنقاش ، يزداد خطورة ، ولا يكون من السهولة واليسر فى شىء .

أما المعاصر فخطورته من نواح مختلفة : فهو مستشرق انجليزى ، وهو مشرف على الدراسات الشرقية فى الجامعة الأمريكانية بالقاهرة ، وهو أستاذ اللغات السامية وآدابها

فى إحدى جامعات أمريكا ، (يقيم فى القاهرة نصف العام ، وفى أمريكا نصفه) ، ذلك هو الدكتور أرثرجفرى .

أما صاحب القرن الرابع للهجرة ، فهو الذى أدهش أباه من سرعة حفظه لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة مروياته ومحفوظاته ، حتى رماه أبوه بالكذب وعدم الضبط ، وهو الذى كان يملى ثلثمائة ألف حديث من حفظه بدون كتاب ، وهو الذى كان — بعد أن فقد بصره — يجلس على درجة المنبر ويجلس ابنه دونه بدرجة ويملى على الناس الأحاديث ، ويرشد ابنه الى موضع الحديث من الكتاب ؛ وهو الذى أثار ضجة عظيمة بين علماء عصره بعلمه وآرائه ، واجتهاده واستنباطه ؛ وهو الذى حوكم أمام أحد الأمراء فى أشياء خطيرة نسبت اليه ؛ وهو الذى أوقع علماء الطبقات فى حيرة لايدرون : أيعدون مناقبه وسجاياه ، كما لو كان من الثقات ، أم يذكرون عيوبه ، كما لو كان من المجروحين ؟ ذلك هو عبد الله بن سليمان السجستانى المتوفى سنة ٣١٦ ﻫ

فهذان خصمان خطيران ، وعملهما مختلف ، فالمعاصر يطعن على القرآن ، ويزعم أنه تطور ، ويستشهد بآراء ذلك الخطير القديم .

والثانى : عالم كبير ألف كتاب المصاحف ، وإن شئت فقل كتاب اختلاف المصاحف ، روى فيه الروايات الآحادية التى كانت موجودة فى صحف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لم يجمع عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جمع سيدنا عثمان القرآن ، ووجد ذلك العالم الغربى فى كتاب هذا العالم الشرقى ما يبرر — فى زعمه — تطور القرآن ، فعمد اليه ونشره ، ولم ينشره كما وجده ، بل تصرف فيه تصرفا معيبا يتنافى مع أمانة العلماء ، فعمد الى بعض الروايات الظاهر ضعفها وترجم لها (بباب كذا) مثل (باب ما غير الحجاج فى مصحف سيدنا عثمان) ولم توجد هذه التراجم فى النسخة المخطوطة .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل وضع مقدمة مملوءة بالغمز والطعن على القرآن ، ووضع ملحقا انجليزيا للكتاب ملاه بنصوص تخالف القرآن الكريم تمام المخالفة ، وزعم أن هذه النصوص كانت فى مصاحف بعض الصحابة ، فانقسم الكتاب الذى طبعه الدكتور جفرى بذلك على ثلاثة أقسام :

(١) مقدمة الدكتور جفرى .

(٢) كتاب المصاحف ، لابن أبى داود .

(٣) الملحق الانجليزى ، للدكتور جفرى .

وقد قسمت مقالاتى فى الرد عليه على ثلاثه أقسام :

(١) نقض مقدمة الدكتور جفرى .

(٢) الرد على كتاب المصاحف .

(٣) مناقشة النصوص العربية الواردة فى الملحق الانجليزى .

وضمنت كل قسم عدة مباحث ، ووضعت له فهرسا تحليليا بمواده ومباحثه .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما إليه قصدت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ؟

حسن حسين

ترجمة ابن أبى داود :

من ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للحافظ الذهبى :

عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستانى أبو بكر الحافظ الثقة ، صاحب التصانيف ، وثقه الدارقطنى فقال : ثقة إلا أنه كثير الخطا فى الكلام على الحديث . وذكره ابن عدى وقال : لولاما شرطنا وإلا لما ذكرته ، الى أن قال : وهو معروف بالطلب ، وعامة ما كتب مع أبيه ، وهو مقبول عند أصحاب الحديث ، وأما كلام أبيه فيه فما أدرى إيش تبين له منه . حدثنا على بن عبد الله الداهرى سمعت أحمد بن محمد بن عمر بن كوكرة سمعت على بن الحسين بن الجنيد سمعت أبا داود يقول : ابنى عبد الله كذاب .

قال ابن صاعد : كفانا ما قال أبوه فيه . ثم قال ابن عدى : سمعت موسى بن القاسم الأشيب يقول : حدثنى أبو بكر سمعت ابراهيم الأصبهانى يقول : أبو بكر بن أبى داود كذاب . وسمعت أبا القاسم البغوى وقد كتب إليه أبو بكر بن أبى داود رقعة يساله عن لفظ حديث لجده فلما قرأ رقعته قال : أنت والله عندى منسلخ من العلم . وسمعت عبد ان سمعت أبا داود السجستانى يقول : من البلاء أن عبد الله يطلب القضاء ، وسمعت محمد بن الضحاك بن عمرو بن أبى عاصم يقول : أشهد على محمد بن يحيي بن مندة بين يدى الله أنه قال أشهد على أبى بكر بن أبى داود بين يدى الله أنه قال : روى الزهرى عن عروة قال : حفيت أظافير فلان من كثرة ما كان يتسلق على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبى : قلت : هـذا لم يسنده أبو بكر الى الزهرى ، فهو منقطع ، ثم لا يسمع قول الأعداء بعضهم فى بعض .

وهنا شكا الذهبى محاكمته على ما نسب اليه أمام أمير أصفهان أبى ليلى ، وحكم عليه بالقتل ، والذى خلصه هو محمد بن عبد الله بن حفص الهمدانى ، وجرح الشهود ، وكان ابن أبى داود يدعو للهمدانى طول حياته ، ويدعو على الشهود الذين شهدوا عليه فى هذه المحاكمة .

ثم قال الذهبي بعد أن سرد حديث المحاكمة : قال احمد بن يوسف الأزرق سمعت ابن أبي داود يقول : كل الناس فى حل إلا من رمانى ببغض على رضى الله عنه .

قال ابن عدى : كان فى الابتداء نسب الى شىء من النصب فنفاه ابن الفرات من بغداد ، فرده على بن عيسى ، فحدث وأظهر فضائل ، فصار شيخا منهم . قلت : كان قوى النفس وقع بينه وبين ابن صاعد أو بين ابن جرير نسأل الله العافية . قال ابن شاهين : أراد الوزير على بن عيسى أن يصلح بين أبى بكر بن أبى داود وابن صاعد فجمعهما وحضر القاضى أبو عمر فقال الوزير لأبى بكر : أبومحمد بن صاعد أكبر منك فلو قمت اليه ! قال : لا أفعل . فقال له : أنت شيخ زيف . قال أبو بكر : الشيخ الزيف، الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال الوزير : من الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبو بكر : هذا هذا . ثم قال : إنى أذل لأجل رزق يصل الى على يدك ، والله لا أخذت من يدك شيئا أبدا ، وعلىّ مائة بدنة إن أخذت منك شيئا ! فكان المقدر بعد يزن رزقه بيده ويبعثه على يد خادم .

وقال محمد بن عبد الله القطان : كنت عند محمد بن جرير فقال رجل : ابن أبى داود يقرأ على الناس فضائل على رضى الله عنه . فقال ابن جرير : تكبيرة من حارس . قلت : وقد قام ابن أبى داود وأصحابه وكانوا خلقا كثيرا على ابن جرير ونسبوه الى بدعة اللفظ ، فصنف الرجل معتقدا حسنا سمعناه تنصل فيه مما قيل عنه وتألم لذلك . وقد كان أبو بكر من كبار الحفاظ وأئمة الأعلام حتى قال الخطيب : سمعت الحافظ أبا محمد الخلال يقول : كان أبو بكر أحفظ من أبيه أبى داود . وروى ابن شاهين عن أبى بكر أنه كتب فى شهر عن أبى سعيد الأشج ثلاثين ألفا . وقال أبو بكر النقاش والعهدة عليه : سمعت أبا بكر بن أبى داود يقول : إن تفسيره فيه مائة ألف وعشرون ألف حديث .

قلت : ولد سنة ٢٣٠ هـ ورحل به أبوه فلقى الكبار وسمع عيسى بن حماد صاحب الليث ابن سعد وطبقته وانفرد عن طائفة . قال أبو بكر احمد بن ابراهيم بن شاذان : ذهب أبو بكر الى سجستان فاجتمعوا عليه وسألوه أن يحدثهم فقال ليس معى كتاب . فقالوا : ابن أبى داود وكتاب! قال فأثارونى فأمليت عليهم من حفظى ثلاثين ألف حديث ، فلما قدمت قال البغداديون لعب بأهل سجستان ، ثم فتحوا فتحا اكتروه بستة دنانير ليكتبوا له النسخة فكتبت وجىء بها فعرضت على الحفاظ نخطأونى فى ستة أحاديث ، منها ثلاثة رويتها كما سمعت . وقال الحافظ أبو على النيسابورى : سمعت ابن أبى داود يقول : حدثت بأصبهان من حفظى بستة وثلاثين ألف حديث ألزمونى الوهم فى سبعة أحاديث ، فلما رجعت وجدت فى كتابى خمسة منها على ماحدثتهم . قال صالح بن احمد : الحافظ أبوبكر بن أبى داود إمام العراق ، كان فى وقته فى بغداد مشايخ أسند منه ولم يبلغوا فى الآلة والاتقان ما بلغ . وقال ابن شاهين : أملى علينا أبو بكر

سنين وما رأيت بيده كتابا وبعد ما عمى كان ابنه أبو معمر يقعد تحته بدرجة وبيده كتاب فيقول له : حديث كذا ، فيقول من حفظه حتى يأتي على المجلس . ولقد قام أبو تمام الزينبي فقال له : لله درك ما رأيت مثلك إلا أن يكون ابراهيم الحربي . فقال أبو بكر : كل ما كان يحفظ ابراهيم فأنا أحفظه وأنا أعرف الطب والنجوم وما كان يعرفها ، رواها أبوذر عن ابن شاهين : أخبرنا أبو المعاني القرافي أنبأنا أكمل بن أبي الأزهر أنبأنا سعيد ابن التيا (كذا) أنبأنا محمد بن محمد الهاشمي أنبأنا محمد بن عمر الوراق من أصله حدثنا عبد الله بن أبي داود وحدثنا عيسى بن حماد حدثنا الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة » . أخرجه مسلم والنسائي عن قتيبة عن الليث .

مات أبو بكر في آخر سنة ٣١٦ هـ وصلى عليه زهاء ثلثمائة ألف نفس ، وصلوا عليه ثمانين مرة ، وخلف ثمانية أولاد ، وما ذكرته إلا لأنزهه اه الذهبي

حسن حسين

وجوب اقامة حدود الله

قال الله تعالى : « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »

وروى أبو داود في مراسيله التي أخرجها في سننه عن مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقيموا الحدود في السفر والحضر على البعيد والقريب ولا تبالوا في الله لومة لائم » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حد يقام في الأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا »

وقد بين الحسن البصري رضى الله عنه الحكمة في ذلك فقال : « إن الله تعالى أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، وأنزل القصاص حياة لعباده ، فاقتصوا وحدوا ولا تخافوا في الله لومة لائم ، ولا يحل لأحد أن يشفع في إسقاط حد من حدود الله تعالى ، ولا يجوز للمشفوع اليه أن يشفع فيه لما روى عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله تعالى » .

وهذا لا ينفي درء الحدود بالشبهات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » . وقال عمر رضى الله عنه : « أوقفوا الحدود ما وجدتم موقفا ؛ ولأن يخطىء الامام في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة ، فاذا وجدتم مخرجا للمسلم فادرءوا عنه الحدود » .

الاخلاق الفلسفية

— ١١ —

الوراثة

الوراثة هى عبارة عن انتقال من السلف الى الخلف ، وقد يكون هذا المنتقل معنويا وقد يكون ماديا . ولما كان للماديات على المعنويات فى كثير من الأحوال آثار بضرورة المجاورة لا تنكر ، فقد رأينا أن لا نهمل التكلم هنا على الموروثات المادية مع أننا بصدد وراثة الأخلاق ، لأن هذه الأخيرة متأثرة بقوى أخرى كامنة فى النفس ، وهذه القوى منها ما يخضع للعالم المعنوى ، ومنها ما ينقاد للشهوات المادية .

وإذا كان الأمر كذلك فقد وجب علينا أن نعير الموروث من الماديات شيئا من الاهتمام ، ولكن قبل أن ندخل فى تفاصيل الوراثة يجب علينا أن نعترف صراحة بأن قوانين الوراثة لا تزال لدى جميع العلماء المشتغلين بهذه البحوث غامضة مضطربة ، يحوطها الظن ويشملها الوهم والتكهن اللذان لا يغنيان من الحق شيئا . فاذا كان العلماء قد أجمعوا على أن هناك شيئا اسمه الوراثة وآمنوا بأن بعض ما عندنا كان عند آبائنا ، وأن كثيرا مما كان فى أسلافنا قد انتقل إلينا ، إلا أنهم قد اختلفوا وتضاربت آراءهم ، بل وقفوا موقف الحيرة والارتباك فى تحديد ما يورث وما لا يورث ، وتبيين ما ينتقل بقلة وما ينتقل بكثرة ، وتعليل اختلاف الفرعين الصنوين اللذين نبتا من أصل واحد ، ولماذا يرث أحد التوأمين عن جده الأعلى ، والثانى عن الأدنى ؟ ثم لماذا ترث البنت عن أبيها أو جدها لأبيها ، ويرث الولد عن أمه أو جدته لأمه ؟ وما السبب فى أن يرث أحد الأشقاء فى أسرة من الأسر الشجاعة عن أبيه ويختص بها وحده دون إخوته الجبناء ، ويرث الثانى الكرم دون بقية أشقائه البخلاء ؟ وفى أسرة أخرى نشاهد أن كل واحد من الأبناء يأخذ بنصيب ولو ضئيلا من كل صفات أبيه ، ثم ما هو السر فى أن بعض الصفات يظهر فى الابن المباشر ، والبعض الآخر لا يظهر إلا بعد أجيال ؟

وفوق ذلك فقد اختلفوا فيما إذا كانت الوراثة تغلب البيئة أو البيئة تغلب الوراثة . وأصحاب الرأى الأخير قد تباينوا أيضا فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى أن البيئة مهما قويت لا تستطيع أن تمحو مظاهر الوراثة وآثارها . وقال آخر : إنها تستطيع أن تخفت صوتها على ممر الأجيال إخفاتا نهائيا . وقال فريق ثالث : إن البيئة الملائمة هى الوسيلة الوحيدة لإبراز آثار الوراثة ، كما أن البيئة المخالفة تحول بين الوراثة وبين الظهور على مسرح الحياة العلمية .

أقول : إن العلماء قد اختلفوا فى كل هـذا وتباينت مذاهبهم تباينا يحول بيننا وبين إبداء الرأى اليقينى فى الوراثة ونتائجها ، وإن كنا لا نشك لحظة فى أنها موجودة ومحققة . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » . وقيل أيضا : « الولد سر أبيه » . وقالت الحكمة : «كادت المرأة أن تلد أخاها» . وإنى لمعجب كل الإعجاب بعبارة : « دساس » فى الحديث الشريف ، لأنها تبين بدقتها مقدار مافى الوراثة من خفاء وإبهام قد يكونان من أسرار الطبيعة التى استأثر الله بعلمها .

المـوروثات :

تنقسم الموروثات المنتقلة من الآباء الى الأبناء الى قسمين : مادى ومعنوى . فأما المادى فهو جـراثيم الأمراض وكرات الصحة التى يتركب منها الدم ، ومتانة الأعصاب وضعفها ، وضخامة الجسم وضآلتـه ، والقصر والطول واللون وتقاطيع الوجه وتناسب الأعضاء وتنافرها . وأما المعنويات ، فهى : الذكاء ودقة التفكير وسرعة الملاحظة وأضدادها ، وكقوة الارادة وضعفها . وقد قسم بعض الأخلاقيين الموروثات الى خصائص حيوانية ، وخصائص إنسانية ، وخصائص محلية ، وخصائص عائلية . فأما الخصائص الحيوانية فهى كغريزتى حفظ الذات والنوع . وأما الخصائص الانسانية فهى كالارادة والتفكير ونحو ذلك . وأما الخصائص المحلية فهى التقاليد الخاصة بـكل شعب لا تتعداه الى غـيره . وأما الخصائص العائلية ، فهى صفات الأبوين أو الأجداد من السلسلتين . ولقد أجمع علماء الأخلاق على أن هذه الموروثات لهـا أثر قل أو أكثر على الأخـلاق . وقال فريق من أولئك العلماء : إن الأخـلاق نفسها تورث . وقال فريق آخر : إن العوامل المؤثرة فى الأخلاق هى التى تورث ، وأما الأخـلاق ذاتها فهى تتكون مستقلة عند كل فرد ، وأنها تتأثر بالبيئات تأثرا فرديا . فبقدر ما يـكون العامل الموروث قويا ، وبقدر ما تـكون البيئة صالحة لنمو هذا العامل ، يكون الخلق ظاهر التأثر بهذا الموروث .

ولقد قال جمع آخر من الأخلاقيين : إن الصفات والأخلاق والخصائص لا تورث ، وإنما الذى يورث هو استعدادات لهذه الصفات ولتلك الخصائص ، وهذا هو ما يسمى بالصلاحية . وإذا آمنا بهذا المبدأ استطعنا بسهولة ويسر أن نتبين سر تغلب البيئة ، لأن تغلبها على الصلاحية أقرب الى الذهن من تغلبها على الشىء الموجود بالفعل . وهنا نستطيع أن نفهم معنى الحديث الشريف القائل : « وإنمـا أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ونستطيع كذلك أن نعلن سطحية بعض الأخلاقيين المحدثين من المصريين القائلين : إن القدماء كانوا يعتقدون

أن الطفل يولد صحيفة بيضاء ينقش فيها أبواه ما يشاءان من صفات وأخلاق ، وإن العلم الحديث قد أثبت عكس هذه النظرية (١) .

ولا ريب أن مؤلف هذا الكتاب يقصد من قوله : (القدماء) الحديث النبوى ومن تأثروا به من مربى المسلمين كالإمام الغزالى وأضرابه . ونحن نستطيع أن نعلن فى صراحة — مع غض النظر عن العاطفة الدينية — أن فى هذا الرأى من السطحية والتقليد بلا تثبت ما لا يخفى على الباحث الدقيق ، لأن هذا الرأى الذى سقناه آنفا ، وهو رأى الاقتصار على وراثة الاستعدادات دون وراثة الأخلاق نفسها هو من الآراء المحترمة فى أوربا ، فكيف تزعم يا هذا أن العلم الحديث هدم نظرية الحديث النبوى ؟ ! « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

البيئة :

تنقسم البيئة الى قسمين : طبيعية وهى شاملة لجميع الكائنات الحية ، إذ هى عبارة عن المؤثرات الطبيعية التى يحيا فيها الكائن الحى كالأرض وما عليها من نبات أوما فيها من جدب وإقفار ، وكالمناخ وما يكتنفه من حرارة وبرودة ورطوبة وأمثال ذلك .

واجتماعية وهى خاصة بالانسان ، لأنها هيئة مدنية مؤلفة من بنى البشر تأليفا اضطراريا . وقد تكون فى البيت وفى المدرسة وفى المصنع والمتجر ، وفى الطرقات والمتنزهات . والبيئة بقسميها مؤثرة على الوراثة إذا اتبعنا الرأى الأول ، ومبرزة نتيجة الاستعداد الى حيز الوجود إذا قلنا بالرأى الثانى . وعلى أى الأحوال إننا نلاحظ أن تأثر النبات والحيوان بالموروث أكثر من تأثر الانسان به . وعلة ذلك واضحة وهى أن النبات والحيوان تتمتع فيهما الوراثة بحرية أكثر من الموجودة فى الانسان ، لأن الوراثة فى الحيوان والنبات لا تضايقها إلا بيئة واحدة ، وهى الطبيعة . أما فى الانسان فتضايقها بيئتان : الطبيعية والاجتماعية . ولهذا فتأثير الوراثة فى الانسان أضعف منه فى باقى الكائنات الحية .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر كتاب الأخلاق للأستاذ احمد أمين صفحة ٨

تاريخ التصوف الاسلامى

وتأثره بالفلسفة

نشأة كلمة صوفى :

اختلفت آراء الباحثين فى هذه الكلمة ، وتناقضت فيها ثمرات التأمل ؛ فمن قائل فى تخريجها : إنها من الصفاء أو الصفو ، وقال أبو الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وذهب آخرون الى أن الكلمة منسوبة الى الصُّفّة ، وهى الناحية المسقوفة من المسجد ، وكان قد أوى إليها فى أول الاسلام جماعة من فقراء المهاجرين لا مساكن لهم ، فكانوا يعبدون الله فيها ، ويخرجون للجهاد مع النبى صلى الله عليه وسلم عند الحاجة . كان عددهم سبعين ، وقد يزيدون وينقصون أحيانا ، فلما ولى عمر الخلافة أخرجهم من المسجد وأمرهم أن يحترفوا ويعملوا ، محتجا بأن الله قد وسع على المسلمين ، وأصبح الجاد فيهم يجد فوق ما يكفيه .

وقيل إن كلمة الصوفى نسبة الى الصف الأول ، لأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة . وقيل فى نسبتهم الى صوفة القفا أى ما يتدلى فى نقرة القفا من شعر يرسلونه متلبدا مشعثا كالصوف .

ويذهب أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ سنة ٩٨٨ م صاحب كتاب اللمع (الذى طبع فى مطبعة بريل فى ليدن سنة ١٩١٤ وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه نيكلسون الانجليزى) « أن لبسة الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء ، فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما » . وقد وافقه على هذا الرأى الأستاذ ندلكه .

ويقول فى موضع آخر من الكتاب : « أما قول القائل إن الصوفية اسم محدث أحدثه البغداديون فحال ، لأنه فى وقت الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ كان يعرف هذا الاسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى » .

وقد جاء فى الرسالة للقشيرى مع شرحها لشيخ الاسلام زكريا الانصارى المتوفى سنة

٩٢٦ هـ ١٥١٩ م : «ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق كذلك ، لأن مصدر صفا، صفو، بتأخير حرف العلة عن الفاء ، والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو جامد كالقب» .

وجاء فى الكتاب الذى جمع أخبار مكة عن محمد بن اسحق بن يسار المتوفى سنة ١٥٠هـ :

إن مكة قد خلت قبل الاسلام فى وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف . فان صح ذلك دل على أن هذا الاسم كان يعرف قبل الاسلام ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح ، والله أعلم .

ويذهب بعض مؤرخى الاسلام فى معنى التصوف الى القول بأن أول من انفرد فى الاسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له صوفة ، واسمه الغوث بن مروان ابن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وسمى الغوث صوفة لأن أمه جعلت فى رأسه صوفة وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها ، وجاء أناس لمشابهتهم إياه فى الانقطاع الى الله فسموا بالصوفية ، وكانوا يخدمون الكعبة فى الجاهلية (راجع جلاء العينين) .

وقال أبو عبيدة : صوفة وصوفان يقال لكل رجل ولى من البيت شيئا من غير أهله أوقام بشىء من أمر المناسك .

وروى عن سفيان الثورى رحمه الله المتوفى سنة ١٦١ هـ أنه قال :

لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء (وقيل أبو هاشم هذا أول من سمى بالصوفى)

أما الأستاذ (لوى ماسنيون) فيقول فى كتابه مجموع نصوص لم يسبق نشرها متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام المطبوع سنة ١٩٢٩ بباريس عند كلامه على عَبَدك الصوفى المتوفى (٢١٠ هـ ـ ٨٢٥ م) إنه :

«صاحب عزلة ، بغدادى ، وهو أول من لقب بالصوفى ، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة ، وعلى رهط من الثائرين بالاسكندرية ، وهو يعد من الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم» انتهى

والذى يقصده الأستاذ ماسينيون أن أول من سمى ببغداد بهذا الاسم هو عبدك الصوفى ، وكان قبل بشر بن الحارث الحافى المتوفى سنة ٢٢٧ والسرى بن المغلس السقطى المتوفى سنة ٢٥٣ هـ

ويقول فريق من العلماء : إن كلمة الصوفية دخيلة على الاسلام . فبرون الانجليزى يقول : إن أصل الكلمة فارسية من باشمينا بوش ومعناها لابسو الصوف . ويقول الدكتور ترومب الذى ترجم كتاب السيخيين : إن كلمة الصوفية دخيلة على الاسلام من الهند . ويقول صاحب كتاب اللمع : إن الصوفية كلمة جاهلية واسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

ويقول فريق من كتاب العصر الحديث : إن كلمة التصوف ليست عربية ولا فارسية ولاهندية وإنما هى كلمة يونانية مشتقة من صوفيا ومعناها الحكمة ، وهى كلمة متداولة بهذا المعنى بين اللغات الأوربية الى اليوم .

ماالذى تحمله هذه الكلمة من المعنى الاجمالى :

يقول ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان علم التصوف :

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ؛ وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة »

ويقول الشيخ الشعرانى فى كتاب الطبقات :

« إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة ، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء » .

وسأل سائل محمدبن على القصاب، وهو أستاذ الجنيد الصوفى الشهير، عن معنى الصوفية فقال:

« أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام »

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف ، فى معنى الصوفية : « إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله ، والصعود بالروح الى عالم التقديس باخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه ؛ وهذا قديم كقدم النزعة التى أوجدته ، فان الانسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سرا مكنونا ، فنشأ هذا المذهب ؛ وهو معروف فى الهند والصين منذ ألوف السنين ، وله عند الهنود أساليب شديدة على النفس » .

التصوف الإسلامى بدأ على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للاسلام ، فلو حظ على كثير من الصحابة ميلهم الى الزهد وإعراضهم عن الدنيا ، بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسموا باسم خاص ، ولم ينتسبوا الى طائفة معينة ، ولم تطلق كلمة الصوفية على جماعتهم إلا فى أواخر القرن الثانى للهجرة. وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويتزايد أنصاره الى أن ولّد بعض الأبحاث والنظريات ، والعلم نتيجة العمل ، لهذا رأينا رجالا من مفكرى القرن الثالث الهجرى وعلى رأسهم المحاسبى وذو النون المصرى يبدءون بوصف بعض الأحوال النفسية والظواهر الصوفية . ومن أقدم ما كتب فى هذا الباب نظرية الاتحاد التى ترجع الى عهد

متأخر ، فان أبا يزيد البسطامى أول من قال بها ، ثم جاء الجنيد والحلاج فرفعاها الى عنان السماء . وهذه النظرية أدق شىء فى التصوف الاسلامى ، وهى تنحصر فى أن الاتحاد الصوفى يؤدى الى الاشتراك فى ذات الله تعالى وحلول اللاهوت فى الناسوت ، وقبول شىء إلهى فى داخل العبد . وبالرغم من أن القرآن لا يشير الى هذه النظرية مطلقا بعبارة صريحة نرى أن أنصارها لم يعدموا الحيلة فى دعمها ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى نستطيع أن نذكر منها قوله تعالى : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » . « وهو معكم أينما كنتم » . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » .

وقوله عليه السلام فى الحديث القدسى :

« ما تقرب الىّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب الىّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » .

ولقد أحدثت نظرية الحلول خلافا بين المؤيدين لها والمخالفين لها من الأشاعرة الذين يقولون إن التصوف عبارة عن الأحوال النفسية والأخلاق العملية التى تسمو بالمرء الى درجة الكمال دون الوصول الى مذهب الحلول الذى قال به الحلاج .

وجاء على أعقاب الأشاعرة الغزالى فى كتاب الاحياء يرفض رفضا باتا نظرية الاتحاد الحلاجية ، فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم المرئيات والمحسوسات ، لأن هناك عالمين : عالم الباطن وعالم الظاهر ، فاذا كان بعض العلوم يتولى عالم الظاهر بالدراسة والشرح ، فلا بد من علم خاص لتوضيح عالم الباطن ، وهى المعرفة التى هى غاية التصوف السامية . أما اتحاد العبد مع الرب فهذه قضية منقوضة عقلا ، وغير مقبولة نقلا .

وإذا ما استعرضنا تصوف الفارابى نجد أنه يتفق ومذهب الامام الغزالى على رفض مذهب الحلول الذى ذهب اليه الحلاج .

عبد الحميد سامى بيومى

أحسن ما قيل فى العقل

قال الأصمعى : « لو صور العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار » .

وقال شاعر :

وأفضل قسم المرء لله عقله فليس من الخيرات شىء يقاربه
يزين الفتى فى الناس صحة عقله وإن كان محظورا عليه مكاسبه
وشين الفتى فى الناس قلة عقله وإن كرمت أخلاقه ومناسبه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

مولد محمد

صلى الله عليه وسلم

(١) من أمارات رقى الأمم ومساهمتها فى صرح الحضارة الصحيحة ، المؤذن بارتفاع مدارك الانسانية الحقة ، عرفان الجميل وشكران النعم والوفاء بالعهود ، لذلك ترى المهرجانات كل يوم فى الشرق والغرب يزداد نشاطها مشيدة بآثار العباقرة ، معطرة أرجاء الفضاء بأريج زهورهم العبقة . والتاريخ سجل خالد أمين يحفظ فى ثناياه الصحائف التى يخطها بمداد الأعمال لأبنائه ، وسطور تلك الصحائف تارة يحبوها الخير ويزينها النفع والفائدة للمجتمع ، فتستحيل الى نور يكسوه الجلال ، وتخلع عليه العظمة جلباب الكبرياء والوقار ، وتارة أخرى تنال تلك السطور مسحة من القار يظلها غيم الشقاء المتلبد من سوء الفعال ، فتستحيل الى حمة خالطها الغسق فأصبحت مفزعة ترتعد فرائص الانسانية من رؤيتها وسماع أخبارها ، مادة أكف الضراعة نحو بارئها ألا يبلوها بهؤلاء العتاة الذين تغيرت فيهم الطبائع فنزلوا عن مراتبهم من الاصلاح الى الافساد ، لحق عليهم المقت ولحقهم الدمار ، وقال الله تعالى فيهم : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »(١) . وقال تعالى : «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى ، أوَلم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون»(٢) . وقال تعالى : «ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أَسْوِرَةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخفّ قومَه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم أجمعين » (٣) .

(٢) من اليسير على الكاتب أن يصور المعانى المحدودة ويحدد الصفات المتناهية ، ولكن من العسير المتعذر بل من المستحيل عليه أن يعطى الصور الكاملة والماهيات الحقيقية لمن بلغ الغاية ووصل الذروة فى جميع الصفات الانسانية ؛ ومن هذا حاله وتلك كيفيته فللكاتب وجيه العذر إذا ما قدم تصويرا لبعض أجزاء تلك العظمة وبعض نواحى هذا الجلال . وليس يراع

---

(١) الاسراء : ١٦ (٢) القصص ٧٦ — ٧٨ (٣) الزخرف ٥١ — ٥٥

الكاتب بعجزه عن بلوغ تلك المنزلة بأشد عيبا من عجز عدسة المصور فى التقاط الصورة غير المتناهية الأطراف أمامها . من أجل هذا يصح لمثلى من الضعفاء بازاء ما يدركونه من خير محمد صلى الله عليه وسلم على بنى الانسان أن يصفوا آثاره ويعدوا بعض خصاله وفضائله مع اعتراف بالعجز . ومن عرف أن محمدا صلى الله عليه وسلم لحق والده بالدار الآخرة بعد شهرين من حمل أمه به ، وأن والده لم يترك له من حطام الدنيا سوى بعض أبعرة وبعض شياة ، ساورت نفسه الشفقة واستولى عليها العطف على ذلك الجنين الذى لحقه اليتم وهو لايزال مضغة فى ظلمات الأرحام ، لم ير الدنيا بعد ، ولم تنفخ فيه الروح ، ولم يدب فى عروقه دم الحياة . وليت الأمر وقف به عند هذا الحد بل لم يكد يشب عن الطوق بعد ميلاده حتى فقد حنان الأم قبل أن تنتهى طفولته ويقوى عوده ، وإذا بجده عبد المطلب يكفله ويضمه الى عياله ، ثم يرد مورد أبويه ويصير مصيرهما ، فيضحى محمد فى حضانة عمه أبى طالب يذهب به الى الشام ليعلمه التجارة تبعا لعادات أهله وعشيرته الذين يتكسبون الرزق من هذا الباب .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ناسجا على غير منوال ، فقد كان فريدا فى يتمه ، فريدا فى إرضاعه ، فريدا فى تعبده ، فريدا فى مرحه وجده . والعظمة والعبقرية إذا حلاّ قلب امرئ خلعا عنه ثوب التقليد والمحاكاة ، وألبساه ثوب التبصر والتقدير والتجديد ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، والأمور فى نصابها ، غير ناظر الى تقليد موروث أوقديم تواضع عليه الآباء . وهكذا نظر محمد صلى الله عليه وسلم الى الحياة واستقبلها بالعين المجردة حتى آتاه الله الحكمة ، قال تعالى : « يؤتِى الحكمة من يشاء ، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذّكر إلا أولو الألباب» (١) . وجعله الله رحمة ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وأرسل لكافة الناس بشيرا ونذيرا ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون » (٣)

لم تكن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مقصورة على إسعاد طائفة من الناس كغيره من الأنبياء الذين سبقوه ؛ ولم يكن نظره فى أفق محدود ؛ بل لقد نفذ بصره وبصيرته الى أفق العالم كله ، وعمل على إسعاده إسعادا يكفل له الرقى والحضارة فى هذه الحياة الدنيا والآخرة . فإذن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة شاقة للغاية ، تحتاج الى روح عالية تصل فى سموها وعلوها الى مقدار غايتها ونبالة مقصدها وعزيز مبتغاها . فمحمد الذى حمل على عاتقه هذا العبء الذى تنوء به شم الجبال ، ويثقل كاهل السموات والأرضين لو طلب منها حمله ، مضطر الى أن يضع أسامتينا ليبنى عليه القصر المشيد الذى تعيش فيه الانسانية وادعة هانئة آمنة مطمئنة ، وذلك الأس هو الاسلام الذى حدد أركانه ، ونظم عقدها فى خمسة ، حيث جاء على لسانه فى أول كتاب الإيمان

(١) البقرة ٢٦٩ (٢) الانبياء ١٠٧ (٣) سبأ ٢٨

من صحيح البخارى : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

هذا هو الاسلام الذى أراد محمد أن يشيد عليه صرح سعادة الانسانية . فهو يريد أن يرتفع بالعقل البشرى الى التوحيد الذى لاتشوبه وثنية ، ولا يخالجه عبادة الشجر والحجر واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى التى كان عبادها ينزلون الى الحضيض فى درجة تفكيرهم ، ويحبسون عقولهم عن التفكير فى مبدع هذا الكون الذى منحهم من النعم ما لا تستطيع معبوداتهم جميعها أن تمنحهم منها قليلا ولا كثيرا . قال تعالى : « يأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلُبْهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » (١) .

ولقد قرن محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بالله بالإيمان برسالته ، ثم طلب من المؤمنين إقامة الصلاة أيضا ترويضا لنفوسهم على الصبر فى تحمل المشاق وإظهار الشكر لمسدى النعمة بخضوع القلب وخشوع النفس ، ثم طلب من أغنياء المؤمنين إخراج بعض أموالهم لمواساة الفقراء إخوانهم فى الدين « إنما المؤمنون إخوة » . وجعل هذا المقدار الذى يدفعه الغنى لأخيه المحتاج صلة تطيب بها نفس الفقير ، فلا تثور نفسه ولايحترق قلبه حقدا على أهل الثراء . وهذا النظام الذى وضعه محمد صلى الله عليه وسلم من توزيع الأموال بهذه الكيفية هو الذى يدعونه اليوم بالاشتراكية المنظمة التى تحاول الأمم الراقية فى العصور المتحضرة أن تعالج بها طغيان الطبقات بعضها على بعض ، وحقن الدماء التى تجلبها الثورات العنيفة التى يقوم بها أهل الفاقة وأرباب العوز . وقد جعل من دلائل الأخوة فى الاسلام والتساوى بين المؤمنين وقوفهم فى أماكن معينة تجمعهم فيها مواسم الحج ، فيظهرون فى القيام بمناسكه بمظهر واحد ، يلبسون ملابسهم على هيئة واحدة ، يدعون الله تعالى بدعاء واحد ، متجهين بقلوبهم وأرواحهم الى رب واحد « رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سَمِيًّا » (٢) .

ثم هو لم يجعل اجتماعهم هذا خاليا عن النظر فى شئون سعادتهم والتفكير فى أمور حياتهم وجمع الكلمة على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم ، قال تعالى : « وأَذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير » (٣) .

وفكرة اجتماع المؤمنين بعضهم مع بعض للنظر فى أمورهم تارة جعلها الاسلام محلية فى الجمعة والعيدين ، وتارة أخرى جعلها عامة غير محلية ، وتشمل اجتماع المسلمين من جميع بقاع

(١) الحج ٧٣ — ٧٤ (٢) مريم ٦٥ (٣) الحج ٢٧ — ٢٨

الأرض فى مكان واحد فى كل عام لشهادة منافعهم ؛ وهذه هى فكرة الحج والغاية منه . وهذه الفكرة قد نزعت اليها الأمم المتحضرة ، فدعت الى المؤتمرات فى عواصم البلدان المتمدينة ، ولكنها على ما نظن لن تصل الى ما وصلت اليه فكرة الحج ، لأن فكرة الحج دعوتها عامة شاملة ، ودافعها وجدان قوى ووازع دينى ، فقلّ أن يختلف عن آدائها المسلمون بخلاف الثانية ، فانها لم تشترك فيها إلا الأمم ذوات المصالح الخاصة ، وكثيرا ماتحجم الدول عن المساهمة فى هذه المؤتمرات إذا لم تر لها مصلحة ولم تصل الى فائدة منها .

ولقد ختمت فريضة الصوم هذه الأركان ؛ وللصوم فى الطب الحديث فوائد جمة ومزايا متعددة لايستطيع مثلى أن يقوى على تحليلها . ويكفى أن نقول إن أطباء العصر الحديث يستعملون الصوم علاجا شافيا ودواء مفيدا لبعض الأمراض . فالصوم فوق إفادته للصحة فهو عماد الصبر وتحمل المشاق ، وفوق حمله للصائم عند لحوق العطش والجوع به على إطعام الفقير المحتاج ، فهو مقو للجسم ، منشط للأعصاب ، مجدد للقوة .

لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأسس التى فصلناها فيما سبق ، وكانت نفسه الطموحة الى إسعاد البشرية تبغى إخراج العالم كله من الظلمات الى النور ، ولكن الارادة الإلهية شاءت هداية البعض دون الجميع ، قال تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (١) وقال تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٢) .

لقد شاءت الارادة وكان ما شاءت من التفرقة بين أبناء الانسانية ، فلا بد من أن يدفع بعضهم بعضا ، ولابد من أن يقف كل قبيل يدافع عما ارتضاه لنفسه من العقيدة وما اطمأنت اليه ، فكان لزاما على محمد صلى الله عليه وسلم أن يضع الخطط الحازمة التى تصون لأتباعه عقائدهم ، وترتقى بهم الى مواطن العزة والكرامة . من أجل هذا ونحوه اشترع محمد الهجرة ، وحبذها الى أتباعه ، ليفروا بدينهم عند العجز عن امتشاق السيوف المواضى ، واتخاذ جميع الوسائل لرد اعتداء المعتدين. ولقد هاجر أصحابه الى الحبشة مرتين فى السنة الخامسة والسابعة من الهجرة . وكانت الهجرة محبذة للرجال والنساء على السواء . وإن شئت أن تقرأ ذلك فانظر ماقالته ليلى زوجة عامر بن أبى ربيعة إحدى المهاجرات لأرض الحبشة حينما استوت على ظهر بعيرها تريد الخروج الى الحبشة فاقترب منها عمر بن الخطاب قبل إسلامه وقال لها : الى أين يا أم عبدالله ؟ فقالت له : قد آذيتمونا فى ديننا ، نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى ! فهذه العبارة تعطينا الصور الواضحة لما كان يساور نفس هؤلاء المهاجرين ، وصدق إخلاصهم للعقيدة وتفانيهم فى سبيلها .

ولقد وضع من المبادىء التى تصون العقيدة شرعة الجهاد ، قال تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (١) . وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا

(١) القصص ٥٦ (٢) الكهف ٦ (٣) التحريم ٩

إذا لقيتم فئة فاثبُتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تَنازعوا فتَفشَلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » (١). وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون » (٢) .

هذه هى قواعد الحرب التى رسمها الله تعالى لنبيه محافظة على دينه ؛ ويقابل تلك القواعد قواعد السلم والأمان ، والمعاهدات ، الى غير ذلك مما يقصر مثل هذا المقام عن تبيانه وتوضيحه .

ولقد كانت الكرامة والعزة من أبرز صفات المؤمن التى تحبب إليه الغزو ولا تقبل منه معذرة الاقامة فى بلد تمتهن فيه كرامته ويستخف فيه بدينه . قال تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفوَ عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » (٣) .

فإذن الاسلام لا يسمح لأهله بالاقامة على الضيم ، ولا بالتغاضى عن الكرامة . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى تحبيب الجهاد لأهله من المؤمنين : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » . ويقول « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » .

ولو ذهبنا نعدد المبادىء الاسلامية لخرج بنا البحث عن تحرير مقال الى تحرير أسفار . ولكن مما تغص به النفس ويوقعها فى الهم والحزن ، أن تكون هذه المبادىء الاسلامية فى واد والمسلمون فى واد ، فيصبح المسلمون « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » فتتقاسمهم الأمم وتنقص أطراف أرضهم وتوزعها غنائم ، لم يوجف عليها العدو خيلا ولا ركابا . وهذه الحال المؤلمة قد أطلقت ألسنة أعداء الاسلام بالطعن فى مبادئه والتشكيك فيها : بأنها لو كانت مبادىء حقة لأعزت أهلها ورفعت شأنهم ، ولما أصبحوا أشتاتا مستضعفين فى مشارق الأرض ومغاربها . وقد فاتهم أن الاسلام عز لمن تمسك به ، وكرامة لمن نصره ، ونصر لمن جاهد من أجله ، قال تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤) .

وقد ولى المسلمون عن آيات ربهم وأعرضوا عنها فوكلهم الله الى أنفسهم ؛ ولقد شقى من ولى أمر نفسه قاطعا المدد بينه وبين ربه ، فأصبحت حياتهم ذليلة ، وأوطانهم مستضعفة ، وكرامتهم مضيعة ، فاللهم أسبغ على المسلمين إيمانا حقا وإسلاما صدقا ، وهيئ لهم من أمرهم رشدا !

عبد الله مصطفى المراغى
المحامى الشرعى بوزارة الأوقاف

---

(١) الانفال ٤٥ — ٤٦ (٢) الانفال ٦٠ (٣) النساء ٩٧ — ٩٩ (٤) آل عمران ١٦٠

مولد الحبيب

صلى الله عليه وسلم

ألقيت فى احتفال الأزهر بالمولد الشريف

طوّقوها قلائدا وعقودا واملؤها مواكبا وبنودا
أشرقت طلعة الحبيب ، فحيوا فى خشوع ، جلالها المودودا

***

ظل هذا الزمان نحسا ، فلما حان ميلاده ، تجلى سعودا
وأناف البيت العتيق على الشمـ ـس ، وأرخى من الفخار برودا
أقبل الرّوح والملائك يسعو ن ، سراعا ، يستقبلون الوليدا
وشدا الطير فى الجزيرة بشرا فاستهلت : تهائما ونجودا
ومشى الخوف فى المدائن فارتجـ ـم بناء ، كان المشيدَ الوطيدا
نبأة الحق أفزعت رابض البأ س ، فأمسى مروّعا رعديدا
دب فيما بنى الفناء سريعا حين وافى من سوف يبنى الخلودا

***

بسمة المولد الشريف أنارت عالما مظلما ، وأحيت وجودا
نفحة أنعش البوادى شذاها فاستحالت خمائلا وورودا
لفتَ العالمين منها رُواء لم يكن فى سمائها معهودا

***

أدرك الفيلُ بالغريزة معنى كان عند الفيّال معنى بعيدا
حاد ـ لما رأى الجلال ـ عن البيـ ـت ، ولولاه لم يكن ليحيدا
آية للوليد علّمت العجـ ـم ، فراحت تعظّم المولودا
لو تسنى لها شهود سناه لترامت على ثراه سجودا

***

يا أجـل الأنام ، مولدك الفـذ م ، أفاد الوجـود روحا جديدا
أعيت الفلسفـاتُ دون مـداه بعد ما أنضت القـوى والجهودا
فرّقتْ فى الحياة ، فاختلف النا س ، وأوليتَ قومك التوحيدا
شرعـة كلها السـداد ، ودين أنصف الناس : سيـدا ومسودا
خسـر الدينَ والحياةَ جميعا وطـن لم يعش بطـه سعيـدا

***

يانبيا جـرى بمـولده الـكو ن سرورا ، وبهجـة ونشيـدا
صدق العزم فى مديحك ، لـكن قل وُجدى ، فما أجدت قصيدا
لا تكلى الى قصورى ، وكن لى يوم تعطَى مقامك المحمـودا

عبد الجواد رمضان
بكلية اللغة العربية

آفة الانسان هواه

قال الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

وقال فيلسوف : « الملائـكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والانسان يجمع الـكل ابتلاء . فان غلب الروح والعقل على النفس والهوى فضل الملائـكة ، وإن غلب النفس والهوى فضلته البهائم . فالعاقـل من زاد عن مراتع الهوى نفسه ، وكفها عن شهوات تقرب اليه رمسه » .

وقال آخر : « الهوى خادع للألباب ، صارف عن الصـواب ، صاحبه أعمى مبصر ، أصم سميع » .

وقال أبو بكر بن دريد :

وآفة العقل الهوى فمن عـلا على هـواه عقـله فقد نجا

وقال غيره :

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد إذا اتبعت هواكا

وقال حكيم لولده : « اعص هواك وأطع من شئت » .

من عالم ما بعد الطبيعة

نشرنا فى العدد الماضى كتابا أرسله الأستاذ الايطالى (كيابارلى) الى زميله الأستاذ الكبير (سيزار لومبروزو) ، ذكر له فيه ما شاهده من الخوارق بوساطة امرأة أمية ودعاه ليرى ذلك بعينيه . وقد ارتاح القراء لهذا المقال لأنهم رأوا فيه دحضا عمليا لمزاعم الماديين من أن لا موجود غير المادة وقواها الطبيعية ، وأن كل ما يقال مما ينسب للروح أو لعالم الروح فأوهام لا حقيقة لها ، ورثها الناس عن الأقدمين جيلا فجيلا حتى ارتفعت الى درجة العقائد المتأصلة فى النفس البشرية . فاذا صح قول الماديين هذا بطلت جميع الأديان ، ولم يجد الداعون اليها وسيلة لاقناع النابتة التى تتلقى العلم عن هؤلاء الماديين ، ومتى ألحد الانسان فى الدين ، ويئس من خلوده فى دار بعد هذه الدار ، تغير معنى الحياة فى نظره ، ورمى الى تحطيم جميع القيود الأدبية التى قيد آباؤنا بها غرائزهم الشهوانية ، ليسلكوا فى حياتهم طريقة ترفعهم عن حضيض الحيوانية . هذا هو السبب فى تهافت كثير من أبناء هذا الجيل على المبادىء الاباحية ، واندفاعهم فى تيار الملاذ الجسدية .

هذه نتيجة طبيعية فانه ما دام الانسان لا يرى لوجوده الدنيوى غاية تعلو به عن الحياة الأرضية ، مال لاستيفاء جميع ملاذها ومتعها ، ويكون قصارى جهد من يدّعون الفضيلة أن لا يتجاوزوا حدود القانون منها ، والقانون الوضعى لا يعنى إلا بحفظ النظام الاجتماعى ، ولا يهمه ما وراء ذلك من مطالب الروح العلوية .

ولكن هيهات أن تقنع الروح البشرية من حياتها بهذه الحصة الحقيرة من الملاذ البدنية ، فهى لا تفتأ تطالب صاحبها برفع الحجب التى تحول بينها وبين عالمها ، فان قصر تنكرت له وبشمت من جميع المتع الجثمانية ، وكلما ظهر لها أن تلك الحجب غير قابلة للتحطيم ازدادت قلقا وحيرة ، وقضت أيامها بين هم ناصب ، وهلع من الفناء واصب ، حتى يودع الوجود على أسوأ ما يتصوره عاقل .

قضت الفاسفة المادية على أهلها بأن يدحضوا القول بوجود العالم الروحانى ، وأن ينشروا ذلك بين الناس ، فقضوا باليأس والشؤم على نفوس لاتحصى ، خدعها أنهم يمثلون العلم الرسمى ، وللعلم وبخاصة فى هذا العصر سلطان لا حد له على النفوس ، فأبى الله أن يطول على عباده أمد هذه المحنة ، فترتكس الانسانية الى الحيوانية الباحتة ، فحفز ألوفا من أقطاب العلم والفلسفة والأدب الى بحث ما تتناقله الألسن من الخوارق التى تظهر على أيدى بعض الأفذاذ ، فتبين لهم أن وراء هذه المادة عالما لاتنتهى عجائبه ، هو العالم الحق الثابت ، وما هذه العوالم المادية

إلا وجه من وجوهه ، ومظهر من مظاهره ، فكان حظ الروح من هذه البحوث لا يمكن تقديره ، ودحضت شبهة الماديين دحوضا لاقيام لها بعده ، كما سيتبينه القراء مما نكتبه فى هذا الصدد .

قرأ الأستاذ لومبروزو تحدى الأستاذ كيايا له فلم يرفع به رأسا ، ثقة منه أن هذه الخوارق لا تستحق البحث ، لقيامها على التزوير والتدليس وانخداع المشاهدين لها . ولكنه ما عتم أن حُبب إليه بحثها بعد ما آنس أن رجالا ممن لايشك فى رجاحة عقولهم ، قد محصوها وشهدوا بصحتها . فاجتمع ببعض إخوانه فى جلستين : أولاهما فى ٢٨ فبراير ، والثانية فى ٢ مارس من سنة ١٨٩١ ، فرأى بعد أخذه جميع التحوطات مالم يكن يتوقعه من الخوارق ، فلم يسعه إلا أن كتب لصديقه المسيو جيوفلى كاتب تقريرى تينك الجلستين ، كتابا يقر فيه بصحتهما ، وقد جاء فيه هـذه العبارة :

« إنى خجل كل الخجل ، ومتأسف من نفيى السابق بكل إصرار إمكان حدوث هـذه الأمور الروحية » .

ثم نشر الأستاذ (لومبروزو) تقريراً لما شاهده ، كتبه بقلمه إحقاقا للحق ، ولم يخش فيه لومة لائم ، افتتحه بقوله :

« كنت شديد الانكار للمذهب الروحانى بحيث لم يلحق شأوى فيه إلا قليل من العلماء . ولأجل التحقق من ذلك يكفى أن يطلع القارىء على كتابى (المجانين والشواذ) ، وعلى كتابى (بحوث فى النوم المغناطيسى) ، فقد استرسلت فيهما فى الانكار الى حد أن أوسعت الروحيين سبا .

الى أن قال :

« بما أنه قد اقترح علىّ أن أمحص حوادث تحدث بحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً هى مدام أوزابيا ، فقبلت هذا الاقتراح مرتاحا الى أن هـذا التمحيص سيكون بمساعدة رجال ممتازين فى الأمراض العقلية ، وهم تامبورينى وفيرجيليو ونيانكى وفيزيونى ، وقد كادوا يكونون مثلى فى التكذيب بصحة المسألة التى نحن بصددها ، وتوقعت منهم أكبر مساعدة لى فى مراقبة ما يحدث من الظواهر .

« اتخذنا قبل البدء فى التجارب أشد ما يستطاع من التحوطات . ولما فحصنا الوسيطة من ناحية علم الأمراض العقلية الحديث ، رأينا أن لديها قصورا فى التعقل ، واضطرابات هيستيرية وربما كانت صرعية ، وآثار جرح عميق فى العظم الجدارى الأيسر للرأس .

« وقد أبطلت أنا والدكتور تامبورينى حركة رجلىْ الوسيطة ويديها بواسطة أيدينا وأرجلنا ، وبدأنا تجاربنا وأتممناها تحت ضوء مصباح مسرج ، وكان أحدنا يشعل بغتة من آن لآخر عودا من الثقاب لمباغتة كل تدليس .

« أما الحـوادث التى شاهدناها والوسيطة على تلك الحالة فـكانت عجيبة : إذ استطعنا أن نشاهد فى الضـوء الساطع ارتفاع المنضدة وكراسينا أيضا . ووجـدنا أن القوة التى كانت تـكفى لإنزالها تعادل من خمسة الى ستة كيلو غرامات

وبناء على طلب أحد الحاضرين وهو المسيو جيوفلى ، الذى كان يعرف الوسيطة منذ زمن بعيد ، حدثت طرقات فى باطن المنضدة . هذه الطرقات كانت تجيب فى الوقت نفسه على المسائل التى توجه الى القوة التى تحدثها ، متعلقة بمعرفة أسنان الأشخاص الموجودين ، وما سيحدث وحدث من الأمور ، وذلك بفعل ما يدّعى أنه روح ميت .

« فلما أطفأنا المصباح ابتـدأنا نسمع طرقات شـديدة فى وسط المنضدة . وبعـد قليل من الزمن أخـذ جرس صـغير كان موضوعا على خِوان يبعد عن أوزابيا بأكثر من فتر ين فى الهـواء وعلى رءوس الجالسين ، ثم نزل واستقر على منضدتنا . وبعد هنيهة ذهب واستقر على سرير يبعد عن الوسيطة بنحو متر ين .

« وبينما كنا نسمع رنين الجرس بناء على طلب أحد الحاضرين كلفنا الدكتور اسنسى بأن يقوم ويقف خلف مدام أوزابيا ، وأن يشعل عودا من الثقاب ، ففعل واستطاع أن يرى الجرس معلقا فى الهواء ، ثم ذهب وسقط على السرير خلف الستار .

« وسمعنا بعد ذلك ، وكنا لا نزال فى الظلام ، أن منضدة تتحرك ، وذلك بينما يدا الوسيطة كانتا مقبوضا عليهما بشدة من الدكتور تامبوريني ومنى . وفى الوقت نفسه أحس الأستاذ فيزيولى بيد تجذب شاربيه وتخز ركبتيه ، وكانت تلك اليد صغيرة وباردة .

« وفى الوقت عينه أيضـا سحب الـكرسى الذى كنت جالسا عليـه أنا من تحتى ثم أعيد الى مكانه ثانية .

« وانتقل فجأة من مكانه بساط ثقيل لحجرة النوم كان على بعد أكثر من متر من الوسيطة ، كأنه مدفوع بتيار من الريح واتجه الىَّ مغطيا جسمى كله ، فحاولت أن أتخلص منه ولـكنى لم أستطع ذلك إلا بعد بذل عناء كبير .

« وشاهد بقية الحاضرين ألسنة صغيرة مصفرة من النار تتألق على بعد عشرة سنتيمترات فوق رأسى ورأس الدكتور تامبوريني .

« ولـكن الذى أدهشنى أكثر مما مر هو انتقال صحن مملوء دقيقا دون أن يسقط ما فيه ، كأنه استحال الى جيلاتين متماسك . وقد كان هذا الصحن موضوعا فى حجرة النوم على بعد أكثر من متر ونصف متر منا . وقد كانت الوسيطة قد فكرت فى تحريكه ولـكن على وجه آخر أى باثارة ما فيه على وجوهنا ، فقد قالت لنا وهى فى دور تشنجاتها : « خـذوا حذركم

فسألقى بالدقيق الموجود هنا على وجوهكم جميعا» . عند ذلك أسرجنا المصباح وفضضنا حلقة الاجتماع التى كنا عليها حول المنضدة فوجدنا صحن الدقيق قد انتقل من مكانه .

« وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجرة التى نحن فيها موجودة بعيدة عن حجرة النوم ، وعلى مسافة مترين منا ، تسعى نحونا ببطء كأن أحدا يحملها . فكان الناظر إليها وهى تتحرك يخيل إليه أنه يرى حيوانا كبيرا يتقدم إلينا .

« وقد كررت هذه التجارب أخيرا مع الأساتذة دواميسى وكيايا وفردينوا ، فرأيت فوق ما رأيته أن كرسيا قفز من الأرض الى سطح المنضدة ثم عاد الى مكانه الاول .

« وقد عملت تجارب مشابهة لهـذه بواسطة الدكاترة بارت وديفيوزا فكتبا لى بانهما شاهدا مرارا جرسا يدق وهو معلق فى الهواء دون أن يحركه أحد . وكان معها البنكير هيرشى فطلب أن يتكلم مع روح إنسانة كانت عزيزة عنده ، فرأى وجهها وكلمته بالفرنسية ، وقد كانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة ، وكذلك الدكتور بارث رأى أباه وعانقه هذا مرتين . وقد شاهد الجميع ألسنة صغيرة من اللهب فوق رأس الوسيطة مدام أوزابيا » (١)

هـذا ما كتبه الأستاذ الكبير لومبروزو بقلمه بعد أن كان من أشـد الناس إنـكارا للخوارق الروحية ، وقد انهمك بعد ذلك فى بحثها ووضع فيها كتابا حافلا بالتجارب اعترف فيه بأنه أصبح مؤمنا بوجود الروح وخلودها وإمكان الاتصال بها بواسطة وسيط .

ولـكنا لا نعنى هنـا بمسألة الاتصـال بأرواح الميتين ، فالذى يهمنا هو وجـود عالم روحانى أرقى من هذا العالم المادى ، وفيه كائنات عاقلة تحدث للمجربين خوارق عادات انحنت أمامها أرفع الرءوس العلمية فى هذا العصر . ومتى أثبتنا وجود هذا العالم فقد رفعنا من أمام الأديان أكبر عقبة وضعها الملحدون ، وقضينا على الفلسفة المادية قضاء أبديا .

وما طال لسان الفلسفة المادية ، وباهت بسلطانها على العقول ، حتى عقول كثير من رجال الدين ، إلا لأنها تحدت خصومها بالأدلة المحسوسة والمشاهدات ، فقالت كل معقول لا يؤيده دليل محسوس لا يمكن اعتباره صحيحا ، فان كنتم تزعمون أن وراء هذا العالم عالما فيه كائنات متجردة عن المادة ، ولو كائنات جنية ، فأتونا بدليل محسوس على وجودها . فهذه الخوارق التى من الله بها على الناس فى هذا العصر ، على الأسلوب العلمى نفسه ، هى الأدلة المحسوسة التى تتحدى الفلسفة المادية خصومها بطلبها .

محمد فريد وجدى

(١) معـرب من كتاب استخراج الحس الانسانى للعـلامة الرياضى البير دوروشا الطبعة الرابعـة .
L’extériorisation de la sensibilité. Par Albert de Rochas .

الفلسفة الشرقية

شرع حضرة الأستاذ الألمعى الدكتور محمد غلاب أحد محررى هذه المجلة فى طبع بحوثه الفلسفية، وهى تقع فى ثلاثة مجلدات. وقد تم طبع المجلد الأول منها، فرأينا أن ننقل المقدمة الفلسفية الممتعة التى افتتح بها تلك البحوث، فقد أوجزت من تعريف الفلسفة وفوائد دراستها والفلسفة الشرقية واطراد تقدم الفكر البشرى مالا يمكن أن يستخلصه المستفيد إلا بعد مطالعات تستغرق سنين طوالا. فنشكر لحضرة المؤلف دراساته المدققة وجهوده الموفقة، راجين له دوام الانتاج على هذا الأسلوب القيم، والتمحيص الحكيم. قال وفقه الله:

سنحاول فى هذا الكتاب دراسة النظر الإنسانى وما مر به من تطورات قبل أن يطلق عليه ذلك الاصطلاح الفنى وهو كلمة « فلسفة » التى سندرس فى كتاب « الفلسفة الاغريقية » معناها ونشأتها، وما تعاقب عليها من تعريفات مختلفة، وما عولج فيها من موضوعات متباينة، وذلك لأن تفكير الشرق القديم ليس متفقا على تسميته فلسفة بين العلماء والباحثين بسبب استمداد ما فيه من آراء عقلية من التعاليم الدينية، وإن كان كثير من أولئك العلماء يرون وجوب تسمية النظر الشرقى فلسفة، لأن هذا الاستمداد من الدين لا يفقده قيمته. وسندهم فى هذا أن خصومهم فى الرأى لم ينكروا اسم فلسفة على منتجات فلاسفة أوربا فى القرون الوسطى التى أسس أو استمد كثير منها من تعاليم الكنيسة المسيحية.

وسواء أصح الرأى الاول أم الثانى فان لهذا النظر الشرقى تاريخا يمكن أن نحده، كما نحد تاريخ كل فلسفة، بما يلى:

تعريف تاريخ الفلسفة:

هو دراسة المذاهب الفلسفية المختلفة وما طرأ على نظرياتها من تطورات، دراسة نقد وتمحيص، مؤسسة على ملاحظة ما عسى أن يكون للزمن أو للبيئة أو للمزاج أو للعبقرية أو للثقافة من تأثير خاص عليها.

من ذلك التعريف المتقدم يتضح جيدا أن دراسة تاريخ الفلسفة هى دراسة للفلسفة نفسها، وأنها بهذا تختلف عن دراسة تواريخ جميع العلوم الأخرى.

كيفية البحث الصحيح:

غير أن الدراسة التى من هذا النوع لا تتيسر إلا إذا شعر الباحث الذى يحاول استخلاص

إحدى الحقائق من حوادث التاريخ المتراكمة المعقدة ، بأنه يجب عليه أن يبسط أمام عقله مشاكل تلك الحوادث مشكلة إثر مشكلة ، وأن يستعرض حلولها التي قام بها القدماء حلا بعد حل ، ثم يتأمل في هذه الحلول تأملا دقيقا وفي حياد تام ، فإذا ارتضى أحدها ، ولكنه رأى أن براهينه غير مقنعة ، لضعفها أو لظلمتها ، وجب عليه أن يقوم بجهوده في إتمام ما كان سلفه قد بدأه حتى يصبح حلقة مكملة لسلسلة الحياة الفكرية ؛ وإن لم يرتض تلك الحلول جميعها حاول أن ينشئ حلا جديدا لتلك المشكلة ؛ وفي هذه الحالة يصبح رأيه مدرسة جديدة ، لها سلسلة خاصة أو حلقة بارزة من سلسلة التفكير العام . فإذا فرغ الباحث من النظر في هذه الحلول ، وجب عليه أن يقسم تلك المشاكل الى فصائل وطبقات ثم يوازن بين تلك الفصائل من ناحية وبين جزئيات كل فصيلة منها من ناحية أخرى ، كي يصل من وراء هذه الموازنة الى بعض الحقائق المنشودة . وهذا هو الذي قام به الفلاسفة والعلماء الباحثون في تاريخ الفلسفة ، إذ بدءوا جهودهم ببسط مشاكل الكون ، وأخذ البعض منهم يحلها ، وجعل البعض الآخر يستعرض ما تقدمه من حلول ، ليقول فيه كلمته بعد النقد والتمحيص .

من هذا النهج الذي رسمناه لك تستطيع أن تستخلص أنه لا بد للبحث القيم المحترم من أمرين ضروريين : أحدهما ترتيب المقدمات ترتيبا طبيعيا خاليا من الخطأ والتهويش . والثاني : التنزه التام عن الأغراض والأهواء .

فوائد دراسته :

أما أهم الفوائد التي تعود علينا من دراسة تاريخ الفلسفة ، فنستطيع أن نوجزها فيما يلي :

(١) خلق روح النقد عندنا بهيئة قوية لا تتيسر في أية مادة أخرى ، إذ من الحقائق التي لا تقبل الجدل أن روح النقد الحر الصحيح لا توجد في أي مجال آخر وجودها في الفلسفة .

(٢) تشبع نفوسنا بحب الحقيقة التي نشاهد ، بعد استعراضنا تاريخ الفلسفة ، أنها هي الكائن الأسمى لدى كل عقل ، المحبوب من كل قلب ، ولولا ذلك لما كد جميع الفلاسفة العظماء ، والمفكرين الأفذاذ ، قرائحهم ، وأضنوا عقولهم في البحث عنها والجرى وراءها كل هذه القرون الطويلة .

هذا كله من الناحية العلمية البحتة . وهناك ثمرة أخرى عملية ، وهي تشبعنا بحب الخير والفضيلة ، والتضحية والسمو ، الى غير ذلك من الصفات النبيلة التي ندرسها في تاريخ الفلسفة ملموسة في أخلاق أولئك الفلاسفة ، فنقتدى بهم في حياتنا العملية .

أهمية دراسة النظر الشرقي :

ولما كان مهد هذا النظر العقلي هو الشرق القديم ، فقد وجب علينا أن نتعقبه في مواطن

نشأته ونموه ، لتتيسر لنا متابعته فى شبابه ونضوجه ، ولـكن كثيرا من العلماء المحـدثين يرون أن بحثا من هذا النوع يكون من العسر بموضع إن لم يكن متعذرا ، لسببين :

الأول : أن فكرة بدء الخلق فى الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة ، وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة فى الشرق شىء واحد . ولهذا لم يعرف التاريخ نظرية فلسفية ظهرت فى الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الاغريق . وهـذا هو الباعث الأول الذى قلل من اهمية دراسة الفلسفة الشرقية فى نظر علماء العصور الحديثة ، وحط من قيمتها عندهم .

الثانى : أن المصادر التى وصلت الينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لا تكفى لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصى الذى لا يرضى من المشكلة بأقل من الإحاطة بجميع نواحيها .

لهذين السببين تعوّد أكثر العلماء أن يبدءوا بحـوثهم عن الفـكر البشرى بالفلسفة الاغريقية ؛ وإذا عنى أحدهم بدراسة الحياة العقلية فى الشرق القديم ، درسها على أنها ديانات لا مذاهب فـكرية .

أما نحن فسنعالج هنا دراسة النظر العقلى بين هذه المنتجات الشرقية ، ولن تعوقنا العقبة الأولى ، لأننا سنحاول فصل المذاهب والآراء العقلية من الدين بقدر المستطاع ، ولن تمنعنا الثانية ، وهى ندرة المصادر ، إذ أن ما لدينا منها يمكننا من الإلمام بها الى الحد الـكافى .

نعم : إن المستشرقين ليس لديهم فى الفلسفة الشرقية بحوث شاملة تجعلها وحدة متماسكة ، ولـكن لبعضهم بحوث متفرقة تناول كل بحث منها ديانة شعب من هذه الشعوب على حدة ، وذلك مثل الـكتب الآتية :

(١) مؤلفات المستمصرين : كالأساتذة : «ماسبيرو» و «لوريه» و«موريه» و«بريستيد» و « بترى » و « يلـكنسون » و « ريدير » وأمثالهم .

(٢) مؤلفات المستهندين : كـ « أولترامار » و « ماسون أورسيل » .

(٣) مؤلفات المستصينين : كـ « زانـكير » .

(٤) مؤلفات المستعبرين : كـ « مانك » و « توسان » .

(٥) مؤلفات المستفرسين : كـ « جاكسون » و « مولتون » .

وهذا كله عدا البحوث المتفرقة التى كتبها المستشرقون فى معرض ما كتبوا عن الشرق .

وإذاً ، فأنت ترى أننا سنتخطى هاتين العقبتين اللتين حالتا بين كثير من الباحثين وبين مزاولة هذا البحث الذى نرمى من ورائه الى غاية هامة ، وهى إثبات أن الفكر البشرى سلسلة متصلة الحلقات لم يحل بين تأثير السابق منها فى اللاحق بُعدُ الزمان ، ولا شقة المـكان .

هل للفلسفة الشرقية أثر على الفلسفة الاغريقية ؟

ولكن هذه الغاية لا تتحقق لنا إلا بعد حل تلك المشكلة العويصة التى تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ ، والتى لم يهتدوا الى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيارَ الاعتراضات من الجهات المعارضة ، وإذ كانت بحوث المستشرقين والمستمصرين فى العصر الحديث قد وصلت الى ترجيح إحدى كفتى الميزان فى هذه الفكرة الخطيرة التى يترتب عليها اتجاه الحكم على الاغريق وعلى الشعوب الشرقية القديمة الى ناحية غير التى كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث . تلك المشكلة هى : هل الفلسفة الاغريقية ابتدعت فى يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ، أو هى تراث شرقى نظمه الاغريق ؟

قرر « أرسطو » أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى فى تاريخ العقلية البشرية فى تلك المستعمرة اليونانية التى تدعى « إيونيا » والتى سبق أن أسسها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا فى عصور ما قبل التاريخ الى آسيا الصغرى ، وأسسوا بها تلك المدن التى لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسى والأدبى ، فأفسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقى الجبار ، وحلوا عقاله الذى كان قد أمسكه فى آسيا عن الصولان فى عصور ما قبل الاستعمار الجديد . وأول من بدأت العقلية القديمة تتمثل فيه هو « تاليس المليتى » أول فيلسوف فى الدنيا . وإذاً ، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر ، وهى لا تصعد ، فى رأى أرسطو ، الى ما وراء القرن السادس قبل المسيح . ولكن « ديوجين لا إرس » المؤرخ الاغريقى الشهير الذى عاش فى القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا فى كتابه « حياة الفلاسفة » عن فلسفة المصريين والفرس فى العصور الغابرة حديثا يثبت أن الشرق قد سبق الغرب الى النظر العقلى ، وأنه كان أستاذه وملهمه .

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين ، ففريق يسلك منهج « أرسطو » فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل فى هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات فى شرح الفلسفة الاغريقية وتوجيهها . أما فى العصور الأثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحى ، ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية ، بل إنهم نسبوا كل شىء عندهم الى السماء حتى تلك المنتثرات الأخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة فى حكم مقتضبة . ويتخذون دليلا على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجداب الفلسفة فى الشرق كل هذا الوقت الطويل الذى تلا العصور الأثرية ، ويقولون : إنه لو كان للشرق فلسفة ، لشملها ناموس التقدم ، ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث فى بلاد

الإغريق . ومن أشهر أصحاب هذا الرأى فى العصور الأخيرة « بارتلمى سانت ـ هلير » الذى يقول فى مقدمة ترجمته لـ « الكون والفساد » ما نصه :

« أما من وجهة الفلسفة الشرقية ، فاننا لا نعرف ، بل ربما لن نعرف أبدا ، من أمرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها ، فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدراكنا ، مدعاة للشكوك ، لما يغشاها من كثيف الظلمات ، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافى لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا فى الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيرا . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا مع التسليم بأنها تقدمتها فى الهند وفى الصين ، وفى فارس وفى مصر ، فإننا لم نستعر منها كثيرا ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (١) » ثم قال : « ولقد تصديت فوق ذلك لتبيين أن العقلية الإغريقية هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها . فإذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئا من العلم ، فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الإبهام . لامراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة ، أو فى العلم بعبارة أعم ، ليسوا شيئا مذكوراً فى جانب الإغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم » (٢) . وقال أيضا : « وإن العلم على جميع صوره كان معدوما فى الشرق ، فاخترعه الإغريق ونقلوه إلينا » (٣) .

ولهذا الرأى مقلدون (٤) وأذناب مقلدين (٥) فى مصر كما هى الحال فى كل فكرة تطعن على الشرق .

هناك فريق آخر يذهب الى مانقله « لا إرس » من أن الفلسفة الإغريقية ليست إلا تراثا شرقيا متغلغلا فى القدم ، ويستندون فى هذا الى براهين أهمها ما يأتى :

(١) إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة فى التقدم بسهم نفاذة كمدنيتى مصر والعراق مثلا ، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الإغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الإغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو : الماء ، بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التى تصرح بأن كل شىء فى الكون منشؤه الماء ، إذ جاء فى مطلعها ما ترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد قد فازت باسمها ، ولم تكن الأرض هى الأخرى

---

(١) راجع مقدمة «الكون والفساد» لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفى السيد باشا صفحة ٢ (٢) انظر صفصة ١٠٤ من مقدمة كتاب « الكون والفساد » لارسطو . (٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة . (٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك . (٥) انظر قصة الفلسفة اليونانية للشيخ أحمد أمين

قد تسمت بهذا الاسم ، كان أبوها « أبسو » وأمها « تياما » (وهما : الماء) أو جوهر كل شيء ممتزجين امتزاجا تاما قصد التناسل والاخصاب (١) » .

فإذا لاحظنا أن الأنشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بعهد بعيد ، وأن سيادتها في القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ما يكون قوة وتغلغلا في النفوس ، ولاحظنا الصلات الاجتماعية والتجارية في ذلك العصر بين العراق و « إيونيا » استطعنا أن نرجح في سهولة ويسر كفة تأثر « تاليس » بتلك الأنشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا أن نجزم بأن من المستحيل أن يكون « تاليس » قد ابتدع نظريته في أصل الكون .

(٢) إن العلماء المشتغلين بالبحث في الإنسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقي ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

(٣) إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى في الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

(٤) إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الأهرام في بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطا بعيدة . وفي هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب ، مثل الدكتور طه حسين وأمثاله من جاحدي علم الشرق وفضله جحودا لا يستند الى التاريخ أو الى البحث العلمي (٢) .

(٥) هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية الى ما وصلت إليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأي يستأنسون بها مثل رحلة « تاليس » الى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق « أرسطو » في المدارس الهندية السابقة لعصره ، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد في المدارس الهندية كذلك ، أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك مما يسند هذا الرأي الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة الاغريقية العظيمة إنما هي وليدة الأساطير الشرقية أو هي تطور الوثنية الشرقية على حد تعبير « أوجست كونت » فقد وجب على كل باحث في الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه من جهة ، ولكي يصل أوائل حلقات السلسلة العقلية بأواخرها من جهة ثانية . (يتبع)

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « بريهيه » (٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك .

نظام الوقف فى الاسلام

بينا فيما سبق أن الوقف لازم فى رأى الصاحبين خلافا لأبى حنيفة ، فلا يجوز بيعه أو رهنه أو هبته أو الوصية بشطر منه ، ولا يجوز أن يجرى عليه تصرف من التصرفات الناقلة للملكية ، لأنه حبس عين اشترط معه أن ينتهى الى جهة بر لا تنقطع ، فهو تصرف أبدى الوجود دائب الإنتاج مستفيض النفع لنوع من بنى البشر ، فكان خليقا ألا تدرس آثاره وتعفى دياره .

لكن المتأخرين من الفقهاء أباحوا بيع الوقف فى حالات كثيرة حفزت اليها ضرورات ملحة وتجلت فيها مصلحة الوقف . فإذا تبين أن عينا من أعيان الوقف لا تغل على المستحقين غلة تتناسب مع مقدارها القيمى جاز للناظر بيع هذه العين واستبدالها بعين أخرى أكثر غلة وأفضل ريعا ، وهذا لا يكون إلا بعد أن يجيزه القاضى . وقد جرى العرف فى المحاكم الشرعية على أن الخبراء المعماريين المتصلين بالمحاكم هم الذين يقدرون كل عين على حدتها ويوازنون بين مصلحة البدل والمبدل منه ولهم الرأى الأعلى فى هذا الوزن ، وللقاضى أن يأخذ به ، كما أن له أن يشرك معهم خبراء من ناحية المستبدل ليبدو الرأى بالتضامن متضافرا على المصلحة المشتركة .

ويجوز بيع الوقف إذا استغرقته ديون الدائنين ، كما إذا وقف الواقف عينا عليها دين مستغرق هربا من إيفاء الغريم حقه ، فللقاضى أن يحكم بنقض الوقف لتعود الى الواقف ملكيته تحقيقا لمعنى العدالة فى التصرفات الشرعية ، ليظفر الغرماء بديونهم ، ولتظل سنة التعامل فى الرهن والبيع والشراء قائمة بين الناس لا عوج فيها ولا أمتا . وهنا ينقل صاحب الأشباه والنظائر : أن العين المبيعة وهى موقوفة يقع بيعها باطلا ، فلا يجوز للمشترى أن يتصرف فيها تصرف الملكية ، بل ذهب علماء الفروع الى أن الوقف إذا بيع بغير مسوغ من المسوغات الشرعية كان البيع باطلا ، فلا يملكه المشترى إطلاقا ، بل يسترد منه بحكم القاضى ، ويرجع بالثمن على بائعه وليس له حبس الوقف بغية استيفائه الثمن ، فإن كان عقارا طالبه القاضى بأجر المثل فى المدة التى وضع فيها يده عليه سواء أعلم بوقفها أم لم يعلم ، وليس للقاضى أن يقبل تعلته بأنه انتفع بالعين على أنها مملوكة لأنه يعتبر فى تلك الحالة متأولا فى معنى الملكية ، كما يميل اليه صاحب الفتح القدير ، ضرورة أن الوقف يعمل فيه بما هو أنفع لجهة الموقوف عليه . وبدهى أن أخذ أجرة المثل أنفع لمصلحة الوقف من تركها .

ونقل ابن عابدين أن المشترى إن كان مغرورا رجع بالأجر على البائع أيضا ، وإلا رجع بالثمن

دون الأجر . وفرع العلماء على تلك القاعــدة فروعا شتى فقالوا إن كان فى عقــار الوقف المبيع بناء فهدمه المشترى أمره القاضى باعادته ، فان تعــذرت إعادته فنيا كان القاضى بالخيــار : فاما أن يضمّــن البائع قيمة البناء قائما ، وإما أن يضمن المشترى تلك القيمة ، فان ضمنها البائع نفذ بيعه فى الأنقاض لأنه ملــكه بالضمان فاعتبر بائعا لمالــكه ، وإن ضمن القاضى المشــترى قيمة البناء لا ينفذ البيع ؛ وإذ ذاك يملك المشترى الأنقاض بالضمان . وعلى القاضى أن يعزر المشترى إن كان عالما بالوقف كما يعزر البائع لاشــتراكهما فى ارتكاب معصية ليس فيها عقوبة مقدرة شرعا ، فاعتبر العلماء التعزير أقل مراتب العقوبة . وجلى فى هــذه الحالة أن البيع إذا صدر من ناظر الوقف كان فاسقا وقضى القاضى بعزله من النظر . فاذا تبين أن المشترى قد استحدث بعد الهدم ما هو أنفع لجهة الوقف من المنهدم وأجدى على مصلحة المستحقين أخذ منه لا الى عوض ، لأنه فى تلك الحالة يعتبر متبرعا بما أحدث . وقد أبان صاحب البدائع الطريقة التى يعرف بها قيمة البناء قائما ، وهى أن تقدر الارض خالية من البناء ، ثم تقدر وعليها البناء قائمــا ، فيكون الفــرق بينهما قيمة البناء . فان لم يكن فى الأرض بنــاء فأحدث فيها المشترى بناء ، فان كانت أنقاضه من مال الوقف فحــكمه حكم الوقف ، وإن كان من مال المشترى فهو ملك له ، وإذ ذاك يؤمر برفعه لتتخلص الأرض لجهة الوقف وتسلم للمشترى ملــكية أنقاضه . وهــذا مقيد بمــا إذا لم يضر رفع البناء بتربة الأرض .

ومن المسلم به عند علماء الفروع أن الوقف لايجوز بيعه إلا بمسوغ شرعى على نحو ما أسلفنا بيانه ، فإذا لم يوجد مسوغ شرعى بطل بيعه أو كل تصرف يحيله الى الملــكية سواء كان البائع هو الواقف أو الوارث أو المستحق حتى لو كان البيع بأمر القاضى ، ضرورة أن آراء الفقهاء متضافرة على لزوم الوقف والقاضى مقلد ، فليس له أن يأخذ بالرأى المرجوح . ولا يوجد بين العلماء من قال بعدم لزوم الوقف إطلاقا حتى إن أبا حنيفة ومالك وبعض أتباعهما حين قالوا بعدم لزوم الوقف قصروه على بعض صور اعتبروا فيه الوقف معارضا لبعض النظريات الاجتماعية ، وكما عرفت أن الصاحبين اعتبرا لزوم الوقف حقا من الحقوق العامة بين بنى الانسان يتوارث الخلف عن السلف بشروط الواقفين فى كتبهم ترفيها على بعض الناس وإبقاء على جهة بر لا تنقطع .

فاذا قضى القاضى ببيع عين من الأعيــان المــوقوفة بدون مسوغ شرعى لذلك البيع كان قضاؤه غير نافذ . ولا يعرف فى تاريخ القضاء الشرعى القديم منه والحديث أن قاضيا قضى ببيع العين الموقوفة بدون مسوغ شرعى . فالوقف فى تصرفاته محدود الرسوم والمعالم ، جار مع التطورات الاجتماعية والدينية ، وهو نظام له نظائر فى البلاد النصرانية مع كبير فرق بين ماعندنا وما عندهم فى دقة الأسلوب وضمان المستغل والتوزيع على المستحقين بالقسطــاس المستقيم .

والقاعدة التى نحن بصــددها منسحبة على العقار والمنقول بناء كان أو شجرا أو نحوهما

مع فرق بين المنقول وغير المنقول ، فالبناء إذا تهدم لتقادم العهد به أو لكارثة ألمت به لا يجوز بيع نقضه من خشب وحجر وحديد ونحوها بامر القاضى إلا فى حالتين :

الأولى — أن يستحيل إعادته بعينه فى العمارة الجديدة بأن كانت طبيعة تلك العمارة لا تقبل تلك العناصر القديمة ، وإذا وضعت كعناصر أساسية لها كانت لا تحتمل ما يجد فوقه من بناء ، وكانت غير متناسقة مع العناصر الجديدة الأخرى ، أو كان الفن الهندسى لا يقر وضعها على نحو من الأنحاء .

الثانية — الخشية عليها من الضياع والتلاشى بحيث يكون وصول الأيدى اليها غير مأمون العاقبة ودعت الضرورة الى تأخير ، كأن لم يوجد ريع يمكن التعمير به ، أو وجد ولكن حوله نزاع لا تنتهى الخصومة فيه إلا بعد زمن يمضى ، وفى هذه الحالة يحفظ الثمن لينفقه فى عمارة الموقوف ولا يصرف الى المستحقين لأن حقهم جلى فى الغلة لا فى أعين الموقوف ، وإذاً يباع النقض فى موضعين عند تعذر إعادته وعند خوف هلاكه .

وغنى عن البيان أن تعذر بيعه مشروط فيه أن يكون الواقف قد أجراه فى وقفه ، فاذا اشتراه الناظر من غلة الوقف بخالص ماله جاز بيعه لأن فى صيرورته وقفا خلافا ، والمختار أنه لا يكون وقفا ، وهذا بدهى الظهور ، لأن الداخل فى الوقف لابد أن يكون فى متناول كتاب الواقف حيث يكون الواقف قد أجرى عليه وقفه وضمنه كتابه ، فما كان من غلة هذا الوقف فلا يكون وقفا على الراجح .

وعلى هذا يجوز بيع الشجر إذا كان غير مثمر بطريقة يمكن استغلالها ، أو كان غير مورق فلا يمكن الاستظلال به كالليخ والصفصاف وبعض الأشجار الأخرى لمصلحة الوقف لأنه غلة فى الجملة ، فلا بأس أن يصرف ثمنه فى الوجوه التى سماها الواقف فى إشهاد وقفه ، فان هلكت تلك الأشجار أو فسدت جذورها أو عرض لها عارض الإزالة استنبتها الناظر مرة أخرى تحقيقا لمعنى التأبيد ، وإن كان الشجر مثمرا أو ينتفع بظله كالتوت والجميز وما اليهما فلا يجوز بيعه ما دام حى الجذور يانع الفروع تحقيقا لمعنى التأبيد أيضا ، إلا إذا كان لبعض الشجرات ظل يضر بثمار البعض الآخر . وهكذا يراعى معنى التأبيد فى العين الموقوفة تحقيقا لمعناه الفقهى ولغرضه الاجتماعى مما سيجىء بيانه بمزيد إيضاح فى الأعداد التالية .

عباس طه
المحامى الشرعى

فتح القدير :

الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير :

هذا تفسير للكتاب الكريم يقع فى خمسة مجلدات ، ألفه العلامة الكبير محمد بن على بن محمد ابن عبد الله الشوكانى من كبار شيوخ الزيدية . وهو من نخبة العلماء القريبين منا ، فقد ولد سنة ١١٧٣ وتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وإنما سمى بالشوكانى نسبة الى شوكان وهى قرية بينها وبين صنعاء كيلو مترات قليلة .

تصفحنا تفسيره فى المواطن التى تظهر فيها مذاهب الرجال فلم نلفه جانب السنة الصحيحة فى واحدة منها ، وكل ما آنسناه أنه مجرد للتوحيد تجريدا كاملا لا يقبل فيه هوادة ، من توسل بمخلوق ، أو استنصار بجماد .

وقد ثارت حوله فى حياته ثوائر بسبب خلعه ربقة التقليد وقوله بضرورة الاجتهاد ، وقد تحامل عليه علماء زمانه فهاجوا عليه العامة زاعمين أنه يريد بما يذهب إليه هدم مذهب أهل البيت وهو الزيدى . فاضطر أن يؤلف فى تقدير قدر أهل البيت كتابا سماه (در السحابة) بيّن فيه مذهبه الحق ، فكان معقلا حصينا له ضد الثائرين عليه .

أما التفسير الذى بين أيدينا فحسن العبارة ، سهل المأخذ ، ملم بأطراف المسائل ، لا يدع لطالب البيان حاجة فى نفسه . وقد زاده رونقا ما أفرغته عليه مطبعة السيد مصطفى البابى الحلبى من جمال الطباعة والتقسيمات البينة ، فأصبح سفرا يقتنى ويعتنى به ويرجع اليه .

المختصر فى علم الفقه :

على مذهب الامام أبى عبدالله الشافعى رضى الله عنه :

وضع هذا المختصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد كامل لخضرى المدرس بمعهد دمياط الدينى . وقد قال فى مقدمته :

« عهد الى هذا العام بتدريس علم الفقه لطلاب السنة الأولى بمعهد دمياط . فشاهدت الطلاب منصرفين الى تصفح القسم الأول من كتابى (التهذيب فى علم الفقه) وهو كتاب وضعته من عامين لطلاب السنة الثانية ، فهو فوق متناول طلاب السنة الأولى المبتدئين ، نظرا لاشتماله على الأقوال المختلفة وتفصيلات المسائل وأدلة الأحكام .

« فرأيت واجبا على تمشيا مع الخطة التى انتهجتها من العناية بامر الطلاب الذين يوكل الىّ التدريس لهم ، ومراعاة صالحهم ــ أن أقرب لهم تناول المعلومات باسلوب عصرى جديد ،

بوضع كتاب يشتمل على المنهاج المقرر عليهم ، وهو قسم العبادات ، من (شرح العلامة ابن قاسم الغزى على متن الغاية) للقاضى أبى شجاع رحمهما الله .

« وقد توخيت فيه أن يكون سهل العبارة ، حسن الترتيب ، خاليا من التعقيد ، قاصرا على المعتمد من الأقوال من غير ذكر الأدلة ليكون مناسبا للناشئين » .

وقد وفى الأستاذ بكل ما قال بأحسن أسلوب ، وأقـوم عبارة ، وأجمل ترتيب جريا على سبجيته ، وتوفية ببرنامجه من تقريب العلوم الى الاذهان ، وصبها فى قوالب جديدة تناسب حالة المعاصرين .

فنحمد لفضيلته هذه النزعة الـكريمة راجين الله أن يكثر من أمثاله العاملين .

رسالة التوحيد :

هى رسالة فى علم التوحيد وضعها فضيلة الأستاذ المتقدم ذكره لطلاب السنة الثانية بمعهد دمياط مطابقة للبرنامج الجديد ، ولا حاجة بنا لأن نقول إنها جاءت مناسبة لعقول النابتة ، وفى لغة يفهمونها ، ويسرنا أن هـذه الرسالة تفيد غير المشتغلين بالعلوم الدينية ، ، فـكثيرا ما سمعناهم يتمنون أن لو كان بعض العلماء يضع فى التوحيد وغيره كتبا بعيدة عن المصطلحات الفنية . وإنا لنرجو أن يوفق فضيلة المؤلف أن يلحق هذه الرسالة بما يليها فإنها نعمت الذخيرة العلمية لدى المؤمنين .

مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث :

كتاب قيم للحافظ أبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح . موضوعه علم الحديث ، وهو علم مفيد لأهل هذا العصر ، فإن الأئمة الأولين قسموا الأحاديث الى صحيح وحسن وضعيف وموضوع وشاذ ومنكر الخ . فمن الأمور التى تهم كل مسلم أن يعرف مميزات هذه الأنواع . فهذا الـكتاب الذى بين أيدينا يبين ذلك كله بأوضح عبارة . وفى الـكتاب غير ذلك كلام عن الرواة والناسخ والمنسوخ الى آخر ما يهم مريد فهم الأحاديث . فنثنى على ناشره الفاضل شرف الدين الـكتبى : بهندى بازار — بومبى .

جمعية المحافظة على القرآن الـكريم :

ستعقد الجمعية بالقاهرة امتحان مسابقة لوظائف التدريس بمدارس الجمعية فى القرآن الـكريم حفظا وتلاوة وتجـويدا ، والاملاء والحساب والخط والمطالعة والانشاء وفق برنامج كفاءة التعليم الأولى ، فمن أراد دخـول المسابقة فليقدم طلبا باسم سعـادة رئيس الجمعية بشـارع الملـكة نازلى رقم ١٢ من الآن بشرط أن يكون خاليا من العاهات .

وسيبدأ الامتحان من الساعة السابعة من صباح يوم السبت ٦ اغسطس سنة ١٩٣٨

Shaddâd, who heard his maternal aunt Maimûnah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say that:

When she was unable to pray in consequence of her courses, and was lying down on the floor beside the place where the Prophet (Allâh bless him and give him peace) prostrated himself in prayer on his prayer-mat, part of his garments used to touch her as he prostrated himself.

الشيبانى عن عبدالله بن شداد قال سمعتُ خالتى ميمونة زَوجَ النبى صلى الله عليه وسلم :

أَنَّهَا كانَتْ تَكُونُ حائِضاً لاَتُصَلِّى وَهْىَ مُفْتَرِشَةٌ بِحِذَاء مَسْجِدِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَهْوَ يُصَلِّى عَلَى خُمْرَتِهِ إِذا سَجَدَ أَصَابنِى بَعْضُ ثَوْبِهِ .

The end of the
Book of Menstruation.

﴿ انتهى كتاب الحيض ﴾

"The Prophet (Allâh bless him and give him peace) once said to me: 'When thy courses come upon thee leave off thy prayer, and when they pass away wash the blood from off thee and perform thy prayer'."

« قالَ النبي صلى الله عليه وسلم : إذَا أقْبَلَتِ الحَيْضَةُ فَدَعِي الصَّلاةَ ، وَإذَا أَدْبَرَتْ فَاغْسِلِي عَنْكِ الدَّمَ وَصَلِّي .

CHAPTER 29.

— ٢٩ —

On prayer over women *who have died* in childbirth and the practice to be followed in regard to it.[37]

We are informed by Ahmad b. Abu Suraij, who had it from Shabâbah, who received it from Shu^c^bah, through Husain Al-Mu^c^allim, through Ibn Buraidah, through Samurah b. Jundad that:

When a certain woman[38] once died in childbirth, the Prophet (Allâh bless him and give him peace) performed the funeral prayer over her, standing opposite the middle of the body[39].

بابُ الصَّلاةِ عَلَى النُّفَسَاءِ وسُنَّتِهَا :

حدثنا احمد بن أبي سريج قال أخبرنا شبابة قال أخبرنا شعبة عن حسين المعلّم عن ابن بريدة عن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ :

أَنَّ امْرَأَةً مَاتَتْ فِي بَطْنٍ فَصَلَّى عَلَيْهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَامَ وَسَطَهَا .

CHAPTER 30.

— ٣٠ —

We are informed by Al-Hasan b. Mudrik, who had it from Yahyâ b. Hammâd, who received it from Abu ^c^Awânah surnamed Al-Waddâh (narrating from his manuscript), who was told it by Sulaimân Ash-Shaibâni, through ^c^Abdullâh b.

بابٌ

حدثنا الحسن بن مدرك قال حدثنا يحي بن حماد قال أخبرنا أبو عوانة ـ اسمه الوضاح ـ من كتابه قال أخبرنا سليمان

37. Ibn Rashîd and other commentators consider that this chapter should not be included under the heading of this section. It seems, however, that Al-Bukhâri's object in citing this hadîth is to show that the body of a woman dying in childbirth is not "unclean," since the Prophet allowed it to intervene between him and the qiblah; and the same applies to women in their courses—as is seen in the following hadîth.

38. Umm Ka^c^b by name.

39. According to the Sunnah the imâm must stand opposite the breast in the case of a man, and the middle of the body in the case of a woman.

2. We are informed by Muᶜallâ b. Asad, who had it from Wuhaib, through ᶜAbdullâh b. Tâwûs, through his father, through Ibn ᶜAbbâs, who said:

"A menstruating woman is permitted to depart home, if her courses come upon her, *before she hath performed the farewell circumambulation.* At first Ibn ᶜUmar used to declare that she must not depart until she had performed it. Subsequently I heard him say: 'She may depart, for in fact the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) allowed this to women."

٢ ـ حدثنا مُعلّى بن أسد قال حدثنا وهيب عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال :

« رُخِّصَ للحائِضِ أَنْ تَنْفِرَ إِذا حاضَتْ . وَكانَ ابنُ عمر يقولُ في أوّل أَمْرِهِ إنّها لاَ تَنْفِرُ ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقولُ : تَنْفِرُ إِنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَخَّصَ لَهُنَّ »

CHAPTER 28.

— ٢٨ —

When a woman suffering from constant extra-menstrual dircharges findeth herself clear of her courses[35];

Ibn ᶜAbbas saith: "She should make a ghusl and perform her prayer, even though she be clear only for a short space in the day;" he also saith: "Her husband may have intercourse with her so long as she is allowed to pray—prayer being the weightier[36] matter."

بَابٌ . إِذَا رأَت المُسْتَحَاضَةُ الطُّهْرَ

قال ابنُ عباسٍ : تَغْتَسِلُ وَتُصَلِّي وَلَوْ سَاعَةً

وَيَأْتِيهَا زَوْجُهَا إِذَا صَلَّت ، الصَّلاَةُ أَعْظَمُ .

We are informed by Ahmad b. Yûnus, through Zuhair, who had it from Hishâm, through ᶜUrwah, through ᶜAʾishah, who said:

حدثنا احمد بن يونس عن زهير قال حدثنا هشام عن عروة عن عائشة قالت :

---

35. i.e., she is able to distinguish the menstrual discharge from the extra-menstrual.

36. i.e., greater in the eyes of Allâh than intercourse, for if the greater matter of prayer is permissible, how much more the lesser one of intercourse.

Umm Habîbah was subject to constant menstrual discharges for seven years, so she questioned the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) on this, and he commanded her to perform the ghusl saying: "This is a ruptured vein." After that she performed a ghusl before every prayer.

أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ اسْتُحِيضَتْ سَبْعَ سِنِينَ فَسَأَلَتْ رَسولَ الله صلى الله عليه وَسلم عَنْ ذلِكَ فَأَمَرَهَا أَنْ تَغْتَسِلَ ، فقالَ « هَذَا عِرْقٌ » فَكَانَتْ تَغْتَسِلُ لِكُلِّ صَلاَةٍ .

CHAPTER 27.

— ٢٧ —

On a woman menstruating after the Ifâdah-circumambulation.[32]

بَابُ المَرْأَةِ تَحِيضُ بَعْدَ الأفاضةِ:

1. We are informed by ᶜAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik, through ᶜAbdullâh b. Abu Bakr b. Muhammad b. ᶜAmr b. Hazm, through his father, through ᶜAmrah bint ᶜAbdur-Rahmân, through ᶜAˢishah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that:

١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم :

She once said to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace): "O Messenger of Allâh Safiyyah bint Huyayy's courses have just come upon her." The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) replied: "Is she then to keep us back *from leaving Makkah?* Had she not performed the Ifâdah-circumambulation with you?" "Certainly", was the answer. "Then depart," [33] said he to Safiyyah[34].

أَنَّها قالت لِرسولِ الله صلى الله عليه وسلم: يارسولَ اللهِ إِنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ قَدْ حَاضَتْ ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لَعَلَّها تَحْبِسُنَا ؟ أَلَمْ تَكُنْ طَافَتْ مَعَكُنَّ ؟ فَقَالوا بلَى ، قال « فاخْرُجِى » .

32. This ceremony is also known as طواف الزيارة or طواف الركن . It is an essntial rite in the Pilgrimage from which no one is excused. In the case of a menstruating woman, she must stay behind in order to perform it after purification. If she goes home without doing so, she is considered to be still in a state of ihrâm. The rite takes place on the day of the Courban sacrifice, and consists in proceeding from Minâ to Makkah, there performing the circumambulation and returning to Minâ.

33. That is to say she is considered to have completed the Pilgrimage and to be free to leave Makkah with the rest—the farewell circumambulation طواف الوداع being excused to a menstruating woman.

34. Safiyyah was a Jewish noblewoman whom the Prophet married at the instance of the Sahâbah, after she had been made captive at the Battle of Khaibar.

shâm b. ᶜUrwah, who received it from his father, through ᶜAˢishah that:

Fâtimah bint Abu Hubaish once questioned the Prophet (Allâh bless him and give him peace) saying: "I am subject to constant menstrual discharge, and am consequently never in a state of purity. Am I therefore to give up prayer?" "No," replied he, "that is only blood oozing from a vein; but leave off the prayer a number of days equal to those of thy period. After that perform thy ghusl and make thy prayers."

أبو أسامة قال سمعت هشام بن عروة قال أخبرنى أبى عن عائشة

أَنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ أَبِى حُبَيْشٍ سأَلَت النبىَّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ : إِنِّى أُسْتَحَاضُ فَلاَ أَطْهُرُ ، أَفَأَدَعُ الصَّلاَةَ ؟ فقال : إِنَّ ذَلِكِ عِرْقٌ وَلَـكِنْ دَعِى الصَّلاَةَ قَدْرَ الأَيَّامِ الَّتِى كُنْتِ تَحِيضِينَ فِيهَا ثُمَّ اغْتَسِلِى وَصَلِّى .

CHAPTER 25.

— ٢٥ —

On extra-menstrual discharge of yellow and cloudy matter.

بَابُ الصُّفْرَةِ والـكُدْرَةِ فِى غَيْرِ أَيَّامِ الْحَيْضِ :

We are informed by Qutaibah b. Saᶜîd, who had it from Ismâᶜîl, through Ayyûb, through Muhammad, through Umm ᶜAtiyyah, who said:

"We used to take no notice of yellow and cloudy matter".

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بن سعيد قال حدثنا اسماعيل عن أيوب عن محمد عن أم عطية قالت « كُنَّا لاَ نَعُدُّ الـكُدْرَةَ والصفْرَةَ شَيْئًا . »

CHAPTER 26.

— ٢٦ —

On the ruptured vein from which blood oozeth extra-menstrually.

بابُ عِرْقِ الاسْتِحَاضَةِ :

We are informed by Ibrâhîm b. Al-Mundhir, who had it from Maᶜn, who was told it by Ibn Dhiˢb, through Ibn Shihâb, through ᶜUrwah and ᶜAmrah, through ᶜAˢishah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that:

حدثنا ابراهيم بن المنذر قال حدثنا معن قال حدثنى ابن أبى ذئب عن ابن شهاب عن عروة وعن عمرة عن عائشة زَوْجِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم :

CHAPTER 24.

On a woman having three courses in one month;

and on the credibility of women in the matter of their periods and pregnancy, this credibility being established by what is possible in menstruation—according to the word of Allâh (be He exalted): "It is not lawful for them to conceal that which Allâh hath created in their wombs;"[30]

and it is related through cAli and Shuraih that if a woman produce evidence from trustworthy intimate members of her family that she hath had three periods in one month, she shall believed;

and on cAtâs's statement that her periods must be accepted if conforming with her previous habits;[31]

and on Ibrâhîm having concurred with it;

and on Atâs having stated that the period latesth from one day to fifteen;

and on Muctamir having said through his father: "I questioned Ibn Sîrîn about a woman seeing blood after the five days of her period. He replied that the women were the best informed on this subject."

We are informed by Ahmad b. Abu Rajâ, who had it from Abu Usâmah, who heard it from Hi-

— ٢٤ —

بابٌ: إذا حاضتْ في شهرٍ ثلاثَ حِيَضٍ،

وَمَا يُصدَّقُ النِّسَاءُ في الحيضِ والحملِ فِيمَا يُمكنُ مِنَ الحيضِ لقوْلِ الله تعالى: «وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أنْ يكتُمْنَ مَاخَلَقَ اللهُ في أرْحَامِهِنَّ»،

وَيُذْكَرُ عن عليٍّ وشُرَيْحٍ: إنْ امْرَأةٌ جَاءتْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ بِطَانَةِ أهْلِهَا مِمَّنْ يرْضَى دِينَه أنَّهَا حَاضَتْ ثلاثاً في شَهْرٍ صُدِّقَتْ،

وَقال عطاء: أقْرَاؤُهَا مَا كانَتْ.

وَبِهِ قال ابراهيم،

وَقال عطاء: الحَيْضُ يَوْمٌ إلى خَمْسَ عَشْرَةَ،

وَقال مُعْتَمِرٌ عن أبيه: سَأَلْتُ ابْنَ سِيرِينَ عن المرأةِ تَرَى الدَّمَ بَعْدَ قُرْئِهَا بِخَمْسَةِ أيَّامٍ، قال: النسَاءُ أعْلَمُ بذلكَ

حدثنا احمد بن أبي رجاءٍ قال حدثنا

30. Surah 2: 228.

31. The legal status of a divorced Muslim woman in regard to her liberty to remarry, claims for alimony, etc. is based upon the recurrence of her periods from the time of her divorce. Her statement after divorce is accepted only if it conforms with her previous menstrual condition.

'We used to nurse the wounded and tend the sick. One day I asked the Prophet (Allâh bless him and give him peace) whether there was any harm in one of us not going out[24] if she had no wimple[25].' 'Let one of her friends lend her one of hers',[26] replied the Prophet, 'and let her attend any work of piety[27] or congregational invocation of the Faithful'."

Hafsah added : "Then when Umm ʿAtiyyah[28] arrived *at Basrah* I asked her if she had heard the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and she said: 'Yes, my father be his ransom! (she never mentioned his name without saying: 'My father be his ransom!') I heard him say —Let marriageable girls and secluded women (or secluded marriageable girls)[29] and women in their courses go out and attend works of piety and congregational invocations of the Faithful, but let women in their courses hold themselves apart from the place of prayer—' 'Women in their courses?' I exclaimed. 'Do they not attend the Day of ʿArafah, and such and such?' replied she."

كُنَّا نُدَاوِي الكَلْمَى وَنَقُومُ عَلَى المَرْضَى، فَسَأَلَتْ أُخْتِي النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ أَنْ لَا تَخْرُجَ ؟ قَالَ : لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا وَلْتَشْهَدِ الخَيْرَ وَدَعْوَةَ المُسْلِمِينَ .

فَلَمَّا قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ سَأَلْتُهَا : أَسَمِعْتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ؟ قَالَتْ : بِأَبِي نَعَمْ — وَكَانَتْ لَا تَذْكُرُهُ إِلَّا قَالَتْ : بِأَبِي — سَمِعْتُهُ يَقُولُ : يَخْرُجُ العَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الخُدُورِ (أو العَوَاتِقُ ذَوَاتُ الخُدُورِ) وَالحُيَّضُ وَلْيَشْهَدْنَ الخَيْرَ وَدَعْوَةَ المُؤْمِنِينَ وَيَعْتَزِلُ الحُيَّضُ المُصَلَّى . قَالَتْ حَفْصَةُ فَقُلْتُ : آلحُيَّضُ ؟ فَقَالَتْ : أَلَيْسَ تَشْهَدُ عَرَفَةَ وَكَذَا وَكَذَا ؟ »

---

24. —to an open air congregation.
25. A wide covering for the head, back and breast, but not necessarily the face, which women wear out of doors.
26. Or—cover her with her own.
27. —such as attending study circles and visiting the sick.
28. The sister of the woman who sojourned at Qasr Bani Khalaf.
29. Umm ʿAtiyyah the narrator is doubtful as to which.

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة مختصر صحيح البخارى

للاستاذ ابراهيم حسنه الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

By

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(Continued)

CHAPTER 23.

On women in their courses being present at the two Feast-day[1] prayers, or at a congregational invocation of the Faithful[2], holding themselves apart from the place of prayer.[3]

We are informed by Muhammad b. Salâm, who had it from ᶜAbdul - Wahhâb, through Ayyûb, through Hafsah, who said:

"We used to prevent our girls of marriageable age from going out to the Feast-day prayers. A certain woman, however, who came and sojourned at Qasr Bani Khalaf,[4] transmitted through her sister, whose husband had accompanied the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on twelve of his compaigns, and who had herself been with him on six of them, the following hadîth:

كتاب الحيض (تابع ما قبله)

— ٢٣ —

باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى :

حدثنا محمد - هو ابن سلام - قال أخبرنا عبد الوهاب عن أيوب عن حفصة قالت:

« كنا نمنع عواتقنا أن يخرجن فى العيدين فقدمت امرأة ، فنزلت قصر بنى خلف فحدثت عن أختها ، وكان زوج أختها غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثنتى عشرة ، وكانت أختى معه فى ست قالت :

1. i.e. the Post-Ramadân Feast and the Feast of the Courban-sacrifice.
2. —such as الاجتماع لصلاة الاستسقاء (assembly for prayers for rain).
3. Though they may not perform the prayers, they may supplicate.
4. A place in Basrah.

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٢ —

المقومات الشرعية فى الاسلام

لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد فى العدل ، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الغير ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ، وأشمل لعناصر التطورات الانسانية ، من الشريعة الاسلامية ، ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت فى وضعها لا مصلحة المجتمع الاسلامى وحده ، ولكن مصلحة المجتمع البشرى كله ، بل والمجموع العالمى عامة ، ولاحظت فى بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائما على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى للحياة الانسانية الكاملة .

هذا كلام يحتاج لبيان ، فإليك :

أدرك الانسان فى القرون المتأخرة أن هنالك عدلا مطلقا ، وحقوقا طبيعية لكل فرد وكل جماعة ، وأن قصارى أمر الشرائع التى تعتبر عادلة هى التى تقرُب بالانسان الى هذا العدل المطلق وهذه الحقوق الطبيعية ، لا أن تؤتيه بها كاملة ، لقيام عقبات من طبائع شتى تحول بين المشترعين وبينها . ولكن الاسلام انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معا .

شريعة الاسلام فى القرآن الكريم ، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما ، وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق ، وتحديد التبعات ، وتقرير العقوبات (إلا فى مواطن معدودة) .

وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم فى حوادث حفظتها السنة الصحيحة ، وجاء الأئمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن وقعت على عهده صلى الله عليه وسلم ، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة ، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر الى اليوم .

أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل إنسان حتى من لا يُقبل منهم النظر فى أحقر

الأمور لدى الأمم كافة كالأرقاء ومن فى حكمهم ، فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشئون ، واعتبر كلامه إما اجتهادا مطلقا منه ، أواجتهادا فى مذهب من المذاهب المعروفة ، حتى لا يستطيع أحد أن يأتى بقول من أقوال المشترعين المعاصرين لا يكون قد سبقهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين . فاذا أريد أن يعمل من جملة هـذه الأقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الأرض ، ويكون مع ذلك قابلا للتطور الى ما لا حد له ، لأن الاسلام لم يضع للاجتهاد حدا ، ولم يعين له أهلا ، ولم يحدد له زمنا ، ولكنه ترك بابه مفتوحا ليسع جميع التطورات العقلية التى تدخل فيها العقول فى كل زمان ومكان ، حتى لا يكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الأخرى .

هـذا من ناحية الأصول الأولية ، التى أقيم عليها صرح الشريعة الاسلامية ، فهل راعى المشترعون الاسلاميون هـذه الأصول ، وهل أساغها الناس فى تلك العصور ونفذوها على أكمل الوجوه ؟

نحن مضطرون لتقديم هـذه الأسئلة ، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة ، لم يحصل الى اليوم فى أرقى أمم الأرض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين ، فهل تنفذه أمة فى أول عهدها بالاجتماع ، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها نحن اليوم ؟

نعم : نفذته الأمة الاسلامية ، وقامت بحقه طوال عهد قوتها ، واليك طرفا من سيرتها فى ذلك ، والحوادث أدلة لا تقبل الشك :

ساوت بين خاصة المسلمين وعامتهم ، وبين الكافة من أهل الملل الأخرى أمام القانون ، ونظرت فى منازعاتهم على بساط المساواة المطلقة ، ولم تعتد بالفروق التى بينهم من نواحى الجنس والدين والميزات الأدبية والمادية ، ألم يسو الفاروق رضى الله عنه بين يهودى وعلى بن أبى طالب ، وبين أحد العامة وجبلة بن الأيهم ملك غسان ، وبين واحد من الرعية وابن عمرو بن العاص فاتح مصر وأعطاه دِرته ليضربه بها كما ضربه ابن عمرو بعصاه ؟ ألم يغضب النبى صلى الله عليه وسلم من أبى ذر الغفارى عند ما قال لأحد السود : يا ابن السوداء ، وقال له : إنك رجل فيك جاهلية ؟ أسمعت منذ خلق الله العالم الى اليوم أن مشترعا قرر أن من يقتل عبده أو عبد غيره يقتل به كما فعل ذلك الامام مالك ؟

إننا نكتب هذا ونحن نترنح طربا من هذه الآيات الباهرة ، ونتساءل : هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى بلغت درجة المثل الأعلى فى العدل والمساواة مصدر غير الوحى الالهى ؟

وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب ، بيئة الفخر بالآباء ، والعـدوان على الضعفاء ، أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا ؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن :

قلنا فى مفتتح هذه المقالة: إن الشريعة القرآنية أصول أولية من العدل المطلق، وقد تركت لأولى البصر تحديد التبعات، وتقدير العقوبات، إلا فى مواطن معدودة، فهذه المواطن هى الزنا والقذف والسكر والسرقة والافساد فى الأرض . الشريعة الاسلامية قررت على الجريمة الأولى الرجم إن كان مرتكبها محصنا، وعلى الثانية مائة جلدة، وعلى الثالثة ثمانين جلدة، وعلى الرابعة قطع اليد، وعلى الخامسة قطع اليد والرجل من خلاف أو النفى .

هذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشترعين . وقد أباحوا هم الزنا وشرب الخمر، وقرروا على القذف والسرقة والافساد فى الأرض عقوبات لا تتناسب وخطرها . فكان من أثر ذلك أن انتشرت الجرائم فى العالم المتمدن انتشارا مزعجا لم يكن معروفا من قبل، ولا يمر يوم دون أن يزداد المجرمون عددا، وتكثر وسائلهم الشريرة، حتى أصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم .

ولكن الاسلام دين إصلاح عالمى يرمى الى تأليف مجتمع تقل فيه الشرور والآثام الى أقصى حد ممكن، ويسود فيه التكافل فى الحياة، والترافد حيال عقباتها .

وفى الأرض مذاهب إصلاحية كثيرة ممثلة فى الأديان الموجودة، وفيما تركه الفلاسفة الأولون من التعاليم، وما رآه المفكرون المعاصرون من النظم، من أول حكومة الفرد الى الاشتراكية الشيوعية، بل الى الفوضى الباحتة .

وقد طبقت هذه المذاهب كلها فكانت آثارها غير مرضية، إذ زادت الجرائم حتى فى عهد المدنية الراقية، والفتوحات العلمية العظيمة، ولا تزال فى ازدياد . وقد ألح المشترعون فى الغرب على دراسة مناشئ الجرائم ووسائل علاجها، وطبقوا كثيرا من أساليبهم فأخفقت جميعا . ولم يبق إلا وسيلة واحدة وهى تشديد العقوبة على المجرمين ليكون فى ذلك ردع لأهل النفوس المريضة، ووازع لذوى النزعات الخبيثة .

وخير لأى مجتمع أن تقطع بضع أيد من أن يتمادى اللصوص فيه على العدوان على الناس ليلا ونهارا، وكثيرا ما جرت تعدياتهم الى إزهاق نفوس زكية .

والجلد إذا كان مشروعا فى الاسلام بالنسبة للقاذف والسكران فان مبدأ الجلد معمول به الى اليوم فى أرقى البلاد مدنية كانجلترة وألمانيا عقابا على بعض الجرائم .

فاذا رأى بعض الناس أن عقوبة الرجم شديدة فقد احتاط لها الاسلام فوضع للوقوع تحت طائلتها ضمانات قوية، وهى أن يشهد بها أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل

باعينهم واقعا بحيث لا تتسرب الى واحد منهم شبهة من ملامسة أو مفاخذة أو غير ذلك . وهــذا يكاد يكون مستحيلا .

فان لم يتم نصاب الشهادة فلا بد لا ستحقاق العقوبة من الاعتراف بالجريمة ، فإن لم يعترف بها سقطت عنه وعن شريكه فى الاثم وإن اعترف .

ومن أعظم ما يعرف من الاعتــداد بمصلحة المتهم أن الزانى لو اعترف وبدئ فى الرجم ثم عاد فأنكر ، رفعت عنه العقوبة ، وهذا غاية ما يعرف من الرحمة بالانسانية . وفيه دليل قاطع على أن الاسلام لم يقرر ما قرره من هذه العقوبات إلا للردع لا للانتقام أو التشفى .

ومن خصائص الشريعة الاســلامية قيامها على العلم وهو غير محدود ، وعلى الفهم وهو قابل للتطور ، وعلى اعتبار الأحوال المحيطة ، والعوامل الخارجية ، وعلى الاعتداد بناموس الترقى . وقد تظهر هذه الخصائص كلها جلية من النظر فى الأمور الآتية :

(أولها) أن التشريع فى الاسلام لم يودع الى طائفة خاصة ، ولا حصر فى طبقة معينة ، ولا جــعل من حظ أمة دون أخرى ، ولــكنه جعل حقا شائعا للــكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتى المماليك والموالى . ثم ترك للرأى العام الحــكم فى الأخذ بما قيل أو إهماله .

(ثانيها) أنه لم يوضع للتشريع فى الاسلام أسلوب مقرر لا يجوز تعديه ، فترك لــكل ناظر الخيار فى انتخاب أسـلوبه ، فلذلك تخالفت أساليب مجتهدى الاســلام ، ولم يعتد المسلمون باختلافها بل اعتدوا بمقدار انطباقها على الأصول الأولية للــكتاب والسنة .

(ثالثها) أنه لم يخص التشريع فى الاسلام بزمان دون زمان ، فقد كان للقرن الأول أئمة ، وللثانى أئمة يبلغ عددهم نحو سبعين يتبعهم الناس بدون حرج . ونص العلماء أنه كان فى كل قرن علماء وصلوا الى درجة الاجتهاد ، وقرروا أن بابه مفتوح الى يوم القيامة ، ومعنى هذا أن الفيض الالهى لا يتوقف على جيل من الناس دون جيل آخــر حتى قالوا : كم ترك الأول للآخر . أى كثير .

(رابعها) أن أحــدا لم يحجر على أحد فى اتباع أى المــذاهب الفقهية شاء ، ولم يضطهد أحد من المسلمين بسبب مذهبه قط ، وإنما نبه العلماء على المبتدعة ، وعلى من خرج عن دائرة الاسلام منها .

(خامسها) إجماع المسلمين على أن الاجتهاد فى تنور أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب ، وهم فى ذلك كله يصدرون عن سنة النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قال : «المجتهد أجران إن أصاب ، وأجر إن أخطأ» . وفى هذا أكبر تنشيط على النظر والتأمل ، ومحاكمة الأدلة المختلفة والتحرى عن الحق الصميم .

(سادسها) كان المسلمون لا يروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم ، وكانوا يكبرونها الى حد أن جعلوا لها علما خاصا سموه علم الخلاف ، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان فى سرائر المسائل المعقدة . وسرى الترحيب بهذا الخلاف الى العامة حتى قالوا : « اختلافهم رحمة » .

هذه الوجوه أعجب ما يروى عن شريعة دينية ، فلا يسع أى مشترع من المعاصرين أن لا يظهر دهشه منها ، إذ يرى بعينيه أنها تضع شريعة الاسلام فى مستوى بعيد عن العوامل التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر ، وتوجد لها من المناعة وقوة الحياة ما تتقى بهما كل خطر يخطر بالبال من دواعى الانحلال ، وتضمن لها الخلود والتفوق فى وسط كل تطورات العقل والعلم معا .

وما أضر بالشرائع الدينية السابقة فى العالم كافة إلا أن أصحابها اعتبروا جزئياتها ثابتة فى درجة ثبوت كلياتها ، فتقدمت الجماعات التابعة لها فى العلوم والصنائع والفنون ، وجدّت فيهم مع تتالى العصور أمور وشئون ، ونشأت لهم عادات وآداب ، وحدثت بينهم وبين الأمم الأخرى ارتباطات ، وكل ذلك يقتضى تشريعات جديدة ، ونظم مناسبة لها . فوجد القائمون بشرائعهم أنفسهم بين أمرين : فإما أن يعطلوا تقدم تلك الأمم لتدوم على ما كانت عليه قبل حدوث التطورات الجديدة عليها ، وإما أن يغيروا فى أوضاع شريعتهم ، فعز عليهم الأمر الأخير ، فلم يجدوا بدا من الأمر الأول ، فبذلوا وسعهم فى عرقلة كل تقدم للأمم التى أوقعها سوء حظها تحت سلطانهم ، وكثيرا ما لجأوا الى السلاح فى هذه السبيل ليدوم لشريعتهم سلطانها ، ولهم مكانتهم الممتازة ، فلم يفلحوا ، وكانت النتيجة أن تركت الشعوب الدين لممثليه ، وأخذت هى فى تقدمها . وقد اتقى الاسلام ذلك كله بأسلوبه البديع كما رأيت .

فهب أن عقولا قد تمردت الى أقصى حد ، فلم تخضع إلا لأحكام عقولها غير معتمدة بأى أصل فى الأرض . فانها بذلك التمرد لا تستطيع أن تسقط الشريعة الاسلامية ، لأن العقول مهما تمردت فلا تستطيع أن تتمرد على الحقائق ، وما دامت فى هذه الدائرة فهى فى دائرة الاسلام نفسه ، وهو يريد منها أن تتمرد على الأباطيل لتصل الى الحق المجرد عن الملابسات .

هذه مقومات الشريعة الاسلامية ، فاذا أراد المسلمون إظهار عظمتها وخلودها فليقيموا هذه المقومات وليعملوا بها ، غير وانين ولا متواكلين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « قد أفلح من تزكى » : أى فاز من كان عمله زاكيا ، وذلك إنما يكون إذا تطهر من الشرك والمعاصى . ومن اقتصر من المفسرين على التطهر من الشرك فلكون ذلك هو الأهم ، ولكونه أنسب بما تقدم فى الآيات قبلا . وعلى كل حال فالتزكية على درجات متفاوتة جدا ، فهى مقولة بالتشكيك المختلف المراتب البعيدة . وقيل « تزكى » : أى استكثر من التقوى ، مأخوذ من الزكاء وهو النماء . ومعلوم أن التقوى درجات متفاوتة ، وكلها زكاء ونماء لدى النظر الصحيح .

هذا ويمكنك أن تأخذ تفصيل التزكى الذى نيط به الفلاح من بيان القرآن نفسه ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » الى آخره . ومن ذلك البيان قوله : « فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » ، ثم قال بعد تلك الأوصاف : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

« وذكر اسم ربه فصلى » : أى تذكر ما لربه من العظمة والجلال ، وأنه سيقف بين يديه وسيجزيه بكل ما عمل . «فصلى» أى صلى الصلوات الخمس امتثالا لأمره وقياما بواجب ربوبيته . ويجوز أن يكون قوله « تزكى » إشارة الى التصديق بالجنان ، « وذكر اسم ربه » الى النطق باللسان ، و « صلى » الى العمل بالأركان ، لما أن الصلاة عماد الدين ، وأفضل الأعمال البدنية ، وناهية عن الفحشاء والمنكر ؛ فلا بدع أن تذكر ويراد جميع الأعمال البدنية . ويجوز أن يكون قد اقتصر على ذكر الصلاة لأن الفرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة .

ومن البعيد غير الظاهر قول بعضهم : إن المراد من « تزكى » أخرج الزكاة مطلقا ، أو زكاة

العيد ، لأن المعتاد فى التعبيرعن إخراج المال أن يقال : زكى ، ولا يقال : تزكى ، وإن كانت تزكية النفوس إنما تكون بفعل كل محمود وترك كل مذموم ، فيدخل فيها إخراج الزكاة ، بل عدم التفريط فى واجب من الواجبات . وبالجملة المتزكى يتحلى بكل فضيلة ، ويبتعد عن كل رذيلة .

ولا يسهل علينا أن نترك هذا المقام من غير أن نقول كلمة فى التربية وما فيها من نقص عندنا :

معلوم أن التزكى الذى حث عليه القرآن وناط به الفلاح فى قوله : « قد أفلح من تزكى » وقوله : « قد أفلح من زكّاها » الى غير ذلك ، إنما هو نتيجة حسن التربية والتعليم ، وليس أجدى على الانسانية ولا أضمن لسعادتها من تعاليم الدين ، وغرس مراقبة الله تعالى فى النفوس ، مع بيان محاسن الأخلاق التى يجب التحلى بها ، وبيان مساويها التى يجب البعد عنها ، الى آخر ما جاء فى الشريعة المطهرة . ولا تكون التزكية الصحيحة إلا بهذا .

وعلى المربى أن يعرّف التلاميذ أنه لا بد فى نيل السعادة من الضغط على النفوس وكبح جماحها ، وقمع هواها ، وعدم الاسترسال مع شهواتها ، وبيان أن لها أخلاقا غريزية يجب مراقبتها والاحتراس منها ، فانها مجبولة عليها ، فلا بد من محاربتها بسلطان العقل وسلاح الدين والعلم ؛ وذلك مثل الكبر ، وسوء الظن ، والترفع على الخلق ؛ ومثل الحسد ، وحب الاستئثار ، والتفرد بكل نعمة ، والعلو على كل أحد ، حتى قال الغزالى : « إن فى كل نفس ربوبية كامنة ، فهى تشتهى أن تقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قال فرعون » ولكن ظروفها لا تسمح لها بذلك . ومثل محبة المال غير المعتدلة التى أتعبت الناس وكانت أس البلاء ومنبع الشقاء ، فان حب الدنيا رأس كل خطيئة . ومثل محبة النساء ، تلك المحبة التى كادت تطغى على كل شىء ، والتى فعلت الأفاعيل بالبنات والبنين ، خصوصا فى هذا العصر الخليع . ومثل محبة الجاه المفرطة ، مع بيان جهل النفوس الغريزى فى الانسان ، كما قال تعالى فى حقه : « إنه كان ظلوما جهولا » .

ولا تنس قول الله تعالى : « ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله » ، « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » ، « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » الى آخر ماجاء فى الكتاب والسنة وهو كثير . ثم العناية بغرس مكارم الأخلاق فى النفوس : مثل الشجاعة ، والحلم ، والكرم ، والرحمة بالضعيف ، ومواساة المحتاج ، والشفقة على كل ذى روح ، والمحبة لعموم المسلمين ؛ وبيان أن الايمان لا يتم إلا بذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا » ، وكما قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » . ولعمر الله لو تمت المحبة بين الناس لكانوا فى أبهج عيش لا يماثله إلا عيش أهل الجنة فى الجنة . الى آخر مالا تسعه هذه العجالة . ولعلنا نعرض له فى فرصة أخرى .

أما التربية عندنا فهى عبارة عن تلقين بعض نظريات ناقصة ، ولا فائدة للنظريات فى تربية

الملكات وتكوين الأخلاق ، بل لابد من العمل وتكرار العمل ، والمراقبة التامة للعاملين ، والقدوة الحسنة فى المعلمين .

وبكل أسف نقول : إن غالب الأساتذة عندنا إنما يقومون بما يفرضه عليهم البرنامج الذى يسألون عنه (والذى يجب تعديله وإطالة النظر فيه) ، بل الأمر عندنا أشد وأنكى من ذلك كله ، خصوصا فى تربية البنات واختلاطهن بالبنين ، وغرامهن بروايات الغرام ، مما جعل التعليم الذى يقصد به تزكية النفوس وسيلة من أكبر وسائل الفساد ، وإنا لله وإنا إليه راجعون !

ومسألة التربية من أول ما يجب على الحكومة إصلاحه والتفكير فيه ، فان سعادة الأمة مرتبطة بتربيتها وتهذيبها ، وعلى قدر ما يكون لها من صلاح التربية وفسادها يكون حظها من السعادة أوالشقاوة .

وقد يقول قائل : إن كثيرا من الأوربيين على حظ كبير من الأخلاق . فنقول له : إن الأوربيين درسوا علم النفس دراسة صحيحة ، وعرفوا منابع الأخلاق وغرائز النفوس ، فاهتدوا الى مصالح دنياهم علما وعملا ، أما نحن فقد درسنا ذلك العلم دراسة نظرية لا عملية ، مع أن الاسلام لا يقيم وزنا لغير العمليات . وكم تطالعنا الجرائد كل يوم بما يندى له جبين الحياء وتبكى له عين الدين ، مما لا يمكننا أن نذكر شيئا منه هنا !

ولندع هذا الموضوع ، ولنعد الى التفسير فنقول :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا » : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : ولكن أنتم لاتزكون أنفسكم بل تؤثرون . وأما قوله : « والآخرة خير وأبقى » فهى جملة فى محل النصب على الحال من فاعل تؤثرون ، مؤكدة للتوبيخ والعتاب ، أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها ، كما أن نعيمها مع كونه فى غاية ما يكون من اللذة والبهجة خالص من جميع الشوائب والمنغصات ، مع كونه أبديا لا انصرام له . ولله در القائل :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

قال ابن مسعود لأصحابه يوما : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ فقالوا : لا ، قال : « لأن الدنيا أُحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة زويت عنا ، فأحببنا العاجل وتركنا الآجل » . وذلك مصداق قوله تعالى : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » . وأى قدر للدنيا التى يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفى مرجوها بمخوفها ، إن أحسنت مرة أساءت مرارا ، سلامتها مقدمة السقم ، وشبابها يسوق الى الهرم ، ونعيمها الزائل لا يثمر إلا الحسرة والندم ، إن أعطت واحدا من بنيها جميع ما طلعت عليه الشمس ،

جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس ، تمنى أصحابها سرورا ، وتعدهم غرورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح دورهم بعد القصور قبورا ، وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منثورا .

أفانٍ بباق تشتريه سفاهة ... وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه ... فانك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فياعاملا للنار جسمك لين ... فجربه مرات بحر الظهيرة

وأبلغ من ذلك كله قول الله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » . وألفت نظرك الى التعبير بدار السلام وما فيه من التعريض بدار الآفات .

ويقول صلى الله عليه وسلم نصيحة لنا وخوفا علينا : «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « مارفع الله شيئا من هذه الدنيا إلاوضعه» .

وأبلغ وصف لها ماجاء فى سورة الحديد من قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وكيف يؤثر العاقل الدنيا على الآخرة مع كون الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ؟ والدنيا بعد ذلك ممتزج خيرهابشرها ونعيمها بألمها ، ومع تلك العيوب كلها فالدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى بالضرورة .

ثم قال تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى » : يعنى أن فلاح من تزكى الخ منصوص عليه فى صحف ابراهيم وموسى . وقيل : إن الاشارة راجعة لكل مافى السورة . والظاهر أنها راجعة لقوله : « قد أفلح من تزكى » الخ . ويدل له بعض ما ورد فى كتب السنة .

هذا وقد روى عن أبىذر أنه قال : يارسول الله : ما كانت صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : « كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل! » أخرجه ابن الأثير فى جامعه .

وكانت صحف ابراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى عليه السلام . والمراد بها ما عدا التوراة . وفى حديث أبى ذر الذى أخرجه ابن عساكر وغيره : أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى ابراهيم عشر صحائف ؛ وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان .

وقد ذكروا أن مما فى صحف ابراهيم : « على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث : لقمة لمعاشه ، أو تزود لمعاده ، أو تلذذ فى غير محرم » . وما أحسن قول من قال :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا   وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى !

فأصبحنا على ما قال القائل :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه   وجاد بدنياه لما يتوقع

وبعد : فما فى هذه الآيات كاف فى نيل كل سعادة ، والبعد عن كل شقاء ، لأن قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » إشارة الى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغى ، أما فى الأمور النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة ، وأما فى القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذميمة . وقوله : « وذكر اسم ربه فصلى » إشارة الى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى . وأما قوله : « فصلى » فهو إشارة الى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى . وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع . ولهذا قال : « إن هذا لفى الصحف الأولى » .

وقد روى عن أبى ذر أنه قال : هل أنزل عليك يارسول الله شىء مما فى صحف ابراهيم وموسى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا أبا ذر « قد أفلح من تزكى » . ولعل هذا هو السر فيما روى عن ابن عباس من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى . كما أخرجه الترمذى وغيره . وقد سئلت عائشة : بأى شىء كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : « كان يقرأ فى الأولى بسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية بقل يأيها الكافرون ، وفى الثالثة بقل هو الله أحد والمعوذتين » . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى . فكان صلى الله عليه وسلم يختم عمله بالوتر المشتمل على هذه السورة التى تحث على تسبيح الله وتنزيهه ، وتذكير من يخشى ، وبيان أن طريق الفلاح إنما هو تزكية النفوس بامتثال أوامر الله تعالى ، والحث على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة التى هى خير وأبقى ، وأن ذلك مندوب إليه محثوث عليه فى صحف ابراهيم وموسى .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الدين لا يريد من الناس أن يتركوا الدنيا ولا يدعوها تستقر فى أيديهم ، أولا يطلبوا أن يكونوا أرفع أممها وأعز بنيها ، كيف وهو يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ويقول : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » ؟ الى غير ذلك . فما أراد من المؤمنين إلا أن يصيروا أحرارا فيها غير مستعبدين لها . فما أحب لهم إلا أن يكونوا أعزاء لا أذلاء ، ملوكا لا عبيدا ، فهو يريد منهم أن يجعلوها وسيلة لا مقصدا ، عالما أنهم إذا قاموا بتعاليم دينهم جاءتهم الدنيا وهى راغمة ، فكانت فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وكانوا ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ، يضعون كل شىء فى موضعه ، شأن الحكيم الذى عمل بتعاليم سيده ، فأخذ منها ولم تأخذ منه ، وبعد عنها ولم تبعد عنه .

وقد عجلنا بذكر هذه الكلمة خوفا من ذوى الجهالات وأرباب الغايات ، ممن لا يهضمون الحقائق ولا يعرفون غير الأهواء .

ولنختم هذا المقال بقول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .

أسأل الله أن يجعلنا ممن تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وأن يعرفنا قدر الدنيا التى حقرها صلى الله عليه وسلم غاية التحقير حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، كى لا نغتر بها ولا نطمئن إليها بمنه وكرمه !

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الاحتيال لتوقى النوازل

قال حكيم : الحازم يحتال للأمر الذى يخافه لعله أن لا يقع فيه ، فليس من القوة التورط فى الهوة ، ومن لم يتأمل العواقب بعين عقله ، لم يقع سيف حيلته إلا على مقتله .

وقال شاعر فى هذا المعنى :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى الصعب وهو مقصر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الأمر إلا وهو للقصد مبصر

السنة

الكبائر والسحر

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) هل الكبائر منحصرة فى السبع المذكورة ؟ (٣) حد السحر وما يترتب عليه من الآثار .

(١) أما معنى الحديث فهو ظاهر ، لأن معظم القضايا التى اشتمل عليها معلومة من الدين بالضرورة ، فكل مسلم يعلم أن الشرك بالله كفر بالخالق العظيم الذى خلق الانسان وأمده بما يحتاج إليه فى هذه الحياة الدنيا من مطعم ومشرب ، وهواء وشمس وقمر ، وأرض وسماء ، وغير ذلك من باقى العوالم المسخرة لهذا الانسان الضعيف الذى لا يملك لنفسه وجودا ولا عدما ولا ضرا ولا نفعا . وأى مسلم يخفى عليه أن الشرك بالله القاهر فوق عباده جحود ظاهر واعتداء صريح على مقام الألوهية المقدس ، فلا يصدر إلا عن سفيه جاهل بنفسه وبكل ماحوله من المظاهر الدالة دلالة واضحة على أن الله واحد لا شريك له ؟ بل أى عاقل يجحد ربه الذى خلقه من ماء مهين وجعله بشرا سويا ، أو يشرك معه فى عبادته أحدا من خلقه عن عقيدة أو نفاق أو رياء ، أو يعبد ربه على حرف : فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ؟ لاريب فى أن الانسان الذى يشرك مع الله غيره فى معنى الألوهية يكون كالحيوان الأعجم الذى لا يدرك شيئا من دلائل الوجود الواضحة التى لا تخفى على من له أدنى تمييز وإدراك ، فان من يشرك مع الله أحدا فى الايجاد أو فى الرزق فقد أنكر الإله الذى لا يماثله أحد من خلقه فى أخص صفاته ، وهى كونه تعالى منفردا بالخلق والايجاد .

وأى مسلم يجهل أن قتل النفس التى حرم الله جريمة من أسوأ الجرائم وأقبحها أثرا فى المجتمع الانسانى ؟ ويكفى فى شناعتها واستنكارها قوله تعالى : « ومن يقتلْ مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغَضِبَ الله عليه ولَعَنه وأعدّ له عذابا عظيما » .

وأى مسـلم يخفى عليه أن أكل الربا من الـكبائر المحرمة لما يترتب عليـه من استذلال المحتاجين واستنزاف أموالهم ، وحصرالثروة فى أيدى المرابين الذين يستلذون اقتناص أموال الناس وحبسها بين أيديهم بدون أن يستخدموها فى مصالح المجتمع وإصـلاح حال الانسان ؟

أى مسـلم يخفى عليه أن أكل مال اليتيم جريمة من أرذل الجرائم وأخسها ، لا يأتيها إلا الأنذال الذين قست قلوبهم ونزعت منهم عاطفة الرحمة والانسانية ، وأصبحوا كالحيوانات المفترسة ، بل هم أضل سبيلا ؟

أى مسلم يخفى عليه أن الفرار من قتال الأعداء الذين يريدون انتهاك حرمات الوطن والدين ، واسـتذلال الأحرار الأعزاء ، واستعمالهم استعمال الأرقاء الذين لا إرادة لهم ، جريمة من شر الجرائم ، وموبقة من أسوأ الموبقات ؟

لاريب فى أن كل هذه الخصال كبائر تنافى الفضائل الانسانية ، وتتعارض مع الحياة الـكريمة، وإذا فشت فى أمة من الأمم أهلـكتها لامحالة .

أما قذف المحصنات فقد بينا آثاره الضارة فيما أسلفنا من القول فى الحدود ، وسنذكر لك مايترتب على السحر من الآثار الضارة قريبا . فالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو المربى الأعظم الذى لاينطق عن الهوى ، قد نهى أمته نهيا جازما عن هذه الجرائم الموبقة التى يترتب عليها هلاك المرء فى الدنيا والآخرة ، فهى من مخازى هـذه الحياة الدنيا ، ومن شر آفاتها التى تدفع إليها الشهوة وتستلذها الأنفس الضعيفة ، ومن ورائها الخزى الدائم والعذاب الأليم .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثانى : فهو أن الموبقات المذكورة فى الحـديث معناها المهلـكات ، وهى موجبة للهلاك الدنيوى والأخروى لا محالة ، ولـكن الحديث الذى معنا لم ينص على كل الموبقات ، بل هناك موبقات ذكرت فى الأحاديث الصحيحة الأخرى ، وقد حصرها بعض العلماء فى إحدى وعشرين ، منها السبع المذكورة فى الحديث .

وثامنها : شهادة الزور ، وقدورد فى الصحيح أنها أكبر الـكبائر ، عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أنبئكم بأكبر الـكبائر ؟ (ثلاثا) : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ألا وشهادة الزور ، وقول الزور ، وكان متكئا فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

أما كون شهادة الزور جريمة خلقية شائنة تنافى النظم العمرانية وتفضى الى الفوضى فى كل نواحى الحياة فظاهر لا يخفى على أحد ، فهى شر مستطير يجب على الناس أن يتنزهوا عنه أنفسهم تنزيها تاما .

تاسعها : اليمين الغموس ، وهو أن يحلف على حصول شىء وهو عالم أنه لم يحصل : كأن

يقول : والله ليس لك علىّ دين وهو يعلم أنه له ، أو يحلف على أن فلانا لم يضرب فلانا وهو يعلم أنه ضربه ، فقد روى البخارى أن أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال اليمين الغموس . قلت وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرئ مسلم (يعنى بيمين هو فيها كاذب) . ولا نزاع فى أن هذه اليمين الفاجرة من الكبائر ، بشرط أن يترتب عليها قطع حق ، أو إيذاء من لا يستحق الإيذاء ، أو إدانة برىء ، أو نحو ذلك . أما إذا لم يترتب عليها شىء من ذلك فإنها تكون صغيرة لا كبيرة . وبعضهم يقول : إن اليمين الغموس كبيرة مطلقا ، لأن الحالف بها قد انتهك حرمة اسم الله تعالى ، فجزاؤه العذاب الأليم ، إلا إذا تاب توبة نصوحا . وليس لليمين الغموس كفارة إلا التوبة منها عند جمهور العلماء ، وقال الشافعية : إن لها كفارة كغيرها من الأيمان . ومتى أخرج كفارتها سقط عنه إثمها .

عاشرها : الزنا وقد سماه الله فاحشة ، قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة » . وأفظعه أن يزنى المرء بحليلة جاره ، فان فى ذلك العمل المنكر جريمتين : إحداهما الاعتداء الصريح على عرض إنسان غافل . ثانيتهما : انتهاك حرمة الجوار . ولا يصدر ذلك إلا ممن قسا قلبه ونسى ربه ، وأصبح كالحيوان الأعجم الذى لا هم له إلا قضاء شهوته . روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وحليلة الجار : هى زوجة الجار .

الحادية عشرة : الخمر ، وشرب الخمر كبيرة من الكبائر التى لها أسوأ الأثر فى حياة الانسان الصحية والخلقية ، وكان بعض كبار الصحابة يرى أنها أكبر الكبائر ، فقد روى أن أبا بكر وعمر سألا عبد الله بن عمرو عن أعظم الكبائر فقال : شرب الخمر . رواه الطبرانى باسناد صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا الخمر فانها مفتاح كل شر » .

الثانية عشرة : النميمة ، وهى من الجرائم الضارة بالمجتمع الانسانى ، لأن النمام دائما يسعى بين الناس ليقطع مابينهم من صلات ومودة ، ويجعل بعضهم لبعض أعداء ، وكفى بذلك شرا . أما كون النميمة من الكبائر فقد صرح به حديث البخارى ، وهو « أن رسول الله مر بقبرين يعذبان ، فقال : إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير ، بلى إنه كبير : أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لايستبرىء من بوله » . فهذان كانا يسهل عليهما النميمة وعدم الاستبراء من البول ، ويظنان أنهما من الأمور الهينة ، وهما عند الله من أسوأ الموبقات ، لما يترتب على الأول من تقطع صلات المودة بين الناس ، ولما يترتب على الثانى من فساد العبادة .

الثالثة عشرة : عدم التنزه من البول . الرابعة عشرة : اليأس من رحمة الله . الخامسة عشرة : الأمن من مكر الله . السادسة عشرة : استحلال بيت الله الحرام . السابعة عشرة : منع ابن السبيل من فضل المال .

الثامنة عشرة : عقوق الوالدين . وقد عرفت من الحديث الذى ذكرناه فى شهادة الزور أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

التاسعة عشرة : إخفاء بعض غنائم القتال ، ويقال له: غلول ، فمن كان فى ميدان القتال وغنم من الأعداء شيئا وأخفاه عمن معه فقد ارتكب كبيرة .

وقد عد بعضهم السرقة من الكبائر . والواقع أن السرقة من شر الجرائم ، ولكن الشارع لم ينص على أنها كبيرة ، وإن ذكر أنها أسوأ من هذه الكبائر فى الدنيا والآخرة ، فقد نفى الايمان عن السارق فقال : « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . وفى بعض الروايات : « فان سرق فقد خلع ربقة الايمان من عنقه » . وقد جعل الشارع لها عقوبة شديدة تتناسب مع فظاعتها كما بيناه لك فيما سلف . على أن الغرض إنما هو عد الكبائر التى نص فى الأحاديث على أنها كبائر ، فليس الغرض حصر الجرائم الدينية فى هذه الأشياء ، وإلا فان ترك الصلاة من أكبر الجرائم ، حتى قال بعض الأئمة : إن تارك الصلاة يقتل كفرا لاحدا ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « تارك الصلاة لاحظ له فى الاسلام » . ومثل الصلاة باقى الفرائض التى بنى عليها الاسلام ، وهى : الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام من استطاع اليه سبيلا . فهذه أركان الاسلام ، من تركها عامدا وهو قادر عليها لغير عذر مشروع فقد هدم دينه من أساسه .

(٣) وأما السحر الوارد فى الحديث ، فان المراد به الأقوال والأفعال التى تنافى أصول الدين ، وتتعارض مع الأخلاق الشرعية ، ولهذا عرفه الفقهاء بأنه كلام مؤلف يعظّم به غير الله تعالى وتنسب إليه مقادير الكائنات . ولا ريب فى أنه بهذا المعنى كبيرة من أفظع الكبائر ، بل قد يكون ردة ظاهرة بصرف النظر عما يترتب عليه من الآثار ، لأن الذى يعظم غير الله بما هو مختص بالله وحده كافر . وقد نقل عن بعض فاسدى الأخلاق الذين يحترفون السحر أنه يسب الإله ويسجد لما يسميه قرينة . ومنهم من يضع المصحف الشريف تحت قدمه ، ومنهم من يهين الملائكة بالسب ، ومنهم من يصف الاله بما لا يليق به ، وكل ذلك ردة صريحة وكفر شنيع بلا نزاع ، فهو من أكبر الجرائم سواء ترتب عليه الأثر المطلوب أولا .

وقد فسر بعض الفقهاء السحر بأنه أمر خارق للعادة ينشأ عن سبب معتاد . ثم إن هذا السبب إن كان هو العبارات الفاحشة التى أشرنا إليها كان ردة ، وإن كان بالعبارات الخالية من ذلك كالأسماء الالهية ، أو استعمال معانى الأحرف التى لاتنافى الدين فانه ينظر فيما يترتب

عليه من الآثار : فان ترتب عليه ضرر لمظلوم غافل ، أو إساءة الى برىء فى نفس أو مال ، فانه يكون محرما .

وحاصله : أنه إذا كان أقوالا وأفعالا تنافى الدين وتوجب تكفير صاحبها كان كفرا بصرف النظر عما يترتب عليه من الآثار ، وإن كانت هذه الأقوال أو الأفعال محرمة كان حراما ، أما إن كانت جائزة فانه ينظر لما يترتب عليها من الآثار : فان كانت محرمة كان حراما ، وإلا فلا .

هذا هو حكم الفقهاء فى السحر ، ويكاد يكون مجمعا عليه فى المذاهب ، وهو حكم صحيح صادق ، وفتوى لاغبار عليها .

وقد بحث كثير من العلماء فى حقيقة السحر فقال بعضهم : إنه تخييل لاحقيقة له ، والى هذا الرأى ذهب كثير من العلماء ، ومنهم الاسترابادى من الشافعية ، وأبو بكر الرازى من الحنفية ، وابن حزم وكثير من العلماء غير هؤلاء ، فهذه الفئة تجزم بأن السحر هو من باب الخيال كالألعاب السيمائية التى يقوم بها مهرة الحواة ومن على شاكلتهم ، ولكن جمهور العلماء يقولون : إن للسحر حقيقة ، وقد تترتب عليه آثار حقيقية ، وهؤلاء فريقان : فريق قال : إن الآثار المترتبة عليه محدودة ، فقد يؤثر فى بعض النفوس بعض التأثير ؛ وفريق قال : إن الآثار المترتبة عليه غير محدودة ، فقد ينقلب بالسحر الحيوان إنسانا وبالعكس ، ولكن قائل هذا لم نعول عليه . والرأى المعتمد هو الأول ، وقدذكر بعض المحققين أن السحر صناعة من الصناعات التى يستخدمها الانسان فى إظهار الأمور على غير ما هى عليه فى الواقع ، وقد يكون لبعض أنواع السحر تأثير ما على بعض النفوس أو الأبدان . هذا هو رأى المحققين من العلماء .

على أن الباحث فى هذه المسألة يجب عليه أن ينظر الى الواقع ، ويجعل للنظر الصحيح قيمته فى حكمه ، فهل هناك أدلة واقعية تثبت أن السحر قد ترتبت عليه آثار صحيحة ؟ وهل هناك أدلة من الكتاب أو السنة الصحيحة تدل على ذلك ؟

الواقع أن الذين قد شهروا بإتقان السحر هم قدماء المصريين ، وهؤلاء قد تحدث عنهم القرآن الكريم ، فقد أخبرنا بأن فرعون قد جمع من قومه كل سحار عليم وجاء بهم مجتمعين ، فماذا كان من أمرهم ؟ إنهم لم يأتوا إلا بخيال لا حقيقة له ، كما قال تعالى : « يخيَّل اليه من سحرهم أنها تسعى » . فهذا صريح فى أن سحرة فرعون ، وهم أمهر السحرة ، لم ياتوا إلا بخيال لاحقيقة له ، ولو كان للسحر أثر حقيقى لجاءوا به فى هذا الوقت العصيب ، وليس من المعقول أبدا أن يأتى فرعون بكل سحار عليم فى مقام الانتصار لأعز شىء عندهم ، ثم يكون قصارى أمرهم أن يأتوا بخيال لا حقيقة له وهم عالمون بغيره . الواقع أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن قصارى أمر السحر هو ذلك الخيال الذى جاء به سحرة فرعون .

فهذه هى حجة الذين يرون أن السحر خيال لا حقيقة له .

أما الفريق الثانى فإنه يحتج بقصة هاروت وماروت الواردة فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل : هاروت وماروت » . ولكن الواقع أن هذه الآية الكريمة لا تصلح حجة لأنها لم تتعرض لحقيقة السحر ، فقد يكون نوعا من أنواع الفتنة أو الحيلة التى يسعى بها بعض النمامين للتفريق بين الزوجين ، ولهذا حددت الآية الآثار المترتبة على أعمال هؤلاء ، فقد قال تعالى : « فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه » . فكل ما كان يترتب على فعلهم من الآثار هو بين المرء وزوجه ، وهذه مسألة قد تقع بغير السحر الخارق للعادة ، ولنا من الواقع ما يؤيد هذا ، فإن كثيرا من النمامين قد أحدثوا فتنا تفرق بين الزوجين ، فليس فى الآية الكريمة حجة على أن السحر له أثر حقيقى . ولم يبق للقائلين بأن السحر له أثر حقيقى إلا الاستدلال بحديث البخارى الذى رواه عن السيدة عائشة من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد سحر ، وأنه كان يخيل اليه أنه يفعل الشىء ولم يفعل . وهذا حديث صحيح لم يتعرض أحد للقدح فى أحد من رواته ، وليس من الحسن أن يقال : إن مثل هذه الأحاديث تجزئ فى المسائل الفرعية لا فى المسائل الاعتقادية فإن العقائد لا تبنى إلا على الأدلة اليقينية والأحاديثُ مهما كانت صحيحة فهى أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن ، لأن الأحاديث الصحيحة يجب أن يكون لها قيمتها فى الاثبات ، فهى معضدة للبراهين العقلية .

إنما يجب أن نفهم الحديث على وجه يطابق أصول الدين ، ويوافق ما يقضى به العقل السليم ، وإلا فلا يصح لنا أن نحتج به على عقيدة من العقائد .

فهذا الحديث الذى رواه البخارى فيه شىء يجب أن ينزه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قول عائشة : إنه كان يخيل اليه أنه يفعل الشىء ولم يفعل ، لأنه إذا أخذ على ظاهره كان قدحا فى رسول الله ، وهو المصون المنزه فى تفكيره وإدراكه عن كل شائبة من شوائب النقص ، ولهذا يجب أن نفهم هذه الجملة على وجه معقول واضح :

إن هذه الجملة نطقت بها السيدة عائشة تريد بها أنه كان يخيل اليه أن يأتيها فلم يستطع ، وبالتالى أنه كان يجد فى نفسه رغبة فى جماعها فاذا هم بها عجز عن الفعل . ونظرا لكون هذا متعلقا بها عبرت عنه بهذه العبارة حياء . ويدل على ذلك ما رواه عبد الرزاق عن ابن المسيب وعروة ابن الزبير من أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر فى هذا المعنى فقط ، وأن السحر لم يحدث فى قواه الباطنة أى أثر ، بل حبسه عن إتيان زوجه عائشة . وهذا هو النوع المعروف بين الناس (بربط الزوج) . وعلى هذا يرتفع الاشكال الذى أورده بعضهم على الحديث وحكم بعدم صحته لعصمة النبى صلى الله عليه وسلم عن التأثر فى أى ناحية من نواحى الادراك بأى أثر ولو مؤقتا . ولهذا قال فى فتح البارى : إن بعض العلماء قال : إن تأثير السحر منحصر فى التفريق بين المرء

وزوجه أو نحو ذلك . فاذا فهمنا هـذا الحديث على هذا الوجه لم يكن فيه ذلك الضرر الذى هـوّل به بعضهم وأنكر من أجله الحديث . فلا مانع حينئذ من أن يكون للسحر بعض التأثير الحقيقى فى بعض الأحيان . على أن هذا الحديث لا يدل دلالة قاطعة طبعا ، لأنه لا يفيد إلا الظن ، ولهذا قال المنكرون للسحر : إن مثل هذا الحديث الصحيح يصح الاحتجاج به فى الأحكام الفقهية الفرعية ، أما فى إثبات عقيدة فلا ، لأن اعتقاد أن السحر له تأثير حقيقى ، لا يمكن إثباته إلا بالدليل العقلى الذى يؤيده الواقع ، ولم توجد فى الخارج إلا حوادث آحادية ينقلها أناس غير ثقات ، ولو كان له حقيقة لقصها علينا كتاب الله تعالى فى مسألة سحرة فرعون .

عبد الرحمن الجزيرى

فى ذم الكبر

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما وجد أحد فى نفسه كبراً إلا لمهانة يجدها فى نفسه » .

وقال بعض الحكماء : « الكبر أخبث سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، لا يرى صاحبه أبدا إلا فظا غليظا ، ولا يرى لأحد سواه فى الفضل حظا حظيظا ، وكفى به شيمة مشئومة ، وخلة مذمومة ، أهلكت الأكابر حديثا وقديما ، وعاد بها الكريم من الرجال ذميما مليما » .

وقالوا : « من قل لبه ، كثر عجبه » .

وقال أبو مسلم : « ما ضاع إلا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط ، ولا تعصب إلا دخيل» .

قال محيي الدين محمد النحوى :

ومعتقد أن الرياسة فى الكبر ... فأصبح ممقوتا به وهو لا يدرى
يجر ذيول الفخر طالب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

وقال غيره :

وقل لمعتصم بالتيه من حمق ... لوكنت تعرف ما فى التيه لم تته
التيه مفسدة للدين ، منقصة ... للعقل ، منهكة للعرض فانتبه

اللغة العربية بين الضعف والقوة

فى برامج الدراسة — دعائم الإصلاح

— ٤ —

تحدثنا فى المقال الثالث عن الدوافع التى كانت سببا فى وضع قواعد اللغة العربية وتأصيل فن النحو والبلاغة وغيرهما من فنون الفصحى ، وأبنّا أن أهم تلك الدوافع كان يرجع الى أمر دينى ، لأن الغرض الأعظم للرعيل الأول من أئمة اللغة كان صونَ القرآن الكريم والسنة النبوية أن يتطرق إليهما لحن ، أو يعتاص على غير أهل السليقة فهم شىء من أسلوبهما المبين ؛ وأوضحنا أن هذا الغرض الدينى مشى الى المدارس الاسلامية فكانت تدرس فنون اللغة على ضوئه ، وأن الأزهر كان ولا يزال فى طليعة مدارس الاسلام العظمى يدرس اللغة العربية وفنونها على ذلك النهج الذى أسّسه القدامى ؛ وقد أمعن الأزهر فى تشبثه بهذا المنهج الدراسى حتى تميز من بين الجامعات العالمية والمعاهد العلمية فى طرائق الدراسة بطريق البحث العميق الذى يعتمد على نقد الجملة فى مفرداتها وتركيبها ومدلولها ، وكان من أثر ذلك تلك النهضة التأليفية التى خلفت للتاريخ الاسلامى ثروة من الكتب لم يكن لغير المكتبة الاسلامية مثلها ، وكانت فى أكثر العهود إنما تصدر عن الأزهر الذى جعل لمصر فى العالم الاسلامى مكان الزعامة الأدبية ، فرحل إليها أفاضل العلماء الذين نبت بهم أوطانهم ، وضاقت عليهم ساحات بلادهم ، فتقبلتهم مصر بقبول حسن ، وأسبغت عليهم من نعمها ما مكن لهم وسائل البحث العلمى ، وفتح أمامهم مغاليق الأفكار ، بينما كانت الجهالة ضاربة أطنابها فى العالم شرقه وغربه ، وتقلص ظل الفصحى ، وانتشرت العجمة فى أقطار الاسلام ، بانتشار الألسنة الحاكمة المسيطرة ، وظل الأزهر يصول مع نفسه فى الميدان وحده ، وكان من العسير جدا أن يفرض الأزهر أساليبه العميقة على الجماهير المتبربرة ، وكان من العسير أيضا أن ينزل الأزهر عن طرائقه فى البحث ليلقن الناس من جديد مبادئ اللغة العربية تلقينا يعيد إليها ألسنتهم ، ويعيدها الى مخاطباتهم .

فلما أخذت الحياة فى الشرق تستيقظ على دوى النهضة فى الغرب ، وتنبه الى خطر اللغة نفر من أبناء العروبة فى الشام ، وبدءوا محاولاتهم فى الإصلاح اللغوى ، نهضت مصر الى الأزهر تستنهضه أن يمدها بروح من عنده ، وتطلب إليه أن يسعفها بمن ادخرتهم فى رحابه ليقوّموا من ألسنتها ، ويصلحوا من عجمتها ، وينشئوا جيلا جديدا ينهد فى مراتع العربية

الخالصة ، فقدّم الأزهر نوابغ أبنائه مليئة أدمغتهم بقواعد اللغـة واصول فنونها ، محاطة بأسوار من الاعتراضات والأجوبة والبحوث ، والأزهر عـلّمهم ألا ينفذوا الى تلك القواعد والأصول إلا من طريق هـذه البحوث والاعتراضات لتـكون صافية من الشبه نقية من التوهينات .

ومن أين للأمة فى بدء نهضتها شباب له من المدارك مايستطيع به أن ينفذ وراء أستاذه الأزهرى الى قواعد اللغة متخطيا أسوارها الأزهرية ؟ فكر جماعة من المصلحين الذين عرفوا شيئا من طرق التعليم عن مدارس الغرب وجامعاته ، فرأوا أن يستخلصوا بعضا من شبـاب الأزهر لم يـكملوا مرحلة الدراسة الأزهرية ، ولـكنهم ثقفوا من قواعد العـلم ما فيه غنية ، وأن يختاروا لهم فريقا من الأساتيذ ليس من دأبهم التعمق فى الأبحاث اللفظية ، والوقوف عند غايتها ، وأن يكون فى فطرهم استعداد الى الأدب الانشائى ، وأن يكون لهم نظر فى نصوص الأدب العربى ، وأن يجعـلوا الى جانبهم فريقا لم تطل إقامته فى الأزهر ، بل أضاف الى حياته الأزهرية حياة مدرسية أوحياة أوربية أخذ عنها طرقا جديدة فى التعليم والتربية ، وتم بهذا الوضع إنشاء مدرسة دار العلوم لدراسة اللغة العربية دراسة نظامية بجميع فنونها ، وتخريج أساتذة يقومون على تربية الجيل الجديد وتعليمه تعليما يكـفل للأمة معالجة الاصلاح اللغوى من طريق نشر الثقافة ، فهى المعهد الثانى بعد الأزهر للقيام بمهمة الاصلاح اللغوى ؛ ومن الانصاف أن نقرر أنها قدمت الى الأمة فى هـذا السبيل خدمة جلى ، قصر دونها كل معهد سواها قبل إصلاح الأزهر الحديث .

فاذا كان الأزهر ظل طوال حياته المباركة الحـارس الأمين لتراث اللغـة العربية ، ولولاه لـكانت الآن إحدى اللغات الأثرية ، فان مدرسة دار العلوم استطاعت فى مدى حياتها أن تغذى النهضة بجنودها المدربين ؛ وقد ظلت تستمد من الأزهر طلابها فيمدها الأزهر من خيرة أبنائه ، وصفوة شبابه ممن تكونت عقولهم تكوينا علميا ومرنوا على البحث ، فاذا دلفوا إليها تلقتهم بنظامها وطرائقها التعليمية وفنونها العربية وكتبها الأزهرية ، فتمّ صقلهم ، وتخرجهم أساتذة لهم علم الأزهر وبحثه ، ولهم نظام الطرق الحديثة فى التربية والتعليم .

كان هذا التعاون بين الأزهر ومدرسة دار العلوم أجدى ماعرفته النهضة الأدبية فى مصر ، بل فى الشرق العربى ، وتخرج به قادة الاصلاح الأدبى وزعماء النهضة اللغوية ؛ فهل كان من الخير للعلم واللغة والأدب ، ولمستقبل الأمة الثقافى ، أن يدوم ذلك التعاون وتقوى أواصره ، أو كان من الخير أن يزول وتتقطع وشائجه ؟

تقوم وزارة المعارف على إدارة مدرسة دار العلوم ، وقد أنشأتها كما قدمنا لتخريج أساتذة يقومون بمهمة تدريس اللغة والأدب فى مدارس الحـكومة الابتدائية والثانوية ، وعولت منذ

إنشائها على أخـذ طلابها من بين طلبة الأزهر الذين قطعوا مرحلتيه الابتدائية والثانوية ، وهم حينئذ يكونون قد درسوا جميع الفنون العربية ، فلا يحتاجون إلا الى تنظيم معلوماتهم وتعرف طرق الانتفاع بها ، وتطبيقها على مرافق الحياة ، وعرض النصوص الأدبية ، والمرانة على الكتابة وقرض الشعر ، ومن ثم بقى البرنامج الدراسى للغة فيهما موحدا ، فهو فى دار العلوم عينه فى الأزهر من جهة الكتب والفنون وتوزيعها على الفرق المختلفة ، فكان من هذا الوضع الحكيم ذلك التعاون الصادق ، وكانت نتائجه الطيبة وثمراته المباركة التى يشهد بها تاريخ النهضة ويشهد بها الواقع المحسوس ، ولكن الوزارة فى زمن مضى لم تستمرئ هذا التعاون فراحت تفصم عراه وتنشىء لمدرسة دار العلوم مدرسة تجهيزية يتقدم إليها حاملو الابتدائية من مدارس الحكومة ، أو من كانوا من مدارس المعلمين الأولية ؛ ومن الغريب أنها أبقت البرنامج الدراسى للغة العربية فى دار العلوم بعينه الذى كان يدرسه طلاب الأزهر فيها بعد درسه فى قسميه الابتدائى والثانوى ، ولكن دار العلوم استعصت على هذا النظام الذى يقطع صلتها بالأزهر ، وأبت إلا أن تعود اليه تستمده تلاميذها ، وتسير معه فى خدمة اللغة وآدابها ، وعاد اليها وضعها الأول الذى كانت به حلقة الاتصال بين الأزهر ومدارس الحكومة ، ونشأ على يديها جيل يفهم اللغة العربية ، ويتخاطب بها ، ويكتب بأساليبها ، ويقدرها قدرها ؛ وشعر الأزهر بحاجته الى الخروج من عزلته الثقافية ، والتعرف الى حاجات الأمة فى تعليمها وتربيتها بطرق تتفق مع نهضتها ، فطلب الاصلاح ، وألح فى الطلب ، ووضعت لإصلاحه مشروعات متعددة ، لم يطمئن الى بعضها ، لأنها باعدت بينه وبين طبيعته الدراسية العميقة ، وكادت تحيله الى مدرسة ضيقة الحدود ، لا تجد فيها علوم الاسلام وفنون العربية مكانها اللائق بتاريخها وتاريخ الأزهر ، فأبى إلا أن يصلح إصلاحا يدنو من طبيعته وينتزع من تاريخه الدراسى ، حتى وضع مشروع الجامعة الأزهرية الذى جعل التعليم فى مرحلتيه الابتدائية والثانوية موحدا فى برامجه ومناهجه ، وجعله فى مرحلته الثالثة قائما على التخصص النوعى ، وأنشأ له كلياته الثلاث ، وحدد لكل كلية منها اتجاها خاصا تدرس العلوم الاسلامية فى دائرته ، وكان من الطبيعى أن تعنى كلية اللغة العربية عناية فائقة بالثقافة العربية ، وأن تكون الدعامة القوية فى الاصلاح اللغوى والنهوض الأدبى ؛ وقد امتاز مشروع الجامعة الأزهرية بالتخصص الفنى الذى جعل مرحلة رابعة للتعليم فى الأزهر ، وخص كل كلية بعدد من الشعب الفنية ، تدرس كل شعبة فنا أو فنين يشتد الاتصال بينهما ؛ وأريد من هذه المرحلة التبحر العلمى والتوسع فى البحث والاعتماد على طريقة الازهر العميقة التى سار عليها فى عهوده الماضية مع الأخذ بجانب من النظام الذى يجعل ذلك البحث العميق مفيدا ومنتجا ؛ ورأى الأزهر أن مدرسة دار العلوم أقرب الى روحه ومناهجه فاستعان فى نهضته وإصلاحه الدراسى بأساتذتها ، وهم قبل ذلك أبناؤه الذين رباهم بين أحضانه ، ثم قدمهم إليها لتصقل من أفكارهم

وتهذب معارفهم وتنظم معلوماتهم ، وكان حظ كلية اللغة العربية من هـؤلاء الأفاضل أوفر حظ ، لوحـدة الغرض والمناهج الدراسية بين المـدرسة والـكلية ، وقد أدوا رسالتهم خير أداء ، وازدادت الصلة بين كليـة اللغة العربية ومدرسـة دار العلوم وثوقا ، لو لقى من ولاة الأمور عناية فى شىء من الاخلاص لصار الى وحـدة علمية تتضافر فيها القوى على إنهاض الفنون العربية وإعادة مجدها الذى كان لها فى عصور الاسلام الذهبية ، وهذا ما نقصد إليه من توحيد برامج الدراسة فى مناهج اللغة العربية ، تحقيقا للاصلاح المنشود من أقرب طريق .

وإذا اتجهنا الى ناحية الجامعة المصرية وجدنا بكلية الآداب فيها قسما خاصا باللغة العربية يستقى من منابع مدارس الحـكومة ، وهذه المدارس فى اللغة العربية بفنونها لا توازى مطلقا القسم الابتدائى بالجامعة الأزهرية ، فحامل الشهادة الابتدائية من الأزهر يدرس فى النحو الأجرومية مشروحة ، والأزهرية والقطر والشذور ، ثم هو بعد ذلك يدرس الألفية وشرحها لابن عقيل ؛ وحامل الشهادة النهائية للمدارس الثانوية الحـكومية لم يدرس من النحو إلا فصولا مختصرة من أبواب مختارة لا تعطى الطالب فكرة عن فن النحو وقيمته من بين فنون العربية ؛ أما الفنون الأخرى من فنون اللغة العربية كالصرف والبـلاغة والعروض فليس لهـا وجود علمى فى مدارس الحـكومة ، اللهم إلا شذرات من البلاغة لا تفيد الطالب فائدة علمية فى شىء من حياته الثقافية .

هؤلاء الطلاب الذين درسوا هـذه الدراسة الضعيفة فى اللغة العربية يتقبلهم قسم اللغة العربية بكلية الآداب ليخصصهم فى فنون العربية ، ويدرس لهم كتبا ، ويسلك بهم مسلـكا سنتحدث عنه فى مقال تال إن شاء الله تعالى ؟

صادق ابراهيم عرجون

قلة الـكرام بين الناس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كابل مائة لايـكاد يوجد فيها راحلة » .

وقال حكيم : « الـكرام فى اللئام كالغرة فى جبهة الفرس ، أو كالرقمة فى يد الدابة » .

وقال غيره : « لا يكاد يوجد كريم ، حتى يخاض اليه ألف لئيم » . وقال ابن المعتز : « إذا خرفت الدولة ، وقرب زوالها ، هبطت بالاخيار ، ورفعت درج الأشرار » .

وقال السموأل بن عاديا :

تعـيرنا أنا قليـل عـديدنا ... فقلت لهـا إن الـكرام قليل
وما ضرنا أنا قليـل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليـل

أصول التشريع

بحث فى الاجتهاد والاجماع

آثار الاجتهاد . تعويل الصحابة والأئمة عليه . هل ورد لكل حادثة نص ؟ ما حكم الاجتهاد شرعا ؟ هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد ؟ كيف ينظم الاجتهاد والاجماع ؟

١ — آثار الاجتهاد :

مازال السلف والخلف يأمرون بالاجتهاد ، ويمدحونه ويحضون عليه ، لما يترتب عليه من حماية الوطن الاسلامى من احتلال الشرائع والقوانين الأجنبية له ، ولضمان حفظ الشريعة الاسلامية ، وبقائها واستمرارها ، وحفظ جدّتها ، ونشاطها وعدم فتورها ، ولضمان صلاحيتها لكل زمان ومكان ، ولسد حاجات الناس فى التشريع ، وتكفى أحكام الحوادث والوقائع التى تتجدد وتحدث فى كل يوم ، ولتكون غنية المجتمع الانسانى فى أقضيته ، ومرافعاته ، وعقوده وتوثيقاته ، وجميع معاملاته وتصرفاته التى تحتاج الى تشريع وقوانين الى يوم الدين .

٢ — تعويل الصحابة عليه :

ولعظم فوائد الاجتهاد ، وجليل آثاره ، عوّل عليه الصحابة رضى الله عنهم بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وسدوا به حاجات المسلمين فى كل شأن من شئون الحياة الداخلية والخارجية التى تحتاج الى تشريع ، ولم يرد لها نص خاص .

قال ولى الله الدهلوى : لما انقضى عصر الرسول الكريم ، وتفرق الصحابة فى البلاد ، وصار كل صحابى مقتدى به فى ناحية من النواحى ، وكثرت الوقائع ، ودارت المسائل ، واستفتاهم الناس فيها ، فأفتى كل صحابى حسب مارآه من عبادات الرسول ، وبما حفظه وعقله من فتاواه وأقضيته صلى الله عليه وسلم ؛ أو بما استنبطه من ذلك ؛ وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برأيه ، وعرف العلة التى أدار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها الحكم فى منصوصاته ، فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهدا فى موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام .

وقال فى « فجر الاسلام » : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانقطع الوحى ، واتسعت المملكة الاسلامية اتساعا عظيما ، فواجه المسلمون بهذا الفتح مسائل كثيرة ، فى كل شان من شئون الحياة ، تحتاج الى تشريع ، فى جميع الشئون الداخلية والخارجية ؛ ولم يدّع أحد أن القرآن والسنة الصحيحة نصا فى المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج

عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع ، وهو (الرأى) الذى نظم بعد ذلك وسمى (القياس) .

جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص . وقد نقل الينا المؤرخون ، والمحدثون والفقهاء ، جملة صالحة من المسائل التى استعمل فيها الصحابة رأيهم .

فلم يكد يتوفى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية ، وهى : من يتولى الأمر بعده : أمن المهاجرين ، أم من الأنصار ، أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ؟ وإذا فصل فى ذلك ، فمن هو خير من يتولاها ؟

لم يرد فى كل ذلك نص من كتاب ولا سنة .

فلم يكن إلا أن يستعملوا رأيهم ، وقد كان ، فالمحضر الذى ذكره المؤرخون لاجتماع السقيفة يدلنا على كيفية استعمال رأيهم ، وتقليب الأمر على وجوهه .

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الردة ، فرأى قوما يمتنعون عن أداء الزكاة مع إقرارهم بالاسلام ، وإتيانهم للصلاة ، فكيف يصنع بهم ؟ ولم تحدث حادثة كهذه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فلجئوا الى (الرأى) ، فقال عمر : كيف نقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ؟ فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها ؟ فمن حقها إيتاء الزكاة ، كما أن من حقها إقام الصلاة .

وكذلك عرضت فكرة جمع القرآن فى مصحف ، واختلف الرأى أولاً بين أبى بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبى بكر لما يقول عمر .

وعرضت لهم مسألة الجد مع الأخوة : هل يرث الأخوة ؟ فالقرآن لم ينص على هذه المسألة ، إنما نص على الأب مع الأخوة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر الى أنه يحجبهم كالأب ، وذهب آخرون ، ومنهم زيد بن ثابت ، وعلى ، وعمر ، الى إرثهم معه .

وأرادوا أن يعطوا العطاء ، أعنى الغنائم التى يغنمونها فى الحروب ، فاختلفوا : هل يسوّى بين المهاجرين والأنصار ؟ . فقال عمر : لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجرا الى النبى صلى الله عليه وسلم كمن دخل فى الاسلام كرها . فقال أبو بكر : إنما أسلموا لله وأجورهم على الله ، وإنما الدنيا بلاغ . وكان أبو بكر يعمل برأيه فيسوى بينهم ، ولما أفضت الخلافة الى عمر فرق بينهم ، ووزع على تفاوت درجاتهم .

ولما رفعت الى زيد بن ثابت مسألة من مات عن زوج وأبوين ، أعطى للأم ثلث ما بقى ، فقال ابن عباس : أين وجدت فى كتاب الله ثلث ما بقى ؟ فقال زيد : أقول برأيى ، وتقول برأيك .

والمتتبع لما روى عن العصر الأول فى (الرأى) يرى أنهم كانوا يستعملون كلمة (الرأى) بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة (العدالة)، وبعبارة أخرى: ما يرشد إليه الذوق السليم مما فى الأمر من عدل، وظلم. وفسره ابن القيم «بأنه يراه القلب بعد فكر وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب».

وكان سيدنا عمر رضى الله عنه يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية، أو الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن: بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته.

وعلى الجملة فبالاجتهاد نما الفقه الاسلامى ذلك النمو العجيب، وأصبح بحرا زاخرا لا ساحل له، وأضحى فى سعته وثرائه وشموله لا نظير له فى جميع الشرائع والقوانين القديمة والحديثة. وحسبه فضلا، وكفاه فخرا أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل والانصاف إلا ولفقيه مسلم قول فيه يوافق حاجة من حاجات البشر فى التشريع.

هل ورد لكل حادثة نص؟

تعرّض القرآن الكريم لجميع أنواع ما يصدر عن الانسان من أعمال: الى العبادات من صلاة وصوم، الى النظم الاجتماعية من زكاة وحج، وأحوال الأسرة من زواج وطلاق وميراث، الى الأمور المدنية كبيع وإجارة وربا، الى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنا وقطع يد، الى الشئون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب، وهو فى كل هذا يتعرض غالبا للامور الكلية، ولا يتعرض كثيرا للتفاصيل والأمور الجزئية، كما فى «فجر الاسلام»، فهو قد نص على الأصول وترك معرفة الحكم فى الجزئيات الى النظر والاستدلال؛ ولذلك قال ابن بَرْهان: البارى سبحانه وتعالى قادر على التنصيص على حكم الحوادث والوقائع، ولم يفعل، ولكنه نصّ على أصول، وردّ معرفة الحكم فى الفروع الى النظر والاستدلال.

وقال الشهرستانى: نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لم يقبل الحصر والعدّ، ونعلم قطعا أنه لم يرد فى كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك، والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية — وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى — علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد.

وقال ابن سراقة فى كتابه إعجاز القرآن: لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا.

وقال الامام النووى فى شرح مسلم: إن النصوص الصريحة لا تفى إلا باليسير من المسائل الحادثة.

وقال العلامة ابن خلدون : نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ، ويناظرون الأمثال بالأمثال باجماع منهم ، وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك ، فان كثيرا من الواقعات والحوادث بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج فى النصوص الثابتة ، فقاسوها بما ثبت ، وألحقوها بما نص عليه بشروط فى ذلك الالحاق تصحح تلك المساواة بين الشيئين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد ، وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم ، وهو (القياس) ، وهو رابع الأدلة . واتفق جمهور العلماء على أن أصول الأدلة هى : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ؛ وإن خالف بعضهم فى الاجماع والقياس ، إلا أنه شذوذ .

وقال إمام الحرمين فى البرهان : لم يخل أحد من الصحابة عن اجتهاد . ومن أنصف لم يشكل عليه إذا نظر فى الفتاوى والأقضية أن تسعة أعشارها صادرة عن الرأى المحض ، والاستنباط ، ولا تعلق لها بالنصوص ولا بالظواهر .

ومما ذكر يتبين أنه لم يرد لكل حادثة جزئية ، أو واقعة فرعية ، نص خاص ، لذلك عوّل الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة والعلماء على الاجتهاد فى دائرة الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، فسدوا بهذا حاجات الناس فى التشريع . ولو سرنا على منهاج سلفنا الصالح ونسجنا على منوالهم فى الاجتهاد ، ما ابتلى المسلمون باحتلال الشرائع والقوانين الأجنبية للوطن الاسلامى ، ولزاد نمو الفقه الاسلامى ونفوذه وسيطر على عالم التشريع ؛ فما هو الدواء لما نحن فيه ؟ هذا ما سنتكلم عليه فى مقال تال ؟

السيد عفيفى
من علماء الأزهر الشريف
بالمحاكم الشرعية

ما حد العقل ؟

قيل لحكيم : ما مقدار العقل ؟ فقال : « ما لم يركامِلا فى إنسان فلا يعرف له مقدار » .

وقال آخر : « لكل شىء غاية وحد ، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار فى الرائحة والطيب »

واختلفت فلاسفة المسلمين فى ماهيته كما اختلفوا فى حده : فقال بعضهم : هو نور وضعه الله طبعا ، وغرزه فى القلب ، كالنور فى العين ، وهو ينقص ويزيد ، ويذهب ويعود ، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور ، كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور ، وعمى القلب كعمى البصر ، قال الله تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .
وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الأعمى من عمى بصره ، ولكن الأعمى من عميت بصيرته » .

دفاع عن القرآن الكريم

— ٢ —

تعليق على ترجمة ابن أبي داود

من الناس فريق يتحرى الحقائق العلمية حين يسردها من معلوماته التي حصلها من الاطلاع على الكتب أو تلقاها من أفواه المشايخ والأساتذة، ويراعي الضبط والدقة حين ينقلها عن كتاب من الكتب مع إسنادها الى المصدر الذي نقل عنه، شأن العلماء الذين لايعنيهم إلا تقرير الحقائق من حيث هي حقائق، دون أن يكون لهم غرض معين سيئا كان أو حسنا.

ومنهم فريق دأب على تشويه الحقائق العلمية، سواء قررها من معلوماته، أو نقلها عن كتاب، وهؤلاء لا يخلو حالهم من أن يكون لهم غرض معين يريدون أن يصلوا إليه حسنا كان أو سيئا، وأن يحملوا القارئ على الوصول إليه واعتقاده، فتراهم يذكرون بعض الحقائق ويتركون بعضها، وقد تكون تلك الحقائق مفاهيم مسائل علمية بعضها مرتبط ببعض، فاذا سردت الألفاظ الدالة عليه جميعها دلت على معنى كامل ومفهوم تام، بخلاف ماإذا ذكر البعض وترك البعض، فقد يدل المذكور على معنى لكنه غير المعنى الكامل الذي يفيد الفائدة التامة. وإذا ما نقلوا من كتاب تراهم ينقلون جملة ويتركون جملة، وينقلون عبارة بالنص ويتصرفون في أخرى. وفي كتب التراجم والطبقات: ينقلون مدح المترجم ويتركون تجريحه، أو العكس، ومع ذلك لايذكرون اسم المصدر المنقول عنه. وهؤلاء هم أصحاب الأغراض من العلماء الغربيين. فالدكتور ارثر جفري: كتب في مقدمته بعض عبارات المدح والثناء على ابن أبي داود، ولم يذكر كلمة واحدة في تجريحه، ومع ذلك لم يبين لنا المرجع الذي رجع إليه وأخذ عنه من كتب التراجم والطبقات.

فرجعنا نحن إليها باحثين منقبين فلم نجد كثيرا منها تعرض له مع شهرته.

فكتاب تهذيب التهذيب لابن حجر، مع كونه يقع في اثني عشر مجلدا مملوءة بتراجم الرجال، لم نجده ذكره، وكذا الحال في غيره من كتب الرجال، فتركنا المراجع الخاصة بالثقات، وأتينا الى كتب المجروحين والضعفاء، فوجدنا الذهبي ترجمه بالترجمة الوافية السابقة، في كتابه الذي ألفه في نقد الرجال وسماه: ميزان الاعتدال في نقد الرجال. ومن عجب أني وجدت الدكتور جفري نقل عنه ما يخص المدح وترك ما يخص التجريح، ولعله لم يشأ أن يرشدنا الى الكتاب الذي أخذ عنه خشية أن نقف على تجريح ابن أبي داود، وهو إنما

يريد أن يصل إلى غرض معين لا يساعده عليه عبارات التجريح ، ذلك أنه يريد أن يقرر فى نفس القارىء أن ابن أبى داود حجة بدليل ما ورد من الثناء عليه فى كتب الطبقات ، فينقل من ذلك الى أن كتابه ثقة ؛ ويعلم الله أن كتابه قائم على فكرة التشكيك فى كتاب الله تعالى . وقد استوفينا الرد عليه فيما يأتى :

من هنا يتضح جليا أن المستشرقين ومعظم علماء الغرب لا يذكرون حقيقة من الحقائق العلمية التى تتصل بالدين الاسلامى ، ولا واقعة من الوقائع التاريخية التى ترتبط به أو بعالم من علماء المسلمين ، إلا ولهم فيها غرض معين ؛ ويجب علينا ، نحن علماء المسلمين ، أن نكون على جانب كبير من الحيطة والحذر . والآن أنتقل بالقارىء الى تلخيص وجيز لترجمة ابن أبى داود ، حتى يكون عنده صورة صحيحة عنه من الثناء عليه أو تجريحه :

الثناء عليه :

(١) قال الذهبى : ماذكرته إلا لأنزهه .

(٢) قال الدار قطنى : هو ثقة .

(٣) قال ابن عدى : هو مقبول عند أصحاب الحديث .

(٤) قال أبو محمد الخلال : كان أبو بكر أحفظ من أبيه أبى داود .

(٥) قال الذهبى : كان أبو بكر من كبار الحفاظ وأئمة الأعلام .

(٦) قال الذهبى : أملى على أهل سجستان ثلاثين ألف حديث من حفظه .

(٧) قال ابن شاهين : أملى علينا أبو بكر سنين وما رأيت بيده كتابا .

(٨) قال أبو تمام الزينبى : لله درك ما رأيت مثلك (يخاطب ابن أبى داود) إلا أن يكون ابراهيم الحربى ، قال أبو بكر : كل ما كان يحفظ ابراهيم فأنا أحفظه ، وأنا أعرف الطب والنجوم وما كان يعرفها .

(٩) تقدير الناس له بعد وفاته حتى صلى عليه زهاء ثلاثمائة ألف نفس ، وصلوا عليه ثمانين مرة .

تجريحه :

(١) قال الدارقطنى : هو كثير الخطأ فى الكلام على الحديث .

(٢) قال أبو داود (والد المترجم) : ابنى عبد الله كذاب .

(٣) قال ابن صاعد : كفانا ما قال أبوه فيه .

(٤) قال ابراهيم الاصفهانى : أبو بكر ابن أبى داود كذاب :

(٥) قال أبو القاسم البغوى : أنت والله عندى منسلخ من العلم (يخاطب ابن أبى داود)

(٦) قال أبو داود (والد المترجم) : من البلاء أن عبد الله يطلب القضاء .

(٧) روى محمد بن الضحاك بسنده عن ابن أبى داود رواية تدل على إسناد تهمة شنعاء لابن أبى داود (أمسك القلم عن ذكرها لما فيها من الشناعة) ، وحوكم عليها أمام أبى ليلى (أمير أصفهان) وشهد عليه الشهود ، فأمر الأمير بقتله ، ثم جاء محمد بن عبد الله بن حفص الهمذانى ، وجرح الشهود وخرج به من فك الأسد .

(٨) قال الوزير على بن عيسى لابن أبى داود : أنت شيخ زيف . (والزيف : الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

هذه خلاصة تصور للقارىء حال ابن أبى داود تصويرا صحيحا دقيقا ليستطيع أن يقدر كتابه تقديرا مبنيا على أساس .

قال الدكتور جفرى مبتدئا مقدمته :

« نتقدم بهذا الكتاب — يعنى كتاب المصاحف — للقراء على أمل أن يكون أساسا لبحث جديد فى تاريخ تطور قراءات القرآن » .

أقول : يرى الدكتور أن التطور فى القرآن جائز ، بل واقع . وأراه ، كما يراه كافة علماء المسلمين ، مستحيلا عقلا وشرعا . فالخلاف : هل القرآن الكريم تطور ؟ كذا يقول الدكتور جفرى ، أم هو لم يتطور ولن يتطور ؟ كذا نقول ويقول معنا علماء المسلمين جميعا .

فالمسألة نظرية كما ترى يحتاج فى إثباتها الى الدليل ، بل هى من أخطر النظريات المتصلة بالدين لأنها تتعلق بأصل أصوله ، وأى شىء أخطر من هذا التطور المشئوم الذى يوقع المسلمين فى الشك والارتياب فى القرآن الكريم ؟!

ولم يفت الدكتور جفرى ذكر الدليل على تطور القرآن ، بل جعله كتاب المصاحف نفسه ، الذى تجشم فى سبيل طبعه ونشره مشاق الأسفار ، وقطع فى الحصول عليه كل سهل وصعب حتى التقط صورته من المكتبة الظاهرية بدمشق .

فهو يقول : اقرأ الكتاب « إن شئت » تجد فيه الدليل على تطور القرآن ، تجد فيه قراءات الصحابة قبل مصحف عثمان ، وتجد فيه لعثمان نفسه قراءة مخالفة لقراءته « فى المصحف الامام » ، وتجد فيه تغييرا وتبديلا حدثا فى المصحف الامام نفسه أحدثها الحجاج ؛ وترجم لذلك ابن أبى داود فقال : باب ما كتب الحجاج فى مصحف عثمان ، وفى مكان آخر من الكتاب : باب ما غيّر الحجاج فى مصحف عثمان . وتجد فيه غير هذا وغير هذا مما هو كثير من أمثاله ، أفتريد دليلا على تطور القرآن أكثر من هذا ؟

لما لاحظت أن باب ما كتب الحجاج بن يوسف فى مصحف عثمان هو بعينه باب ماغير الحجاج فى مصحف عثمان ، رواية ومرويا ، أى أن ما ورد فى هـذا الباب هـو بالحرف الواحد ما ورد فى الباب الثانى ، لفت نظرى هـذا التكرار وخامرنى الشك ، خصوصا وأن هذا الموضوع هـو أظهر ما يدل للدكتور جفرى على التطور ، فرجعت الى النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية المنقولة عن نسخة الشام ، أستخبر خبر هـذا التكرار فأنبأتنى بأن الأمر سهل ، وأنها رواية فقط كررت لمناسبة عن ابن أبى جميلة ، كما يحدث ذلك كثيرا فى كتب الروايات ، وأن ابن أبى داود لم يترجم لهذه الرواية بباب فى كلا الموضعين .

وأن الذى تصرف هـذا التصرف « بوضع البابين » وأخرج الأمر عن سهولته ، وانتهز فرصة تكرار الرواية ليشن الغارة على مصحف سيدنا عثمان ، إنما هو الدكتور جفرى . فهو الذى ترجم لهذه الرواية بباب ما كتب الحجاج ، وبباب ماغير الحجاج ، حين أراد طبع الكتاب . فما قولك ياحضرة الدكتور؟ وهل هذه أمانة العلماء ؟ الذى نعهده أن العلماء إذا أرادوا أن ينشروا كتابا لمؤلف معين تفرض عليهم أمانة العلم والنقل أن ينشروه كما هو ، وأن لا يتصرفوا فيه بما يخرجه عن أصل وضعه ، أو على الأقل ينبهون على تصرفهم ويبينون حكمته ، إذ كل من قرأ أو يقرأ النسخة المطبوعة لا يشك مطلقا فى أن الترجمة بالبابين السابقين من وضع ابن أبى داود نفسه ، مع أن الأمر ليس كذلك . فلم هذا يادكتور ؟ ثم ألا ترى معى أن تصرفك هذا يجعل الشك يتطرق الى النسخة المخطوطة التى طبعت عليها الكتاب « نسخة الشام » ، خصوصا وأنت لم تبين لنا الأصل الذى نقلت هى عنه ؟! ثم ألا يكون هـذا مدعاة الى تطرق الشك فى نسبة الكتاب الى ابن أبى داود ؟ ثم تريد أنت أو ابن أبى داود أو كلا كما أن نفهم ونسلم أن الحجاج غيّر فى المصحف الامام أحد عشر حرفا وبدل آية مكان آية . ولو صح هذا لما خفى على المؤرخين ، ولتناقله الناس جيلا بعد جيل ، ولكان ذلك أشهر من ضربه بيت الله (الكعبة) بالمنجنيق . ثم كيف يسع الخليفة فى دينه أن يعلم ذلك ويقره ؟ بل كيف كان مع خاصة المسلمين وعامتهم فى دينهم أن يقروا ذلك ؟ وإن قلنا : إنهم هابوه لغلظته وجفائه ، فهل هابه الخليفة وهو وال من قبله ؟ ثم ما الذى منع المسلمين من حرق هذا المصحف الذى غير وبدل فيه بعد وفاته ؟ وأخيرا كيف كان يموت الحجاج على فراشه ولم يتفرق دمه على سيوف المسلمين ، والدين بعد فى عنفوان شبابه ؟! الحق يا دكتور أن علماء الطبقات إن صح كلامهم فى أن ابن أبى داود (كذاب) فليكن فى هذا وأمثاله .

دليلك يادكتور جفرى هـو كتاب المصاحف ، ونحن لا نسلم أن جميع روايات كتاب المصاحف صحيحة ، فعليك الاثبات ، ونسند المنع بما يأتى :

أولا — أن علماء الطبقات يقولون : إن ابن أبى داود كذاب (راجع كتب الطبقات) وترجمة ابن أبى داود فى أول الكتاب .

ثانيا — أن مرويات ابن أبى داود فى كتابه تنافى الاجماع الذى انعقد على مصحف عثمان ، وهو أقوى إجماع عرفه المسلمون حتى الآن .

ثالثا — أنها تنافى ماقرره علماء الأصول من أن المروى آحادا لايكون قرآنا — راجع كتب أصول الفقه — وبالأخص الآمدى فى كتابه الاحكام فى أصول الأحكام .

رابعا — أن ابن أبى داود نفسه (المؤلف) يرى أن مروياته ليست قرآنا — راجع صفحة ٥٣ ، ٥٤ من الكتاب . والخلاف بيننا وبينك فى تطور القرآن ، وهذا ليس قرآنا .

وقد علمت أن تغيير الحجاج فى مصحف عثمان غير صحيح . فقد انتقض دليلك جملة ؛ ومع هذا فسأنقض لك الدليل تفصيلا فأقول :

ماالذى تقصده يادكتور من التطور : أتقصد التطور فى متن القرآن ، أم التطور فى القراءات السبع ، أم التطور فى القراءات الشاذة ، ولا شئ وراء هذا ، والكل مستحيل ؟!

حسن حسين

هل للعاقل علامة يعرف بها ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للعاقل عشر خصال يعرف بها : يحلم عمن ظلمه ، ويتواضع لمن دونه ، ويسابق الى بر من هو فوقه ، وينتهز الفرصة إذا أمكنته ، لا يفارقه الخوف ، ولا يصحبه العنف ، يتدبر ثم يتكلم ، فاذا تكلم غنم ، وإذا سكت سلم » .

وقال حكيم : « علامة العاقل ثلاثة : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وترك مالا يعنى » .

وقال غيره : « لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد بما لايستطاع إنجازه » .

وقال غيره : « العاقل إذا والى بذل فى المودة نصره ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره ، فيستعين مواليه بعقله ، ويعتصم معاديه بعدله » .

وقال المهلب بن أبى صفرة : « يعجبنى أن أرى عقل الرجل زائدا على لسانه ، ولايعجبنى أن أرى لسانه زائدا على عقله » .

وقالوا : « زيادة العقل على اللسان فضيلة ، وزيادة اللسان على العقل رذيلة » .

الفلسفة الشرقية (١)

هل تقدم الفكر البشرى مطرد ؟

غير أن هـذه النتيجة وهى ثبوت تسلسل الثقافة البشرية تخلق لنا مشكلة جديدة ينبغى أن نعنى بحلها ، وهى : «هل الفلسفة سائرة منذ العصور القديمة فى تقدم مطرد ، مترتبة كل حلقة منه على ما قبلها ترتب الفرع على الاصل، أو هى خاضعة خضوعا مصادفيا لمختلف الأمزجة ومتباين العقليات والبيئات ؟ » .

أجاب على هذا السؤال كثير من العلماء ، فرد بعضهم بالإيجاب على صوره ، وقد أيد بهذا دعوى الماضى التأثير على الحاضر والمستقبل . وأجاب البعض الآخر بالسلب على صدر ذلك السؤال ، وبالإيجاب على عجزه ، فسجل بجـوابه قطع الصلة بين المذاهب الفلسفية المختلفة ، وهى وحدها الجديرة بتسميتها مذاهب . أما ما تأثر منها بما قبله تأثرا جليا فهو عند هـذا البعض تقليد لا مذهب . وقد ذهب فريق ثالث من الباحثين الى إقرار تأثير السابق فى اللاحق مع جحود فـكرة التقدم المطرد ، لأنه يرى أن ذلك التأثير قد يكون سلبيا عكسيا كتأثير « السوفسطائيين » المنكرين للحقائق المطلقة فى فلسفة « سقراط » الذى وضع أيدى تلاميذه ومعاصريه على تلك الحقيقة ، إذ أبانها لهم إبانة لا سبيل الى الشك فيها .

ويصرح الأستاذ «بريهييه» بأنه يميل الى الرأى الثالث الذى يجحد التقدم المطرد ، ويعتبره خرافة من الخرافات التى لا تمت الى الحقيقة التاريخية بصلة . وبرهانه على ذلك هو ما يشاهده من المد والجزر اللذين يكادان يرافقان المشاكل الفلسفية منذ أول عصورها الى اليوم ، فتارة مادية لا تعرف لحل مشاكل الوجود سبيلا غير الطبيعة من : ماء وهواء ، وتراب ونار وذرات، وما يقوم بهـا من حركة وتحول وكون وفساد ، وما تحل فيه من فراغ ، كما كان يرى الفلاسفة الأولون : « تاليس » و « أنا كسيماندر » و « أنا كسيمين » و « هيرا كليت » و « ديموكريت » . وتارة أخرى عقلية منطقية تؤسس قضاياها التى تصل بهـا الى الحقيقة المطلقة على الجزئيات المحسة كما هو مذهب « سقراط » ثم مذهب « أرسطو » مع الاحتفاظ بفروق بين المذهبين ليس هنا موضعها . وتارة ثالثة « بصـيرية » تؤسس قضاياها على الـكليات التجردية المنبعثة من داخل النفس البشرية بوساطة وحى البصيرة ، كما هو مذهب « أفـلاطون » ثم مذهب « أفلوطين » الأسكندرى من بعده . وتارة رابعة رياضية ذات قواعد لا تتخلف كالهندسة

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى الجزء السابق لحضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب .

والحساب سواء بسواء ، كما هو مذهب « ديكارت » وتلاميذه الرياضيين . وخامسة تجريبية لا تتجه ألبتة نحو ما وراء الطبيعة ، كما هو مذهب الفلاسفة الانجليز . وهى مرة تنكر الحقيقة المطلقة ولا تعترف إلا بحقائق اعتبارية ، مقياسها الانسان الذى يؤمن بها وحده دون أى التفات الى الواقع أو المنطق ، كما هو رأى المدرسة « السوفسطائية » . وأخرى تجعل الحقيقة المطلقة موجودة وجودا تعد المناقشة فيه ضربا من العبث ، كما هى مذاهب : « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » و « الاستوئيسية » و « الأفلاطونية الحديثة » وهلم جرًّا . وفوق ذلك ، فاننا نلاحظ أن بعض العصور الفلسفية يسوده الاختلاف الشديد فى آراء الفلاسفة ومذاهبهم ، حتى لا تكاد ترى فيه فكرة واحدة تعم روح العصر كله كما كانت الحال فيما بعد عصر « سقراط » حيث ظهرت المدارس : « الميجارية » و « السينيكية » و « السيرينية » (الكرونائية) ، أو فى عهد ما بعد « أرسطو » حيث ظهرت المدارس : « الاستوئيسية » (الرواقية) و « الابيكورية » و « الارتيابية » أو « البيرونية » ، بينما نرى عصرا آخر تكاد فكرة واحدة تدرسه من أوله الى آخره ، مثل القرن الثامن عشر الذى شملته التجريبية الانجليزية شمولا لم يدع فيه لغير تلك الفكرة موضعا .

أضف الى هذا أنه لو كانت الفلسفة سائرة فى سلسلة التقدم لما اعتورها ذلك الانحطاط الشامل الذى رافقها أكثر من ألف سنة انتهت بعصر النهضة ، ثم بانتصار الفلسفة الحديثة .

ولاريب أن هذا كله يقوم برهانا ساطعا على أن ناموس التقدم المطرد لايشمل الفلسفة وتاريخها بأى حال .

على أن أنصار التقدم المطرد يسوقون كبرهان قوى على رأيهم ما شاهده تاريخ الفلسفة من تطور البحث الفلسفى من المادة الحية بذاتها عند « الدينا ميكيين » من المدرسة « الايونية » الى المادة المتأثرة بحركة أجنبية آتية اليها من الخارج عند « الميكانيكيين » من تلك المدرسة أيضا ، ثم من اعتبار منشأ هذه الحركة هو الروابط الطبيعية بين جزئيات المادة ، كما هو مذهب « أنا كسياندر » الى اعتباره قوتى الحب والبغض المتعارضتين ، كما هو رأى « أمبيدوكل » ثم الى اكتشاف وجود قانون عاقل هو مصدر هذه الحركات ، ثم الى ترقى البحث بعد ذلك ووصوله بهذا القانون الى إله واحد يصرف الكون ، كما عند « إكزينوفان » ثم « أناجزاجور » ثم « سقراط » ثم « أفلاطون » الذى عمت قداسة الإله مؤلفاته حتى أطلق عليه اسم : « أفلاطون الإلهى » .

وكذلك كانت الحال بإزاء المنطق إذ جاء « أرسطو » فأقام دعائم منطقه الشامخة على أساس مفاهيم « سقراط » العامة ، ثم أخرج للناس هذه البحوث الرائعة التى كانت بدورها مصباح « ديكارت » الذى بدد ظلام القرون الوسطى الدامس ، فديكارت فى منطقه القيم اقتفى أثر

« أرسطو » ، و« أرسطو » أخذ كلياته المكونة من جزئيات عن روابط «سقراط» وصلاته العامة ، و« سقراط أخذ طريقة استخدام الجزئيات المعلومة للوصول الى مجهولات عن « أناجزاجور » الذى سبق « سقراط » فى اتخاذ نظام الكون برهانا على وجود خالقه . وفى جميع حلقات هذه السلسلة يلاحظ المتأمل اطراد التقدم بهيئة لا سبيل الى الشك فيها . وأصحاب هذا الرأى يجاوبون على اعتراض خصومهم بانحطاط الفلسفة طوال القرون الوسطى بأن تلك كارثة نشأت من ظروف طارئة ، ثم صدمت الفلسفة صدمة غير طبيعية فعاقت تقدمها ردحا من الزمن ، فلما انقشعت عاد الناموس الطبيعي يقوم بعمله فى اطراد التقدم كما كان .

وأنا شخصيا أميل من بين كل هذه الآراء المتقدمة الى الرأى القائل بتأثير السابق فى اللاحق مع إنكار التقدم المطرد فى سير الفلسفة . وأرى أن أثر القديم فى المحدث قد يكون سلبيا عكسيا ، كما أثرت الفلسفة السوفسطائية المنكرة للحقائق المطلقة فى مذهبى « سقراط » و « أفلاطون » تأثيرا عكسيا جعلهما يبرزان الحقيقة المطلقة فى مظهر الملموسات ؟

ينبغى تجنب الحمقى

قال الجاحظ : « لا تجالس الحمقى فانه يعلق بك من مجالستهم يوما من الفساد ، ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهرا من الصلاح ، فان الفساد أشد التحاما بالطبائع » .

وقال الأحنف بن قيس : « إنى لأجالس الأحمق ساعة فاتبين ذلك فى عقلى » .

وقال لقمان لابنه : « لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال ، فانه كالسيف حسن مخبره ، قبيح أثره » .

وقال حكيم : « صحبة الأحمق غدر ، ومجاورته خطر ، والبعد عنه ظفر » .

وقال مسكين الدارمى :

اتق الأحمق لا تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعت منه جانبا ... حركته الريح وهنا فانخرق
أو كصدع فى زجاج فاسد ... هل ترى صدع زجاج يرتتق
وإذا عاتبته كى يرعوى ... زاد جهلا وتمادى فى الحمق

وقال على بن بسام :

لاتيأسن من اللبيب وإن جفا ... واقطع حبالك من حبال الأحمق
فعداوة من عاقل متجمل ... أولى وأسلم من صداقة أخرق

باب الأسئلة والفتاوى

خصومة فى زواج

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر السؤال الآتى :

بكر بالغة يتيمة زوّجها جدها لأبيها بتفويض منها ، وبعد أيام قلائل أنكرت التفويض وخاصمت ، فمن يكون الخصم الحقيقى : أهو الزوج ، أم الجد المذكور ؟

والفتوى تكون على مذهب الامام مالك رضى الله عنه .

الجواب :

الذى نص عليه فى مذهب الامام مالك رضى الله عنه : أن الولى غير المجبر ، كالجد فى صورة الاستفتاء ، إذا زوّج المرأة وزعم أنها وكلته فى العقد عليها ، أو أنها رضيت بالعقد بعد علمها به ، وأنكرت هى ذلك بأن قالت : لم أوكله ابتداء ولم أرض به بعد علمى ، فان كان إنكارها قد حصل فورا ، وعلى إثر علمها بالعقد ، صدقت بلا يمين ، ولا يلزمها العقد ؛ وإن حصل بعد سكوتها زمنا يسيرا صدقت بيمينها ؛ وإن حصل بعد سكوتها زمنا طويلا يعده العرف رضا بالعقد ، فانها لا تصدق فى إنكارها ، ويلزمها العقد . وهذا التفصيل كله عند عدم البينة ، فان شهدت البينة بأنها فوضت أمر تزويجها للولى ، أو رضيت بالعقد عقب علمها به ، فلا كلام لها أصلا ، ولزم عقد النكاح .

وذكر فى المذهب أيضا : أن الزوج له حق فى هذا العقد المتنازع فى الرضا به وعدمه .

هذا ما وجد فى المذهب ، ومنه يعلم أن الجد والزوج كل منهما خصم للزوجة فى صورة الاستفتاء : أما الجد ، فلتعديه على المرأة حيث عقد عليها بدون إذنها على ما تزعم ، وأما الزوج ، فلأنه صاحب العقد .

فان أراد السائل بالخصم الحقيقى من تنازعه المرأة فى التعدى عليها ، فهو الجد ، لأنه هو الشخص الذى تزعم أنه عقد عليها بدون إذنها ورضاها ، وإن أراد من تنازعه فى صحة العقد أو فساده ، فهو الزوج . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

معرض الآراء عن العالم الاسلامى

إن حركة النهوض التى تبدو آثارها فى العالم الاسلامى فى هـذا العصر قد لفتت أنظار العالم إليه ، وأخذ الذين يعنيهم أمره من الأوربيين يدلون بآرائهم فى أسباب هـذه الحركة ومصيرها ، وفى وجوه اتقاء نتائجها . ونحن خدمة لقضية الاسلام نرى أن ننقل تحت هـذا العنوان ملخصا لتلك الآراء غير متحملين تبعاتها ، ولـكننا نأتى بها رامين لغرض واحد وهو أن يعلم العاملون على إنهاض المسلمين ما يقال عنهم ، وما يثار من الإرجافات حولهم ، وحول مراميهم الاصلاحية :

مصر والخلافة :

جاء فى جريدة (الاكسيون فرنسيز) تحت هذا العنوان بقلم (بول أولانييه) ما يأتى :

« عرض المسيو موريس بيرنو فى مقال حديث له نشره فى جريدة (الديبا) على مصر والاسلام الى مسألة إعادة الخلافة فى شخص ملك مصر . وليست هذه أول مرة اضطلع فيها ملوك هذه البلاد بأعباء هذا المنصب السامى ، فلقد كانت القاهرة مقرا للخلافة دفعتين ،فـكانت طوال القرن العاشر ممثلة فى الفاطميين ، ومن القرن الثالث عشر الى السادس عشر كان يقوم بها بعض سلالة العباسيين ، ثم تسلمها السلطان سليم من آخرهم ، وبقيت فى عهدة السلاطين العثمانيين الى سـنة ١٩٢٣ حيث أبطلها مصطفى كمال ، وأبعد آخر خلفائهم عبد المجيد ، وهو الآن يمضى أيامه فى ناحية من شواطئنا الصافية الأديم .

« ليس للمسلمين السنيين اليوم خليفة إذا استثنينا المراكشيين الذين يعتبرون سلطانهم حاكما وخليفة معا .

« ولـكن الخلافة منصب دينى ،وهى وإن كانت قد فصلت عن السلطة دفعات كثيرة فى مدى التاريخ ، فإنها اقتضت دائما أن تكون الأمة التى تمثلها مستقلة استقلالا تاما . فمثل الخليفة كمثل البابا لا يجوز أن يكون تابعا لسلطة دنيوية ، فيجب أن تكون له السيادة المطلقة على مملـكة من الممالك مهما كانت صغيرة .

« لقد وجدت الخلافة من عهد (محمد) أى من منتصف القرن السابع الى أيامنا هذه ، فهى تعتبر جزءاً متمما للاسلام ، ولا يجوز أن يتطرق لأحد الظن بأنها لهمود حركتها منذ نحو

عشر سنين ، أن المسلمين لم يعودوا يكترثون بها ، فانهم متألمون من عدم وجودها ومديمو التفكير فيها . فلذلك يجب الاعتقاد بأنها ستعود فى يوم من الأيام لأنها تسد حاجة دينية ، ولا يجوز مواجهة الاسلام دون أن يكون فيه أمير للمؤمنين ، كما لا يجوز مواجهة الكاثوليكية دون أن يكون لها بابا .

« إن إعادة الخلافة أمر فى رأينا لابد منه ، فهل فى ذلك ما نخشى منه من قيام كتلة إسلامية تتوجه ضد الدول الأوربية التى تحت سلطانها رعايا مسلمون ، وآخرون منهم تحت الحماية ، كفرنسا واسبانيا وانجلترة وإيطاليا والبرتغال وهولندة ويوغسلافيا ؟ لا نظن ذلك ، فالتاريخ يرينا أن خلافة القسطنطينية كانت غالبا عنصرا معدلا ، وعاملا على حفظ النظام العالمى ، ولم تكن سببا لإثارة القلاقل والفوضى .

« وعليه فنحن نعتقد أن الخلافة بإرضائها الأمانى الدينية للمسلمين ، ستكون عاملا للسلام الاجتماعى ، وأن المُطالب بالدستور فى تونس مثلا لن ينال منها أقل مساعدة ، بل سيكون الأمر على العكس .

« فالخوف من التعصب الذى اشتهر عن المسلمين أصبح من الهذيانات التى يجب كشطها من عقول الفرنسيين . فان عمل الجنرال ليوتى فى مراكش يكفى وحده لازالة هذا الوهم . أما الحقيقة فهى أنه لاتوجد ديانة تضارع الاسلام فى التسامح . والقرآن نفسه يحمى النصارى واليهود بنصوص صريحة .

« وهو الأمر الذى جرى عليه سلاطين المسلمين حيال رعاياهم المسيحيين ، فهل نستطيع أن نقول مثل ذلك عن معاملة الأمم المسيحية للمسلمين ؟ » . انتهى ما نقلناه

***

يبدى الأوربيون ميلا لاعادة الخلافة الاسلامية أكبر مما يبديه المسلمون ، ويلوح لنا أنهم يرمون من وراء ذلك لأن تكون عاملا مهدئا للشعوب الاسلامية التى تظهر اليوم اضطرابا عظيما للحصول على حقوقها الاجتماعية والسياسية ، والتخلص من نير الاستعمار طفرة .

ثم عرض المسيو (بول اولانييه) الثلاثة الملوك المستقلين الذين يصلحون للخلافة ، ومن بينهم حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فحكم لجلالته بالأولوية ، ثم قال :

« وبعد : فيوجد غير هذه الخصائص التى تتمتع بها بلاده ، خصائص أخرى تزيد فى وجوه تفضيل شخص جلالة الملك فاروق على من ذكرناهم : فهو شاب ، وحاصل على جميع المزايا الأدبية والطبيعية التى يرجو الناس أن يروها فى شخص مليكهم ، وقد أبان بالدليل عن تمتعه بعقلية سياسية فوق ما يمكن أن تسمح بها سنه ، وذلك بحصوله على سلطته الشرعية دون

الاصطدام بعقبة ما ، ولـكن بمحض الحب العميق الذى عرف كيف يبثه فى قلب شعبه . وغير هـذا فان أمامه الوقت الـكافى لأن يتوج جهوده باعادة منصب سام هو منصب الخـلافة الاسلامية » .

الاسلام يفتحل الاشياء العصرية :

كتبت جريدة (باترى فاليزان) الصادرة فى ٢٤ مايو تحت هذا العنوان قولها :
« إن أسمى أمنية لـكل مسـلم صالح هى أن يحج الى مكة ولو مرة واحدة فى حياته ، ليكون له الحق فى وضع شريط حول طربوشه فى هذا العـالم الدنيوى ، ولأن تفتح له أبواب جنة محمد فى العالم الآخر . ولمـا كان المسلمون منتشرين فى جميع بقاع آسيا وأفريقيا فالشقة بينهم وبين مكة طويلة وشاقة للـكثيرين منهم ، ومع هذا فقد اعتادوا الى هـذه الأيام أن يقوموا بهذه الرحلة إما مشاة على أقدامهم ، أو را كبين حميرا أو جمالا ، ولـكن جد أخـيرا من يستخدم الاوتوموبيلات .

« فكيف أمكن التوفيق بين هذا النوع من الانتقال وبين النصوص الشديدة الجامدة للقرآن ؟

« وهناك خطوة أخرى فى سبيل التقدم ستعمل فى احتفالات هذا العام ، ذلك أنه لمـا كان الحج الى مكة فى أكثر السنين سببا فى انتشار الأمراض الوبائية القتالة كالطاعون والـكوليرا والتيفوس ، وأن أحد العوامل الرئيسية فى انتشار هذه الأوباء هو تلوث العين المقدسة (زمزم) التى يمكن الاستقاء منها بأى وعاء حتى المتخذ من غلاف القرع وما اليه ، فقد تقرر هذه السنة أن ماءها يوزع على المؤمنين معقما وفى زجاجات مغلقة » انتهى .



هذا ما كتبته جريدة يقرؤها عشرات الألوف من القارئين ،وقد سمح كاتبها لنفسه أن يكتب عن الاسلام كأنه يكتب عن دين شعب من المتوحشين . فان كان يعذر بأنه لم يعلم عن الاسلام شيئا صحيحا ، فكيف يعذر فى تسجيله عليه أشياء ليست فيه ؟ ويلوح أنه كتب عن الاسلام كتابة الواثق بمـا يكتب ، ولم يقرأ من كتابه آية واحدة . فلو كان فعل لقرأ قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله تعـالى : « وما جعل عليـكم فى الدين من حرج » وهاك نصهما بالفرنسية :

« Dieu veut votre aise , il ne veut pas votre gêne » « Il ne vous a rien commander de difficile dans votre religion » . (١)

قلنا: لو كان قرأ هاتين الآيتين لمـا استطاع أن يصف القرآن بالتشدد والجمود حتى يخيل لقارئيه

(١) هذه الترجمة منقولة من كتاب ترجمة القرآن للمستشرق « زامرسكى » Zamirisky .

أنهم حيال كتاب من تلك الكتب التى لا يمكن أن تأخذ بها إلا الجماعات الساذجة التى تعيش فى الكهوف والمغاور . فهل غاب عن كتاب تلك الجريدة أن المسلمين اضطلعوا بالزعامة العامة على الأرض قاطبة أجيالا متعاقبة ، وأنهم اقتبسوا جميع العلوم والفنون والصنائع التى كانت موجودة على عهدهم ، ونقبوا عما قد كان متروكا منها وأعادوه الى الحياة ، وزادوا عليه زيادات لا تزال موضع إعجاب المؤرخين والباحثين الى اليوم ؟

إذا كانوا لا يجهلون ذلك ، فكيف يوفقون بين هذه النهضة العلمية والعملية وبين أصول كتاب يحرم على أهله استخدام وسائل الانتقال الحديثة ، ويحتم عليهم الوسائل العتيقة ؟

الاسلام هو الوطن الحقيقى للمسلمين :

كتب المسيو (أندريه كلو) فى جريدة (تريبون دى ناسيون) الباريزية الصادرة فى ١٢ مايو الماضى بحثا فى الاسلام قال فيه ما يأتى :

« قد بين لنا المستشرق العظيم (لو تروب ستودارد) ظاهرة فى الاسلام كانت تظهر لنا مدهشة فقال : « مهما أظهر الشرق من الشره فى اقتباس آرائنا فى القومية والوطنية ، فإن هذه المبادئ تتسرب فيه الى مخاخ مشحونة من قبل بأصول التكافل الاسلامى والأخوة المقررة بين جميع المؤمنين ، فينتج من ذلك تلون المبادىء الجديدة بألوان تلك الأصول القديمة ، بحيث لو استعمل المسلمون كلمات القومية والجنسية فانها تنصرف لديهم الى معان مباينة للمعانى التى نقصدها نحن منها » .

ثم عقب المسيو اندريه على هذا القول بقوله :

« فى الاسلام — وهذا أمر كثيرا ما ننساه — الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة الدينية كلها متداخلة . فالقومية لا توجد فيه إلا بالنسبة لغير المسلمين ، فهى إذن لم تفقد مدلولها الحقيقى . أما المسلمون فكل منهم مهما كان جنسه يعتبر وطنيا فى بحبوحة الوطن العام وهو الاسلام . فاذا شخص تونسى أو سورى الى مصر أو الى العراق اعتبر فورا مصريا أوعراقيا ، وكانت له جميع الامتيازات ، وعليه جميع الواجبات التى للمولودين فى تلك البلاد . فالأخوة الاسلامية ليست بكلمة فارغة . وهى باختلاطها بمبدأ القومية الأوربية قد ولدت لدى المسلمين معنى أوقعنا فى شيء من الحيرة ، فأصبحت قومية جامعة إسلامية » .

عدد الحجاج الى مكة :

جاء فى جريدة (لا فيجى ماروكين) تحت هذا العنوان بتاريخ ٨ ابريل ما يأتى :

« كان عدد الحجاج الى مكة فى هذه السنة عظيما جدا ، فقد اجتمع حول جبل عرفات ١٢٠ ألف حاج من مختلف الأجناس والأصول والألوان

« وبما أنهم كانوا جميعا متلففين بالأحرمة على حد سوى ، وعارى الرءوس والأقدام ، فلم يكن من الممكن تمييز العالم عن الأمى منهم ، ولا الأمير عن العبد ، ولا الغنى عن الفقير . فلم يكن أمام الرائى هنالك إلا مخلوقات بشرية تجردوا من جميع المميزات الأرضية ، ضارعين الى الله ، طالبى رحمته وبركاته الإلهية .

« من أين جاء هؤلاء المائة والعشرون ألفا من المسلمين ؟ إن فى بيان أجناسهم لا يخلو من فائدة .

« فإليك أصولهم مقتبسة من الاحصاءات الرسمية للحكومة السعودية : « ١٧ من السنغال ، و ٧٦ من الكاب ، و ٢٣٨ من زنجبار ، و ١٦٠٨٩ من جاوة ، و ١٧١ من تركيا ، و ١٩١١ من العراق ، و ٧٣٦ من فلسطين ، و ٣٠٨٠ من سورية ، و ١٥٢٣٨ من الهند ، و ٥٥ من الصين ، و ٨٩٠ من بخارى ، و ٦٠٤٦ من الدكارنة ، (إن سود دافور ووادای أكثر مايعرفون باسم الدكارنة ، وهم بعد تأديتهم فريضة الحج ينزلون على الشواطىء العليا للنيل بقصد الاتجار هنالك . هؤلاء الدكارنة يؤلفون جماعات كثيرة ويقيمون وسط قبائل العرب والبجاوية . وقد أطلق المؤلفون القدماء كلمة دكرورى على سود السودان الغربى الذين قبلوا الاسلام دينا لهم) ، و ٣٧٠٩ من أفغانستان ، و ٢٨٠ من مسكات ، و ١٠٠٩٦ من مصر ، و ٢٠٥٤ من السودان و ٧٧١ من الصومال الايطالى ، و ٥٠١ من الحبشة ، و ٦٠٧ من حضرموت وعدن ، و ٥٥٧ من اليمن ، و ١١ من إيران ، و ٤ من اليابان ، و ٥٩ من يوغوسلافيا ، و ٧٢ من الكرد ، و ٥٢٥٠ من المغاربة .

« هذا العدد الأخير يشمل جميع المغاربة الموجودين بين حدود طرابلس الى المحيط الاطلانطيق . فان أهل الحجاز يطلقون اسم المراكشيين على جميع الذين يقطنون ما وراء نهر النيل . فليس الفرنسيون هم الذين تفردوا بجهل علم الجغرافيا ...

« ومع هذا فان مسألة الجنس لا قيمة لها تذكر فى الحجاز حيث لا يؤبه فيه إلا للجامعة الدينية .

« ومع هذا فان عدد الحجاج الذين دخلوا الحجاز من طريق البحر أو البر قد قدر بـ ٦٧٢٢٤ نسمة . يضاف الى هذا العدد حجاج العرب أنفسهم لأجل أن يبلغ عدد الذين أدوا هذه الفريضة الى ١٢٠٠٠٠ نفس ، وهو العدد الرسمى الذى نشر فى قوائم المطوفين » .

محمد فريد وجدى

احاديث الوفود في الاسلام

— ٢ —

من أجل منع الزكاة

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون رجلا من بنى تميم ، وكان النبي قد بعث بشر بن سفيان العدوى الى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم (الزكاة) ، ولما كانوا يجاورون بنى تميم على ماء لهم ، تعرضت بنو تميم لبشر وحالوا بينه وبين ما أخذ من صدقات جيرانهم حقدا وحسدا ، وقالوا : والله لا ندع بعيرا واحدا يخرج به بشر ! فلما رأى بشر إصرارهم على منعه خشى الفتنة وعاد الى المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان .

فأرسل النبي عيينة بن حصن الفزارى فى خمسين من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، فسار عيينة ، وكان يسير الليل ويكمن النهار ، وأتاهم من حيث لا يشعرون ، فأخذ منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبيا ، وعاد بهم رهينة الى المدينة ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحجزوا فى دار رملة بنت الحارث فحجزوا .

فجاء فى أثرهم وفد القوم ، وفيه عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، وعمرو بن الأهتم ، فى ملا من قومهم ، فلما دخلوا المدينة مروا بالدار التى بها أسراهم ، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذرارى ، فتحمس القوم وولوا وجوههم نحو المسجد ليكلموا النبي صلى الله عليه وسلم فى شأنهم ، فلما دخلوا المسجد لم يجدوا رسول الله بين أصحابه ، ووجدوا بلالا يؤذن لصلاة الظهر ، فلم ينتظروا خروج الرسول إليهم ، بل ذهبوا مسرعين ونادوا من وراء الحُجرات (مساكن أزواج النبي) بصوت جهورى ، أن اخرج إلينا يامحمد نفاخرك ونشاعرك ، فان مدحنا زين ، وشتمنا شين .

فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تأذى من صياحهم ، وكان بلال يقيم الصلاة ، فتعلقوا برسول الله يكلمونه قبل أن يصلى بالناس ، فوقف ليسمع مقالتهم ، فقالوا : نحن ناس من بنى تميم جئنا بخطيبنا وشاعرنا لنفاخرك ونشاعرك ! فقال لهم النبي : ما بالشعر أمرنا ، ولا بالفخار أمرنا ! ودخل بين الصفوف وصلى صلاة الظهر . فلما قضيت الصلاة جلس فى رحبة المسجد فتقدموا اليه وقالوا : يامحمد : إن مدحنا لزين ، وإن شتمنا لشين ، نحن أكرم العرب . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل مدح الله الزين ، وشتم الشين ، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب !

وفى هذه الحادثة أنزل الله : «إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم» .

ولما سمع القوم مقالة الرسول صلى الله عليه وسلم هدأت ثائرتهم ، وخففوا من حدتهم وغلوائهم ، ولجأوا الى شيء من الملاطفة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وأدركوا أنهم ربما نالوا بالحسنى مالم ينالوا بالسوأى ، فقالوا : يامحمد ائذن لخطيبنا يتكلم . فقال النبي : أذنت له فليقل. فقام عطارد بن حاجب فقال :

« الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزأهل المشرق ،وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخرنا فليعدّ مثل ما عددنا ، وإنالو شئنا لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الاكثار فيما أعطانا . أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا » !

عند ذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس وقال له : أجب الخطيب ! فقال :

«الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، وسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبا ، وأصدقهم حديثا ، وأفضلهم حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الإيمان فآمن برسول الله المهاجرون وذوو رحمه ، أكرم الناس أحسابا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله : نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم » !

ثابت بن قيس هذا كان يعرف بخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما سمع وفد بني تميم خطبة ثابت بن قيس قال قائل منهم : يامحمد ائذن لشاعرنا أن يقول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أذنت له .

فأنشد شاعر القوم :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

الى غيرذلك من أبيات طوال .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجبه ياحسان ، فأجابه حسان بقصيدة منها :

أكرم بقومٍ رسولُ الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يوازره ... فيما أحب لسان حائك صَنَع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أوسمعوا

عند ذلك تقدم الأقرع بن حابس وقال : يا محمد إنى قلت شعرا فاسمعه ، فقال له : هات ما عندك ، فأنشد :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس فى كل موطن ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

الى غير ذلك من أبيات .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجبه يا حسان ، فانشد :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

ثم مضى فى إنشاده فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول ما بين ظئر وخادم
فان كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ... ولا تلبسوا زيا كزى الأعاجم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأقرع :

لقد كنت غنيا يا أخا دارم أن تذكر ما كنت ترى أن الناس قد نسوه ! فخجل الأقرع واعترف بالحق ، وأنصف فى المقال فقال مخاطبا قومه : والله لخطيبه (يريد النبى) أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ! ثم تقدم وأسلم ، وحسن إسلامه ، وتقدم بقية الناس وأسلموا معه .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برد الأسرى إليهم ، وكساهم وزودهم وأجازهم ، فأعطى كل واحد منهم اثنتى عشرة أوقية من الفضة . وأراد أن يتأكد من إعطاء الجميع فقال : هل بقى منكم أحد ؟ فقال قيس بن عاصم أحد رجال بنى تميم : لم يبق منا إلا غلام حدث (يريد عمرو بن الأهتم) ، فقال النبى : ائتونى بهذا الغلام . فلما حضر وعرف أنه عمرو ، أعطاه مثلهم ولم يبخسه شيئا .

حسن خطاب الوكيل

البطل الاسلامى

أبو سلمة المخزومى

أبوسلمة ينتمى الى أسرة بنى مخزوم ، وهو ابن عم لأم سلمة المخزومية ، واسم والدته (بَرّة) ، وهى بنت عبد المطلب ، تزوجت أولا بعبد الأسد المخزومى والد أبى سلمة ، وتزوجت ثانيا بأبى رهم بن عبد العزى القرشى العمرى .

يحدثنا المؤرخ (المطهر بن طاهر المقدسى) فى البدء والتاريخ : أن أبا سلمة لم يكن ابن عمة النبى فحسب ، بل كان أخاً له من جهة الرضاع ، فان ثويبة هى التى أرضعت النبى وأبا سلمة معاً . ونستنتج من ذلك أن أبا سلمة يتصل بالنبى بسببين : الأول القرابة ، والثانى الرضاعة ، ولهذين السببين آثار عظيمة تجلت فى أبى سلمة . ولقد تصفحت كثيرا من المصادر التاريخية مطبوعة ومخطوطة باحثا ومنقبا عن تاريخ ولادة أبى سلمة فلم أعثر على تاريخ ميلاده بالضبط ، غير أنه كان تربا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يماشيه فى صغره ، وذلك أنه كان فى دار فاطمة بنت أسد زوجة أبى طالب خال أبى سلمة نخل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يذهب مع أصحابه كل يوم الى تلك الدار ، ومنهم أبو سلمة يلتقطون ما يسقط من الرطب .

وذكر ابن حجر فى الاصابة أن سفيان والد أبى سلمة قتل كافراً يوم بدر ، قتله حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم .

رحلة أبى سلمة الى اليمن :

تمتاز بلاد اليمن عن سائر البلاد العربية بالزراعة والخصوبة والصناعة والتجارة ، لذلك كانت محط رحال التجار ، وقبلة الوافدين من مختلف البلاد .

عزم لفيف من أهل مكة للرحيل الى بلاد اليمن وشدوا رحالهم ، وكان منهم أبو سلمة ، ولم يكن الاسلام قد ظهر بعد ، كما أن التاريخ لم يذكر لنا أن أبا سلمة كان متزوجا بأم سلمة أثناء هذه الرحلة وفى ذلك الوقت أم لا .

ويبدو لنا من خلال هذه الرحلة أن القوم لم يسبق لهم السفر من الطريق الذى سلكوه ، ولم يكن معهم دليل خبير بالمسالك ، فضلوا الطريق فأخذوا يخبطون فى الوهاد والنجاد ، حتى نفد الماء واشتد بهم العطش ، وخارت قواهم وكادوا يموتون ، فأخذت ناقة أبى سلمة تنزع الى ناحية وتجاذبه الزمام وهو يمنعها ، فقال لأصحابه : إن ناقتى تجاذبنى فانى أرى أن أرخى لها العنان

ونقتفي أثرها لعلها ترشدنا إلى ماء نطفيء منه ظمأنا . سارت الناقة مسرعة وتبعوها حتى أوردتهم الى الماء ، فأقبلوا على الماء فارتووا وأنقذوا حياتهم . وبيناهم جالسون إذ جاءهم رجل فقال : ممن أنتم ؟ فقالوا : من قريش ، فقال : إن رئيسنا يطلبكم ليتحدث معكم . وقدكان هذا الرئيس عمرو بن الحارث بن مضاد بن عمرو بن الحرث الجرهمي . فلما وصل أبو سلمة الى عمرو هذا سأله ممن أنت ؟ فقال : أنا من قريش، فقال : من أى فرع من فروع قريش ؟ قال : من بنى مخزوم بن يقظة ، ثم سأله : من أى فرع من فروع بنى مخزوم ؟ فقال : أنا أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عمرو بن مخزوم بن يقظة . سأله عمرو : هل تعرف لمن هذه الأبيات :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال أبوسلمة: لا . فقال عمرو: هذا شعرى، وإنى عمرو بن الحرث بن مضاد الجرهمي. ثم سأله عمرو : هل تعرف لماذا سميت الأجياد أجياداً ؟ قال أبو سلمة : لا علم لى بهذا ، فسأله أبو عمرو: لماذا سمى القعيقعان قعيقعانا ؟ فتجاهل أبوسلمة ولكنه أدرك أنه أمام رجل من عظماء العرب ، كما لمح من خلال أسئلته المتنوعة أنه يريد الفخر والتظاهر بالبأس والقوة ، والتحدث عن ماضى قومه ومواقفهم فى الحروب وشن الغارات .

وإنما أتينا على هذه القصة لنستنبط من اختياره لمقابلة هذا الرئيس أنه كان زعيم صحبه وممتازا عنهم بفصاحة اللسان وحسن البيان .

اسلام أبى سلمة :

كان أبو سلمة أعرف الناس بصدق النبى صلى الله عليه وسلم واستقامة أخلاقه ، فلما عرض عليه الاسلام لبى دعوته قبل أن تتخذ دار الأرقم مركزا للدعوة .

وتعرف هذه الدعوة بدعوة الأفراد ، لأن النبى كان يدعو الى الاسلام سراً ، وكان يخلو بمن يتوسم فيهم خيراً ويعرض عليهم الدخول فى الاسلام ، فأسلم أبوسلمة بعد أن أسلم عشرة ، فكان هو الحادى عشر من المسلمين ، وكان ممن أوذوا بسبب دينهم فهاجر الى الحبشة مرتين ، ولما استقر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة لحق به إليها تاركا زوجته وابنه ، فذاقا من ألم الأسر مالم يكن يخطر لهما ببال . وهذا دليل على أنه كان يؤثر النبى صلى الله عليه وسلم على أهله وماله ، فأكرم رسول الله وفادته وأعطاه داراً .

وتدل الأبحاث على أن أبا سلمة كان يعرف الكتابة ، وهذا مما لا مرية فيه ، ولكن لم نقف على دليل يرشدنا الى الزمن الذى تعلم فيه الكتابة : أقبل الاسلام أم بعده ؟ ونحن بين أمرين : إما أن نقول : إنه تعلم الكتابة فى اليمن مهد الكتابة والقراءة حينما سافر إليها ، وإما أنه أخذها عن خاله أبى طالب ، وهو الذى أظهر الكتابة فى الحجاز .

وإذا عرفنا قيمة الكتابة فى تلك العصور المظلمة أدركنا منزلة أبى سلمة وسمو مكانته وعلو منزلته .

أبو سلمة والولاية :

عرفنا شيئا عن سيرة أبى سلمة وأخلاقه ومنزلته ومبادرته للاسلام وإخلاصه له ،كل ذلك رشحه لأن يكون واحدا من كبار أقطابه ، فولاه النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهذا منصب عظيم ، ومركزخطير ، خصوصا إذا قدرنا الظروف التى كانت تحيط بالاسلام فى ذلك العهد ، وما يجب أن يكون عليه من يمثله فى عاصمته من الكياسة وحسن السياسة ورجاحة العقل.

أبو سلمة والفروسية :

بلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان كان قافلا من الشام بتجارة لقريش ومعه ثلاثون رجلا لحراستها ،فأراد أن يضعف شوكتها ويفل حدها ،فعزم على اعتراضها ،وبلغ أبا سفيان ذلك، فأرسل يستنفر قريشا لقتال المسلمين ، فلبوا دعوته وخفوا لحماية أموالهم . وخرج النبى صلى الله عليه وسلم ومعه خمس وثلاثمائة من أصحابه فيهم أبو سلمة ، فخاض المعركة بشجاعة نادرة ، وأبلى بلاء حسنا فيها ، ولم يثبطه أن مع المشركين قومه من بنى مخزوم ، وكان لهم فيها مائتا بعير . وفى هذا دليل على أن الاسلام كان قد استوعب قلب أبى سلمة فلم يعد يفكر فى شىء غير نصرته ، وهذا منتهى الاخلاص للمبدأ .

أبو سلمة والقيادة :

بعد غزوة أحد أراد طليحة وسلمى بن أبى خويلد أن يحاربا الرسول فى صفر من السنة الرابعة للهجرة ، وكانا يحرضان أقوامهما على القتال، وكانوا يسكنون فى قطن من أرض أسد بالقرب من « قيد » على طريق مكة ، وقد لبى دعوتهما الكثيرون، فلما بلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم الخبر ألف كتيبة من مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وجعل أبا سلمة قائدا عليهم، فلما ترامى خبر خروجه مع عسكره الى طليحة ومن معه ،دب الرعب فى قلوبهم ، وأخذ الفزع منهم كل مأخذ ، ففروا قبل مجىء أبى سلمة وجيشه الصغير، فلما علم أبو سلمة بذلك قسم جيشه ثلاثة أقسام ، أخذ فرقة معه ، وأرسل الفصائل الأخر لارتياد أرض بنى أسد للبحث عن هؤلاء الذين حدثتهم نفوسهم الخبيثة لغزو الرسول ، وأمرهم أن يأسروا كل من يظفرون به ، ومع أن الله قد كفى المسلمين القتال فانهم قد عثروا على بعض الأموال والعدد التى كان يحملها طليحة وأصحابه فأخذوها غنيمة باردة ، ومع أن التاريخ لم يحصر هذه الأموال ويكشف لنا عن عددها بالضبط لكى يمكننا أن نستنبط من خلاله أنها كانت كثيرة ، فان هذه الأموال قد وزعت على الجيش

بعد إخراج الخمس ، فكان نصيب الجندى الواحد سبعة من الابل والشياه . وقد قطع أبو سلمة عشرة أيام فى تطهير البلاد من الأعداء ومطاردتهم . وإذا كان أبو سلمة قد اشترك فى الحروب والغزوات السابقة جنديا ، فقد كتب له بفضل إخلاصه وبسالته أن يكون قائدا مظفرا .

هل اشترك أبو سلمة فى غزوة حنين :

روى بعض المؤرخين أن أباسلمة اشترك فى غزوة حنين التى وقعت فى السنة الثامنة للهجرة. وهذا القول مردود ، لأن المؤرخين قد اختلفوا فى سنة وفاة أبى سلمة على ثلاثة أقوال : فبعضهم يقول : إنه توفى فى السنة الثانية للهجرة ، ومنهم يقول : إنه توفى فى السنة الثالثة للهجرة ، وآخر يدعى أنه توفى فى السنة الرابعة للهجرة . ولم يرد قول آخر فى وفاته يرتفع الى أكثر من السنة الثانية . وأنا أسرد هذه الأقوال الثلاثة على علاتها للدلالة على عدم صحة اشتراك أبى سلمة فى هذه الغزوة .

وفاة أبى سلمة :

أصاب أبو أسامة الجشمى أبا سلمة بطعنة نجلاء فى غزوة أحد ، فعولج واندمل الجرح على فساد فى جسم أبى سلمة ، فعانى منه أشد الآلام ، وقاسى ما حرمه لذة الحياة وطيب الكرى ، فلما ذهب الى محاربة طليحة تحرك الجرح وانشق من تلقاء نفسه فى غزوة قطن ، وتوفى فى ٣٠ جمادى الآخرة من السنة الرابعة للهجرة كما نص عليه ابن حجر فى الاصابة .

مات أبوسلمة فطويت صفحة مجيدة لرجل من أخلص الرجال وأوفاهم لرسوله ، فكان مثالا للجندى الباسل ، والقائد المظفر ، والوالى القدير .

استلقى أبو سلمة على فراش المرض ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعودونه للاطمئنان على صحته ، ولكن المرض ألح عليه فدنا من الموت ، وفى ٤ جمادى الآخرة ذهب رسول الله ليعوده كعادته ، فلما وطئت قدمه عتبة داره جاد بروحه وأسلم نفسه .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم: اللهمافسح له فى قبره ، وأضئ له فيه ، وعظّم نوره ، واغفر ذنبه . اللهم ارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى تركته فى الغابرين ، واغفرلنا وله يارب العالمين !

إن من يمعن النظر فى هذه القصة لا يشك فى أن النبى قد حزن لفقدأ بى سلمة أشد الحزن . وهذا الدعاء أسطع برهان على مكانة أبى سلمة من قلبه .

وبعد غسله وتكفينه صلى عليه النبى صلاة الجنازة ، فكبرتسع تكبيرات على خلاف عادته ، فسأله المصلون وراءه : أسهوت يارسول الله أم نسيت ؟ فقال : ليست منهما واحدة : لوكبرت على أبى سلمة ألفا كان أهلا لذلك !

وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة ابن عبد الأسد ، واول من يعطى كتابه بشماله أخوه سليمان بن عبد الأسد « الاصابة ٩٥ - ٤ »

وهذه شهادة من رسول الله على مقام أبى سلمة الدينى ورفعة شأنه فى الدار الآخرة .

وحدثنا صاحب نزهة المجالس قال : ذكر الله أبا سلمة وأخاه فى سورة الكهف والصافات .

ويحدثنا صاحب أسد الغابة أنه نزل فى شأن أبى سلمة « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه »

مجتبى حسن كامون پورى الهندى
دكتوراه فى التاريخ وفلسفة الأخلاق والتربية الحديثة
من كلية اللغة بالأزهر

ذم اخلاف الوعد

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

وقال بعض الأدباء : « خلف الوعد ، من أخلاق الوغد » .

وقال آخر : « فلان يفتتح مواعيده بالأطماع ، ويختتمها بالخيبة والامتناع » .

وقال غيرهما : « فلان أول وعده طمع ، وآخره يأس ، وما هو إلا كالسراب يغر من رآه ويخلف من رجاه » .

وقال شاعر :

لسانك أحلى من جنى النحل موعدا وكفك بالمعروف أضيق من قفل

وقالوا : « من وعد وأخلف لزمته ثلاث مذمات : ذم اللؤم ، وذم الخلف ، وذم الكذب » .

وقال شاعر :

ألا إنما الانسان غمد لقلبه ولا خير فى غمد إذا لم يكن نصل
ولاخير فى وعد إذا كان كاذبا ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل
فان تجمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل

ولشاعر يخاطب من أخلفه الوعد :

ووعدتنى عدة ظننتك صادقا فجعلت من طمعى أروح وأذهب
فاذا حضرت أنا وأنت بمجلس قالوا مسيلمة وهذا أشعب

الاخلاق الفلسفية

– ١٢ –

بواعث أعمال بنى الانسان وغاياتهم

من المشاهـد أن الآلات « الماكينيـكية » تدور بمحركات مختلفة تقودها أو تدفعها، وأن الحيوانات تسير فى الحياة متأثرة بعوامل خفية تقودها وتدفعها كذلك مثل الغرائز الحيوانية . وهذان النوعان : الجماد والحيوان : لايشعران بهذا المحرك شعور تأمل أوتفكير، لأنهما يستويان فى عدم تقدير دورهما فى الحياة ، وإن كان الحيوان يمتاز عن الجماد بالحيوية والاحساس والحركة « اللاآلية » عند أكثر الفلاسفة المحترمين ، إذا استثنينا « ديكارت » القائل بأن الحيوان يسير فى الحياة متأثرا بحركات آلية بحتة . ومهما يكن من الأمر ، فان الجماد والحيوان يسيران فى الحياة متأثرين بدوافع ومحركات فحسب . أما الانسان فله هذه الدوافع والمحركات ، ويمتاز عن الجنسين السابقين بإدراك لهذه البواعث ، ثم بغايات يرمى إليها من وراء ما يأتيه من أعمال وما يرسمه من خطط وما ينتهجه من أنساق . غير أن هذه المحركات بالنسبة الى الانسان تسمى بالبواعث . وقد حصرها أكثر الفلاسفة فى أربعة بواعث ، وهى : اللذة الناجمة عن الغريزة ، والمنفعة الناشئة من الأنانية ، والعاطفة النابعة من القلب ، والواجب المؤسس على الشعور بالالتزام . وقد قصرها بعض الأخلاقيين الكونيين على ثلاثة ، فأسقط منها باعث العاطفة القلبية . والرأى الأول عندى هو الصحيح ، لأن أصحاب الرأى الثانى متأثرون باجوائهم الاقليمية ، وبيئاتهم الجافة التى لا تؤمن بما يسمى العواطف القلبية . وإذاً فهذه البواعث الأربعة هى محركات الانسان ودوافعه الى كل مايأتيه من أعمال . غير أنها قد تؤثر فيه مجتمعة بعضها مع بعض حينا ، ويقوده واحد منها منفردا حينا آخر . فقد يتعارض اثنان منها فيتنازعان فى نفس الانسان تنازعا شديدا ينتهى بغلبة أحدهما وانهزام الثانى ، فينتج عن ذلك فعل الخير والفضيلة تارة ، والسقوط فى هوة الشر والرذيلة تارة أخرى . ولا شك أن ذلك يحتم علينا أن نحتاط فى الأمر ، وأن نعمل على حفظ التوازن بين هذه البواعث ، لنستطيع أن نستفيد منها فى تربية أخلاقنا ، وهذا يتطلب منا دراسة كافية لهذه البواعث تتلاءم مع احتياجنا الشديد الى معرفتها . وأول مايجب علينا أن نعرفه عنها هو تفريقنا بين البواعث التى يضرنا الانقياد إليها دائما ، وبين البواعث الأخرى التى لا بأس بالخضوع لها فى كل الظروف والأحوال ، لأنها مأمونة الجانب ، محققة الخيرية . فالقسم الأول الذى لا ينبغى الخضوع له ولا يصح إفراده بتسلم زمام أعمال الانسان كلها هو اللذة الغريزية ، والمنفعة بقسميها ، والعاطفة القلبية .

وأما القسم الثانى الذى لا يخشى منه خطر ولا ينتظر من إطاعته ضرر ، فهو الواجب ، لأننا لو أطعناه فى كل سلوكنا وتصرفاتنا لخطونا خطوات واسعة نحو الكمال ، وإن قاسينا فى سبيل ذلك ألوان المتاعب وأصناف المشقات .

أما البواعث الأخرى فاذا منحناها أكثر مما يستلزم الاعتدال ، ولم نصدم بعضها بالبعض الآخر ، وبعضها بالواجب المقدس ، كان الخطر والسقوط من الأمور المحققة . ولكن هذا التفريق بين تلك البواعث لا يتيسر لنا إلا بعد معرفة مهايا هذه البواعث ، لأن الفرق بين كل شيئين يتوقف على تعريف ذينك الشيئين . وإليك تعريفات هذه البواعث :

١ — اللذة :

هى ميل حسى يهيج الانسان الى البحث عن ترضية مباشرة لغريزة من الغرائز الحيوانية ، ويجذبه الى حالة لذيذة متعارضة مع الألم .

ومن المحقق أن الأصل فى اللذة ليس رذيلة من الرذائل ، لأن الواقع الذى لا ريب فيه هو أن اللذة خير من الألم ، لأنها ترتبط ببعض الغرائز الأساسية فى الحياة ، إذ أننا نشاهد أننا حين نأكل ونشرب ونتناسل إنما نلبى داعى اللذة الضرورية فى الحياة ، غير أن الإفراط فى هذه اللذائذ كثيرا ما يوقع الانسان فى الرذيلة ، لأن الشخص الذى يندفع وراء هذا سرعان ما يسقط أسيرا فى قبضة الحواس التى تقوده حتما الى القسوة والظلم والشراهة وغير ذلك من أنواع الرذائل والشرور ، لأن إرضاء اللذائذ الحسية يصطدم غالبا مع العدالة والعفة . وفوق ذلك ، فان الانسان الشهوانى لا يحترم القوانين الزمنية التى تقرر أن الزمن الحاضر هو مزيج من ذكريات الماضى وتحضيرات المستقبل ، ولا يفكر فى أن السرور الحاضر قد يجر الى آلام مقبلة ثقيلة الوطأة .

ومن الذى لا ريب فيه أن اللذة هى أكثر البواعث تعرضا الى الخطأ وسيرا بالانسان نحو الضلال . ومع ذلك فقد رأينا أن بعض المدارس الفلسفية الاغريقية كالسيرينيكية والابيكورية قد بنت فلسفتها على اللذة الحسية ، وإن كانت هذه الأخيرة قد عادت فعدلت مبادئها بعض الشىء ، إذ نصحت الانسان أن لا يلقى بنفسه فريسة فى أيدى الشهوات ، وأن يحتفظ بشىء من حريته الداخلية ، ولكن هذا التعديل كان عبثا ، لأن تحققه يكاد يكون مستحيلا بعد الذى كان من رؤساء هذه المدرسة . ولما رأى الاستوئيسيون ذلك العبث لم يسعهم إلا أن يعلنوا فى صراحة ووضوح أن اللذة شر ، وأن الألم خير من الوجهة الأخلاقية . وحين جاءت الديانة المسيحية قررت إدانة اللذائذ الحسية ، لأنها كانت متضايقة من مادية الاسرائيليين من ناحية وتأثرت بالاستوئيسيين من ناحية أخرى . غير أن هذه الفكرة لا يمكن أن تصادف نجاحا ، لأنها تخلق بين الانسان وطبيعته سوء تفاهم كما يقول « أناتول فرانس » إذ ليس من المنطق

فى شىء أن نحتقر جزءا من وجودنا وهو الجسم فنحول بينه وبين لذائذه البريئة المعتدلة ونحكم بادانة كل المسرات الحسية التى تحفظ حياتنا من التلف وتساعد قوانا العقلية على إبراز المنتجات النافعة الى حيز الوجود . فهو إذا ضرورى فى الحياة ولا يمكن الاستغناء عنه ألبتة وإن كان من الواجب وقفه عند حد معين حدده الفلاسفة المعقولون بالاعتدال أو بالعفة ، وهى درجة الحيلولة بين اللذة و بين الطغيان على الفضيلة .

٢ — المنفعة :

هى البحث عن أ كبر لذة ممكنة حاضرة كانت أو مستقبلة بأقل ثمن ممكن ، وهى تتفق مع اللذة فى أنهما لذتان حسيتان ، ولكنهما تختلفان فى أن المنفعة تقدر الوقت ، لأنها تبحث عن أ كبر لذة بأقل ثمن وفى أطول مدة ممكنة ، وهى تنقسم الى قسمين : المنفعة الشخصية ، والمنفعة العامة . فأما المنفعة الشخصية ، فوجهة نظرها الفرد الفاعل فقط ، وهى فى ذاتها حسنة ، لأنها كثيرا ما تنتج نتائج قيمة ، مثل عناية المرء بصحته وتثقيف عقله ، وسعيه لتحسين حالته المادية بطريقة مشروعة شريفة ، ولكنها من الناحية الأخلاقية كثيرا ما تصطدم مع الرحمة ومع العدالة أو القناعة أو غيرهما من الفضائل الأخرى ، فضلا عن الغيرية والتضحية . ولهذا فان « إبيكور » المؤسس الأول للأخلاق النفعية قد نصح للناس أن يستعملوا الحكمة فى أنانيتهم ومنفعتهم ، ليصلوا إلى الكمال المطلق ، ولكنه لم ينجح فى نصائحه ، لأن النفعية لايمكن أن تكون مثلا أعلى ترمى اليه الأخلاق ، بل ولا يمكن أن تقود الى السعادة المنشودة ، لأن البحث عن السرور الحسى بنوعيه : العاجل وهو اللذة ، والآجل وهو المنفعة ، لايوصل الى السعادة . وقد تنبه النفعيون الى هذا حين اندمجوا فى الهيئات الاجتماعية ، وآمنوا بأن المنفعة العامة تحقق السعادة الطويلة أ كثر من المنفعة الخاصة ، فعملوا لها متأثرين بأنانيتهم ، لأنهم — كما قلنا — يقدرون الوقت والكمية . وعلى هذا الأساس قد بنت المدرسة الانجليزية النفعية مذهبها ، ولكن المشاهد هو أن المنفعة العامة كثيرا ما تتعارض مع المنفعة الخاصة ، وإن كانت الأولى أرقى فى نظر الأخلاق من الثانية .

٣ — العاطفة :

هى ميل قلبى أو انفعال شعورى يدفع الانسان الى الرغبة فى بعض الأفعال أو عنها ، وهى تنقسم الى ثلاثة أقسام : عاطفة الأنانية ، وهى ميل غريزى يسوق الانسان الى منفعته الخاصة دون التفات الى وجود غيره مطلقا . والثانية عاطفة حب الذات ، وهى ميل الى تفضيل نفسه عن الغير مع الالتفات الى وجود هذا الغير . الثالثة : العاطفة الخارجية ، وهى ميل القلب الى الغير ونفوره منه ، وهى المقصودة بالذات فى الأخلاق . ويمكن أن يكون هذا النوع من العواطف

رحمة أو صداقة ، وحبا أو بغضا . والعاطفة باعث لا بأس به ، غير أنه لا يمكن أن يكون مثلا أعلى للأخلاق فى نظر كثير من الفلاسفة ، بل إن بعضهم يحمل على العاطفة ويسىء بها الظن ولا يستريح لها كباعث أخلاقى ، ويحذر الناس من أن يمنحوها سلطة قوية ، لأنهم لو فعلوا لكانت النتيجة طغيان العاطفة على ما عداها من البواعث ، وقد تمادوا فى هذا التحذير الى حد أن حكم المتطرفون منهم بأن ما تبعث العاطفة على فعله لا يعد عملا أخلاقيا ألبتة .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

أحسن ما قيل فى شكر المنعم

أورد الثعالبى عبارات من الشكر فقال : « شكرى لا يقع فى نعمه الظاهره ، موقع النقطة من الدائره . لأشكرنك ملء القلب واللسان ، شكر حسان الى غسان . لأشكرنك شكر الأسير لمن أطلقه ، والمملوك لمن أعتقه ، لأشكرنك شكر الرياض للديم ، وزهير لهرم .

وقال الأمير أبو الفتيان محمد بن حيوس :

سأشكر مادام اللسان يطيعنى   صنوفا أتت من جودك المتتابع
توالت على من لايدل بخدمة   عليك ولايدلى اليك بشافع

وقال ابراهيم بن المهدى مخاطبا الحسن بن سهل وقد شفع له عند المأمون :

رددت مالى ولم تضنن على به   وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
لئن جحدتك ما أوليت من حسن   إنى لفى اللؤم أحظى منك بالكرم

وقال آخر :

لوكنت أعرف فوق الشكر منزلة   أعلى من الشكر عند الله فى الثمن
إذن منحتكها منى مهذبة   حذوا على حذو ما أوليت من حسن

وقال آخر :

لقد أفرطت فى برى   وقد قصرت فى الشكر
وشكرى عند إحسا   نك كالقطرة فى البحر

تاريخ التصوف

أهم مذاهب الصوفية :

شهاب الدين السهروردى أو الشيخ المقتول سنة ١١٩١ ميلادية وفى المحرم سنة ٦٣٢ هجرية ، أحد أعقاب أبى بكر رضى الله عنه ، وكان تلميذا لعمه أبى النجيب ، وللصوفى الشهير عبد القادر الجيلى ، وكان شيخا لمشايخ بغداد ، والتف حوله عدد ضخم من المتصوفة والزهاد ، ومات فى بغداد سنة ٦٣٢ هجرية ، وكتب عنه ياقوت فى معجمه مقالا قال فيه :

« إنه سافر فى شبابه الى بغداد حيث درس الشريعة والفقه ، ثم الى أصفهان ، وكان يعمل كسقاء ، وكان يعيش من عرق جبينه ، وتولى رياسة المدرسة النظامية ، ثم توجه بعد ذلك الى دمشق سنة ٥٥٨ حيث أولاه نور الدين الزنجانى شرفا كبيرا ، وهناك أسس طائفة من الصوفية » .

ويقول عنه ابن خلكان فى وفيات الأعيان : « إنه كان فقيها شافعى المذهب ، تخرج عليه كثير من الصوفية فى المجاهدة والخلوة » . أنتج السهروردى كتابه عوارف المعارف ، وهو من أمهات كتب التصوف ، حيث حوى أكثر من ستين بابا ، وكلها منصبة على نشأة العلوم الصوفية ، والإبانة عن آداب المتصوفة ومذاهبهم وأقوالهم وأخبارهم ، وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من أن ديلبر نورس كلارك قد ترجمه ، وأن البارون كارادى فو قد تكلم على هذا الكتاب فى مؤلفه عن الغزالى .

ملخص مذهبه :

المفكرون عنده رجال أسرة واحدة ، وفروع شجرة مباركة ، وإن انتسبوا الى شعوب مختلفة . وعلى الاجمال فزهاد الهند وفلاسفة الاغريق وحكماء العراق يسعون وراء غرض واحد هو أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، من نوره خرجت أنوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحى ، والعقول المفارقة ليست إلا قبسات من هذه الأنوار .

تناول الكلام فى هذا المذهب رجل من أهل القرن الثالث عشر يدعى ابن سبعين ، وزاد عليه من عنده شرحا ، مصرحا بما رآه علماء السنة من الأمور التى لايجوز التصريح بها ، وخاصة للعامة الذين قد يفتتنون بها ولا يفهمونها على وجهها . وقد وقف المستشرق الايطالى إمرى سنة ١٨٥٣ فى مخطوطات على رسائل له دارت بينه وبين الأمبراطور فريدريك الألمانى

المتوفى سنة ١٢٥٠ تحت عنوان الرسائل الصقلية ، وقد قام بتحليلها بعده فى الصحيفة الآسيوية الفرنسية المستشرق الدانمركى مهرن .

ملخص الرسائل المتبادلة :

تتلخص هذه الرسائل فى أن فردريك الثانى وجه الى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم والمقولات العشر وما وراء الطبيعة فى غايته ومبادئه وطبيعة النفس ، وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة ، وضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ، وفى استطاعة كل من يطلع عليها أن يقف بنفسه على نظريات ابن سبعين الصوفية والفلسفية التى تتلخص فى أن الله أصل العقول المتصرفة فى الكون صدرت عنه بمحض الفيض والانعام ، والعقل الفعال هو أحدها يدير شئون العالم ويمد الكائنات بصورها ، فهو مصدر النفوس البشرية على الاطلاق ، وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهى ميالة دائما الى الاتصال به ، ولا يحول دونها إلا أدران الجسم وشهواته ، فاذا تفرغ الانسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما الى درجة العقل الفعال .

هذه النظرية إذا تأملناها نجد أنها تكرار لما قاله الفارابى وابن سينا ، الذى أوردها فى كتبه ، وفى الوقت عينه رفض لمذهب الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلاج .

فتصوف السهروردى وابن سبعين مؤسس على علم الفلسفة ، وفى رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائنا آخر واجب الوجود بذاته لصحة الوجود ، ويفيض عليه بالخلق والابداع ، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله ، والكائنات جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود . فهذا الكلام الذى أورده السهروردى وابن سبعين أصل لمذهب وحدة الوجود الذى اعتنقه جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الحكمية فى الاسلام ، وقد تكونت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وانتهت بعد ذلك فى بلاد الأندلس والشرق ، وكان من أكبر أنصارها محيى الدين بن العربى المتوفى سنة ١٢٤٠ م وجلال الدين الرومى المتوفى سنة ١٢٧٣

من هنا نرى أن الصوفية عند بعض الناس امتزجت بالفلسفة امتزاجا كليا حتى أصبحنا لا نستطيع دراسة الثقافة الاسلامية والتفكير الفلسفى فى عصور الاسلام المتأخرة ، بعيدا عن دراسة التصوف وعلم الكلام .

والصوفية أنفسهم لم تسلم نفوسهم من شر الفلسفة التى اندمجت فى عقائدهم ، وأضحوا بذلك عرضة للنقد .

فالسهروردى قتل بأمر صلاح الدين ، وابن سبعين انتحر فى مكة ، واتهم ابن العربى بالالحاد والزندقة .

أثر القرآن فى تكوين نظريات الاسلام الصوفية :

لم يكن الدين الاسلامى ليفسح مجالا للرهبانية المسيحية والتقشف الهندى ، بل كثيرا ما حض على العمل للدنيا والتمتع بلذات الحياة : « قل مَن حرّم زينة الله التى أَخرَج لعباده والطيباتِ من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

فهو بعيد فى تعاليمه عن طريقة القسس والرهبان فى بيعهم وصوامعهم ، وسنة فقراء الهنود ، إلا أنه بالرغم من ذلك نجد أن هناك تعاليم مختلفة هندية وفارسية وإغريقية ومسيحية أثرت فى تكوين بعض المتصوفة من المسلمين ، وبجانب هذه التعاليم مؤثرات خارجية أثرت فيهم أيضا ، وهى القرآن والأحاديث .

ففريق من العلماء الأجانب ينكر أثر القرآن فى الصوفية ، وفريق آخر يثبت وجود هذا الأثر ، فمن الفريق الأول البارون كارادى فو الذى يزعم أن القرآن لم يكن الكتاب الذى يجتذب إليه الصوفية ، لأنه يعنى بالأمور الخارجية وليس فيه الحنين القلبى .

وهذا كلام لا يصدر من عالم كبير كالبارون إلا إذا كان متحيزا مغرضا ، وأظن أن كارادىفو ليس من أولئك المتحيزين المغرضين ، لأن كل الكتب السماوية خاطبت الأرواح قبل أن تخاطب العقول . ولو لم يكن القرآن روحا من عند الله يمازج الأرواح ويغذيها لما رسخت قواعده فى العقائد هذا الرسوخ الذى لا يقف عند حد « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء » .

أما الفريق الثانى : فهو الاستاذ ماسينون ، وبجانبه الاستاذ مرجليوث ، وهما يقرران « أن فى القرآن البذور الحقيقية للتصوف ، وهذه البذور كفيلة بتنميته فى استقلال عن أى غذاء أجنبى » .

والحقيقة أن القرآن أعان الصوفية الحقة كما أعان المتكلمين والفقهاء على نصرة آرائهم . وهناك آيات كثيرة استطاع الصوفية استغلالها فى نواح كثيرة ، ومصطلحات الصوفية فضلا عن نظرياتهم ترجع الى أصل فى كتاب الله ، والعلم اللدنى الذى يتباهى به أهل الكشف والواصلون ما هو إلا صورة مأخوذة عن قصة الخضر الذى قال الله فى شأنه « فوَجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علما » .

التصوف الاسلامى والفلسفة اليهودية :

الفلسفة اليهودية فى القرون الوسطى هى صدى للفلسفة الاسلامية ، واليهود هم تابعو طريقة العرب فى تقرير مذهب أرسطو ، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادى فوزا عظيما، وأصبحوا أنصارها طوال القرون الثلاثة التالية ،فأخذوا الحكمة الاسلامية ونقلوها الى لغتهم وتدارسوها بينهم ، وكان شيخهم الأكبر موسى بن ميمون الذى اعتنق كل نظريات الفلسفة اليونانية والاسلامية ، وصادفت نظرية السعادة بوجه خاص هوى فى نفسه ، ووجد فيها مجالا للتوفيق بين الفلسفة والدين . فهو يعتقد أن البحث والتثقف هما سبيل الكمال الانسانى ، وأن العلم هو العبادة التى يستطيع العبد التقرب بها الى الله وكشف الحقائق الغامضة ، وكلما أمعن الانسان فى الدراسة والنظر كلما ازداد قربا من ربه . وهذا كما ترى كلام قاله المسلمون الأولون بل نص عليه القرآن نفسه .

تأثر كثير من فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين بكثير من الآراء الفلسفية الاسلامية ، وذلك أن مسيحيي القرون الوسطى وقفوا على ترجمة رسائل الفارابى الى اللاتينية ، ووقفوا عليها مفصلة فى مؤلفات ابن سينا وابن رشد ، وفى كتاب موسى بن ميمون (دلالة الحائرين) الذى مدحه الفيلسوف اسبينوزا وعرفه لبينتز .

اسبينوزا كالفارابى كلاهما يعد السعادة غاية لمذهبه الفلسفى ، وكلاهما صوفى النزعة ، وتصوفهما عقلى نظرى مبنى على العلم والدراسة .

ويقول اسبينوزا : لوكانت هناك سعادة فهى فى التصوف ، ثم دراسة الحياة عن هذا الطريق المعبد طريق الصوفية

عبد الحميد سامى بيومى

القناعة فى شرف وعلو همة

قال أبو العير الهاشمى وقد كشف فى قوله هذا عن فهم صحيح للشرف وعلو الهمة ، وأنهما ليسا بالمال ، ولكن بالفضائل والفعال :

قنعت نفسى بما رزقت ... وتمطت فى العلا هممى
ولبست الصبر سابغة ... هى من قرنى الى قدمى
فاذا ما الدهر عاتبنى ... لم يجدنى كافر النعم
لا أقول الله يظلمنى ... كيف أشكو غير متهم

الماامة بأدلة وجود الروح

للعلماء الغربيين ولوع عظيم اليوم بجمع كل ما يروى من الشئون الخارقة للعادة ، رجاء الوصول من هذا الطريق الى معرفة خواص الروح الانسانية ، ومدى استقلالها عن المادة .

وهم لا يعمدون الى تدوين حادثة من الحوادث إلا بعد أن يؤلفوا لجنة لفحصها ، واستجماع أدلتها ، وأخذ أقوال الذين شاهدوها ، وكثيرا ما يمضون تلك المحاضر أمام هيئة رسمية لعدم تطرق الشك إليها فى المستقبل . وإنهم لينفقون فى هذه السبيل نفقات باهظة ، ومثروهم لا يبخلون عليهم بالمال للأغراض العلمية . فاذا وقعت حادثة من هـذا القبيل بمصر مثلا وكتب لجمعية المباحث النفسية الانجليزية أوغيرها ، أوفدت الى مصر رجالا من أعضائها للتحقق من صحتها ، ودونتها فى مجموعتها إن كانت صحيحة ، وإلا لفظتها إذا لم تستوف أسلوب التمحيص الذى اتفقوا فيما بينهم عليه .

وغرضهم من هذا الجمع ترتيب كل طائفة منها مع نظائرها ، لإمكان معرفة القانون الطبيعى السائد عليها ، والحالة النفسية التى تحدث مصاحبة لها ، وغير ذلك مما يكشف للباحث المساتير التى تحيط بهذه الأمور الروحية . وإذا كنا نحن فى بلادنا هـذه نعنى مثل هذه العناية بجمع هـذه الحوادث مُسَيِّرين عليها أسلوبا تمحيصيا يخرجها من حيز الشعوذة أو الأمور المفتعلة ، لوجدنا بين أيدينا وما خلفنا مثل ما يجدون هم فى بلادهم اليوم من الحوادث التى لا مرية فيها ، وكنا عملنا مع العاملين على إعادة دولة الروح فى الأرض .

العلامة الكبير (كاميل فلامريون) الفلكى من أشهر رجال العصر فى إثبات وجـود الروح وخلودها ، وقد قال فى كتابه (الموت وغامضته) ما ترجمته :

« إن شعور الانسان بما سيقع هو من الأمور الجديرة بالتفات خاص . فأدعو أشد قرائى عنادا أن يمحصوه ويقلبوه على كل وجه .

« مثال ذلك ما رويناه فى محل آخر من أن الأستاذ (ديالونيه) مدير مرصد باريس كان يشعر فى نفسه أن ركوب البحر سيجر عليـه مصيبة ، وكان يرفض أن يمتطى صهوته لهـذا السبب ، حتى حضر إليه أحد أقربائه وهو المسيو (ميتو) فى أغسطس سنة ١٨٧٢ ورجاه أن يمضى معه أسبوعا من الرياضة ، فقصدا مدينة شيربورغ فغرق الاثنان معا وهما عائدان من زيارة مرفئها بتأثير ريح شديدة .

« فالشعور بالحوادث المستقبلة ، والانذارات النفسية التى من هذا القبيل ، من الكثرة

بحيث تخرج عن حدود الأمور الاتفاقية . ولا يدهشنا أن يهتم الباحثون بالتنقيب عن علتها . فانها جزء من الحوادث الواجب دراستها . فقد تكون حادثة واحـدة يمكن تفسيرها بالاتفاق المحض ، ولـكن تفسير عشر حوادث أو عشرين أو مائة أو ألف بالاتفاق فذلك مما لاسبيل إليه .

« وقـد كتب الدكتور (مينوسافاج) فى مجلة (اينلسيز مجازين) الامريكية فى مارس سنة ١٨٩٢ ما يأتى :

« كان فى إحـدى ضواحى نيويورك شاب أتم دروسـه فى البـلاد الأجنبيـة بجامعة (هيد لبرج) ، وكان أبعـد ما يكون عن المزاج التصورى الوهمى ، وكان لطول قامته وقوة عضـلاته اشتهر بين صحبه بالمصارع ، وكانت العـلوم التى آثرها على سـواها هى الرياضيات والطبيعيات والـكهرباء ، ولما عاد من البلاد الأجنبية لم يعرف عن صحته إلا أنها جيدة للغاية ، وكان يقيم مع أمه فى دار خلوية لها فى تلك الأنحاء ، وكان من عاداته أن يذهب كل يوم بعـد العشاء فيتمشى خطوات وهو يدخن فى (بيبته) . ففى ذات ليلة عاد الى بيته هادئا لم يكلم أحدا ودخل غرفته ، فلمـا أسفر الصبـاح دخل الى حجرة والدته قبل أن تتنبه من نومهـا ، ومسح وجهها بيده بقصد إيقاظها بتلطف ، ثم قال لها :

« يا أماه : سأخبرك بشىء غريب محزن جدا ، فيجب أن تدرعى بالشجاعة لتكونى قوية ، وتتحملى سماعه !

« دهشت والدته مما سمعت ، وسألته عما يقصده من قوله هذا .

« فأجابها بقوله : يا أماه إنى عارف بما أقول ، إنى ساموت قريبا !

« فألم بالأم من الـكرب والاضطراب ما يُتوقع من كل أم فى مثل هذه الحال ، وسألته أن يزيدها بيانا .

« فقال لها : بينما كنت أتمشى أمس مساء فى الميدان ظهر لى شبح ومشى الى جانبى وأخبرنى بأنى سأموت قريبا ، فلا بد من أنى ميت كما قال :

« فتأثرت الأم ممـا سمعت أشد تأثر ، واستدعت طبيبا وكاشفته بما سمعته من ابنها .

« فقرر الطبيب بعد ما أطال فى فحص الابن أنه لم يجد عنده شيئا غير طبيعى ، وهدأ بال الأم بقوله لها : إن ما حدثك ابنك به لم يكن غير هذيان محض ، وإنه لا يجوز لها أن تفـكر فيه ، وإنه لا تمضى غير أيام معدودة حتى تضحك هى وولدها من خوفهما الوهمى .

« فلما أصبح الولد فى اليوم التالى شكا من انحراف ألم به ، فاستدعى الطبيب ثانية ، فهزئ بوسوستهما ، فاشتد المرض فى اليوم الثالث على الشاب ، وأحضر الطبيب مرة ثالثة ، فرأى التهابا حـدث فى الزائدة الدودية ، وقرر أن تستأصل بعمل جراحى . فـلم يعش الولد بعـد استئصالها غير يومين ، ولم يمض بين ما رآه وبين موته غير خمسة أيام » !

قال الاستاذ كاميل فلامريون عقب إيراده هذه الحادثة :

« اعتاد الناس طيشا أن يعللوا أمثال هـذه الروايات بالهذيان ، ويخيل اليهم أنهم يحلون المسألة بحذفها على هذا النحو ، وليس هـذا من الجد فى شىء ، وليس علىَّ هنا إلا أن استمد من الأسانيد التى لا تحصى من استفتائى الذى عملته (١) لأزيد على ما قدمت أسانيد جديدة مختلفات الطبيعة ، ولأدل بذلك على سعة المجال المجهول الذى علينا اكتشافه . وقد وقعت الآن يدى على الكتاب الآتى وهو يخالف الكتاب السالف ذكره ، ولا يقل عنه فى الغرابة ، وقد أرسله صاحبه الىّ من استامبول فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ ، فاليك :

« سيدى الاستاذ :

« فى سبيل البحث العلمى التجريبى الذى تبذلون فيه باخلاص عظيم ساعات كثيرة من وقتكم بقصد تكميل العلم العام ، أرى من واجبى أن أفضى اليكم بحادثتين شاهدتهما بنفسى :

« قابلنى فى بيتى رجل من معارفى ذات يوم باستامبول فى نحو منتصف الساعة الثانية عشرة صباحا وقال لى :

لا أدرى لماذا أنا منذ هذا الصباح مشغول الفكر بأن عمتى قد توفيت فى (جنوا) ؟

فسألته : هل يعلم أن عمته مريضة ؟

« فأجابنى بانه مقاطع لأسرته منذ عشر سنين ولم يصله منها خبر ما .

« وبينما نحن نتحدث وأنا جاد فى أن أثبت له أن شعوره هذا وهم باطل ، إذ أقبل خادمه حاملا اليه تلغرافا من مدينة (جنوا) وفيه أن عمته قد توفيت فجأة فى تلك الصبيحة عينها .

« وهـذا الرجل نفسه هبّ من نومه فجأة فى ليلة ٣١ يوليو الماضى وقال لزوجته بأن ملك ايطاليا السابق قد قتل ، فلم تعارضه زوجته اعتقادا منها بانه يحلم . فلما أصبحت أخبرته بما رآه فى الحلم ، فقال لها : إن ذلك لم يكن حلما ، ولكن تلك العبارة خرجت من فمى وأنا لا أعلم لماذا ولا كيف خرجت .

« وكان بيتهما مطلا على الميناء ، فقال لزوجته : إن أدل دليل على أن ملك إيطاليا لم يمت هو أن السفن الراسية رافعة أعلامها .

« وبعد مضى ساعة عاد الى النافذة فرأى فى هـذه المرة أن تلك السفن قد خفضت راياتها الى أنصاف سواريها (علامة الحزن) ، فدهش من هذا التغيير وأسرع الى الاستعلام عنه ، فقيل له : إن ملك ايطاليا (والد الملك الحالى) قد قتل غيلة فى الليل !

---

(١) يريد الاستاذ كاميل فلامريون من قوله (استفتائى) أنه كان قد نشر فى الجرائد يطلب من كل من رأى شيئا لا يمكن تعليله بالاسباب الطبيعية أن يفضى اليه به زيادة لمادة العلم، واستجماعا لادلة الروح ، فوردت اليه ألوف من الاجوبة نشرها فى مؤلفاته .

« خاف صاحبي من هذا التوافق العجيب ، فجاء يستشيرني باعتبار أني طبيب للامراض العقلية ، ويسألني هل ما حدث له يعتبر عرضا خطيرا لاصابة مخيـة ، فهدأت باله ، ولـكني دونت هذه الحادثة ، لا سيما وصاحبنا كما قالت عنه رزين للدرجة القصوى ، وجدير بالثقة من كل وجه .

« فأرجوكم ، وأنا في انتظار جوابكم ، أن تتفضلوا بالعفو عن جراءتي بالـكتابة اليكم قبل أن أتشرف بمعرفتكم شخصيا ، وتكرموا بقبول شكري واحترامي .

الدكتور ل . موغيري

طبيب الأمراض العقلية بالمستشفى الملـكي الايطالي

بشارع كابريستان رقم ٢٠ باستانبول

قال الأستاذ كاميل فلامريون عقب إيراده هذه المشاهدة :

« لقد شكرت هذا الدكتور الـكريم على كتابه هذا الذي ضممته الى أمثاله الـكثيرة . فمن الجنون اعتبار كل هذه الحوادث من الأوهام ، إذ يكون ذلك بمثابة إنـكار الشمس وقت الزوال . فالـكائن الانساني لايزال بالنسبة إلينا سرا غامضا ، وعلم الجامعات قد ضل سبيل الرشاد الى الآن ، ولـكن العلم الذي أخذ على نفسه البحث عن الحقيقة يجب عليه بعد الآن أن يقتنع بأن هنالك خصائص للروح لا تزال مجهولة ، وهي أهم الأشياء التي يجب كشفها وتحديدها وتفسيرها .

« وإليك حادثة هامة للغاية تدل على الشعور عن بعد بالحوادث ، حصلت لامرأة عن زوجها ، وهي مستخرجة من مجموعة (الفانتاسمس أوف ذي ليفنج (١)) . هذه الحادثة تتعلق بالدكتور (أوليفييه) الطبيب بمدينة (هويلجوث) فنستر ، وهي :

« في ١٠ أكتوبر من سنة ١٨٨١ دعيت للقيام بعيادة مريض في الريف على بعـد ثلاثة فراسخ من داري ، وكان ذلك في وسط ليل دامس ، فسرت في طريق أجوف تحفه أشجـار قد قامت حفافيه وصـارت عليه كالقبة ، وكان الظلام شـديدا الى حـد أني لم أدر كيف أقود حصاني ، فتركته يسير بفطرته ، وكانت الساعة حينذاك تسعة ، وكانت الطريق التي سلـكتها تعلوها حجارة غليظة مستديرة مكونة لانحدار شديد ، فـكان الحصان ينحدر منها ببطء عظيم . فما راعني إلا انثناء يدي الحصان ثم وقوعه فجأة مادا فمه على الارض ، واستدعى ذلك سقوطي من فوق رأسه ماساً الأرض بكتفي ، فانـكسرت إحدى ترقوتيَّ .

(١) هـذا اسم مجموعة الحوادث الروحية التي حققتها جمعية المباحث النفسـية المشكلة في لوندرة من جماعة من علماء الانجليز منذ سنة ١٨٨٢ ولا تزال موجودة للآن .

« فى هذه اللحظة كانت امرأتى تخلع ثيابها فى الدار وتستعد لدخول السرير ، فشعرت بأنى قد أصبت بأذى ، واعترتها رعدة عصبية ، وأخذت تبكى ، ثم استدعت الخادمة قائلة لها : أسرعى الىّ فانى خائفة ، فقد حدث لزوجى سوء ، وهو إما ميت أو مجروح . ولبثت طول غيبتى عنها ممسكة بالخادمة عندها ولم تفتر عن البكاء . وأرادت أن ترسل رجلا ليبحث عنى ، ولـكنها لا تدرى الى أى قرية قصدت . أما أنا فعدت الى دارى فى الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وناديت على الخادمة لتؤتينى بمصباح وترفع السرج عن حصانى قائلا : إنى قد جرحت ولا أستطيع أن أحرك كتفى .

« فتحقق بذلك شعور امرأتى » .

الدكتور أوليفييه

طبيب هو يلجوث ، فنيستر

ثم مضى الأستاذ كاميل فلامريون متابعا بحثه فقال :

« وقد كتب الىّ العلامة المدرس المسيو (سافيللى) من كوستا بجزيرة كورس فى سنة ١٩١٢ يقول :

« المشاهد أن المسائل التى تُعنون بدرسها قد أصبحت فى نظر القارئين فى الدرجة العليا من الافادة ، وإنى متحقق بأنى برجائـكم بمتابعة أبحاثـكم فيها إنما أعبر لـكم عن رأيهم جميعا .

« إن مسألة ماهية الزمان صعبة الحل للغاية ، وقد أجاب أحد الرياضيين المشهورين باحثا سأله القول الفصل فيها بقوله : « لنتكلم فى شىء آخر » . ومع هذا فانى أرى من واجبى أن أرسل اليكم بمشاهدات توجب الحيرة الشديدة ، ولا يمكن أن يتسرب إليها الشك أصلا :

« بينما كان أبى عائدا الى داره ذات ليلة يرافقه أحد أصدقائه ، إذ طرق آذانهما صيحات انزعاج منبعثة من نساء يبكين ويولولن ، فلم يشـكا فى طروء نازلة عليهن ، وظنا أن أحـدا قد قتل عندهن ، فوقفا أمام الدار التى تنبعث منها هـذه الصيحات ليستكشفا جلية الخبر ، فـكان نصيبهما أن انقطعت الأصوات فجأة ولم يعودا يسمعان شيئا .

« فلما كانت الليلة التالية ، ومر أبى إزاء هـذه الدار ، سمع مثل الصيحات التى سمعها فى الليلة السابقة ، ولـكنها فى هذه الدفعة لم تكن وهمية ، وعلم أن طفلا لم يكن به مرض فى الليلة الفارطة أصيب فجأة فى أثناء النهار بالخناق ومات من ساعته بما يشبه موت الفجأة . حـدثت هذه الحادثة فى مدينة باراز ، وهى مجاورة للمدينة التى أؤدى فيها وظيفتى التدريسية » .

عقب الاستاذ كاميل فلامريون على هذا الـكتاب بقوله :

« هذه الحوادث الحسية تثبت كلها الوجود الروحانى للنفس ، مستقلة عن الخصائص الطبيعية للحواس . فالروح والجسد شيئان متميزان لـكل منهما خصائص خاصة به » .

ما أورده الاستاذ الفلكى من هذه الحادثة الأخيرة أورد نظيرة لها الأستاذ الكبير شارل ريشيه عضو المجمع العلمى الفرنسى ومدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب فى كتابه (الميتابسشيك) أى ما بعد العلم الرسمى للنفس . وقد قدم كتابه هذا للمجمع العلمى الذى هو واحد من أقطابه . وقد ذكر من مئات الحوادث المحققة فيه أن شقيقته كانت راكبة المترو فى باريس ، وعندما انتهى الى إحدى المحطات حدثت ضجة هائلة عند وقوف القطار ، ونزل كثير من الركاب وتراكض بعض رجال البوليس وأخرجوا طفلا من تحت العجلات جريحا ، والناس حوله يأسفون ويتألمون . ونهضت هى مذعورة ، ونظرت الى الجالسين معها فوجدتهم ساكنين هادئين كأنه لم يحدث شىء ، فدهشت من جمودهم وأعادت النظر الى الخارج فلم تر شيئا مما كانت تراه قبل ثانية واحدة ، بل لم تر أثرا لحدوث أمر غير عادى ، فحارت فى أمرها وجلست واجمة . وما كان أشد دهشها حين رأت أن الضجة الهائلة التى حدثت فى المحطة السابقة تكررت فى المحطة التى تلتها ، ولكنها كانت هذه المرة حقيقية ، فأخرج من تحت العجلات طفل ينطف جسمه دما ، وكان التأثر عليه عاما . وكان المنظر الذى رأته ثانى دفعة هو عينه الذى رأته أولا ، لا يختلف عنه جملة ولا تفصيلا ، وقد تمثل لها قبل حدوثه ببضع دقائق .

هذه الحوادث وأمثالها التى يظنها بعض الناس تافهة ، تهدم مقررات الفلسفة المادية هدما وحيًّا ، لأن أصحابها بنوها على أصول مادية بحتة باعتبار أن الكون كله ليس فيه غير المادة وقواها ، وأنه لايوجد عالم روحانى يمكن الاتصال به والاستفادة بشىء منه . وقياما على هذه الأصول هدموا الأديان وسفهوا أحلام الآخذين بها . فثبوت أمثال هذه المسائل التى يعنى بجمعها اليوم العلماء الغربيون تثبت وجود العالم الروحانى والروح الانسانية معا . وقد جمع العلماء المعنيون بأمرها عشرات الألوف منها مما تحققوا من صحتها .

محمد فريد وجدى

أيها الناس ان لكم معالم

خطب النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال :

« أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ألا وإن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد قضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت ، فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ، وما بعد الدار دار إلا الجنة أو النار » !

الحاجات الانسانية

وأثرها فى بناء الجماعات ، وإقامة المدنيات

يخيل لمن لا بصيرة له فى العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية فى الأمم يحفظ عليها ما لها ، ويكفل لها استقلالها ، ويجعلها أقل احتياجا الى سواها ، فترى كل همه مصروفا الى مكافحة ما لا فائدة له فى نظره من الكماليات رجاء أن ينشئ شعبا لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته الى الكمالات الروحانية ، والترقيات المعنوية . وهذا خطأ خطير يقع فيه أكثر النصحاء والمرشدين . وقد تسببوا خلال العصور فى إهلاك جماعات دانت لتعاليمهم فلم تلبث أن انحلت روابطها ، وفنيت فى أجساد أمم أخرى ، ومنها جماعات لم تصادف مزاحما لها فى الحياة بقيت على ما كانت عليه قرونا كثيرة فى حالة تحجر ووقوف .

هذا يحفزنا لأن نعقد فصلا فى الحاجات الانسانية وأثرها فى بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم العلم الاقتصادى ، نرجو أن يستهدى به من عهد اليه إرشاد جماعة من الجماعات ، سواء بالقاء الخطب فى المجامع ، أو بالوعظ فى المساجد .

الحاجات هى العوامل المولدة لحركات الجماعات :

الحاجة الحيوية التى يشعر بها الانسان هى العامل الوحيد المولد للحركة المعاشية فى العالم ، وهى بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسى .

كل كائن حى لأجل أن يصل الى كماله الشخصى مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجى ، وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لبذل مجهود للحصول على حاجاته ، لأن حصوله عليها يدفع عنه ألما ، والحرمان منها يوقعه فى أذى .

لحاجات الانسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية نحصر الكلام عليها فيما يلى :

(أولها) الحاجات الانسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الانسان عن الحيوان ، وهو الباعث على المدنية بأوسع معانى هذه الكلمة .

وقد شوهد أن حاجات النوع الانسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها على نسبة تقدمه فى سلم الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فانه عند ميلاده لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب له والمهد ، ثم تنشأ فيه بنمو جسده احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والألاعيب المروضة ، ولا تكاد تمضى عليه سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة .

كذلك الحال فى الجماعات البشرية ، فاننا اليوم وقد قطعنا أشواطا فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة الى أشياء تتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والتراسل والسياحة لم تكن معروفة لدى أسلافنا . ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن أرقى منا فى بعض الكواكب ، لآنسنا عنده احتياجات جمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن تخيلا .

إذا علمت ذلك فما حكمك مذ الآن فى الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها الى ما يبعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشىء من الفاكهة والخضر واللبن ، ومن المأوى بجدار يقيها لفح الشمس ، فبشرها بالجلاء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما متعت من القوى والقُدَر التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى .

هنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الانسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب يحتاج لشىء من التفصيل . ذلك أن هذه الحاجات التى تنشأ للانسان هى عوامل تحفزه للعمل ، وتضطره للتفكير فى الابتكار والاختراع ، وهذا يدفعه للترقى فى العلم ، فاذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا عاملين على حذف هذه العوامل ، فتقل الجهود العقلية ، وتبطؤ حركة الحياة الاجتماعية ، ويهبط مستوى الثروة العامة .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الموطن أيضا أن الحاجات الاقتصادية المحضة ليست مجردة من نتائج أدبية عالية ، وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد انضمام الناس بعضهم الى بعض ، لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم فى إيجادها . ومن هنا ينمو فى البشرية الشعور بالتساعد والترافد . فان الرجل القليل الحاجات لايحتاج لغيره ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الانسانى الذى علق ترقى أفراده على التعاون الاجتماعى .

(ثانيها) الحاجات الانسانية محدودة فى مقاديرها . هذا من الأصول الخطيرة لعلم الاقتصاد السياسى التى تبتنى عليها النظرية الجديدة على قيمة الأشياء . ومؤداها أن لكل حاجة يشعر بها الانسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة . مثال ذلك أن الانسان يحتاج للمواد الغذائية ، ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه ، خلافا لحاجاته الصناعية أى الاجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده . فانك لا تستطيع أن تتخيل مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

(ثالثها) أن الحاجات الانسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها . وهذا قانون اقتصادى خطير يبتنى عليه إمكان إصلاح الأمة بواسطته . وذلك بانشاء احتياجات عالية للأمة لتبيد احتياجاتها السافلة . وقد شوهد أنه

يمكن الاستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى الأدبية محل التردد على الملاهى العمومية . والمدار فى الاستفادة من هذه الأصول على الحكومات الرشيدة ، والمعلمين الهداة .

(رابعها) الحاجات الانسانية متآلفة . هذا الناموس يظهر بادئ بدء أنه مناف للتقدم ، وليس هو كذلك . فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت معا ؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لأغراض شتى . فحاجة الانسان للتغذى من نوع من الأغذية تتعادى وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والفوطة والسكين الخ .

(خامسها) الحاجات الانسانية تميل لأن تصير عادات راسخة ، أو كما يقال طبيعة ثانية ، وهذا له قيمة كبيرة بالنسبة لأجور العملة . ذلك أن الانسان متى ارتفع الى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر عنه فجأة . فلقد مضى زمن كان العامل الفقير لا يلبس الأبيض ، ولا يضع فى رجليه حذاءين ، ولا يتعاطى القهوة ولا التبغ ، ولا يأكل اللحم ولا خبز القمح ، ولكنه أصبح أسير هذه الحاجات الآن بحيث لو صار غير قادر على توفيتها فجأة هلك لا محالة .

ولو أضفنا الى هذا أن العادة متى مر عليها فى الأمة أجيال متعاقبة ، رسخت فى الأعقاب بالوراثة ، وشعرت الحواس بضرورتها شعورا كبيرا ، من هنا تعلم خطر تلك السلطة الاستبدادية التى تكتسبها الحاجة ، وإن ظهرت فى أول أمرها هينة لا تذكر .

(سادسها) أن بين الحاجات التى تطورت الى عادة راسخة فى الأمة ، وبين العادات التى تنشأ حديثا منازعة قوية وحربا طاحنة ، نتيجتها تلاشى عادات قديمة وقيام عادات جديدة على أنقاضها . وهذه العادات الجديدة قد تكون أرفع من القديمة أو أحط منها .

هذا الناموس الطبيعى يمكن الاستفادة منه فى ترقية الأمم بانشاء حاجات جديدة لها ذات أغراض شريفة ، وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ، ومتى تم ذلك فى عدة خصال عالية القيمة ، حفزت الأمة الى باحات الشرف والكرامة بدوافع ذاتية لا أثر للتصنع فيها ، وكان حظ الجماعة من ورائها عظيما للغاية .

من هنا يرى القراء العلاقة الوثيقة الموجودة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشئون الاجتماعية ، فالرجل الذى ينتدب لترقية نفسية أمته ، لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بجميع هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بدل أن تكون نافعة . وكثير من المصلحين يفشلون لإغفالهم هذه الحقائق العلمية .

الذى نلاحظه على أكثر الذين ينتدبون لاصلاح الجماعات ، سعيهم المتواصل لتقليل حاجات أفرادها ، وتبسيط معيشتهم ، توهما منهم أن ذلك يحفظ عليهم صحتهم وأموالهم ، ويحصر همتهم

فى وجهة واحدة وهى الترقى ماديا وأدبيا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا ، لرأينا أنه قد ابتنى عليه فساد اجتماعى كبير ، تظهر آثاره فى تدهور الصناعات ، وانحطاط الفنون ، والنتيجة الطبيعية لهذا ، قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ، ومتى جاءت هـذه انصرفت الى التلصص والسلب ، وارتـكاب الجنايات ، واللجأ الى دعاة المذاهب الانقلابية .

من هنا يدرك الناس حكمة الاسلام فى تحليله متع الحياة ما دامت فى حـدود الاعتدال ، وبعيدة عن المـآثم والعدوان . قال الله تعالى : « قل من حـرّم زينة الله التى أَخـرَج لعباده والطيباتِ من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . وفى الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هـذه الرخصة ، زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيشان ، وتكريه الناس فى متع الحياة ولذاتها ، فـكيف يبيحها الاسلام الى حد أن يُنزل فيها قرآنا . وإنى لأظن أن القراء قد فقهوا الآن ، بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شئون الاجتماع ، أن هذا التنويه وراءه من الحـكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت . فلو كان الاسلام سام أهله الاخشيشان فى المعيشة ، والقناعة من المصنوعات بما يسد الحاجة منها ، وزهّـدهم فى الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها ، لما قامت لهم جماعة ، ولا انتظمت لهم حياة ، ولا ازدهرلهم عـلم وتلألأت لهم مدنية . ولـكنهم كانوا يَجْلون عن الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم ، غـير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تنتفع بوجودها ، ولم تستفد من مواهبها .

من أجل ما نلفت اليه نظر القارىء ـ ونحن بصدد هذه المعجزة العلمية للـكتاب ـ أن الله سبحانه وتعالى قد علم ما سيقال فى ترخيصه فى نعيم الحياة وزينتها من الاعتراضات التى مثارها قصر النظر ، فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ، ويذيعونها بين الناس ، مضيفين به الى معجزات القرآن معجزة جديدة ، فقال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

محمد فريد وجدى

القضاء الشرعى والقضاء القانونى فى مصر

لما استوثق الأمر للمغفور له محمد على باشا العظيم فى مصر ، فرض الباب العالى يومئذ عليه بحكم أن مصر ولاية عثمانية التزامات كثيرة ، أولى هذه الالتزامات وأوجبها رعاية أن ينهج فى إدارة نظام الحكومة سياسية كانت أو إدارية أو قضائية على مجموعة أحكام كانت تعرف فى ذلك الحين فى البلاد العثمانية « بقانونامة السلطانى » ، وهى الصادرة فى سنة ١٨٣٩ م . وبدهى أن ذلك الوالى العظيم لم يقف عندما رسمته له الدولة العثمانية من حدود وبرامج ينظم بها ولايته طبقا لأحكام الدولة العامة ، بل جاوز مجهوده السخى تلك البرامج الى توسع سخى فيما يراه مرفها عن البلاد ، وكفيلا بانماء حيويتها ، وأخذها بأفضل المثل وأنبل الطرائق ، فمن ضروب الاصلاح التى تمت فى عهده مثلا :

١ — مجالس شرعية يتولى الفصل فيها قضاة شرعيون فى المواد الشرعية : كالمواريث والوصية ، والجنايات الكبرى التى تتصل بروح الشريعة السمحة .

٢ — مجالس تعرف يومئذ بمجالس الأقاليم يتولى فيها كبار الموظفين الاداريين كالمديرين والمأمورين الفصل فى الشئون الادارية والمالية .

٣ — مجالس مختلطة تتألف عند الاقتضاء من قضاة شرعيين وموظفين ملكيين للفصل فى بعض الموضوعات طبقا لأحكام الشريعة السمحة وبعض مواد القانون المعمول به فى ذلك الحين .

٤ — مجلس الأحكام ، ويؤلف من كبار أصحاب المناصب فى الدولة . ومن أولى اختصاصات هذا المجلس النظر فى شئون بلاد القطر المختلفة والفصل فيها فصلا نهائيا بما يحقق رغبات الأهلين ، ويكفل اطراد الصوالح العامة ، ومراجعة بعض أحكام المجالس الادارية إذا رفع بشأنها تظلم ، أو لوحظ عليها خروج عن جادة المألوف فى قوانين البلاد وأنظمتها . ومقر هذا المجلس مدينة العاصمة ، وكان داخلا فى اختصاصه وضع القوانين التى تقتضيها المصلحة العامة .

ثم لما تضاعفت الجهود عند ذلك الوالى العظيم ، واستشعر المنافع الجلى الناجمة عن ممارسة التجارة فى شتى صورها ، وما تفيده على القطر من فوائد كان لها أجل الأثر فى مستقبل البلاد ، أنشأ مجلسا مختلطا يتألف من أعضاء وطنيين وأعضاء من الأجانب للفصل فيما يرفع إليه من المنازعات التجارية التى تقع بين مصريين وأجانب ، على أن يصدر فى حكمه عن القانون الفرنسى مع مراعاة تطبيق أحكام الشريعة الغراء المنصوص عليها فى باب التجارة من كتب الفروع .

ولما تولى المغفور له سعيد باشا ، نهج على منهاج والده بما يساير حاجات البلاد ويحقق أمانيها ، فما كاد يستقر على العرش حتى أسرع فى عام ولايته سنة ١٢٧٠ ﻫ فأعاد مجلس التجارة الذى كان قد أهمل بعد إنشائه فى عهد المغفور له محمد على باشا ، وخطا ذلك المجلس فى باحات الاصلاح خُطا واسعة ، محققا لأغراض الفرمان الصادر فى سنة ١٨٥٦ م – ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ ، فأنشأ سعيد باشا محاكم نظامية كانت تعرف فى ذلك العهد بالمجالس المحلية ، وهى المعروفة عندنا اليوم بالمجالس الملغاة ، وذلك العهد يعتبر فاتحة عهد القضاء القانونى فى الديار المصرية .

وكيفما كان الحال فقد كان تفكير ولى الأمر فى إنشائها يومئذ إحدى حسناته ، يضاف الى ما أدخل فى خلال ولايته كثيرا من ضروب الاصلاح على مجلسى التجارة اللذين كان أحدهما بمدينة القاهرة والآخر بثغر الاسكندرية ، وتقرر يومئذ طبقا للأمر الصادر فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٦١ أن يؤلف من أعضاء وطنيين وأعضاء من الأجانب يعينون بطريق الانتخاب المبين بقوانين ذلك العهد ، وينظر أحد المجلسين فى استئناف الأحكام الصادرة من المجلس الآخر .

ثم إن هذه المجالس ما زالت تخطو الى أعلى مناهج الاصلاح رويدا رويدا حتى جاء عهد إسماعيل العظيم ، فقد دخلت فى عهده فى أفق من الاصلاح جديد ، فبعد أن أتم النقص البارز فى شتى وجوهها ، شعرت البلاد بقوة حيويتها ورفعة شأنها وعزتها ومنعتها ، فتم لمصر الاستقلال القضائى والاستقلال الادارى فى ذلك العهد بمقتضى فرمان الخديوية المصرية الصادر فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ ، ومن ذلك الحين وثبت مصر الى العلا وثبة موفقة ، وهذه المجالس هى :

١ — أقلام الدعاوى فى مصر والاسكندرية والأقاليم القبلية والثغور ، واختصاصها النظر فى الدعاوى المدنية الى ما لا تتجاوز قيمته ١٥٠٠ قرش .

٢ — مجلس مشيخة البلد ، ويختص بطائفة من الشئون الادارية : كملاحظة الأضرحة والمساجد والمكاتب ، وبعض أمور صحية كقيد المواليد والمتوفين وحصر الأهلين .

٣ — مجلس دعاوى البلد ، ويختص بالحكم فى الحقوق المدنية التى لا تتجاوز ٥٠٠ قرش ، وفى بعض المسائل الزراعية والجرائم التافهة كالمشاجرات والسرقات البسيطة ، وكان عليه فوق ذلك أن يسعى فى الصلح بين المتخاصمين أيا كان الموضوع بالغة قيمته ما بلغت .

٤ — المجالس المركزية ، وأهم اختصاصها الحكم استئنافيا فى الأحكام الصادرة من مجلس دعاوى البلد ، وابتدائيا فى الدعاوى المدنية التى تزيد قيمتها على ٥٠٠ قرش ولا تتجاوز ٢٥٠٠ قرش ، ثم امتد نطاق اختصاصها الى أن بلغ ١٥٠٠٠ قرش .

٥ — المجالس الابتدائية فى عواصم المديريات والمحافظات ، وتنظر فى الدعاوى المدنية مما تزيد قيمته على ٢٥٠٠ قرش ، وكذلك فى الدعاوى الجنائية .

٦ — مجالس الاستئناف ، وكانت فى الوجهين البحرى والقبلى ومصر والاسكندرية ، وتنظر استئنافيا فى الأحكام الصادرة من المجالس الابتدائية .

٧ — مجالس التجارة ، وكانت فى أهم ثغور القطر وبنادره ، وتنظر فى الخصومات التجارية ، وتستأنف أحكامها أمام مجلس استئناف مقره الاسكندرية .

٨ — مجلس الأحكام ، ومقره القاهرة ، ومن اختصاصه إعادة النظر فى أحكام مجالس الاستئناف فى الدعاوى التى تتجاوز قيمتها ٢٥٠٠ قرش .

وتلك هى جهات التعدد فى مناحى القضاء فى ذلك العصر ، واختصاص كل واحد منها . على أن القوانين التى جرى تطبيقها فى ذلك الحين أمام تلك المجالس كانت متعددة ، فبعض هذه المجالس كان يتخذ الأحكام الشرعية قاعدة له فى قضاياه ، والبعض الآخر كان يفصل بمقتضى القانونين العثمانى والفرنسى فى الشئون التجارية ، ويقضى البعض الآخر فيما يرفع إليه من منازعات بموجب اللوائح والتعليمات والمنشورات التى كانت تصدر تبعا لأسبابها وعللها البواعث عليها مما يدل على أن تشريعا خاصا للبلاد فى ذلك الحين لم يكن قائما حتى يمكن الرجوع إليه فى تطبيق الوقائع والحادثات كأساس دائم وقاعدة مطردة ، فقد كانت المنشورات تتلو المنشورات بين إثبات وتعديل بالزيادة والنقص على هدى ما كان يراه مجلس الأحكام القديم ، ثم المجلس المخصوص الذى حل محله ، ثم ديوان الحقانية الذى تلقى عنهما ذلك الاختصاص فيما بعد .

وقد استمرت مجالس التجارة تؤدى وظيفتها الى السكان ، وتحقق رغبات الأهلين بأمانة وإنصاف بين الوطنيين بعضهم مع بعض من ناحية ، وبينهم وبين الأجانب من ناحية أخرى حتى سنة ١٨٧٥ م ، وفى ذلك الحين أنشئت المحاكم المختلطة على النمط الفرنسى فتناول اختصاصها وظيفة تلك المجالس بعد إلغائها والتعفية عليها . ومما لا سبيل الى الجدل فيه أن المحاكم المختلطة حين أنشأتها الحكومة المصرية كانت ضرورة من الضرورات الملحة التى حفزت الحكومة على إنشائها ، وأقل مراتب تلك الضرورة تلافى الأضرار التى كانت تنجم عن طريقة التقاضى السابقة على إنشائها ، فإن المعاهدات الدبلوماسية والتقاليد المرعية كانت تقتضى أن الرعوية الأجنبية ليست خاضعة لقضاء البلاد ، فإذا كان المدعى مثلا أجنبيا والمدعى عليه رعية رفع الدعوى عليه أمام المجلس المحلى ، وإذا كان المدعى رعية والمدعى عليه أجنبيا أقام الدعوى عليه أمام المحكمة القنصلية .

وغير خاف أن المحاكم القنصلية ذات تعدد فى القطر تبعا لتعدد الطوائف الأجنبية الخاضعة لقضائها ، ولكل طائفة قوانين تباين قوانين الأخرى من بعض الوجوه ، فكانت

هـذه الفوضى الضاربة من أقوى البواعث على العبث بالحقوق وضياع الثقة فى المعاملات واضطراب الأحوال ، وهـذا يبدو كلما تصفح المرء تلك العهود التى سبقت ؛ والأمثلة قائمة من سوابق الماضى على صدق ذلك الاتجاه :

١ — كانت الدعوى تتعدد بتعدد المدعى عليهم إذا اختلفوا جنسا ، فيخاصم كل منهم أمام قنصليته التابع لها ، وفى ذلك من تطويل أمد التقاضى وكثرة النفقات القضائية ما لا حاجة اليه ، يضاف الى ذلك تضارب الأحكام وتناقضها فى موضوع واحد فى كثير من الأحايين تبعا لاختلاف القوانين المطبقة واختلاف وجهات النظر فى تقدير الدعوى وظروف الحال .

٢ — لم يكن للمدعى عليه سبيل الى رفع دعواه على المدعى أمام نفس المحكمة المنظورة أمامها الدعوى الأصلية فى حالة ما إذا أراد المدعى عليه أن يرفع دعوى فرعية تنقض دعوى المدعى من أساسه ، وتبين للمحكمة ذات الاختصاص تعسفه فى دعواه ، فتضيع على المدعى عليه فائدة ضم الدعويين الى بعضهما ، والانتفاع بحكم يصدر فيهما معا .

٣ — كان الاستئناف يرفع أمام محكمة المستانف ، فاذا كان المستأنف من تبعية ألمانيا مثلا والمستأنف عليه من تبعية اليونان وصدر الحكم لمصلحة المستأنف ، لم يكن فى استطاعته مباشرة التنفيذ على اليونانى لصدور الحكم من محكمة ليس لها عليه ولاية قضائية ، وما الى ذلك ، وهو كثير الأمثلة والشواهد .

ولقد أثرت تلك المتناقضات وما بدا يومئذ من عدم صلاحية ذلك النظام القائم كأساس تقوم عليه العدالة فى نفس اسماعيل العظيم ، فوطن عزمه الصادق على إزالة تلك الأضرار ، وأرسل وزيره الأول الطيب الذكر نوبار باشا موفدا من قبله ليفاوض الدول فى إنشاء محاكم مختلطة تختلف كل الاختلاف فى قضائها عن قضاء البلاد بين الوطنيين والأجانب ، وفى قضاتها الذين يوكل اليهم تطبيق القوانين المتصلة بالرعوية الأجنبية ، وظلت المفاوضات تقطع مراحلها قرابة سنين تبعا لتعدد الدول واختلاف ميولها وتضارب أهوائها فى هـذا المشروع الخطير حتى ٢٨ يونيه سنة ١٨٧٥ ، وفى ذلك العام أنشئت المحاكم المختلطة ، وافتتحت رسميا وإن لم تباشر مهامها القضائية إلا فى شهر فبراير سنة ١٨٧٦ ، ثم وضعت لها قوانين خاصة مقتبسة فى أكثر نصوصها ومراميها من القوانين الفرنسية .

أما المحاكم الأهلية والمحاكم الشرعية ، وكيف تطورت أنظمتها حتى بدت غاية فى الصلاحية على الوجه الأكمل ، فموعد الحديث عنها أعداد تالية .

عباس طه
المحامى الشرعى

تأبين المرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح :

فى اليوم السابع من شهر صفر سنة ١٣٥٧ توفى الله الأستاذ العالم الغيور الشيخ عبد ربه مفتاح رئيس جماعة الوعظ والارشاد التابعين للازهر ، فأسى لموته كل من عرف خلاله الكريمة ، وشيمه الزكية ، وغيرته الملتهبة على الأخلاق والآداب الاسلامية .

شيعت جنازته يحف بها أقطاب العلم ، وأعلام الدين ، من داره الى الجامع الأزهر حيث صلى عليه ، ثم حمل الى الجبانة حيث ووري جثمانه التراب ، وصعدت روحه الى بارئها طاهرة نقية ، فرحمه الله رحمة واسعة ، وتولى آله وذويه بفضله وكرمه .

وفى اليوم السادس من شهر ربيع الثانى ، احتفل حضرات أصحاب الفضيلة رجال الوعظ والارشاد بتأبينه بنادى الشبان المسلمين ، فكان فى مقدمة المحتفلين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير وكيل الجامع الأزهر وحضرات أصحاب الفضيلة شيوخ الكليات ووكلائهم وطائفة كبيرة من أعلام العلماء ونجباء الطلاب . فافتتح الحفلة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان بكلمة بليغة ، ثم تلاه فضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن ، ثم تلاه فضيلة الأستاذ الشيخ على جعفر فأنشد قصيدة عامرة الأبيات ، ثم عقبه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عثمان فألقى كلمة قيمة . ثم وليه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى ففاه بكلمة ممتعة ، ثم نهض بعده فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى فارتجل كلمة مؤثرة ، ثم قام بعده فضيلة الشيخ عبد الجواد رمضان فأنشد قصيدة عصماء ، ثم ألقى على أثره الأستاذ البليغ محمد افندى الهياوى قصيدة ثرية فى المعانى ، ثم وقف حضرة الأستاذ حسن افندى البنا فأسمع الحاضرين كلمة بليغة ، ثم اختتم التأبين فضيلة الأستاذ الشيخ محمد التواب بقصيدة حكيمة ، ثم تفضل الأستاذ أحمد والى الجندى فشكر الحاضرين بالنيابة عن الحاضرين . وعندما انتهى شرع الأستاذ الشيخ عبد العزيز الدرينى فى تلاوة آيات من الكتاب الكريم . ولما أتمها انصرفت الجماهير لهجة بالدعاء للراحل الكريم ، واستنزال الرحمة عليه .

ومجلة الأزهر تتقدم بالتعزية لحضرات العلماء الأجلاء أساتذة الفقيد وتلامذته ، وتخص من بينهم حضرات أصحاب الفضيلة الوعاظ الأفاضل الذين آنسوا من شمائله وفضائله ما أترع قلوبهم أسى على فقده ، وأفاض أدمعهم أسفا على بعده .

مطبوعات جديدة :

علم المنطق :

لا أظن أن علم المنطق أسلس قياده ، وذللت عقباته الى الحد الذى أوصله إليه فضيلة الأستاذ المفضال الشيخ محمد حسين النجار المدرس بمعهد أسيوط . فلقد وفق من تأليفه الى وضع لم يسبقه إليه مؤلف ، ضارع به متأخرى الغربيين فى تقديم الأمثلة والتوسع فى ضروبها ، وفى

تأخير القواعد ، والاكثار من الجداول والتقاسيم ، بحيث تكاد كل صحيفة تنطق بما فيها ، فنثنى على همة المؤلف المفضال ، وندعو كل محب لتعلم المنطق أن يلجأ الى هذا الكتاب ، وهو يقع فى جزأين مجموع صحفهما لا يتجاوز تسعين صفحة .

علم الاجتماع :

وضع الأستاذ الفاضل مصطفى فهمى افندى الحاصل على إجازتى التعليم والفلسفة والاجتماع كتابا فى علم الاجتماع أتى فيه على نشأة علم الاجتماع ، وتطوره التاريخى ، وحالته فى دور النهضة الغربية ، وفى القرن التاسع عشر . وعرج من هذا على الإلمام بالمذهب الانجليزى فيه ، ثم خرج من هذا الى دراسة وافيه لعلم الاجتماع نفسه ومذاهب أعلامه فيه ، ثم خرج من ذلك الى بحث موضوع علم الاجتماع ، ثم الى تركيب المجتمع ، فالجاميع الاجتماعية ، وهى ما يتألف منها ما يسمى بالفيزيولوجيا الاجتماعية ، ثم اختتم هذه الفصول كلها بالكلام عن علم الاجتماع العام .

هذا الكتاب فى نظرنا يعتبر أوفى فذلكة ظهرت بالعربية لعلم الاجتماع ، فى عبارة عربية خالية من التعقيد الفنى ، والتطويل الممل ، فنشكر لحضرة المؤلف الألمعى خدمته العلمية راجين له دوام التوفيق .

أيام الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم بدر :

وضع حضرة الفاضل ابراهيم عبد الوهاب افندى بالمنصورة رسالة صغيرة ضمنها تاريخ وقعة بدر التى حدثت بين مشركى قريش وبين النبى صلى الله عليه وسلم وانتصر فيها بنحو ثلاثمائة مقاتل على نحو ألف من عبدة الأوثان . فكانت فتحا عظيما فى الاسلام تتنور من خلاله ضروب من البطولة ، ونماذج من الفناء فى العقيدة ، ووجوه من إغفال الذات لمصلحة الجماعة يجب التنويه بها ، والاشادة بذكرها ، وقد أدى حضرة المؤلف من هذه الناحية ما وجب . فله الشكر .

واحة الغريب :

هو ديوان شعر من إنشاء حضرة الشاعر الفاضل عبد السلام رستم افندى ، فيه أنواع شتى من أغراض الشعر ، فى كثير منها عبقة من الرقة والانسجام ، وإن كانت تصدر عن عراقة فى التشاؤم كما يدل عليه اسم الديوان ، فلقد تجهمت الحياة للشاعر حتى قال :

ألاليت هذا الدهر يكشف سجفه ... برجعة أيام الطفولة ثانيا
أقيم عليها فى هناء وغبطة ... جهولا فلا أدرى الحياة وما هيا

لا يخلو هذا الديوان من طرف رائعة ، وكلم نابغة ، تجعله جديرا بأن يقتنى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهرى كما ينبغى أن يكون

طلبت جريدة الدستور الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى أن يكتب كلمة فيما ينبغى أن يكون عليه الأزهرى ، فتفضل حفظه الله بتلبية طلبها ، فرأينا أن ننقل هـذه المقالة عنها إذاعة لما تضمنته من النصائح الغوال والحكم البوالغ ، فإن هذه الكلمة على إيجازها لم تدع فضيلة من الفضائل التى يجب أن يتحلى رجل العلم بها إلا أتت بها فى بلاغة عالية وعبارات خلابة ككل ما يصدر من فضيلته ، قال حفظه الله :

طلبت الىّ جريدة « الدستور » كتابة كلمة فى موضوع « الأزهرى كما ينبغى أن يكون » . وقد أبديت رأيى فى هـذا الموضوع مرات فى مناسبات مختلفة ، ومع ذلك فـلا أجد مانعاً من الاعادة على سبيل الذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين :

أول ما يجب أن يكون عليه الأزهرى : هو المحافظة على الشعائر الاسلامية محافظة تامة بحيث لا يقصر فى شىء منها ، ولا يمكن غـيره من الاحتفاظ عليه بزلة ، حتى يكون قدوة بعمله لا بقوله فحسب ، والقدوة العملية تترك فى النفوس أثرا صالحا ، وتؤثر فيها ما لا تؤثره الأقـوال ، والشعائر الدينية فى جملتها من أكبر الوسائل لطمأنينة النفس والتحلى بالأخـلاق الفاضلة ، وهى التى توجد الصلة بين العبد وربه ، وتقوى صلات الأفراد ، وتحسن حال الجماعات .

ويصاحب هـذا ملازمة الأخلاق النبوية ، والتبصر فى هدى القرآن والسنة ، ومجاهدة النفس ورياضتها على احتمال الأذى والمكروه فى سبيل العمل بالأخلاق الدينية وأداء الشعائر الاسلامية ، حتى تصير الفضيلة شعاراً وملكة ، وحتى تصدر أعمال الخير عن غير تعمل وروية .

ومن لوازم الداعى والمرشد أن يكون شجاعا صادقا قوى الايمان بما يدعو إليه ، يرى فى الاقـدام لذة ، وحقا للنفس الخيرة يؤديه احتسابا لله ، لا على أنه مكلف به يؤديه للأجر وزيادة الدرجات والمرتبات .

ومن حق الداعى أن يكون بصيراً بالوسط الذى يعيش فيه ، خبيراً بأحوال النفوس ، واسع الحيلة فى التنقل من طريق الى طريق ، يقصد الى الهداية المطلوبة من طريقها النافع . وليس أفعل فى النفوس من جلال تسكبه التقوى وملازمة حدود الله ، ومن جمال يلقيه العلم الناضج على صاحبه ، ومن هيبة يوجدها الاعراض عن الدنيا وعدم الحرص عليها ، وقد شاهدنا

فقراء ليس لهم جاه رسمى ، ولا عزة عصبية ، يهابهم أصحاب المقامات الرفيعة والأموال المكنوزة ، وينكمشون أمام هيبتهم التى بسطتها التقوى وزانهم بها العزيز الحكيم .

والحرص على الدنيا يفسد على العالم لذة العلم ، ويفسد عليه الغاية التى يطلبها ، وهى الهداية ، والناس لا شك زاهدون فى العلماء إذا رأوهم مقبلين عليها معرضين عن الآخرة .

فلتكن الدنيا مطلوبة بالقدر الذى تستحقه ، وفى الدرجة التالية لدراسة العلم وتحصيله واللذة به نفسه ، وباعتباره وسيلة من وسائل الآخرة ، وطريقا لرضى الله ورسوله .

ولقد كانت للازهريين تقاليد متوارثة محمودة ، وهى عطف الكبير على الصغير ، وتوقير الصغير الكبير ، واحترام الأسلاف ، والصبر على الدرس والتحصيل ، وتفهم المسائل بعللها وأسبابها وما يتفرع عنها ويتولد منها ، لا يبالون فى سبيل ذلك بالوقت والجهد ، ويرونه أكبر لذة للنفس وأكبر متاع للعقل ، ويرونه واسطة المجد وطريق الشرف والكرامة ، وكان طالب العلم إذا لم يفهم كتابا أعاده ، وإذا لم يفهم مسألة فتش عمن يفهمها منه ، وكانت اجتماعاتهم لا تخلو من المذاكرة فى مسألة من مسائل العلم ، وقد رأينا منهم من كان أهلا للتدريس وللتقدم للامتحان وكان يحجم لأنه يريد الاستزادة وتكميل النفس ، فالعلم نفسه تفوق لذته لذة الحصول على الدرجة ، والدخول فى مضمار الحياة . كانوا يجيدون تحضير الدروس قبل إلقائها على التلاميذ بقدر مايسمح به الجهد ، وكانوا يجيدون تحضير الدروس وفهمها قبل تلقيها عن الشيوخ ، بل كان نوابغ الطلبة لايذهبون الى تلقى الدروس إلا لحل مشكلة عرضت لهم ، او انتظارا لتحقيق مسألة من مسائلها . . كانوا يفعلون هذا مع الطمأنينة واللذة وسعة الصدر ، لا للنجاح فى الامتحان ، ولا لطلب الرزق . وكانت القناعة تجمل فقرهم وتزين علمهم ، لا يمكن أن يمر فى خاطر أحدهم أن الفقر نقيصة ، وأن الاسراف فى البحث مضيعة للوقت .

ولا ننكر مع هذا أن ملازمة بعض المؤلفات المختصرة ، وترك المناهل العذبة من كتب الأسلاف ، وعدم التوسع فى الاطلاع على تراث الأقدمين ، ضيق دائرة التفكير ، وأوجد إسرافا فى تحليل الألفاظ وإبداء ما تحتمله من الوجوه ، وأوجد انحرافا عن الجادة القويمة فى طلب العلم وبحث مسائله وتحقيقها ، وبعدا عن أساليب اللغة العربية الصحيحة ، وإعراضا عن مسايرة الناس فى الحياة وإدراك ما تتطلبه الحياة ، بل وشغلهم عن القرآن والسنة من ناحية الهداية التى جاء لها القرآن، الى نواح أخرى متكلفة . وتلك هى الأدواء التى ألم منها الناس وسعوا لإزالتها .

لكن فى الوقت الذى نريد فيه إزالة هذه الأدواء ، لا يصح أن ينسى الأزهرى جوهر تقاليده ، بل يجب عليه أن يحافظ عليها ، وأن يصرفها الى وجوه الخير ، وما يعود على دينه وأمته وملته بالصلاح والفلاح .

وقد اشتد تطلع الناس الى الأزهر ، واشتد شوقهم الى رؤية منتجات العقول فيه ،

يريدون منه كتبا قيمة سهلة التناول ، جيدة التحرير ، تهذب فيها المسائل ، وتجذب القارئ اليها ، والى بحوث شائقة جذابة تذلل مسائل العلوم وتدنيها الى مستوى تفكير الجيل ، وتزيل عن الدين الشبه التى يلقى ظلها التعليم المدنى الحديث وفروعه .

واشتد شوق الناس الى مشاركة أهل الأزهر فى الحياة العامة لإصلاحها وتهذيب نظمها وردها الى الحياة الدينية البريئة النافعة ، والى الدعوة الحقة الى الدين ، وتقويم المعوج من الأخلاق ، ومقاومة تيار الالحاد والمادة .

يتطلع الناس الى الأزهر فى هذا ، فى مصر ، وفى غيرها من البلاد الاسلامية ، ولا أنكر أن فى بعض المطالب إسرافا وشيئا من عدم الانصاف ، لكن هذه هى آمال الناس ، يجب أن تحترم بقدر الاستطاعة ، وأن يعمل الأزهر على تحقيقها كلها ، أو تحقيق ما يمكن تحقيقه منها .

وفى البلاد الاسلامية حركة ترمى الى أن يسيطر التشريع الاسلامى على الحياة فى جميع فروعها ، فماذا أعد لهذا قبل الشروع فى تنفيذه ؟

هل فكر الناس فى درس الحياة ، وفى درس القوانين التى تبسط ظلها على البلاد والحكومات ، وفى درس طرق التعامل الجديدة ، التى أصبحت من مقومات الحياة ، ومن مقتضيات العصر وظروفه ؟

وهل فكر الناس فى آمال الجيل الحاضر ومطالبه ؟ وهل أعدوا العدة لذلك ؟

وهل وازنوا بين القديم والجديد ، ورأوا أن ما كان متبعا من النظم من قبل يكفى اتباعه الآن لاستقرار الحياة ؟

لا أريد أن أقول رأيا فى هذا بالنفى أو الاثبات ، ولكنى أريد أن ألفت نظر أهل العلم الى هذا ، والى ما يتطلبه منهم من التبعات ، والى ما تتطلبه تلك التبعات من الإعداد العلمى القوى ، والبحث والدرس .

وفى الحق أن الحياة تسير بخطى مسرعة على النمط الذى وجد فى تقريب المسافات من سفن بخارية وكهربائية ، وطائرات تقطع أجواز الفضاء ، ومخاطبات تجرى فى سرعة البرق . والحياة العلمية فى البلاد الراقية تجرى على هذا النهج ، لكن الحياة تسير عندنا سير الجمل فى البادية .

ونحن نقرأ كتبا لا فهارس لموضوعاتها ، ويصيبنا الإعياء أحيانا قبل أن نصل الى معرفة المراجع الوافية فى مسألة من المسائل ، وكذلك الكتب تحوى أحسن الأفكار لكنها غير حسنة الوضع والتبويب تختلط فيها مسائل باب بمسائل باب آخر . هذا الى أننا لم نوجد جديداً نافعا فى علم من العلوم حتى الآن .

تلك خطرات سريعة تحتاج الى تفصيل ، وعسى أن يوجد من يفصلها ، والله المستعان .

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٤ —

مقومات التطور الأدبى والاجتماعى فى الاسلام

إن تطور الجماعات فى الناحيتين الأدبية والاجتماعية من الأمور التى يجب أن تُـعنى بها الشرائع لأنها من أمس الأمور بحياة الأمم . فالجماعات التى تعيش على حالة من الأحوال ولا تصادف من الشريعة التى تقود ميولها ، وتدير قواها المعنوية ما يسهل لها سبيل التطور فى الآداب والعادات والعلوم والصنائع ، تقف حيث هى ، وتسبقها من كان دونها من الجماعات ، وتدخلها فى طاعتها .

وقد دل التاريخ على أن شرائع جنت على أهلها من هذه الناحية جنايات تعتبر غاية فى الفظاعة ، فقد أجمع المؤرخون على أن المسيطرين على أوربا بعد القرن الرابع من الميلاد أمسكوا أهلها فى حالة جمود أكثر من ألف سنة ، فلم ينبغ منهم عالم واحد فى علم من العلوم ، وانحط ما كان لديهم من آثار اليونانيين والرومانيين من المعارف والفنون ، حتى بعث الله المسلمين فاستخرجوا تلك الكنوز المدفونة من قبورها ، وأرسلوها نورا ساطعا غمروا به الناس ، وبما زادوا عليه من نورهم قرونا كثيرة ، حتى استحقوا أن يلقبوا ببناة المدنية الحديثة .

وما أتيت الأديان ، ودب اليها الضعف ، إلا من ناحية إغفال قادتها هذه الناحية فى تعاليمهم ، ناحية التطور فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والعملى .

والذى حدا أولئك القادة الى سد طريق التطور فى وجوه أتباعهم ، أنهم تخيلوا أن التطور يخرج بهم عن الأصول القديمة ، ويفضى الى ضياع ما ائتمنوا على حفظه سليما من كل تحول ، وغفلوا عن أن التطور إذا عدا على شى فانما يعدو على الباطل ، أما الحق فيزيده جلاء ولألاء . فاذا كان الذى يتمسكون به حقا فلا خوف عليه من أى تطور كان ، وإن قلب الأوضاع كلها رأسا على عقب ، وإن كان باطلا فعبثا يحافظون عليه ، فانهم إن استطاعوا دفع الغِيَر عنه جيلا أو جيلين اضطروا فى النهاية للقهقرى إزاء القوى الغالبة للانتقال ، وانهارت بانهيارهم صروح ربما كان بقاء بعضها ضروريا .

أما شريعة الاسلام من هذه الناحية فلا أقول إنها قد احتاطت لها فحسب ، ولكنى أقول إنها قد فرضت التطور على أهلها فرضا ، ودفعتهم إليه دفعا ، لأنها شريعة عهد الرشد للأمم ، وقد علم الله أن الأمم فى هذا العهد تطفر فى الترقى طفرا ، وتقطع المراحل إليه قفزا ، فهى بحاجة

الى شريعة لا تناسب حالتها الراهنة فحسب بل تهيئ لها وسائل التقدم ، وتعبد لها طرقه ، وتمدها فيه بقوة معنوية فوق قواها الطبيعية ، لتحفظ وجودها بين أمم لا تكاد تغرب عن واحدة منها الشمس حتى تدوى الجواء باكتشاف جديد تحدثه يؤثر فى الأحوال العامة تأثيرا عميقا يجب المبالاة بنتائجه ، وماذا تغنى المبالاة المجردة إذا لم تقترن بالعمل ، وأنى يكون عمل إذا لم يكن علم عال ومحاولات تبلغ النهايات المعروفة ؟

قلنا : إن الاسلام قد فرض التطور على أهله فرضا ودفعهم إليه دفعا ، وإلا فكيف نفسر انتقال المسلمين بعد أخذهم بهذا الدين من عداد الأمم الجاهلية المسودة ، الى مصاف الأمم العالمة السائدة ، أستغفر الله بل الى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم ؟ وقد اعترفت الأمم كافة لها بالزعامة قرونا طويلة كانت فيه تؤم عواصمها تأخذ عنها فيها العلم والحكمة ، وأسرار الصنائع والفنون ، أليس هذا لأن الاسلام يفرض على متبعيه التطور فرضا ، ولا يكتفى بأن يسمح لها به سماحا ؟

إن قول الله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله : « وقل رب زدنى علما » وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ، وقوله : «خذ الحكمة ولو من مشرك » ، كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم ، ودفعت بهم الى مضايقه دفعا ، والعلم يؤدى الى الترقى لامحالة ، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر .

هل اكتفى الاسلام بهذا اللون فى تحبيب العلم الى الناس ، وإجبارهم على التعويل عليه ؟ لا ، ولكنه لم يدع لونا من ألوان التأثير فى العقول ، ولا باعثا من بواعث التوثب فى النفوس إلا استخدمه فى هذه السبيل ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك » وقال : « لموت عالم واحد أشد عند الله من موت قبيلة » وقال : «فقيه واحد خير من ألف عابد » وقال : «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجحه » .

هذا كله وأمثاله مما يكاد لا يحصى يفسر ما حدث من الانقلاب العظيم فى جماعة العرب ، وإلا فمن ذا الذى كان يتخيل أن أولئك الجاهلين ، بعد فترة من الزمان لا تعتبر فى حياة الأمم شيئا يذكر ، يصبحون وفى أيديهم قبس العلم يعشو الى نوره العالم أجمع ، يأخذون عنهم ما جعلهم الله أمناء عليه دون خلقه ، فكانوا الحافظين لميراث الانسانية من ناحية ، والواسطة فى إحيائه ، وتسهيل الانتفاع به ، من ناحية أخرى ؟

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الاسلام قد أوجب على متبعيه الاندفاع فى التطور إيجابا ، ولم يكتف أن يبيحه لهم إباحة ؟

هل وضع الاسلام حدا للتطور ؟

لا ، إن الدين الذى يقول لمتبعيه : « ويخلق ما لا تعلمون » يفتح أمامهم باحة اللانهاية فلا يدع فى أنفسهم حاجة الى السؤال عن الحدود والغايات . لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم بست سنين اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة . ولا عجب فان الدين الذى يصرح بأن عقل آيات الله وإدراك أسرارها من حظ أهل العلم دون سواهم وحدهم فيقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون » يجب أن يوصف بأنه دين العلم غير منازَع .

هل وضع الاسلام لشهوات العقول حدا ؟ وهل أوصد فى وجه مستفيد مجالا ؟

اللهم لا ، ولكنه أباح لها أن تجول فى كل مجال ، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية .

وقد ندب الاسلام المسلمين الى تعلم اللغات الأجنبية ، وحضهم على تعلم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية ، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر الذى يجىء من قبلها ، كالعلوم الطلسمية والسيمياء وأسرار الحروف وغيرها .

ومن من الناس يخطر بباله أن الاسلام يسمح بتعلم السحر ، وهو من أخص العلوم الظلمانية ، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به فى الأمم ، وألقوا فى النار أحياء ، ولا تزال بعض القوانين الأوربية تعاقب من يشتغل بالاتصال بالعالم الخفى ولو من ناحية التجارب العلمية .

لم يحرم الاسلام من هذه العلوم الظلمانية إلا العمل بها ، حتى قال المسلمون فى حِكمهم : « تعلم السحر ولا تعمل به » .

هذا تسامح عظيم ، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية ، فان الانسان مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول ، ويتحسس من كل محجوب ، ويرمى بنفسه الى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه . فالدين الفطرى المماشى لطبائع النفوس لا يسمح أن يوصد على العقول باحة ، ولا أن يضع لمرماها حدا . ولو كان فعل ذلك لكسر الناس كل حاجز وضعه ، وجازوا كل حد رسمه ، ولأصبح دينا خياليا يعرف ولا يعمل به ، والله لا يريد إلا أن يكون الاسلام دين العالمين العملى .

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية ، ولكنهم ألفوا فيها كتبا لا تزال موجودة الى اليوم ، منها المطبوع ومنها المخطوط ، وكثير منها محفوظ بدار الكتب الملكية ، وفى مكتبات الأفراد فى جميع البلاد الاسلامية .

ومن أغرب ما نرويه أن المسلمين اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ووصلوا منها الى نتائج عملية ، فقد صرح بعضهم بأنه قد أنجح فيما تصدى له منها ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا

نفعل قبل سنين معدودة ، إذ أعلن علماء من الكيماويين فى أوربا بأنهم قد توصلوا الى عمل الذهب ولكن يمنعهم من عمل مقادير كبيرة منه أنه يتكلف قدر ما يصنع منه .

وثبت أيضا ، كما قرره الأستاذ (دريبر) وغيره ، أن العرب بحثوا فى مذهب التطور والاستحالة ودرسوه فى بعض دورهم العلمية بأوسع مما يفعله الأوربيون اليوم، إذ أنهم سرّوا عوامل التطور العام على المعدنيات أيضا ، فكأنهم صعدوا بتلك العوامل الى أعلى مصادرها ، ولم يقصروا النظر فيها الى طور متوسط منها .

وقال بعض المؤرخين : إنه قد ثبت أن العرب وصلوا فى رحلاتهم الجغرافية الى شواطئ أمريكا ، وإن كريستوف الذى اعتبر مكتشفها قد عثر هنالك على أشياء مادية تدل على وصول العرب اليها قبله .

وقد شهد كبار المؤرخين الاجتماعيين أن العرب قد وصلوا من بعض الفنون والصنائع الى شأو لم يبلغه الأوربيون بعد . قال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) فى كتابه (تمدن العرب) :

« العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع والفنون ، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جدا . وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، فاننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأنهم برعوا جدا فى الصباغة ، ومهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع ، قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن (تأمل) » .

نقول : إذا كانت أوربا على ما وصلت اليه من الابداع الفنى والصناعى تشهد على لسان أكابر ممثلى العلم والفنون فيها بأن المسلمين وصلوا من الكمال العملى فى كثير من الصنائع الى أبعد مما وصلت هى اليه ، فان ذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تعاليم دينية جامدة ، وأزيد فأقول : ولا تعاليم حائمة عليه من الطراز المعروف ، ولكنها تعاليم من نوع أرفع ، يسندها من جميع نواحيها بواعث تحضيض للتكمل ، وبلوغ غايات السمو فى كل ضروب النشاط الروحى والعقلى ، قد مزجت مزجا مقيسا على القابليات البشرية فى كل دور من أدوارها . من لم يفترض هذا الافتراض ، مستهديا ببعض التفصيلات العملية ، فلا يستطيع أن يفهم كيف يؤدى هذا الدين جماعة يؤلفها على غير نظام الجماعات ، طفرة بدون تدرج ، ثم يقذف بها فى قابوس الحياة الملتطم الأمواج ، الى ساحل للسمو الروحى والمادى لم تصل اليه أمة قبلها .

والذى علينا بعد هذا الافتراض أن ندرس الاسلام دراسة تحليلية لنصل من مجموع تعاليمه الى كنه هذه العوامل الفذة ، المنبثة فى صميم تركيبه .

إنه قد قيل: لو كان الاسلام كما تدعى لكان حال الشعوب الآخذة به غيرما هى عليه اليوم، وأنا قد قلت: لو لم يكن هو كما ادعيت لما أمكن تعليل قيام جماعته الأولى على النحو الذى كانت عليه فى مدى من الزمان لا يكفى عشرة أضعافه لاحداث بعض التطورات التى دخلت فيها، حتى انتهت الى ما انتهت اليه. فان اعتبر خصوم الاسلام ما قالوه شبهة سلبية، فانا قد قابلناها كما ترى بحقيقة إيجابية، وأقمنا على حقيقتها كل دليل ؟

محمد فريد وجدى

من نهايات الوفاء

لما قتل أبو امرىء القيس بن حجر قصد الى القسطنطينية يستنجد بأمبراطور الرومان على قتلة أبيه، وكان معه أدرع ثمينة، فرأى أن يودعها السموءل بن عاديا، فمر ملك غسان بحصن السموءل وطلب اليه أدرع امرىء القيس، فامتنع، وكان له ولد خارج الحصن، فهدده بقتله إن لم يقبل، فأجابه السموءل بأن ثكله ولده خير له من عدم الوفاء بعهده. فقبض الملك على ولده وقتله، فخلد الأعشى هذه الحادثة فى شعره فقال:

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار
فسامه خطتى خسف فقال له ... قل ما بدا لك إنى مانع جارى
فقال ثكل وغدر أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... أقتل أسيرك إنى مانع جارى
فقال تقدمة إذ رام يقتله ... أشرف سموءل فانظر فى الدم الجارى
أأقتل ابنك صبرا أو تجىء بها ... طوعا فأنكر هذا أى أنكار
فشك أوداجه والصدر فى مضض ... عليه منطويا كاللذع بالنار
واختار أدراعه من أن يسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختار
وقال لا أشترى عارا بمكرمة ... فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديما شيمة خلق ... وزنده فى الوفاء الثاقب الوارى

لو صحت هذه الرواية لكانت من غرائب النفسية الانسانية.

السنة

تعدد قراءات القرآن وما يتعلق بها

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف » . رواه البخارى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الأحرف السبعة التى تلقى بها النبى صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم ، وهل هى غير القراءات السبع المشهورة ، أو عينها ؟ (٢) هل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم كتبت فى زمن النبى أو كانت محفوظة فقط ؟ وهل وجد شىء من هذه الأحرف فى مصحف عثمان ، أولا ؟ (٣) ما السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ؟ (٤) ماحكم قراءة القرآن أو كتابته على عكس الترتيب الموجود فى المصحف ؟

(١) أما الجواب عن الأول : فهو أن المراد بالأحرف السبعة المذكورة فى هذا الحديث غير القراءات السبع قطعا ، حتى قال بعض أئمة القراء : من ظن أن الأحرف السبعة المذكورة فى الحديث هى القراءات السبع فهو غبى جاهل ، ولهذا أنكر ابن عمار على من وقف بالقراءات عند هذا العدد ، وقال : إنه فعل ما لا ينبغى ، لأنه بذلك قد أشكل الأمر على الناس ، وأوهم غير العلماء أن هذه القراءات هى المرادة بهذا الحديث ، ولو نقص عن السبع أو زاد لكان صوابا .

ومن هذا يتضح أن القراءاتِ السبعَ غير الأحرف السبعة الواردة فى الحديث المذكور بلا نزاع . أما المعنى المراد من الأحرف السبعة الواردة فى هذا الحديث فقد اختلف فى بيانه العلماء على أقوال كثيرة ، أصوبها وأدقها ما نقله العلامة الفنارى فى حواشيه على المواقف عن الإمام ابن قتيبة الهمذانى ، ونقله أيضا الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى . وحاصل ذلك أن من تتبع اختلاف لهجات العرب فى القراءة سواء كانت مشهورة أو شاذة موافقةً للقراءات السبع أولا ، فإنه يجده منحصرا فى هذه الأوجه السبعة .

وبيانه أن اختلاف عبارتهم فى القراءة إما أن يكون بزيادة كلمة أو بنقص كلمة ، وعلى كل

إما أن يتغير المعنى بهـذه الزيادة أو النقص أو لا يتغير ، فهذان وجهان يرجعان الى الزيادة والنقص .

مثال مايتغير فيه المعنى بسبب الزيادة :«وأنذر عشيرتك الأقربين ، ورهطك منهم المخلصين» فهذه الجملة الأخيرة لم توجد فى القراءات المذكورة ، ولـكنها نقلت فى حـديث ابن عباس . ولا يخفى أن لها معنى زائدا على قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » .

ومثال ما لا يتغير فيه المعنى قوله تعالى : « وما عملته أيديهم » وفى قراءة « وما عملت أيديهم » والمعنى واحد فيهما، لأن حذف الضمير العائد الى الموصوف جائز ، فهو كا نه مذكور . فهذان وجهان من الأوجه السبعة : ما لا يتغير فيه المعنى ، وما يتغير بسبب زيادة أو نقص .

وقد يكون تغير المعنى بسبب تغير نفس الـكلمة بدون زيادة عليها أو نقص ، وتحت هذا ثلاث صور :

إحداها : أن تتغير الـكلمتان لتغير الشكل مع بقاء مادة الـكلمة على حالتها ، مثل « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبُـخْـل » و « الـبَـخَـل » بفتح الباء والخاء فى الـكلمة الثانية ، فان أحرف البُـخل والبَـخَـل واحدة ، ومعناها واحد ، ولم يتغير سوى الشكل .

ثانيتها : أن تتغيرالـكلمتان بتغير مادتهما مع اتحاد معناهما كا «لصوف المنفوش» فى موضع « العهن المنفوش » فان لفظهما مختلف ومعناهما واحـد . وقـد قرأ : كالصوف المنفوش ابن مسعود وسعيدبن جبير . ومن ذلك ماإذا تغيرت الـكلمتان بتغيرحرف واحد منهما ، كقوله تعالى : « ثم ننشرها لحما » فى قراءة ، وفى أخرى « ثم ننشزها » بالزاى . وكذلك قوله : «حتى حين » وفى قراءة « عتى حين » فى لغة هذيل .

ثالثها : أن تتغير الـكلمتان فى الشكل والمعنى مع اتحاد مادتهما ، كقوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها» بضم الهمزة ، بمعنى أكتمها ، وأخفيها بفتح الهمزة بمعنى أظهرها . ومن ذلك تغير الفعل من أمر الى ماض مع اختلاف المعنى ، كقوله تعالى : « فقالوا ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا » و « بَعـّدَ بين أسفارنا » فى قراءة ، فالأول فعل أمر ، والثانى فعل ماض ، ومعناه على الأول ظاهر ، فقدكان بينهم وبين الشأم قرى ظاهرة متقاربة فطلبوا بُعدها لتكون تجارتهم عزيزة غالية الثمن . أما قراءة بَعـّدَ ففيها إخبار منهم بغـير الواقع جحودا لنعمة الله . فهذه ثلاثة أوجه تضم الى الوجهين السابقين، فيكون المجموع خمسة ،وبقى وجهان آخران ، وذلك بأن يكون التغيير راجعا الى أمر عارض للفظ ، وتحت هذا صورتان :

الصورة الأولى : أن يكون بسبب التقديم والتأخـير ، كقوله تعـالى : « وجاءت سكرة الحق بالموت » بدل « وجاءت سكرة الموت بالحق » .

ثانيتهما : أن يكون بسبب الاعراب ، كقوله تعالى : « إنْ تَرَنِ أنا أقلَّ منك » ، وفى رواية « أنا أقلُّ » بالضم ، وقوله تعالى : « ولايضارَّ كاتب ولا شهيد » ، وفى قراءة « ولايضارُّ كاتب ولا شهيد » بفتح الراء وضمها .

فتحصل أن التغيير إما أن يكون راجعا الى زيادة كلمة أو نقص كلمة ، وإما أن يكون راجعا الى نفس الكلمة فى الشكل ، أو فى إبدالها بمرادفها ، أو إبدال فعل ماض بمضارع ، وإما أن يكون راجعا الى وصف الكلمة من تقديم وتأخير وإعراب .

وسبب نزول القرآن على هذه الأوجه السبعة : أن العربى مجبول على لغته ، فلو كلف بالقراءة على وجه واحد فانه يعسر عليه التحول ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم للناس بشريعة سمحة ليس فيها على الناس من حرج ، قال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، فلو نزل القرآن على حرف واحد لعسر على باقى القبائل التحول عن لغتهم الى القراءة به . وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على هذه الأوجه ، بل المراد أن بعض القرآن نزل بلغة قريش وهو معظمه ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن الخ . فمن سماحة الدين أن يسّر الله حفظ القرآن وتلاوته على العرب فى أول أمرهم ، فأنزله على الأوجه التى ينطقون بها ، ولم يكلفهم التحول عن لغتهم لما يعلمه فى طباعهم من الحمية والتعصب للغاتهم . فلو كلفهم من أول الأمر النطق بلغة غير لغتهم لنفروا من تلاوة القرآن وشق عليهم حفظه ، وذلك كان شأن التشريع الاسلامى فى جميع أطواره ، فانه مبنى على مصالح الناس الصحيحة التى يترتب عليها سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ودفع المضار التى تؤذيهم أدبيا وماديا .

ومما ينبغى الالتفات اليه فى هذا المقام أن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى على هذه الأوجه التى ينطق بها العرب يومئذ بدون أن يتغير شىء من معناه الحكيم ، أو ينقص شىء من بلاغته وفصاحته التى تحدى بها جميع معارضيه من فحول البلاغة وأساطين البيان ، بل كان اختلافه فى التعبير آية أخرى من آيات إعجازه ، إذ لو نزل على وجه واحد ولغة واحدة لسهل على الآخرين أن يحتجوا على عجزهم عن معارضته بنزوله على غير لغتهم ، فقطع الله على جميع العرب هذه الحجة المحتملة من أول الأمر . وأما ما روى عن عمر من أنه أنكر على ابن مسعود قراءته « حتى » : « عتى » بلغة هذيل وقال له : إن القرآن نزل بلغة قريش ، فقد أجابوا عنه بأن عمر قد راعى فى ذلك نزوله فى أول الأمر قبل أن يطلب النبى صلى الله عليه وسلم من ربه التخفيف عن الناس .

أما أنا فاننى أفهم فى ذلك أن عمر طلب من ابن مسعود أن يقرأ بلغة قريش ، لأن معظم القرآن قد نزل بلغة قريش ، وقد طال عهد الناس يومئذ بالاسلام ، فمن الحسن أن يمهد عمر لحملهم

على قراءة القرآن بلغة واحدة ، ويمرنهم على ذلك ، دفعا لما عساه أن يحدث من الاختلاف فى كتاب الله تعالى . وأما قوله : فانه نزل بلغة قريش ، فانه يريد أن معظمه نزل بلغتهم . والحديث الذى معنا يدل على ذلك دلالة واضحة ، فان القرآن نزل أولاً على وجه واحد ، فطلب النبى صلى الله عليه وسلم من ربه أن يزاد على ذلك الوجه ، ولم يزل يزاد له حتى انتهى الى هذه السبعة . وفى رواية مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : إن أمتى لاتطيق ذلك . ومعنى هذا أنه لونزل بلغة قريش خاصة لانصرف الآخرون عن تلاوته والنظر فيه ، وهم حديثو عهد بالاسلام ، لم تذهب من صدورهم نزعة الجاهلية الأولى ، ولم يفارقهم التعصب الشديد للغتهم ، فعفا الله عنهم واستجاب لنبيه دعاءه فى شأنهم ، وأنزل عليه القرآن على حسب لغاتهم ولغات قبائلهم المشهورة .

وليس الغرض أن كل كلمة قد اجتمعت فيها اللغات السبع ، بل اللغات السبع مفرقة فيه كما ستعرفه . على أن معظمه نزل بلغة قريش كما ذكرنا آنفا . ولا يرد أن لغات العرب أكثر من سبعة ، لأن المراد أشهرها وأفصحها .

أما علاقة هذه الأحرف السبعة بالقراءات السبع المعروفة ، فهى أن القراءات السبع وغيرها بعض هذه الأحرف المذكورة فى الحديث ، بمعنى أن ما نقله أئمة القراء متواترا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بعض الأحرف التى نزل بها القرآن ، لما بيناه من أن الأحرف السبعة المذكورة فى الحديث تشمل لغة معظم القبائل العربية ، فالقراءات السبع المتواترة وغيرها لا تخرج عن لغات العرب الفصيحة حتما ، ولذا كان من المتعذر نقل مفردات الأحرف السبعة المذكورة فى الحديث كلها بطريق التواتر .

على أن عناية المسلمين الشديدة بكتاب الله تعالى ، وحرصهم على تدوين كل ما يتعلق به ، حمل بعض جهابذة العلماء على جمع الروايات المختلفة ، سواء كانت متواترة أوغير متواترة ، فى كتاب ضخم .

ومما لا خفاء فيه أن التواتر لم يقف عند القراءات السبع المعروفة ، بل قد تواتر غيرها أيضا . وقد وضع بعض المحققين ضابطا للقراءات المقبولة ، سواء كانت من السبع أو من غيرها وهو : « كل ما صح سنده واستقام وجهه فى العربية ووافق لفظه خط المصحف الامام ، فهو من القراءات المقبولة ، سواء كانت سبعة أو سبعين أو أكثر من ذلك » .

والحاصل : أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، وهى مختلفة فى كثير من نواحى التكلم ، فاقتضت حكمة العليم الخبير أن ينزل القرآن على نبيه مشتملا على كل لغات العرب المشهورة ، كى لا تقوم لهم حجة على عجزهم عن محاكاته والإتيان بمثله ، وكان المسلمون يومئذ قد غلبت عليهم الأمية ، فكانوا يحرصون على حفظ كل ما ينقلونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقل إلينا ما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترا على الضبط المتواتر من القراءات .

(٢) أما الجواب عن الثانى وهو : هـل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الـكريم كتبت فى زمن النبى الخ ، فهو أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب الوقائع والأحوال ، فـلم يكن نزوله مرتبا على الحـالة التى هو عليهـا الآن . ومن البديهى أن ترتيبه على هذه الحالة بأمر الله عز وجل كما ستعرفه ، فـكانت تنزل الآية أو الآيات فيأمر النبى كتبة الوحى الذين كانوا يعرفون الـكتابة يومئذ ، فيكتبون ما يوحى اليـه بنصه وشكله ، ويبلغه للناس ، فيحفظه القراء المشهورون بالحفظ كما أنزل بحسب لغاتهم المختلفة ، وهكذا ، حتى تم نزوله وترتيبه ، فعرض النبى صلى الله عليه وسلم القرآن كما هو على جبريل ، وبلغه للحفاظ مرتبا فحفظوه على حالته التى تواتر بها الينا .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يباشر تحفيظ كبار الصحابة بنفسه زيادة على تعليم كتبة الوحى الذين كانوا على جانب عظيم من الذكاء والفطنة والأمانة . ومن الذين علمهم الرسـول مباشرة عبد الله بن مسعود ، فقد روى عنه البخارى أنه قال : « والله لقد أخذت من فى رسول الله بضعا وسبعين سورة » . وفى رواية لابن أبى داود أن ابن مسعود قال : « أخذت من فى رسول الله سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لصبى من الصبيان » . فهذا صريح فى أن ابن مسعود تلقى القرآن سورة سورة عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم . وقال عبد الله بن عمر : كانت تنزل السورة فنحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتعلم حلالها وحرامها الخ . فهذا صريح فى أنهم كانوا يحفظونه سورا كاملة مرتبة على هذه الحـالة التى تواترت الينا .

ومـما هو واضح أن العرب يومئذ كانت لهم مقدرة شديدة على الحفظ ، حتى كان بعضهم يحفظ كل ما يسمعه من أول مرة . وقـد سمع ابن عباس قصيدة عمر بن أبى ربيعة وهى تبلغ سبعين بيتا تقريبا مرة واحدة فحفظها حفظا جيدا وقرأها طردا وعكسا . فـلم يعقهم الحفظ متفرقا عن الحفظ جملة واحدة كما قد يتوهم .

وبالجملة : إن الحفاظ الذين كانوا يتلقون القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على جانب عظيم من الضبط والذكاء والفطنة ، ومنهم أبو بكر وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبى بن كعب وغـيرهم من فحول الأذكياء وأساطين الحفاظ ، فهؤلاء هم الذين حفظوا القرآن مرتبا على ما هو عليه بعد أن تم نزوله ، ونقله عنهم غيرهم من القبائل ، بحيث نقلت كل قبيلة ما يوافق لغتها التى نزل بها .

ومن هنا تعـلم أنه لم تكن هناك حاجة الى كتابة القرآن مرتبا ، لأن الحفظ كان كافيا ، ولـكنه كتب متفرقا كله آية آية ، وكانت الـكتابة يومئذ على الجلد والأحجار الملساء ونحو ذلك ، فلما توفى الرسول صلوات الله عليه قتل كثير من القراء ، فتنبه عمر لذلك وقال لأبى بكر : أخشى أن يذهب القرآن بموت القراء فمن الصواب أن نجمع الآيات المتفرقة التى كتبت

فى عهد الرسول مرتبة طبقا للمحفوظ لنا ، فوافق أبو بكر بعد تردد لأنه كان يحب الوقوف عند الحد الذى تركهم عليه الرسـول ، فجمعت آيات القرآن المتفرقة ورتبت وفقا للمحفوظ بدون تغيير فى الرسم الذى كانت عليه ، لأنها كانت مشتملة على كثير من لغات العـرب التى نزل بها القرآن ، فـكل ما فعله أبو بكر رضى الله عنه أنه جعل كل آية بجوار صاحبتها حتى كملت كل سورة على حدة ، ولـكنه لم يرتب السور ، ولم يحذف شيئا من اللغات المدونة فيه .

فلما شاع القرآن بين العرب وانتشر الاسلام فى الأمصار والأصقاع ، وقرأت كل قبيلة بلغتها ، دب الخلف بين الناس ، وأخذ بعضهم يكفر صاحبه ويقول له : أنت تقرأ القرآن على غير ما أنزل ، لأن كل واحد كان يجهل ما نزل به القرآن من لغة الآخر . فاستشار عثمان كبار الصحابة فى أن يجمع الناس على قراءة واحدة كى لا تحدث بين المسلمين فرقة ، فوافقوه على رأيه . فجمع القراء المشهورين ، ومنهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله ابن عباس وغيرهم ، فكتبوا له المصحف بلغـة قريش ، لأن معظم القرآن نزل بهـا ، وأقرهم على فعلهم سائر الصحابة يومئذ ، فبعث به الى الجهات المتفرقة ، وأمر بحرق ما عداه .

فعملُ عثمان رضى الله عنه كان مشتملا على أمرين لم يعملهما أبو بكر :

أحدهما : أنه جعل الـكتابة مقصورة على لغة واحدة بعد أن كانت بلغات متفرقة .

ثانيهما : أنه رتب سور القرآن فجعل كل سورة عقب الأخرى على حسب الترتيب الذى تلقاه الحفاظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العالمين .

وقد أحسن عثمان رضى الله عنه ومن وافقه من أئمة الدين بذلك العمل الجليل كل الاحسان ، فقد سد على المفسدين والمنافقين الذين فى قلوبهم مرض باب الاختلاق على كتاب الله المبين ، وحسم مادة التفرقة فى أصل الدين ومنبعه المعين . وما كان ذلك إلا بتوفيق الله العلى الـكبير الذى قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . فقد صدق وعده الذى وعد به ، فألهم عثمان وباقى أصحاب رسول الله الأعلام وسيلة حفظه ، ولولا ذلك لـكان اختلاف لهجات العرب الـكثيرة المتشعبة من أكبر العوامل التى أتاحت لأعداء الدين أسـعد الفرص لتحريف ذلك الـكتاب الـكريم وتبديل عباراته كما بدل غـيره من الـكتب . فالحمد لله الذى ألهم عثمان ومن وافقه من المسلمين وسائل حفظ كتاب الله والعناية بكل ما يتعلق به .

فهـذا هو جواب السؤال الثانى . وحاصله أن الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، وما نزل بهذه اللغة كتب بها ، وبعضه نزل بلغة هوازن ، وما نزل بهذه اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فـكتب بلغتهما ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التى نزل بعضه بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة لأن فى نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها فى قراءته جميعه بهذه اللغة . فالذى حصل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا فجعل كل آية بجوار صاحبتها طبقا

للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، فجعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه فى صدور الحفاظ ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، أما عثمان رضى الله عنه فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة ورتبه طبق المحفوظ .

ومن هذا تعلم أن الأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ فى القبائل ، وأنها لم يوجد منها شىء فى مصحف عثمان ، لأنه كان مقصورا على لغة قريش . وهذا هو المعتمد الذى لا ينبغى أن يلتفت الى غيره .

٣ — وأما السؤال الثالث ، وهو : ما السبب فى اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ؟ فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم بلغات العرب على الوجه الذى تقدم ونقله القراء من الصحابة الى الجهات المختلفة على هذه الحالة ، فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثمانى وبعث به الى تلك الجهات التى كان بها بعض القراء من الصحابة ، عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة مما لا تدل عليه كتابة المصحف ، ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . واليك نص عبارة الحافظ ابن حجر فى ذلك : قال ابن أبى هاشم : إن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت اليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة . وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعا من الصحابة بشرط موافقة الخط ، وتركوا ما يخالف الخط امتثالا لأمر عثمان الذى وافقه عليه الصحابة لما رأوا فى ذلك من الاحتياط للقرآن ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار . الى آخر ما قال .

والذى أفهمه فى ذلك : أن عثمان رضى الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التى تواترت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين المسلمين ، فكتب مصحفه ليكون مرجعا يرجع اليه الناس عند الاختلاف ، فإذا قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع الى الأصل . وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون عباراته من التبديل والتحريف ، وذلك يحصل حتما بالاجماع على التمسك بنص ما كتب فى مصحفه ، أما غيره من المد والتسهيل والادغام والاظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير فى نص القرآن فذلك ما لا ضرر فيه ألبتة ، والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : « ياعمر: القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابا أوعذابا رحمة » . ومعناه أن الذى يضر هو تبديل القرآن وتحريفه ، أما كل ما يوافق اللغة العربية ولا يغير المعنى فإنه لا يضر ، فمصحف عثمان منع الفرقة فى أصل اللفظ ، وجعل العبارة مصونة

من التحريف ، ورتب القرآن طبقا للمحفوظ ، ولم يمنع القراءات المتواترة التى توافق لغات العرب ولم يترتب عليها فرقة .

وقد ذكرنا لك فيما مضى الضابط لذلك ، وهو « كل ماصح سنده واستقام وجهه فى العربية ووافق لفظه خط المصحف العثمانى فهو من القراءات المقبولة » . فالمصحف ضبط اللفظ الدالّ على المعنى ورتب المتواتر عن الرسول ، أما غير ذلك مما تواتر نقله فلم يمنعه احد من الصحابة ، ولم يقل أحد من المسلمين بعدم جوازه ، وذلك لأن الدين الاسلامى مبنى دا ئما على جلب المصالح ودرء المفاسد ، فأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم اعتبروا بالكتب التى تقدمتهم وحرفها المفسدون ، ففعلوا كل ما يمكنهم من صون القرآن عن التحريف ، فكل ما ظنوه أو توهموه يفضى الى ذلك قضوا عليه بكل ما أوتوا من قوة ، وكان الله لهم فى ذلك ناصرا ومؤيدا ، وأما ماعدا ذلك مما تواتر نقله عن رسول الله ولا ضرر منه فلم يتعرضوا له ، فجزاهم الله عن الدين أحسن الجزاء .

(٤) أما الجواب عن السؤال الرابع وهو : ما حكم قراءة القرآن أو كتابته على عكس الترتيب الموجود فى المصحف ؟ فهو أن هذا السؤال على ثلاثة أوجه :

أحدها : حكم قراءة الآيات غير مرتبة ، كأن يقرأ « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، قبل الٓمٓ » مثلا .

ثانيها : حكم القراءة معكوسة كما كان يفعل العرب فى الشعر والنثر للدلالة على مهارتهم فى الحفظ : كأن يقول مثلا « من الجنة والناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس » .

ثالثها : حكم قراءة سورة قبل أخرى عكس الترتيب الموجود فى المصحف ، كأن يقرأ آل عمران قبل البقرة ، والنساء قبل آل عمران . ويعبر الفقهاء عن ذلك بالتنكيس إذا كان فى الصلاة .

فأما الجواب عن الأول والثانى ، فانه لا يجوز بلا نزاع ، لما فيه من ضياع المعنى المراد ، والخلط على السامعين . وقد صرح السلف بحرمة ذلك .

وأما الجواب عن الثالث فانه يجوز خارج الصلاة بلا كراهة . وأما فى الصلاة فقد صرح الفقهاء بأنه مكروه تنزيها ، سواء قرأ المصلى سورة فوق التى قرأها أولا ، أوقرأ آية ، وإنما كانت قراءة الآية منكسة فى هذه الحالة مكروهة لا محرمة ، لوجود الفصل بين القراءتين بالصلاة ، فلا يترتب عليه الاشتباه الحاصل من وصل الآيات بعضها ببعض .

أما ما ورد فى صحيح البخارى من أن عائشة قالت لمن سألها فى ذلك : « وما يضرك إن قرأت آية قبل أخرى » فرادها : إن قرأت سورة قبل أخرى . ولذا قال الجمهور : إن ترتيب السور كتابة فى المصاحف ليس لازما . والله أعلم .

عبد الرحمن الجزيرى

دفاع عن القرآن الكريم

– ٣ –

استحالة تطور متن القرآن

أصبحت مهمتك فى الشرق غير خافيــة ، وهى حث المسلمين على أن يبحثوا عن تطورات قرآنهم ، وتطورات قراءاته ، ليعلموا أن القرآن الذى يقرءونه الآن مغاير لما كان يقرؤه أصحاب رسول الله . وقـديما علمنا من المنطق أن النتائج العقلية تنتجها الأدلة المنطقية ، والدليل المنطقى ينتج استحالة تطور القرآن ، وهو : القرآن كلام الله أحكمت آياته ، وكل كلام لله أحكمه ، يستحيل أن يلحقه تطور ، فالقـرآن محال أن يلحقه تطور. فإن أنكرتم أن القرآن كلام الله انتقل البحث الى أصل الدين الاسلامى ، وهل القرآن من عند الله أم من عند محمد ؟ وهو موضوع قـديم ، والمناظرات فيه بين علماء المسلمين وبين غيرهم مشهورة مستفيضة ؛ وإن سلمتم أنه كلام الله ولـكن لم يحكم آياته (لأجل أن يلحقه التطور!) قلنا: إن الله أخبر بإحكام آياته « الـر كتاب أحكمت آياته » ، فان لم ترضوا بهذا الدليل رجع البحث الى معارضة القرآن، فأجمعوا علماء الغرب جميعا وأتوا بآية مثلها ، فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا أبد الآبدين ودهر الداهرين — فسلموا ،لنصل الى النتيجة التى تهدم ما بنيتم وتعتزمون بناءه فى العالم الاسلامى . وإن لم يعجبكم المنطق بسطنا لـكم القول بسطا فنقول :

تعلم يا دكتور كما نعلم أن من مقتضيات التطور ومقوماته اعتبار الظروف والملابسات التى تؤثر فى الشىء فتنقله من طور الى طور ومن حال الى حال ، وهذا غير معقول بالنسبة للقرآن بحال ، لأن العرب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسـلم وبالقرآن ، من أخلاقهم الثابتة ، وعاداتهم وطبائعهم ، التمسك بقوميتهم ولغتهم ، والمحافظة التامة على نظمهم ونثرهم، فلما آمنوا إيمانا أساسه البرهان والمعجزة ، وتمكن الايمان فى قلوبهم ، لاجرم تمسكوا بالقرآن الـكريم ، وحافظوا عليه كل المحافظة ، لأنهم وجدوا فيه ما بهر عقولهم من الفصاحة والبلاغة (وهم فرسان هذا الميدان) ، واستمروا هكذا حياتهم ، ثم ورث هـذا الحرص عليه مَن بعدهم من التابعين ثم من بعدهم ، طبقة بعد طبقة ، حتى بلغ الأمر بكم أن رميتموهم أنتم (ياعلماء الغرب) بشدة التعصب للنقل الى درجة الجمو د !

فهل يتصور عقلا أن من كان هـذا حالهم باعترافـكم أن يزيدوا أو ينقصوا أو يقدموا أو يؤخروا ، أو يغيروا أو يبدلوا فى أعز عزيز لديهم وهو القرآن الـكريم حتى يلحقه التطور

المنشود لـكم ، والذى تحثون المسلمين على البحث وراءه ؟ فى الحق أن ذلك ليس معقولا ، بل هو فى عداد المستحيلات .

ونسوق اليك دليلا منصوصا على شدة محافظة القوم على لفظ القرآن الـكريم ونظمه : روى عن عمر بن عامر الأنصارى أن سيدنا عمر بن الخطاب قرأ قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان » ، فقال زيد بن ثابت : « والذين اتبعوهم » بزيادة الواو ، فقال عمر : ائتونى بأبى بن كعب ، فسأله عن ذلك فقال أبى : « والذين اتبعوهم » ، فجعل كل واحد يشير الى أنف صاحبه بأصبعه ، فقال أبى : والله أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الخنطة ! فقال عمر : إذاً فتابع أبيا . راجع كتاب تاريخ القرآن للزنجانى صفحة ١٤ و ١٥ .

أليس هذا دليلا واضحا على أن القوم كانوا يهتمون بحفظ نصوص الآيات بحيث إن زيادة حرف واو أو نقصها أمر مهتم به مع أنه قد لا يغير المعنى كثيرا ؟

على أن وصول القرآن الـكريم إلينا عن طريق (التواتر) المفيد للعلم الضرورى ، يفيد بداهة أن القرآن لم يلحقه أى تطور .

ثم كيف يلحق القرآن التطور وقد أعجز الله البشر جميعا أن يأتوا بمثله أو يزيدوا عليه أو ينقصوا منه ؟ لأن الله أحكم آياته ، فالقرآن المحكَم آياتُه هو المشرف على الحوادث الـكونية ، المقرر لأحكامها فى كل زمان ومكان ، الضابط لأحوال الأمم الاجتماعية والعمرانية ، المحقق لسعادتها الدنيوية والأخروية ، فقد ظهر لك مما تقدم أن التطور محال أن يلحق القرآن الـكريم ، بل ظهر أنه المسيطر والمهيمن على جميع التطورات التى وقعت وتقع فى الـكون . خذ مثلا منه يناسب ما نحن فيه : قال الله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغلبون » : نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم مخبرة عن حال الـكفار (فى عصره) عن أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله الخ ، فبقيت هذه الآية الـكريمة مقررة أحوال الـكفار الذين جاءوا بعدهم وحاولوا ما حاولوا : من إنفاق أموالهم للصد عن سبيل الله ، ثم من بعدهم ثم من بعدهم ، طبقة بعد طبقة الى الآن . فسل « يا دكتور جفرى » التاريخ ينبئك بأن الـكفار السابقين فى العصور الخالية ، أنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ثم غلبوا ، واستمر الدين فى طريقه الى الآن ، فقد حاولوا ما تحاولون ، وأنفقوا أضعاف ما تنفقون ، ثم باءوا بالفشل والخسران المبين ، فما أشبه الليلة بالبارحة ؟ فستكون عاقبتكم عاقبتهم ، لأن آية الله قائمة !! ثم ألست معى فى أن هذا دليل يضاف الى ما تقدم على أن القرآن لا يلحقه التطور ، بل هو الحاكم على جميع التطورات ؟

استحالة التطور فى القراءات السبع :

والتطور فى القراءات السبع فى عداد المستحيلات ، لأن علماء الأصول قرروا أنها متواترة ، والتواتر : نقل طائفة تقوم الحجة القاطعة بقولهم عن طائفة مثلها ، وهكذا . فالمحافظة على النقل دون أى تغيير أو تبديل ، شرط أساسى فى التواتر ، بل هو شطر منه ، ولذلك كان التواتر مفيدا للعلم الضرورى ، فاذاً نحن نعلم بالبداهة أن القراءات السبعَ التى وصلت إلينا هى بضبطها وشكلها وطريقة أدائها ، هى نفس القراءات التى أجمعت الأمة عليها ، ونقل هذا الاجماع بالتواتر . فالتطور مستحيل فيها كما ترى .

التطور فى القراءات الشاذة :

والقراءات الشاذة كما يسميها بعض أهل الاصلاح ـ أو الروايات الآحادية (كما يسميها البعض الآخر ـ هى المزلق) الذى انزلق فيه علماء الغرب لما يحيط به من الغموض والخفاء ودراسة أخلاق اللهجات ، ولأنها كانت فى عصر رسول الله ، وكانت ـ على ما يقولون ـ فى مصاحف بعض الصحابة ، وغير ذلك ، مما يجعل لهذا البحث عناية خاصة .

إن القراءات الشاذة هى (المزلق) الذى انزلق فيه علماء الغرب ، لما يحيط بها من الظروف والملابسات التى تجعل دراستها ليست بالأمر الهين ، بل تجعلها من الخطورة بمكان ، فكانت المدخل الوحيد ، الذى دخل المستشرقون منه للتشكيك فى مصحف سيدنا عثمان ، فيقولون : إنها كانت فى مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم ، وإنهم كانوا يقرءون بها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعندى أن ذلك يرجع الى سببين رئيسيين : (١) عدم فهم المستشرقين أسرار البلاغة (٢) التقصير فى دراسة اللهجات .

أما الأول : فلأن المستشرقين يشق عليهم تفهم بلاغة القرآن وتذوق أسرار التراكيب ، فهم إن استطاعوا أن يعلموا قواعد النحو والصرف ومتن اللغة وقواعد البلاغة ، واستطاعوا أيضا ـــ مع التنزل ـــ أن يطبقوا هذه القواعد على بعض المواد ، فلن يستطيعوا أن يقفوا على معانى القرآن الكريم ، وأن يفهموا ما فيه من بلاغة وإعجاز ، وذلك لفقدهم الذوق العربى ، واللهجات العربية، الناشىء ذلك طبعا من تربيتهم الغربية .

وأما دراسة اللهجات العربية فليست بالشىء السهل اليسير ، فإن لكل قبيلة من قبائل العرب لهجة خاصة تختلف عن لهجات بقية القبائل ، غير أن بعض هذه اللهجات قريب من بعض ، ويظهر أنها تنحصر فى سبع لهجات رئيسية ، ولذلك نزل القرآن على سبعة أحرف .

ومن الثابت تاريخيا أن وفود القبائل المختلفة كانت تفد على النبى صلى الله عليه وسلم

ليأخذوا عنه القرآن ويتفهموا أحكام الدين ، والقرآن نزل بلغة قريش ، فكيف كان يمكن أن تقرأ هذه الوفود القرآن وهم ليسوا قرشيين وألسنتهم مختلفة ؟ إذ من الصعوبة أن يتكلم عربى ذو لهجة خاصة بغير لهجته إلا بمشقة وجهد عظيمين ، فمثلا : قوله تعالى : « كلما أضاء لهم مشوْا فيه » هذه لغة قريش ولهجتها ، لكن قبيلة أخرى لا تستطيع أن تقرأ « مشوا » ولكنها تقول « سعوا » أو « مروا » ، فكان لابد أن يوسع لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الألفاظ حيث المعنى واحد . وكذلك قوله تعالى : « للذين آمنوا انظرونا » لا تستطيع غير قريش أن تقول : « انظرونا » ولكنها تستطيع أن تقول « امهلونا » أو « أخرونا » أو « ارقبونا » وهكذا ، فلا بد من الترخيص فى ذلك فى مبدأ الأمر حتى تسهل لغة قريش عليهم ، فلما سهلت عادوا إليها ، وقرأوا القرآن على حرف واحد ، وهو الذى أجمع الصحابة عليه ، وكتب فى مصحف سيدنا عثمان .

فى الحديث المروى عن أبى بكر قال : « جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكلٌّ شاف كاف » .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ، أشهرها خمسة ، وأشهر الخمسة واحد ، وهو الذى نقتصر عليه هنا لشهرته ، ولعدم اتساع بحثنا هذا لمثل هذا التطويل ، وهو أن المراد : سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو : أقبل ، تعال ، هلم . فالمعنى واحد واللفظ مختلف ، وفى البخارى ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولاحرام اهـ

وهذا هو الذى عليه أكثر أهل العلم : كسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن وهب ، والطبرى ، والطحاوى ، وغيرهم . ومع هذا فان ذلك كان لضرورة يقدر بقدرها ، فاذا ارتفعت الضرورة ارتفعت الرخصة والسعة ، قال الطحاوى : إنما كانت السعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لمانهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوسع لهم فى اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب ، وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظهم ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها اهـ .

وقال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد اهـ .

أرأيت يادكتور جفرى أن هذه القراءات التى أردت أن تجعلها مدخلا للطعن على مصحف عثمان كانت لضرورة الأمية فى العرب واختلاف لهجاتها، وأنها كانت رخصة ثم انتهى أمدها، وعادوا جميعا يقرءون بحرف واحد، وهو الذى أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عرضه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم عام العرض الأخير ؟

وأرأيت أن القراءات الشاذة لم تتطور إلا بمقدار ؟ وأن تطورها كان راجعا رويداً رويداً الى لغة قريش التى نزل بها القرآن بعد أن اعتاد العرب النطق بها، وأرأيت أنه لم يكن هناك زيادة كلمة ولا نقص، وإنما كان هناك لفظ بدل لفظ لضرورة اختلاف اللهجات : (مشوا فيه) (سعوا فيه) (انظرونا) (امهلونا) على نحو ماتقدم، ثم لما استطاعوا أن يقرءوا مشوا، وانظرونا، وهما من لغة قريش ومما وقع الاجماع عليهما فى المصحف الامام، عادوا اليهما ؟ فأين ذاك يا دكتور من التطور الذى تنشده وتريد أن تجعله أساسا للتشكيك فى مصحف سيدنا عثمان ؟

ولعل هذه الأبحاث تكون بذات بال عند حضرات أعضاء المجمع اللغوى الملكى حينما يبحثون دراسة اللهجات، فان حضراتهم — على ما أظن — سيجعلون دراسة اللهجات عند العرب أساسا لدراستها فى العصور المتأخرة الى عصرنا هذا .

وعندى أيضا أن هذه الأبحاث قد يستأنس بها القائلون بجواز ترجمة القرآن، فانه إذا جاز أن يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم لغير قريش من العرب أن يعبروا عن معنى القرآن بألفاظ من لسانهم مرادفة لألفاظ من لغة قريش للضرورة حيث المعنى واحد، جاز لأئمة المسلمين وعلمائهم أن يرخصوا فى ترجمة القرآن « للضرورة » عينها، لأجل أن يتفهم معانى القرآن من لم ينطق بالعربية، قياسا على فعل رسول الله صلى الله عايه وسلم، ولكن الذى لا يجوز إغفاله أن الرسول صلى الله عليه وسلم رخص فى ذلك لضرورة قدرت بقدرها وارتفعت الرخصة عند ارتفاع الضرورة، فيكون مقتضى القياس أن يرخص فى ترجمة القرآن بقدر ذلك، فلا يجوز لمن ينطق بالعربية أن يقرأه مترجما، ولا أرى أن هذا قياس لازم، ولكنه للاستئناس .

ولعل أغرب وأعجب ما صنعه الدكتور جفرى فى ملحقه الذى ألحقه بكتاب المصاحف، تلك الآيات والسور المخالفة للقرآن الكريم التى يقول إنه نقلها من كتب التفسير والقراءات دون أن يبين لنا كتابا معينا، حتى يمكن الرجوع إليه، فاقرءوا أيها الناس نماذج مما كتبه الدكتور جفرى فى ملحقه الانجليزى صفحة ١٧٩ فى سورة البينة ما نصه :

« رسول الله إليهم يتلو صحفا مطهرة وفيها كتب قيمة، ورأيت اليهودية والنصرانية أن أقوم الدين الحنيفية مسلمة غير مشركة . ومن يعمل صالحا فلن يكفره »

وفى صفحة ١٨٦ فى سورة الأعراف ما نصه :

« أخرج لعباده من القطن والكتان والطيبات من الرزق الحلال قل هى للذين آمنوا يشركهم فيها الكفار فى الدنيا خالصة لهم يوم القيامة »

وفى سورة العصر ما نصه :

« والعصر ونوائب الدهر إن الانسان لفى خَسر ، وإنه فيه الى آخر الدهر ، أعصارا عصرا بعد عصر ودهرا بعد دهر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأتمروا بالتقوى وأتمروا بالصبر » .

هذه بعض النماذج على كثرتها ، فاحكموا بعد أن تقرءوا هل هذه من القراءات التى رخص فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للقبائل التى اختلفت لغاتها ولهجاتها عن لغة قريش ولهجتها ؟ وهل هذه مما اتفق معناه واختلف لفظه ، أم هذه من الألفاظ التى بعثرت فى كتب التفسير والقراءات ، كتبها العلماء ليردوا عليها ، جمعها الدكتور جفرى وصنعها سورا وآيات ليشكك المسلمين فى المصحف الامام ؟ !

حسن حسين

ذم رذيلة الرياء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله عملا فيه ذرة من رياء » .

وقال الحسن البصرى : « لأن تطلب الدنيا بأقبح ما تطلب به ، أحب من أن تطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة » .

وكان الشبلى إذا رأى من يدعى التصوف يقول : « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

وقيل : « كان الناس يراءون بما يفعلون لا بما يقولون ، فصاروا يراءون بما يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا يراءون بما لا يقولون ولا يفعلون » .

وصلى رجل صلاة خفيفة فقيل له : أقصرت الصلاة ؟ قال : لا بل هى صلاة ليس فيها رياء .

ونظر أبو أمامة الباهلى الى رجل فى المسجد وهو ساجد يبكى ، فقال : نعم الرجل لو كان هذا فى بيتك » !

وقال شاعر :

تصنع كى يقال له أمين ... وما معنى تصنعه الأمانة
ولم يرد الإله به ولكن ... أراد به طريقا للخيانة

الاخلاق الفلسفية

— ١٣ —

بواعث أعمال بنى الانسان وغاياتهم

وقفنابك فى المقال السالف عند باعث العاطفة ، وأبنّا لك أن بعض المدارس الفلسفية قد غالى فى الاحتياط من العاطفة ، وجزم بأن الأعمال المبعوثة عنها لا تعد أعمالا أخلاقية . واليوم نريد أن نوجز لك هذه الفكرة ، مستشهدين بشىء من نصوص أنصارها ، فنقول :

من هؤلاء الفلاسفة الذين احتاطوا من العاطفة احتياطا مبالغا : الرواقيون ، إذ أنهم قد عدوا اتباع العواطف واعتبارها باعثا من بواعث أعمال الانسان نوعا من الضعف وخور العزيمة وانحطاط النفسية ، والانمياع فى شخصية ذلك الغير الذى يتحكم فى عاطفتنا . وهم يصرحون بأن الشخص الذى يذعن لعاطفته ويحترمها كباعث من بواعث أعماله ليس إلا عبدا أسيرا لا أكثر ولا أقل . وإليك ترجمة شىء من آراء هذه المدرسة الرواقية : سئل « إيبيكتيت » : كيف يجب أن نحب أصدقاءنا ؟ فأجاب : كما تحب الأرواح العالية والنفوس السعيدة ، لأن العقل لا يمكن أن يطلب إلينا يوما أن ننحط ونتسفل الى حد أن نتلاشى فى غيرنا ، أو أن نضع أنفسنا الحرة الطليقة فى أغلال الآخرين ، وهو لا يأمرنا كذلك بالبكاء والنحيب عند فراق الغير فى حالتى الحياة والموت ، فأحب أصدقاءك على شرط أن تحفظ نفسك من هذه الوضاعات المتقدمة ، إذ من ذا الذى يمنعك من أن تحب أصدقاءك على أنك شخص حر مستقل ، وعلى أنهم أشخاص مستقلون معرضون للفراق والموت ؟ فإذا وضعت نصب عينيك هذه الفروض المتحققة ، فإن الحوادث لا تستطيع أن تخفض نفسيتك الى حد أن تلقى بك فى حضيض البؤس والبكاء عند موت ابن أو فراق صديق .

فلما سمع منه محاوره هذه الاجابة ، وجه إليه سؤالا آخر فقال : ألم يكن « سقراط » يحب أبناءه ؟ فأجابه : « بلى ، ولكن كان يحبهم محبة الرجل الحر الذى لا يتسفل الى حد أن يفقد استقلاله تحت عنوان هذه المبررات الحقيرة : فاليوم ينحط خضوعا للعاطفة البنوية ، وغدا يتسفل رضوخا للعاطفة الأبوية ، وبعد غد يفقد شخصيته إذعانا لعاطفة الصداقة ، وهلم جرا .

« لاشك فى أن الطبيعة قد خلقت بعضنا لأجل البعض الآخر ، ولكنها قد قضت بأن نعيش مجتمعين طورا ومتفرقين طورا ثانيا ، فيجب علينا حيال هذا النظام أن يسعد بعضنا البعض الآخر إذا اجتمعنا ، وأن لا نأسف على بعادنا إذا افترقنا ، لأن هذا الفراق نظام من أنظمة الطبيعة المقدسة التى يعد الألم عند حدوثها خروجا على هذه الأنظمة . ولقد أراد أحد الشبان أن يسافر

إلى إحدى الجهات لحضور موقعة حربية فيها ، فلما وقف لوداع والده قال له هذا الوالد : اذهب يابنى ، لئن نجوت لأوقدن هنا نارا تدل على أن فى هذا المنزل قلبا يحبك ، وإن كانت فائدة نجاتك من الخطر مقصورة عليك وحدك . الى أن يقول : وإذا تغلبت عليك العاطفة حتى جعلتك لا تود أن يموت لك أحد ، فاحكم بأنك مجنون ، وأنك مفتئت على حقوق غيرك ، وإذا حولتك العاطفة عن عقاب خادمك كثرت غلطاته ، وتضاعفت أخطاؤه » إلى آخر ماقال .

ويرى فريق آخر من الفلاسفة أن العاطفة إذا كانت أقوى البواعث ، فانها تحقق أرقى غايات الانسان ، لأن المتصوفين مثلا يطلبون إلينا أن نعمل الخير تحت تأثير عاطفة حب الله . وأنصار الانسجام والاتساق يأمرون بالبعد عن الشر ، لأنه قلب للنظام وتشويه لرونقه ، وهم فى هذا مدفوعون بعاطفة حب الجمال .

وعشاق الحقيقة يتفانون فى البحث وراءها إرضاء لعاطفة تتحكم فى نفوسهم ، وتدفع الى هذا المنهج الذى يسلكونه . ولقد أدمج بعض الأخلاقيين باعث المنفعة فى باعث العاطفة ، فزعم أن الاندفاع وراء المنفعة ليس إلا خضوعا لعاطفة داخلية تأسر النفس وتقودها نحو الانجذاب الى المنافع المادية . ولقد قال فلاسفة القرن الثامن عشر النفعيون : إن باعث المنفعة هو وحده الباعث الانسانى الحق ، لأنه مؤسس على عاطفة صادقة ، وهى عاطفة الفائدة الفردية . ويقول : « هتشسون » : إن العاطفة هى التى تبعث على فعل كل خير ، فإذا أحسست بانعطاف نحو أى عمل ، وشعرت بان باعثه هو عاطفة الاحسان فلا تتردد فى عمله ، وأيقن بأنه خير ، لأن اتباع العاطفة هو أصدق قانون يتبع ، وأهدى سبيل تسلك .

ويقول « آدم سميث » : إن فى داخل نفوسنا عاطفة تشعر بجاذبية نحو الخير ، وبنفور من الشر ، فيجب أن نتخذ هذه العاطفة قائدا لنا فى جميع أعمالنا ، وأن تكون هى الباعث الأوحد لكل الأفعال الانسانية ، وينبغى أن نعد كل ما يرضيها خيرا ، وما يقززها شرا .

أهمية العاطفة :

إن العاطفة مع كل ما وجه اليها من نقد وقدح ، باعث هام جدا ، ولا يمكن إنكاره ، أولا : لأنه طبيعى ، وكل ما كان طبيعيا ، فليس من السهل شله أو تعطيل عمله أو القضاء على أثره . ثانيا : إنه من غير الممكن جحود ما للعاطفة من قيادة لكثير من الأعمال الأخلاقية . ثالثا : إنها كثيرا ما تكون هى الصلة بين القوة التى تدرك الخير وهى الضمير ، والقوة التى تحققه فى الخارج وهى الارادة . وعلى الجملة : إن حب الجمال والنظام يدفعنا الى عمل الخير ، وحب الحقيقة يبعثنا الى البحث المتواصل عنها حتى نبلغ درجة الحكمة . وحب الاحسان يهذب النفس ويبلغها درجة الكمال ، وما هذه الأنواع الكثيرة من الحب إلا ضروب مختلفة

من الميول العاطفية التي نحن بصددها ، والتي تدفع الانسان نحو الكمال . غير أنه مع ذلك كله يجب أن نعترف بأن العاطفة كثيرا ما تتأثر بعوامل خارجية . وإذا كان هذا شأنها فهي أقل قيمة من أن تكون الباعث الوحيد للأعمال الأخلاقية ، وإلا لكانت هذه الأعمال مضطربة وغير ثابتة الدعائم .

أما وقد تشعب بنا الحديث عن البواعث ، وترامت أطرافه الى ناحية كل باعث منها على حدته ، فانا نرى من الحق علينا أن نحصر الموضوع في ذهنك بعض الشيء ، بأن نوجز لك رأى أحد الفلاسفة الأوربيين في هذه البواعث الثلاثة ، وهو رأى معتدل قيم يرحب بهذه البواعث كلها ، ولكنه لا يستطيع أن يجيز طغيان أحدها على الآخرين ، ولا يقبل إفراط بعضها في اضطهاد البعض الآخر . وهاك ترجمة هذا الرأى : « إن هذه البواعث الثلاثة التي ذكرناها آنفا متصلة بعضها ببعض تمام الاتصال بحيث لا يمكن فصلها أو إعطاء واحد منها الزمام الأعلى مع حفظ توازن الحياة الانسانية وانسجامها ، ولكن الخير كل الخير هو في تنسيقها ، والأخذ من كل واحد منها بالطرف الضروري الذي لا يمكن الاستغناء عنه . فاذا شعر الانسان بأن واحدا من الثلاثة الأول حاول الطغيان على صاحبيه ، وجب عليه أن يستعين على هذا الطاغي إما بأحد عدويه الآخرين ، وإما بالواجب حتى يرده الى مرتبة الاعتدال ، لأن الشخص الذي لا يخضع في كل أعماله إلا لباعث الميل الغريزي يقترب من الحيوان شيئا فشيئا حتى يفقد إنسانيته ، وإن كان هذا الباعث من الضروريات التي لا يمكن لأى إنسان الاستغناء عنها إلا مع اضطهاد صحته والقضاء عليها . وكذلك الشخص الذي لا يخضع دائما إلا لباعث العاطفة القلبية يخشى عليه أن يضل في هذه الحياة ، وأن لا ينجح في معمعان عراكها الدائم ، ولا ينتصر في حربها الطاحنة الناجمة عن غريزة تنازع البقاء ، أو نظرية بقاء الأقوى والأصلح ، ومع ذلك فان هذا الباعث ضروري في الحياة ، لأنه منبع الاخلاص العالي والتضحيات السامية ، ولأنه هو الزمام القاسي الذي يضيق الخناق على الغرائز الحيوانية التي لا تعرف إلا الأنانية المغالية . والشخص الذي لا يستمع دائما إلا لصوت المنفعة ينحدر الى هوى البخل والشره والأنانية المروعة التي تحوله في نظر الناس جميعا الى صورة بغيضة مسترذلة ، ومع ذلك فان هذا الباعث ضروري أيضا ، لأن كل إنسان يجب عليه أن يعرف كيف يجذب الى نفسه المنافع المادية ، ليستطيع أن يسير الى جانب أنظاره وأنداده ، أو يجب عليه على أقل تقدير أن يعرف كيف يكسب قوته لكى لا يكون عالة على غيره في الحياة .

وهنا أقف عند الباعث الرابع فلا أستطيع أن أقول عنه شيئا ، لأنه لا يمكن أن يعد انفراده بتسلم زمام كل أعمال الانسان طغيانا على البواعث الأخرى ، وإن كان ذلك غير ممكن ، لأن الانسان ككائن حي يجب أن يذعن للغرائز في بعض أعماله ، وبصفته إنسانا ذا شعور وقلب حساس ينبغي أن يخضع لصوت قلبه في بعض أعماله الأخرى ، وهلم جرا .

على أن كثيرا من الأعمال قد يعملها الانسان متأثرا فيها بباعثين مختلفين فى وقت واحد، كما لو أراد الشخص أن يتغذى بغذاء جيد، ليحفظ صحته من المرض، ولكن حفظ الصحة ليس مقصودا لذاته، بل إن غايته العليا هى أن يحيا، ليقدم خدمات جليلة إلى وطنه، أو ليعول أسرة ترتكز عليه فى هذه الحياة. فهذا الشخص قد أرضى غريزته بالغذاء الجيد، وأذعن لعاطفته القلبية نحو أسرته أو نحو بنى وطنه، وقام بالواجب فى هذا العمل الثانى. وكذلك إذا منح فقيراً شيئا من المال يكون مذعنا لباعثى العاطفة والواجب، وهكذا دواليك؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

يجب أن يوافق القول الفعل

قال الله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها ».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: « من كان كلامه لا يوافق فعله فانما يوبخ نفسه ».

وقال حكيم: « ما الدخان بأدل على النار من ظاهر الرجل على باطنه ».

وقال أكثم بن صيفى: فضل القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة ».

وقيل: « أحسن المقال، ما صدق بحسن الفعال ».

وكان رجل يكثر الثناء على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال له يوما وقد ألح عليه فى الثناء: « أنا دون ما تقول، وفوق ما فى نفسك ».

وقال بعض الحكماء: « لأن يكون لى نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المنظر، وسوء المخبر، أحب الى من أن أكون ذا وجهين، وذا لسانين، وذا قولين مختلفين ».

وقال زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

أصول التشريع

— ٢ —

بحث فى الاجتهاد والاجماع

(١) ما حكم الاجتهاد شرعا ؟ (٢) هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد ؟ (٣) هل يعتبر فى المجتهدين عدد التواتر ؟ (٤) مما قيل فى الاجتهاد . (٥) كم يلزم لكل قطر من المجتهدين ؟

فى العدد الماضى أتينا بشىء من آثار الاجتهاد وفوائده ومزاياه ، وتعويل الصحابة والأئمة عليه ، وجئنا ببعض النصوص التى تثبت أنه لم يرد لكل واقعة فرعية ، أو حادثة جزئية نص خاص بها .

وفى هذا العدد نذكر شيئا عن حكم الاجتهاد من الناحية الشرعية ، ونبين : هل يجوز خلو العصر عن المجتهدين ؟

وخطتنا فيما نذكره أننا نقتصر على الاتيان بنصوص العلماء والأئمة المسلم لهم بالزعامة العلمية ، الذين لهم حق الكلام فى مثل هذا الموضوع ، والحكم فى مثل هذا البحث ، والاجابة عما ذكر فيه من أسئلة .

(١) ما حكم الاجتهاد شرعا ؟

قال الامام الجلال السيوطى :

١ — الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفاية ، ولا يجوز شرعا خلو العصر منه ، ونصوص العلماء من جميع المذاهب متفقة على ذلك .

٢ — فقد نقل المزنى فى مختصره عن الامام الشافعى رضى الله عنه : أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره ؛ ولا يمكن نهى الخلق كلهم عن التقليد ، لأن العوام يجوز لهم التقليد بالاجماع ، وإنما نهى الشافعى عن ذلك حتى لا يجمع أهل العصر كلهم على التقليد ، لأن فيه تعطيل فرض من فروض الكفايات ، وهو الاجتهاد ؛ فحث على الاجتهاد ليكون فى كل عصر من يقوم بهذا الفرض .

٣ — وقال الامام الماوردى فى الجزء السابع من كتابه الحاوى الكبير : فإن قيل : لم نهى الشافعى عن تقليده وتقليد غيره ، وتقليده جائز لمن استفتاه من العامة ؟ قيل : التقليد

مختلف باختلاف أحوال الناس بما فيهم من آلة الاجتهاد المؤدى اليه أو عدمه ، لأن طلب العلم من فروض الكفاية ، ولومنع جميع الناس من التقليد ، وكلفوا الاجتهاد ، لتعين فرض العلم على الكافة ، وفى هذا اختلال نظام وفساد ؛ فلو كان يجمعهم التقليد لبطل الاجتهاد ، وسقط فرض العلم ، وفى هذا تعطيل الشريعة ، وذهاب العلم ، فلذلك وجب الاجتهاد عمن تقع به كفاية ، ليكون الباقون تبعا ومقلدين ، قال الله تعالى : « فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فلم يسقط الاجتهاد عن جميعهم ، ولا أمر به كافتهم .

٤ — وقال الرويانى فى كتابه البحر :

إنما نهى الامام الشافعى عن التقليد ليقتصر طالب العلم فى تعرّف وجوه الأحكام ، ودلائلها ، ثم ينظر فيها لدينه ويحتاط لنفسه .

٥ — وقال الامام البغوى فى كتابه التهذيب :

العلم فرض عين ، وفرض كفاية . وبعد أن تكلم على فرض العين قال : وفرض الكفاية : هو أن يتعلم ما يبلغ رتبة الاجتهاد ، ومحل الفتوى والقضاء ، ويخرج من عداد المقلدين ؛ فعلى كافة الناس القيام بتعلمه ، غير أنه إذا قام من كل ناحية واحد أو اثنان سقط الفرض عن الباقين ، فاذا قعد الكل عن تعلمه عصوا جميعا ، لما فيه من تعطيل أحكام الشرع .

٦ — وقال الامام ابن سراقة فى كتابه إعجاز القرآن :

لو كان القرآن جميعه جايا محكما لعدم الثواب على الاستنباط ، وسقط حكم الاجتهاد المؤدى الى شرف المنزلة ، وعظم المروءة ، ولهذا المعنى لم ينص الله تعالى على حكم جميع الحوادث مفصلا ، بل أبان بعضها ، وذكر أشياء فى الجملة وكل بيانها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبان النبى صلى الله عليه وسلم منها ، ووكل ما يطرأ منها الى العلماء بعده ، وجعلهم ورثته ، والقائمين مقامه فى إرشاد أمته الى حكم التأويل ؛ ولو كان جميع العلم جليا لايحتاج الى بحث واجتهاد ، ولا الى نظر واستنباط ، لكان فى ذلك إبطال الشريعة .

٧ — وقال ابن سراقة أيضا فى أحكام الموطأ :

إن طريق أقسام الفقه ، وحدوده ودلائله ، وتفريعه ، طريق استنباط ، وذلك يختلف فى الناس على حسب ما أراده الله من تفضيل بعضهم على بعض بقوة الاستنباط ، وصحة الاجتهاد .

٨ — وقال الامام الغزالى فى كتابه البسيط :

أما سفر الولد للحج بعد الوجوب ، فانه لا يتوقف على إذن الوالدين ، لأنه واجب متعين ؛ وأما سفر طلب العلم ، فان كان متعينا لما يحتاج إليه ، فلا يحتاج الى الاذن ، بل أولى من الحج ،

لأنه على الفور ، وكذلك إذا كان يطلب رتبة المجتهدين حيث شغر البلد عن المجتهد ، فلا يشترط الاذن كالحج ، بل أولى ، لأنه على الفور ، وإن كان يطلب رتبة الفتوى وفى البلد مفتون ففيه وجهان ، والظاهر أنه يجوز بغير إذن .

وقال الجلال السيوطى تعليقا على هذا : انظر كيف جعل رتبة الاجتهاد فرضا ، وجعله على الفور ، مقدما على الحج حيث شغر البلد عن المجتهد .

٩ — وقال ابن القصار فى كتابه المقدمة ، وهو من أئمة المالكية :

أفتى أصحابنا بأن العلم على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، وتكلم على فرض العين ، ثم قال : وأما فرض الكفاية فهو العلم الذى لا يتعلق بحالة الانسان ، فيجب على الأمة أن تكون منهم طائفة يتفقهون فى الدين ، ليكونوا قدوة المسلمين ، حفظا للشرع من الضياع ؛ والذى يتعين لهذا من الناس من جاد حفظه ، وحسن إدراكه ، وطابت سجيته .

١٠ — أما أئمة الحنفية ، والحنابلة ، فقد نقل ابن الحاجب فى مختصره ، وابن الساعاتى فى كتابه البديع أنهم قالوا :

لايجوز خلو العصر عن مجتهد ، لأن الاجتهاد فرض كفاية ، والخلو عنه يستلزم اتفاق الأمة على الباطل .

٢ — هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد ؟

قال الامام الجلال السيوطى :

نص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وأنه لايجوز خلو العصر منه .

١ — فذهبت الحنابلة الى أنه لايجوز خلو الزمان عن مجتهد ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله » . رواه الشيخان وغيرهما ، قالوا : لأن الاجتهاد فرض كفاية ، فيستلزم انتفاؤه اتفاق المسلمين على الباطل ، وذلك محال لعصمة الأمة عن اجتماعها على الباطل .

٢ — وقال الامام الزركشى فى البحر : ولم ينفرد بذلك الحنابلة ، بل جزم به أيضا جماعة من الشافعية ، منهم الأستاذ أبو اسحاق ، فقد قال : وتحت قول الفقهاء : لا يخلى الله زمانا من قائم لله بالحجة ، سر عظيم ، وكأن الله تعالى ألهمهم ذلك . ومعناه : أن الله تعالى لو أخلى زمانا من قائم بالحجة لزال التكليف ، إذ التكليف لايثبت إلا بالحجة الظاهرة ، وإذا زال التكليف بطلت الشريعة . ومنهم الزبيدى ، فقد قال فى المسكت : لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة فى كل وقت وعهد وزمان ، لأنه لو عدم المجتهدون لم تقم الفرائض كلها ، ولو بطلت الفرائض لحلت النقمة بذلك فى الخلق ، كما جاء فى الخبر : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » . وقد

نقل هذه العبارة الزركشى فى البحر المحيط وقال : إن وجه ذلك أن الخلو من مجتهد يلزم منه اجتماع الأمة على الخطأ ، وهو ترك الاجتهاد الذى هو فرض كفاية .

٣ — وعلق الجلال السيوطى على عبارة الأستاذ أبى اسحق السابقة فقال : قول الأستاذ أبى إسحق : كأن الله ألهمهم بذلك ؛ يشعر بأنه لم يقف له على مستند من الحديث مع أنه له مستندا ، فأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكن لا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قدرا » . وهذا موقوف له حكم الرفع ، لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأى .

٤ — وقال إمام الحرمين فى البرهان : إذا خلا الزمان عن مجتهد ، صار كزمان الفترة ـ أى فتتعطل أحكام الشريعة ، ويبطل التكليف .

٥ — ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام ـ وهما من أئمة المالكية : لايخلو الزمان عن مجتهد الى زمن انقطاع العلم ، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، وإلا كانت الأمة مجمعة على الخطأ .

٦ — وقال الجلال السيوطى :

أقام الله فى الأعصار ، قائما لله بالحجة من العلماء الأحبار ، وضمن حفظ شريعة نبيه المختار ، بطائفة من أمته موعودين بالنصر والإظهار ، وخص شريعة رسوله محمد بالاستمرار ، كما خصّ أمته ببقاء المجتهدين فيها على مرور الأعصار ؛ ولقد غلب على الناس الجهل ، فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدّوه منكرا بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر .

٣ — هل يعتبر فى المجتهدين عدد التواتر ؟

١ — نقل ابن عرفة عن الفخر الرازى أنه قال فى المحصول :

لو بقى من المجتهدين واحد ـ والعياذ بالله تعالى ـ كان قوله حجة .

قال الجلال السيوطى : فاستعاذتهم تدل على بقاء المجتهدين فى عصرهم . والفخر الرازى توفى سنة ٦٠٦ هجرية .

٢ — وقال التبريزى فى تنقيح المحصول :

لا يعتبر فى المجمعين عدد التواتر ، فلو انتهوا ـ والعياذ بالله تعالى ـ الى ثلاثة ، كان إجماعهم حجة ؛ ولو لم يبق إلا واحد كان قوله حجة ، لأنه كل الأمة ، وإن كان ينبو عنه لفظ الاجماع .

٣ — وقال الزركشى فى البحر :

قال الأستاذ أبو إسحاق : يجوز أن لا يبقى فى الدهر إلا مجتهد واحد ، ولو اتفق ذلك فقوله حجة كالإجماع ، ويجوز أن يقال للواحد أمة ، كما قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » . ونقله الهندى عن الأكثرين ، وبه جزم ابن شريح فى كتاب الودائع فقال : « وحقيقة الاجماع هو القول بالحق ، فاذا حصل القول بالحق من واحد فهو إجماع » .

٤ — مما قيل فى الاجتهاد :

١ — قال الغزالى فى المنخول :

الاجتهاد ركن عظيم فى الشريعة لا ينكره منكر ، وعليه عوّل الصحابة بعد أن استأثر الله برسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وتابعهم عليه التابعون الى زماننا . والغزالى توفى سنة ٥٠٥ هـ

٢ — وقال فى المستصفى :

إنا نعتقد أن لله سرا فى رد العباد الى ظنونهم حتى لا يكونوا مهملين ، متبعين الهوى ، مسترسلين استرسال البهائم من غير أن يزمهم لجام التكليف ، فيردهم من جانب الى جانب .

٣ — وقال الإمام النووى فى شرح مسلم :

قال الله تعالى : «ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ؛ فالاعتبار بالاستنباط من آكد الواجبات المطلوبة ، لأن النصوص الصريحة لا تفى إلا باليسير من المسائل الحادثة ، وإذا أهمل الاستنباط فات القضاء فى معظم الحوادث والأحكام النازلة أو بعضها .

٤ — وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوى :

أصول الفقه كملت فى العهد النبوى ؛ والفروع لا تنتهى أبدا ، لذلك شرع الاجتهاد .

٥ — وقال ابن برهان :

قد جعل الله المذاهب دولا ، والآراء نوبا ، ولذلك المعنى يحدث فى كل زمان مذهب تصغى إليه الأفئدة ، وتميل نحوه الأنفس .

٥ — كم يلزم لكل قطر من المجتهدين ؟

١ — قال إمام الحرمين فى النهاية : قوام الشرع بالمجتهدين ، ويجب أن يكون فى كل قطر من يراجع فى أحكام الله تعالى ، وقد قال الفقهاء : يجب أن يعتبر فى هذا مسافة القصر ، فاذا سكن مجتهد بقعة استقل به من هو على مسافة القصر منه فى الجوانب .

٢ — وقال الزركشى فى كتابيه : القواعد ، والبحر :

لا بد أن يكون وجود المجتهد من فروض الكفاية ، ولا بد أن يكون فى كل قطر من يقوم به الكفاية ، ولهذا قالوا : إن الاجتهاد من فروض الكفاية .

وعلى الجملة فقد اتفقت نصوص العلماء والأئمة ، كما رأيت ، على أن الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات ، ولا يجوز شرعا خلو العصر عن مجتهد .

فهل فى هذا العصر مجتهدون ؟

وكيف نوجد المجتهد إذا لم يكن موجودا ؟

وهل أثمت الأمة بترك فرض الاجتهاد إن كانت تركته ؟

هذه أسئلة تحتاج للجواب . وسنحاول ذكر شىء عنها فيما يتبع .

أما بعد : فانه ليس بعزيز على مصر وهى مركز الاسلام فى العالم ، وفيها الأزهر الشريف منار الاسلام الذى يشع منه نور العلم والدين على العالم الاسلامى فيملؤه هدى وضياء — أقول : إنه ليس بعزيز على مصر وهى كما ذكرنا أن توجد المجتهد ، وتقوم بفرض الاجتهاد لتدفع إثم تركه عن المسلمين ؛ خصوصا فى هذا العصر الذى يجلس على عرشها فيه ذلك الملك الصالح أمير المؤمنين « فاروق الأول » أطال الله بقاءه وأدام ملكه ، وأيده بنصر من عنده ؛ وخصوصا فى هذا العهد الذى يتولى مشيخة الأزهر فيه ذلك الامام المصلح الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى طالما دعا الى الاجتهاد ، وحث عليه .

السيد عفيفى

من علماء الأزهر الشريف بالمحاكم الشرعية

ذم سوء الخلق

قال أبو هريرة رضى الله عنه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشؤم فقال : « الشؤم سوء الخلق » .

وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سوء الخلق زمام من عذاب الله فى يد شيطان يجره الى النار » .

وقال عمر رضى الله عنه : « إذا كان فى الانسان عشر خصال تسعة منها صالحة وواحدة هى سوء الخلق ، أفسدت هذه الخصلة تلك التسعة .

وقال شاعر :

وكم من فتى أزرى به سوء خلقه فأصبح مذموما قليل المحامد

على بن أبى طالب

بينما أنا أشرع فى تحرير تلك السيرة المقدسة لإمتاع القراء بنفحة من روضها الجنى وعرفها الذكى، جمحت اليراعة وجمدت القريحة، وخفق الجنان واضطربت البنان، فتراجعت بحسن الأدب بعد معرفة السبب: إذ وجدتنى لست أهلا لترجمة ذلكم الامام الذى امتدحه الله فى كتابه، واختطبه الى كريمة نبيه، فكان صهره وابن عمه، وأول خليفة من آل بيته، وكان معه فى شرف العنصر الكريم، ومعدن النسب الصميم. ثم بدا لى أن أقتبس من نور القرآن وأدب السنة فى البيان الى ماصح من أقوال السلف والخلف، فأمسكت برمق من الرجاء، وقلت: يتبع الثناء الثناء، كما يتبع الخادم المخدوم، وعلى ذلك فأقول:

نسبه وكنيته وصفته:

هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وهى أول هاشمية ولدت هاشميا، أسلمت وهاجرت الى المدينة، وماتت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكنيته أبو الحسن، كنى بأكبر السبطين، وكناه النبى صلى الله عليه وسلم بأبى تراب، حيث وجده نائما وقد غشيه التراب على أثر مكالمة كانت بينه وبين زوجه فاطمة، فلاطفه الرسول بقوله: «قم أبا تراب» فكانت أحب الكنى اليه بعد ذلك. وجاء فى صفته أنه كان: أصلع، بطينا، مخموش الساقين، وسيم الوجه، إذا ابتسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. وقد نعته ضرار الصدائى لمعاوية بن أبى سفيان بنعوت لا تكاد توجد إلا فى الأنبياء، فبكى معاوية عند ذلك وقال: «رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك!».

مولده ونشأته وإسلامه:

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة، ونشأ بها النشأة العالية، فى كفالة الرسول كأحد أولاده. ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان متزوجا خديجة، وكانت ذات مال كثير، وكان الرسول يتجر فيه، فحصل له ربح وفير، فلما أصيبت قريش بالقحط والمجاعة، قال الرسول لعمه العباس: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا فلنخفف من عياله: تأخذ أنت واحدا وأنا واحدا». وكان لأبى طالب من الذكران أربعة أولاد، كل واحد بينه وبين الذى يليه عشر سنين، وكان أسنهم طالبا، فعقيلا، فجعفراً، فعليا، فلما جاء الاسلام أسلم على فجعفر فعقيل، أما طالب فمات على الكفر كأبيه. وكان إسلام على وهو صغير فى السنة الثامنة أو العاشرة من عمره قبل أن يتدنس بشىء من رجس الجاهلية، ولذلك قيل فيه: «كرم الله وجهه» لأنه لم يسجد لصنم قط

ولما علم أبوه باسلامه وصلاته مع الرسول قال له : « أى بنى : أى شىء الذى أنت عليه » ؟ قال : « يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ما جاء به واتبعته » . فقال له : « أما إنه لم يدعك إلا الى الخير فالزمه » .

أقول : هذا اعتراف صريح بصدق الرسول . ومثله قوله :

ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه من خير أديان البرية دينا

ولكنه اعتراف غير مجد ، لأن شرط التصديق المنجى أن يصحبه إذعان وقبول لما جاء به الرسول ، وقد ثبت أن الرسول دعاه الى كلمة التوحيد وهو فى مرض موته فأجابه بقوله : « والله لولا أن تعيرنى قريش لأقررت بها عينك » . وكذلك كانت معرفة علماء أهل الكتاب بالرسول ، فانها لم تجدهم نفعا مع أن القرآن أخبر أنهم يعرفونه بنعوته فى التوراة كما يعرفون أبناءهم ، بل قال عبد الله بن سلام بعد أن أعزه الله بالاسلام : « أنا أعلم برسول الله منى بابنى » . فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : « لأنى لست أشك فى محمد أنه نبى ، أما ولدى فلعل والدته قد خانت » . ولله در الأستاذ البوصيرى حيث يقول :

بينته توراتهم والأناجيل وهم فى جحوده شركاء
عرفوه وأنكروه وظلما كتمته الشهادة الشهداء

شجاعته وفروسيته :

إن من المقرر فى علم النفس أن التفاوت بين أفراد النوع الانسانى لا يشبهه أى تفاوت آخر ، فان الرجل ليقدر بألف رجل أو بآلاف أو بأمة ؛ وإن من حق على كرم الله وجهه أن يقدر فى باب الشجاعة والفروسية بشعب كامل ، كما قدر الله تعالى ابراهيم الخليل فى باب النبوة بأمة كاملة . ومن أدلة ذلك موقفه الخطير أمام جيش معاوية بصفين ، فقد حمل عليهم حملة عنيفة صدعت مقدمتهم ، ونقضت صفوفهم ، حتى لم يبق لأهل الشام يومئذ صف إلا تقهقر الى الذى يليه ، وكاد معاوية أن ينهزم ويرجع بجيشه من حيث أتى ، لولا أن تداركه عمرو بن العاص بدهائه لا بساعده . وهذا مما يدلك على أن قوة الجيش بقائده لا بكثرة جنده ، ألا ترى الى جيش المسلمين بمؤتة مع الأمراء الثلاثة وبعدهم ، والى الفرق الشاسع بين كونه مغلوبا معهم وغالبا مع خالد ! وكم لعلى رضى الله عنه من موقف مشرف أعز الله به الاسلام وأعلى منار مجده ، فمن ذلك موقفه مع طلحة بن أبى طلحة الذى كان بيده لواء المشركين يوم أحد ، حيث خرج من مقدمة الصفوف وطلب البراز مرارا فلم يخرج اليه أحد ، فقال : « يا أصحاب محمد زعمتم أن الله يعجلنا بسيوفكم الى النار ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة ، كذبتم ! واللات والعزى

لو تعلمون ذلك حقا لخرج الىّ بعضكم ! » فخرج اليه على فقتله . ومن ذلك أيضا موقفه مع عمرو بن عبد ود فى غزوة الأحزاب ، فانه قد اقتحم الخندق يومئذ فى جماعة من فرسان قريش، ثم نادى: هل من مبارز ؟ فقام على ، فقال : أنا له يا رسول الله ! فقال له الرسول : اجلس فانه عمرو ، وكان عمرو من أشجع العرب وأعلم الناس بالحرب ، ثم نادى عمرو ثانيا ، وجعل يوبخ المسلمين ، فقام على فقال : أنا له يارسول الله ! فقال له الرسول : اجلس فانه عمرو ، فقال وإن كان عمرا ! فأذن له الرسول فى مبارزته ودعا له ، فلما التقيا دعاه الى كلمة التوحيد فلم يقبل ، فدعاه الى العود بقومه الى مكة فلم يقبل ، فدعاه الى المبارزة ، وكان بينهما صراع شديد ، فضربه على فقتله ، وكبر المسلمون ، وانهزم المشركون الى الجانب الآخر من الخندق ، ثم أقبل على الى الرسول ووجهه يتهلل ، فقال له الرسول : « حدثنى عن موقفك مع عمرو حين التقيت به » فقال : « وجدتنى لو كنت فى جانب وأهل المدينة فى جانب لقدرت عليهم » !

إمارته :

بينما الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر وقد أبطأ عليه الفتح ، جاءه المرسوم الالهى باسناد الامارة الى على كرم الله وجهه ، فقال : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لايولى الدبر ، يفتح الله عزوجل على يديه » . فبات المسلمون وكلهم يتمنى أن تكون الامارة له ، حتى قال عمر بن الخطاب : « ما أحببت الامارة إلا ذلك اليوم » . فلما كان الغد بعث الرسول الى على فجاء به سلمة بن الأكوع يقوده وقد عصب عينيه ، فتفل الرسول فى كفه الشريفة ومسح عليهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع ، ثم أعطاه الراية وألبسه درعه وقلده سيفه وقال له : « امض لما أمرك الله » ، فلما كان عند الحصن الذى هو أكبر معقل لليهود ، خرجوا إليه ، ودارت رحى القتال بينه وبينهم ، فنصره الله وهزمهم شر هزيمة ، وتم الفتح على يديه كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

أقول: إن الفضيلة والعزة والكرامة ، فيما ناله على فى تلك الامارة من وسام الشرف القدسى ، أما حصول الفتح على يديه فليس فيه غرابة ولا عجب ، لأنه كالشىء يقع موقعه ويصادف أهله ، ألا ترى اليه وهو يقدر نفسه فى مواجهة الرسول بشعب قوى حيث يقول: « لو كنت فى جانب وأهل المدينة فى جانب لقدرت عليهم » ؟ ولم يخف على الرسول صدقه فى ذلك التقدير من قبل ، فقد عهد إليه أن يبيت مكانه فى تلك الليلة الماكرة الباغية التى اتفقت فيها قبائل العرب على الفتك به صلى الله عليه وسلم ، ولو كان علىّ غير متين فى الحلم والدين لا فتخر بتلك الذكرى العالمية التى ملأت ما بين الخافقين ، ونالت إعجاب أهل المشرقين ، وكان من حقه أن يتمثل بقول سلفه فى البطولة والشجاعة :

إذا مارآنى الغرب ذل لهيبتى ولا زال باع الشرق عنى يقصر

مكانته عند الله والرسول :

إن فضائله التى أكسبته تلك المكانة السامية ليس فى إمكان مثلى أن يحيط بها ، ولكن فى الامكان أن أقتطف منها نبذة على سبيل التبريك بها والتيمن بذكراها ، فمن ذلك ثناء الله جل ذكره عليه فى القرآن الكريم كقوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت ويطهركم تطهيرا » : نزلت فى على وفاطمة والحسنين ، فقد جللهم الرسول كساءه ، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى » . ومن ذلك حديث المؤاخاة بينه وبين الرسول ، فقدكان موضع الغبطة والاعجاب عند جميع الأصحاب ، أخرج الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه فجاء على رضى الله عنه يبكى ويقول : يارسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى و بين أحد ، فقال له الرسول : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » ! ومن ذلك أيضا حديث خطبة أبى بكر وعمر فاطمة الزهراء بنت الرسول من أبيها ، وأن الرسول سكت ولم يرجع إليهما شيئا ، وأنهما انطلقا الى على فطلبا اليه أن يخطبها لنفسه ، وأنه لما سأل الرسول فى ذلك أجابه بقوله : « لقد أمرنى ربى أن أزوجها منك » . ولله در على حيث يقول :

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يضحى ويمسى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... مشوب لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ابناى منها ... فمن منكم له سهم كسهمى
سبقتكمو الى الاسلام طرا ... غلاما ما بلغت أوان حلمى

عبقريته فى العلم والذكاء :

لقد جاء فى القرآن المجيد أن الله تعالى يمد بالعلم من لدنه أهل التقوى ، كما قال جل ذكره : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، وهؤلاء هم العلماء الربانيون الذين تولى الله تعليمهم فى سرائرهم ، وأطلق بالحكمة ألسنتهم ، ومن أجل ذلك كان علماء الصحابة على جانب كبير من الثقافة العلمية ، لأنهم كانوا على جانب كبير من التقوى ، وكان أوفرهم نصيبا وأكرمهم مددا من الرسول : على بن أبى طالب ، ولهذا كانت اليه الفتوى فى حياة الرسول وبعده ، حتى ضرب به المثل بعد وفاة الرسول فقيل : « قضية ولا أبا حسن لها » . قال عبد الله بن عباس : « قسم علم الناس على خمسة أجزاء ، فكان لعلى منها أربعة ولسائر الناس جزء شاركهم فيه فكان أعلمهم به » . وقال عبد الله ابن مسعود : « كان على رضى الله عنه أفرض أهل المدينة وأقضاهم » . يريد أعلمهم بعلم الميراث والفصل فى القضايا بين الناس . ومن دلائل عبقريته المدهشة أنه كان يسأل عن الأمور المشكلة فيجيب فيها على البديهة كما يجيب أحدنا إذا سئل عن نصف الاثنين ، ألا ترى الى جوابه

وهو على المنبر فى الفريضة المنبرية المشهورة وقوله على الفور : « صار ثمنها تسعا » فان أكثر العلماء لا يصل الى تلك النتيجة إلا بواسطة عمل الفكر والقلم معا . ومن ذلك جوابه للمرأة التى جاءت تشتكى وتقول : « مات أخى ولم آخذ من تركته إلا درهما واحدا ، وقد خلف ستمائة درهم » فأجابها على البديهة بقوله « لعل أخاك قد ترك سواك زوجة وأما وابنتين واثنى عشر أخا » ، فقالت : نعم ، فقال « ذاك حقك » .

وأغرب من ذلك كله وأعجب قوله رضى الله عنه : « لو أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضع على الفاتحة وقر سبعين بعيرا لفعلت » .

أقول : إن هذه الثقافة العالية الخارقة للعادة ليست من ثمرة العلم الكسبى ، وإنما هى من ثمرات التعليم الالهى ، ولذلك قال بعض الأصوليين : « لو لم يكن شاهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أصحابه لكفوا فى إثبات نبوته » . وقال أبو يزيد البسطامى لمن أنكر عليه علمه فى مثل هذا : « أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت » .

خلافته :

هو أول خليفة من بنى هاشم ، وأول من لقب بأمير المؤمنين من آل بيت الرسول . بويع له بالخلافة بعد عثمان بن عفان على كره منه . وسبب الخلاف بينه وبين معاوية أن قتلة عثمان كانوا يوم بويع له مجتمعين ولم تغمد سيوفهم ، فرأى رضى الله عنه أن من الحكمة تركهم حتى تخمد نارالفتنة وتتم البيعة ، ورأى معاوية أنه يجب الأخذ بدم عثمان قبل الشروع فى البيعة ، وانضم إليه فى هذا أهل الشام وطائفة من أهل مصر والعراق . على أن تخلف معاوية وأمثاله من الصحابة لا يقدح فى بيعة على ، لأن الصحابة على بكرة أبيهم قد أجمعوا فى زمن الشورى على أنها لعلى أولعثمان ، وقد بقى ذلك الاجماع على ماكان عليه قبلا ، قال العلامة الحافظ ابن حجر: « إن بيعة على كرم الله وجهه قد ثبتت بالاجماع السابق ، وإنه لا اعتداد بالخلاف الطارئ » .

وإنى أشفق على القارئ الكريم أن ينتقد شيئا من أعمال الصحابة رضى الله عنهم ، لأنها مبنية على الاجتهاد وطلب الوصول الى الحق . وقد أسلفت لك أن عليا كاد فى النهاية أن يتغلب على معاوية وجيشه لولا خدعة عمرو بن العاص ودعوته الى التحكيم الذى لم يقبله على ، ولم يرض بمن أنابوه عنه ، ولكنه رأى جيشه قد انقسم عليه فتنازل بالقبول حسما للنزاع ، وكأنى به وقد غلب على أمره وهو يقول :

لقد بان وجه الرأى لى غير أننى غلبت على الأمر الذى كان أحزما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

مقتله :

كان من عادة على كرم الله وجهه أن يمشى بغير حرس فخرج يوما لصلاة الفجر كعادته وهو يقول : « أيها الناس : الصلاة الصلاة » ، فضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادى على قرنه ، فأدركه الناس وقبضوا عليه حتى قتله الحسن بعد موت أبيه ودفنه . ومدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر . وعمره ثلاث وستون عاما . وقد ذكر له العلامة ابن خلكان كرامة بعد موته حيث قال : خرج هارون الرشيد مرة الى الصيد كعادته ، فانتهى به الطرد الى موضع قبر علىّ الآن ، فوقفت الفهود دون القبر ولم تتقدم نحو الصيد ، فتعجب الرشيد من ذلك ، فجاءه رجل من أهل الخبرة وقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن دللتك على قبر ابن عمك على بن أبى طالب مالى عندك؟ قال : « لك أتم مكرمة » ، قال : هذا قبره ، فقال له الرشيد : « من أين علمت ذلك » ؟ قال كنت أجيء مع أبى فيزور قبره ، وأخبرنى أنه كان يجيء مع جعفر الصادق فيزوره ، وأن جعفرا كان يجيء مع أبيه محمد الباقر فيزوره ، وأن محمدا كان يجيء مع أبيه على زين العابدين فيزوره ، وأن عليا كان يجيء مع أبيه الحسين فيزوره ، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر . فأمر الرشيد أن يحجر الموضع . ثم تزايدت الأبنية فيه بعد ذلك ، والله أعلم ؟

سيد احمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر برشيد

أحسن ما قيل فى المروءة

قال الحكماء : « المروءة جامعة لأشتات المبرات ، جالبة لأسباب المسرات ، دالة على كرم الأعراق ، باعثة على مكارم الأخلاق ، ناظمة لقلائد الفوائد ، عاقلة لشوارد المحامد . وقد جمع الله تعالى متفرقاتها فى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . وجمعها النبى صلى الله عليه وسلم على نوع آخر فقال : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته » .

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ٥ —

برامج الدراسة — دعائم الاصلاح

لم أكن أتوقع عند ما بدأت أعالج موضوع إنهاض اللغة العربية فى برامج الدراسة : ان تسرع الأيام مساعفة بالعناية الجدية التى تجلت مظاهرها من مختلف الجهات أفرادا وجماعات ، وفى الطليعة وزارة المعارف صاحبة الشأن الأول فيما يختص بثقافة الجيل الجديد من شباب الأمة الذين سلكت بهم الحياة طريق التعليم المدنى فى مدارس الحكومة ، فكان من المصادفات الموفقة ظهور هذه الحركة المباركة من جانب رجال الثقافة ، وفى مقدمتهم الوزير الأديب صاحب المعالى « حسين هيكل باشا » ، فقد أظهر معاليه من الاهتمام بامر اللغة وإنهاضها من كبوتها ، واستصلاح الملكات والألسنة والأقلام : أن تتنادى فى شئونها العلمية والأدبية بالفصحى — ما حقق أمنية الأدباء فى وزير الأدب والثقافة ، ولشد ما كانت غبطتهم حينما رأوا مظاهر العمل الجدى تأخذ مكانها من برنامج الاصلاح ، وتنال منه اللغة أوفر نصيب .

فقد أمر معاليه بتأليف لجنة للنظر فى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ووضعت هذه اللجنة تقريرها ورفعته الى معالى الوزير ، وهذا فى ذاته عمل مشكور سيحفظه تاريخ النهضة فى عداد محامد عهد الوزير الأديب .

أما تقرير اللجنة من الوجهة العلمية فلسنا الآن بصدد التعرض له ، لأننا نحب أن نتريث فى درسه وبحثه ، ولكننا نأخذ على أولى الشأن طريقة تأليف تلك اللجنة وتخصيصها بطائفة معينة من رجال الثقافة والتعليم ، وإهمال أعظم معهد إسلامى قام منذ ألف سنة على حراسة الفصحى ودراسة فنونها دراسة بوأت مصر مكان الزعامة الأدبية فى الشرق العربى .

إن الاصلاح الثقافى إذا لم يقم على أساس توحيد الوجهات الدراسية فى المواد العلمية العامة فى جميع معاهد العلم ، لا يمكن أن يؤدى الى نتائجه المرموقة ، ولايتأتى توحيد الوجهات الدراسية إلا إذا اعتمد على التفاهم بين أبناء المعاهد كلها ليتم التعاون الاجماعى على الاصلاح ، فكيف ساغ لدعاة الاصلاح إهمال الأزهر الشريف وهو ملء سمع الدنيا وبصرها ؟ !

إن فى الأزهر — فوق قسميه الابتدائى والثانوى فى معاهده — كلية للغة العربية ، تدرس اللغة العربية وفنونها على أحدث الأنظمة وأوفاها بالأغراض الإصلاحية ، وتستطيع بأساتذتها وطلابها مفاخرة بهم أن تقف من المعاهد العلمية الدارسة للغة العربية والأدب العربى موقف الصدارة ، أفما كان من البر بأكبر جامعة إسلامية ، وأعظم معهد عربى ، وفيه هذه

الكلية العظيمة لدراسة اللغة وفنونها أن تستشار — على الأقل — فى منهج الإصلاح اللغوى حتى يعرف رأيها ومذهبها فيه ؟ وليس هذا الاصلاح مما يخص وزارة المعارف ومدارسها حتى يختص بدراسته رجالها ، ولكنه أمر يتعلق بلسان الأمة العربية كلها فى جميع بلدان الشرق ، ويتعلق بلغة القرآن الكريم ، وعلى قواعدها يتوقف فهمه الآن ، والأزهر هو الذى يستطيع أن يمثل أقطار الشرق العربى من الوجهة العلمية ، وهو الذى يستطيع أن يصور صلة الاصلاح اللغوى بأسلوب القرآن الحكيم .

إننا نعتقد أن الفرصة لا تزال سانحة للتعاون ، فعسى أن يتدارك الناهضون بالاصلاح الأمر قبل فواته ، فالأزهر الآن يجب أن ينظر إليه فى الحياة العلمية الاسلامية ودراسة العلوم العربية ، نظرة تقدير تتلاءم مع جلاله التاريخى ، وتتفق مع حاضره الناهض فى عهده المبارك ، وهو لن يرضى الدنية فيما يتصل بكيانه ورسالته فى الحياة .

هذه ملاحظة طائرة تتصل بموضوع اللغة العربية ، ولا يمنعنا إبداؤها من أن نغتبط بهذه النهضة الاصلاحية على يدى معالى الوزير الأديب ، وأن نسجل سعيه الحميد فى استعمال اللغة الفصحى فى دراسة جميع المواد أدبية وعلمية ، وهذه إحدى دعائم الاصلاح الخمس التى أقمنا عليها بحثنا ، وقد أصدر معالى الوزير قرارا يعزز به سعيه الحميد جاء فيه : « بعد الاطلاع على ما تقدمت به الهيئات المختصة من حيث ضعف مستوى تلاميذ المدارس الثانوية فى اللغة العربية ، وبناء على ما تجمع لدينا من الأدلة على ضرورة النظر فى هذا الأمر ، تقرر تشكيل لجنة تكون مهمتها وضع المبادئ التى تتخذ أساسا لإنهاض التلاميذ فى اللغة العربية وصلتهم بحركة التجديد والثقافة العربية الحديثة ، وما يتطلبه ذلك من فحص المناهج ، واقتراح مايدرس للتلاميذ من الكتب فى الأدب والقراءة الخاصة ، وغير ذلك » .

ومع أن هذا القرار شكل هذه اللجنة أيضا من طائفة معينة من رجال التربية والتعليم فإننا نحمد لمعالى الوزير جهوده ، ولا يقوى اعتراضنا هنا قوة اعتراضنا هناك ، لأن هذا إصلاح محلى جزئى وذاك إصلاح عام كلى ، والتعاون بين جميع المعاهد فى كل شأن من شئون الإصلاح العلمى خير ما يعتمد عليه الإصلاح . ولنعد الى بحثنا واصلين حلقاته بما قدمنا :

أوضحنا فى المقال السابق أن برامج الدراسة فى الأزهر والمعاهد الدينية كانت متفقة تمام الاتفاق مع برنامج مدرسة دار العلوم فى منهاج فنون اللغة العربية وكتبها التى تدرس فيها ، وأن دار العلوم كانت تعتبر فى نظر الأزهر ومعاهده شعبة تخصص فى فنون اللغة وطرائق دراستها ، فهى وإن كانت تدرس كتب الأزهر كالألفية وشراحها وحواشيها فى النحو والصرف ، وكالتلخيص وشرحه للعلامة سعد الدين التفتازانى فى البلاغة ، لكنها فى الحق تختلف كثيرا فى طرائق دراسة تلك الكتب عن الأزهر ومعاهده ، فالنظام الذى كان يجعل

لدار العلوم الحق فى أن تفتح أبوابها للنابهين من طلبة الأزهر والمعاهد الدينية بعد انتهائهم من المرحلة الثانية من المراحل التعليمية فى الأزهر ، كان كفيلا بأن يضم جوانح دار العلوم على نخبة من الطلبة قد درسوا تلك الكتب التى سيدرسونها فى معهدهم الجديد ، غير أن الدراسة الأولى كانت دراسة بحث ممعن فى الألفاظ والعبارات ، تربى فى الطالب ملكة الدقة والعمق فى الفهم ، وتنشئه على النقد ومجافاة التقليد والتأمين على ما يقال كيفما يقال ، والدراسة الثانية دراسة تطبيقية تعنى أشد العناية بعرض الشواهد والأمثلة وفهمها فهما منطبقا على قوانين تلك القواعد التى أفرغ الأزهر لبحثها جهده وعنايته ، وكان من نتائج تلك الدراسة أن ظل الأزهر دهرا دهيرا يخرج علماء باحثين ، يدورون حول عبارات المؤلفين أخذا وردا وتوليدا وتحقيقا ، ولم يستطع إذ ذاك أن يمد الأمة بحاجاتها الثقافية فى نهضتها الأدبية والعلمية ، لأنها كانت فى حاجة شديدة الى تبسيط الأساليب الدينية واللغوية ، وفى حاجة الى أدب إنشائى يلائم طبيعة الحياة الجديدة التى امتزج فيها الغرب بالشرق ، واختلطت فيها الثقافات المختلفة ، وضربت فيها كل أمة بسهم على قدر حظها من النهوض العلمى والرقى الثقافى ، وظل الأزهر بعيدا عن أداء رسالته بطريق التبليغ والاذاعة ، وإن كان قد وفّى بحق الدراسة والتحقيق ، والناظر فى تاريخ التعليم فى تلك الحقبة يرى أثر ذلك واضحا فى سجل العلماء المحققين ، فهم كانوا فى الأزهر كثرة لا تحصى ، ولكنه لا يجد منهم إلا عددا قليلا جدا برز بأسلوبه وأبحاثه الى ساحة النهضة ، وشارك فيها مشاركة فعالة ، وهذا القليل من رجالات الأزهر استطاع أن يوجه النهضة ويقتعد منها مكان الزعامة الفكرية ، لأن الدراسة الأزهرية مكنت فيهم روح الاستقلال وحرية الرأى وحب البحث ، وكانت لهم الى جانب ذلك أذهان نيرة وقرائح صافية ، فلما خرجوا الى الحياة ورأوا ألوانا جديدة من التفكير تقدموا اليها بمعارفهم وملكاتهم الأزهرية ، فهضموا منها فى أوجز زمن مالم يستطع غيرهم هضم مثله فى أضعاف زمنهم . ولا حاجة بنا أن نضرب الأمثال بالاستاذ الامام وتلاميذه وأقرانه ممن كانوا قلادة جيد التاريخ ؛ لأن شأنهم فى النهضة مشهور معروف .

ومن الحق أن نعترف أن الأزهر فى جمهرته لم يكن ليرضى عن مذاهب تلك القلة فى التفكير ، وهذا سر مجافاته للاصلاح فى ذلك الحين ، مما باعد بينه وبين مرافق الثقافة المدنية فى مدارس الحكومة ومعاهدها ، بل باعد بينه وبين مجامع الأدب وأندية العلوم والمعارف ، ومحافل الثقافة العامة ، فلم يسطع فى أفقه نجم شاعر يتغنى بآمال الأمة ويردد آلامها ، ولم تشرق من سمائه شمس كاتب بارع يجدد للفصحى ديباجتها ويعيد لها مجدها ، ولكن نتائج الدراسة التطبيقية فى مدرسة دار العلوم كان لها أثر عملى هو الذى حفز الأزهر على طلب الاصلاح ، مما سنتحدث عنه ، إن شاء الله بعد .

صادق ابراهيم عرجون

التفسير

سورة والعصر

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا أن نفسر هذه السورة الكريمة لما فيها من عظيم الفوائد وجليل العوائد على إيجازها واختصارها ، حتى قال الشافعي رضي الله عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم . كيف لا وقد أرشدتهم الى أن سبيل السعادة إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذى يعود عليك وعلى بنى نوعك ، وليس يكفيك أن تعمل ذلك فى خاصة نفسك ، بل عليك أن توصى أخاك بانتهاج الحق والتزام الصبر على ماعسى أن يتلقاه فى هذه السبيل ، مع بيان أنك إذا لم تفعل ذلك أحاط بك الخسر من كل جانب ، كما تدل عليه كلمة « فى » المفيدة للظرفية المحيطة ، مع الإقسام على ذلك ، الى آخر ما سيتضح لك فى تفسير السورة . ولهذا كله روى الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب : أن الرجلين من أصحاب رسول الله كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر الى آخرها ، ثم يتفارقان . وكأنهما يقصدان بذلك القيام بالتواصى بالحق والصبر عند الفراق ، وكأنها وضعت بجانب سورة التكاثر للإشارة الى أن مَن ألهاهم التكاثر فى خسر ، وأن من لم يلههم التكاثر هم الرابحون الفائزون ، وليسوا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وبالجملة : ففى السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، ما لا يخفى .

البيان التفصيلى :

المراد بالعصر : الدهر ، وقد قرأ علىّ فيما يروى عنه : والعصر ونوائب الدهر . وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنا ، فهو نظير « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » « وهى صلاة العصر » .

لورود هذه المقالة بعد الشروع فى الطبع لم نستطع أن نضعها فى المحل الجدير بها .

وقد أقسم به تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة الله تعالى وسعة تصرفه، وعظيم سلطانه، الذى يصرفك كما يشاء، فينقلك من صحة لمرض، ومن فقر لغنى، ومن ذل لعز، ومن حياة لموت، الى آخره.

ومن لطيف ما قيل: إن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلوضيعت مائة سنة ثم تبت فى اللمحة الأخيرة من العمر، بقيت فى الجنة أبد الآباد، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك فى تلك اللمحة التى تبت فيها، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك. فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يجب أن لا تضيعها أو تفرط فى شىء منها: «وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا». فياخسارة من ضيع عمره الذى يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم الذى لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها — وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف: تعلمت معنى السورة من بائع الثلج: كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن، ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن. فقلت: هذا معنى إن الانسان لفى خسر: يمر به الزمن فيمضى عمره ولا يكتسب فيه شيئاً.

ويصح أن يراد بالعصر: أحد طرفى النهار، وهو الوقت المعروف، فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى والفجر، الى آخره، لما فى ذلك من دلائل القدرة، وكأنه إشارة الى أنه ينبغى لك أن تتذكر بمضى النهار ومجىء العصر خراب الدنيا ومضى الأجل، وأن الانسان الذى يغفل عن ذلك فى خسر. ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه، لأن الصلاة فيه هى الصلاة الوسطى على ما هو المشهور، وقد ورد تعظيمه فى السنة من وجوه كثيرة، والقرآن يقول: «واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا». وفى الحديث «من فاته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله». وإن شئت فاقتصر على أن المراد الدهر، فهو أقرب وأظهر.

أما قوله: «إن الانسان لفى خسر»: فأل فيه للاستغراق بدليل الاستثناء. والمراد بالخسر: النقصان. وإن شئت قلت: الهلاك وذهاب العمر فى غير فائدة. وإن شئت قلت: إنه فى ضلال مبين وجهالة عمياء. وأى خسر أعظم من ضياع السعادة الأبدية بحقير لا يبقى فى يدك منه شىء ألبتة! «أفرأيت إن متّعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعَدون، ما أغنى عنه ما كانوا يُمتّعون». خسر يجعل الكافر يقول: «ياليتنى كنت ترابا»: وليته مع ذلك يبلغ فى حياته الدنيا ما يؤمل، أو يصل الى مايقصد، هيهات هيهات! وإنما هى أوهام خادعة وأمانى باطلة، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

ألم تر أن المرء طول حياته يحاول أمرا لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

والخلاصة : أن الناس — إلا من استثنى الله — فى خسران : فى متاجرهم ، ومساعيهم ، وصرف أعمارهم فى مباغيهم الدنيوية وشهواتهم البشرية . ولك أن تقرر خسر الانسان بأن روحه علوية ربانية هبطت إليك كما قال ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

الى أن قال فى بيان قصر هذه الحياة وسرعة انقضائها :

فكأنه برق تألق بالحمى ثم انطفى فكأنه لم يلمع

وقد كنت واصلا من الشرف والرفعة الى أن الله جعلك خليفة فى الأرض ، وأسجد لك ملائكته . وقد كان يمكنك بهذا الاستعداد الذى أودعه الله فيك ، وذلك السر الذى أشير اليه بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته » أن جعله قادرا مريدا ، عالما سميعا بصيرا ، الى غير ذلك من النعوت الجليلة والصفات الجميلة . ويقول الله لأبليس : ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدىّ . فانظر الى ذلك التشريف الذى يسير الى غاية العناية بالانسان ، حيث خلق باليدين جميعا ، بخلاف غيره من المخلوقات . ثم انظر كيف نزل من أوج ذلك العز الشامخ الذى كان به فى أعلى عليين مع الأنبياء والمرسلين ، الى حضيض الحيوانات ، يرتع فى الظلمات ، ويتقلب فى صنوف الآفات ، لمقتضى شهواته البهيمية ، وانهماكه فى مطالبه البدنية . ولله در أحد أئمة الشافعية حيث يقول :

الى كم تمادى فى غرور وغفلة وكم هكذا نوم الى غير يقظة
أترضى من العيش اللذيذ تعيشه مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى بملء السما والأرض أية ضيعة
فيادرة بين المزابل أرميت وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه فانك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فياعاملا للنار جسمك لين فجربه مرات بحر الظهيرة
وجربه فى لسع الزنابير تجترى على لسع حيات هناك عظيمة

الى آخر ما قال .

وبالجملة : فما أشد خسر الانسان ، وما أعظم الفرق بين حاله إذا نظر الى حياته العنصرية وطاعته لسلطان الهوى والشهوة ، وانقياده لنفسه الأمارة بالسوء ، والى ما كان عليه حال حياته

الروحية قبل تعلق الروح بالبدن عند ما كانت تسرح بين أفراد الملأ الأعلى ، وتسبح فى ذلك العالم الذى يبعد كل البعد عن ملابسة الأدناس والألواث . وعلى كل حال فليس الشأن أن تكون إنسانا حيوانيا ، بل الشأن أن تكون إنسانا روحانيا ، ولا تكون كذلك إلا إذا سافرت من ظاهرك الى باطنك ، وهناك تعرف ما حجب عنك من شرفك وعلو قدرك الذى جعل الملائكة تسجد لك قبل أن تنزل الى حضيض حيوانيتك كما قلنا ، فكن ممن عرف نفسه فعرف ربه ، ولا تكن ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم . ومن الغريب أن الانسان هو الحيوان الناطق ، وأن روح الانسانية هو ذلك النطق المراد به الادراك والتفكير ، فانه المعنى الخاص بالانسان ، وأما الحيوانية فأمر مشترك بينه وبين الحشرات وجميع الحيوانات ، ومع ذلك لانجد من أكثر أفراد هذا النوع إلا الحيوانية المشتركة ، لا النطق والتفكير الذى هو ميزتك وروح إنسانيتك .

واختصار الموضوع : أن خسر الانسان إنما نشأ من ظنه أنه إنسان بجسمه ، غافلا عما أودع فيه من الأسرار التى تجعله « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ولتعلم أن رأس مال العبد قلبه ، وبضاعته عمره ، فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله فهو مغبون ، فاجتهد فيما ينفعك قدر الاستطاعة ، واستغفر من ذنبك وتقصيرك ، وأيقن أن كل لحظة يحضر فيها قلبك أو يذكر فيها لسانك أو يتعظ فيها عقلك ، فهى كنز ثمين ، فاستكثر من الخيرات بقدر ما يمكنك ، وتباعد عن الغفلات بقدر ما تستطيع ، وسل الله التأييد والتسديد ، ولا تكن ممن قيده عالم الشهادة عن عالم الغيب . واعلم أن من غفل عن الله ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك قال تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّضْ له شيطانا فهو له قرين » .

ولا يفوتك أن سلاح الشيطان إنما هو الشهوات ، فاذا أغلقت بابها لم يجد الشيطان مدخلا الى قلبك ، وإذا تأملت علمت . فإذن أعدى عدوك نفسك التى هى مركز شهواتك التى يوقد الشيطان بها ناره فى قلبك ، وقد قالوا : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره . فان كنت تحبها فأحسن اليها بمخالفتها وسياستها ، واشغلها بمراضى الله ، فانك إن لم تشغلها شغلتك : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

ومما يحسن أن نلفت نظرك اليه : أنه أتى سبحانه وتعالى بمؤكدات كثيرة : فأقسم بالعصر ، وأتى بإنّ واللام ، واسمية الجملة ، ثم ذكر « فى» التى للظرفية ، التى تفيد أن الخسر محيط بالانسان من كل جهاته . وسر الإتيان بتلك المؤكدات أن الانسان يجهل خسرانه وينكره ولا يكاد يدركه ما دام لا يشعر بحقيقته العلوية وروحه السماوية . ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبل بشهواته ، مسجون فى سجن طبيعته ؟

وإجمال القول : أن الآية تشير الى أن الانسان فى غاية الخسران ، كما يرشد اليه تنوين

التعظيم ، مع أنه لا يشعر بشيء من ذلك الخسران ، بما زين له من سوء عمله وتحكم شهواته : «أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسنا » ،ويقول تعالى فى الآية الأخرى : « وكذلك زينا لكل أمة عملهم » « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

ولنختم كلمتنا اليوم بما ينسب للامام على كرم الله وجهه ، قال :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أسأل الله أن يعرفنا أسرار إنسانيتنا ، ولا يحرمنا من أنوار روحانيتنا ، وأن يخلصنا من نفوسنا الأمارة ؛ حتى نلقاه آمنين مطمئنين ، راضين مرضيين ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الحياء رأس مكارم الاخلاق

أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مكارم الأخلاق عشرة ، تكون فى الرجل ولاتكون فى ابنه ، وتكون فى الابن ولاتكون فى أبيه ، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله لمن شاء من عباده : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان ، وإعطاء السائل ، والمواساة بالنائل ، والمكافاة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذمم للجار ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء خلقا وخلق هذا الدين الحياء » .

نقول : ليس المراد من الحياء ماهو معروف من الانزواء وتهيب الكلام بين الرجال فى المناسبات ، ولكن المراد منه أن يتهيب الانسان إتيان كل عمل لايصح صدوره من رجل يعرف قدر نفسه . ولذلك قال يزيد بن على : « إنى لاستحيي من الله تعالى أن أفضى اليه بشيء أخفيه من غيره » ، وعقب عليه شارحه بقوله : «الحياء من الناس يكون بكف الأذى ، وترك المجاهرة بالقبيح » .

وقال الشاعر :

ورب قبيحة ماحال بينى وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

معرض الآراء العالمية

الجامعة الأزهرية هيكل الفكر الاسلامى

جاء فى جريدة (**لا تريبون دوجنيف**) الصادرة بتاريخ ٤ يوليو سنة ١٩٣٨ ما ترجمته :

«ليست الجامعة الأزهرية بالقاهرة أكبر جامعة اسلامية فحسب ، ولكنها أقدم جامعة علمية فى العالم أجمع . ففى اليوم التاسع من رمضان سنة (٣٦١) للهجرة الموافقة لسنة (٩٨٣) من تاريخنا أقيمت أول صلاة فى الجامع الأزهر ، وبعد سنين قليلة أضاف إليها الخليفة الأزهر (كذا) جامعة علمية . وقد بلغ عدد طلابها الآن نحو عشرة آلاف مستمع جاءوا إليها من جميع الأقطار التى دخل إليها الاسلام . ففيها مصريون وهم سواد الطلبة الأعظم ، ولكنك ترى بجانبهم عربا من جميع نواحى بلاد العرب ، وهنودا وصينيين وأندلسيين ويابانيين وأفغانيين وفرس وصوماليين ومراكشيين وجزائريين وتونسيين وطرابلسيين . فقد اجتمعت فيها جميع الألوان الجلدية من الأبيض الناصع الى الاسود الفاحم . وهؤلاء الطلبة يمتازون عن الدهماء بعمامة بيضاء . وهم عادة جيدو اللباس ، وفى أرجلهم أحذية ، وعليهم جبة من طراز الحرامل ذات لون قاتم . ويكادون يكونون جميعا يتقاضون مرتبات مالية من الجامعة ويتعلمون بالمجان ، وهم يعيشون بفضل هبات وقفت عليهم يحصلون منها لا على الغذاء والغطاء فحسب ، ولكن على شىء من الدراهم لحاجاتهم الصغيرة . وهم يقيمون معا فى مبان فسيحة ، كل قبيل مع أبناء جنسه وبلده ، وتسمى هذه المبانى بالأروقة (كذا) . فيوجد هنالك رواق السودانيين ورواق الهنود الخ ، وعدد هذه الأروقة ثلاثون . وحفظ هذه الجامعة يكلف الحكومة ملايين كثيرة كل عام (كذا) .

« هذه الجامعة تستعمل مبانى أخرى غير المسجد . فالمسجد ممتاز بتعليم التوحيد والفقه ، ولكن هنالك بالجزيرة (كذا) دور أخرى لتلقين جميع الفروع العلمية . فلتعليم اللغة العربية والتعمق فيها دار منها . وقد بقى المسجد المركزَ الجامع لكل هذه الفروع ، ومستقر القيادة لها . وهو الذى يحفظ على هذه الجامعة صبغتها الدينية الأصلية . وهنالك يقيم الأستاذ الأكبر للجامعة ، شيخ الأزهر ، والمتربع فى دست هذا المنصب اليوم يسمى محمد مصطفى المراغى وهو رجل ذو جاه عظيم .

« الدروس فى هذه الجامعة مطولة جدا ، وهى موزعة على سبع عشرة سنة فى نهايتها يختبر الطلاب للحصول على لقب دكتور من الأزهر . هذا اللقب يعطى صاحبه حق التدريس فى أية

مدرسة من العالم الاسلامى ، وترشح لمناصب القضاء الاسلامى ، ولشغل أى منصب فى المملكة حتى أرقاها درجة ، وتعد حاملها للوعظ فى المساجد .

«فى نهاية السنة الحادية عشرة الدراسية تعمل امتحانات تعطى للناجحين الحق فى أخذ شهادة تدعى بالأهلية التى تمكنهم من الحصول على وظائف التعليم الأولى ، وعلى تأدية بعض المهام فى المساجد .

« إن الطابع الدينى لهذا التعليم يقتضى أن يؤدى الطلبة جميع واجباتهم الدينية فى المسجد . وفى ساعات التدريس أو فى أثناء تأدية الصلوات يحظر دخول الناس الى الأزهر لغير الطلبة والمدرسين حظرا دقيقا . والدروس تعطى بالمسجد نفسه ، فيجلس الشيخ المدرس على الأرض فى وسط حلقة من الطلبة » .

هذا ما قالته الجريدة التى نقلنا عنها ، وكثير مما قالته يحتاج لتقويم .

يقظة العالم العربى :

الجامعة الاسلامية :

جاء فى العدد الصادر من جريدة (البوبولير) الفرنسية فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٨ تحت هذا العنوان ما يأتى من مقال بامضاء (جورج وجنير) :

« مهما يكن من أمر فان فكرة الجامعة الاسلامية تتقدم تقدما عظيما . فان كل مسلم كما هو معلوم يجب عليه كما أمره النبى أن يحج الى مكة فى حياته ولو مرة واحدة . وهذا يحقق له السعادة المستقبلة ويكسبه نوعا من ألقاب الشرف وهو لقب (الحاج) ما دام حيا . وفى العهد الذى كانت فيه البلاد المقدسة تحت سيطرة الباب العالى الضعيف المتداعى ، لم يكن للحج أى صبغة سياسية . فقد كانوا يستغلون الحجاج استغلالا ماليا ، ولكنهم ما كانوا يثيرون روح العصبية فيهم . أما اليوم فان ملك الحجاز وهو يعتبر الوارث لملك محمد يرمى لمصلحته الى تأسيس الوحدة الدينية للخمسمائة مليون من المسلمين المنتشرين فى قارتى آسيا وأفريقيا .

« لذلك ترى الحجاج الذين يعودون الى أوطانهم من مكة مصابين بضرب من الجنون المقدس ، وبنوبة من العقيدة الوجدانية بوشك عود الدين الحق المنزه عن البدع . وقد لاحت لى فرصة للتحدث طويلا فى هذه الأيام الأخيرة مع شاب عربى أخذ بعضا من ثقافته من مدارسنا وهو يفيض حماسة وطنية . فأكد لى أن الاسلام على وشك أن يخرج من كسف الظلمات التى غمره فيها جبن رؤسائه ووساوس الدهماء قرونا طويلة . فالاسلام عنده هو القرآن ، القرآن هو كل شىء ، ولا شىء غير القرآن . وقد جره هذا الايمان الى مدى بعيد . وعلى هذا الضرب من

التحمس كان يخبرني باعجاب عن حالة الأمن بالحجاز ، وما يلاقيه السارق هناك من المحاكمة على أسلوب القرآن والحكم عليه بقطع يده ، لأن هذا هو الذى قرره نبى الاسلام .

« كنت استمع اليه وأفكر فيما يكون عليه من الغرابة الوطنى الفرنسى ، وقد يصل الى درجة النيابة عن الأمة ، وما كان يأتيه من الأعمال إذا كان كتب النجاح لمشروع بلوم فيوليت ونال أمثال محدثى هذا الحقوق السياسية كاملة (١) .

« ليس الحجاج وحدهم ينفردون بنشر هذا المذهب الرمزى ، ولكن يشاركهم فى إذاعته كبار أهل الاطلاع والعلماء والأدباء المتخرجون فى جامعات دمشق والقاهرة ، المتضلعون فى القرآن ، فانهم يبثون فى المساجد والزوايا أو الرباطات التقاليد القديمة والمذاهب والعبادات والأعمال التى تتفاوت فى درجات غلوائها ، ويأخذ بها المسلمون الحاليون . فهؤلاء المتعلمون الذين يدعونهم بالعلماء هم الذين يوقدون على الدول الحامية وعلى من يمالئها من الرؤساء السياسيين والدينيين حربا عوانا ، وقد أصبحت نتائجها محسوسة للدرجة القصوى .

«هؤلاء العلماء يعلنون خيانة المرابطين للدين . فانه فى سنة ١٨٣٠ كان يوجد بالبلاد المغربية رجال محترمون يقال لهم المرابطون . وكان مصدر سلطانهم على الناس أنهم من ذرية محمد ، وكانوا يعيشون مما يردهم من هدايا المؤمنين . فلما تعين المسيو بوجو (Bugeaud) احترم هؤلاء المرابطين وبذل لهم حمايته وأمدهم بالانعامات عن سعة ، واستمدت معونتهم كل حكومة قامت فى تلك البلاد ، وكان منهم أصدقاء كثيرون مخلصون لفرنسا . وكان متى قال أحد المرابطين : « إذا كنا قد أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شىء قدير ، فاذا أراد أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فَعَل وكان ذلك عليه أمرا يسيرا لا يزيد عن كسح فتاة من تبن . ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة ، وهى مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لارادته » كان متى قال أحد المرابطين ذلك آمن كل سامع له بما يقول .

« ولكن تدخل فى هذا الأمر العلماء ، فتراهم منذ عشر سنين يجدون فى هدم سلطان المرابطين ويسحقون مذهبهم بآيات الكتاب ، ويهزمونهم فى كل مجال بما يقتبسونه من أحاديث الرسول ، مما يجهله خصومهم كل الجهل . فتجدهم يقولون للمؤمنين : « إن المرابط والامام والمفتى موظفون لدى الفاتحين ، فهم يخونون الاسلام والمسلمين ، وأنتم تعطونهم مالا ليصلوا بكم ويباركوا عليكم ، والله ورسوله يردون ذلك ولا يقبلونه منكم . فنحن الذين نعرف القرآن ونمثل الايمان الذى أرسل به محمد » .

« ويقولون للأمهات الجاهلات المتشبعات بالخزعبلات : « إذا ذهب أولادك الى مدارس

(١) فى وزارة المسيو ليون بلوم كان قد أعد النائب فيوليت مشروع قانون بمنح التونسيين والجزائريين الحقوق المدنية التى تجعلهم مواطنين فرنسيين لهم الحق أن يكونوا نوابا عن الامة الفرنسية فى مجلس نواب فرنسا .

الفرنسيين ، واتبعوا تعاليم الرؤساء الدينيين الذين رضيهم الفرنسيون ، فإن ذكورهم يشبون مجرمين ، وإناثهم عاهرات .

« وقد نجح هؤلاء فى حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين وامتنعوا من دفنهم فى مقابر المسلمين . وهؤلاء القادة ينفذون أوامر تأتيهم من القاهرة ودمشق ومكة ، وهى المدن التى تعمل فيها جماعات خفية لتنفيذ أغراض على جانب كبير من الخطورة . والتبعة فى ذلك تقع على الحكومة الفرنسية ، فهى التى تركت هؤلاء المتعصبين أو الخبيثين يبثون دعوتهم ، ويضعفون سلطان أصدقائنا المرابطين » انتهى

محادثة مع بعثة مسلمى الصين :

جاء فى جريدة (جورنال دو طهران) التى تطبع باللغة الفرنسية فى العاصمة الايرانية ما ترجمته :

«حظينا بمقابلة السيد جلال الدين مانز نشانغ رئيس البعثة الصينية ، والسيد ابراهيم ما تيينغ وكيله اللذين يمثلان ٤٨ مليون مسلم صينى وقد نشرنا خبر وصولهما فى العدد الصادر يوم الاثنين الماضى .

« وقد تحققنا أن الغرض الذى ترمى إليه هذه البعثة هو درس الروابط الأدبية والثقافية والمدركات العقلية التى يمكن أن تجمع بين قلوب ٤٠٠ مليون من الكائنات البشرية وتؤلف بينها برباط أخوى عملا بالأصول المقدسة للاسلام .

« أما الأعضاء الخمسة المؤلفون لهذه البعثة فقد عينتهم الجمعيات الاسلامية ، وهى جمعية مسلمى هانكيو ، وجمعية الشبان لمسلمى نانكين ، وجمعية مسلمى بكين ، وجمعية مسلمى شنغهاى ، وجمعية مسلمى كوانج سى » .

وبعد أن ذكرت الجريدة أن هؤلاء الأعضاء اختيروا من نخبة الشباب المتعلمين قالت : إنهم جميعا يتكلمون التركية والفرنسية والانجليزية والعربية .

« ولما سألناهم عن يوم مغادرتهم للصين ، وعن الغرض الذى يرمون إليه من رحلتهم أجابوا :

«غادرنا أرض الصين فى شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ . والذى حدانا الى هذه الرحلة أن الثمانية والأربعين مليونا من مسلمى الصين يرجون الاتصال أدبيا وثقافيا بجميع إخوانهم المنتشرين فى العالم بأسره . وقد كلفونا أن نزور أشهر مراكز الاسلام ، وبخاصة من بلاد الشرق القريب ، وأن نعرب لهم عن انعطافهم إليهم انعطافا مبنيا على وحدة المثل الأعلى لمجموع المسلمين .

« إن المسلمين يؤلفون مجموعا عدد أفراده ٤٠٠ مليون ، ولا يشك إنسان فى أن الامتزاج

الأخوى بينهم يكون عملا عظيما ثمرته حفظ السلام العالمى وتمكينه ونشر روح الاخاء بين الشعوب .

« فتطبيق هذه الأصول العالمية بالاتصال المباشر بالشعوب التى تجمعنا وإياهم رابطة الأخوة هو مرمى البرنامج الذى دعينا للقيام به .

ولما سألهم مندوب الجريدة عما شعروا به من التأثرات عند زيارتهم لبلاد الشرق القريب أجابوا :

« لما تركنا الصين ووصلنا الى السويس انتقلنا منها الى مكة ، وكان وصولنا اليها فى شهر ذى الحجة والحجاج يفدون اليها من كل صوب . فالأمر الذى أثر علينا أكبر تأثير هو أن هذه العناصر المختلفة من الشعوب ذات اللغات المتباينة ، والبيئات المتباعدة ، قد اشتركت كلها فى فهم مثل أعلى واحد دان له الجميع .

« ولما تكلموا عن مصر قالوا :

« لقد استقبلنا فى مصر أحسن استقبال . وشاهدنا السرور العظيم والارتياح الكبير الذين قابل بهما المصريون على اختلاف بيئاتهم خبر خطبة حضرة صاحب السمو الأمبراطورى الأمير ولى عهد المملكة الايرانية لحضرة صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية . فان هذا القران يقرب بين الشعوب الشرقية ويكون نواة لكتلة أخوية يقوى بها ركن السلام العام .

ثم ذكروا أن البعثة لقيت مثل هذه الحفاوات فى سورية والعراق . ولما سئلوا عن رأيهم فى إيران قالوا :

« كنا نسمع ونحن بالصين وفى كل بلد حللناه من الشرق القريب عن إيران عبارات الاعجاب والاطراء ، وكنا متشوفين أن نرى بأعيننا ما تم من التقدم لبلادكم الجميلة التى يعد ماضيها إحدى مفاخر الشرق باسره .

« لقد كنت أنا دائم الانعطاف لإيران حتى إنى نشرت فى سنة ١٩٣٥ فى شنغهاى كتابا دعوته « إيران الحديثة » وهو يدلكم على مبلغ شعورى وتمنياتى الطيبة لها . كل ما كان عندى من المعلومات عن إيران كان خاصا ببلاد فارس القديمة ، ولكن المعلومات التفصيلية التى تفضل علىّ بها قنصلكم العام السابق بايران السيد (كى استوفان) دفعتنى لأن أعرّف الصين باسرها مبلغ تقدم إيران الحديثة .

« وأنا أقول لكم مخلصا بأن كل ما رأيناه هنا يفوق ما كنا نأمل أن نراه ، فان العمل العظيم الذى بدأه جلالة أمبراطوركم العظيم رضا شاه بهلوى سيتبع مجراه صعدا ، لأنه مبنى على العواطف

القومية والعوامل الوراثية . فان التجديد عندكم يستند على الاصلاحات التى يستدعيها الزمان الحاضر وتتكمل باستلهام ما كان منها فى الزمان الماضى البعيد .

« والذى أدهشنا فى إيران أن التجدد عندكم لم يكن مجرد صورة طبق الأصل لما هو عليه الحال من الاصلاحات والعادات فى الغرب ، حتى ولو كانت ترمى الى تقدم ، ولكنه تطبيق مزايا العصر الحديث على الأحوال المحلية والمحيط الاجتماعى بالمزج بين ما هو قديم وما هو حديث

« وبعد ما زرنا مصر وسوريا والعراق وأفغانستان ، ووقفنا على تيار الشعور السائد فى تركيا وأفغانستان ، اعتقدت بعثتنا اعتقادا راسخا بأن معاهدة (سعد أباد) قد وثقت نهائيا روابط الحب وحسن الجوار بين جميع هذه الشعوب الشرقية ، وسيزيد التمازج بين الأسرتين الحاكمتين مصر وإيران أواصر الأخوة بين الشعوب الشرقية توثيقا وشدة اتصال » .

محمد فريد وجدى

ما قيل فى فضيلة الوفاء للاخوان

قال حكيم : « الوفاء أفضل شمائل العبد ، وأوضح دلائل المجد ، وأقوى أسباب الاخلاص فى الود ، وأحق الأفعال بالشكر والحمد » .

وقال آخر : « الوفاء من شيم الكرام ، والغدر من خلائق اللئام » .

وقال غيرهما : « من صحب الناس بلسان صادق ، وعاملهم بحسن الخلائق ، وألزم نفسه رعى العهود والمواثق ، فقد أرضى المخلوق والخالق » .

وقال أديب : « من تحلى بالوفاء ، وتخلى عن الجفاء ، فذلك من إخوان الصفاء » .

ولقد أحسن من قال :

إذا أنت محضت المودة صافيا ... ولم تر عن وصل الصديق مجافيا
ووفيت بالعهد الذى خانه الورى ... ولم أر مخلوقا على العهد باقيا
فقد حزت أسباب المكارم كلها ... وجددت للعليا رسوما عوافيا

ومن أحسن ما قيل فى الوفاء قول مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ومن أغرب ما أثر عن وفاء الاخوان ما ذكره الزبير بن بكار فى كتابه (الموفقيات) قال : « استشهد باليرموك الحرث بن هشام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، فأتوا بماء وهم صرعى وفيهم رمق فتدافعوه ، كلما دفع الى رجل منهم قال اسق فلانا حتى ماتوا ولم يشربوه » أى أن كل واحد منهم آثر صاحبه على نفسه .

أحاديث الوفود في الاسلام

— ٣ —

كان عدى بن حاتم الطائى رجلا شريفا فى قومه ، فلما سمع بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للاسلام ، تخوف على نفسه وأهله ، فقال لغلام له يرعى إبله : لا أبالك ، اعزل لى من إبلى أجمالا ذللا سمانا فاحبسها قريبا منى ، فاذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأخبرنى .

فبينا هو جالس ذات يوم إذ جاءه غلامه يسعى ، فقال : ياعدى ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فانى قد رأيت الرايات فسألت عنها فقيل لى : هذه جيوش محمد .

فقال له عدى وقد هاله ماسمع : قرب لى أجمالى ، واحتمل أهله وولده ، وخلف أخته فى الحاضر واسمها (سَفّانة) (١) وفر هاربا الى الشام .

ومن خبر هذه الحادثة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عليا رضى الله عنه لهدم صنم طيء وأمده بمائة وخمسين رجلا من الأنصار ، فأغار عليهم مع الفجر وهدم الصنم ، وأحرق أخشاب خزانته فوجد فيها ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع فأخذها ، وغنم سبيا ونعما وشاة وفضة ، وقدم بجميع ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فى السبى سفانة ، ولما مر بها رسول الله قامت تكلمه فقالت : يا محمد امنن عليّ فقد هلك الوالد ، وغاب الوافد .

فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : ومن وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم .

فأجابها النبى قائلا : الفار من الله ورسوله !

فجلست حزينة ، فلما كان الغد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتفقد الأسرى ، فقامت وقالت مقالة الأمس ، فأجابها بما أجاب به أولا ، فجلست حزينة .

فلما كان بعد الغد وجاء النبى صلى الله عليه وسلم لتفقد حال الأسرى جاء على بن أبى طالب الى سفانة وأشار اليها أن قومى الى النبى وكلميه ، فأشارت اليه أنها تخشى أن يردها ، فأكد لها بأن تقوم اليه .

فلما مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت وقالت : يامحمد : أرأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ، فانى ابنة سيد قومه ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع

---

(١) سفانة بفتح السين : الدرة الثمينة أو هى اللؤلؤة .

الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائى !

فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم مقالها ، قال لها : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق .

هنالك تأثرت سفانة من مقالة النبى ومن منّه عليها ، فأسلمت وقالت تشكر للنبى منّه عليها ، وبره بها : « شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم إلا وجعلك سببا لردها عليه » !

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلست هى فرحة جذلة بما نالت وقالت . وبعد ساعة أرسل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقول لها : لا تعجلى حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك . وبعد أيام قدم رهط من طىء فأرسلت الى النبى : إن لى ثقة فى هذا الرهط . فأذن لها بالرحيل بعد أن كساها وأعطاها جمالا محملة ، وعفا عن بقية السبى وأجازهم ، ووصى بها الرهط . فخرجت شاكرة الى أن قدمت الشام .

فبينا أخوها عدى ينظر الطريق إذ رأى ظعينة تؤمه ، فقال : ابنة حاتم يا ترى ؟ فاذا هى هى ، فلما جاءت مجلسه قالت : أيها القاطع الظالم ، احتملت أهلك وولدك وقطعت بقية والديك ! فخجل عدى مما قالت أخته وقال : أى أخية : لا تقولى إلا خيرا ، فوالله مالى من عذر ، لقد كان منى ما ذكرت ! أقيمى عندى ولا تخافى ولا تحزنى وقرى عينا .

ولما استقر بها المقام قال لها عدى : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ياسفانة ؟ (يريد النبى صلى الله عليه وسلم) . قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فان يكن نبيا فللسابق اليه فضيلة ، وإن يكن ملكا فأنت أنت فى عز اليمن . فقال لها عدى : والله إن هذا لهو الرأى الحسن .

وخرج من فوره يطلب المدينة ، فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد قال له النبى : من الرجل ؟ قال : أنا عدى بن حاتم ، فقام اليه وأخذه الى بيته ، وبينما هو يمشى معه إذ أهابت امرأة عجوز برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف لها ، فدنت منه وكلمته فى حاجة لها . يقول عدى : فقلت : ما هذا بأمر ملك . ثم انصرفت العجوز ومضى عدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل المنزل تناول النبى عليه الصلاة والسلام وسادة من جلد محشوة ليفا وطلب من عدى أن يجلس عليها . فقال له عدى : بل اجلس أنت عليها . فأكد عليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس هو ، فجلس عدى وجلس النبى على الأرض . قال عدى : فقلت: ما هذا بأمر ملك . هنالك سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألست ياعدى من القوم الذين

لهم دين ؟ (وكان من العرب المتنصرة) ، فأجاب عدى : نعم . فقال له النبى : مالى أراك تسير فى قومك بالمرباع (أخذ ربع الغنائم) كعادة العرب ؟ فأجاب عدى : نعم . فقال له النبى : وذلك لايحل لك فى دينك . فتعجب عدى من مقالة النبى وأنه عرف منه ذلك وعابه عليه . عند ذلك قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياعدى : لعله يمنعك من الدخول فى هذا الدين (الاسلام) ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت (الكعبة) لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم !

هنالك مد عدى يده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم وحسن إسلامه . يقول عدى : مادخل وقت الصلاة إلا وأنا مشتاق اليها . وكان رضى الله عنه من فضلاء الصحابة ، ولم يرتد مع من ارتد من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ثبت على إسلامه . وكان يبعث بصدقات (زكاة) قومه الى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وعاش الى أن حضر فتوح العراق ، ومات سنة ثمان وستين وهو ابن ماية وعشرين ، عليه رحمة الله ، إن رحمة الله قريب من المحسنين !

حسن خطاب الوكيل

العدل قوام الممالك

قال حكيم : « الملك يبقى على العدل والكفر ، ولا يبقى على الايمان والجور » .

وقال عمرو بن العاص : « ملك عادل ، خير من مطر وابل » .

وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيته مع ولاته ، فقال : « رأيت الظالم مقهورا ، والمظلوم منصورا ، والغنى موفورا ، والفقير مبرورا » .

فقال الخليفة : الحمد لله الذى وهب لى من العدل ما تطمئن اليه قلوب رعيتى .

وتعرض له متظلم فى بعض الطرق فوقف له وأزال شكايته . فقال له بعض خاصته : هلا صبرت يا أمير المؤمنين حتى يستقر بك المنزل ؟ فقال له : « الخير سريع الذهاب ، وخشيت أن أفوته بنفسى ، وإنما هى فرصة قدمت فيها العزم ، واستصحبت الحزم » .

أمراض القلوب

لما كان القلب محط نظر الله وعنايته ، لأنه البيت الذى لم يتخذ سواه سكنا لتنزيه وحدانيته وصمدانيته ، ومهبطا لفيوضاته وإمداداته ، ومجلى لخفى أسراره ومكنون اقتداره ، ويريد ألا يشغله سواه من زخارف الدنيا وبهجتها ، وألا يصرفه عنه صارف من مهام الدنيا وعنائها ، إذ هو مرسح جنود الرحمن وجنود الشيطان ، ولا يقوى على تعزيز مراكز جنود الرحمن أمام هجمات جنود الشيطان إلا بتحصنه بحصون العلم بالله ، وتدرعه بالثبات على مراضيه ، وهدم قلاع المخالفات والمنكرات ، ولا سبيل للوصول الى العلم إلا من طريق التلقى والتعليم — لا جرم أن أرسل الله الرسل يرسمون للناس أماكن السلامة ومواطن التهلكة ، ويبينون لهم محجة الله التى يرتضيها من عباده ، فمن سلكها تابعا لرسوله كان من المؤمنين « ومن يتّبعْ غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولى ونصلِه جهنم وساءت مصيرا » .

تلك المحجة تعلقت بالعبد ظاهرا وباطنا ، أمرا ونهيا . فالأمر الظاهرى طاعة ، والنهى معصية ؛ والأمر الباطنى إيمان وعلم ، والنهى نفاق وجهل ، وظاهر العبد تبع لباطنه ، لأن القلب ملك والأعضاء جنوده ورعيته ، لا تصدر ولا ترد إلا عنه وبإذنه ، وقد بين ذلك ترجمان الحكمة الإلهية صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « إن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب » . وصلاح القلب إنما يكون بطهارته من الصفات المذمومة ، والاعتقاد السيئ ، إذ هى أمراض تعطل القلب عن القيام بالعبودية الحقة للربوبية المطلقة .

لاريب أن أشد مصائب الانسان الأمراض ، وكما أن المرض يكون جسديا ، يكون قلبيا : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » . كما أن أحدهما أشد فتكا وأعظم خطرا من الآخر ، وكلاهما يحوجه الوقاية والعلاج ، فكلما ازدادت خطورة المرض ازدادت الأهمية به ، واشتدت الحيطة له لإيقاف تياره عن الانتشار فى الأعضاء ، ثم أخذ فى سبيل استئصاله من شأفته حتى يبرأ ويؤدى وظيفته فى المجتمع البشرى . وإن مرض القلب أشد خطرا على الانسانية من أعظم الأمراض الجسدية ، إذ بمرضه يفسد فيفسِد كل من خالطه . وقديما قال الشاعر :

واحذر مخالطة الدنىء فإنه ... يعدى كما يعدى الصحيحَ الأجرب

لا شك أن القلوب المريضة هى الجديرة بالمعالجة ، والشديدة الحاجة الى النقاهة والشفاء ، إذ كانت موضع الإيمان ، ومحط نظر الرحمن ، وبها دخول الجنان أو النيران ، فلا يصبر

على تلك الأمراض الفتاكة إلا فاقد الشعور بالكرامة، عديم الإحساس، بما يحمل من أوضار الدنايا وأقذار الخطايا. بيد أنه لا يحمل وسخ الثياب، قذر النعال خوف استهجان الناس لبزته، واحتقارهم لهيئته، واشمئزازهم من كريه رائحته. ولو أمعن النظر قليلا لأدرك أن هناك من ينظر الى طويته، عالم بخفايا سريرته، يحتقره لسفالته، ويبغضه لدناءته «يعلم السر وأخفى».

فلست أدرى أى مؤمن ذلك الذى يتحاشى أن يطلع عبد مثله على رث ثيابه، وبشع هندامه، ولا يتحاشى أن يراه الله قذر الباطن، وسخ الضمير، سيء العقيدة، محشوا بالغش والحقد والمكر والكبر والعجب والرياء، مملوءا نفاقا ومداهنة وحيلا وخداعا، طاويا على العداوة والأذية والتشفى، وممالأة الظالم، والأثرة والأنانية؟!

كيف يصبر المؤمن على تلك الأمراض القلبية التى تعدمه الشرف الانسانى، وتفقده العزة والكرامة، وتحرمه الرضاء الالهى، وتزيل من قلبه غض الحكمة الربانية، ليبس شجرة الإيمان من فقد مياه الاحسان، التى تبخرت بسموم تلك الأمراض الباطنية، ويخلع حلية العبودية التى هى وصف المصطفين الأخيار، ويتسفل الى حضيض البهيمية، ويتخلق بأخلاق الشياطين، فتموت روحانيته التى هى ميزته عن سائر الحيوان، فيكون ميتا فى صورة الأحياء، عدوا فى عداد الأحبّاء «إن شر الدواب عند الله الصم البُكم الذين لا يعقلون».

لا يخفى أن كثرة أمراض القلب من نتيجة التربية الأولى، فلو ربى الانسان من صغره على حب الدين، وأشرب فى قلبه تعظيمه، وتمرن على تعاليمه الحقة، وألزم بملاحظة الأمر والنهى، وحوسب على التقصير والتعدى، وجوزى على القبيح والحسن، لشب على احترام الدين، ولغار عليه غيرته على ماله وعرضه، بل لا افتداه بلحمه ودمه.

إن الانسان من أصل فطرته يميل الى الخير والجمال ويستريح له، وينفر من الشر والقبيح ويألم منه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولهذه الفطرة أناط الله الأمر والتكليف، ورتب الثواب والعقاب، وجعلها مصدر التفكر والتمييز، ومرسح الغبطة والسرور بعد عمل الخير، وموضع التانيب والتوبيخ بعد عمل الشر، وهى التى تدفع المحسن للزيادة من الإحسان، وتحمل المجرم على الندم والتوبة. فان انعكس الانسان وصار لديه الحسن قبيحا والقبيح حسنا، فذلك نتيجة تغلب القوة الغضبية أو البهيمية على إرادته التى لم تستطع مقاومة هجوم تلك القوة، وما ضعفها إلا خروجها عن حيطة الدين وعدم التحرز فى أخذ محابها من الأوجه المسنونة، وقلة التبصر فى أساليب خدع النفس وحيلها، وما النفس الأمارة بالسوء إلا أعدى أعدائه، ولا ينكر عداوتها إلا أهوج أخرق.

كما أن المعدة بيت داء الأجسام، كذلك النفس بيت داء القلوب، فمن رام أن يتمتع بصحة

قلبه ويدخل حظيرة ربه ، ويتمتع فى مجلس قربه بلذيذ الخطاب ورؤية حبه ، فليصلح بيت دائه ، وليأخذ فى أسباب شفائه ، بقطع أسباب شقائه ، بقوة العزيمة وصدق الإرادة ، فيبدل ذميم أخلاقه بمحاسن الشيم ، ويروض نفسه على ترك العادات القبيحة ، ويتألفها على فعل الحسن ، ولا يزال هذا عمله ليل نهار حتى تموت النفس ويدفنها تحت أطباق الثرى ، فكلما دفنها أرضا أرضا سما قلبه سماء سماء ، فاذا دفنها فى الأرض السابعة ارتقى قلبه الى ما فوق السماء السابعة ، وصار معلقا بالعرش ، فتنكشف له الأسرار العلوية ، ويجول فى سماء العلوم الغيبية ، وينهل من بحار الحقائق الكونية ، فيسمع بالله ، ويبصر بالله الى الله ، ويفاض عليه من المعارف والحقائق ما به يتحقق بالخلافة الربانية ، إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

قد يمرض الجسم فيبرأ القلب ، إذ يتنبه من غفلته ، ويصحو من سكرته ، ويشعر باحتياجه الى من بيده صحته ، وفى قبضته ناصيته ، ويعلم شدة غضبه عليه بما قارف من جريمة ، وفعل من خطيئة ، ويتحقق بُعده عن معانى رحمته ، ومنازل لطفه ورأفته ، فيخجل أن يسأله البرء وهو فى حمأة الخطايا ، ومستنقع السفالة والدنايا ، فيكسر أغلال محابه ، ويتفلت من قيود شهواته ، ويخلع ثوب الغواية من عنقه ، ويقف بين يدى ربه خاشعا خاضعا ذليلا ، قائلا : « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى » ! فيجيبه الرب جل جلاله : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

عبد العزيز الجعدى

هل يتأتى تبرير الاسراف

قال الله تعالى : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ولكنه حد للبذل حدا عادلا فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . وقال فى ذم الاسراف : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ينادى مناد كل ليلة : اللهم اجعل لكل منفق خلفا ، ولكل ممسك تلفا » .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضا : « أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

نقول : لا تناقض بين هذه الأحاديث والآية الكريمة ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالاعتدال فى كل أمر ، ولكن للأدباء مجالات يتقحمون منها على ما لا يحسن أن يؤخذ عنهم ، من ذلك ما قاله على بن ذكوان :

انفق ولا تخش إقلالا فقد قسمت — بين العباد مع الآجال أرزاق
لا ينفع البخل مع دنيا مولية — ولا يضر مع الاقبال إنفاق

فى سبيل مكافحة المذهب المادى

التلبانيا والانتقالات النفسانية الى مسافات بعيدة

من واجبنا ، بجانب تجلية الحقائق الاسلامية ، أن نكافح المذهب المادى الذى انتشر بسرعة النار فى الهشيم فى الطبقات التى تتعلم العلوم الطبيعية ، ورَسَّخ فى أذهانها أن ما شذ عنها من المظاهر الروحانية أوهام لايجوز الاعتداد بها ، بل هى خزعبلات يجب تطهير العقول منها .

ولقد أمضى العلم الطبيعى فى مكافحة الروحانية أكثر من ثلاثة قرون ، ولكن جماهير من أخص أقطابه عادوا أخيرا فاعترفوا بخطئهم تحت تأثير حوادث لم يمكنهم نكرانها ولا تعليلها فأخذوا فى جمع شوارد الخصائص الروحية وترتيبها لتنوُّر ماتدل عليه من الحقائق العلمية .

كل منا يعرف أن المنازعة بين العلم والدين قد حمى وطيسها فى القرون الأخيرة الى حد أن أنكر ممثلو العلم على الدين حتى أصوله الأولية ، من العقائد الغيبية ، وكان خطأ الكثيرين من ممثلى الدين عظيما فى إهمال البحوث التى تدعم تلك الأصول وتقويها ، ولو كانت مستقاة من مصادر أجنبية ، فلا عاب علينا أن نستعين بالذين وقفوا أنفسهم لمناهضة المادية من علماء الغرب ، بعد أن كانوا بالأمس من أقوى أنصارها ، لأن هذا يعتبر من آيات القهر الالهى ، ومصداقا لقوله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

اكتشف العلماء المعاصرون الذين يبحثون فى النفس صحة ما كان يعتقده الناس من شعور الروح بالشىء قبل وقوعه ، وبتأثير نفس بعيدة على نفس أخرى ، فتلقى فى روعها ما تريد أن تعرِّفها به ، وقد سموا هذه الظاهرة الأخيرة (بالتلبانيا) ، وقد جربوها عمليا وكرروا تجربتها مئات من المرات وثبتت لهم صحتها . ونحن نحب أن نطلع القراء على بعض ما يستند إليه العلماء لاثبات صحتها . فمنها ما أرسله الدكتور (بوارسول) من جامعة باريس الى الأستاذ الكبير كاميل فلامريون وأثبته فى كتبه قال :

« أرسل إليكم بثلاث حوادث من أنواع مختلفة ولكنها تصلح لأن تعينكم فى مباحثكم عن الظواهر الروحية ، أنا ضامن لكم صحتها ، لأنى اعتدت أن لا أعير اهتماما إلا لما أراه بنفسى من الحوادث التى من هذا القبيل :

(١) بينما كنت فى (بلفور) إحدى ضواحى فرنسا منذ نحو شهرين إذ رأيتنى أفكر ذات يوم بشدة وبإلحاح غريب فى رصيفى (جورا) ، وكنت لا أفكر فيه مرة واحدة فى كل سنة ، إذ لم تكن توجد بينى وبينه غير علاقات وظيفية انقطعت منذ ثلاث عشرة سنة ، ولم أره بعدها قط . فلم تمض بضع دقائق (تأمل) حتى رأيتنى وإياه وجها لوجه فى مفترق عدة طرق . وبما أنه كان آتيا على بسكليت من شارع عمودى على الذى كنت سائرا فيه ، فكان مستحيلا علىَّ أن أراه قبل تلك اللحظة من بعيد . هذه حادثة لا أحاول تعليلها ولكنها أدهشتنى .

(ب) نظرا لمهنتى الطبية فأنا معرض كثيرا لأن أستدعَى ليـلا . والذين يمرون أمام بيتى ليسوا بقليلين ، ولـكن إذا كان من بينهم واحد يقصد أن يرن الجرس ، فانى أستيقظ من نومى من تلقاء نفسى قبل أن يصل الى بابى بنحو عشرين مترا ، فأعرف بهذه العلامة أنه سيستدعينى أحد الناس .

وقد شاهدت صحة هذه الظاهرة لا مرة واحدة ولـكن مائة مرة منذ اثنتى عشرة سنة . ولأجل أن أكون مُقْنِعا فى روايتى هـذه يجب علىّ أن أقول بأنى لو كنت صاحيا ، وهو ما يحدث كثيرا ، فلا أستطيع أن أتنبأ بشىء من ذلك . ويجب على أن أقول أيضا بأنى إذا كنت مستغرقا فى النوم ، عقب يوم أمضيته متعبا ، فان هذه الظاهرة النفسية لا تحصل .

(ج) من بين مرضاى شابة مصابة بالهستريا ، وقد اعتدت أن أحدث لها نوما مغناطيسيا وإيعازات بسهولة عظيمة جدا . وكثيرا ما أوعزت اليها أن تستيقظ فى الساعة السابعة ، فـكانت تنتبه من نومها فى تلك الساعة بدقة عظيمة . فـكل من مارس صناعة التنويم يعلم أن ليس فى هذا الأمر شىء خارق للعادة ، ولـكن الذى هو جـدير بهذا الوصف ما حدث من أن زوج هـذه السيدة استبطأ يوما من الأيام ساعـة يقظتها فقـدم عقرب الساعة التى كانت توضع على المنضـدة المجاورة للسرير ، وكانت الساعـة إذ ذاك ٦ و ٣٠ دقيقة فجعلها ٧ و ٣٠ دقيقة فقدمها ساعة عن موعـد تيقظها ، ولـكنه وهو يدير العقرب لايصاله الى الوقت المذكور رأى امرأته قـد تنبهت من نومها فجأة عند وصول ذلك العقرب الى السابعة وهو الموعـد المقرر لها . فجاءنى زوجها وقص علىّ ما رأى . ولـكنى لما أنا عليه من صعوبة التصديق أردت أن أحقق هذا الأمر بنفسى ، وفعلته بضع مرات .

« ويجب علىّ أن أقول إن هـذه السيدة تقرأ وهى نائمة وأعينها مغلقة عدد الساعات فى ساعتى حتى لو غيرتها ، ولـكن على شريطة أن أنظر أنا الى عقاربها . وكذلك كانت تخبرنى عن اسم الشىء الذى أمسك به وراء ظهرى على شرط أن أقبض عليه بيدى » .

ونشر الاسـتاذ الـكبير (سيزار لومبروزو) واضع علم الجرائم كتابا أرسله اليه زميله الأستاذ (دوسانكتيس) المدرس بجامعة تورين بايطاليا معه وهو :

« كنت فى رومية دون أسرتى التى بقيت فى الريف . وبما أن بيتى قد سرق فى السنة الماضية ، فكان أخى يأتى وينام معى فيه ، فأخبرنى ذات ليلة أنه ذاهب الى تياترو (كوستانزى) فأويت الى البيت وحدى ، وشرعت أطالع ولم أكد أفعل حتى شعرت بذعر شديد فى نفسى ، فحولت أن أقشعه عنى وتشاغلت بخلع ثيابى ، فلم يفد ذلك فى تهدىء روعى ، وألقى فى قلبى أن أخى فى خطر وأن التياترو الذى هو فيه يحترق . أطفأت النور فلم يجدنى أطفاؤه نفعا ، وازداد كربى حتى اضطررت الى إيقاد المصباح خلافا لعادتى ، وأنا مزمع أن أبقى صاحيا حتى يعود أخى . وقد كنت إذ ذاك خائفا كأنى غلام صغير . وبعد منتصف الليل بساعة سمعت الباب

يفتح ، فما كان أكثر دهشتى حينما قص علىّ أخى الهلع الذى أصاب المتفرجين عندما أخذت النار تلتهم التياترو . وقد وافق ذلك بالضبط الساعة التى شعرت فيها بالقلق العظيم » .

واليك حادثة عظيمة الخطر من انتقال الفكر من إنسان لآخر أفضى بها الدكتور (كانتار) الى الجمعية الطبية فى (انجير) بفرنسا وهى :

« طفل يدعى (لودوفيك) دون السابعة من سنه كان متمتعا بخاصة حل المسائل الحسابية تشبه خاصة (اينودى) المشهورة . فانتهى أمر والده أن لاحظ فيه (أولا) أنه لا يصغى الى منطوق المسائل التى تلقى إليه إلا قليلا . (ثانيا) أن وجود أمه معه كان شرطا مؤكدا لنجاح التجربة . وكان ذلك يتوقف على أن يكون الحل المطلوب تحت نظرها أو محصلا فى فكرها .

« استنتج الأب من ذلك أن ابنه كان لا يحسب ، ولكنه كان يتلقى الحل كما هو من فكر والدته . ولذلك رجاها أن تفتح قاموسا وأن تسأل ابنها عن رقم الصفحة التى تحت نظرها فأجابها الولد على الفور قائلا : هى صفحة (٤٥٦) . وكان الأمر كما قال : فكررت التجربة عشر مرات فلم يخطئ فى واحدة منها .

« فإذا كتبت عبارة فى مذكرة ، فكان يكفى الغلام مهما كانت طويلة ، أن تمر الأم بعينيها عليها ليرددها إذا سئل عنها ، حتى لو كان السائل أجنبيا »

وروى الدكتور (فرواساك) فى كتابه الحظ والقدر (Chance et Destinée) صفحة (٥٩٩) حادثة اتصال حدثت له هو ، قال :

« رأيت فى النوم حينما كنت طالبا داخليا فى مدرسة الطب بمدينة (دوبويترن) أن أبى أصيب بمرض سيفضى به الى القبر . فاستيقظت فى كرب عظيم وحاولت أن أتغلب عليه قائلا لنفسى بأنى قد تركت أبى يوم الأحد الماضى فى صحة تامة . وكان يومنا إذ ذاك الأربعاء . وأخذت أقنع نفسى أنه من الضعف الأدبى أن أقلق نفسى الى هذا الحد بسبب حلم ، وعزمت على أن لا أفكر فيه . ولكن صورة أبى وهو فى حالة النزع كانت لا تزايل ذهنى . فاعتزمت تخلصا من هذا الكرب ، وإن كنت فى غاية الخجل من ضعفى ، أن أشخص الى (سان جرمان) حيث كان أبى . فلما وصلت اليه وجدته مصابا بنزيف صدرى قضى عليه فى خمسة أيام » .

إن صدور كتب فى بيئة الالحاد بامضاء فحول العلماء تدون مثل هذه المشاهدات تدل على تطور عظيم فى العلم نفسه ، وهذا كله مصداق لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

محمد فريد وجدى

فى الحث على فضيلة الصبر

أدى حضرة صاحب الجلالة الملك صلاة الجمعة يوم ٢ من جمادى الآخرة فى مسجد سيدى عبد الرزاق بالأسكندرية ، فألقى فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الجزيرى خطيب المسجد خطبة بليغة فى فضل الصبر ننشرها هنا لنفاستها ، قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه :

أما بعد : فيقول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين :

« يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » .

فالمؤمن يغالب شدائد الحياة ، ويحتمل حوادث الأيام ، ويصبر على مكاره الدنيا ، لأن له جنانا ثابتا ، ويقينا صادقا ، وعزما مكينا . المؤمن حق الايمان لا يتسرب اليأس الى قلبه ، ولا يصيب الضعف فؤاده ، ولا ييأس من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

إخواننا المسلمين : علموا أولادكم الصبر حتى لا تذهب نفوسهم ضحية اليأس والقنوط . علموهم أن اليأس والايمان لا يجتمعان فى قلب واحد ، وإنما الايمان يعلم الانسان الصبر ، ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، وكلما اشتدت الخطوب أو فدحت الأرزاء ، تذكر قوله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » .

إخواننا المسلمين : الصبر محمود فى جميع الأحوال : فى الصحة والمرض ، فى الغنى والفقر ، فى طاعة الله ، فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » . ورضى الله عن ابن عباس إذ يقول : الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله ، وصبر عن محارم الله ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى .

إخواننا المسلمين : ليس من الصبر أن يرضى الانسان بالذل والصغار ، ولا أن يجبن فى مواطن الإقدام ، فان ذلك عجز وهوان تسامى عنه أصحاب نبينا الأمين « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » .

إخواننا المسلمين : لقد صبر المسلمون الأولون صبر الأبطال ، ولم يعبئوا بطيش المبطلين ، ولم يحفلوا بأذى المعتدين ، فبدلهم الله من خوفهم أمنا ، ومن ضعفهم قوة ، وصدقهم وعده : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

إخواننا المسلمين : هذا سبيل الله فاسلكوه ، وطريق النبى فاتبعوه ، وهدى القرآن فاعلموه : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

الفتوح الاسلامية حيرت العلماء

تعليل المشترع الكبير مونتسكيو

حيرت الفتوح الاسلامية العلماء الاجتماعيين تحييرا لم يجدوه حيال مسألة اجتماعية أخرى ، فقد بلغ ملك المسلمين فى ثمانين سنة حدا لم تبلغه جميع فتوحات الرومانيين فى ثمانمائة سنة ، ولم تصل أمة قبلهم ولا بعدهم الى مثل ما وصلت إليه الأمة الاسلامية من سعة الملك ، ونفاذ الكلمة ، ووحدة الأجزاء ، وارتياح الناس الى حكومتها .

وقد افتنَّت العقول فى تعليل هذا التوفيق الباهر ، فقال بعضهم : إن سببه أن الأمم على عهد ظهور الاسلام كانوا فى شقاق بعيد ، وثورات طاحنة ، واختلافات دينية ، فدهمهم المسلمون وهم على تلك الحالة فدوخوهم .

وقد رُد عليهم هذا التعليل بأن المسلمين لما ولوا وجوههم شطر الشام وفارس ومصر ، لم تكن دولتا الرومان والفرس لا فى حرب فيما بينهما ، ولا فى شقاق فى داخل بلاديهما ، فكان هيراقل الرومانى فى أوج عظمته وأبهة ملكه ، لا يزعجه مزاحم فى بلاده ، ولا عدو مغير من خارجها .

نعم كانت فارس مقطعة الأوصال تحت حكومة إقطاعية ، استقل فيها كل أمير بما تحت يده ، ولكنهم لما آنسوا استفحال شأن العرب ، وحدوا كلمتهم ، وعدلوا صفوفهم ، ودانوا كلهم لملك اختاروه من أعرق أسرهم الملكية وهو يزدجرد ، فلما واجه سعد بن أبي وقاص فارس ، واجه منها أمة متراصة الآحاد كالبنيان ، متحالفة الجماعات على الاستماتة فى الدفاع ، لأنهم كانوا يملكون عربا كثيرين ، ويأنفون أن يكونوا محكومين بهم .

فسقط بذلك قول الذين يعللون الفتوحات الاسلامية بتخازل الشعوب وتناحرها . ومهما كانت الشعوب متخازلة فهل يعقل أن أمة واحدة تتحكم فى الأرض فلا تجد من يصدها عن أغراضها ، لاسيما وهى خارجة من بلاد طال عليها الثوى فيها ، محكومة غير حاكمة ، أو بادية غير متحضرة ؟

وقد عللها بعضهم بالعصبية الدينية التى بثها النبى صلى الله عليه وسلم فى القبائل ، وما وعدها به من الصيرورة الى جنة عرضها السموات والأرض ، فانصلتوا من بلادهم لا يردهم شىء ، فاكتسحوا كل ما وصلوا اليه من البلاد طمعا فى تلك الجنة .

وهذا تعليل ساقط كالذى سبقه ، إذ لو صح لأنتج مسألة تعتبر من أعقد المسائل ، فإنّ بث

إيمان كهذا يدفع صاحبه الى التضحية بنفسه للحصول على أمر غيبي ، لم تجر به سنة الله بين البشر ، لا سيما وقد كان العرب قوما ماديين حسيين لا يسهل خدعهم بالعقائد الغيبية ، فهم من الذين كانوا يفضلون العاجل على الآجل مهما كانت قيمته . فأى قوة روحية يمكن أن تتغلب على هذه النفوس المفتتنة بالماديات فتخلعها عنها بوعود خلابة لتلقى بها فى وجه العالم بأسره طلبا للموت فى سبيلها ؟ كل فلسفة نفسية تقف هنا عاجزة عن التعليل ، معترفة باستحالته من طريق علمى .

ومن الناس من عللها بحب العرب للنهب والسلب ، فلما اطمأنوا الى داعية منهم يقودهم اليها ، التفوا حوله وأيدوه ، وقاموا بما قاموا به مما ظاهره فتح وباطنه نهب وسلب .

وهذا التعليل منقوض أيضا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول مادعاهم الى الخروج من تقاليدهم ، وترك موروثاتهم ، واتباع أحكام العقل فى عقائدهم ، وقد لبث فيهم سنين كثيرة يدعوهم الى هذه الأصول ، حتى آمن به جمهور من الناس . ولم يأمرهم بالقتال للدفاع عن أنفسهم إلا بعد أن انتقل الى المدينة ، وهنالك اشتغل بنشر الاسلام بين القبائل ، ودعوتهم اليه صريحة لالبس فيها ، وليس منها وجوب مقاتلة الأمم طلبا للغنم منها . فأساس هذا الدين هو تصحيح النظر ، وتقويم النفس ، وإصلاح القلب ، والسمو الى أرفع ما يصل اليه جهد طالب الكمال . أما ما تقتضيه الحياة الاجتماعية بعد ذلك من حماية الحوزة ، أو نشر الدعوة ، أو غير ذلك ، فقد سنت لها أحكام لم ير العالم أعدل منها كما سبق لنا بيانه فى كثير من المواطن . فمن أين يستدل أصحاب هذه الشبهة على ما يقولون وليس له أثر فى كتاب ولا سنة ، ولا فى شرح من شروح الأئمة ؟

وذهب المشترع مونتسكيو فى كتابه أصول الشرائع الى رأى آخر ، فقال عند إلمامه بالأتاوات الحكومية : « إن هذه الأتاوات المفروضة قد كانت سببا لهذه السهولة الغريبة التى صادفها المسلمون فى فتوحاتهم . فالشعوب رأت بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهى من المغارم التى تخيلها حرص البراطرة ، أن تخنع لأداء جزية خفيفة ، يمكن توفيتها بسهولة ، وتسلمها بسهولة كذلك ، ووجدت نفسها سعيدة بأن تستخذى لأمة متبربرة تعاملها على هذه الصورة من أن تدين لحكومة فاسدة كانت تكابد تحت سلطانها كل ضروب الموانع دون حرية لم تنعم بها قط ، مضافا اليها كل ويلات عبودية عتيدة » .

نقول : إن هذا التعليل وإن كان فيه إشادة بتسامح المسلمين إلا أنه لا يفسر نجاحهم فى هذه الفتوحات السريعة التى انفردوا بها بين البشر .

لأن أول هذه الفتوح كانت الشام تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح ، ولم يكن العرب قد جروا من أمر الجزية فى شعب على سنة تسامعت بمزاياها الأمم الأخرى ، فالتقت الجيوش

الاسلامية بجيوش رومانية مدربة تفوقها عددا وعددا ، فهزمتها وأجبرتها على ترك حصونها المنيعة وقلاعها التى لا ترام ، ولم تكف عنها حتى فتحت الشام كلها وغادرها أمبراطور الرومان وهو يقول : أودعك أيتها البلاد الى الأبد !

فأى سيرة استعمارية كانت قبل هذه فتت فى عضد الجيوش الرومانية ، وحسنت لها التسليم للعرب ؟ وأية علاقة بين الجيوش المحاربة وبين قلة الأتاوات أو كثرتها ؟ إن المحاربين كانوا هم الطبقة الثانية فى تلك الأمم بعد رجال الدين ، وكانوا متحكمين فى رقاب الدهماء يبتزون أموالهم ولا يدفعون للحكومة أموالا ، فالمعقول أنهم كانوا يدافعون أعداءهم بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية ، لا أن يسلموا لهم ليكونوا رعية لهم ، وليسوا هم بالذين تفتنهم قلة الأتاوات ، ولا الحرية المحبوبة ، فقد كانوا منها بالمكان الممتاز .

وفى الوقت الذى كانت فيه الجيوش الاسلامية تهزم جموع الرومانيين ، كانت جيوش أخرى لهم ترد جنود الفرس المعروفين بصلابة العود على أعقابهم فى ذات بلادهم ، ومثلهم كمثل الرومانيين فى الامتيازات المالية والأدبية ، ويسقطهم من مراتبهم تغلب جنود أجانب عليهم .

إن تعليل مونتسكيو كان يشتبه به لو أن العرب كانت لهم مستعمرات تنعم باليسر ، وكانت الجيوش المحاربة تعامل بالعسف ، وتئن تحت أثقال الضرائب ، أو لو كانت الأمم نفسها هى التى تحارب ، وقد قلنا إن المسلمين إذ ذاك كانوا لا يزالون فى أول عهدهم ، ولم تبل الأمم من حكمهم ما يحببها فيهم .

على أن مونتسكيو يصف المسلمين الاولين بالأمة المتبربرة ، فهل عهد فى تاريخ البشر أن أمة متبربرة تكون مثلا يضرب فى قناعتها ، وحسن معاملتها لمن تقهرها من الأمم ؟ إن المعروف بين الناس أجمع أن الأمم المتبربرة لا تقف نهمتها للمال عند حد ، فلا تزال بالمقهور حتى تبيد خضراءه ، ولا تدع له شيئا . فمن أين جاء هذا الأدب العالى للمسلمين ، المتبربرين فى نظر مونتسكيو ، على خلاف سنة العالمين قديما وحديثا ؟

إن مونتسكيو قد زاد المسألة إشكالا ولا يحلها إلا افتراض واحد ، وهو الحق ، إن الأمة الاسلامية كانت على شريعة إلهية تمثل أعلى درجات العدل والانصاف ، وإن ما احتازته من الملك الذى لم ينبغ لأمة قبلها ولا بعدها ، لم يقو على إفساد قلوبها كما أفسد قلوب الفاتحين قبلها ، وإن الله قد أيدها بروح من عنده ، وقذف بها فى وجه العالم لترده عن الغى الذى كان فيه ، ولتحطم السلاسل والأغلال التى كانت فى أعناق الأمم .

هذا هو التعليل الصحيح ، والله غالب على أمره ؟

محمد فريد وجدى

القضاء الشرعى و القضاء الملى

فى مصر قديما وحديثا

أسلفنا لحضرات القراء لمحة عن القضاء القانونى وكيف تطور من عهد ساكن الجنان محمد على الكبير حتى عهد اسماعيل العظيم ، وكيف أن المغفور له سعيد باشا وثب فيه وثبة موفقة ، فجعل تطوراته خاضعة لتطور الملابسات التى تمخضت عنها العصور المتعاقبة بحكم الظروف الطارئة وما جد فيها من أحداث وعبر ، بعد أن سيطرت المحاكم الشرعية أحقابا من الزمن على القضاء وكانت مردا للمتقاضين فى جميع منازعاتهم ، فلم يكن من الضرورى التحرى عن جنسية الخصوم ، والتفرقة بين المعاملات المدنية والأحوال الشخصية . وقد ظلت المحاكم الشرعية تؤدى مهمتها على أفضل وجه وأكمله بين السكان حتى صدر من سلطان بنى عثمان الفرمان الشهانى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ الذى قضى بإدخال عدة إصلاحات فى الولايات العثمانية وفى جملتها ولاية مصر يومئذ ، وكان من بين هذه الاصلاحات وضع نظام للقضاء . وقد تقدم أن المرحوم سعيد باشا هو أول وال سدد العزيمة نحو تنظيم حالة القضاء فى الديار المصرية ، ووضع له نظاما يكفل حسن التقاضى ويبعث الطمأنينة الى نفوس المتقاضين طبقا لقواعد ذلك الفرمان المشار إليه ، فوجه عنايته الى المحاكم الشرعية بنوع خاص بعد إنشاء المجالس المحلية ، وقد تبع ذلك أن اتفق مع الباب العالى سنة ١٢٧٢ على أن يكون تنصيب القضاة فى القطر المصرى من حقوق الحكومة المحلية ، وبمقتضى أوامر صادرة منها ، وقد استثنى من هذا التعيين قاضى مصر ، لأن الحكومة العثمانية يومئذ استمسكت بحقها المطلق فى تعيين ذلك القاضى ، ليبقى لها مظهر الولاية القضائية العليا فى البلاد من جهة ، ولتظل السيادة فى أكبر مظهر من المظاهر الشرعية فى حوزتها من جهة أخرى . وقد نشأ عن هذا النظام الجديد أن أصبح القضاة الشرعيون موظفين تابعين فى شئونهم الإدارية والمالية للحكومة المصرية . وقد كانوا من قبل مستقلين فى تصرفاتهم حتى فيما يجبونه من الرسوم القضائية ، تبعا لاستقلالهم الذى استمدوه من سلطة الباب العالى مباشرة ، لأنهم كانوا يعينون بمقتضى فرمانات سلطانية تجعلهم بحكم تعيينهم بمنأى عن أية رقابة صادرة عن الحكومة المحلية .

ومن النصفة التاريخية أن يذكر لاسماعيل العظيم أنه ساهم فى التنظيم القضائى بما لا ينبغى إغفاله ، وما يكتب له فى سجل الصالحات من الأعمال ، وإن كان هذا التنظيم فى عهده لم ينظم المحاكم الشرعية كلها بل جاء عمله متناولا لمحكمة مصر فحسب تطبيقا للقرار الذى أصدره فى ١٠ محرم سنة ١٢٩٣

ثم إن العناية لم تقف بهذا الاصلاح الى ذلك المستوى ، بل تطورت من ذلك الى ما هو أبعد غورا وأجل فائدة ، فقد أدخل عليه عدة لوائح صدرت كلما حفزت الحاجة الى إصدارها على هدى التجارب والحوادث ومقتضيات الزمن . وأولاها بالذكر لائحة سنة ١٨٨٠ ، فلائحة سنة ١٨٩٧ ، فلائحة سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، فلائحة يوليو سنة ١٩٣١ مما سيأتى عنه الكلام مفصلا .

ومما لا بد من الاشارة إليه مع بالغ الأسف أن إنشاء المجالس القضائية على اختلاف طرائقها من مختلطة ومحلية وأهلية قد أثر مع طول الزمن فى نتائج المحاكم الشرعية وقصر فى مدى اختصاصها تقصيرا كان من أثره أن أصبحت المحاكم الشرعية لاتقضى إلا فى الأحوال الشخصية لذات الانسان ، وقد نزعت من اختصاصها موضوعات كانت داخلة فى ولايتها الشرعية ، فكان ذلك الاقتطاع الذى ما يزال يحز فى قلوب سواد هذه البلاد ويدمى جراحها أثرا مباشرا لتلك الفروق التى اندفع إليها السكان اندفاعا بحكم الامتيازات الأجنبية وما وضعت فى أعناق السكان من التزامات وما سنته من أنظمة تحدد اختصاصها أمام المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة وما أدخل على لائحة المحاكم الأهلية مقتبسا من قوانين أجنبية ومن أنظمة أكثرها فرنسى ، فكان من الضرورى أن يصطبغ القضاء الاهلى بصبغة غير شرعية ، وأن يشيع فيه القضاء المدنى شيوعا يجعل المحاكم الشرعية بمنأى عن أن تفرض عليها ولايتها القضائية مما لم يحن الكشف عنه بعد .

والقضاء الشرعى ما يزال مرتقبا إن قريبا وإن بعيدا بزوغ شمس من الاصلاح الدينى تنتظم ربوع البلاد وتفيض عليها إخلاصا ويقينا ، وما نشاهده اليوم وقبل اليوم من الأسباب الحوافز للهمم ، الداعية الى وضع قانون يوحد بين مرافعة الناس فى قضائهم الشرعى ويفرض سيطرة عامة لأحكام الشريعة السمحة على مرافق المتقاضين حتى لزم عن ذلك أن قام دعاة من كبار القضاة الشرعيين فى القضاء العالى فى محاضرة دعا اليها مستشارى محكمة النقض والاستئناف وذوى الرأى الحصيف يطالبون بوضع قانون يدعى قانون فؤاد ينتظم الهيمنة على القضاء فى سائر مرافقه بما حملته الشريعة فى ثنايا نصوصها وأحكامها من تناول مرافق الناس بالنصفة والعدالة المطلقة والمساواة ـ سوف تتوحد معه العزائم وتتجه به القوى الى ملاذ البلاد الأعلى وسيدها الأوحد فاروق الأول ، أيد الله عرشه ، فيلتمس القضاة والعلماء الى سدته العلية وضع قانون يدعى بقانون فاروق كما وضع قانون جستنيان فى عهد الامبراطورية الرومانية بعد قيام العلماء والمشترعين بالمطالبة بوضع هذا القانون .

ولنحو ثلاثة عشر شهرا قام الاستاذ الكبير والعلامة المحقق عبد السلام ذهنى بك المستشار بالمحاكم المختلطة يقترح وضع هذا القانون ، وقد لقى يومئذ اتجاها طيبا وثناء موفورا .

ثم إن مصر منذ دخلت فى حوزة الأتراك والقضاء الشرعى فيها محصور فى الحنفية ، لأن المذهب الحنفى كان ولايزال مذهب العثمانيين ، وقد جرى العمل منذ ذلك العهد على تعيين قاضى قضاة مصر من لدن السلطان مباشرة ، وهى الطريقة التى كانت متبعة فى تعيين قاضى مصر الأكبر ، حتى صدر عقب إشهار الحرب الكبرى مرسوم بقانون نمرة ١٢ سنة ١٩١٤ الذى ألغى وظيفة القاضى المشار اليه وأحل محله رئيسا للمحكمة العليا ليس له ما كان لسلفه من ضروب الامتياز الذى فرض على مصر يومئذ فرضا .

وأى قانون أسمى منزلة وأكثر تحريا لمصالح المتقاضين ومرافقهم من ذلك القانون الشرعى الذى يتناول مصالح الناس ويهيمن على مرافقهم ؟

فأصول الفقه الاسلامى ظلت مناط سعادة البشر منذ بعثة الرسول الأعظم ، وحكمت بها أمم وأجيال بعد انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى فى عهود متلاحقة تعتبر أزهى عصور التاريخ وأحفلها بالعظات والعظائم .

ولا أدل على ديمقراطية الشريعة الغراء وخلوصها الى الفطر والطبائع وتملكها للقلوب وأخذها بالهوادة والرفق ، من أعمال أئمة المسلمين وإقامتهم الحدود الواضحة لتكون مرد الناس فى أمر معاشهم ومعادهم ، ففى القرآن الكريم أحكام بعضها ناسخ وبعضها منسوخ ، وقد تتعارض السنة بحسب الظاهر ببعض الأحكام المستمدة من نصوص الكتاب ، فتفتقر الى بحث وترجيح من المجتهدين ، مما أدى الى نصب الخلاف بين العلماء تحريا لمناط الصواب واستهداء بأدق نصوص الكتاب ، وقد أخذ كل من المجتهدين رضوان الله عليهم يعزز رأيه وينصر مذهبه حتى تشعبت المذاهب ونحى كل مجتهد نحوا من الرأى يسانده بالحجة والدليل ، غير أنها تلاقت بعد ذلك فى أربعة من المجتهدين حوالى القرن الثانى والثالث من الهجرة ، وهم الأئمة الأعلام : أبوحنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وابن حنبل .

فالمذهب الحنفى وهو المنسوب الى الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان مبناه الرأى والقياس ، واعتبار العرف والعادة أصلا من الأصول ، وهو مذهب أهل العراق والهند والصين وما وراء الهند والعجم ، وهو كذلك مذهب الدولة العثمانية ، وأشهر الأئمة فيه هم أبو حنيفة وهو إمام المذهب ، وأصحابه أبو يوسف ومحمد والحسن بن زياد ، ورأى الامام مقدم عند تكافؤ الأدلة لأنه رب الدار ، ورب الدار أدرى بما فيها ، ومتى ظهرت قوة أى واحد من أئمة المذهب عمل برأيه ، وقد صرح الامام الاعظم لأتباعه بذلك ، فقد روى صاحب كتاب أنفع الوسائل ، وحكاه الامام الزركشى فى المحيط ، أن الامام أبا حنيفة قال لأصحابه يوما :

« متى ظهر لكم الدليل من كتاب الله أوسنة رسوله أو إجماع السلف الصالح فاعملوا به واضربوا برأيى عرض الحائط »

ومذهب المالكية هو المنسوب الى الامام مالك بن أنس رضى الله عنهما وهو طريق أهل الحديث ، واختص بهذا المذهب أهل المغرب والأندلس ؛ وأكثر الأقطار اتباعا له الممالك الافريقية .

أما المذهب الشافعى ، وصاحبه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، فهو على ما حكاه العلامة ابن الحاجب : نسج من رأيى الحنفى والمالكى ، وقد انتشر هذا المذهب فى مصر والعراق وخراسان وما وراء النهرين .

أما المذهب الحنبلى المنسوب الى احمد بن حنبل ، فدار أحكامه على القرآن وسنة الرسول ، وهو قليل الانتشار ، وأتباعه يوجدون فى العراق والشام .

وغير خاف على المطلعين من أهل الرأى أن القضاء الشرعى كان فى الماضى البعيد يتعدد بتعدد المذاهب ومعتنقيها ، فقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض يقضى بحسب نصوص مذهبه تبعا لمذهب المتقاضين ، وكان هذا النظام سائدا فى الديار المصرية لأنه يحقق رغبات المتقاضين المختلفة وينشد الطمأنينة الشاملة فى نفوس المتقاضين ، وقد ظل الحال كذلك الى أن استولى السلطان سليم على مصر عام ٩٢٣ فوحد القضاء من ذلك التاريخ وقصره على مذهب أبى حنيفة بحكم أن المذهب الحنفى هو مذهب السيادة العثمانية كما أسلفنا . وقد ظل هذا النظام معمولا به فى مصر حتى سنة ١٩٢٠ وما تلاها من السنين بعد أن أظهرت الحاجة الملحة بجلاء أن مرافق الناس قد تطورت ، وأن مذهب أبى حنيفة لم يعد يتسع للرخص التى يتطلبها العصر الجديد مسايرة للرغبات المتعارضة ، وأخذا على أيدى الذين يعبثون بمرافق الناس ومصالحهم ، فاقترح المصلحون من ذلك التاريخ من قضاة وعلماء اقتباس ما تمس اليه الحاجة من أحكام المذاهب الأخرى من غير مذهب أبى حنيفة ، وبقيت رسالة المذاهب الأخرى تنتشر فى أنحاء القضاء الشرعى .

وما يدرينا لعل فى القانون الموضوعى المزمع إبرازه ما ينتظم مجموعة خصبة من آراء الفقهاء المجتهدين والعلماء المشترعين فى المذاهب الأخرى .

بقى أن نعلم ما هو ذلك السبب الذى جعل مصر عاكفة حينا من الزمن على القضاء بمذهب أبى حنيفة فحسب بعد معرفتنا بأن ذلك النظام كان تابعا لتقليد عثمانى وضعه السلطان سليم أخذا بأحكام مذهبه ، فقد نقل العلامة الكبير عبد الفتاح بك السيد المستشار بمحكمة النقض أن البواعث التى حفزت العثمانيين يومئذ على اتخاذهم مذهب أبى حنيفة قاعدة لتقاضيهم مع سريانه الى الولايات التابعة ومصر منها فى الطليعة : أنه مشتمل دون سواه على اعتبارات فقهية تلائم أولياء الكلمة فى البلاد العثمانية ، وتقنع رغبات الذين يلون السلطة فيها وفى الولايات التابعة

لها ، وعلى مبادئ عصرية ليس لكل من يلى أمور البلاد معدى عنها ، وذلك يظهر فى الأحوال التالية :

١ — جواز تقليد الامام غير القرشى .

٢ — عدم ضمان ولى الأمر فى حالة ما إذا أمر بتعزير من استحق التعزير شرعا فمات فى أثنائه .

٣ — الترخيص لولى الأمر بان يأخذ من أرباب الأموال قهرا عنهم ما يكفى لتقوية الجيش عند الحاجة .

٤ — كون من أحيا أرضا مواتا لايملكها إلا إذا كان قد أحياها باذن من ولى الأمر .

٥ — الترخيص لولى الأمر إذا عجز صاحب الأرض الخراجية عن زراعتها وأداء خراجها بأن يؤجرها للغير رغما عنه ويأخذ من أجرتها مايفى بالخراج .

لكنك كما عرفت أن حاجة الناس قد تطورت الى أبعد من ذلك ، وأن السيطرة المدنية أمست مستأثرة بأكثر هذه المبادئ ، والعثمانيون كانوا فى أوسع المعاذير يوم كانت السيطرة للشريعة المطهرة وحدها دون سواها ، أما اليوم وقد تشعبت المسالك وتعدد القضاء فى مصر حتى وصل فى بعض الأحايين الى خمس جهات ، فليس ما يوجب بقاء مذهب أبى حنيفة وحده قاعدة للتقاضى مع مادفعت اليه الدوافع ودل عليه أصدق التجارب من تطور سريع يستتبع أخذ الناس بتشريعات ملائمة لما يطالعهم الزمن به من أحداث وحوافز .

وغنى عن البيان أن مصر وهى زعيمة الشرق لابد لها أن ترتكز فى طليعة وجودها الاستقلالى على أنظمة صالحة تتحرى مصالح الجمهور فى أكمل صورها وتنشد شكلا للقضاء الشرعى بنوع خاص يقيمه على أمتن الدعائم وأوثق العرى ويؤاخى فيه بين مصلحتى القضاء والمحاماة مع قيام المصلحة العامة رقيبة عليهما ، ويجعل من القاضى الشرعى خير الأمثلة لتحقيق العدالة والمساواة بين المتقاضين وبعث الطمأنينة الى قلوبهم على السواء .

أما الحديث عن القضاء الشرعى وكيف تطور فى أشكاله الى يومنا الراهن ، ثم عن النظام القضائى لغير المسلمين ، فموعدنا به بحوث تالية ، فالى الغد القريب ؟

عباس طه
المحامى الشرعى

(ليس هو صاحب السنن)

ورد فى مقال « دفاع عن القرآن الكريم » المنشور فى الجزء الرابع ترجمة عبد الله بن أبى داود ، فظن بعض القراء أنه هو سليمان بن الأشعث أبو داود صاحب السنن أحد كتب الحديث الستة . ومع أن فى المقال المذكور مايدفع هذا الظن فإنا ننبه على أن عبد الله بن أبى داود المترجم فى المقال المذكور ليس هو صاحب السنن ولكنه ابنه ، أما الأب فلا يختلف فى فضله اثنان .

كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان :

هذا كتاب للأستاذ المشهور عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة (٩٧٣) قام بطبعه حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله عبد الرازق خلف نبو الكردي بالجامع الأزهر . موضوع هذا الكتاب : الجواب على ثمانين مسألة وجهت الى الأستاذ الشعرانى فى أوقات مختلفة ، فجمع أجوبتها فى كتاب . أمثلة من تلك المسائل : إذا كان العبد يشهد أن أفعاله كلها خلق لله تعالى فلم يتوب ؟ هل خرج أحد من رق الأكوان وتحرر منها ؟ هل يمكن إزالة صفات النفس الردية بالرياضة ؟ كيف صح تعقل الوحدة الالهية ونحن لا نتعقل أنفسنا إلا اثنين روحا وجسما ؟ الخ .

فنشكر لحضرة ناشر الكتاب عمله ، لأن الأستاذ الشعرانى ممن يستأنس بآرائهم فى مثل هذه الشئون .

التشريع الاسلامى :

هى مجلة أسبوعية علمية قضائية تولى إصدارها فضيلة الأستاذ محمد افندى محمود بدير المحامى الشرعى ، قرأنا فى العدد الأول منها فصولا ممتعة فى التشريع الاسلامى وفى مبادئ أخذت بها المحاكم الشرعية ، وفى أحكام أصدرتها المحاكم فى شئون تهم القارئين معرفتها ، وللمجلة فوق ذلك صبغة علمية أدبية عامة ، يرجى أن تفتح لها مكانا بين صحافتنا الاسبوعية الراقية .

التحفة الفوزية فى تعليم الفارسية :

لنا مواطن مجتهد مخلص فى عمله فى أفغانستان يشغل هنالك وظيفة فى وزارة معارفها ، وقد اطلعنا على مؤلفات نافعة له فى تعليم اللغة العربية للافغانيين . وقد أتحفنا اليوم بكتاب فى تعليم اللغة الفارسية ، دعاه بالتحفة الفوزية ، إشارة الى أنه وضع الكتاب لحضرة صاحبة

السمو الملكى الأميرة فوزية مخطوبة حضرة صاحب السمو الامبراطورى ولى عهد الامبراطورية الايرانية . وقد سلك فى وضعه مسلكا جديرا بالاعجاب على الأسلوب التعليمى الأوربى ، وجعل فى آخره قاموسا يحتوى على جميع ما فى الكتاب من الكلمات فى اللغات الثلاث الايرانية والعربية والانجليزية ، فجاء عملا من أجمل الأعمال فى هذه الظروف . فنهنئ حضرته على هذا التوفيق .

مذكرة فى أحوال الوارثين على المذاهب الأربعة :

هذا كتاب جليل القدر وضعه فضيلة الأستاذ الشيخ على حسن حسن البولاقى خريج تخصص الأزهر والمدرس بمعهد الزقازيق فى المواريث على المذاهب الأربعة ، ضمنه حساب المواريث بأسهل الطرق ، فجاء ساد الحاجة ماسة من حاجات الناس التى تقع يوميا ويسأل عنها ، وإنا لنرجو أن يجد هذا الكتاب ما يستحقه من عناية الناس فان لمثله أمكنة خاصة من كل مكتبة منزلية ، وهو يقع فى أكثر من مائتى صفحة ، فنثنى على همة الأستاذ المؤلف ، ونرجو أن يكثر الله من أمثاله .

كتاب الاجناس :

هو كتاب ممتع وضعه إمام اللغة أبو عبيد القاسم بن سلام النحوى المتوفى سنة ٢٢٤ فيما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى من كلام العرب ، وهو موضوع مروض للعقل ومعلم فى آن واحد . قام بنشر هذا الكتاب السادة شرف الدين الكتبي وأولاده بمدينة بومبى بالهند ، فنشكر لهم هذه الخدمة اللغوية الجليلة .

استدراك

وقع فى الجزء الخامس الخطأ الآتى :

ص	س	خطأ	صواب
٢٩١	٥	مائة جلدة	ثمانين جلدة
٣٣٢	١٤	والد أبى سلمة	أخا أبى سلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

العالم كله يتلمس دين الفطرة اليوم

المستقبل للاسلام

إن الدراسات الدينية التى توالت فى العالم المتمدن منذ أكثر من مائة سنة ، كشفت عن أمور كثيرة جديرة بانعام النظر ، أولها أن التدين صفة عامة لجميع بنى البشر حديثهم وقديمهم ، فلم يُعثر على أمة لادين لها ، ولا على قبيل من القبائل البائدة قبل أن يدون التاريخ إلا ولها آثار تدل على أنها كانت تدين لِنِحلة ، وأنها كانت تعرف أن وراء المحسوسات عالما محجوبا عن الأبصار فيه كائنات تُرجى معونتها ، وتُستدر رحمتها .

ولما انتصف القرن التاسع عشر ، زادت الدراسات الدينية تغلغلا فى صميم الأديان القديمة فظهر مابينها جميعا من الصلات الوثيقة ، وما يجمعها من العقائد والتقاليد .

كان مذهب الماديين فى تدين الانسان الى ما قبل مائة وخمسين سنة ، أن الانسان لما ظهرت فيه صفة التعقل ، واتسع مداها للخيالات والتصورات ، اضطر حيال المخاوف التى تحيط به من كل جانب ، والمخاطر التى تناوئه من كل مكان ، أن يعتصم بملجأ يحتمى فيه من هذه النوازل ولو توهما ، فلجأ الى خياله ، فصور له عالما عاليا وراء هذا العالم تعمره آلهة وأنصاف آلهة وملائكة مقربون ، وأن من هذا العالم تتنزل على الناس النعم والنقم ، ومنها تصدر الأوامر لعوامل الطبيعة أن تسخو على بعض الناس وأن تضن على آخرين . وما زال بهم الخيال حتى صور لهم ما يجب أن يتقرب به الى تلك الأرواح العلوية من القرابين والهدايا المنوعة من الأطعمة ومن ضروب العبادات ، ركوعا وسجودا ، وصياما وجهادا الخ . ومن هذه الحالة الساذجة نشأت الأديان الكبرى المعروفة ، حاملة طابع واضعيها من الرجال أصحاب المطامع الواسعة ، أو من الرجال ذوى العقول الراقية من أمثال (باسكال) و (جول سيمون) و (أرنست رينان) وأضرابهم ، ممن وصلوا من العقيدة بالخالق الى درجة التوحيد والتنزيه المطلقين . ولم يحفز العلماء الماديين الى مثل هذا التطرف فى الحكم إلا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم أنه لا سبيل الى سائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمس .

ولكن الروحيين ، ونريد بهم الذين يعتقدون بأن العالم مركب من عنصرين : أحدهما مادى فانٍ ، والآخر روحانى باق ، فقد قرروا أن الانسان اهتدى الى عالم الروح بما ركب فيه منه ، ولولا ذلك لم يشعر به ولم يهتد اليه ، وقد أظهر الانسان حتى فى أشد أدوار توحشه تعلقه

بذلك العالم ، واعتداده به أكثر مما أظهر من تعلقه بالعالم المادى . ومن يتأمل فيما فرضه على نفسه من العبادات الجسدية ، والتضحيات القربانية ، والشكائم التى اتخذها لصد ميوله طائعا مختارا ، يجد أن أثر العالم الروحانى على نفسه كان شديدا الى حد لا يمكن القول معه بمذهب الحسيين . فلو كان الخوف من جوائح الحياة هو الذى اضطر الانسان للجأ الى عالم ما وراء الطبيعة ، لخفت وطأة الاضطرار عنه كلما ازداد علمه بأسباب تلك الجوائح ، ولكن المشاهد خلاف هذا ، فقد اشتد تطلع أهل العلم الى ذلك العالم اشتدادا بزوا به المتوحشين والجهال أضعافا مضاعفة . ولا يعقل أن مثل الطبيعى العبقرى (باسكال) ، والفيلسوف السياسى الخطير (جول سيمون) ، والنقادة الفيلسوف الكبير (ارنست رينان) وغيرهم يبقون على أثر وراثى سداه ولحمته الوهم ، ولا يتخلصون منه مع بلوغهم درجة الامامة فى الفلسفة والنظر السليم .

لا جرم أن نظرية الماديين قد سقطت حتى فى نظر العلماء الذين لا يؤيدون الأديان الشكلية مثل جيو (Guyo) مثلا ، فقد كتب فى كتابه (اللادينية فى المستقبل) يقول :

« إن نظرية الفلاسفة الحسيين كان ينتظر سيادتها المطلقة على العقول منذ بضع سنين ، وقد كان رضيها الكثيرون بدون أن يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية ، أما الآن فقد اتضح أنها واهية »

أما النظرية السائدة اليوم فى البيئات العالية للدراسات الفلسفية بسبب أنها غير ظنية ، ويمكن تحقيقها إذا صعد الانسان ببحثه الى مناشئ العقائد الانسانية . وهذا الأمر مهما كان صعبا ، فان وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد ، هو الأستاذ الطائر الصيت «ماكس موللر» الألمانى ، فانه كتب فيه كتابا جليلا أسماه (أصل الدين وارتقاؤه) أثبت فيه بالنصوص الدينية السنسكريتية ، وهى أبعد الديانات عهدا وأقدمها تاريخا ، بأن الانسان أول ما عبد عبد الخالق جل وعلا على صفته غير المحدودة . وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الانسان للمس كل ما يشعر به فى نفسه ، قال :

« إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلا طرأ على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية . وبناء على هذا ، فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق ، حتى قبل أن يجسروا على الاشارة اليه باسم »

ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الأديان كلها واحد ، وما استدعى اختلافها إلا ما أحدثته النزعات الانسانية ، والأهواء النفسانية من حب التحديد والتقييد والحصر .

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل ، وهو مصداق لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس

فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم »

أما قول الماديين السابق فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطاع أن يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط ببعيد عنهم ، فانهم متى آنسوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف فى التفلسف ، وملأوا الأرض احتمالات وفروضا . ولو كانت أعرق فى السفسطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله أولا . سلهم قائلا : هل يعقل أن الانسان يعبد شيئا مجسما قبل أن تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور أن الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب أكب يعبد الحجارة والجبال ، والأودية والأشجار ، دون أن يكون له شعور ولو مبهم ، سابق على ذلك التحديد ؟ لا يتصور غير ذلك بوجه من الوجوه . إذن فأول عبادة قام بها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الحق المنزه عن الحدود والقيود . وقد جاءت البحوث التى قام بها ماكس موللر مؤيدة لذلك كل التأييد كما رأيت .

يقول الماديون ، مما يدل على أن آباءنا الأولين كانوا محددين مجسمين : لا مطلعين ولا منزهين أن لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد ، فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية) .

نقول أن خلو اللغة منها لايدل على عدم وجود معناها . على أنها فى كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما فى أثناء التخاطب ، كقولنا لانهاية ولا حد ، أولا غاية ، أو لا آخر وهكذا . ومع هذا فان اللغات القديمة قاصرة عن أشياء كثيرة حتى فى المحسوسات ، فلم يوجد فى واحدة منها الاشارة الى تدرج الألوان وتداخل بعضها فى بعض بدون حد ، وليس فى أغلبها إلا أربعة ألوان فقط . الأبيض ، والأسود والأحمر والأصفر ، فهل يصح أن يقال أنهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الألوان والسماء فوق رءوسهم تتألق فى حلتها الزرقاء ؟ . على أن فكرة (أللا نهاية) يميل إليها المتوحش أكثر مما يميل إليها المتمدن . ألست ترى أن الجاهل من الناس إذا أراد أن يصف لك اتساع بلدة من البلاد لم يجد فى ذهنه من أوصاف المبالغة ما هو أقرب من قوله : تلك بلدة ليس لها أول ولا آخر ؟ وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين أكثر مما يشاهد عند من عداهم . إذن فنظرية الماديين قاصرة ، ولم يَحْدُهم الى القول بها إلا أصولهم القاضية عليهم بعزو جميع المدركات الى الحواس الخمس ، وما أضيق هذا المجال وأحرجه

وقد سبق لنا أن بينا فى مقال خاص بأن فى ثبوت أن أول ما كان الانسان عليه من الدين

التوحيد الخالص من شوائب الخيالات ، وأنه كان عاما فى جميع النوع البشرى ، فلما دخلت عليه التلوينات الخيالية تعددت أشكاله ، وتنوعت صوره ، وذهب كل فريق من الناس بما تأثر به عقله منها ، فأصبح للناس أديان شتى ، وابتنى على تكثرها وقوع النزاع بين الجماعات البشرية ، قلنا سبق لنا أن بينا أن فى ثبوت هـذه الحقائق ثبوتا علميا فى أخريات القرن التاسع عشر معجزة علمية للقرآن وللنبى صلى الله عليه وسلم معا .

فان قول الأستاذ (ماكس موللر) إن الانسان مفطور على توحيد الله ، يعد منه ترديدا لقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وقد رأيت أن هذا الأمر لم يطرأ فى عالم الدراسات الدينية إلا فى أخريات القرن التاسع عشر ، ولم يذعه إلا كتاب الأستاذ (ماكس موللر) فى سنة ١٨٨٩ .

وفى قوله : إن النوع البشرى كان له دين واحد ، هوماذكره آنفا من التوحيد ، فهو موافق لما ذكر فى القرآن نفسه قبل حدوثه بنحو ثلاثة عشر قرنا ، وهو قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية ، ومعناها كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فأرسل الله لهم أنبياء ورسلا يهدونهم الى الحق ، وهم مااختلفوا إلا بسبب ماتسلط عليهم من الخيالات والصور الذهنية المختلفة ، وذلك بدليل قوله تعالى فى آية أخرى : « وما كان الناس إلا أمـة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » ومعناها صريح جدا وهو أن الناس كانوا فى مبدأ أمرهم على دين الفطرة الحق ، فاختلفوا باتباع الأهواء ، والأخذ بالأباطيل ، ولولا كلمة سبقت بتأخير معاقبتهم الى يوم القيامـة ، لقضى بينهم عاجلا فيما فيه يختلفون ، باهلاك المبطل ، واستبقاء المحق .

فهـذا الاستكشاف العلمى الذى لم يَحْدُ الأستاذ (ماكس موللر) اليه تصديق القرآن فيما ذكره عن دين الانسان ، ولـكن حفزه اليه ما ثبت من مراجعة أقدم المخطوطات والمحفورات البشرية فى اللغات الهندية القديمـة ، وفى البيئة التى يرجح أن الانسان الأول سكنها وتـكاثر فيها ، وانتشر منها الى سائر بقاع الأرض .

وزاد الله تعالى هـذا الأمر بيانا فصرح بأن الاسلام الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدين جديد ، ولـكنه الدين الأول الذى أنزله على نوح ، وهو معدود أبا البشر الثانى ، فانه قـد ثبت أن جوائح مائية كانت اجتاحت ذرية آدم الى نوح وكان عـددهم قليلا على نسبة قرب نوح من آدم .

وقد اشتبه على بعض الناظرين هذا الأمر ، وقالوا : كيف يطغى الماء على اليابسة فيجتاح أمة برمتها ، كأنهم لا يعلمون أن الحوادث الأرضية كثيرا ما أحدثت ما يعرفه من تتبع أدوار

الخليقة حتى بعد تدوين التاريخ ، فقد ثار مرة بركان فيزوف سنة (٧٩) بعد الميلاد فغمر مدينة بومبيتى برمتها ، وأباد أهلها جميعا وهم لاهون (١) وكثيرا ما حدث زلزال فأطغى السائلة على اليابسة ، وأهلك مئات الألوف كما حدث فى مسينا من إيطاليا سنة ١٩١٠ إذ زلزلت الأرض هنالك زلزالا شديدا ، فهدم الدور على أهلها ، وأطغى المياه على المدينة ، فقتل من أهلها نحو مائتين وخمسين ألفا ، وكانت كارثة ارتاع لها الناس جميعا .

وقد حدث زلزال منذ نحو عشر سنين فى اليابان ، كان لا يقل فى شدته عن زلزال مسينا . وثارت أواذى البحر فأغارت على الشواطىء ، فأغرقت ألوفا مؤلفة .

والأعاصير متى أطلق لها العنان أحدثت من الخسائر مالا يدخل تحت حصر ، وقذفت بالمياه على الأرض ، فاجتاحت جماعات برمتها ، والتلغرافات العالمية تنقل الينا هذه الحوادث من حين الى حين .

الخلاصة ، أن العالم اليوم يتطلب الدين الأول للانسان الموافق للغريزة التى فطر عليها الانسان خالصة من شوائب الخيالات ، وهذا هو الاسلام بأخص معانيه ، وليس له معنى غيره ، وإن كان لا بد من الاستشهاد بقول عالم اجتماعى على صحة مانقول ، فهذا الأستاذ (هنرى بيرنجية) يقول كما ورد فى المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية :

« إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ، فأنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية ، بل شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه » .

الى أن قال : « هذه هى الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المستحيل عليه أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

محمد فريد وجدى

(١) بومبيتى هذه مدينة من مقاطعة نابولى بايطالية كانت معتبرة ملهى لاسرياء الرومانيين ، وكان يسكنها ثلاثون ألف نفس ، فلما ثار بركان فيزوف القريب منها غمرها كلها فجأة بطبقات من الرمال والصخور السائلة والحمم البركانية ، ثم عفى عليها النسيان حتى كانت سنة ١٧٤٨ فعثر فلاح إيطالى على تماثيل على الارض ، فأمرت الحكومة بالحفر هنالك ، فانكشفت لهم المدينة ، ومازالوا يحفرون حتى جردوا الحمم عن ثلاثة أخماسها فرأوا ما يدهش من مباغتات الهلاك : وجدوا أنه قد أخذهم طوفان الحمم وهم يأكلون ويشربون ، ويبيعون ويشترون ، ويتنزهون ويلعبون ، واستفاد التاريخ بكشف الانقاض عن هذه المدينة كثيرا من عادات الرومانيين وطراز حياتهم وشكل معيشتهم البيتية والاجتماعية .

التفسير

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

ذكرنا فى مقالنا السابق أن القرآن يدل على أن الانسان محيط به الخسر من كل جوانبه ، كما تشير اليه كلمة « فى » ، فكأن الخسر ظرف له يتقلب فيه ولا يخرج عن محيطه « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الخ .

وقد قال بعض الحكماء : إذا فسد الانسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان أو فساد أو عناد ، فإنه مستعد لشر لا نهاية له كما أنه مستعد لخير لا نهاية له ، فإن سار فى طريق الشر أفيض عليه من وسائله والترقى فيه ما لا يعلمه إلا الله ، وإن سار فى طريق الخير أفيض عليه من وسائله والترقى فيه ما تغبطه عليه الملائكة .

وبالجملة فالانسان محل الابتلاء والاختبار بين تيارات متعاكسة وعواطف متخالفة ، وأهواء متضادة ، ولا نجاة له من ذلك إلا بالالتجاء الى الله ، والتزام ما رسم له من خطط ومناهج : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وقد قال على كرم الله وجهه مبينا لضعف الانسان وخلقته العجيبة : « أعجب ما فى الانسان قلبه : له مواد من الحكمة وأضداد من الطيش والسفه ، إن سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعف بما يهوى نسى التحفظ ، وإن ناله الخوف فضحه الجزع ، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله الفقر ، وإن جهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط فى الشبع أضرته البطنة ، وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . وهو لا يكاد يخلو من إفراط أو تفريط .

وكل هذا يشرح لنا قوله تعالى : « وخُلق الانسانُ ضعيفا » ، وقوله عز وجل : « لقد خلقنا الانسان فى كَبَد »

وقد جاءت الشرائع لترشده الى طريق الخير والفلاح ، وتهديه الصراط المستقيم الذى يوصله الى الفوز الدائم والسعادة الأبدية . وما حقّرت فى نظره الدنيا وقالت له : إن الآخرة هى دار القرار ، إلا لتريحه من همومها وغمومها ، فانها منبع البلاء وأس الشقاء ، ولا ينجو من شباكها وارتباكها « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

يريد الله بهذا الاستثناء وهذه الأوصاف أنهم آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم « وتواصوا بالحق » وهو أداء الطاعات وترك المحرمات « وتواصوا بالصبر » على المصائب والأقدار ، وما عسى أن يكون من أذى من يؤذيهم عند ما يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ، فانهم لشدة محبتهم للصالحات وقوة حدبهم على أبناء جنسهم ومزيد رحمتهم باخوانهم لا يقتصرون على ما يخصهم ، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ، ليكملوا فى أنفسهم ، وليكونوا بعد ذلك سببا لكمال غيرهم ، فإن ذلك شأن أهل الدين وورثة المرسلين . وقد قال الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » ، وقال : « إنما المؤمنون إخوة » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه »

ويكفينا فى هذا الموضوع أن القرآن يخبرنا عن سبب لعن الذين كفروا من بنى إسراءيل على لسان داود وعيسى بن مريم : أنهم « كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه »

والتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكاليف فى القيام بما هو مطلوب واجتناب ما هو منهى عنه ، إذ الاقدام على ما تكرهه النفس والاحجام عما تحبه صعب شديد ، ولا سبيل الى ذلك كله إلا بالصبر .

ولا بد أن يكون لاح لك مما قدمناه أن فى هذه السورة الجليلة وعيدا شديدا يجب الانتباه له والالتفات اليه ، فإنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر . فكما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه دعاء غيره الى الدين ، والعمل الصالح ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذل النصيحة بقدر المستطاع . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم ، فإن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وقد كرر تعالى التواصى للحض على الدعاء الى الله ، ثم الثبات عليه بحيث لا يضجر ولا يمل ، وعلى المؤمن أن يقبل الموعظة الحسنة ولا ينفر منها ، فان ذلك ملاك سعادته . وقد قال عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأ أهدى الىّ عيوبى » .

وبالجملة : فهذه السورة تنبئنا أن الناس كلهم فى غفلة عما يراد بهم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فانهم فى تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس ،

وقدموا الباقيات الصالحات على الغاديات الرائحات ، فيالها من صفقة ما أربحها ، وبغية ما أنجحها !

هـذا ويدخل فى عموم الصبر : الصـبر عن المعاصى التى تشتاق اليها النفس بحكم الجبـلة البشرية ، والصبر على الطاعات التى يشق على النفس أداؤها ، والصبر على ما يبتلى الله عز وجل به عباده من البلايا والمصائب ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر على البعد عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عنـد الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وقد قالوا : إن الصبر على البلاء بضاعة الصديقين . ويروى عن داود عليه السلام أنه قال : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . ويقول بعض العارفين : إن أجر الصابرين فيما فاتهم مما كانوا يريدون : أعظم من النعمة عليهم فيما يعـطَوْنه من محبوباتهم . فعـلى الانسان أن يدفع الجزع عن نفسه بالتفكير فيما سيناله من الثواب الباقى والنعيم الدائم .

وتأمل كثيرا فى قوله تعالى : « إنمـا يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، فقد جعل تعالى كل شىء بحساب إلا أجر الصابرين فإنه بغير حساب . ولله در من قال :

عطيتُـه إذا أعطى سرور وإن أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا وأحمد عنـد منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت سرورا أم الأخرى التى أهدت ثوابا

والخلاصة: أن الناجين من هذا النوع الإنسانى هم الذين آمنوا بشرف الفضيلة وخسة الرذيلة ، كما يشير إليه قوله تعالى: « وصَدّق بالحسنى » وهم الذين آمنوا بالجزاء وجميع ما جاء به الرسل ثم عملوا الصالحات : بأن يكون كل إنسان نافعا لنفسه وأهله ولقومه وللناس أجمعين ، بعيدا من أن يضر أحـدا (إلا لـكف ضرر أعظم منـه) ، ثم يدأب على التواصى بالحق والصبر ، فإن التواصى بالحق والصبر حفاظ كل خـير ، ورأس كل أمر .

فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل النـاس بعضهم بعضا عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التى لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل ، وأن يبعدوا بأنفسم عن الأوهام والخيالات التى لا دليل عليها ولا فطرة تهدى إليها .

ومعـلوم أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر . وقـد قال صلى الله عليه وسلم : «لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خيارُكم فلا يستجاب لهم » . ويقول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا

منكم خاصة » « فلما نسُوا ما ذُكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » ، ومن الذين ظلموا ، الذين لا ينهون عن السوء كما هو واضح من الآية ، فإنه ما نجا إلا الذين ينهون عن السوء .

هذا وأظنك فى غنى عن أن أقول لك : إن ذكر الصبر بعد الحق مع دخوله فيه لكمال الاعتناء به ، أو نقول : إن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى الله تعالى ، والثانى رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله تعالى .

ولنقف هنا اليوم ، ونرجو أن يكون لنا جولة نتمم بها هذا المقام ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

فى ذم النميمة

قال الله تعالى فى ذم الكفار : « هماز مشاء بنميم » .

وقال الحكماء : « لم يمش ماش ، شر من واش ، والساعى بالنميمة يهلك نفسه ، ومن سعى به ، ومن سعى اليه » .

وحكى : أن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان العتبى رأى رجلا يسعى برجل عند صديق له ، فقال له : نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه لسانك عن التكلم به ، فان السامع شريك القائل ، وإنما نظر شر ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة ساع الى فيه ، لسعد رادها كما شقى قائلها ، والنمام شر من الساحر ، فإن النمام يفسد فى الساعة الواحدة ما لا يفسد الساحر فى المدة الطويلة .

وأتى رجل عبد الله بن عباس وهو والى البصرة من قبل على بن أبى طالب بنميمة ، فقال له : إن شئت سألنا عما جئت به فإن كنت صادقا مقتناك ، وإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن شئت أقلناك . فقال الرجل : إن شئت أن تفعل فافعل .

وقال شاعر :

توخ من الطرق أوساطها ... وعد عن الجانب المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع الحديث ... شريك لقائله فانتبه

السنة

حكم خروج النساء من بيوتهن

وما يتعلق بذلك

عن عائشة قالت « خرجت سودةُ بنتُ زَمْعة ليلا فرآها عمر فعرفها ، فقال : إنك والله يا سودة ما تَخفَيْن علينا ، فرجعتْ الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتْ ذلك له وهو فى حُجرتى يتعشَّى وإن فى يده لَعَرْقا (١) ، فأنزل الله عليه ، فرُفع عنه وهو يقول : قد أذِن الله لكنّ أن تخرُجن لحوائجكن » . رواه البخارى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه . (٢) حكم خروج النساء لمصلحة دينية أو دنيوية . (٣) الاسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة فى الحقوق العامة والواجبات إلا فيما تأباه طبيعة كل منهما .

(١) معنى الحديث ظاهر : وهو أن سودة بنت زمعة إحدى أزواج الرسول صلوات الله عليه خرجت من دارها ليلا بعد نزول آية الحجاب لقضاء حاجة ، وكانت طويلة القامة ، فرآها عمر رضى الله عنه فعرفها بطول قامتها ، فناداها بقوله : إنك ياسودة ما تخفين علينا ، ليلفتها الى أن خروجها من دارها ينافى الحجاب المطلوب بالنسبة لها ، لأنها تعرف بقامتها وإن كانت مستترة ، فكأن عمر قد فهم من آية الحجاب (الآتى بيانها) أن المرأة مأمورة باجتناب كل ما يدل عليها ويجعلها معروفة للناس .

وكان رضى الله عنه غيورا على المؤمنات ، حريصا على محو عادات أهل الجاهلية وآثارهم الذميمة ، لما كان يعرفه من فضائحهم ، وانتهاك حرمات الأخلاق بينهم ، وكان من شر عاداتهم تهتك النساء واختلاطهن بالرجال اختلاطا معيبا أفضى الى إباحتهن واحتقارهن فى نظر الرجال الى أبعد مدى .

فلما سمعته سودة رجعت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان موجودا عند عائشة وقتئذ يتعشى فى حجرتها ، فأخبرته بما وقع من عمر ، فأوحى الله إليه أن حجاب المرأة ليس معناه

---

(١) العرق بفتح العين : العظم بلحمه ، فاذا أكل لحمه سمى عراقا بضم العين .

حبسها فى المنزل بحيث لا تخرج منه ، وإنما معناه ستر جسمها وزينتها عن أعين الرجال كى لا تغرى بها أهل الفسوق الذين لا يبالون بالآداب والأخلاق ، فلها أن تخرج لقضاء حاجتها وهى مستترة بساتر يحجب بدنها عن أعين الرجال الذين يساقون بدافع شهواتهم الى الاعتداء على حقوق غيرهم من حيث لا يشعرون ، وذلك هو معنى الحجاب المفروض على النساء فى قوله تعالى : « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . ومعنى الآية : أنه لا يجوز لنساء الرسول أن يختلطن بالرجال ويكلموهم بدون ساتر يغطى أبدانهن ويسترها عن أعينهم من ملاءة ونحوها .

فآية الحجاب نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس من المعقول أبدا أن يفرض الله على نساء الرسول التحجب عن الرجال وهن أمهاتهم دفعا للريبة المتوهمة ، ويبيح للنساء المؤمنات غيرهن الاختلاط بالرجال وهن مكشوفات .

فما أورده بعض الناظرين من أن هذا الحكم خاص بنساء الرسول فلا يكلف به سواهن ، لاقيمة له مطلقا . على أن علة الأمر بالحجاب نص الله عليها ، وهى قطع وساوس الشهوة من النفوس وتطهيرها منها كى لا يكون للشيطان سبيل عليها . وظاهر أن نساء النبى لا يطمع فيهن أحد من المسلمين وهن أمهات المؤمنين ، وإن وجد شخص ضعيف النفس والمروءة وحدثته نفسه بذلك كان نادرا لا يعبأ به . فالمقصود بهذا الحكم النساء عامة ، وإنما بدأ بنساء النبى ليعلم الناس ما لاختلاط النساء بالرجال من خطر شديد .

على أن الآية التى بعد هذا تدل على غرض الشارع من الحجاب ، وتبين أنه عام يشمل زوجات النبى وسائر نساء المؤمنين ، وهى قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرَفْن فلا يؤذَيْن » . والجلباب رداء خاص تستتر به المرأة من رأسها الى قدمها ، يشبه الملاءة ونحوها . ومعنى يدنين الجلباب : يرخينه عليهن ويغطين به وجوههن وأبدانهن . ومعنى قوله تعالى : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » : ذلك أقرب الى معرفتهن وتمييزهن من الإماء اللاتى كان يقصدهن يومئذ بعض فاسدى الأخلاق . وذلك لأنهم كانوا يتعرضون للإماء حين يخرجن مع النساء ليلا لقضاء حاجتهن فيختلطن بالحرائر فيصيب الحرائر أذى المتعرضين من حيث لا يقصدونهن . فأمر الله الحرائر بتغطية وجوههن ليمتزن عن الإماء فلا يصل إليهن أذى المتعرضين .

وحاصل المعنى : أن نساء المؤمنين كن يخرجن بعد آية الحجاب وأبدانهن ورءوسهن مستورة بالجلباب ، ولكن وجوههن مكشوفة كالإماء ، فترتب على ذلك عدم تمييزهن من الإماء ليلا ، فأمرهن الله بتغطية وجوههن كى لا يتعرض لهن أحد .

ومن هذا يتضح أن كشف وجه المرأة لا يجوز إذا تعرض لها بعض فاسدى الأخلاق

فى الطرق ، وأن غرض الشريعة الاسـلامية من الحجاب هو صيانة الآداب العامة ، والقضاء على فوضى الأخلاق فى كل زمان ومكان . فلو أن المسلمين عرفوا هذا المعنى وعلموه لأزواجهم وبناتهم ، لقضوا على التبرج وفساد الأخلاق ، وحفظوا بذلك أعراضهم وأنسابهم .

وبعد : فهل للمرأة أن تكشف وجهها إذا لم يترتب على كشفه فساد ؟

الجواب : أن جمهور الأئمة يقـولون بجواز ذلك ، فاذا لم يترتب على كشف الوجه افتتان بالمرأة أو تحرش بها أو إغراء لها على الفساد ، كان كشف وجهها جائزا . وخالف الشافعيـة فى ذلك فقالوا : إن وجه المرأة عورة فلا يصح كشفه للرجال ، بخـلاف وجه الرجل فانه ليس بعورة فيصح للمرأة أن تنظر اليه عند أمن الفساد باتفاق الجميع .

(٢) مما لاريب فيه أن الشريعة الاسلامية قد حررت المرأة من قيود الجاهلية، وجعلت لها مكانتها اللائقة بها فى المجتمع الانسانى ، وأباحت لها فعـل كل ما لا نقيصة فيه ، فلم تمنعهن من الخروج من ديارهن لقضاء حوائجهن إلا إذا ترتب على ذلك الخروج شر يضر المرأة ويفسد أخـلاقها . فللمرأة أن تخرج من دارها وهى مستترة غير متبرجة ، ولها أن تذهب الى محال العبادة وتحضر مجالس الوعظ . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى هذه الإباحة . وقد جاء أيضا فى الحديث المتفق عليه، عن أم عطية الأنصارية أنها قالت : «أمرنا أن نخرج العواتق والحُـيّض فى العيدين يشهدن الخير ودعوة المسلمين ويعتزل الحـيّضُ المصلى». والعواتق : البنات الأبكار البالغات والمقاربات للبلوغ . ومعناه ظاهر ، وهو أن النساء سواء كن بالغات أولا يجب على أولياء أمورهن أن يخرجوهن ليحضروا مجالس الخير . أما ما روى عن عائشة من أنها قالت : « لو رأى النبى صلى الله عليه وسـلم ما أحدثه النساء لمنعهن عن المساجد » فليس فيه ما يدل على حكم شرعى بل هو من باب زجر النساء اللاتى يخرجن عن قواعد الحجاب وآداب الاسلام ، فهو من باب لفت النظر الى ما سنه الرسول صلوات الله عليه وعدم الخروج عنه .

وبالجملة : فان قواعد الدين الاسلامى قد أباحت للمرأة أن تسلك كل سبيل لا ريبة فيه ، وأن تباشر الأعمال الدينية التى فيها مشاق وأسفار طويلة ، ففرض الله على المرأة الحج مع زوجها أو مع ذى رحم محرم كابنها وأخيها وعمها ، وجعل للرجل الحق فى أن يصحب زوجه فى أسفاره الى أى جهة مأمونة . ولـكن كل ذلك مشروط بأن لا يترتب على خروجها فساد خلقى ، وأن لا تخرج متبرجة تعرض زينتها وبدنها للرائين ، وأن يكون خروجها بإذن زوجها . فمتى توفرت هذه الشروط جاز للمرأة أن تخرج لقضاء حوائجها ، وحضور مجالس العلم والوعظ بلا نزاع ، فاذا تعرض لها شخص فاسد الأخلاق بأذى بعد ذلك كان حقيرا فى ذاته حقيرا عند الله والناس جميعا

(٣) ومن هذا تعلم أن الشريعة الاسلامية إنما أمرت النساء بالحجاب لما يترتب على التبرج من فساد خلقى ، لا لنقص طبيعى فى المرأة يقتضى حبسها ، بل قد سوّت الشريعة بين الرجل

والمرأة فى الحقوق والواجبات العامة الدنيوية والأخروية ، إلا فيما لا تقتضيه طبيعة كل منهما ، فأما الحقوق الدنيوية فان معظمها وأهمها يرجع الى باب الأموال ، وقد سوت الشريعة الاسلامية بين الرجل والمرأة فى هـذا الباب ، فلم تجعل لأحدهما ميزة على صاحبه فى ذلك ، فللمرأة حرية التصرف فى مالها مادامت رشيدة مكلفة كالرجل سواء بسواء ، ولا يحجر عليها فى تصرفها إلا بسبب من الأسباب الموجبة للحجر كما يحجر على الرجل بذلك السبب . نعم إن بعض الأئمة قال إن للرجل حق التصرف فى بعض أموال امرأته بدون إذنها ، وله الحق فى أن يحجر عليها فى ذلك القدر . ولـكن جمهور الأئمة على خلاف ذلك . وهذه ميزة عظيمة تدل على ما للمرأة من المكانة والتقدير فى نظر الشريعة الاسلامية ، فان حرية التصرف فى باب المال دليل واضح على اعتبار المرأة وتقديرها ، فما دامت المـرأة حرة التصرف فى مالها من بيع وشراء وهبة وصدقة وإجارة وغير ذلك من أنواع العقود بحيث لا تصح إلا إذا صدرت منها أو من وكيلها ، كانت فى نظر الشريعة الاسلامية عاملا قويا فى بناء دعائم العمران وخدمة المجتمع .

فللمرأة الحق المطلق فى أن تتصرف فى مالها فيما ينفعها حال حياتها وبعـد مماتها ، وليس لزوجها ولا لغيره أن يمنعها من حقها فى التصرف .

وبديهى أن إنفاق المال على وجه صالح ينفع المجتمع ، له أكبر الأثر فى تخليد ذكرى الانسان فى الدنيا ، وهـو من أكبر الوسائل الموجبة للسعادة الأخروية . فاذا أتيح للمرأة أن تكون خالدة فى هذه الحياة الدنيا بما تنفقه من أموالها فى إصلاح حال المجتمع ، وأن تكون لها فى الآخرة أسمى المنازل وأرفع الدرجات بلا فرق بينها وبين الرجل ، لم يكن وراء ذلك شىء ينقص أجرها أو يقلل احترامها .

ولعل قائلا يقول : إن الشريعة الاسلامية وإن سوت بين الرجل والمرأة فى باب التصرف بصورة واسعة ، ولـكنها لم تسو بينهما فى قسمة الميراث حيث جعلت لها نصف الرجل .

والجواب عن ذلك : هـو أن قسمة الميراث بالصورة التى جاء بها القرآن الـكريم مطابقة للنظم الاجتماعية فى كل زمان ومكان ، بحيث لو خرج الناس عنها قيد شعرة لـكان ذلك إجحافا معيبا . وذلك لأن الرجـل يجب أن يمتاز بهذه الميزة المـادية لمـا تستلزمه حياته من تـكاليف تزيد عن حياة المرأة المسلمة ، فالرجـل مكلف بأن ينفق على المرأة كل ما تحتاج اليه من طعام وشراب وسكن بحسب حاله وحالها ، ومكلف بأن ينفق على أولاده وأقربائه الفقراء ، ومكلف بالدفاع عن عرضه ووطنه ، ومكلف بأن يقوم بأعباء ما تستدعيه العـادة والعرف من ضيافة ونحوها . كل ذلك يجب على الرجل أن يقوم به وحـده . أما المرأة فانه لا يجب عليها شىء من ذلك مادام الرجل موجودا . فالمال الذى ترثه المرأة يعد ربحاً خالصا لها قد لا يساويه نصيب الرجل المضاعف الذى تكتنفه مطالب كثيرة .

فمن الغفلة أن يقال : إن المرأة مغبونة فى الميراث ، بل المعقول الظاهر أن المرأة لو زادت عن هـذا القدر لـكان ذلك إجحافا ظاهرا بالرجل . وهـذه المعانى لا يصح لمشرع أن يغفل عنها ، وإلا كان تشريعه ظالما فى الواقع ، فيتبرم به الناس عندما يصطدمون بالحوادث الطبيعية .

فالشريعة الاسلامية قدرت المرأة حق قدرها فى باب المـال فأعطتها النصيب اللائق بها ، وجعلت لها حق التصرف فى نصيبها كالرجل سواء بسواء .

وقد ظن بعض الجهلة بالتشريع وطبائع الأمم أن الشريعة الاسلامية مهينة للمرأة فى هذه الناحية ، وقد غفلوا عن أن بعض الأمم العريقة فى المدنية تجعل للرجل حق الحجر على زوجه فى تصرفها المـالى ، وبعضها يرى الحق فى الميراث لولد المتوفى الأكبر . ولـكن الشريعة الاسلامية قد نظرت الى المصلحة من جميع جهاتها ، وقررت العدل المطلق الذى لا يختل ميزانه فى وقت من الأوقات ، فهى صادرة عن إله عليم خبير بلا نزاع .

وأما الحقوق الأخروية فالتسوية فيها كاملة تامة ، وقد صرح القرآن الـكريم بذلك ، قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّـه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، فهذه الآية صريحة فى تسوية المرأة بالرجل فى الجزاء الأخروى بلا فرق ، وكذلك آية « إن المسلمين والمسلمات » الى قوله « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . وإذا كانت المرأة مساوية للرجل فى الحقوق الدنيوية العامة ، ومساوية له فى النعيم الخالد يوم القيامة ، فمن السخف أن يقال : إن المرأة أحط قدرا وأضعف منزلة من الرجل فى نظر الشريعة الاسلامية . ولـكن الشريعة الاسلامية أحاطتها بما يصون عرضها ويحفظ لها كرامتها ، لأن لها حالة اقتضتها طبيعة الأنوثة ، فرفعت عنها تكاليف الحياة ومشاقها ، وقصرتها على تدبير منزلها ومراقبة تربية أبنائها وبناتها وهم فى مهدهم ، وحتمت عليها أن تلزمهم وتعلمهم الأدب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الزموا أولادكم وعلموهم الأدب » . فإن لم ينشّأ الصغير على الفضيلة عاداها وتعود الشهوات الفاسدة ، فصار عضوا فاسدا فى المجتمع يضر ولا ينفـع . وكلفت الرجال باحتمال مشاق الحياة وتكاليفها ، والعمل على صيانة زوجه وأولاده من الضياع ، والقيام عليهم بما يحوطهم ويرعاهم بحسب ما يتاح له فى هـذه الحياة . ومما لا ريب فيه أن ذلك هو المناسب اللائق لطبيعة كل منهما . فعلى الرجل الـكد وتحصيل المـال اللازم بقدر ما يستطيع تحصيله ، وعلى المرأة أن تدبر منزلها ، وأن ترعى أولادها ، وتهىء لهم طعامهم وشرابهم بحسب حالهم وحالها . فالرجل عامل فى تكوين الأسرة وتربيتها فى الخارج ، والمرأة عاملة فى تكوين الأسرة وتدبيرها فى الداخل ؟

(يتبـع)

عبد الرحمن الجزيرى

سيرة خالد بن الوليد

إذا أعربت براعة الأدباء وأبدعت عبقرية الشعراء فى تراجم الأبطال الفاتحين ذوى البسالة الخارقة والآثار الخالدة ، فانما يترجمون عن خالد بن الوليد بصفته زعيم جماعتهم وكبير قوادهم ، ولا يذكرون أحدا منهم بجانبه إلا كما تذكر البئر بجانب البحر ، أو النجم بجانب البدر ، أو الهر بجانب الهزبر .

نسبه :

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب ، يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع أبى بكر فى مرة بن كعب . وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة ، ونشأ بها فى بيت منيع وشرف رفيع ، بين فرسان لا تغرب الشمس يومئذ على مثلهم ، فلما بلغ أشده كان واسطة عقدهم وفارس حلبتهم وحامل لوائهم ، ولم يزل معهم يقاتل وعنهم يناضل حتى صقلته الخطوب وصهرته الحروب ، فأصبح بعد هذا البلاء الحسن مضرب الأمثال فى جميع الأجيال ، كدأب أبيه إذ يقول الله تعالى فيه : « ذرنى ومن خلقتُ وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهّدت له تمهيدا » إلا أن الله قد أعز خالدا بالاسلام وأتعس أباه بالكفر .

إسلامه :

يقول خالد عن سبب إسلامه : « لما أراد الله عز وجل ما أراد من الخير ، قذف فى قلبى حب الاسلام ، وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم فليس موطن أشهده إلا انصرفت منه وأنا أرى فى نفسى أنى فى غير شىء وأن محمدا سيظهر ولا بد ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء تغيبت عنه ولم أشهد دخوله مكة بل دخلها معه أخى الوليد ، فطلبنى عليه الصلاة والسلام فلم يجدنى ، فكتب أخى الوليد الىّ كتابا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد : فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقل كعقلك لا يجهل مثل الاسلام لأنه لا يجهله أحد ، وقد سألنى رسول الله صلى

الله عليه وسلم عنك فقال لى : أين خالد ؟ فقلت : يأتى الله به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مامثله يجهل الاسلام ، ولو يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدّمناه على غيره » . فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة » . قال فلما قرأت هذا الكتاب نشطت وازددت رغبة فى الاسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فىّ ، ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت منها الى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج الى المدينة المنورة ، لقيت صفوان بن أمية فقلت له : يأبا وهب : أما ترى أن محمدا قد ظهر على العرب والعجم ؟ فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا ! فقال : لولم يكن يبقى غيرى ما اتبعته أبدا ! فقلت فى نفسى : هذا رجل قتل محمد أباه وأخاه ببدر . ثم إنى لقيت عثمان بن أبى طلحة الحجبى الذى قتل محمد أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة : الحرث ، ومنافع ، والحلاس ، وكلاب ، يوم أحد ، فكرهت أن أذكر له ذلك ، ثم رجوت الخير فيه فقلت له ما قلت لصفوان ، فأسرع الإجابة وواعدنى إن سبقنى أقام بمحل كذا ، وإن سبقته اليه انتظرته فيه ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا الى الهدوة ، وهى اسم محل بطريق المدينة ، وإذا بعمرو بن العاص قد أقبل فقال : مرحبا بالقوم . فقلنا : وبك ياعمرو ! فقال : الى أين مسيركم ؟ قلنا : للدخول فى الاسلام . فقال : وذلك هو الذى أقدمنى . فتصاحبنا حتى أتينا المدينة فالتقينا فى الطريق بأخى الوليد بن الوليد فسلم علينا ثم قال : أسرعوا فى مشيكم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سر بقدومكم . فأسرعنا حتى انتهينا الى الرسول والمسلمون حوله فرحون بإسلامنا . فتقدمت فبايعته وقلت له : « إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » . فقال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى هداك . قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا الى خير » . ثم تقدم عثمان بن أبى طلحة وعمرو بن العاص فبايعا كذلك .

بطولته وإمارته :

لقد كان خالد بطلا عالميا ، وسيدا عصاميا ، وأميرا عبقريا ، أبىّ النفس ، ذهبى المعدن ، ذكى القلب قوى الساعد ، كبير العقل ، بعيد النظر ، رحب الصدر ، كالبحر الزاخر ثباتا ، والليث الزائر إقداما . وكان مفزع قومه فى كل غارة شنت منهم أو عليهم ، وكان معقل أمنهم فى كل حرب طاحنة ، يتقون به إذا دارت رحاها واندلع لهيبها . وكأنى به وقد تقلد سيفه وتنكب قوسه وامتطى جواده وهو يجول فى ميدان القتال ويقول :

لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

وإن تعجب فعجب كل العجب موقفه الخطير بغزوة مؤتة ، حيث تسلم القيادة بعد قتل الأمراء الثلاثة ، وبعد أن كاد جيش المسلمين يولى الأدبار لأنهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف

ولا يقل عدوهم عن مائة ألف . فلما نادى فيهم المنادى لخالد تراجعوا الى صفوفهم ، ودارت رحى القتال بينهم وبين عدوهم ، فحمل عليهم خالد حملة جبارة كانت موضع إعجاب العالم أجمع ، فقد تكسرت فى يده يومئذ تسعة أسياف . وفى اليوم التالى رتب خالد جيشه على وضع آخر : فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، وجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، ثم واجه الكفار به وقد تغيرت أوضاعه ونظمه ، فظنوا أنه مدد جاء للمسلمين ، فخارت قواهم ، وارتعدت فرائصهم ، وارتحل الخوف بهم الى بلادهم ، بعد أن قتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وأخذوا بعض أمتعتهم .

قال أبو محمد بدر الدين العينى فى شرحه على البخارى : لقد رفعت الأرض يوم مؤتة لسيد البشر ، فلما أخذ خالد اللواء قال صلى الله عليه وسلم : « الآن حمى الوطيس ، اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره » ! فمن يومئذ سمى خالد سيف الله .

أقول : لو أن عنترة بن شداد العبسى أدرك خالدا فى هذا الموقف الرهيب لآثره بمدحه وقال له : أنت أحق منى بقولى :

ملأت الأرض خوفا من حسامى وخصمى لم يجد فيها اتساعا
ولو أرسلت رمحى مع جبان لكان بهيبتى يلقى السباعا

لأن عنترة يقول عن نفسه فى بعض مواقفه :

نزلت عن الجواد وسقت جيشا بسيفى مثل سوقى للنياق
وفى باقى النهار ضعفت حتى أسرت وقد عى عضدى وساقى

أما خالد فقد قاتل فى موقف واحد بتسعة أسياف تغللت مضاربها فى صدور الأعداء ونحورهم ولم يلحقه كلل ولا ملل ولا إعياء . فهو إذا بهذا الساعد الصلب والساق المفتولة أحق من عنترة بقوله :

خلقت من الحديد أشد قلبا وقد بلى الحديد وما بليت

وهو إذاً جدير بكل ما أسند إليه من قيادة الجيوش فى كل أطوار حياته . فقد ثبت أن أعنة الخيل كانت له فى الجاهلية وبعد الجاهلية مع كفار قريش فى كل مشاهد هم الأثيمة ، ما عدا الحديبية فإنه لم يشهدها . ولما أعزه الله بالاسلام كانت له أعنة الخيل أيضا ، فقد صح أن سيد البشر صلى الله عليه وسلم قلده الولاية العامة لأعنة الخيل ، وأوصى به أصحابه ، قال عمرو بن العاص : « والله ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد فى أمر حزبه منذ أسلمنا ، وكذلك كنا عند أبى بكر وعمر رضى الله عنهما » . وقد أخرج الامام أحمد عن أبى عبيدة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة » . وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «خالد سيف من سيوف

الله سله الله على المشركين » . ولا أذهب بعيدا إذا قلت إن أبا بكر قد جعل خالدا عدلا لعمر ابن الخطاب فى ولاية تمناها وندم على فوات الفرصة فيها ، حدّث ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد أن أبا بكر قال فى مرض موته ، بعد أن عدد أشياء كانت له رغبة فى فعلها وأخرى كانت له رغبة فى تركها : وددت أنى وجهت خالد بن الوليد الى الشام ، ووجهت عمر بن الخطاب الى العراق ، فأكون قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله .

تحمل ديات بنى جذيمة عنه :

أخرج البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى بنى جذيمة فدعاهم الى الاسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع الى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يومُ أمْرِ خالد أن يقتل كلُّ رجل منا أسيره ، فقلت والله لا أقتل أسيرى ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره ، حتى قَدِمنا على النبى صلى الله عليه وسلم فذكرناه ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد - مرتين » ! أقول: ذكر الامام أبو محمد العينى فى شرحه على البخارى أن ابن عمر راوى الحديث قد فهم عن القوم أنهم أرادوا بقولهم صبأنا : أسلمنا ، فلذلك أقسم بالله عن نفسه وعن أصحابه أن أحدا منهم لا يقتل أسيره . وأما خالد فانه قد علم أن القوم لا يعجزهم أن يقولوا أسلمنا مكان صبأنا ، لأنهم من العرب ولسانهم عربى ، فلما قالوا : صبأنا صبأنا ، فهم منهم أنهم لم يصرحوا بكلمة الاسلام أنفة واستكبارا كما هو الحال فى بنى إسرائيل إذ قال الله لهم: « ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » فقالوا : حنطة ، فلذلك عاقبهم خالد بالقتل والأسر . وما كان انتقاد النبى عليه إلا لتعجله وعدم تثبته من أمرهم من غير جناح ولا إثم ، لأنه قد اجتهد فأخطأ ، وكان خطؤه فى مهمة دولية لا شخصية ، فلذلك تحمل النبى صلى الله عليه وسلم عنه دياتهم . ثم استدعى على بن أبى طالب فقال له : « اخرج الى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج علىّ ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفع لهم ديات الدماء وما أصيب من الأموال حتى ميلغة الكلب ، وبقيت معه بقية من المال فقال لهم : « هل بقى لكم دم أومال لم يود ؟ » قالوا : لا ، قال : « فانى أعطيكم هذه البقية احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يعلم ولا تعلمون » ، ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل ، فقال له : « أصبت وأحسنت » .

ولنا أن نقول اقتداء بالرسول : لقد أصاب أبو بكر وأحسن أيضا فى عفوه عن خالد فى دماء مالك بن نويرة ومن معه ، كما عفا عنه صلى الله عليه وسلم فى دماء بنى جذيمة . وكان من حديث مالك بن نويرة وقومه أنهم منعوا الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم خالد من قبل أبى بكر ندموا على ما فعلوا وأدوا الصدقة على أصولها ، وبقى مالك فى جماعة

منهم متحيرا مترددا بين إخـراجها ومنعها ، ثم تفرقوا على ذلك ، فبعث خالد فى طلبهم فجىء بهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم ، فلما وصل الخبر الى دار الخلافة طلب عمر من أبى بكر أن يقتص من خالد وألح فى الطلب ، فقال له أبو بكر : « يا عمر تأوّلَ خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عنه فإنى لا أثلم سيفا سلّه الله على الكافرين »

كرامته ومكانته عند الله :

ورد فى النصائح لابن ظفر أن خالد بن الوليد رضى الله عنه لما تحصن منه أهل الحيرة أرسل اليهم أن ابعثوا لى رجلا من عقلائكم ، فأرسلوا اليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغسانى وكان من المعمَّرين ، وكان فى يد عبد المسيح قارورة ، فقال له خالد : ما الذى فى هذه القارورة ؟ قال : سم ساعة . قال : ما تصنع به ؟ قال : إن وجدت عندك ما أحبه لقومى وأهل بلدى حمدت الله وقبلته ، وإن لم أجـد ذلك شربته وقتلت نفسى به ولا أرجع لقومى بما يسوؤهم ! فقال خالد رضى الله عنه : هاتها . فناوله القارورة فأفرغها خالد فى راحته وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ، بسم الله رب الأرض والسماء ، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم . ثم شربه فغشيه عرق ثم سُرّى عنه ، فانصرف عبد المسيح الى قومه ، وكانوا نصارى نسطورية إلا أنهم عرب ، فقال لهم : جئتكم من عند رجل شرب سم ساعة فلم يضره ، فأعطوه ما سألكم ، وأخرجوه من أرضكم راضيا ، فهؤلاء قوم مصنوع لهم وسيكون لهم شأن عظيم . فصالحوه على ثمانين ألف درهم من الفضة .

أقـول : لا غرابة فى هـذا ، ولا يرد : كيف لا يؤثر السم فى خالد مع أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فى كل عام حتى قطعت أبهرى » ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد رغب الى الله فى شرف الموت على الشهادة حتى لا تفوته فضيلتها ، فحقق الله له فى تلك الموقعة الكيدية أمورا ثلاثة : (١) تكليم العظم له ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » (٢) عدم تأثير السم فيه صلى الله عليه وسلم بدليل أن بشر بن البراء مات من تلك الأكلة دون النبى صلى الله عليه وسلم ، (٣) الموت على الشهادة تحقيقا لرغبته الشريفة حيث انقطع أبهره ، وهو العرق المتصل بالقلب .

عزل عمر له وجعل أبى عبيدة مكانه :

لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالدا عن القيادة العامة وأسندها لأبى عبيدة أثناء وقعة اليرموك على أحد الرأيين المذكورين فى كتب التاريخ ، أو حين حصار دمشق كما هو الرأى الآخر ، ومعاذ الله أن يكون ذلك لموجدة فى نفس عمر أو لمنقصة فى خالد ،

بل لأنه كان ميمون النقيبة مبارك الطلعة ، قد حالف الظفر والنصر وحالفاه فى كل حروبه ، فخاف عليه عمر فى دينه من الاعجاب بنفسه فعزله ، كما خاف على ولده عبد الله بن عمر فى دينه فلم يعهد اليه الخلافة بعد أن رغبت الصحابة فى البيعة له . ولنا على ذلك دليلان : (١) أنه اعتذر اليه بقوله : ما عزلتك لريبة فيك ولكن قد افتتن الناس بك فخفت أن تفتتن بهم » (٢) أنه كان يترحم على أبى بكر ويصفه بأنه كان أعرف بالرجال منه حيث أسند ولاية الأعنة لخالد . ويؤيد هذا ما ورد فى التاريخ أن خالدا بعد أن فتح قنسرين بلغه أن هرقل يؤلب الجيوش لرد المسلمين عن حصار حمص، فخف لنجدتهم قبل أن يأتيه أمر من أبى عبيدة ، فلما بلغ ذلك عمر أثنى عليه وقال : « لقد أمّر خالد نفسه ، فرحم الله أبابكر لقد كان أعلم بالرجال منى » . على أن عمر قد أطلق لخالد اليد والعنان بعد طول اختبار وحسن بلاء ، فلم يزل خالد بعد ذلك يطارد هرقل من بلد الى أخرى حتى خرج من سورية وهو يقول : « السلام عليك ياسورية سلام من لا يراك بعد » .

وبالجملة : فقد كان خالد علما من الأعلام فى الدين والحرب والتدبير ، وكان له الأثر الحسن فى قمع الفتن وتقويض دعائم الشرك ، واتساع نطاق الفتح . وكان من أشد الناس بحثا عن سيرة جنده ومراقبتهم ، حتى قيل إنه وجد قارورة خمر فى يد جندى فقال له : ما هذه ؟ قال : قارورة خل . قال : هى خل ، فكانت خلا كما قال . وقد بقى رضى الله عنه متغلغلا فى الحروب حتى أتم فتح الشام والعراق ، واتخذ بعد ذلك مدينة حمص وطنا له الى أن توفى فيها سنة ٥١ ودفن بها داخل مسجد عامر مسمى باسمه .

روى أنه لما حضرته الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ! والله أعلم .

سيد أحمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر

آراء الشباب

كان بعض الحكماء يقول : عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشبان لأن لهم أذهانا تقد الفياصل ، وتحطم الذوابل .

وقال غيره : آراء الشبان خضرة نضرة ، لم يهصر غصنها هرم ، ولا أذوى زهرها قدم ، ولا خبا من ذكائها بطول المدة ضرم .

ولكن يرى الأكثرون أن آراء الشيوخ خير من آراء الأحداث ، فانهم بما اختبروه من الصروف ، وما عركوه من الأمور ، يدركون من لباب المسائل ما لا يدركه من يدفع فى هذه المضايق .

اللغة العربية بين القوة والضعف

دعائم الاصلاح

— ٦ —

تأبى طبيعة الحوادث فى هذا العصر « الأرعن » أن تخضع لقوانين الريث والأناة، أو بعبارة أخرى قوانين الدرس الفاحص، والفحص الدقيق، فمنذ أن أخذنا نعالج موضوع اللغة العربية فى ألسنة أبناء العرب، وبرامج الدراسة فى المعاهد والمدارس، والحوادث تتلاحق ويطوى بعضها بعضا وفى ثناياها مفاجآت تستوقف النظر، وتستدعى كثيرا من التأمل، فقد حمدنا لوزارة المعارف أخذها بزمام الأمر فى قضية اللغة ومشكلتها المدرسية، وعرضنا آراء رجالها، وتربصنا مع المتربصين لنرى الوسائل العملية التى ستعمد إليها الوزارة لتصل من طريقها الى الاصلاح المنشود، وإذا بالصحافة تطلع علينا بمشروع إصلاح مدرسة دار العلوم بعد الذى كان من شأن الوزارة فى هذا العهد، وتأليفها لجنة تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، وتناسى الأزهر فى تلك اللجنة، مما تحدثنا عنه فى مقالنا السابق، وعتبنا على الوزارة عتبا رفيقا، ورجونا أن تتدارك الأمر بحكمة تحفظ على أكبر معهد عربى إسلامى فى الشرق قاطبة كرامته، وأوضحنا ما فى ذلك التناسى من مباعدة بين معاهد العلم المتجانسة فى طبيعتها الدراسية تجانسا يقضى بوحدتها لتتضافر الجهود على خدمة الأمة وتثقيف أبنائها، ويتوفر لها هذا الجهد الموزع، والمال المبعثر، والوقت الذاهب فى غير منفعة قيمة.

إصلاح أى معهد من معاهد العلم لا نعارضه ولا نكرهه، ولا سيما إذا كان ذلك المعهد من المعاهد التاريخية التى استطاعت بفضل جدها وقوة حيويتها أن تسجل لها فضلا كبيرا فى نهضة الأمة الثقافية، وفى خدمة اللغة العربية وآدابها وفنونها كمدرسة دار العلوم التى نقدرها تمام التقدير، ولكن الذى نكرهه ونعارضه أشد المعارضة، ونحب أن يتنزه عنه من وضع الله فى أيديهم مستقبل تربية الأمة وتهذيبها والاشراف على ثقافتها — هو العمل تحت ستار الاصلاح على تقويض دعائم الوحدة الثقافية التى يجب أن تحقَّق فى عصرنا الحاضر بين معاهدنا المتجانسة فى برامجها ووجهتها، فان العالم أجمع تنبه الى ضرورة هذه الوحدة الثقافية فأسرع إليها الخطى، وتحققت فى كثير من الأمم التى تربطها وشائج عنصرية أو روابط أدبية، ونحن فى الشرق العربى، بله مصر زعيمة هذا الشرق، أحوج ما نكون الى التقريب بين معاهدنا فى برامجها وتوحيد ثقافتها، لأن الاعتماد على الثقافة أصبح من دعائم السياسة الظافرة، وقد أحس المسئولون من رجالنا نفع هذا التوحيد الثقافى ونادوا به، وليس ببعيد ما نشرته

الصحافة عقب انتهاء دورة المؤتمر الطبي الأخيرة التى انعقدت فى العراق ، وحضرها كثير من أقطاب المصريين ورجالات وزارة المعارف ، من أحاديث وآراء لسعادة الأستاذ الجليل العشماوى بك وكيل معارفنا فى وجوب العمل على توحيد الثقافة فى الأقطار العربية بقدر ما تسمح به تقاليد كل أمة فى ظل الفصحى ، وقد لقى هـذا الاتجاه فى مصر والعراق وسائر أقطار الضاد ترحيبا ردّدته الصحافة ، واستبشر به المصلحون والأدباء ، ورأوا فيه سراجا يضىء أمام الشرق ليل مستقبله الداجى ، ويوطد عرش الزعامة لمصر ، ويفتح أمامها من أبواب الأمل ما هى خليقة به فى عهدها الزاهر .

إن مشروع إصلاح دار العلوم الذى أخرجته وزارة المعارف فى عهد صاحب المعالى هيكل باشا ، لا يترك مجالا للذين يريدون توحيد الثقافة الأدبية فى معاهدها ، بل يوصد أبواب الأمل أمام المصلحين الذين يعنون بقضية اللغة العربية ورفع مستوى الطلبة ، ويوسع شقة الخصومة بين ثلاثة معاهد عليا تخدم اللغة العربية والأدب العربى ، هى الأزهر ومعاهده وكلياته ، وكلية الآداب وشعبتها العربية ، ودار العلوم . ولست الآن بصدد مناقشة المشروع من الوجهة العملية أو من الوجهة الفنية ، ولكنى أتحدث عنه من وجهة ما يخلفه وراءه من نتائج لست أدرى أ كانت مقدرة فى أذهان واضعى المشروع والآمرين به أم لم تكن منهم على ذكر ؟ !

إن توحيد البرامج الدراسية للغة العربيـة فى معاهدها أول وأهم دعائم الاصلاح ، وكل عمل يعتمد على إهدار هذه الدعامة فهو هباء لا قيمة له ، لأن فنون اللغة العربية مهما اختلفت فروعها وتنوعت طرائق دراستها فهى ثقافة من نوع واحد يجب أن يكون حاذقوها متحدى المشارب ، ولا يتأتى ذلك إلا بتوحيد برامج الدراسة ، وقد أبنّا أن دار العلوم فى نظامها القديم كانت تسير مع الأزهر العتيد فى طريق واحد ، وتدرس ما يدرسه الأزهر من فنون وكتب ، ولولا النظام الدراسى الذى أخذت به دار العلوم نفسها منذ نشأتها مسايرة لطبيعة العصر فى تجديد طرق التربية والتهذيب لعددناها قسما من أقسام الأزهر ، وليس من شك فى أن هذا التقارب ، بل الوحدة فى الجوهر ، بين هـذين المعهدين العظيمين كانت تقتضى من المصلحين شيئا من الشجاعة ومواجهة الحقيقة فى الجهر بضم دار العلوم الى أحضان منبعها الذى أمدها طوال عمرها المبارك بأنضر أزاهيره التى تفتحت فيها فكان منها هـذا الأريج الذى ملأ الشرق بعبيقه ، ولكن الأزهر العتيد لم يكن من طبعه التسرع ، بل كان رزينا هادئا ، نظر الى الأمر الواقع فرأى أنه فى حاجة الى مسايرة الحياة وتجديد نظامه الدراسى وأخذه بطرائق التربية الحديثة ، فتم له ما أراد مع الاحتفاظ بصبغته القومية ، وكانت كلية اللغة العربيـة إحدى الكليات التى أوجدها نظام الجامعة الأزهرية على أحدث طرز عرفته

الجامعات الكبرى ، وكانت دار العلوم أول المعاهد وأقربها وشيجة بطبيعة الجامعة الأزهرية ونظامها الدراسى الجديد ، فاستعان بها الأزهر ، وفتح أمام أساتذتها أبوابه ، وجعل من كلية اللغة العربية دار علوم أزهرية ، تدرس دراسة الأزهر فى البحث والتعمق ، ولكنها فى نظامها وأساتذتها معهد جديد كل الجدة بالنسبة الى الأزهر قبل نظامه الحديث ، وإن شئت فقل : هى دار العلوم مجددة بصبغة أزهرية ، فالطلبة الذين كان الأزهر يغذى بهم مدرسة دار العلوم هم الذين اقتعدوا كراسى كلية اللغة ، والأساتذة الذين يدرسون لطلبة دار العلوم هم الذين يدرسون لطلبة كلية اللغة ، والكتب والفنون التى يدرسها الدرعميون هى الكتب والفنون التى يدرسها الأزهريون فى كلية اللغة ، ويزيدون بصبغتهم الأزهرية فى البحث العميق والنقد الدقيق ، مما يعرفه لهم أساتذتهم الدرعميون ، وفى كلية اللغة العربية الى جانب أساتذة دار العلوم طائفة عظيمة من نوابغ الأزهر وأذكيائه الذين استنارت أفكارهم فجمعوا بين القديم والحديث يدرسون لطلبة الكلية كتبا أزهرية وفنونا عربية إسلامية دراسة تجمع الى البحث والنقد التطبيق والذوق ، وهى ميزة تحتاجها الدراسات الجامعية الراسخة .

وقد فَرض نظام الجامعة الأزهرية لكلية اللغة قسم تخصص فى المهنة ، جعله لدراسة التربية الحديثة وطرق التعليم وجميع ما يحتاج اليه المعلم فى حياته المدرسية ، مما يزيد فى قيمة هذه الكلية العظيمة ، ويجعلها أصلح معهد لتخريج أساتذة يقومون على تربية النشء تربية فاضلة .

ليت شعرى فيم كان هذا التغيير والتبديل لنظام معهد كان بطبيعته يسير الى منبعه ليتلاقى معه فى كلية اللغة التى نشأت وسارت فى دراستها كما وصفنا ، وقد خرجت طلبة تولى امتحانهم رجال المعارف فعرفوا فيهم الكفاءة العلمية والحذق الفنى لطرق التربية والتعليم؟ !

نعم : إن النظام الجديد لمدرسة دار العلوم ربط بينها وبين الأزهر برباط قوى ، فأبقى لها حق استقائها من أبنائه ، ولكن هذا لا يزيل الاعتراض ولا يحل المشكلة ، لأن المسألة لا ينظر اليها من هذا الأفق الضيق ، بل الواجب يقضى بالنظر فيها من الوجهة القومية التى يقصد بها مصلحة الأمة فى مستقبلها الثقافى ، وتلك المصلحة القومية تحتم توحيد المعاهد التى تقوم بدراسة اللغة العربية والأدب العربى وفنونهما ، وقد كاد يتم هذا التوحيد بين الأزهر ممثلا فى كلية اللغة وبين مدرسة دار العلوم ، ولم يكن ليقف أمامه إلا شىء من روح التفاهم بين أساتذة وطلبة المعهدين ، وهم إخوان متقاربو الثقافة والأخلاق ، بل متحدوها ، فجاء هذا النظام المبتدع مباعدا بينهما مشعبا لبرامج الدراسة اللغوية ، مما يؤدى حتما الى اختلاف النزعات ، وتأريث نيران التعصب المعهدى الذى يقضى على الوئام العلمى والصداقة الروحية لأبناء الأمة المستظلين بثقافة واحدة .

إن هناك فكرة صالحة كانت تؤدى الى الغرض المقصود من إصلاح دار العلوم والاحتفاظ بها مع التوفيق فى التوحيد الدراسى ، ذلك أن تجعل دار العلوم قسما تخصصيا يدخله حامل الشهادة العالية من كلية اللغة ، ويقضى فيه سنتين يدرس فيهما التربية وعلم النفس وطرق التعليم دراسة تفصيلية تكوّن الطالب تكوينا فنيا بعد تكوينه العلمى فى أقسام الأزهر وكليته ، وهو القسم الموجود الآن بتخصص الأزهر تحت اسم تخصص المهنة ، وبذلك يتسع الأفق أمام الطلاب والخريجين ، فيأخذ الأزهر منهم حاجته ، وتأخذ الوزارة حاجتها ، ويسود الوفاق العلمى جو المعاهد اللغوية الأدبية . وليس من العسير أن تحتفظ دار العلوم مع ذلك بشخصيتها ، فلا مانع أن تبقى مستقلة نوع استقلال فى نظامها وإدارتها ، تحت إشراف مشترك بين الأزهر ووزارة المعارف ، لا يعسر على المصلحين التوفيق فيه بين مصلحة العلم فى دائرة تقاليد المعهدين .

عندئذ يصح أن يكون المصلحون قد نجحوا فى مهمتهم التى تخلق تيارا فكريا يتجه الى الشرق العربى فيعمل فيه عمله فى توحيد الثقافة العربية حتى تستعيد لغة القرآن الكريم مجدها وسيادتها الأدبية ؟

صادق ابراهيم عرجون

العلم وفضيلة طلبه

قال حكيم : « العلم أفضل مكتسب ، وأكرم منتسب ، وأشرف ذخيرة تقتنى ، وأطيب ثمرة تجتنى ، وبه يتوصل الى معرفة الحقائق ، ويتوصل الى رضاء الخالق ، وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها ، وأكرم فروعه وأزكاها ، لا يضيع أبدا صاحبه ، ولا يفتقر كاسبه ، ولا يخيب طالبه ، ولا تنحط مراتبه .

وقال شاعر :

العلم فيه جلالة ومهابة ... والعلم أنفع من كنوز الجوهر
تفنى الكنوز على الزمان وصرفه ... والعلم يبقى باقيات الأعصر

وقال غيره :

أجل ما يبتغى يوما ويكتسب ... ويجتنى من حلى الدنيا وينتخب
علم شريف عميم النفع قد رفعت ... لحامليه بآفاق العلا رتب
إن عاش عاش جميلا ساميا أبدا ... لا يستضام ولا ينسى فيجتنب
وإن تمت فثناء شائع حسن ... وبعدها رحمة ترجى وترتقب

أصول التشريع

– ٣ –

بحث فى الاجتهاد والاجماع

(١) من هو المجتهد الذى يتأدى به فرض الاجتهاد ؟
(٢) ما مراتب الاجتهاد ؟ (٣) ما هى طبقات الفقهاء والمجتهدين ؟

أثبتنا فيما سبق بما نشرناه من نصوص العلماء من جميع المذاهب أن الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات ، وأنه لا يجوز شرعا انقطاعه ، ولا خلو العصر منه ، وأنه متى قصّر أهل العصر حتى تركوه أثموا كلهم ، وعصوا بأسرهم ، وهذا هو الذى يحفظ جدة الشريعة الاسلامية الغراء ، ويديم نشاطها ونهضتها وعدم فتورها ، ويضمن صلاحيتها لكل زمان ومكان ، ويجعلها تكفى أحكام الحوادث والوقائع التى تحدث وتتجدد كل يوم . فمن هو المجتهد الذى يتأدى به فرض الاجتهاد ؟ وما أنواع المجتهدين ؟ وما مراتب الاجتهاد ؟

قال الامام الجلال السيوطى : لهج كثير من الناس اليوم(١) بأن المجتهد المطلق فقد من قديم ، وأنه لم يوجد من دهر إلا المجتهد المقيد ، وهذا غلط منهم ، ما وقفوا على كلام العلماء ، ولا عرفوا الفرق بين المجتهد المطلق ، والمجتهد المستقل ، ولا بين المجتهد المقيد ، والمجتهد المنتسب ، وبين كل مما ذكر فرق ، ولهذا ترى أن من وقع فى عبارته أن المجتهد المستقل مفقود من دهر ، ينص فى موضع آخر على وجود المجتهد المطلق .

والتحقيق فى ذلك : أن المجتهد المطلق أعم من المجتهد المستقل ، وغير المجتهد المقيد ، فان المستقل هو الذى استقل بقواعد لنفسه يبنى عليها الفقه خارجا عن قواعد المذهب المقررة .

وأما المجتهد المطلق غير المستقل فهو الذى وجدت فيه شروط الاجتهاد التى اتصف بها المجتهد المستقل ، ثم لم يبتكر لنفسه قواعد ، بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب فى الاجتهاد ، فهذا مطلق منتسب لا مستقل ، ولا مقيد . هذا تحرير الفرق بينهما ، فبين المستقل والمطلق عموم وخصوص ، فكل مستقل مطلق ، وليس كل مطلق مستقلا .

وبهذا الذى ذكر صرّح ابن الصلاح ، ثم النووى ، قال فى شرح المهذب :

« المفتون قسمان : مستقل ، وغيره

(١) ولد السيوطى سنة ٨٤٩ وتوفى سنة ٩١١ هـ .

فالمستقل شرطه :

١ — أن يكون قيما بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية من الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وما التحق بها على التفصيل .

٢ — وأن يكون عالما بما يشترط فى الأدلة ، ووجوه دلالتها ، وبكيفية اقتباس الأحكام منها . وهذا يستفاد من أصول الفقه .

٣ — عارفا من علوم القرآن ، والحديث ، والناسخ والمنسوخ ، والنحو واللغة والتصريف ، واختلاف العلماء واتفاقهم ، بالقدر الذى يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها .

٤ — ذا دربة وارتياض فى استعمال ذلك .

٥ — عالما بالفقه ، ضابطا لأمهات مسائله وتفاريعه .

فمن جمع هذه الأوصاف فهو المفتى المطلق المستقل ، الذى يتأدى به فرض الكفاية ، وهو المجتهد المطلق المستقل ، لأنه يستقل بالأدلة بغير تقليد وتقيدٍ بمذهب أحد .

القسم الثانى : المفتى الذى ليس بمستقل .

ومن دهر طويل عدم المفتى المستقل ، وصارت الفتوى الى المنتسبين الى أئمة المذاهب المتبوعة .

وللمفتى المنتسب أربعة أحوال :

أحدها : أن لا يكون مقلدا لإمامه لا فى المذهب ، ولا فى دليله ، لا تصافه بصفة المستقل ، وإنما ينتسب اليه لسلوكه طريقه فى الاجتهاد .

وادعى الأستاذ أبو إسحاق هذه الصفة لأصحابنا ، فحكى عن أصحاب مالك وأحمد وداود وأكثر الحنفية أنهم صاروا الى مذاهب أئمتهم تقليدا لهم ؛ ثم قال : والصحيح الذى ذهب اليه المحققون ما ذهب اليه أصحابنا وهو أنهم صاروا الى مذهب الشافعى لا تقليدا له ، بل لما وجدوا طريقه فى الاجتهاد والقياس أسدّ الطرق ، ولم يكن لهم بد من الاجتهاد ، سلكوا طريقه ، فطلبوا معرفة الأحكام عن طريق الشافعى .

وذكر أبو على السِّنجى نحو هذا فقال : اتبعنا الشافعى دون غيره لأنا وجدنا قوله أرجح الأقوال وأعدلها ، لا أنا قلدناه .

قال النووى — من زياداته ما نصه : قلت هذا الذى ذكراه موافق لما أمرهم به الشافعى ثم المزنى فى أول مختصره وغيره : من نهيه عن تقليده وتقليد غيره . قال : ثم فتوى المفتى فى هذه الحال كفتوى المستقل فى العمل بها والاعتداد بها فى الإجماع والخلاف .

الحالة الثانية : أن يكون مجتهدا مقيدا فى مذهب إمامه مستقلا بتقرير أصوله بالدليل ، غير أنه لا يتجاوز فى أدلته أصول إمامه وقواعده . وشرطه كونه عالما بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلا ، بصيرا بمسالك الأقيسة والمعانى ، تام الارتياض فى التخريج والاستنباط ، قيما بإلحاق ما ليس منصوصا عليه لإمامه بأصوله ، ولا يعرى عن شوب تقليد له ، لإخلاله ببعض أدوات المستقل ، بأن يخل بالحديث ، أو العربية ، وكثيرا ما أخل بهما المقيد ، ثم يتخذ نصوص إمامه أصولا يستنبط منها كفعل المستقل بنصوص الشرع ، وربما اكتفى فى الحكم بدليل إمامه ، ولا يبحث عن معارض كفعل المستقل فى النصوص ؛ وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه ؛ والعامل بفتوى هذا مقلد لإمامه لا له .

ثم ظاهر كلام الأصحاب أن من هذا حاله لا يتادى به فرض الكفاية ؛ قال ابن الصلاح : ويظهر تأدى الفرض به فى الفتوى ، وإن لم يتأد فى إحياء العلوم التى منها استمداد الفتوى ، لأنه قام مقام إمامه المستقل تفريعا على الصحيح ، وهو جواز تقليد الميت ، وقد يستقل المقيد فى مسألة أو باب خاص . وله أن يفتى فيما لا نص فيه لامامه بما يخرجه على أصوله .

الحالة الثالثة : أن لا يبلغ رتبة أصحاب الوجوه لكنه فقيه النفس حافظ لمذهب إمامه ، عارف بأدلته ، قائم بتقريرها ، يصور ، ويقرر ، ويحرر ، ويمهد ، ويزيف ، ويرجح ، لكنه قصر عن أولئك لقصوره عنهم فى حفظ المذهب ، أو الارتياض فى الاستنباط ، ومعرفة الأصول ونحوها من أدلتها .

الحالة الرابعة : أن يقوم بحفظ المذهب ، ونقله ، وفهمه فى الواضحات والمشكلات ، ولكن عنده ضعف فى تقرير أدلته ، وتحرير أقيسته ؛ فهذا يعتمد نقله وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه . وما لايجده منقولا إن وجد فى المنقول معناه بحيث يدرك بغير كبير فكر أنه لا فرق بينهما جاز إلحاقه به ، والفتوى به ؛ وكذا ما يعلم اندراجه تحت ضابط ممهد فى المذهب ، وما ليس كذلك يجب إمساكه عن الفتوى فيه . انتهى كلام النووى فى شرح المهذب ، تبعا لابن الصلاح فى كتاب أدب الفتيا .

فقد قسما المجتهد الذى ليس بمستقل الى أربعة أقسام :

الأول : المطلق ، وهو الذى لم يقلد إمامه ، ولكن سلك طريقه فى الاجتهاد .

الثانى : المقيد ، وهو الذى يسمى مجتهد التخريج .

الثالث : مجتهد الترجيح .

الرابع : مجتهد الفتيا .

وإنما جاء الغلط لأهل عصرنا من ظنهم ترادف المطلق ، والمستقل ، وليس كذلك ، لما قد عرفته .

قال الامام السيوطى : والذى ادعيناه هو الاجتهاد المطلق ، لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للامام الشافعى رضى الله عنه ، وسالكون طريقه فى الاجتهاد امتثالا لأمره ، ومعدودون من أصحابه ، وكيف يظن أن اجتهادنا مقيد ، والمجتهد المقيد إنما ينقص عن المطلق بإخلاله بالحديث ، أو العربية ؟

ثم قال : وليس على وجه الأرض من مشرقها الى مغربها أعلم بالحديث والعربية منى ، إلا أن يكون الخضر أو القطب ، أو أولياء الله ، فان هؤلاء لم أقصد دخولهم فى عبارتى ، والله أعلم . انتهى كلام السيوطى بنصه .

هذا هو تقسيم الشافعية للمجتهدين . أما الحنفية فقد قسموهم الى سبعة أنواع ، قال ابن كمال باشا : طبقات الفقهاء سبع :

الطبقة الأولى أو الطبقة العليا من طبقات الاجتهاد : هى طبقة المجتهدين فى الشرع ، أو طبقة المجتهدين المطلقين ، كالأئمة الأربعة : أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وابن حنبل ، ومن سلك مسلكهم من الأئمة ، فشأن هؤلاء تأسيس قواعد الأصول ، واستنباط أحكام الفروع من الأدلة الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، على حسب تلك القواعد من غير تقليد لأحد ، لا فى الفروع ولا فى الأصول .

الطبقة الثانية : طبقة المجتهدين فى المذهب ، كتلاميذ أصحاب الطبقة الأولى ، كأبى يوسف ، ومحمد ، وزفر ، والحسن ، فمسلكهم استخراج الأحكام من الأدلة على مقتضى القواعد التى قررها أساتذتهم ، فانهم وإن خالفوهم فى بعض أحكام الفروع ، لكنهم يقلدونهم فى قواعد الأصول ، وبه يمتازون عن المعارضين فى المذهب ويفارقونهم ، كالشافعى ونظرائه من المخالفين فى الأحكام لأبى حنيفة غير مقلدين له فى الأصول . فهذه هى الطبقة الوسطى من طبقات الاجتهاد .

الطبقة الثالثة : طبقة المجتهدين فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب : كالخصاف ، والطحاوى وأبى الحسن الكرخى ، وشمس الأئمة الحلوانى ، وشمس الأئمة السرخسى ، وفخر الاسلام البزدوى ، وفخر الدين قاضيخان ، وأمثالهم من أئمة الحنفية ، ومن فى طبقتهم من الأئمة الشافعية والمالكية وغيرهم من الأئمة المعارضين فى المذهب ، فانهم لا يقدرون على المخالفة للشيوخ لا فى الأصول ، ولا فى الفروع ، لكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التى لا نص فيها عنهم على حسب أصول قررها شيوخهم ، ومقتضى قواعد بسطها أساتذتهم . فهذه الطبقة هى الطبقة السفلى من طبقات الاجتهاد .

الطبقة الرابعة : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين : كالرازى وأضرابه ، فانهم لا يقدرون

على الاجتهاد أصلا ، لـكنهم لإحاطتهم بالأصول وضبطهم للمأخذ يقدرون على تفصيل قول مجمل ذى وجهين ، وحكم مبهم محتمل لأمرين ، منقول عن صاحب المذهب ، أو عن واحد من أصحابه الذاهبين برأيهم ونظرهم فى الأصول والمقايسة على أمثاله ونظائره فى الفروع .

وما وقع فى كتاب الهداية فى قوله : كذا تخريج الـكرخى، وتخريج الرازى ، من هذا القبيل

الطبقة الخامسة : طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين : كابى الحسن القدورى ، وصاحب الهداية ، وأمثالهما ، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم : هذا أولى ، وهذا أصح ، وهذا أرفق للناس .

الطبقة السادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقـوى والقوى ، والضعيف ، وظاهر الرواية ، والرواية النادرة كأصحاب المتون المعتبرة من المتأخرين : كصاحب الـكنز ، وصاحب المجمع ، وصاحب الوقاية ، وشأنهم ألا ينقلوا فى كتبهم الأقوال المردودة ، والروايات الضعيفة .

الطبقة السابعة : طبقة المقـلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ، ولا يفرقون بين الغث والسمين ، ولا يميزون الشمال من اليمين ، بل يجمعون كحاطب الليل .

قال بعض العلماء : وفى الحقيقة أن هذه الطبقات السبع تـكاد ترجع الى طبقات الشافعية بتدخـل بعضها فى بعض كما يفهم ذلك بالتأمـل ؛ فالتقسيم لها جعـلى ، كمن قسم الفقهاء الى ست مراتب :

الأولى : رتبة المبتدئ ، وهو من لم يقدر على تصوير المسألة .

الثانية : رتبة المتوسط ، وهو من قدر على تصويرها ، ولم يقدر على إقامة الدليل عليها .

الثالثة : رتبة المنتهى ، وهو من قدر على تصوير المسألة ، وعلى إقامة الدليل عليها .

الرابعة : رتبة مجتهد الفتوى ، وهو من قدر على ترجيح الأقوال كالنووى والرافعى .

الخامسة : رتبة مجتهد المـذهب ، وهو من قدر على استنباط الفـروع من قواعد أمامه كالبويطى والمزنى .

السادسة : رتبة المجتهد المستقل ، وهو من قدر على استنباط الأحكام من الـكتاب والسنة والاجماع والقياس بشروطها الموضحة فى الأصول .

وإن زيد المجتهد المطلق المنتسب المتفرد بآراء خاصة كانت سبعا كالحنفية .

قال ابن السبكى : جلست بمـكة بين طائفة من العلماء ، وقعدنا نقول : لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة فى هذا الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم يركب لنفسه مذهبا بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة ، لازدان به الزمان ، وانقاد له الناس . فالاجتهاد أمنية العلماء المصلحين فى كل

زمان ، وبابه مفتوح الى ما شاء الله ، وما منع منه إلا الفتور والضعف والاعراض عنه ، حتى قال مجد الدين بن دقيق العيد : عزّ المجتهدُ فى هذه الأعصار .

وليس ذلك لتعذر حصول الاجتهاد بل لإعراض الناس عن اشتغالهم عن الطريق المفضية الى ذلك .

والخلاصة : أنه يتضح مما عرضناه فى هذا المقال من طبقات الفقهاء والمجتهدين أن المجتهد الذى يتأدى به فرض الكفاية هو المجتهد المطلق المستقل ، وأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا لا يغلق الى ما شاء الله ، وليس من مصلحة الشريعة الغراء إغلاقه لما سنبينه فى المقالات الآتية إن شاء الله تعالى .

السيد عفيفى
من علماء الأزهر الشريف
محرر مجلة المحاماة الشرعية السابق

هل تحط بصاحبها الفضائل

افتن الشعراء فى تصوير المعانى ، وتنافسوا فى الممكن والمحال منها حتى أدت بهم حسرة الحرمان الى اتهام الفضائل بأنها من أسباب الشقاء ، فقال أبو الحسن على المعروف بابن البغل :

الدهر ضد ذوى الفضائل كلهم حتى كان عدوه من يفهم
لو كنت أجهل ما علمت لسرنى جهلى كما قد ساءنى ما أعلم
كالصعو يرتع فى الرياض وإنما حبس الهزار لأنه يترنم

وقال آخر :

يطرى لأهل الفضل دون الورى مصائب الدنيا وآفاتها
كالطير لا يحبس من بينها إلا التى تطرب أصواتها

وقال غيره :

قد عقلنا والعقل شر وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق
إن من كان فاضلا كان مثلى فاضلا بعد قسمة الأرزاق

نقول: هذا هذيان محض، فان الرزق لا يدر على الانسان بسبب أنه فاضل ولكن بسبب أنه يتعاطى الأعمال التى تستدره ، فكل شاعر وكل كاتب يغفل عن هذا ويريد أن يغترف الناس من أموالهم ويغدقوها عليه وهو قاعد !

أحاديث الوفود فى الاسلام

— ٤ —

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر رجلا (من كندة باليمن) ومعهم صدقات قومهم ، فسُرَّ رسول الله بهم وأكرمهم ، وأنزلهم منزلا حسنا فى ضيافته . ولما سئلوا عما جاءوا به قالوا : جئنا بحق الله علينا فى أموالنا . فطلب منهم رسول الله رد ما جاءوا به وقسمته على فقرائهم ، فقالوا : يارسول الله ما جئنا إلا بما فضل عن فقرائنا .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : يارسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للاسلام .

هنالك تقدم أحد رجال الوفد وسأل النبى عن الاسلام والقرآن والسنن والأحكام ، فازداد النبى عليه الصلاة والسلام رغبة فيهم . ثم استأذنوه فى العودة الى بلادهم فتلطف بهم وقال لهم : ما يعجلكم ؟ قالوا : نرجع الى قومنا فنخبرهم برؤية رسول الله وموالاتنا له وكلامنا معه وما رد به علينا . عند ذلك دعا النبى صلى الله عليه وسلم بلالا وقال له : أجزهم يابلال بأرفع ما تجيز به الوفود .

ولما جاءوا ليودعوا رسول الله سألهم : هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا . فقال النبى : أرسلوه الينا ، فأقبل الغلام حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى . فقال له رسول الله : وما حاجتك ؟ قال : يارسول الله إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى ، والله ما أخرجنى اليك إلا أن تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى . هنالك دعا النبى ربه قائلا : اللهم اغفرله وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه . ثم التفت الى من حوله فقال : من أراد الله به خيرا جعل غناه فى نفسه ، وتقاه فى قلبه ، واذا أراد الله بعبد شرا جعل فقره بين عينيه . ثم أمر له بعطاء مثل ما أعطى أصحابه . وشدت رحال القوم وعادوا الى بلادهم وفى رحالهم الغلام الحدث الزاهد الورع الفائز بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم كان من خبر هذا الوفد أن وفد مرة أخرى على رسول الله فى موسم الحج بمنى إلا ذلك الغلام المتحدث عنه ، فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم عنه فقال : مافعل الغلام الذى جاءنا معكم ؟ قالوا يا رسول الله : ما رأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس

اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها ! فقال لهم النبي : الحمد لله ، إنى لأرجو أن يموت جميعا . فقال رجـل منهم : أوليس يموت الرجل جميعـا ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : تتشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك .

هذا وما زال هذا الفتى على أفضل حال من الزهد والقناعة الى أن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد من العرب ، فقام هذا الفتى فيهم خطيبا فذكرهم الله والاسلام ، فلم يرجع منهم أحد .

ولما ولى أمر المسلمين أبو بكر رضى الله عنه لم ينسه ، ودأب يسأل عنه . ولما بلغه موقفه الطيب وما قام به من نصح قومه وتذكيرهم بأيام الله ، كتب الى زياد بن الوليد عامله على حضر موت يوصيه به خيرا .

***

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من بنى عذرة باليمن ، فلما دخلوا عليه حيوه بمـالم يحيه به الله فقالوا : عم صباحا — تحية الجاهلية — فقال لهم رسول الله : مَن القوم ؟ فقال رائدهم : نحن من بنى عذرة ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا خزاعة وبنى بكر عن بطن مكة ، فلنا قرابات وأرحام .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم ! ولما استقر بهم المقام سألهم النبي : ما منعكم من تحية الاسـلام حين دخلتم ؟ فأجاب رائدهم : يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، فإلام تدعو ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعو الى عبادة الله وحده لاشريك له ، وأنى رسول الله الى الناس كافة .

فقال رائدهم : فما وراء ذلك ؟ فقال له رسول الله : الصلوات ، تحسن طهورهن ، وتصليهن لمواقيتهن ، فانه أفضل العمل . ولم ينته النبي من ذكر بقية الفرائض حتى تقدموا وأسلموا جميعا وحسن إسلامهم .

ثم عاد رائدهم الى إلقاء الأسئلة فقال : يارسول الله إن فينا امرأة كاهنة وقريش والعرب يتحاكمون اليها أفنسالها عن أمورنا ؟ فقـال له النبي : لا تسألوها عن شيء . فقال الرائد : وما ترى يارسول الله فى الذبائح للأصنام ؟ فقال له النبي : أنهاكم عن ذلك .

عند ذلك تقدم رجال الوفد فقالوا : يارسول الله نحن أعوانك وأنصارك . فسر النبي بهم وأجازهم ، وكسا أحدهم بردا وهو رائدهم ومتكلمهم .

***

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من (بلى) : حى من قضاعة — وفيه شيخهم

أبو الضبيب ، فنزلوا ضيوفا على رويفع بن ثابت البلوى ، فقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله هؤلاء قومى . فقال له : مرحبا بك وبقومك ! فأسلموا . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداكم للاسلام ، فكل من مات منكم على غير الاسلام فهو فى النار ، فمن يرد الله به خيرا يهده للاسلام .

عند ذلك تقدم أبو الضبيب شيخ الوفد وجلس بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أنك نبي حقا ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا . فأجابه النبي : الحمد لله الذى هداكم للاسلام . فقال أبو الضبيب : يا رسول الله لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال له النبي : نعم ، وكل معروف صنعته الى غنى أو فقير فهو صدقة .

فاسترسل أبو الضبيب فى الأسئلة فقال : يارسول الله ماوقت الضيافة ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاثة أيام . فقال أبو الضبيب : فما بعد ذلك ؟ فأجابه النبي : فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك (أى فوق الثلاثة) فيحرجك . قال أبو الضبيب . يا رسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لك أو لأخيك أو للذئب . قال أبو الضبيب : فالبعير ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

لما انتهت هذه الأسئلة قاموا وعادوا الى دار مضيفهم رويفع ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثرهم يحمل تمرا وقال : يارويفع استعن بهذا التمر لضيوفك . وبعد ذلك أقاموا ثلاثة أيام . ولما جاءوا ليودعوا رسول الله أجازهم ، وانصرفوا عائدين الى قومهم فرحين بما آتاهم الله من فضله .

حسن خطاب الوكيل

ذم التقعير فى الكلام

قال بشر بن المعتمر من كبار الخطباء المبرزين : « إياك والتقعير فإنه يسلمك الى التعقيد ، فتستهلك معانيك ، ويمنعك من إصابة مراميك » .

وقد مدحوا التنزل الى حضيض العامية للتأثير على السامعين ما دام القصد إبلاغهم ما يجب أن يفهموه ، فقالوا : إياك والنحو بين العامة ، فإنه كاللحن بين الخاصة » .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الوقف

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر السؤال الآتى :

شخص اشترى قطعة أرض ليقيم عليها مسجدا ثم قدم مبلغا من المال لوزارة الأوقاف لتقوم بتشييد المبانى اللازمة للمسجد ، وقد شرعت الوزارة فى إقامة تلك المبانى على جزء من هذه الأرض وتركت الباقى منها كحديقة للمسجد من الجهة الشمالية ، وجعل باب المسجد العمومى من الجهة القبلية ، وجعل فيه باب من الجهة الشمالية يفتح فى الحديقة ويستعمل لتوصيل الهواء للمسجد ، كما جعل فى الحديقة جملة أبواب . ثم استخرج تصريحا من وزارة الداخلية (قسم الصحة) بانشاء مدفن له بالجزء الشمالى الشرقى من الحديقة . وبعد سنة تقريبا من استخراج هذا التصريح حرر إشهادا شرعيا منه ومن وزارة الأوقاف نصه هكذا : « وقفت وزارة الأوقاف مبانى المسجد ووقف هذا الشخص أرض القطعة بتمامها » . ولم ينص فى هذا الاشهاد على بناء المقبرة لا بنفى ولا إثبات مع أن الواقف يقصد قبل تحرير هذا الاشهاد وحين تحريره أن تقام المقبرة فى الجزء المذكور من الحديقة ، ولم ينص عليها اعتمادا على قصده واعتقادا منه بأن عدم النص عليها لا يمنع من إقامتها ، واعتمادا على ما جرى به العرف من إقامة مدفن للواقف بجوار مسجده ، كما يشهد بذلك كثير من المساجد الموجودة الآن بمصر .

فهل يسوغ شرعا لهذا الواقف — على أى مذهب من المذاهب الأربعة — أن يتخذ قبراً له فى الجزء الباقى من قطعة الأرض المذكورة ؟

الجواب :

مذهب المالكية يرى فى هذه الحالة أن للواقف أن يتخذ فى قطعة الأرض المذكورة قبرا له ، لأن عبارته التى جاءت بصدد وقف هذه القطعة لم تكن نصا صريحا فى عدم اتخاذ مقبرة ، فله أن يفسرها بما أراده منها مما ينطبق على نيته . وسعيه فى أخذ تصريح من وزارة الصحة باتخاذ مدفن له فى هذه القطعة الى أن حصل عليه قبل الإشهاد ، يعتبر قرينة عند المالكية تصرف عبارة الواقف عن ظاهرها ، وتدل على ما أراده منها ، وهو أن تكون مسجدا ، وأن يتخذ جزءا منها قبرا . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

جواز تشريح الجثة

لمصلحة التحقيق

فتوى لحضرة صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية

ورد على دار الإفتاء كتاب من وزارة الحقانية ومعه ترجمة لخطاب حضرة سكرتير مجلس بوبال بالهند ، ونص الترجمة كما يأتى :

أرجو التكرم بافادتى عما إذا فى حالة الوفاة غير العادية مثل الوفاة بالسم التى تحصل للمسلمين يصرح بتشريح الجثة وهل هو جاز فى بلادكم ؟ وذلك لأنه فى بعض المقاطعات الاسلامية بالهند خصوصا مقاطعة بوبال لا يصرح (البوليماس) بتشريح الجثة بعد الوفاة بمعرفة ادارة التحقيق .
وإنى أكون شاكرا إذا تكرمتم بافتائنا بواسطة دار الافتاء المصرية من حفظة القرآن والحديث فيما إذا كان يرجع الى تشريح الجثة فى حالة الوفاة المشكوك فيها أى غير الطبيعية أولا ؟ وتقبلوا عظيم تشكراتنا .

الفتوى :

اطلعنا على الترجمة العربية لخطاب حضرة سكرتير مجلس بوبال بالهند المؤرخ ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٧ الوارد الينا بكتاب وزارة الحقانية رقم ٤٢٤٦ المؤرخ ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٧ بشأن الاستفتاء عن تشريح جثة الميت فى حالة الوفاة غير العادية مثل الوفاة بالسم .

ونفيد أننا لم نجد بعد البحث فى كتب الفقهاء تعرضا لهذا الموضوع ، وما وجدناه لهم هو موضوع شق بطن من ماتت وولدها حى أو بالعكس ، وموضوع شق البطن لاخراج ما يكون قد ابتلعه الميت من مال قبل وفاته . فقال علماء الحنفية فى الموضوع الأول : إنه إذا ماتت امرأة حامل واضطرب فى بطنها شىء وكان رأيهم أنه ولد حى ، شق بطنها ، لأن هذا وإن كان فيه إبطال لحرمة الميت ففيه صيانة لحرمة الحى وهو الولد فيجوز .

وإذا مات الولد فى بطن أمه وهى حية فان خيف على الأم قطّع وأخرج بأن تدخل القابلة يدها وتقطعه بآلة بعد تحقق موته .

أما لو كان الولد حيا فلا يجوز تقطيعه ، لأن موت الأم به موهوم ، فلا يجوز قتل آدمى حى لأمر موهوم .

والمأخوذ من كلامهم فى الموضوع الثانى أن المال إما أن يكون للميت أو لغيره: فإن كان له فلا يشق بطنه لاستخراجه ، لأن حرمة الآدمى وإن كان ميتا أعلى من حرمة المال ، ولا يجوز إبطال حرمة الأعلى لصيانة حرمة الأدنى . وكذلك الحكم فيما إذ كان المال لغيره وقد ترك الميت مالا لأنه لا يشق بطنه فى هذه الحالة أيضا ، بل تدفع قيمة المال مما تركه الميت الى صاحبه . إما إذا كان المال لغيره ولم يترك الميت مالا فإنه يشق ، لأن حق الآدمى مقدم على حق الله تعالى، ومقدم على حق الظالم المتعدى ، وقد زالت حرمة هذا الظالم بتعديه على مال غيره .

هذا مذهب الحنفية فى الموضوعين .

وأما مذهب الشافعى فخلاصته فى المسألة الأولى أنه إذا ماتت امرأة وفى جوفها جنين حى شق جوفها وأخرج إن كان يرجى حياته بعد الإخراج ، بأن يكون له ستة أشهر فصاعداً ، أما إذا كان لا يرجى حياته بعد الاخراج فالأصح أنه لا يشق بطنها . وخلاصة مذهبه فى المسألة الثانية أن المشهور للاصحاب إطلاق الشق حينئذ من غير تفصيل إذا كان المال لغيره وطلبه . وقال بعضهم : إنه يشق جوفه إذا لم يضمن الورثة مثله أو قيمته . أما إذا بلع جوهرة لنفسه فلها وجهان مشهوران : الأول أنه يشق ، والثانى أنه لا يشق .

والخلاصة أن عند الشافعية رأيا بالشق مطلقا لاستخراج المال من الجوف .

هذه خلاصة ما نقله الامام النووى فى شرح المهذب ، وقد نقل فيه عن أبى حنيفة وسحنون المالكى أنه يشق مطلقا فى مسألة المال .

وقد علمت مذهب الحنفية فى ذلك .

ونقل عن احمد وابن حبيب المالكى أنه لا يشق ، والذى وجدناه فى كتب السنة ما جاء فى السنن الكبرى للبيهقى وسنن أبى داود وسنن ابن ماجه عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كسر عظم الميت ككسره حيا ». قال السيوطى فى بيان سبب الحديث ما نصه : « عن جابر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس النبى صلى الله عليه وسلم على شفير القبر وجلسنا معه فأخرج الحفار عظما ساقا أو عضدا فذهب ليكسره فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تكسره فان كسرك إياه ميتا ككسرك إياه حيا ولكن دسه فى جانب القبر . ا هـ »

وبهذا الحديث استدل من قال من الفقهاء بعدم جواز شق بطن الميت لاستخراج ما فيه من مال مطلقا .

والذى يقتضيه النظر الدقيق فى قواعد الشريعة وروحها: أنه إذا كانت هناك مصلحة راجحة فى شق البطن وتشريح الجثة ، من إثبات حق القتيل قبل المتهم ، أو تبرئة هذا المتهم من تهمة القتل بالسم مثلا :أنه يجوز الشق والتشريح ، ولا ينافى هذا ما جاء فى الحديث الشريف من قوله عليه

الصلاة والسلام « كسر عظم الميت ككسره حياً » فإن الظاهر أن معنى هذا الحديث أن للميت حرمة كحرمة الحى فلا يتعدى عليه بكسر عظم أو شق بطن أو غير ذلك لغير مصلحة راجحة وحاجة ماسة . ويؤيد ذلك ما نقلناه عن السيوطى فى بيان سبب الحديث فانه ظاهر أن الحفار الذى نهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن كسر العظم كان يريد الكسر بدون أن تكون هناك مصلحة فى ذلك ولا حاجة ماسة اليه .

وبما قلناه يتفق معنى الحديث الشريف وقواعد الدين الاسلامى القويم ، فإنها مبنية على رعاية المصالح الراجحة ، وتحمل الضرر الأخف لجلب مصلحة تفويتها أشد من هذا الضرر .

على أن الظاهر الآن أنه يجوز شق بطن الحى إذا ظن أنه لا يموت بهذا الشق وكان فيه مصلحة له . ولعل الفقهاء لم ينصوا على مثل هذا بل أطلقوا القول فى تحريم شق بطن الحى لأن فن الجراحة لم يكن قد تقدم فى زمنهم كما هو الآن .

وبهذا علم الجواب عن السؤال ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضل الكلام فى الحياة

لما كان الانسان مدنيا بطبعه ، وكانت حاجته الى أمثاله شديدة ، أمده الله بفضيلة التكلم ، وحلاه معها بموهبة البيان ، زيادة فى الاحسان إليه . وقد عبر عن فضل هذه المنحة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال : « الكلام قاض يحكم بين الخصوم ، وضياء يجلو الظلم ، حاجة الناس الى مواده كحاجتهم الى مواد الأغذية » .

وقال أبو الفرج الببغا فى رده على الذين يفضلون الصمت على الكلام :

« من زعم أن الصمت أشرف مرتبة وأرفع منزلة من الكلام ، فقد حكم على الكلام بالنقصان ، وأحل العى محل البيان ، ولو كان الصمت أفضل من الكلام لتعبدنا الله به فيما انتدبنا له بالالهام ، وكان توحيد الله بحجج العقول فى غنى عن واسطة أو رسول » .

وقد غاب عن أبى الفرج أن الذين مدحوا الصمت إنما ذموا فضول الكلام ، لا الكلام الذى تدعو اليه الضرورة وتكون كل زيادة فيه فيهقة وثرثرة . ألم يبلغه أن أفصح ناطق بالضاد محمداً صلى الله عليه وسلم قد نعى على الثرثارين المتفيهقين ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تكلم بخير وإلا فاسكت » . فانظر كيف فضل خاتم المرسلين الصمت على الكلام المجرد من الخير .

على أنى أقول: إنه لم يظهر فى العالم كله شرقه وغربه إنسان مدح الصمت على إطلاقه ، وذم الكلام على إطلاقه .

أكبر أسباب الخلاف

بين أصحاب الأديان

بماذا تذرع الاسلام لحسم مادة هذا الخلاف ؟

أكبر أسباب الخلاف بين الأمم تعصبها لأنبيائها ، وذهابها فى تقديسهم وتنزيههم مذهب لايتفق مع العقل ، ولا يستقيم على دليل .

كانت الأمم فى العهود السابقة لا تدين للمقررات العلمية ، ولا تخضع للأحكام العقلية ؛ هائمة بين الحس والخيال ، فى واد لايحده حد طبيعى ، ولا يسوده نظام من أى نوع كان .

كان الحس يزعج الأمم بأنواع من الفواعل الوجودية : من حر وبرد ، وجوع وظمأ ، ومرض وموت . فكانت تنفعل طبيعتها لهذه الفواعل أيما انفعال ، فتتطلب المخلص بالجد والكدح ، فان أخفقت فى ارتياد المخلص من عالم يعلو متناول حسها ، نظرت الى السماء مناجية الروح الأعلى قيوم السموات والأرض ، وهى نزعة ليس أكمل ولا أحق منها لو وقفت عند هذا الحد . ولكن الخيال يطمس جلالها وجمالها بما يحمل إليها من صنوف الأوهام والتصويرات الباطلة ، ويحمل الأمم على تجسيد هذا الشعور العالى ، فتدين الأمم لأنصاب وأصنام تتخيل فيها الوساطة أو الحلول ، أو غير ذلك من الأحلام . فان رق شعورها وترفعت عن التجسيد الصورى ، جسدت الخالق ذهنيا ففرضته ملكا سماويا جالسا على كرسى الجلال وبين يديه الملائكة يأتمرون بأمره على طراز الملوك الأرضيين .

فكل رسول أرسل الى تلك الأمم ، وسلم من بطشها ، رفعته الى أرفع من مستوى البشرية ، وأكثرها دعاه ابنا لله ، وكان أكبر أسباب هذا الغلو ، اعتماد أولئك الرسل فى تأييد دعواهم على المعجزات . فكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى وما دون ذلك من شفاء الأكمه والأبرص والأعمى ، وموسى أوتى العصا وغيرها ، وأوتى من قبلها أنواعا أخرى من المعجزات . وكان لاسبيل الى إخضاع الأمم للقانون والشريعة إلا بهذه الوسيلة ، فان سلطان العقل لم يكن له عليهم من سبيل .

فكانت هذه الخوارق من أكبر أسباب رفع الأنبياء الى درجة البنوة لله تعالى ، والغلو فى تعظيمهم ولاسيما بعد موتهم الى حد نسوا معه الخالق ذاته ، فجعلت العبادة لهم دون سواهم .

فلما جاء دور الاسلام كانت الأمم قد دخلت من حياتها الأدبية فى دور التعقل والتفهم ، وعرفت لأحكام العقل ونواميس الكون قيمتها ، فلم تعد للمعجزات من أثر على خيالها ، حتى أن العرب لما أرادوا أن يبطلوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، اقترحوا عليه أن يأتيهم

بالمعجزات ، ويؤخذ من سياق طلباتهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بها ، بل يشكون فيها وينسبون حدوثها للشعوذة . فقالوا كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنبوعا ، أو تكونَ لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسَفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكونَ لك بيت من زخرف (أى من ذهب) أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلا بشرا رسولا » .

يرى القارىء من سياق هذه التحديات مبلغ استخفافهم بالآيات . وقد نص الله تعالى على أنهم كانوا من الشك بحيث إنهم لو كانوا رفعوا الى السماء لقالوا إن ذلك من تخييلات السحر لا من الله عز وجل ، فقال تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سُكِّرت أبصارُنا ، بل نحن قوم مسحورون » سكرت أبصارنا : أى سدت عن الإبصار بالسحر .

الى هذا الحد كان قد وصل الشك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى صحة المعجزات ، وهو كما يدل على التغلغل فى الانكار والجحود ، يدل على مبلغ خلاص العقل من الأوهام والخزعبلات . فان الجاهلىّ الذى يتشدد فى تصديق المحسوسات الخارقة للعادة ، وينتحل لها أسبابا خفية ، أحر به أن لا يقبل ما دونها من التخييلات السحرية ، والزخارف الشعوذية .

فاقتضت حكمة الخالق الحكيم أن يرسل الى الناس فى هذا الدور الأخير رسولا يأخذ الناس بأحكام العقل ، ويردهم الى مقررات العلم والحس ، فكان نجاح النبى صلى الله عليه وسلم فى مهمته ذلك النجاح الذى لم يصادفه رسول قبله أدل دليل على مبلغ ما يفعله البرهان الصحيح والعلم المؤسس على الحق الصريح فى نفوس الأمم .

من هنا انتقل الناس من دور التسليم بمجرد رؤية الخوارق ، الى مستوى النظر فى الحوادث ، والاستدلال بالأعلام الوجودية ، وهى خطوة واسعة فى سبيل رقى البشرية ، تعتبر الغاية القصوى فى حياتها الدينية .

فكان سلاح نبى الاسلام فى بث دعوته العقل ، ووسيلته النظر فى الكون ، والاستدلال بأعلامه وبيناته ، وهذا مظهر لم يكن عهده الناس من مظاهر النبوة . فبعد أن كان الانسان يقول للقائم بدعوة : ماهى معجزتك ؟ صار يقول له : ما دليلك العقلى ؟ فان أدلى بالدليل كفاه ذلك عن كل خارق للعادة (١) .

---

(١) ليس مؤدى هذا الكلام أن النبى صلى الله عليه وسلم لم تصدر منه معجزات كسائر إخوانه الانبياء ، ولكن مؤداه أنه لم يجعل المعجزات أساسا للدعوة . أما معجزاته صلى الله عليه وسلم فكثيرة شهدها عدد من الناس لا يدع للشك فيها مجالا .

سقطت فى هذا الدور دولة الخوارق ، وقامت دولة الأحكام العقلية والقياسات النظرية ، فقام المتدينون بالاسلام على غير السمت الذى كان يقوم عليه من قبلهم من الأمم المتدينة . قاموا على سمت العلم والنظر فى الكون والاستدلال بالحوادث ، فلا غرو إن أصبح المسلمون بعد عدد محصور من السنين أرقى الأمم علما وعملا ، وأبعدهم بالوجود وحوادثه خبرا .

فكانوا يدرسون الطبيعيات والرياضيات ، وينقبون فى الأرض عن خفايا المعادن ذات القيمة العظيمة فى الصنائع والفنون باسم الدين والقرآن وخلافة الله فى أرضه ، بينما كان من تقدمهم يقتل بعضهم بعضا تأليها للرجال ، واختلافا فى الأباطيل التى أحاطوا بها عقائدهم ، فلا عجب إن دوخ المسلمون من تلك الأمم فى أقل من قرن مالم تستطع أكبر الأمم شأنا أن تدوخه فى قرون عديدة . ولا غرابة إن بلغ المسلمون من المدنية الفاضلة مالم تبلغه سواهم من الأمم البائدة .

إن من المدهشات بل من المعجزات التى تشهد لهذا الدين بأنه وحى إلهى صادق ، أنه حشر الى حظيرته فى قرن من الزمان نحو مائة مليون من الأتباع بمحض وجوده لا بسيف ولا إغراء .

لأن المسلمين كانوا إذا أرادوا إخضاع أمة جريا على ناموس التغالب ، خيروها بين ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب ، وكانت الجزية التى يضربونها على الأمم لا تبلغ بعض ما كان يجبيه ولاتهم منهم بضرب وجوههم ، فكان يسهل على كل أمة تغلب لهم أن تدفع الجزية ، فما الذى اضطر هذه الملايين الى الدخول فى الاسلام غير سماحة هذا الدين وانطباقه على أحكام العقل ، وظهور أهله بمظهر الكمال والفضل ؟

أما الدعوة فقد كان المسلمون أهملوها طمعا من أكثر الولاة فى زيادة أموال الدولة بما يجبىء من الجزية ، فان الرجل كان بمجرد دخوله فى الاسلام يعفى من الجزية ، فيكون فى ذلك عجز لإيراد الحكومة .

لهذا السبب كان بعض الولاة يكرهون أن تدخل الأمم المفتتحة فى الاسلام تفاديا من نقص الايرادات .

ولكن الشعوب كانت ترى الفرق واضحا بين تعاليم دينها وتعاليم الاسلام ، فكانت تترامى الى أحضانه طائعة مختارة ، حتى بلغ عدد من دخل منهم فى أقل من قرن فى الاسلام نحو مائة مليون كما قلنا ، وهذا عدد لم يسمع بمثله فى تاريخ دين من الأديان .

ولا يزال الاسلام سائرا فى طريقه من الانتشار العظيم ، ولو كان المسلمون اليوم على ما كان عليه آباؤهم من الفضائل التى يندبهم إليها دينهم لانتشر دينهم بلا دعوة انتشارا لا يدع لغير الاسلام من الأديان مجالا لمنازعته .

وقد بذل الاسلام مجهودا عظيما ليزعزع فى الأمم عقيدة تأليه النبيين حتى لا تقف هذه العقيدة حجر عثرة أمام ترقيهم ، فقال تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » .

وزاد على هذا بيانا فذكر شيئا من تفصيل حالات أولئك المرسلين حتى يزيل كل احتمال لارتفاعهم عن مستوى الانسانية ، فقال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » .

كأنه قال إن من يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لا يصح أن يكونوا آلهة أو أجزاء من آلهة ، فهم أفراد من خيار هـذا النوع لا فرق بينهم وبين سائر أفراده إلا أنهم اختيروا لأن يكونوا رسلا لله الى عباده .

كان لهذه الآيات تأثير كبير فى كسر غلواء المتدينين ، وصد تيار التأليه عن النبيين ، ولم يزل هذا التأثير يرقى وينتشر حتى صرنا فى قرن لا يجسر واحد فيه أن يعلن هذه العقيدة إلا فى بلاد لم تأخذ حظها من العلم والنظر .

وأخذ نوابغ القرون الأخيرة يبثون فى الناس مبـدأ تنزه الخالق عن الولد والشريك ، وأن المرسلين ليسوا إلا رجالا اقتبسوا النور عن الخالق وعكسوه على الناس ، فقال حكيم الشعراء (فيكتور هوجو) كما نقلته المجلة الروحية عنه :

« إن الشعور الفطرى المودع فى صميم الانسان بوجود الله تعالى أتى اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله عز وجـل) ، أما الديانة اليهودية والصابئية والبوذية والمعـددة والمانوية والمحمدية والمسيحية فهى من نور القمر ، لأن موسى وبوذا وزرادشت وأورفيه وكونفسيوس ومانى ومحمد وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين ، فالديانات التى هى أقمار الشمس الإلهية مهمتها إفاضة النور على الانسان فى غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى كلامه .

هـذا كلام فيه جهات من الضعف الى جانب جهات من القوة بارزة فيه ، ولـكنه مما يستشهد به على أية حال للدلالة على تحول العقلية البشرية عن تأليه الأنبياء ، وعلى اتجاه نظرها الى الديانة الاسلامية بعد أن كان التعصب يحول بينها وبينه .

فالحوائل التى كانت تفرق بين الأمم ، وأشدها الغلو فى تقديس أنبيائهم ورفعهم الى درجات الألوهية ، كادت تـكون فى عداد الآثار التاريخية . فاذا وصل الانسان الى الخلاص منها توحدت الأديان على أسلوب القرآن ، وكان الفوز لأصوله على مر الأزمان .

محمد فريد وجدى

دفاع عن القرآن الكريم

— ٤ —

متابعة نقض مقدمة الدكتور جفرى

تكلمنا فيما مضى على استحالة التطور فى القرآن الكريم ، وفى القراءات السبع ، وبينّا ما تستلزمه القراءات الشاذة من دراسة اللهجات ، ومعنى الأحرف السبعة ، ومعنى الرخصة فى هذه القراءات فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان انتهاء أمدها . وتم بذلك نقض دعوى الدكتور جفرى التطور فى القرآن الكريم ، وإبطال دليله عليها ، وهو كتاب المصاحف نفسه ، بما لامزيد عليه .

ونريد الآن أن نتابع بحث المقدمة لننقضها جملة جملة كما وعدنا بذلك فى أول مقال لنا ، حتى نكون قد درسنا الموضوع دراسة وافية ، ويكون حضرات القراء قد استفادوا فائدة تامة .

قال الدكتور :

« نشر فى أيامنا هـذه علماء الشرق كثيرا مما يتعلق بتفسير القرآن وإعجازه وأحكامه ، ولـكنهم الى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور فى قراءاته ، ولا ندرى على التحقيق لماذا كفوا عن هـذا البحث فى عصر له نزعة خاصة فى التنقيب عن تطور الـكتب المقدسة القديمة وعما حصل لها من التغيير والتحوير ونجاح بعض الـكتاب فيها » .

إذا حللنا كلام الدكتور جفرى تحليلا علميا صحيحا دقيقا ، خرجنا منه بالنتائج الخمس الآتية :

(أولا) أن علماء المسلمين ألفوا كثيرا فى تفسير القرآن وبلاغته وإعجازه .

(ثانيا) أنهم لم يبحثوا عن التطور فى القرآن وقراءاته .

(ثالثا) أن الدكتور جفرى حيران فى السبب الذى من أجله أغفلوا هذا البحث .

(رابعا) أن الدكتور جفرى يصرح علنا بأن الـكتب القديمة « التوراة والانجيل » حصل فيها تغيير وتبديل .

(خامسا) يؤخذ من بين السطور أن الدكتور جفرى يحث المسلمين على البحث وراء تطور القرآن ليعلموا ما حصل فيه من التغيير والتبديل أيضا كما علم ذلك عن الـكتب المقدسة السابقة .

أليس هـذا التحليل صحيحا ودقيقا ؟ اقرأوا كلمة الدكتور جفرى بإمعان ، وانظروا تحليلنا لها لتعلموا أننا غير متجنين عليه ، ولتعلموا أن حضرته لا يتورع فى سبيل تشكيك

المسلمين فى قرآنهم أن يصارح النصارى واليهود بأنه حصل فى التوراة والانجيل تغيير وتبديل .

وسنتناول هذه النتائج بالبحث والدرس ، وسنجيب الدكتور عن حيرته :

أما الأول ـ وهو أن علماء المسلمين ألفوا كثيرا فى تفسير القرآن الكريم وبيان إعجازه وأحكامه ، فمسلم ولاشىء فيه . غير أنك يادكتور لم ترد به الثناء على علماء المسلمين وبيان عنايتهم بالقرآن الكريم وكثرة التأليف فى تفسيره وبيان بلاغته وإعجازه ، وإنما أردت أن تجعل ذلك تمهيدا لما بعده وهو أنهم لم يبحثوا عن التطور فى القرآن الكريم ، فكأنك تعيب عليهم انصرافهم بكليتهم الى التأليف فى التفسير ونحوه وعدم التفاتهم الى البحث عن التطور ، وهذا ظاهر من السياق ، ومفهوم من بين السطور ، وهو ما لا نسلمه لك بحال ، ولا نرضى بهذا الطعن المستور على علماء المسلمين مع أنهم لم يفعلوا إلا الواجب ، على ما سنبينه .

وأما الثانى ـ وهو أن علماء المسلمين لم يبحثوا عن التطور فى القرآن ، فلانهم يعتقدون أن القرآن لم يتطور ، لأن التطور ـ كما قلنا ـ من مقوماته ملاحظة الملابسات المحيطة به التى تنقله من طور الى طور ومن حال الى حال ، وهو محال فى القرآن ، ولأنهم يعتقدون أن القرآن هو الحاكم المهيمن على الزمان وأهله فى كل عصر ، وعلى جميع أحوالهم وشئونهم الدينية ، والاجتماعية ، والعمرانية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وكل ما يحيط ويتصل بهم فى حياتهم الأولى والآخرة ، وما كان هذا شأنه فلا يتطور ولن يتطور ، ولأنهم يعتقدون أن إجماع الأئمة فى عصر من العصور على أمر من الأمور له مقامه واحترامه ، لأنهم لايجمعون إلا إذا استندوا فى إجماعهم على الكتاب والسنة ، فما بالك بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم على مصحف عثمان وهو أقوى إجماع وأفضله ، فهم يعتقدون اعتقادا لايخالطه أدنى شك أن المصحف الامام الموجود بين أيدينا هو الذى كان بين أيدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصل الينا عن طريق التواتر الذى يفيد العلم الضرورى البديهى ، نقرؤه ونتعبد بتلاوته كما كانوا يقرءونه ويتعبدون بتلاوته ، ولأنهم يعتقدون أن القراءات السبع لم تتطور لأنها وصلت الينا أيضا عن هذا الطريق: طريق التواتر ، وليس فيها خلاف إلا فى طريقة الأداء ، لا كما كتبته أنت يادكتور جفرى فى ملحقك الانجليزى الذى ألحقته بكتاب المصاحف لابن أبى داود من حديث القطن والكتان وما اليهما مما نشرنا منه نماذج فيما تقدم ؛ ولأنهم يعتقدون أن القراءات الشاذة لم تتطور لأنها اختلاف فى لهجات العرب رخص فيها للضرورة وارتفعت الرخصة بارتفاعها ، (راجع المقال السابق) .

لهذه الحقائق الثابتة كلها لم يبحث علماء المسلمين عن التطور فى القرآن والقراءات ؛ وبهذا البيان تذهب حيرتك ويتضح السبب الذى من أجله كف العلماء عن هذه المباحث مع

كثرة إنتاجهم فى علوم القرآن ، فعليك ، إن كنت من طلاب الحقائق كما تقول ، أن ترجع الى التاريخ والى كتب أصول الفقه لتعلم منها هذه الحقائق ، فلعلك تكف بعدها مع الذين كفوا .

وأما الثالث — فغير محتاج الى التعليق بعد ما تقدم من البيان .

وأما الرابع — وهو تصريحك بأن الكتب المقدسة القديمة حصل فيها تبديل وتغيير : فشأنك أنت وعلماء اليهود والنصارى ، فان هذا الطعن لا يتصل بالمسلمين من قريب ولا من بعيد .

وأما اعتقادنا فى هذه الكتب المقدسة فهو أنها فى الأصل كتب سماوية أنزلت من الله تعالى على سيدنا موسى ، وسيدنا عيسى ، عليهما الصلاة والسلام ، وأن القرآن نسخهما إلا بعض أحكام أقرّها .

قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » . وأما أنهما طرأ عليهما بعد ذلك تغيير وتبديل أو لم يطرأ فهذا لا يعنينا نحن المسلمين ، وليس من شأننا البحث عنه لأنهما على افتراض صحتهما وسلامتهما قد نسخهما القرآن كما تقدم .

فهل تعتقد أنك كتبت تلك المقدمة بلباقة ودقة ، فتمر الكرام على علماء المسلمين دون أن ينتبهوا لها وينقضوا ما يتصل بكتابهم منها ؟ وهل تظن أن فى المسلمين فردا واحدا سينخدع بما كتبت ويبحث عن التطور فى القرآن الكريم وعن التغيير الذى تقصده ؟ أما أنا فأؤكد لك يا دكتور بأن ذلك لا يكون ولن يكون . فالقرآن محفوظ من الله تعالى ، مصون عن التغيير والتبديل الى أن تقوم الساعة وقد ثبت ذلك أيضا بالدلائل القاطعة .

ولم يكتف الدكتور باعلان التغيير والتبديل فى (التوراة والانجيل) بل أقام الدليل على ذلك حيث قال فى المقدمة : « فمن منا يجهل مبلغ سرور علماء الغرب حين أن عثروا على القطع القديمة ، من القرطاس والبردى ، التى حفظت لنا آيات وأسفارا من التوراة أو الانجيل كانت بفضل رمال مصر محفوظة من البلى والدثور مع طول الزمن » ؟

ونحن نقول له :

إن ماثبت من هذا التحريف هو مانبه اليه علماء المسلمين قديما واستنكروه من مرتكبيه . فصرحوا بوقوع التبديل والتحريف فى التوراة والانجيل وأثبتوا ذلك على مقتضى أسلوبهم العلمى ، وكان أنصار هاتين الملتين ينكرون عليهم ذلك ، فاذا كانت الابحاث الجديدة قد جاءت مؤيدة لأقوالهم فذلك يدل على صدق نظرهم ودقة تحليلهم ، وقد سَرّوا أسلوبهم على الأحاديث فنفوا المدخول منها .

أما القرآن فلم يجدوا للنقد اليه سبيلا ، ولو وجدوا لنبهوا اليه ، بل لم يكن ليمكن إخفاؤه ، لأن نزول القرآن حصل على مشهد من أمة برمتها ولم يكن سرا بين رجال معدودين ، فكل ما كان يحدث حول القرآن يشيع بين الكافة وينتقل منهم الى من بعدهم .

ثم أقول : أن هذا المبحث والمباحث الثلاثة الآتية بعد . خاصة بغضب علماء اليهود والنصارى على دعوى التطور فى التوراة والانجيل ، فالدكتور جفرى يحكى وقوع التنازع والتخاصم بينهم ، وسيأتى يقرر أن الأغلبية تمشت مع العقل دون النقل : أى أنها رضيت بالتطور الذى لحق الكتب المقدسة .

ونحن لا يعنينا قط الخوض فى هذه المباحث الأربعة لأنها ليست مرتبطة بالقرآن الكريم ، فإذا ما أغفلنا مناقشة الدكتور جفرى فيها ، فلأننا نعتقد بوقوع التطور فيها قبل أن تثبت لهم الأبحاث ذلك .

ولكن عند التحقيق يلزمنا التعرض لهذه المباحث ، ليس لمساعدة علماء اليهود والنصارى فى الرد عليها ، ولكن لسببين رئيسيين :

أولهما — أننا معاشرَ المسلمين نعتقد أن التوراة كتاب سماوى أنزله الله تعالى على رسوله موسى عليه السلام ، وأن الانجيل كتاب سماوى أنزله الله تعالى على رسوله عيسى عليه السلام ، فنحن نؤمن بكتابيهما الأصليين ورسالتيهما إيمانا يساوى إيماننا بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ الإيمان بذلك إيمان بالقرآن : «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله» ،وإن كنا نعتقد أنهما نسخا بالقرآن ، دون التفات الى ما ثبت من أن هذين الكتابين الموجودين الآن بين أيدى اليهود والنصارى مبدلان أو محرفان . أقول : حتى ولو كانا سليمين من التحريف والتبديل ، فقد نسخا بالقرآن الكريم باجماع المسلمين ، إلا ما كان موافقا له منهما ، فهو مقرَّر عندنا بالقرآن لا بهما ، وإيماننا بهما غير محرفين لا يضطرنا الى الدفاع عنهما وهما فى الميزان اليوم ، وإن كنا نرجو لو ظهرت لهما نسختان غير محرفتين لتسلم جميع الكتب السماوية من الطعن والتجريح .

ثانيهما — أن الدكتور جفرى يريد أن يجعل هذه المباحث المتعلقة بالتوراة والانجيل وبعلماء الكتابين ، توطئة وتمهيدا لإثبات التطور فى القرآن الكريم . ولسنا نقول ذلك من عند أنفسنا ، ولكن سياق كلامه فى المقدمة دال على هذا ، فقد بدأها بدعوى التطور فى القرآن ، ثم أدرج حديث التوراة والانجيل ، ثم عاد الى حديث القرآن وتطوره — على زعمه — مستندا الى كتاب : تاريخ القرآن لنولدكى الألمانى .

فلهذين السببين رأينا أن نتعرض لنقض هذه المباحث المتعلقة بتطور القرآن الكريم فنقول :

صريح كلام الدكتور فى هذا المبحث يتلخص فى أمرين :

الأول — أنه وقع خلاف بين علماء الغرب (اليهود والنصارى على ما سيأتى صريحا) فى أن التوراة والانجيل دخلهما التطور ، ووصل هذا الخلاف الى درجة النزاع والخصام .

الثانى — اعترافه صراحة بأن الذين يمنعون تطور الكتب المقدسة هم أهل النقل ، وأن الذين يجيزونه هم أهل العقل .

أما الأول — فظاهر التعبير أن هذا الخلاف والنزاع والخصام واقع بين علماء كل طائفة : أى أن بعض علماء التوراة يقول بأنها تطورت والبعض الآخر يحيل ذلك ، وأن بعض علماء الانجيل يجيز تطوره والبعض الآخر يحيله ، وهذا أمر طبيعى فانه متى ثبت تحريف الكتاب المنزل كان أهله فى شك منه مريب .

وكذلك الحال فى كل كتاب ، إذ التطور من أخص مقتضياته التغير والتحول ، وتطور الكتب المقدسة ينفى عنها صفة التقديس التى كانت لها ، وهذا لايهمنا معشر المسلمين فهذه الكتب قد نسخت فى مذهبنا .

ونحن معشر المسلمين نعرف فوق ذلك الأسباب التى قضت بالتحريف على هذه الكتب .

فالانجيل بل الأناجيل ليست هى الكتاب الذى أنزل على عيسى ويشير اليه القرآن الكريم فى آيات كثيرة . فان هذه الأناجيل تحوى سيرة عيسى عليه السلام وتاريخ حياته ، ومؤلفوها معروفون ، وقد وجد إنجيل خامس يدعى إنجيل برنابا وترجم الى العربية منذ نحو عشرين سنة وقد تبين منه أنه موافق لما ورد عن المسيحية فى القرآن الكريم . وكان يوجد أناجيل كثيرة أخرى أهملت منذ قرون .

أما الانجيل الذى أنزل على عيسى فليس له وجود اليوم . ومن يعرف الظروف التى وجدت فيها المسيحية ، والاضطهادات الشنيعة التى وقعت على أهلها وهم مشردون هنا وهناك ، وسوادهم الأعظم أميون ، يدرك استحالة التحفظ على كتاب فيها إلا ماحفظه أولئك الأتباع من عبارات الصلاة ، وبعض النصائح والوصايا التى كان يبثها عيسى عليه السلام فيهم وهى كل ما دوّنه الانجيليون فى كتبهم عنه .

أما التوراة فالظروف التى أحاطت بها كانت أشد من الظروف التى أحاطت بالانجيل ، فان الأمة اليهودية وقعت فى حروب طاحنة ، واستباح بلادها فاتحون أقوياء هدموا معبدها وأحرقوا كتبها وشتتوا جماعتها فى الأرض .

جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة توراة :

« العلم العصرى ولا سيما النقد الألمانى أثبت بعد أبحاث مستفيضة فى الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى وإنما هى عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين فى تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل » .

أما التطور الذى يتوهمه الأستاذ جفرى فى القرآن ، وزعمه أن العقل يقضى ببحثه ، فأمر لا نفهمه .

نحن نفهم — كما يفهم غيرنا — أن للعقول دخلا فى العلوم كالطب والهندسة والعلوم الصناعية والكونية ، وإحداث الطائرات وطرق الانتفاع بالكهرباء وما الى ذلك .

ونفهم فوق ذلك أن للعقول دخلا فى فهم معانى الكتب السماوية كتفسير القرآن وتأويله وبيان أحكامه والعبرة بمواعظه والانتفاع بما صار اليه حال الأوائل من الأمم التى خالفت رسلها ولم تجب داعى الله ، ونحو ذلك .

أما أن للعقول دخلا فى كتب الله المقدسة ، وأما أن لها دخلا فيما استأثر الله به ، وأعجز عنه البشر ، وتولى هو جل شأنه حفظه ، وجعله حاكما على حوادث الأزمنة محققا لسعادة البشر مخرجا لهم من الظلمات الى النور .

أقول : أما أن للعقل دخلا فى هذا كله ، فهذا مما لا يفهمه ولا يعقله إلا الدكتور جفرى ومن كان على شاكلته ، فهو يسمى أصحاب التهجم على الكتب السماوية والبحث وراء إثبات تغييرها وتبديلها أصحاب العقول ، فله أن يسمى ما شاء .

حسن حسين

مما عيب على الفحول

مما عيب عليه من فحول الشعراء أبو نواس فى قوله :

جاد بالأموال حتى حسبوه الناس حمقا

فان ما يعده من الاسراف فى البذل حمقا ، لا يمكن أن يعود فيعده جودا محمودا ، وكرما معقولا . فكأنه ذم ممدوحه أقبح الذم .

وكقول أبى نواس :

مازال يهذى بالمكارم دائبا حتى ظننا أنه محموم

من عادة المحموم أن تضطرب حركاته ، وتختل أعماله ، ولا يسكن جأشه ، ومثل هذه الحالة لاتتفق وإهداء المكارم ، فانها إن لم تنبن على عقل ناضج ، وتثبت كامل ، وتقدير دقيق ، أصبحت بالوساوس أشبه ، وبأهل البلاهة أولى .

وعيب على أبى الطيب قوله :

ليت أنا ارتحلت لك الخيل وأنا إذا نزلت الخيام

فان فى هذا من تحقير النفس ، مالا يصح صدوره ممن يعرف لذاته حقها ، ولكرامته مكانها .

الشعر والشعراء فى الاسلام

الشعر ديوان العربية ، والثمرة اليانعة لأدبها وحكمتها ، والعربية لغة الدين ، ومستودع أسراره ، ثم هى من الجوامع الأدبية بين شعوبه ، فلا يجمل بمجلة تنتدب لتجلية الحقائق الاسلامية أن تمتنع من التصدى له على أسلوب ينطبق على وظيفتها . ناهيك أن رسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم اتخذ لنفسه شاعرا يذود عنه بمرهفات الشعر ما كان يوجهه اليه شعراء المشركين من نفثات سحرهم لحل عقدة جماعته ، وهدم أصول دعوته ، وقد روى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشعر لحكمة » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وناهيك به من شديد فى الدين ، يتكلم عن الشعر وينشد ما يحضره منه حتى سأل مرة جلساءه عن أشعر الشعراء فى رأيهم ، فقال كل منهم ما يعلمه ، فعارضهم وقال : بل أشعرهم هو الذى يقول : من ومن ، يعنى زهير بن أبى سلمى .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم » .

وكان على عليه السلام ، ومن هو ، يقول الشعر ويتمثل به ، حتى إنه كان إذا أراد المبارزة ينشد :

أى يومىّ من الموت أفر ... يوم لا يُقدَر أم يوم قُدِر
يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحذِر

وروى يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعى عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ومنشد ينشده قول شريك بن عامر المصطلق :

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم ... إن المنايا تحمى كل إنسان
فاسلك طريقك تمشى غير مختشع ... حتى تلاقى الذى منّى لك المانى
فكل ذى صاحب يوما مفارقه ... وكل زاد وإن أبقيته فان
والخير والشر مقرونان فى قرَن ... بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو أدرك هذا الاسلام لأسلم .

وقدم أبو ليلى النابغة الجعدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم الى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : الى الجنة يا رسول الله بك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الى الجنة إن شاء الله . فلما بلغ الى قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك ! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنقض له ثنيــة .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الشعر ويستنشده من يرويه . قال ابن أبي شـيبة : إن النبي صلى الله عليه وسلم أردف الشريد فقال له : تروى من شعر أمية بن أبى الصلت شيئا ؟ قال : نعم .

قال : فأنشدنى ، فأنشده ، فجعل يقول بين كل قافيتين : هيه ، حتى أنشده مائة قافية ، فقال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن رواحة : أخبرنى ما الشعر ياعبد الله ؟ قال : شيء يختلج فى صدرى فينطق به لسانى . قال : فأنشدنى ، فأنشده شعره الذى يقول فيه :

قبلت لله ما آتاك من حسن ... قفوت عيسى باذن الله والقدر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وإياك قبلت لله ، وإياك قبلت لله !

وقال زياد بن طارق الجشمى : قال حدثنى أبو جرول الجشمى ، وكان رئيس قومه ، قال : أسرنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسولَ الله فى حـرم ... فانك المـرء نرجـوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... يا أرجح النـاس حلما حين يختبر
إنا لنشـكر للنعمى إذا كفرت ... وعندنا بعد هـذا اليوم مدخر

فذكّرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولـكم ، قالت الأنصار : وما كان فهو لله ولرسوله ، وردت ما كان بأيديها من الأموال والذرارى .

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير بن أبى سلمى :

فان الحق مقطعه ثلاث : ... يمـين أو نفاذ أو جـلاء

فجعـل عمر يعجب بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها ، وإنما أراد بمقاطع الحقوق : اليمين أو الحـكومة ، أو البينة .

قال سعيد بن المسيب : كان أبو بكر الصديق شاعرا ، وعمر بن الخطاب شاعرا ، وعلىّ أشعر الثلاثة ، ومن قول علىّ عليه السلام بصفين حين كان يحارب معاوية :

أمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يردها حياض المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عنى والجزاء بكفه ربيعة خيرا ما أعف وأ كرما

ودخل كعب بن زهير بن أبى سلمى على النبى صلى الله عليه وسلم مادحا إياه بقصيدة بدأها بغزل وهو :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
ما إن تدوم على حال تكون بها كما تلون فى أثوابها الغول
ولا تمسك بالوعد الذى وعدت إلا كما يمسك الماء الغرابيل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل
ولا يغرنك مامنت وما وعدت إن الأمانى والأحلام تضليل

ثم خرج من هذا الى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فكساه بردا . فلما آلت الخلافة الى معاوية اشترى هذا البرد بعشرين ألف درهم .

هذا شأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى تقدير الشعر والشعراء ، وقد جرى التابعون على هذه الخطة ، فكان منهم الشعراء المجيدون كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة . ومنهم عروة بن أذينة وكان من ثقات رواة الحديث . ومنهم الشعبى الامام المشهور ، ويروى عنه أنه قال : « ما أنا لشىء من العلم أقل منى رواية للشعر ، وإن شئت أن أنشد شعرا شهرا لا أعيد بيتا فعلت » .

وكان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد الكبير شاعرا يحب الشعر الجيد . روى عنه أنه على زهده ونسكه سمع سكران يتغنى بهذا البيت وهو :

أذلنى الهوى فأنا الذليل وليس الى الذى أهوى سبيل

فكتبه فقال له أصحابه : أتكتب بيت شعر سمعته من سكران ؟

قال : أما سمعتم المثل : رب جوهرة فى مزبلة ؟

هذه كانت مكانة الشعر عند المسلمين الأولين ، وما حداهم الى الحنين اليه إلا صحة شعورهم ، ولطف حسوسهم ، فان الشعر غناء الأرواح ، وترنام الخواطر ، فاذا صدف عنه فانما يكون

ذلك لفساد الشعور ، وغلظ الحسوس ، ولا جرم أن انحطاطه فى أمة يُشعر بانحطاطها فى جميع مقومات الحياة الأدبية .

نحن هنا نريد أن نلم بالشعر العربى على أسلوب يخدم اللغة العربية ويرقى ملكتها فى النفوس ، فنتصدى للشعر على طريقة النقد والتمحيص من الوجهتين اللفظية والمعنوية معا ، ولا نمتنع فى أثناء ذلك من أن نأتى على تراجم الشعراء ونوادرهم .

اصطناع المعروف

قال زهير بن جذيمة لولده : « عليكم باصطناع المعروف واكتسابه ، وتلذذوا بطيب نسيمه ورضابه ، وارضوا مودات الرجال من أثمانه ، فرب رجل قد صفر من ماله فعاش هو وعقبه فى الذكر الجميل .

وقال شاعر فى مثل هذا :

إذا كنت ذاحظ من المال فاكتسب ... به الأجر وارفع ذكر أهل المقابر

وقال الفقيه المنصورى :

سألت رسوم القبر عمن ثوى به ... لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عمن عاش بعد وفاته ... بمعروفه إخوانه وأقاربه

وقال أبو نصر الميكالى :

الجود رأى موفق ومسدد ... والبذل فعل مؤيد ومعان
والبر أكبر ما وعته حقيبة ... والشكر أفضل ما حوته يدان
وإذا الكريم مضى وولى عمره ... كفل الثناء له بعمر ثان

وقال بعض الأعراب : « الدراهم مياسم تسم حمدا وذما ، فمن حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له » .

أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق ... وليس لى المال الذى أنا تاركه

وقال بشار بن برد من قصيدة مدح بها خالد بن برمك :

أخالد إن المال يبقى لأهله ... جمالا ولا يبقى الكنوز مع الحمد
فأطعم وكل من عارة مستردة ... ولا تبقها إن العوارى للرد

الاخلاق الفلسفية

— ١٤ —

بواعث أعمال بنى الانسان وغاياتهم

باعث الواجب :

لقد أبنّـا فيما تقدم أن البواعث الثلاثة السابقة لا تصلح لأن تكون مثلا أعلى للأخلاق ، لأنها لا يمكن أن تكون عالية ولا ثابتة من ناحية ، ولأنها لو أصبحت مثلا أعلى ترمى اليه الأخلاق لترتب على ذلك إما انتصار الغريزة البهيمية وسقوط الانسانية فى حضيض الحيوانية بسبب الخضوع لباعثى اللذة أو المنفعة ، وإما الضعف والتعرض للأخطاء الكثيرة بسبب الاذعان للعاطفة . وإذاً فليس أمامنا كقانون عالمى عام وكباعث نبيل يقود الى الغاية القصوى سوى الواجب ، وما ذلك إلا لأن البواعث الثلاثة الأول عامة يتحقق بعضها لدى الحيوانات ، والبعض الآخر لدى الانسان الناقص . أما الباعث الرابع وهـو الواجب فلا يتحقق إلا عند الانسان الكامل أو الآخذ فى أسباب الكمال .

تعريف الواجب :

الواجب : هو أمر إلزامى ينصبّ على الارادة الانسانية ، ليقسرها على الرضوخ للقانون الأخلاقى العام الذى أملاه صوت الضمير الأوحد على البشرية جمعاء .

ولما كانت الانسانية فى حاجة ماسة الى الانضواء تحت علم قانون واحد ، ثابت خالد ، ولم تستطع البواعث الثلاثة الآنفة الذكر أن تحقق للجمعية البشرية هذه الوحدة المنشودة ، وثبت أن الواجب هو وحده القادر على تحقيقها ، فقد صرح كثير من الأخلاقيين الروحيين المحدثين بأنه هو أهم البواعث وأرقاها ، بل هو الوسيلة الوحيدة التى يصل الانسان عن طريقها الى المثل الأعلى . فهو إذاً باعث فطرى دعت اليه الضرورة الملحة . والفرق بينه وبين غـيره من البواعث هو أنه شاق مضن قد حفت سبيله بالأشواك ، وامتلأت بالمصاعب والعقبات ، وأن غـيره سار لذيذ ، لأنه لا يكلف تعبا ولا عناء . وما أحسن وصف « كانْت » للواجب إذ يقول : « إيه أيها الواجب ، لست أدرى فى أى أرض نبتت شجرتك المقدسة التى تظل بظلها الخالد كل الذين يذعنون للقانون الأخلاقى الأبدى الملهم من الضمير ! أيتها الكلمة العالية والمعنى السامى ، أنت لا تقدم الى المرء لذة حسية ولا سرورا ماديا ، بل بالعكس أنت تتعبه

وتشقيه ، ولـكن فى مقابل ذلك تمنحه ثمنا جليلا ، وعوضا نبيلا ، وهو أنك تعلمه الاستمتاع بحريته والمحافظة على كرامته ! »

غير أن بعض الأخلاقيين قد ذهب الى أن الواجب ينبغى أن يعد مبررا أو مقصدا أكثر منه باعثا ، لأن الباعث هو ما يدفع الانسان الى عمل من الأعمال فى سهولة وبدون تفـكير ولا مقاومة ، والواجب عنـدهم ليس كذلك . وإذا فهـو ليس باعثا . ولـكن رأى هـذا البعض عندى غير صحيح ، لأنى لا أوافقهم على هذه الشروط التى أوجبوا وجودها فى الباعث ، وإنما أنا أقرر صحة ما رآه أكثر الفلاسفة الروحيين : وهو أن الواجب باعث ، وإن كان يمتاز عن بقيـة البواعث الأخرى بما ذكرناه له آنفا من رفعة وامتياز ، لأن أقصى غايات الحياة الانسانية يجب أن تـكون إخضاع الارادة لـكل مواد القانون الأخلاقى الخالد ، ولا مهنة للواجب غير هـذا الاخضاع الذى هو الطريق الوحيـد للوصول الى الـكمال المطلق الجدير بالـكرامة الانسانية ، والذى لولا الواجب لما وصلنا اليه ، لأن الحياة أمامنا مفعمة بمختلف المقاصد ومتباين الغايات التى من شانها أن تتنازع الارادة البشرية تنازعا يوقعها فريسة بين براثن الضعف والتناقض والخطأ والارتباك .

ومن أوضح الفروق بين ما يدعو اليه الواجب وما تدعو اليه البواعث الأخرى : هو أن الأول يكتسب قيمته وجـلاله من نفسه لا من غـيره ، وأما غايات البواعث الثلاثة السابقة فلا قيمة لها إلا باعتبار الصلات التى تربطها بالعوالم الخارجية المحسوسة . ولهـذا لا يمـكن أن يكون الواجب عاطفة ، لأن غاية العاطفة أقل قيمة من المثل الأعلى من ناحية ، ولأن ما لغاية العاطفة من قيمة مكتسب من صلاته بالعالم المحسوس من ناحية ثانية ، ولأنه قد ثبت الضلال لبعض العواطف ، وما ثبت للبعض يجوز على الـكل من ناحية ثالثـة . والواجب لا يمكن كذلك أن يكون نوعا من المنفعة والأنانيـة ، لأنه يناقضها تمام المناقضة ، ولا يحتمل أن يكون لذة حسية ، لأنه متعب شاق كما قـدمنا . ولو أنه كان أحد هـذه البواعث الثلاثة أو ما ثلها ، لما كان له على الارادة هـذه السلطة المطلقة . على أن عنصر الواجب يختلف كل الاختلاف عن عناصر هـذه البواعث جميعها ، لأنه هو منحة من الضمير ، وأما هى فنابعة من أصول مختلفة لا تتسامى الى عنصر الضمير كغريزتى حفظ الذات وحفظ النوع مثلا .

الآن ، وبعد أن انتهينا من البواعث وأبنّا ما يمكن من بينها أن يكون مثلا أعلى للأخلاق وما لا يمكن ، سنجوز بك الى شىء هو أكثر من البواعث السابقة اختصاصا بالانسان ، ولا يمكن أن يستمتع به غيره من بقية الـكائنات الحية وهو الغاية .

الغايات :

لقد رأينا أن البواعث تقود أعمالنا نحو غايات متعددة ، وأن هذه الغايات تختلف فيما بينها

رفعة وضعة تبعا لاختلاف البواعث ، وسيرا وراء نظام التفاضل الذى قررنا وجوده بينها .
ولما كان الانسان بفطرته ميالا الى التطلع الدائم نحو أنبل الغايات وأشرفها فقد رأى أن الضرورة تحتم عليه التفكير فى كل هذه الغايات المتباينة التى ترمى اليها البواعث الطبيعية تفكيرا متواصلا ينتهى به الى العثور على ضالته المنشودة ، ، وهى قصوى الغايات ومنتهى النهايات . ولو أنه أهمل تفكيره ولم يلب صوت ضميره وترك نفسه ينسحب مع تيارات هذه البواعث المتعارضة ، لذهب طعمة الحيرة وفريسة الارتباك ، لأن هذه البواعث متعادية فيما بينها عداء يجعل التوفيق بينها مع إرضائها جميعا ومساواة بعضها بالبعض الآخر متعذرا إن لم يكن مستحيلا . وإذاً فيجب على الانسان لكى يوفق بينها أن يقر فيها نظام الأريستوقراطية فيحكم الفاضل منها فى المفضول ، ويسود الشريف على المشروف . وإذا أردنا أن نتبين الميزات التى توجد فى بعض البواعث فتحدونا الى الحكم بأفضليته على البعض الآخر ، فما علينا إلا أن نترسم منهجى « ديكارت » و « كانت » فى هذه النقطة ، وهما يحصران هذه الامتيازات الداعية الى تفضيل باعث على آخر فى الكمال الانسانى والسعادتين : الشخصية والاجتماعية . فالباعث الذى يحقق هذه الغايات الثلاث هو الذى يستحق السيادة المطلقة .

غير أن كل واحدة من هذه الميزات الثلاث أو بعبارة أدق : الغايات الثلاث لها وسيلة ناجعة يتوصل بها الى تحقيقها ، وأن العلماء والباحثين قد اختلفوا فى هذه الوسائل اختلافات شتى أتينا لك فيما سبق على كثير منها : وذلك كغاية السعادة الشخصية مثلا فانها لا تتحقق عند « الابيكوريين » ومن نحا نحوهم إلا بالمسرات الجسمية ، ولا يحصل عليها المرء فى نظر الروحيين إلا بالفضائل والخيرات والاستهانة بالماديات ، وكذلك الوسيلة التى تحقق غاية السعادة الاجتماعية هى فى نظر بعض المدارس طموح الشخص الى سعادته الذاتية التى لا تتحق إلا باسعاد الجماعة التى هو فيها . وعند البعض الآخر هى شعوره بوجوب رد ثمن ما تقدمه إليه هذه الجماعة من صيانة روح ومال ، واستتباب أمن واستقرار سلام . وهى عند البعض الثالث إحساس المرء بأن عليه واجبا نحو الجماعة ينبغى أن يؤديه لها دون نظر الى نتيجة ولا طمع فى مكافأة .

وأما الغاية الثالثة وهى الكمال الانسانى ، فلا شك أن وسيلتها التى لا مراء فيها لدى كل الفلاسفة المعقولين هى القيام بالواجب وعدم مخالفة الضمير المقدس فى كل ما ينادى به . وكما أن الأخلاقيين اختلفوا فى الوسائل المؤدية الى بلوغ السعادتين : الفردية والاجتماعية ، فقد اختلفوا كذلك فى درجتيهما : فأكثرية علماء الاجتماع ترى أن السعادة العمرانية مقدمة على السعادة الفردية ، لأن نتائج الأولى أكبر قيمة وأعظم أثرا من نتائج الثانية ، ولأن الفرد ليس إلا جزءا من هذه المجموعة الكلية أو عضوا فى جسم الاجتماع العام ، بل إن بعضهم غالى فزعم أن السعادة الفردية منفصلة عن سعادة الاجتماع لا توجد إلا فى الخيال .

وقد رأى قسم آخر من الاجتماعيين المحدثين أن السعادة الشخصية هى الأساس الجوهرى المقصود بالذات ، وأن الجمعيات التعاونية ليست إلا وسائل لتحقق السعادات الفردية . وإذاً فمن العبث أن نحاول الوصول الى غايتنا عن طرق طويلة متعبة مع إمكان سيرنا فى طرق أخرى قصيرة معبدة . وفوق ذلك فان العناية بالسعادة الاجتماعية فى رأى هؤلاء الفلاسفة الذاتيين تولد ما يسمى بالديكتاتورية العامة أو بالاضطهاد الاجتماعى ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

مكان النحو من العربية

كانت العربية الفصحى لسان العرب ينطقون بألفاظها وتراكيبها المختلفة بدون لحن، مقودين الى ذلك بسليقتهم ، فلما جاء الاسلام واختلط العرب بالفرس والديلم والروم وغيرهم ، فسدت سليقتهم فصاروا يلحنون فى لغتهم ، وقد اتقى الكثيرون منهم فى أول الأمر هذا العيب اللسانى فصاروا يرسلون بأبنائهم ليتربوا فى البادية ليشبوا على عدم اللحن ، ولكن ما لبثت البادية بسبب ما أحدثه الاسلام من الحركة الحيوية فى جميع القبائل العربية أن أصيب أهلها باللحن أيضا ، فصار النطق بالعربية الصحيحة مقصورا على كبار الأدباء وأهل العلم ، ثم طمت العجمة فشاع اللحن فيهم أيضا وأصبحوا يعدون المقيم على الإعراب فى المحادثات العادية متقعرا متشدقا ، فاقتصرت الفصحى على لغة الكتابة واستعان الناس على ضبطها بالنحو . فكان أيوب السختيانى يقول : تعلموا النحو فانه جمال الوضيع ، وتركه هجنة للشريف .

وقال شاعر :

النحو يصلح من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن
فاذا أردت من العلوم أجلها ... فأجلها منها مقيم الألسن
لحن الشريف يحطه عن قدره ... وتراه يسقط من لحاظ الأعين
وترى الدنى إذا تكلم معربا ... نال النباهة باللسان المعلن
ماورث الآباء فيما ورثوا ... أبناءهم مثل العلوم فأتقن

وقال عبد الملك بن مروان : اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

فى سبيل مكافحة المادية

الانتقالات النفسية الى مسافات بعيدة

نقلنا طرفا من المشاهدات التى حققها العلماء الاوربيون لإثبات بعض خصائص النفس الانسانية ، ونريد أن نتابع هذه الفتوحات العلمية إجهازا على الذَّماء الباقى للمادية هنا وهناك ، إذ لا يمكن أن يحترم دين ، أو تقوم أخلاق وأثر المادية ماثل فى الأذهان . إن الماديين صاحوا فى وجه الدينيين قائلين لهم : إنكم تتمسكون بالأوهام فأين هى الروح ؟ أرونا إياها لنقول بوجودها كما تقولون . فهؤلاء إذا لم تقابَل تحدياتهم بمشاهدات علمية ، تثبت خصائص الروح وتدل على وجودها ، عدوا أنفسهم غالبين ، وتمادوا فى السخر بالدين والمتدينين . فعلى كل مؤمن أن يحتفظ بما ننقله لهم هنا ، فانه السلاح الماضى لحجج المبطلين ، ولا سبيل الى إبطالها إلا هذه الطريقة العلمية .

قال الأستاذ الكبير كاميل فلامريون فى كتابه (الموت وغامضته) وهو من خصائص النفس التى تثبت وجودها فى الجسم مستقلة عن كل شىء فيه ، قال :

« إليك مثالا آخر نشر فى فبراير سنة ١٩٠١ فى مجموعة الجمعية العلمية للمباحث النفسية مما رآه باحثو هذه الأمور مكررا مائة مرة بعد ذلك التاريخ . والحادثة الأخيرة تتعلق با بصار واضح جدا عن بعد ٢٣٠ كيلو مترا ، والذى حدث له وهو المستر (دافيد فرازر) أستاذ المحاضرات فى جامعة (سانت أندريه) وهو الذى دونها بقلمه فى العبارات التالية قال :

« حدث أمر هام منذ بضع سنين منعنى من العود الى دارى فى لوندرة فى آخر الأسبوع . فلعدم رغبتى فى تمضية يوم الأحد بمنشستر قصدت يوم السبت بعد الظهر (ماتلوتش باث) لتمضية ذلك اليوم فيها بهدوء ، ثم العود الى دارى يوم الاثنين بقطار الصباح .

« فلما وصلت الى الجهة التى يممتها ، وأويت الى فندق لأسرة قريب من المحطة ، طلبت قليلا من الشاى ، ودخلت الى البهو لأستدفىء ، لأن يومى ذلك كان من شهر يناير ، والبرد فى أقصى درجاته ، والثلج يسقط بكثرة ، والترمومتر يشير الى درجات كثيرة تحت الصفر .

« فرأيتنى وحدى فى تلك اللحظة بذلك الفندق ، فتمكنت من الجلوس على كرسى كبير منتظرا الشاى أمام مدفأة حامية الوطيس ، ولم يكن الظلام قد أرخى سدوله بحيث يصح إيقاد الغاز ، ولا النور بكاف لا مكان القراءة ، فأدرت ظهرى الى النافذة ولم أفكر فى شىء خاص . وبينما أنا فى تلك الحالة من الهدوء والسكينه إذا بى قد أضعت معرفة المكان الذى أنا فيه ، وبدلا من أن أرى أمامى حائط الحجرة ، واللوحات المعلقة عليها ، إذ كشفت أمامى

وجهة بيتى فى لوندرة وامرأتى واقفة أمامه على عتبة الباب تكلم صانعا ممسكا بيده مكنسة كبيرة . وظهر على وجه امرأتى أنها متكدرة جدا ، وأحسست أنا أن الرجل الذى كان يكلمها كان فى بؤس عظيم . لم أسمع حديثهما ولكن ألقى فى روعى أن هذا الرجل يطلب منها المعونة . فى هذه اللحظة قدم الىّ خادم الفندق الشاى ، فزال هذا المنظر من أمامى ، فكان التأثير الذى أحدثه فى نفسى من العظم ، واقتناعى بحقيته من القوة ، بحيث إنى بعد أن تناولت الشاى كتبت الى امرأتى كتابا أخبرها فيه بما حدث لى ، وأرجوها أن تستزيد علما بأمر هذا الرجل ، وان تعينه على حاله بقدر ما تستطيع .

« فإليك تفصيل ما حدث فى لوندرة : جاء غلام صغير فطرق باب دارى (الذى هو على بعد ٢٣٠ كيلو مترا من المكان الذى كنت جالسا إذ ذاك فيه) فخاطب الخادمة متطوعا أن يرفع الثلج المركوم على الافريز وعتبة الدار فى مقابل بنسات . وبينما الغلام يتكلم إذا برجل قد أقبل فى أطمار ، فقال للخادمة : أرجوك أن تخصينى أنا بهذه الخدمة ، فان هذا الغلام قد ينفق البنسات التى يأخذها منك فى شراء حلوى ، أما أنا فمحتاج اليها لشراء خبز ، فان فى عنقى امرأة وأربعة أطفال مرضى جميعا وليس لديهم ما يأكلونه ولا ما يستدفئون به ، فرجته الخادمة أن ينتظر وذهبت فأخبرت امرأتى ، فأقبلت تكلم الرجل المسكين . فكرر قوله بأنه كان مريضا ، وأن أسرته فى حالة بؤس شديد ، ولكنه قبل أن يمتهن نفسه فى التسول أراد أن يحاول أن يجد أى عمل كان . فكان هذا المنظر هو الذى رأيته ساعة حدوثه ، ويلوح لى أنه انتقل الى بسبب تأثر عقل امرأتى بما سمعته من بؤس الرجل الفقير .

« وإليك آخر ما حدث : فان امرأتى وعدت ذلك الرجل بأنها ستذهب الى داره فى المساء وستنظر فيما يجب عمله لمساعدته . فلما ذهبت اليه وجدته صادقا ، فأعطته ما قدرت عليه من الدراهم والملابس والأغذية والوقود . ولست فى حاجة لأن أقول إن كتابى الذى وصل اليها صباح الاثنين أحدث لها دهشا عظيما . وبعد أيام معدودة رأيت الرجل بنفسى فوجدت أنه هو بعينه الذى رأيته فيما رأيت ، وقد وجد له عملا عند لبان ، وكان يأتى لتوزيع اللبن على سكان الحى الذى أنا فيه مدة سنتين » .

التوقيع — دافيد فرازر هاريس

قال الأستاذ (كاميل فلامريون) عقب نشره هذا الكتاب :

« أليس فى هذه المشاهدة الحقة دليلا مطلقا على وجود خاصة للروح لا علاقة لها بالعين المادية ولا شبكيتها ، ولا بالعصب البصرى ولا بالمخ ؟ أليست الروح هى التى كانت تعمل وحدها فى هذه المشاهدة ؟ وقد حدث فيها انتقال روحانى عن بعد لأن الرائى لم ير المنظر وحده ولكنه أدرك أيضا طبيعة المحادثة بين الفقير وامرأته ؟

« الاتصالات النفسية العقلية بين الأحياء ، قد تتكيف أحيانا بصورة سماعية كما بيناه فيما سبق ، فيسمع الانسان صوتا أو نداء ملحا ، وهذا الصوت وذلك النداء يقابل رغيبة أو عزيمة أو غرضا أو أمرا صادرا من بعيد يحمل السامع على إطاعته . فاليك حادثة عظيمة الشأن جدا شهدها بنفسه الدكتور (نقولا) والكونت (غونوميس) من جزيرة كورفو ، قال الدكتور المذكور :

« فى سنة ١٨٦٩ كنت من رؤساء الأطباء فى الجيش اليونانى فالحقت بأمر وزير الحربية بحامية (زانتا) . فبينما أنا اقترب من الجزيرة لأشغل مركزى الجديد ، وأنا على نحو ساعتين من الشاطئ ، إذ سمعت صوتا باطنيا يقول لى بدون انقطاع باللغة الايطالية : « اذهب وقابل فولتيرا » .

« وأخذت هذه العبارة تتكرر حتى حيرتنى . وإنى وإن كنت فى حالة جيدة من الصحة فى ذلك الوقت فإنى خشيت أن أكون مصابا بهذيان سمعى ، ولم يكن عندى ما يحملنى على أن أفكر فى اسم المسيو فولتيرا الذى يسكن (زانتا) ، بل إنى ما كنت أعرف هذا الاسم وإن كنت رأيت صاحبه مرة منذ عشر سنين . فأخذت أسد مسامعى وأتشاغل بالكلام مع رفاقى فلم يجد ذلك نفعا ، واستمر الصوت يطرق أذنى على ما كان عليه

« وصلنا أخيرا الى البر فيممت الفندق من فورى وأخذت أفتح حقائبى ، ولكن ذلك الصوت لم يزايلنى ، وبعد قليل دخل على الخادم ، وقال : إن أحد الناس بالباب ويريد أن يكلمنى. فسألته من هو ؟ فأجابنى اسمه المسيو (فولتيرا) وما أتم الخادم هذه العبارة حتى دخل هذا الشخص وهو يبكى وفى غاية اليأس ، ورجانى أن أذهب معه لأرى ابنه الواقع فى مرض شديد .

« فذهبت معه وإذا بابنه الشاب فى حالة جنون مطبق وتهيج ، عارى الجسم فى حجرة خالية ، وقد يئس منه جميع أطباء (زانتا) من منذ خمس سنين ، وكان منظره بشعا ويزيده بشاعة ما كان يعتريه من النوب المصحوبة بالصفير والجؤار والعواء ، وأصوات أخرى للحيوانات ، وأحيانا كان يزحف على الأرض كالثعبان ، وأحيانا أخرى كان يجثو على ركبته فى حالة ذهول ، وفى أوقات أخرى كان يتكلم ويتشاجر مع كائنات . وكانت النوب الشديدة تنتهى بدور إغماء تام وطويل ، وعندما فتحت عليه الباب هجم على بشراسة ، ولكنى ثبت فى مكانى وأمسكت به من ذراعه ناظرا إليه بتحديق ، فلم تمض غير ثوان حتى قلت قوة عينيه ، ثم أخذ يرتعد ووقع على الأرض مغمضا عينيه ، ولم تمر نصف ساعة حتى صار فى حالة انتقال نومى ، فعالجته بهذه الوسيلة مدة شهرين ونصف شهر ، رأيت فى خلالها أكثر من حادثة مفيدة ، وبعد ما تم له الشفاء لم يقع فى انتكاس » التوقيع : الدكتور نيقولا

« واليك الكتاب الذى أرسله المسيو فولتيرا الى الدكتور نقولا فى ٧ يونيو وفيه تأكيد تام لما سبق ذكره ، جاء فى آخره :

« قبل حضوركم الى (زانتا) لم تكن بيني وبينكم أدنى علاقة ، ولو أنى أمضيت سنين كثيرة فى جزيرة كورفو بمنصب عضو الجمعية التشريعية ولم يكلم أحدنا الآخر قط ، ولم أقل لكم كلمة واحدة عن حالة ابنى ، ولم أفكر فيكم ، ولم أطلب معونتكم ، حتى قصدت أن أراكم عند وصولكم الى (زانتا) بوظيفة طبيب عسكرى ، ورجوتكم تنجية ابنى مما ألم به .

« فنحن مدينون بحياته لكم ، ثم للتنويم المغناطيسى ، وأرى من واجبى أن أقدم لكم شكرى الخالص ، وأن أوقع على هذا » : محبكم المخلص الشاكر

ديمتريو فولتيرا

ويلى هذا توقيعات إضافية هى :

(لورا فولتيرا) امرأة المسيو فولتيرا ، و (ديونيزيو د . فولتيرا) الكونت كليسو بليفرى ، و (يوأنا ستاز فولتيرا) الابن الذى كان مريضا ، و (س . فسابولوس) شاهد ، و (لورنزو ميركاتى) شاهد و (ديمتريو) الكونت جبرينو شاهد .

وكان الدكتور (بالم) Balme من نانسى بفرنسا يعالج الكونتس دو . ل . المصابة بالدسبپسيا (وهو مرض معدى عصبى) . فكانت تأتى الى عيادته ولم تدخل قط الى بيته الواقع خارج المدينة . فبعد مضى ثلاثة أيام على إحدى زياراتها أى فى ١٩ مايو سنة ١٨٩٩ سمع الدكتور وهو داخل الى داره فى أثناء اجتيازه الدهليز هذه العبارة : « إنى أشعر بألم شديد وليس عندى من يسعفنى بالعلاج » . ثم سمع كأن جسما سقط على الأرض . وكان الصوت صوت الكونتس دو . ل . فبحث الطبيب فى الأمر ، فعلم أن أحدا من البيت لم ير ولم يسمع هذه السيدة ، فدخل الى حجرة عمله وأوجد نفسه فى حالة نوم مغناطيسى خفيف ونقل نفسه الى دار الكونتس فشاهد كل ما رآه تعمله وأخذ به مذكرة .

فلما جاءت الكونتس لعيادته أخبرته بجميع ما شعرت به ، فرأى أنه مطابق لما رآه بنفسه . ثم سألها قائلا :

« عن أى شىء كنت تبحثين حولك بعد أن دخلت الى حجرتك ؟ » .

« قالت كان يخيل الىّ أن إنسانا ينظر الىّ » .

***

قال الأستاذ كاميل فلامريون بعد أن أورد هذه الحوادث :

« فالسماع عن بعد لا يمكن تصديقه إذا لم نرد أن نعترف بوجود روح أو نفس أو أنية

نفسية (مهما كانت الكلمة المستعملة للدلالة عليها) تعمل خارجا عن الجسم وعن مرمى الحواس

« وهذه الحوادث كلها من التلباتيا والانتقالات النفسية التى لا يمكن الشك فيها تبين ضروبا من الخصائص العلوية للنفس تخالف ما تعلمناه من البسيكولوجيا الفيزيولوجية الرسمية : وهى النظر والسمع عن بعد بواسطة الأمواج النفسية .

« ليس لى أن أعود الى ما كتبته عن الانتقالات الفكرية . فان مسألة قراءة الأفكار قد شوهدت مرارا فى تجارب جديدة . اليك تجربة منها نشرها الدكتور (ج . دو ميسيمى) عن وسيط له فى حالة انتقال نومى ، قال : إن الكشف الذى كان يحدث لوسيطى كان يمتد الى قراءة أفكار الحاضرين معى ، فقد رجوت مرة اثنى عشر شخصا من الجمعية أن يقفوا أمام الوسيط ورجوتهم أن يفكر كل منهم فى نوع خاص من الأزهار بدون أن يفضى واحد الى غيره بما يفكر فيه . ثم التفت الى المنوَّم وأمرته بأن يسمى بصوت عال الزهرة التى يفكر فيها كل من الحاضرين . فسماها كلها بدون أن يخطىء وبغير أقل تردد قارئا أفكارهم كأنه كان يقرأ كتابا » . التوقيع : الدكتور ج . دوميسيمى

« هذه تجربة من مائة من هذا النوع . فالانتقال الفكرى ثابت ثبوت انتقال الحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية الشمسية .

« فالابصار التلباتى يحصل بدون مساعدة الأعين ، ولا يمنعه طول المسافة ولا العوائق المادية . وليس الزمن بمؤثر فيه كالمسافة . فقد يرى الانسان حادثا حاضرا أوماضيا أومستقبلا على السواء . وهذا العمل النفسى يستخدم خاصة عقلية مستقلة عن الجسم .

« فاذا اعترض معترض على استدلالنا على وجود الروح من الشعور بالأمور المستقبلة ، ومن هذه التأثيرات التلباتية ، بأن هذه الخصائص الطبيعية يمكن أن تكون من خواص المخ لا من أصل عقلى مستقل عن الجسم ، ولا يمكن أن تثبت وجود روح ذات شخصية متميزة فى الانسان أكثر مما تثبته حاسة الشم القوية عند الكلاب أو ميزة الحمام السياح . إذا اعترض معترض بهذا أجبنا بأن التحليل الدقيق للمشاهدات يؤدى كل عقل خالص من الأوهام الى أن يستدل منها استدلالا مخالفا لاستدلال المعترض . لأن الأمر فيها يتعلق بعمل فكرى لا بعمل جسمى . فنحن مغمورون هنا فى عالم روحانى غير منظور ، فليعز هذه الشعورات الى ما يسمونه الشخصية اللاواعية من الانسان أو غيرها ، فالأسماء لا تهمنا ، فان الذى ندركه هنا هو وجود أنية عقلية عاملة وهى الروح .

« فليست شبكة العين ولا العصب البصرى ولا مايتصل منه بالمخ هو الذى يعمل فى إحداث هذه الأمور ، فان كل الأعمال التى يمكن تصور حدوثها من أية مادة مخية لا تستطيع أن تكوِّن

شيئا فى عقل الغير ، ولا إدراك حادث يجرى فى الجهة المقابلة للتى نحن فيها من الكرة الأرضية ، ولا كشف أمور لم تحدث بعد .

« اليك حادثة أخرى من النظر عن بعد جاءت فى غاية الإحكام رآها غلام عمره سبع سنين أرسلها مشاهدها الدكتور (جان) من أركان الحرب فى الحرب الأخيرة الى الاستاذ ريشيه (أحد أعضاء المجمع العلمى ومدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الفرنسية) قال :

« منذ عشر سنين كنت أعالج فى قرية (كوجوليس) غلاما مريضا يناهز السبع السنين . فاستدعيت لعيادته فى صباح يوم من الأيام دعوة مستعجلة ، فقصت على أمه وهى وجلة بأن ابنها أصابه دور فجائى من الهذيان . ذلك أنه استيقظ كعادته ظاهرا عليه التحسن فى صحته ، ولكن ما وافت الساعة العاشرة حتى وقف فى سريره ذعرا من مشهد خيالى أمامه ، فكان يخيل إليه أنه يرى الماء فى كل مكان ، ثم أخذ يستصرخ لتخليص أبيه ، زاعما أنه على وشك الغرق ، أما أبوه فكان غائبا فى مدينة (نيس) حيث يقيم أخوه ليمضى معه بضعة أيام .

« فلما وصلتُ الى الغلام كان قد هدأ ، ولكنه مصر على القول بأنه رأى أباه وهو يغرق ، وما لبثت أمه حتى ورد اليها تلغراف من أخى زوجها يستدعيها بسرعة وينبئها بأن زوجها غرق فى نيس فى الساعة العاشرة حيث كان يريد تنجية أخيه من الغرق ، وقد كان ألقى بنفسه فى اليم تخلصا من الألم . وكان آخر ما سمع من الأب قوله : « يا ولدى المسكين »

قال الأستاذ (كاميل فلا مريون) عقب هذه المشاهدة :

« يظن الظانون إن هذه الحوادث نادرة ، أوغاية فى الندرة ، ومشكوك فيها ، وغير ثابتة ، وهذا ضلال بعيد ، فان أحاديثى مع الناس منذ نصف قرن أثبتت أنه يوجد على الأقل واحد فى كل عشرة قد علم ، سواء أكان ذلك بنفسه أم سماعا من أحد أقاربه ، حادثة تلباتية ، أو إخبارا بغيب ، أو إنذارا بموت ، أو رؤية لشىء مستقبل ، أو أى حادث نفسانى ، ولكنى لا أدرى لماذا يكتمون ذلك ويبالغون فى إخفائه ، كأنه شىء لا يصح التصريح به .

« لاشك أن هذا من آثار التربية الضالة ، أو الخشية الوهمية » .

* * *

ونحن بعد هذا كله نقول : إننا ننقل هذه المشاهدات عن كبار الأوربيين ولم نأت بجانبها بأسماء إسلامية ، لأننا لا نريد أن نتهم بتحيز فى نقل الحوادث النفسية ، تجريدا للدليل من كل غلو أو جنوح لنظرية معينة . ولا شك أن نقل إقرارات الذين كانوا بالأمس أقطاب الالحاد ، أوقع فى النفس من نقل أقوال المؤمنين . ولذلك تجدنا نتحرى شهادات أولئك الأقطاب فى كل موطن يحتاج لأقامة الدليل على وهن المادية .

محمد فريد وجدى

عجائب المخلوقات

فى العالم الحيوانى عجائب أحصى بعضها فملات أسفارا كثيرة ، ولو عُنى الناس بدراسة طبائع هذه المخلوقات لوجدوا منها ما لا يمكن حصره ، ولقد كان الناس يحسبون الحيوانات مجردة من العقل والتفكير ، فلما جاء العلم أثبت لها عقلا وتفكيرا مناسبين لها على قدر درجتها من المجموعة الحيوانية .

ولقد كان (ديكارت) العالم الفرنسى الكبير يعتبر الحيوانات آلات مجردة من كل روية ، فجاءت المشاهدات العلمية بنقيض ما ذهب اليه . وقد عُنى العلماء بالبحث فى أعمال الحيوانات وسيرتها ، فوجدوا أن خصائصها الأدبية لا تفترق عن مثيلاتها فى الانسان إلا فى الكَمّ فقط ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم الى ربهم يحشرون » .

وقد درس الأستاذ كاتروفاج العلامة الفيزيولوجى الفرنسى الشهير المتوفى سنة ١٨٩٢ عقليات الحيوانات ونفسياتها ، فوجد أن كل ما فى الانسان من إدراك وإحساس وعواطف وميول يشاركه فيها الحيوانات ، إلا فى خاصة التدين فقد اختص بها الانسان وحده ، وهى التى دلت على سموه عن الحيوانات ، ومباينته لها ، وهو فارق لا يمكن تقديره لبعد أثره ، وعظيم خطره .

فمما شاهده العلماء الباحثون فى طبائع الحيوانات أن طريقتها فى الانتحار هى طريقة المتوحشين من الناس . ذلك أن الرجل المتوحش إذا أراد أن لا يبقى حيا امتنع عن الأكل والشرب ، واستمر على ذلك حتى يموت . وقد شوهد أن هذا هو عين أسلوب الحيوان فى الانتحار ، فقد رؤيت كلاب وخيول تركت الأكل وماتت منتحرة بجانب جثث ساداتها وفاء لها . وما كان أحد يعرف أن فى الحيوان شعورا ووفاء الى حد أنه يكره الحياة فى سبيل فقد صاحبه .

ورُئى لدى القردة المحافظين على وحدة الزوجة أنه إذا مات الذكر امتنعت الأنثى عن الأكل حتى تلحق به ، وإذا ماتت الأنثى امتنع ذكرها عن الأكل حتى يموت .

وقد شوهد أن من الحيوانات من يعمد الى إزهاق روحه بالشدة ، فان بعض أنواع الثعابين إذا رأى الواحد منهم أنه محصور ولا يستطيع التمكن من خصمه ، لوى فكيه على نفسه وعض جسمه فمات .

ومن ذلك ما نقله القائمقام (دوكاتسيروت) فى مجلة (الناتور) الفرنسية فى مجلد سنة ١٨٨٢ ، أنه أسر حيّة من ذوات الجرس ، فلما رأت نفسها محصورة ، وأنه لا مناص لها من الاستسلام ، عضت نفسها فى وسطها ، وأفرغت فى جسدها سمها فماتت بعد بضع دقائق .

وقد شوهد أن الانتحار يكون عاما فى بعض الأنواع المنحطة من الحيوانات كالأسماك والسلاحف والحشرات ، فقد شوهد أن الجماعات منها تنتحر انتحارا بالامتناع عن الأكل ولا يعلم لانتحارها من سبب للآن .

أما خصائص الذاكرة فقد شوهد أن الحيوان يشارك الانسان فيها . فرئى أنها تتذكر من أحسن إليها ، والمواطن التى ربيت بها ، وتحقد على من أساء إليها ، ولا تتجرد من ذلك أدناها رتبة ، وأحطها درجة .

وقد رئى أن الحيوانات المتمتعة بذكاء متمتعة أيضا بخيال ، فشوهد أيضا أن الحصان والفيل يحلمان ، وأن القرد كثيرا ما يصاب بالكابوس ، وعلم أن كثيرا من الحيوانات تصاب بالجنون كما يصاب به الانسان .

وشوهد أن خيولا وكلابا أصيبوا بالجنون من جراء اتساع عقولهم .

وقد عرف أن لدى الحيوانات خاصة التقليد ، فتأخذ عن بعضها ما تحتاج إليه فى أمر حياتها ، والتقليد يقتضى النظر والاختيار ، فقد روى أن الهررة تأخذ عن الكلاب أسلوب القيء .

ورئى أن الأورنج والشامبانزيه من أجناس القردة الراقية يتعلمون بسرعة فتح الأقفال . وقد تعود قرد كان يملكه الطبيعى الكبير (بوفون) استعمال المفتاح بكل مهارة .

وشوهد أن أحد قردة حديقة الحيوانات فى مدينة (درسد) أراد أن يكون حرا ليخرج من قفصه متى أراد ، فعمد الى مفتاحه فأخفاه باعتناء عظيم بعد أن سرقه بحيلة عجيبة .

وقد تمكن بعض العلماء من تعليم هررة ومعيز وكلاب دق الأجراس وفتح الأبواب . وقد رووا عن بعض الأبقار والبغال والحمير أنهم علموا ما يشبه هذا .

وقد شاهد الأستاذ (هارتمان فول) أن فى زريبة للبقر بقرب جنيف تعلم الأبقار فتح الحنفيات بأفواههم ، فاستصنع السائس لها مفتاحا ليتحامى به شر أولئك الأبقار .

ومن أغرب ما رئى فى العالم الحيوانى الحيوانات التى تصنع لأنفسها ملابس . وقد عنى بدراسة هذه الحيوانات العلامة الطبيعى (ريومور) صاحب الترمومتر المنسوب إليه .

ذلك أنه رأى نوعا من العث فيه ميل لتغطية جسده العارى ، فوجدها تعمد الى نسج حلة لنفسها من ذات النسيج الذى تقع فيه وتحملها معها حيثما ذهبت . وفى العادة يكون لون حلتها كلون النسيج الذى تستعير منه خيوطها ، فان كان أزرق أو أحمر أو أصفر أو مخلوطا منها ، جاءت حلتها زرقاء أو حمراء أو صفراء أو مكونة من جميع هذه الألوان . وهى تعتنى بأن يكون باطن حلتها مغشى بالحرير .

ويوجـد جنس من الحشرات يبل ظهره وينغمس فى الـتراب حتى يكتسى ظهره بطبقة منه ، وقصده من ذلك أنه يخفى وجـوده على أعدائه ، فاذا تلمسوه لم يجدوا غير التراب فيتركوه وشأنه .

وقـد ذكر الأستاذ ايف دولاج والدكتور جـولد سميث فى كتابهما المسمى (بنظريات النشوء والارتقاء) : أن دارون نقل عن (برهم) وغيره من علماء التاريخ الطبيعى أعمالا حيوانية تدل على انتشار روح التعاون بين أفرادها . وقالوا إن حيوانات كثيرة تتخذ لجماعتها ديذبانات لاخبارها بالخطر المتوقع حتى لا يؤخذوا على غرة .

قالوا : ولدى الحيوانات المجترة يتقدم القطيع ذكوره الأقوياء ، ويتأخر الإناث والضعفاء، ليكون أولئك حماة للجماعة عند حدوث الخطر . وقد اعتادت الذئاب أن تغير مجتمعة ، والبجع أن تصيد كتائب متساعدة .

وشوهد أن الحيوانات المسماة همادرياس تقلب الأحجار لتجد تحتها غنيمتها من الحشرات ، فاذا وجدت حشرة كبيرة الحجم تتساعد على حملها باحاطتها من كل ناحية ، ثم تشرع فى اقتسامها .

وقد نقل دارون عن (برهم) هـذه المشاهدة العجيبة وهى : أن فردا من أفراد الحيوان المسمى (سيركوبيتيك) أسره نسر وأخذه فى براثنه وشرع يطير به ، فصاح فهب على صياحه أبناء جنسه الذين كانوا بجواره ، واحتاطوا بالنسر وأخذوا ينتفون ريشه ، فوجد نفسه مضطرا لترك فريسته والهرب بنفسه وإلا صار بلا ريش واضطر للمعيشة على الأرض فهلك .

وقد لاحظ العلامة (برهم) أن النسر لا ينقض على قرد إذا كان سائرا مع أبناء جنسه ، تفاديا من خفوفهم للدفاع عنه . أما إذا كان وحده أسره ولا كرامة .

ويروى دارون أن القردة لا يتجردون من العطف والرحمة ، واستشهد على قوله هذا بأنه لو اتفق أن هلك بعض القردة وترك صغارا ضعافا كفلهم بقية القرود ذكورا وإناثا، واعتنوا بهم كبعض أبنائهم .

ويروى دارون أيضا أن بعضهم شاهد غربانا ونسورا تحمل الأغذية لأبناء جنسيهما إذا أصيبوا بعمى أوغيره الخ .

إذا صح هذا ، وهو مما يرويه دارون ليتخذه حجة على أن الانسان والحيوان سواء فى جميع الخواص النفسية ، وإنما ارتقى الانسان فيها على نسبة سعة مداركه ، وكثرة وسائله ، فقد غفل دارون عن أن خصومه قد انتهزوها فرصة فردوها عليه أدلة على فساد مذهبه .

ذلك أنه يبنى كل التطورات الحيوانية والانسانية على نظرية الانتخاب الطبيعى ، ومؤداها أن الأحياء من كل جنس تتنازع الحياة فيسبق الأقوياء الى مواطن الحياة قبل غيرهم ، فيستأثرون

بخيرها ويحرمون الضعفاء ، فيزداد الأولون قوة والأخيرون ضعفا ، فتجىء ذرية الأولين قوية والأخيرين ضعيفة ، وبتوالى الأجيال يفنى الضعفاء ولا يبقى إلا الأقوياء .

فيتجدد تنازع ثان بين الأقوياء على المثال المتقدم ، فيهلك الأضعفون وتبقى الصفوة الممتازة . وفى كل جيل يورث المنتصرون زراريهم ما اكتسبوه من صفات ومميزات جديدة ، وعلى هذه الوتيرة ترقت المملكة الحيوانية ، وافترقت الى أنواع وأجناس ورتب وفصائل الخ .

ولكن خصوم دارون استخدموا المشاهدات التى أوردها هو فى هدم نظريته هذه فقالوا : المشاهد أن بين طوائف الحيوانات تكافلا وتساعدا وأنتم ترون ذلك بأنفسكم ، فكيف تبنون على تزاحمها وتنافسها ناموسا خطيرا أقمتم عليه نظرية جعلت الوجود فى نظر الآخذ بها آليا محضا لا أثر فيها للارادة ولا للاختيار .

وقد تصدى لهذه النظرية بمثل هذه الأسلحة عينها العلامة الروسى (كروبتكين) فى كتابه (التساعد عامل من عوامل التطور) وقد عزا كثيرا مما ذكره لعلماء الروس ومنهم الزولوجى المشهور (كسلر) .

قال البحاثة (كروبتكين) :

« أينما تجد الأحوال الطبيعية سيئة ، والمناخ شديد القسوة ، والغذاء عظيم الندرة ، وأسباب الهلاك تطغى على وسائل البقاء ، بحيث لا تتغلب عليها الحياة إلا بصعوبة ، فلا تصادف فى مثل هذه البيئة تنازعا فى الحياة بين الأحياء ، ولكن على العكس تجد تساندا وترافدا بين الآحاد ، مما له أثر بعيد فى حفظ حياة الجماعة ، ودفعها للتطور والارتقاء . فدراسة العالم الحيوانى تدل على أن غريزة الاجتماع تشمل جميع الحيوانات حتى التى لا يتخيل أن لها حياة اجتماعية كالسرطان (أبو جلانبو) » .

نقول : لقد كثرت الطعون فى الدارونية وتعددت مناحيها وقد لا يمضى جيل آخر حتى تصبح أثرا بعد عين وتحل محلها نظرية علمية أخرى أولى بالبقاء .

على أن مسألة نشوء الكائنات الأرضية وتنوعها ، وذهابها فى التنوع الى حدود يكاد لا يتصورها العقل ، ولا يستطيع أن يحصيها العد ، كل هذا فيما نظن مما لا يمكن تفسيره تفسيرا يتفق وعظمته وجلاله . فالذين ينسبون كل هذه الوجودات والعوالم الى الخبط والاتفاق والمادة وقوتها المجردة من العقل يرتكبون ضد أنفسهم إساءة لا تحتمل ، ولا يمكن أن يصل العالم من البله لتصديقهم ، والاعتداد برأيهم ؟

محمد فريد وجدى

دفع شبهات عن الاسلام

يتفق المشككون فى الاسلام ، من أى ملة أو نحلة كانوا ، فى اختلاق الأكاذيب عليه ، أو على القليل فى تجسيم ما يكون فيه رائحة شبهة ، فينفخون فيه حتى يجعلوه جبلا لا يمكن قطعه ، ويستنتجون منه استنتاجات ضد نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان مدعيا وليس بنبى .

لو سألتهم ولم تضنون عليه بالنبوة ولم تضنوا بها على ألوف مؤلفة من رجال ليس لهم ماض كماضيه ، ولا حاضر كحاضره ، ولا أثر فى العالم يوازى عشر عشير أثره ؟ لم يجدوا جوابا ، ولكنهم لا يخجلون ، ويصرون على أنه لم يكن صادقا فيما ادعاه لنفسه !

لم لم يكن هو صادقا وكان غيره صادقا ؟ هل حفظت عنه ضلالة ؟ هل سجلت عليه فاحشة ؟ هل أحصيت له دنيئة ؟ هل فتنه السلطان فتأله كالاسكندر ؟ أم ازدهاه الملك فاستهتر فى اللهو والقصف ؟ أم لفحته كبرياء العظمة فأمر الناس بالسجود له ؟

لقد ولد محمد عبداً لله ، وبعث عبدا لله ، وعاش بين ظهرانى قومه عبدا ورسولا لله ، ودانت له جزيرة العرب كلها فعامل الناس معاملة عبد لله ، وأمرنا أن نصلى وننوه بأنه كان عبداً لله ، فلأى سبب تحرمونه ما تسخون به على ألوفٍ من أمثاله ؟

ولما تألب عليه قومه ليقتلوه أو يثبتوه (أى يمنعونه الحركة) وعده الله بالنصر ، فقال تعالى: « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » ، أى من ظن أن الله لا ينصر محمدا فى الدنيا والآخرة ، وهو لا شك ناصره ، فليمدد بحبل الى سقف بيته وليشنق نفسه ، ثم لينظر هل أفاده شنق نفسه شيئا ، وهل أخر من نصر الله محمدا ؟

ولم يؤيده الله ويكبت خصومه فحسب ، ولكنه جعله مؤسسا لأمة ملات الأرض علما وحكمة ، وكانت سببا فى حل النفوس من آصار التقاليد الضارة ، وأغلال العادات السيئة ، ودفعت بها الى باحات من الرقى الصورى والمعنوى بلغت بها ما بلغته الى اليوم ، ولا تزال تتقلب فى أدواره حتى تصل الى ما قدر لها من الوجود العالى ، والحياة الكاملة .

يتحكك أصحاب الشبه فى آيات من الكتاب ليثبتوا منها ما يحط من قدره ، ويطأمن من إشرافه ، كأن يدعوا مثلا أنه كان قبل بعثته على الديانة الوثنية ، مستندين فى ذلك على قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ؟ »

نقول : ليس فى الآية مايدل على زعمهم ، فقد أورد المفسرون معنى قوله تعالى : «ووجدك

ضالا فهدى » فقالوا إن منها ما روى عن ابن عباس « وجدك ضالا عن معالم النبوة ، وأحكام الشريعة ، غافلا عنها فهداك إليها » ، ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ضللت (أى تهت) عن جدى عبد المطلب وأنا صبى ضائع ، كاد الجوع يقتلنى فهدانى الله » .

هذه بعض الوجوه التى أوردها المفسرون ، ويدل عليها أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غار بجبل حِراء الليالى ذوات العدد ، حتى انه مكث مرة أربعين ليلة ، فعلام كان يفعل ذلك إذا كان على الوثنية ؟ وهل كان من عادات الوثنيين أن يلجأوا الى هذه الوسيلة فى جميع أدوار تاريخهم ؟ أليس ذلك منه كان ليهديه الله الى ما كان يخالج صدره من تطلب الحقيقة ، وتنور ما ستر عنه من أسرار الملكوت ؟

ألم يصدق الله ظنه ، ويؤاتيه بطلبته فى ذلك الغار نفسه ، فرفع عنه فيه حجاب الغيب ، وبرز اليه ملك من الملأ الأعلى ، وأوحى اليه من الله ما أوحى ، مما كان سبب سعادة أمته ، وسعادة أمم لا يحصى لآحادها عدد الى اليوم ؟

وإنى ألفت نظر المعارضين الى أن هذه الآية التى يتخذون ألفاظها حجة على إبطال نبوته من أدل الأدلة عليها . ذلك أن الذى يكون من غلظ القلب وفساد الطوية بحيث يكذب على الله فيدعى أنه رسوله ، يكون مفتونا بنفسه غاية الافتتان ، شغوفا بالأبهة والعظمة كل الشغف ، فكيف مع اتصافه بهذه الأمراض النفسية يسهل عليه أن يأتى بمثل الآيات المتقدمة الدالة على أنه كان يتيما متروكا ، وأنه كان فقيرا محتاجا ، وأنه كان ضالا بالمعنى الذى يفهمه الخصوم ؟

أليس المعروف عن المدعين الكذابين ، وبخاصة المنتحلين للمراتب العلوية ، أنهم يبالغون فى تعظيم أنفسهم ، ورفع شأنها ، بادعاء عصمتها عن النقائص ، وتنزهها عن المشائن ، حتى انهم ليدعون لأنفسهم البنوة لله تعالى ؟

فمن هو ذلك المدعى الذى تطاوعه نفسه العاتية على الكذب على الله ، ثم يتنزل فيلصق بها أقل عيب ، أو يقول عن نفسه إنه كان ضالا فهُدِى ؟

كان ضالا ! هذه الكلمة يستكبرها على نفسه أقل أفراد الناس ممن لا يدعون النبوة ، فكيف بها من مجترئ على الله يريد أن يتفضل على الناس ويتحكم بدعوى النبوة فى رقابهم ؟

أليس هذا دليلا بأن القرآن ليس بكلام محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كلام إله محمد ، أنزله عليه ليكون نورا وهدى للخليقة ؟

يقول قائل : يحتمل أن يكون محمد قد أطلق أمثال هذه العبارات على نفسه فى كتابه من باب المبالغة فى التحايل ، ليقال إن هذا الكتاب لو كان كلامه لما سمح لنفسه أن يورد أمثال هذه العبارات على شخصه .

نقول : إن لكل محتال غرضا يرمى اليه ، وهو إما نيل جاه ، أو ملك ، أو مال ، فلا يزال يحتال بالرياء والكذب حتى يناله ثم يتمتع به . وقد ثبت أن محمدا صلى الله عليه وسلم عاش فقيرا ومات فقيرا ، لم يصب من الدنيا شيئا مع أنها كانت طوع يديه . فلم يفترش الديباج ، ولم يكتس الحرير ، ولم يتحل بالذهب ، بل كان بيته على أبسط ما يكون عليه بيت ، ولبسه كلبس أوساط الناس ، وثبت أنه لم يشبع قط حتى من خبز الشعير .

وإذا كان يريد نيل جاه ، فان الذى يسعى له إنما يجدّ وراءه ليتمتع بلوازمه ، كأن يتقدم الناس إذا مشى ، وأن تنحنى رءوسهم له إذا مر بهم ، بل أن يخروا بين يديه سجدا الخ ، وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكان يمشى وسط أصحابه ، وكان ينهى أن يقام له إذا غشيهم فى مجلس ، وكان يكره أن يمدحه أحد فى وجهه ، ونهاهم عن إطرائه .

فان كان يسعى ليكون ملكا ، فقد بلغ من السلطان على أصحابه ، والتأثير عليهم بحيث كان لو أمرهم أن يعاملوه معاملة الرعية لملوكها لفعلوا وزادوا ، ولكنه بقى على ما كان عليه فى أول أمره ، فلم ينوع مآكله ، ولم يغير ملابسه ، ولم يتخذ له حرسا ولا حجابا ، حتى ولم يستبد بأمر ، وكان يأتيه الأعرابى الجاهلى فيجذبه من ردائه ، أو يغلظ له فى القول ، فيهم أصحابه بزجره فيمنعهم .

لو كان محمد صلى الله عليه وسلم محتالا أ كانت نتائج حياته تكون على ما ترى من تاريخه ؟ وهل كان يوفقه الله لهداية أمته ، وإعلاء كلمته ، فيذكر اسمه مع اسم الله كل يوم مرات فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ هل عهد من سنة الخالق أنه يؤيد المدعين الكذابين ، ويرفع درجتهم حتى على النبيين والمرسلين ؟

لقد عادت أقوام محمدا صلى الله عليه وسلم وكرهوه ، محفوزين لذلك بما كان يبتكره لهم رؤساء أديانهم من الأكاذيب والتهم الباطلة ، حتى ذكروا أنه أمر أتباعه بالسجود له ، وأنه كان شهوانيا ، ومنهم من تطرف فقال بأنه كان نهما فى سفك الدماء ، وأنه أمر بادة كل من لا يقول بدينه . كل هذا لينشئوا حوله جوا من الظن والتهم لا تدع لناظر فى أمره طريقا الى فهم حقيقة أمره ، لأنه لو فهمت حقيقة ما كان عليه ، وصحة ما كان يدعو اليه ، لما بقى على ظهرها من يقول بغير دينه . وما زال الناس من أمره فى غيابة حتى قيض الله رجالا من العلماء الغربيين للانتصاف له ، والاقرار بفضله . ولكن الى أن تصل كتاباتهم الى سائر طبقات الناس يجب أن يمر وقت طويل ، ولا ضير ما دام المستقبل مكفولا له ولدينه القويم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، او لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

محمد فريد وجدى

القضاء الشرعى والقضاء الملى

وقفنا فى البحث السابق عند الكلام عن مدى سلطة الولاية القضائية الشرعية وكيف أنها كانت فى الماضى القريب مردا لمرافق الناس جميعا ، فى مختلف البلاد الاسلامية ، حتى تطورت المرافق ، ونشأت حوافز حادة كان من شأنها مجتمعة أن أغفلت شطرا من الولاية القضائية الشرعية وصيرتها فى حوزة ولايات قضائية أخرى .

فما لا مرية فيه أن المراد عند الفقهاء بالولاية القضائية هو الولاية المتحدة التى تهيمن على المرافق المتجانسة للمتقاضين الذين يحق لهم التقاضى فى حدود تلك الولاية دون غيرها ، حتى لقد تواضع الفقهاء على أن الولاية القضائية ينبغى أن تكون فى حقيقتها ذات سيطرة عامة شاملة لمرافق الناس جميعا ، وهى كذلك فى البلاد المستقلة لأنها عالمية الدلالة والتطبيق .

لكن الحال فى البلاد الاسلامية فى الشرق مع بالغ الأسى يختلف عن ذلك جد الاختلاف ، ومصر من هذه البلاد الاسلامية فى الطليعة ، فقد حدث تأثر انقلابى خطير فى تلك البلاد الاسلامية تبعا لما أبرم فيها من معاهدات ، وما نشأ فيها من تقاليد وعادات ، وما نجم عن أحكام تلك المعاهدات التى جعلت من السكان فروقا قائمة تزداد قوة ومنعة بتقادم العهد عليها ، وتبع ذلك ضرورة تنوع فى الولاية القضائية تبعا لتنوع القوانين التى تطبق على سكان البلاد . فكانت تقوم فى مصر قبل اليوم ولايات قضائية متعددة . لكن مصر وقد كسبت معاهدة الاستقلال ، وهى معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ تغير فيها الحال تبعا لتغير مركزها السياسى فيما يتعلق بتنويع هذه السلطة القضائية ، فقد نصت معاهدة ٢٦ أغسطس على إلغاء الامتيازات الأجنبية بمفاوضة مصر مع الدول فى شأن هذا الالغاء ، فأسفرت تلك المفاوضة عن معاهدة مونتريه ، تلك المعاهدة التى قصرت من أمد المحاكم المختلطة الى حد كبير ، وأحالت اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة لتمارس الفصل فيما كان يعرض عليها طيلة فترة الانتقال ، وبعد ذلك يصبح عندنا ولايتان قضائيتان لا أربع ، وهى : الولاية القضائية الأهلية ، والولاية القضائية الشرعية وما فى حكمها .

وبدهى أن سماحة الدين الاسلامى وسعة مداه وقبوله للاحاطة بمرافق الناس ومسايرتهم فى عاداتهم وتقاليدهم ، وأخذ معتنقيه بالهوادة والرفق ومعاملة غير معتنقيه بهذا العطف وذلك التسامح ، إذا ربطت وإياه معاهدات تكفل تبادل الاخاء بين المتعاهدين ، كان من أولى أصوله الرحيمة السامية أن تترك الحرية المطلقة للكتابيين فى ممارسة عقائدهم الدينية يقيمون بها شعائرهم فى حدود ذلك التسامح ، وأن يدع لرؤسائهم الدينيين الفصل فى أحوالهم الشخصية

طبقا لعاداتهم المرعية وتقاليدهم الموروثة ، حتى لقد أفتى الامام مالك رضى الله عنه بأن لكل من اعتنق دينا غير دين الاسلام يقيم فى بلد اسلامية أن يختار نوعا من المعاملة الصالحة يسير عليه ، حتى وإن خالفت تقاليد الاسلام وحدوده ، وقد عقدت فى الماضى البعيد جدا معاهدات فى آماد متعاقبة بين ملوك المسلمين وسلاطينهم من جهة ، وبين بلاد الفرنجة من جهة أخرى تكفل لهم المحافظة على أنفسهم وأعراضهم وأحوالهم وإقامة شعائر دينهم ، وتمنحهم فوق هذه الحقوق المستمدة من سماحة الاسلام ولين معاملته امتيازات أخرى تبعث فى نفوسهم الطمانينة الشاملة ، وتقر فى قلوبهم الايمان بعدالة الأحكام الاسلامية .

الأصل فى نظام كل مملكة ، أن حق الولاية الشرعية يكون فى يدها دون سواها بحيث تكون المحاكم القائمة فى تلك البلاد هى وحدها المرد الأعلى لكل ما ينشأ من خصومة بين جميع المقيمين فوق أرض الوطن على السواء ، سواء أكان النزاع القائم متعلقا بالجرائم أم بالأموال أم بالأحوال الشخصية . لكن أخذ غير المسلمين بتسامح الاسلام من جهة ، وإبرام المعاهدات بين ملوك المسلمين وبين الأمم المسيحية من جهة أخرى ، حد من سلطان تلك الولاية القضائية الشرعية وضيق من حقوقها ، فأطلق لغير المسلمين حرية العقائد ، ومنحهم الطمأنينة والأمن الشامل .

وحقيقة المسألة أن لدينا طوائف دينية من غير المسلمين صدرت بشأنها قوانين تنظم أحوالهم الشخصية وجهة تقاضيهم ، وهى الطوائف الثلاثة التى ألمعنا اليها ، وأخرى قدمت قوانينها الى الحكومة المصرية ولم تصدر بها أوامر عالية الى اليوم لكنها مع ذلك تنفذ تنفيذا إداريا ، وهى معترف بها من الحكومة المحلية ، وقد جاء قانون فبراير سنة ١٩١٥ فأقر ذلك التنفيذ وأيد ذلك الاعتراف ، وطوائف أخرى لم تقدم قانونا ينظم أحوالها الشخصية ، فأما الطوائف التى قدمت قانونها ولم يصدر الى الآن مراسيم باقرارها فهى :

الأقباط ، والروم ، والكلدان ، والسريان ، والموارنة ، وكلهم من المذهب الكاتوليكى ، الروم والأرثوذكس ، والاسرائيليون .

وتلك الطوائف تنفذ قراراتها الحكومة المحلية بالطرق الإدارية .

وأما الطوائف التى لم تقدم قوانينها النظامية الى الحكومة المحلية فهم اللاتينيون ويتبع هذه الطائفة جميع الأفرنج الكاثوليك وعدد قليل من الكاثوليك الشرقيين الخاضعين للحكومة المحلية ، وهذه الطائفة لا تنفذ جهات الادارة أحكامها لأن سلطتها غير معترف بها فى البلاد الاسلامية والأرمن الأوثوذكس والسريان والنساطرة .

عباس طه
المحامى الشرعى

الاشتراك فى مجلة الازهر

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التعويل على نظام الوكالة فى التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التى أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتعويل على القاعدة الحديثة وهى دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشتركين وللصحف معا . فاما فائدتها للأولين فلانها تجنبهم ثقل المطالبة التى ربما وقعت فى وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ما عليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفى ذلك من الضرر المالى على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة ينشئ لادارة المجلة بطبيعة عمله متاعب لا تحصى بسبب تحرير كشوف للتحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والخلافات التى تثور بذلك السبب بين الادارة والمشتركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والمجىء وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشاكل يحلها شىء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ما عليهم فى أى وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها المحرم ، فان تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذانا منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأت إدارة هذه المجلة أن تتبع هذه الطريقة التى تجنبها وتجنب قراءها ووكلاءها عنتا لاداعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بايصالها إلينا فى الوقت المضروب لتقديمها ، وتجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة .

فنرجو حضرات قارئينا أن يعذرونا فى الجرى على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل عنه ،

أو غير ذلك ، فإنا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، ونقبل منه أن يقدم لنا كلما سنحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتمه .

وعليه فنرجو حضرات القارئين أن يقدموا لنا قيم اشتراكاتهم قبل أول العام الهجرى الجديد ، لنقيد أسماءهم فى سجلات جديدة ، ولتصل اليهم أعداد المجلة فى وقت صدورها .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

المعاملات المادية والأدبية

هو أول سلسلة لمؤلف جديد لحضرة الاستاذ الجليل والكاتب الضليع على فكرى افندى الأمين الأول ورئيس المغيرين بدار الكتب المصرية سابقا . أما موضوعه فهو ذكر أصول المعاملات فى الاسلام، واليك ماقاله المؤلف نفسه فى هذا الصدد : « إجابة لطلب بعض الاخوان وتتميما للكتاب الذى وضعته فى (أركان الاسلام) رأيت أن أتبعه بكتاب آخر فى (المعاملات المادية والأدبية) مؤيدا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ؛ لأن المعاملات أصل من أصول الدين ؛ بل الدين — كما جاء فى الأثر — هو المعاملة .

« وإنى لا أقصد ذكر جميع الأحكام الشرعية ، والقوانين المدنية التى وردت فى باب المعاملات ، ومقارنتها بعضها ببعض ، فهذه لها كتب خاصة مطولة تدرس فى مدرسة الحقوق ومعاهد التعليم كالأزهر الشريف وغيرها ؛ إنما أقصد بيان المعاملات وأصولها ، وحكمة مشروعيتها ، والغرض منها وفوائدها ، والمضار التى تنجم من سوء المعاملة مضافا إليها بعض الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة الخ » .

هذا ما قاله حضرة المؤلف بقلمه ، وهو غرض شريف ، الحاجة اليه ماسة ، والهمم اليه منصرفة ، وقد وفى كل ما ذكره على أكمل وجه بحيث لم يدع فى نفس القارىء حاجة للمزيد .

فنشكر لحضرة الأستاذ الألمعى همته العالية ، ودؤوبه العظيم على نشر العلم ، كما نشكر لمكتبة المرحوم السيد مصطفى البابى الحلبى عنايتها بطبع هذا الكتاب فى أجمل حلة زادته حسنا وكمالا .

اعلان

قررت إدارة مجلة الأزهر تعيين حضرة الشيخ صابر جبارة العربى وكيلا ومحصلا لها فى مديرية المنيا ، فالرجا اعتماده وتسهيل مهمته ؟

He was present when cAmmâr said to cUmar: "When we were once travelling together in a company of soldiers and found ourselves in a state of janâbah etc."

أنَّهُ شَهِدَ عُمَرَ وقالَ له عمَّارٌ: « كُنَّا فِي سَرِيَّةٍ فَأَجْنَبْنَا . . . »

cAbd-ur-Rahmân added that cAmmâr transmitted the words "sprayed saliva" on to his hands, *instead of "blew the must off his hands."*

وقال: « تَفَلَ فِيهِمَا »

3. We are informed by Muhammad b. Kathîr, who had it from Shucbah, through Al-Hakam, through Ibn cAbd-ur-Rahmân b. Abzâ, through cAbd-ur-Rahmân, who stated that cAmmâr said to cUmar:

"I rolled in the dust, and when I went to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) he said: 'Stroking the face and the hands would have been sufficient for thee'."

٣ ـ حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن الحكم عن ذر عن ابن عبد الرحمن ابن أبزى عن عبد الرحمن قال قال عمار لعُمَرَ:

« تَمَعَّكْتُ فَأَتَيْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يَكْفِيكَ الوَجْهَ والْكَفَّيْنِ . »

4. We are informed by Muslim, who had it from Shucbah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn cAbd-ur-Rahmân, through cAbd-ur-Rahmân, who said:

"I was present when cAmmâr said to cUmar (citing the hadîth as before).

٤ ـ حدثنا مسلم حدثنا شعبة عن الحكم عن ذر عن ابن عبد الرحمن عن عبدالرحمن قال:

«شَهِدْتُ عُمَرَ فقالَ لَهُ عَمَّارٌ (وَسَاقَ الْحَدِيثَ) » .

5. We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Ghundar, who received it from Shucbah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn cAbd-ur-Rahmân b. cAbzâ, through his father, who stated that cAmmâr said:

"The Prophet (Allâh bless him and give him peace) struck the ground with his hand, and then stroked his face and his hands."

٥ ـ حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا غُنْدَر حدثنا شعبة عن الحكم عن ذر عن ابن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال قال عمار:

« فَضَرَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ الأَرْضَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ و كَفَّيْهِ . »

struck the ground with his palms, blew the dust off them, and then stroked his hace and hands[1] with them—'."

صلى الله عليه وسلم بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ وَنَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ ؟ »

CHAPTER 5.

— ٥ —

Dry ablution for the face and the hands *is sufficient.*

بَابٌ: التَّيَمُّمُ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ:

1. We are informed by Hajjâj, who had it from Shu^c^bah, who received it from Al-Hakam, through Dharr, through Sa^c^îd b. ^c^Abd-ur-Rahmân b. Abzâ, through his father who said:

"^c^Ammâr transmitted it[2] in that way."

Hajjâj added that Shu^c^bah struck the ground with his hands, and bringing them near his mouth *to blow the dust off them,* he stroked his face and hands.

An-Nadr stated that he had it from Shu^c^bah, through Al-Hakam, who heard it from Dharr, through Ibn ^c^Abd-ur-Rahmân b. Abzâ,—Al-Hakam also having heard it from Ibn ^c^Abd-ur-Rahmân, through his father, who stated that ^c^Ammâr said:

"Clean dust serveth for a Muslim's ritual ablution, sufficing him in place of water."[3]

١ ـ حدثنا حجاج قال أخبرنا شعبة أخبرني الحكم عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال:

« قَالَ عَمَّارٌ بِهَذَا »

وَضَرَبَ شُعْبَةُ بِيَدَيْهِ الأَرْضَ ثُمَّ أَدْنَاهُمَا مِنْ فِيهِ ثُمَّ مَسَحَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ .

وقال النَّضْرُ: أخبرنا شعبة عن الحكم قال سمعت ذرا يقول عن ابن عبد الرحمن ابن أبزى، قال الحكم: وقد سَمِعْتُهُ من ابن عبد الرحمن عن أبيه قال عمار:

« الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ . »

2. We are informed by Sulaimân b. Harb, who had it from Shu^c^bah, through Al-Hakam, through Dharr, through Ibn ^c^Abd-ur-Rahmân b. Abzâ, through his father that:

٢ ـ حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن الحكم عن ذر عن ابن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه:

---

1. as far as the elbows.
2. The text of the preceding hadîth.
3. These words are not found in the Yûnîniyyah edition.

coming from the direction of Bîr-al-Jamal[1], when a man met him and greeted him. But the Prophet did not return his greeting until he had reached a certain wall, *struck his hands against it,* and wiped his face and hands *with the dust,* after which he returned the man's greeting.[2]

بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام. »

CHAPTER 4.

— ٤ —

Should one who performeth a dry ablution blow the dust off his hands?

باب : المتيمم هل ينفخ فيهما ؟

We are informed by Adam, who had it from Shu^cbah, who was told it by Al-Hakam, through Dharr, trough Sa^cîd b. ^cAbd-ur-Rahmân b. Abzâ, through his father, who said:

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة حدثنا الحكم عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه قال :

"A man came to ^cUmar b. Al-Khattâb and said: 'I was once junub[3] and failed to find water.' Then ^cAmmâr b. Yâsir remarked to ^cUmar b. Al-Khattâb: 'Dost thou not remember how one day we were both travelling together on an expedition? Thou didst leave off thy prayers, but as for myself, I rolled in the dust and performed my prayers. I then mentioned this to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and he said:—It would have been sufficient for thee to do this. The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then

« جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني أجنبت فلم أصب الماء ، فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب : أما تذكر أنا كنا في سفر أنا وأنت ، فأما أنت فلم تصل ، وأما أنا فتمعكت فصليت ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما كان يكفيك هكذا : فضرب النبي

1. A place in Al-Madînah.
2. The Prophet not being in a state of ritual purity, did not wish to mention the name of God involved in the greeting. This practice, however, was abrogated by the wudû' verse as well as by ^cA'isha's hadîth "that the Prophet used to praise Allâh at all times."
3. جنب (Junub) = one in a state of ritual impurity through sexual intercourse جنابة (Janâbah) = the state of being junub.

CHAPTER 3.

On performing the dry ablution in towns if water is inaccessible, and there is fear of missing the prayer.

and on cAtâs having upheld this practice;

and on Al-Hasan having said of a sick man who may have water near him but can find no one to help him to use it, that he may perform a dry ablution;

and on the fact that as Ibn cUmar was returning from his property at Al-Juruf[12], the time for the afternoon-prayer came when he was at Marbad An-Nacam[2] where he performed his prayer[3]; then he entered Al-Madînah when the sun was *still* hight, but did not repeat his proyer[4].

We are informed by Yahyâ b. Bukair, who had it from Al-Laith, through Jacfar b. Rabîcah, through Al-Acraj, who heard it from cUmair the freedman of Ibn cAbbâs, who said:

"I and cAbdullâh b. Yasâr the freedman of Maimûnah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) walked along until we entered the house of Abu Juhaim b. Al-Hârith b. As-Simmah Al-Ansâri, when Abu-l-Juhaim said: 'The Prophet (Allâh bless him and give him peace), was once

— ٣ —

بَابُ التَّيَمُّمِ فِي الْحَضَرِ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ وَخَافَ فَوْتَ الصَّلَاةِ ،

وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ ،

وقال الحسنُ فِي الْمَرِيضِ عِنْدَهُ الْمَاءُ وَلَا يَجِدُ مَنْ يُنَاوِلُهُ : يَتَيَمَّمُ ،

وَأَقْبَلَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ أَرْضِهِ بِالْجُرُفِ فَحَضَرَتِ الْعَصْرُ بِمَرْبَدِ النَّعَمِ فَصَلَّى ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ فَلَمْ يُعِدْ

حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن الاعرج قال سمعت عميراً مولى ابن عباس قال :

« أَقْبَلْتُ أَنَا وعبد الله بن يسار مولى ميمونة زَوْجِ النبي صلى الله عليه وسلم حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَبِي جُهَيْمِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ الصِّمَّةِ الْأَنْصَارِي فقال أَبُو الْجُهَيْمِ : أَقْبَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم من نحو

---

1. A plot of rugged land about three miles from Al-Madînah, where the soldiers of the Faithful used to muster in preparation for a campaign.

2. Literally camel-paddocks—a place about two miles from Al-Madînah, and which being a suburb of it, is considered as town.

3. —after having performed a dry ablution—according to Mâlik's narrative.

4. Ibn cUmar evidently considers that a dry ablution is valid even for prayer performed in a town. Malik concurs, though Ash-Shâfii considers repetition obligatory.

lege of intercession; and lastly former Prophets were sent to their own people in particular, whereas I have been sent to mankind in general."

النبيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً . »

CHAPTER 2.

— ٢ —

On what a man should do if he can find neither water nor earth.

بابٌ إِذَا لَمْ يَجِدْ ماءً وَلاَ تُرَابًا :

We are informed by Zakariyyâ b. Yahyâ, who received it from ᶜAbdullâh b. Numair, who had it from Hishâm b. ᶜUrwah, through his father, though ᶜAˢishah that:

حدثنا زكريا بن يحيي قال حدثنا عبد الله بن نمير قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشه :

She had borrowed a long necklace[1] from Asmâ[2], which was lost. The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) then sent a man to look for it who found it. As the Faithful were overtaken by the hour of prayer and had no water with them, they performed their prayer *without ablution*. They therefore complained about it to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), whereupon Allâh sent down the dry-ablution verse.

أَنَّها استعارَتْ من أَسْماءِ قِلاَدَةً فَهَلَكَتْ ، فَبَعَثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رَجُلاً فَوَجَدَها ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلاةُ وَلَيْسَ مَعَهُمْ ماءٌ ، فَصَلَّوْا ، فَشَكَوْا ذلك إِلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ .

At this Usaid b. Hudair said to ᶜAˢishah: "May Allâh reward thee with blessing, for by Allâh thou hast never been afflicted with any misfortune but Allâh hath turned it into a blessing both for thee and the Faithful."

فَقَالَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ لِعائِشَةَ : جَزَاكِ اللهُ خَيْرًا ، فَوَاللهِ ما نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ تَكْرَهِينَهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ ذلكِ لَكِ وَلِلْمُسْلِمِينَ فيهِ خَيْرًا .

---

1. The word used here is قلادة denoting a long necklace reaching to the waist. In the previous hadîth the word عقد is used, being a shorter one of Zafâr onyx. This shows that the two hadîths refer to two separate incidents in the course of the same expedition. At-Tabarâni, however, states that the incidents were connected with separate expeditions. (quoted by Al-'Aini).

2. Her sister.

him and give him peace) got up there was no water, so Allâh sent down the dry-ablution verse. Accordingly the Faithful performed the dry ablution.

وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا.

Usaid b. Al-Hudair then exclaimed: 'This is not the first occasion that grace hath been shown on your account, ye house of Abu Bakr!'

فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر.

Then—added ᶜA'ishah—we made the camel on which I had been riding get up, and we found the necklace under it."

قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته».

2. We are informed by Muhammad b. Sinân, who had it from Hushaim; we are also informed by Sa'îd b. An-Nadr, who had it from Hushaim; we are also informed by Saᶜîd b. An-Nadr, who had it from Hushaim, who received it from Sayyâr, who was told it by Yazîd b. Suhaib Al-Faqîr[1], to whom it was related by Jâbir b. ᶜAbdullâh, that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said:

٢ — حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا هشيم (ح) قال وحدثني سعيد بن النضر قال أخبرنا هشيم قال أخبرنا سيار قال حدثنا يزيد - هو ابن صهيب - الفقير قال أخبرنا جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"I have been given five favours which have been given to none before me—I have been granted victory through the awe I struck into the hearts of my enemies at a distance of a month's journey[2]; the whole earth hath been given me as a mosque and for my purification[3], so that any man of my people overtaken by the hour of prayer may perform his prayer; booty hath been made lawful unto me, when it was not lawful to anyone before me; I have been granted the privi-

«أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان

---

1. فقير here not in the sense of "poor," but "suffering from an infirmity of the spine."

2. That is to say none of his enemies were further than a month's journey from Al-Madînah.

3. This last phrase gives the connection of the hadîth with the title, for surface earth is used for dry ablution.

"We once went out with the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) on one of his expeditions[1], until when we reached Al-Baidâ' or Dhâtul-Jaish[2] a necklace that I was wearing fell off. The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) halted to look for it, and all the Faithful with him—there being no water at hand. So the Faithful went to Abu Bakr As-Siddîq and said : 'Dost thou not see what ᶜA'ishah hath done? She hath caused the Messenger of Allâh and the Faithful to halt when there is no water at hand, neither have they any with them.' Then Abu Bakr came while the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace was lying with his head on my thigh, having fallen asleep. Thowhast delayed the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and Faithful,' said Abu Bakr, 'when there is no water at hand, neither have they any with them!'

Abu Bakr[3] reproached me—continued ᶜA'ishah—saying whatever Allâh willed[4] that he should say, and proceeded to poke me in the side,—nothing preventing me from moving but the position of the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), on my thigh. The next morning when the Messenger of Allâh (Allâh bless

« خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا : أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ : حَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ !

فَقَالَتْ عَائِشَةُ : فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رسول الله صلى الله عليه وَسلم عَلَى فَخِذِي ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه

1. That against the Bani Al-Mustaliq in the year 6 A.H., when the incident of the slander of ᶜA'ishah took place.

2. The narrator is doubtful as to which, both places being between Makkah and Al-Madinah.

3. ᶜA'ishah gives his name instead of saying "my father," because his reproaches did not seem to her fatherly.

4. Implying that he lectured her unsparingly.

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمــــــــــة مختصر صحيح البخـــارى

الاستاذ ابراهيم حلمى الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

By

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

IN THE NAME OF ALLAH THE ALL-LOVING THE MOST MERCIFUL

بسم الله الرحمن الرحيم

BOOK VII

الكتاب السابع

On Dry Ablution[1]

كتاب التيمم

CHAPTER I.

— ١ —

On the word of Allâh (be He exalted): "*.... and if ye* fail to find water[2], then perfrm a dry ablution using clean dust, stroking your faces and hands with it.",

قولُ الله تعالىَ : « فلَمْ تجِدُوا مَاءً فتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأيْديكُمْ مِنْهُ » :

1. We are informed by ᶜAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik, through ᶜAbd-ur-Rahmân b. Al-Qâsim, through his father, through ᶜAʾishah the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said:

١ ــ حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت :

---

1. The original meaning of تيمم is to aim at or go towards. The expression in the Qur'ân فتيمموا "Make for clean surface earth," has become so established that usage has given it the meaning of "perform a dry ablution, etc." (Surah 5:6).

2. Or according to Al-Baidâwi: "...if ye are unable to use water."

تكريم حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

لوفود الممالك الاسلامية الى مؤتمر فلسطين بالقاهرة

كلمة قيمة لفضيلته فى وجوب تعاون المسلمين

رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر أن يكرم وفود الممالك الاسلامية الى مؤتمر فلسطين ، باسم الاسلام ، وباسم مصر ، وباسم الجامع الأزهر ، مثابة العلوم الدينية للعالم الاسلامى كله ، فتفضل باقامة حفلة شاى فى كلية أصول الدين دعا اليها كبراء مصر وعظماءها ورجال العلم والأدب فيها حتى بلغ عدد من لبوا الدعوة نحو ثلاثمائة . وقد أعد فناء الكلية الرحب أحسن إعداد لوضع الموائد فيه فى أجمل تنسيق ، وصففت عليها أطباق الفطائر ، وصحاف الفواكه ، وأباريق الشاى ، يتخللها طاقات الورود والرياحين الغضة . وأخذ المدعون يفدون زرافات ووحدانا حتى حفل بهم المكان وازدان ، وفى نحو الساعة الخامسة شرف مكان الاحتفال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام ، نخف المدعون للسلام عليه ، فكان يحييهم بما عهد فى فضيلته من الهشاشة والبشر ، وكانت ثلة من الجنود تحافظ على النظام أمام باب الكلية .

جلس المدعون حول الموائد ، وأخذوا يتناولون مالذ وطاب ، وهم يتبادلون أطيب السمر ، حتى غربت الشمس وأضيئت المصابيح الكهربائية ، فزاد ذلك فى رواء المكان ، وقام كثير من المدعوين فأدوا صلاة المغرب ثم عادوا . ولما عاد فضيلة الأستاذ اتجهت اليه القلوب والأبصار ، توقعا لسماع كلمة من كلماته الرائعة ، فما لبث أن نهض لالقاء كلمة فى هذا الحشد الكريم ، وقد نقلنا هذه الكلمة هنا لنأخذ قسطنا من إذاعتها مع المذيعين لها من الجرائد والمجلات ، ولإحصاء كل ما يقوله فضيلته من كلماته الطنانة التى يضمنها من عوامل الايقاظ والتنبيه ما لا يستطيع غيره أن يضمن مثله فى العبارات الموجزة ذات الدلالات البعيدة المدى القوية التأثير فى النفوس .

فاليك كلمة فضيلته :

حضرات الاخوان :

سمعتم وقرأتم خطب حضرات السادة أعضاء مؤتمر فلسطين ، واطلعتم على أسانيدهم ، وتبينتم منها وجه الحق فى قضية فلسطين ، كما تبينتم ما يعانيه العرب ويحملونه أو يحملونه فى سبيل قضيتهم العادلة .

وقد انتهى المؤتمر الى تلك القرارات الحكيمة التى أصدرها ، والتى نرجو رجاء قويا أن تؤتى ثمراتها المنشودةَ بفضل الله ، والله قوى عزيز .

وأنتم لستم بعد هذا بحاجة الى أن تسمعوا منى كلمة فى هذه القضية ، وما أنا بحاجة الى إبداء رأيى فيها ، فقد علم رأيى منذ اجتماع جماعة كبار العلماء ، ذلك الاجتماع الذى أسفر عن رأى واضح ، وعن نداء قوى لمؤازرة قضية فلسطين .

وجماعة كبار العلماء تمثل رأى الأزهر تمثيلا صادقا ، بل تمثل رأى علماء الاسلام ، غير أنى أرانى بحاجة الى تحية ضيوف مصر الكرام ، باسم الأزهر ، أقدم جامعة فى العالم ، وأكبر معهد إسلامى يقوم على حمل رسالة الاسلام وثقافة سلف المسلمين ، وبحاجة الى شكرهم على تلبية نداء مصر ، وتجشمهم سفرا طويلا للذود عن الحق ، والدفاع عن المظلومين ، أولئك الذين لا يجاهدون طمعا فى مغانم يأخذونها ، أو سعيا وراء قطعة من الأرض يقتطعونها ، وإنما يذودون عن أوطانهم ، ويدفعون من يريدون إخراجهم أو المظاهرة على إخراجهم .

فهم على جادة الحق فى دائرة العقل والقانون ، وقضيتهم من الوضوح والجلاء بالوضع الذى لا يحتاج الى دليل ولا يفتقر الى برهان .

أيها الاخوان :

لا يعلم الخير إلا الله ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد تكون قضية فلسطين وما لابسها من الدواعى الى الايمان بضرورة التعاون والوحدة إيمانا صادقا يحمل على تحقيقها ويدفع تردد المترددين .

ونحن نعيش فى عصر طغت فيه شهوات المادة وقوى سلطانها ، وتقدست القوة ولم يبق للقانون الأخلاقى بين الأمم ولا لقواعد العدل نصيب . وقد لمسنا تلك الحقيقة فى الأيام القريبة الماضية ، وعرفنا حكمة الأوامر الالهية من وجوب الإعداد ، وعرفنا أن الشريعة يجب أن يكون لها حمى من القوة ، وعرفنا حكمة الآية الكريمة :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم اللهُ من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز » .

وقد أوجدت هذه القضية فرصة مباركة تعارف فيها زعماء أمم مختلفة ، وسابقةً طيبة للتعاون على الخير ودفع العدوان . ومصر بلد طيب يجمع صفتين : الاسلام ، والعربية ، فمن يمم هذا القطر على أنه عربى فقد أصاب بغيته ووجد أهلا ، ومن يممه على أنه بلد إسلامى فقد أصاب غرضه ووجد إخوانا .

فهى لهذا خير أمة تصلح صلة وصل بين الأمم العربية والأمم الاسلامية .

وقد أنعم الله على هذه الأمة بمليك فطر على حب الخير والبر بالانسانية ، ورزق من الصفات العالية : صفات الشجاعة والأقدام ، وحب العلم ، والعناية بسيادة الاسلام وقواعده — ما ترجو أن تحيا به حياة سعيدة ، وأن تشرق هذه الحياة على جيراننا وإخواننا من الأمم التى نحبها وتربطنا بها روابط لا قدرة لمخلوق على فصمها ، ذلكم الملك المعظم هو حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول ، أعزه الله ، وأدامه ذخرا للبلاد !

وإنى لأرجو أيها السادة أن يكون هذا المؤتمر فاتحة خير لمؤتمرات دائمة مستقبلة تبحث فيها أمراض الشعوب الشرقية والاسلامية ، ويصدر عنها ما تصلح به هذه الأمم فى أحوالها المختلفة ، خلقية ودينية وعلمية واجتماعية ، وما يقرب بين الأمم الاسلامية فى عقائدها وفقهها وآمالها ، ويعود بها الى الوحدة التى طلبها الاسلام .

« إنّ هذه أمّتُكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون » .

أشكركم أيها السادة على تلبية هذه الدعوة ، وأسأل الله للمقيم منكم وللمسافر سلامة وسعادة . والسلام عليكم ورحمة الله !

بسم الله الرحمن الرحيم

الشبهات العلمية على الاديان

تحليلها ودحضها على أسلوب العلم نفسه

يهم المدافعين عن الاسلام فى هـذا العصر أن يعرفوا جميع الشبهات العلمية التى يدلى بها فلاسفة العهد الحـاضر على الأديان ، للتدليل على أنها لا تتجه الى الاسلام . لذلك أرجو أن يعذرنا القراء إن بسطنا لهم هـذه الشبهات بسطـا بكل ما تحمله من نتائج قريبة وبعيدة ، مع التعقيب عليها بمـا يثبت أن الاسلام بمنجاة منها .

للفيلسوف الـكبير (جيو) Guyo الفرنسى كتاب أسماه (اللادينية المستقبلة) أودعها أمهات الشبهات على الأديان ، وقد طبع مرات كثيرة فنقتطف منه تلك الشبهات فهو أوسع مصدر لها ، قال :

« مما قرره النقد العصرى للأديان أمر جـدير بالنظر ، وهو أنه قد دلت مباحث المسيو روسكوف والمسيو ريفيل والمسيو جيرادوريال بأنه يستحيل القول بوجود أمم فى عصرنا هذا على سطح الأرض مجردة عن ديانة أو عقائد خرافية حتى فى الأمم المتوحشة ، وقد صار الانسان كائنا متدينا بسبب أنه أعقل من غيره من الحيوانات .

« وغير هذا فان الآثار الباقية من عهد الانسان قبل التاريخ ، تدل بواسطة ما وجد من الطلاسم والمقابر وقطع من الجماجم مثقوبة بقصد التعليق ، على وجود الدين إذ ذاك .

« إذن فتدين الانسان يمكن اعتبار وجوده بطريقة لاتقبل الجدل من عصر الحجر المصقول .

« وإذا انتقلنا من الأمور المحسوسة الى الظنون ، فيمكـننا أن نقول بأن الانسان قبل مائتين وخمسين ألف سنة كانت له عقائد مبهمة سطحية ، ولو لم يكن الى ذلك العهد قد شعر بوجوب احترام للموتى يحمله لأن يحفر لهم قبورا ، ولا اتخذ لنفسه صنما يتقرب اليه بالعبادة .

« هنا نقطة ثابتة يمكن قبولها ، ولها نتائج هامة فيما نحن بصدده : ذلك أن الديانة لمـا لم يكن أصلها من عالم علوى (هذا رأيه) فقد ترقت تدريجيا على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، وتولدت من أفـكار ساذجة مبهمة تناسب تلك العقول الساذجة الأولية ، ثم تدرجت مترقية حتى وصلت الى مستوى المدركات الـكثيرة التركيب ، العظيمة القيمة التاريخية ، كما هى عليه الآن . من هنا

ليس للاديان أن تتوهم أنها لم تترق من أصل بسيط ساذج ، بل هى ترقت على غير علم منها مقودة بحركة الترقى العام الى الحالة التى هى عليها الآن .

« بقى علينا أن نحدد تلك الأفكار الأولية التى كانت أساسا للاديان . هنا يبتدئ الخلاف بين رؤساء العلم الدينى (يريد بهم العلماء الباحثين فى الأديان لا العلماء الدينيين) ، فبعضهم يعللون الأديان بواسطة وجدان عال نبع من صميم القلب ممثلا الحقيقة العلوية بايحاء إلهى ، وبعضهم يعللها بقوله إنه خطأ من الانسان فى التجربة ، وخطأ من عقله فى الاستدلال . فالأولون يرون أن الدين اندفاع من العقل الانسانى ليسمو عن حضيض الطبيعة التى نحن متورطون فيها الى مكانات الرفعة الملكوتية . والآخرون يرون أنه نشأ من تعليلات الانسان للحوادث الطبيعية العادية تعليلا باطلا ، سواء فى ذلك الحوادث التى تقع تحت حسنا أو تجيش فى ضمائرنا . فهو فى نظر أحد الحزبين أرقى من العلم ؛ وفى نظر الحزب الآخر هو العلم فى طفولته

« جميع الفلاسفة العقليين مثل أتباع ستروس ورينان وماتيو أرنولد يجدون فى الأديان جرثومة مذهبهم الراقى ، ويحنون رءوسهم إجلالا لها على حال توهم أنها استهزائية لولا أن لسان حالهم يشعر بأنهم مخلصون فيما يفعلون . فهم يرون فى الأديان أشرف وأبقى ما أنتجته العقول البشرية . أما الفلسفات الحسية فلا ترى فى أصول الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة .

« من هنا يرى القارئ أن مسألة البحث عن أصل الأديان على مقتضى الأسلوب الجديد الذى تتطلبه روح العصر الراهن هى من المسائل العويصة الحل . وقد كان الناس يتساءلون من زمان بعيد : هل الدين وحى إلهى أم وضع طبيعى ؟ فانتهت بالناس الحال اليوم لأن يتساءلوا : هل الدين مطابق للطبيعة الحقة ، أم هو نتيجة ضلال من العقل أو ضلال من النظر ، كان حدوثه أمرا مقضيا ثم هذبه العلم وأوضحه على تمادى الأزمان ؟ ويتساءلون أيضا : هل الإله المذكور فى كتب الأديان هو نفسه ذلك المعبود الوهمى الذى كان يعبده الوثنيون فكبره المتدينون ونزهوه على نسبة ارتقاء عقولهم ؟ » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

ونحن نتصدى لتحليل هذا الكلام والرد عليه ، لأنه فى نظرنا يشتمل على قضايا تحكمية لا تدعو الضرورة اليها ، بل يوجد فى العلم نفسه ما يناقضها .

فقول الفيلسوف جيو : الأديان ليست من أصل علوى بدليل أنها نشات ساذجة مبهمة ، ثم ترقت وتركبت على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، فلا يصح أن يكون دليلا على أن الدين أصله أرضى . فإن العقل الانسانى نفسه نشأ ساذجا مبهما ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، والعقل ليس بأرضى الأصل لأنها مجردة منه ، والمجرد من الشىء لا يعطيه ، فأصل العقل علوى كما هو بدهى ، وكونه نشأ ساذجا مبهما لا يقدح فى ذلك . فالحكم على الدين بأنه

أرضى لاعلوى لأنه نشأ ساذجا مبهما ثم ترقى — تحكم لايسوغه عقل ، ولاتقبله فلسفة إلا الفلسفة المادية ، وقد تحطمت أصولها أمام الفتوحات الروحانية التى توالت فى التسعين السنة الأخيرة .

وكيف لا يعتبر الدين علويا وهو ينزع الى التقرب من موجد الخليقة بالإخبات اليه ، والتقرب منه بحرمان النفس من مشتهياتها ، وبتقييد رغباتها ونزعاتها ؟

أليس للاصل حق فى توجيه النزعة التى يولدها فى النفس ، فلو كان ذلك الأصل أرضيا فهل يدفع بالنفس الى ما فوق الأرض ؟ ولماذا ؟ فاذا لم يوجد سبب وجيه لإحداث هذا التوجيه المعاكس فلا يمكن أن يعقل ، فلننظر ماذا يقوله الفلاسفة الماديون بعد ذلك لعلنا نصادف ذلك السبب فى أقوالهم فنحاكمه الى العلم .

يقول جيو : إن بعض البحاثين فى أصل الدين يرون أنه نشأ من تعليلات الانسان للحوادث الطبيعية تعليلا باطلا ، وعلى ذلك فيكون الدين هو العلم فى طفولته .

ومعنى هذا أن الانسان رأى أن الأنهار قد تطغى فتغرق أهله وحرثه ، أو تصيب ماشيته وأمتعته ، ورأى الصواعق تنقض فتحرق كوخه وتجتاح بعض ذويه ، ورأى الرياح تركب رأسها فتهدم بيته ، وتقتلع أشجاره ، أو تسقط ثمراتها ، ورأى السيول تصيبه فلا تبقى فى طريقها من أشيائه ولا تذر الخ ، فنظر فى علل هذه الحوادث كلها فلم يجد لها تعليلا غير هذا : وهى أنها من عمل روح أو أرواح شريرة تغضب عليه لاهماله شأنها ، فتنتقم منه بإثارة هذه الجوائح عليه ، لحمله ذلك على وجوب الاعتراف بسلطانها وبعبادتها ، وتقريب القرابين لها ، وإهداء أثمن ثمراته اليها ، وتمادى فى ذلك وهذبه ونقحه على نسبة ترقى عقله حتى وصل الى توحيدها ، والى تنظيم العبادات لها وتجريدها ، واعتبر ذلك وحيا إلهيا ، ناسيا أصلها الساذج ، والأطوار التى دخلت فيها تدريجيا حتى وصلت الى ما وصلت اليه .

نقول : وهذا أيضا لا يسمح به العلم ، ولا يسمح به النظر الصحيح ، لأن شيوع الدين فى كل مكان ، وقِدمه فى النوع البشرى ، بحيث لم يصادف الباحثون فى أقدم عهود البشرية أمة أو قبيلة بغير دين — يشعر بأنه غريزى فى النفس البشرية ، فان كل ما عُلم عنه يدل على أنه كذلك ، فمن شأن الغريزة الطبيعية أن تعم جميع أفراد النوع ، وأن تكون فيه اضطرارية لااختيارية ، وأن تكون ذات طبيعة واحدة ، وذات وجهة واحدة . وهذا كله ينطبق على الدين فى النوع البشرى .

فاذا لم يكن الدين غريزيا لوجدت أمم وقبائل غير متدينة ، كما هو شأن كل أمر غير غريزى . ومن الغريب أن الأمم عاشت منعزلة بعضها عن بعض آمادا طويلة لا تحلم واحدة منها بوجود الأخرى ، فلما تم اتصالها بعد استكشافها وجدت أنها متدينة على الأسلوب نفسه الذى عليه

كل أمة فى الأرض ، أفلا يدل هـذا دلالة محسوسة على أن التدين غريزة قاهرة فى النفس البشرية ، وليست صفة مكتسبة من قبل ؟

يقول الفلاسفة الماديون : إن الدين نشأ من خطأ فى التعليل ، وهل الانسان فى سذاجته كان يفزع الى تعليل الحوادث التى تصيبه ، كما يفزع اليها الذى وصل عقـله الى درجة ما من درجات الارتقاء ؟ هب أنه كان يلجأ الى التعليل ، فهل يصل أفراد النوع كلهم الى علة واحدة ، وعلى نوع معين منها ، بحيث لايوجد خلاف بين جميع أفراده إلا فى التسمية فقط ؟

هذا بعيد عن التصور ، ولا يمكن قبوله لا علميا ولا فلسفيا ، وإنى أعجب للذين يقبلونه وهم يرون وهيه الى هـذا الحد ! ولـكنهم مضطرون لقبوله على علاته ، لأنهم إذا لم يفعلوا اضطروا للقول بوجود غريزة دينية فى النفس البشرية . وهذا يضطرهم للبحث عن مصدرها ، فاذا اتجهوا هذه الوجهة استد عليهم باب الوراثة الحيوانية ، لأن الحيوانات مجردة من التدين ، بل قال كبير الفيزيولوجيين الأستاذ كاترفاج الفرنسى : إن الفارق المميز بين الانسان والحيوان هو التدين ، أماسائر الصفات النفسية من حب وبغض وأمن وخوف الخ ، فهى شائعة بين الانسان والحيوان على أقدار متفاوتة .

وإذا لم تـكن تلك الغريزة وراثية فـكيف نشأت فى النوع البشرى طفرة ، وأمثال هذه الطفرة محال عندهم ، لأنهم لوقالوا بإمكانها اضطروا لنسبة التدين الى عامل فوق الطبيعة يكفى لترسيخه فى نفس الانسان وتعميمه بين جميع أفراده ؟

ولما كان من المتعذر قبول رأى الماديين فى أن التدين أصـله تعليلات باطلة للحوادث الطبيعية بعد ما حللناه التحليل الذى رأيت ، فلم يبق إلا القول بأنه غريزة فى النفس البشرية غرزها فيها بارئها . وهذا مايصعب عليهم أن يقبلوه هم ، لأنهم لا يعقلون وجود بارىء للـكون ، وما ذنبنا نحن معشر الذين نعتقد بوجود بارىء الـكون أن نُـكلف تعليلهم للتدين بتصديق ما لا يعقل ؟

من شبه هؤلاء الماديين أن الدين نشأ ساذجا ثم ترقى بترقى العقول والعلوم ، وهذا القول منهم غريب لأن الدين ينحصر فى كلمتين : الخضوع لموجد الـكون ، والتقرب اليه بالصالحات . والقرآن الذى هو آخر الـكتب السماوية نزولا يصرح بهذه الحقيقة ، قال الله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ، وقال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرةَ الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » أى أن الدين الحق هو ما فطر الله النفس الانسانية عليه من الاعتقاد بقدرة لا حد لها صورت هذا العالم وأبدعته ، ومن العمل بما هى مفطورة عليه من القوانين الباعثة على التكمل .

من هنا يرى أن الدين الذى يعلن القـرآن أنه أصل الأديان كلها هو من البساطة بحيث

يعبر عنه بكلمتين : (الايمان والاحسان) ، وكل ماورد بعد ذلك فى القرآن فهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتفصيل للاحكام وتعليم للانسان وجوه العبادة الموصلة الى الكمال النفسانى .

فاذا كان الدين من البساطة عند هذا الحد ، كما يصرح به آخر الأديان نزولا ، فمن أين نشأت شبهة الفلاسفة الماديين ؟ إنها نشأت بلا شك من ذهاب قادة الأديان المختلفة مذهب التوسع فى فهم هذين الأصلين ، فتكونت شروح وتأويلات نقلها الخلف عن السلف ، وزادوا عليها وقدموها للشعوب باعتبار أنها من الدين ، فأصبحت الأديان بذلك مجتمع أفكار بشرية ، صبغت بصبغة إلهية ، ثم تحجرت بمرور الزمن عليها ، فضاعت فى أطوائها بساطة الدين الفطرية ، وجاءت الفلسفة العصرية تناقشها الحساب وتنازعها السلطان على الأرواح .

ولكن الاسلام لبقاء كتابه بمنجاة من التحريف ، بقيت آياته الموحاة ظاهرة للعيان ، ومتميزة عن الشروح التى علقت عليها ، فاذا وقع نقد من العلم على شىء من أشياء المسلمين ، فلا يقع على الأصول الموحاة ، لأنها أصول علمية عامة اتفق البشر على صحتها وإطلاقها ، ولكنه يقع على الشروح البشرية التى علقت عليها ، وهو مما يمكن الرجوع عنه الى الصواب . ومما أثر عن شراح المسلمين أنهم كانوا لايأتون بفهم لهم إلا اعقبوه بقولهم : (والله أعلم) ، ولم يحرموا على أحد نقده وتجريحه . ولولم يصب المسلمين فتور فى بضعة القرون الأخيرة ، ولم يجمدوا على ما وجدوه لايفكرون فيه ولاينقحونه ، لكان كل ماشرحت به آيات القرآن موافقة اليوم لأقصى ما وصلت إليه العلوم الكونية من الثمرات العلمية .

على أنه مهما تكن الحال فان جوهر الاسلام لا يلزمه ماعسى أن يكون قد أخطأ بعضهم فى فهمه ، أو قصر فيه عن مداه تأثرا بأحوال عصره ، فشبهة العلم التى أوردها الفيلسوف (جيو) لا تتناول الاسلام فيما تناولته من سائر الأديان .

يقول (جيو) : إن الفلسفات الحسية لاترى فى الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة . فهب أن أقدم ما يعرف عن الأديان هى الوثنية الخشنة ، فهل هذا ينفى أن العاطفة التى دعت إليها أرقى وأشرف عاطفة بشرية ؟ ألم يبدأ كل علم عال وسواسيا خشنا فما زال يترقى ويتهذب حتى وصل الى درجة عالية من النضج والصقل ؟ فهل الميول التى دعت الى هذه العلوم يقدح فى سموها أن لا يصل الانسان الى مراميها طفرة ، وهو محتوش بكثير من القواطع المادية ، والعواثير الطبيعية ؟ أليس يدل على سموها وعراقتها فى الكرامة أنها دفعت الانسان رغما عن هذه القواطع والعواثير الى غايات بعيدة من فهم بعض الوجود ، وفهم شىء من قواه ونواميسه العاملة فيه ؟ فكذلك الدين لا يقدح فى شرفه وكرامته أن لا يكون الانسان قد فهمه على أحسن وجه وهو فى أخس أدوار جهالته ، وأحلك عهود عمايته . ومن يوفقه الله للاطلاع على فتوحات العلم فى الشئون النفسية فى القرن الأخير تتبين له حقائق يخجل من أنه كان يسعى فى إبطالها بدون دليل !

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

ذكر تعالى التواصى بالصبر بعد التواصى بالحق مع كونه داخلا فيه ، تنويها بشأنه ، وتنبيها على رفعة قدره . أو تقول : لما كانت هذه الخصال أعنى قول الحق وملازمة الحق والتواصى بالحق فى الغالب تجلب لصاحبها من الأذى ماقد تكرهه نفسه ، ذكر تعالى التواصى بالصبر وإن كان ذلك من الحق ، اعتناء به وحثا عليه ، فان من لم يتذرع بالصبر قل أن يثبت فى مقام الدعوة الى الله عز وجل . وقد قال لقمان لابنه فى وصيته: «وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» يعنى أن ذلك من خصال ذوى العزم . وقال تعالى حكاية عن الرسل: «ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون». وقال تعالى : «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا». وقال تعالى : «ودع أذاهم وتوكل على الله». وكان بعض السلف يقول : ماكنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى .

وبالجملة : فالدين الاسلامى لا يرضى من بنيه إلا أن يكونوا من الشجاعة فى الذروة العليا ، ومن الثبات بالمحل الأقصى . وانظر الى تشجيع المسلمين بمدح الخيل التى تعدو ضبحا ، فتورى قدحا ، فتغير صبحا ، الى آخره . وليس أحض على الشجاعة من هذا . فليت شعرى ماذا أصاب المسلمين حتى أصبحوا أجبن الجبناء ، وأذل الأذلاء ، يداهنون فى دين الله ، ولا يبالون امتثال أوامر الله ، « ينفرون من الذل ويمدون أيديهم الى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه ! » ولا غرو فمن فرط فى تعاليم ربه ، وجهل سنته فى خلقه ، فلا بد أن يكون ذليلا عليلا ، وكيف لا يذلون وقد أمرهم الله أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره ، فأصبحوا متفرقين لا يلوى بعضهم على بعض ، بل منقسمين متنازعين ، فما أجدرهم بالذل والمهانة !

وإذا فسد الانسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان ، وما يحيط به من بلاء وشقاء . وإن شئت فانظر الى الأمة الاسلامية حينما كانت متمسكة بدينها عاملة بتعاليم نبيها لم تتفرق بها السبل، ولا زاغت بها الأهواء ، كيف امتد ملكها فى كل ناحية من نواحى المعمورة ، وكيف عمروا البلاد وأصلحوا العباد ، وكيف أخرجوهم من الظلمات الى النور باعتراف أساتذة أوربا المبرزين ، مثل جوستاف لوبون الفرنسى الذى يقول : «ما رأى التاريخ فاتحا أعدل ولا أعظم من العرب» ومثل توماس كرليل الانكليزى فى كتاب الأبطال ، ومثل درابر الأمريكى وغيرهم .

وبالجملة فقد كان المسلمون إذ ذاك أعز الأمم على الاطلاق ، وأرفعها على الاطلاق ، فكانوا ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ، ثم انظر الى حالهم اليوم وقد أصبحوا بحيث يطمع فيهم كل طامع ، ويهزأ بهم كل قوى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » . ويقول عليه السلام : «توشك الأمم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال كما تتداعى الآكلة الى قصعتها ، فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل» (أى لقلة شجاعتكم ودناءة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم) ثم قال فى آخر الحديث : «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن» رواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة . وذلك من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى : «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وأى ظلم أكبر من ترك التعاون بين أفراد المؤمنين ، وقد قال الله فيهم : « إنما المؤمنون إخوة » . أىّ ظلم أكبر من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى من العلماء والوزراء والأمراء ، وقد روى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ويقول صلى الله عليه وسلم : « إذا هابت أمتى أن تقول للظالم إنك ظالم ، فقد تُودع منهم » وقال: (بأبى هو وأمى) لاتقدس أمة لا تقول للظالم إنك ظالم » أو كما ورد .

لقد أصبحنا والله فى خسر عظيم ، وشر جسيم ، وصرنا أعظم تفسير لقوله : « إن الانسان لفى خسر » .

وليس يخفى على القارئ الكريم ما وصلنا اليه من اختلال الأحوال وضياع الأموال وانتهاك الحرمات واقتراف المنكرات ، وإصلاح الظواهر وفساد البواطن ، وفقد الاخلاص ، وذيوع الأغراض واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح ، وعدم انفعال النفوس بارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العقول حتى أصبحت تنكر اليقينيات ولا تعترف بالبدهيات ، وكأنما انقلبت الرءوس وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر وفسدت الفطر ،

وعميت القلوب ، وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ولم تتسع له أودية التحذير ، فإننا فى عصر أولئك الذين تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، من ذوى الألسنة الثرثارة والقلوب الخوارة ، والشهوات القاهرة والنفوس الفاجرة، والأفكار الخيالية والنزغات الشيطانية ، وما أجدرهم بما قلناه منذزمان بعيد :

كل شىء يخاف منه الآنا قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلام نمقوه كى يخدع الانسانا
وأمور شكلية ونبوغ فى رياء ياهول ما قد دهانا
من درى الناس شك فى كل شىء قد بدا منهم كائنا ما كانا

وليس يخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات ، وإحراق الزروع الآن فى بلادنا المصرية ، وصلت الى حد أنها ترتكب جهارا نهارا .

وإن شئت فانظر الى الخمر التى فعلت الأفاعيل بالناس ، وليت شعرى لماذا لا تمنعها الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداء بأمريكا المسيحية عند ما منعتها لانتشار أضرارها وكثرة مفاسدها ! أفلا تمنعوها أيها الكبراء والوزراء والنواب والشيوخ ولو محافظة على دستوركم الاسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ، أم أنتم من الذين يقولون مالا يفعلون ،ويكتفون بالأسماء دون الحقائق ، فإن لم يكن لديكم وازع من دين فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أبناء أمتكم ، والخوف عليهم من ضياع مصالح الدنيا فضلا عن الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث ، وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور والفجور ، تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها الى حد الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الانسان واستعداده الغريب .

ومن المخزيات المبكيات أننا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندى له جبين الحياء ، ولا نفكر فى شىء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نصغى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا نلتفت لما توجبه الآداب العامة (ولو على سبيل النفاق) .

ولا بأس أن نقول لك : إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانونا طبيعيا يتبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانونا أدبيا يمليه عليك ضميرك وتؤنبك عليه نفسك ، وقانونا شرعيا يكمل به الارشاد وتتم به السعادة ، وهو القانون الذى بعث الله به الأنبياء .

وبكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة : فلم نصغ لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذى يقول إن اختلاط البنين والبنات وحرية الحركات فى الروحات والغدوات لا تجلب أفظع الويلات وأكبر المحظورات ؟ ! وهل ذلك

التعليم السطحى القليل الضئيل الملتوى المعوج فى البنات والبنين يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعى الذى هو أعلق شىء بالنفوس ، وأ كبر ما رأيت وما سمعت سلطانا على الطبائع البشرية ، كما يشهد به العقل والحس والشرع والفلسفة ؟ ! وما كنا نظن أن أحدا يجادل فى الحسيات أو ينازع فيما يرى من المشاهدات ، ولـكن الانسان هو الانسان .

أما كان يجب على الحـكومة ونواب الأمـة وشيوخها أن يفـكروا فى تلك المسائل التى ستهوى بالأمة الى مـكان سحيق فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمـة ويحقق مصلحتها ، ويمنع عنها تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة ، وما معنى الحـكومة والزعامة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلـكم راع وكلـكم مسئول عن رعيته » ! وأظن أن من الواجب القانونى ألا نسترسل فى هذا الموضوع أ كثر من هذا . فلنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة فى الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم ، فلنقف عند هذا الحد .

وبعد — فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التى هى تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين الوضعية التى تبيح الزنا رسميا وتحمى فاعليه وفاعلاته . وليت شعرى لماذا لايمنعونه رسميا ولو اقتداء بانجلترا ، بل تلك القوانين التى تبيح الـكفر العلنى وتحمى معتنقيه محافظة على تلك الحرية التى تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته ، فهل تراك أحسنت اليه ؟ تلك القوانين التى تجعل دروس الدين فى المدارس أمرا ثانويا لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط ، فأول ما تغرس فى نفوس النَّشء بهذا العمل أن الدين فى محل الاهمال ولا ينبغى أن يعتنى به أو يلتفت اليه ، وهى طريقة عملية فى التربية تترك فى نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأهون عقيدة فيه . وها هى ذى أمامنا حوادث فلسطين التى تدمى العيون وتذيب القلوب ، وكان يجب أن يصرخ لها المسلمون فى كل بقاع الأرض ، ولـكنهم متفرقون متخاذلون (وهو ما أسقطهم فى نظر الأجانب) فصاروا لا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمة ، حتى إن الانـكليز غيروا ما هو المعروف من سياستهم استهانة بالمسلمين واحتقارا لهم ، فقد كان المعروف من سياستهم أنهم يحترمون شعور المسلمين ويأبون أن يثيروا الأحقاد والضغائن ، أو يهيجوا الـكامن فى النفوس ، محافظة على ما بينهم وبين الأمم الاسلامية من العلاقات والروابط .

ولـكنهم فى حوادث فلسطين غيروا خطتهم وخالفوا سياستهم ، كأن المسلمين لاوجود لهم ، وإلا فكيف يرتـكبون ذلك الظلم الصارخ الذى لامبرر له بين سمع المسلمين وبصرهم من أجل اليهود الذين هم أذل أمة فى الوجود ، ولماذا لاينتصرون لهم أمام ايطاليا وألمانيا ؟ ! ولـكن ضعف

المسلمين وعدم اتحادهم هو الذى أدى الى ذلك كله . ووالله إن لم يتحدوا فسيرون أضعاف ذلك ! وقد أهاب بهم جماعة كبار العلماء فى جلستهم التى انعقدت فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٨ ونصحوا لهم جميعا أبلغ النصيحة ، فعسى أن يثوبوا لرشدهم ، ويعملوا على نصرة إخوانهم التى هى واجبة عليهم بمقتضى الدين والسياسة والانسانية .

كلمة ختامية للزعماء :

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الاسلامية ان تحيي رابطة الأخوة التى جعلها الله بين المؤمنين ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، كما علمهم نبيهم ، فوالله لو اتحدوا تمام الاتحاد لحسبت لهم أوربا ألف حساب ، ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلا عن القوة المعنوية ، وكان يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع ، وإعداد أنواع القوى كلها ، وجمع الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله ، وفيهم ممالك مستقلة ، فكانوا يستطيعون العمل سرا وجهرا ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططا حكيمة ، ويسنون قوانين معروفة ، الى آخر ما لا نرى الافاضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم غيروا الوجهة ، ولم يقولوا مثلا نحن مصريون قبل كل شىء : (وكان الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شىء) ! ! ولو اتحدت أسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة فى الوجود .

أسأل الله أن يصلح شئوننا كلها وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

حسب المرء عقله

قال طاوس وهو أحد أقطاب الفقه الاسلامى : « ما قلادة نظمت من در وياقوت بأزين لصاحبها من العقل ، ولو ناصح المرء عقله لأراه مايزينه مما يشينه ، فالمغبون من أخطأ حظه من العقل .

قال شاعر :

يعد رفيع القوم من كان عاقلا   وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حل أرضا عاش فيها بعقله   وما عاقل فى بلدة بغريب

السُّنَّة

حكم خروج النساء من بيوتهن

وما يتعلق بذلك من حقوق الزوجية

— ٢ —

ذكرنا فى مقالنا المنشور فى العدد الذى قبل هذا نص حديث عائشة المشتمل على جواز خروج المرأة من بيتها لقضاء حاجتها غير متبرجة ، وبينّا بعض ما يتعلق بذلك الحديث من أحكام ، وقد بقى الكلام فيما يأتى :

(١) حق كل من الزوجين على صاحبه . (٢) معنى قوامة الرجل على المرأة ، وبيان التفاضل بينهما . (٣) بيان أن الشريعة الاسلامية تحرم إيذاء المرأة بالشتم والضرب والهجر .

بينا فى مقالنا السابق أن الشريعة الاسلامية تحترم المرأة كل الاحترام ، سواء كانت زوجا أو أما ، بل قد فضلت الأمهات على الآباء فى الحقوق والواجبات . ولكنها شريعة الآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة ، ففرضت على كل من الزوجين أن يسلك سبيل العفة والطهارة ، وأن يتجنب كل ما يوجب الريبة أو يضر بعلاقة الزوجية المقدسة ، فلم تفرض على المرأة التحجب وتغطية بدنها عن الأعين لنقص فيها ، بل لما قد يترتب عليه من فساد مظنون أو محقق . وليست المرأة وحدها هى المسئولة ، بل الرجل مثلها سواء بسواء ، فكما يحرم على المرأة أن تبدى زينتها للرجال ، كذلك يجب على الرجل أن يغض بصره عن النساء اللاتى لا يحللن له كما أمر الله بقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » ، وقوله : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » ، وقوله : إلا ما ظهر منها ، المراد به الوجه والكفان ، فانه يجوز كشفهما للحاجة ، لأن الشريعة التى تبيح للمرأة الخروج لقضاء حاجتها لا بد لها من إباحة كشف الوجه والكفين لضرورة التعامل ، ولكنها مع هذا قد حاطته بقيد واضح يحدد الغرض الذى يريده الشارع وهو غض البصر ، وعدم النظر الى جزء من أجزاء المرأة الأجنبية بشهوة فاسدة . فغاية الشريعة درء الفتنة وسد أبوابها من جميع الجهات . أما ماعدا ذلك من المصالح التى تستلزمها حاجة الانسان فلم تجعل على أحد فيها من حرج .

والخلاصة : أن الدين الاسلامى قد وضع قاعدة لمعاملة الرجال والنساء تنطبق على مصالح الناس فى كل زمان ومكان ، فقال للرجل : إنك قد تعاقدت مع زوجة ، فليس لك أن تتعداها الى امرأة لا تحل لك بأى شهوة من الشهوات . وقال للمرأة : إنك قد تعاقدت مع رجل على أن تكونى متعة له وحده ، فلا يحل لك أن تظهرى شيئا من بدنك يستمتع به غيره من الرجال . ولما كانت الحاجة ماسة الى خروج المرأة لقضاء حاجتها ، أباح لها أن تكشف وجهها وكفيها إذا لم يترتب على ذلك إغراء الرجال بها ، وافتتانها بهم . فاذا لم تكن المرأة متزوجة انتقلت هذه الحقوق للقائمين بأمرها .

ومن هذا تعلم أن الشريعة الاسلامية لا غرض لها إلا صيانة المرأة والبعد بها عن مظان الشبهات ، والحيلولة بينها وبين فاسدى الأخلاق الذين يطمعون فى سلب عفافها ، والقضاء على كرامتها . فالنساء اللاتى يخرجن متهتكات متبرجات عاريات إجابة لدعوة الإباحيين ، إنما يؤذين أنفسهن بالابتذال ، ويؤذين بناتهن ، وإخواتهن ، وأقاربهن ، بالانصراف عن تزوجهن ، ويؤذين الصالحين من الرجال الغافلين بإثارة شهواتهم ، وإغرائهم على العزوبة والفساد .

وكل ذلك شر وبيل ، جاءنا من فريق الإباحيين الذين يغرون النساء على الخروج عن طبيعتهن التى فطرهن الله عليها ، فلا يتركون فرصة تمر بدون أن يظهروا فيها ما تكنه أنفسهم من نزغات فاسدة ، وشهوات ممقوتة ، مستدلين على ما يشتهون بحرية الأجنبيات ، وما أنتجته هذه الحرية من رقى وصلاحية ، وهم فى ذلك خاطئون واهمون . وإن شئت قلت غالطون أو مغالطون ، لأنه لم يقل أحد فى العالم : إن الرقى منوط بالتبرج والتهتك وفساد الأخلاق ، وإنما الرقى منوط بالعلم والعمل وتهذيب الأخلاق ، منوط بأن يؤدى كل فرد من الأفراد واجبه الذى خلق له فى هذه الحياة الدنيا على الوجه الأكمل ، وليس من المعقول أن يكون التبرج والمجون وخرق حجب الفضيلة على مرأى ومسمع من الملأ آية رقى الأمم وفلاحها .

وبعد : فلنذكر حقوق كل من الزوجين على صاحبه : إن هذه الحقوق قد قررتها الشريعة الاسلامية على أكمل وجه ، فقد قسمتها الى قسمين ، قسم نصت عليه صراحة ، وقسم ناطته بالعرف والعادة ، فما اصطلح عليه الناس ، وجرت به عادتهم مما لا يخالف نصا من نصوص الدين كان على الزوجين أن يقوما به ، كما قال تعالى : « ولهن مثلُ الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » . وليس الغرض أن كل مايجب على المرأة من الحقوق يجب مثله على الرجل ، بل الغرض أن على كل واحد واجبا يناسبه مثل ما على الآخر ، فالمماثلة فى الوجوب ، أما الجزئيات المطلوبة من كل واحد منهما فانها تارة تكون متماثلة ، وتارة تكون مختلفة ، فمن الحقوق المتماثلة : الاخلاص ، وهو أن ينبعث كل منهما برغبة صادقة لا يشوبها رياء ولا يخالطها نفاق الى القيام بواجبه للآخر . فيجب أن يكون مصدر معاملة كل واحد من الزوجين لصاحبه

الحب الصادق والرغبة الصحيحة . فاذا فقد الاخلاص من الزوجين أو من أحدهما وحل محله الرياء والنفاق لغرض فاسد من مال أو جاه أو نحو ذلك ، فان علاقة الزوجية تنهار عند أول صدمة ، بل يكاد يكون من المستحيل أن تستمر علاقة الزوجية خالية من شوائب الفساد إذا لم تكن مرتكزة على الاخلاص فى المودة والحب الصادق . وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث كثيرة تحث الناس على أن ينزهوا علاقة الزوجية عن الرغبات الخارجة عنها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تَرِبت يداك » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما . فهذا الحديث يبين لنا العوامل التى تدفع الرجل الى الزواج ، ويرشدنا الى أن العامل الصحيح الذى ينبغى أن يكون مناط الزوجية هو عامل الدين والخلق ، وإن شئت قلت عامل العفة والاخلاص وحسن المعاشرة والقيام على تربية الأبناء والبنات تربية صحيحة ، فاذا لم تكن المرأة متصفة بهذه الصفات كان ما عداها من الصفات شرا مستديما ، فمن ظن أن الجمال وحده ، أو المال وحده ، يكفى فى علاقة الزوجية فقد أخطأ كل الخطأ وأوقع نفسه فى عذاب دائم ، وشقاء مستمر من حيث يخال السعادة والنعيم . وماذا عسى يكون حال الرجل الكريم إذا تزوج جميلة فاسدة الخلق لا يحول بينها وبين شهواتها وازع من خلق ودين ؟! وماذا يكون حاله إذا تزوج ذات مال لا سلطان له عليها فتتحكم فى نفسها كما تتحكم فيه وهو خاضع ذليل ؟! لا ريب فى أن هذا قلب للنظم الاجتماعية الصحيحة ، وعكس لمقتضى الطبائع الانسانية بدون نزاع .

أما إذا أتيح للرجل أن يتزوج جميلة مخلصة ، أو ذات مال ودين تعرف لزوجها حقه كما يقوم لها بحقوقها ، كان ذلك سعادة لاشك فيها . فالغرض من كل ذلك أن تكون علاقة الزوجية مبنية على تبادل المودة والاخلاص بين الزوجين ، وإلا كانت فتنة وفسادا .

ومن حقوق الزوجية المتماثلة الأمانة والوفاء . فكل واحد من الزوجين متعلق بذمته حقوق يجب عليه أداؤها لصاحبه كاملة ، وهذا هو معنى الأمانة ، وهى مطلوبة من الزوجين معا بلا فرق . فيجب على كل واحد منهما أن يكون أمينا على عرض الآخر وماله ونفسه ، وأن يكون أمينا على سره . فإذا خان أحد الزوجين صاحبه فى شىء من ذلك فقد باء بشر الآثام والأوزار . فحرام على المرأة أن تمكّن غير زوجها من التمتع بجزء من بدنها الذى تعاقدت معه على أن يكون هذا مختصا به وحده .

ومن شر الفواحش والآثام أن تخون زوجها فى أعز شىء لديه منها فترضى لرجل غيره أن ينتهك حرمته ويسطو على عرضه ، وهو غافل لا يدرى ما تصنع تلك العاهرة من جريمة تندك منها الآداب والأخلاق . وكذلك يحرم على الرجل أن يستمتع بجزء من بدن امرأة أجنبية غير زوجه ، أو ينتهك حرمة غيره ويسطو على عرضه ، فإن جريمته هذه مساوية لجريمة امرأته

التى تنتهك حرمته بلا فرق ، ولذا كانت عقوبته وعقوبتها واحدة فى الدنيا والآخرة ، فكلاهما زان يستحق الاعدام رجما فى الدنيا ، أو العذاب الشديد يوم القيامة .

ومن أهم الحقوق والواجبات المتماثلة التى يجب على الزوجين القيام بها كتمان السر ، فإذا أسر أحد الزوجين الى الآخر حديثا وجب عليه كتمانه وعدم الافضاء به ، مهما حدث بينهما من شقاق وخصام . وكذلك لايحل لأحد الزوجين أن يتحدث بما يقع بينهما من الاستمتاع ونحوه من الأمور الخاصة التى من شأنها أن تكون سرا ، فقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ، ثم ينشر احدهما سر صاحبه » رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .

وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده فقال : « لعل رجلا يقول مافعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بمافعلت مع زوجها ، فأرم القوم ، فقلت إى والله يارسول الله ، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن ، قال : فلا تفعلوا ، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » . رواه أحمد . ومعنى أرم القوم بفتح الراء وتشديد الميم : سكتوا ، فمن الجرائم الخلقية التى لايقرها الدين الاسلامى أن يفشى أحد الزوجين سر الآخر سواء كان متعلقا بالاستمتاع ، أو كان متعلقا بشأن من الشئون الأخرى خاصة كانت أو عامة . فمن الحمق وسوء الأدب أن يفشى أحد الزوجين سر صاحبه مهما حدث بينهما من شقاق ونزاع .

ومن الحقوق المتماثلة أن ينظر كل من الزوجين الى الآخر نظر احترام وتقدير ، فلا يحل للرجل أن ينظر الى المرأة نظرة استخفاف واحتقار ، أو يظن أنها ليست إلا محلا لقضاء شهوة بدون نظر الى السبب الحقيقى الذى جمع الله الزوجين من أجله ، كما لايحل للمرأة أن ينحصر غرضها من الرجل فى مجرد إرضاء شهواتها ، أو أن تنظر اليه كشخص مسخر لمآربها المادية ولذاتها الجثمانية ، بل يجب عليها أن تجعل علاقته بها أسمى وأجل من كل شهوة أو لذة ، فهو شريكها فى الحياة يصيبها مايصيبه من سراء وضراء ، ويلحقها مايلحقه من نعيم وبؤس ، وفى كلتا الحالتين يكون له عندها من رفيع المنزلة ما لا يزلزله حادث أو يوهنه بؤس . وذلك لأن الغرض من اجتماع الزوجين تكوين أسرة صالحة تنفع المجتمع الانسانى وتعمل فى بناء العمران كما هى سنة الله فى ذلك النوع الذى فضله الله على كل الأنواع . فعلى كل من الزوجين أن يوقن بان سعادة أحدهما مرتبطة بسعادة صاحبه ، وشقاءه مرتبط بشقائه ، فلا مناص لكل واحد منهما من العمل على ما فيه خير صاحبه وسعادته مادام فى هذه الحياة الدنيا .

وبالجملة : فإن جماع الحقوق المشتركة بين الزوجين هى أن يحترم كل واحد منهما علاقة الزوجية ، ويعلم أنها الوسيلة الصحيحة التى اقتضتها طبيعة الانسان ، فجمعت بينهما وألفت بين

قلبيهما لغرض جليل الشأن ، وهو بناء أسرة صالحة تفيد المجتمع الانسانى وتستفيد منه ، فكل شىء يترتب عليه صلاح تلك الأسرة وتكوينها تكوينا نافعا فإنه يجب على الزوجين أن يقوما به ويعملا على تحققه بحسب استعداد كل منهما .

أما الحقوق المختلفة فانها تتفاوت بتفاوت حال الزوجين الطبيعية التى فطرهما الله عليها . فأما الرجل فانه يجب عليه لزوجه حقوق، أهمها صيانتها ، والانفاق عليها وعلى أولادها منه بحسب حاله ، فهذا حق واجب مقدس على الزوج ما دامت الزوجة فى طاعته سواء كانت فقيرة أو ذات مال . فالشريعة الاسلامية كلفت الرجال باحتمال مشاق الحياة ومتاعبها ، وكلفتهم بالدفاع عن العرض والوطن وكل مافيه كفاح ونضال ، ورفعته عن النساء . ومنها إعفاف المرأة وعدم هجر فراشها ، وأوجب جمهور أئمة المسلمين عليه فراقها إذا عجز عن ذلك كى لا يعرضها الى الريبة والفساد، ومنها معاملتها بالرفق، فلا يؤذيها بلسانه أويده ، أويعبس فى وجهها بدون سبب ، وإذا بدرت منها بادرة تستوجب غضبه فلا يقسو عليها ، إذ يجب على الرجل أن يكون حسن المعاشرة مع أهله ، فلا يحل له أن يكون سىء الخلق غليظ الطبع لا تشعر منه زوجه بعطف ولا تحس بحنو ، لأن المعاملة القاسية تقطع المودة ، وتوجب حقد المرأة على الرجل ، وانصرافها عن الاخلاص له . وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث صحيحة كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذى وغيره . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » فلا يحل للرجل أن يثور غضبه للهفوات العادية التى تصدر من زوجه لأنه أقدر على احتمال ما يثير النفس ، فعليه أن يردها الى صوابها بالحكمة واللين ، ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد كان أكثر الناس ملاطفة لأهله وبرا لهن ، واحتمالا لما يقع منهن مما جرت به عادة النساء واقتضته طبيعتهن .

وقد يقال : هذا الحق مشترك بين الرجل والمرأة لأنها مكلفة أيضا بحسن معاشرته .

والجواب أن الشريعة الاسلامية جعلت زمام المرأة بيد الرجل ، فهو المكلف بحسن المعاشرة ، فعليه أن يعاشرها بالمعروف ، أو يفارقها ، كما قال تعالى : «وعاشروهن بالمعروف» . وقال : « فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

أما حق الرجل على زوجه ، فأهمه أن تكون مقصورة عليه وحده ، فلا يحل لها أن تكشف جزءا من بدنها لغيره من الرجال ، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، وأن لا تأذن لأحد بالدخول فى داره وهو كاره ولو كان من محارمها ، وأن تكون مطيعة له متى طلب منها الاستمتاع بها ، فمتى فعلت المرأة ذلك وحفظت ما عليها من الحقوق المشتركة بينها وبين الزوج ، فقد أصبحت فى نظر الدين الاسلامى تستحق أعظم المنازل وأسمى الدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا

صلت المرأة خمسها ، وأحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت » . رواه ابن حبان فى صحيحه . وقد وردت فى هذا المعنى أحاديث كثيرة صحيحة .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثانى وهو (معنى قوامة الرجال على النساء) : فهو أن الرجال خلقهم الله أقوياء قادرين على الكفاح فى هذه الحياة الدنيا . فهم فى نظر الدين الاسلامى وحدهم المكلفون بمجاهدة الأعداء والحصول على الاموال والارزاق ، واحتمال مصاعب الحياة ومشاقها فى تحصيل مايلزم لأزواجهم وأولادهم من قوت ومسكن وملبس وما يتبع ذلك من لوازم الحياة ، أما النساء فليس عليهن فى هذه الحالة إلا مراعاة أبنائهن فى زمن الطفولة ، ومراقبتهم مراقبة دقيقة ، كى يشبوا على الفضيلة ، وعليهن أيضا تدبير المنزل ، والمحافظة على أموال الرجل الموجودة بين أيديهن ، فلا يبذرنها فى الشهوات التى لا تلزم للحياة ويرهقن الرجل بالاسراف ، وهذا وإن كان ركنا هاما من أركان الحياة الزوجية ، ولكن ليس فيه من المشاق والمصاعب مثل ما على الرجال من جهاد وكفاح .

وهـذا هو معنى قوامة الرجال على النساء الواردة فى قوله تعالى : « الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » فقوامة الرجال على النساء بيّن الله سبحانه أسبابها ، وحصر تلك الأسباب فى أمرين : الأول تكليف الرجال بالانفاق دون النساء . الثانى التفاضل الطبيعى بين الرجل والمرأة فى القوة والبطش ، فالنساء فى كل زمان ومكان عرضة لمطامع الرجال ، ومهما أوتيت المرأة من فطنة وذكاء فإنها لا تستطيع أن ترد عن نفسها مطامع الرجال فيها . فالرجل وحده هو المكلف بالدفاع عن عرض المرأة وصيانتها من كل عدوان . فلذا كان من الواجب عليها أن تطيع زوجها من هذه الناحية . فإذا طلب منها أن لا تخالط الرجال ، أو أن تبتعد عن معارك الحياة ، وتربأ بنفسها عن مواطن الريبة والظنون التى تكدر صفو عيشه معها ، وجب عليها أن تطيعه فى ذلك طاعة عمياء ، فإنها تعاقدت معه على أن تكون زوجا له مقصورة عليه وحده . فليس لها أن تخالف مقتضى هذا التعاقد وتلهب قلبه بالغيرة . فهذه هى الدرجة التى ميز الله بها الرجال على النساء . ولا يخفى أنها ليست مهينة لهن فى أى ناحية من نواحى الحياة ، بل هى من مقتضيات الطبيعة . فهى درجة يقتضيها نظام العمران وتستلزمها طبيعة الانسان ، إذ لولا دفع الله الرجال بعضهم بعضا عن النساء بعوامل طبيعية لكانت فوضى الشهوات عامة شاملة ، ولأصبحت النساء نهبة يتخطفهن الرجال كما تخطف الضوارى فرائسها ، ويستتبع ذلك انهيار نظام الأسرة وتهدم بناء العمران حتما .

وهذا لا ينافى ما للنساء من حق فى ترقية أنفسهن بتعلم العلوم والمعارف ، وعلى الآباء أن يأذنوا لبناتهم فى تعلم العلم مع المحافظة على العفاف والآداب . ولقد كانت النساء المسلمات

فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يحضرن مجالس العلم . وقـد نبغ منهن سيدات كان لهن على الرجال فضل فى العلم والمعرفة . ومنهن السيدة عائشة زوج الرسول فانها كانت مرجعا لـكبار الصحابة فى الدقائق العلمية حتى إن عمر نفسه كان يسألها فى دقائق المسائل . وقد درج على ذلك المسلمون الذين من بعدهم ، فـكانوا يعلمون بناتهم كما يعلمون أبناءهم . وقد ألف بعض العلماء كتابا خاصا فى فضليات النساء المسلمات . فالدين الاسلامى لا يريد تنقيص المـرأة وإهانتها ، وإنمـا يريد رفعتها والبعد بها عن مصارع السوء ومطامع فاسدى الأخلاق من الرجال . يريد منها أن تفعل كل ما من شأنه أن يوطد علاقة الزوجيـة ، ويرفع من شأن الأسرة . يريد منها أن تؤدى وظيفتها التى خلقها الله من أجلها فى هذه الحياة ، وهى مصونة العرض عزيزة الجانب لا يطمع فى عفافها أحد ، ولا تستهويها لذة فاسدة . فاذا قامت المرأة بذلك كانت من المقربات عند الله تعالى المحترمات فى نظر الهيئة الاجتماعية رغم أنف الاباحيين الشهويين .

(٣) أما الجواب عن السؤال الثالث : وهو أن الدين الاسلامى يحرم إيذاء المرأة بالسب والضرب الخ . فإنك قد عرفت مما ذكرناه لك آنفا أن من حق المرأة على زوجها أن يعاملها معاملة حسنة ، فلا يحل له أن يؤذيها بيده أو لسانه ، ولـكن بعض الناس قد أساء فهم قوله تعالى : « واللاتى تخافـون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » فظن أن القرآن يأمر بضرب النساء . وفى ذلك من المهانة والاحتقار للمرأة ما لا يخفى . ولـكن الواقع أن الدين الاسلامى لا يشرع لفئة خاصة ولا لجماعة محصورين ، وإنمـا يشرع للناس كافـة . فمن الضرورى أن يراعى فى ذلك جميع الحـالات المحتملة وإلا كان تشريعا ناقصا . ومما لاشك فيه أن النساء تتفاوت فى كل زمان ومكان ، فمنهن العاقلات المهذبات اللاتى يمكن التفاهم معهن فيما يصلح الأسرة ويزيل أسباب الشقاق ، ومما لاريب فيه أنهن لايحل ضربهن بأى وجه ، وعلى أى حال . بل لا يحل للرجال إيذاؤهن بالقول المهين ، بل يجب تذكيرهن بمـا يلزم لدوام المعاشرة من تسامح وصفاء ، وما يجب أن تكون عليه علاقة الزوجية من قوة لا يصح التأثير عليها بالحـوادث الطـارئة . فإذا لم تقتنع وجب على الزوج أن يصبر عليها ويلاطفها حتى يزول مابها .

ومن النساء من يصلحهن هجر فراشها زمنا معينا ، فاذا كانت المرأة تحب زوجها حبا صادقا وفـرط منها ما يستدعى شقاقا ، فان له أن يهجرها أياما كى ترعوى عن غيها . وليس الغرض من الهجر أن يقاطعها فلا يتحدث إليها ولا ينفق عليها ، بل يهجر الاستمتاع بهـا فقط ، فاذا وجـدت امرأة لا تصلح للتفاهم ولا تعـرف معنى حب الزوج ، فلا يصلحها الهجـر ، فاذا خرجت عن واجباتها فأساءت معاشرة زوجها لجهلها وعدم معرفتها حقوق الأزواج ولم تفهم معنى الوعـظ والهجر ، ولم يؤثر فيها معنى من المعانى الأدبية ، كان للزوج فى هـذه الحالة

أن يضربها بشرط أن لا يكون الضرب شديدا ، وأن لا يكون على وجهها ، وبشرط أن يكون هذا الضرب الخفيف سببا فى إصلاحها . ولعل هذه الحالة لا تكون إلا فى النساء الجاهلات الغبيات اللاتى لا يفقهن للحياة الزوجية معنى . فهذا تشريع لحالة خاصة ، فلا يصح أن يجعل عاما يطبق على كل النساء ، ولذا ذكرت الآية قبل كل شىء العظة والتفاهم بالحسنى . فاذا لم يفد كان الهجر الخفيف ، فاذا لم يفد وكانت المرأة جاهلة غبية يصلحها الضرب الخفيف ، كان له ذلك . والغرض من كل هذا المحافظة على عـلاقة الزوجية ، واجتناب وسائل الطلاق . فاذا عجز الزوجان عن الحياة الصالحة ويئس كل منهما من صاحبه كان الفراق بالطلاق .

عبد الرحمن الجزيرى

من عيون الخطب

خطب المأمون فى يوم عيد فقال :

عظم قدر الدارين ، وتباين جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين . الله الله إنه الجد لا اللعب والحق لا الـكذب ، وما هو إلا المـوت والبعث والميزان والحساب ، والصراط والقصاص ، والثواب والعقاب ، فمن نجا يومئـذ فقد فاز ، ومن هوى فقد خاب ، الخير كله فى الجنـة ، والشر كله فى النار .

قال الشعبى : ما سمعت أحـدا يتكلم إلا تمنيت أن لو سكت مخافة أن يخطئ إلا زيادا فانه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا . خطب يوما فقـال : « أيها الناس لا يمنعنكم سـوء ما تعلمون ، أن تنتفعوا منا بأحسن ما تسمعون ، فان الشاعر يقول :

اعمل بقولى ولا تنظر الى عملى ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

قيل إن هذا البيت للخليل بن احمد ، ولـكن النقاد جوزوا أن يكون الخليل قد استشهد به وليس له .

وخطب الحجاج يوما فقال : « أما بعد فان الله كتب على الدنيا الفناء ، وكتب على الآخرة البقاء ، ولا بقاء لمـا كتب عليه الفناء ، ولا فناء لمـا كتب عليه البقاء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، وأقصروا طول الامل ، بقصر الأجل »

وقال أئمة الخطابة : خير الـكلام ما لم يكن عاميا سوقيا ، ولا عربيا وحشيا .

وقال أبو الأسود الدؤلى لولده : يابنى إذا كنت فى قوم فلا تكلمهم بكلام لم يبلغه سنك فيستثقلوك ، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك .

هلال رمضان

وإذا رئى فى بلد هل يعم حكمه سائر البلاد ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم :

كان قد وجه الى فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، خطاب بطلب النظر فى جمع المسلمين فى كل الأقاليم على صوم يوم واحد أول رمضان . وقد طلب فضيلته الى بعض حضرات السادة العلماء أن يوافوه ، بعد بحث الموضوع من الوجهة الشرعية ومراجعة آراء الفقهاء ، بخلاصة بحثهم ونتيجة نظرهم .

وقد كنت ممن تفضل مولانا الأستاذ الأكبر بتوجيه هذا البحث اليهم ؛ فبعد مراجعة كتب الفقه الشافعى واستقصاء النظر فى الموضوع ، كتبت هذه الكلمة لتنشر فى المجلة بمثابة نواة لما سيبديه حضرات أصحاب الفضيلة علماء المذاهب بالأزهر من بيان شاف تنشرح له صدور المؤمنين .

ولادة الهلال فلكيا :

يولد الهلال ، ويبتدئ الشهر الهلالى متى انحرف القمر عن حالة الاجتماع : أى الوضع الذى يكون فيه الشمس والقمر بالنسبة للأرض فى اتجاه واحد على خط مستقيم ، ويكون الجزء المضىء من القمر مقابلا كله للشمس متواريا جميعه عن الأرض ، وهى الحالة المسماة بالمحاق ، فمتى انحرف قليلا عن هذا الوضع ظهر من الوجه المضىء خيط دقيق مقوس ناحية الأرض ، وهذا أول الشهر الهلالى فلكيا ، وذلك يكون بالنسبة للأرض كلها فى لحظة واحدة ، سواء أهل الجهة التى يقابلها القمر حينئذ ، أو الجهة التى يكون متواريا عنها ، وهذا يحصل تارة ليلا فى أول الليل أو آخره أو بين ذلك ، وتارة نهارا كذلك .

اعتبار الشهر قد هل شرعا :

ولا يعتبر الشهر الجديد قد هل شرعا إلا إذا رأى أهل الأرض ذلك الخيط المضىء من القمر بعد غروب الشمس بالعين المجردة ، فتكون الليلة التى رئى فيها من الشهر الجديد بالنسبة الى الرائين قطعا .

وأما بالنسبة الى غـيرهم ففيه خـلاف ، فقيل : وغيرهم مثلهم ، فمتى ثبت الشهر فى بقعة من الأرض فقد ثبت فى جميع البلاد (ولعـل من الواضح أن معنى ثبوته بالنسبة لجميع أهـل البـلاد أن تكون الليالى التى تقبل بعد رؤيته من الشهر الجديد ، لا أن يحتسب اليوم الذى يتفق أن يكون النهار فيه ساعة رؤية الهلال فى بلد ، من الشهر الجديد) .

وقيل : بل كل بلد لها رؤيتها لا يتعدى حكمها الى غيرها .

وقيل بالتفصيل بين البلاد القريبة من بلد الرؤية ، فيثبت حكمها فى حقهم ، والبلاد البعيدة عنها فلا يتعدى حكمها اليهم .

ثم اختلفوا فى تحديد القرب والبعد : فقيل : يعتبر مسافة القصر ، لأن الشارع ناط بها كثيرا من الأحـكام ، وقيل باتحاد الاقليم .

وقيل وهـو المختار : بل العبرة باتفاق المطالع واختلافها ، لأن مسافة القصر لا شأن لها بطلوع الـكواكب ولا غروبها . وهذا هو الذى اختاره الـكثير ودرج عليه المتأخرون من الفقهاء وهو الأوجه ، قال النووى فى المجموع : « إذا رأوا الهلال فى بلد ، ولم يروه فى غيره فان تقارب البلدان فحكمهما حكم بلد واحد ، ويلزم أهل البلد الآخر الصوم بلا خلاف ، وإن تباعدا فوجهان مشهوران فى الطريقين ، أصحهما : لا يجب الصوم على أهل البلد الأخرى ، وبهذا قطع المصنف والشيخ أبو حامد و ... ، والثانى يجب ، وبه قال الصيمرى ، وصححه القاضى أبو الطيب و ... ، وأجابوا عن حديث كريب عن ابن عباس (وسيأتى) بأنه لم يثبت عنده الرؤية فى بلد آخر بشهادة عدلين . والصحيح الأول .

وفيما يعتبر به القرب والبعد ثلاثة أوجه : أصحها ، وبه قطع جمهور العراقيين والصيدلانى وغيرهم ، أن التباعد يحصل باختلاف المطالع كالحجاز والعراق وخراسان ، والتقارب أن لا يختلف كبغداد والـكوفة ، لأن مطلع هؤلاء مطلع هؤلاء ، فاذا رآه هؤلاء فعدم رؤيته للآخرين لتقصيرهم أو لعارض . والثانى الاعتبار باتحاد الاقليم . والثالث أن التباعـد مسافة القصر والتقارب دونها ، وبه قال إمام الحرمين والغزالى والبغوى وآخرون ، قالوا لأن اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأبى ذلك . وهذا ضعيف لأن أمر الهلال لا تعلق له بمسافة القصر . فالصحيح اعتبار المطالع .

ثم قال بعد كلام نقله عن علماء المذهب : « تحصل فى المسألة ستة أوجه : أحدها : يلزم جميع أهل الأرض برؤيته فى موضع منها . والثانى : يلزم أهل إقليم بلد الرؤية دون غـيرهم . والثالث : يلزم كل بلد يوافق بلد الرؤية فى المطلع دون غيرهم ، وهذا أصحها . والرابع : يلزم كل بلد لا يتصور خفاؤه عنهم بلا عارض دون غيره . حكاه السرخسى . والخامس : يلزم من دون مسافة القصر . والسادس : لا يلزم غير بلد الرؤية » انتهى ما أردنا نقله عن المجموع .

وقال شيخ الاسلام فى المنهج وشرحه : « (وإن رئى) الهلال (بمحل لزم حكمه محلا قريبا) منه (وهو) يحصل (باتحاد المطلع) بخلاف البعيد عنه ، وهو يحصل باختلاف المطلع ، أو بالشك فيه ، كما صرح به فى الروضة كاصلها لا بمسافة القصر خلافا للرافعى ، قياسا على طلوع الفجر والشمس وغروبها ، ولأن آخر الهلال لا تعلق له بمسافة القصر. لكن قال الامام : اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأبى ذلك ، بخلاف مسافة القصر التى علق الشرع بها كثيرا من الأحكام والأمر كما قال » اه وكتب البجيرمى على قوله : والأمر كما قال : (أى من الاشكال ، والمعتمد ما قاله المصنف) وسيأتى دفع الاشكال .

وفى الروض لابن المقرى وشرحه لشيخ الاسلام : « (فرع) : لو (رئى) الهلال (فى بلد لزم) حكمه (من فى غيره) من سائر الأماكن (مالم تختلف المطالع) كبغداد والكوفة والرى وقزوين ، لأنه قريب من بلد الرؤية ، فهو بمنزلة من هو فى بلدها كما فى حاضرى المسجد الحرام . فان اختلفت كالحجاز والعراق وخراسان لم يجب الصوم على من اختلف مطلعه ، لبعده ، ولما روى مسلم عن كريب : رأيت الهلال بالشام ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فقال ابن عباس : متى رأيتم الهلال ؟ قلت ليلة الجمعة . قال أنت رأيته ؟ قلت : نعم ، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية . فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت ، فلا نزال نصوم حتى نكمل العدة أو نرى الهلال . فقلت : أو لا تكتفى برؤية معاوية وصيامه ؟ فقال : لا ، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقياسا على طلوع الفجر والشمس وغروبها ، ومما قاله المصنف علم أن القريب من بلد الرؤية ما اتحد معه فى المطلع . وقيل : ما دون مسافة القصر ، وصححه الرافعى وتبعه النووى فى شرح مسلم ، وصحح فى غيره الأول لأنه لا تعلق للرؤية بمسافة القصر . وقال الامام : اعتبار المطالع يحوج الى حساب وتحكيم المنجمين ، وقواعد الشرع تأبى ذلك ، بخلاف مسافة القصر التى علق الشارع بها كثيرا من الأحكام . فإن قلت : اعتبار اتحاد المطالع على مامر يتعلق بالمنجم والحاسب وقد تقدم أنه لا يعتبر قولهما فى إثبات رمضان ؟ قلت : لا يلزم من عدم اعتباره فى الأصول والأمور العامة عدم اعتباره فى التوابع والأمور الخاصة اه . أى وهنا لم يثبت بكلام المنجم والحاسب أصل الصوم وثبوت الهلال على جميع الناس ، بل عدينا به الصوم والهلال الثابت فى بلد الى أهل بلد آخر .

ثم المراد بالرؤية المذكورة فى كل هذا ، الرؤية ليلا ، ولا عبرة برؤيته نهارا . قال فى المنهج وشرحه : « (ولا أثر لرؤيته) أى الهلال (نهارا) » ونقل البجيرمى عليه عن القليوبى أنه لا يكون للماضية فنفطر ، ولا للمستقبلة فيثبت رمضان مثلا ، أى فلا يغنى عن رؤيته بعد الغروب .

مما سبق نقله عن المجموع وغيره ، يعلم أن ما صححه فى المجموع هو ما جرى عليه أغلب كتب

المذهب ، وهو اعتبار اتحاد المطالع واختلافها ، وهو ما ترتاح اليه النفس ، ويشبه ما اعتبره الشارع فى أمر الصلاة من أن لكل قوم شروقهم وغروبهم وزوالهم وشفقهم وغير ذلك ، وأن البلاد التى تفقد شيئا من ذلك تعامل بحال أقرب البلاد اليها .

وما يقال من الفرق بين الصوم والصلاة من أن الصوم منوط بوجود الهلال وهو متى ولد فى بقعة فقد ولد بالنسبة لجميع أهل الأرض ، يرد عليه بأن أمر الأحكام الشرعية مبنى على المشاهدات الميسورة لطبقات الأمم بدويها وحضريها ، وأمر الحساب والتنجيم لا يتيسر إلا للبلاد التى أخذت بحظ من العلوم ، وقواعد الشرع لا تراعى ذلك بل تأباه . ولا ننس ما قدمناه من أن عدم اعتبار الحساب والتنجيم فى إثبات أصل الصوم لعموم الناس لا يستلزم عدم اعتباره فى تعدية حكمه ، وقد ثبت فى بلد الى أهل بلد آخر قريب منه .

وحديث « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ليس معناه متى حصلت رؤية ما فصوموا ، بل معناه كما فى رواية أخرى: إذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطروا . وخير ما فسرته بالوارد .

ننتقل بعد هذا الى ما جاء فى السؤال من النظر فى تعميم حكم الصوم لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى يجتمعوا فى صوم رمضان على يوم واحد ، وبخاصة إقليم طرابلس الغرب بلد السائل ، وهل تتأثر بثبوت رمضان فى مصر ، فنقول :

قد نصوا على أنه متى اتحد البلدان فى خط العرض جهة وقدرا بأن يكونا معا فى الشمال أو يكونا معا فى الجنوب وأن يكون بعدهما عن خط الاستواء واحدا أو متقاربا ، فانه إذا رئى الهلال فى البلد الشرقى منهما يلزم أن يرى فى البلد الغربى ، فإذا لم يرفيه فإما لعارض أو لتقصير منهم ، وذلك أن الشمس تغرب فى البلد الشرقى قبل غروبها فى الغربى ، وكذلك القمر ، فإذا رئى فى البلد الشرقى فما ذاك إلا لأنه مضى عليه بعد ولادته مدة يتسع فيها الخط المضىء الذى يبدو منه ، فإذا تأخر الغروب فى البلد الغربى ساعة أو ساعتين مثلا كان ذلك أعون على رؤيته إذ يزيد اتساع الخط المنير البادى منه ، فإذا لم ير فاما لعارض أو تقصير منهم كما قلنا .

وإنما قيدنا بأن يكون البلدان على خط عرض واحد أو متقارب ، لأنهما إذا لم يكونا كذلك جاز أن يتأخر غروب الشمس فى البلد الشرقى عنه فى البلد الغربى : بأن يكون البلد الشرقى فى الشمال والغربى فى الجنوب ويكون الوقت صيفا ، فان النهار يطول فى البلد الشمالى عنه فى البلد الجنوبى ، فربما تأخر غروب الشرقى حينئذ عن غروب الغربى .

نقل الشهاب الرملى فى حاشية شرح الروض عن السبكى قال : « تنبيه لم أر من نبه عليه . وهو أنه قد تختلف المطالع ، والرؤية فى أحد البلدين مستلزمة للرؤية فى الآخر من غير عكس ، فان الليل يدخل فى البلد الشرقية قبل دخوله فى البلد الغربية ، فاذا غربت فى بلد شرقى وبينه

وبين الشمس سبع درج مثلا ، لا يمكن رؤيته فيها ، وإذا غربت فى بلد غربى يتأخر الغروب وبينه وبين الشمس أكثر من عشر درج أمكن رؤيته فيها ، وإن لم ير فى البلد الشرقى ، فاذا غربت فى غربى آخر بعد ذلك بدرجتين كانت رؤيته أظهر، ويكون مكثه بعد الغروب أكثر ، وقس على هذا يتبين لك أنه متى اتحد المطلع لزم من رؤيته فى أحدهما رؤيته فى الآخر ، ومتى اختلف لزم من رؤيتـه فى الشرقى رؤيته فى الغربى ، ولا عكس . وتبعه فى المهمات » قال : « وفى إطلاقه دخـول الليل فى الشرقى قبل دخوله بالغربى نظر إذ محل القبلية إذا اتحد عرض البلدين جهة وقـدرا : أى جهة الجنوب والشمال ، وقدرا بأن يكون قدر البعدين عن خـط الاستواء سواء » اه

ومعلوم أن طرابلس غربى مصر ، وهما على خط عرض واحد تقريبا ، فان خط عرض ٣٠ يخترق الاقليمين معا : مصر وطرابلس ، وهما جميعا فى نصف الكرة الشمالى ، فمتى رئى فى مصر رئى فى طرابلس قطعا ، فاذا لم يروه فاما لعارض أو لتقصير منهم، فيجب عليهم الصوم بصوم مصر.

وحديث كريب عن ابن عباس يمكن تخريجه على ذلك : فان الشام غربى المدينـة فيتاخر غروب الشمس فى الشام عن غروبها فى المدينـة ، فمدة التأخر تصلح سببا كافيا لاتساع الخط المنير من القمر فتسهل رؤيته فى الشام حيث لا تسهل رؤيته فى المدينة . فلا غرو أن يصوم معاوية بالشام ويصوم الناس معـه حيث رأوا الهلال ، ولا يصوم أهـل الحجاز لاختلاف مطلعهم عن مطلعهم ، لأنهم شرقيون بالنسبة اليهم .

والحاصل : أنه إذا صامت مصر لرؤية الهـلال لزم الصوم كل البلاد التى تكون غربيها ، ما لم تكن فى الشمال كثيرا ، والزمن شتاء ، فربما تاخر غروب الشمس فى مصر عن غروبها فى البلاد الغربية منها ، فيوجد وقت بين الغروبين يمكن مصر من رؤية الهلال ، إذ يكون قد نما ولا يكون أهل البلد الغربية متمكنين من رؤيته لتقدم غروبهم .

وأما البلاد التى شرقى مصر كالعراق والحجاز فلا يلزم من رؤية مصر للهلال رؤيتهم له ، فلا يلزمهم الصوم بصوم مصر .

هذا كله فى ثبوت الشهر أى تحققه . أما فى إثباته والعلم به فقد نصوا على أن الأمارات المعتادة كتعليق القناديل فى المنائر ، وكالتصايح بين القرى ليعلم بعضهم بعضا ، إذا كان مثله لا يحصل إلا فى رمضان ، كافية فى العلم ولزوم الصوم متى غلب على الظن صدقه . ومثل ذلك ضرب المدافع والاشارات البرقية وإذاعة المذياع « الراديو » ، كل هـذا مما يحصل به غلبة الظن المؤكد ، ولا سيما عند صدوره من جهة حكومية فانه حينئذ لا يبقى عـذر فى التردد ، ويقوى الظن حتى يصير بمنزلة اليقين . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

ابراهيم الجبالى
عضو جماعة كبار العلماء

اللغة العربية بين القوة والضعف

– ٧ –

دعائم الاصلاح

كلية الآداب ودراسة اللغة العربية :

من الحق علينا ونحن بصدد الحديث عن اللغة العربية ، ودعائم إصلاحها فى دائرة البرامج الدراسية ، أن نتناول بالنظر منهج الدراسة فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، فانه المعهد الثالث الذى يستنفد من مجهود الأمة ومالها وشباب أبنائها قسطا كبيرا فى دراسة الثقافة العربية التى يجب توحيد برامجها الدراسية فى جميع معاهدها تحقيقا للاصلاح المنشود .

وقد وفينا فى المقالات السابقة حق الكلام على التقارب الدراسى والوحدة فى المناهج بين الأزهر ودار العلوم ، وهما المعهدان القوميان اللذان قاما على حماية اللغة العربية منذ نشأتهما ، ودراسة فنونها دراسة علمية جعلت منهما قوة عاصمة أمام المفتونين بلىّ ألسنتهم بلغة الغرب وآدابه وثقافاته ، فتنة لا نرى لها منشأ غير الخضوع للقانون الاجتماعى الذى يقرره ابن خلدون فى مقدمته ، وهو : « إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » ، وهذا — فيما يظهر — مخرج ما نرى من مظاهر الاضطراب الثقافى فى الشرق العربى ، فليست لنا فى بيئاتنا العلمية وحدة ثقافية ندور فى تربيتنا على محورها ، وليست لنا شخصية قومية نعتز بها فتعصمنا فى لغتنا وآدابنا وأخلاقنا من التدهدى الى هوة التقليد المهين .

إن التاريخ القريب يحدثنا أن أسلافنا الأماجيد أخذوا أيام عزهم وسلطان دولتهم ثقافة يونان وفارس والهند والرومان وغيرهم من الأمم ذات الماضى العلمى ، ونقلوها الى لغتهم تقديرا للعلم ، وتعظيما للمعارف ، وإكبارا للفكر الانسانى وآثاره فى الحياة حتى كان لهم الفضل الأول على النهضات الأوربية المستحدثة بشهادة كبار المؤرخين والعلماء ، فلم يصابوا بما أصيبت به أمم الشرق العربى فى هذا العصر من الاستهانة بالقومية العلمية وعدم الاعتداد بالنفس ، بل أصاروا ذلك الى لغتهم فهضمته ، والى عقولهم فمحصته ، وأبت عليهم أنفسهم النبيلة أن يتأرجحوا بين الأمم فى عاداتها وأخلاقها ونحلها ، فكانوا أئمة الهداية وقادة الفكر ، والناس لهم تبع ؛ وما كان لهم ذلك إلا لشدة إيمانهم بقوميتهم ، واعتدادهم بشخصيتهم ، واعتزازهم بسلطانهم .

إن الأزهر ظل منذ تسلم من بغداد تراث الاسلام والعرب المعهدَ الفذ القائم بشأن الثقافة الاسلامية واللغة العربية وآدابها وفنونها فى الحدود التى رسمناها ، وقامت الى جانبه منذ أكثر من نصف قرن مدرسة دار العلوم تتعاون معه على إنهاض الثقافة العربية ، ومن ثم كان المصلحون منذ فجر النهضة يرون فيهما دريئة تدفع عن الأمة شر الاندفاع فى تيار الاستعجام اللغوى الذى سرى فى ألسنة الشباب المتعلم حتى أشفق منه الغير على الكرامة القومية والتراث الأدبى ، ومستقبل الأمة الثقافى ، لأن هذه الروح التقليدية لم يقف أثرها مع الحياة العامة ، بل انبثت فى مرافق الحياة الخاصة ، وسيطرت على بيئات الثقافة ومعاهد العلم ، وطبعتها بطابع أجنبى لم يترك للطلبة مندوحة عن هذه النشأة الغربية فى جميع مظاهرها ، وهذا بلا ريب من أخطر الأمور فى حياة الأمة .

لسنا ممن يتعصب فيزعم أن الشرق فى غنية وكفاف عن الغرب وعلومه ومعارفه ومذاهبه فى الحياة وكشوفه واختراعاته ، وبحوثه ودراساته وصناعاته ، فان العلم لا وطن له ، وهو حق الفكر الانسانى أينما حل وحيثما كان ، والحياة دائمة التدافع والتجاذب فى الأفكار والآراء ، وقد كان العلم شرقيا أحقابا طوالا فلم يحجم الغرب أن يأخذ بزمامه الى ساحات معاهده ، فأفاد منه وجدد على أساسه الحضارة العالمية ، ووجّه التاريخ وجهة تلائم طبيعته المادية واستعداده الطبيعى فى أفكاره ونحله ، وقعد الشرق دون هذه الغاية ، فلم يأبه لأطوار الحياة ، ولبث فى سفح التاريخ ينظر الى الماضى نظر الاعجاب والاعظام ، ولم يوقظه من غفلة جهالاته إلا زئير الغرب بقواه المادية وزمجرة الاستعمار النهم ، فالتفت مذعورا ، وإذا الماضى المعجب لا يعود ، وإذا الحاضر لا يملك من أمره شيئا ، وإذا المستقبل فى ظلام الغيب مستور ، وهذه اليقظة أشبه بيقظة المريض أفاق من غشيته فراح يتلمس لنفسه أسباب النجاة والعافية ، فكان لا بد له من تعرف مناشىء تقدم الغرب ونهوضه بعد الذى عهد من ركوده وجموده ، فرأى سطورا كان قد قرأها فى كتاب ماضيه من قبل ، ورأى الفكر الانسانى يقود الغرب فى حياته ، وكان بالأمس يقود هذا الشرق المبتئس ، ورأى العلم يمرح فى حرية البحث والتحقيق طليقا إلا من قيود الحجة والمنطق ، وقديما ما كان يمرح فى معاهد الشرق ومدارسه أيام ازدهار بغداد وقرطبة والقاهرة بحرية أجل وأعظم ، ورأى أن الغرب يفكر فيعمل ، وهذا فيْصل ما بين الشرق القديم والغرب الجديد ، فقد كان الشرق عالما مفكرا ، ولكنه كان فى علمه وتفكيره نظريا ، فكم من نظرية فتق الغرب أكمامها واجتنى ثمرتها كان الشرق بها عليما ! وكم من رأى كشف الغرب به عن وجه الطبيعة فحقق به كشفا أو أقام على أساسه مصنعا ، أو أخرج به مخترعا كان الشرق به خبيرا ! لكن الشرق لم يحقق فى ماضيه ما حققه الغرب فى حاضره .

عرف الشرق أن لا سبيل الى إنهاضه من عثرته إلا بعودته الى سيرته عن طريق الغرب وعلومه ومذاهبه ودراسته ، ليستقى من منابعه ويحيا كحياته حياة علمية تقوم على حرية الفكر

والبحث فى مخابئ الطبيعة وأسرار الوجود ، ومن هنا كانت الضرورة قاضية بانشاء نظام جامعى للتعليم المدنى العالى على غرار نظام الجامعات الأوربية ، له خصائصه وميزاته فى الحرية الفكرية والبحث العملى ، والدراسات النفسية ، وكانت « الجامعة المصرية » القديمة قد ضمت بين جنباتها جماعة من ذوى النفوس الطامحة ممن درسوا فى الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، يدرسون الأدب العربى وتاريخه وفنونه بطرائق المستشرقين التى مرنوا عليها فى بيئاتهم وجامعاتهم الغربية دون نظر الى فوارق الطبيعة والبيئة ومناحى التفكير ، حتى إذا أريد تحقيق الفكرة الجامعية بمعناها الواسع جعل من ذلك المعهد « الأهلى » نواة لكلية الآداب بالجامعة المصرية الحديثة ، وقسمت الى أقسام أدبية ، كان فى مقدمتها قسم لدراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها ، وهذا القسم هو الذى نقصده بالبحث هنا ، لأنه يدرس فنونا من العلم قامت لدراستها معاهد منذ عشرات السنين ، بل منذ مئاتها ، فهل كانت هناك حاجة تدعو الى إنشاء هذا القسم ضمن نظام الجامعة ؟ وهل الدراسة الجامعية على طرز الجامعات الأوربية تفيد كثيرا فى دراسة فنون هذا القسم العربى ؟ وهل الحاجة لا تزال مستمرة تقتضى الأمة بقاء هذا القسم على حاله وبذل قسط كبير من مجهود التعليم وأمواله عليه ، أو أن المصلحة القومية تتطلب كثيرا من الاخلاص وتمزيق ثوب العصبية المعهدية والمناداة جهرة بتوحيد معاهد اللغة العربية تحت إدارة واحدة ونظام واحد يكفل للأمة وحدة الثقافة التى تعد شباب اليوم وأساتيذ المستقبل ؟

للاجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نعرف شيئا عن منهج الدراسة فى هذا القسم لنتبين : هل هناك فوارق جوهرية بينه وبين مناهج الدراسة فى معهدى اللغة العربية الأصيلين : « الأزهر ، ودار العلوم » تبرر وجوده الى جانبهما مستقلا عنهما ؟

يؤلف هذا القسم كما تؤلف كلية اللغة العربية ، وكما كانت تؤلف دار العلوم ، من أربع فرق ، يدرس فيها الطالب من علوم اللغة العربية : النحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب مادة وتاريخا ، ويدرس معها علمى الحديث والتفسير من جهة اللغة والأدب والتاريخ ، ويدرس شيئا من أصول الفقه ، ويلم بتاريخ الفلسفة وبعض نظرياتها ، والتاريخ الاسلامى العام ، ويدرس لغة من لغتين شرقيتين « الفارسية أو العبرية » وأخرى من ثلاث غربية « الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية » .

هذا مجمل للفنون التى تدرس بهذا القسم يوشك أن يكون مستوعبا لمواد المنهج الأساسية ، فلم يفته شىء له خطر مما يدرس فيه ، وهو فى توزيعه على الفرق الأربع وكتبه التى يدرس منها أو التى يكون عليها اعتماده غير مستقر فى مجموعه وجملته على حال ، بل هو خاضع للطوارئ تغير فيه وتبدل ، كما أن منشأ تكوين هذا القسم ومنابعه التى تمده بطلابه لا ترتكز على أساس

ثابت أو قانون يحتم على طلبته أن يكونوا قد أتموا دراستهم الابتدائية والثانوية فى معهد خاص تميز بنوع من الثقافة التى تعد الطالب لحياة التخصص فى اللغة العربية وفنونها وآدابها ، وأكثر ما كانت عناصره من طلبة المدارس الحكومية الذين أكملوا القسم الثانوى (بكالوريا) ، وهؤلاء إنما درسوا من النحو بعض أبوابه ، ومن الصرف قليلا من فصوله ، ومن البلاغة مسائل منها ، ومن الأدب أبياتا من الشعر المنتخب ، وكلمات من النثر المتخير ، ومن التاريخ الاسلامى والقرآن والحديث نتفا ، نعم ودرسوا لغة غربية ، وعلوما أخرى لا تمت الى فنون العربية بصلة أكثر مما تمت به الى فن من فنون العلم عامة ، ولقد شهدت تقارير مفتشى الوزارة بقيمة تكوينهم فى اللغة العربية وفنونها ، وكشفت الامتحانات عن ضعف نبه الرجال الرسميين الى ضرورة تدارك الاصلاح بما يرفع مستوى الطلبة وينهض باللغة .

إن هذا التكوين الثقافى المحدود بالحدود الضيقة فى منهج اللغة العربية لمدارس الحكومة لايستطيع إعداد الطالب لتلقى ثقافة عالية فى اللغة العربية وآدابها وفنونها ، لأن هذا الطالب ، فوق ضيق منهج اللغة العربية وضآلته عنده ، مرهق أشد الارهاق بكثرة المواد العلمية الأخرى التى تستوعب وقته ومجهوده ، فهو مضطر بحكم نظامه التعليمى ومناهجه أن يقف من اللغة العربية ذلك الموقف الذى كشفته الامتحانات وضاق به المفتشون ومن ورائهم الوزارة ودوائر التعليم ، فكيف صح لكلية الآداب ذات الطرز الجامعى فى دراساتها ومناهجها أن تجعل قسمها العربى يعتمد على هؤلاء الطلاب ؟! والجامعية فى عرف المولهين بها مرحلة الدراسة العالية ، ليس فوقها من مراحل التعليم الرسمى مرحلة ، وليس وراءها زيادة لمستزيد ، تتجلى فيها حرية الفكر والتعمق فى البحث ، والانطلاق من قيود القواعد والأوضاع المألوفة لغير الجامعيين ، فهى بهذا التقدير ينبغى أن يكون طلابها قد درسوا الفنون التى يبغون التخصص فيها دراسة تحيط بأصولها وفروعها ، ليتمكنوا فى نظامهم الجامعى من البحث والتحقيق ، والنقد والتدقيق ، ومعرفة ما لتلك الأصول من قيمة علمية ، ومقدار ما لأسلوبها من ملاءمة للروح العصرية ، وما تحتاج اليه من تجديد وابتكار ، فهل لقسم اللغة العربية بكلية الآداب منهج دراسى يتفق مع هذا الروح الجامعى ، ويساير اعتباره العلمى ؟ وهل فى مكنة حاملى شهادة الدراسة الثانوية لمدارس الحكومة أن يجروا فى شوط النظام الجامعى بالقسم العربى لكلية الآداب ؟

إن الجواب عن السؤال الأول يقتضينا نظرة إجمالية فى المنهج الدراسى لذلك القسم وتوزيعه على الفرق الأربع التى يتألف منها .

الفرقة الأولى :

١ — تدرس فى النحو كتاب « شذور الذهب » لجمال الدين بن هشام ، وهو كتاب

ـ على صغره ـ قيّم جدا فى موضوعه ، تدرسه الجامعة الأزهرية لطلاب الفرقة الرابعة من القسم الابتدائى فى جميع معاهدها ، فكيف ساغ لكلية الآداب أن تدرس فى نظامها الجامعى « الأعلى » كتابا يدرسه المبتدئون من طلبة الأزهر ؟ وهل ترى كلية الآداب أن فى ذلك مسايرة للاعتبار العلمى للروح الجامعى ؟ !

٢ — تدرس فى البلاغة كتاب « المثل السائر » لضياء الدين بن الأثير الموصلى ، وهذا الكتاب من أجود كتب البلاغة التطبيقية ، يجب لفهمه أن تسبقه دراسة كتب قواعد البلاغة دراسة شافية وافية ، وأن يسبقه التضلع فى الأدب العربى رواية ودراية وتاريخا .

٣ — تدرس فى تاريخ الأدب محاضرات على ضوء كتاب « فى الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين عميد الكلية ، وهذا توجيه لدراسة الأدب محقق لكثير من النهوض الأدبى إذا كان الطلبة فى مستوٍ من التحصيل العلمى يقدرون معه على النقد تزييفا وقبولا .

٤ — تدرس فى نصوص الأدب مختارات من كتاب « الأمالى » لأبى علىّ القالى ، وهو كتاب يحتاج دارسه الى التمهر فى معرفة قواعد اللغة وفقهها ، والى الحذق فى دراية مذاهب النحاة ، والى التمرس فى تاريخ الأدب ونقده ، ومعرفة صحيحه من منحوله .

الفرقة الثانية :

١ — تدرس فى النحو قسما من ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل ، وكتاب « إحياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى أحد أساتيذ الكلية ؛ فأما شرح ابن عقيل ، فكتاب معروف لدى الأزهر من زمن بعيد ، وهو الآن يدرس للفرق الأولى من القسم الثانوى فى جميع المعاهد الأزهرية ؛ وأما كتاب « إحياء النحو » فهو كتاب جديد وضعه وفهمه للنحو العربى ونظرياته ، وسنعالجه بالبحث فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

٢ — تدرس فى تاريخ الأدب محاضرات فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام ، وكتاب « فى الأدب الجاهلى » والكتب التى تنقده ، والتعويل فى ذلك على كتابى الأستاذين الخضرى والغمراوى .

٣ — تدرس فى نصوص الأدب المعلقات جميعها ، ولا يخفى ما يقتضيه فهم المعلقات من الالمام بفنون البلاغة ، وقواعد اللغة ، وتاريخ الأدب العربى فى عصر المعلقات ، ومعرفة جغرافية الجزيرة العربية قديما ، وتاريخ القبائل فى حربها وسلمها ، ومن وراء ذلك ملكة النقد الأدبى وسلامة الذوق .

٤ — تدرس فنى العروض والقافية مع مقدمة تبين نشأة الأوزان الشعرية ، مع دراسة ماجدّ من الأوزان فى الأندلس ، وبيان علاقة الموسيقى والرقص بالشعر ، وهذه ناحية قد

توجه النظر الى ما يتخيل فيها من طرافة وجدة فى مناهج الفنون العربية ، وهى ليست هناك ، فان القدامى من علماء العربية عرفوا وعرف عنهم الأزهر ودار العلوم أن بين الشعر والايقاع « الموسيقى » نسبا قويا ، ففى « المزهر » للسيوطى « أن أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الايقاع ، إلا أن صناعة الايقاع تقسم الزمان بالنغم ، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة ، فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الايقاع ، والايقاع ضرب من الملاهى ، لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم » بل عرف العرب وشعراؤهم الأقدمون وعرف الأزهر ودار العلوم : أن الغناء صير فى الشعر وصيقله ، فقد حدثنا النقاد أن النابغة الذبيانى كان يقوى (١) فى شعره فلما قدم المدينة — وأهل الحضر ألطف حسا من أهل البدو — عيب عليه ، فلم يأبه له حتى أسمعه القيان غناء فى قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتد   عجلان ذا زاد وغير مزودِ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

وقوله من هذه القصيدة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كان بنانه ...   عنم يكاد من اللطافة يعقدُ

فانتبه اليه ولم يعد ، ولذا كان يقول : دخلت يثرب وفى شعرى شىء وخرجت وأنا أشعر الناس . ولم يفت فحول الشعراء أن يسجلوا هذه الظاهرة فقال حسان بن ثابت :

تغن فى كل شعر أنت قائله   إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وعرف الأدباء وعرف العرب من قبلهم أن بين الشعر و « الرقص » نسبا لا يخف عن النسب الذى بين الشعر والايقاع « الموسيقى » ، ففى أول مرحلة لدراسة الشعر يعرف صغار الطلبة أن من أنواع الشعر العربى نوعا يسمى الرجز ، وإنما أخذ اسمه من رجز الناقة فى مشيتها وهو أن تتحرك وتسكن ، ثم تتحرك وتسكن ، ومنه قيل لخبب البعير : رقص ، قال حسان ابن ثابت :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها   رقص القلوص براكب مستعجل

فهل بعد ذلك تبقى لدعوى التجديد فى هذا المقام ساق تقف عليها ؟ !

(١) قال المرزبانى فى الموشح : والاقواء : اختلاف المجرى ، والمجرى اختلاف حركة الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، وخصصه برفع بيت وجر آخر ، وعلل ذلك بقوله : ولا يكون النصب مع الجر ولا مع الرفع ، وإنما يجتمع الرفع والجر لقرب كل واحد منهما من صاحبه ، ولان الواو تدغم فى الياء وأنهما يجوزان فى الردف فى قصيدة واحدة .

الفرقة الثالثة :

١ — تدرس فى علم الصرف كتاب « شـذا العرف » للحملاوى ، وما يقابل موضوعه من ألفية ابن مالك . فأما « شذا العرف » فتدرسه دار العلوم فى سنيها الأولى ؛ وأما صرف الألفية فيدرسه الأزهر فى أقسامه الثانوية .

٢ — تدرس فى تاريخ الأدب مذكرات من وضع الأساتيذ فى العصر الأموى ، وهو عصر انقلاب وثورة دامية اعتمدت على تأريث نيران العصبية القبلية ، وفيه نشأت الأحزاب الدينية والسياسية التى كان لها أكبر أثر فى توجيه الأدب وموضوعيته ، فلابد لدارس هـذا العصر من الاحاطة بكثير من ذلك .

٣ — تدرس فى النصوص الأدبيـة تحت عنوان « أدب » مختارات من نقائض جرير والفرزدق ، ومنتخبات من شعر الأخطل على حذو النقائض ، وقصائد للراعى ، ولذى الرمة ، وللقطامى . وظاهر أن فهم هذه القصائد يحتاج الى تبحر فى اللغة ، ودراسة واسعة للتاريخ والبيئة ، وبعد ذلك تدرس تحت عنوان « كتاب قـديم » « المفضليات » وهو كتاب مكتنز بالشعر العربى القديم الذى يتطلب فهمه استعدادا واسعا فى اللغة وغريبها وقواعدها وتاريخها .

٤ — تدرس فى البلاغة علم المعانى من كتاب « الايضاح » للقزوينى ، وهو من أعلى كتب القواعد فى البلاغة ، غير أنه ينتحى ناحية الايجاز المكتنز بالمعانى فى كثير من مواضعه مما لا يقـوى على فهمه إلا من تمرس على شروح التلخيص وحواشيه ، وعرف مذهب السكاكى وأسلوب مفتاحه ، وفهم عبدالقاهر ، ومرن على إشاراته ومقاصده فى كتابيه « أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز » ، ومع كتاب الايضاح تدرس مقـدمة نفيسة للبلاغة يمليها أستاذ الفن على طلبته ، وبين يدىّ صورة منها ، فاذا هى تبدأ بسؤال عن سبب هذه الحياة ، واستعراض حال الانسان فى الزمن الأول ، وتفكيره القاصر فى فهم الحياة ، وإجابة الدين عن هذا السؤال ورضاء الانسان بهذا الجواب العاطفى حتى تطور فى قوته الفكرية وأصبح لا يؤمن إلا بالحسيات ؛ ثم يتـولى علماء النشوء وعلماء الاجتماع وعلماء الآثار الاجابة عن ذلك السؤال ، وإذا بهذا البحث ينتهى والمشـكلة باقية ، ولم نعلم سبب هذه الحياة ، ولا لماذا نحيا ؟ ! ثم إذا بسؤال آخر يثب وثبا دون وصلة ممهدة : لماذا نتعلم ؟ وماذا نتعلم ؟ وبعـد أجوبة عن هـذين السؤالين تدور فى مجالات أشـبه بالمجالات السابقة فى بعدها عن حقيقة البلاغة يبدأ الكلام على تعريف البلاغة عند العرب وعند أرسـطو ، ويقفى على ذلك بنقد البلاغة العربية ، وأنها ناقصة ، وأن العرب لما ترجموا البلاغة اليونانية لم يفهموها بل شـوهوها ، بل هم لم يفهموا تعريفهم الذى وضعوه للبلاغة ، لأنه مبنى على قوانين علم النفس وتحليلها ، وهنا تعرض آراء علماء النفس فى الانسان وتركيبه وملـكاته وغرائزه ، ثم البحث عن البلاغة : هل هى علم أو فن ؟

مع بيان للفنون حتى الفنون المعمارية والهندسية ، وعلى هـذا النحو يدرس الطالب مقدمة للبلاغة تقع فى قرابة مائة صفحة .

ومن المعدلة أن نعترف بأن هذا نوع من الدراسة البلاغية جديد تفردت به كلية الآداب ، لـكننا عاجزون عن فهم صلة هذه البحوث بفن البلاغة العربية ، وقد كنت فى دروسى أغمز بعض كتب أئمة البلاغة من المتأخرين لاستطرادهم الى مباحث فلسفية ومشاكل لفظية قـد تستدعيها بعض المباحث البلاغية ، ويظهر أنى كنت بعيدا عن فهم الدراسات العالية للبلاغة ومقدماتها النفسية على النهج الجامعى فى كلية الآداب ، فهل أستطيع اليوم أن أصحح فهمى للبلاغة وأستغفر غميزتى لأئمتها الأعلام ؟ ليت ولعل !!

الفرقة الرابعة :

١ — تدرس النحو جميعه عرضا على طريقة كتاب « إحياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى ، وأحب أن أشير هنا الى شيء واحد ، وهو أن هذا الـكتاب ـ الذى حذف وقدم وأخّر وغير فى القواعد ، وبدل ودمج بعض أبواب فى أبواب أخرى ، واستغنى بشيء عن أشياء ـ تدرسه هذه الفرقة النهائية فيما تعبر به العام الدراسى من زمن الدراسة ، وهو بلا ريب أقل من لا شيء بالنظر لمن يريد من « الطلبة » فهم نظرية الـكتاب ومذهبه فى النحو العربى ، لأنه لا يستقيم لطالب أن يفهم كتاب « إحياء النحو » إلا إذا كان قد أمعن النظر فى جميع أبواب النحو ، وحقق مذاهب النحويين ، وارتقى الى فلسفة النحو وعلله ، وأدرك مقاصد واضعيها ، ليستطيع بعد ذلك أن يميّـل بين ما يعرض عليه من الآراء والمذاهب ويتمكن من نقدها .

٢ — تدرس فى الصرف قسما من الألفية بشرح الأشمونى مع نظرات تطبيقية من كتاب « شذا العرف » وهما كتابان مقروءان فى الأزهر ودار العلوم .

٣ — تدرس فى البلاغة كتاب « الإيضاح » للقزوينى عرضا وتطبيقا ، وقـد أسلفنا الحديث عن قيمة هذا الـكتاب العلمية وممهدات فهمه وتحقيقه .

٤ — تدرس فى تاريخ الأدب العصر العباسى فى تراجم مفصلة : لبشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، والبحترى ، وهم أشهر شعراء العصر العباسى ، تداولت الأفـكار والأقلام فى معاهد الأدب وصحافته تراجمهم بالبحث والتحرير .

٥ — تدرس فى النصوص الأدبية قصائد من شعر أبى تمام والبحترى وابن الرومى ، ومختارات من كلام بديع الزمان . والـكلام فيما تمس اليـه حاجة فهم النصوص الأدبية شعرا ونثرا قد سبق .

هذه هى فنون اللغة العربية الصميمة التى اشتمل عليها منهج الدراسة للقسم العربى بكلية الآداب ، وهذه هى كتبها وطريقة دراستها بذلنا جهدنا فى أن نقارب الواقع فى وصفها والحديث عنها ، فاذا هى لا تخرج عن فنون تدرس فى الأزهر ودار العلوم ، بيد أنها تدرس فى الأزهر دراسة استيعاب وتحقيق متدرجة بالكتب الدراسية تدرج الطالب واستعداده العلمى ، وقد أريناك أن بعض الكتب التى يدرسها قسم كلية الآداب يدرسها القسم الابتدائى للازهر ، وبعضها يدرسها القسم الثانوى ، والفرق الأولى لمدرسة دار العلوم ، واذا كانت هناك فنون وكتب يدرسها قسم كلية الآداب لا تدرس إلا فى كلية اللغة العربية والفرق النهائية لدار العلوم فان هناك فرقا كبيرا بين طالب كلية الآداب (الذى انتقل اليها طفرة بعد نهاية المرحلة الثانوية فى مدارس الحكومة ، وقد عرفنا وعرفت الرسميات مقدار استعداده فى اللغة العربية وفنونها) وبين طالب كلية اللغة العربية ودار العلوم الذى سار اليها بعد تكملة دراسة القسم الثانوى للجامعة الأزهرية ، فيكون قد درس جميع الفنون العربية فى كتب واسعة محيطة بموضوعاتها ، وهذا الذى لاحظناه فى تعليقاتنا السابقة على منهج قسم كلية الآداب قصدا الى أن نبين أن المنهج فى ذاته ثرى جد الثراء بفنونه وكتبه ولكنه يفقد كثيرا من التلاؤم بينه وبين طبيعة الاستعداد العلمى للطالب الذى يدرسه .

وهنا ينساق بنا الحديث الى جواب السؤال الثانى ، وقد تولت الاجابة عنه كلية الآداب نفسها بفتح أبوابها لطلبة القسم الثانوى للازهر ، فقد أدركت أن الدراسة العالية التى وضعت لها هذا المنهج فى حاجة الى طلاب مرنوا على البحث والتفقه فى دراسة اللغة العربية وقرءوا من كتبها ما يصلح أن يكون دعامة قوية لفهم هذا المنهج . وأنا لا أنكر أن كثيرا من طلبة كلية الآداب الذين أكملوا دراستهم الثانوية فى المدارس الحكومية لهم نبوغ ذهنى واستعداد أدبى وعكوف على الدراسة والبحث مما جعلهم فى مصاف الأدباء الكتاب والشعراء ، ولكن هؤلاء على قلتهم لا يغنيهم ذكاؤهم ونبوغهم عن البحث والدراسة فى تدرج البرامج الموضوعة إذا أرادوا ثقافة عربية جامعية .

هناك فنون تدرسها كلية الآداب لقسمها العربى مضافة الى تلك الفنون لم أجد داعيا لذكرها لأنها لم تكن هى المقصودة بالدراسة فى هذا القسم ، ولا لأجلها أنشئ ، وإنما تدرس هناك كما تدرس فى أى معهد من معاهد اللغة العربية سوى اللغات الأجنبية ، وقد أدخلها النظام الجديد فى منهاج كلية اللغة العربية ومدرسة دار العلوم .

أما بعد : فهل بقيت شبهة يحتج بها الذين يناهضون توحيد معاهد الثقافة العربية تحت إدارة واحدة ونظام واحد بعد الذى بيناه من وحدة البرامج الدراسية فى المعاهد الثلاثة العليا ووفور جميع مقتضيات النهوض فى كلية اللغة العربية فى ظل أعظم جامعة إسلامية فى العالم ؟ !

إننا نكرر أن كل إصلاح لا يقوم على دعامة هذا التوحيد لا يغير من الأمر شيئا ، ولا يفيد فى إنهاض اللغة العربية فتيلا .

ونختم هذا البحث بالكلمة القيمة التى جاءت فى تقرير الاستاذ الجليل محمد بك العشماوى وكيل وزارة « التربية والتعليم » فانه حامل لواء النهضة لتوحيد الثقافة العربية ، قال : « ويلاحظ أن فى مصر حالة شاقة ، وهى تعدد المعاهد التى تخرج معلم اللغة العربية ، ولا يخفى ما فى ذلك من ضرر حيث تتنوع الثقافة وطريقة الاعداد وتكثير الثقافات ، ومن الخير أن توحد هذه المعاهد وأن يسودها جو التجديد ، وأن تتجه لغاية واحدة ، ولكن يخيل الىّ أن هذا الأمل لا يزال بعيد التحقيق نظرا للظروف التى تكتنف هذه المعاهد ، وكانت سببا فى وجودها فى هذا الموضع الشاذ ... لذلك كان على الوزارة أن تفكر فى علاج يحقق أغراضها فى حسن إعداد معلم اللغة العربية لحين ما تتهيأ الفرصة لإصلاح أبعد مدى وأوسع نطاقا » .

صادق ابراهيم عرجون

من ارتج عليه وهو يخطب

كان أسلافنا من الأمراء والعلماء لا يكتبون الكلام ثم يقرأونه على الناس كما يفعل أخلافهم اليوم ، فان هذا لا يعتبر خطبا ولكن تعتبر تلاوة بهذا السبب حفظ على أسلافنا من فرسان الخطابة أنهم قد ارتج عليهم باب الكلام بعد صعودهم الى المنبر فاعتذروا للحاضرين ونزلوا .

منهم عثمان رضى الله عنه صعد المنبر ليخطب فارتج عليه فقال : « سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عى بيانا ، وأنتم الى أمير فعال ، أحوج منكم الى أمير قوال » ثم نزل .

وإنى أرى ولعل كل قارئ يرى معى أن هذه العبارة على ايجازها تساوى خطبة على طولها .

وصعد عبد الله بن عامر والى البصرة يوم عيد الأضحى ليخطب خطبة العيد فحصر ولم يستطع الكلام فقال : لا أجمع عليكم عيا وبخلا ، أدخلوا سوق الغنم فمن أخذ شاة فهى له وعلى ثمنها .

وأراد ثابت مولى يزيد بن المهلب أن يخطب فارتج عليه فنزل وهو يقول :

فإلا أكن فيكم خطيبا فاننى ... بسيفى إذا جد الوغى لخطيب

فبلغ ذلك المهلب فقال : لو قال هذا وهو على المنبر لكان من أخطب الناس .

أصول التشريع

— ٤ —

بحث فى الاجتهاد والاجماع

(١) لماذا كان الاجتهاد فى هذا العصر أيسر منه فى الماضى ؟ (٢) ما أهم الكتب التى تكون المجتهدين ؟ (٣) مدرسة الاجتهاد والعلوم التى تدرس فيها ويستفاد منها منصب الاجتهاد . (٤) ما مناط الاجتهاد ؟ (٥) اقتراح بانشاء قسم فى الأزهر للتخصص فى علوم الاجتهاد .

١ — لماذا كان الاجتهاد الآن أيسر منه فى الماضى :

لا ريب فى أن الاجتهاد فى هذا العصر أيسر وأسهل منه فى العصور الخالية ، ومن أهم الأسباب فى ذلك : ظهور المطابع ، ووجود الورق ، وطبع الكتب فى العلوم المختلفة ، وسهولة الحصول عليها مع رخص ثمنها بعد أن كانت صعبة المنال لا يمكن لغنىّ أن يحوزها فضلا عن الفقير ، إلا بشقّ الأنفس وإنفاق المال الكثير ، ولا أدل على ذلك مما ذكره الامام ابن عبد السلام فى شرح ابن الحاجب قال : مواد الاجتهاد فى زمننا أيسر منها فى زمن المتقدمين . فاذا كان الاجتهاد فى زمن ابن عبد السلام - وقد توفى سنة ٧٤٩ - أيسر منه فى الأزمان التى قبله ، فهو فى هذا الزمان أيسر أضعافا مضاعفة .

وقال الامام ابن عرفة : ما أشار اليه ابن عبد السلام من تيسير الاجتهاد هو ما سمعته يحكيه عن بعض الشيوخ : أن قراءة مثل الجزولية ، والمعالم الفقهية ، والاطلاع على أحاديث الأحكام الكبرى لعبد الحق ، ونحو ذلك ، يكفى فى تحصيل الاجتهاد . وقال ابن عرفة أيضا : يريد مع يسر الاطلاع على فهم مشكل اللغة بمختصر العين ، والصحاح للجوهرى ، ونحو ذلك من كتب غريب الحديث ، ولا سيما مع نظر كلام ابن القطان وتحقيقه أحاديث الأحكام . وبلوغ درجة الامامة ، أو ما قاربها فى العلوم المذكورة غير مشترط فى الاجتهاد إجماعا اهـ . وابن عرفة انتهت اليه رياسة المذهب المالكى بافريقية ، وهو تلميذ ابن عبد السلام . وتوفى سنة ٨٠٣

وقال الأبى فى شرح مسلم : كان ابن عبد السلام يحكى أن من الشيوخ من كان يصعّب الاجتهاد ، ومنهم من كان يسهله ، والى التسهيل كان يذهب الشيخ ابن عرفة ، ويرىٰ أنه يكفى فى مادته النحوية مثل : الجزولية ، والأصولية : متن ابن التلمسانى . قال : وأما الحديث فهو

اليوم سهل ، لأنه قد فرغ من تمييز صحيحه من سقيمه ، فاذا نزلت به مسألة أم الولد مثلا فيكفيه أن يجمع من المصنفات : الأحكام الكبرى لعبد الحق ، وينظر ما فيها ، ويكفيه فيه تصحيح مؤلفه ، ولا يلزمه نظر ثان فى سنده ، ولا يكون مقلدا فى ذلك .

قالوا : ويكتفى فى معرفة الاجماع بالنظر فى كتب الاجماع الموضوعة فيه : كاجماع ابن القطان . وكان الشيخ يقول : إذا أحضر هذه المصنفات للنظر فى النازلة فانه يجتمع لديه من الأحاديث فيها مالا يكاد يحضر مالكا ، قال : وأنسب من رأيته على هذه الصفة ـ يعنى فى المشاركة فى هذه المواد ـ ابن عبد السلام وابن هارون اه .

وممن كان يصعب الاجتهاد ، الإمامان : الشافعى ، واحمد بن حنبل ، ونحا نحوهما الشيخ الإمام على السبكى ، وذلك كله مقابل للمشهور الذى صدر به فى جمع الجوامع . انتهى من الفكر السامى .

وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوى فى كتابه « الفكر السامى » السالف الذكر : إن مواد الاجتهاد اليوم فى القرن الرابع عشر أيسر مما كان فى زمن الأبى ، وابن عرفة ، ومن قبلهما ، بسبب أهل الفضل الذين اعتنوا بالمطابع ، وطبعوا الكتب المعينة على الاجتهاد . وإن ظهور الطباعة نقل العلم من طور الى طور ، وقد كان المتقدمون يعانون مشاق عظيمة فى كتب الكتب ، ويحتاجون لمادة مالية وزمن طويل ، أما بعد ظهور الطباعة فقد تيسر ما كان عسيرا ، إلا أنها وجدت الأمة فى التأخر ، والفقه فى الاضمحلال ، والهمم فى جمود ، فكأننا لم نستفد منها شيئا ، فاذا قسنا ما استفدناه منها ، ودرجة الرقى التى حصلت لفقهائنا بالنسبة لما حصل زمن المأمون العباسى من النشاط العلمى بسبب ظهور الورق ، حكمنا بأننا لم نتقدم خطوة تعتبر وتناسب ما تقدمه غيرنا من الأمم .

٢ — أهم كتب الاجتهاد :

ورغما عن ذلك فقد وجدت كتب كانت أعز من بيض الأنوق ، وانتشرت ، ولا سيما كتب الحديث ، فقد طبعوا الكتب الستة ، والموطأ ، وشروحها ، ومسند أحمد ، ومعه كنز العمال ، وهما من أجمع الكتب لما يحتاج اليه المجتهد من السنة ، وطبعوا فى الهند مستدرك الحاكم وتلخيصه للذهبى ، كما طبع مسند أبى داود الطيالسى ، وطبقات ابن سعد ، وعلل ابن أبى حاتم ، وكتب الرجال للذهبى وغيره ، ومسند الإمام الشافعى ، والأم ، ومسند أبى حنيفة ، وغيرها من كتب المتقدمين ، ثم طبع تيسير الوصول الى جامع الأصول لابن الديبع ، وهو وحده كاف ، وعمدة الأحكام وشرحها ، وغير ذلك مما يطول تعداده من كتب الحديث المعتمدة . وكفى بكتاب المشكاة للتبريزى المشتمل على ٥٩٤٥ حديثا ، وهى معظم ما يحتاجه المجتهد ، وشرحها لعلى القارى ، ففيه تحقيق أحاديث الأحكام ، ومخرجيها ، وعلل ما أعل منها .

فاذا ضممت ذلك الى تيسير الوصول السابق تجده كافيا وافيا ، وربما لم يحصل عليه مجتهدو العصر الأول إلا بعد عناء كثير ، وزمن ليس بيسير ، ولو أنه كان متيسرا لكل مجتهد لقل الخلاف . ولا يستهان بكتاب بلوغ المرام للحافظ ابن حجر العسقلانى ، وشرحه سبل السلام للصنعانى ، وناهيك بمنتقى الأخبار لابن تيمية ، وشرحه نيل الأوطار للشوكانى ، فهناك غاية وطر المجتهد ، الى غير ذلك من الكتب التى طبعت وسهل تناولها . ومن الكتب التى تعين على الاجتهاد أحكام ابن العربى فى تفسير آيات الأحكام الفقهية من القرآن العظيم ، وأحكام الجصاص الحنفى ، وتفسير الطبرى ، والنهاية لابن الأثير ، وبداية المجتهد لابن رشد ، والقاموس فى اللغة وشرحه ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، وفتح البارى على صحيح البخارى ، فهو من مواد الاجتهاد المعتبرة ، وكتاب المنتقى للباجى الذى يرشد الى طريق الاجتهاد والتعليل والقوادح . وغير ذلك ، وإعلام الموقعين لابن القيم ، فهو من أحسن مايدرب على الاجتهاد لولا ما فيه من التحامل على الحنفية والأشعرية ، وقد صرح الامام الغزالى بأن سنن أبى داود السجستانى كافية للمجتهد مغنية عن غيرها . ومن كتب هذا الشأن : كتاب التحقيق فى أحاديث التعليق لابن الجوزى الذى اشترط فيه على نفسه أن يخرج ما ذكره فقهاء المذاهب تعليقا من أحاديث الأحكام ويتكلم عليها من غير تعصب لمذهب على مذهب ، وكتاب تنقيح التحقيق فى أحاديث التعليق للحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عبد الهادى ، فإنه مفيد جدا لمن يعنى بأحاديث الأحكام ، نخص به كتاب التعليق وأبدى ما لابن الجوزى من الأوهام . انتهى

٣ — مدرسة الاجتهاد وعلومه :

وضع علماء الأصول لمدرسة الاجتهاد المنهج الذى تسير عليه ، وبينوا العلوم التى تدرس فيها لايجاد المجتهدين فقالوا : للاجتهاد ثلاثة أركان : الاجتهاد ، والمجتهد فيه ، والمجتهد .

فأما الاجتهاد : فهو بذل المجهود واستفراغ الوسع فى فعل من الأفعال ، ولايستعمل إلا فيما فيه كلفة ومشقة وجهد ، فيقال : اجتهد فى حمل حجر الرحى ، ولا يقال : اجتهد فى حمل خردلة ، لكن صار اللفظ فى عرف العلماء مخصوصا ببذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة ، واستنباط الأحكام من أدلتها . والاجتهاد التام : أن يبذل الوسع فى الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد الطلب . فاذا صدر الاجتهاد التام من أهله ، وصادف محله ، كان ما أدى اليه حقا وصوابا .

والمجتهَد فيه : كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطعى ، إذ لا مساغ للاجتهاد فى مورد النص

والمجتهد : الفقيه : وهو البالغ العاقل ، ذو الملكة التى يقتدر بها على استنباط الأحكام من مآخذها ؛ وإنما يتمكن من ذلك بشروط :

(أولها) أن يكون عالما بنصوص الكتاب والسنة ، فان قصّر فى أحدهما لم يكن مجتهدا ، ولا يجوز له الاجتهاد .

ولا يشترط معرفته جميع الكتاب ، بل ما يتعلق فيه بالأحكام ؛ قال الغزالى وابن العربى : وهو مقدار خمسمائة آية ، ودعوى الانحصار فى هذا القدر إنما هى باعتبار الظاهر ، للقطع بأن فى الكتاب العزيز من الآيات التى تستخرج منها الأحكام الشرعية أضعاف أضعاف ذلك ، بل من له فهم صحيح وتدبر كامل يستخرج الأحكام من الآيات الواردة لمجرد القصص والأمثال ، قالوا : ولعلهم قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالة أولية بالذات لا بطريق التضمن والالتزام .

وقد حكى الامام الماوردى عن بعض أهل العلم : أن اقتصار المقتصرين على العدد المذكور إنما هو لأنهم رأوا مقاتل بن سليمان أفرد آيات الأحكام فى تصنيف وجعلها خمسمائة آية ؛ وقد نازع ابن دقيق العيد فى العدد أيضا فقال : هو غير منحصر فى هذا العدد ، بل هو مختلف اختلاف الأذهان ، وما يفتحه الله على عباده من وجوه الاستنباط ، ولعلهم قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالة وافية بالذات لا بطريق التضمن والالتزام .

وقال الأستاذ أبو منصور : يشترط معرفة ما يتعلق بحكم الشرع ، ولا يشترط معرفة ما فيها من القصص والمواعظ .

وإذا كان عالما بأحكام القرآن ، فهل يشترط أن يكون حافظا لتلاوته ؟ قال فى القواطع : ذهب كثير من أهل العلم الى أنه يلزم أن يكون حافظا القرآن الكريم ، لأن الحافظ أضبط لمعانيه من الناظر فيه ، وقال آخرون : لا يلزم أن يحفظ ما فيه من الأمثال والزواجر . وجزم الأستاذ أبو إسحاق وغيره بأنه لا يشترط الحفظ ، وجرى عليه الرافعى . وقال الامام الغزالى : لا يشترط حفظها عن ظهر قلب ، بل أن يكون عالما بمواضعها بحيث يطلب فيها الآية المحتاج اليها وقت الحاجة .

و (ثانيها) معرفة ما يحتاج اليه من السنن المتعلقة بالأحكام ، قال الماوردى : وقيل إنها خمسمائة حديث ، وقال ابن العربى فى المحصول : هى ثلاثة آلاف حديث ، وشدّد الامام أحمد ابن حنبل ، فقال أبو على الضرير : قلت للامام أحمد بن حنبل : كم يكفى الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتى ؟

أيكفيه مائة ألف حديث ؟ قال : لا .

قلت : مائتا ألف ؟ قال : لا .

قلت : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لا .

قلت : أربعمائة ألف ؟ قال : لا .

قلت : خمسمائة ألف ؟ قال : أرجو .

وفى رواية : قلت : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لعله .

وكأن مراده بهذا العدد آثار الصحابة ، والتابعين وطرق المتون ؛ ولهذا قال : من لم يجمع طرق الحديث لا يحل له الحكم على الحديث ، ولا الفتيا به .

وقال بعض أصحابه : ظاهر هذا أنه لا يكون من أهل الاجتهاد حتى يحفظ هذا القدر ؛ وهو محمول على الاحتياط والتغليظ فى الفتيا ، أو يكون أراد وصف أكمل الفقهاء .

فأما ما لا بد منه فقد قال أحمد : الأصول التى يدور عليها العلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن تكون ألفا ومائتين . والمختار أنه لايشترط الاحاطة بجميع السنن ، وإلا لانسد باب الاجتهاد .

وقد اجتهد عمر وغيره من الصحابة فى مسائل كثيرة ، ولم يستحضروا فيها النصوص ، حتى رئيت لهم فرجعوا اليها .

قال أبو بكر الرازى : ولا يشترط استحضار جميع ما ورد فى ذلك الباب ، إذ لا يمكن الاحاطة به ، ولو تصور لما حضر فى ذهنه عند الاجتهاد جميع ماروى فيه .

وقال الغزالى وجماعة من الأصوليين : يكفيه أن يكون عنده أصل يجمع أحاديث الأحكام كسنن أبى داود ، ومعرفة السنن للبيهقى ، أو أصل وقعت العناية فيه بجمع أحاديث الأحكام ؛ ويكفيه أن يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة . وتبعه على ذلك الرافعى ؛ ونازعه النووى وقال : لا يصح التمثيل بسنن أبى داود ، فانه لم يستوعب الصحيح من أحاديث الأحكام ، ولا معظمها ، وكم فى صحيح البخارى ومسلم من حديث حكمى ليس فى سنن أبى داود .

وكذا قال ابن دقيق العيد فى شرح العنوان : التمثيل بسنن أبى داود ليس بجيد عندنا لوجهين : أحدهما – أنها لا تحوى السنن المحتاج اليها ؛ وثانيهما – أن فى بعضها ما لا يحتج به فى الأحكام .

وظاهر كلامهم أنه لا يشترط حفظ السنن بلا خلاف لعسره ، ولا يجرى الخلاف فى حفظ القرآن هاهنا ، ولا بد من معرفة المتواتر من الآحاد ليميز بين ما يقطع به منها ، وما لا يقطع . وقال الامام الغزالى : إن كان يقدر على حفظه فهو أحسن وأكمل ، وقد طبعت أحاديث الأحكام ، وكتب السنة ، وبذلك أصبح الاجتهاد سهل المنال ؛ ولا يشترط أن يكون حافظا لحال الرجال بل المعتبر أن يتمكن بالبحث فى كتب الجرح والتعديل من معرفة حالهم .

و(ثالثها) الاجماع ، فليعرف مواقعه حتى لا يفتى بخلافه ، ولا يلزمه حفظ جميعه ، بل

كل مسالة يفتى فيها يعلم أن فتواه ليست مخالفة للاجماع ، وإنما يوافقه مذهب عالم ، أو تكون الحادثة متولدة فى هذا العصر لم يكن لأهل الاجماع فيها خوض ؛ ولا بد مع ذلك أن يعرف الاختلاف حتى لا يحدث قولا يخالف أقوالهم فيخرج بذلك عن الاجماع .

كتب الاجماع :

قال العلامة الحجوى فى كتابه السالف الذكر : يجب على المجتهد معرفة الكتب المؤلفة فى الإجماع لأبى بكر الرازى وغيره ، ثم قال : ولم أعثر الى الآن على شىء من كتب الإجماع مطبوعا ، وكان الواجب الاعتناء بطبعها سواء : الاقناع فى مسائل الإجماع لأبى الحسن بن القطان ، أو كتاب الإجماع لابن حزم ، أو ابن عبد البر ، أو ابن المنذر ، وكل منهم ألف فى ذلك . نعم إن الاجماعات مفرقة فى كتب الفقه ، غير أن الاطلاع عليها قد لا يغنى عن تلك الكتب ، فالواجب على أهل العلم البحث عنها وطبع المهم منها .

و (رابعها) كيفية النظر ، فليعرف شرائط البراهين والحدود وكيفية تركيب المقدمات ويستنبط المطلوب ليكون على بصيرة ، كذا ذكره المتأخرون . وأصله اشتراط الغزالى معرفته بعلم المنطق ؛ قال ابن دقيق العيد : ولا شك أن فى اشتراط ذلك على حسب ما يقع اصطلاح أرباب هذا الفن غير معتبر ، لعلمنا بأن الأولين من المجتهدين لم يكونوا خائضين فيه ؛ ولا شك أيضا أن كل ما يتوقف عليه تصحيح الدليل ، ومعرفة الحقائق لا بد من اعتباره .

و (خامسها) لا بد أن يكون عارفا بلسان العرب ، وموضع خطابهم : لغة ، ونحوا ، وتصريفا ، وبلاغة ، فليعرف القدر الذى يفهم به خطابهم ، وعاداتهم فى الاستعمال الى حد يميز به بين صريح الكلام وظاهره ، ومجمله ومبينه ، وعامه وخاصه ، وحقيقته ومجازه .

وقال الأستاذ أبو إسحاق : ويكفيه من اللغة أن يعرف غالب المستعمل ، ولا يشترط التبحر ؛ ومن النحو : الذى يصح به التمييز فى ظاهر الكلام : كالفاعل ، والمفعول ، والخافض والرافع ، وما يتفق عليه المعانى فى الجمع والعطف والخطاب والكنايات ، والفصل والوصل ، ولا يلزم الاشراف على دقائقه .

وقال ابن حزم فى كتاب التقريب : يكفيه معرفة ما فى كتاب الجمل لأبى القاسم الزجاجى ، ويفصل بين مايختص منها بالأسماء والأفعال لاختلاف المعانى باختلاف العوامل الداخلة عليها .

قال ابن دقيق العيد : واشتراط الأصل فيه متعين ، لأن الشريعة عربية متوقفة على معرفة اللغة ، نعم لا يشترط التوسع الذى أحدثوه فى هذا العلم ، وإنما المعتبر معرفة ما يتوقف عليه فهم الكلام . قال الماوردى : ومعرفة لسانه فرض على كل مسلم من مجتهد وغيره .

وقد قال الامام الشافعى رضى الله عنه : على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه

جهده فى أداء فرضه . وقال فى القواطع : معرفة لسان العرب فرض على العموم فى جميع المكلفين ، إلا أنه فى حق المجتهد على العموم فى إشرافه على العلم بألفاظه ومعانيه ، أما فى حق غيره من الأمة ففرض فيما ورد التعبد به فى الصلاة من القراءة والأذكار ، لأنها لا تجوز بغير العربية .

فان قيل : إحاطة المجتهد بلسان العرب يتعذر ، لأن أحدا من العرب لا يحيط بلغاتهم ، فكيف نحيط نحن ؟ قلنا : لسان العرب وإن لم يحط به واحد من العرب فانه يحيط به جميع العرب ؛ كما قيل لبعض أهل العلم : من يعرف كل العلم ؟ قال : كل الناس . والذى يلزم المجتهد أن يكون محيطا بأكثره ، ويرجع فيما عزب عنه الى غيره ، وقد طبعت كتب اللغة ورتبت على حروف المعجم ترتيبا لا يصعب الكشف ولا يبعد الاطلاع ، كما طبعت كتب النحو والصرف والبلاغة وغيرها ، ولا يعوز إلا الهمم العالية للعمل والوصول الى مرتبة الاجتهاد .

و(سادسها) معرفة الناسخ والمنسوخ مخافة أن يقع فى الحكم بالمنسوخ المتروك ، ولهذا قال علىّ رضى الله عنه لقاض : أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت . وكذلك معرفة وجوه النص فى العموم والخصوص ، والمجمل والمبين ، والمقيد والمطلق ؛ فان قصر فيها لم يجز . وقد بين المؤلفون الناسخ والمنسوخ ، وألف فى ذلك كتب مفردة مطبوعة .

و(سابعها) معرفة حال الرواة فى القوة والضعف ، وتمييز الصحيح من الفاسد ، والمقبول عن المردود . قال الشيخ أبو إسحاق والغزالى : ويعول على قول أئمة الحديث كأحمد والبخارى ومسلم والدارقطنى وأبى داود ، لأنهم أهل المعرفة بذلك ، فجاز الأخذ بقولهم ، كما نأخذ بقول المقومين فى القيم . قال ابن دقيق العيد : وهذا مضطر اليه فى الأحكام المبنية على الأحاديث التى هى فى باب الآحاد ، فانه الطريق الموصل الى معرفة الصحيح من السقيم .

٤ — ما مناط الاجتهاد :

و(ثامنها) : القياس فليعرفه بشروطه وأركانه لأنه مناط الاجتهاد ، وأصل الرأى ، ومنه يتشعب الفقه ، وأساليب الشريعة ، وهو المفضى الى الاستقلال بتفاصيل أحكام الوقائع ، مع انتفاء الغاية والنهاية ، فان نصوص الكتاب والسنة محصورة مقصورة ، ومواقع الاجماع معدودة مأثورة ، فماينقل منها تواترا فهو المستند الى القطع وهو معوز قليل ، وما ينقله الآحاد عن علماء الأعصار ينزل منزلة أخبار الآحاد ، وهى على الجملة متناهية ؛ ونحن نعلم قطعا أن الوقائع التى يتوقع وقوعها لا نهاية لها ، والرأى المبتوت به عند كثير من الأئمة أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى متلقى من قاعدة الشرع .

والأصل الذى يسترسل على جميع الوقائع القياس ، وما يتعلق به من وجوه النظر

والاستدلال ؛ فهو إذا من أحق الأصول باعتبار الطالب ، ومن عرف مآخذه وتقاسيمه ، وصحيحه وفاسده ومايصح من الاعتراضات عليها وما يفسد منها ، وأحاط بمراتبه جلاء وخفاء، وعرف مجاريها ومواقعها ، فقد احتوى على مجامع الفقه ، كما قال إمام الحرمين .

وقال بعض العلماء : يجب أن يكون عالما بعلم أصول الفقه ويطلع على مختصراته ومطولاته فانه عماد الاجتهاد . وقال الفخر الرازى فى المحصول : إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقه . وقال الغزالى : إن أعظم علوم الاجتهاد يشتمل على ثلاثة فنون : الحديث واللغة ، وأصول الفقه ، وكتبها فى متناول الأيدى مطبوعة ومخطوطة . هذه هى أهم علوم الاجتهاد ، فمن عرفها فهو فى الرتبة العليا .

وليس من شرط المجتهد أن يكون عالما بكل مسألة ترد عليه ، فقد سئل مالك عن أربعين مسألة فقال فى ست وثلاثين منها : لا أدرى ؛ وكثيرا ما يقول الشافعى: لا أدرى ؛ وتوقف كثير من الصحابة فى مسائل ؛ وقال بعضهم : من أفتى فى كل ما سئل عنه فهو مجنون .

هذا كله فى المجتهد المطلق ، أما المجتهد فى حكم خاص فانما يحتاج الى قوة تامة فى النوع الذى هو مجتهد فيه . فمن عرف القياس فله أن يجتهد فى مسألة قياسية وإن لم يعرف غيرها . هذا بناء على جواز تجزؤ الاجتهاد ، وهو الصحيح . فأما المجتهد المقيد الذى لا يعدو مذهب إمام خاص فليس عليه غير معرفة قواعد إمامه ، وليراع فيها ما يراعيه المجتهد المطلق فى قياس الشرع .

٥ — اقتراح إنشاء قسم فى الأزهر للتخصص فى علوم الاجتهاد :

فقد ظهر من هذا الذى عرضناه يسر الاجتهاد فى هذا العصر عنه فى العصور السالفة ، وما يمنع منه إلا الفتور ؛ وحبذا لو أنشئ فى الأزهر الشريف قسم للتخصص فى علوم الاجتهاد يدخله العلماء ويمكثون فيه مدة لا تقل عن المدة التى قضوها فى الحصول على شهادة العالمية ، بعد أن تكفيهم الدولة حاجات المعاش ، وبعد أن يسيروا فى حياتهم وفى معيشتهم وفى كل أمورهم على منوال الأئمة المجتهدين . إنه بهذا تخطو مصر نحو إيجاد المجتهد خطوة لها ما بعدها إن شاء الله تعالى .

أما بعد : فمن لإنشاء هذا القسم ، ومن للاجتهاد وعلومه وطلابه ، سوى إمام العصر ، شيخ الاسلام ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، أدامه الله ذخرا للعلم والعلماء ، وأعز به الاسلام والمسلمين !

السيد عفيفى
من علماء الأزهر الشريف
محرر مجلة المحاماة الشرعية السابق

موازين الحكم الادبى

— ٣ —

الفهم :

فى المقالين السابقين أشبعنا القول عن الذوق باعتباره ميزانا من موازين الحكم الأدبى ، وفى هذا المقال نتكلم عن « الفهم » ، فهو ميزان آخر يقوم الى جانب الذوق فى تقدير الكلام والحكم عليه ، ولقد قرأت فيما قرأت للمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى كلاما يقول فيه : « إن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وإن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وإن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا » وهذا الذى قاله الرافعى كلام يتهالك فى أوله ، بقدر ما يتماسك من آخره ؛ نعم فقد أخطأ الرافعى إذ حسب « أن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه » ، فان الفهم شىء والذوق شىء آخر ، وإذا كان الذوق يستلزم الفهم كما يقولون ، فان الفهم كثيراً ما ينفك عنه فلا يستلزمه ولا يقتضيه ، ولقد يتأتى للشخص أن يفهم الأثر الأدبى على خير ما يكون الفهم ، ومع ذلك لا يقع من ذوقه أدنى موقع ، كما هو حال كثير من علماء النحو ورجال اللغة ! ولكن الرافعى مصيب من غير شك إذ يرى «أن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا » فان الناقد إنما تتم له الأداة ، ويصح له أن يحكم على الأثر المنقود ، إذا مافهم ألفاظه ومعانيه ، ووقف على إشاراته ومراميه ، وتلمس له كل وجه يستقيم عليه منطوقاً ومفهوما ، وكل مدلول يقتضيه صريحا واستلزاما .

تلك حقيقة هى من الوضوح الى حد البداهة ، ولكن الدكتور طه حسين نقل كلاما عن الشاعر الفرنسى بول فاليرى زعم فيه : أن موت الأثر الفنى إنما يأتى من فهم الناس له ، فأنت إذا ما قرأت كتابا وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه ، فهناك إذن جهاد عنيف بين القارئ والمقروء ، فاذا فهم القارئ فقد غلب ، وإنما الأثر الفنى الخليق بهذا الاسم ، هو الذى يغلب القارئ ويعجزه ، ولكن دون أن يضطره الى اليأس والقنوط ، ومن هنا كان النثر بطبيعة تكوينه أقرب الى الموت وأدنى الى الفناء ، لأنه أقرب الى الفهم وأدنى الى الهضم (١) ! ! والدكتور طه لا يميز الناقد فى هذه الغمرة عن أى قارئ آخر ، بل ولا يرضى له أيضا بفهم « الأثر الفنى الخليق بهذا الاسم » ليتم لذلك الأثر البقاء ، ومن ثم فقد طار الى الأوج بقصيدة « المقبرة البحرية » لصاحبه فاليرى هذا ؛ وكل دليله فى ذلك أنها استغلقت على النقاد

---

(١) راجع السنة الاولى من مجلة الرسالة .

فلم ينفتح لهم فيها باب الفهم على الرغم مما بذلوا فى الفهم ووسعوا فى التأويل ، وكأنى بالدكتور الفاضل قد فاته أن اللغة — فى أرقى أوضاعها وفى أحط أوضاعها — ليست إلا سبيل الفهم والفهم أساس المعرفة ، والمعرفة قوام الحياة وصلة الانسان بالعالم ؛ ثم كأنى بالدكتور قد نسى أنه من قبل ذلك رد كتاب رسائل الأحزان للرافعى ، وكانت حجته فى ذلك أنه قرأ الكتاب فلم يفهمه ، وهو لا يستطيع أن يحكم على شىء استغلق عليه فهمه ، وتعذر دركه ! وتأمل ثم تأمل ! !

إن هذا الذى نقله الدكتور طه على أنه من طريف أوربا يقابله طريف فى تاريخ الأدب العربى ، فقد حدث ابن سنان الخفاجى فقال : « جرى بين أصحابنا فى بعض الأيام ذكر شيخنا أبى العلاء ابن سليمان المعرى ، فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة ، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء ، فعجبنا من دليله وإن كنا لم نخالفه فى المذهب ، وقلت له : إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التى يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل فى المقصود بالفصاحة التى هى البيان والظهور ، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم ، لأن الفهم من إشاراته عسير بعيد ، وأنت تقول : كلما كان أغمض وأخفى ، كان أبلغ وأفصح ، وعارضه أبو العلاء بن عيسى الكاتب فقال : صدقت إننا لا نفهم عنه كثيراً مما يقول ، إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجى الذى نعرفه أفصح من أبى العلاء ، لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا أبو العلاء أيضا ! ! فامسك ! (١)

وسواء أأمسك الدكتور طه كذلك الرجل أم لم يمسك ، فما يعنينا ذلك ، وليس من وكدنا أن نطيل فى تفنيد دعوى باطلة ، لا يمسكها دليل من عقل أو فهم ، وما كنا لنعرض لها بذكر لولا أن رأيناها قد جازت عند بعض الناس ، ولكنا نمضى فنقرر بأنه إذا كان الحكم فرع التصور كما يقول المناطقة ، فإن الفهم لا شك دعامة من دعامات الحكم الأدبى ، وشرط أساسى مقدم لا بد منه فى تقدير الكلام والحكم على الأثر المنقود ، كما هو شرط فى الحكم على أى شىء آخر ، وقديما قيل : يكفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع ، ولا جرم أن الناقض إذا لم يفهم ، واستباح لنفسه أن يحكم ، فهو إما مسىء الى نفسه وفنه ، وإما مسىء الى صاحب الأثر المنقود ، فإذا كتب الله له السلامة من الاساءتين فذلك شىء بقضاء وقدر ، ولا صلة له بتقدير الفن ومقاييسه ، ولا يد فيه ولا عمل لمواهب الناقد وملكاته ! !

هذا وللجاحظ كلام حلو مستقيم يدخل فى هذا الباب ، فلا بأس من إيراده وإن كان يرده الى جهة القائل لا الى جهة الناقد ، قال أبو عثمان : « قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى :

(١) سر الفصاحة ص ٦٧

المعانى القائمة فى صدور الناس ؛ والمتصورة فى أذهانهم ، والمختلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، وحاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما يحى تلك المعانى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهرا ، والغائب شاهدا ، والبعيد قريبا ، وهى التى تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيدا ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشى مألوفا .

وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون ظهور المعنى ؛ وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الاشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع فى البيان ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى ، هو البيان الذى سمعت الله يمدحه ويدعو اليه ، ويحث عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم ... والبيان اسم لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى ، وهتك لك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان ، من أى جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر ، والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام ... وقال على بن الحسين رضى الله عنه : لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى صواب التبيين ، لأعربوا عن كل ما تخلج فى صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن درك ذلك كان يعدمهم فى الأيام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ... » (١)

عبد الرحمن فهمى

نماذج من البلاغة العربية

كتب بديع الزمان الهمذانى الى أحد الكبراء : إنى خدمت مولاى والخدمة رق بغير إشهاد ، وناصحته والمناصحة للمودة أوثق عماد ، ونادمته والمنادمة رضاع ثان ، وطاعمته والمطاعمة نسب دان ، وسافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان ، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان ، وأثنيت عليه والثناء من الله بمكان ، وأخلصت له والاخلاص مشكور بكل لسان .

ولما صرف الرشيد الفضل عن الوزارة وأسندها الى أخيه جعفر قال الفضل : ما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه .

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٨ ، ٧٣

من هو السهروردى الصوفى

طالعت فى الجزء الخامس من المجلد التاسع من مجلة الأزهر مقالا فى تاريخ التصوف للاستاذ عبد الحميد سامى البيومى ، افتتحه بترجمة السُّهْرَوَرْدى مريدا به السهروردى الصوفى الفقيه لأنه قال فى وصفه : « إنه مات فى المحرم سنة ٦٣٢ ، وإنه أحد أعقاب أبى بكر الصديق ، وإنه كان تلميذا لعمه أبى النجيب الخ » وهـذه صفة الشيخ عمر السهروردى الصوفى الـكبير والفقيه الجليل شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عَمُّوَيه (بفتح العين المهملة وضم الميم المشددة بعدها واو ساكنة ثم هاء) الصديقى ، ولد بسهرورد آواخر رجب سنة ٥٣٩ ، وتوفى ببغداد فى غرة المحرم سنة ٦٣٢ ، ودفن بالودية . أخذ عن عمه الشيخ أبى النجيب عبد القاهر ، وعن الشيخ عبد القادر بن أبى صالح الجيلى الشهير ، وهو صاحب كتاب « عوارف المعارف » الـكتاب القيم فى التصوف ، ترجمه ابن خلـكان فيمن اسمه عمر .

ويُنتقَـد على الأستاذ بيومى قوله فى وصفه « الشيخ المقتول » فان الشيخ المقتول هو عالم آخر سهروردى يشتبه على كثير من أهل العـلم بالسهروردى الصوفى ، وهذا شهاب الدين المقتول هو أبو الفتوح يحيى بن حَبَش (بفتح الحاء المهملة وسـكون الموحدة وآخره شين معجمة) ابن أميرك ، ولد فى حدود سنة ٥٥٢ ، وتوفى قتيلا على تهمة الزندقة بأمر من الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين فى قلعة حلب سـنة ٥٨٧ وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل ثمـان وثلاثون سنة ، أخذ الحـكمة عن مجد الدين الجيلى بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان ، ومجد الدين هـذا شيخ فخر الدين الرازى (هو غـير الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلى) .

كان السهروردى هذا من فلاسفة الاسلام الاشراقيين على طريقة ابن سينا ، ألف التلويحات فى الفلسفة على طريقة رأى أرسطو ، وألف : هيا كل النور ، وحكمة الاشراق ، كلاهما فى الحـكمة على طريقة أفلاطون ، وعلى الأول منهما شرح لجلال الدين الأوانى لم يطبع ، وعلى الثانى منهما شرح لقطب الدين الشيرازى طبع فى بلاد العجم سنة ١٣١٥ ، وقد تعرضت الى شىء من كلامه فى الحـكمة فى مقال عنوانه (ورقة مطوية فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) منشور فى المجـلد التاسع من مجلة الهداية الاسلامية بمصر ، وله القصيدة المشهورة التى أولها :

أبدا تحن اليكم الأرواح ووصالـكم ريحانها والراح

ترجمه ابن خلـكان فيمن اسمه يحيى ، وابن الوردى فى تاريخه ، ونقل ابن خلـكان أنه يقال إن اسمه عمر بن محمد ، ولا أحسب ذلك إلا اشتباها بالسهروردى الصوفى .

وينتقد على الأسـتاذ بيومى ما ذكره فى ملخص مذهب السهروردى ، فان ذلك مذهب

شهاب الدين يحيي الفيلسوف ، وذلك على طريقة فلاسفة الإشراق المثبتين لا نبثاق العقول العشرة عن المبدأ الفياض واجب الوجود .

ولا يليق أن ينسب ذلك المذهب الى شهاب الدين عمر السهروردى الصوفى الفقيه ، كما يعلم من الاطلاع على كتابه عوارف المعارف .

وإن الذى ينتسب ابن سبعين الى مذهبه هو السهروردى الفيلسوف ، وليس هو السهروردى الصوفى . وقد جاء التشابه بين هذين الامامين من أربعة أشياء : نسبة البلد ، وكون كليهما أخذ عمن نسبه الجيلى ، وكون كليهما ملقبا بشهاب الدين ، وكون كليهما قيل إن اسمه عمر بن محمد .

ومما ينبغى أن يفاد هنا أن سهرورد المنسوب اليها هذان الامامان هى بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الراء وفتح الواو وبعدها راء ساكنه ودال فى آخره ، وهى قرية من عراق العجم عند زنجان ، وينسب اليها عدة من العلماء منهم أبو النجيب عبد القاهر ابن عبد الله بن عمويه ترجمه ابن خلكان ، ومنهم على بن محمد السهروردى الملقب « مضغك » المتوفى سنة ٨٧١ ؟

محمد بن عاشور
شيخ الاسلام المالكى بتونس

نعمة البيان

قال الله تعالى : « خلق الانسان علمه البيان » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحرا » .

وقال الجاحظ إمام البيان : « البيان اسم جامع لكل كلام كشف لك عن قناع المعنى ، وهتك الحجاب عن الضمير ، حتى يفضى السامع الى حقيقة اللفظ ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان » .

وقال أديب : « البيان ما كان مصرحا عن المعنى ليسرع الى الفهم تلقنه ، وموجزا ليخف على اللسان تعاهده » .

وقال ابن المعتز : «البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول » .

وقال سهل بن هرون : « البيان ترجمان اللسان ، وروض القلوب » .

وقد يعبر عن البيان بالفصاحة ، فقال هشام بن عروة : «ما أحدث الناس مروءة أعجب الىّ من الفصاحة » .

أحاديث الوفود فى الاسلام

— ٥ —

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من خولان (قبيلة باليمن) فقالوا : يارسول الله نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل مصدقون برسوله ، قد ضربنا إليك آباط الابل ، وركبنا حزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ولرسوله علينا ، قدمنا زائرين لك .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أما ما ذكرتم من مسيركم الىّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم : زائرين لك ، فان من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة .

ولما استقر بالوفد المقام فى دار الضيافة سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنم لهم اسمه (عم أنس) كانوا يعبدونه من دون الله وينذرون له النذور ويقربون له القرابين . سألهم : ما شأن عم أنس وما تصنعون معه الآن أى بعد إسلامكم ؟

فقالوا : يا نبى الله بدلنا الله مكانه ما جئت به ، وقد بقيت منا بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى ، فقد كنا منه فى غرور وفتنة .

فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : وما أعظم ما رأيتم من فتنته ؟ قالوا : لقد أصابتنا سنة مسنتة (مجدبة) حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها قربانا له فى غداة واحدة ، وتركناها للسباع فأكلتها ونحن أحوج اليها منها ، فجاءنا الغيث من ساعتنا . ولقد رأينا العشب يدارى الرجال ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس ! ولقد كنا نقسم لهذا الصنم من أموالنا وأنعامنا وحرثنا . كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ونسمى زرعا آخر حجر الله ، فاذا مالت الريح بالذى سميناه لله جعلناه لعم أنس ولم نجعله لله .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله علىّ فى ذلك « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون » .

ولما جاءوا ليودعوا رسول الله وعظهم وأجازهم ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وحسن الجوار لمن جاوروا ، وأن لا يظلموا أحدا ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة .

فلما رجعوا الى قومهم لم يحلوا عقدة من رحالهم حتى بادروا بهدم عم أنس ، هدما كان لم يغن بالأمس : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » .

*
* *

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة رجال من الأزد ، فلما دخلوا عليه وكلموه أعجبه ما رأى من سمتهم وحسن زيهم ، فقال : ما صفتكم ؟ قالوا : مؤمنون . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قالوا : خمسة عشر خصلة : خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا رسلك أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره شيئا منها فنتركه .

فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام : ما الخمس التى أمرتكم بها رسلى أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

فقال لهم النبي : وما الخمس التى أمرتكم بها رسلى أن تعملوا بها ؟ قالوا : أمرتنا رسلك أن نقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت إن استطعنا اليه سبيلا .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة للأعداء .

فأجابهم النبي بقوله : حكماء علماء ، وأنا أزيدكم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة : لا تجمعوا مالا تأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غدا زائلون ، واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون .

*
* *

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من بنى المنتفق وفيهم لقيط بن عامر بن صبرة ابن عبد الله بن المنتفق ، قدموا على رسول الله وهو منصرف من صلاة الصبح ، فقال له لقيط : يارسول الله علام نبايعك ؟ فبسط له رسول الله يده وقال : على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن لا تشركوا بالله شيئا .

فقال لقيط : يارسول الله ، وإن لنا ما بين المشرق والمغرب ؟ فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : تحل منها حيث تشاء ، ولا يجنى عليك إلا نفسك .

ثم تقدم القوم وودعوا رسول الله وانصرفوا الى قومهم ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام :

إنهم من أتقى الناس لله فى الدنيا والآخرة . فقال له بعض الصحابة : من هم يارسول الله ؟ فقال له النبي : بنو المنتفق (كررها ثلاثا) .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمام بن ثعلبة فأناخ جمله بباب المسجد وعقله بعقاله ودخل المسجد وأقبل على الجلاس فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فأشار أحدهم الى النبى . فقال ضمام : يامحمد إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على .

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : سل ما بدا لك . فقال ضمام : يامحمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك .

قال له النبي : صدق رسولى . فقال ضمام : يامحمد أنشدك برب من قبلك ، ورب من بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها ؟ فأجابه النبى : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا ؟ فأجابه النبي : اللهم نعم .

عند ذلك تقدم ضمام وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : آمنت وصدقت ، أنا ضمام بن ثعلبة ، ثم استأذن وانصرف ، فلما رجع الى قومه كان أول كلام تكلم به أن سب اللات العزى ، فقال له قومه : ياضمام اتق البرص اتق الجذام ، اتق الجنون ! فقال لهم : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ؛ وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا أسلم وحسن إسلامه .

يقول ابن عباس : ما سمعنا بوافد أفضل من ضمام بن ثعلبة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمعه يسأل ما سأل : مارأيت أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة .

حسن خطاب الوكيل

معرض الآراء العالمية

فى الاسلام والمسلمين

كتب المسيو (جورج رو) فى جريدة التحرر الوطنى الباريزية الصادرة فى ١٨ أغسطس الماضى مقالا تحت عنوان (ما هو الاسلام – حادث جلل) قال :

« يوجد فى العالم ما يقرب من ثلاثمائة مليون مسلم ، فقد استقر الاسلام فى شمال أفريقيا وفى القسم الأعظم من وسطها ، وفى جزء صغير من أوربا ، وفى جميع ربوع آسيا الغربية والوسطى ، ويوجد أيضا نحو ثلاثين مليونا من المسلمين فى الهند الهولاندية ، ومن خمسة وعشرين الى ثلاثين مليونا فى الصين ، وبضع مئات من الألوف فى اليابان . الى أن قال :

« ليس الاسلام مجرد شكل ، ولا هو مجرد شعائر دينية ، تتفاوت درجات أصحابها فى العمل بها ، ولكن الوصف المميز للاسلام هو أنه دين عالمى معمول به أكثر من أى دين غيره . فمن بين جميع سكان الكرة الأرضية تجد المسلمين أكثر الأمم اعتدادا بتعاليم دياناتهم .

« ففى فاس وحدها ، تلك المدينة المغربية التى يسكنها مائة ألف نسمة ، أكثر من مائة مسجد ملأى بالمصلين على نحو كنائسنا فى لورد (١) ، فترى هنالك الرجل من الطبقة الوسطى يحمل معه قطعة مربعة من الجوخ ، ليستطيع فى الوقت المعين أن يقف عليها ويؤدى الصلاة ، وتجد الصانع فى السوق يقطع عمله فجأة ليجيب الداعى الى الجماعة بالمسجد ، وتصادف الجمال فى الصحراء يقف ليقوم بواجب السجود لله . ولا تلقى فى البلاد المراكشية كلها خمسة فى المائة يجرءون على مخالفة الشريعة والافطار فى رمضان ، والصوم كما لا يخفى من العبادات الشاقة .

« وأكبر من هذا كله وأدعاه للنظر أنك لا تصادف مسلما واحدا يرتد عن دينه . وعدد الذين جحدوا دينهم من المسلمين لا يذكر . وهذا المرسل الكبير والقديس العجيب الأب (فوكولد) نجح فى حمل المسلمين على حبه ، ولكنه خاب فى حمل مسلم واحد على تغيير دينه . فكل من استطاع أن يحبب اليهم تغيير ملتهم لم يتجاوزوا الثلاثة أو الأربعة . ولقد علم الناس أن فرنسيا كبيرا آخر وهو الكاردينال (لافيجرى) كتب يوما يقول : « إن تنصير المسلمين مشروع لن يتأدى لغير الخيبة » . فالاسلام يبدو لنا كتلة مندمجة لا يمكن خدشها .

« ولا نقول إن الاسلام لا يتقهقر فحسب ، ولكننا نقول إنه على الضد يتقدم ويزداد

---

(١) قرية فى فرنسا يقصدها النصارى من جميع الجهات التماسا للبركات من زيارة كنيستها المشهورة ، وهى من أماكن الحج فى النصرانية .

انتشارا . واليك مشاهدة أخرى هامة للدرجة القصوى ، وهى أن الاسلام من بين جميع الأديان العالميــة يجارى المسيحية فى تقدمها . فلا يغيب عن أفكارنا الكسب العظيم الذى تناله الكاثوليكية باستمرار فى الهند والصين ، بفضل الاخلاص والايثار العجيبين اللذين يبديهما المرسلون الدينيون من الفرنسيين والبلجيكيين . ومع هذا فان الاسلام فى الوقت نفسه يكتسب هنالك بقدر ما تكتسب ديانتنا ، كأنه قد كتب لهذين الدينين العظيمين أن يتماشيا جنبا الى جنب فى طريقين متوازيين .

« ولكن هذه القاعدة تنعكس فى أفريقا ، فالاسلام ينفرد بالكسب وحده هنالك . فعدد المحمديين يزداد فى جزيرة مدغشقر يوما بعد يوم . ولكن عظم النجاح الذى يصيبه الاسلام هو فى افريقا السوداء . فالسودان برمته الذى كان موطنا للوثنية ، أصبح اليوم معقلا من معاقل ديانة محمد . وبلاد السنغال وغينيا حتى الكونغو يدخل أهلها فى الاسلام أفواجا أفواجا . هنا ظاهرة يجب أن نعيرها اهتماما ، لأنها تفضى الى تغيير الحالة العقلية فى أمبراطوريتنا السوداء.

« وفى الوقت الذى يزداد فيه الاسلام فى العدد ، يحدث فى باطنه حركة تكسبه مناعة وقوة . فهو بدل أن تتراخى أواخيُّه ، وتنحل عراه ، يزداد تضامنًا وتماسكا . وإنى ذاكر لك أربعة أدلة على ما أقول :

(١) خيبة أو على الأقل ضعف مذهب المرابطين الذى كان معمولا به فى الجزائر ، ومؤداه عبادة الأولياء المحليين عبادة حقيقية .

(٢) تَعَرُّب أو بعبارة أخص إسلام بربر مراكش ، وقد كانوا من قبل على شكل من الدين خاص بهم ، فهم يميلون الآن لاضاعة مميزاتهم ليندمجوا فى المجموعة الاسلامية العامة .

(٣) نجاح وزيادة تأثير ابن سعود وشيعة الوهابيين الذين هم من الطوائف الشديدة التمسك بحرفية الدين ، وهم يشبهون الطائفة الشديدة التمسك بالدين من الانجليز على عهد كرمويل .

(٤) الرجوع المدهش الى إقامة الشعائر الاسلامية الصحيحة بدقة فى مصر . ليس ذلك لأن الملك الشاب فاروق تكثر منه مظاهر التقوى والصلاح ، ولكن لأن الجامعة الأزهرية العظيمة وهى بيئة الاسلام قد ازدادت قيمة سياسية ، وإنك لترى محافظى الأقاليم ومديريها يدعون الى الحضور بانتظام فى المسجد .

« فاستمرار تضخم قوة الاسلام أصبحت محققة ؛ وقد لفتت أنظار رجال السياسة الجدد أمثال موسولينى وهيتلر وفرنكو ، فيجب أن تلفت نظر الفرنسيين كذلك ، فان الأسباب التى تحملهم على الاهتمام بهذا الأمر أقوى من الأسباب التى تحمل الألمانيين والايطاليين والاسبانيين عليه » .

محمد فريد وجدى

دفاع عن القرآن الكريم

لما فرغ الدكتور جفرى من مباحثه فى تطور الكتب الاسرائيلية والنصرانية ، رجع الى التحدث عن تطور القرآن الكريم فذكر فى مقدمته النتائج التى وصل اليها الباحثون من كتاب (نولدكى) فقال :

« لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى أيدى قومه كتاب »

أقول : ما هو المعنى الذى يظهر من هذه العبارة ؟

المعنى الظاهر منها أن القرآن لم يكن مجموعا فى كتاب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون بعض هذا صحيحا ، ولا ضير فيه مطلقا ، لأن القرآن كان محفوظا فى صدور القراء ، ومكتوبا على عسب النخل وبعض الأحجار . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعرضه على جبريل كل عام فى رمضان ، وعرضه عليه فى العام الأخير مرتين ، وسمى هذا العام الأخير (عام العرض)

وثابت من جميع المصادر التاريخية الاسلامية وكتب السنة النبوية أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام تدارسا القرآن مرتين فى العام الأخير ، وكان جبريل يوقفه على مواضع السور وآيات كل سورة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وقف أصحابه على ذلك ؛ وثابت أيضا من جميع المصادر الاسلامية أن هذا التوقيف الأخير ناسخ لما تقدمه . لكن المستشرقين لا يعجبهم هذا لأنه يهدم أولى نتائج أبحاثهم من الأساس ، ولأنه يثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم مات وله كتاب يقرأ محفوظ فى الصدور مرتبة سوره وآياته .

فاذاً لم يتطور القرآن ولم يتغير ولم يتبدل ، وهم لا يرضون بهذا ، فاذا جاء التاريخ الاسلامى وشهد بحق بما حصل فعلا فى عهده صلى الله عليه وسلم من دراسة القرآن مع جبريل كل عام مرة ، وعرضه فى العام الأخير مرتين الى آخر ما تقدم ، فالتاريخ فى نظر المستشرقين كاذب ، لأنه لم يرو الحقيقة ؛ وإذا شهد بذلك البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة فالشهادة غير صحيحة فى اعتقادهم ، وغير مقبولة فى رأيهم ، قال الدكتور جفرى :

« قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كلما نزلت عليه آيات أمر بكتابتها ، وكان يعرض على جبريل مرة فى كل سنة ما كتب من الوحى فى تلك السنة ، وعرضه عليه مرتين سنة موته . وهكذا جمع القرآن كله فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى « صحف وأوراق » ، وكان مرتبا كما هو الآن فى سوره وآياته إلا أنه كان فى صحف لا فى مصحف » .

الى هنا لا شىء فيه ولا غبار عليه إلا قوله « فى صحف وأوراق » ولعله حرفها حين نقلها من كتب التاريخ والسنة ، لأن هذا العصر لم يكن عصر أوراق ، فكانوا يكتبون على عسب

النخل والعظم والخزف . لكن المقصود من الكلام هو قوله بعد ذلك مباشرة : « وهذا الرأى لايقبله المستشرقون » .

ولو أنى أشعر بأن الدكتور جفرى لم يطلع على هذه المصادر لسردت منها هنا الشىء الكثير ، على أنى سأذكر ذلك فى أول القسم الثانى من كتابنا ، حين الرد على كتاب المصاحف ، فالمناسبة هناك أقوى .

وإنما قلت فى أول كلامى فى هذا المبحث : « وقد يكون بعض هذا صحيحا » لأن الواقع أن القرآن جمع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بشهادة البخارى فى روايته عن أنس بن مالك قال : مات النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة الخ .

فهو صريح فى أن القرآن جمع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصرح منها رواية مسلم والبخارى نفسه فى موضع آخر ، ونص هذه الرواية : « جمع القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار الخ » ، وسنذكر هذه الروايات بنصها قريبا . ودع البخارى ومسلما جانبا واسمع شهادة الدكتور جفرى نفسه بذلك فى موضع آخر من مقدمته قال : « روى أن غير واحد من الصحابة جمع القرآن فى مصحف ، منهم على بن أبى طالب ، وأبىّ بن كعب وسالم مولى حذيفة الخ » — هذا كلام الدكتور جفرى نفسه ، فما معنى قوله إذن : « لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى أيدى قومه كتاب ؟ »

ولما كانت النتائج التى تلى هذه النتيجة الأولى مبنية عليها ومستندة اليها ، خشى الدكتور أن تنقض النتيجة الأولى فتنهار جميع النتائج المبنية عليها ، وأراد أن يسندها بشبه دليل فقال : « لأنه يخالف ما جاء فى أحاديث أخرى أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن فى شىء » .

أين هى هذه الأحاديث ؟ وماذا كان يصنع كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذاً ؟ ألم يكتبوا ما نزل من القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عسب النخل والعظم وكانت هذه الأشياء المكتوب عليها محفوظة عندهم ؟ ألم يرو البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال فى حديث طويل : فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب الخ . وفيه أيضا عنه قال : لما نسخنا الصحف فى المصاحف الخ . أليس هذا صريحا وقاطعا فى أن القرآن كان فى صحف ثم نسخوها فى مصاحف ؟ أليست هذه الصحف من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فاذاً كان القرآن مجموعا فى شىء . هذه رواية البخارى ، وهو أصح كتب السنة ، فقل لنا أنت ما مصدر هذه الأحاديث التى تدعيها ؟ والحق يادكتور أن النتيجة الأولى لأبحاثكم منقوضة من أساسها ، وقد وقع ما قلته أنا وهو انهيار بقية النتائج المبنية عليها .

طريقة الدكتور فى تلخيص هذه النتائج ترتيبها حسب الزمن تمهيدا لما سيذكره من أدوار

التطور فذكر سبع نتائج وبنى عليها ستة أطوار . وقد نقضنا النتيجة الأولى ، فيحسن أن نعرض للطور الأول الذى بناه عليها ، وإن كان قد انهار من نفسه بانهيار قاعدته .

قال : « الطور الأول طور المصاحف القديمة » .

أقول : قد علم مما تقدم مرارا أن هذه الصحف جمعت فى عصر سيدنا أبى بكر ، فحدث فى القراءة تحريف بسبب عدم الاعجام والشكل ، فاضطر سيدنا عثمان الى تدوين أربعة مصاحف مضبوطة وإرسالها للآفاق ، فاجمع الصحابة رضوان الله عليهم على صحة هذه المصاحف وعلى انطباقها على المصاحف التى كانت لديهم ، ولو كان واحد منهم لاحظ غير ذلك لأعلنه ، ولوصل إلينا نبأ هذا الخلاف .

النتيجة الثانية — قال :

« النتيجة الثانية اختلاف مصاحف الصحابة . روى أن غير واحد من الصحابة جمع القرآن فى مصحف ، منهم على بن أبى طالب ، وأبي بن كعب ، وسالم مولى حذيفة ، وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو زيد ، ومعاذ بن جبل وغيرهم » .

أقول : هذه النتيجة تشتمل على أمرين :

الأول : اختلاف مصاحف الصحابة .

الثانى : جمع القرآن قبل جمع سيدنا عثمان .

أما الأول : فلا بد فيه من بيان ، تفصيل ذلك أن القرآن نزل بلغة قريش و بلغه النبى صلى الله عليه وسلم آية آية لأصحابه ، ولكن لغة قريش تختلف فى اللهجة عن لغات القبائل الأخرى ، وهى لا تضر بالمعنى ، فكان لابد هنا من الرخصة لعدم الوقوع فى الحرج . وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبلغ الآية لأصحابه ويذكر لفظا بين كلمات الآية تفسيرا للكلمة السابقة ، فيفطن لها بعضهم فلا يثبتها فى مصحفه ، ولا يفطن لها البعض الآخر فيثبتها . وفى بعض الروايات عن السيدة عائشة قالت : « لا أدرى أقرأ أم فسّر » ، وسنذكر الرواية بطولها فى موضع آخر .

ووجد فى مصحف السيدة حفصة أو السيدة عائشة كلمة (صلاة العصر) فى قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وكلمة صلاة العصر تفسير ، وقد عرف كل ما حدث من ذلك وعدل أصحابه عن اعتباره من جوهر القرآن .

فان كان اختلاف مصاحف الصحابة الذى تعنيه هو أحد هذين المعنيين فمسلم ولا ضرر فيه مطلقا ، ولست فى حاجة الى استنتاجه من كتاب (نولدكى) بل هو ثابت بصريح العبارة فى كتب السنة والتاريخ .

وأما الثانى : وهو جمع القرآن فى مصحف قبل المصحف الامام، فقد ورد فى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارى أيضا عن أنس قال : مات النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد (١) ونحن ورثناه .

فهذه الروايات صريحة فى أن القرآن جمع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. ويقول ابن الطيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلى، وتميم الدارى، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص .

وقيل إن المراد بالجمع الحفظ، وقيل المراد به جمعه فى مصحف واحد . ويؤخذ من عبارة ابن الطيب المتقدمة أن الجمع غير الحفظ حيث عطفه عليه، ويبعد أن يكون عطف تفسير .

وسواء أكان هذا أم ذاك فما أثر ذلك فى نظر الدكتور جفرى ؟ أثره يظهر من قوله : إن هذا المعنى لا يرضى به المستشرقون . فهم لا يرضون إلا بشىء واحد وهو أن الصحابة كانت لهم مصاحف قبل مصحف سيدنا عثمان وأنها مختلفة فى اللفظ وفى المعنى، لا يعلمون الصواب منها . انظر قوله :

«وكانت هذه المصاحف يختلف بعضها عن بعض، لأن كل نسخة منها اشتملت على ما جمعه صاحبها، وما جمعه واحد لم يتفق حرفيا مع ما جمعه الآخرون » .

هذا هو الذى يريد الدكتور، أما الاختلاف بالمعنى الصحيح الذى قررناه، ونعتقد أن جميع علماء المسلمين يقررونه كما قررناه، لاستناده الى أوثق المصادر، فمما لا يعجب الدكتور جفرى وأمثاله .

قال الدكتور جفرى بعد ذلك :

« النتيجة الثالثة أخذ مصاحف بعض الصحابة مقاما يعتد به فى الأمصار » . ثم شرح هذه النتيجة بقوله : « لما نشأت الأمصار الاسلامية بعد فتح الشام والعراق كان كل فريق من الناس يحتاج الى نسخة من القرآن الذى هو أصل دينهم وحكمهم وعاداتهم الاجتماعية، فاتفق أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود، وأهل البصرة على مصحف أبى موسى الأشعرى، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود، وأهل الشام على مصحف أبىّ بن كعب، وكانت هذه المصاحف يخالف بعضها بعضا »

(١) أبو زيد كنيته، واسمه سعد بن عبيد .

ونحن لا نرى فى هذه النتيجة شيئا جديدا يزيد على النتيجة السابقة ، حتى ننقض بأكثر مما نقضنا به سابقا ، فالاختلاف هو الاختلاف ، سواء كان فى المدينة ومكة وبلاد العرب أم فى الأمصار الاسلامية التى فتحت ، والجواب هو الجواب ، وإنما الذى يلاحظ هنا زيادة عما تقدم أن أهل كل مصر لما أخذوا بمصحف صحابى اعتقدوا أن هذا هو القرآن وأن ما يخالف مصحفهم ليس قرآنا ، ولذلك قال الدكتور بعد ذلك بقليل : « حتى أنكر بعضهم على بعض ما كان يقرؤه من غير مصحفه زاعما أنه ليس من القرآن » . وهذا ما ننكره ونمنعه أشد المنع .

وإنما الذى وقع على ما رواه البخارى ومسلم هو أن أحدهم كان يقول : قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك .

وهذا كله كان اختلافا بأحد المعنيين السابقين اللذين قررناهما ، وكان ذلك قبل مصحف سيدنا عثمان الذى انعقد الاجماع عليه نهائيا .

ثم استمر الدكتور جفرى يذكر نتائج من هذا النوع ، فذكر جمع سيدنا عثمان الناس على مصحف واحد ، وخلو مصحفه من النقط والشكل . وأن أهل كل مصر شكلوا على حسب تأويلهم للمعنى ، وانتهى الى تعميم قراءة حفص فى بلاد الشرق .

ولما أحس الدكتور بخطورة موقفه تجاه ما يزعمه من تطور القرآن ، أبدى مخاوفه من اعتراضات علماء المسلمين عليه فقال : « ولا يخفى على القارئ أن نتيجة هذه الأبحاث لا تتفق وما عليه المسلمون من تاريخ القرآن » . حقا إن هذه الأبحاث التى ترمى الى أن يفهم المسلمون أن قرآنهم الذى يتلونه الآن ويتعبدون به مخالف للقرآن فى العصور الأولى ، لأن التطور يقتضى هذا ، كما قلنا غير مرة ، لا يتفق وما عليه المسلمون من عقيدتهم الحقة فى القرآن . ذلك لأن القرآن قد وصل إلينا بطريق التواتر محفوظا بحفظ الله مرعيا برعايته ، والتواتر يفيد العلم الضرورى ، فنحن نعلم بداهة أن هذا القرآن الذى نقرؤه الآن هو بعينه وشكله الذى كان يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، والتابعون وتابعوهم طبقة بعد طبقة الى عصرنا .

ثم تشجع الدكتور بعد ذلك وأظهر عدم المبالاة فقال :

« ولا يهمنا فى بحثنا هذا كونه حقا أو باطلا ، وإنما المهم هو بيان ما وصلنا اليه بعد التحرى والتنقيب » .

نقول : كيف لا يهم أن يكون ما تأدى اليه حقا أم باطلا ، أليس هم كل باحث أن يتأدى الى الحقيقة ، وخاصة إذا كان فى موضوع كتاب إلهى يقول بقدسيته مئات الملايين من الناس ؟ أما التحرى الذى يذكره فقد تبين القارئ أنه وجهه توجيها لا يؤديه الى غير هذه النتيجة ،

فإنه اعتبر الاختلافات العرضية فى القراءات اختلافات جوهرية فى العبارات ، وجعل ما حدث للكتب المقدسة السابقة من أدوار التحريف مقياسا يقيس عليه ما حدث من تخالف القراءات فى القرآن ، وهو جهد باطل ، لأن القرآن حفظت آياته فى الصدور والسطور فى أثناء نزوله ثم دوّن فى المصاحف كما حفظ ، ولكن تلك الكتب لم يحفظها أحد ، بل كتبت وضاعت نسخها ثم أعيد تأليفها فى أزمان مختلفة ، واعترف النقدة من أهلها بأنها حرفت ، فالبون بين الحالتين كبير ؟

حسن حسين

نموذجات من عيون الخطب

كان عمر يقول فى آخر خطبه : « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .

وخطب على رضى الله عنه يوما فقال : « أما بعد فان الدنيا قد اذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم وغدا السباق ، فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرهبة ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل » .

وخطب معاوية بن أبى سفيان يوما وكان شديد الحر فقال : « إن الله خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

وخطب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه وتوليه الخلافة فقال : « الحمد لله ماشاء صنع ، من شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع ، إن أمير المؤمنين معاوية كان حبلا من حبال الله تعالى مده ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين أراد قطعه ، وكان دون من قبله ، وخير من بعده ، ولا أزكيه عند ربه وقد صار اليه ، فإن يعف عنه فبرحمته ، وإن يعاقبه فبذنبه ، وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا آسى على طلب علم ، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئا عسره ، واذا أراد أمرا يسره » .

وخطب سليمان بن عبد الملك فقال : « إنما الدنيا دار غرور ومنزل باطل ، تضحك باكيا وتبكى ضاحكا ، وتخيف آمنا وتؤمن خائفا ، وتفقر مثريا وتثرى فقيرا . اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو الصبح إذا تنفس ، ظلام الليل إذا عسعس » .

التصوف والمتصوفون

— ١ —

لما كان التصوف قد شغل ناحية هامة من نواحى الحركة العقلية الاسلامية بل العالمية من جهة ، وكان أعلام فلاسفة الاسلام كالفارابى وإخوان الصفاء وابن سينا والغزالى لهم فى التصوف آراء نظرية وخطط عملية تسترعى العناية من جهة أخرى ، فقد وجب علينا أن نعرض هنا لهذه الناحية الخطيرة من نواحى الفكر الاسلامى .

اختلف العلماء المستشرقون فى كلمة صوفى ، فذهب بعضهم الى أنها نسبة الى الصفة الأولى التى كان المتنسكون يجتمعون عليها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ونسبها آخرون الى الصفاء ، فلما اعترض عليهم بمخالفة القواعد قالوا : إنها نسبة الى من صافى ربه فصوفى ، ولا بأس بجعل الفعل المبنى للمجهول اسما تلحق به ياء النسب كما جعل المبنى للمعلوم وألحقت به تلك الياء . وقال فريق ثالث : إنها نسبة الى الصوف الذى اشتهر المتنسكون الأولون بلبسه . وقد اختار الأستاذان « كليمان هوار » و « كارادى فو » هذا الرأى . وقال ثانيهما : إنها ترجع الى أصل مسيحى ، لأن رهبان ذلك العهد كانوا — فيما يظهر — يجعلون لبس الصوف شرطا أساسيا للزهادة . ولهذا روى أبو الفرج اليعقوبى فى كتابه « تاريخ الأسر المالكة » عن أمبراطور بيزنطى ترهب « أنه لبس الصوف » . ويستدل « كارادى فو » أيضا على صحة رأيه بقول الغزالى عن المتصوفة : « إنهم أصحاب الصوف » (١) . وقال القشيرى — فيما رواه ابن خلدون فى مقدمته — ما يلى : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس . والظاهر أنه لقب . وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى . قال : وكذلك من الصوف ، لأنهم لم يختصوا بلبسه » .

وقد علق ابن خلدون على هذا الرأى بقوله : « قلت : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف » (٢)

وذهب فريق رابع الى أنها نسبة الى سوفيا الاغريقية وهى : الحكمة . ومن بين هذا الفريق الأستاذ « ميركس » . وقد تبعه فى ذلك الأستاذ جورج زيدان فى كتابه « أدب اللغة

(١) انظر صفحة ٢٤٣ من الجزء الثالث من الاحياء للغزالى .

(٢) انظر صفحة ٤٠٨ من مقدمة ابن خلدون .

العربية » حيث قال : « وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هى : « صوفيا » ومعناها الحكمة ، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة الى الحكمة ، لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثا فلسفيا ، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها .

ويعلق الأستاذ الدكتور على العنانى على هذا الرأى بأنه يحمل فى نفسه عنصر رده ، لأنه من المستبعد أن تنتسب طائفة الصوفية التى تعتبر الانسان عدما الى طائفة السوفسطائية التى تعتبر الانسان كل شىء وتجعله مقياسا للحقائق (١) .

ولكنى أنا أرى أنه لا مانع من أن تكون طائفة الصوفية منسوبة الى «سوفيا» التى كان سقراط صديقها ، بقطع النظر عن انتساب السوفسطائيين الى هذه الكلمة واستقلالهم بها .

ومهما يكن من الأمر فان الذى لاريب فيه هو أن هذه الطائفة من المتنسكين لم تسم بهذا الاسم إلا فى منتصف القرن الثانى ، أما قبل ذلك العهد فكان يطلق عليهم اسم الزهاد أو العبّاد . ويرجع أوائلهم فى الاسلام الى عهد النبى ، ولم ينكر عليهم هذا الزهد أحد : لا صاحب الشريعة ولا أصحابه ، بل أقروهم على خطتهم ، وفضلوهم على المستمتعين المتلذذين ، واعترف لهم كثير من الصحابة بكرامات ومعارف خفية لا تتاح لعامة المسلمين . وقد أسهب الذين كتبوا بتوسع عن الصوفيين فى ذكر هذه المعارف وتلك الكرامات . ثم أيدوها بالآيات والأحاديث وأنباء السلف من الصحابة والتابعين . ومن هؤلاء المسهبين أبو حامد الغزالى ومن هم على شاكلته . وقد وضح ابن خلدون نشأة هذه الطائفة متفقة فى أول الأمر مع الاسلام ، ثم أفاض فى وصف الكشف الذى يفوزون به على أثر هجرانهم للمادة ، وفى أن هذا الكشف يكون عن طريق الشهود ، وفى أن مراتبهم تمكنهم من التصرف فى العالم السفلى تصرفا قويا فقال : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية . وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم « الصوفية والمتصوفة » (٢) الى أن يقول : « ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شىء منها ، والروح من تلك العوالم . وسبب هذا

---

(١) انظر مذكرات الدكتور على العنانى صفحة ٤٥ من الفلسفة العربية .

(٢) انظر صفحة ٤٠٨ من مقدمة ابن خلدون .

الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر ، فانه كالغذاء لتنمية الروح ، ولا يزال فى نمو وتزيد الى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس ، ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها وهو عين الادراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهى ، وتقرب ذاته فى تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى : أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ، وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمتهم وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم ، فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شىء لم يؤمروا بالتكلم فيه ، بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه إذا هاجهم . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، كان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية . وفى فضائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم كثير منها . وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم » (١)

غير أن الأمر لم يقف عند هذه الزهادة الأولى ، إذ لم يلبث التنسك أن تطور وامتزجت به عناصر إغريقية وهندية ومانوية ، فأصبح المتنسكون يعتقدون أن العقل البشرى قد عجز عن حل مشاكل الكون ، وأن المتكلمين لم يزيدوا بمناظراتهم عقدة الوجود إلا صعوبة وإشكالا ، وأنه لم يبق لكشف هذا السر إلا طريق واحد وهو طريق النور والبصيرة ، وهذا لا يتيسر إلا بازالة حجاب المادة الكثيف القائم بين الانسان وخالقه ، وبقطع علائقه بعالم الشهادة والملك وخلوصه الى عالم الغيب والملكوت ، وكل ذلك لا يتم إلا باحتقار كل هذه الحياة وما تزخر به من أفانين المتع وضروب الملذات . وهذا كله حسن لا بأس به إلا من ناحية إضعاف الشوكة الاسلامية التى أمر الوحى بأن تظل قوية عزيزة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولكن المسلمين — مع وجود هذه الروح المضعفة للقوة فى تعاليم المتنسكين — لم يحنقوا عليهم لهذا الزهد ولم ينكروه عليهم ما دام النبى وأصحابه قد أقروا أصله ، فظل لهم المقام الأول فى نفوس عامة المسلمين وخاصتهم الى أن ظهر ما أسميه (التصوف النظرى) وهى آراؤهم المؤسسة على الحلول ووحدة الوجود الآتيين من الفلسفة الهندية والأفلاطونية الحديثة ، والتى عدها المسلمون خطرا على دينهم ، واضطهدوا القائلين بها وقتلوا الحلاج من أجلها ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

ولعل من البواعث التى حملتهم على تشرب فكرة وحدة الوجود أنهم لما رأوا أسلافهم

(١) انظر صفحة ٤٠٩ و ٤١٠ من المقدمة المذكورة .

قد اتصلوا بعالم الملكوت على أثر قطع علائقهم بالمادة أيقنوا أن المادة لم تكن إلا حجابا بين الفرع الذى هو النفس البشرية ، والأصل الذى هو الإله ، وإذا كان ذلك هكذا ، كان الكل صادرا عن البارى ، وما عاد الى مصدره استضاء ، وما ابتعد أظلم ، وما منشأ ظلمة المادة إلا ابتعادها عن مصدرها الذى هو الكل الأوحد . ولاريب أن هذا هو مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد أدخل عليه المتأخرون منهم بعض تغييرات أخذوها من فرقتى الاسماعيلية والرافضة ، مثل القول بقطب الوقت المتصرف فى شئون الكون ، وماشا كل ذلك . وفى هذا يقول ابن خلدون : « إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك ، فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه ، وملأوا الصحف منه مثل الهروى فى كتاب « المقامات » له وغيره ، وتبعهم ابن العربى وابن سبعين ، وتلاميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصائدهم . وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية والمتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم ، وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه : (رأس العارفين) يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان » (١) .

هذا وسنتحدث إليك فى الكلمة التالية عن لغة المتصوفين وعن شىء من آرائهم النظرية وأنهاجهم العملية . فالى اللقاء .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

يتبع

(١) انظر صفحتى ٤١٢ و ٤١٣ من هذه المقدمة المذكورة .

كتمان السر فضيلة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وقال عمرو بن العاص : « الصدور خزائن الأسرار ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ مفتاح سره » .

وقالوا : « إذا ضاق صدرك عن نجواك ، فكيف تستكتمه سواك » !

وقال آخر : « كن على سرك ، أحرص منك على حقن دمك » .

وقال ابن نباتة السعدى :

صن السر عن كل مستخبر   وحاذر فما الحزم إلا الحذر
أسيرك سرك إن صنته   وأنت أسير له إن ظهر

الصلة بين الدين والفلسفة

يقول الأستاذ موريس ولف فى كتابه (تاريخ فلسفة القرون الوسطى) ج ١ ص ٢٠٩ : « إن التوفيق بين الفكر الفلسفى وبين العقيدة الاسلامية كان من أكبر ما انصرفت اليه عناية الفلاسفة العرب ، غير أن أغلبهم يفرق بين المفسر الذى يوضح الطريق بالدراسة الفلسفية ، وبين المفسر الذى يراعى فى تأويله القرآن تأويلا حرفيا . وهذا التوفيق بين القرآن والفلسفة هو الذى يطلق عليه كارادى فو المدرسة الاسلامية »

وكان فلاسفة الاسلام مسلمين مخلصين لدينهم يعتقدون كما يقول المستشرق تنمان : « أن الاسلام هو أكمل وحى إلهى ، فلئن حاولوا التوفيق بين مذاهب الفلسفة التى يحبونها وبين عقائد الاسلام الذى يؤمنون به فما ذلك إلا لكى يدرءوا عن أنفسهم شبه الأشعرية وغير الأشعرية الذين كانوا يرمونهم بالمروق والالحاد لاشتغالهم بالفلسفة » .

والحق أن أولئك الفريق من الفلاسفة كانوا يرون للفلسفة مكانها اللائق ، وللدين حرمته المقدسة ، كل منهما يؤدى وظيفته فى الحياة من غير مصادمة أو نزاع ، فالفيلسوف يصل عن طريق العقل الى إدراك الأمور النظرية من البحث فى العقائد والنظر فى الحقائق العقلية .

أما النبى فهو يدرك من طريق الوحى الحقائق العملية وطرفا من الحقائق النظرية ، ووظيفته عملية تشريعية أكثر منها نظرية . كانوا يرون أن مهمة النبى هى تحقيق العدل الإلهى فى هذا العالم ، وأن مهمة الفيلسوف هى التشبه بالله فى كمال المعرفة .

وبهذا المعنى كان يقول الفارابى فى رسالته المسماة (فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة) :

« أما الغاية التى يقصد اليها فى تعلم الفلسفة فهى معرفة الله تعالى ، وأنه واحد غير متحرك ، وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله . وأما الأعمال التى يعملها الفيلسوف فهى التشبه بالخالق بمقدار طاقة الانسان »

فالفارابى لا يرى بين الفلسفة والدين تعارضا ولا منافرة ، وإن كان بينهما ثمة خلاف فهو ظاهرى ، لأن الشريعة تخاطب جمهور الناس الذى لا يستطيع إدراك أسرار الأمور وبواطنها بقدر ما يدركه الفلاسفة بالبرهان والقياس ، لهذا خاطبهم الشرع حسب استعدادهم وإدراكهم .

وفى رسالة الفارابى المسماة (الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو) نراه يفسر لنا الوجود تفسيرا فلسفيا لا يتعارض لما جاء به الدين الاسلامى ، قال : « والبرهانيات موكولة الى ذوى الآراء السديدة ، والشرعيات موكولة الى ذوى الالهامات الروحانية ، وأعم هذه كلها

الشرعيات ، وألفاظها خارجة عن مقادير عقول المخاطبين . لذلك لا يؤاخذون بما لا يطيقون تصوره ، فإن من تصور فى أمر المبدع أنه جسم وأنه يفعل بحركة وزمان ثم لايقدر بذهنه على تصور ما هو ألطف من ذلك وأليق به ، ومهما توهم أنه غير جسم وأنه يفعل بلا حركة وزمان ، لايثبت فى ذهنه معنى تصور ألبتة ، وإن أجبر على ذلك زاده غيا وضلالا ، وكان فيما يتصوره ويعتقده معذورا مصيبا ، ثم يقدر بذهنه أنه غير جسم وأن فعله بلا حركة ، غير أنه لا يقدر على تصور أنه لا فى مكان ؛ وإن أجبر على ذلك وكلف تصوره تبلد فانه يترك على حاله ولا يساق الى غيرها ؛ وكذلك لايقدر الجمهور على معرفة شىء يحدث لا عن شىء ويفسد لا الى شىء . فلذلك قد خوطبوا بما قدروا على تصوره وإدراكه وتفهمه . ولا يجوز أن ينسب شىء من ذلك فيما هو فى موضعه الى الخطأ والوهى ، بل كل ذلك صواب مستقيم . فطرق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع منشؤها عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالابداع الوحى والالهامات .

ونرى فى هذه الرسالة أيضا أن الفارابى يستعرض آراء أفلاطون وأرسطو فى عدة مسائل ، ويحاول فيها أن يبين عدم وجود خلاف بين آرائهما وبين العقيدة الاسلامية ، وخاصة فى الموضوعات التى شغلت علماء الكلام ، وهى قدم العالم ، وإثبات وجود الصانع ، وأن الثواب والعقاب حق فى العالم الآخر .

أما الفيلسوف ابن سينا فيقول : الضرورة تقضى بأن يكون فى هذا الوجود نبى يسن القوانين الموحى بها من الله ، وليقيم العدالة بين بنى الانسان . وفى كتابه النجاة ص ٥٠٠ ملخص لرأيه ، فهو يقول :

« الأصل فيما يسنه النبى تعريفه إياهم (أى الناس) أن لهم صانعا واحدا قادرا ، وأنه عالم بالسر والعلانية ، وأنه من حقه أن يطاع أمره ، وأنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق ، وأنه أعد لمن أطاعه المعاد المسعد ولمن عصاه المعاد المشقى ، ولاينبغى له أن يشغلهم بشىء من معرفة الله تعالى فوق أنه واحد حق لا شبيه له . فأما أن يتعدى بهم الى تكليفهم أن يصدقوا بوجوده وهو غير مشار اليه فى مكان فلاينقسم بالقول ولا هوخارج العالم ولا داخله ولا شىء من هذا الجنس ، فقد عظم عليهم الشغل ، وشوش فيما بين أيديهم الدين ، وأوقعهم فيما لا يخلص عنه إلا من كان الموفق الذى يشذ وجوده ويندر كونه ، فانه لا يمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكد .

وإنما يمكن القليل منهم أن يتصور حقيقة هذا التوحيد والتنزيه ، فلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذا الوجود او يقعوا فى الشارع وينصرفوا الى المباحثات والمقايسات التى تصدهم عن أعمالهم البدنية وربما أوقعتهم فى آراء مخالفة لصلاح المدينة ومنافية لواجب الحق ، فكثرت

فيهم الشكوك والشبه، وصعب الأمر على اللسان فى ضبطهم، فما كل متيسر له فى الحكمة الالهية . ولا يصح بحال أن يظهر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامة ، بل لا يجب أن يرخص فى التعريض بشيء من الأشياء التى هى عندهم عظيمة وجليلة ويلقى اليهم منه هذا القدر ، أعنى أنه لا نظير له ولا شبيه ولا شريك . وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كيفيته ، وتسكن اليه نفوسهم ، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه » .

يتضح من كلام ابن سينا أن الناس عنده فريقان : فريق الخاصة وفريق العامة . فالخاصة هم أهل النظر العالى والتفصيل العقلى ، وأما العامة فهم أصحاب العقول الساذجة ، والواجب أن لا يلقى اليهم إلا ما تطيقه قواهم العقلية وتتحمله سذاجتهم الذهنية .

وأما الدين فهو فى نظر ابن سينا هداية المجموع الى سعادة الدارين ، والفلسفة عبارة عن تزود الفيلسوف بزاد العلم والبحث ليصل الى المعرفة التفصيلية التى ينشدها .

ويقول للوصول الى السعادة الحقيقية : ينبغى أن يتوافر فيها ركنان ، أحدهما نظرى والآخر عملى .

أما الركن النظرى فهو كمال المعرفة ، وكمال المعرفة يستدعى أمورا أحدها تصور المبادئ المفارقة تصورا حقيقيا ، والتصديق بها تصديقا يقينيا . والثانى معرفة العلل الغائية للأمور الواقعة فى الحركات الكلية دون الجزئية . والثالث معرفة النظام الكلى والترتيب الذى عليه الكائنات من المبدأ الأول الى أحط الموجودات . والرابع تصور العناية الالهية وكيفيتها ، وأخيرا توثيق الرابطة بين العالم الأرضى والعالم الآخر بالشوق اليه .

أما الركن العملى فتنزيه النفس أى تبعيدها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة ، وهذا التنزيه لا يحصل عفوا ، ولكن بعملية التجريد: أى بصرف النفس عن عالم الحس لتتلق الأخلاق والملكات حتى لا تتأثر بعوامل الماديات من الأحوال البدنية وخلافها ، وبهذا يستطيع الانسان أن يحصل على السعادة بعد الموت .

ويقول الامام الغزالى فى كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » ما نصه :

أما بعد فقد سألتنى أرشدك الله عن الأخبار الموهمة للتشبية عند الرعاع والجهال من الحشوية والضلال ، حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم ، والنزول والانتقال ، والجلوس على العرش والاستقرار وما يجرى مجراه ، فهذا الكلام تأييد لمذهب ابن سينا وغيره من الفلاسفة الذين يرون وجوب صرف العامة عن البحث فى حقائق الدين ، بل يترك أمر الدين الى أهل المعرفة والعلماء . والفيلسوف الأندلسى ابن طفيل يرى أن الحقيقة المجردة الخالصة لا يحسن أن يصرح بها للعامة المكبلين فى عالم الحس ، وقد أورد هذا الرأى فى كتابه الفلسفى (حى بن يقظان) » .

أما الفيلسوف ابن رشد فيقول فى كتابيه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) و (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة) : إن الحكمة الالهية تطابق الشرع ولا تخالفه ، وإن الشرع أوجب النظر فى الموجودات واعتبارها . ولما كان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس العقلى ، فوجب أن نجعل نظرنا فى الوجود بالقياس العقلى ، وإذا كان قد عرض لصناعة القياس العقلى سوء استعمال من قبل بعض الناس كما عرض لغيرها من الصناعات ، فليس معنى هذا أن يصرف سائر الناس عنها أو أن ينهوا عن محاسنها . إذن فالشرع يدعو الى النظر بالبرهان العقلى .

وفى موضع آخر نرى ابن رشد يقول : إن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فذلك الظاهر يقبل التأويل ، على أنه ليس ينبغى أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل فللتأويل أحكام يجب مراعاتها .

وقد قال على كرم الله وجهه فى هذا : «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ! » .

ولما انتهى المسلمون من فتوحاتهم أخذوا يفكرون ، فظهرت لهم مسائل تعوز الحل ، فاختلفوا فيها ، ونشأت مذاهب فكانت حركة الجدال فى هذه المذاهب فى العصر الأموى عظيمة ، وكان لها أثر كبير فى العلم وفى السياسة وفى الأدب ، وقد أنتجت هذه الحركة الفرق الدينية التى أخذت تتصاول فى ميدان البحث ، إلا أنها لم تصل الى درجة القواعد المنظمة والعلوم المتميزة والشرح المحكم ، وخاصة فى العلوم الفلسفية واتصالها بالدين ، إلا فى صدر العصر العباسى لما أخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأساس الذى وضعه العلماء فى الدولة الأموية مستعينين بما وصلت اليه الأمم قبلهم .

عبد الحميد سامى بيومى

الاقتصاد فى الكلام

قال ابن مسعود رضى الله عنه : « لسانك سيف قاطع يبدأ بك ، وكلامك سهم نافذ يرجع عليك ، فاقتصد فى المقال ، وإياك وما يوغر صدور الرجال » .

وقال أعرابى : « الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل ، فاذا تكلم عاد أسيرا فى وثاقها » .

وقالوا : « من أطلق لسانه بما يحب ، كان أكثر مقامه حيث لا يحب » .

وقال صعصعة بن صوحان : « طول اللسان يقصر الأجل ، وخطأ القول يصيب المقتل »

الصيام فى نظر العلم

أظلنا شهر رمضان ، وهو كلما أهل أعاد الى أذهاننا عبادة جليلة الأثر من ضروب العبادات فى الاسلام . وأذكر أنه قد سألنى سائل يوما عن العلة فى سرعة ارتقاء المسلمين الأولين ، سرعة لم يعهد لها مثيل فى أمة من الأمم ، وكان يتوقع أن أجيبه من الناحية الاجتماعية البحتة ، فقلت له : يرجع أكبر الأثر فى ذلك الى أنواع العبادات فى الاسلام .

فقال ، وقد عجب من إجابتى : وكيف ذلك ؟

قلت : أول تلك العبادات الصلاة ، وهى تبدأ بقول المصلى : « الله أكبر » ومؤداها استصغار كل ما سوى الله ، فلا النفس ولا الأهل ولا المال ولا المتع الجسدية بذات خطر بجانب الله . وهذه العبارة تتكرر فى كل ركعة بضع مرات ، فلا يكاد يقطع المصلى عن التفكر فى صلاته قاطع حتى يقول : الله أكبر ، قائما وراكعا وساجدا وجالسا ، فيضعف سلطان الأغيار على نفسه ، وبضعفها يكمل اتصاله بقيوم السموات والأرض ، فيستمد منه حياة أدبية ، وقوة معنوية لم يكن ليتخيلها ، وبإدمان الصلاة خمس مرات فى اليوم تتبدل حاله ، وتكمل رجولته ، ويتحقق استقلاله ، ويحس فى نفسه بأنه من ضمن القوى المسخرة لتنفيذ مقاصد الخالق فى الأرض .

وثانى العبادات : إيتاء الزكاة ، وهو نظام اقتصادى فذ لم يشارك الاسلامَ فيه أى نظام اجتماعى ، وتتطلبه أوربا وأمريكا فلا تستطيعان أن تنالاه ، وقد حمى حياة جماعات المسلمين من الفقر أجيالا طويلة ، والفقر مدعاة للانقلابات الخطيرة ، ولاختمار روح الحرب الأهلية

وثالث العبادات : صوم رمضان ، وهو أسلوب آخر من أساليب تعريض الانسان لنفحات مبدعه ، فإن فى إجاعة الجسد تغليبا للروح عليه ، ومتى تم لها الغلب عليه دفعته الى عالم السمو دفعا ، وكان تخلقه بالمُثُل العليا طبعا لا تكلفا .

ورابع العبادات : الحج ، والغاية منه تحقيق الوحدة الاجتماعية تحقيقا عمليا ، وإشعار كل فرد من المسلمين بأنه عضو من جسد واحد لا معدى له عن التكافل معه .

فمجموع آثار هذه العبادات يخلع عن عنق الرجل المسلم نير الطبيعة ، ويخلى بينه وبين مصدر القوى العلوية فيستمد حوله وطَوْله مباشرة منها ، فلا عجب أن يكون فى توثبه الى أغراضه أسرع وصولا وأكثر محصولا من غيره .

كان هذا جوابى لمن سألنى عن سبب السرعة المحيرة للعقل التى استولى بها المسلمون على الزعامة العالمية فى الأرض .

وعلى ذكر الصيام نقول : إن له فوق ثمرته الروحانية القيمة ، ثمرةً جسدية لا يستهان بها ، إن أدِّى على وجهه ، ولم يتخذ وسيلة للإسراف فى تنويع الأطعمة والافراط فى تناولها .

ذلك أن الجسم الانسانى على اختلاف أعضائه وآلاته مؤلف من خلايا ميكروسكوبية كل منها يتركب من كيس غشائى محوية فيه مادة حية يقال لها البروتوبلاسما ، وفى وسطها نواة صغيرة . هذه الخلايا تغتذى من الدم الذى يتخللها بواسطة عروقه وأوعيته التى لا تحصى ، فتأخذ منه ما يقيم أودها ، ويعينها على أداء مهمتها ، وكلما كان الدم نقيا غير حامل لمواد أجنبية كانت صحة هذه الخلايا جيدة ، وحالة الأعضاء التى تتألف منها طبيعية ، ولكن إذا دخل الى باطن هذه الخلايا مواد أجنبية عنها ، أو بقايا متخمرة من أغذية فاسدة ، اعتلت صحتها ، وضعفت الأعضاء والآلات التى تتألف منها ، وشعر الجسم بحالة مرضية تستدعى المعالجة والعناية .

وهذه الاختمارات التى تحدث فى المعدة والأمعاء من جراء التغذى ، كثيرا ما يتولد منها ميكروبات تهاجم الخلايا الجسدية وتثقبها وتتكاثر فيها وتفسدها ، ويمتد تأثيرها الى عدد لا يحصى من الخلايا المجاورة ، فتصيب العضو الذى تقع فيه بمرض عضال قد يفضى الى موت صاحبه .

نعم : إن الخالق الرحيم جعل من هذه الخلايا جنودا ، وأقدرها على مكافحة الميكروبات وابتلاعها وملاشاتها ، ولكن قد يكون عدد الميكروبات كبيرا فلا تقوى هذه الخلايا المجندة على التغلب عليها ، فتشتد وطأتها على الجسم ، وتورده حتفه بعد معاناته آلاما مبرحة .

فالويلات التى يكابدها الانسان من ناحية الأغذية التى يتناولها لا تقف عند حد ، وهى ليست كذلك لأنها ضارة بطبيعتها ، ولكن لأن الانسان لا يتبصر فى تناولها . فقد اعتاد أن يألف أكل أشياء لا يصح أن تؤكل أصلا ، أو لا يصح أن يستكثر منها . وهو على أى حال قد تعوّد أن يتناول من الأطعمة أربعة أو ثلاثة أضعاف ما يكفيه منها ، وهو لم يتعود ذلك إلا من ناحية التربية . فقد كان أبواه لا يدخران وسعا فى تحضيضه على الأكل ، توهما منهم أن هذا يقويه وينشئه تنشئة ضليعة .

وقد ثبت أخيرا أن الأطفال الذين يُنَشَّئون على أغذية قليلة تطول حياتهم الى أكثر من ثلاثين سنة بعد السن العادية لموت الانسان . وقد جربوا ذلك فى الفيران ، وهى أشبه الحيوانات بالانسان ، من حيث التأثر بالعوارض ، فأتوا بفيران صغيرة أطعموها قليلا ، وأخرى تركوها تأكل كما تشاء ، فشبت الأولى نحيلة ولكنها عاشت ثلاث سنين صحيحة ، وشبت الثانية بدينة ولم تعمر غير سنتين ، وهو عمرها العادى ، وقد كررت هذه التجربة لتكون حاسمة .

فتأثير الأغذية فى صحة الانسان بعد كل هذه التجارب لا يمكن أن تكون محل نزاع ، وقد عرف ذلك من أقدم عهود الانسانية ، فقال أبوقراط ، وكان عائشا قبل المسيح بنحو

خمسة قرون : « أكل الناس أكل السباع فرضوا ، فغذوناهم بأغذية الطيور فصحوا » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما أهداه المقوقس عامل مصر بطبيب : « نحن لا حاجة لنا بطبيب لأننا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ، إشارة حكيمة الى أن سبب أكثر الأمراض الأغذية .

فمن الذى يطوف بفكره وهو يتناول الطعام على مائدة مُوقرة بأطيب الألوان أن أكثر ما يستدر لعابه منها ، ينغص عليه عيشه ويقصر من أيام حياته ؟ وليست التبعة فى ذلك تقع على تلك الطيبات ، وإنما تقع على طريقة صنعها ، والاسراف فى تدسيمها وتتبيلها ، وعلى متعاطيها فى التبسط فى تناولها ، وفى تكرار العود اليها قبل الخلاص من البقايا المتخلفة منها .

فمهمة الصيام فى هذه الحالة ، إن أداه القائم به على وجهه الصحيح كما رسمته السنة النبوية ، تعتبر من أمس المهام بصحة الانسان ، وأعودها بالخير والبركة عليه ، لأنه باقتصاره على وجبتين يترك للقناة الهضمية وقتا كافيا للتخلص من الفضلات المتخلفة فيها ، وتجد عوامل التطهير فى البنية فرصة سانحة للقيام بواجباتها ، فلا ينقضى رمضان حتى يكون الجسد قد أفرز كل ما يكون قد تراكم فيه من سموم الأغذية ، وبقايا التخمر ، وتكون حوافظ الأعضاء من شر الميكروبات قد أتت عليها اصطلاما وإبادة ، فيخرج الصائم من رمضان وقد تبدل شخصا آخر .

ولكنه إن تعدى ما رسمته السنة النبوية من القصد فى التغذى ، وإعطاء الروح حقها من الورع ، والقلب حظه من الطهر ، فأسرف فى تناول مشتهياته ، وغَلَّب على نفسه سوء الخلق ، وشغل لياليه باللهو والسهر ، فلا عجب إن خرج من الصيام مُوقرا بأعراض السموم الغذائية ، والافراطات الشهوانية .

من أضر ما تعوده الناس فى رمضان أن يكثروا من أكل ألوان الحلوى ، والحلوى تصنع عادة من السكر الصناعى ، وهذا السكر معتبر علاجا لا غذاء ، فلا يسمح بالأخذ منه إلا فى حدود معينة . وهو خلاف السكر الطبيعى الموجود فى العسل والفاكهة ، وهو سكر صحى لا يضر أكله بل ينفع ويدفع أعراضا مرضية كثيرة . فان قيل : إن أصل السكر الصناعى نباتى ، قلنا : إن توالى عمليات الاماعة والتصفية عليه تفسد العناصر العضوية التى فيه ، وتحيله الى محصول صناعى لا يفيد الجسم بل يضره . وقد ألف الدكتور (كارتون) من كلية باريس كتابا أسماه (الأغذية الثلاثة المميتة) اللحم والكحول والسكر ، شن فيه على السكر غارة شعواء ، ولم يسمح لصحيح البنية بأن يتعاطى منه يوميا أكثر من أربع قطع ، وهى ما تكفى لتحلية كوب من شراب الليمون .

الصيام أسلوب عملى للتطهير الجثمانى والروحانى معا ، فيجب أن تعرف لهذه الصفة ، ويجب أن لا يخرج به عن حده ، وإلا انقلب شرا على كليهما معا .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

إن نظام الوقف بقطع النظر حتى عن مبدأ الشريعة الاسلامية نظام يسيغه العقل وتبرره مصلحة المجتمع بما يحمله فى أطوائه من خير لمصلحة الواقف والموقوف عليه .

روى صاحب الإسعاف عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال: «لم أر خيرا للميت ولا للحى من هذه الحبوس الموقوفة . أما الميت فيجرى أجرها عليه ، وأما الحى فيدفع بها عنه حوادث الأيام وعوادى الليالى .

ولدى الأمم المسيحية نظام يشبه نظام الوقف فى الاسلام حفزت اليه حاجة المجتمع . فقد روى العلامة عبد الفتاح السيد بك المستشار بمحكمة النقض أن الأمم غير الاسلامية حين أدركت ما فى الوقف من مزايا قيمة وأغراض نبيلة عنى كثير منها بوضع نصوص فى قوانينه لتنظيم نوع من التصرف يشبه الوقف فى معناه وأغراضه وآثاره عندنا من صرف الريع فى وجوه البر والخير .

وتلك الأغراض السامية وإن لم تبد جلية إلا فى الوقف الخيرى فإن ضمان حاجات ذوى القربى أولى بعناية الواقفين كما لا يخفى ، وقد شرط المسلمون أن كل وقف أهلى لا بد من أن ينتهى الى جهة بر ، وإلا كان باطلا باجماع الأئمة . ولئن كان قد أصيب هذا النظام فى الغاية منه بجماعة من نظار الأوقاف فلا يغض هذا الفساد من قيمة الوقف فى ذاته .

وقد دأب القضاة الشرعيون على بث ملاحظاتهم لوزارة الحقانية ورفع تقاريرهم مستفيضة بأوجه العلاج التى تكفل صون حقوق المستحقين وكف يد العابثين من النظار .

فإذا أخذ القانون على أيديهم فما أسرع أن يصبح هذا النظام وارف الظلال مبارك الثمرات ، والأيام المقبلة القريبة كفيلة بوضع الضمانات التى تأخذ على العابثين طريقهم فتوحى الى القلوب رشادها والى العقول هداها .

إن بعض لوائح المحاكم الشرعية التى بطل العمل بها لم يضع حدودا فاصلة بين اختصاصات الولاية القضائية الأهلية وبين اختصاصات الولاية القضائية الشرعية فى كثير من موادها حتى طغت الأهلية على الشرعية استنادا الى أحكام صدرت من المحاكم الأهلية .

فقد قضت المحاكم الأهلية بوساطة أحكام ذات مبادئ صدرت من ابتدائية مصر تقضى تلك الأحكام بأن الولاية القضائية الأهلية تختص دون المحاكم الشرعية بالفصل فى المسائل الآتية على اعتبارانها ليست داخلة فى حدود الوقف من حيث أصله الذى ينعقد به :

(١) مسائل البدل و الابدال (٢) الفصل فى أى الناظرين أحق بالنظر : الناظر المعين بشرط الواقف ، أم الناظر المعين من قبل القاضى (٣) الفصل فيما إذا كانت العين موقوفة أو ملكا (٤) قسمة الأعيان الموقوفة (٥) الطعن فى الوقف لصدوره فى مرض الموت (٦) حراسة الأعيان الموقوفة (٧) سماع الادعاء بالتزوير فى كتاب الوقف (٨) المنازعات المتعلقة بوضع اليد (٩) إبطال الوقف الضار بالدائنين .

فالمحاكم الأهلية تذهب الى أن المحاكم الشرعية ليس لها أن تعتبر مسائل الأوقاف داخلة فى ولايتها القضائية إلا من حيث أصل الوقف ، وأصل الوقف عرفا هو مجموع شروط تصحح انعقاده ووقوعه من الواقف باشهاد يضبطه أمام الجهة المختصة ، والشرائط المصححة لهذا الاشهاد متعلقة بصفة الواقف وأهليته وبالموقوف وبالموقوف عليه ، فإذا وردت مسألة ليس لها صلة بتلك الشروط المصححة لأصل الوقف كانت داخلة فى اختصاص الولاية القضائية الأهلية . وقد ضربوا لتلك النظرية مثلا تدليلا على وجاهة نظريتهم بمسألة لاسبيل للولاية القضائية الشرعية الى إنكارها وهى إبطال صفة الوقف للعين التى استدان عليها الواقف بما يستغرقها أو يستغرق أكثرها ، رعاية لمصلحة الدائنين وتفاديا من ضررهم طبقا للمادتين ٥٣ و ١٤٣ من القانون المدنى ، فأصدرت الولاية القضائية الأهلية أحكاما عديدة بابطال صفة الوقف للعين التى وقفها الواقف وتبين أن هذا الوقف كان فرارا من إيفاء الغرماء حقوقهم .

على أن الولاية القضائية الأهلية لا تعرض فى ممارسة هذا الحق للحكم ببطلان العين الموقوفة التى قصد بها الهرب من الغرماء لصحة الوقفية من حيث شرائطها المصححة لها ، بل للابقاء على مصلحة الدائنين وهو ما يتعلق بحق الغير ، وليس فى هذه الحالة أن يكون منطبقا إلا على الولاية القضائية الأهلية .

ويذهب القضاء الشرعى مذهبا آخر فى هذا التأويل فينكر بادئ ذى بدء على لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تفسير أصل الوقف بشرائطه المصححة له ، ويستمسك بأن المراد بأصل الوقف الاشهاد الذى ضبط به الوقف من ألفه الى يائه ، سواء تعلق هذا الاشهاد بالأصول المصححة للوقف ، أو بما كان خارجا عن هذه الشروط ، فمسائل الوقف بقضها وقضيضها داخلة فى اختصاص المحاكم الشرعية ليس غير .

ورتبت الولاية القضائية الشرعية على تلك النظرية نظرية أخرى ، فقضت بأنه إذا حصل نزاع فى صفة عين من الأعيان فادعاها أحد الخصوم ملكا منحازا اليه وادعاها الآخر وقفا ، تعين على المحاكم الأهلية فى هذه الحالة وقف نظر الدعوى المتنازع عليها وإحالة الخصوم على المحاكم الشرعية .

عباس طه
المحامى الشرعى

الاشتراك فى مجلة الازهر

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التعويل على نظام الوكالة فى التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التى أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتعويل على القاعدة الحديثة وهى دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشتركين وللصحف معا . فاما فائدتها الاولين فلانها تجنبهم ثقل المطالبة التى ربما وقعت فى وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ما عليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفى ذلك من الضرر المالى على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة ينشئ لادارة المجلة بطبيعة عمله متاعب لا تحصى بسبب تحرير كشوف للتحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والخلافات التى تثور بذلك السبب بين الادارة والمشتركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والمجىء وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشاكل يحلها شىء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ما عليهم فى أى وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها المحرم ، فان تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذانا منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأت إدارة هذه المجلة أن تتبع هذه الطريقة التى تجنبها وتجنب قراءها ووكلاءها عنتا لاداعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بايصالها إلينا فى الوقت المضروب لتقديمها ، وتجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة .

فنرجو حضرات قارئينا أن يعذرونا فى الجرى على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل عنه

أو غير ذلك ؛ فإنا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، وتقبل منه أن يقدم لنا كلما سنحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتمه .

وعليه فنرجو حضرات القارئين أن يقدموا لنا قيم اشتراكاتهم قبل أول العام الهجرى الجديد ، لنقيد أسماءهم فى سجلات جديدة ، ولتصل اليهم أعداد المجلة فى وقت صدورها .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية :

تفضل حضرة صاحب السمو الأمير الكبير عمر طوسون فأهدى الينا مؤلفه العظيم (تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية) وهو عمل ضخم (١٣٣٨ صفحة) يدل على ما لسمو الأمير من القدرة على سرد الحوادث وضبطها وتحليلها وبيان عللها ونتائجها ، وذلك فى سلسلة طويلة من الماجريات تبتدىء سنة ١٨٦٩ ، وهى السنة التى فتح فيها عاهل مصر الكبير الخديو اسماعيل هذه المديرية، الى سنة ١٨٨٩ وهى السنة التى أبرمت فيها معاهدة بين مصر والانجليز على أن تعود حدود السودان الى ما كانت عليه قبل الثورة المهدية .

فى هذا المجال تتجلى موهبة سمو الأمير الكبير فى سرد الوثائق الرسمية ، والأدلة المستمدة من عدد كبير من المؤلفات الأجنبية الخاصة بالأقطار السودانية ، واستخراج الحقائق المنشودة منها . ومقصده الكريم من كل هذا إقامة الحجة القاطعة على أن هذه المديرية مصرية بحتة ، وأنها من حق مصر رغما عن جميع التمويهات الاستعمارية .

وقد حلى الكتاب بخرائط لمصر والسودان ، وصور وفهرستات . وبالجملة فقد رأينا أن كتاب الأمير أمير الكتب . متعه الله بالصحة الكاملة ، وأطال فى حياته المباركة ليكون دائما المثل الأعلى للوطنية الصحيحة والكرامة القومية !

استدراك مهم :

لوحظ بعد توزيع طائفة من نسخ كتاب (تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية) تأليف حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون : أن خريطة مصر والسودان التى باجزائه الثلاثة كتب فيها خطأ هذه الجملة : « السودان المصرى الانكليزى » ، فنلفت نظر المهدى اليهم هذا الكتاب اليها ليمحوا منها كلمة : (الانكليزى) أو يطمسوها ، إذ من المعروف بداهة أن السودان فى الوقت الذى عملت فيه هذه الخريطة وهو سنة ١٨٦٨ — ١٨٧٨ م كان مصريا بحتا ، ومن رأى سموه أنه لم يزل كذلك الى الآن .

الدروس الدينية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

كنا نريد أن نصدر هذا العدد شاملا النص الكامل للدرس الأول الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى بمسجد السيدة زينب وشهده حضرة صاحب الجلالة الملك ، متابعة للسنة الكريمة التى سنها ، ولكن اتفق أن انحرفت صحة فضيلة الأستاذ الامام فتعذر عرض التجربة النهائية عليه لاقرارها ، فأرجأناه للعدد المقبل مشفوعا بالنص الكامل للدرس الثانى إن شاء الله

أتم الله لفضيلته نعمة الصحة ، وأمتع الناس به عَلَم علم وهدى وإرشاد .

إدارة التحرير

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يهنىء شعبه ويسديه نصحا ساميا

إن للملك فى الاسلام ، وفى علم الاجتماع ، تقاليد وسننا إذا روعيت على وجهها الأكمل دفعت بالشعوب الى باحات الارتقاء ، وساعدت على حصولها على كل أسباب المجد والعلاء . رأس تلك التقاليد أن يمثل الملك المثل الأعلى للشعب فى كل مايجب أن يكون عليه ، وأن يسبقه الى كل ما ينبغى أن يعمله ويقوم به ، وأن تكون صلته بجميع طبقات الشعب تامة ، بحيث يحس بوجوده وبقربه منه أيأس الناس من الاتصال به . إذا تم هذا لشعب تمهدت أمام آحاده سبل الانتقالات الاجتماعية السريعة ، وأحس بسائق القيادة الرشيدة يهيب به الى السير ، ويمده فيه بالارشاد والهداية ، ويحوطه بالعناية والرعاية ، فيمضى قُدُماً لا يلوى على شىء ، فيصل فى سنين الى ما لايمكن الوصول اليه فى أجيال .

هذا النوع من تولى أمر الشعوب كان الوصف المميز للخلفاء الراشدين ، فكانوا قريبين من رعاياهم ، متصلين بهم بحيث يحس كل فرد منهم أنه فى كنف أب رحيم ، يؤثرهم على نفسه ، ويختصهم بعطفه ، ولا يألوهم نصيحة فيما جل أو صغر ، ويشاركهم فى أفراحهم وأتراحهم .

يعجب الناس كلما قرءوا أن الاسكندر المقدونى قد فتح آسيا الصغرى بجيش لا يتجاوز عدده خمسين ألفا ، وهزم جنودا لاتحصى أرسلت لتمنعه التوغل فى بلادهم . وهذا لا يرجع الى عبقرية الاسكندر الحربية بقدر ما يرجع الى مكانته من قلوب جنوده ، وشدة تعلقهم به واعتقادهم أنه منهم وهم منه . أصاب جيشه عطش وهو يخترق سهوب آسيا الصغرى ، وعطش هو نفسه معهم ، فأراد قواده أن يؤثروه بكوب من الماء بذلوا جهدا فى الحصول عليه ، فتناوله منهم وصب مافيه على الأرض وقال : « لا أشرب وجيشى ظمآن » !

وقد أعد الله حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق أن يكون واحدا من هؤلاء الملوك الأفذاذ الذين تسعد بهم شعوبهم ، وتصل تحت قيادتهم الى أبعد مايكتب لها من شرف وسؤدد ومجد ، فان من يمثل لنفسه التقاليد التى جرى جلالته عليها ، والسنن التى سنها للاتصال بشعبه ، ولإشعاره بأنه الى جانبه يحوطه برعايته ، ويمده بعنايته ، يتحقق أن جلالته واحد من أولئك الأفذاذ الذين يرسلهم الله فى أدوار من حياة الأمم ، وهى أحوج ما تكون إليهم ، للم شعثها ، وجمع كلمتها ، والدخول فى أدوار الانتقال التى لا بد منها ، آمنة على وجودها ، واثقة بنجاحها .

فان أردنا أن نعد ما اتبعه جلالته من سنن الملوك الموفقين ، وما جدده منها ، عددنا فى مقدمة ذلك اتصاله بشعبه فى أول رمضان ، واسدائه التهنئة له بحلول شهر الصيام ، وشفْع ذلك بآيات

بالغات من النصح ، وكلمات نابغات من الارشاد ، مما يحدث فى نفوس الشعب أثرا لا يمحى يكون من ورائه خفوفهم للوصول الى الغايات الكريمة التى يعينها لهم . ومجلة الأزهر تتشرف بافتتاح هذا العدد بنشر حديث جلالته الكريم الذى تفضل بالقائه هذا العام من طريق الاذاعة اللاسلكية ، أعاد الله هذا الشهر المبارك على جلالته وهو متمتع بتوفيق الله له وفضله عليه .

اليك نص الحديث الملكى الكريم :

شعبى العزيز :

فى مثل هذا اليوم المبارك من العام الماضى تحدثت اليكم عن بعض ما تجيش به نفسى من الخير لكم وللامم الاسلامية فى العالم كله ، واتجهت إلى ربى ودعوته أن ينير أمامى السبيل الى مجد هذا الوطن وعظمته .

وإنى ليسرنى ، ونحن نستقبل شهر رمضان المبارك ، أن أهنئكم وإخواننا المسلمين فى جميع الأمصار والأقطار ، سائلا الله أن يحقق للجميع آمالهم ويشملهم بالرعاية والتوفيق !

شعبى العزيز :

تمر بنا الحوادث سراعا ، والعاقل من وعى منها العبر . ولئن سكنت العاصفة الى حين ، فانكم لتؤمنون بضرورة قيام كل بواجبه نحو الوطن العزيز فى وقت اصبحت القوة فيه عماد الأمم .

ولقد عاهدت ربى أن أعمل معكم لتكون مصر قوية عظيمة محترمة ، تذود عن نفسها بنفسها ، فأعدوا أنفسكم لهذه الغاية السامية . اتحدوا وتآخوا ، وروضوا أنفسكم على حب النظام والطاعة ، وافخروا بقوميتكم واعتزوا بوطنكم ، وليؤمن كل منكم بأنه يعمل ويحيا ويموت لخير هذا الوطن !

لابد من التعاون ، شعبا وحكومة ، على ما يحقق لأمتنا ثقافة عالية وخلقا عظيما . ولابد من رفع مستوى الحياة الاجتماعية فى البلاد التى طالما جاهد فى سبيل النهوض بها المغفور له والدى ، فما كان لأمة أن تحيا إذا لم يكن لها من قوة خلقها وسواعد أبنائها ، ما يصون شرفها ويحمى عزتها .

وإنى لأهيب بقادة الأمة وذوى الرأى فيها ، وبرؤساء الأسر والعشائر ، أن يقدروا فى ذمة وإخلاص ، مسئوليتهم الكبرى لادراك هذه الغايات الرفيعة ، حتى تكون مصر عاملا فعالا فى خدمة الانسانية وتأييد السلام .

شعبى العزيز :

ذلك ما أرى من الحق أن أوصيكم به فى مستهل هذا الشهر العظيم ، شهر الصبر والبذل من النفس ، وتطهير السرائر وتزكية الضمائر ، فتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، والله يوفقنى وإياكم . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

حديث رمضان

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام يفضي بحديث رمضان

اعتادت جريدة الأهرام كل عام أن ترجو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام أن يفضى للعالم الاسلامى بحديث عن الصيام لتحمله الى أقصى ما تصل اليه من البلاد الاسلامية ، وهى سنة حسنة تشكر عليها ، وقد تفضل فبعث اليها بكلمة جمعت على إيجازها المزايا الأدبية التى يؤدى اليها الصيام ، والخلال التى يجب أن يتصف بها من يؤديه ليكون عمله مبرورا ، وجهاده مشكورا ، فكان ما تضمنته هذه الكلمة من صميم العلم النفسانى ، ولباب الحكمة الشرعية ، حديث المجالس فى كل مكان فى مصر ، وأتوقع أن لا يكون الناس فى الخارج أقل اهتماما بها منا .

إن فى تعهد فضيلته المسلمين بأمثال هذه الكلمات المحييات من حين الى حين تعتبر قياما بخدمة لهذا الدين لاتعادلها خدمة ، لأن فيه إهابة بالنفوس الى الانتباه ، وبالأفكار الى النظر ، وبالهمم الى النهوض ، وفضيلة الأستاذ يقوم بهذا قياما إيجابيا ، فيقدم لقارئيه الوسائل التى توصلهم الى ما يدعوهم اليه ، والمزايا التى تحببهم فيه ، وسمو الغاية التى يصلون اليها بالعمل به .

وإننا قياما باستيعاب كل ما يصدر عن فضيلته من الكلم النوابغ ، ننقل ما تفضل بنشره فى أهرام أول رمضان ، مضيفين اليه ما تكرم بنشره فى جريدة الدستور ذلك اليوم نفسه ، وكلا الحديثين جليل فى ذاته ، عظيم الأثر فى القلوب . فاليك ما نشر فى الأهرام :

« تدب فى الشباب اليوم حياة لم تعهد فى شباب مصر من قبل ، حياة كلها خير وبركة ويمن وسعادة ، تبشرنا بجيل نافع لوطنه ونافع لدينه ، جيل فتى قوى سينفض حياة الذلة والهون ، حياة الدعة والترف والرخاوة ، ويدرع بالعزم والصبر والبأس والتخشن ، ويحيا حياة الرجال العاملين المخلصين .

« وما خلق الرجل للزينة ، وصرف الأوقات فى السمر والشهوات ، وارتياد المسارح ، والانغماس فى اللذات ، واقتناص الفرص للشهوات ، بل خلق للخلافة عن الله فى الأرض يعمرها ، وللأعمال النافعة : من فلاحة أرض يجيد إصلاحها واستثمارها فيجنى منها أطيب الثمرات ، ومن تجارة طيبة مباركة تحوطها الأمانة والرغبة فى تبادل المنافع ، مع طرح الهوى والجور والغش والخديعة ، ومن علم نافع يسخر به ما خلق الله فى الأرض والماء والهواء ، ويستثمره لخير الأفراد والجماعات ، ويعرف به ما لله من حق وللعباد من حق ، ويعين على سياسة نافعة عادلة تعيش بها الأمم فى نعمة السعادة البدنية والروحية ، ونعمة المجد والعز والسلطان . وخلق للذود عن الأهل والعشيرة والدين والوطن . فلن تحيا أمة حياة سعيدة ولن يستقيم لها أمر إلا إذا

أمنت فى دارها ، وشعرت بقوة تدفع عنها طغيان المعتدين واعتداء الطاغين . ولن تحيا أمة حياة سعيدة إلا إذا فهم الناس حقوقهم وحقوق غيرهم ، وشعر الفرد بواجب الجماعة عليه ، وشعرت الجماعة بواجب الفرد عليها ، وتوزعت الأعمال بين الأفراد والطوائف ، وأجاد كل واحد ما يسر له ، وشعر الجميع بضرورة التعاون ، ووجدت صفات الرحمة والرفق والعطف على المحتاج ، وصفات الإنصاف والاعتراف بالفضل لمن هم أهله ، وتوارت صفات الحسد والحقد والأثرة والتهجم على الناس بالباطل ، وصفات الخديعة والغرور بالنفس . إذ ذاك توجد أمة متحدة ، وتوجد أمة عزيزة تلبس ثوب الجد والوقار والكرامة ، وتعيش عيشة حسنة رغيدة ، وعيشة روحية سعيدة ، يحترمها الصديق ، ويخشى بأسها العدو .

« هذه الحياة السعيدة النافعة تتطلب إعدادا جسميا ، وإعدادا خلقيا ، وإعدادا روحيا ، وإعدادا علميا . وليس أدل على تطلع الشباب الى المجد والى هذه الحياة مما نراه من الاقبال على الجندية ، والتطوع لها ، والاقبال على التدريب العسكرى ، وعلى أنواع الرياضات المختلفة ، والاقبال على التعليم والالحاح فى طلب هذه الحياة الفنية التى نشعر بأن شباب الجيل ملح فى طلبها ، ويبشرنا بأن الجيل القادم سائر فى طريق الجد ، وعازم على طرح اللهو ، وعلى إحياء آثار الاسلاف ومجد الآباء ، مصمم على أن يحيا حياة الرجال العاملين المخلصين ، وعلى أن يحيا حياة بريئة يستمتع فيها بما أحله الله ، وهو كثير ، ويتنكب عما حرمه الله ، وهو قليل ، وعلى أن يدرع بالصبر والأناة والحكمة ، ويطيع أمر الله ليجلب نصره ويجلب هدايته وتوفيقه . وكما طلب الله حياة روحية قوية فقد طلب حياة بدنية قوية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ اليكم وأنتم لا تظلمون » .

« والآن نختم هذه الكلمة بكلمة سيد الشجعان خالد بن الوليد حيث قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، أو رمية بسهم . وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترس بها » .

« وإن الصوم الذى فرضه الله على المسلمين ، ويستقبلونه الآن لمن أنجح الوسائل لتحقق هذه الصفات التى نرجو أن يتحلى بها شباب الجيل الحاضر ، ومن أحفزها على مجاهدة النفس وأنواع الرياضات الطيبة . حقق الله الآمال ، ورزقنا التوفيق ، وهدانا الى الرشد ، إنه سميع الدعاء .

وهذا ما نشر لفضيلته فى جريدة الدستور :

« الصوم عبادة فرضها الله على خلقه طهراً لهم وتزكية لنفوسهم ، كما فرض سائر العبادات لمصلحة الخلق أنفسهم لا لمصلحة تعود عليه سبحانه ، فهو غنى عن العالمين . وليس هناك فائدة

فى البحث عن سر الصوم والغرض منه لمن ينكر الخالق أو ينكر حكمته أو ينكر النبوات ، ولكن هناك فائدة هى التذكير وطمأنينة القلب للمؤمنين ، ولذلك قال الله تعالى: « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

« وقد نبه الله سبحانه وتعالى فى الضحايا الى أن المقصود منها التقوى ، وقال : « لن ينال اللهَ لحومُها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ، وكذلك نبه فى آية الصوم الى أنه شرعه للتقوى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فما لم يكن الصوم محققا لهذه الغاية كان تعب الصائم ذاهبا سدى ، وكان الصوم إما باطلا كما ذهب الى ذلك بعض العلماء ، وإما مسقطا للفرض خاليا من الأجر الذى وعد الله به الصائمين .

« والتقوى التى هى ثمرة الصوم حالة تمنع الانسان من الوقوع فى الاثم ، فتحمله على الطاعة وامتثال أوامر الله وترك مانهى عنه وحرمه ، وتجعل النفس الانسانية مطمئنة راضية بالحياة ، راضية بالجهد فيها ، ناعمة بالرزق واليسر فيه ، صارفة له فيما سنه الله وقدره لعباده ، ملتفتة دائما الى حضرة القدس ، شاعرة بلذة الاتصال بالله ، سلسة القيادة سهلة العشرة مع الخلق ، بعيدة عن إيقاع الأذى والضرر بهم ، سواء أكان ذلك بالقول أم بالفعل ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الصيام جُنة فلا يرفث ولايجهل وإن امرؤ قاتله أوشاتمه فليقل إنى صائم مرتين ، يقول الله تعالى : الصوم لى وأنا أجزى به ، يدع الصائم طعامه وشرابه لأجلى » .

« فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن الصيام وقاية من الآثام والمعاصى ، لذلك لا ينبغى أن يتفوه الصائم بالفحش من القول ، ولا أن يفعل أفعال الجهلاء والحمقى من الشتم والضرب والايذاء وأكل أموال الناس بالباطل وارتكاب الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والله سبحانه يتولى أجر الصائمين الذين يوفون حقوق الصوم ، ومن تولى الله أجره غناه ووقاه بغير حساب . وإذا كان الصوم منسوبا على الخصوص الى الله ، وجب على الصائم أن يكون دائما على ذكر منه ، وأن يتقى ما يبعد عن الله ، وأن يكون مخلصا لله .

«هذه التقوى تبعث على الرفق وعلى البر بالفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين ، وعلى إغاثة الملهوف والمضطر ، لذلك ينبغى أن يكون هذا أول أثر من آثار الصيام ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان ، وكان فيه أجود من الريح المرسلة .

« وفقنا الله الى عمل الخير وخير العمل ، ورزقنا التقوى ووقانا الزيغ ، وجنبنا وساوس الشيطان ، وأعاننا عليه .

أما بعد : فهذه تحيتى الى الصائمين ، وأسأل الله أن يعيد عليهم شهر الصوم فى أمن ودعة ، وسعة وخير وبركة .

أصول التشريع

— ٥ —

بحث في الاجتهاد والاجماع

(١) هل اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وما دليل اجتهاده ، وما حكمته ؟ (٢) هل اجتهد الصحابة في العهد النبوى ؟ (٣) ما طريقة الصحابة رضى الله عنهم في الاجتهاد والقياس ؟ (٤) ما طرق التعليم التى يرى العلماء أنها توصل للاجتهاد ؟ (٥) هل للبيئة والوراثة أثر في آراء المجتهدين ؟

١ — هل اجتهد الرسول ؟

ارتضى جمهور الأصوليين أنه يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم الاجتهاد ، وأنه كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحى ؛ واحتجوا بأن الله تعالى خاطبه كما خاطب عباده ، وضرب له الأمثال وأمره بالتدبر والاعتبار ، وهو أجل المتفكرين في آيات الله ، وأعظم المعتبرين ، وأنه الأكمل المعصوم عن الخطأ ؛ وإذا جاز لغيره من الأمة أن يجتهد بالاجماع — وهو عرضة للخطأ — فجواز الاجتهاد للرسول الكامل المعصوم عن الخطأ أولى ، ولأن العمل بالاجتهاد أشق من العمل باليقين ، فيكون أكثر ثوابا .

وأما قول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » فالمراد به القرآن لأنهم قالوا : إنما يعلمه بشر .

ومما يدل على اجتهاده صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ؟ فعاتبه على ما وقع منه ، ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . وقوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثْخِن في الأرض » فعاتبه الله تعالى على أخذ الفداء من أسرى بدر ، فلو كان صلى الله عليه وسلم حكم بمقتضى الوحى ما عوتب . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهَدْى » أى لو علمت أولا ما علمت آخرا ما فعلت ذلك . ومثل هذا لا يكون فيما عمله عليه السلام بالوحى . والأدلة من الكتاب والسنة على اجتهاده صلى الله عليه وسلم كثيرة .

أما حكمة اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، فقد قال العلامة محمد بن الحسن الحجوى : إن من

حكمة اجتهاده عليه السلام : تعليم الأمة ، وتدريبها على الاجتهاد فى الأحكام ، واستنباط الأحكام التى تناسب كل مكان وزمان ، وعدم الجمود على ظواهر النصوص ، لأن ذلك عائق عن الترقى والتطور فى أطوار تناسب الزمان والمكان .

فالاجتهاد من مصالح الشريعة التى هى عامة لكافة الأمم ، والتى هى مستمرة لا تنسخ ، ولا يعقل استمرارها إلا إذا كان يتغير الكثير من أحكامها الاجتهادية بتغير الأحوال ، ولا يخفى أن الاجتهاد مقام عظيم ، وفيه ثواب جسيم ، فلمن أخطأ أجر ، ولمن أصاب أجران ، كما فى الصحيح .

فالقول بأنه عليه السلام لايجتهد ، يلزم عليه حرمانه عليه السلام من هذا المقام مع مخالفة الظواهر المتكاثرة ، والظواهر إذا تكاثرت أفادت القطع .

ومن هذا يتبين أن اجتهاد النبى صلى الله عليه وسلم لا شك فيه ، وتتبين حكمة اجتهاده ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

٢ — هل اجتهد الصحابة فى العهد النبوى ؟

ذهب أكثر الأصوليين الى جواز الاجتهاد فى العصر النبوى ، ووقوعه .

وقد اجتهد الصحابة رضى الله عنهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يعنفهم ، بل أقرهم على اجتهادهم ، وصوبهم :

١ — كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها فى الطريق ، وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ؛ فنظروا الى المعنى ، وهؤلاء سلف أهل المعانى والقياس ؛ واجتهد آخرون ، وأخروها الى بنى قريظة ، فصلوها ليلا ؛ فنظروا الى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر . ومن هنا نشأ مذهب القياسيين ، ومذهب أهل الظاهر .

٢ — ولما كان علىّ كرم الله وجهه باليمن ، أتاه ثلاثة نفر يختصمون فى غلام ، فقال كل منهم : هو ابنى ، فأقرع علىّ بينهم ، فجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثى الدية ؛ فبلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على رضى الله عنه .

٣ — واجتهد سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، وحكم فيهم باجتهاده ، فصوّبه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

٤ — واجتهد الصحابيان اللذان خرجا فى سفر ، فحضرت الصلاة ، وليس معهما ماء فصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت ، فأعاد أحدهما ، ولم يعد الآخر ، فصوبهما صلى الله عليه وسلم وقال للذى لم يعد : « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » ، وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » .

٥ — ولما قاس مجزز المدلجى ، وقاف ، وحكم بقياسه وقيافته على أن أقدام زيد وأسامة ابنه بعضها من بعض ، سر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى برقت أسارير وجهه من صحة هذا القياس ، وموافقته للحق ؛ وكان زيد أبيض ، وابنه أسامة أسود ، فألحق هذا القائف الفرع بنظيره وأصله ، وألغى وصف السواد والبياض الذى لا تأثير له فى الحكم .

فهذه نصوص صريحة فى اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم ، وهم أعيان الأمة ، ومصابيح الشريعة ، فلماذا لا نبنى كما كانوا يبنون ، ونفعل كما كانوا يفعلون ؟

٣ — ما طريقة الصحابة فى الاجتهاد والقياس ؟

نشرنا فيما سبق أن الحوادث والوقائع مما لم يقبل الحصر والعد ، وأنه لم يرد لكل حادثة أو واقعة جزئية نص خاص بها ، ولا يتصور ذلك ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية — ومالا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى — علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار ، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد .

ولقد كانت طريقة الصحابة رضى الله عنهم فى الاجتهاد أنهم كانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص من كتاب ولا سنة ، وكانت طريقتهم فى استعمال الرأى بحسب ما يرشد اليه الذوق السليم مما فى الأمر من عدل وظلم ، أو كما قال ابن القيم : بما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ؛ بل كان عمر رضى الله عنه يستعمل الرأى فى أوسع من المعنى الذى ذكرناه ، وسار أبعد من ذلك ، فكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهذا أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته .

وقد ألمع الى هذا والى طريقة الصحابة فى الاجتهاد والقياس إمام الحرمين فقال :

نحن نعلم قطعا أن الوقائع التى جرت فيها فتاوى علماء الصحابة وأقضيتهم تزيد على المنصوصات زيادة لا يحصرها عد ، ولا يحدها حد ، فانهم كانوا قايسين فى قريب من مائة سنة ، والوقائع تترى ، والنفوس الى البحث عنها طلعة ، وما سكتوا عن واقعة صائرين الى أنه لا نص فيها . والآيات والأخبار المشتملة على الأحكام نصا وظاهرا بالاضافة الى الأقضية والفتاوى كغرفة من بحر لا ينزف ؛ وعلى قطع نعلم أنهم ما كانوا يحكمون بكل مايعن لهم من غير ضبط وربط ، وملاحظة قواعد متبعة عندهم ، وقد تواتر من شيمهم أنهم كانوا يطلبون حكم الواقعة من كتاب الله تعالى ، فان لم يصادفوه فتشوا فى سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يجدوها اشتوروا ورجعوا الى الرأى . والذى يوضح ماذكرناه أنهم مع اختلاف مذاهبهم فى مواقع الظنون ومواضع التحرى ما كانوا ينكرون أصل الاجتهاد والرأى ، وإنما كان

بعضهم يعترض على بعض ، ويدعوه الى مايراه هو . ولو كان الاجتهاد حائدا عن مسالك الشريعة لأنكره منهم منكر ، فلم ينكر أصل الاجتهاد أحد من الصحابة ، وإنما كانوا يتناظرون فى الذب عن وجوه الاجتهاد ، والدعاء الى غيرها من الاجتهاد ؛ وكانوا مجمعين على الأصل مختلفين فى التعيين والتفصيل نحو اختلاف علماء الدهر .

ولم يخل أحد من علماء الصحابة من الاجتهاد فى مسائل ، وإن لم ينقل عنهم الاجتهاد فى مسألة واحدة ، فقد صح النقل المتواتر فى مصير كل واحد منهم الى أصل الاجتهاد فى مسائل قضى فيها أو أفتى بها .

ثم إحداث قاعدة فى الشريعة تستند اليها الأحكام بل يصدر عنها معظم الشريعة مما لا يجوز السكوت عليه لولم يكن ثابتا . ولقد تصرف علماء الصحابة فى مذاهب الاجتهاد على الدوام من غير فتور فيه ، فلوكان واحد منهم يعتقد بطلان الاجتهاد ما سكت .

وقد وضح بالنقل المتواتر عن الصحابة أنهم كانوا يقدمون كل متعلق بنص وظاهر ، ثم كانوا يشتورون وراء ذلك ، ويثبتون الأحكام على وجوه الرأى ، واعتبار المسكوت عنه بالمنصوص عليه .

وعلى الجملة فقد أجمع الصحابة رضى الله عنهم والتابعون ومن بعدهم على العمل بالرأى والنظر فى مواقع الظن والاجتهاد . ومن أنصف نفسه لم يشكل عليه إذا نظر فى الفتاوى والأقضية أن تسعة أعشارها صادرة عن الرأى المحض والاستنباط ، ولا تعلق لها بالنصوص والظواهر .

فإن قالوا : قد روى عن جمع من أئمة الصحابة ردّ الرأى والرّد على القائلين به ، قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله تعالى برأيى » ! وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لو عملتم بالرأى لحللتم كثيرا مما حرم الله ، وحرمتم كثيرا مما أحل الله تعالى ! » الى غير ذلك من أفراد آثار — فقد عورضوا بأضعافها ، وذكروا أولا إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم الى القياس فى الأخبار ، منها ما روى أنه عليه السلام سئل عن قُبلة الصائم ، فقال للسائل : أرأيت لو تمضمضت بماء ثم مججته ؟ فكان ذلك منه قياسا للقبلة على المضمضة .

وقال عليه السلام لضباعة الأسدية ، وقد ذكرت له حجا على أبيها وسالته عن إمكان أدائه ، فقال : أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت تقضينه ؟ قالت : نعم . قال : فدين الله أحق بالقضاء .

وقول ابن مسعود فى حديث بروع بنت واشق ، وكانت فوضت بُضعها، فردّ ابن مسعود

السائل شهرا ثم قال : إنى أقول فيها برأيى ، فان أصبت فمن الله تعالى ، وإن أخطأت فمنى ومن الشيطان ، أرى لها مثل مهر نسائها لاوكس فيه ولا شطط . فالذين مضوا كانوا يسندون جلّ الأحكام الى الظن والرأى ؛ وكيف يطمع الطامع فى معارضة ذلك بألفاظ محتملة ينقلها الآحاد ؟ ولو كانت نصوصا لما عارضت التواتر .

ثم ما تمسكوا به من قول الصديق وابن مسعود رضى الله عنهما لا حجة فيه ؛ فأما الصديق فانه قيد كلامه بالرأى فى كتاب الله تعالى ، وأراد به مخالفة المفسرين الذين الى قولهم الرجوع ، وهذا ممنوع عندنا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فلا حجة إذاً فيما رووه عن الصديق رضى الله عنه .

وأما قول ابن مسعود فلا متعلق له ، فان فيه ما يدل على أن الرأى المجرد لا يطّرد ، إذ قد يلقاه من أصول الشرع ما يمنعه من الجريان ، فعلى كل ناظر ألا يتبع رأيه المحض حتى يربطه بأصول الشريعة ؛ فلا حجة إذاً فى قوله . واحتج الشافعى رضى الله عنه ابتداء بحديث معاذ ابن جبل رضى الله عنهما ، قال له الرسول عليه السلام لما بعثه الى اليمن : بم تحكم ؟ ... الخبر ، وهو مدون فى الصحاح ، وهو متفق على صحته لا يتطرق اليه التأويل ، فانه رضى الله عنه انتقل من الوحى والتنزيل الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقل منهما عند تقديره فقدهما الى الرأى . ولا يجوز أن يقال : أراد بالرأى رأى استنباط من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام ، فان ذلك لو كان على هذا الوجه لكان متعلقا بالكتاب والسنة .

فان قيل : خبر الواحد ، وهوحديث معاذ ، لا يقتضى العلم ، وإثبات القياس يقتضى أمرا مقطوعا به ، قلنا : قد ثبت عندنا بالقواطع العمل بخبر الواحد .

٤ — ما طرق التعليم التى توصل للاجتهاد ؟

ألمعنا الى علوم الاجتهاد من قبل ، أما طرق التعليم التى يرى كثير من الأئمة أنها توصل للاجتهاد ، فنختار منها ما يلى :

١ — قال ابن دقيق العيد : « لقد عز المجتهد فى هذه العصور ، وليس ذلك لتعذر آلة الاجتهاد ، بل لإعراض الناس عن الطريقة المفضية لذلك .

٢ — وقال الامام النووى : « فاذا فعل المتعلم ما ذكرناه ، وتكاملت أهليته ، واشتهرت فضيلته ، اشتغل بالتصنيف ، وجد فى الجمع والتأليف ، محققا كل ما يذكره ، متثبتا فى نقله واستنباطه ، محررا إيضاح العبارات ، وبيان المشكلات ، مستوعبا معظم ذلك الفن ، غير مخل بشىء من أصوله ، منبها على القواعد ، فبذلك تظهر له الحقائق ، وتنكشف المشكلات ، ويطلع على الغوامض ، وحل المعضلات ، ويعرف مذاهب العلماء ، والراجح من المرجوح ، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد ، ويلتحق بالأئمة المجتهدين ، أو يقاربهم ، إن وفق لذلك » .

٣ — وقال أيضا : « وينبغي للعالم أن يعتنى بالتصنيف إذا تأهل له ، فبه يطلع على حقائق العلوم ودقائقها ، ويثبت معه ، لأنه يضطره الى كثره التفتيش والمطالعة ، والتحقيق والمراجعة ، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقه ، وواضحه من مشكله ، وصحيحه من سقيمه ، وجزله من ركيكه ، وما لا اعتراض عليه من غيره ، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد » . وقد وفى الامام النووى فى شرح المهذب فى بابى آداب العالم والمتعلم هذا الموضوع بما لا مزيد عليه ؛ وهذا مضمون ما ذكره .

٤ — وقال الإمام أبو شامة : « ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام معين ، بأن يرفع نفسه عن هذا المقام ، وينظر فى مذهب كل إمام ، ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب الى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا كان قد أتقن معظم العلوم المتقدمة ، وليجتنب التعصب ، والنظر فى طرائق الخلاف المتأخرة ، فانها مضيعة للزمن ، ولصفوه مكدرة ؛ وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » . فما أعظم حظ من بذل نفسه وجهدها فى تحصيل العلم ، حفظا على الناس ، فان هذه الأزمنة قد غلب على أهلها الكسل والملل وحب الدنيا ! قال : ولم يزل علم الفقه كريما يتوارثه الأئمة معتمدين على الأصلين : الكتاب ، والسنة ، مستظهرين بأقوال السف على فهم ما فيهما من غير تقليد ، فقد نهى الامام الشافعى رضى الله عنه عن تقليده وتقليد غيره ، وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين ، فكل صنف على ما رأى ، وتعقب بعضهم بعضا مستمدين من الأصلين : الكتاب ، والسنة ، وترجيح الراجح من أقوال السلف المختلفة ، ولم يزل الأمر على ما وصفت الى أن استقرت المذاهب المدونة ، ثم استظهرت المذاهب الأربعة ، وهجر غيرها ، فقصرت همم أتباعهم إلا قليلا منهم ، فقلدوا ، ولم ينظروا فيما نظر فيه المتقدمون من الاستنباط من الأصلين : الكتاب ، والسنة ، فقل المجتهدون ، وغلب المقلدون ، حتى صاروا ممن يروم رتبة الاجتهاد يعجبون ، ويزدرون . ثم قال : ولم أزل منذ فتح الله على بالاشتغال بعلم الشريعة ، وفهم ما ذكرت من الاختلاف والاتفاق ، ودلالات الكتاب والسنة مهتما بجمع ذلك ، أو ما يقاربه ، توفيقا من الله ، لمعاونة الأمر الأول ، وهو ما كان عليه الأئمة المتقدمون من استنباط الأحكام من الأصلين ، مستظهرين بأقوال السلف فيها ، طلبا لفهم معانيها ، ثم يصار الى الراجح منها بطريقه .

ثم قال : وإنما وضع الامام الشافعى وغيره من الأئمة الكتب إرشادا للخلق الى ما ظنه كل واحد منهم صوابا ، لا أنهم أرادوا تقليدهم ، ونصرة أقوالهم كيفما كانت .

قال : فعلى هذا كان السلف الصالح يتبعون الصواب حيث كان ، ويجتهدون فى طابه ، وينهون عن التقليد .

ثم قال : وقد حرم الفقهاء فى زماننا النظر فى كتب الحديث والآثار ، والبحث عن فقهها ومعانيها ، ومطالعة الكتب النفيسة المصنفة فى شروحها وغريبها ؛ بل أفنوا زمنهم وعمرهم فى النظر فى أقوال من سبقهم من متأخرى الفقهاء ، وتركوا النظر فى نصوص نبيهم المعصوم من الخطأ صلى الله عليه وسلم ، وآثار الصحابة الذين شاهدوا الوحى وعاينوا المصطفى ، وفهموا الشريعة ، فلا جرم حرم هؤلاء رتبة الاجتهاد ، وبقوا مقلدين على الآباد .

وقد كان العلماء فى الصدر الأول معذورين فى ترك مالم يقفوا عليه من الحديث ، لأن الأحاديث لم تكن حينئذ فيما بينهم مدونة ، وإنما كانت تتلقى من أفواه الرجال ، وهم متفرقون فى البلدان ، وقد زال ذلك العذر ولله الحمد بجمع الحفاظ الأحاديث المحتج بها فى كتب ، ونوعوها ، وقسموها ، وسهلوا الطريق اليها ، وبينوا ضعف كثير منها وصحته ، وتكلموا فى عدالة الرجال ، وجرح المجروح منهم ، وفى علل الحديث ، ولم يدعوا لمتعلل شيئا يتعلل به ، وفسروا القرآن والحديث ، وتكلموا على غريبهما وفقهها ، وكل ما يتعلق بهما فى مصنفات عديدة جليلة ؛ فالآلات منهيات لذى طلب صادق ، وهمة وذكاء وفطنة ؛ وكذلك صناعة العربية ، كل ذلك قد حرره أهله وحققوه .

فالتوصل الى الاجتهاد بعد جمع السنن فى الكتب المعتمدة ، إذا رزق الله الانسان الحفظ والفهم ومعرفة اللسان ، أسهل منه قبل ذلك ، لولا قلة همم المتأخرين ، وعدم المعتبرين ، والتعصب ، وجهل أكثر المتصدرين . انتهى كلام أبى شامة .

هذا هو رأى الأئمة : ابن دقيق العيد ، والنووى ، وأبى شامة ، فى طريقة التعليم التى توصل الى الاجتهاد . وقد تكلمنا فى العدد الماضى على الاجتهاد وعلومه ومدرسته ، وأنه فى هذا الزمان أيسر منه فى الأزمان الخالية بما فيه الكفاية .

السيد عفيفى

خير البر عاجله

قال جعفر الصادق رضى الله عنه : نظرت الى المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث : تعجيله ، وستره ، وتصغيره ، فإنك إن عجلته هنأته ، وإذا سترته تممته ، وإذا صغرته عظمته .

مدح بعض الشعراء مَن هذه الصفات فيه فقال :

زاد معروفك عندى عظما إنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته وهو عند الناس مشكور كثير

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ٨ —

دعائم الاصلاح

تيسير القواعد :

صيحة جديدة دوّت فى رحاب العربية منذ فجر النهضة تنادى عليها بالويل والثبور إن لم يتداركها الأساة بمشارط الاصلاح فيبتروا منها تلك الأعصاب الملتوية الضاربة فى أديمها حتى قعدت بها عن النهوض الى التعبير عن مطالب الحضارة فى هذا العصر « الثائر » ، فتجاوبت بتلك الصيحة أصداء أندية الأدب الناشئة بنشأة النهضة ، وقوامُها إذ ذاك نفر من شداة المتأدبين الذين أخذوا بأطراف من أدب الغرب ومعارفه ، وتعاصت عليهم الفصحى أن تلين قناتها لهذا الشدو الغريب عن طبيعتها وبيئتها ، فرموها بالعقم والتعقيد فى قواعدها ، وتنادوا فيما بينهم بالاصلاح ، ثم افترقوا شيعا وأحزابا ، ودعت كل شيعة الى ما وافق هواها وطابق استعدادها الفكرى ، وكان أنكر الأصوات صوت الدعوة الى العامية وهجر الفصحى ، لأن نبراته المنكرة على رغم ضعفها كانت ظنينة مستخبثة ، فلم تقو على الحياة ، واستجابت الى الفناء فى مهدها ، وكفى الله لغة الكتاب الحكيم شرها وشر دعاتها ، وخلفت وراءها دعوة أخرى ليست بأقل خطرا على كيان اللغة منها ، غير أن دعاتها كانوا أحذق بأمرها ، فصابروا النهضة وسايروها ، حتى واتتهم الفرصة سانحة فانتهزوها ، وترددت صيحاتهم فى آفاق معاهد اللغة بأقلام رجالاتها الذادة ، وأرهفت وزارة معارفنا آذانها لتسمع صوت عمدائها وذوى الاختصاص فيها ، فدقوا لها ناقوس « الخطر » ، وانتفخت أوداج تقاريرهم بالفزع على الفصحى أن تذهب ريحها وتغترب فى وطنها ، ومثلوا داءها الدوى أصدق تمثيل ، فقالت أقطار الضاد : نعم إن الفصحى فى ألسنة أبنائها مدنفة ، وفى مغانيها معذبة ، وفى أوطانها مغتربة ، وقد عرفنا — كما عرفتم — الداء ، فهاتوا بحكمتكم الدواء ، فأنتم الأسوة ونحن لكم تبع مادام فيكم معهد المضرية الأنور ، وكعبة الاسلام « الأزهر » . فقالت مصر ، استغفر الله ، بل قالت وزارة المعارف المصرية وحدها : لا ، بل قال خمسة نفر من أدباء الوزارة : إن الدواء كل الدواء لداء اللغة فى هذا « العَقّار » الناجع الذى يعقر الداء ويشفى الألسنة من سقمها ، ويعيد الى اليعربية مجدها ، ذاك هو « تيسير قواعد اللغة » نحوها وصرفها وبلاغتها ، وألفت لجنة المجددين « الخمسة » ، وبوعد بينها وبين الأزهر ومعاهده ، واجتمعت ودرست علوم العربية وفنونها فى أيام معدودات ، ورفعت الى الوزارة تقريرها يحمل فى طياته « دعائم الاصلاح »

ونشر التقرير على الناس ، فاختلفت كلمتهم بين التفاؤل لمهمة اللجنة والتشاؤم بها ، ووقف الأزهر ، كعهده أمام العواصف ، كالطود الشامخ يرتقب الهدءة حتى يبصر الناس ، وتزول عن أعينهم غشاوات الضباب الذى خلفته رمال العاصفة وراءها ، ونظر أساتيذ اللغة ومعلموها فى التقرير فاذا به دراسة لم يشأ التوفيق أن يصحبها ، فأبوا عليه أن يعلنوه بالنقد ، لأنه أبى أن يعلن عن نفسه بالبحث والتحقيق ، واكتفى بعضهم بمسه مسا رفيقا كشف عنه ثوب التجديد الشفيف ، فبدا كما خلقته اللجنة لا يغنى من أمر الاصلاح شيئا ، وقالت الفصحى برأسها هكذا الى « مسجد المعز » فى عهده الجديد الأزهر ، وأناخت برحلها فى ساحته فى ظل الكتاب الكريم ، وتأبت على المجددين أن تدرس إلا كما درسها سيبويه والخليل ، وصاحب الخصائص وصاحب المغنى ، وسيعرف أصدقاؤها المجددون صدق إرادتها وتحقيق رغبتها ولو بعد حين .

يستطيع أى باحث مرن على قواعد اللغة العربية ، وعرف أساليب المجددين من أدبائنا ، أن يعرف أن الفكرة التى قام عليها التقرير لم تكن ذات غناء فى تحقيق الاصلاح المنشود . وقبل أن نلم بالتقرير وفكرته من الوجهة العلمية نتساءل فى كثير من العجب : هل صحيح أن قواعد اللغة العربية فى حاجة جدية الى ما سماه أصدقاؤها المجددون « تيسير القواعد » ؟!

ذلك ما نشك فيه ، بل ننكره أشد الانكار ، لأن اللغة التى وضعت قواعدها منذ ثلاثة عشر قرنا واستطاعت أن تتسع لأعظم حضارات العالم وعلومه ومعارفه وفلسفته ، بعيد كل البعد أن تظل طوال هذه الأحقاب عقيمة معقدة القواعد والأصول حتى تحتاج الى هذه البدعة الظنينة ، ولا يتيقظ الى ذلك حماتها وغطارفتها الأعلام !

بدأ أبو الأسود بوضع أساس علم النحو فى المائة الأولى من التاريخ الاسلامى حينما طغت الحمراء بعجمتها على السليقة العربية ، فخشى قادة الأمة أن يغلب اللحن الألسنة فيفسدها ، ثم تتابع تلاميذه وتلاميذهم على مهيعه يكملون ما أسس حتى استوى صرح اللغة بقواعدها شامخا يضرب بقنته أديم السماء على يد حاذق العرب وسيد أهل الأدب أبى عبد الرحمن الخليل ابن أحمد الفرهودى ، وتلميذه سيبويه الذى مهد سبل اللغة وعبّد طرقها ، وضبط شتيتها وجمع قوانينها ، وأرسى أركانها فى كتابه « الامام » حتى قال فيه أبو عثمان المازنى : « من أراد أن يعمل كتابا كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى » .

ولقد بلغت الحضارة الاسلامية فى ذلك العصر مبلغا لم يعرفه التاريخ لأمة من الأمم ، فكانت اللغة العربية بالقواعد التى درستها مدرسة البصرة فى كتاب سيبويه ، ودرستها مدرسة الكوفة فى كتب الكسائى والفراء ، هى اللسان الناطق بكل ما تبغى تلك الحضارة الغامرة من شئون الحياة ، وعليها سار الناس فى فهم القرآن والحديث وسائر النصوص الشرعية والأدبية ، وكلما اتسعت الحضارة باتساع الفتوح ، واستبحرت العلوم بامتزاج الأفكار والطبائع ،

ازدادت الحاجة الى صناعة النحو وتطبيق قواعده والتفريع عليها وشرحها ، حتى فترت النهضة الاسلامية ، وعادت بعض الجماعات الى قومياتها اللغوية ، وخمدت جذوة العقول ، ومال العلماء الى التلخيص والاختصار ، ولكنهم ظلوا مع ذلك — والناس لهم تبع — أوفياء لتلك القواعد التى وضعها المتقدمون ، مطمئنين اليها وإلى يسرها جد الاطمئنان . يقول العلامة ابن خلدون فى المقدمة : « وأول من كتب فى صناعة النحو أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة ، ويقال : باشارة على رضى الله عنه ، لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ، ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ، ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن انتهت الى الخليل ابن احمد الفراهيدى أيام الرشيد ، أحوج ما كان الناس اليها ، لذهاب تلك الملكة من العرب ، فهذب الصناعة وكمل أبوابها ، وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ، ووضع فيها كتابه المشهور الذى صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده ، ثم وضع أبو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام فى كتابه ، ثم طال الكلام فى هذه الصناعة ، وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة ، وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار ، فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع مانقل ، كما فعله ابن مالك فى كتاب التسهيل وأمثاله ، أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين كما فعله الزمخشرى فى المفصل وابن الحاجب فى المقدمة » .

هذه الكتب وأمثالها هى التى يدرس الأزهر قواعد اللغة العربية فيها ، وبها تخرج الأعلام فى مدى تاريخ اللغة وأطوارها ، فماذا حدث حتى احتاجت اللغة الى تيسير قواعدها الآن ؟ ! لاشىء يدعو الى هذا العناء الذى تكبدته اللجنة فى تقريرها .

عرضت اللجنة فى تقريرها الى مسائل فى فن النحو عابت فيها على الأئمة اصطلاحهم ، ثم جهدت نفسها أن تخترع اصطلاحا جديدا زعمته تيسيرا ، وعرضت كذلك الى فنى الصرف والبلاغة وارتأت فيهما آراء لا تسمو قيمتها العلمية الى مقام التيسير . فنى النحو تكلمت على نحو عشر مسائل نجمل الكلام عليها بما يرجح اصطلاح الأئمة :

١ — ترى اللجنة وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديرى والاعراب المحلى ، لأن فيهما عناء مضاعفا وجهدا يبذل لغير شىء ، ومشقة يكلفها التلميذ من غير فائدة يجنيها فى ضبط كلمة أو فى تصحيح إعراب .

وترى قواعد النحو باصطلاح الأئمة وجوب بقاء الإعراب التقديرى والمحلى ، لأن فيهما فائدة يجنيها المتعلم فى ضبط كلمة وفى تصحيح إعراب ، فإذا سمع المتعلم قائلا يقول : « أقبل الفتى المجتهد » أو ينشد قول الشاعر :

ولو أن ما بى من جوى وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر

أو يقول : « نظر هـذه القضية القاضى العادل » أو يقول : « أحسن الى هـذا المسكين » أو يقـول : « رحم الله سيبويه إمام النحو » كان فى بقاء الاعراب التقـديرى والمحلى هداية له وإرشاد الى ضبط التابع وتصحيح إعرابه فى هذه الأمثلة ونحوها ، ولو أخذ النحو برأى اللجنة لـكان الأمر ملبسا وداعيا الى حيرة المتعلم وجهالته .

٢ — رأت اللجنة عدم التمييز بين العلامات الأصلية والفرعية فى الإعراب ، وجعلت كلا منها أصلا فى موضعه ، وقسمت الاسم المعرب الى سبعة أقسام من حيث ظهور حركات الاعراب الثلاث مع مد وإشباع أو دون ذلك ، أو ظهور بعضها واختفاء بعضها .

ويرى النحو العربى تيسيرا على المتعلم وضبطا لأبواب الاسم المعرب ومجاراة للواقع فى كلام العرب : أن يجعل للإعراب علامات أصلية هى الحركات ، وعلامات فرعية هى الحروف وبعض الحركات ، فاذا سمع المتعلم قول القائل : « اللهم صل على ابراهيم وآل ابراهيم » فـكيف يضبط التابع المعطوف ؟ فـلو أخذ برأى اللجنة فى الاكتفاء بقولها فى هذا الموضع : « اسم تظهر فيه حركتان ضم وفتح » لأشكل الأمر عليه ، وكان فى حل أن « يفتح » التابع تبعا لظاهر الحال ، وهو ضلال كبير ، ولو قيل له : إن التابع « مكسور » تبعا لـكسر المتبوع لتساءل طبعا : وأين هى علامة الـكسر فى المتبوع ؟ وكان حينئذ لا مناص من الرجوع الى رأى أئمة النحو : من أن الاسم الممنوع من الصرف يجر بالفتحة نيابة عن الـكسرة إذا خلا من « أل » والاضافة ، وهكذا الحال فى جمع المؤنث السالم والمنقوص .

٣ — رأت اللجنة توحيد ألقاب الاعراب والبناء ، واختارت الاكتفاء بألقاب البناء ، وليس فى هذا تيسير للقواعد . لأن لحركات الاعراب مواضع ، ولحركات البناء مواضع ، والطالب فى حاجة الى أن يتبين فى وضوح هذه المواضع وحركاتها ، فلو أخذ برأى اللجنة لأشكل عليه الأمر ، وفى الأخذ برأى النحو العربى تيسير عليه وبُعد عن الاشتباه .

٤ — لم يعجب اللجنة تسمية جزءى الجملة العربية ، فاخـترعت لهما اسما اعترفت بأنه لا يمت بصلة الى الاصطلاح العربى ، وهذا بلا شـك تعسير على الطلبة الذين عرفوا شيئا ولو قليلا من النحو ، لأنهم يصبحون مضطرين الى إلغاء معلوماتهم والرجوع الى معلومات جديدة غامضة ، وفوق هـذا فإن التسمية التى اختارتها اللجنة غامضة أشـد الغموض ، لأنها بعـد أن ذكرت فى تقـريرها اصطلاح البلغاء ذكرت معه اصطلاح المناطقة ، ثم ذكرت تسميتين مخترعتين لم تشأ أن تأخـذ بهما ، ولا ندرى لم أثقلت بهما تقريرها ، واختارت اصطلاح المناطقة « لأنه أوجز ولأنه لا يكلفنا اصطلاحا جديدا » فهل قال أحـد : إن فى الايجاز على عمومه تيسيرا ؟ وهل إذا أبقينا اصطلاح النحو كنا متكلفين اصطلاحا جديدا ؟ !

يسمى المناطقة جزءى الجملة « موضوعا ومحمولا » ، وهما لفظان غامضان فى صناعة النحو ،

فلا بد للمتعلم أن يفهم ما معنى « موضوع ومحمول » وصلة ذلك بالاعراب وعوامله ، وفى ذلك تعسير على الطالب بإبعاده عن المألوف الواضح ، لأن النحو ينظر الى الجملة العربية على طبيعتها فيراها مرة مؤلفة من « فعل وفاعل » ومرة « من اسمين » لأحدهما صفة الابتداء غالبا ومعنى ، وللآخر صفة الخبرية ، فيبقى الأمر على طبيعته حتى لا يكلف المتعلم عناء البحث وراء اصطلاحات غامضة لا يجنى من ورائها فائدة .

٥ — بنت اللجنة على اختراعها فى التسمية لجزءى الجملة ، وعلى رأيها فى توحيد حركات الاعراب والبناء ، رأيها فى أحكام إعراب جزءى الجملة ، وهو رأى غامض وغريب ، لأن اللجنة ترى فيما سمته محمولا إذا كان فعلا أو مع حرف من حروف « الاضافة » أو جملة ، أن يكتفى فى إعرابه ببيان أنه محمول ، وهذا طبعا بعيد كل البعد عن التيسير الذى قصدت اليه اللجنة ، وقد اضطرت اللجنة الى تعريف الموضوع بالمحدث عنه ، والمحمول بالحديث ، فعرفت اصطلاحا مخترعا باصطلاح مخترع ، وحكمها على الموضوع بالضم دائما منقوض بما أصلته من أن الألف أصل فى المثنى ، وهو أيضا ناقض لحكمها على المحمول بأنه يكون اسما فيضم ، فأين الضم فى نحو المؤمنان صادقان ؟ !

٦ — تكلمت اللجنة على الترتيب بين جزءى الجملة فقالت : إن الجملة العربية مرنة فى الترتيب طيعة فلا تلزم أحد الركنين موضعا واحدا ، ولكن النحو العربى قرر تبعا لأسلوب العرب أن للموضوع مواضع يجب تقديمه فيها ، ومواضع يجب تأخيره فيها ، وقرر فى المحمول مثل ذلك ، وهذا معروف مشهور لدى المبتدئين من طلاب الأزهر ومعاهده ، فرأى اللجنة خطأ جر اليه التسرع فى « التيسير » وعدم الدقة النحوية ، وكيف يخرّج قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول » على رأى اللجنة ؟ فهذه جملة عربية أبت على لجنة التيسير أن تكون مرنة طيعة فلزم كل من ركنيها مكانه لا يريمه مادام لهذا الكلام مقامه فى ذروة البلاغة ، ولو خضعت هذه الجملة العربية لقانون « تيسير القواعد » لصح فى مكانها مؤديا معناها قولنا « وما رسول إلا محمد » ، والذين عرفوا طرفا من البلاغة يدركون الفرق المحسوس بين الجملتين ، وأن الثانية لا يمكن أن تقع فى كلام العقلاء ، بله القرآن الحكيم ، لأنها تنفى الرسالة عن جميع رسل الله تعالى ماعدا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما لاريب فى بطلانه بداهة ، والآية باتفاق المسلمين مسوقة للرد على حال المؤمنين يوم أرجف الكفرة بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتقرير أن الرسل ، ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد منهم ، ليست بباقية فى قومها أبدا ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل ، وكان هذا مقام الصديق رضى الله عنه يوم قبض رسول الله الى الرفيق الأعلى .

وفى جانب لزوم تقدم « المحمول » وليس فعلا ولا موضوعه نكرة مما استثنته اللجنة كيف يخرّج نحو قول الشاعر :

أهابك إجلالا وما بك قدرة علىّ ولكن ملء عين حبيبها

فهذا البيت اشتمل على جملة عربية هى (ملء عين حبيبها) أبت أن تكون مرنة طيّعة ، لأن المحمول فيها قد استعصى فلزم موضعا غير موضعه ، وغير ذلك من الشواهد كثير .

ثم ذهبت اللجنة فى حديث المطابقة بين الموضوع والمحمول مذهبا لم يكن فيه كبير فائدة زيادة على ما قرره النحويون ، وبهذا النحو من تقسيم الجملة الى موضوع ومحمول ، واعتبار إشارات العدد علامات لا ضمائر ، عسرت اللجنة الاعراب ، ولبست على الطلاب ، وخلطت بين اصطلاحات النحو ، فشوشت على المتعلم ذهنه ، وأثقلت عليه مهمة إدراك القواعد برد بعض الأبواب الى بعض ، وإدماج الحقائق المختلفة فى نسج واحد .

٧ — ذكرت اللجنة تقسيم متعلق الظرف وحروف الجر الى متعلق عام ومتعلق خاص ، ورأت أن المتعلق العام لا يقدر ، وليس فى هذا جديد ، لأن النحو العربى لا يقول بتقدير المتعلق العام ، لأن فهم الكلام يتوقف عليه ، ولكنه يقدره تقديرا إعرابيا لبيان ربط الخبر بالمبتدأ ، ومن هنا قال من أخذت اللجنة بقوله من النحويين : إن الخبر حينئذ هو الظرف نظرا الى الظاهر ، على أن القائل بالمتعلق يقول هو واجب الحذف ، ونلاحظ هنا أن تسمية حروف الجر بحروف الاضافة تبديل مذهب بمذهب لا يغنى من أمر التيسير شيئا ، وسواء لدينا أسميت حروف جر كما يقول البصريون ، أم حروف إضافة كما يقول الكوفيون ، لولا أن فى التسمية الكوفية تضليلا للمتعلم المبتدئ فلا تجعله يفرق بين الجر ومعموله ، وبين المضاف والمضاف اليه إلا بعد تفصيل وعناء طويل .

٨ — تكلمت اللجنة على الضمير ، ورأت إلغاء الضمير المستتر جوازا او وجوبا ، وجريا على هذا القانون يكون مثل قوله تعالى : « ولكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده » خاليا من الضمائر فى الأفعال ، وليس فيه إلا جملة واحدة ، لأن اللجنة ترى أن الفعل حينئذ ليس جملة كما يعده النحاة ، وفى هذا من الافساد للبلاغة العربية وأساليبها فى القرآن والحديث ما فيه ، لأن تلك البلاغة ترى أن للجملة موضعا من الكلام البليغ لا يحسن فيه غيرها ، كما أن لغير الجملة موضعا لا تحسن فيه الجملة ، ولكن يظهر أن اللجنة فى سبيل « التيسير » لا تقيم وزنا لهذا المنحى من البلاغة والبيان ، ولما جابهت اللجنة بعض الأمثلة التى لا يظهر فيها أثر للموضوع كما فى الفعل المضارع مثل « أذهب » و « نذهب » وأرادت تطبيق مذهبها جعلت الهمزة والنون إشارة الى الموضوع أغنت عنه ، قالت اللجنة : وكفى ذلك فى إعرابه . وهذا مذهب فى شأن التيسير عجيب ! ثم نسأل : وأين بقية أحرف المضارعة ؟ هل هى كأختيها أو لها حكم آخر ؟ ولم حظيت بهذا الحكم الهمزة والنون ؟

ثم رأت اللجنة أن الضمير المتصل إذا ذكر معه ضمير منفصل فهو « تقوية » له ، ومثلت لذلك بقولها « قمت أنا » و « أنا قمت » وليس فى وضع كلمة « تقوية » مكان كلمة « توكيد » التى استعملها النحاة فيما ساغ من هذا الوادى شىء من التيسير ، والخطب فى مثل هذا أيسر مما يجادل فيه ، ولكن بقى أن اللجنة لم تفرق بين حالتى الضمير المنفصل متقدما أو متأخرا بدليل تمثيلها ، وهذا التعميم خطأ كبير ، لأنه يؤدى الى أن ضمير « أنا » فى نحو « أنا قمت » تقوية (للتاء) قبل أن يتلفظ بها ، ولا يعقل أن يقوى شىء قبل وجوده . ثم إن رأى اللجنة مناقض لقول البلاغيين بتكرر الاسناد فى نحو « أنا سعيت فى ترقيتك » وفرق عظيم بين تقوية الاسناد وتقوية المسند اليه على ما يحكم به الذوق البلاغى ، وقد غيرت اللجنة اصطلاح الجمهور فى الضمير البارز واعتبرته إشارة أخذا بمذهب المازنى ، وليس فى هذا التغيير إلا تشويش معلومات الطلبة وإحداث اصطلاح لا يأتى بفائدة ، وما معنى تسمية هذا الضمير إشارة ؟ هل قصدت اللجنة الاشارة الاصطلاحية ، أو قصدت أنه علامة على الموضوع ؟ إن كلام اللجنة فى الضمير غامض ولا غناء للتيسير فيه .

٩ — عمدت اللجنة الى ما عدا جزءى الجملة وسمته « تكملة » ، وأدخلت تحته جميع أبواب المفاعيل والحال والتمييز ، وهذا تعسير وإدماج للحقائق التى تقضى طبيعتها بتفصيلها ، وقد اعترفت بذلك اللجنة ، لأنها جعلت للتكملة أغراضا تجىء لها فلا بد من بيانها ، وحينئذ نرجع من حيث بدأنا الى تفصيل النحاة . ثم كيف استقام للجنة أن تحكم بأن التكملة مفتوحة أبدا إلا إذا كانت مضافا إليها أو مسبوقة بحرف إضافة ، مع وجود التابع المرفوع والمجرور والظروف المبنية على الضم والكسر ؟ !

١٠ — جمعت اللجنة أبوابا من أبواب النحو كالتعجب والتحذير والاغراء والتأكيد والنداء والاستثناء وسمتها بالأساليب ، ورأت اللجنة عدم اللجوء فى إعرابها الى التفصيل ، وأن يكتفى ببيان معناها واستعمالها ، ونحن مع موافقتنا على هذا النحو للمتعلم المبتدىء نرى أن بيان المعنى والاستعمال قد يجر الى تفصيل الاعراب ، فكان خيرا لو أن هذه الأبواب قصرت دراستها على من قوى استعدادهم فى الفرق العالية .

هذا مجمل فى الاشارة الى ما تعرضت له لجنة تيسير القواعد لبحثه من فن النحو لا يتسع المقام لأوسع منه ، وقد ذكرت اللجنة فى تقريرها كلاما فى فن الصرف وفن البلاغة ، وكلامها فى فن الصرف كلام يسوغه موقف المتعلم المبتدىء ، وأما بحث البلاغة فسنعرض له فى بحث خاص ، لأن هذا الفن يحتاج الى عناية فى دراسته تعيد إليه ثوبه الأدبى الجميل ؟

صادق ابراهيم عرجون

دفاع عن القرآن الكريم

يرى الدكتور جفرى أن كتاب المصاحف الذى ألفه عبد الله بن أبى داود يصلح شاهدا ودليلا على أبحاثه التى يزعم أنها توصل الى تطور القرآن الكريم ، حيث قال فى آخر مقدمته مانصه : « ونظرة قصيرة فى كتاب المصاحف لا بن أبى داود تمكننا من الوصول الى أول مراتب هذا البحث » .

ونحن نقول : إن نظرة أقصر من نظرة الدكتور جفرى فى كتاب المصاحف المذكور تمكننا من الوصول الى هدم هذا البحث ونقضه من أساسه .

ولو أن الدكتور قرأ كتاب المصاحف الذى طبعه هو ونشره وصححه بنفسه قراءة عالم ، لما جعل كتاب المصاحف هذا دليلا على ما يزعمه ، فإن نظرة قصيرة فى آخر صفحة ٥٣ وأول صفحة ٥٤ من الكتاب تجعله دليلا على نقيض ما يزعمه ، فقد ورد فيهما ما نصه : « قال عبد الله بن أبى داود : لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذى اجتمع عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فان قرأ إنسان بخلافه فى الصلاة أمرته بالإعادة » .

أليس هذا اعترافا صريحا لا يقبل التأويل من ابن أبى داود ، بأن القرآن هو الذى جمعه سيدنا عثمان وأجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن غيره من الروايات الآحادية ليست قرآنا ، وأن من قرأ بها فى الصلاة أمره ابن أبى داود نفسه بالاعادة ؟ !

وانت تقول : تطور القران ، وتاريخ القران ، وعلوم القرآن ، وقد استندت فيه الى كتاب ابن أبى داود ، وقد رأيت أن الكتاب الذى اخترته قد شهد عليك .

قلت : وقد ألف ابن أبى داود كتبا كثيرة منها كتابه المشهور كتاب المصاحف .

والحقيقة أنه ليس بمشهور ، فلم يوجد منه فى مكتبات العالم إلا نسختان مخطوطتان ، إحداهما بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، والأخرى بدار الكتب المصرية . وهبه مشهورا فقد شهد عليك كما رأيت .

(وصف علمى لكتاب المصاحف)

ينقسم هذا الكتاب فى جملته الى قسمين : قسم يوافق فى نصوصه ما ورد فى كتب السنة النبوية وكتب التاريخ ، وهذا القسم لا يشهد للدكتور شهادة ما ، وقسم يشتم منه رائحة المخالفة الظاهرية وليس مخالفا فى الواقع والحقيقة ، وهذا ما سنجيب عنه ونثبت أنه لا يصلح للشهادة أيضا ، أعنى أننا لو أغفلنا تصريح العلامة ابن أبى داود ، ووضعناه جانبا ،

ونظرنا فى تفاصيل الكتاب ، لا نجد فيه ما يبرر زعم الدكتور (تطور القرآن) . وسنجعل جوابنا على قسم الشبه والمخالفة ـ آراء الأصوليين وعلماء التفسير فى مبحث التواتر والاجماع ـ وسنبدأ بقسم الموافقة فنقول :

موافقة ابن أبى داود للبخارى ومسلم

وبقية الكتب الستة فى رواية جمع القرآن

روى البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ! فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعنده عمر جالس لا يتكلم : فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ! قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الى آخرها ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر . وفى رواية الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : « لما نسخنا المصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

وفى رواية الترمذى عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت ، أو أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها .

وروى سويد بن غفلة عن على بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ، فان الناس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتى خير من قراءتك وقراءتى أفضل من قراءتك . وهذا شبيه بالكفر ؟! قلنا : ما الرأى عندك يأمير المؤمنين ؟ قال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة فانكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا . قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل الى حفصة : أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها اليه ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الاسلام وشاورهم فى ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإخراج ما سواها ، واستصوبوا رأيه اه .

هذه هى أشهر روايات كتب السنة فى باب جمع القرآن . وقد روى ابن أبى داود فى كتاب المصاحف روايات توافقها تمام الموافقة ، حتى إنه روى بعضها بالذات ، وزاد عليها بعض روايات فى مناقب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، مما لا يسع إنسانا مخالفته فيها ، وهذه رواياته قال :

باب جمع القرآن

جمع أبى بكر الصديق رضى الله عنه القرآن فى المصاحف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

حدثنا عبد الله قال حدثنا يعقوب بن سفيان قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان عن السدى عن عبد خير عن على رضى الله عنه قال : رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين .

« وبسند آخر » عن سفيان عن السدى عن عبد خير عن على رضى الله عنه قال : أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر فانه أول من جمع بين اللوحين . « وبطريق آخر » عن سفيان عن السدى عن عبد خير عن على قال : رحمة الله على أبى بكر ، كان أعظم الناس أجرا فى جمع المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين . « وبطريق آخر » عن عبد خير قال : سمعت عليا

يقول : أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، كان أول من جمع بين اللوحين .

« وبطريق آخر » عن عبدة عن هشام عن أبيه أن أبا بكر هو الذى جمع القرآن بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول ختمه . ثم ذكر روايات لا تخرج عما تقدم ثم قال : حدثنا عبد الله قال حدثنا أبو الطاهر قال أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرّق أبو بكر على القرآن أن يضيع فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه . ثم ساق رواية زيد بن ثابت التى رواها البخارى والترمذى وغيرهما والتى تقدمت قريبا ، ونحن نعيدها هنا بالنص من كتاب ابن أبى داود ، ليعلم الدكتور وغيره أن ابن أبى داود موافق لأهل السنة والجماعة فى هذا الموضع تمام الموافقة ، قال : حدثنا عبد الله قال حدثنا عمرو بن على بن بحر قال : حدثنا أبو داود قال حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا الزهرى قال : أخبرنى عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت حدثه قال : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وكان عنده عمر فقال : إن هذا أتانى فقال : إن القتل قد استحر بالقراء وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى سائر المواطن فيذهب القرآن ، وقد رأيت أن تجمعوه ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدره ورأيت فيه الذى رأى ، فقال أبو بكر : إنك شاب (أو رجل) عاقل وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا نتهمك فاكتبه ، قال : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىّ منه ! فقلت لهما : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبو بكر وعمر : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر وعمر يراجعاننى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدرهما ورأيت فيه الذى رأيا ، فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعسب واللخاف (قال أبو بكر : اللخف : الحجارة الرقاق) وصدور الرجال ، حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأثبتها فى سورتها (ثم روى نفس الرواية من طريق آخر) وروى من طريق ثالث نفس الرواية ، ولكنها تختلف فى الآية التى كان زيد فقدها . ففى الروايات السابقة كانت الآية من آخر سورة التوبة ، وهذه الرواية الثالثة لابن أبى داود ، فيها آية الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » على ما مر بك فى رواية البخارى — لا تختلف عنها فى شىء .

وانفرد فى آخر الباب برواية ليست عن سيدنا زيد بن ثابت وهى : حدثنا عبد الله قال حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان قال حدثنا محمد قال حدثنا أبوجعفر عن الربيع عن أبى العالية أنهم جمعوا القرآن فى مصحف فى خلافة أبى بكر ، فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبىّ بن كعب

فلما انتهوا الى هـذه الآية من سورة براءة « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن ، فقال أبى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـد أقرأنى بعدهن آيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » قال : فهذا آخر ما أنزل من القرآن ، نختم الأمر بما فتح به ، لقول الله جل ثناؤه : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

هذه هى روايات ابن أبى داود فى هذا الباب ، فلم نجد فيها مخالفة لروايات البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم إلا فى بعض الكلمات ، أو فى طول الرواية وقصرها ، وهذا لا يغير أصل المعنى . فهذه الموافقات لا تشهد للدكتور على شىء .

حسن حسين

فى ذم المن بعد الاحسان

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى »

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ، ويمحق الأجر » .

وقال أديب : المنة تهدم الصنيعة .

وقال البلغاء : لا خير فى المعروف إذا أحصى . وقال : ما يعـد لا يعتد . وقال : أحسن العطاء موقعا مالم يشب بمن .

وقال شاعر :

أحسن من كل حسن فى كل وقت وزمن
صنيعة مشكورة خاليـة من المنن

ومما نسب للامام الشافعى رضى الله عنه :

لا تحملن لمن يمـ ـن من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جنه
مـنن الرجال على القلو ب أشد من وقع الأسنه

وقال بعضهم لأعرابى : إن فلانا يزعم أنه كساك . فقال : إن المعروف إذا من به كفر ، وإذا ضاق قلبه اتسع لسانه .

التصوف والمتصوفون

– ٢ –

أسلوب المتصوفين وآراؤهم :

كان للصوفية لغة خاصة بهم ، وتعبيرات استقلوا بها فى الإفصاح عن مذهب وحدة الوجود الذى كانوا يدينون به ، ولكن هذه التعبيرات شاككت المسلمين وروّعت الفقهاء ، وجعلتهم يحتاطون منهم ، ويعتزلون مجالسهم ، فلما رأى المتصوفون ذلك أعلنوا أن لهم حالتين مختلفتين : حالة الصحو ، وحالة الغيبوبة . فأما الأولى فهم ينطقون فيها بالشريعة ، وأما الثانية فهم يعبرون فيها عن الحقيقة . وقد سمى الفقهاء تعبيراتهم فى الحالة الأخيرة بالشطحات وغفروها لهم ، لأنها تصدر عنهم فى حالة الغيبوبة التى تشبه النوم أو السكر المباح ، ولكنهم لم يقبلوا هذه التعبيرات منهم فى حالة الصحو مطلقا ، بل عدوها جريمة تستوجب القصاص ، ولهذا أفتوا بقتل الحلاج ، لأنهم أثبتوا عليه أنه نطق بهذه التعبيرات فى حالة الصحو . ومن هذه التعبيرات قولهم مثلا : « أنا الحق ، أنا الأول ، أنا من الكل ، والكل أنا ، أنا العرش ، أنا اللوح ، أنا القلم ، أنا منذ الأزل والى الأبد » ، أو مثل قول الحلاج : « ما فى الجبة غير الله » . الى غير ذلك من الألفاظ التى توهم بظاهرها الكفر ، وتعبر فى حقيقتها عن فكرة وحدة الوجود . وقد روى ابن خلكان عن الغزالى أنه لما اطلع على كلام الحلاج وافق عليه وحبذه وقال : إنه من فرط الحب للذات العلية والتفانى فيها ، فهو من قبيل قول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن هذا يتضح أن الغزالى لم يكن ملاحظا مذهب الصوفية النظرى على حقيقته ، ولا متنبها الى أنه متأثر بوحدة الوجود ، بل كان معتقدا أن هذا المزج الذى كان الصوفية يحاولونه بين ذواتهم وذات البارى ناشئ من شدة الحب لا من فكرة وحدة الوجود . اللهم إلا أن يكون أبو حامد قد قصد أن يصرف الفقهاء عن اتهامهم المتصوفين بالقول بوحدة الوجود ، وإن كان يعلم أنهم يقولون بها ، وهذا ما نستبعده عليه .

طبقات المتصوفة :

أوصل بعض المستشرقين طبقات الصوفية الى عشرين طبقة ، وذكر أسماء أفراد كل

طبقة ومؤلفاتهم . ولما كان ما يعنينا فى هذا الفصل هو الطبقة الأولى التى عاشت فى العصر الأول ، وهو يبتـدئ بنشأة التصوف عند العرب ، وينتهى بانتهاء القرن الرابع الهجرى . وعدد أفراد هـذه الطبقة هم أحد عشر صوفيا ، وأشهرهم حسب الترتيب الزمنى الأشخاص الآتية أسماؤهم :

(١) أبو هاشم ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه كان أول من سمى باسم المتصوف ، وأنه بنى فى سـوريا ملجأ للصوفية ، ولـكنه ليس له فى حركة التصوف العلمية شأن كبير ، وأنه توفى حوالى سنة ١٥٠ للهجرة .

(٢) سـفيان الثورى ، وهو من الفقهاء والمحدثين ، بل قد حاول أن ينشىء مذهبا فى الفقـه ، وكان معاصرا لأبى هاشم ، وكان يباشر التصوف العملى بين جماعة من رفاقه ، منهم السيدة رابعة العدوية التى توفيت بالبصرة سنة ١٣٥ هـ وقد توفى سفيان فى سنة ١٦١هـ .

(٣) شـيبة الراعى الدمشقى الذى هجر العالم وتنسك فى جبل لبنان . وقد نسب اليـه معاصروه بعض الـكرامات ، كأن زعموا أن المطر كان يهطل إذا أراد أن يتوضأ ، وأن أسدا جاءه يوما وركع أمامه فقبض على أذنه ثم أرسله بعد أن ألقى عليه خطبة فى الوعظ . وقد توفى هذا الصوفى فى سنة ١٥٨ هـ .

(٤) ذو النـون المصرى ، ولد فى إخميم ، وقد اتهم فى حياته بالزندقة ، وبُـلّـغ أمره الى الخليفة المتوكل فاستحضره الى بغداد وأدخله السجن ، ولـكنه لم يلبث أن تبين حقيقته وأسره صبره على المـكاره ، وخلبه بفصاحته ، فعفا عنه ومنحه حريته ، ورده معززا الى مصر ، فعاد الى حياته الصوفية الأولى ، وكان له على مواطنيه أثر كبير . وأخيرا توفى فى الجيزة سنة ٢٤٥ هـ وله مؤلفات كثيرة ، منها : (ا) « المجربات » ويحتوى على إرشادات طبية ، وتجارب كيميائية ، وتمـائم سحرية ، وطلاسم وعزائم . ويوجـد فى مكـتبة باريس . (ب) أشعار فى حجر الحـكماء ، ويوجد فى مكتبة باريس . (ج) مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب فى حجر الحـكماء ، ويوجد فى مكـتبة برلين .

(٥) المحاسبى ، كان الحارث بن أحمد المحاسبى أحد كبار المتصوفين فى عصره ، ولـكن تصوفه لم يمنعه من الاستزادة فى العلوم الظـاهرية والارتواء منها ، وقد ألف فى علم الـكلام ، وله فيه مجادلات مشهودة أسخطت عليه فقهاء عصره ، كما سخطوا على جميع علماء الـكلام . أما زهده فقد بلغ حد النهاية فى عصره حتى لقد قيل : إنه كان إذا اشتهى لونا من ألوان الطعام ومـد اليه يده تحرك فى إصبعه عرق إنذارا له فيمتنع عنه . وقـد أطلق عليه لفظ المحاسبى لـكثرة محـاسبته نفسه على ما يأتيه من أعمال . وقـد توفى سنة ٢٤٣ هـ ومن مؤلفـاته ما يأتى : (١) « مقاصد الرعاية » وهو كتاب فى المبادىء التى يجب على المتصوفة اتباعها ،

ويوجد فى مصر . (ب) رسالة فى المبادىء العشرة الموصلة الى السعادة ، ويوجد فى برلين . (ج) « شرح المعادن وبذل النصيحة » ويوجد فى برلين (د) « البعث والنشر » ويوجد فى باريس . (هـ) رسالة فى الأخلاق ، وتوجد فى مكتبة محمد باشا الاسلامبولى .

(٦) أبو يزيد البسطامى ، وقد تنسك فى سوريا زمنا ثم شغف برؤية العلماء والمطلعين حتى قيل : إنه عرف جميع أكابر علماء عصره ، وقد بلغوا مائة وثلاثة عشر عالما . ولما عاد الى بسطام لم يستطع مواطنوه فهم مبادئه فطردوه من بلده خمس مرات ، وهو من كبار المتصوفين لولا ما أخذ عليه من صفة الكبرياء ، إذ أنه — فيما روى التاريخ — كان يتصور أنه أعلم أهل عصره بلا استثناء ، وأنه أعلن أنه ظل أربعين سنة يطعم من طعام غير طبيعى ، وأنه عرج به الى السماء كمحمد ، ولكن قد يكون كل ذلك مدسوسا عليه ليبرر به مواطنوه طردهم إياه ، لاسيما وأنه قد روى عنه مصدر آخر ما يخالف ذلك ، وهو قوله مامعناه : إننى فتشت فى قلبى بعد أربعين سنة فوجدت فيه أثر الوثنية وهو الاتجاه الى غير الله فعكفت على إزالته . وأخيرا توفى فى سنة ٢٦١ هـ (١)

(٧) الجنيد بن محمد القواريرى . وقد ولد ونشأ بالعراق ، وكان تلميذا للمحاسبى البصرى ، وكان شديد الورع ، ولم يمنعه تصوفه عن التمسك بأهداب الشريعة ، لأنه كان يؤمن بالمبدأ القائل : المتصوف هو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله . وله تعبيرات صوفية شهيرة وشطحات معروفة . وقد توفى فى سنة ٢٩٧ هـ ومن مؤلفاته كتاب « السر فى أنفاس الصوفية » ويوجد فى مصر .

(٨) الحلاج : هو الحسين بن منصور ، ولد فى فارس ، وكان جده مجوسيا ثم اعتنق الاسلام . وقد شب الحلاج فى واسط ثم رحل الى بغداد ، وفيها التقى بكثير من المتصوفين ، من بينهم سفيان الثورى ، ثم سافر الى الهند فأقام بها زمنا . وبعد عودته أدى فريضة الحج ، ثم مكث زمنا بمكة راض فيه نفسه على الزهادة والتنسك ، ثم رجع الى بغداد ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المقتدر .

كان الحلاج شغوفا بكثرة الاطلاع ، وكان عقله سهل الانتقال من رأى الى رأى . فاذا ثبت لديه صحة الرأى ، أسرع الى اعتقاده وإعلانه . ولذلك قال له أحد أساتذته يوما ما معناه : يا أبا منصور ليس بعيدا ذلك الوقت الذى يحمر فيه النطع من دمك !

اشتهر الحلاج وعلا صيته ، ونسب اليه فى خراسان وبغداد كلام يخالف ظاهر الشريعة ،

(١) انظر كتاب الغزالى للبارون « كارادى فو » صفحات ١٧٩ وما بعدها .

فأثار ذلك عليه حقد العلماء ، فأبلغوا عنه الخليفة ، واستشهدوا على كفره بمستند موقع عليه من عدد كبير من القضاة والفقهاء ، فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وألقى به فى السجن ثمانية أعوام ، وفى نهاية هذه المدة جدد العلماء الشكوى فى حماسة أعظم من الأولى ، وطالبوا بقتله ، فأجابهم الخليفة الى سؤلهم وأمر بتسليمه الى الجلاد .

وقد سرد فريد الدين الفارسى قصة تعذيبه ، ولعلها من موضوعات المتصوفة الكلاميين ليشنعوا بها على علماء الدين الذين يحافظون على آداب التعبير فى الأمور الاعتقادية ، قال :

«أصعد الجلاد الحلاج فوق منصة عالية تحوط به الجماهير الغفيرة من عامة الشعب ، ملقية عليه الأحجار والأوحال ، وهو لا ينفك عن تكرير تلك الكلمة التى كانت السبب فى قتله ، وهى : « أنا الحق ، أنا الحق » . ولما طلب اليه أن ينطق بالشهادة صاح مخاطبا الإله قائلا : « إن وجودا أنت فيه غير محتاج الى مشعل ينيره » . ولعل معنى هذه الكلمة أن وجود الله واضح وليس محتاجا الى أن يؤيده الحلاج بشهادته . ولما سئل : ما هى الصوفية ؟ أجاب بقوله : « هى ما لا تستطيعون أن تفهموه » !

فأخذ الجلاد يضربه بالسوط وهو يبتسم ، فلما فرغ من ضربه ، قطع يديه ورجليه ، فقابل ذلك بالابتسام وجعل يلطخ وجهه بدم ذراعيه المتدفق ، ولا يدرى أحد ما حكمة ذلك عنده ، ثم فقأ الجلاد عينيه . وفى نفس اللحظة التى هم الجلاد فيها بقطع لسانه ، كان هذا اللسان ينطق بالاستغفار لذلك الجلاد ومن اشتركوا معه فى تعذيبه ، وبعد موته أحرقوا جثته وألقوها فى نهر دجلة . وقيل إن رأسه أرسل الى خراسان . وقد صور الأستاذ الدكتور العنانى الحلاج بصورة أنزل كثيرا من الصورة التى يرويها الأستاذ « كارادى فو » والتى صحت لدينا ، ولكن لعل لدى الدكتور الفاضل ما صحح فى نظره الرواية التى اعتمد عليها .

أما مذهبه فكان وحدة الوجود بعد أن اختلطت بشىء من تعاليم الاسماعيلية كما أسلفنا ، وكان الحلاج يصرح بهذا كثيرا فيقول : « أنا الأول والآخر ، والظاهر والباطن . أنا الحق والكل ، ووجودى غير محتاج الى دليل ، لأنى فى كل شىء مقيم » الى آخر ذلك .

ومن هؤلاء المتصوفة الذين عاشوا فى العصر الأول غير من ذكرنا : محمد بن على الحسين ، وأبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، ومحمد بن عبد الجبار النفارى .

أما الطبقة الثانية من المتصوفة ، وهى التى عاشت فيما بين القرنين : الخامس والسابع ، فسنشير الى شىء من حياة أفرادها وآرائهم فى الكلمة التالية .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

موازين الحكم الأدبى

— ٤ —

الفهم (١) :

ولعمرى لقد أصاب الجاحظ شاكلة الصواب فى قوله : « إن الغاية التى اليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام » . فالمسألة قسمة بين القائل والناقد ، فاذا كان من الواجب على الأول أن يقول ما يُفهم ، فان من الواجب على الثانى أن يَفهم ما يقال .

ومن ثَم كان طلبهم فى الشاعر الحاذق بالصناعة أن يكون شعره مفهوماً واضحاً يسبق معناه لفظه ، وله رونق وماء يرف عليه ريحان القلوب (٢) .

وكان شرطهم فى الناقد إذا كان يدعى علم الشعر ويتحقق بالأدب أن يكون يفهم معانى الشعر ، وله دربة بالغامض والظاهر منها ، وهذا رأى قويم ، تقع به مهمة البيان موقعها من جهة ، ومن جهة أخرى يستطيع الناقد أن ينهض بمهمته ، وأن يخدم الأدب والفن كما يجب ، فيميز بين الخبيث والطيب ، ويفصل بين الزيف والأصيل ، ثم هو يقضى فى ذلك ونفسه مطمئنة ، ورأيه عن ثقة وتثبت .

وقد أجاد الآمدى وأفاد فى هذا المعنى إذ يقول : « وأما بعد : فأنى أدلك على ماتنتهى اليه البصيرة والعلم بأمر نفسك فى معرفتك بأمر هذه الصناعة — يريد صناعة النقد — والجهل بها ، وهو أن تنظر ما أجمع عليه الأئمة فى علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض ... فان علمت من ذلك ما علموه ، ولاح لك الطريق التى بها قدموا من قدموه ، وأخروا من أخروه ، فثق حينئذ بنفسك ، واحكم يستمع حكمك ، وإن لم ينته بك التأمل الى علم ذلك ، فاعلم أنك بمعزل عن الصناعة ... فان قلت : إنك قد انتهى بك التأمل الى علم ما علموه ، لم يقبل ذلك منك حتى تذكر العلل والأسباب ، وحتى تعلم شواهد ذلك من فهمك ، ودليله من اختباراتك ، وتمييزك بين الجيد والردىء ... ثم إنى أقول بعد ذلك : لعلك أكرمك الله

---

(١) بقية ما نشر بهذا العنوان فى العدد السابق .

(٢) قال أبو تمام فى يوسف السراج شاعر مصر فى وقته :

فلو نبش المقابر عن زهير ... لعول بالبكاء وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالا ... على تفسير بقراط الطبيب
وكيف ولم يزل للشعر ماء ... يرف عليه ريحان القلوب

وليت الطائى انتصح بذلك فخلص شعره من الغموض !

اغتررت بأن شارفت شيئاً من تقسيمات المنطق ، أوجملا من الكلام والجدال ، أوعلمت أبوابا من الحلال والحرام ، أو حفظت صدرا من اللغة ، أو اطلعت على بعض مقاييس العربية ، وأنك لما أخذت بطرف نوع من هذه الأنواع بمعاناة ومزاولة ومتصل عناية ، فتوحدت فيه وميزت ، ظننت أن كل مالا تلابسه من العلوم ولم تزاوله ، يجرى ذلك المجرى ، وأنك متى تعرضت له ، وأمررت قريحتك عليه ، نفذت فيه ، وكشفت عن معانيه ، هيهات ! لقد ظننت باطلا ، ورمت عسيرا ، لأن العلم بأى نوع كان لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع اليه ، والإكباب عليه ، والجد فيه ، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه ؛ ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر ، لأن كل امرىء إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله ، وما فى طاقته تعلمه ، فينبغى أصلحك الله أن تقف حيث وقف بك ، وتقنع بما قسم لك ، ولاتتعدى الى ماليس من شأنك ولا من صناعتك ! ! » (١) .

على أننا إذ نقول : الفهم ، لا نعنى فهماً كالذى يقصد إليه عالم كالعكبرى مثلا إذ يقول فى مقدمة شرحه للمتنبى : « وأما بعد : فإنى لما أتقنت الديوان الذى انتشر ذكره فى سائر البلدان ، وقرأته قراءة فهم وضبط ... ورأيت الناس قد أعربوا فيه بكل فن وأغربوا ، فمنهم من قصد المعانى دون الغريب ، ومنهم من قصد الإعراب باللفظ القريب ، ومنهم من أطال فيه وأسهب غاية التسهيب ، ومنهم من قصد التعصب عليه ، ونسبه الى غير ما كان قد قصد إليه ، فاستخرت الله تعالى وجمعت كتابى هذا ... وجعلت غرائب إعرابه أولا ، وغرائب لغاته ثانيا ، ومعانيه ثالثا ... نعم : نحن لا نعنى هذا الفن من الفهم وما هو على غراره من الأساليب التى انتهجها القدماء فى شرح الآثار الأدبية ، لأن فهم الآثار الأدبية ليس هو بتفسير الغريب ، وإعراب المشكل من التراكيب ، والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات وما الى ذلك من اصطلاحات أهل البيان ، فما هذه كلها إلا مجهود ضئيل ، قد يأتى بشىء ولكنه لا يأتى بكل شىء ، وإنما الوضع الصحيح لفهم الآثار الأدبية ، الذى يولد فينا الذوق الأدبى ويقوّى فينا الشعور بالجمال ، ويصل بنا إلى مقصد الشاعر أو الكاتب ، هو أن نستنطق الأثر الأدبى فى كل مايلابسه ويحيط به ، وأن نتبين ما هناك من ميول وأهواء ، ونفوس وشخصيات ، فى كلام المؤلف ، وشعر الشاعر ، وبيان الخطيب ، فإن من وراء هذا كله أشخاصاً ينطقون ويشعرون ، فإذا ما خالطنا هذه الآثار وما زجناها ، أحطنا بظواهر أصحابها وبواطنهم ، واتصلنا بسرائرهم ودخائلهم ، وعرفنا خصائصهم وطبائعهم ، واهتدينا الى أخلاقهم وميولهم ، ووقفنا على سلوكهم وأوضاعهم ، وفى هذا كله ما فيه من ثقافة للذوق ، ومتاع للعقل ، ثم فيه ما فيه من إفادة للناقد ، وتسهيل عليه فى درك الحقيقة التى ينشدها ، والصواب الذى يسعى إليه » .

(١) الموازنة ص ١٨٠

وهنا سؤال لا بدّ منه ، وقد يكون القارىء فطن له من قول العكبرى : « ومنهم من قصد التعصب عليه ، ونسبه الى غير ما كان قد قصد اليه » فان القائل قد يقصد فى قوله الى شىء ، ولكن الناقد يذهب بفهمه الى شىء آخر ، ما دام اللفظ يتحمله ، والتعبير يتسع له ؛ ثم إن الأفهام تفترق ، والنقاد يختلفون فى استخلاص المعنى من الكلام « فمنهم من تكفيه اللمحة البادرة ليتنبه الى النكتة اللطيفة ، والتلميح البعيد المستعذب فى عروض كلام الكاتب ، فيعدّ له ذلك من القلائد ، ويفهمه حسبما أراد به وقصد اليه ؛ ومنهم من يحسبها جملة جرى بها قلم الكاتب عن غير تعمد ، إذ أنه يرى فيها شيئا يشبه وجها محجوبا بستر صفيق فلا يدرى أحسن هو أم قبيح ؛ ومنهم من يمر بالكلام ولو سألته ماذا أراد به كاتبه لعجب من سؤلك ! لأنه لم يرفيه شيئا استوقف خواطره ، وعلى حسب ذلك الفهم وذلك الشعور تجده ينتقد ويحلل (١) » ، ويقدّر ويحكم ؛ وأنت لو نظرت الى النقاد الذين انتقدوا المتنبى مثلا ، لعجبت من مدى خلافهم فى تفهم معانيه ، والوقوف على أغراضه ، وهو نفسه يصور ذلك إذ يقول :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم !

إذن فماذا يكون حظ الحكم الأدبى من فهم الناقد ؟ وكيف يقع موقعه من الحق والصواب ما دام للناقد أن يذهب بفهمه على ما يرغب ، وما دامت أفهام النقاد تختلف فى الدرجة والطاقة على حد تعبير العلميين ؟ !

والجواب على هذا السؤال سهل قريب ، والتعليل له أسهل وأقرب ، فإن الأمر ليس منوطاً برغبة الناقد يذهب فيه مذهبه ، ويجرى على هواه ، ولكن هناك قيودا والتزامات ، فالفهم المعتبر عندهم فى تكوين الحكم الأدبى ، والذى يجب أن يتوخاه الناقد بكل ما عنده من علم وزكانة ، إنما هو الوقوف على غرض القائل وما يرمى إليه ، وإلى غير هذا الهدف لا يباح له أن يصوب النظر ، إذ المقصود إنما هو الحكم للقائل أو عليه ، والكشف عن حظه من العبقرية الفنية ، وليس مما يصح فى منطق العقل أن نحكم على رجل بغير مقصوده ، وأن نؤاخذه بغير ما يريده !

إن من الواجب على القاضى فى عرف القانون أن يحاول جهده الكشف عن نية المتهم فيما ارتكبه ليحكم عليه فى غير ما حيف ولا جنف ، والناقد لا شك له مكانة القاضى ومهمته ، فمن الواجب عليه كذلك أن يفهم كلام القائل « حسبما أراد به وقصد إليه » ، والسابقون من النقاد قد عبّدوا السبيل الى ذلك ، فاهتموا بالتغلغل فى شخصية الشاعر أو الكاتب ، والكشف عما أحاط به واكتنفه من عوامل ومؤثرات ليكون ذلك كله فى هداية الناقد ومعونته على فهم القائل حق الفهم ، ولذلك يقول (سانت بوف) : « إن من أراد أن يكتب

(١) منهل الوراد ج ٣ ص ١٤٠

عن شاعر أو كاتب فليبحث فى حياته وسيرته بحثا دقيقا ليعرف كيف كان يعيش فى منزله وفى الخارج حتى يمكن تصويره فى جميع صوره » . ومن المأثور عن هذا الناقد الكبير أنه كان يهتم بقراءة الرسائل الخصوصية للذين كان يرغب فى الكتابة عنهم ، وكذلك مفكراتهم واعترافاتهم ، لأنهم — كما يقول — يظهرون فيها غالبا بمظاهرهم الحقيقية .

ثم هناك حقيقة لا نحسبها تخفى على القارئ ، وهى أننا إذا تركنا الناقد يفهم فى الكلام كما يشاء ، ويحكم على آثار الشاعر أو الكاتب حسبما يذهب اليه فهمه وتصوره ، فان حكمه والحال هذه يكون على مواهبه هو ، ومدى إدراكه وفهمه ، لا على مواهب القائل ومدى ما عنده من العبقرية الفنية ، ولا شك أن هذا تعطيل لمهمة النقد ، وخروج بالحكم الأدبى عن وضعه ، وكان هذا هو الذى أخذ بمقول بعض الناس فزعموا أن النقد لا حقيقة له لأنه ليس إلا فهم الناقد لا فكرة القائل ! بمعنى أننا إذ نكشف عن معنى فى تعبير أدبى جميل ، فلسنا نكشف فى الواقع عن معنى قصد اليه الشاعر أو الكاتب ، ولكننا نكشف عن معنى قام فى ذهننا وتمثل لفهمنا ! وقد يكون هذا المذهب ظاهر البطلان أو غير ظاهره ، ولكننا لا شك نرده على أصحابه إذ نطلب من الناقد أن يكون فهمه إنما هو لمقصود القائل وما يرمى اليه ، وهذا أمر نحسبه هينا على الناقد المستكمل الأداة المتدرب بالمران ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

ما يذم من المزاح

قال سعيد بن العاص لولده : اقتصد فى مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ، ويجرئ السفهاء .

وقال أديب : المزاح يضع قدر الشريف ، ويذهب هيبة الجليل .

وقال حكيم لولده : يابنى إياك والمزاح فانه يذهب بهاء الوجه ، ويحط من المروأة .

وقال أبو جعفر الطبرى :

لى صاحب ليس يخلو لسانه من جراح
يجيد تمزيق عرضى على سبيل المزاح

وقال شاعر آخر :

امزح بمقدار الطلاقة واجتنب مزحا تضاف به الى سوء الأدب
لا تغضبن أحدا إذا مازحته إن المزاح على مقدمة الغضب

الشعر والشعراء فى الاسلام

١ – حسان بن ثابت

لست من فرسان هذه الحلبة ، حتى أغامر بقلمى الناشىء فى مضمار العلامة الجليل « مدير المجلة » ، لكن كلمته الشائقة التى كتبها عن الشعر والشعراء فى الاسلام ، دفعتنى الى الكتابة تابعا هذه الأنغام الأخاذة المبعوثة عن بيان الأستاذ الصافى ، ورأيت الالماع بادئ ذى بدء الى الشعر عند ما تنفس صبح الاسلام وظهر نوره اللامع ، فى آفاق الصحراء المغتمة بأسداف سحب الضلالات القاتمة ، فأزال عن الأبصار ما تغشاها ، وزالت أستار البصائر ، ثم تبدت صورة الحق ناطقة بالحكمة عن لسان سيد الأنبياء ، صلوات الله عليه .

أقول : إن للشعر سلطانا على القلوب ، ولعل حروف مادته تشترك مع «الشعور» فى المعنى ، ونغمات جرسه تهز أعطاف العواطف ، فتدفع بها الى متابعة ألحانها بين الشجو ، واللهو ، والشكوى ، والأنين والحنين ، وبكاء الاطلال والدمن ، ومضاحكة الحبيب ، ومؤانسة النشوة ، ومصافحة السيف ، ومغالبة الوغى ، ومطاردة العاذل ، ومواصلة التندر ، وتظرف المهاجاة !

كل هذه الخوالج ، تدفع فى شرايين العبقرية هيولى تسيل على الألسنة شعرا ، فى حمرته عصارة القلوب ، وفى سلاسته سلامة الفطرة ، وفى سموه رفعة المعانى ، وفى تشبيهاته صفاء الأخيلة ، وفى ديباجاته رصانة الخلق ، وفى صياغته قوة الطبع !

ذلك شأن الشعر ، فيجب أن تكون له منزلة توائمه ، وأن يعد الشاعر من مفاخر العرب التى كانوا يهنئون بها « فرس تنتج ، أو ولد يولد ، أو شاعر ينبغ » .

تلك نظرة عابرة ، تخذتها إيناسا بالحديث عن شاعر الاسلام وحامى ذماره « حسان بن ثابت » رضى الله عنه .

ولست هنا أريد تقييد نفسى بما ذكره الرواة عنه ، على اختلاف آرائهم ، وتشعب دراساتهم ، لأنى — مع قرب عهدى بدراسته — لم أرتح الى مناقضة بعضهم لبعض فى أمور عرضية لا تقدم من شخصية شاعرنا ولا تؤخر ، اللهم إلا افتراضات الوهم ، وتمحلات التعسف ، وإنما أود تقديم شىء من شعره بين يدى القارئ ، حتى يمكننا تحديد « نفسيته » والحكم عليها بمقتضى ما أوحت اليه عاطفته .

و« حسان » شاعر مخضرم ، كانت لشاعريته إلهامات بعثها فى الجاهلية ، ونفثات نفثها روحه فى الاسلام ، فقد جمع مجد الشعر من أطرافه ، وامتلك ناصية القافية ، فلا عجب أن يكون

الشاعر الحضرى الفذ ، الذى لم يطاوله أحـد من طرازه ، مع أن النقدة يعدون شعر الحضر ذارخاوة ، وتهدل ، وانمياع ، وعدم تماسك ، وبعد عن البداوة الأصيلة ، وقد جعلوه بذلك فى مرتبة العوان ، لاستكماله جمال الصياغة واستباقه فيها ، وتخلفه عن اللحاق بفحول الجزالة وزيادته عليها ! لـكنى لا أوافق النقاد على إغفالهم اختلاف البيئات وأثره فى معرض التفاضل لفقدان التـكافؤ بين خيالات شاعرين تختلف مناظر الوجود فى نظرهما ، وما الشعر إلا الخيال ينسج بمغزل العاطفة ، فيـكون حقائق شاهـدة برهافة حسهما ، وآمالا ناطقة بما يعتلج فى صدرهما .

ومن عجب أن يتناقل الرواة ورجال الأدب آراء النقاد ويرددوها فى المشافهة والمدارسة ، من دون أن ينيلوها شيئا من المناقشة ، أو يضعوها تحت أنظار أفـكارهم ، حتى يجردوها من المشايعة ، والمبالغة والتحامل ، فهم عند قول النحاة : « أىّ هكذا خلقت » ! وما ذلك بسبيل الانتصاف ، ومجانبة التجنى والإجحاف .

وشاعرنا لحصافة عقله كان يقول على سجيته ، فقد ناجى بشعره فى جاهليته الملوك وارتضى منحهم ، حتى اكتسب ثقة الحيرة ، وذاع صيته فى الشام ، وكان إطراف « جبلة بن الأيهم » وملازمة عطائه له ، وجميل رضاه عنه ، دليلا على ما لحسان من اقتدار على غزو القلوب ، ومخاطبة الأرواح .

يذكر الرواة أن شاعرنا أنشد عمرو بن الحرث ، وكان يحضر الانشاد خـلان « النابغة ، وعلقمة بن عبدة » فذهب يلتمس طريقة القدامى فى مناجاة الرسوم والديار وبقايا الأطلال ، والنزوع الى التشوق ، فى مذاكرة الأيام الخوالى ، واشتهاء تلك الأمانى المعسولة ، فلم يقصر ، بل سار كما نعهد على نسق الأسلوب الجاهلى ، من رصانة اللفظ ورقة المعنى ، وفحولة المبنى ، ومتانة التركيب ، فقال :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ؟ — بين الجوابى ، فالبضيع ، فحومل
فالمـرج مرج الصفرين فجاسم — فـديار سلمى درساً لم تحـلل
دمن تعاقبها الرياح دوارس — والمدجنات من السماك الأعزل (١)

إذ جرّد من نفسه مخاطبا ، وحدثه عن حال الدار التى تقع بين الأمـكـنة التى ذكرها ، عند القـدوم إليها ، والارتحال عنها ، وذكر فى معرض الاستفهام المجازى كيف ذهبت معالم

---

(١) فى السماء سما كان ، أحدهما يشع ، والآخر يخبو ، ويسمى الاول رامحا ، لاستطالة شعاعه كأنه رمح ، والثانى أعزل يجىء عند ظهوره المطر ، ويشير إليهما شاعر بقوله :

سكن السماكان السماء كلاهما — هـذا له رمح وهـذا أعزل

ديار سلمى ، وبقيت خالية ، لم تطرق بعد انتقال الأحبة وتحولهم ، ولم يبق فيها غير البقايا التى تتوالى عليها الأمطار المنبعثة من الغيوم الكثيرة الممطرة مع أنها ماحلة ! ولعلنا نرى مقدار براعته فى تعقب الأمكنة وتصويرها كأنها منظورة ، ثم نعجب من انتقاله الى الدخول على مقصده فى انسجام تام لا تنافر بينه وبين سابقه ، فيقول :

دار لقوم قد أراهم مرة فوق الأعزة ، عزهم لم ينقل
لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال ، الى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ضربا يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل

ولست أدرى بعد هذا الابداع ، الحاملَ على جعل شاعرنا لا يتسامى الى سماء زملائه من الفحول ! وما الركة ، وضعف النسج وعدم الرصانة البادية فى هذا الشعر البارع ؟ !

إن هذه القصيدة يتعذر على نقلها من ديوانه ، أو من الكتب التى تصدت الى دراسته ، لكنى أترك للقارئ تصفحها ، وسيصادفه هذا البيت الجامع :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

فقد اشتمل على مجازات ، ومعان مبتكرة ، تعد من الطراز الأول ، لا نعلم، على ما قرأنا ، أحداً جمعها فى بيت واحد ، فعلام المغالاة والمسخ ؟ !

على أنى لا أقصد التشيع لحسان ، وإنما الحق أحق أن يتبع ، وأرى فى دعوى النقاد جزافا لا يصح أن يصدر عنهم ، وهم يتأثرون بالمتقدم ، ويعدون تقسيم العصور فى الأدب ذا أثر بين فى تقدير الشخصيات ، ويحسبون هذا داعيا الى الأخذ عنهم إطلاقا ، والمنافسة فى الاستماع اليهم تسليما ، وقد وقع حسبانهم فى نفوس بعض الغلاة ، فجردوا شاعرنا المبدع من مواهبه لمجيئه متأخرا عن فلان وفلان ، وجعلوا النسبة الزمنية مقياسا للتقدير . ولسنا على طريقتهم ولا نحب أن نتقيد بهم ، بل نقول : إن حساناً شاعر ربما بذ الفحول ، وسقطاته هنات ، سنتكلم عليها عند الحديث عن تشبع روحه بالاسلام ، ونبين الأسباب الجلية التى جعلت شعره رقيقا لا ضعيفا كما يقولون ، ونشير الى آراء بعضهم ، ثم ننقدها على أساس من المنطق والاستشهاد .

احمد عبد اللطيف بدر

هل يمكن أن يحكم الانسان نفسه

كتب العالم البسيكولوجى (انتونان أميو) فى كتاب له فى هذا الموضوع تحت هـذا العنوان بحثا نفسيا نستحسن أن نلم به لما اشتمل عليه من الحقائق العلمية ، ولأن النابتة العصرية فى أشد الحاجة إليه ، قال :

هل من الممكن أن يحكم الانسان نفسه ؟

نعم لأننا خلقنا أحرارا ، ومتعنا من الارادة بما يسمح لنا بتوجيه أكثر ميولنا شراهة ، الى وجهات نافعة على قدر الامكان .

لاشك أننا لسنا أحرارا كالآلهـة (١) ، ولسنا مقيدين كالأحجار ، فيجب على الانسان أن يعرف نفسه ليستطيع أن يعمل ، وما أبعد تلك المعرفة عنه إن لم يدرس نفسه من قرب .

إذا نظر الانسان لنفسه نظرا سطحيا تبين له أنه مستقر المتناقضات ، ومستودع المتعاكسات ، وناهيك بكائن اجتمعت فيه المادة والروح ! فهو من جهة مادته مقيد بنواميسها ، مأسور لقوانينها ، ومن جهـة روحه حر مطلق لا يقيده شىء ، فهو دائر بين الاطلاق والتقييد ، وحياته قائمة على قطبيهما .

هذه المادة التى هى إحـدى عناصر ذاتنا ، عرضة للتاثر بكل المؤثرات التى تؤثر على كل مادة ، وبكل الأحوال التى تطرأ عليها من جهة العادة والوراثة . هـذه المؤثرات منها ما هو حسن ، ومنها ما هـو قبيح . فكل عمل من أعمالنا هـو فى حقيقته إما فضيلة وراثية اكتسبناها من آبائنا فرسخت فى نفوسنا على طول الأجيال ، وإما رذيله ورثناها منهم كذلك وسنورث ذلك كله لأبنائنا أجيالا متعاقبة .

فالتربية التى كونت لنا عاداتنا الأولى ، والوسط الذى عشنا فيه وأثر علينا آثارا لا تمحى ، وحركة الفصول السنوية ، والمصادفات اليومية ، والأعمال الواقعة علينا من الغير ، ومركزنا الاجتماعى ، وأساطير آبائنا ، وأوهام معاصرينا ، واللحظة التى نحن فيها ، كل ذلك له علينا تأثير لا ينكر ، فنحن إذن من أحوال هذا الفضاء والزمان مثل السفينة فى وسط الأقيانوس الذى لا ساحل له .

هذا هو مكان الانسان من أحوال هـذا العالم ، فهل الذى وضعه فيه زوبعة هبت عليه فقذفته اليه ، وأسلوب سىء سار عليه فرمى به فيه ، أو هـذا هو طريقه الطبيعى الذى رسم

---

(١) هذا نص عبارته وهو لا يقولها اعتقادا بوجود آلهة وإنما هو تعبير جرى عليه كتاب الفرنجة .

له من القدم ؟ لا ندرى ولا يهمنا معرفة السبب فى وصوله الى هذا المركز الخطر ، وإنما الذى يهمنا أن نعرف أننا فيه (١) . فلنعد الى وصف أنفسنا فنقول : إننا شبهنا أنفسنا بسفينة فى وسط الأقيانوس ، تلك السفينة مركبة من قطع خشبية مترابطة فيما بينها بروابط ، وهى إما كبيرة أو صغيرة ، تامة الأجهزة أو ناقصتها ، متوازنة أو غير متوازنة ، معرضة لنور الشمس أو منزوية عنها ، بعيدة من الساحل أو قريبة منه ، تهب عليها الرياح بحيث لا تستطيع أن تتوارى منها أو تغير من اتجاهها ، معرضة لمصادمات الأمواج من كل جوانبها ، حتى أن أقربها اليها لتهددها بأن تستطيرها أو تزدردها . ولكن فى داخل السفينة التى تتهددها كل هذه الجوائح ربان له عقل وحرية ، ممسك بيده سُكانها (٢) يستطيع أن يحول كل هذه الجوائح الى مصلحته ، وأن يستخدم الرياح الثائرة فى إيصاله سالما الى الشاطئ .

هذه هى صورة الانسان فهو بمادته عرضة لكل المؤثرات على المادة ، ولكنه بروحه يستطيع أن يدخل الى حلقات هذه المؤثرات الضرورية قوة جديدة هى إرادته واختياره ، فيستطيع أن يكون هو الناجى الناجح على شرط أن يعرف أسلوب السير ، وأن لا يترك السُكّان من يده ، وأن يضع حريته تحت طاعة إدراكه .

مما يدلك على ذلك أن الانسان ، وهو أضعف ما على الأرض من حيوان ، استطاع بعقله وحريته أن يكون مليك الطبيعة بلا خلاف ، وقد سخر لخدمته من الحيوانات ما كان يكفى فى إهلاكه من أحدها عضة بناب أو ضربة بمخلب . وقد سطا على الأرض الشحيحة وضرب عليها الجزية من النبات الذى يريده ، وقهر الجبال فنسفها بشرارة يستطيع الطفل أن يسلطها عليها بوضع أصبعه على زر صغير ، وأخضع أصلب المعادن فاذابها كالماء ، أو مدها كما يمد خيوط الكتان .

هذا الكائن يستطيع أن يقهر نفسه ، ومن العذر البارد أن يقول : « لا أستطيع التغلب على مزاجى ، إنى خلقت على هذه الحال » ، ولماذا لا يقول أمام وحش كاسر يهب لالتهامه : « هذا مزاجه ، إنه خلق على هذه الحال » ؟

نعم إن لك مزاجا ولكنك تستطيع أن تستخدمه فى مصلحتك ، أنت خلقت على ما أنت عليه حقيقة ، ولكنك تستطيع أن تقلب طبيعتك ، وأن تحول خلائقك وإذا كان الانسان قَدَر أن يقهر الطبيعة العامة فهو على قهر طبيعته أقدر .

فما هو الأسلوب الذى به تحكم نفسك ؟ إنك تستطيع ذلك بالأسلوب نفسه الذى تتسلط به على غيرها . فان العقبات التى تعترض أمرا من الأمور والوسائل التى توصل اليه ، تشبه أمثالها

---

(١) عندنا أن الانسان قذف به الى هذه الارض ، وسلطت عليه عوامل نفسه والبيئة التى هو فيها ليتنقى من خسة الحيوانية وتخلص روحه من سلطان المادة . (٢) السكان ذنب السفينة الذى تدار به .

فى كل ما يحاوله الانسان . فكل الذى على الانسان عمله إزاء هذا الغرض السامى ، وهو حكومة نفسه ، هو أن يستجمع الحوادث الماسة بموضوعه ، ويكتشف منها نواميسها الحاكمة عليها ، ويعتمد عليها فى نيل ما تصدى له من هذه الأمنية العزيزة .

هذا هو الأسلوب العملى الذى يجدر بالانسان ، وهو ذلك الكائن الذى لم يخلق حرا مطلقا ، ولا مستعبدا مقيدا ، ذلك الكائن الذى وإن كان لم يَقِل عن الحيوانات العجماء فى سعة سلطان الحواس الخمس ، فانه قد متع من قوة الادراك بما يريه أسباب الحوادث من خلال تسلسلها .

أول ما يجب علينا عرفانه فى هذا السبيل هو أننا مرتبطون بمجموع الكون ، وأن أجزاء جثماننا بعضها مرتبط ببعض كل الارتباط ، وأن هيكلنا الجسدانى كثير التركب ، جم الآلات والأجهزة ، كل منها يؤثر فى غيره ، وينعكس تأثيره على مجموعها انعكاسا طبيعيا منتظما .

إن فى هذا الجسد فضلا عن القوى المادية التى تدور فى زوبعته الحيوية مع حفظ جميع خواصها ، حياة نباتية وحياة حيوانية مختلطة إحداهما بالاخرى ، وقائمة على صورة حياة عامة فى هذا الكائن المسمى بالانسان .

كل واحدة من هذه القوى الحيوية الثلاث مسوقة لأن تظهر وجودها ، وأن تعمل ، وأن تتناسب والقوى الأخرى فى أعمالها .

ولكن مما يجب الالتفات إليه أن أعضاء الحياة الحسية مثلا والأوتار التى تحركها ، والأعصاب التى ترتبط بها ، مختلطة بعضها ببعض ، فما يصيب إحداها من ضعف أو قوة يصيب مجموعها معا .

مثل هذا كمثل عناصر الحياة النباتية ، وعناصر الحياة الانسانية والحيوانية التى فى الانسان ، فهى متداخلة بعضها فى بعض ، وتابعة للتأثر بما تتأثر به إحداها .

فالفكرة أو الارادة مثلا إذا بلغ الانسان أشده تستعمل الحس الذى تمنحها إياه الحياة الحسية فى نيل رغائبها ، وتستعمل أيضا فى الوقت نفسه لذلك الغرض عينه الدم والخلايا الجسمية التى هى من نتائج الحياة النباتية فى الهيئة الجسدية . وبناء عليه فلا يمكن أن يحدث الانسان حدثا ما سواء أكان معنويا أم ماديا إلا ويرن صداه فى جميع أجزاء هذا المجموع الجسدانى المتضامن فى الحياة .

من شك فى هذه الحقيقة فما عليه إلا أن يعرض الحوادث على نفسه . وكلنا يعلم أن وجود الجسمان فى أحوال خاصة ، يستدعى وجود الوجدان فى أحوال تقابلها ، وأن اختلاف الجنس والسن والوراثة والاقليم وغيرها مما لا نعلم ، مما له أثر خاص على الجسد المادى ، يعكس فعله

على الجسد الانسانى . ومما لا يجهله أحد أيضا أن سوء حالة المعدة يميل بالانسان الى سوء الخلق ، وأن تعاطى الأفيون أو الحشيش يحول العواطف الى وجهات غير التى كانت لها ، وأن تصفيق السامعين يستدر قريحة الخطيب وينشطه للقول ، وأن هبوط الحرارة الجسدية درجتين عن حدها الطبيعى تفقد الادراك ، وأن درجتين منها زيادة عن القدر الطبيعى لها يهيج الادراك لدرجة الجنون .

كل منا يستطيع أن يزيد على هذه الأمثلة من عنده ، وهى أدلة على تأثر المعنى الانسانى بما يقع على الهيكل الجسدانى .

أما تأثير المعنى الانسانى على الجسد فهو أصرح مما مر وأشد فعلا منه .

نعم : إن المعنى الانسانى لا يغير من قوانين الجسد شيئا ، ولكنه يؤثر عليها تأثيرا نافعا أو مضرا . أما الأمثلة على ذلك فمما لا يحصى كثرة . فلا يجهل أحد تأثير الارادة على العمل ، وتأثير الانفعالات على الوجه ، وعلى الجلسة والمشية والكتابة ، فهى تحمر الخد وتبيغ الدم ، وتنفخ الأوردة ، وتخنق الحلق ، وتضعف القوة ، وتصيب الجسد بحركات اضطرارية ، وتولد دما فاسدا ، وتسيء الخلق ، وتسقط الجسد فى مرض عضال .

يتضح للقارئ من كل مامر أن الروح والجسد متضامنان فى الحياة الأرضية ، فما يطرأ على أحدهما من التغيرات يطرأ على الآخر . والذى علينا إزاء هذه الحقيقة أن لا نعمل عملا جسديا إلا بعد تقدير نتيجته الضرورية وتأثيره على روحنا ، وأن لا نعطى روحنا حالا من الأحوال إلا بعد التروى فى تأثيره على جسدنا ، وأن نستفيد من حريتنا فنحدث أعمالا يكون تأثيرها حسنا فى روحنا ، أى أن يكون مثلنا من جسماننا كمثل سائق الآلة البخارية مع آلته ، يسير معها على مقتضى تركيبها لا يحملها ما لا تستطيع حمله ، ولا يريدها على ما يفسدها ويعطلها ، فلا يقودها وهو سكران أو لاه أو جاهل فتهلكه ولا كرامة . عليه أن يعرف مقتضيات تركيبها ، ومطالب عددها ، فيعلم أنه لو وضع فحما فى موقدها أنتج بخارا ، وإن هو فتح علبة البخار ضغط البخار على الكباس ، فان لم يكن مقدار الفحم محسوبا ومقدرا على مطلوب الآلة ، أوقعت قائدها ومن معه فى أشد الخطر .

يجب على الانسان أن يكون مع جثمانه على الأقل كالسائق المتقدم ذكره ، فيعلم الغاية التى يقود اليها أداته ، والتى ينوى الراكبون النزول فيها ، والطريق الذى عليه أن يسلكه من بين القضبان المختلفة فى سبيله ، والعلامات التى يجب عليه أن يلاحظها أثناء سيره ، وأمكنة الماء والفحم اللازمين لأداته فيقف فيها لأخذ حاجته منهما مدة سفره .

انتهى ما نقلناه عن البسيكولوجى (أنتونان اميو) وهو حسن فى جملته وتفصيله ، وقد جمع من بارع المقارنات ، ومحكم التشبيهات ما يروق العقل ، ويسيغه العلم ، ولهذا السبب أثبتناه

هنا ، ولكنا مع هذا نرى أن هذا الأسلوب غير عملى ، فان السواد الأعظم من الناس لا يفكرون فى أن يحكموا أنفسهم ليقهروها على اتباع طريقة معينة تؤدى الى الكمال الانسانى ، إلا إذا حفزتهم الى ذلك غاية شريفة يريدون الوصول اليها ، هذه الغاية لا يمكن أن تكون مادية ، لأنه لا معنى لأن يقيد الانسان نزعاته بالقيود الحديدية ، ليصل الى مقصد مادى هو لا يطلبه إلا ليتحلل بحصوله عليه من جميع القيود ، وينعم بالحياة به على أوسع ما تصبو اليه ميوله وشهواته .

وإذا استحال أن تكون هذه الغاية مادية ، كانت لا محالة روحانية ، وقد ثبت أن المقاصد الروحانية قد أدت الانسان ، حتى فى أخشن حالاته ، الى تقييد شهواته ، والتسلط على نفسه . فلا الحصول على المجد ، ولا الطمع فى الشهرة ، ولا الكلف بطول العمر ، ولا الوصول الى الغنى ، بلغ من حمل الانسان على حكومة نفسه مبلغ طموحه للسمو الروحانى ، فقد تخلى الانسان عن كل محبوب لديه فى سبيله ، بل دفعه لسكنى الكهوف والمغاور ، والاقدام على الموت فى تطلبه .

فاذا صحب العلمُ النزوعَ الى هذه الغاية ، وصل الانسان الى ما يرسمه الأستاذ انتونان اميو بغير تكلفٍ لفهم ما أتعب نفسه فى تصويره ، ولا يخلو تاريخ الأديان من ألوف من الناس بلغوا من حكومة أنفسهم الى ما لم يصل اليه فيلسوف بفلسفته ، ولا عالم بعلمه .

نعم إن المسيو (أنتونان اميو) لم يعين لتطلب حكومة النفس غرضا ، واكتفى ببيان أسلوب الوصول اليها من الناحية الفلسفية ، فلا يعنيه بعد ذلك إن كان الدافع لتطلبها ماديا أم روحانيا ، ولكنا من ناحيتنا يجب أن نبين للقارىء ، أن ذلك الغرض لو كان روحانيا ، لما كان ثمة حاجة الى دراسة أسلوبه وأخذ النفس به ، فقد شوهد أن الأغراض الروحانية إذا استولت على النفس دفعتها فى وجهتها دفعا قويا ، وحمتها جميع الافراطات والتفريطات حماية آلية لا تستطيعها أية فلسفة فى الأرض ، لأن الغرض الروحانى يقوم على الروح مباشرة ، وهى صاحبة السلطان المطلق على الجسم ، فلا تقوى أية رغيبة مادية أن تصرفها عن وجهتها ، لأنها لا تستمد وجودها إلا منها ، فان استوعب ميل الروح شيء سكنت جميع الميول وبطل عملها ، واتجهت جميع قوى الجثمان لتحقيق تلك الرغيبة الروحية . هذا ما يدل عليه تاريخ الأديان وخاصة تاريخ الاسلام ، فان المقصد الروحانى العالى الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم اليه ، وأمكنه الله من تثبيته فى القلوب ، قلب جميع أوضاع الجاهلية ، ومحق كل تقاليدها الموروثة ، وعاداتها المتأصلة فى سنين معدودة ، فنشأت أمة أخرى ذات نزعات جديدة لا تمت بصلة الى الأمة التى كان يمثلها هؤلاء الأفراد أنفسهم . هذه آية لا يمكن أن تنسخ ولا أن تنسى مهما طالت عليها الأزمان ، وستكون دائما دليلا على سمو التربية القائمة على الروح والايمان .

محمد فريد وجدى

هل ربا الفضل حلال

في بلادي « أندونسيا التي تحوى خمسة وخمسين مليونا من المسلمين » شبهة منتشرة في مسألة الربا .

وإنني حرصا على مصلحة بلادي المسلمة ، واستمساكا بأهداب الدين الاسلامي الحنيف ، وسعيا وراء الحقيقة ، ألتجئ الى فضيلتكم أستجلي رأيكم في هذه المسألة الخطيرة التي تشغل بال مسلمي أندونسيا ، راجيا أن تتكرموا بإبداء رأيكم في هذه المسألة على صفحات مجلة الأزهر ، لتنيروا به الظلمات التي انغمس فيها مواطني في بلادي .

وإني باسم هؤلاء المسلمين الكثيري العدد أقدم لفضيلتكم جزيل الشكر وأزكى التحيات .

وفيما يلي ملخص تلك الشبهات :

كتب رئيس الاتحاد الاسلامي ببندونج (جاوه) : أن ربا الفضل ليس من الربا المحرم ، على الرغم من كثرة الأحاديث الصحيحة الواردة في تحريمه التي منها روايات البخاري ومسلم .

قال في كتابه « كتاب الربا » ما ترجمته :

قد تباحثنا مع العلماء في هذه المسألة ، وعلى الأخص المحدثين منهم ، فكانت النتيجة تأبى إلا أن أقول : « إن جميع الأحاديث الواردة في تحريم ربا الفضل ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون تحريم ربا الفضل من الدين في شيء ، وليس معنى هذا أنني أرد كلام الرسول ، كلا ، بل إنني لم أصدق أن الرسول قال بذلك ، ولم أكن بهذا أكذب الصحابة ، لا ، بل أقول : إن بعض الرواة حصل منهم نوع من الخطأ فرووا خلاف ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . والأقرب الى ظني أن اليهود والنصارى والمجوس هم الذين وضعوا تلك الأحاديث الدالة على حرمة ربا الفضل لتضليل المسلمين وتضييق ميدان التجارة عليهم بكثرة المحرمات فيها ، فتكون التجارة كلها بأيدي هؤلاء اليهود والنصارى والمجوس .

هذا الظن وإن كان من الصعب على المسلمين قبوله ، ويكن يصعب عليهم أيضا رده ، لأنه بمقتضى تلك الأحاديث لا يتأتى على المسلمين الاتجار بتلك الأشياء الستة المهمة التي هي قوام الحياة ، ألا وهي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . هل يستطيع أحد أن يدلنا على أن مسلما في أي عصر كان اتجر على مقتضى تلك الشروط المذكورة في أحاديث ربا الفضل ؟

قال فى سبل السلام ج ٣ ص ٤٧ ونيل الأوطار ج ٤ ص ٣٠٢ : إن العلماء قد أجمعوا على جواز المعاملة بالأشياء الستة المذكورة بالتفاضل وبالأجل (دينا) إذا اختلف الجنس كالذهب بالفضة والتمر بالملح الخ .

لماذا أجمعوا عليه والأحاديث نصت على خلافه ... ؟

١ — قال صلى الله عليه وسلم (فى رواية البخارى ومسلم وأحمد) : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منهما غائبا بناجز » .

٢ — وقال فى رواية البخارى وأحمد : « لا تبيعوا الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد واستزاد فقد أربى ، والآخذ والمعطى فيه سواء » .

٣ — وقال فى رواية البخارى ومسلم وأحمد أيضا : « الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » .

٤ — وقال فى رواية مسلم والنسائى وأحمد وابن ماجه : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يداً بيد . فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » .

٥ — وقال فى رواية مسلم : « التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه » .

٦ — قال ابن عمر فى رواية احمد وابن ماجه : سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اشتر الذهب بالفضة ، فإذا أخذت واحدا منهما فلا تفارق صاحبك وبينكما لبس » .

فما معنى هذا الاجماع ؟ أيهما أحق أن يتبع : الاجماع ، أو الأحاديث المذكورة ؟ مَن من العلماء يستطيع أن يجيب ؟

ثم قال :

عجبا والله ! لماذا أجمع هؤلاء العلماء على ذلك ، وقالوا فى الوقت نفسه بصحة تلك الأحاديث المنافية له ؟ ! ولماذا لم يردوا تلك الأحاديث وهى مناقضة للأحاديث الأخرى الصحيحة الموافقة للعقل كحديث أسامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا فى النسيئة » رواه البخارى ومسلم .

إذا كانت تلك الأحاديث المحرِّمة صحيحة فلماذا لم يعرفها كثير من الصحابة الذين عاشروا النبى صلى الله عليه وسلم مدة حياته ، وعمل المسلمون على خلافها حتى بمكة نفسها منذ عهد

الصحابة ، وقال فى شرح المهذب قال ابن عبد البر : إن أهل مكة كانوا عليه قديما وحديثا ويجرون التفاضل فى ذلك ؟

وإذا كنت أرد تلك الأحاديث فليس بمجرد هوى بل بتلك الأدلة المتقدمة وغيرها . على أنى لست مبتدعا فى رد الأحاديث المنقوضة بالأدلة ، فهذه عائشة قد ردت الحديث الذى لا يوافق القرآن والعقل السليم ، وهذا عمر قد رد الحديث فى النفقة مع أن رواته أصحاب رسول الله .

هذا وقد بان التناقض فى الأحاديث الواردة فى ربا الفضل ، إذ بعضها حصر الربا المحرم فى النسيئة ، وبعضها أطلقه فضلا كان أو نسيئا ، وبعضها يدل على جواز ربا النسىء ، وآخر يدل على حرمته .

والخلاصة : أن هذا الدين يسر كما قال صلى الله عليه وسلم ، فلا ينبغى أن توجد فيه تلك الأمور الضيقة العسيرة ، وعندى يكفى قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارةً عن تراض منكم » . إنى لعلى يقين أن قوله تعالى «تجارة عن تراض منكم» له معناه الواسع ، وله قوته الكافية فى رد تلك الأحاديث المضيقة على التجارة . ولكنى كمسلم يحب الحق ويسعى للصواب ، أرحب أن يتفاهم معى أى عالم من حضرات العلماء الذين يرون خلاف ما أرى فى هذه المسالة (مسالة ربا الفضل) .

ثم قال :

كثر القائلون بتحريم ربا النسيئة مطلقا مستدلين بقوله تعالى : « يمحق الله الربا ويُربى الصدقاتِ ، والله لا يحب كل كفَّار أثيم » وقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مِثلُ الربا ، وأحلَّ الله البيع وحرم الربا » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ولحديث صحيح رواه أحمد : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية » ، وحديث صحيح رواه ابن جرير وابن أبى الدنيا : «الربا اثنان وستون بابا أدناها الذى يقع على أمه » ، وحديث صحيح رواه النسائى : « قال ابن مسعود : إن النبى صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه إذا علموا ذلك . ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة » لأن الربا فى تلك النصوص المتقدمة مطلق ، أما قوله تعالى : « أضعافا مضاعفة » فهو لبيان قبح الربا أو لبيان نوع من أنواعه المحرمة ، ولأن النهى عن الكثير لا يدل على أن القليل مباح ، هكذا قالوا ...

قلت : إن تلك الأدلة كلها مطلقة كما علمت ، سوى قوله تعالى : « لا تأكلوا الربا أضعافا

مضاعفة » والقاعدة عند الأصوليين : المقيد يقيد المطلق ، إذن فالربا المحرم إنما هو الربا الذى فيه أضعاف مضاعفة فقط ، ولكن لما كان الشارع لم يبين لنا مقدار تلك الأضعاف المضاعفة المحرمة ، ولا مقدار القلة التى يجوز فيها الربا ، فللاجتهاد مجال فى بيان ذلك المقدار المحرم والقدر الحلال . وليس معنى هذا أيضا أننى أحللت ماحرمه الله ، كلا ، إنى لمؤمن بأن الله تعالى قد حرم الربا الذى فيه أضعاف مضاعفة ، والذى يؤدى الى التضعيف ، أما الربا القليل والذى يؤدى الى الأضعاف المضاعفة ففيما يلى أبين أدلة إباحتهما :

عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهن عهدا ينتهى اليه : الجد ، والكلالة ، وأبواب الربا » . رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

وروى أن عمر قام خطيبا فى الناس فقال : « ألا إن آخر القرآن تنزيلا هو آية الربا ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يفسرها لنا ، فدعوا الربا والريبة » . من كتاب إقامة الدليل على إبطال التحليل .

إذا ثبت أن الربا القليل حرام ، أو لا يكون حراما إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، فلا يعقل أن يقول عمر مثل ذلك أمام جمهور من الصحابة ولا ينكروه عليه ، فتبين من ذلك أنه لم يرد فى القرآن ولا فى الحديث مايبين لنا مقدار الربا المحرم . ومعنى هذا أن الشارع قد فوض الينا الأمر فى ذلك التقدير . وإذا نظرنا الى الربا الذى حرمه الشارع وهو ربا الجاهلية وهو كما قال الطبرى فى تفسيره وغيره : الربا الذى فيه أضعاف مضاعفة سواء كان فى النقود أو فى الحيوانات ، إذا نظرنا الى هذا تبين لنا فيه ثلاث صفات هى علة التحريم فى الربا :

(أولا) الضرر بسبب كثرة الربا حيث لايمكن أن يربح المديون ربحا كافيا لتسديد الدين وفائدته غالبا .

(ثانيا) الاكراه بعد حلول الأجل بالأداء أو بزيادة الدين .

(ثالثا) أن تكون الفائدة أضعافا مضاعفة ، أى ليس لذلك الربا حد ، بل يربو ويربو ويربو الى مالا نهاية .

إذا ثبت هذا ثبت أن كل ربا ليست فيه هذه الصفات الثلاث ليس بحرام شرعا .

ثم تكلم طويلا فى فوائد الربا الذى ادعى أنه حلال وقال فى آخر كتابه : ورأيى أن إنشاء البنوك وغيرها التى فيها ربا غير مضاعف ، واجب على المستطيع ، وإن كان القوم رأوا حرمة جميع أنواع الربا ، لأن مقتضى القواعد الدينية الاسلامية ومقتضى العقل السليم أن إزالة الضرر الكبير بالضرر الصغير مأمورة ، كما إذا كانت سفينة تشرف على الغرق وفيها عشرة أنفار ولن تنجو

السفينة وما فيها إلا بالقاء ثلاثة منهم فى البحر ، فمن ذا الذى يقول : لا يجب إلقاء الثلاثة لينجو الباقون ؟

فهل يمكننا اليوم أن نزيل هذا الضرر الشامل المتسبب من الربا الذى فيه أضعاف مضاعفة بغير إنشاء البنوك ونحوها بربا زهيد ؟ إذا قلت : نعم ، فعليك البيان وعلينا الاتباع . وهنا أرفع القلم منتظرا رأى العلماء فيما كتبت ، وأنا مستعد للرجوع عن رأيى إذا تبين خطؤه بالأدلة المعتبرة لا بمحض أقوال العلماء اهـ .

هذه ياصاحب الفضيلة الشبهة التى أثارها فى بلادنا الكاتب فى كتابه الموسوم (بكتاب الربا) . وهناك عالم آخر خطير ذو نفوذ كبيرجدا قال بحرمة الربا ولكنه أبيح للحاجة ، ولاسيما فى إنشاء البنوك الاقتصادية الكبيرة على النظام الأوربى التى نحن فى أشد الحاجة اليها لنجارى الغربيين فى ذلك الميدان ميدان الاقتصاد ، ولنرفع رءوس الأمة الاسلامية عالية ، ونحن لا حظوة لنا بالتقدم إلا إذا قطعنا شطرا كبيرا فى الجهاد العملى ، نبنى أعمالنا على التفكر والتروى مستدلين بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة ، ونمحو تلك المسائل التافهة التى تعوق طريق تقدمنا ، ولذلك أبحث الربا حيث إنه وسيلة التقدم ، ومن باب : الضرورات تبيح المحظورات .

أرجو من فضيلتكم باسم الغيرة الاسلامية أن تبينوا حقيقة هذه المسألة الخطيرة ببيان شاف وأدلة قاطعة ترد الأمور الى نصابها ، والله تعالى يجازيكم على دفاعكم عن بيضة دينه .

وتفضلوا بقبول جزيل شكرى وشكر مسلمى أندونسيا وأسمى التحيات .

جمعية الشبان الأندونسيين والملايويين
الرئيس : اسماعيل محمد بندا

(مجلة الأزهر) سننشر بيانا شافيا لمسألة الربا فى الاسلام فى العدد المقبل ، إن شاء الله .

شكر المعروف

قال لقمان لابنه : يا بنى ! المعروف غل لا يفكه إلا شكر أو مكافاة .

وقال شاعر :

كلما قلت أعتق الشكر رقى ... صيرتنى لك المكارم عبدا
فائن عمر الزمان حتى أؤدى ... شكر إحسانك الذى لا يؤدى

التفسير

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

راينا ان نتحف القراء بتفسير سورة « قل هو الله أحد » لما ورد أنها تعدل ثلث القرآن على ما ستسمع إن شاء الله .

ولنبدأ بما قيل فى أسمائها الدالة على مزيد شرفها فنقول :

هـذه السورة تسمى سورة الإخلاص ، وسميت بها لما فيها من التوحيد ، ولذا سميت أيضا بالأساس ، فان التوحيد أصل لسائر أمور الدين . وروى الزمخشرى عن أنس مرفوعا أن هـذه السورة أسست عليها السموات السبع والأرضون السبع . والصحيح أن ذلك غير مرفوع . والمراد أنه ما خلقت السموات والأرضون إلا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التى تضمنتها هـذه السورة . ولك أن تقول : إن مصحح إيجادهما ، أى بعد إمكانهما الذاتى ، ما أشارت اليه السورة من وحدته عز وجل ، واستحالة أن يكون له سبحانه شريك ، إذ لولا ذلك لم يمكن وجودهما لإمكان التمانع ، كما هو معروف فى علم التوحيد ، وكما يشير اليه قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

وتسمى أيضا سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة النجاة ، وسورة المعرفة ، لأن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة ما فيها . وفى بعض الآثار أن رجلا صلى فقرأ قل هو الله أحد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن هذا عبد عرف ربه »

وسورة النسبة لورودها جوابا لمن قال : انسب لنا ربك ، على ما ستسمعه . وسورة الصمد ، وسورة المعوذة ، لما أخرج النسائى والبزار وابن مردويه بسند صحيح عن عبد الله ابن أنيس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدرى ثم قال : قل ، فلم أدر ما أقول ، ثم قال : قل هو الله أحـد ، فقلت حتى فرغت منها ، ثم قال : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، فقلت حتى فرغت منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هكذا فتعوذ ، وما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط » .

وتسمى أيضا سورة البراءة ، قيل : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يقرؤها فقال : أما هذا فقد برئ من الشرك . وقد روى الترمذى عن أنس : من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة كتب الله تعالى له براءة من النار .

وسورة الإيمان ، لأنه لا يتم بدون ما تضمنته من التوحيد ، الى آخر ما ذكره المفسرون ، وهى جديرة بذلك كله كما لا يخفى . ولا يهمنا تصحيح كل ما قيل من حيث الرواية ، فان هذه الأسماء التى ذكروها مأخوذة مما تضمنته هــذه السورة من أسمائه العلية وأوصافه السنية ، فكلها حق بشهادة معناها وفصيح مبناها .

وهى مكية ، وقيل مدنية ، وقيل تكرر نزولها جوابا للمشركين بمكة ولليهود بالمدينة . وبهذا تعرف ما فى قول بعضهم إنها مكية باتفاق . وآيها خمس فى المصحف المكى والشامى ، أربع فى غيرهما ، بجعل لم يلد ولم يولد آية واحدة ، وهو المشهور بين القراء .

وقد قرن بين هذه السورة وقل يأيها الكافرون فى صلوات كثيرة لأنهما مقشقشتان : أى مبرئتان من الشرك .

أما الصلوات التى يقرأ فيها هاتان السورتان ، فمثل ركعتى الفجر عند غالب العلماء ، وركعتى الطواف ، وسنة المغرب . وزاد بعضهم وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

هــذا وقد جاء فيها أخبار كثيرة تدل على مزيد فضلها ، منها ما تقدم آنفا . وقــد روى عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أحب هذه السورة « قل هو الله أحد » ، قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة . وقد أخرج ذلك الامام أحمد فى المسند عن أبى النضر عن مبارك ابن فضالة عن أنس . وذكر البخارى أن حبها يوجب دخول الجنة ، تعليقا . وروى مالك عن عبد الله ابن عبد الرحمن قال : سمعت أبا هريرة يقــول : أقبلت مع النبى صلى الله عليه وسـلم فسمع رجلا يقرأ « قــل هو الله أحد » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، قلت : وما وجبت ؟ قال : الجنة . وأخرجه الترمذى والنسائى وقال حديث صحيح . وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذى عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقــول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحــد الصمد الذى لم يـلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . وقد قالوا : إن هذا أصح حديث ورد فى اسم الله الأعظم .

وفى المسند أن النبى صلى الله عليــه وسلم دخل المسجد فاذا هو برجل قــد قضى صلاته وهو يتشهد ويقول : إنى أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أن تغفر لى ذنوبى إنك أنت الغفور الرحيم ! فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : قد

غفر له ، قد غفر له ، قد غفر له ! ثلاث مرات . وأخرج البخارى ومالك وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد ، يرددها ، فلما أصبح جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . وكان الرجل يتقالها ، أى يعدها قليلا نظرا لقلة ألفاظها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . وأخرج احمد والنسائى فى اليوم والليلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » .

وبالجملة فقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن فى عدة أخبار مرفوعة وموقوفة . واختلف فى المراد بذلك ، فقيل : المراد أنها باعتبار معناها ثلث من القرآن المجزأ الى ثلاثة أجزاء . وقد اختلفوا فى بيان ذلك ، فقيل : إن القرآن يشتمل على قصص وعقائد ، وهى كلها مما يتعلق بالعقائد ، فكانت ثلثا بذلك الاعتبار .

وقال الغزالى فى كتابه جواهر القرآن ما حاصله : أنها عدل ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التى هى أمهات القرآن ، وهى علم المبدأ ، وعلم المعاد ، وعلم ما بينهما . وقال بعضهم : المطالب التى فى القرآن معظمها الأصول الثلاثة التى بها يصح الاسلام ويحصل الإيمان ، وهى معرفة الله تعالى ، والاعتراف بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد القيام بين يديه . وهذه السورة تفيد الأصل الأول ، فهى ثلثه من هذا الوجه . وفى الكشاف أنها تعدل القرآن كله . وهذا إن صح يقال فيه : إنها عدل القرآن باعتبار أن المقصود هو التوحيد وما عداه ذرائع له ووسائل اليه وفرع عنه . وقيل : المراد تعدل الثلث من حيث الثواب لظواهر الأحاديث . وضعف ذلك بعضهم قائلا : لا يجوز أن يكون المعنى : فله أجر ثلث القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » فيكون ثواب قراءة القرآن بتمامه أضعافا مضاعفة بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة . وقد أجاب الدوانى عن ذلك بأن للقارئ ثوابين تفصيليا بحسب قراءة الحروف ، وإجماليا بسبب ختمه القرآن ، فثواب « قل هو الله أحد » يعدل ثلث ثواب الختم الاجمالى لا غيره . ونظير ذلك ما إذا عين الانسان أحدا يبنى له دارا وله فى كل يوم أربعة دنانير وعين له إذا أتمه جائزة أخرى غير أجرته اليومية . وفى شرح البخارى للكرمانى ما نصه : « فإن قلت : المشقة فى قراءة الثلث أكثر منها فى قراءتها فكيف يكون حكمه حكمها ؟ قلت : يكون ثواب قراءة الثلث بعشر ، وثواب قراءتها بقدر ثواب مرة منها ، لأن التشبيه فى الأصل دون الزوائد » .

ولك أن تقول : لا مانع من أن يخص الله عز وجل بعض العبادات التى ليس فيها كثير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها بأضعاف مضاعفة ، وهو سبحانه الذى لا حجر عليه ، ولا يتناهى جوده وكرمه وسعة تصرفه ، فلا يبعد أن يتفضل جل وعلا

على قارئ القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافا مضاعفة جدا لقارئ الاخلاص بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة ، ونفوض حكمة التخصيص الى علمه سبحانه . وكذا يقال فى أمثال ذلك . وهذا مراد من جعل ذلك من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وليس هـذا بأبعد من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة المتحدة الماهية بأن للعبادة فيه ولو قليلة من الثواب ما يزيد أضعافا مضاعفة على ثواب العبادة فى مجاوره مثلا ولو كثيرة ، بل قد خص سبحانه بعض الأزمنة والأمكنة بوجوب العبادة فيه ، وبعضها بحرمتها فيه ، وله سبحانه فى كل ذلك من الحكم ما هو به أعلم .

وقد روى فى فضلها أحاديث ضعيفة وموضوعة ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفى فى فضلها ، بل قيل لذلك إنها أفضل سورة فى القرآن . ومنهم من استدل عليه بما روى الدارمى فى مسنده عن أبى المغيرة عن صفوان الكلاعى قال : قال رجل : يا رسول الله أى سور القرآن أعظم ؟ قال : قل هو الله أحد . وفى المسند من طريق معاذ بن رفاعة وأسيد ابن عبد الرحمن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت فى التوراة والانجيل والزبور والقرآن العظيم ؟ قلت : بلى . قال : فأقرأنى قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم قال : يا عقبة لا تنساهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن . وهذا وأمثاله يدل على أنها أفضل سور القرآن مطلقا ، بل على أنها من الأفضل . وقال ابن الحصاد : العجب ممن ينكر الاختلاف فى الفضل مع كثرة النصوص الواردة فيه !

واختلف القائلون بالتفضيل ، فقال بعضهم : الفضل راجع الى عظم الثواب ومضاعفة الأجر بحسب انفعال النفس وخشيتها وتدبرها . وقال بعضهم وهو وجيه : إن الآيات التى تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته عز وجل أفضل ، بمعنى انها اسنى وأجل قدرا مما لا تشتمل على ذلك .

وقيل : إن معنى الأفضلية أن القارئ يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عبادة ، كآية الكرسى والاخلاص والمعوذتين ، فان قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يخشى ، بما فيها من الاعتصام بالله تعالى ، مع ما فيها من العبادة لله تعالى ، فان فيها ذكره عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فيذكرها القارئ على سبيل الاعتقاد لها وسكون النفس الى فضل ذلك الذكر وبركته ، وأما آيات الأحكام فلا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم وإنما يقع بها علم .

وبالجملة فالتفضيل بأحد هذه الاعتبارات لا ينافى كون الكل كلام الله عز وجل ، وأنه متحد النسبة سبحانه كما لا يخفى .

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

السنة

كسب الحلال والحرام

وما يتعلق بذلك

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله طيّب لايقبل إلا طيّبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم » وقال : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقنا كم » . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمد يديه الى السماء : يارب ، يارب ، ومَطعمُه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » ! رواه مسلم والترمذى ، ونقله الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) بيان أن الرسل مكلفون بعمل الصالحات كغيرهم (٣) ما المراد بالطيبات من الرزق ؟ (٤) بيان أن أكل الحرام وشربه ولبسه يحول بين العبد وخالقه .

١ — أما معنى هذا الحديث إجمالا فهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث أمته على البر ومكارم الأخلاق ، فى كل شان من شئون هذه الحياة الدنيا . ومما لا ريب فيه أن خير البر وأنفعه للمجتمع الانسانى هو أن يسلك كلُّ فرد من الأفراد المكلفين سبيلَ العفة والعدل فى كل ملاذه وشهواته ، فيتجافى فى مطعمه ومشربه وملبسه ووسائلها كلَّ بغى وعدوان ، فلا يأكل إلا حلالا ، ولا يشرب إلا حلالا ، ولا يستمتع إلا بالحلال .

وقد يخيل للانسان أن ملاذ الحياة الدنيا ومطالبها كثيرة لا تنتهى الى غاية ولا تقف عند حد ، فيساق بعوامل هذه الملاذ الى النضال الدائم والجهاد المستمر فى سبيل تحصيلها والوصول الى أقصى حد ممكن منها ، ولكن العاقل حقا إذا أمعن النظر فى شهوات هذه الحياة الدنيا وملاذها يجدها منحصرة فى دائرة ضيقة لا تستلزم الخروج عن السبل القويمة التى أمر الله عباده بسلوكها فى تحصيل هذه الشهوات ، ولا تحتاج الى ذلك الصراع الذى كثيرا ما يذهب بكرامة الانسان ومروءته وهو غافل لاه . ويمكن حصر مهام لذات الحياة الدنيا فى شهوتى البطن

والفرج وما يستلزمانه من مال وجاه وذرية وغير ذلك . والى هذا يشير قوله تعالى : « زُين للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنين ، والقناطيرِ المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوَّمة ، والأنعام ، والحرث » .

فهـذه الآية الـكريمة تدل على أن معظم الشهوات التى يفتتن بها الناس فى حياتهم الدنيا هى هذه الشهوات ، فهى محببة الى الانسان بطبيعته ، ومع ذلك فهى مزينة له بعوامل مختلفة ، ولذا لم تصرح بالفاعل الذى زينها لأنها متنوعة بتنوع تلك الشهوات . مثلا : شهوة النساء قد حببت الى الانسان بفطرته ، ولـكن لا يزينها له ولا يدفعه الى تحصيلها إلا ما يراه من جمال المرأة ، واستعدادها لقضاء تلك الشهوة ، فلو عاش الرجل بعيدا عن النساء لا يكون لتلك الشهوة سلطان عليه . وكذلك شهوة المال محببة الى الانسان ، ولـكن لا يزينها له إلا ما يترتب على المال من قضاء مآرب وغايات لا يمكن الحصول عليها إلا بالمال . وهكذا جميع الشهوات اللازمة لطبيعة الانسان ، فهى محببة اليـه بفطرته ، ومزينة له بعامل قـوى يسوقه اليها . ثم إن كانت هذه العوامل مشروعة يقرها الدين كانت هذه الشهوات ممدوحة ، وإلا كانت من شر الآفات المذمومة .

وقد أشارت الآية الـكريمة الى أن هذه الشهوات المحبوبةَ للانسان بفطرته متاعُ الحياة الدنيا وزينتها ، ومهما بلغ من أمرها فانها منقطعة لا تدوم ، بل هى متاع قليل إذا قيست بالنعيم الدائم الباقى يوم القيامة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : « قل متاع الدنيـا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى » . فينبغى للعقلاء أن يقفوا عند الحد المباح لهم ، ويعلموا أن الخروج عن ذلك الحد موجب للشقاء والحرمان من النعيم الخالد الذى أشار الله اليه بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المـآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلـكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوانٌ من الله ، والله بصير بالعباد » .

فالمـيزان المستقيم العادل الذى لا يختل أبدا هـو اتباع أوامر الدين ، واجتناب نواهيه فى متاع الدنيا وشهواتها .

ولقد بين لنـا الحديث الذى معنا أن شهوة البطن واللباس وما يستلزمانه من مال وبيع وشراء يجب أن تكون مقصورة على الحلال الطيب ، فلا يحـل لأحد أن تدفعه شهوته الزائلة الى عصيان الله والخروج على النظم الاجتماعية الصالحة التى أمر الله بها عباده على اختلاف درجاتهم ، فان من تطغى عليه شهوته وتدفعه الى الاعتداء على الناس فى أموالهم وأرزاقهم بدون حساب كان مصيره الى الهلاك العاجل ، والعذاب الدائم ، والحرمان من النعيم الخالد . وقوله : يطيل الرجل السفر الخ كناية عن إظهار الزهد ابتغاء رضوان الله .

٢ — أما كون الرسل مكلفين بعمل الصالحات كغيرهم من الأفراد ، فذلك مما لا نزاع فيه ، بل هم معصومون عن الموبقات والكبائر قبل البعثة وبعدها على الصحيح ، لأن الكبائر إما أن تكون شركا وهو أكبر الكبائر ، وإما أن تكون غيره كالقتل والزنا والسرقة ونحوها . ولا ريب في أن الأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه لا يصح أن يدنسوا بشيء من هذه القاذورات ، لا قبل البعثة ولا بعدها . أما بعد البعثة فالأمر ظاهر ، لأنهم بعثوا لإرشاد الناس ، والمرشد الذي ينصبه الله قدوة لعباده لا بد أن يكون طاهرا مطهرا ، فلا ينهى الناس عن خلق قذر ثم يفعله هو ، فان ذلك موجب لانصراف الناس عنه ، وفشله في وظيفته التي بعثه الله من أجلها لا محالة . وأما قبل البعثة فلأن المرشد الذي له ماض شائن يحتقره الناس ولا يصغون الى دعوته ، ويقولون له : ما شأنك وأنت منغمس في الخصال التي تأمرنا بالكف عنها ؟ ! فلذا كان من الضروري أن يعصم الله رسله الذين يعلم أنه سيرسلهم كما قال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

نعم : قد ورد في القرآن ما يفيد ظاهره أن بعض الأنبياء قد عصى ربه ، ولكنها جميعها لا تخل بمقامهم الكريم ، بل هي في الواقع صغائر صدرت منهم عفوا ، وقد مجدهم الله في كتابه تمجيدا يدل على أن كل ما صدر منهم كان أمرا صوريا ، ومن ذلك ما قصه الله علينا من عصيان آدم حيث قال : « وعصى آدم ربه فغَوَى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهَدَى » . فالغواية والتوبة يدلان على أنه ارتكب كبيرة مع كونه رسولا . والجواب عن هذا ظاهر : وهو أن آدم عليه السلام فهم أن أمره بالكف عن الأكل لم يكن للوجوب ، وذلك لأن أكل الثمر من جنة ملكه الله إياها ليس نقيصة في ذاته ، وإنما وصفه بالعصيان ، ووصف استغفار آدم بالتوبة ، لأن اللائق بمقام الأنبياء أن لا يخالفوا أمر الله تعالى ولو كان للندب . والواقع أن آدم قد فعل ما ترتب عليه نظام الله في الخليقة ، فكان عمله لازما لا بد منه ، وإنما نهاه الله في الظاهر للإشارة الى أن النوع الانساني سيكون على هذه الحال : من عصيان ربه تارة ، والرجوع اليه تارة أخرى ، وأنه سبحانه يقبل من يرجع اليه ويجتبيه ويغفر له عصيانه ، فما وقع من آدم إنما هو حكاية لصورة حقيقية لذلك النوع ، وتمثيل صادق لما سيقع منه في حياته الدنيا ، وذلك أمر لا بد منه قد سنه الله تعالى في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فآدم وإن خالف الأمر في الظاهر ، ولكنه فعل ما لا بد منه في الواقع ، ولذا قد امتدحه الله بعد ذلك فقال : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

أما ما وقع من موسى عليه السلام من قتل القبطي فإنه كان خطأ لاشك فيه ، لأن الوكز باليد مرة لا يراد به القتل حتما . وعلى هذا القياس في كل ما ورد من ذلك مما لا محل لذكره الآن . فالأنبياء مكلفون كغيرهم ، بل كان رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم مكلفا أكثر من أمته ،

فكان مفروضا عليه قيام جزء كبير من الليل ، وكان يعبد الله أكثر من أصحابه ، حتى قال له بعض أصحابه : إنك تعبد الله أكثر منا مع أن الله قد غفر لك ماتقدم وما تأخر ، وهموا أن يفعلوا مثله ، فنهاهم عن ذلك ، وقال : إنى أعلمكم بعظمة الله ، وأشدكم خشية له ، وذلك من أكبر العوامل الباعثة على العمل بدون مشقة ولا ملل ، فإذا قلدتمونى مللتم العمل وضعفتم عن القيام به .

٣ — أما المراد بالطيبات من الرزق ، فهو كل مالم تحرم الشريعة الاستمتاع به من أكل وشرب ولبس وغيرها ، على أن تسكن اليه النفس وتطمئن به ، كما قال صلى الله عليه وسلم : البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم عكس هذا .

على أن الفقهاء قد بينوا ما يحل أكله ولبسه وشربه وبيعه وشراؤه وإجارته ونحو ذلك بيانا تاما ، فشرحوا الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيع والشراء والإجارة ونحوها أحسن شرح ، واجتهدوا فى فهمها اجتهادا يدل على ماهم من ذكاء وفطنة فى فهم معانى القول وإدراك ما يلزم لتطبيقه على أحوال الأمم ، وأبانوا ما يحل أكله وشربه وما لا يحل ، على وجه صالح مناسب للناس مع تفاوت حالهم واختلاف طبائعهم .

فأحل المالكية أكل كل شيء طاهر لا تعافه النفس ولا يضر بالبدن ، إلا بعض أشياء قد اختلفوا فيها ، منها الحمر الأهلية والخيل والبغال ، فالمشهور عندهم تحريمها لما ورد فيها بخصوصها . وبعضهم يقول : إن الحمر الأهلية والبغال مكروهة ، والخيل مباحة . وذلك هو المشهور عندهم . وبعض المالكية يقول : إن جميع الحشرات من الخبائث لا من الطيبات ، فلا يحل أكلها . وبالجملة ، فالمالكية توسعوا فى معنى الطيبات من الرزق ، فأحلوا كل طاهر لا يضر أو يتعلق به حق الغير ، واختلف علماؤهم فى الحشرات ونحوها . على أن الظاهر يؤيد من يقول بتحريمها لأنها من الخبائث جزما عند ذوى العقول السليمة .

أما الحنفية فقد حرموا أكل كثير من الحيوانات قالوا إنها من الخبائث ، ومنها سباع البهائم كالسبع والنمر والضبع ونحوها ، ومنها سباع الطير كالحدأة والغراب الخ ، وأحلوا أكل الخيل بدون كراهة . ومن أراد أن يعرف ذلك مفصلا فى المذاهب فليرجع الى أول مباحث الجزء الثانى من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

٤ — كل من عرف الشريعة الاسلامية وآدابها ، ونظر الى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة صادقة صحيحة ، لا يسعه إلا أن يجزم بأنها مرتكزة الى إله عليم خبير لا تخفى عليه من أحوال عباده خافية ، فقد اشتملت على كل ما فيه صلاح الانسان فى معاشه ومعاده فى جميع أطواره ، فعنيت بمحاربة الشهوات الفاسدة وطغيانها عناية عظيمة ، ووضعت لما يترتب عليها من آثار ظالمة حدودا فاصلة واضحة ، ولم تترك نوعا من الأنواع اللازمة لحياة

المجتمع إلا وضعت له حدودا صالحة ، وحرمت مجاوزة تلك الحدود والخروج عنها تحريما غليظا ، فكانت منار هداية للنوع الانسانى فى كل زمان ومكان . على أننا ذكرنا فيما مضى أن العقوبات التى وضعت فى تأديب العصاة والمجرمين الخارجين على حدود الله تنقسم الى أقسام ، فمنها ما هو محدود ، ومنها ما هو متروك لحالة الأمة واختلاف طبائع أفرادها ، ومنها ما هو متروك للعقوبات الأخروية التى هى أشد وأنكى من عقوبات الدنيا . وهذا الحديث الذى معنا دلنا على نوع آخر من العقوبات قد يخفى أمره على كثير من الناس ، وهو أن الجرائم التى يفلت صاحبها من الحد والتعزير فى الدنيا قد لا يفلت من عقوبة الله العاجلة فى الدنيا أيضا ، فقال لنا : إن الذى يأكل الحرام ويشرب الحرام ويلبس الحرام لا يستجيب الله دعاءه فى الدنيا ، فإن أكل الحرام يترتب عليه قسوة القلب وغفلته عن عظمة خالقه ، وذلك ينافى الخضوع اللازم للدعاء ، فمن أراد أن يناجى إلهه القاهر فوق عباده ويقف مستحضرا عظمته وقدرته على كل شىء ، فإنه يجب أن يكون خاليا من الأقذار التى نهاه إلهه عنها ، ولذا قال بعضهم : إن من شروط قبول الدعاء أن يكون المرء سليما من أكل السحت ، فمن تعمد أكل الحرام أو لبس الحرام أو شرب الحرام فإن ذلك يحول بينه وبين خالقه ، ومن أراد أن يقبله الله ويستجيب له فليتب من ذنوبه توبة صادقة ثم يقف بين يديه خاشعا خاضعا تائبا نادما ، فإن الله تعالى يقبله ويحبه ، لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الرجل بعلمه وأدبه

دخل كثير بن عبد الرحمن على عبد الملك بن مروان فاقتحمته عينه لقصره ، فأدرك ذلك كثير ، فانشده للعباس بن مرداس :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير أطولها رقابا ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصغير بكل أرض ... وينزله على الخسف الجرير
ينوخ ثم يضرب بالهراوى ... ولا عرف لديه ولا نكير
فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم كرم وخير

فقال عبد الملك : قاتله الله ما أطول لسانه ! وأمر له بصلة حسنة .

حوالى الغزوات

بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن طائفة من الحبشة جاءوا الى ساحل البحر قريبا من جدة يريدون قطع الطريق ما بين مكة وجـدة ، فأرسل اليهم سَرِيَّة (١) تحت إمرة علقمة ابن مجزرة فى ثلثمائة من أصحابه ، فلما رأوا الجيش عادوا الى مراكبهم منهزمين ، ولم يلق علقمة كيدا . ولما أراد الرجوع بالجيش طلب منه جماعة ممن معه أن يأذن لهم بالتعجيل الى أهليهم وذويهم ، فأذن لهم ، وأمّر عليهم عبد الله بن حذافة السهمى ، وهو من قدماء المهاجرين ، وكانت فيه دعابة ، فلما سار بمن معه نزلوا ببعض الطريق طلبا للراحة ، فخطر لعبد الله أن يختبر طاعتهم له ، فقال لبعض من معه : أوقدوا نارا ، فأوقدوها ، فقام فيهم خطيبا وقال : عزمت عليكم إلا تواثبتم فيها . فقال بعضهم لبعض : نهانا ربنا عن النار فما لنا بالدخول فيها ؟ وهمَّ آخرون بإلقاء أنفسهم عملا بالطاعة . فلما رأى عبد الله منهم ذلك قام فيهم خطيبا وقال : ارجعوا فانى كنت أمزح وأختبر طاعتكم لى . ثم واصلوا السير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بكل ما كان من أمر الحبشة ، وأمر عبد الله بن حذافة ، وما اختلفوا فيه . فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام : « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أمركم بمعصية فلا تطيعوه » .

ومن الحـوادث التى كانت لعبد الله بن حذافة أنه أرسله عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الجيش لحـرب الروم ، فأسره ملك الروم ومعه جماعة من أصحابه ، وقال الملك ائتـونى بعبد الله بن حذافة وأصحابه ، فلما كلمه قال له الملك : يا حـذافة تنصر وأنا أشركك فى أمرى . فأبى عبد الله ان يجيب الى ما طلب ، فقال الملك : خذوه واصلبوه ، فلما هموا به بكى عبد الله بن حذافة ، فقال الملك : ردوه الىَّ ، فلما دنا منه قال له : لم بكيت ؟ فقال عبد الله : تمنيت أن لى مائة نفس تصلب فى سبيل الله ! فقال الملك : عجبا لك يا ابن حذافة ، قد عفوت عنك ، ولـكنى آمرك أن تقبل رأسى وأخلى سبيلك ! فقال له عبد الله بن حذافة : إن كان لا بد من ذلك فتخلى سبيلى وسبيل من معى من الأسرى إخوانى ! فقال له الملك : قد فعلت ، فقام عبد الله وقبل رأس الملك وأخلى سبيله ومن معه من الصحابة ، وشدت رحال القوم وعادوا الى المدينة يطلبون دار عمر ابن الخطاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخلوا عليه وقصوا عليه القصص قال له عمر : نجوت وأصحابك بتقبيل رأس ملك الروم ، والله لأقبلن رأسك يا عبد الله ، وقام عمر رضى الله عنه وقبل رأس عبد الله بن حذافة مكافأة وشكرا له على حسن صنيعه !

***

---

(١) السرية : طائفة من الجيش .

فى شهر ذى القعدة من سنة تسع لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم مرض عبد الله بن أبيّ ابن سلول زعيم المنافقين ، ولما ثقل عليه المرض ويئس ابنه من حياته ، وكان صادقا فى إسلامه ، توجه الى رسول الله وقال : يارسول الله إن أبى حضرته الوفاة ، وأرجو أن تعطيني قميصك لأكفنه فيه ، وأن تشهد جنازته وتصلى عليه إذا مات . وبعد فترة من الزمن أرسل عبد الله بن أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن زرنى فانى مريض . فعاده النبي مجاملة لابنه وتطييبا لخاطره . فلما دخل عليه قال : يارسول الله استغفر الله لى ، فاستغفر له ، ولم يلبث أن مات بعد ذلك بعد أن أكد فى طلب القميص بمحضر من قومه وشيعته ، وشيع النبي صلى الله عليه وسلم جنازته . ولما تقدم للصلاة عليه وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : يارسول الله أتصلى عليه وهو القائل فيما مضى : «لاتنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضّوا»؟ يارسول الله أتصلى عليه وهو القائل « ليخرجن الأعز منها الأذل » ؟ يارسول الله كيف تستغفر له وقد نهاك ربك عن الاستغفار له ولمن هو على شاكلته ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ياعمر قد خيرنى الله بين الاستغفار وتركه ، فقال: «استغفرْ لهم أولا تستغفرْ لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» ولو كنت أعلم أن الزيادة على السبعين تنفعه لزدت . إنى لأرجو أن يسلم ألف من قومه ، أما إعطائى له قميصى فما يغنى عنه قميصى من الله ؟! ولما رأى المنافقون ما فعل زعيمهم من طلب الاستغفار وطلب القميص قالوا إن عبد الله بن أبى كان يخدعنا ، إذ لو كان محمد كاذبا كما يقول فما باله يطلب منه الاستغفار ويستشفع بقميصه عند الله ؟ ثم صلحت قلوبهم مما رأوا من حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، وحلمه وكرمه ، فأسلم ألف منهم .

***

فى سنة ست بعد عودة النبي عليه الصلاة والسلام من صلح الحديبية الى المدينة كانت حادثة تخفيف حكم الظهار ، وكان من قبل يقع به الطلاق . وسبب ذلك أن أوس بن الصامت غضب من زوجه خولة بنت ثعلبة وطالت الشحناء بينهما ، فقال لها : « أنت علىّ كظهر أمى » ثم ندم على ما فرط منه ، وكان كفيف البصر ، فدأب يبكى ، فتأثرت لذلك زوجه وكانت ابنة عمه ، فذهبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبكى حالها وتسأله أن ينظر فى أمرها ، فقالت : يارسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا ذات مال وأهل ، فلما أكل مالى وذهب شبابى وتفرق أهلى ظاهَر منى . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : قد حرمت عليه . فازداد بكاؤها وقالت : أشكو الى الله فقرى وفاقتى ووجدى وأمر صبية صغار إن ضممتهم اليه ضاعوا ، وإن ضممتهم الىّ جاعوا ! فقال لها النبي : ما أراك إلا حرمت عليه . عند ذلك قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها لخولة : وراءك (أى لا تكثرى فى اللجاج) . فصاحت خولة وقالت : أشكو الى الله ، إن ربى بحالى عليم ! ثم ولت غير واجدة حلا لما نزل بها .

وما كادت تولى حتى جاء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سرى عنه تبسم وقال: أين خولة ؟ لجىء بها ، فقال لها : ياخولة قد سمع الله شكواك فأحضرى زوجك ليسمع كلام الله . فأحضر أوس ، وإذا هو شيخ كبير جاء يرعش من الكبر وعليه أثواب خلقة ، فلما دنا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له النبى : يا أوس نزل فى أمركما قرآن وسيكون حكما ورحمة للمؤمنين ، ثم تلا عليه الآيات : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إنْ أمهاتهم إلا اللائى وَلدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » ثم بعد أن قرأ رسول الله الآيات قال : يا أوس أعتق رقبة . فقال أوس : مالى على هذا قدرة ، فقال له رسول الله : فصم شهرين متتابعين ، قال أوس : إنى إذا لم آكل فى اليوم المرة والمرتين يغشى علىّ . فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : يا أوس إذا لم تستطع فأطعم ستين مسكينا . قال أوس : لا أجد من ذلك شيئا إلا أن تعيننى بعون منك يارسول الله . فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعا ، وكان عند امرأة أوس مثلها فأطعمت ستين مسكينا لكل مسكين نصف صاع . ولما سمعت عائشة رضى الله عنها الآيات وما جاءت به من دفع الحرج عن المسلمين بسبب خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس الفقير الهرم ، قالت : تبارك الله الذى وسع علمه كل شىء ! كنت أسمع كلام خولة ويخفى على بعضه وهى تحاور رسول الله ، فما برحت حتى نزل جبريل بالوحى فى شأنها .

وخولة هذه التى كانت سببا فى تشريع جديد لها ولجميع المؤمنين عاشت الى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . فبينما هو يمشى فى جمع من الناس إذ سمع من تقول له : قف يا عمر ! فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ، فأطالت الوقوف وأغلظت له فى القول . ثم حولت الكلام الى الوعظ والارشاد ، ثم ختمت حديثها بقولها : اتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشى الفوت ، فعجب الناس من قولها وجرأتها ! فزجرها أحدهم بقوله : قد أكثرت أيتها العجوز على أمير المؤمنين ! وقال آخر : يا أمير المؤمنين حبست الناس من أجل هذه العجوز ! فقال له عمر رضى الله عنه : ويحك أتدرى من هذه ؟ قال : لا . قال عمر : هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . هذه خولة بنت ثعلبة زوج أوس ، والله لولم تنصرف عنى الى الليل ما انصرفت حتى تنقضى حاجتها !

حسن خطاب الوكيل

باب الأسئلة والفتاوى

فى الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر السؤال الآتى :

رضعت طفلة من والدتى أثناء رضاعتى ، ولما كبرت هذه الطفلة وتزوجت أنجبت بنتين ، فهل يجوز لأخى أن يتزوج بإحدى هاتين البنتين ، وعلى أى مذهب يجوز ، مع العلم بأننى شافعى المذهب ؟

الجواب :

متى كان الرضاع قد حصل فى مدته المعينة له شرعا ، لم يكن لأخ السائل أن يتزوج بإحدى هاتين البنتين ، لأنها حينئذ تكون بنت أخته من الرضاع .

وقد اتفق الأئمة على حرمة التزوج ببنت الأخت من الرضاع ، غير أن الشافعية والحنابلة لا يجعلون الرضاع محرما إلا إذا بلغ عدده خمس مرات فأكثر ، أما الحنفية والمالكية فقليل الرضاع وكثيره سواء عندهم فى التحريم . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

جولة علمية مع الماديين

للماديين كلف شديد بإثبات مادية الكون ومادية الانسان ، فالمادة عندهم هى الأول والآخر والظاهر والباطن ، منها نشأت الكائنات واليها تعود . وما يقال من وجود خالق للكون وروح للانسان ، وحياة بعد هذه الحياة فكلها فى رأيهم أهواء وأوهام ، جسمها الخيال فصارت عقائد للناس ، وتوارثوها جيلا بعد جيل حتى أصبحت لديهم فى عداد الأمور الفطرية ، وما هى فى الواقع إلا من توليدات القوة المخيلة التى لا تقف أفاعيلها عند حد (!)

ناقشنا هؤلاء الماديين فى ضروب شتى من البحوث فى هذه المجلة ، ونريد اليوم أن نناقشهم فى حقيقة الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، فانهم يدعون أنه لا خير فى ذاته ولا شر فى ذاته ، وإنما دعا الانسان الى هذه التسمية والتفرقة نسبة الأمور الى مصلحته الذاتية ، فما وافقها اعتبره خيرا وما خالفها عده شرا ، أما أن للخير أصلا طبيعيا مطلقا فلا .

قال الفيلسوف الألمانى المادى (بوخنر) : الوجدان الخلقى ليس بشىء غير العادة التى أوجبها على الشخص المكان الذى يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجوب تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية ، فالخير ليس له أصل مطلق ، ولكنه هو الخلق الذى ينطبق على حاجة النوع الانسانى فى أدوار ترقيه وتهذبه ، فهو مرتق مع النوع الانسانى لا محالة ، وعليه فقد يعتبر الشر خيرا وبالعكس على حسب الحاجات الوقتية .

وعليه فالمجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الواقع ، ولئن عاقبته الهيئة الاجتماعية فانما تعاقبه لأنه أصبح خطرا على نظامها الحيوى . ولها الحق فى معاقبته لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

هذا ما يقوله بوخنر فى كتابه (المادة والقوة) ، وعليه جميع الماديين ، لأنهم لما أنكروا الخالق والروح والعالم الروحانى لم يجدوا مردا للخير المحض يرتفعون به إليه ، ويجعلونه مصدرا له ، ومادام الوجود وكل ما فيه ومن فيه مادة ، ومظاهر مختلفة للمادة ، صار القول بوجود خير وشر مطلقين كالقول بوجود عدل وظلم وهماً فى وهم .

هذه الضلالات الخيالية التى كان لها السلطان المطلق فى القرنين السابقين عند أصحاب الفلسفة التى دعوها علمية ، تسربت الى عقول الناس على درجات متفاوتة من الإجمال والتفصيل ، فكانت سببا فى جرهم الى التهاون فى أصول الأخلاق ، وفى سلوك سبيل الاباحة فى الشهوات والمطالب الجسدية . وما تصادفه اليوم من ظلمات تملأ الصدور ، وشكوك تحيك فى النفوس ،

ويأس يخيم على القلوب ، وإفراطـات تسوق الأفراد والجماعات الى الانحـلال ، وتحفز الشيب والشبان الى الجنونيات ، كل هذه الشرور من آثار هذه الضلالات الخطيرة التى كان الغرور العلمى سببا لوجودها فى القرنين المـاضيين .

لننظر فى هذه المسألة الخطيرة نظرة هادئة متزنة لندرك موقعها من العلم ، ومكانها من الفلسفة فنقول :

أما السبب فى نشوئها فقد ذكرناه ، وهو إنـكارهم للمبدع وللعالم الروحانى ، ولاعتقادهم بتنزل الوجود وما فيه عن الاتفاق والخبط ، لا عن قدرة خلاّقة ، ولا عن إرادة ولا اختيار ، فـكل ما ينشأ من الأصول الأدبية فى حالة كهذه يكون مرده فى نظرهم المصلحة المـادية ، فاذا تعدتها الى غرض أسمى منها اعتبروا ذلك وهما من أوهام القوى المفكرة ، وتربصوا بها أن يصل أصحابها الى مستوى رفيع من العلم ، فيلقوا بها فى مستودع الأساطير الجاهلية .

أما موقعها من النظر ومـكانها من الفلسفة فما يوجب لأصحابها الخجل والخذلان . ذلك أن المـاديين ضيقوا دائرة الحـكم على ما هو خير ، فجعلوه محصورا فى الحاجات الانسانية ، ليسوغ لهم أن يقطعوا الصلة بينه وبين أصـل له عام ثابت فى الـكون . وهـذا الحصر منهم تحـكم لامبرر له ، بل تنفيه المشاهدات الحسية . فان الانسان جزء من الـكون ، وأحواله وشئونه مرتبطة بحوادثه ارتباطا وثيقا . ناهيك أنه خاضع للقوة السائدة فى الـكون خضوع كل ذرة فيه لها . فـكان يجب على هؤلاء الفلاسفة أن لا يجعلوا مرد الحـكم على أمر بأنه خير أو شر مصلحةَ الانسان وحده ، ولـكن مصلحةَ الـكون كله . إذا فعلوا ذلك تجلى لهم أن للخير أصلا مطلقا ثابتا هو المثل الأعلى الذى يجب أن تتوجه اليه كل الـكائنات العاقلة التى أطلقت لها حرية العمل ، وطُلب اليها أن تصل الى كمالها من طريق الترقى التدريجى ، والتطورات المتتابعة .

والذى يدل على وجود الصـلة بين الخير العـام المطلق الموجود فى الـكون ، وبين الحياة الانسانية الذى يضرب المـاديون المثل بها فى نفى الخير المطلق ، أن الجماعات غير حرة فى اختيار أى أسلوب كان للحصول على ما تتخيل فيه مصلحة لها . فمن الذى يستطيع أن يقول إن الجماعة التى ترى من مصلحتها أن تطلِق لأفرادها العنان فى الاباحة الخلقية ، والوحشية الحيوانية ، تأمن على وجودها أمنَ جماعة أخرى تضع للشهوات ما يعدّلها ، وللجاهلية ما يلطّفها ؟ وهل هذه الأخيرة مهما ارتقت عن تلك تبلغ مكانة جماعة ثالثة تـكون للاخلاق فيها صولة ، وللعلوم والفنون دولة ؟

دع هذا جانبا ، ولنفترض جماعة فى قاصية من الأرض غير متصلة بغيرها ، لا تخشى أن تحتك بها جماعة أكمل منها ، فهل يتركها الوجود حرة فى اختيار أى أسلوب كان لحياتها ، ولو كان أسلوبا حيوانيا باحتا ؟

لا ، ولا عبرة بطول الآماد التى تبقى فيها على حالتها ، فلا بد من أن تضطرها طبيعة الوجود الى الترقى أو الى الفناء ، ولو كان غير هذا ممكنا لرأيناه ماثلا فى العالم الانسانى أمام أعيننا ، وهذه الجماعات المنحطة قد وقعت كلها فى قبضة الجماعات الراقية ، فما كان منها قابلا للارتقاء أخذ فى أسبابه وتابع انتقالاته ، ومن استعصى على الترقى أخذ فى التلاشى ، وآثار هذا التلاشى محسوس بها فى جميع الجماعات التى أبت الانقياد لناموس الانتقال ، كمتوحشى أمريكا واستراليا وغيرهم ، فان الاحصاءات تسجل عليهم فى كل سنة نقصا مطردا فى الأنفس والثمرات .

فهل ما عليه الوجود من النظام الشامل ، والابداع الكامل ، وما فيه من عوامل الترقى وفواعل التربية والتكميل ، يعتبر خيرا أم شرا ، أو لا يصح أن يوصف بوصف أصلا ؟

إنه لا يمكن أن يعتبر شرا بحال من الأحوال ، وثمرته ما تراه من الايجاد والابداع والتربية والتكميل ؛ ولا يمكن كذلك أن لا يوصف بوصف أصلا ، لأن شانه يتعلق بحوادث لها فواعل ثابتة وآثار محسوسة ظاهرة ، فهذه الفواعل لا يعقل أن لا توصف بوصف ، وقد وصفها الماديون أنفسهم فقالوا إنها نواميس منتظمة ، لا يصدر عنها إلا آثار منتظمة ، وإذا كانت هى مصدرا لكل نظام وإبداع ، وفى ترابطها وتكافلها مظهرا لكل تناسب وتناسق وإتقان ، وفى آثارها وتنوع موجوداتها أصلا لكل علم ، ونموذجا لكل فن ، ومثلا أعلى لكل خلق سام ، أفلا يجب أن توصف بأنها خير محض ، وكمال بحت ؟ فماذا عسى أن يكون الخير إذن إذا لم يكن ما قام عليه الوجود من النظام التام ، والعدل المحض ، والجمال المطلق ؟ فكيف والحالة هذه يدعى الماديون أن ليس للخير أساس يستند اليه ، ولا للشر مظهر يدل عليه ؟

هل مما يناسب النظام العام للوجود ، أن يقوم الناس على أى خلق كان على شرط أن يلائم مصلحة الجماعة دون نظر الى أى اعتبار آخر ؟

لا يقول بهذا أحد من علماء الاجتماع ، ولكنهم يقولون إن الجماعة لا ينتظم أمرها إلا إذا قامت على سنن الاجتماع ، وقد اكتشف العلم له سننا طبيعية ، وهى تقضى بالتكافل والتعاون ، والحكم بالعدل ، واحترام مبدأ المساواة ، وتسويد الحق على القوة ، وبأن الأمم التى لا تقوم على هذه الأصول حق القيام لا تزال مختلة النظام ، معتلة الكيان ، حتى تضطرها الأحداث والمثلات للقيام عليها ، وكلما انحرفت عنها قيد أنملة أصابها من جراء ذلك الانحراف بقدره جزاء وفاقا .

وما يصدق على الجماعات يصدق أيضا على الآحاد ، فان كل انحراف يتلبس به الانسان فى جنب جسمه أو خلقه أو عمله ، يصيبه بقدره من متاعب الحياة ومآزم العيش حتى يؤب الى الصراط المستقيم .

هذه حقائق بدهية ، لا تتطلب تأملا ولا تأولا ، فهل مع هذه القيود كلها يمكن أن يقال

إنه لاتوجد فى الكون حالتان متناقضتان ، من مظاهر إحداهما الائتلاف والالتئام ، والاتساق والنظام ، والتقدم والتكمل ، وبلوغ الغايات البعيدة من الكمال والجمال ، ومن مظاهر الأخرى التبدد والتفرق ، والقهقرى والنكوص ، والاضمحلال والتلاشى ؟ فهل بعد هذا يمكن أن يقال أنه لا أصل للخير ولا للشر على وجه الاطلاق ؛ وإن الخير هو ماعاد بالمصلحة على المجتمع ، والشر ماعاد بالضرر عليه ؛ وإن القاتل لا يعتبر جانيا إلا بالنسبة الى أثر فعله فى المجتمع ؟

لقد خلق الانسان مفطورا على الارتياح لرؤية كل ما هو متناسب الأجزاء ، متناسق الأبعاض ، والنفور من رؤية كل ما هو مشوش الأوضاع ، غير متسق التركيب ، وقد عبروا عن النوع الأول بالجمال وعن الثانى بالقبح . هذا الارتياح والنفور شعوران لا يمكن أن يكونا مكتسبين لقدمهما فى النوع البشرى ، ووحدتهما فى جميع أفراده .

نعم إن تقدير الجمال والقبح يختلف عند الجماعات المختلفة ، فما يعده بعضهم جميلا ، وقد يعده البعض الآخر عاديا ، ولكن هذا الاختلاف لا يقع على العناصر الأولية المكونة للجمال وهى التناسب والتناسق ، ولكن يقع على أعراض تختلف فيها أذواق الناس من طول وقصر ولون وسمت . وهذا لا يقدح فى كون الانسان مفطورا على التفرقة بين ما هو حسن وما ليس بحسن ، وهذه الفطرة لا تسمح لأى مادى مهما كان شديد الشكيمة أن يدعى أن الجانى لا يعتبر جانيا إلا لما يؤدى إليه فعله من الأثر فى الجماعة التى ينتمى إليها . فلو قابل أحد المتوحشين رجلا يحمل طعاما فقتله وغنم ما كان معه ، فقد لايعد هذا جناية فى نظر مواطنيه ، وقد يعد بطولة أيضا . ولكن هذا الاعتبار الوحشى لا يسمح لنا أن نبنى عليه أية نظرية فلسفية ، فان حال المتوحشين الذين استوعبت حاجتهم الغذائية كل عقولهم ، وطغت صفاتهم الحيوانية على إنسانيتهم ، لا يصح أن يتخذ دليلا على حقيقة الغرائز المودعة فى صميم النوع البشرى ، كما لا يصح أن تعتبر أخلاق الطفولة دليلا على أخلاق الانسان الكامل التكوين .

فاذا تركنا المتوحش جانبا ودرسنا الانسان فى أطوار شتى من حياته وجدنا براعيم الغرائز المغروسة فيه تتفتح يسيرا يسيرا ، وتستولى على زمام سيرته فتقوده الى مقتضياتها قيادة قاهرة ، كما تتفتح براعيم الرجولة يسيرا يسيرا فى الطفل ، وتقيمه على سننها إقامة آلية ، والمتوحشون أطفال النوع الانسانى مهما طال عليهم الأمد فى تلك الطفولة .

وإذا نظرنا الى الجماعات البشرية عند ما تبلغ أشدها ، رأينا أنه تتولد فيها تقديرات مختلفة لما هو حق وما هو باطل ، وما هو مباح وماهو محرم ، بل ماهو إنسانى أو حيوانى ، فالمادى يدعى أن هذه الشعورات صناعية اقتضتها طبيعة الاجتماع ، فاذا اعترضت عليه بأن هذه الجماعات تعمم تطبيقها ولا تخص بها مجتمعها ، فتأخذ نفسها بآداب عامة حيال النوع البشرى بأسره ، وحيال الحيوانات أيضا ، زعم أن هذا مظهر للتطور الأدبى فحسب ، وليس له مرتكز

من الفطرة . وهـذا خطأ بين فان الأحوال الانسانية وبخاصة ما يكون فيها تقييد للحرية وتضحية للمنافع الذاتية ، لا يعقـل أن تصبح ذات سلطان قاهر إلا إذا قامت على أساس من الجبـلّة .

ولو نظرت الى أن هذه الآداب النفسية عامة فى جميع الجماعات ، ومتفق على وجوبها وضرورتها فى كل الأجيال ، تحققت أنها ذات أساس بعيد الغور فى النفس الانسانية .

يتضح من هـذا التحليل الفلسفى أن ما يدعيه الماديون من أنه ليس للخير أصل مطلقا ، ولا للأخلاق مصدر علوى ، جريا على مبدئهم من المادية الباحتة ، والآلية الوجودية الصرفة ، وهو باطل لا يستطيعون التدليل عليه بحجة ناهضة ، ولا سلطان بَيِّن .

ولقد عنينا بهذه الشبهة عناية خاصة لأن على دحضها يبتنى كل مذهب للأخلاق ، وكل أسـلوب للتهذيب ، وإلا كان كل جهد يبذله الواعظون والمرشدون ذاهبا سدى ، وهـذا ما لا يمكن أن يتفق والواقع ، فلا يزال يرى الناس آثار الوعظ والارشاد ظاهرة . فلو لم يكن فى قرارة النفس غريزة ثابتة لتطلب الخير ، وشعور قوى بوجوبه لـكان وعظ الواعظين عبثا .

يقول الماديون : نعم إن للوعظ آثارا ظاهرة ، ولـكنها آثار لصفات مكتسبة حصلها الانسان بتطوره فى الآداب ، لا لغريزة طبيعية فيه ، والدليل على ذلك أنها ظهرت بعد أن لم تـكن موجودة ، وقد رددنا عليهم شبهتهم هذه كما رأيت ، ونزيد عليه أن آثار هذه الغريزة الأدبية تشاهد حتى فى الحيوانات لمن يعنى بمراقبة حياتها ، وقد عنى بها علماء كثيرون ، فدونوا مشاهداتهم فى مؤلفات ممتعة ، وقالوا إن أصول الأخلاق الانسانية تشاهد كلها فى الحيوانات على حالة ساذجة ، واستثنى منها العلامة الفيزيولوجى (كاترفاج) التدين ، فقال إنه خاص بالانسان وحده ، ولـكن كثيرا من الباحثين لم يرفعوا رأسا بهذا الاستثناء ، مدعين أن ما يظهره بعض الحيوانات من الاحترام لسادتهم ، والتمسح بهم تقربا منهم ، يمكن أن يعتبر أصلا للتدين .

فإذا كانت الغرائز التى ابتنت عليها الأخلاق بعيـدة العمق فى الـكائنات الحية الى هـذا الحد ، فهل يُصَدَّق من يقول إنها صفات مكتسبة للنـوع البشرى وحده ، ولا أصل لها فى صميم معناه الانسانى ؟

محمد فريد وجدى

المسيحية فى الاسلام

هذا عنوان كتاب أرسله إلينا أحد فضلاء المسلمين تأليف حضرة الايغومانس ابراهيم لوقا راعى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر الجديدة . وقد بين المؤلف غرضه من وضعه فقال فى مقدمته :

« إن القرآن لم يهاجم المسيحية التى أسسها المسيح ونشرها رسله القديسون ، ولكنه هاجم بدعا خاصة ، كانت قد ظهرت عند ظهوره ، ونادت بتعاليم لا تقرها المسيحية ، فحاربها كما حاربتها المسيحية من قبل ومن بعد .

الى أن قال : « وغايتنا التى نتوخاها التوفيق ، لا الجدل والتفريق . وإنا لنرجو أن يتقبل إخوتنا المسلمون رسالتنا هذه كرسالة محبة وإخلاص ، وفقنا الله جميعا الى سواء السبيل » .

وقد طلب إلينا مرسل الكتاب أن نبدى رأينا فيما ذكره حضرة القس مؤلف الكتاب من إقرار القران على العقائد المسيحية الحقة ، وهى فى نظره ما عليه النصارى اليوم من تثليث وبنوة الخ ، وقد وجه حضرة القس الخطاب للمسلمين، فحق علينا أن نبدى له رأينا فيما ذكره .

قال حضرته تحت عنوان : « المسيح الإله » :

« تعتقد المسيحية أن المسيح هو الله ، باعتباره الأقنوم الثانى من الثالوث الاقدس للذات الالهية الواحدة الجوهر والعدد . والاسلام لا ينكر هذه العقيدة ، ولا يرفض القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة وشهادات متنوعة ، منها : (١) أسماؤه الحسنى وألقابه التى ذكرها له القرآن . (٢) الحقائق الخاصة بحياته فى ذاتها . (٣) شهادة القرآن له بالكمال الأدبى فى حياته . (٤) شهادة القرآن له عن قدرته الفائقة الطبيعة. (٥) ما أثبته له من الاختصاصات والوظائف . (٦) ما شهد له به عن مركزه الممتاز» .

نقول : إن هذه دعوى جريئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الاسلام من المسيحيين إلا أن يكونوا من أهل المماحكات اللفظية الذين يترفع عنهم مثل الايغومانس ابراهيم لوقا . فاذا كان قد مضى على نزول القرآن أكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس ، وفهموا منه أن الاسلام ينفى ألوهية المسيح ، وعلم ذلك فى كل هذه القرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى ، وألفت فى الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر ، كل هذا لو كان فى حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس ، وساقهم الى الملاحاة والتمارى كل هذه القرون الطويلة ، فان الذى يهتك سر هذا القصور يخلد لنفسه فى تاريخ الخلافات الدينية أثرا لا يشتبه بغيره ، ولكنه يسجل فى الوقت نفسه على العقلية الانسانية اختلالا

تصبح معه غير جديرة بالثقة فى نظرها وأحكامها ، ويدب الشك الى كل آثارها الأدبية والعلمية والفلسفية التى تم بناء صروحها فى قرون طويلة ، توقعا لظهور أفذاذ يكشفون عن حقيقة الغباوات التى قادت العقول للخلافات أحقابا متعاقبة حول مسائل لا خلاف فيها على الاطلاق !

اللهم إن هذا محال ، وإن كان يوجد ماهو أبعد عن التصديق من المحال فهو منه .

اعتمد حضرة القس فيما أورده من القران الكريم ، تدليلا على ألوهية عيسى عليه السلام ، على ما جاء فيه من اطلاق لفظتى (كلمة وروح) عليه ، ورأى أن ذلك من أدل الأدلة على مشايعته للمسيحيين فى القول ببنوة عيسى لله وبألوهيته ، فقال : « رأينا فيما سبق كيف أن القرآن أقر بصحة عقيدة المسيحيين فى فاديهم بما لقبه به من ألقاب لا يجوز أن ينعت بها أحد سوى الله تعالى ، فدعاه أولا كلمة الله ، وثانيا روحا منه » .

ونحن نعجب كيف يسيغ حضرة القس أن يعتقد أن لفظتى (روح) و (كلمة) لا يجوز أن تطلقا إلا على الله تعالى على حين أن المقرر عند أهل العلم والفلسفة أنهما لا يجوز أن يطلقا عليه ،لأن كل تعبير لفظى عنه تعالى يفيد التقييد والتحديد . وهو ما يتنزه عنه سبحانه كل التنزه، هذا ما انتهت اليه الفلسفة وهذا ما قرره الاسلام قبلها بأكثر من ألف سنة ، فقال تعالى : « ليس كمثله شىء » وقال : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . وقال : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » . فلفظ روح قليلة على خالق الأرواح ومبدعها ، ولفظ كلمة أقل من تلك أيضا . وقد أطلق القرآن الكريم لفظة روح على بعض مخلوقاته فسمى جبريل روحا وسمى القرآن روحا فقال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » . ولا يجيز المسلمون اطلاقهما على الله تعالى لأن قاعدة التنزيه المطلق عندهم « أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » . وأنى لمخلوق عاجز محدود القوة العقلية ، أن يصل الى معرفة حقيقة الخالق أو أن يطلق عليه ألفاظا وضعت لتعيين الكائنات الجزئية ؟

أما لفظة كلمة فلها فى القرآن الكريم معنى غير ما يفهمه المسيحيون منها ، فهى عندنا لا تحتمل غير معناها اللغوى . وقد أطلقها الله تعالى على عيسى لأنه كما قال الرازى : قد وجد على خلاف السنة المعروفة ، فأضيف حدوثه الى كلمة الله مباشرة وهى كن ، وعلى هذا جرى جميع المفسرين .

وقد وردت لفظة كلمة فى الكتاب الشريف فى مواطن كثيرة جدا ، من ذلك قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك » و « ولولا كلمة سبقت » و « كلمة طيبة » و « كلمة خبيثة » .

وقد صرح القرآن الكريم بأن لله كلمات لا تحصى لا كلمة واحدة ، فقال تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

من الجرأة التى لا يمكن وصفها بوصف أن يدعى مدع أن القرآن يقول بألوهية المسيح ، وقد نفاها عنه بعبارات صريحة فى عشرات من الآيات بما لا يحتمل أى تأويل . وقد وجه الخطاب الى النصارى خاصة ونهاهم عن القول بالتثليث والبنوة والتأليه فقال تعالى : « ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » .

وقال تعالى مبينا للناس الهول الهائل من ادعاء الولد له : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا » .

لا أتخيل أنه بعد هذه النصوص المحكمة الحاسمة يمكن أحدا أن يقول كما قال حضرة القس ابراهيم لوقا : « الاسلام لا ينكر هذه العقيدة ، ولا ينكر القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة ، وشهادات متنوعة . اللهم هذا محال .

أقول : محال وأنا مطمئن ، لأنه لا يتأتى لكائن من كان ، مهما بلغ من أساليب المغالطة والسفسطة ، أن يتقى وقع هذه الآيات الصريحة فى نفوس قارئيها ، وأن يستخرج منها ما تأباه معانى ألفاظها ، ومبانى تراكيبها . فلو كان يعلم الكاتب المتحمس ما يجنيه عليه تحمسه لموضوعه من إضعافه وتوهينه ، لربأ بنفسه أن يرتكب مثل هذا الشطط فى تبيينه .

كل ما استند اليه حضرة القس فى تدعيم كلامه ، وهوّن عليه إهمال عشرات الآيات التى وردت فى نفى الألوهية والبنوة عن عيسى ، ما أطلقه القرآن الكريم على هذا الرسول من أنه روح الله وأنه كلمته ألقاها الى مريم . وقد قلنا إن الله تعالى قد أطلق لفظة روح على جبريل .

أما الكلمة فقد أريناك مواطن استعمالها فى الكتاب الكريم بما لا يدع شبهة فى أن المقصود بها كلمة (كن) ، أى كلمة الخلق المباشر عند عدم وجود الأسباب العادية ، وكيف يعقل أن ترد فى القرآن لفظة (الكلمة) بمعنى الأقنوم الثانى من الأقانيم الثلاثة المؤلفة لذات الخالق ، وهو ينهى النصارى فى آيات كثيرة عن القول بالتثليث ويعده أمرا إدا ، وقد ورد فى ذلك قوله : « ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم » ؟ وفى آية أخرى قوله : « وقالت النصارى المسيح بن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» ، أى يقولون ما يشاكلون به قول الكافرين السابقين من الوثنيين ، فقد كان للمصريين القدماء ثالوث مؤلف من حوروس وأيزيس واوزيريس ، وكان للهنود ثالوث مؤلف من براهما وسيفا وفيشنو ، ولغيرهم ثالوثات أخرى ، وقد أجمعوا على أن أحد أركانها قد نزل الى الأرض وتجسد

فيها ، وعاش بين الناس ليعلمهم ويصلح شأنهم . ومن هنا قرر الفيلسوف فولتير أن المسيحية قد أخذت فى هـذه العقيدة إخذ البوذية سواء فى تثليثها أو فى آدابها وأخلاقها . وما كنا لنتنزل الى إيراد مثل هـذه الأقوال لولا أن حضرة القس ابراهيم لوقا قـد اضطرنا اليه دفاعا عن كتابنا ، وذيادا عن كرامتنا .

وبعد : فان البحث فى ذات الخالق لا يجـيزه لنفسه من يعرف ضعف مصادر معرفتنا ، ومدى سلطان عقولنا على فهم الحقائق . فالادراك الذى قصّـر عن فهم ماهية المادة ، وحقيقة الفضاء والزمان ، ولم يحط بأ كثر أسرار النظام الآلى الذى بين يديه ، لا يستطيع ببداهة العقل أن يصل من معرفة ذات الله الى شىء على الاطلاق . وإن افترض أنه تلقى معرفته بذات الله من طريق الوراثة ، وجب عليه أن يرفضها ليخلص من تبعاتها ، مكتفيا من الاعتقاد بوجود الله منزها عن صفات المخلوقين ، وبأنه يتعالى أن تحيط به عقول الآدميين ، وإلا عرّض عقيدته لشبهات المجادلين ، واضطر لوقف حصة كبيرة من وقته لصد هجمات المهاجمين ، والاجابة على استشكالات المستشكلين . وإن عقيدة تحيط بها كل هذه الصعوبات ، وتقوم فى وجهها جميع هذه الشبهات ، لا يمكن أن تصبح عقيدة عامة لأمة فى خاصتها ، فضلا عن الانسانية برمتها .

يلوح لى أنه يغيب عن الآباء المسيحيين أن الناس اليوم قد افتتنوا بالفلسفة المادية الى حد أن رفضوا العقيدة بالخالق على ما تعرّفه به أرقى فلسفة فى الأرض من التوحيد والتنزيه ، فهل من مسايرة الحقائق أن يزيد على تلك العقيدة ما يجعلها غير معقولة ؟

إن دعاة المسيحيين قد عجزوا عن نشر المسيحية حتى فى البلاد الوثنية ، على ما يبذلونه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويفوز عليهم دعاة الاسلام فى كل بقعة من بقاع الأرض ، فتسارع الملايين الى الدخول فى الاسـلام غير مسوقين بأى دافع مادى ، زاهدين فى الهَـيْـل والهَـيْـلمان الذى يبذله الجانب الآخر . (راجع ما نقلناه فى الصفحة ٥٥٤ من هذا المجلد) .

هذه المقارنات تريك الصعوبة المطلقة فى إمـكان قبول العقيدة المسيحية على ما هى عليه من القول بالتثليث والتأليه والبنوة . وقد ظهر فى انجلترة وألمانيا وهولاندا وفى كل بقعة من أوربا مذهب الموحدين تحت اسم (Unitarisme) ، رفض أهله التثليث وما يتبعه واتخذوا لهم كنائس خاصة . وهم يعدون فى كل أمة بالملايين ، وأكثر ما يوجدون فى انجلترة وأمريكا . ولسنا نشك فى أن هؤلاء هم طليعة الاسلام فى أوربا ، ولله عاقبة الأمور .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

أسلفنا لحضرات القراء شطرا من الكلام عن مشروعية الوقف ، وكيف أن هذا النظام صالح لمسايرة كل عصر وجيل مع تلك الظاهرة التى عرضت له فغضت من قدره ووصمته فى الأوضاع الحديثة بأنه ضرب من ضروب العبث .

تلك الظاهرة هى تلاعب نظار الأوقاف بحصص المستحقين ، وافتنانهم فى الكيد لهم والنكاية بهم ، ومحاولتهم الهرب من المسئوليات القضائية المختلفة ، حتى لقد تصايح القضاة والمحامون الشرعيون بضرورة وضع نظام يكفل حماية المستحقين من عبث النظار ، وبقاء مشروعية الوقف خالصة من عبث العابثين .

واليوم نحاول فى شىء من البسط أن ندل القراء على مبلغ عناية الفقهاء باختيار النظار والتدقيق فى ذلك الاختيار ، وأن نبين لهم أن الولاية القضائية المبسوطة على التصرفات الصادرة عن الانسان تأتى فى المنزلة الثانية لنصوص الواقفين .

وقد أجاز علماء الفروع أن يجعل لناظر الوقف قدر معين من المال فى كل شهر أو شهرين أو أكثر بالقياس الى مواقيت التحصيل من غلة الوقف ، فى مقابل أن يعنى باصلاح شئون الوقف وإنماء غلته وإكثار موارده والمحافظة على أصله ، أما إذا عين الواقف أجرا يزيد عن أجر النسبة اعتبر الزائد استحقاقا .

ونقل صاحب كتاب أنفع الوسائل أن الأصل لذلك الأجر النسبى فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد جعل عمر رضى الله عنه لوالى صدقته جعالة يأكل منها غير متأثم ولا متحرج ، فتلك الرخصة من عمر تدل على أن الأجر للناظر غير محظور ، فللناظر الحق المطلق فى أن يطلب الى القاضى أن يفرض له أجر المثل على النظر ، وعلى القاضى أن يجيبه الى ما طلب ، حتى لقد روى صاحب البحر أن القاضى إذا فرض للناظر أقل من أجر المثل كان للناظر أن يطلب اليه رفع ذلك الأجر الى حد المثل ، وكان على القاضى أن يجيبه الى ما طلب . وتلك الحياطة التى درج عليها علماء الفروع لمصلحة الناظر تؤذن برعاية تلك المصلحة وإجابته الى تحقيق رغبته ، وقد ترك الى القاضى مطلق الاختيار لتنظير من يرى أهليته ، وإذا عين ناظرا فسكت عن طلب أجر النظر ثم باشر مهمته واستمر يؤديها مدة وعاد الى القاضى يطلب اليه تسمية ذلك الأجر ، كان على القاضى أن ينظر فى شأن هذا الناظر ، فان كان من شأنه أن لا يلى عملا من أعمال النظار عادة إلا إذا أخذ عنه أجرا ، فرض له القاضى ذلك الأجر .

وإذا تبين القاضى وجاهة الناظر فى قومه وعزوفه فى ماضيه عن أخذ أجر لعمله ، حرمه القاضى من أجر ذلك النظر .

وهـذا التفصيل كما يجرى فى الناظر المعين من القاضى يجرى فى الناظر المعين من الواقف عند عدم ذكر الأجر فى حجة الوقف .

ومن المسلم به أن النـاظر المعين أجره فى حجة الوقف يستمد سلطته من تلك التسمية ، وعلى القاضى أن يقرها ، إلا إذا تبين أن تربة الأرض قد تغيرت ، أو معالم البناء قد استحال ، ففى هذه الحالة يسمى القاضى ذلك الأجر حسبما ترشد اليه آراء الخبراء فى المبانى والزراعة .

فليس كل ما يشترطه ناظر الوقف مسلم الثبوت عند القاضى ، بل عليه أن يرتب أحكامه على المناسبات والعلل والدواعى بالقياس الى مصالح المستحقين وضمان بقاء العين الموقوفة حتى تتحقق أغراض الواقفين فى أوسع صورها وأدق معانيها .

ولـكن القاضى يبقى مقيدا بنصوص الواقفين فى إشهادات كتبهم بما لم يفوت على المستحقين حقا ، وعلى تلك الحبوس المرصودة عليهم منفعة .

فاذا حـدد الواقف فى كتاب وقفه للناظر أجرا ثم سكت عن وكيل ذلك الناظر ، فباشر الناظر مهمته ثم اضطر الى من ينيبه عنه وتقـدم الى القاضى يطلب إليه تعيين هـذا الوكيل المفوض عنه حال غيابه أو مرضه أو تقاعده ، حقق علماء الفروع فى هذه الحالة أن ليس للناظر الحق فى فرض معلوم لذلك الوكيل عنه ، بل ليس له أن يتنازل عن حقـه لذلك الوكيل مادام الواقف لم ينص فى إشهاد وقفه على جواز انتقال أجر الناظر الى أجر وكيله ، فاذا نص عليه فى كتاب وقفه جاز على أن يقره القاضى ، وفى الحالة الأولى يأمر القاضى برد هذا الأجر الى غلة الوقف لتدخل فى أنصباء المستحقين ، وعليه يجرى العمل فى المحاكم الشرعية منذ أمد بعيد الى يومنا هذا ، والقضاة لايفرضون أجرا المثل فيما زاد عن عشرة فى المـائة للناظر الذى يطلب فرض ذلك الأجر .

وقـد بدت ظاهرة جُلى فى بعض المبادئ القضائية ، تلك هى أن بعض رؤساء المحاكم الشرعية الابتدائية رفض أن يعين ناظرا على وقف ذى غلة غزيرة وريع وفير ، وقد أجمع عليه المستحقون وزكته جهات عديدة ، وقال فى حيثية قرار الرفض : إن هذا الناظر ممن يحترفون التنظر على أعيان الأوقاف ، فالمفروض فى هذا النوع من النظار أن يؤثر مصلحته الشخصية على مصلحة الوقف ، وأن يجعـل نصب عينيه التشيع لفريق من المستحقين دون فريق آخر حتى يستديم بهذا التفريق بقاءه فى منصب التنظر ، تجبى إليه ثمراته ، وينتفع بها على أكمل وجه ، وقد كان احترافه بالتنظر على أعيان الأوقاف منذ أمد من الزمن مصدر ثراء رفعه الى سكان القصور وأهـل النعمة والرخاء ، والأصل فى التنظر على أوقاف المسلمين الاحتساب لوجه الله

لتحقيق معنى التعاون بين الأغنياء والفقراء ، إبقاءً على الأعيان الموقوفة سليمة تؤدى الى نوع من أنواع الانسانية نوعا من البر والاحسان .

ومعلوم أن أعمال الناظر تنحصر فى عمارة الوقف على نحـو يوسع فى غلته ويكثر نواحى الانتفاع به وبيع غلاته وتحصيل أجوره وصرف ما اجتمع منها فى مصارفها التى عينها الواقف فى كتاب وقفه ، فعمل الناظر محدد المرامى دقيق الأداء . ونقل صاحب الاسعاف أن عمل الرجل فى التنظر على الوقف ليس كعمل المرأة ، فليس لها أن تدير من أعيان الوقف إلا ما يتفق مع مقـدرة المرأة عادة مما تمارسه من أعمال ، من أجل ذلك نرى كثيرا من السيدات يسند إليـه التنظر على أعيان أوقاف ولهن فيها نصيب الاستحقاق ، فيعمدن الى توكيل من يثقن به من الرجال . وقد نشأت عن هذا التصرف مشاكل قضائية اضطرت بعض القضاة وبعض المفتشين القضائيين الى المطالبة بسن تشريع يحـول دون تمكين ناظر الوقف إذا كان امرأة من توكيل غيره إلا بإذن من القاضى لـكى لا يسمح بتعيين من لا يحسن إدارته .

والى أن يصدر التشريع الجـديد الذى يـكفل حماية المستحقين من جشع نظار الأوقاف ستبقى عقدة الوقف عصية الحل ، والله الموفق للصواب ؟

عباس طه
المحامى الشرعى

فضيلة الجود

روى أن على بن موسى الرضا رضى الله عنه فرق فى يوم عرفة ماله كله ، فقال له الفضل ابن سهل : ما هذا المغرم ؟ قال الرضا : بل هو المغنم ، لا تعـدن ما ابتغيت به أجرا أو كرما مغرما .

وقال حكيم : أنفق فى الحقوق ولا تكن خازنا لغيرك ، فان اغتممت على ما نقص من مالك فابك على ما نقص من عمرك ، فانه من لم يعمل فى ماله وهو موجـود ، عمل فى ماله وهـو مفقـود .

وقال بزر جمهر : إذا أقبلت عليـك الدنيا فأنفق منها فانها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فانها لا تبقى .

فنظم طاهر بن الحسين هذا المعنى فقال :

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة ... فليس يذهبها التبذير والسرف
فان تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

الاشتراك فى مجلة الازهر

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جـواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التعويل على نظام الوكالة فى التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التى أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتعويل على القاعدة الحديثة وهى دفع قيمته مقدما .

لهـذه الطريقة فائدة للمشتركين وللصحف معا . فأما فائدتها للأولين فلأنها تجنبهم ثقل المطالبة التى ربما وقعت فى وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ماعليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفى ذلك من الضرر المالى على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلأنها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة ينشئ لادارة المجـلة بطبيعة عمله متاعب لا تحصى بسبب تحرير كشوف للتحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والخلافات التى تثور بذلك السبب بين الادارة والمشتركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتـكلف الوكلاء الذهاب والمجىء وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشاكل يحلها شىء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون ماعليهم فى أى وقت يريدون على شرط أن يكون ذلك قبل حلول السنة المالية للمجلة ، وأولها المحرم ، فان تأخر عن هذا الموعد كان ذلك إيذانا منه بأنه لا يريد الاشتراك .

وقد رأت إدارة هذه المجلة أن تتبع هذه الطريقة التى تجنبها وتجنب قراءها ووكلاءها عنتا لا داعية له من جراء مبلغ زهيد .

أما وكلاؤنا فيمكن الاستفادة منهم بتسليمهم قيم الاشتراكات ، وهم يقومون بايصالها الينا فى الوقت المضروب لتقديمها ، وتجد أسماء المقررين منهم على غلاف هذه المجلة .

فنرجو حضرات قارئينا أن يعذرونا فى الجرى على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هـذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل ، عنه

أو غير ذلك ؛ فإنا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، وتقبل منه أن يقدم لنا كلما سنحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يتمه .

وعليه فنرجو حضرات القارئين أن يقدموا لنا قيم اشتراكاتهم قبل أول العام الهجرى الجديد ، لنقيد أسماءهم فى سجلات جديدة ، ولتصل اليهم أعداد المجلة فى وقت صدورها .

مدير مجـلة الأزهر

محمد فريد وجدى

مطبوعات جديدة

تاريخ سيف الله خالد بن الوليد :

يستحق القـائد الاسلامى العظيم خالد بن الوليد أن توضع فى سيرته المؤلفات الضخمة على مثـال سيبويه وانيبال وتيمورلنك ونابليون من رجال الحـروب ، وقادة الملاحم . فان كان الانتصار على الأعـداء بالتمهر فى علم الأساليب الحربية فان خالد بن الوليد يعد فى الطبقة العليا من أهل الصناعة ، وإن كان الانتصار بالتوفيق فهو ممن خصوا بالنصيب الوافر منه .

وقد عنى بوضع سـيرة مطولة له صاحب الفضيلة الأسـتاذ المفضال الشيخ أبو زيد شلبى المدرس بمعهد أسيوط ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بأحواله الشخصية وسيرته الحربية إلا أحصاها ، فـكان له فضل السابقين الى وضع المطولات فى سـيرة أبطال الاسـلام الذين اشتركوا فى نشر كلمة الله العليا ، وعاونوا على إقامة صرح عظمتها الخالدة فى الأرض .

بين أيدينا الطبعة الثانية لهذا الـكتاب الممتع ، وهى تقع فى ٢٥٥ صفحة بالقطع المتوسط ومطبوع طبعا متقنا على ورق جيد . فنثنى على همة فضيلة مؤلفه بقدر مابذل من جهد ، وبلغ من غاية ، راجين له دوام التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يستمع الى درس دينى يلقيه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام بالمسجد الزينبى

لقد سنّ حضرة صاحب الجلالة الملك سنة بَيَّن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر قيمتها من الناحية الدينية والدنيوية فى مقدمة درسه بأبلغ عبارة وأكمل بيان ، فليس لنا أن نزيد على ذلك حرفا .

بعد تلك المقدمة أخذ فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى يشرح آية الصيام ، فكان فى شرحه يعيد الى الأذهان ذكرى دروس الأستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده فى الرواق العباسى بالأزهر ، ورأى الناس فى خليفته ما كانوا يتخيلونه عن أعلام الدين من السلف الأولين : من دقة فى البحث ، وتحليل للموضوع ، واستيعاب للجزئيات ، وفصاحة فى الأداء . ونحن ننشر ما قاله فضيلته :

قال حفظه الله موجها الكلام الى حضرة صاحب الجلالة الملك :

مولاى صاحب الجلالة !

ورد فى الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » .

وقد سننت يا مولاى سنة الاستماع الى تفسير آى الذكر الحكيم فى شهر رمضان ، فلفتّ أنظار الناس الى دينهم ، ولويتَ أعناقهم عما كانوا فيه من الغى سادرين ، فأرضيت الله ورسوله ، وحسبك أن يرضى اللهُ ورسوله .

أدامك الله وحرسك ، وأراك راية القرآن تخفق فى البر والبحر ، وهداية الاسلام تنساب بين الأمم فلا يصدها صاد ولا يدفعها دافع ، والله حسبنا ونعم الوكيل !

واليك نص الدرس برمته :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :

«يأيها الذين آمنوا كُتبَ عليكمُ الصيامُ كما كُتبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتّقُون ، أياماً معدوداتٍ» :

يُعبَّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة ، ووجه ذلك أن الشىء يراد ثم يقال ثم يكتب ، فالارادة مبدأ والكتابة منتهى . ثم يعبر عن المراد الذى هو المبدأ

إذا أريد توكيده ، بالكتابة التى هى المنتهى . وفى الكتاب الكريم من هذا كثير : « كَتَبَ اللهُ لأَغلبنّ أنا ورسلى » و « كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية » .

والصوم : الامساك عن الفعل مَطعما كان أو كلاما أومشيا ، وقيل للفرس الممسك عن العلف أو السير : صائم ، وللريح الراكدة ولاستواء النهار : صوم ، وكأنهم تصوروا وقوف الشمس وقت الاستواء .

وفى عرف الشرع : الصوم إمساك خاص هو الامساك عن المفطرات من الأكل والشرب وقربان النساء ، على نية الصوم من طلوع الفجر الى غروب الشمس . والتقوى : جعل النفس فى وقاية مما يخاف ، وفى الشرع : حفظ النفس عما يؤثم .

أخبر الله تعالى شأنه أنه فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه من قبل على الأمم السابقة ، ونبه الى سبب الفرض وهو أن الصوم يهيىء عباده لتقوى الله .

ونحن لا نعلم ما هو الذى فرضه الله على الأمم السابقة من قبل : أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس ، أم غيره . وليس لنا مايهدينا الى شىء معين من دليل يطمئن اليه القلب ، والتشبيه لا يدل على المماثلة فى كل شىء ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الأمم السابقة لا نعلم مقداره ولا كيفيته ، ولا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة . وقد كان عند قدماء المصريين صوم أخذه اليونان والرومان عنهم ، وليس فى التوراة والانجيل الآن ما يفيد وجوب الصوم ، لكن فيهما مدحه ومدح الصائمين .

الصيام أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الاسلام ، وهو رياضة بدنية ، وتهذيب خلقى ، وتطهير روحى .

ذلك أن الاسترسال فى الشهوات ، والانغماس فى اللذات ، حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهى ، يعوقها عن تلقى الالهام وعن لذة الاتصال . ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون الى الصوم كلما أحسوا بُعداً عن الذات الالهية ، وانزعج خاطرهم شوقا الى القرب منها . وفى الصبر على الحرمان من اللذات التى تنازع اليها النفس وتقتضيها الطبيعة تربية للارادة ، وتقوية على المضى فى العزم ، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود لما فيها من المشقات . وفى تقوية الارادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكاليف الالهية بالقبول والطمأنينة ، وتثبيت لملكة المراقبة والخوف من الله ، وتقوية لخلق الحياء . وفى هذا كل الخير ، وبه تتحقق تقوى الله ، وتستعد النفس للسخاء والبذل والتضحية إذا دعا الداعى وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم ، وبين كرامهم وأنذالهم .

وليس يخفى أن كل شىء فى هذه الحياة ممكن : الفقر بعد الغنى ، والمرض بعد الصحة ، والذل بعد العز ، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها ، وتغلب الأعداء بعد الغلَب عليهم وقهرهم ، وما الى ذلك ، مما هو بسبيل أن يعرض للانسان ، وعروض هذه الأشياء على نفس مدللة ، وجسم مترف ينام بقدر ، ويأكل بقدر ، ويمرح فى اللذات بين الأهل والعشيرة ، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتمالها ، أو يسوق اليه الجزع ، ويورثه اليأس .

لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يجعل من العبادات ما يروض الأجسام ، ويهذب الأخلاق ، ويطهر الأرواح ويزكيها ، وكان من هذه العبادات الصوم .

وكما عنى الاسلام بتزكية الأرواح ، وتهذيب الأخلاق ، فقد عنى بتربية الأجسام ، وحرّم كل ما هو ضار بها ، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد . ذلك أن الاسلام يريد رجلا عاملا فى الحياة ، مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قويا لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ، ويذود عن العشيرة ؛ ويريد رجلا رحيما حسن المعاشرة ، سلس القياد لأهله وعشيرته وبنى وطنه ؛ ويريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه .

والصوم من العبادات الخفية التى لا يعلم تحققها إلا الله سبحانه ، ولذلك شرفه الله بالاضافة الى نفسه . وإذا وجدت هذه الحقيقة ، وفهم الغرض منها ، وهو أنها طهرة وتزكية للنفس ، ورياضة للروح والبدن ، صدرت عن الصائم أفعاله وفق إرادة الخالق جل شأنه ، فلم يكن فحاشا ولا نماما ، ولا مغتابا ولا منتهكا للحرمات ، لذلك ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الصيام جُنة فلا يرفُثْ ولا يَجهلْ ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين . والذى نفسى بيده لخُلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك ، يقول الله تعالى : يَترُك طعامَه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزِى به ، والحسنةُ بعشر أمثالها » .

ومعناه أن الصوم وقاية من المعاصى لا يليق أن يكون معه فحش فى القول أو الفعل ، وإذا نازع الصائم أحد بفعل أو قول فليذكر أنه صائم ، وليقل له إنه صائم ، حتى يقف عند الحد اللائق ، وحتى يعلم المنازع أنه لم يتركه جبنا أو ضعفا ، وأنه سكت عنه خشية من الله ورهبة ، وطمعا فى ثوابه . وبما أن الصيام عظيم الدرجة ، أضافه الله اليه ، وإن كانت كل العبادات له واليه ، وهو يجزى عليه بغير حساب . أما العبادات الأخرى فمعروفة الجزاء : الحسنة بعشر أمثالها .

وقد وردت التقوى فى الكتاب العزيز على معان ، منها الايمان « وألزَمهم كلمةَ التقوى » أو « أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى » أى التوحيد . ومنها الطاعة : « أنْ أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » أى أطيعون . ومنها الاخلاص : « فإنها من تقوى القلوب » أى من إخلاص القلوب . ومقام التقوى مقام شريف : « إن الله مع الذين اتقوا والذين

هم محسنون » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وفى الحديث الشريف : « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله » .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » . وعن ابن عباس : المتقى هو الذى يرجو رحمة الله بالتصديق بما جاء به ، ويحذر العقوبة فيترك ما يميل الهوى اليه .

وقد عبر الله سبحانه بقوله : « لعلكم تتقون » لأن التقوى لا تلازم الصائمين ، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ، وكم من صائم سباب نمام فحاش منتهك للحرمات ! لكن الصوم موضع رجاء التقوى ، والصائمون أنفسهم موضع ذلك الرجاء ، وحصول التقوى يتبع قوة الأسباب ، وانتفاء الموانع . لذلك صح أن تجىء لعل الموضوعة للترجى ، وإن كان الترجى بالنسبة لله سبحانه ممتنعا .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن الصوم يفسد بكل معصية من متعمد لها ذاكر أنه صائم سواء أكانت المعصية قولا أم فعلا ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . وهذا حرج فى الدين لا شك . ومَن من الخلق — إلا من أعانهم الله وخصهم بالفضل — يستطيع أن يقوم بكل آداب الصيام ؟ والمدار على النيات ، والمؤمنون يبعثون على نياتهم ؛ ولا ينظر الله الى صور الأعمال ، ولكن ينظر الى القلوب . لكن على المؤمن أن يجدّ حتى ينال ثواب الصائمين ، والله ولى المؤمنين .

« أياما معدودات » :

نصب بفعل مضمر ، أى أن تصوموا أياما معدودات . ومعنى معدودات : قليلات ، ذلك أن المال القليل يعد ويحتاط فى معرفة تقديره ، والكثير يصب صبا ويحثى حثيا . ذلك كان شأن العرب الذين جاء القرآن بلغتهم ، ومنه : « وشرَوه بثمن بخس دراهم معدودةٍ » أى قليلة . والأيام المعدودات هى شهر رمضان الذى سيذكر بعد ، ولم يأت طريق تقوم به حجة أن صوما فرض على المسلمين غير شهر رمضان ثم نسخ بصوم شهر رمضان . وقد أبان الله تعالى فى هذه الآية أن الأيام هى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، فمن ادعى أن صوما كان قد لزم المسلمين فرضه غير شهر رمضان سُئل البرهانَ من خبر تقوم به الحجة ويقطع العذر . وقد زعم بعض العلماء أن الله فرض صوم ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخه . قال القفال : « انظر الى عجيب ما نبه الله سبحانه عليه : بيّن أن تكليف هذه الأمة بالصوم له أسوة بتكليف الأمم السابقة ، والأمور الشاقة إذا عمت خفت ، وأن للصوم سببا مرغوبا فيه هو التقوى ، وهى مقصد شريف ؛ وبيّن أن الصوم مدته أيام معدودة ؛ ثم بين بعد ذلك أنه

خصه بأعظم شهر ، وهو الشهر الذى نزل فيه القرآن شفاء الصدور وحياة الأمم ؛ ثم أباح بعد ذلك للمريض وللمسافر الفطر دفعا للحرج وذهابا الى اليسر » .

« فَمَنْ كان منكم مريضا أو على سفر فعدّةٌ من أيام أُخَر » :

كان الظاهر أن يقال : فمن كان منكم مريضا أو مسافرا ، لكن هذا الظاهر خولف لأن المرء إذا سافر ثم نزل منزلا وهو ناو للسفر كانت إقامته سفرا شرعا ، لأن مبنى السفر على نية السفر بعد التهيؤ له والشروع فيه ، لا على الحالة التى هو عليها من الحركة والسكون .

والمعنى : فمن كان منكم مريضا أو مسافرا فالحكم فيه وجوب صوم عدة الأيام التى أفطرها ، من أيام أخر غير أيام مرضه أو سفره إذا أفطر . وهو من الايجاز البليغ الذى اختص به القرآن .

وقد اختلف أهل العلم فى المرض المبيح للإفطار : فقيل هو كل ما يسمى مرضا . وقد دخل رجل على ابن سيرين فوجده يأكل ، فلما سأله قال : وجعت أصبعى . وقيل المرض الذى لا يطيق صاحبه المقام فى الصلاة . وقيل كل مرض يزيده الصوم أو يعسر معه الصوم . والأول مذهب عطاء والبخارى . واستدل لهم بأن الله أطلق المرض والسفر وكل قيد زيد على ذلك فهو تخصيص بأخبار الآحاد ، وبأن تحقق المشقة عسير ، وعرفان الضرر أشد عسرا ، فيجب أن يناط الحكم بما هو معروف ، وهو المرض لا غير . والحكم عند الحنفية إباحة الفطر لمن كان صحيحا وخاف المرض ، أو كان مريضا وخاف زيادة المرض . ومعرفة ذلك تكون بالاجتهاد وغلبة الظن . وكل مسلم بالنسبة للرخص مفتى نفسه ، فمن حصلت له غلبة الظن بأمارة أو تجربة أو إخبار طبيب مسلم أن الصوم يمرضه أو يزيد مرضه جاز له الفطر . كذلك يباح له الفطر إن خاف إبطاء البرء أو فساد عضو أو خاف صداعا غير مطاق . وكذلك يباح الفطر لمن يعول المرضى إذا كان فى صومه ضياع لهم لضعفه عن القيام بحقهم إذا صام . وفى الخزانة : « الحر الخادم أو العبد أو الذاهب لسد نهر أو شقه إذا اشتد الحر وخاف الهلاك له الإفطار » . ويباح الفطر لمن خاف فوت العقل أو نقصانه بالصوم . كذلك يباح للحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو على ولديهما . والصوم عبادة ، والله هو المطلع على السرائر وحده ، وقد رفع عن عباده الحرج وأراد بهم اليسر .

كذلك اختلف العلماء فى السفر المبيح للفطر : فقيل مسافة يوم ، وقيل ستة عشر فرسخا ، وقيل أربعة وعشرون فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف خطوة . ومذهب الحنفية مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الابل ومشى الأقدام كل يوم مرحلة ، ولا عبرة للتقدير بالفراسخ لأن الطريق إذا كان وعرا بحيث يقطع فى الثلاثة الأيام أقل من خمسة عشر فرسخا قصر بالنص ، ولو أنه قطع مسافة الثلاثة الأيام بسير الابل المعتاد فى أقل من ذلك بطريق آخر صح له الإفطار .

وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس أن رسول الله كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال . وروى عن أبى شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر فى الميل الواحد . وإذا نظرنا الى أن نص القرآن مطلق ، وأن كل ما رووه فى التخصيص أخبار آحاد ، وأنهم لم يتفقوا فى التخصيص ، جاز لنا أن نقول : إن السفر مطلقا مبيح للفطر . وهذا رأى داود وغيره من الأئمة .

وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الصوم فى السفر ، فكان يقول : إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر . وجمهور المسلمين على هذا ، فهو رخصة لا عزيمة .

« وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكينٍ فمن تطوّع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » :

الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للانسان أن يقوم به بمشقة . وقوله تعالى : « ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به » أى ما يصعب علينا مزاولته . وقد كانت هناك تكاليف من هذا النوع رفعت عن هذه الأمة ، بدليل قوله تعالى : « ويَضعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم » . وقد يعبرّ بنفى الطاقة عن نفى القدرة . وفى اللسان : قوله صلى الله عليه وسلم : « ودِدت أنى طُوقت ذلك » معناه ليته جعل داخلا فى طاقتى وقدرتى . وطوقنى الله أداء حقك ، أى قوانى عليه ، والطوق والاطاقة : القدرة على الشىء ، وقد طاقه طوقا وإطاقة ، والاسم الطاقة ، وهو فى طوقى أى فى وسعى . وروى :

كل امرئ مقاتل بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

أى كل امرئ مكلف ما أطاق .

والفدية والفداء : حفظ الانسان نفسه عن النائبة بما يبذله عنها . والتطوع : تكلف الطاعة . وفى العرف : التبرع بما لا يلزم ، والخير : ما يرغب فيه من كل شىء نافع .

نعود بعد هذا الى تفسير الآية فنقول : قراءة كافة المسلمين : وعلى الذين يطيقونه ، وعلى ذلك خطوط مصاحفهم ، وهى القراءة التى لا يجوز لأحد من أهل الاسلام خلافها . وروى عن ابن عباس وعلى الذين يُطوّقونه أو يَطّوّقونه ، وهى قراءة لأهل الاسلام خلاف .

جميع التكاليف مشتملة على المشقة وإن تفاوتت فيها ، فليست الصلاة مثل الصوم ، ولا الصوم مثل الحج أيام أن كان السفر على ظهور الابل أو على الأقدام . وليس الحج مساويا للجهاد ، وفى القرآن : « كتب عليكم القتال وهو كُره لكم » . وليس فى اللغة ما يدل على أن الطاقة اسم لما يعمل مع المشقة الجاهدة ، وليس هناك عرف لغوى نقل الطاقة الى هذا المعنى . والدليل على ذلك أن علماء اللغة وقرومها حملوا الطاقة على الوسع وذهبوا بعد ذلك الى النسخ . والقرآن يجب أن يفسر بما تعرفه اللغة لا بالآراء وفرض الفروض . كذلك قول الله تعالى :

« ولا تحملنا مالا طاقة لنا به » ينفى هذا العرف اللغوى الذى زعموه ، وينفى أن اللغة لا تطلق الطاقة إلا حيث تكون هناك مشقة جاهدة . وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يحمل يطيقونه على ماهو ظاهر معروف : أى على الذين يحتملون الصوم وهو فى وسعهم ومقدورهم فدية هى طعام مسكين إذا أفطروا . وقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والطبرانى وآخرون عن سلمة قال : لما نزلت هذه الآية كان من شاء صام ومن شاء أفطر حتى نزلت الآية بعدها : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فنسختها . وقد قال عمرو بن مرة : كانوا قوما لم يألفوا الصيام فاشتد عليهم فكان من لم يصم أطعم مسكينا . وقال ابن أبى ليلى : دخلت على عطاء وهو يأكل فى شهر رمضان ، فقال إنى شيخ كبير ، وإن الصوم نزل فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا حتى نزلت : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، فوجب الصوم إلا على مريض أو مسافر أو شيخ مثلى يفتدى . ونقل هذا عمن لا يحصيهم العد .

بعد تظاهر هذه الروايات والعلم بان من الصحابة من كان يفطر ويطعم ، وجب المصير الى أنهم فهموا « يطيقونه » كما فهمه جمهور المفسرين . وهناك وجه آخر يؤيد هذا وهو أنه لو لم يكن هناك نسخ لكان قوله تعالى فى آخر الآية : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » مكررا ، ومثله لا يعرف فى نظم القرآن فى آية واحدة كهذه .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن معنى يطيقونه : يقدرون عليه مع مشقة جاهدة ، حملا على قراءة ابن عباس : « وعلى الذين يطوّقونه » وعلى ذلك لا يكون هنالك نسخ ، وتكون خاصة بالشيخ الكبير والمرأة العجوز والحكم فيهما باق : صحة الفطر مع الفدية ، وقد علمت أنه مخالف لعرف القرآن ، ومخالف لما عليه أهل اللغة ، ومخالف لما كان يفعله الصحابة ونقل عنهم نقلا ظاهرا قاطعا للعذر . ثم إن المشدد من الفعل ليس نصا فى المعنى الذى قالوه لأنه جاء بمعنى الوسع وما يقدر الانسان على فعله . ولذلك حمل بعض المفسرين قراءة ابن عباس على القراءة المشهورة . وجملة القول أن الصحيح المقيم القادر على الصوم كان له أن يفطر ويتصدق ، لكن هذا الحكم نسخ باجماع المسلمين ، وقالوا إن الناسخ له قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

أما حكم جواز الفطر للشيخ الكبير ومن هو فى حكمه فليس مستفادا من هذه الآية . وقد قال الشافعى رضى الله عنه : إنه مستفاد مما كان عليه العمل أيام الصحابة واستقر بعد ذلك الى اليوم .

ومعنى : « فمن تطوع خيرا فهو خير له » : من زاد على مقدار الفدية فأعطى المسكين أكثر من طعام يوم ، أو أطعم عدة مساكين ، فذلك خير .

ثم بعد أن بين الله تعالى جواز الفطر لهؤلاء الأصحاء القادرين ، بيّن أن الصوم خير لهم إن كانوا على علم بوجه المصلحة ، وأن الصوم لم يشرع عقوبة ولا إعناتا ، وإنما شرع تزكية

وطهرا ، وتربية للأمم . أما من يصوم تقليدا أو يظن أن مصلحة الصوم غير عائدة عليه ، فلا خير فى صومه ، ولا يعده الله من الصائمين .

« شهرُ رمضانَ الذى أنزل فيه القرآنُ هدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقانِ » :

الهدى : الهداية بلطف . والبيان : الكشف عن الشىء ، وهو أعم من النطق . والبينة : الدلالة الواضحة عقلية أو حسية . والفرقان : الفرق بين شيئين ، وقيل لعمر : الفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل ، والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل .

وقد رفع شهر على معنى : أياما معدودات هن شهر رمضان . وفى وصف الشهر بإنزال القرآن فيه بيان للسر فى اختياره دون غيره بالصوم : ذلك أنه لما كان الصوم معدا للتقوى كما بين فى الآية السابقة ناسب أن يفرض فى الشهر الذى نزل فيه الهدى للمتقين ، والذى امتاز عن غيره بأعظم آية من آيات الربوبية وهى إنزال القرآن . والقرآن : اسم لكتاب الله سبحانه المنزل على محمد صلوات الله عليه ، يطلق على جميعه وعلى بعضه ، ولم ينزل دفعة واحدة بل نزل منجما ، ونزل بعضه فى غير رمضان ، ولا شبهة فى أنه بهذا المعنى يصح القول بأنه نزل فى رمضان وإن لم يكن فيه إلا نزول البعض . ولا حاجة للقول بأنه نزل دفعة الى سماء الدنيا فى رمضان ، ولا الى القول بالتجوز .

وصف الله القرآن العزيز بأنه هدى للناس وبيناتٌ من الهدى ، فهو إرشاد الى الحق ، وهو آيات واضحات من البيان الهادى الى الحق ، الفارق بين الحق والباطل فرقا قويا واضحا .

وقد وصف الله التوراة والانجيل بانهما هدى : « نَزَّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبلُ هدى للناس ، وأنزل الفرقان » ووصف التوراة بأن فيها هدى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ » ، وكل كتاب جاء من عند الله ، وكل شىء نزل على نبى من الأنبياء فهو هدى ونور ، ولكن القرآن امتاز عن سائر الكتب الالهية بقوة البيان وشدة الوضوح ، وامتاز بالاعجاز ، وبأنه آخر كتاب إلهى ، وبأنه اشتمل على المعارف الالهية وأصول العقائد وقواعد الآداب ، ووضح للناس أصول العدل وقواعد الأخلاق ، وبين حق الفرد وحق الجماعة ، ووضع نظام الأسرة ، ووضع الانسان الموضع اللائق به ، فأباح له ما فى الأرض جميعا ، ولم يمنع عنه إلا الخبائث ، وحدد له الحدود اللائقة ، فلم يتركه يعامل معاملة السائمة ، ولم يلزمه منزلة الملائكة ، وحبب اليه المعرفة ، وكان وسطا عدلا شهيدا على الشرائع وعلى الأمم .

هذا هو القرآن الذى سعد به المسلمون بحياة روحية هى المثال الأعلى للنفس الانسانية ، وبحياة جثمانية طاهرة بريئة ، وبحياة علمية لا يزال ما بقى من نورها يستمتع به الناس ، وهو موضع للعجب ، ومثار للاكبار والاجلال .

سعدوا به حقبة ثم انحرفوا عنه ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهون ، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم ، وصاروا فى حاجة الى غيرهم فى كل مرافق الحياة ، ووصل بهم الجهل الى حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب ، وكل ما عندهم شر ينبذ ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة ، القدوة حتى فيما علم غيرهم شره وفساده ، وحاولوا نبذه وطرحه ، وقد أصبح المسلمون مُثُلا سيئة للاسلام يحتج بهم عليه ، والدين منهم برىء .

الدين يطلب رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، رجالا خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله فى الأرض ، يعلمون سرها ويسخرونه للخير ودفع الأذى ، يدفعون عوادى الزمان بمنا كبهم كأنهم بنيان مرصوص ، يعرفون للكرامة قدرها ، وللعزة موضعها ، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء ، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى .

منح الله سبحانه الانسان أنواعا من الهداية توصله الى أغراضه وتمنعه من التورط فى المهالك .

أولاها : هداية الالهام والفطرة ، وهى فى الأطفال منذ ولادتهم ، والطفل عندما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالبا له ، وإذا أعطى الثدى التقمه .

وثانيها : هداية الحواس والمشاعر ، وهى متممة لهداية الالهام فى الحياة الحيوانية ، ويشارك الانسان فيها الحيوان الأعجم ، بل هى فى الحيوان الأعجم أكمل .

وثالثها : هداية العقل الذى يصحح خطأ الحواس ، ويعلل الأشياء ، ويستنبط ، ويقيس . وبهذه الهداية ذلل الانسان أسرار الطبيعة واستخدمها ، وعرف دقائق الصنع الالهى ، ولولا هذه الهداية لكان بعض الأنواع الحيوانية أقدر على الرشد منه فى الحياة الاجتماعية .

وآخر هذه الهدايات وأقواها : هداية الدين ، فهى مرشدة الى السعادة فى الدنيا والآخرة . وقد كان من لطف الله سبحانه أن يتوج بها الهدايات ، وأن لا يترك العقل فى حيرته فيما يصعب عليه إدراكه ، وفيما هو أبعد من مملكته .

أودعت فى الانسان غرائز الشهوة ، وغرائز الغضب والانتقام ، وهو ميال الى الأثرة بطبعه ، ولولا الحدود توضع له لأسرف فى استعمال هذه الغرائز ، وأسرف فى الجور .

كذلك هو نزّاع الى المعرفة ، يحاول الكشف عن كل شىء حتى فيما غُيِّب وفيما لا سبيل الى معرفته من سر القدر وطريق الخلق وأطواره ؛ والناس مختلفون فى عقولهم أشد الاختلاف ، فأمة لا تمتاز عن الحيوان إلا بطول القامة ، وأمة كشفت عن خواص المادة وسخرت الكهرباء والأثير ، وأمة عبدت من الحيوان أنواعا ، وأخرى عبدت الأصنام والأحجار ، وأمة بقيت

تأكل الحشائش وكل ما يدب على الأرض ، وأخرى عرفت العلة والمعلول ، ووضعت أصول الأخلاق والآداب ، وقوانين البحث والتفكير ، وألمت إجمالا بالجزاء على الأعمال ، ودونت نظم الملك وسياسته .

وقد دلت التجارب على احتياج هذا النوع لوازع حتى فى أرقى عصور العلم والمدنية ، وعلى أنه كلما تفتح له باب من المنافع المادية سعى الى باب آخر ، وكلما شعر بقوة سعى الى استذلال الضعفاء ، وهو من جهة النظريات ملول لا يستقر على حال ، توجد الفكرة فتموت فى موطنها وتحيا فى غير موطنها ، ثم تموت وقد تحيا فى الموطن الأول ، وهكذا ؛ ثم هو لا يدين لانسان آخر ، وهو شديد الغرور ؛ وقد يظن أن شخصا صقله التهذيب والعلم فصعد الى أفق الملأ الأعلى يعيش مع الملائكة ، وأن أمة سعيدة بالعلم والخلق لا تميل الى الجور ولا يقودها الهوى ، وهى رفيقة بالضعفاء لا هم لها إلا إسعادهم ، ثم ترى هذا الفرد وتلك الأمة تتردى فى درك أسفل من الجور والظلم وسوء الطباع وفساد الأخلاق ، لأن الغرائز تحركت فتمزقت الأستار ، وظهر الانسان كما هو ذلك الذى يعيش مع الوحوش فى الغابات . والشواهد ماثلة أمام الأعين .

أليس مما يجب لله فى كماله وحكمته أن يوجد هدى إلهى يعرِّف الانسان خالقه والدار الآخرة ، وما أعده فيها للصالحين وغيرهم ، جزاء أعمالهم ، ويرسم له الطريق ويبين له حقه وحق غيره ، ويضع لغرائزه حدودا ، ويحمى ثمرات العقول وثمرات الجد فى كسب الرزق ، ويدله على ما هو طيب ، ويحرم عليه الخبائث ، ويضع له أصول العدل ، وقواعد الأخلاق ، ونظام الاجتماع ، حتى يحيا حياة سعيدة ينال بعدها آخرة سعيدة ؟

نعم : هذا ما يليق بحكمة الحكيم العليم ، وقد فعل فأرسل الرسل تترى ، وأنزل الكتب تتتابع ، حتى ختم الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وختم الكتب بالقرآن .

« فَمَن شهِدَ منكم الشهرَ فليصمْه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدّةٌ من أيام أُخَرَ » :

الشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة ، ولا تقول العرب : شهد الهلال ، بل تقول : رأى الهلال ، وعلى ذلك فشهود الشهر مقام المقيم فى داره . والمعنى من أقام فى الشهر فليصم ما شهد منه ، فإن سافر وهو صائم فله الافطار . وقد تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح من المدينة بعد ما صام بعض الشهر وأفطر وأمر أصحابه أن يفطروا .

وقد أجمع العلماء على وجوب الصوم على المقيم القادر ، وعلى أنه لم يبق للمسلم الخيار بين الصوم والافطار مع الفدية ، فقوله تعالى : « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر »

مخصص للوجوب السابق فى حق المريض لا غير ، لأن المسافر لم يدخل فى قوله : « فمن شهد منكم الشهر » .

وشهود الشهر والحضور فيه قد يكون حقيقيا لمن لهم شهر يحضرون فيه ، وقد يكون تقديريا كأولئك الذين يعيشون فى البلاد القطبية وما جاورها ، فانهم يقدرون الشهر إما على البلاد المعتدلة مثل مكة وما فى حكمها ، وإما على أقرب بلاد معتدلة اليهم .

وقد أفاد الله تعالى بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » حكم المقيم وحكم المسافر بطريق المنطوق والمفهوم . ولو قال « شهر رمضان فصوموه » لاحتاج الى أن يقول إن كنتم مقيمين . وهذا سر النظم .

« يريد اللهُ بكمُ اليسرَ ولا يريد بكم العسر ، ولِتُكملوا العدة ، ولِتكبّروا الله على ماهداكم ، ولعلكم تشكرون » :

اليسر : السهولة . والشكر : تصور النعمة وإظهارها ، ضد الكفر وهو نسيان النعمة وسترها .

والمعنى : أن الله سبحانه رخص لكم فى الفطر حال السفر والمرض لأنه لا يريد بكم العسر ، بل يريد بكم اليسر ، ويريد إكمال العدة ، فمن لم يكملها أداء لعذر السفر والمرض ، أكملها قضاء بعد البرء من المرض والإقامة من السفر ، ويريد منكم أن تذكروا دائما جلاله وعظمته ، وتذكروا نعمه ، وتشكروا هذه النعم ، فان تذكر ذلك يحملكم على ملازمة العبادة والطاعة ، وعلى أداء حقوق العباد ، وفى ذلك صلاحكم فى المعاش والمعاد . واللام فى هذا التركيب لام كى ، والعرب تدخل عليها الواو فتدل على تقوية المعنى ، وتكون النية على إضمار فعل بعدها . تقول : جئتك لتحسن الىّ ، فإذا قلت : جئتك ولتحسن الىّ ، فأنت تريد ولتحسن الى جئتك ، فدلت الواو على تكرار الفعل . ومنه : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوتَ السموات والأرض وليكون من الموقنين » . ومعناه وليكون من الموقنين أريناه . والمعنى : ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولتشكروه شرعنا هذه الأحكام من وجوب الصوم على المقيم القادر ، والترخيص للمريض والمسافر .

وليس المراد باليسر ماكان سهلا على الاطلاق ، فانه لا يوجد تكليف لا مشقة فيه سواء أكان التكليف عزيمة أم رخصة ، بل المرادمنه مالا يكون فيه جهد مقلق للنفس مشوش عليها ، ومشقة تخرج عن العادة المستمرة .

ويمكن أن يقال : كل عمل يؤدى الدوام عليه الى الانقطاع عنه أوعن بعضه ، أو الى خلل فى النفس أو المال ، أو الى أحوال من المشقة خارجة عن العادة فيما يستطيع الانسان ، اعتبر شاقا لا يكلف الله به ، وإلا اعتبر غير شاق وصح التكليف به مع ما فيه من المشقة .

ومَثل الشارع فى التكاليف مثل الطبيب يعطى المريض الدواء المر، ويحمله ألم الكى وهو لا يقصد الى إيذائه أو إعناته ، وإنما يقصد الى مصلحته ، كذلك يكلف الشارع عباده بما يعود عليهم بالخير ، وقد يكون فى التكليف مشقة لكنها غير مقصودة . ولهذا لا يجوز لأحد أن يقصد الى المشقة لينال عظيم الأجر ، بل يجب أن يقصد الى العمل نفسه لما فيه من الخير لا لما فيه من المشقة .

والأفعال التى فيها مشقة قد تكون المشقة فيها لنفس الفعل بحيث لو وقع مرة واحدة لو جدت ، وهذا موضع الرخص . وقد تكون المشقة من ناحية الدوام لا من ناحية الأفعال ، وهذا هو الضرب الذى طلب الشارع فيه الرفق والأخذ بما لا يحدث مللا . وقال صلى الله عليه وسلم : «خذوا من الأعمال ما تطيقون فان الله عزوجل لن يمل حتى تملوا » وفى حديث معاذ عند ما أطال الصلاة : « أفتان أنت يا معاذ ! إن منكم منفرين ، فاذا ما صلى أحدكم بالناس فليتجوز فإن منهم الكبير والضعيف وذا الحاجة » .

وقد أشرنا من قبل الى أن كل واحد بالنسبة للرخص مفتى نفسه ما لم يحد لها حد شرعى ، فيجب الوقوف عنده ، وأحوال الأشخاص مختلفة باختلاف قوة الصبر وضعفه ، وقوة الجلد وضعفه ، فليس للمشقة المعتبرة فى الرخص ضابط أو حد يطرد ، ولذلك أقام الشارع فى جملة منها السبب مقام العلة ، فاعتبر السفر مثلا لأنه أقرب مظان وجود المشقة ، وترك كثيرا منها موكولا الى اجتهاد المكلف كالمرض . ومن الناس من يقوى فى مرضه على ما لا يقوى عليه آخرون .

والفرق بين ما يسمى عزيمة وما يسمى رخصة : أن العزائم تطرد مع العادات الجارية ، والرخص تعرض عند تخلف العادات . والكلام على هذا يطول . وتتبع اليسر فى عزائم الشريعة ورخصها يستدعى سِفرا ، وفى هذا القدر الآن غنى .

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ ، أُجيب دعوةَ الداع إذا دعان ، فلْيستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشُدون » :

فرض الله على عباده صوم رمضان ليعدهم للتقوى ، وطلب منهم تعظيمه وشكره ، والصوم سر من الأسرار بين الانسان وربه ، ومن الممكن أن تنتهك حرمته سرا طوعا للشهوة ، فنبه الله سبحانه الى أنه قريب ، ومتى لاحظ العبد ذلك القرب خجل وملكه الحياء ، والله منزه عن القرب المكانى ، وعن كل ما يتصوره العباد ، وفهم قربه لا تدركه الناس على سواء ، لذلك مثل الله هذا القرب بما يمكن أن يفهمه جميع الناس فقال : إنه قريب بحيث يسمع دعوة الداعى ويستجيب دعاءه . أما العلماء فقد يقولون : إنه أقرب الى كل موجود من وجود ذلك الموجود

إليه ، لأن ماهية الموجود لم تتصف بالوجود إلا بسببه ، فهو واسطة بين الوجود والموجود ، وإن كل ما هو موجود وليس له حيز يكون نسبة الأمكنة إليه على سواء ، فهو قريب بذاته من كل شيء ، إذ كل شيء منه وإليه . فهؤلاء العلماء يمكنهم فهم القرب على طريقة الحقيقة لا على طريقة المجاز .

ودعوة الداعى فسرها بعضهم بطلب الحاجات ، وفسرها آخرون بالعمل بما ندب الله إليه وأمر به ؛ فالدعاء على هذا معناه العبادة ، بدليل قول الله سبحانه : « وقال ربكُمُ ادعونى أستجبْ لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم دَاخِرِين » . وعن النعمان بن بشير قال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » وقرأ : « وقال ربكم ادعونى » الآية . وعلى اختلاف تفسير دعوة الداعى اختلفوا فى الاجابة ، فعلى الرأى الأول هى إجابة الداعى الى ما طلبه من قضاء الحاجات ، وعلى الثانى هى الوفاء بما ضمن الله للمطيعين من الثواب والجزاء . ومعنى قوله تعالى : « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » فلينقادوا لطاعتى وليقبلوا عليها مستسلمين ، وليؤمنوا أنى لهم من وراء الطاعة أثيبهم وأجزل لهم الكرامة . ومما لا خفاء فيه أن الطاعة والايمان موضع رجاء الرشد ، وهو إصابة الحق والعمل على مقتضى العقل والدين والعادات الصحيحة الموافقة لقواعد الأخلاق والمروءة . وهذه الآية من قبيل : « فمن يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا كفرانَ لسعيه » كلتاهما تدل على أن نور الايمان وقوته لا يصل العبد اليهما إلا بتقديم العبادات والطاعات . وفى هذا الموضع شبهة مشهورة ملخصها : أن الأقدار سابقة ، والأقضية متقدمة ، والدعاء لا يزيد فيها ، وتركه لا ينقص شيئا منها ، فأى فائدة منه ؟ وهذه الشبهة واردة على من فسر الدعاء بالعبادة .

وقد أجابوا عن هذه الشبهة بأنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر الدعاء ، وله أدعية مأثورة ، وكان الصحابة كذلك ، واستمر هذا الى اليوم ، والتشكيك فيه إنكار لضرورى من ضروريات الدين ، فنحن نؤمن بالدعاء وفائدته ، ونؤمن بالقدر ، ونعترف بالعجز عن التوفيق ، وليست هذه أول مسألة أقر العقل أمامها بالعجز .

وشبهة أخرى هى أن وعد الله حق ، وقد وعد بالاستجابة عند الدعاء مع أنا نرى كثيرين يبالغون فى الدعاء ثم لا يجاب لهم . وللعلماء فى هذه الشبهة وجوه ، أفضلها أن الداعى الذى تتحقق فيه صفات الداعى : وهى الاخلاص لله ، والفناء فيه ، وطلب ما يمكن تحققه وفقا لجارى العادات ، لا بد أن يعينه الله على ما غاب عنه من الأسباب ، وأن يقضى بعد الأخذ فيها حاجاته .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

قصر نظر الماديين

وقيمة آرائهم

تأثير مذهبهم فى حل الجماعات البشرية

يدعى أصحاب الفلسفة المادية أنهم يتحدّون فى نظمهم الاجتماعية ، وأصولهم الأدبية ، النواميسَ الطبيعية ، فهى فى نظرهم الأصول العامة الخالدة التى لامناص للانسانية من اتباعها إذا أرادت أن تقوم على أساس ركين من الصولة الاجتماعية ، والكفاية الخلقية . ولقد افتتن الكثيرون بمذهب الماديين لمجرد دعواهم هذه ، إذ ليس يصح أن يفضل نظام بشرى قد يكون مبنيا على أوهام وعقائد باطلة ، على نظام طبيعى آلى ابتنى عليه الوجود كله ، وجرى عليه من أزل الآزال الى اليوم .

هذه شبهة ، بل هى أساس جميع شبههم المتعلقة بالاجتماع البشرى وآدابه ، وبالتناحر المعاشى وأسلوبه .

وكما هى شبهة هى أيضا موضوع بحث جليل فى مكان الانسان من العالم ، وفى علاقته بالكون ، والقوانين العاملة فيه ، وفى نفسية الانسان وكنه القوى الأدبية القائمة به .

يضلل الماديين مايرونه من أن النظام الآلى المحض هو السائد فى كل حوادث الكون ، ويصفون هذا النظام بأنه لا يصدر عن إرادة ولا اختيار ، ولكن عن طبيعته الخاصة ، وهى النظام المطلق والاستمرار ، ولا يمدون بأبصارهم كما هى عادتهم الى ماوراء مايشهدونه من الظواهر القريبة منهم . فهم يرون الكواكب تسبح فى الفضاء ، فيقررون بأنها دائرة بقوة ذاتية فيها مستمدة من القوى الكونية . ولكن ماهى هذه القوى الكونية التى هى مصدر ومرجع كل شىء ؟ ولأية علة لا تقوم بها ولا تصدر عنها إلا كائنات منظمة ؟ إن ساءلتهم على هذا النحو أجابوك : لأنها قوى منتظمة مطبوعة على النظام من الأزل . وهذا فى نظرهم جواب مرض ، ولكنه ليس كذلك فى نظر المتثبتين ، من العلماء العاملين . قال الأستاذ وليم كروكس وهو أكبر كيمائى من الانجليز وحامل جميع ألقابهم العلمية فى خطبة الرياسة للمجمع العلمى البريطانى قال :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بادراك الى أى حد هذه النتائج ، أو النواميس كما نسميها ، محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم (تأمل) » .

وقال فى خطبة أخرى فى صفحة ٣٦ من مجموع خطبه :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هـو فى الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القـوة . ونحن نستطيع أن نعلل حركات الذرات المادية كما نعلل حركات الأجرام السماوية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكننا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل أهم مسألة وهى : أى نوع من أنواع الارادة والفكر (تأمل) يمكن أن يوجد خلف هـذه الحركات الذرية مجـبراً إياها على اتباع طريق مرسوم من قبل ؟ وما هى العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر ؟ وأى ازدواج من الارادة والفكر (تأمل) يقـود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟ »

هذه أقوال رجل كل شغله محصور فى القوى الطبيعية وآثارها تحليلا وتركيبا ، فهو أعلم بطبيعتها وأطوارها من أصحاب الفلسفة المادية الذين يكتفون منها بالنظرات السطحية . فانظر كيف أظهر حيرته فى فهم العلة العاملة من وراء الظواهر الطبيعية ، وهذا دليل بيِّن على أن الماديين يقصرون نظرهم على ما هو قريب منهم مهملين ما وراءه مما يوجب إطالة الروية ، وإجادة التفكير ، لأن كل مذهب أو رأى يبنى على النظرات السطحية لا يقنع المطامع العقلية ، ويقوم سدا منيعا دون الترقيات العلمية .

وقد اشتهر الماديون ، وخاصة فى هـذا العصر ، بانهم سِراع الى تصيُّـد الظنيات العلمية التى تنفعهم فى بناء فلسفتهم ، معلنين أنها حقائق مقررة ، وما هى إلا آراء مؤقتة ، يرجع قائلوها عنها لأول صدمة من آراء أقرب الى الحق منها . لذلك لم يحجم عالم متثبت من إعلان سخطه عليهم ، وتشهيره بهم بسبب نزعتهم هـذه . قال الأستاذ (أندريه كريسون) مدرس الفلسفة فى جامعة ليون فى كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) صحفحة ١٧٠

Les bases de la philosophie scientifique

« العـلم الطبيعى لا يعطينا على الوجـود فى مجموعه إلا معارف مبهمة غاية الإبهام ، فاننا لا نعـلم العدد الحقيقى للنجوم ولا للـكواكب التى تحيط بالشموس البعيـدة . فإبداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الـكون لا يمكن أن يكون إلا تحكما . فالفلاسفة الطبيعيون المتثبتون يرفضون أن يبنوا من النظريات ما يمكن أن يسمى بالرواية الخيالية للسماء ، فهم لذلك يفضلون القيام على أرض ثابتة أقرب الى روح العلم .

الى أن قال :

« ماهى الفلسفة الطبيعية اليوم فى الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ هل يقتصر المادى على قول ما يعرفه ؟ هل يمتنع عن الحـكم على الأشياء التى يجهلها ؟ لا ، ولذلك تجـد

مذهبه يكبر ويمتد لأنه فى كل خطوة من خطواته يحمِّل العلم ما ليس عنده . فتراه تلميحا أو تصريحا يؤكد لك بأنه سيحل مسائل لم يحلها العلم ، وأنه سيبت فيها من وجهة معينة . أحقق الكيمائيون التركيب الحيوى وأثبتوا إمكان حدوث التولد الذاتى ؟ أفسر أحد أصل التمثيل الوجدانى ؟ أصارت أصول فلسفة النشوء والارتقاء تامة ، وتنزهت عن كل صعوبة ؟ أقامت نظرية المادة والقوة على حالة نهائية ؟ أتفق العلماء على جميع النقط التى يبحثونها ؟ أصار مما لا جدال فيه أن جميع ما فى الوجود خاضع لنظام آلى لا يتغير ؟ ألا يوجد عالم إطلاق تتخلف فيه النواميس من جهة أخرى ؟

« يستطيع العالم المدقق أن يجيب على هذه الأسئلة بأنه ربما كانت له على هذه الأمور عقائد مؤسسة على الظنيات ، ولكنه لا يستطيع أن يبت فيها بالقول الفصل الذى يتطلبه العلم . ومع ذلك فالفيلسوف المادى يتنكب هذا التثبت ويبنى مذاهب وهو هادئ البال ، فِعْلَ من يعتقد أن الاستكشافات المقبلة لن تكذبه .

الى أن قال :

« إن قيمة ما يظهر لنا أنه أشد المعارف ثبوتا ، وأوضحها صحة ، لا تزال مشكوكا فيها من وجهة علم العلل الأولية ، ولا يستطيع أحد أن يثبت أنها حقيقية ، كما لا يمكن أحداً أن يثبت أنها باطلة .

الى أن قال :

« فالذى يغتر بمقررات الفلسفة الطبيعية لا يجوز له أن ينسى أن هذه النتائج لم تثبت ثبوتا مطلقا ، ولا يمكن أن تصل الى هذه الدرجة أبدا . فهى تفوق جهد العلم العصرى بما لا يقدر ولا يمكن أن تعلن صحتها دون التسليم بهذا الأصل الخطير وهو : أن الشىء الذى لا يستطيع عقلنا أن يشك فيه هو الحقيقة الواقعية ليس إلا » انتهى .

والذى يدعونا ويدعو رجال العلم والحكمة فى العالم كله الى تتبع حركات هؤلاء الماديين أن كتاباتهم تلقى رواجا عند الذين رشفوا من مناهل العلم رشفا ، ولم يعبوا منها عبا . ومما يؤسف له أن هذه الطبقة تستوعب جمهورا من المتعلمين ، لأن متابعة طلب العلم الى النهايات التى وصل اليها أئمته المتثبتون لا يتأتى إلا للأقلين ، فتجد آراء الماديين سبيلا مَهْيَعا الى أذهان تلك الطبقة الوسطى ، فتحدث فى نفوس أهلها نزوعا الى الافلات من كل القيود التى فرضتها الانسانية على أهلها ، ومن كل التكاليف التى طالبتهم بها ، ذهابا منهم الى أن هذه القيود والتكاليف قضت بها الوساوس الوراثية ، والأوهام التقليدية . وهذا هو أصل الأدواء الدَّاوِيَّة التى تشكو منها البشرية برمتها اليوم ، وأعراضها تختلف باختلاف البيئات والجماعات ، ولكنها تتحد كلها فى إقفار النفوس من فضيلة الاعتدال ، وفى عدم الوقوف من تطلب

الانقلابات عند حد . ومن يتامل يجد العالم فى حالة من الاضطراب والقلق لم يكن عليها فى عهد من عهوده السابقة . فكل أمة تتربص بجاراتها الدوائر ، وتعمل على أن توقعها فيما تنصبه لها من الحبائل ، وتبذل الأموال الطائلة لاثارة بعض طوائفها على بعض ، حتى أصبح العالم وكأنه على وشك حرب ، حرب بين الشعوب برمتها لا بين جيوشها ، فالحكومات تعمل على إعداد جميع الرجال وجميع النساء على التناحر ، ولا تدخر الأطفال فانها تعدهم لها بوسائل شتى أيضا . هذه الحالة لم تكن عليها الانسانية إلا فى دور الحياة القبيلية ، فالعود اليها ، وتحت تصرفها هذه الوسائل الموبقة ، يعتبر نكبة عليها لا تعدلها نكبة فى تاريخها كله .

وقد شعر بهذه الحالة الخطيرة علماء الاجتماع وفلاسفة الأخلاق فكتبوا فيها كتابات مزعجة ننشر مثلا منها ما كتبه العلامة الكبير الاستاذ (ماكس نوردو) الألمانى فى كتابه (الأكاذيب المتفق عليها فى مدنيتنا الحاضرة) قال :

« الانسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة ، ولكنها لم تكن فى عهد من عهودها أبعد عن الارتياح اليها ، والغبطة بها ، مما هى عليه فى هذا العصر .

« نعم إن العلم والمدنية ينتشران فى كل مكان ، ويرفعان أعلامهما فى أكثر البقاع جهالة وجاهلية ، وكل يوم يظهر اكتشاف عجيب يجعل الأرض أكثر ملاءمة للسكنى ، وشدائد الحياة أخف وطأة على النفس ، ولكننا نرى الانسانية رغما عن توافر شروط السعادة والهناءة تزداد كدرا واضطراب بال ، ونرى العالم المتمدن قد استحال الى باحة مكتظة بالمرضى ، يملأون الجو بعويلهم المؤلم ، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع . فطف الأرض بلدا بلدا ، واطرق كل باب ، ملقيا على أهل كل بيت هذا السؤال : هل يسكن الارتياح هذه الدار ؟ وهل أنتم مطمئنون سعداء ؟ يجبك جميع من تسألهم بهذا الجواب : ابحث عما تطلب بعيدا عنا ، فليس لدينا ما تسأل عنه ! ثم تَسَمَّعْ الأصوات على حدود بلادك ، تجد الرياح تحمل اليك صيحات المعارك والحروب والثورات »

ثم أخذ الفيلسوف الألمانى يفصل أحوال الأمم الاوربية أمة أمة ، مثبتا أنها جميعا فى قلق وهم واضطراب ، ثم قال :

« هذا هو الوصف المميز لعصرنا الراهن ، كما كان الوصف المميز لأسلافنا الأقدمين الغبطة بالحياة ، ولأهل القرون الوسطى التقوى والصلاح .

« فكل إنسان اليوم يشعر بضجر وعدم احتمال يعزوهما الى ألف عارض من الأسباب ، وكلها ليست على شىء من الصواب . وتراه محمولا على أن ينتقد جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، بل ويحكم عليها بالفساد . وقد اعتاد بعض الناس أن يعتبر هذا الضرب من عدم الاحتمال الذى

تحيله المؤثرات الخارجية الى غضب وقنوط ، من قبيل الأمراض العصبية ، وقد يدعوه بعضهم الآخر تشاؤما ، ويسميه غيرهم إلحادا ، فتختلف الأسماء والمرض واحد على السواء .

« هـذا المرض الأدبى يصادَف فى جميع مظاهر العقل البشرى اليوم ، فتجده فى الآداب والفنون ، فى الفلسفة والعلم ، فى السياسة والاقتصاد .

« هذا الاضطراب العام ، وهذا التمزق النفسانى ، يؤثران أسوأ تأثير فى حياة الأفراد ، فترى الخوف يساورهم من كل مكان فى ألف مظهر ، وبأقدار مزعجة ، متى اضطروا لتصور العالم فى شكله الصحيح . لذلك تراهم يندفعون لتضليل مشاعرهم وحواسهم ، وإفساد أعصابهم بتناول المخدرات ، مظهرين بذلك ذعرهم من حقائق الأحوال ...

« فهذا الافساد للفطرة الانسانية ، وهذا الهرب الوقتى من وجه الواقع ، نتيجتهما الطبيعية الخروج منهما بترك الحياة نهائيا ، فان عدد المنتحرين يزداد يوما بعد يوم على نسبة ما يستهلك من الخمر ، ومن المواد المخدرة الأخرى فى كل مكان ، وخاصة فى البلاد المتمدنة ، وترى كل رجل فى هذا العصر ينطوى على حالة من الحمى تكسب محاولاته للحياة مظهرا وحشيا جهنميا لم يكن يعهد عليه الانسان فى الأزمنة الغابرة .

« يشكو الناس اليوم من ضياع الأخـلاق ، فهل يسمح الإلحاد بها وقد أزال الإيمان من القلوب ، وأزال معه المبادئ الصالحة ؟ فاذا خمدت النجمة القطبية ، وزال القطب الكهربائى ، أصبحت البوصلة عادمة الجـدوى . والالحـاد نفسه — وقـد أصبح مرضا شائعا — ليس فى حقيقته إلا وجها من وجوه عدم الارتياح من كل ما هو موجود ؛ فالقول بأن كل شىء باطل ، وبأن ليس فى الوجود شىء جـدير بالطلب ولا بالمحاولة ، ولا بأن يعترك فيه الواجب والهوى ، هذا القول لا يكون له سلطان على النفس إلا إذا كان صاحبها يحتقر كل شىء ، ويعتبره ناقصا ، وليس فيه مقنع لحجاه .

« لقد كانت الانسانية فى قديم الأزمان تشكو مما نشكو منه من القلق وعدم الارتياح ، ولـكن الذى منعها أن تثور ثورتنا أنها كانت تستمد من إيمانها تعـزية وسلاما يجعـلانها تحتمل جميع المصائب وهى مطمئنة مستبشرة ، فان الذى ينتظر سعادة أخـروية ، يسهل عليه أن يصبر على شر وقتى ، ويخف وقعه عليه .

« فمـن أى العوامل نشأت للانسانية هـذه الحالة النفسية التى لا تحتمل ؟ إنها نشأت من السبب الذى كان يوحى الى الرومانيين المتعلمين كراهة الاستمرار على حياة ليس لها معنى ، فـكانوا يقتنعون بأنهم لا يستطيعون التخلص منها إلا بقتل أنفسهم .

« إننا اليوم ندرك الوجود على صورة مادة متمتعة بحـركة ذاتية ، هى القـوة الوحيدة التى ندركها على صور مختلفة ، ونرى أن هذه الحركة مقودة بنواميس ثابتة ، حققنا بعضها

وحددناه ، ولا نزال نتوقع تحقيق ما بقى منها ، وقد حُمِلنا على أن نعتقد أن هذه النواميس ثابتة لا تتغير ، وحُمِلنا أيضا على أن لا نبحث عن السبب الأول ، وعن أصل الكائنات .

« فاذا تنزلنا من مجموع الكون الى الانسانية ، أدانا عقلنا العلمى الى اعتبار الانسان جزءا لا ينفصل عن الكائنات ، والى أنه محكوم بالنواميس نفسها التى تحكمها ، وقد حيل بيننا أيضا وبين أن نعتقد أن للانسان مزايا خاصة ليست لغيره من حلقات السلسلة الحيوانية والنباتية .

« هذه هى مدركاتنا عن الوجود ، وقد استنتجنا منها جميع أصول الحياة ، وكل مبادئ الحقوق والآداب ، وقد أصبحت قواعد لمدنيتنا وقد قدِّر علينا أن نتخلص من سلطانها .

« فهذا التناقض بين أعمالنا الاجتماعية وبين عقائدنا العلمية ، يحدث فى نفوسنا أسوأ الآثار وأشأمها ، فمثلنا منها كمثل الممثل الهزلى يضحك الناس بما يعمل وهو منه فى كمد ومرارة » انتهى .

أظننى لا أستطيع أن أدلل بأكثر من هذا على مبلغ تأثير التعاليم المادية فى حل الجماعات وفضها ، وإيغار الصدور على الوجود ومافيه ومن فيه . وهذا دليل أدبى جديد على بطلان هذه الفلسفة ، لأن كل الظواهر تدل على أن الانسان خلق ليعمر الأرض ويذهب فى استصلاحها كل مذهب ، وقد وضعت بين يديه جميع الوسائل الحافظة لكيانه ، والمربية لمواهبه ، والمكملة لوجوده ؛ فنشوء فلسفة تقلب هذا الاتجاه رأسا على عقب ، وتكون ثمرتها تجريده من السمو الخلقى ، وملاه بالسخائم والأحقاد على الحياة ، يعتبر فى ذاته نشوءا فاسدا أدى اليه خطأ فى النظر ، وضلال فى التفكير ، لمخالفته لطبيعة العوامل التى أحيط بها الانسان ، ولتعطيله ما يظهر أنه المقصود من خلقه ، ومن تمكينه من جميع الوسائل الأدبية والمادية التى تحله هذا المحل الرفيع .

لذلك انتدب جميع الغيورين على حياة النوع الانسانى أن يعملوا على اجتثاث أصول هذه الفلسفة المردية من العقول ، ورفع كابوسها عن القلوب بكل الوسائل العلمية والعملية . ولسنا نشك فى نتيجة هذا التطهير ، مصداقا لقوله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد » :

إنما قال : « قل » اعتناء بالأمر واهتماما به ، وإشارة الى أن كل من ابتلى بالمبطلين فعليه ألاّ يخاف فى الله لومة لائم ، مع لفت النظر الى أن هـذا من عند الله لا من عند الرسول . ولك أن تقول : أتى بها تذكيرا برسالته ، وإعلانا بأنه مأمور بالتبليغ من عند الله تعالى . وعلى كل حال فهو من جملة ما نزل به جبريل عليه السلام ، وكل ما نزل به فهو قرآن ، والقرآن مأمور بتبليغه كما نزل .

ثم أتى بضمير الشأن للتنبيه من أول الأمر على فخامة القصة ، كقولك : هـو الأمير قد ركب . كأنه قيل: الشأن هذا ، وهو الله واحد لا ثانى له . مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير ، فان الضمير لا يفهم منه إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده فضل تمكن . ولك أن تقول : إن هـذا الضمير يؤتى به وإن لم يسبق له مرجع للإيذان بأن ذلك الشأن له من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، واليه يشير كل مشير ، وعليه يعود كل ضمير . ويجوز أن يكون هو ضمير المسئول عنه والمطلوب صفته ونسبته ، وهو إله محمد صلى الله عليه وسلم الذى سألوه عنه ، فقد أخرج الامام أحمد فى مسنده ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى ، والبغوى فى معجمه ، وابن عاصم فى السنة ، والحاكم وصححه ، عن أبى بن كعب : أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى « قل هو الله أحد » . وصح رجوع الضمير الى ذلك المسئول عنه للعلم به من السؤال . والضمير على هـذا الوجه مبتدأ ، والاسم الجليل خبره ، واحد خبر بعد خبر . وأجاز الزمخشرى أن يكون بدلا من الاسم الجليل على ما هـو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف : أى هو أحد . وأجاز أبو البقاء أن يكون الاسم الأعظم بدلا من هو ، وأحد خبره .

هذا ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، وأحـد همزته مبدلة من الواو ، وقد قالوا : إن أحـدا إذا استعمل وصفا لم يكن إلا لله تعالى . والمراد أنه تعالى منزه الذات عن جميع أنحاء التركيب والتعدد خارجا وذهنا ، وعن كل ما يستلزم الجسمية ولوازمها ، أو يقتضى المشاركة فيما اختص به تعـالى ، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية التى لا نهاية لها ، والحـكمة التامة التى تجب للألوهية . فسبحانك لا نحصى ثناء عليك ولو اجتهدنا ، أنت كما أثنيت على نفسك !

هذا وقد ذكروا فروقا بين أحد وواحد ، فقالوا : إن همزة أحد الذى لا يستعمل إلا بعد النفى كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » أصلية ، لأنه ليس بمعنى واحد ، فانك إذا قلت : ما فى الدار واحـد ، صح أن تقول : بل اثنان ، بخلاف ما إذا قلت : ما فى الدار أحد ، فانه للنفى العام . وفرقوا بينهما أيضا بأن أحدا لا يبنى عليه العدد ، فلا يقال : أحد واثنان كما يقال واحد واثنان ، ولا يقال رجل أحـد كما يقال رجل واحد ، بل هو مختص به تعالى كما علمت . والدليل على أنه سبحانه وتعـالى واحـد من جهة العقل : أن الواحد إما أن يكون كافيا فى خلق العالم وتدبيره أولا ، فان كان كافيا كان الآخر ضائعا غير محتاج اليه ، وإن لم يكن كافيا فهو ناقص والناقص لا يكون إلهاً . على أن ما وراء الواحد ليس عدد فيه أولى من عدد ، فيكون وجود أى عدد من ذلك ترجيحا بلا مرجح .

ولك أن تقول : إن أحدهما إذا فعل شيئا فقد سد باب الفعل على الآخر فلا يمـكن نفوذ قدرته فيه ، والإله لا يمكن أن يمنع نفوذ قدرته غيره وإلا لم يكن إلهاً ، الى آخر ما قرره علماء الـكلام فى علم التوحيد .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نجيب داعى الروح فنذكر لك هنا ما يثير محبتك لله وتعلقك به ومعرفتك لعظمته ، فان هذا هو السعادة الأبدية التى يرى فيها الانسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فنقـول ، ونرجو أن تـكون من الذين رق ذوقهم ولطف وجـدانهم :

إذا كنت تحب أحدا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فأحب الله تعالى الذى أتقن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسه ، حتى قال سبنسر الانجليزى ما ترجمته « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنمـا الغرض الأسمى أن يشرف الانسان على ذلك السر الباهر ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى اليها علم الطبيعة » . ويكفيك ما اشتمل عليه الانسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفزيولجيا فطأطؤا له الرءوس ، وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحدا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة والساسة، فأحب أحكم الحاكمين، وأقدر القادرين، وقيوم السموات والأرضين، ورب العالمين، ومدبر الخلق أجمعين، مَن أمرُه بين الكاف والنون، وإذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون.

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبرزه فى باب الفضل والمكارم، فأحب منبع النعم، ومعدن الكرم. وأين كل ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله؟

وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى الوجود، وأنه رب الكرم والجود: «ما يَفْتَحِ اللهُ للناس مِن رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يُمسك فلاَ مُرسلَ له مِن بعده، وهوالعزيز الحكيم».

ولعمر الإنصاف إن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام وتخرس فيه الألسن، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه. وانظر إن شئت لنعمة الهواء التى يتوقف عليها وجود كل حى، الى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها. وإن شئت فانظر الى نعمة الضياء أو الماء وما أودعه فى الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره «ذلك تقدير العزيز العليم». «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كَفَّار». وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الانعام الفائض على كل من فى الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود: الفيلسوف لينه الفزيولوجى الفرنسى الذى كان يدعوه وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره فلا يتغافل عنه، قال: «إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شىء قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها! إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجددها يقر بجلالته وعظمته».

ولنرجع الى أصل الموضوع فنقول:

إذا كنت تحب نفسك وكمالها فأحب من أوجدها فى أحسن تقويم، وشق سمعها وبصرها، وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة، ولم يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات، بل أعطاك من الكماليات ما تتنوع به لذتك وتتم به بهجتك، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعماؤه، وأشرق عليك ضياؤه، وعذب لك ماؤه، ولطف هواؤه، وأنعشتك بدائع أكوانه: من رياض غناء، وصحار فيحاء، وأثمار شهية، وألوان بهية، ونغمات شجية، ومناظر تطير بالقلوب الى حضرة علام الغيوب: من شموس وأقمار، وأطيار وأزهار، وليل ونهار. أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل الناطقات والنعم

الفائضات ، ماقال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادّكار — وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات — وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل — مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا — فى نهار وفى الدجى أقمار
ورياح تهب من كل فج — وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير — جل ربًّا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على اللّه نفوسا لها هدى واعتبار

أو تقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه — وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكّون والايمان ملء قلوبهم — ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه — إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول : الله فى عرش مجده — وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة — إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة — ولكن جهل المرء لا شك غالبه

أو يقول عندما يرى الأشجار تتهادى فى حلل الأوراق والأزهار معجبا برؤيتها متعجبا من قدرة خالقها :

ياصاحبى تعجبا لملابس — قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء ، والأصباح والامساء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء ، وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول عز وجل : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ثم لا تؤدى شكره ولا تعرف قدره ؟ !

إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا — من فرط لطفك ربى كيف ينساك

فان كان لا يؤثر فى نفسك فائض إنعامه ومزيد إحسانه ، ولا ما هو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا سلطان الحس الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فانما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره

إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ، وأنى يسع المحدود من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن لا يدخل فى سجن التقييد ؟ !

إن قلت هـذا فان الحد يحصره أو قلت ذا فـكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الظرف يطلبه والظرف حق ولـكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجوداً لست أدريه إلا الذى أنا معنىً من معانيه

فطوبى لمن شم عرف شذاه ، أو شام برق سناه ، وهنيئا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا أو نظر اليه ولو شزرا ! فاذا لم يدر ما هو تائق اليه ومتلهف عليه قال :

شىء به فتن الورى وهو الذى يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

وقـد قال بعض الحـكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون الى الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون الى إصلاح لا يتناهى ، وجمال لا يتناهى ، وكمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع الى سلامة فطرتك ، وحدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الإلهى الذى تجلى على صفحات الموجودات ، واقرأه بين سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله الى أى حد انتهيت ، ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الاحساس بالجمال إلا وقد وصلت الى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن عند ما تحس بجمال لا يتناهى ، وغرقت فى بحر من الجلال لا يحد ولا يأتى عليه التعبير . عند ذلك ينطق لسان حالك منشدا :

عجبت لعاقل فى النـاس أضحى يرى هـــذا الجمال ولا يهيم

فاستجل هذا الجمال رعاك الله فى كل شىء تراه من العلويات والسفليات :

إن شئت فى فلك أو شئت فى ملك أو شئت فى مدرأو شئت فى حجر
فالـكل ينطق أن الله خالقه وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ماعلمت ، وأبهر مارأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل اليه النظر ، إلا أثر من آثاره ، ونور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة والجلال ؟ ! فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان وإن كان لا يكيفه ، وتمتلئ به النفس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : تبارك الله أحسن الخالقين ! وحقه ، وما أكبر حقه ، لو تفرغت من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى برد الأصائل والأصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا أهدى الى سُحَيراً أطيب الأرج

عظم والله البرهان وامتلأ الوجدان ، ووصل الأمر إلى حد العيان ، وليس بعد العيان بيان ! ولكن قويت الانوار فغشيت الأبصار ، وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم نفعه . ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخلد الى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلى قد طال المقام على القذا   وحال على ذا الحال ياقوم أحوال
يمر زمانى بالأمانى وينقضى   على غير ما أبغى ربيع وشوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت ، فإن كنت تحب أحداً لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحب الملأ الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » . وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق من جميع التقييدات، والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسمانى الذى لا بدله من الفناء فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت ، لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التى هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » . وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء وصرت لا تعرفه ولا تحس به وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الذاتى وغذاؤها الأصلى فهو الأسرار والأنوار ، ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فكان لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التى أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التى هى مناط لذتها الكبرى ، وشرفها الأعلى ، وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على مايشاء قدير ، وبالاجابة جدير !

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

السنة

الحث على الصدقة والصبر على المظالم

عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاثٌ أقسم عليهم وأحدثكم حديثا فاحفظوه — قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمةً صبرَ عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، أو كلمة نحوها » من حديث حسن صحيح رواه الترمذى وابن ماجه ، ونقله الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) هل يجوز القسم بدون حاجة كما أقسم الرسول فى هذا الحديث ؟ (٢) معنى ما نقص مال عبد من صدقة . (٣) معنى الظلم وآثاره الضارة بالمجتمع الانسانى . (٤) آثار مضايقة الناس بالسؤال الذى نهى عنه الحديث .

١ — اتفق المالكية والحنفية على أن الأصل فى اليمين الجواز ، فيجوز للمكلف أن يحلف بالله أو بصفة من صفاته ، بدون كراهة ، على أى عمل من الأعمال ، ولكن الأولى له أن لا يكثر من الحلف لغير حاجة . واستدلوا لذلك بما روى فى الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم كان يحلف بقوله : « لا ومقلب القلوب » وربما كان يحلف بقوله : « والذى نفسى بيده » أى بقدرته يصرفها كيف شاء . ولم يذكر سببا لحلفه صلى الله عليه وسلم .

وقد خالف الشافعية فى ذلك ، فقالوا : إنه يكره للمكلف أن يحلف بدون حاجة . واستدلوا بقوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم » . والعرضة معناها الحاجز بين الشيئين . فهو يقول : لا تجعلوا الله حاجزا لما حلفتم عليه من ترك البر ، وذلك لأن الواحد منهم كان يحلف أن لا يصل رحمه مثلا ، أو لا يكلم جاره ، أو لا يقضى دين فلان ، فاذا قيل له افعل هذا الخير اعتذر بالحلف ، فهم يجعلون اسم الله حاجزا عن أعمال الخير ، فنهاهم الله عن ذلك بقوله : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » . ومعنى الأيمان هنا : أعمال البر التى كانوا يحلفون على تركها ، فهو سبحانه يقول لهم : لا تجعلوا الله حاجزا عن أعمال البر . وسماها يمينا لأنها محلوف عليها ، ويصح لغة إطلاق اليمين على المحلوف عليه لتعلقه به .

فالله تعالى قد نهى الناس عن أن يحلفوا باسمه على ترك أعمال البر ، ومتى صح النهى عن الحلف

فى هـذه الحالة فانه لا يصح أن يقال : إن الحلف مباح فى كل شىء ، بل هو مكروه بحسب الأصل ثم يعرض له ما يجعله واجبا أو حراما أو مندوبا أو جائزا . فيكون واجبا إذا ترتب عليه أمر لازم شرعا ، كما إذا توقف على حلفه إنقاذ إنسان برىء مصون الدم من الهلاك . وقد يكون حراما كما إذا حلف على فعل محرم : من زنا ، أو شرب خمر ، أو نحو ذلك ، فان هـذه يمين محرمة ، ويجب عليه أن يحنث فيها . ويكون مندوبا إذا توقف عليه فعل مندوب كما إذا حلف ليصلين سنة الظهر أو ليصومن يوم عاشوراء ، فان الحلف فى هذه الحالة يكون مندوبا وعليه أن يفعل المحلوف عليه ، فان لم يفعل حنث ولزمته الكفارة . ويكون جائزا غير مكروه كما إذا حلف فى دعوى عند حاكم وهو صادق ، أو حلف لتأكيد أمر فى حاجة الى التأكيد ، أو حلف لتعظيم شأن أمر من الأمور ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « والله لو تعلمون ما أعلم » ونحو ذلك .

وحاصل رأى الشافعية أن اليمين فى ذاته مكروه ، ولـكن قد تعرض له الأحكام الشرعية على الوجه الذى بيناه . أما المالكية والحنفية فإنهم يقولون : إن الحلف فى ذاته مباح ولو تعلق بفعل محرم أو واجب ، فلو حلف لا يصلى لا يؤاخذ على نفس الحلف ولـكن يفترض عليه أن يحنث ويكفر عن يمينه . ومثل ذلك ما إذا حلف أن يزنى فإن الحنث فرض لازم ولا يؤاخذ على نفس اليمين ، وإذا حلف على فعل واجب فإنه يجب عليه فعله . وعلى كل حال فانه لا يؤاخذ على الحلف إلا فى اليمين الغموس الذى بيناه فيما مضى فى مجلة الأزهر .

وظاهر الآية يؤيد الشافعية الذين يقولون إن الحلف بدون حاجة مكروه . أما الأحاديث التى يفيد ظاهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحلف بالله وصفاته فى كثير من الأمور ، فانهم يجيبون عنها بأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يحلف إلا لغرض صحيح كالحديث الذى معنا فانه عليه الصلاة والسلام أراد أن يلفت الناس الى ما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ، وينبههم الى ضرورة الاستمساك بها ، فلذا أقسم عليه الصلاة والسلام .

٢ — أما قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقص مال عبد من صدقة » ، فإنه يرشد الى نظرية اجتماعية قد يغفل عنها كثير من الناس . وذلك لأن الشح غالب على النفوس البشرية ، وحب المال وعدم التفريط فيه ولو كان قليلا غريزة لا يسهل الفكاك منها . فالنبى صلى الله عليه وسلم يريد بقوله هـذا أن يهوّن على النفوس التصدق بما أمرهم به الله ورسوله ، لأن الله سبحانه لم يكلفهم عسيرا ، ولم يأمرهم بالتصدق بما يخل بأموالهم أو يجعلهم فقراء ، بل أمرهم بإخراج جزء يسير من أموالهم يستعين به الفقراء والمساكين وذوو الحاجة على قوتهم الضرورى ، ففرض على الذى يملك قدرا معينا من المال ربع عشره ، وفرض على الأغنياء والموسرين أن ينقذوا حياة الجائعين من الهلاك ، وأن يستروا عوراتهم عند الضرورة فوق زكاة أموالهم ،

وكل ذلك أمره هين لا ينقص المال ، ولا يرهق صاحبه ، بل المسلم الذى يعرف قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » يستريح قلبه وتسكن نفسه إذا قام باطعام أخيه الجائع أو كسوته بلا نزاع .

هذا المعنى يؤخذ من ظاهر الحديث . وقد يقال : إن المحسنين المتصدقين يكون لهم بين الناس منزلة سامية ، فكل الناس يحبون أن يعاملوهم معاملة حسنة ، وكل الناس يحبون أن يبروهم ويتزاحموا على خدمتهم ، وهذا المعنى يعوض عليهم أكثر مما أنفقوه من الصدقات ، لأن أموالهم تكون مصونة يستنكف الناس عن أن يمدوا اليها أيديهم بغير حق . على أننا لا ننسى أن الله القوى المتين قد يبارك للمتصدقين فى أموالهم من حيث لا يشعرون ، وذلك معنى معقول قد وقع أمثاله فى أحوال كثيرة ، ومن ذلك ما روى معناه البخارى عن عائشة رضى الله عنها من أنها كانت تأكل هى والرسول من مقدار من الشعير مخزون لديها ، فكثت تأكل منه زمنا طويلا يزيد عن الزمن الذى ينفد فيه مثل هذا الشعير أضعافا ، فقالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن هذا الشعير قد طال به المدى ولم ينفد ، فقال لها : أحصيه ، فأحصته وعرفت قدره ، فنفد بعد ذلك .

ومن ذلك ما رواه البخارى من طعام أبى بكر لأهل الصفة ، فانه قد أكل منه عدد عظيم ولم ينفد مع أنه كان مصنوعا لجماعة محصورين . وغير ذلك كثير فى السنة الصحيحة .

فالصدقة فى ذاتها يسيرة لا تنقص المال ، ومع ذلك فما يظنه الأشحة من نقص فان الله سبحانه سيعوض عليهم بقدرته الظاهرة فى كل الموجودات ، ويسخر لهم الأسباب التى تنمى أموالهم ، ويوفقهم الى التمسك بها ، ولذا قال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى » . ومعنى هذا أن على المكلف أن يعطى من ماله ما أمره الله به ، وأن يتقى ربه ، وأن يؤمن بأن جزاء العاملين عند الله هو جنات الخلود ، فاذا قام العبد بالواجب عليه من ذلك فالله سبحانه يسهل له القيام بالصالحات من حيث لا يدرى بقدرته القاهرة ، وبذلك يكون جزاؤه الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٣ — أما الصبر فمعناه فى نظر الدين : منع النفس عن الجزع عن المصائب ونحوها ، ومنعها عن انتهاك حرمات الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . وظاهر أن معنى الصبر فى الحديث الذى معنا داخل فى القسم الأول ، لأن عدوان الناس على الشخص فى نفسه أو عرضه أو ماله مصيبة واضحة . فالصبر على مظالم الناس وإيذائهم من أجل صفات النفس وأعظمها قدرا ، بشرط أن لا يكون المظلوم قادرا على دفع الظلم عنه بالوسائل المشروعة التى لا عدوان فيها على أحد ، فانه فى هذه الحالة يجب عليه أن يدفع الظلم عنه ، ولذا قال تعالى : « لا يُحبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوء من القول إلا مَن ظُلم » فإذا رفع المظلوم أمره للحاكم ليقتص له من الظالم فإن له أن يذكر عيب

ظالمه الذى يحتاج اليه فى بيان حقه متى كان صادقا فيما يقول ، وإلا أصبح ظالما لا مظلوما .
وإنما قلنا يجب عليه أن يدفع عنه الظلم متى كان قادرا مع أن الحديث قد امتدح الصابرين على المظالم ، لأن قواعد الدين الاسلامى الحنيف تقضى بضرورة إصلاح المجتمع الانسانى ، وتأديب أفراده بكل الوسائل الممكنة . فالظالمون الذين يعتدون على الناس فى أموالهم أو أنفسهم أو أعراضهم شر آفات المجتمع الانسانى الضارة التى يجب تأديبها أو القضاء عليها . ولذا وضعت الشريعة الاسلامية عقوبات صارمةً للذين يعتدون على أعراض الناس أو أنفسهم أو أموالهم . نعم إذا كان العفو يُصلح المعتدى ويترك فى نفسه أثرا حسنا يفضى به الى ترك العدوان وتهذيب الأخلاق ، كان العفو فى هذه الحالة حسنا ، ولذا قال تعالى : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . والمحسنون هم الذين يحسنون الى الناس بأموالهم وأفعالهم النافعة ، فاذا كان العفو يصلح المعفو عنه كان إحسانا ، أما إذا كان ينتج إغراءه على التمادى فى المظالم فإنه يكون إساءة لا إحسانا .

فمعنى الحديث الذى نشرحه هنا هو الترغيب فى الصبر على المظالم التى لا يمكن دفعها بالطريق المشروع ، كما إذا ظلم شخص آخر فى ماله كأن استدان منه بدون شهود أو وثيقة ثم أنكره ، أو سرق ماله أو غشه فى بيع أو شراء ، أو اغتصب أرضه أو أنعامه ، ثم عجز عن أخذ حقه منه بالوسائل المشروعة أو قذفه أو اعتدى على عرضه وصبر على الظلم فمنع نفسه من الاستسلام للجزع ولم يخرج عن حدود الله تعالى التى أمره بالوقوف عندها ، فلا يستفزه الظلم الى الانتقام من الظالم بطريق غير مشروع كان يسلط عليه من يتلف ماله أو يسمم مواشيه ، أو يهتك عرضه ، أو يؤذى قريبا له لا يد له فى ظلمه ، أو نحو ذلك ، فإنه يكون من الصابرين الذين امتدحهم النبى صلى الله عليه وسلم . على أن له أن يأخذ حقه بدون زيادة أو نقص إذا لم يترتب على ذلك فوضى فى النظم العامة ، أو مظلمة أخرى للظالم الأول .

وهذا المعنى هو الذى تتبين به عزائم المؤمنين المخلصين حقا ، فان الرجل الذى يعتدى عليه الآخر فى ماله أو عرضه ، يخرج فى الغالب عن طوره الطبيعى ، ويذهب به الغضب الى أقصى حد يستطيعه من الانتقام ، فيظلم بعد أن كان مظلوما . فاذا أراد أن يكون سميعا لأوامر الله ورسوله فانه يجب عليه أن يقف عند الحد الذى أمره به الدين ، وهو أنه إذا تيسر له أخذ حقه بالوسائل المشروعة التى تقتضيها نظم الحكم فعليه أن يفعل ، بشرط أن لا يستفزه الغضب فيعتدى على ظالمه ويأخذ منه أكثر من حقه ، أو يؤذيه من طريق غير مشروع .

فمعنى صبر القوى الذى يستطيع أن يأخذ حقه من الظالم هو الوقوف عند حدود الشرع ، فلا ينتقم من ظالم لنفسه انتقاما غير مشروع ، وله مع ذلك أجر الصابرين الذى ذكره الحديث ، وهو العز والكرامة فى الدنيا والآخرة ، لأن المظلوم وإن شعر بهوان من جراء الظلم

ولكنه فى الواقع ونفس الأمر عزيز كريم عند الله وصالحى المؤمنين ، فاذا لم يستفزه الظلم وصبر عليه ولم يعتد على ظالمه ، زاده الله بذلك عزا وكرامة بدون نزاع ، لأنه إن لم يجد الوثائق الكفيلة بايصال حقه اليه فان الله تعالى لا بد أن يهىء له الوسائل الصالحة التى تعوض عليه مافاته من حقه وزيادة عليها أضعافا مضاعفة ، فضلا عما يناله من رضاء الله عز وجل العليم القدير الذى يجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

أما الضعيف الذى لا يستطيع مقاومة ظالمه ، ولا يمكنه أن يرفع أمره للحاكم ليقتص له ، وليست لديه الوسائل الكافية التى بها يستطيع دفع الظلم عنه ، فان الله هو وحده الذى يتولى الانتقام له ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والامام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ! » . رواه أحمد والترمذى وغيرهم . فالله الحاكم العادل القوى المتين هو الذى يتولى الانتقام من الظالمين الذين تطغى عليهم قوة الجاه فيعتدون على الضعاف فيؤذونهم فى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم بالقول والفعل ، ويسلبونهم حقوقهم بدون ذنب ، وأولئك لهم عذاب عظيم .

على أن الله سبحانه لطيف بعباده الموحدين رءوف رحيم ، فإنه قد أمر الظالمين بأن يردوا المظالم فى الدنيا إذا أمكنهم ردها ، ويكون فى ذلك كفارة لعدوانهم ، فإذا لم يمكنهم ردها فليطلبوا من أربابها العفو عنهم ويرجوهم فى ذلك كى يسامحوهم ، وبذلك يغفر الله لهم ظلمهم ، ويعوض المظلومين أكثر مما فاتهم أضعافا ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شىء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخارى وغيره .

وأما الصبر على محارم الله : فمعناه أن الانسان يقف مع نفسه موقفا حازما عند ثوران شهوته وغضبه ، فلا يخرج عن حدود الله التى أمره بالوقوف عندها ، فإذا صبر على أداء ما فرضه الله عليه وصبر على اجتناب ما نهاه الله عنه ، فلا يأكل حراما ، ولا يلبس حراما ، ولا يستمتع بفرج حرام ، ولا يؤذى أحدا بيده ولسانه ، ثم قام بأداء ما فرضه الله عليه فى هذه الحياة الدنيا من صلاة وصيام وزكاة وحج وبر والدين وصلة أرحام ونحو ذلك ، كان من الصابرين الذين ظفروا بالسعادة الدنيوية ، ولهم عند الله وفى الآخرة أسمى المنازل وأعلى الدرجات . فلو أن المسلمين تدبروا ما أمرهم به ربهم واستمسكوا به ، وعلموا شر ما نهاهم عنه واجتنبوه ، لكانوا من أسعد خلق الله حظا ، وأوفاهم أجرا ، وأعظمهم كرامة فى الدنيا والآخرة .

ولكن من الأسف الشديد قد نبذ فريق كبير من المسلمين دينهم ، وجهلوا ما يرمى اليه من

فضائل خلقية ونظم اجتماعية لا يمكن للنوع الانسانى أن يأخذ مكانته اللائقة به بدون الاستمساك بها ، فأذاقهم الله مر الهوان فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

فالله المسؤل أن يرشد المسلمين الى الاستمساك بقواعد دينهم الصحيحة ، ويوفقهم الى العمل النافع كى يستعيدوا مجدهم الذى ناله أسلافهم بالعمل بدينهم ، إنه سميع الدعاء .

٣ — أما ما نهى عنه الحديث من سؤال الناس وطلب ما بأيديهم فذلك من محاسن الشريعة الاسلامية وآدابها العالية ، فان من أهم أخلاق الدين الاسلامى العفة عما فى أيدى الناس وصيانة الوجه من التبذل والامتهان ، وحث الأفراد والجماعات على العمل ، فلا يجوز لفرد قادر على العمل أن يكون عاطلا كلا على الناس ، فان ذلك من شر آفات الأمم الضارة بها ، لأن هذه العادة الفاسدة إذا سرت بين أفراد الأمة يستلذها الكسالى ، ويستعذبها الجهلة الذين لا يدركون معنى الكرامة والحياء ، فتفشو العطلة بين الأفراد والجماعة ، ويحلو لهم الكسل فيصبحوا من أتعس الناس وأحطهم منزلة وقدرا .

فلذا كان صلى الله عليه وسلم من أشد الناس حرصا على قطع دابر هذه العادة الضارة من بين أمته ، فقد روى أن رجلا جاءه يسأله فنظر اليه فوجده قويا قادرا على العمل ، فسأله عما يملك ، فقال له : إنه لا يملك إلا برشا ينام عليه ، وقعبا يشرب به ، وحبلا يستقى به من البئر ، فأمره باحضارها ، فلما أحضرها باعها صلى الله عليه وسلم على الحاضرين (بالمزاد) ثم اشترى له فأسا وأعطاه الحبل وأعطاه ما بقى ليأكل به ، ثم أمره أن يذهب ويحتطب ولا يأتى للنبى إلا بعد نصف شهر ، ففعل وجاء بعد نصف شهر وأخبره بأنه قد نجح فى عمله ، وأنه قد ادخر بعد حاجاته مبلغا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تأتى يوم القيامة والمسألة نكتة فى وجهك . وهذا معنى حديث صحيح . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مُزْعة لحم » رواه البخارى ومسلم وغيرهما . والمزعة بضم الميم وسكون الزاى : القطعة .

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة فى هذا المعنى ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على أن لا يسألوا أحدا شيئا ، فكان الذين يبايعونه على ذلك لا يسألون الناس شيئا ولو بلغت بهم الحاجة أقصى منازلها . وقد كان الواحد منهم يسقط سوطه وهو راكب فينزل من على فرسه ويأخذه بيده ولا يسأل أحدا أن يناوله إياه . ومن هؤلاء النفر أبو بكر رضى الله عنه ، فإنه كان إذا سقط سوطه وهو راكب نزل وتناوله بيده ، فقال له بعض الناس : لو أمرتنا أن نناولك إياه ! فقال لهم : إننى بايعت رسول الله على أن لا أسأل أحدا شيئا ! !

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانى ، ثم سألته فاعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : ياحكيم هذا المال خضر حلو فمن أخذه

بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . قال حكيم : فقلت يا رسول الله : والذى بعثك بالحق لا أرزأ (١) أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا الخ . رواه البخارى وغيره .

فهذا هو معنى المسألة فى نظر الدين الإسلامى ، وهذا هو معنى الحث على العمل وترك البطالة ، وهذا هو معنى التعفف عن الناس وعدم الاستكانة لهم طمعا فيما بأيديهم . وهذا هو معنى حفظ كرامة النفس وصيانة الوجه عن التبذل والامتهان . فعلى المسلمين أن يتدبروا ذلك ، وعليهم أن يعملوا بما أمرهم به الله ورسوله ليكونوا من المفلحين ؟

عبد الرحمن الجزيرى

التغافل لا الغفلة

الغفلة من أقبح عيوب الانسان ، وأعودها عليه بالأذى والذم ، ولكن التغافل محمود ، وهو أن تعلم الشىء فترى أن الأصلح تجاهله ، فهذه قوة نفسية لا يستطيعها إلا القليلون . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من امتطى زمام التغافل ، ملك زمام المروءة » .

وقيل : « التغافل من الكرام ، يمنحهم الاجلال والاكرام » .

وقيل لبعضهم : من العاقل ؟ فقال : الفطن المتغافل .

وقال شاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه ... لكن سيد قومه المتغابى

وقال غيره :

أعرض عن العوراء إن أسمعتها ... واسكت كأنك غافل لم تسمع

وقال آخر :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... ومن دونها قطع الحبيب المواصل
وأعرض حتى يحسب الناس أننى ... جهلت الذى آتى ولست بجاهل

وقال سواه :

وأغضى عن العوراء حتى يقال لى ... بأذنيه وقر عندها حين ينطق
حياء وإكراما لعرض أصونه ... ولا خير فى عرض يظل يمزق

(١) أى لا أسأل

المسيحية فى الاسلام

« اطلعت على مقال عزتكم بمجلة الأزهر رداً على كتاب المسيحية فى الاسلام حيث قلتم رداً على ما جاء تحت عنوان (المسيح الإله) : « إن هذه دعوى جريئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الاسلام من المسيحيين الا أن يكونوا من أهل المماحكات اللفظية الذين يترفع عنهم مثل الايغومانس ابراهيم لوقا . فاذا كان قد مضى على نزول القرآن أكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس وفهموا منه أن الاسلام ينفى ألوهية المسيح ، وعلم ذلك فى كل هذه القرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى ، وألفت فى الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر ، كل هذا لو كان فى حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس . . . الخ كما ورد بصفحة ٦٤٠ من المجلة .

سيدى . . . . :

هذا مقال ثان أرفعه على رجاء التقدير والاعتبار :

« إننى من الذين أغرموا الى الغاية بتتبع كل ما تكتبون وحفظ الشيء الكثير منه ، ولى من البحوث الجدلية مع المجلات الاسلامية ما اتصل خبره بعزتكم لاطلاعى على رد على رسائلى التى نوهتم عنها بمجلة الأزهر تحت عنوان : (معاكسة المسلمين فى توحيدهم) ، حيث استندت فى إحدى هذه الرسائل على تصريح من عزتكم بالمذكرة العلمية الخاصة بترجمة القرآن الكريم فقد قلتم : « إن النصارى اعتمدوا على الآية « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » ، فذهبوا يشيعون أن القرآن يصرح بصحة عقيدتهم ، ولكنهم لا يعلمون أنه لا يعرف تأويل هذه الآية أحد فى الأرض » . فاذا كان لا يعلم أحد تأويل آية بالقرآن خاصة بوصف شخصية المسيح الفذة الفريدة فى التاريخ ، فماذا يمنعنا من الالتجاء الى كتب الله التى يشهد القرآن بصحتها وفيها إيضاحات أكثر صراحة ونوراً وهداية عن تلك الشخصية ؟

« إننا لا نتخيل أن أحداً يطعن فى سلامة التوراة والانجيل فى أى عصر حتى الآن ، إلا كان طاعنا فى صحة آيات صريحة حاسمة فى القرآن تشهد بسلامتهما وتقرر وعد الله بحفظها ، قد بينها حضرة القس فى كتابه المذكور نكتفى منها جميعا بالآية القائلة : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ، وقد جاء بتفسير البيضاوى قوله : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك » من القصص على سبيل الفرض والتقدير « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » فانه محقق عندهم ثابت فى كتبهم . . . وإن القرآن مصدق لما فيها » . فالأمة

المحمدية مأمورة بمقتضى هذه الآية بالرجوع الى أهل الكتاب ، لفهم تأويل القرآن الذى لا يعلم تأويله إلا الله . وهنا الاستشكال الذى يجب على كل باحث حر محب للحق أن يلجأ الى العقل والمنطق والانصاف فى طاب حله ، وهو : القرآن ينفى عقيدة التثليث والبنوة والصلب ولاهوت المسيح ، ويقرر صراحة صحة التوراة والانجيل ويأمر بالرجوع اليهما لفهم ما أشكل فهمه على النبى وعلى أمته منه ، فهاهما التوراة والانجيل يصرحان بصحة تلك العقائد التى ينكرها القرآن ، فما الحل لهذا الاشكال يا صاحب العزة ؟

« هذا ولا يمكن مطلقا قبول الطعن فى سلامة كتب الله عقلا ونقلا . فأما عقلا فهو لأن الله هو الكفيل بحفظها فلا قيمة لكل التخرصات التى تقال من المتهجمين على سلامتها . وأما نقلا فاذا اكتفينا بما ذكرنا من آية ، فقد تمت الفائدة ، فضلا عما جاء بآيات تشير الى نصر الله لحقه بتعزيز كتبه ، كشهادة الآية التى تثبت وعد الله للحواريين بالنصر فى الدين ونشره لقولهم : « نحن أنصار الله » ، والآية التى تثبت تأييده تعالى لطائفة اليهود التى آمنت بالمسيح ، له المجد ، القائلة : « فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » وغير ذلك كثير . بل لو تأمل كل عاقل حصيف فى الآية : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » لما اجترأ على رمى كتب الله بشىء مما له يفترون ، ولعلم وأيقن أن كتب الله يجب أن تكون على قياس واحد من الكرامة والحفظ والصون ، حتى إن القرآن لا يمكن أن يصف نفسه بأنه كتاب سماوى ، ثم يقول بأن كتب الله يمكن أن تجتمع قلوب البشر على تحريفها أو إخفائها والله رقيب على العالمين . بل قد جعل القرآن الايمان بكتب الله فى مدرج الايمان بذات الله ، حتى إن من يوسوس له الشيطان بالكفر بها فانما ليستدرجه به اليه بل قد أوقعه فعلا فى وهدة الكفر بالله . ترى ذلك من الآية : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » . هذا الاشكال يا صاحب العزة يجعلنا نلمح من طرف خفى غاية بعيدة قد ندركها عندما نتأمل فى أن الرسالة المحمدية قد واجهت أمة منغمسة فى وثنية لا تحتمل معها إلا مصارحتها بوحدانية سليمة صريحة ، كما قد صرح المسيح له المجد فى الانجيل بذلك لكل مبتدئ ناشئ فى الدين إذ قال : « الوصية الأولى هى هذه : اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد ، وأن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » . فاذا كان القرآن قد صرح للعرب بعشرات الآيات التى يفهم منها نفى الألوهية والبنوة عن المسيح له المجد ، فانما يخاطبهم على قدر عقولهم ، وليحجزعنهم سيلا من الصفات الالهية والكنايات المعنوية والروحية لا يستسيغونه بعقولهم ، ولا يستطيعون له احتمالا مع ماهم غارقون فيه من وثنية وتعدد لا تتطلب إلا التعليم بوحدانية خالصة لانتشالهم أولا من وهدتهم . ومثل الله فى ذلك مثل أب رحيم يعامل أبناءه معاملة فيها شىء من التورية ، لتُسمع وصاياه ويُعمل بارادته .

« فان قلنا هذا تضليل يتنزه عنه الخالق ، رأينا أن القرآن يصرح بأكثر من ذلك فيقول بأن الله خير الماكرين ، ويصرح بأنه تعالى كما يهدى البعض يضل البعض الآخر ، ويزيد أهل الضلال ضلالا فيجعلهم فى طغيانهم يعمهون . أما فى مسألة الكلمة والروح وجواز أو عدم جواز إطلاقهما على الله استناداً على أن أهل الفلسفة قرروا عدم الجواز ، فلا عبرة برأى أهل الفلسفة هؤلاء ما دام قد جاء بالانجيل هكذا : (الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا) وجاء أيضا : (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) . ولا نقبل من حضرة صاحب العزة العلامة أن ينتصر لرأى أهل الفلسفة والعلم الذين كلما تكشفت لهم الحقائق كذبوا ما سلف من علمهم وفلسفتهم ، على رأى الدين الذى يجب أن يكون اليه المرجع والمآب . على أننا إذا تأملنا الأمر مستلهمين الهداية من رب الهداية ، لوجدنا أنه يشترك تعالى مع المخلوق فى صفات . فكما أن للمخلوق ذاتا فلله ذات ، وإذا كان المخلوق حياً فخاصية هذه الحياة هى الروح ، فلماذا لا يكون لله روح ما دام هو تعالى حيا ، كما أن لله ذاتا وهى خاصية الوجود . لأنه لا يصح أن نقول إن الله حى بلا روح ، كما لا يصح أن نقول إن لله وجوداً بلا ذات ، لأن كل ما هو ذات هو موجود ، وكل ما ليس بذات هو غير موجود ، وحاشا للخالق للموجودات أن يكون غير موجود . وليس فى هذا تقييد أو تحديد لعظمة الله كما تقولون عزتكم . وأما قول عزتكم بأنه تعالى منزه عن التشبيه والتمثيل لأنه ليس كمثله شىء فان القرآن الذى قال : « ليس كمثله شىء » قال أيضا : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » . وأخيراً نقول : إنما التكليف فى المسيحية هو إثبات ثلاث خواص ذاتية أو صفات ذاتية لله سبحانه لا يمكن الزيادة عليها ولا النقص منها . وما الصفات الذاتية التى بلغت العشرين صفة عند علماء المسلمين إلا متفرعة من هذه الثلاث ، وهى (الذات) و (الكلمة) و (الروح) . ونحن نتحدى من يدعى لها زيادة أو نقصا . وتفضلوا ختاما بقبول أسمى تحياتى واحترامى . والسلام عليكم ورحمة الله » ؟

تادرس مسيحه بأخطاب

ملاحظاتنا على هذا الكلام :

نشرنا ما كتبه إلينا حضرة الأستاذ تادرس افندى مسيحة فيما لاحظه على ما كتبناه فى العدد الماضى تحت عنوان (المسيحية فى الاسلام) ورأينا أن نتبعه برأينا فى كل ما قاله ، حاصرين الكلام فيه على الموضوعات التى أثارها ، وهى :

(١) الكلام فى التأويل .

(٢) معنى قوله تعالى : « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » .

(٣) المراد من قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

(٤) حل الاشكال الذى بناه حضرة الكاتب على تنويه القرآن بالكتب المتقدمة عليه .

(٥) نقد ما أورده على لفظى الروح والكلمة .

(٦) رأينا فيما برر به القول بالتثليث .

(٧) تأويله تشديد القرآن فى نفى عقيدة التثليث .

١ — الكلام فى التأويل :

شرع الله الدين وجعله صلة بين الانسان وبين العالم العلوى الذى تنزل هو منه ، ولا يفتا يحن اليه . وهذا العالم العلوى مباين كل المباينة للعالم الأرضى الذى يعيش فيه . فلو أراد أن يعرف كنه الله ، بل كنه الروح التى هى ذاته ، وكنه الملا الأعلى الذين هم خلق مثله ، لأعجزه ذلك ، إلا أن يضلله مضلل ـ اعتمادا على شدة كلفه بمعرفة كل ذلك أو بعضه ـ فيأتيه بمعارف يزعم أنه استقاها من عالم الغيب ، وما هى إلا من خياله ، فيتلقفها منه وينشرها فيمن يتصل بهم. على هذا النحو نشأت المذاهب ، وتنوعت الآراء الدينية ، وكثرت الشروح والتأويلات ، ووجد الغلاة مسرحا لخيالاتهم فلم يقفوا منها عند حد . فكانت نتيجة ذلك أن تعددت النحل حتى أصبحت تعد بالمئين . فلما جاء العلم وأدرك مواطن الضعف فيها ، وأمكنة الخيالات منها ، أعلن كفره بها ، وتبعه فى كفره كل من يحتك به أو بأهله ، وقد أصبحوا يعدون فى كل أمة بالملايين ، وانعزلت الثقافة العلمية عن الثقافة الدينية ، لما بينهما من البون الشاسع فى القضايا والأقيسة والمسلمات ، حتى آل الأمر الى اقتصار الأديان على ممثليها ومن استنام اليهم ممن لا يمتون الى العلم بسبب !

احتاط الاسلام لهذه الفتنة العلمية فأكثر من الاهابة بأهله الى التعلم ، ومن نهيهم عن الأخذ بالأوهام والظنون ، وحرم عليهم التقليد بدون نظر، حتى قرر بأن إيمان المقلد غير مقبول. وزجر عن الأخذ بظاهر الألفاظ فيما ليس فى وسع التصور أن يبلغه ، ولا فى قدرة العقل أن يدركه ، معتبرا المجازفة فى هذه السبيل زيغا عن الحق ، وابتغاء للفتنة ، فقال تعالى: «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » ، ومعنى هذا أن من آيات الكتاب محكمات العبارة لا تحتمل التأويل والاختلاف فى تعقلها ، هى أصل الكتاب ، ومنها آيات متشابهات أى محتملات للتأويل ، فالذين فى قلوبهم انحراف عن الحق يحاولون تأويلها بقصد إثارة الخلاف عليها ، طلبا للفتنة بتشكيك الناس فى الدين ، أو لصرفها لمعان لا أثر لها إلا فى خيالهم ، والحال أن هذه الآيات لا يعلم تأويلها إلا الله وحده .

بهذه الآية صُدَّت موجة الخيالات الدينية عن الاسلام ، واحتفظ أهله بأصوله الأولية سليمة من التشويش والارتباك ، ولم يتردَّوا كما تَرَدَّى أهل الملل الأخرى فى حمأة الأضاليل والخزعبلات .

إذا عُلم هذا فلا محل لقول حضرة الكاتب : « فاذا كان لا يعلم أحد تأويل آية بالقرآن خاصة بوصف شخصية المسيح الفذة الفريدة فى التاريخ ، فماذا يمنعنا من الالتجاء الى كتب الله التى يشهد القرآن بصحتها وفيها إيضاحات أكثر صراحة ونورا وهداية عن تلك الشخصية ؟ »

نعم لا محل لهذا القول ، وذلك من وجوه :

(أولها) أن شخصية المسيح ليست محل شك عند المسلمين ، لأن الكتاب الكريم قرر فى عشرات من الآيات أنه رسول من المرسلين لا يمتاز عنهم إلا فى أنه خلق على غير السنة المعروفة ، وَبَيَّن أن هذا ليس بموجب له امتيازا ، كما لم يوجب خلق آدم مباشرة امتيازا له على النبيين : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

(ثانيها) لأن البنوة لله لم تكن موضوع جدل عند أهل القرآن أصلا ، لنفيه إياها نفيا لا هوادة فيه ، وتشديده فى التشنيع على هذا القول مالم يفعله فى التشنيع على سواه ، فقال للذين يقولون به : « لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هَدًّا » .

(ثالثها) لأن القرآن يذكرها ويشنع على الذين فهموا من كتب الله هذا الفهم السيئ ، ويعلن بأنهم خارجون عليها ، فكيف يرجع المسلمون اليها فى أمر يصرح قرآنهم بأن النصارى منه على خطأ عظيم ؟

تقولون يجب أن يرجع المسلمون لنعرف شخصية عيسى الى الكتب السماوية السابقة .

ونحن نقول : قد رجع اليها رجال البحث من المسيحيين فلم يجدوا فيها مستندا لما يقول به جمهور القائلين بها . جاء فى دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية فى مادة (روح القدس) ما ترجمته :

« جاء لفظ روح الله ونفخة الله فى التوراة ولم يقصد بها إلا أصل القدرة الالهية ، أو طريقة تأثير تلك القدرة . فجاء فى التوراة أن الأرض فى أول تكونها حين كانت خالية مجللة بالظلمات ، كان روح الله يتحرك على مياهها . فلما سوى الله الانسان من الطين نفخ فيه من روحه فاستوى بشرا سويا ، ثم سحب روحه منه فعاد طينا كما كان أولا ، ولكن الله أعاد عليه روحه ثانية . ومن نفخة الله أو روحه نشأت جميع الكائنات الأرضية . وجاء فى مواطن أخرى من التوراة مايدل على أن روح الله كانت تعنى فى معرض آخر أصل حكمة الله وتنزهه ،

ولم يرد فى كتب اليهود ما يؤخذ منه أنهم كانوا يعتقدون بأن للروح القدس شخصية متميزة ، أو أنه أقنوم من الأقانيم المؤلفة لله كما هو عند المسيحيين .

« وقد جاء فى الأناجيل ذكر الآب والابن والروح القدس ، ولكنه لا يوجد فيها إشارة ما الى التثليث ، ولا الى ما يشير اليه علم اللاهوت اليوم . فالاله الذى كان يتكلم عنه عيسى عليه السلام وحواريوه هو الله الواحد رب الأنبياء والأولياء ، الذى تجب له العبادة وحده . وكان عيسى عليه السلام يدعو هذا الاله بالآب ولا يدعو ربا سواه » .

وجاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر فى هذا الصدد :

« عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة فى كتب العهد الجديد (الانجيل) ، ولا فى أعمال الآباء الرسوليين ، ولا عند تلاميذهم الأقربين ، فان الكنيسة الكاتوليكية والمذهب البروتستانتى يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمان رغما عن أدلة التاريخ الذى يرينا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف نمت ، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك .

الى أن قالت الدائرة :

« إن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه ، وسمعوا قوله ، كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المؤلفة للخالق . وما كان بطرس حواريه يعتبره أكثر من رجل يوحى اليه من عند الله . أما بولس فانه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى ، وقال : إن المسيح أرقى من إنسان ، وهو نموذج إنسان جديد ، أى عقل سام متولد من الله ، وكان موجودا من قبل أن يوجد هذا العالم ، وقد تجسد هنا لتخليص الناس ، ولكنه مع ذلك تابع لله الآب » انتهى .

٢ — معنى قوله تعالى : « فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » :

استند حضرة تادرس افندى مسيحة فيما قاله من وجوب سؤال أهل الكتاب فيما يحتاج الى تأويل من القرآن ، على قوله تعالى : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ، وأتبعها بوجه من تفسيرها عن البيضاوى ، ومؤداه : فاسألهم عما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء .

والسؤال عن القصص لايقتضى السؤال عن كل شىء ، وخاصة فى المتشابه الذى يصرح الله تعالى بأنه لا يعلم تأويله غيره ، لقصور العقل العادى عن تناول الشئون العلوية والروحانية .

وكيف يعقل أن يُكلف المسلم بسؤال أهل الكتاب فى شىء من أمور الدين ، والقرآن قد تصدى للرد عليهم فى كل ما هم عليه من عقائدهم الرئيسية ، وتقاليدهم الاجتماعية ، الى سيرتهم الشخصية ، ومعاملاتهم اليومية ، ودعاهم الى الرجوع اليه فى تصحيح عقائدهم ، وفض خلافاتهم ، وتقويم سيرتهم ؟

على أن من يعرف أساليب اللغة العربية يدرك لأول وهلة أنه ليس المراد من هذا التعبير أن يسأل النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب ، ولكن المراد منه تلوين الكلام تلوينا بيانيا لتأكيد صحته فى ذهن التالى والسامع .

٣ — الكلام فى تحريف الكتب السماوية :

يقول حضرة تادرس افندى مسيحه : « لو تأمل كل عاقل حصيف فى الآية : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، لما اجترأ على رمى كتب الله بشىء مما له يفترون الخ » .

ونحن نقول : إن الآية المذكورة هنا نزلت فى الكتاب الذى تطلق عليه كلمة الذكر وهو القرآن ، لا على جميع كتب الله .

فأما التوراة فقد أثبت النقد التاريخى أنها قد كابدت تحريفا عظيما ، بل قال النقاد المسيحيون : إن التوراة المتداولة الآن قد كتبها كتاب عديدون فى أزمنة مختلفة . وصرحت طائفة من مصلحى اليهود بأن هذه التوراة قد حُرِّفت ، وقد أورد مذهبهم حاخام باريز (جوليان ويل) Julien Weill فى كتابه (اليهودية) Le Judaïsme . ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود .

ومما يزيد فى قيمة هذه الشبهات أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام غير موجودة . وهذا أمر معترف به من الكافة .

وللمسلمين أسلوب فى تناول كلام الله طبعه دينهم فى عقولهم لا يقبلون سواه ، وهو أن يجىء عن رسوله مباشرة بطريق التواتر الذى يؤمن معه التحريف ، أى أن يكون قد سمعه منه جمهور من العدول ، ونقله عنهم جمهور مثله فى كل جيل . وهذا الشرط معدوم من التوراة ، ومن جميع الكتب السماوية السابقة . فلا يستطيع المسلمون أن يعتقدوا بصحة نسبة كل ما فى تلك الكتب الى الله ، وخاصة إذا كان النقد التاريخى قد أثبت ذلك ، وشهد بحصول التحريف حسيا التخالف الموجود بين الأناجيل ، وتوراة النصارى وتوراة اليهود .

أما ما ورد فى القرآن الكريم من أنه جاء مصدقا للتوراة والانجيل فمعناه أنه مؤيد للحق الذى فيهما من عبادة الله وحده ، والايمان برسله واليوم الآخر .

أما الإنجيل الذى يعنيه القرآن الكريم ، فهو الكتاب الذى نزله الله على عيسى عليه السلام لا الكتب المتداولة بين النصارى الآن وهى أربعة ، اختيرت من نحو سبعين أخرى ، وقد وجد فى مكتبة أحد الأمراء فى باريز نسخة تحت اسم إنجيل برنابه ، وقد طبع وترجم الى العربية ، وفيه خلاف كبير للأربعة الأناجيل المعتمدة . وهذه الأناجيل كتب سيرة عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون ، وأسماؤهم مكتوبة عليها . ولا مانع من أن القرآن الكريم يقصد من الانجيل

ما ورد فيها من تعاليم عيسى الموحاة اليـه من الله . وقد رأيت مما ترجمناه فى الفصل الأول أن هذه التعاليم لا يؤخذ منها ما يدين به أ كثر النصارى من المعتقدات .

وعليه فـكل ما ورد فى القرآن الـكريم من أنه جاء مصدقا للتوراة والإنجيل فمعناه أنه مؤيد للحق الذى فيهما من عبادة الله وحده ، والإيمان برسله واليوم الآخر وإقامة الحق ، والتخلق بمكارم الأخلاق ، وليس معناه الأخذبما ألحق بهما من الآراء البشرية ،والتأويلات الخيالية ،وإلا فبم يمكن تعليل ماورد فى الـكتاب الـكريم من نقد معتقدات أهل الـكتاب ، ونقض مذاهبهم ، وتجريح سيرتهم ، والاهابة بهم للرجوع الى نصوص كتبهم ، لا الى شروح قاداتهم ، قال الله تعالى : « قل يأهل الـكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل اليكم من ربكم » ، أى حتى تعملوا بأصولها خالصة من شوائب الآراء البشرية والتأويلات الوهمية ، فقد كانوا خرجوا الى متاهات من الأوهام لا تقرها تلك الأصول ، وقد أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليبين لهم وللناس كافة حقيقة الدين ، ويرسم لهم طريق الحق المبين ، قال الله تعالى : « يأهل الـكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لـكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شىء قدير » .

٤ — كيف يمكن التوفيق بين نفى القرآن للعقائد المسيحية وبين النص بأنه جاء مصدقا لها ؟

يقول حضرة تادرس افندى :

« القرآن ينفى عقيدة التثليث والبنوة والصلب ولاهوت المسيح ، ويقرر صراحة صحة التوراة والإنجيل ويأمر بالرجوع اليهما فى فهم ما أشكل فهمه على النبى وعلى أمته ، فهاهما التوراة والإنجيل يصرحان بصحة تلك العقائد التى ينكرها القرآن فما الحل لهذا الاشكال ؟ »

نقول فى الجواب على هذا الاستشكال : أما أن القرآن يأمر بالرجوع الى التوراة والإنجيل فى فهم ما أشكل فهمه على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، فليس بصحيح ، وقد بينا عدم صحته فيما كتبناه عند كلامنا على التأويل تحت رقم ١

أما قوله : إن التوراة والانجيل يصرحان بصحة تلك العقائد ، فقد تبين لك من ذلك الفصل نفسه أنه ليس بصحيح أيضا ، وقد نقلنا ذلك عن المسيحيين أنفسهم ، وقد قرر نقدتهم أن تلك العقائد هى رأى بولس دون سائر الحواريين رضى الله عنهم ، ودون أقرب الأقربين الى عيسى عليه السلام ، فليُراجع ذلك الفصل هنا .

٥ — نقد ما أورده حضرة الـكاتب على لفظى روح وكلمة :

قال حضرة تادرس افندى : إن لفظى روح وكلمة : يجوز إطلاقهما على الله لورودهما فى الانجيل فى قوله : (الله روح) وقوله (فى البدء كان الـكلمة ، والـكلمة كان عندالله ، وكان الـكلمة الله) .

نقول : المسلمون بحكم قوله تعالى : « ليس كمثله شىء » لا يستطيعون أن يطلقوا على الله لفظا يعبر عن محسوس إلا على سبيل التجوز ، منزهين الخالق عن معناه المتصور فى الذهن تفاديا من أن يقعوا فى التشبيه والتعديد ، وهذا منتهى ما يمكن أن يبلغه التنزيه الذى لا تجد أرقى فلسفة فى الأرض سبيلا الى تجريحه . فهم إذا صادفوا حتى فى كتابهم الكريم لفظا مطلقا على الله مهما بلغ من سمو الدلالة على الأمور المحسوسة ، يعمدون الى تأويله ، ليرتفع عن مستوى الأشياء المدركة بالمشاعر أو المتصورة فى الأذهان ، وفاء لواجب التنزيه المطلق . مثاله قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » ، لا يستطيع المسلمون بناء على وروده فى القرآن أن يقولوا إن الله نور ، كما لا يستطيعون أن يقولوا : إن الله روح أو كلمة ، لأن ذلك كله ينافى الأصل الأصيل فى التنزيه الذى فرضه الله على العقول فى قوله : « ليس كمثله شىء » . قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية المتقدمة :

النور بمعناه المعروف « لا يصلح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف ... أو على تجوز ، إما بمعنى منور السموات والأرض ... أو مدبرهما ... الخ » .

وسبب تشديد الاسلام فى الزجر عن تناول الكلام عن كنه الخالق الى هذا الحد ، أن العقل لتقيده وقصوره لا يستطيع أن يدرك الاطلاق واللانهاية اللذين يقتضيهما مقام الألوهية ، فهو مهما اشرأب الى السمو ، وتكلف إدراك الاطلاق ، وقع فى التجسيم والتشبيه لا محالة ، لأن كل مدركاته منتزعة من عالم الحدود والنسبيات المادية ، فهو إن أجهد نفسه فى تصور الخالق فاما أن يهتدى الى شىء يتخيله لائقا بمقام الربوبية وليس به فى الواقع ، وإما أن لا يهتدى الى شىء ، لمبالغته فى تطلب الاطلاق ، فيقع فى الالحاد ولا كرامة .

وقد ثبت أن كل ما اهتدى اليه الناس بعقولهم من الأحكام فى ذات الخالق لا يقوى على النقد ، ولم يكن من أثره إلا أنه فرّق الناس شيعا ، وجعل بعضهم أعداء بعض ، ولم تصب الأديان بأشد مما أصيبت به من هذه الناحية ، فقد سوّغت هذه الشهوة لزعمائها أن يلجأوا الى وصف بعض آيات كتبهم بأنها رموز وأسرار ، وأن يخولوا أنفسهم حق تناولها بالشروح والتأويلات ، ومتى ساغ قبول مبدأ الرمز فى الأديان اتسع من ورائه المجال للخيالات والأوهام ، وضاع فى مزدحمها المنطق والدستور العلمى ، واعتزل الدين كل من يحترمها وكثير ماهم .

فالاسلام الذى شرع ليكون الدين العام للبشرية ، والسكن الروحى للنفس الانسانية ، والملجأ الدستورى لرفع الخلافات المذهبية ، نصب العقل الناضج حكما بين الحق والباطل ، وجعل العلم نورا يُستهدى به فى المعاضل ، وأقام بينه وبين الأهواء والظنون حجابا منيعا ، حتى لا يتسرب الى أصوله شىء منها فيخرجه من باحة الاطلاق الذى هو فيه الى حيز القيود والحدود .

فلفظ الكلمة التى ألهها النصارى وجعلوا لها شخصية متميزة ، لا تعنى عند المسلمين إلا إرادة الله أو علمه أو قدرته على حسب ما تسند اليه ، ولا يستطيع مسلم اعتمادا على عبارة غامضة مثل : (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) أن يفهموا منها أنه كان مع الله غيره ، أو ابن له أزلى مثله . ولو كانت وردت فى كتابهم لصرفوها عن مدلولها اللفظى بحجة أنها توجب التعدد ، والتعدد لا يقبله العقل ، وتدحضه كل فلسفة وعلم .

وأما قول حضرة الكاتب : « إن الله يشترك مع المخلوق فى صفات ، فكما أن للمخلوق ذاتا فلله ذات ، والانسان حى بواسطة روح ، فلماذا لا يكون لله روح مادام حيا ، إذ لا يصح أن نقول هو حى بلا روح الخ » .

نقول : إن اشتراك الخالق والمخلوق فى الصفات يجب أن يلاحظ معه أمر لو أغفله المتكلم وقع فى ضلال بعيد ، وهو أن ذات الخالق واجبة الوجود ، وصفاته مطلقة تتنزه عن القيود ، وأن كل ما هو موجود ممكن ومستمد منه الوجود ، فشتان بين ذات الله المطلقة الواجبة وبين أية ذات من الممكنات التى لا وجود لها إلا به . فكل مقابلة بين صفات الخالق وصفات المخلوق تؤدى الى تشبيه ليس له مايسوِّغه لا من العقل ولا من الواقع ، وهى تؤدى عادة الى مقررات لا تقف خطورتها عند حد ، كقول تادرس افندى : «لماذا لا يكون لله روح مادام حيا» فلم يفرق بين الحى بذاته ، وبين الحى بغيره ، كما لم يفرق بين واجب الوجود ، وممكن الوجود ، وما دامت هذه التفرقة البدهية غير مرعية ، فلا تسل عما يتولد منها من ضروب التجسيد والتشبيه ، والخلط والخبط ، وقد نتج من ذلك أن تعددت المذاهب والنحل ، وصاغ كل قبيل إلهه وفاقا لخيالاته ، فشرع الله الاسلام رادعا للعقول عن تناول ذات الله بالكلام ، معلنا أنها لن تحصل منه على طائل مهما بذلت من قواها فى هذه السبيل ، فقال تعالى : «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علما » .

وإذا كان الاسلام قد كيَّف عقول أهله ، وطبعها بطابع المنطق الصارم ، بحيث لا تستطيع أن تطلق على الله ما أطلقه القرآن عليه مما يوهم التشبيه أو التجسيد ، فتعمد الى تأويله وصرف معناه عن ظاهر لفظه ، فهل يعقل أن تقبل عقولهم عبارات من هذا القبيل غامضة وردت فى كتب غيرهم ، لاسيما وهى مترجمة عن أصول ضائعة ؟ وهل يعقل أن يأخذوا بشروح لم تراع فيها قواعد المنطق ، ولا أسس الدستور العلمى ؟

٦ — رأينا فيما فسر به الكاتب معنى التثليث :

قال حضرة تادرس افندى فى تفسيره لمعنى التثليث وتبرير القول به : « التثليث فى المسيحية هو إثبات ثلاث خواص ذاتية أو صفات ذاتية لله لا يمكن الزيادة عليها ولا النقص منها ، وهى : الذات والكلمة والروح » . وهذا فى نظر العقل الفطرى ، والنظر العلمى ، من المحالات البدهية .

فان ألفاظ (الذات والكلمة والروح) ليست بصفات ولكنها أسماء لا يوصف بها . ولو جارينا حضرة الكاتب واعتبرنا هذه الكلمات صفات فأين الله الموصوف بها ؟

ومع هذا فهب أن هذه الألفاظ صفات وقلت : الله ذات ، الله كلمة ، الله روح ، مريدا بذلك تعريف كنهه بهذه الثلاث الكلمات لبناء القول بالتثليث عليها ، لم تكن قد فعلت شيئا ، بل لم تكن قد أتيت بتثليث مّا ، وكل ما فيه أنك وصفت الله بثلاث صفات ، والصفات لا يعقل أن تكون لها شخصيات متميزة ، فتبرير القول بالآب والابن والروح القدس لا يمكن أن يتحقق على هذه الصورة . ولو فرضنا المحال وقلنا يمكن أن يتحقق به فلم تكن قد أتيت بأكثر مما تستطيع أن تفعله أية طائفة أخرى ، بتوجيه خيالها الى هذه الناحية ، وإذ ذاك فماذا يكون دليلك على أن تثليثك أحق من تثليثه وأجدر بالأخذ به منه ، ولا سيما إذا كان أسبق منك اليه بألوف من السنين ، كتثليث المصريين القدماء ، أو بمئات كثيرة منها كتثليث البراهمة والبوذيين ، أو أى تثليث آخر قد يجدّ فى مستقبل الزمان ؟

اللهم لا دليل غير التحكم بأن ما أنت عليه هو الحق ، وما عليه غيرك هو الباطل . ولكن هل يُبقى العلم والفلسفة على هذا التحكم ، وأنت ترى أنه قد جرف جميع الخيالات ولم يَبْق ماثلا أمامه لا يقبل الزوال غير التوحيد الخالص والتنزيه المطلق ؟

٧ — تأويله تشديد القرآن فى نفى التثليث :

يعلل حضرة تادرس افندى تشديد القرآن فى تقرير التوحيد بأن الغرض منه معالجة الوثنية العربية بتوحيد لا شائبة فيه الخ ، وهذا التعليل غير وجيه ، فان العرب كانوا قد ألفوا التعديد ، فنَقْلهم منه الى التوحيد الخالص ، أعسر من نَقْلهم الى التثليث . أما رأيت كيف أنهم استنكروا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الى التوحيد ، وهالهم أمره ، حتى قالوا كما جاء عنهم فى الكتاب الكريم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إنّ هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق » .

هذا وقد أرسل إلينا حضرة تادرس افندى مسيحة بملحق لرده علينا لم نستطع إثباته هنا ، فنتدارك ذلك فى العدد القادم ونناقشه فيه إن شاء الله .

محمد فريد وجدى

اللغة العربية بين القوة والضعف

— ٩ —

دعائم الاصلاح

خاتمة البحث :

دراسة القواعد — إصلاح أسلوب الحديث العام فى أندية الأدب والثقافة — إخضاع الأسلوب الصحفى لرقابة لغوية فنية — وجوب سيطرة قواعد اللغة على الأساليب الحكومية — تعميم الأسلوب الصحيح بين طوائف الشعب فى ثنايا مكافحة الأمية

كانت اللغة العربية منذ أدار الله بها ألسنة قومها لغةَ السليقة قبل أن تكون لغة القواعد والقوانين ، وهى بهذا الوضع الطبيعى لغة فطرية شعبية يستوى فى التعبير بها عن غرض الكلام كل فرد من أفراد الأمة دون تمايز بينهم فى صحة الأداء ، فكل عربى يرفع الفاعل ، وينصب المفعول ، ويجر المضاف ، وهلم جرا ، إلا فلتة لسان ، عبر عنها أئمة الاعراب بالشذوذ ، والشاذ لا اعتبار له ، وإنما يقع التفاوت فى خصائص ومزايا وراء الاعراب يرتفع بها شأن الكلام حتى يبلغ الاعجاز ، وتلك الخصائص كانت ولا تزال معترك فحول الفصاحة وأساطين البيان ، وعلى تحقيق ضبطها وتبيين معانيها وتحديد مراميها قام فن البلاغة عند ما نهضت الأمة لتدوين العلوم والفنون .

فلما خرجت الفصحى من معاقلها ، وتجاوزت حصونها الى جانب الفتوحات الاسلامية ، وأصبحت لسانَ الاسلام الذى تتخاطب به أممه قاطبة ، ودارت بها فى الأشداق ألسنة لم تألف صحة أدائها وسداد إعرابها ، انحرفت الى سبيل غير سبيلها ، وسرى فى قناتها عوجُ اللحن ، وتطاول الى ألسنة عربية خالصة حتى نفرت منه الطبائع السليمة والفطر الفاضلة ، وأصبح فى نظر الخاصة سبة الأشراف يتقونه كما يتقون غميزة النبل والمروءة ، فسارع الغُيُر الى وضع القواعد على ضوء السليقة الصافية ، وسيرا فى مهيعها المستقيم صيانة للغة الكتاب الكريم أن تفسدها غمغمة الأعاجم ورطانات المتبربرين .

كان كلما بعُد الزمن بالأمة العربية وأوغلت فى مضائق الحياة مجانبة لفطرتها الأولى ، تركت وراءها فواصل سميكة تفصل ما بينها فى حياتها الجديدة وبين سليقتها فى لغتها ، حتى انتهت بتة الى فقدان تلك السليقة والوقوف فى سفح القواعد المدونة التى نيط تقويم الألسنة

بها وتصحيح الأسلوب بمراعاتها ، ومن ثم انحازت اللغة بعد شعبيتها السليقية الى أحضان طائفة خاصة ، هى طائفة النحويين ، وانحصرت معرفتها فى دائرة ضيقة ، هى دائرة القواعد النحوية ، وانفصمت الصلة بين الشعب ولغته ، وارتضخ الناس لهجات تعددت بتعدد العناصر والأجناس التى انضوت تحت راية الاسلام ، وتكلمت شعوب العربية لغات كانت مزيجا من لحن العربية وتحريفها وما أقحم عليها من ألفاظ أجنبية تدحرجت اليهم بالجوار والمخالطة .

بقيت الفصحى فى ظل القواعد تدرس فى المعاهد والمدارس فى الأقطار العربية دراسة نظرية لم تكن لها قيمة عملية فى تقويم الألسنة وتصحيح أساليب الحديث والخطابة ، بل لقد كانت عديمة القيمة فى السيطرة على أسلوب الكتابة القائم على الأناة والملاحظة والتفكير ، وكأنما وقر فى النفوس أن علم العربية وقواعدها شىء يدرس فى بطون الكتب ووراء جدران المدارس والمعاهد دون أن يكون له سبيل على الكلام يعدّل أسلوبه ويصحح أغاليطه ، حتى لقد اشتهر عن كثير ممن درس علم العربية وتبحر فيه أنه ما كان يستطيع أن يكتب رسالة فى شأن من شئون الحياة اليومية ، ولا كان يستطيع أن يقيم جملا مستقيمة فى الحديث ، بَله الخطابة .

وبقيت الشعوب العربية بلا رابطة لسانية تجمعها ، فتفرقت كلمتها ، وانحلت عراها ، ومزق الطامعون من ذؤبان الاستعمار أديمها تحت أسماء سموها ، ودويلات مستضعفة أقاموها لا تغنى فى عزة السلطان وكرامة الحياة شيئا ، فلما تنبهت حمية القومية فى روح الأمة العربية وشعرت بضرورة تعاون شعوبها تعاونا أدبيا ، قامت كلها تنادى بتوحيد الثقافة العربية تحت لواء الفصحى ، وكانت هذه الأفكار تتطلب العمل القوى على إنهاض اللغة العربية وإحياء مجدها ليتسنى لها أداء رسالتها الثقافية ، ولتكون أداة علمية يعتمد عليها فى نشر الثقافة بين جماعات الأمم العربية ، وكان لمصر لواء القيادة فى هذه النهضة ، فتقدمت فى طريق الاصلاح تحمل المشعل لتنير السبيل أمام شقيقاتها المترسمات خطوها ، وكان من الطبيعى أن تتجه الأفكار الى النظر فى قواعد اللغة وبرامج دراستها لتوجيهها وجهة تحقق لها السيطرة على الأساليب من طريق علمى صحيح فى يسر وغناء ، ومهما يكن رأى الباحثين فيما صادف هذه الحركة من توفيق أو خيبة ، فانها كانت برهانا صادقا على الاحساس بالعلة ، واليقظة التامة والشعور بضرورة العلاج المصلح ، وليس من النصفة أن نطلب العصمة فى قضية طال أمد تعقيدها ، واكتنفتها ظروف اجتماعية كانت تزيد فى تعاصيها ، وتزيد الأمة بعداً عن إدراك وجهة الاصلاح فيها ، وإنما نطلب فى صدق وإخلاص ألا تسوقنا السرعة الهوجاء الى تقرير الخطأ وإلباسه ثوب الحقيقة ، فان ذلك مما يباعد بيننا وبين الاصلاح المنشود .

وقد ألمحنا فى مقالنا السابق الى عدم صلاحية مشروع « تيسير القواعد » الذى لجأت اليه الوزارة كأداة للإصلاح اللغوى فى برامج الدراسة المدرسية ، وقد ساقت إلينا مطالعاتنا

كلمة منصفة للاستاذ « مرغليوث » وهو من علماء المشرقيات المشهورين ، ونحن نثبت منها ما يتصل بموضوع بحثنا لعل أصدقاء العربية المجددين يؤمنون بمذهب الغرب فى لغة الشرق بعد أن لم يؤمنوا بمذاهب الشرق فى نفسه ، ويصدقون أن قواعد الفصحى ليست فى أدنى الحاجة الى بدعة « التيسير » الذى يقلب أوضاعها ، وإنما بها أشد الحاجة الى إعداد الأذهان لدراستها وفهمها ، وبها أشد الحاجة الى إعطائها قسطها اللائق من الزمن الدراسى ، وبها أشد الحاجة الى وضع أبوابها فى برامج الدراسة على نظامها الطبيعى الذى ولدت وترعرت عليه ، وبها أشد الحاجة الى الملاءمة بينها وبين السن التعليمية لفرق الطلبة فى الأسلوب والموضوعات . فقد نشرت مجلة « زهرة الشرق » محاضرة ألقاها هذا الباحث المستشرق بمحط الاذاعة فى لندن قال فيها : « ولقد أدهشنى ما قرأته فى إحدى المقالات لكاتب يقترح حذف كثير من مصطلحات النحو القديمة وتسهيل قواعده لكى يسهل تعليمه فى المدارس مع أن اللغة غنية واسعة ، ويجب أن ألاحظ — من غير انتظار للنقد الذى ستثيره تلك المقالة فى البلاد التى لغتها الأدبية هى اللغة العربية — أن الغرض من تعليم النحو وفقه اللغة ليس هو القدرة على كتابة اللغة فحسب ، بل المقدرة على قراءتها أيضا ، فالنحو الذى يستعمله الكتاب فى مؤلفاتهم التى توجد بين أيدينا بالمئات والآلاف إنما هو نحو سهل لا يسمح بتسهيله أكثر من ذلك ... وعلى هذا فإدخال نظام تسهيل النحو المقترح لن يوفر على الطالب عناء دراسة النحو الذى استعمله الكتاب قديما بل هو على النقيض من ذلك يثقل حافظة الطالب بمجموعة جديدة من القواعد » .

هذا صوت من الغرب يردد صدى علماء الشرق وأدبائه من أئمة اللغة العربية منذ ألف قرن ونيف ، فهل يسمع أنصار بدعة تيسير القواعد الى صوت هذا المحامى الأجنبى عن اللغة العربية وقواعدها ؟ لعل وعسى !!

أجل : إن إنهاض اللغة يعتمد فى أساسه منذ فقد العرب سليقتهم على إنهاض دراسة القواعد دراسة عملية تطبيقية ، وهذا يكفى فى تحقيقه وضع نظام للقواعد يرتب فنونها وأبوابها ترتيبا يقربها الى الأذهان الناشئة ، ويلائم بينها وبين أسنان الطلبة التعليمية ، وهو النظام الذى تأخذ به الجامعة الأزهرية ، فهى من جهة ترتيب الفنون تدرس أول ما تدرس من فنون العربية فن النحو حتى يأخذ الطالب صورة عن القواعد وصلتها بالأسلوب ، وعندئذ يشترك معه فن الصرف إجمالا أولاً ، وتفصيلا بعد أن يستد ساعد الفكر العلمى لدى الطلبة ، ثم يأتى دور البلاغة بفنونها وقد ألف الطالب كثيرا من الأوضاع العربية وتذوق شيئا من الأساليب الأدبية كتمهيد لفهم البلاغة وتحقيق الغرض منها ، ويساير البلاغة العروض والقافية .

وفى ترتيب أبواب الفنون نضرب المثل بفن النحو ، ففى أول فرقة للقسم الابتدائى

تدرس « الأجرومية » مشروحة شرحا لطيفا ، وهى رسالة مشهورة معروفة على صغر حجمها تلم بفن النحو إلماما يصور للطالب موضوع الفن وأبوابه ومباحثه على سبيل الاجمال ، ثم تأتى الفرقة الثانية وفى ذهنها تلك الصورة عن النحو فترقى درجة الى دراسة « الازهرية » وفيها زيادات فى المباحث وتوسعة فى المسائل بما يناسب استعداد الطالب وما حصله من مسائل الفن ، وتدرس الفرقة الثالثة « القطر » وتدرس الفرقة الرابعة « الشذور » وكلاهما لابن هشام ، وهو من أيمن المؤلفين فى هذا الفن وأبرعهم ، ثم يرتفع الطالب الى دراسة ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل أولا ، وتوضيح ابن هشام ثانيا ، وشرح الأشمونى ثالثا ، حتى ينتهى الى دراسة المغنى ومفصل الزمخشرى بشرح ابن يعيش فى مرحلة التخصص والدقة والتحقيق الفلسفى للقواعد وعللها ، وهذا كما يرى المنصفون من أسدّ الأنظمة الدراسية وأحكمها وأوفقها بالتدرج والترقى الفكرى لمراحل التعليم ، وعلى هذا النهج التدريجى يدرس الصرف ، وإذا كانت لنا ملاحظة فهى أننا نود لو أن الأزهر الحديث أضاف الى برنامجه النحوى حصة أسبوعية فى نحو « الكامل » للمبرد أو « أمالى » القالى أو « أمالى » الزجاج حتى يكون ذلك غاية الغايات فى التطبيق الأدبى لفن النحو ، وفيه تعويد على أساليب المتقدمين من الأعلام .

فلو أن قادة النهضة الاصلاحية فى وزارة المعارف صدقوا الارادة فى إخلاص ، لمدوا أيديهم الى هذا البرنامج الأزهرى وجعلوه عماد الاصلاح فى مدارسهم ، فانه لا يكلفهم سوى تبسيط الأسلوب وتجديد الأمثلة والتطبيق الأدبى بما يساير عصريتهم ، وهذه الفكرة فوق أنها تحقق الغرض من الاصلاح تقرب مابين الأفكار المعهدية ، وتؤدى الى توحيد الثقافة العربية فى معاهد الأمة ومدارسها .

نحن لا نقول إن برنامج الدراسة فى الجامعة الأزهرية يجب أن ينتقل بقضه وقضيضه الى مدارس الوزارة ، إذاً نكون قد أبعدنا فى صحراء الخيال وكلفنا الوزارة شططا ، لأننا على يقين من الفوارق الدراسية والفكرية والتكوينية بين طلاب الجامعة الأزهرية وطلاب المدارس الحكومية ، ولكن الذى نريد أن نقوله : إن من الخير لوزارة المعارف أن تستضىء فى برامجها العربية ببرنامج الأزهر وتأخذ منه ما يتفق مع حالة مدارسها .

بقى أن نشير الى أن الأزهر الحديث قد خطا فى سبيل تقريب البلاغة وتحقيق الغرض من دراستها خطوة صالحة ، فقد جرد برنامجه الدراسى فى البلاغة من المباحث الفلسفية التى أقحمت على البلاغة إقحاما ولم تكن منها بسبيل ، ولم يبق أمام الأزهر للوصول الى القمة فى دقة برنامجه البلاغى سوى أن يعنى بتقرير كتب تطبيقية الى جانب كتب القواعد ، ولا يغنى عن ذلك فرض حصص تطبيقية ترجع الى اختيار المدرس ، فان ذلك الى كونه يضعف فى الطالب الاعتماد على النفس والاستقلال فى التوسع الدراسى ، يؤدى الى ذبذبة الروح التطبيقى عند الطلاب ،

لأن المدرسين ، وهم كثرة فى المعاهد الدينية ، يختلفون من غير شك فى مشاربهم واختياراتهم ، وأوشك أن أقول : ونشاطهم ، فاذا قرر كتاب خاص مثل « الصناعتين » أو « المثل السائر » أو « العمدة » أو « الأقصى القريب » للتنوخى مع كتاب السعد والايضاح ، كان فى ذلك إنماء للملكة الأدبية ، وتحقيق للغرض الأعلى من البلاغة .

وهناك فكرة تتعلق بدراسة الأدب لها قيمتها فى ترسيخ القواعد والوصول بها الى الغاية منها ، ذلك أن الدراسة الأدبية غلبت فيها روح تاريخ الأدب على نفس الأدب ، تأثرا بمناهج الاستشراق ودراسة الآداب الأوربية ، وكان من أثر ذلك أن ضؤل محفوظ الطلبة من الأدب شعرا ونثرا ، وضعفت عندهم ملكة فهم النصوص . والرأى أن نرجع بدراسة الأدب الى مهيع أئمة العربية وأدبائها ، فنجعل العمدة فيها على النصوص . مقسمة على العصور المختلفة ، وبحث تلك النصوص بحثا يقوم على جعلها معرضا للقواعد النحوية والصرفية والبلاغية وتنبيه الشعور الى النقد الأدبى ، وإيقاظ المحافظة لتعرف مناشئ الجمال الفنى فى الكلام ، مع الالماع الى أوزان الشعر فى العصور المختلفة وطرق الالقاء عند الانشاء .

هذا ما نستخلصه فى توجيه دراسة القواعد وجهة الاصلاح المفيد والتيسير الجادّ ، استفدناه من التجارب والبحث والاطلاع على أفكار من يعنون بانهاض اللغة العربية ، ومن مارسوا دراستها وجاسوا خلال مباحثها فعرفوا — كما يقول مرغليوث — سعة انتشارها ورشاقة تعابيرها ، ودقة تراكيبها ، وغناء مفرداتها ، وسعة نحوها الذى يجد فيه الباحثون تعليلا وتفسيرا لكل ما يواجههم من التراكيب الشاذة فى اللغات السامية الأخرى .

هنا تنتهى مهمة الاصلاح المدرسى الذى يدور حول القواعد والانتفاع بها فى السيطرة على الأساليب ، وهى فى الواقع مهمة — على خطرها — محدودة النتائج إذا قدر لها النجاح ، فانها لا تعدو فى النهاية أن تصلح ألسنة طائفة من الأمة العربية ، هى طائفة المتعلمين ، وهؤلاء قلة قليلة الى جانب سواد الأمة فى أقطارها ، والهمة الواجبة فى الاصلاح اللغوى أن نمد رواقه الى ألسنة ذلك السواد الأعظم حتى يتلقن لغته الفطرية خالية من شوائب اللحن ومعايب التحريف .

قد يبدو هذا الرأى أقرب الى الخيال الفضفاض منه الى الحقيقة النيرة ، إذ كيف ومتى يمكن تقويم ألسنة العامة بعد أن مرنت على اللحن والتحريف وأصبح ذلك سليقة لها ؟ ولكن شيئاً من الأناة والتفكير الهادئ يرينا أن هذا فى مناط الامكان لو وجد عزائم ثاقبة وجهودا متضافرة من طوائف المتعلمين تؤازرها الحكومة بمصالحها المختلفة المتصلة بجماهير الشعب ، وتؤازرها أيضا الجماعات الثقافية الكثيرة ، وسالمع هنا الى ما يصلح أن يكون

أساسا فى طريقة تنفيذ هذه الفكرة مع الاعتراف بأنها ليست سريعة الاثمار ، ولكنها إذا أثمرت كان نفعها محققا وبلسمها شافيا :

١ — إصلاح أسلوب الحديث العام فى أندية الثقافة :

فى جميع الأقطار العربية تقوم جماعات ثقافية ، علمية ، وأدبية ، ودينية ، وسياسية ، واجتماعية ، لها أندية يجتمع فيها أعضاؤها وروادها ، وتلقى من فوق منابرها خطب محضرة ، ومحاضرات محبرة ، بأساليب تبلغ من الفصاحة وتخير الكلم مبلغا قويا ، وهذه الأندية فى الغالب تضم فى عضويتها النخبة الفاضلة ، ويرتادها من غير أعضائها أخلاط من الناس يختلفون فى مداركهم وثقافتهم ، وكثيرا ما حشد العامة أنفسهم فى ساحات تلك الأندية ليفيدوا علما ، أو ليسمعوا رأيا ، ولاسيما فى ذلك جماعات الاصلاح الدينى ، والوعظ والارشاد ، فانها أحب الى العامة وهم أكثر زوارها ، فلو أن تلك الجماعات الثقافية أخذت نفسها بقدر استطاعتها بوجوب تحدث أعضائها فيما بينهم بأسلوب صحيح بعيد عن اللحن ومجانب للتحريف فى غير تقعر وتشادق ، ثم أخذوا زوارهم فى رفق وأسوة الى أن يذهبوا فى أحاديثهم مذهبهم ، لو أنهم صنعوا ذلك لكان منه على مدى الأيام تعويد لكثير من الألسنة على صحة التعبير وجمال الحديث ، ولانتشر بين الطبقات المقلدة التكلم بالأسلوب العربى الصحيح .

وقد أخذ الأزهر الحديث هذا السمت منذ نهضته المباركة ، فقد نشر على مدرسيه منشورا ينبههم الى ضرورة مراعاة الأسلوب الصحيح فى تدريس المواد ، ولا سيما مواد اللغة العربية ، وها هى ذه وزارة المعارف تمشى فى أثره موجهة مدارسها هذا التوجيه المفيد ، فقد أذاعت منذ مدة خطابا على مراقبيها ومفتشيها ونظار مدارسها خاصا بمراقبة استعمال اللغة الفصحى فى دراسة جميع المواد أدبية أو علمية ، وقد بقيت مهمة الأساتيذ هنا وهناك فيما بينهم وبين تلاميذهم بعيدا عن لحظات الدرس ، وليس من العسير عليهم أن يحاولوا ما حاولوه فى دروسهم حتى تستقيم لنا ألسنة فصيحة وبيان عربى مبين لا نستبعد أن يجعله المران الطويل سليقة أو قريبا منها ، فان اللغة لهجة وحديث قبل أن تكون قواعد وقوانين .

٢ — إخضاع الأسلوب الصحفى لرقابة لغوية فنية :

من الحديث المعاد أن نقول إن الصحافة هى المدرسة الشعبية العامة التى تهذب أفكار الشعوب ، وتثقف عقولهم ، وتغذيهم بأخبارها وأحاديثها ومقالاتها ، وقد أصبحت قراءتها عند كثير من الناس ضرورية يتلقفونها بلهفة ، ويصغون اليها بعناية ، فأفادوا منها فوائد أدبية وعلمية واجتماعية ، وإن كثيرا من الناس لم يعرفوا للمدرسة بابا ، ولكنهم أدمنوا قراءة الصحف فصاروا يكتبون ويخطبون بأساليب أهل العلم والثقافة الذين لازموا المدرسة أحقابا ،

ولا شك أن الصحافة مع تقدمها ورقى أسلوبها لا تزال فى حاجة الى رقابة لغوية فنية ، لأننا إذا استثنينا بعض كبريات الصحف فى جملتها ، واستثنينا بعض المجلات الأدبية والعلمية ، وجدنا كثيرا من الصحف والمجلات الأخرى ينزل بأسلوبه الى اللحن الفاحش والتحريف السقيم ، وقد اتخـذ بعضها اللغة العامية لهجته الخاصة ، وجعلها لسانه الأول ، والجمهور أشد إقبالا على أمثال هـذه الصحف اللحانة المحرفة ، والخطأ أسرع الى النفوس من السيل فى منحدرات الأودية . واتقاء لهذا الشر الوبيل ومماشاة لنهضة الاصلاح اللغوى يجب أن تخضع أساليب الصحف على اختلاف أغراضها ومشاربها لرقابة فنية لغوية تكون مهمتها الاشراف العام على كتابات الصحف من الوجهة العربية ومراعاة قواعد الأساليب الفصيحة ، وطبيعى أن يسبق ذلك حظ الـكتابة باللغة العامية ، وتستطيع جمعية الصحافة أن تجعل من برنامجها هذه المراقبة التى ترتفع بالصحافة عن مصاف أنصاف العامة الذين يتخذون مهنة القلم دريئة تعصمهم من أن تقذف بهم طبائعهم الى أماكنهم من الحياة ، والحـكومة ، وفى يدها الإذن باصدار الصحافة ، من حقها بل من واجبها أن تشترط فى إذنها مراعاة فصيح الأساليب فى التحرير ، وليس هذا بأقل أهمية من شرائط أخرى ألزمت بها الحـكومة الصحف فقامت بها ، عندئذ تستطيع صحافتنا العربية أن تقوم بخـدمة اللغة وأن تؤدى واجبها فى مهمة الاصلاح ، ويأخـذ عنها الشعب أسلوبا عربيا صحيحا فصيحا تعتاده الألسنة والأقلام ، ويصبح لسان الحديث والـكتابة على حد سواء

٣ — وجوب مراعاة قواعد اللغة فى الـكتابات الحـكومية :

للـكتابات الحـكومية قسط كبير فى الاصلاح اللغوى لو أن الحـكومة عنيت به عناية خاصة ، ذلك لأن اللغة العربيـة هى اللغة الرسمية التى يجب أن تسيطر بقواعدها على محررات الحـكومة وكتاباتها فى جميع مصالحها ، ولا يسوغ أن تـكون الرسائل الرسمية والمـكاتبات الديوانية محلا للحن والخطأ اللغوى ، لأنه إذا قبل ذلك فى الأيام الخالية ، أيام الجهالة الغاشية ، فلا يصح أن يبقى له أثر فى هذا العصر الذى انتشر فيه العلم وارتقت الحياة الأدبية فى الأمة ، وهذا من أهم واجبات الحـكومة التى تحرص على رعاية القومية .

٤ — نشر الأسلوب الصحيح بقدر الاستطاعة فى ثنايا مكافحة الأمية :

خير مشروع فكر فيه الشباب المتعلم هو مشروع مكافحة الأمية والقضاء على الجهالة ونشر الثقافة بين طبقات الشعب ، لأن الأمية والجهل فى هذا العصر سبة المستقبل التى لا تمحى من جبين التاريخ . فشعور الشباب المثقف بواجبه فى خدمة أمته من أفضل طرق العمل الصالح ، دليل على يقظة القومية الفاضلة فى أنفس هـذا الشباب الطامح الذى ركز حياته لإنقاذ أمته من أوضار الجهل ، ولاشك أن من أظهر مظاهر الجهالة هذه اللهجاتِ العاميةَ المتـكاثرة فى بلادنا العربية ، والتى

تستعجم فى بعض البلاد حتى لا تكاد تبين، ومن السهل أن يسير الى جانب مكافحة الأمية نشرُ أسلوب صحيح يقيم عوج الألسنة ، ولا أقصد أن أقول إننا نعلم عامة الشعب قواعد اللغة العربية لنتكلم كما يتكلم النحويون ، وإنما أقصد الى أن تكون أداة إرشاد الشعب وتلقينه الثقافة الأولية هى اللغة العربية فى أدنى درجات صحتها ، وعلى القائمين بمشروع المكافحة أن يرسموا أفضل الطرق وأسهلها لتحقيق الغرض من إصلاح تلك اللهجات المستعجمة ، وعلى الحكومة فى هذا السبيل واجب تعميم مجلاتها الزراعية ونشراتها الصحية ، ومحاضراتها الاجتماعية والخلقية ، وأن تعنى بلغة الكتابة ولهجة الحديث فيها حتى تكون سهلة صحيحة يفهمها الشعب وينتفع بها فى حياته المادية ، وتهذب أفكاره وتثقف ألسنته . والله الهادى الى سواء السبيل ؟

صادق ابراهيم عرجون

الاستشارة قبل العمل

قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقال : « وأمرهم شورى بينهم » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « المشورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة » .

وقال عمر بن الخطاب : « الرجال ثلاثة : رجل ينظر فى الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها ، ورجل متوكل لا يتأمل فاذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأى وقبل قولهم ، ورجل حائر لا يأتم رشدا ولا يطيع مرشدا » .

وقال على كرم الله وجهه : « نعم الموازرة المشاورة ، وبئس الاستعداد الاستبداد » .

وقيل : « الخطأ مع الاستشارة أحمد من الاصابة مع الاستبداد » .

وقيل : إذا استخار العبد ربه ، واستشار صديقه واجتهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، ويقضى الله فى أمره ما أحب » .

وقيل : « من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه » .

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه
وإن ناصح منك يوما دنا فلا تنأ عنه ولا تقصه

أصول التشريع

— ٦ —

بحث فى الاجتهاد والاجماع

آراء الزعماء وقادة الأفكار فى الاجتهاد

(١) رأى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى العالى (٢) رأى فضيلة الأستاذ الشيخ المغربى عضو المجمع اللغوى المصرى (٣) هل سدّ باب الاجتهاد ، وما أسباب الجهر بسده وتعطيل العقل ؟ (٤) كيف ينظم الاجماع ؟

١ — رأى رفعة على ماهر باشا فى الاجتهاد :

طالما دعا الى الاجتهاد المصلحون ؛ وها هو حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا يحث عليه ، ويرغب فيه ، فانه بعد أن صدر قانون المحاكم الشرعية فى مايو سنة ١٩٣١ استقبل حضرات أصحاب الفضيلة رئيس ونائب وأعضاء المحكمة العليا الشرعية ، وكان حينئذ وزيرا للحقانية ، وتحدث معهم فى الاجتهاد ، وحثهم عليه ، فقال رفعته :

« إن القضاة فى صدر الاسلام كانوا مجتهدين ، مجددين ، يقضون فى الحوادث بالكتاب والسنة ، فان لم يوجد فيهما نص يستنبطون الأحكام بالاجتهاد ، والقياس ، ويدعمون آراءهم بالأدلة الناصعة ، والمنطق الصحيح ، ولم يكونوا جامدين فى آرائهم يتعبدون بحرفية النصوص والأقوال ، وكثيرا ما كانوا يحكمون بروح التشريع ، وأغراض الشارع .

« ولذلك جاءت كتب الفقه الاسلامى مجموعة الأحكام والفتاوى ، حافلة بالآراء الكثيرة فى الحوادث المختلفة . وفيها ما يتفق الآن مع أحدث النظريات والأفكار .

« وجدير بقضاتنا أن ينتفعوا بهذه الثروة العلمية ، وأن يسلكوا قدر المستطاع مسلك أولئك الأسلاف المجددين فى استنباط أحكام الحوادث من النصوص ، وتحقيق أغراض الشارع عن هذه الأحكام .

« ومن ذلك مباحث الأوقاف ، فان أصولها فى الفقه كثيرة وافية ، ولذلك لا تعدّ من المسائل المستعصية الحل من الوجهة الشرعية والقانونية ، ففى الفقه وروح التشريع متسع لاستنباط الحلول التى تمشى مع تطورات الزمن ، وتجدد الحوادث .

« فاذا روعى فى التطبيق علاج مسائل الأوقاف على هذه الأسس التى من أهمها تحكيم المصلحة ، ورعاية العرف والعادة ، واختلاف الزمن ، أمكن حل المشاكل ، وإزالة أسباب الشكوى . ففى يد القضاة الشرعيين علاجها فى التطبيق بدون حاجة الى سن تشريع جديد .

« على أن هناك بعض عيوب ومشاكل لها حلول وأحكام فى نصوص الشرع . وأقوال فقهاء الاسلام تعنى الوزارة الآن ببحثها ، وأرجو أن يهدينا البحث الى نتيجة مرضية يتفق فيها الشرع والمصلحة فى هذا العصر الحاضر .

« إن مما يكفل العدالة فى سير القضاء أن يجتمع أعضاء المحكمة العليا فى غير الجلسات كلما وجدت حوادث لم يسبق لها نظائر للتشاور وتبادل الآراء وتقرير المبادئ فيها حتى يتكون دستور لرجال القضاء فى مختلف المحاكم والدوائر ، قصدا الى توحيد الأحكام ، وأن لا يمسها اضطراب واختلاف .

وضرب رفعته مثلا لذلك ، التأمين على أعيان الوقف ضد الحريق ، فقد جرى بعض المحاكم على رفض الطلبات الخاصة به ، وقد أصبح هذا التأمين الآن من الضروريات الماسة لصيانة أعيان الوقف ، كتحميل جهة الوقف مصاريف المواد التى توضع فى البناء لمنع الحريق ، فينبغى أن تبحث هذه المسألة من الوجهة الشرعية ، ويقرر فيها مبدأ يسير عليه العمل فى المحاكم الشرعية . والوزارة حريصة على معاونة المحاكم فيما ترى فيه المصلحة ، وضمانة العدالة ، وبلوغ القضاء الشرعى ذروة الرقى والكمال .

« ويملؤنى سرورا أن أقول لحضراتكم : إنه مادام القاضى يستوحى رأيه وضميره ، ويستملى من روح العدل التى تملأ نفسه ، ويقضى بين الناس بالحق والعدل — لا يخشى شيئا ، ولا يمكن أن يكون لأحد سلطان عليه » .

هذا هو رأى صاحب الرفعة على ماهر باشا فى الاجتهاد ، خصوصا فى اجتهاد القضاة . ونصوص المذاهب متفقة على أنه يلزم أن يكون القاضى مجتهداً ، عدا الامام أبى حنيفة فقد أجاز أن يكون القاضى غير مجتهد .

رأى العلامة المغربى :

الاجتهاد فى اللغة : تحمل الجهد أى المشقة ؛ وأما هو فى الاصطلاح فاستفراغ المجهود فى استنباط الحكم الشرعى الفرعى عن دليله ؛ والمجتهد من تكون له ملكة يقتدر بها على ذلك الاستنباط ؛ وهذا ماعناه عمر بن الخطاب فى قوله لقاضيه أبى موسى الأشعرى : « الفهم الفهم عند ما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولاسنة رسوله » . فإذا عرض لأحد المسلمين أمر اتبع فيه ما قاله الله أو الرسول ، فإن لم يبلغه عنهما قول رجع الى فهمه واجتهاده .

فالاجتهاد إذاً مما فرضه الاسلام على كل مسلم ، ولكن من الفروض ما يسقط التكليف به أحيانا ضرورة العجز عنه . قالوا : والاجتهاد من هذا القبيل ، فان المسلمين فى قرونهم الأولى كانوا قادرين على الاجتهاد بما تيسر لهم من شروطه ووسائله ، اللهم إلا بعض عامتهم فكانوا يقلدون فيما لا يعلمون ، ثم بعد ذلك غابت عن المسلمين كافة شروط الاجتهاد ، فلم يعودوا قادرين عليه وأصبحوا كلهم بمنزلة العامة العاجزين من حيث وجوب التقليد عليهم . وهذا القول إن لم يكن السفسطة فهو أخوها .

٣ — أسباب القول بسد باب الاجتهاد وتعطيل العقل :

وعندى أن السبب فى التقليد ، عنى سد باب الاجتهاد ، وتعطيل العقل ، شيئان :

الأول — تغاير العلماء فى القرون الوسطى وتحاسدهم ، فقد يجتهد أحدهم فيصعب على زميله ألا يجاريه فى هذا الميدان ، ويكون أدنى منزلة منه ، فيأخذ فى مشاغبته والرد عليه ؛ ودخل فى صفوف العلماء كثير من الأعاجم الذين لم يتيسر لهم الاجتهاد لضعف ملكتهم فى اللغة العربية ، فكانوا ينافسون المجتهدين ، ويتطاولون الى مراتبهم وهم بعيدون عنها ، فلم يرهؤلاء العلماء عربا كانوا أو عجما وسيلة لقطع النزاع بينهم أحسن من الجهر بسد باب الاجتهاد ، ومعارضة كل من حاول الاجتهاد ؛ ولقد ساعد على ذلك أن كان معظم الدول الاسلامية فى القرون الوسطى غير عربية ، فلم يكن للاجتهاد فى نفوس أمرائها كبير منزلة ، ولم يروا فى منعه ومعارضة أهله كبير أمر .

الثانى — أما السبب الثانى فى ترويج القول بلزوم سد باب الاجتهاد فهو السياسية الغاشمة ، وروح هذه السياسة الاستبداد ، هذه السياسة لا دين لها ، وإنما دينها إرادة المستبد ، وشهوته وطمعه وقوة عصبيته ، فلا يستتب للمستبد أمر ، ولا يستأثر بالحكم المطلق ما دام فى الأمة مجتهدون يرجع الناس إليهم ، ويرجعون هم الى الدين فيستنبطون من أصوله ونصوصه تعاليم وأحكاما يلزمون جمهرة الأمة بها ، ويحذرونهم عاقبة التفريط فيها ؛ هؤلاء المستبدون هم الذين استفادوا من منع الاجتهاد ، فأغلقوا بابه بأيديهم ، كما أطفأ أولئك العلماء نوره بأفواههم .

الاجتهاد نور وهدى ورحمة ، حض عليه القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ؛ وكونه فرضا على المسلمين أمر مفروغ منه ، ولا خلاف فيه ، وإنما الخلاف فى أن هذا الفرض هل سقط عن المسلمين ضرورة العجز عنه ، كما تسقط سائر الفروض عند العجز ، أم لم يسقط عنهم ؟

نسالهم : ما شروط الاجتهاد ؟ يقولون : (١) أن يحوى علم الكتاب بمعانيه وأقسامه ، (٢) أن يحوى علم السنة بمتنها وسندها . (٣) أن يحوى علم موارد الاجماع لئلا يخالفه فى اجتهاده . (٤) أن يحوى علم وجوه القياس .

وإذا قلنا لهم : إنه لم يخل عصر من وجـود مجتهد توافرت فيه هذه الشروط ، أنـكروا وعارضوا . ومن بواعث الأسف أن المسلمين من يوم قتـل عثمان فقدوا القوة الـكبرى التى يرجع اليها فى مثل هذا الخلاف وأصبحوا من حيث التضامن الدينى فوضى وآحادا شتى ، على العكس من أهل الملل الأخرى الذين لهم مجامع دينية قولها الفصل وكلمتها النافذة .

ومن أجل ذلك نوجز فى البحث مع القائلين بسقوط فرضية الاجتهاد ونجاريهم على رأيهم ، ولـكن نسألهم : هل إذا سقط فرض الوضوء عنك لفقـد الماء جاز لك أن تلبث متيمما أبد الدهر ولا تسعى فى التنقيب عن الماء والتطهر به ولاسيما إذا كان فى الامكان العثور عليـه ؟ وبدهى أن الجواب سيكون بلزوم البحث عن الماء من وقت لآخر .

وكذلك تقول فى الاجتهاد اليوم بالنسبة لمجموع الأمة : إنه قد سقط عنها — كما يقولون — فرض الاجتهاد لعدم وجود من يصلح له ؛ ولـكن أما على المسلمين أن يسعوا فى تعليم طلابهم تعليما صحيحا يؤهلهم لهذه المرتبة ويدنيهم منها رويدا رويدا ، إن لم يكن فى عصرنا هذا ففى عصر يتلوه بحيث ينشئ هذا التعليم طبقة منهم تتوافر فى أفرادها أدوات الاجتهاد فيجتهدون ، وبهذه الفريضة المقدسة يقومون ، وللمسلمين من وهمة التقاليد وتعطيل العقل ينقذون ؟ حقا إن المسلمين اليوم فى مقدورهم وسائل الوصول الى الاجتهاد إن لم يكن فى مقدورهم الاجتهاد نفسه (١) .

سمعت آنفا ما قالوه فى شروط الاجتهاد ، ويمكننى أن أورد شروطه بأسلوب اخـر وأحصرها فى ثلاثة أشياء : (١) تعلم اللغة العربية تعلما صحيحا بحيث تستحكم ملـكتها فى ألسن الطلاب وترسخ فى نفوسهم (٢) درس القرآن وصحيح السنة وعمل السلف وتاريخ نشأة الاسلام وفهم ذلك فهما خالصا لا يشوبه توهيم ولا تأويل ولا مشاغبة (٣) صفاء النفس وإخلاص القلب وطهارة الخلق واستعداد الفطرة .

إذا يئسنا من المسلمين الى حـد القول بأنه ما عاد يمكن أن ينشأ من أبنائهم فى المستقبل أفراد تتوافر فيهم هذه الأشياء ، نـكون قد أنزلنا أنفسنا منزلة العجماوات ، وحكمنا على ديننا وأمتنا بالممات . ثم إذا كان لا بد لنا من الاستعانة بشىء من العلوم المستحدثة فى الاسلام لأجل تدريب طلابنا على الاجتهاد والاستنباط ، فلنستعن بفن أصول الفقه ، ولـكن نجتهد قبل كل شىء فى وضع تآليف فيه سهلة الايراد قريبة المأخذ كثيرة الأمثلة تساعد الطالب على الفهم وطريق الاستنباط وتطبيق قواعد العلم على العمل ، لا أن نكتفى بحفظها وترديد كلمات : الخاص ،

(١) راجع فى العدد الثامن اقتراحا بانشاء قسم للاجتهاد وتدريس علومه فى الازهر الشريف ، وقد برهنا فى العدد المذكور على أن الاجتهاد فى هـذا الزمان أيسر منه فى الازمان الخالية ، واستوفينا كتب الاجتهاد وعلومه ، وأن العلماء وضعوا برنامجا لمدرسة الاجتهاد فى الازمان السالفة ولم يبق إلا الدراسة والعمل للاجتهاد .

العام ، المطلق ، المقيد ، النص ، الظاهر ، المحكم ، المتشابه الخ ثم إذا عرض لنا أن نفهم نصا ونستنبط منه حكما عجزنا وأحصرنا .

ومن كبرى مصائبنا نحن معشر الطلاب المسلمين أن ندرس فنون التفسير والحديث والأصول بشروحها وحواشيها وتقريراتها ونضيع أعمارنا فى تحقيقها وتدقيقها ثم لا يباح لنا أن نرى رأيا أو نفهم فهما غير ما رآه مؤلفو الكتب وفهموه .

إذاً نسألك يا أستاذنا : لماذا تتعبنا فى فهم الآيات والأحاديث ومسائل الأصول ؟ قد يقول فى الجواب عن قراءة التفسير والحديث : إنها تورث البركة والخير ، وتلقى النورانية فى القلب . وإذا كان الأستاذ أكثر دهاء وأشد فطنة قال : إن التفسير والحديث ليشحذان من أذهانكم ويذكرانكم بمسائل العلوم والفنون الأخرى كالنحو واللغة والبلاغة والفقه والمنطق والكلام والمقولات ، فإنكم إذا قرأتم التفسير والحديث تطبقون مسائل هذه العلوم ، وتمرنون عقولكم على إرجاعها الى قواعدها ، وبذلك تزدادون بصيرة ورسوخا فى العلم . فنقول للأستاذ : أصبحت كتب التفسير والحديث إذاً كتب تطبيق وتمرين لا كتب علم وفهم فى الدين . دعنا من التفسير والحديث ولكن ما بال علم الأصول ننصب فيه أنفسنا ونضيع أعمارنا فى تلقيه ، ونسمعكم تقولون فى بيان ثمرته وغايته : إنها معرفة الأحكام الربانية بحسب الطاقة الانسانية ، لينال بالجريان على موجبها السعادة الدينية والدنيوية ؟ إذا كانت هذه هى ثمرته فلماذا يا أستاذ لا تدعنا وقد تعلمناه وأنفقنا عمرنا فيه نبذل طاقتنا ونتعرف أحكام ربنا لننال السعادة فى ديننا ودنيانا ؟ لاجرم أن الأستاذ يسكت ولا يحير جوابا . وهكذا أشبه علم الأصول شجرة باسقة وارفة الظلال دانية الثمار قاسى علماء الأمة وفلاسفة فقهائها أتعابا كثيرة فى غرسها وتسميدها وتعهدها بكل ما ينميها حتى إذا أينعت وحان قطافها ودنا زمن استثمارها قالوا لنا : لا تجنوا ، ولماذا لا نجنى ؟ بل لماذا أتعبتمونا وأتعبتم أنفسكم فيما لا يفيدنا ولا يفيدكم ؟ !

ومحصل القول أن مانعى الاجتهاد إذا قالوا : إنه لايوجد فى المسلمين اليوم من هو أهل له ، لا يمكنهم أبدا أن يقولوا : إن المسلمين قد امتاخت عقولهم وارتكست طباعهم ، وفسدت فطرتهم ، فلم يعودوا قادرين أن يتعلموا تعلما يهيئهم للاجتهاد ، وتطبيق قواعد الأصول .

وبعد : فخير خدمة تقدم للامة هى السعى فى تطبيق برنامج هذا التعليم فى معاهدنا الدينية . وعندى أن تحصيله أسهل من تحصيل علومنا التقليدية على الطريقة المعروفة المعهودة بيننا التى يقضى ألوف الطلاب أعمارهم فى السير عليها ، ثم لا يصل منهم سوى أشخاص قليلين اليها ، وهناك قوم ينكرون صحة تسمية هؤلاء الأشخاص بالعلماء ، وأن تكون علومهم التقليدية مما يفيد فائدة ، أو يعطى علما ، وإنما كل ما تعطيه كلام فى كلام . ويقولون : إذا رأيت أحدا من علماء التقليد استنار قلبه ، وتفككت العُقل عن عقله ، فذاك لأنه درس بنفسه علوما أخرى

سددت فهمه ، وصححت تصوره وحكمه ، وإن علومك التقليدية ياسيدى الأستاذ قد وقفت أمتك الاسلامية موقفا حرجا إزاء بقية الأمم التى تزاحمها فى هـذه الحياة ، وتطيف بهـا عن كثب ؛ فقد استجدت طرائق للحكومات ، وأساليب فى التجارات ، وأفانين فى المعاملات لم يكن يعرفها أسلافنا الأولون ، وفقهاؤنا المجتهدون ، بل انقلب كثير مما قرروه وحكموا فيه اجتهادهم رأسا على عقب . أين أحكام الركاز ، وأين الرقيق والمكاتب وأحكام نكاحهما ، وأين الحدود والشهادة على الزنا ... ؟ كل هذا ياسيدى الأستاذ أصبح كالشريعة المعطلة ، فبعضه نسخ اسمه ، وبعضه نسخ حكمه ، وأحيل لمحاكم وحكام يقولون إنهم أصحاب الاختصاص فيه ؛ فهل من مصلحة الدين وشدة الورع أن ينظر علماء الاسلام من بعيد الى هذا الانقلاب العظيم ، وينغضون رءوسهم ، ويكتفون بالحوقلة والسبحلة ، ويمسون فى هذا الوجود كمية مهملة ، أو الواجب أن ينظروا فى جميع ماحدث واستجد نظرة الحازم الحكيم فيطبقوه على أصول الشريعة وقواعدها العامة ، فنترك بعض الأحكام عن بصيرة وبينة وحجة ، ونسعى فى فهم الأحكام الأخرى التى استجدت فهما عمليا مطبقا على مقتضيات الزمان ، ومصالح العمران ؟! نسمعك أيها الفقيه الورع تقول : قال إمامنا فلان فى كتابه كذا وكذا ، وقرر تلميذه فى حاشيته عليه كذا وكذا ، ثم نرى المسلمين بل نراك أنت أحيانا تعمل فى المحاكم والدواوين ومواطن الأشغال التجارية ، والشركات الاقتصادية ، وكل الشئون الدنيوية على غير ما قرره إمامك وحققه تلميـذه شيخك ، ذلك لأنه ليس فى الطاقة تطبيق ما فى الكتب العتيقة على حاجات الناس الجديدة ، إذ أن الزمان قـد استدار ، وتغيرت الطباع والأطوار ، وأمست الواقعات التى تحدث فى هذا الزمان لا تحاكى نظائرها فى الأزمنة السالفة وقت أن ألفت تلك الكتب التى نتدارسها ، فنحن ندرسها ولكن لا نقدر أن نعمل بهـا ؛ فهذه الواقعات التى تتجدد فى أشغال الناس ومتاجرهم وأساليب مكاسبهم إذا لم نرجع فيها الى الاستنباط من أصول ديننا ، لم يعد فى إمكاننا أن نحكم بها حكما شرعيا ، ولا أن نقول إن لها فى شريعتنا السمحة شريعة كل زمان وكل مكان حلا مرضيا .

ويقول العلماء السالفون : إن ثمرة علم الأصول الاستنباط ؛ ويقول العلماء الخالفون : إنه لا يجوز الاستنباط بواسطته ، وإذا عرضت لهم واقعة جديدة ، أو سئلوا عن أى أمر لم يعهده أسلافهم وقفوا وقفة عواجز لا يحيرون جوابا ، ولا يملكون خطابا ، هكذا شأنهم ، وكأنهم بوقوفهم هـذا يقولون : إن الشريعة ضيقة ، ولا حكم فيها لمـا تسألون عنه ، وإن الواجب عليكم أيها السائلون أن ترجعوا الى أنفسكم فتتصرفوا فى المسألة حسبما تشاءون ، أو تستعينوا بالنظم التى وضعها الأوربيون .

وليس فوق هـذا إزراء بالاسلام ، وخذلان للشريعة المطهرة ، وكفران بنعمة صاحبها

عليه الصلاة والسلام . أنرجع الى غير الدين الاسلامى فيما يعرض لنا من مختلف الشئون ونحن نعتقد أن ديننا آخر الأديان ، وأنه تضمن جميع ما يحتاج إليه البشر على اختلاف الأعصار والأزمان ؟ أنحجر على أنفسنا ونجحد نعمة العقل التى أنعم الله بها علينا فنزعم أن عقول غيرنا من المشترعين وواضعى القوانين خير منها ، وأنها أصح حكما ، وأوسع علما ؟ أيمتن الله علينا بالدين وبالعقل فنميتهما ، ونطفئ نورهما ، وندعى أن ذلك مما يثيب الله عليه وأنه طريق الزلفى إليه ؟ أنا أشعر بأن الأستاذ لم يعد يملك نفسه غضبا وحفيظة مما سمع من حض على الاجتهاد ، ولكن الأستاذ نسى أننى لا أريد أن أجتهد فى نفسى ، أو أن أمهد طريق الاجتهاد أمام غيرى من المعاصرين ، وإنما أنتظر من إنصافه أن يطاوعنى فى القول بلزوم تمهيد الطريق أمام الأمة الاسلامية المستقبلة ، فنعلم أبناءنا تعليما أصوليا يؤدى الى الفهم الصحيح فى الدين ، والمقدرة على الاستنباط من أصول الشريعة ، فلا نعود نعدم أحكاماً وفتاوى لكل ما يطرأ من الواقعات ، فى ضروب الأشغال والمعاملات .

هذا هو رأى الأستاذ المغربى فى الاجتهاد ، وذاك رأى رفعة على ماهر باشا فيه ، ولو أخذ رأى المسلمين عليهما لنالا إجماعهم أو قريبا من هذا الاجماع ، فكل زعيم مسلم يدعو الى الاجتهاد ويحض عليه ، والمسلمون فى أشدّ الحاجة إليه .

٤ — كيف ينظم الاجماع ؟

الاجتهاد نعمة وخير إذا كان من أهله ، وشر ونقمة إذا كان من غيرهم ، فاذا دعونا الى الاجتهاد فانما ندعو أهله والقادرين ، وإذا نظم الاجتهاد والاجماع كان من وراء ذلك الخير الكثير للاسلام والمسلمين ، وهذا التنظيم ليس بدعا ، فمن فجر الاسلام للآن ورأى كبار الصحابة والعلماء يتجه اليه ، حتى إن المسلمين فى الأندلس كوّنوا مجلسا للشورى والتشريع ، وكان الخليفة يعين أعضاءه ؛ وقد وردت الآثار الكثيرة بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ، فان لم يجد ما يقضى به نظر فى السنة ، فان لم يجد سأل المسلمين عن قضاء الرسول الكريم فى ذلك ، فان لم يجد «جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شىء قضى به » ، وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه ، ولا ريب أن فى هذا اتجاها لتنظيم الرأى والاستشارة والاجماع ؛ وطالما فكر المسلمون فى هذا التنظيم من العصر الأول الاسلامى للآن .

ومما أراه لتنظيم الاجماع ما يأتى :

١ — ينشأ بمصر مجمع يسمى « مجمع التشريع أو مجمع المجتهدين ، أو مجمع فاروق الأول للتشريع الاسلامى » أو نحو ذلك .

٢ — يختار أعضاء هذا المجمع من العلماء أهل الاجتهاد فى العالم الاسلامى كله .

٣ — تختار كل أمة إسلامية عضوا أو أكثر حسب النظام الذى يوضع لذلك .

٤ — ينعقد هذا المجمع برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر فى زمن معين من كل سنة ، ويعرض عليه آراء كل مجتهد .

٥ — متى انعقد إجماع مجتهدى الأمة وهم أعضاء هذا المجمع على أمر من الأمور الشرعية التى لم يرد عنها نص ، يعمل به ، وهذا يكون كمقدمة لتوحيد التشريع والمذاهب فى العالم الاسلامى ، ولتكوين قانون عام من الفقه الاسلامى يعمل به جميع المسلمين .

هذا ملخص ما أراه لتنظيم الاجماع .

والناس فى هذا العصر يرجون أن يتحقق ذلك على يد مولانا الأستاذ الأكبر الامام المراغى شيخ الأزهر ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح « فاروق الأول » أيده الله بنصره وأعز به الاسلام والمسلمين !

السيد عفيفى

بعض من نال بالادب أعلى الرتب

منهم أحمد بن أبى دواد ، فقد كان فى أول أمره رقيق الحال يختلف الى مجاس بشر المريسى فى حالة رثة ، وهيئة رديئة ، ثم ينصرف عنه فى قائم الظهيرة معلقا محبرته ، متأبطا دفتره ، فيقيل عند أخ له .

فلما وجه المأمون أخاه المعتصم واليا على مصر ، التمس من المريسى رجلا من أصحابه يكون فى صحبة المعتصم ، يوليه على المظالم ، ويكتب اليه أخباره .

فقال بشر للمأمون : يا أمير المؤمنين معنا قوم لهم فقه ولكن لم يجمعوا اليه الأدب ، ومعرفة أمور السلطان (يريد ما يسميه الفرنجة الآن البروتوكول) ، ثم وصف له احمد بن أبى دواد ، وقال : إنه جمع الى فقه أدبا وبيانا وعقلا ، فأرسل اليه المأمون وقلده المظالم ، ففعل .

فلما اختبره المعتصم وجده أهلا لما أسند اليه ، وحظى عنده حظوة لم ينلها أحد غيره .

ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم . ويروى أن العلاء بن أيوب قال له يوما وقد دارت بينهما محاورة : ليس هذا كيل الزيت ، ولا عد الجوز !

فاجابه ابن الزيات بقوله : أبا لتجارة تعيرنى ! قد كنت تاجرا وكنت متأخرا ، فقدّمنى الله بالأدب ، وأصارنى بعد التجارة الى الوزارة ، وليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فاتضع !

دفاع عن القرآن الكريم

نريد الآن قبل أن نختم هذا المبحث أن نتعرض لثلاث مسائل :

الأولى : يؤخذ من مجموع هـذه الروايات ، سواء أكانت روايات البخارى والترمذى وغـيرهما ، أم روايات ابن أبى داود ، أن سيـدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه لما فقـد آية أو آيتين من آخر سورة التوبة ، وآية من سورة الأحزاب ، ووجدها عند خزيمة ، أو أبى خزيمة ، أثبتها فى مكانها ، وخزيمة صحابى واحد ، فتكون هـذه الآيات الثلاث مروية برواية الآحاد ، وشرط قرءانية القرءان التواتر ، والروايات الآحادية ليست قرءانا إجماعا ، فكيف كان ذلك ؟ هذا هو الاعتراض المنقول عن الرافضة .

والجواب : أن سيدنا خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهـذه الآيات تذكرها جمع كثير من الصحابة رضوان الله عليهم فأقروها ، ثم أثبتها زيد بن ثابت فى المصحف بعد إقرارها والإجماع عليها . على أن سـيدنا زيدا كان عالما بها ، ولذلك التمسها حتى وجـدها أولا عند خزيمة ، ثم حصل التذكر والاقرار والاجماع ، فليست من الروايات الآحادية فى شىء .

الثانية : يدل ما رواه ابن أبى داود عن أبى أن آخر آية نزلت من القرءان هى آخر آية من سورة التوبة ، لأنه يقول : قال — يعنى أبى — فهذا آخر ما أنزل من القرءان ، فختم الأمر بما فتح به . وهو يخالف المشهور من أن آخر آية أنزلت من القرآن هى قوله تعالى : « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لـكم الاسلام دينا » ، ولعـل معنى كلام سيدنا أبى أن هذا آخر ما أنزل من القرآن فى سورة التوبة كما يؤخذ من سياق الرواية ، ومن قوله فيها : فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة : « ثم انصرَفوا صرَف الله قلوبَهم بأنهم قوم لا يفقهون » فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن الخ .

الثالثة : تدل هـذه الروايات دلالة صريحة على أن سيدنا أبا بكر الصديق جمع القرآن ، فما معنى جمع سيدنا عثمان رضى الله عنه للقرآن مرة ثانية ؟

والجواب : أن سيدنا عثمان لم يجمع القرآن ، وإنما جمع الصحف فى مصحف ليجتمع الناس على قراءة بسبب اختلافهم فى القراءات وتفرق الصحابة فى البلدان ، وبسبب ما وقع بين أهل الشام والعراق ، على ما ذكر حذيفة ، رضى الله عنهم .

وخلاصة القصة : أنهم اجتمعوا فى غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها ، فاختلفوا وتنازعوا ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم المدينة ، فيما رواه البخارى والترمذى ، دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال : فيماذا ؟

قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، وقص عليه ما رأى ، وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى ، فأمر بكتابة المصحف ليجتمع الناس على قراءة ويبطل الاختلاف .

باب آخر من أبواب الاتفاق فى كراهية عبد الله بن مسعود ذلك وغضبه من اختيار زيد بن ثابت دونه

روى الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى فى كتابه الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبى ص ٤٦ من الجزء الأول قال :

« قال أبو بكر الأنبارى : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان ، على عبد الله بن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد ، وأقدم فى الاسلام ، وأكثر سوابق وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله ، إذ وعاه كله ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار ، ولا ينبغى أن يظن جاهل أن فى هذا طعنا على عبد الله بن مسعود .

« قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نتجه الغضب ، ولا يعمل به ، ولا يؤخذ به ، ولا يشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم ، فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم . فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لاخلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله » اه كلام القرطبى .

فيتلخص مما تقدم أربعة أشياء :

أولا — أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان غاضبا لاختيار سيدنا عثمان ومن معه من الصحابة سيدنا زيد بن ثابت لجمع القرآن دونه .

ثانيا — أن ما حصل منه من بعض الكلمات نحو هذا الموضوع كان فى وقت الغضب فلا يعتمد عليها كرأى له رضى الله عنه .

ثالثا — أنه وافق على حسن هذا الاختيار بعد زوال الغضب ، فالإجماع على المصحف الامام كان عاما .

رابعا — ان الميزة التى اختص بها سيدنا زيد ، وهى حفظه القرآن جميعه فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، لا تقتضى أفضليته على سيدنا عبد الله بن مسعود ، وإلا لاقتضت أفضليته على سيدنا أبى بكر وعمر ، وهو مما لم يقل به أحد . أما ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود فى هذا الموضوع الدالّ على غضبه وكراهيته ثم موافقته بعد الغضب ، فهو ما رواه لنا العلامة ابن أبى داود فى موضعين من كتابه : (أحدهما) كراهة عبد الله بن مسعود ذلك . و(ثانيهما) رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان المصاحف . وسنذكر هنا روايات الموضعين :

كراهة عبد الله بن مسعود ذلك :

حدثنا عبد الله ، قال : حدثنا شعيب بن أيوب ، حدثنا يحيى بن آدم ، قال حدثنا عمرو ابن ثابت ، قال حدثنا حبيب بن أبى ثابت عن أبى الشعثاء ، قال : كنا جلوسا فى المسجد وعبد الله يقرأ فجاء حذيفة فقال : قراءة ابن أم عبد ، وقراءة أبى موسى الأشعرى : والله إن بقيت حتى آتى أمير المؤمنين (يعنى عثمان) لآمرته بجعلها قراءة واحدة . قال : فغضب عبد الله فقال لحذيفة كلمة شديدة ، قال : فسكت حذيفة .

ومن طريق آخر : عن أبى الشعثاء المحاربى قال : قال حذيفة : يقول أهل الكوفة : قراءة عبد الله ، ويقول أهل البصرة : قراءة أبى موسى ، والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لآمرته أن يغرقها ! قال : فقال عبد الله : أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله فى غير ماء ! ثم ذكر بعد ذلك روايات بمعنى ما تقدم ، ثم قال بعد ذكر السند : عن مسروق قال : كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى فى منزل أبى موسى فقال حذيفة : أما أنت ياعبد الله بن قيس فبعثت الى أهل البصرة أميرا ومعلما وأخذوا من أدبك ولغتك ومن قراءتك ؛ وأما أنت ياعبد الله بن مسعود فبعثت الى أهل الكوفة معلما فأخذوا من أدبك ولغتك وقراءتك . فقال عبد الله : أما أنى إذاً لم أضلهم ، وما من كتاب الله آية إلا أعلم حيث نزلت وفيم نزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغنيه الإبل لرحلت اليه .

ومن طريق آخر : عن حميد بن مالك قال : قال عبد الله : لقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن لزيد بن ثابت ذؤابتين يلعب مع الصبيان .

ومن طريق آخر : عن حميد بن مالك عن عبد الله قال : لما أمر بالمصاحف ساء ذلك عبد الله ابن مسعود قال : من استطاع منكم أن يغل مصحفا فليغلل فانه من غل شيئا جاء بما غل يوم القيامة . ثم قال عبد الله : لقد قرأت القرآن من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد صبى ، أفاترك ما أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

ومن طريق آخر : عن حميد بن مالك قال : سمعت ابن مسعود يقـول : إنى غال مصحفى فمن استطاع أن يغل مصحفا فليغلل فان الله يقول : « ومن يغللْ يأتِ بما غلّ يومَ القيامة » ولقـد أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسـلم سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبى من الصبيان ، أفأنا أدع ما أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

ومن طريق آخر : عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قرأ « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » غلوا مصاحفكم فكيف تأمرونى أن أقرأ قراءة زيد ولقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ولزيد ذؤابتان يلعب بين الصبيان ؟ !

ثم ذكر ابن أبى داود بعد ذلك عدة طرق لا تخرج عن معنى ما تقـدم . وذكر فى آخر الباب رواية لعلها أظهر الروايات فى غضب سيدنا عبد الله بن مسعود ، وهى المسندة للزهرى قال : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف فقـال : يامعشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب أبيه كافرا (يريد زيد بن ثابت) . وكذلك قال عبد الله : يأهل الكوفة ، أو يأهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلوها فان الله يقول : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » فاتقوا الله بالمصاحف . قال الزهرى : فبلغنى أنه كره من مقالة ابن مسعود رجال أفاضل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . اهـ

وقد علمت مما تقـدم الحكمة فى اختيار سيدنا أبى بكر وعمر سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنهم أجمعين .

رضاء عبد الله بن مسعود
لجمع عثمان رضى الله عنه المصاحف

حدثنا عبد الله قال حدثنا عبد الله بن سعيد ، ومحمد بن عثمان العجلى ، قالا : حدثنا أبو أسامة قال حدثنى زهير قال حدثنى الوليـد بن قيس عن عثمان بن حسان العامرى ، عن فلفلة الجعفى قال : « فزعت فيمن فزع الى عبد الله فى المصاحف فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين ولـكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر . فقال : إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، أو حـروف ، وإن الـكتاب قبلـكم كان ينزل ، أو نزل من باب واحد ، على حرف واحد معناهما واحد » اهـ

ولم يذكر ابن أبى داود فى هذا الموضع غير هذا الحديث ، وفيه الـكفاية .

حسن حسين

المرأة فى العصر الجاهلى

نشأت المرأة العربية فى العصر الجاهلى على الفطرة البدوية ، من استقلال الفكر ، والأنفة وإباءة الضيم ، فكانت لذلك عظيمة الشأن ، عزوف النفس ، تترفع عن ارتكاب ما يحط من قيمتها أو يدفع بها الى الهاوية . ومثل ذلك يقال فى غيرة رجلها على سلامة عرضها ، لأن الرجل الأنوف يعظم على طباعه احتمال ما يمس شرف امرأته ، أو يهين كرامتها من قول أو فعل . وتزداد هذه الغيرة إذا كانت مع عفتها ممتازة بصفات تجعل لها فضلا على مثيلاتها .

وبلغ من غيرة بعضهم أن قتلوا بناتهم أو وأدوهن خوفا من ارتكاب العار أو الفضيحة ، ولم يكن الوأد عاما فى قبائل العرب ، ولا كان قديما عندهم ، وإنما كان فى بعض قبيلة بنى تميم ابن مر ، ظهر فيهم قبيل الاسلام لسبب طرأ عليهم ، ذلك أنهم لما منعوا الجزية التى كانوا يؤدونها الى النعمان ملك الحيرة ، غزاهم بخيله ورجله ، وجرد عليهم كتائبه ، فأخذ أموالهم ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، فكبر ذلك على التميميين فأقبلوا عليه يطلبون منه رد ما أخذه من مال وما أسره من أولاد ونساء ، فأبى النعمان ذلك ، فقالوا له : أعطنا النساء ، فأجاب قائلا : إننا سنخيرهن بين الذهاب أو البقاء ، ويومئذ أطلق مناديه يقول : « ما تريد أن تختار أباها فهى له ، وما تريد أن تختار صاحبها فهى له » .

اختارت كل واحدة منهن أباها فسلمت اليه ، إلا ابنة قيس بن عاصم فلم تختر إلا صاحبها عمرو بن المشمرج ، وبقيت عنده ، فغضب والدها لهذا الأمر الذى لم يكن فى حسبانه ، ونذر ألا تولد له ابنة إلا قتلها ، وتبعه فى ذلك بعض أهله وقبيلته ، ولم يدم الوأد طويلا حتى قيض الله للبنات فى ذلك الوقت صعصعة بن ناجية ، وأخذ على نفسه فداءهن ، لأنه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . وكان بعض الغيورين لا يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الأصبع العدوانى ، كان له أربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه .

مشهورات النساء فى الجاهلية :

اشتهرت جماعة من نساء الجاهلية بمناقب رفيعة ولا سيما فى أوائل الاسلام ، فمن اللائى اشتهرن بالشجاعة والبأس وكبر النفس : سلمى بنت عمر إحدى نساء بنى عدى بن النجار ، كانت لا تتزوج الرجال إلا وحبلها على غاربها : إن رأت بمن تتزوجه شيئا تكرهه تركته وشأنه ، ولا يقدح هذا فى عفتها وكبريائها . واشتهرت التميميات من نساء قريش بالحظوة والتدله على رجالهن ، ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة وشدة البطش فى الغزوات .

ففى غزوة أحد وقع لواء قريش فى ساحة القتال فلم يزل صريعا حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فلاذوا بها وتبعوها .

وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان فى تلك الغزوة مالم تفعله الرجال ، إذ جمعت إليها نسوة أخذن فى أيديهن الدفوف وصرن يضربن خلف القوم يغرونهم على الثبات والاستبسال ، وعدم إعطاء الدنية بالهزيمة أو الاستسلام . فكان لما فعلن أبلغ الأثر فى تحريضهم على المضى فى نضالهم ، والثبات فى قتالهم . ولما انتهت الوقعة خرجت هند مع النسوة تبحث جثث القتلى ، فوجدت بينها جثة حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم فبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها غيظا وحنقا ، ولكنها لم تستطع أن تبتلعها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت شعرا تفخر به على المسلمين لفشلهم وتغلب قومها عليهم .

نذكر هذا وهو من الشناعة بمكان يوجب لمن يرتكبه الخزى والعار ، ولكنه مع ذلك كله يدل على الشجاعة وثبات الجأش .

ونبغ فى الرأى والحزم خديجة بنت خويلد ، فكانت عاقلة ، حازمة ، ذات شرف ، ومال ، تنتقى من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتقاسمهم الربح ، تحسينا لحالهم وإنماء لمالها ، ولما سمعت بشهرة النبى صلى الله عليه وسلم دعته للاتجار بمالها ، فقبل الدعوة بما اشتهر عنه من كرم الأخلاق ، فطلبت اليه أن يخرج فى مالها متاجرا الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من الرجال ، فلما أفلح فى تجارته ، وتحقق لديها ما كانت قد سمعته عنه عرضت عليه نفسها للزواج ، فأجابها . ولما بعث كانت أول امرأة آمنت به وتولت العناية فى أول هذا الدور الخطير فكانت تهوّن عليه ما يجده من تكاليف الوحى ، وتخفف عنه ما كان يلم به من كدر أو تعب ، وتنصره بمالها على قريش . ظلت على هذه الحالة الى أن لبت دعوة ربها ، رضى الله عنها .

ومن النساء اللاتى اشتهرن فى الجاهلية والاسلام : الخنساء ، واسمها تماضر ابنة الشريد ، قتل أخوها فوقفت كل شعرها على رثائه ، فكانت أعطف أخت على أخيها فى تاريخ العرب .

حالة المرأة فى الجاهلية :

لم تتأدب المرأة فى الجاهلية بآداب دين غير ما كان عليه قومها من الوثنية ، ولم يكن لها حظ من علم ولا تربية ، لأن العرب كانوا أميين ولا نصيب لهم فى شىء من العلم والحكمة إلا ما كانوا يحذقونه من قرض الشعر ، وكانوا يعيشون فى جزيرتهم ومعظم أرضها سهوب رملية وصحار قاحلة ليس فيها نهر ، فكان اعتماد أهلها فى سد حاجتهم من الماء على الآبار والسيول وهى لا تكفى للرى من الوجهة الزراعية ، فبقيت بلاد العرب فى أوسع شقيها فى حالة جدوبة مطلقة ، وكانت اليمن والعراق على الضد من ذلك ، ثريتان بعيونها وأنهارها ، فكثرت زراعتهما

ونمت خيراتهما ، ولكنهما وقعتا بسبب ذلك تحت براثن الأمم الأجنبية المجاورة لهما ، أما ماعدا هاتين البقعتين من جزيرة العرب فكانت لا تنبت شيئاً إلا ما ينشأ عقب نزول الأمطار من النباتات التى لا تصلح غذاء لغير الماشية ، فكان العرب لذلك السبب لا يتخذون لهم مدنا وقرى يقيمون فيها على حالة مدنية ، ولكنهم يسكنون المضارب والخيام ليسهل عليهم نقلها من مكان الى مكان طلبا للمراعى حفظا لحياة أنعامهم التى هى عماد معيشتهم ، وإن أمة تعيش على هذه الحالة لا يعقل أن تعنى بالعلم ولا بالتربية غير ما تهديها اليه الفطرة الانسانية الساذجة ، فكانت المرأة العربية إذ ذاك فى حالة تناسب حالة رجلها ، من التجرد من العلم ، والتمحض للحياة المادية . وهذا لم يمنع من ظهور أفذاذ منهن اشتهرن بالشعر والخطابة ، بل منهن من قدن الكتائب والمقانب وخضن غمرات المعامع . كل هذا فى حدود السذاجة الجاهلية والبساطة البدوية .

حقوق المرأة فى الجاهلية والاسلام :

لم يكن الجاهليون من العرب يتخيلون أن للمرأة على الرجل حقوقا مادية وأدبية ، وكانوا يعتبرونها متاعا من الأمتعة ، بل كان الرجل يعنى بفرسه أكثر مما يعنى بامرأته ، وكانوا يعددون الزوجات بلا قيد ولا شرط ، وكانت المرأة تورث مع مايورث من ماشيته وأمتعته ، فلما جاء الاسلام قرر لها حقوقا على الرجال ، فارتفع بذلك شأن المرأة العربية ، وشملها بما لم تسمح به أية شريعة فى الأرض ولا الشرائع الأوربية الوضعية من التعلم والتعليم وإدارة الأمور حتى جوز لها ولاية الافتاء والقضاء مما لايعقل أن يكون بعده مزيد لمستزيد .

فان أردت أن تعجب فاعجب ممن يزعمون أن الأسلام اهتضم حقوق المرأة وأنكر عليها قيمتها الطبيعية على حين أنه أول من منحها تلك الحقوق وأغلى لها تلك القيمة . فالمرأة كانت قبل الاسلام فى كل بلد أسيرة الرجل مهدرة الدم ، فأخذ الاسلام بضبعها ونشر حمايته عليها ، ووضعها والرجل فى مستوى واحد من العناية والرعاية . ومن يعن بدراسة تفصيل ما منحه إياها من الحقوق المدنية والزوجية والأموية يجد العجب العجاب مما لايدع لمعترض على هذا الدين مقالا ، اللهم إلا بالالتجا الى الاختلاق وهو المجال الذى برّز فيه خصوم الاسلام لما أعيتهم الحيل فى مكافحته على سواء « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

محمد مصطفى شادى

حوالى الغزوات

— ٢ —

لما كانت غزوة بدر وأحد وقتل من قتل من المشركين بأيدى المسلمين ، حقد كفار قريش على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، فعمدوا الى الحيلة ، فجملوا جعلا مائة ناقة لبنى الهون إن هم مكنوهم من أحد من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ليقتلوه أخذا بثأر من قتل منهم ببدر وأحد ، فقدم سبعة نفر من بنى الهون على النبى صلى الله عليه وسلم وأظهروا الاسلام ، وطلبوا أن يبعث معهم من أصحابه من يفقههم فى الدين ويعلمهم شرائع الاسلام ، فبعث النبى معهم ستة نفر من أصحابه ، وهم عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخُبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وخالد بن البكير .

ولما وصلوا الى الرجيع (اسم ماء) قعدوا ليستريحوا فاستصرخ الوفد هذيلا على قتلهم انتقاما منهم وطمعا فى الجائزة ، فبينا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم جلوس إذا هم بأهل الغدر قد أحاطوا بهم من كل جانب ، فلم يرعهم ذلك ، ولم يثنهم عن الدفاع عن أنفسهم أنهم قليل وعدوهم كثير ، فقاموا من فورهم وسلوا سيوفهم واستعدوا لملاقاة عدوهم ، فلما رآهم المشركون قد حذروا ، حلفوا لهم أنهم لا يريدون بهم شرا ، فلما سمع أصحاب الرسول حلفهم أغمد فريق منهم سيوفهم وفريق آخر قال : أما نحن فلا ننزل على عهد مشرك ، وقاتلوا حتى قتلوا . أما الفريق الذى غره الحلف فانه وقع فى أسر أهل الغدر فأخذوهم وباعوهم لقريش ، وكان منهم خبيب بن عدى .

وكان من خبر مقتله أنه أسر وحبس حتى تخرج الأشهر الحرم ، وكانت العرب تحرم القتل فيها . وفى أول محبسه أساءوا معاملته ، فلما رأى ذلك منهم قال لهم مرة : ما هكذا يفعل القوم الكرام بأسيرهم ! فخجلوا من مقالته وأحسنوا معاملته وحبسوه فى دار موهب مولى آل نوفل ، فأكد موهب على زوجه بحراسته . وفى ذات يوم جاء اليه موهب ليتفقد حال سجينه فلما كلمه قال : ألك حاجة ياخبيب ؟ فقال : لى إليك ثلاث حاجات : أن تسقينى العذب (من الماء) ، وأن تجنبنى ما ذبح على النصب (لحم القرابين) ، وأن تخبرنى إذا أجمعوا على قتلى .

ولما مضت الأشهر الحرم وبدا لهم أن يقتلوه خرجوا بخبيب الى التنعيم (اسم مكان) ليصلبوه ، فلما رأى خبيب إصرارهم على تنفيذ ماسولت لهم أنفسهم طلب اليهم أن يدعوه يصلى ركعتين ، فقالوا له : صل ماشئت أن تصلى ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ولما سلم التفت اليهم وقال : لولا أن تقولوا جزع من الموت لأطلت وزدت . ولما علوا به وأتموا صلبه تقدم اليه

أحدهم وقال له : ياخبيب تخل عن الاسلام نخل سبيلك . فأجابه خبيب : إن قتلى فى سبيل الله لقليل . ثم توجه نحو الكعبة وقال : اللهم إنه ليس أحد هنا يبلغ رسولك منى السلام فبلغه عنى ! وروى أنه أنشد هذه الأبيات :

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا — قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد — علىّ لأنى فى وثاق مضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم — وقربت من جذع طويل ممنع
الى الله أشكو غربتى ثم كربتى — وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد خيروا فى الكفر والموت دونه — وقد هملت عيناى من غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما — على أى جنب كان فى الله مضجعى
فلست بمبد للعدو تخشعا — ولا جزعا إنى الى الله مرجعى

ولما يئسوا منه طعنوه بالرماح حتى مات شهيدا ، وإنه لأول مسلم صلى ركعتين قبل مقتله فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام .

ولما علم النبى بالحادثة ظل أربعين صباحا يدعو على أهل الغدر بخبيب وأصحابه ، واستحسن شجاعته وصلاته فقال : الصلاة خير ما ختم به من عمل العبد .

***

ولما كانت خلافة معاوية رضى الله عنه ، وشى زياد والى العراق بحجر بن عدى ، ونسب اليه الخروج على معاوية ، وعزمه على نقض البيعة ، فلما علم معاوية بذلك كتب الى زياد أن أرسل الى بحجر بن عدى وأصحابه لأنظر فى شأنهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : أوَ أمير المؤمنين أنا ؟ اضربوا أعناقهم ! وكانوا ستة نفر من القواد العظام وأصحاب الرأى . فلما ذهبوا بهم الى ساحة الاعدام ، وكانوا قد أعدوا لهم أكفانهم وحفروا قبورهم ، ورأى حجر بن عدى ذلك ، أصابه شىء من الجزع. فقال له بعض من حضر : مثلك يجزع من السيف وأنت أنت ؟ ! فقال له حجر بن عدى : كيف لا أجزع وإنى أرى سيفا مشهورا ، وكفنا منشورا ، وقبرا محفورا ؟ فحفظت عنه وعدت من الأجوبة المسكتة .

وحدث بعد ذلك أن حج معاوية بن أبى سفيان وتوجه لزيارة النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة وبها دار عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فلما استأذن بالدخول منعت عنه الاذن ساعة ثم أذنت له ، فلما سلم قالت : أما خشيت الله يامعاوية فى قتل حجر بن عدى وأصحابه ؟ ! فقال لها : يا أم المؤمنين أنا ما قتلتهم وإنما قتلهم من شهد عليهم .

***

ولما كانت سنة خمس من الهجرة وتألب الأحـزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتجمعت قريش على حربهم ، استشار النبي أصحابه : أى شيء يصدّ عنا عدونا ؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بما كان فيه صد قريش عن المدينة ، فقال : يا رسول الله كنا إذا أوتينا فى بلد خندقنا . فأعجب النبى بهذا الرأى ونادى مناد بحفر الخندق ، فخرج الناس سراعا شيوخا وشبابا ، فقام النبى فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وطلب منه المعونة ثم قال : « وبعد فانى آمركم بالجد والاجتهاد ، ولكم النصر من الله إن أنتم صبرتم ، فاتقوا الله والزموا الطاعة فى العمل ، فانه ما اختلف قوم فى عمل إلا كان الفساد فيه بقدر ما اختلفوا »

ثم توجه نحو الخندق وحـدد لكل رجل عشرة أذرع يعمل فيها ، وبدأ العمل بنفسه تشجيعا لأمته ، وقال حين البدأ : باسم الإله بدينا ، ولو عبدنا ربا غيره شقينا . وتبعه أبو بكر وعمر ، وكانا يحملان التراب مع من يحمـل ، ويسرعان فى الحفر خشية أن يبغتهم العـدو ، وما زالوا يعملون حتى أدرك الصحابة نصب كبير ، فلما رأى النبى نصبهم وما هم فيه من المشقة قال متمثلا بقول عبد الله بن رواحة :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخـره فأكرم الأنصار والمهاجـره

فنشط الناس فى الحفر حتى أتموه فى ستة أيام . وكان ممن يعمل فى الخندق من الشبان زيد بن ثابت وهو متقلد سلاحه ، فغلبته عينه فنام ، فجاء اليه عمارة بن حزم وأخذ سلاحه مازحا ، فلما انتبه زيد بن ثابت فزع على فقد سيفه وقال : سيفى سيفى ! ووافق ذلك أن كان النبى صلى الله عليه وسلم يطوف بالناس ، فلما رأى فزع زيد قال له : نمت يابار حتى ذهب سلاحك ! ثم التفت الى الناس وقال : من له علم بسلاح هذا الغلام ؟ فقال عمارة : أنا يارسول الله ، وهو عندى . فقال له : رده اليه ، أما إنه نعم الغلام ، ولا يروِّع المؤمن المؤمن ويأخذ سلاحه لاعبا !

وجاءت قريش بخيلها ورجلها ، ولما رأت الخندق قال أبو سفيان : إنها لمكيدة ما كانت العرب تعرفها من قبل . ثم تراصت قريش فى ناحيتها ، وأقبـل أحدهم وهو نوفل بن عبد الله المخزومى على فرس له وبدا له أن يخوض الخندق فكبا به فرسه فوقع فى الخندق ، فرجمه المسلمون بالحجارة ، فلما يئس من نجاته نادى وقال : يامعشر المسلمين موتة خير من هذه ! ومازالوا به حتى قضى نحبه ، فعظم على المشركين موته ، فأرسلوا وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه مال كثير ، فجاء الوفد وقال : يا محمد خذ هذا المال وأعطنا جثة نوفل لندفنه . فقال لهم رسول الله : أما نوفل فخـذوه وادفنوه ، أما المال فانا لا نأكل أثمان الموتى ! فاخـذوه وعادوا بالمال .

ولما طال بقريش المقام شدوا رحالهم ، ورأى أبو سفيان قبل العودة أن يرسل الى النبى عليه الصلاة والسلام كتابا يتوعده فيه ، فكتب اليه : « باسمك اللهم فانى أحلف باللات

والعزى ، وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك وأنا أريد أن لا أعود أبدا حتى أستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالخندق ، وهى مكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلافرارا من سيوفنا ولقائنا ، ولك منى يوم كيوم أحد » .

لما قرئ الكتاب على النبى صلى الله عليه وسلم أرسل اليه بكتاب فيه : « أما بعد : من محمد رسول الله الى صخر بن حرب ، فقد أتانى كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت الينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك ياسفيه بنى غالب ! » فلما قرأ أبو سفيان كتاب النبى اليه نادى فى قومه بالرحيل . وفى هذه الحادثة أنزل الله تعالى : « وَرَدَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم يَنَالوا خيرا ، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ ، وكان الله قويًّا عزيزا » ؟

حسن خطاب الوكيل

فضيله الصمت فى موضعه

قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : « أنت سالم ما سكت ، وإذا تكلمت فلك أو عليك » .

وقال : حكيم الصمت زين الحلم ، وعوذة العلم ، يلزمك السلامة ، ويصحبك الكرامة ، ويكفيك مؤنة الاعتذار ، ويلبسك ثوب الوقار .

وقال غيره : لسانك كالسبع إن عقلته حرسك ، وإن أرسلته افترسك .

وقال أبو نواس :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالنطـ ق مغاليق الحمام
إنما السالم من ألـ جم فاه بلجام

وقال أديب : اخزن لسانك كما تخزن مالك ، واعرفه كما تعرف ولدك ، وزنه كما تزن نفقتك ، وأنفق منه بقدَر ، وكن منه على حذر ، فان إنفاق ألف درهم فى غير وجهها ، أيسر من إطلاق كلمة فى غير حقها .

الفيلسوف ابن مسكويه

اختلف الناس فى لقب الفيلسوف أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة مسكويه ، وتارة ابن مسكويه ، ولـكن المتفق عليه أنه أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه . ومعنى مسكويه بالفارسية : رائحة المسك ، كما أن معنى سيبويه : رائحة التفاح .

وإذا تلمسنا حياة ابن مسكويه فيما ترك الـكتاب والمؤرخون ، فما نستطيع كشفه من التراجم الـكثيرة هو أنه ولد حوالى عام ٣٣٠ ﻫ ومات فى ٩ صفر سنة ٤٢١ — ١٦ فبراير سنة ١٠٣٠ وكان مولده بالرى من أسرة فارسية عريقة فى النسب ، وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعيا لها حتى تتزوج بغير أبيه فيتركها وينزح الى بغداد شابا . وابن مسكويه عاش فى العصر العباسى الثالث ، وهو العصر الذى ضعفت فيه الخلافة العباسية وقامت دويلات إسلامية صغيرة لا تعترف للخليفة الاسلامى إلا بالصفة الاسمية فقط . ويهمنا فى بحثنا هذا من هذه الدويلات الدولة البويهية (٣٢٠ — ٤٤٧ ﻫ) لأن ابن مسكويه عاش ومات فى رعايتها .

والدولة البويهية كانت مظهرا من مظاهر النشاط الفارسى الذى كان يرمى الى الانفصال عن سيادة العباسيين ، والى استعادة مجد فارس القديم ، وكان ملوك هذه الدولة يمجدون العلم والأدب ، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا رجال القلم وقادة الرأى والفـكر . فنهم المهلبى ، وابن العميد ، وابن عباد ، وغيرهم .

امتاز هذا العصر الذى نشأ فيه ابن مسكويه بنضوج العلم وتكوين معاجم اللغة ، ونمت الفلسفة وأزهرت ، واستقرت نظريات الطبيعة والطب ، واتسع خيال الشعراء ، ونما فن التاريخ ، وظهر النقد الأدبى (انظر تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان) . فلا عجب إذا ظهر فى هذا العصر أمثال ابن سينا والهمذانى والخوارزمى والمتنبى والأصفهانى والقالى والثعالبى وأبو حيان التوحيدى والصابى والشريف الرضى والتنوخى والطبرى .

اتصل ابن مسكويه بالوزير المهلبى حوالى سـنة ٣٤٨ ﻫ ، ويدخل فى خـدمته كـكاتم لسره ، ويبقى الى جانبه ينادمه ويسامره حتى عام ٣٥٢ ﻫ وهو عام وفاة الوزير ، ثم يعـود الى الرى حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم ابن العميد ، وينال ثقته ومحبته وصداقته ، ويبقى معه حتى عام ٣٦٠ ﻫ وينتقل بعـد وفاته الى خدمة ولده الوزير أبى الفتح ، وبقى فى خدمته حتى تنكر له الدهر ، ودخل الوزير السجن سـنة ٣٦٦ ﻫ ثم التحق بعـد ذلك بخدمة الملك الظافر عضد الدولة الذى استولى على بغداد وغدر بسلطانها عز الدولة أشـنع غدر ، كما التحق

بخدمة صمصام الدولة ، وهكذا ظل ابن مسكويه يتنقل من خدمة وزير الى سلطان فى ظل الدولة البويهية حتى أحس بدنو الأجل فانتقل الى أصبهان حيث مات سنة ٤٢١ ﻫ ودفن فى محلة حاضو بقبر مشهور معروف .

ثقافته وأخلاقه :

كانت ثقافة ابن مسكويه واسعة ، فقد تزود من مجالس العلم ودور الكتب ، وعنى عناية خاصة بالأخلاقيات ، فدرس حكم الفرس والعرب والهنود والروم ، وجمع ما وافق هواه من هذه الحكم الأخلاقية وأخرجه فى كتاب لايزال مخطوطا . هذا بجانب ماقرأه من كتب الحكمة عندأرسطو وأفلاطون وجالينوس ، حتى لقد دفعه حرصه الشديد الى الاطلاع على كل ماعرفه العرب من مؤلفات اليونان . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق قلبه فنراه يقتفى أثر مناهج اليونان فى عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية التى كانت سائدة فى عصره حيث كانت الحالة الخلقية لذلك العصر لم تك لتساير الحالة العلمية فى الرقى والاطراد ، بحيث أصبح العالم الاسلامى فى هذا العصر ميدانا للتنافس وازدحام الأهواء والشهوات ، والاستباق الى مظاهر الفوضى والاضطراب حيث صلحت الحياة العقلية صلاحا لم يعرفوا له مثيلا من قبل .

لهذا لم يقف ابن مسكويه فى درسه الأخلاق عند الحدود التى رسمها الدين ، بل اتخذ العقل أساس الأخلاق ، فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ، ولا يجتنب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل مايفعل ويترك ما يترك وفقا لما اطمأن به عقله وأمر به وجدانه فىحدود النفع والمنطق والحق .

وإليك دستوره الأخلاقى فى نظام السلوك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعاهد عليه أحمد بن محمد ربه ، وهو يومئذ آمن فى سربه معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة ، عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم ، وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولاغضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ليصلح أولا نفسه ويهذبها ، ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها ، وهى خمسة عشر بابا :

« إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر

فى الأفعال ، وكثرةُ الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك مابينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التى تحصل فى شىء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل ، وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل ، وصرف البال اليه » (معجم الأدباء ص ٩٥ ، ٩٦ ج ٢) .

الأخلاق عند ابن مسكويه :

ليس لابن مسكويه رأى خاص فى الخلق ، وإنما يتخير من بين الآراء مايتفق مع المنطق والعقل ، وأغلب آرائه الأخلاقية تعتمد على المشاهدة والاختبار . لهذا تأخذه الحيرة عند تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء ، فهو تارة مع جالينوس ، وتارة مع أرسطاليس ، وطورا مع العقل ، وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ومن هنا جاء ترتيبه لآراء الحكماء فى الخلق مشوها سيئا فى أكثر الأحوال .

وابن مسكويه فى كتابته عن الأخلاق لا يكتب لعامة الناس وإنما للخواص ، فيخاطب من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون البرهان والقياس . ولقد تجلت قوة ابن مسكويه فى كتابه التاريخى الجليل : تجارب الأمم وعواقب الهمم ، حارب فيه الرذائل المتفشية بين أهل زمانه ، وحمل الكتاب والعلماء مسؤولية إهمال الفساد ، وأن السكوت عن المعاصى جريمة . وقد أعجب المستشرقون بذلك الكتاب وبدقته العلمية ، وطبعته لجنة جيب التذكارية ، ومجده الأستاذ مرجليوث فى مقدمة لكتابه الانجليزى : سقوط الخلافة العباسية ، وفى كتابه : محاضرات فى مؤرخى العرب . ولابن مسكويه غير هذا الكتاب كتاب « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، جمع فيه آداب العرب والفرس والهنود والروم ، وجعله مصداقا للقوانين الخلقية التى ذكرها فى التهذيب . وله كذلك رسالة صغيرة فى السعادة كتبها لصديقه ابن العميد لا تخرج فى معناها عما فى التهذيب ، وكتاب ثالث يسمى بالفوز الأصغر ، ويعتبر أساسا لفلسفته الخلقية وإيمانه الدينى الفلسفى . وهذان الأخيران مطبوعان . أما الأول فما يزال مخطوطا بمكاتب أوربا ولا سيما مكتبة باريس الأهلية .

كتاب تهذيب الأخـلاق وتطهير الأعراق :

هو الـكتاب الذى أوصى الامام محمد عبده بتدريسه فى الأزهر الى جانب الإحياء للغزالى ، والذى قام المرحوم على باشا رفاعه بنشره وتبويبه ، والذى شرع الزعيم الخالد سعد زغلول فى اختصاره والتعليق عليه دون أن يتمه .

وقد أعجب الطوسى بهذا الـكتاب كل الإعجاب فترجمه الى الفارسية وقال عنه :

بنفسى كتاب حاز كل فضيلة　　وصار لتـكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق خالصا　　بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمـه باسم الطهارة قاضيا　　به حق معناه ولم يك مائنـا
لقـد بذل المجهود لله دره　　فما كان فى نصح الخلائق خائنا

والـكتاب يقع فى ست مقالات كلها تدور حول الأخـلاق . ولذلك نرى ابن مسكويه فى كتابه يفرق فى المقالة الأولى بين النفس والجسد تفريقا يثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها فى تصيير الجسد الى عقـل وفكر وإحساس وإدراك ليقـوم الجسد بوظائفه وتحتفظ النفس باستكنانها داخل هذا الغلاف الموقوت . ونراه فى الثانية يتناول خلق الانسان وقابليته للتغير والتهذيب والتكييف وما تتركه المعرفة من الأثر المباشر فى العمل الأخلاقى . أما المقـالة الثالثة فيتناول موضوع السعادة فيشرحها ويعرضها عرضا عقليا ، ويناقش العلة والمعلول بالدليل ونفاذ الرأى . أما المقالة الرابعة ففيها تحديد الأعمال الخلقية وتمييزها عن غيرها ، وينتهى منها الى المقالة الخامسة التى يبسط فيها صنوف المحبة وأنواع الصداقة . وفى النهاية يضع أمامنا صورة واضحة وضاءة عن كيفية المحافظة على الصحة لتستقر النفس فى هدوء .

والـكتاب يعتمد على الاستقراء العلمى الصحيح ، ويتمشى الفكر فيه على نظـام الـكون ، وأن الانسان عالم صغير انطوى فيه العالم الأكبر . هذا الى إثبات أن ما جاء فى القرآن الـكريم يتفق مع حكماء اليونان من جهة الثقافة الخلقية ؟

عبد الحميد سامى بيومى

فى مدح الكتابة والكتاب

قال كاتب : « لو أن فى الصناعة صناعة مربوبة ، لـكانت الـكتابة ربا لـكل صناعة » .

وقيل فى مدح الـكتاب :

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب　　ثم استمدوا بهـا ماء المنيات
نالوا بهـا من أعاديهم وإن بعدوا　　ما لا ينال بحـــــد المشرفيات

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

وقفنا بالقارئ فى البحوث السابقة عند الكلام عن نظار الأوقاف وتواكلهم فى أداء مأمورياتهم ومحاولتهم الفرار من المسئوليات القضائية، والشكوى الصارخة من جانب الهيئات والأفراد من تصرفاتهم، وأجرة الناظر وكيف تجب ولمن تجب. غير أن البحث لم يستوف حقه من الكشف والايضاح، لذلك أحببنا اليوم أن نعرض لأجور النظار وكيف أن المشترعين رخصوا لهذه الفئة أن يكون لها أجر فى مقابلة عملها حتى لا تثور بها أطماعها على حقوق المستحقين.

فالأجر للناظر يقابله العمل من جانبه فى التصرفات الداخلة فى حدوده، فما دام فى مكنته القيام على إدارة الوقف فهو مستحق للأجر الذى عينه له الواقف فى كتاب وقفه أو حدده القاضى بأجر المثل إذا أغفل الواقف التنصيص عليه. فلو عجز عن أداء إدارة الوقف بسبب كارثة نزلت به، أو عزله القاضى بسبب خيانة متصلة بعمله، أو فسق فسقا له اتصال بادارة الوقف، أو نحو ذلك، فليس له فى هذه الأحوال كلها أجر، لأنه لم يؤد عملا، فلا يستحق عليه أجر، إلا إذا أباح الواقف فى إشهاد وقفه لذلك الناظر أن يأخذ أجره مادام على قيد الحياة محررا من كل قيد آخر يربطه بادارة الوقف ويعلق فى عنقه نوعا من تلك الالتزامات الواجبة على الناظر. وفى هذه الحالة يبقى الأجر مقصورا عليه حيا فاذا مات فلا شىء منه لعقبه إلا إذا أباح الواقف تعدى هذا الأجر الى من يليه من الأعقاب أو الأخوات أو الأصول أو الفروع إطلاقا، فالمناط لهذا الحكم تنصيص الواقف فى كتاب وقفه. فاذا ظهر للقاضى أن هذا الناظر الذى عجز عن أداء ما وكل اليه أداؤه وليس فى مكنته عزله بأن كان الواقف قد سماه فى إشهاد وقفه أو كان فى بقائه ناظرا لهذا الوقف صون لحقوق المستحقين، إما لوجاهته فى قومه، وإما لنفوذه وسعة جاهه، جاز للقاضى أن يضم اليه ثقة، وفى هذه الصورة جاز له أيضا أن يعطيه شيئا من نصيب ذلك الناظر إذا اتسع لهذا الاعطاء، فاذا لم يتسع له فرض القاضى نصيبه فى غلة الوقف.

وليس فى كتب الفقهاء عمل إحصائى يحدد تصرفات ناظر الوقف ويحصرها حصراً معيناً، لأن استقصاء الجزئيات المتعلقة بتصرفات نظار الأوقاف غير ميسور، غير أنهم وضعوا لتصرفات نظار الأوقاف ضابطا عاما وهو أن على ناظر الوقف أن يؤدى الى العين الموقوفة كل مافيه مصلحة لاستبقائها قائمة بالتزاماتها وبغلاتها استبقاء مؤبدا، والى المستحقين ما يكفل صون حقوقهم من العبث والضياع.

وأجاز له علماء الفروع أن يبنى قرية أو عزبة لسكنى الزراع ومن فى حكمهم ممن يباشرون العمل فى العين الموقوفة ، كما أجازوا له إذا وقعت العين على مقربة من إحدى المدن الآهلة بالسكان أن يبنى دورا للسكنى أو مدارس أو ملاجئ أو مستشفيات إرادة استغلالها فى مصلحة الموقوف عليهم ، على شريطة أن تسفر الموازنة عن أرجحية إقامة تلك المنشآت ، حتى وإن لم يكن ذلك منصوصا عليه فى إشهاد الواقف ، وأن يشترى من غلة الوقف على المسجد كل ما فيه مصلحة له وضمان لاستمرار أداء الشعائر الدينية على وجه لا يتعارض مع المألوف ، وذلك ظاهر التصرف فى حالة ما إذا وقف الواقف العين على مصالح المسجد ، أما إذا وقف العين على إصلاح المسجد وتعميره فليس للناظر أن يعدو هذا التعمير وذلك الانشاء الى شىء آخر لم ينص عليه الواقف . لكن قال العلامة صاحب البحر : وفى هذا التشقيق إشكال قوى فان الواقف إذا وقف عينا على مسجد مثلا واشترط فى إشهاد وقفه أن تصرف هذه الغلة على تعميره وترميمه واستبقائه قائم الجدران والأبنية لكن تبين أن تلك الغلة لا تتسع إلا لهذا التعمير وذلك الترميم وأن مصالح المسجد البادية فى إضاءته وفرشه وتعيين من ينظفه ومن يقوم على حراسته ومن يؤم الناس فى الصلاة ومن يخطبهم ومن يؤذن فيهم ومن يؤدى الشعائر الدينية الأخرى لا تتسع له غلة الوقف فأين هى المنفعة البادية فى وقف تلك العين على المسجد إذا لم تقم فيه الشعائر الدينية ويذكر فيه اسم الله كثيرا ؟ ألا يكون من الواجب فى هذه الحالة أن يترك الأمر لناظر الوقف دون أن يتقيد بحجة الواقف ؟ وفى هذه الصورة يجوز له أن ينشأ فى المسجد ما تدعو اليه الضرورة الملحة من الأبنية مع إقامة الشعائر الدينية من غلة الوقف وإن لم ينص عليها الواقف . وهو كلام لا خفاء فيه ، فمن المسلم به عند علماء الفروع أنه يباح لناظر الوقف إذا فضلت من غلة وقف المسجد بقية أن يصرفها فى دفع الكوارث التى تنزل بالمسلمين إذا كانت غلبة الكفار عليهم محتملة الوقوع ، ففى هذه الحالة يجوز لناظر الوقف أن لا يتقيد بشرط الواقف ، وأن يدفع مما فضل من عمارة المسجد الجامع ومن حق الفقراء فى سبيل المنافع العامة التى تكفل بقاء كلمة الاسلام عالية مسموعة واجبة الطاعة والاحترام ، وإن اشترطوا أن لا ينفذ ذلك إلا بإذن من القاضى ، فعلى كل من التقديرات ليس لناظر الوقف أن يتقيد بنص الواقف إذا كان هذا النص لم يصادف موئلا شرعيا .

ونأمل أن يكتب التوفيق المتلاحق فى سد رغبات المتقاضين وقطع أسباب شكواهم عندما يأتى دور البحث عن نظام الوقف فى القانون الموضوعى الذى تبحث أحكامه الصالحة لجنة من خيرة العلماء وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ؟

عباس طه

الشاى المغشوش

جاءنا من سعادة اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة ما يلى :

يسرنى أن يتعاون معى حضرات قراء جريدتكم الغراء فى دراستى لعادتين هما وإن لم تكونا غير مشروعتين إلا أنهما فيما أعتقد تسببان ضرراً جسيما للفلاحين بهذه البلاد .

أما أولى هاتين العادتين فهى زيادة الاستهلاك من الشاى المغشوش . هذا الشاى به جزء صغير من الشاى الحقيقى وإنما معظمه يتركب من أوراق السنط وقشر الفول وأوراق شاى سبق استعماله مصبوغة بلون الشاى .

وهذا الخليط يوضع فى لفات (بكتات) مختومة ويباع فى جميع أنحاء القطر . ولما كان لا يشمل أية مادة محرمة فان عمل البوليس فى الوقت الحاضر مقصور على محاكمة الجانى على الغش أى بيعه باسم شاى مادة معظمها ليس بالشاى ، ولكن عندما يصدر القانون الخاص بغش المواد الغذائية يكون عمل البوليس أكثر سهولة وأكثر تأثيراً .

وإنه ليسرنى أن أتلقى ملاحظات حضرات القراء عن الآتى :

١ — مدى انتشار هذه العادة .

٢ — المقادير التى يستهلكها شاربو الشاى شهريا ومقدار تكاليفها .

٣ — ما هى أسباب ميل الناس الى العادة المذكورة ؟

٤ — هل لهذه العادة تاثير ضار ؟ وفى حالة الإيجاب ما هى الأضرار ؟

٥ — ما هو تأثير هذه العادة على قوة الشخص فى عمله ؟

٦ — هل هذه العادة تخلق الميل للاجرام ؟

والعادة الثانية هى أكل جوزة الطيب .

فى اعتقادى أن هذه العادة انتشرت فى السنوات الأخيرة انتشاراً واسعا جداً ، لأن جوزة الطيب معروف عنها أنها مقوية ، ونسبيا عديمة الضرر إلا إذا أخذت بافراط ، وقد قيل إنه حدثت وفيات بسبب تعاطيها بافراط .

وجوزة الطيب هى فى الوقت الحاضر أهم عنصر فى أنواع المنزول المختلفة ، لذلك يهمنى الحصول على أية أرقام أو معلومات عنها .

وإننى بصفتى مدير مكتب المخابرات العام للمواد المخدرة أكون ممتنا جداً لو تفضل حضرات قرائكم المحترمين بموافاتنا بمعلوماتهم عن هاتين العادتين .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

تعديل نظام الاشتراك فى مجلة الازهر

حذف الوكلاء والعملاء والمحصلين للاشتراكات

جرت مجلة الأزهر منذ أن تأسست الى اليوم على مبدأ جواز تأجيل دفع الاشتراك الى آخر السنة ، فابتنى على ذلك وجوب التعويل على نظام الوكالة فى التحصيل ، وهو مبدأ قديم عقيم جر الى عواقب سيئة على الجرائد والمجلات التى أخذت به ، فاضطرت الى تركه والتعويل على القاعدة الحديثة وهى دفع قيمته مقدما .

لهذه الطريقة فائدة للمشتركين وللصحف معا . فأما فائدتها للاولين فلانها تجنبهم ثقل المطالبة التى ربما وقعت فى وقت لا يرى المشترك أن يدفع فيه ماعليه ، فيضطر إما الى إرجاء الدفع وفى ذلك من الضرر المالى على الوكيل ما فيه ، وإما الى الدفع وفيه من المضض على نفسه ما فيه . فالمطالبة على أية حال ثقيلة على النفس ، ويجب تجنبها ما وجدت الى ذلك سبيل .

وأما ضررها على الصحف ، فلانها لا تسمح لها بعمل ميزانية سنوية مضبوطة ، فلا تعلم حالتها المالية على وجه التحقيق ، إلا بالمقارنات ، ونظام الوكالة ينشئ لادارة المجلة بطبيعة عمله متاعب لا تحصى بسبب تحرير كشوف للتحصيل ، وتسديد المتحصل ، وتسرب الخطأ اليه ، والخلافات التى تثور بذلك السبب بين الادارة والمشتركين ، وبين هاتين الناحيتين والوكلاء ، ونتيجة كل هذا إضاعة أوقات الكتاب ، وشغل وقت المدير ، وتكلف الوكلاء الذهاب والمجىء وسوء ظن المشتركين .

كل هذه المشاكل يحلها شىء واحد ، وهو أن يدفع المشتركون بدل الاشتراك مقدما لادارة المجلة (مباشرة) أو (لمكتب بريد) بدون وساطة محصل ، ولمن شاء منهم تقسيط قيمة الاشتراك فله ذلك بشرط أن يؤدى الأقساط بدون مطالبة .

وقد رأت إدارة هذه المجلة أن تستغنى عن جميع الوكلاء والعملاء والمحصلين ، وهى تصرح لجميع قرائها أنها أصبحت غير مسئولة مذ الآن عن أية قيمة تدفع لأى إنسان ، فليس لها من يمثلها من الناحية المالية غير قلم كتابها ومكاتب البريد .

فنرجو حضرات قارئينا أن يعينونا على الجرى على هذه القاعدة من أول المحرم سنة ١٣٥٨ فإنها أولى بكرامة هذه المجلة ، وكرامة قرائها ، وكلهم من العلماء والوجهاء والمعلمين وكبار الطلاب .

أما من يكون من حضرات القراء مدينا للمجلة بسنتين فأكثر بسبب تأخر الوكيل عنه أو غير ذلك ، فانا نعتبر ما يدفعه أداء لاشتراك السنة الجديدة ، ونقبل منه أن يقدم لنا كلما سنحت له الفرصة جزءا من المتأخر عليه حتى يؤديه .

وقد رأت إدارة المعاهد الدينية أن تحدث تعديلا فى قيمة الاشتراك فجعلتها (عشرين قرشا) للكافة بدون استثناء ، و (عشرة قروش) لطلاب الجامعة الأزهرية خاصة ما داموا فى دور التحصيل .

وعليه فنرجو حضرات قرائنا أن يقدموا لنا قيم اشتراكاتهم قبل أول العام الهجرى الجديد ، لنقيد أسماءهم فى سجلات جديدة ، ولتصل اليهم أعداد المجلة فى وقت صدورها بانتظام .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

الفلسفة الاغريقية :

صدر الجزء الثانى من كتاب تاريخ الفلسفة للاستاذ الألمعى الدكتور محمد غلاب وهو الكتاب الذى سبق لنا أن نشرنا مقدمته فى أحد أعدادنا الماضية ، وقد ذكر فيه أهم فوائد هذا التاريخ فقال : (أولها) خلق روح النقد عندنا بهيئة قوية لا تتيسر فى مادة أخرى . . . و (ثانيها) تشبع نفوسنا بحب الحقيقة . . . ثم قال حضرته : وهناك ثمرة أخرى عملية وهى تشبعنا بحب الخير والفضيلة والتضحية والسمو الخ .

لهذه الغايات الكريمة يعمل الدكتور غلاب وقد وصل منها الى مدى بعيد من النجاح والفلج ، فقد أتم طبع الجزء الأول منه وموضوعه تاريخ الفلسفة فى الشرق : فلسفة المصريين والهنديين والايرانيين والصينيين . ثم أتبعه بالجزء الثانى وموضوعه تاريخ الفلسفة اليونانية وناهيك بما فيهما من مذاهب وآراء ، وآفاق فسيحة للنظر والتأمل ، وقد سلك الدكتور المؤلف فى وضع الجزء الثانى المسلك الذى سلكه فى سابقه من حسن التقسيم ، ودقة التبويب ، والوفاء بدراسة الموضوعات دراسة فنية .

لا جرم أن الأستاذ الدكتور غلاب قد قام بعمل كانت المطبوعات العربية فى أشد حاجة اليه ، فقد أوجد مرجعا لتاريخ الفلسفة على نحو المراجع الغربية وفى مثل درجتها من التدقيق والتمحيص والتوفية . وهذه خدمة تذكر وتشكر ، ويسجلها له تاريخ الأدب العربى فى أوجه صفحاته .

رسالة التوحيد والاسلام والنصرانية .

للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله رسالتان اشتهرتا فى الخافقين وطبعتا مرارا ، وهما رسالة التوحيد ورسالة الاسلام والنصرانية ، وقد عنيت بهما دار المنار عناية عظيمة فى مدة مؤسسها الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله ، ولاتزال هذه الدار تعنى بهما تحت إشراف أنجاله . وقد تفضلوا باهدائنا بنسختين من طبعة جديدة لهما فنلفت اليهما الأنظار .

خالد بن الوليد سيف الله :

كتاب عظيم القيمة التاريخية لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو زيد شلبي المدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيوط ، يقع فى نحو مائتين وخمسين صفحة ، وهـو أكبر سيرة رأيناها لبطل من أبطال الاسلام من وضع أبناء العهد الحديث ، وإن خالدا ليستحق هذه العناية فقد أبلى فى جهاد الوثنية بلاء محمودا ، ومهد للفاتحين وقادة الجماعات طريق البطولة ، ووضع للمخلصين لمبادئهم مثلا أعلى ليس فوقه مرتقى .

وقد وفى فضيلة الأستاذ أبو زيد هذا المقام حقه من البحث والدرس والتمحيص . فنشكر له هذا العمل الطيب وفقه الله لأمثاله .

النبوغ المغربى فى الأدب العربى :

كتاب يقع فى جزأين يبلغ مجموع صحفهما ٦٨٠ صفحة جمع فيها مؤلفه الفاضل صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله حنون الحسنى، مدير المدرسة العربية بطنجة ، كل مايهم الباحث معرفته فى الناحية الأدبية والعلمية والاجتماعية من تاريخ المغرب الأقصى ، فجاء هذا الكتاب تتمة حلقة ثمينة فى سلسلة الأدب العربى قيمتها لا تقدر ، وقد طبعه بالأحرف المصرية فى تطوان ، فنثنى على جهد المؤلف الذى بذله فى جمع الطرائف الأدبية والتراجم التى أودعها هذا الكتاب ، ونرجو لعمله الذيوع والانتشار .

التحقيقات الواضحة فى تفسير سورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة وآية الكرسى .

كتاب ممتع وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسينى الظواهرى المدرس بكلية أصول الدين ، جاء فيه بتفسير جليل القيمة العلمية لسورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة وآية الكرسى ، جرى فيه على أسلوب فى تحقيق المسائل وتمحيصها لايدع للناظر فيه حاجة للمزيد ، وجمع فيه من شوارد المعانى ، وطرائف المعارف ما يتعذر اجتماعه فى مجال محدود ، فنشكر لفضيلة الأستاذ الجليل هذه الأطروفة العلمية راجين منه المزيد .

اعتذار

لدينا مؤلفات أخرى لم يتسع المقام للكلام عنها فى هذا العدد فنرجئه للعدد القادم إن شاء الله ؟

الفهرس العام

للسنة التاسعة (١٣٥٧ هـ) من مجلة الأزهر

تصحيح

ص	س	
٣٢	٢٥	بالسوط
١٢١	٢٤	وما ربك
٢٩١	٥	ثمانين جلدة
٣٣٢	١٤	أخا أبى سلمة
٤٥٢	١٦	سنة ٢١
٦٤٢	٢٦	المسيح ابن

said to him:—It would have been sufficient for thee...—' 'Dost thou not see that cUmar was not convinced by his words?' replied cAbdullâh. 'Then', said Abu Mûsa, 'let us leave cAmmâr's statement out of account; what dost thou make of this verse of the Qur'ân[1]?' Then cAbdullâh, not knowing what to answer, said: 'f we allowed them this concession, it would not be long before any of them who found the water too cold would leave it for a dry ablution'.

I said to Shaqíq—added Al-Ac-mash—'So he was averse to this concession only for that reason!' 'Yes', replied he."

عمّارٍ حينَ قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم:
كَانَ يَكْفِيكَ ....؟ قالَ: أَلَمْ تَرَ عُمَرَ
لم يَقْنَعْ بذلكَ؟ فقالَ أَبُو مُوسَى: فَدَعْنَا
مِنْ قَوْلِ عمّارٍ، كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ؟
فَمَا دَرَى عَبْدُ الله ما يَقُولُ، فَقَالَ: إِنّا لَوْ
رَخَّصْنَا لَهُمْ فِي هَذَا لأَوْشَكَ إِذا بَرَدَ عَلَى
أَحَدِهِم الماءُ أَنْ يَدَعَهُ وَيَتَيَمَّمَ،
«فَقُلْتُ لِشَقِيقٍ: فَإِنَّمَا كَرِهَ عَبْدُ الله
لِهَذَا! قال: نَعَمْ.»

1. Surah 5: 6. "If ye fail to find water, then perform a dry ablution."

1. We are informed by Bishr b. Khâlid, who had it from Muhammad surnamed Ghundar, through Shu^{c}bah, through Solaimân, through Abu Wâ^{s}il, who stated that Abu Mûsa said to ^{c}Abdullâh b. Mas^{c}ûd:

"If a man *in a state of janâbah* cannot find water, is he to cease from prayer?" To this ^{c}Abdullâh replied: "If I were to allow a dry ablution for those in a state of janâbah, the result would be that if any of them thought it too cold, he would do so."—meaning: he would make a dry ablution and perform his prayer.[1]

"I said," continued Abu Mûsa, "Then what about the words of ^{c}Ammâr to ^{c}Umar?" "I do not consider that ^{c}Umar was convinced by the words of ^{c}Ammâr," replied ^{c}Abdullâh.

2. We are informed by ^{c}Umar b. Hafs, who had it from his father, who received it from Al-A^{c}mash, who heard Shaqîq b. Salamah say:

"I was once with ^{c}Abdullâh and Abu Mûsa when the latter said: 'What is thy opinion Abu ^{c}Abd-ur-Rahmân[2],—if a man be in a state of janâbah and fail to find water, what is he to do?' 'He must not pray until he find it,' replied ^{c}Abdullâh. 'Then', said Abu Mûsa, 'what dost thou make of the words of ^{c}Ammâr when the Prophet (Allâh bless him and give him peace)

١ ـ حدثنا بشر بن خالد قال حدثنا محمد، هو غُنْدَر، عن شعبة عن سليمان عن أبي وائل قال قال أبو موسى لعبد الله ابن مسعود :

« إِذَا لَمْ تَجِدِ المَاءَ لاَ تُصَلِّ ؟ قال عبد الله : لَوْ رَخَّصْتُ لَهُمْ فِي هَذَا كَانَ إِذَا وَجَدَ أَحَدُهُمُ البَرْدَ قالَ هَكَذَا ـ يَعْنِي تَيَمَّمَ وَصَلَّى ،

« قال قُلْتُ : فَأَيْنَ قَوْلُ عَمَّارٍ لِعُمَرَ ؟ قَالَ : إِنِّي لَمْ أَرَ عُمَرَ قَنِعَ بِقَوْلِ عَمَّارٍ . »

٢ ـ حدثنا عمر بن حفص قال حدثنا أبي قال حدثنا الأعمش قال سمعت شقيق ابن سلمة قال :

« كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ وَأَبِي مُوسَى فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى : أَرَأَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ إِذَا أُجْنِبَ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً كَيْفَ يَصْنَعُ ؟ فقال عبدُ اللهِ : لاَ يُصَلِّي حَتَّى يَجِدَ الْمَاءَ ، فقالَ أَبُو موسى : فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِ

1. This explanation was made by Abu Mûsa the narrator.
2. The agnomen of ^{c}Abdullâh b. Mas^{c}ûd.

of this woman without ever attacking the settlement to which she belonged. So one day she said to her people: 'What I believe is that these people are leaving you in peace purposely, will ye then embrace Islâm?' They followed her counsel and embraced Islâm."

الصِّرْمَ الَّذِي هِيَ مِنْهُ ، فَقَالَتْ يَوْمًا لِقَوْمِهَا : مَا أَرَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَدْعُونَكُمْ عَمْدًا ، فَهَلْ لَكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَأَطَاعُوهَا فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ » .

Al-Bukhâri added: صبأ is a verb meaning to desert a faith for another. Abu-l-ᶜAliyah also stated that the Sabians[1] are a sect of people of a revealed Book who recite the Psalms.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ : صَبَأَ خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى غَيْرِهِ

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : الصَّابِئُونَ فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ الزَّبُورَ .

CHAPTER 7.

— ٧ —

If a man in a state of janâbah is afraid that sickness or death may ensue *from the use of water*, or if he is afraid of thirst, he may perform a dry ablution;

بَابٌ : إِذَا خَافَ الْجُنُبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمَرَضَ أَوِ الْمَوْتَ أَوْ خَافَ الْعَطَشَ يَتَيَمَّمُ ،

and it is stated that ᶜAmr b. Al-ᶜAs became junub on a cold night, and performed a dry ablution, then reciting these words from the Qurˢân: "...and destroy not your lives[2], for verily Allâh is all-merciful unto you[3]." This was mentioned to the Prophet (Allâh bless him and give him peace), and he did not reprove him.

وَيُذْكَرُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ أَجْنَبَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَتَيَمَّمَ وَتَلَا : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يُعَنِّفْهُ :

---

1. A semi-Christian sect of Babylonia, who, possessing a written revelation, enjoyed more toleration than the heathen. It is suggested that the name was applied by the Makkan idolaters to Muhammad and his converts on account of their frequent ceremonial ablutions, although Al-Bukhâri does not take this view.

2. Not only literally, but also in the sense of "do not endanger your lives," either materially or spiritually. (Al-Baidâwi) — Surah 4 : 29.

3. These words give the clue to the text, for if Allâh is merciful to you, you should be merciful to yourselves.

Verily by Allâh when the Faithful ceased to draw water, the water-skins seemed to us fuller than when he first began to draw from them. The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then commanded the Faithful to make a collection for the woman, and they collected for her, with pressed dates, flour and sawîq[1], enough for a meal. They placed it in a gown, and helping her upon her camel, they put the garment before her and said: 'Thou hast seen that we have diminished thy water no whit, but that it is Allâh that hath given us water'.

«وَايْمُ اللهِ لَقَدْ أُقْلِعَ عَنْهَا وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنها أَشَدُّ مِلْأَةً مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا! فقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: اجْمَعُوا لَهَا، فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ ودَقِيقَةٍ وسوِيقَةٍ حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا فجعلوهَا فِي ثَوْبٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قال لها: تَعْلَمِينَ مَارَزِئْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئًا وَلَـكِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا

The woman went back to her people, and as she has been long away from them they said: 'What hath delayed thee?' 'A marvel«' replied she. 'Two men met me who took me to that man known as the renegade. He did such and surh; and by Allâh, he is the greatest magisian among men between this and that'. So saying she pointed with her middle finger and forefinger[2] raising them towards the sky to indicate heaven and earth. 'Nay rather, he is verily in truth the Messenger of Allâh!'

«فَأَتَتْ أَهْلَهَا وَقَدِ احْتَبَسَتْ عَنْهُمْ قَالُوا: مَا حَبَسَكِ يَا فُلَانَةُ؟ قالت: العَجَبُ! لَقِيَنِي رَجُلَانِ فَذَهَبَا بِي إِلَى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، فَفَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَأَسْحَرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ هذهِ وَهَذِهِ - وقَالَتْ بِإِصْبَعَيْهَا الوُسْطَى والسَّبَّابَةِ فَرَفَعَتْهُمَا إِلَى السَّمَاءِ تَعْنِي السَّمَاءَ والأَرْضَ - أَوْ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ حَقًّا!

The Faithful after that proceeded to make raids on such idolators as were living in the neighbourhood

«فكَانَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ ذلك يُغِيرُونَ عَلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنَ المُشْرِكِينَ وَلَا يُصِيبُونَ

1. Roast corn ground ready for mixing with water, milk or broth.
2. The forefinger is raised symbolically by Muslims in prayer on mentioning the unity, whereas the two are raised together in disputing.

'Where is water?' they asked her. 'I last saw it this time yesterday', said she, 'and our men have gone away and left us behind'. 'Ride on then', said they. 'Whither?' asked she. 'To the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace)', replied they. 'The man known as the renegade?' said she. 'He is the man thou meanst,' replied they, 'ride on then.'

فقالا لها : أين الماء ؟ قالت : عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوف، قالا لها : انطلقي إذاً ، قالت: إلى أين ؟ قالا: إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : الذي يقال له الصابئ ؟ قالا : هو الذي تعنين فانطلقي ،

They then led her to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and told him the story. She was then helped down from her camel—added ᶜImrân—and the Prophet (Allâh bless him and give him peace) called for a vessel into which he poured out some water from the mouths of the two water-skins[1], thying them up again and opening their lower orifices. All the Faithful were called to drink and to water their beasts, each man drinking his fill and giving his beast as much as he desired. Last of all he gave the man that had been overtaken by janâbah a vessel of water, commanding him to go and pour it out over himself. Meanwhile the woman was standing watching what was being done with her water.

«فجاءا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحدثاه الحديث ، قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين (أو السطيحتين) وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي ، ونودي في الناس : اسقوا واستقوا ، فسقى من شاء واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال : اذهب فأفرغه عليك ، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها ،

---

1. At-Tabarâni and Al-Baihaqi include a passage here which elucidates the hadîth. After pouring out the water the Prophet rinsed his mouth with it ejected it into the vessel and then put the water back into the water-skins This passage explains his tying up of the mouths of the water-skins again.

on your march.'[1] They did so and he had not proceeded far before he dismounted and called for water; and after he had performed his wudû[s], the call to prayer was made when he led the Faihful in prayer.

And when he had finished his prayer, he noticed a man standing apart, who has not prayed with the rest of the Faithful. 'What hath prevented thee, said he, (naming the man)[2] from performing the prayer with the rest of the Faithful?' 'I have been overtaken by a state of janâbah,' replied the man, 'and there is no water'. 'Use the clean dust,'[3] replied he, 'for it is sufficient for thee'

Then as the Prophet (Allâh bless him and give him peace) continued his journey, the Faithful complained to him of thirst, so he dismounted and called a certain man[4] (Abu Rajâ[s] used to name him but [c]Auf forgot him) and he also called [c]Ali, saying: 'Go ye and look for water.' Whereupon they set out and met a woman riding on her camel between two large skins[5] full of water.

يضيرُ) ارْتَحِلُوا ، فَارْتَحَلُوا ، فَسَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِالوَضُوءِ فَتَوَضَّأَ وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى بِالنَّاسِ ،

« فَلَمَّا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ لَمْ يُصَلِّ مَعَ القَوْمِ ، قَالَ : مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ القَوْمِ ؟ قَالَ : أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ ، قَالَ : عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ ،

« ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَاشْتَكَى إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ العَطَشِ ، فَنَزَلَ فَدَعَا فُلَانًا (كَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو رَجَاءٍ وَنَسِيَهُ عَوْفٌ) وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ : اذْهَبَا فَابْتَغِيَا المَاءَ ، فَانْطَلَقَا فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ (أَوْ سَطِيحَتَيْنِ) مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا ،

---

1. The reason for the Prophet's decision to leave the place immediately seems to have been its unfortunate association with their neglect of prayer, which was excused, however, by its being unintentional. It would appear that the hour they awoke was *makrûh*—that is to say, a time which was too late for the previous prayer and too early for the next, hence "inappropriate" or "disapproved"; so they marched on until this inappropriate time had passed. This explains their departure in so unusual a manner.

From this has been deduced the practice of making a worshipper change his place if he is overcome by drowsiness during the Friday sermon.

2. Probably Khallâd b. Râfi[c] b. Mâlik Al-Ansâri.

3. Apparently the man did not think that the clean dust mentioned in the Qur[s]ân was applicable to one in a state of janâbah, but only to minor ritual impurity. This hadîth embodies the ruling as to the validity of dry ablution in the case of major ritual impurity.

4. [c]Imrân the narrator of the hadîth.

5. مزادة = a double water-skin, derived from زاد (to increase), as compared with قربة a single water-skin. سطيحة is the same as مزادة. The narrator is doubtful as to which word was used.

"Once while we were on a campaign[1] with the Prophet ,Allâh bless him and give him peace) we journeyed until the night was spent, when we feel into the sweetest sleep possible for a traveller, only to be wakened by the sun's heat. The ·ss to awake was so and so[2]. then and so[3], then so and so[4] (Abu Rajâ's nomed them but ʿAuf forgot them)[5]—the fourth to wake being ʿUmar b. Al-Khattâb. As for the Prophet (Allâh bless him and give him peace) we never used to wake him if he was asleep, leaving him to wake himself, because we did not know what might be happening to him in his sleep[6].

«كُنَّا فى سَفَرٍ مَعَ النبىِّ صلى الله عليه وسلم وَإِنَّا أَسْرَيْنَا حَتَّى كُنَّا فى آخرِ اللَّيْلِ وَقَعْنَا وَقْعَةً وَلَا وَقْعَةَ أَحْلَى عِنْدَ المُسَافِرِ مِنْهَا فَمَا أَيْقَظَنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ (يُسَمِّيهِمْ أَبُو رَجَاءٍ فَنَسِىَ عَوْفٌ) ثم عُمَرُ بْنُ الخطابِ الرَّابِعُ ، وكانَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا نَامَ لَمْ نُوقِظْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ يَسْتَيْقِظُ ، لأَنَّا لَا نَدْرِى مَا يَحْدُثُ لَهُ فى نَوْمِهِ ،

Then when ʿUmar awoke and saw what had happened to the Faithful[7]. and being a stalwart man, he called the takbîr, raising his voice with it, and continued doing so until the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was awakened at the sound of it. Then when he awoke they complained to him of what had befallen them, and he said: 'There is no harm; proceed

«فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ ورأى مَا أَصَابَ النَّاسَ ، وكانَ رَجُلاً جَلِيداً ، فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَه بالتَّكْبِيرِ ، فمازالَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَه بالتَّكْبِيرِ حتى اسْتَيْقَظَ بِصَوْتِهِ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ شَكَوْا إِلَيْهِ الَّذِى أَصَابَهُمْ قال : لَا ضَيْرَ (أَوْ لَا

---

1. On the return from Khaibar according to Abu Hurairah's hadîth, or from Hudaibiyyah according to Ibn Masʿûd's.
2. Abu Bakr.
3. Probably ʿImrân the narrator himself.
4. Probably Dhû Mikhbar.
5. This .parenthesis is the words of the narrator and not ʿImrân's.
6. e.g. a revelation.
7. They had missed the hour of the morning-prayer.

AL-AZHAR REVIEW

Published By AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمـــــــة مختصر صحيح البخـــارى

الأستاذ ابراهيم حلمي الموجي

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

By

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The book of Dry Ablution

(Continued)

CHAPTER 6.

On the fact that clean dust serveth for a Muslim's ritual ablution, sufficing him in place of water;

and on Al-Hasan having said: "A dry ablution sufficeth him so long as he hath not suffered an accidental impurity";

and on Ibn ^{c}Abbâs having led the prayer while in a state of dry ablution;

and on Yahyâ b. Sa^{c}id having said: "There is no harm in performing prayer on saline soil[1], or using it for dry ablution."

We are informed by Musaddad, who had it from Yahyâ b. Sa^{c}id, who received it from ^{c}Auf, who was told it by Abu Rajâ, through ^{c}Imrân, who said:

كتاب التيمم (تابع ما قبله)

— ٦ —

بَابٌ : الصعيدُ الطيبُ وَضُوءُ المُسْلِمِ يَكْفيهِ مِنَ الماءِ ،

وقال الحسنُ : يُجْزِئُهُ التيممُ ما لَمْ يُحْدِثْ ،

وَأَمَّ ابْنُ عَبَّاسٍ وهُوَ مُتَيَمِّمٌ ،

وقال يحيى بن سعيد : « لَا بَأْسَ بالصَّلاةِ على السَّبَخَةِ والتَّيَمُّمِ بها » :

حدثنا مسدد قال حدثني يحيى بن سعيد قال حدثنا عوف قال حدثنا أبو رجاء عن عمران قال :

---

1. Low-lying land with salt on the surface, which renders it almost barren. The point is to show that land of this type, characteristic of Al-Madinah, has a surface suitable for dry ablution, some faqihs not being of this opinion.